دار الكتاب الصوفى
تقدم

الــنجــاه

في سيرة سيدنا رسول اللّه

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة
ومشيخة الطريقة العزمية
السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/
002 022 3901030

جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة والاقتباس والتصوير

محفوظة

لدار الكتاب الصوفى

التابعة لمشيخة الطريقة العزمية

١١٤ ش مجلس الشعب – القاهرة

ت : ٣٩٠١٠٣٠ فاكس : ٣٩٠٨٨٤٨

الطبعة الأولى

١٢ ربيع أول ١٤١٩

٦ يوليو ١٩٩٨م

رقم الإيداع

٩٥٤٢ / ٩٨

I.S.B.N.

977-5273-35-8

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، تحمده في السرَّاء لشهود جماله العلى ، ونحمده في الضَّراء لتحققنا بجلاله الرباني، فهو سبحانه نعم الرب لنا فى جميع أمورنا، وسعادتنا أن نكون نعم العبيد له فى كل أدوارنا.. لأنه لا يكون فى كونه ما لا يريد ، ولا يحدث فيه ما لا يشاء ، بل الكل بمراده ومشيئته كائن ، وعن حضرة علمه صادر.. أحاط بكل شىء علمًا، وأحصى كل شىء عددًا.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى تشرفت به قلوب العارفين ، وتجملت بذكره وبالبشائر به ﴿ ﷺ وآله﴾ ألسنة الملائكة والأنبياء والمرسلين ، فصلّ اللهم عليه وآله وسلم صلاة بها تنفتح لنا أبواب الوصول لحضرتك القدسية ، وتفاض علينا سوابغ فيوضاتك الجمالية الكمالية ، وافتح بها مزيد السعادة ودوام البشائر ، واعطنا بها فضلا منك ، وكرم رضوانك الأكبر الذى لا سخط بعده.. إنك مجيب الدعاء.

وبعد..

تقدم دار الكتاب الصوفى التابعة لمشيخة الطريقة العزمية الطبعة الأولى من هذا السِفر الجليل ، الذى طال انتظاره بعنوان : (النجاه فى سيرة رسول الله) للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم عليه السلام.

لقد جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنور سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ يلتمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه ، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخلقه وعلمه ، ومع أهم استطاعوا الوصول إلى شيء من المعرفة،فقد فاقم حتى الآن كمال المعرفة ، وأمامهم جهاد طويل ، وبعد شاسع ، وطريق لا نهاية له.

والنبوة هبة الله وفضله لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للصفوة من الخلق ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وسيدنا رسول الله ﴿ ﷺ

وآله﴾ أُعِدَّ لأن يحمل رسالة أكمل دين للعالم أجمعه، أحمره وأسوده ، إنسه وجنه ، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وشمس الهداية وحده إلى يوم الدين.

وأفضل القربات ، وأكمل الصالحات معرفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ودراسة سيرته العطرة ، والتفقه بها ، والاتعاظ بأحداثها ، وإدراك عبرها ، لتكون الصورة الواضحة ، والمثل الحى فى حياة كل مسلم ومسلمة ، لاعتبار الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة، لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ نور وهّاج أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية ؛ فانجابت كما ينجاب الغمام ، وهدى من الله أرسله إلى هذه الإنسانية الضالة فانتشلها من ضيعة ، وانتشاها من هلاك ، وأنقذها مما كانت تتخبط فيه من دياجير الظلام.

كانت حياته ﴿ﷺ وآله﴾ صفحة عريضة من صفحات الجهاد لإنقاذ هذه البشرية ، ومثلاً صادقاً من مثل البر والمرحمة،وسيرة عالية سامية فى معاملة الخالق ومعاملة المخلوق، تلمع أضواء هذه السيرة فى كتاب الله الذى يقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ وفى آفاق الكتب الوثيقة التى خطها العلماء من القدم ، متضمنة نفحات من هذا العطر ، وومضات من هذا الإشراق.

كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هو المثل الأعلى للصحابة الكرام ، لم يغب عنهم نفسًا ولا لحظة ، فلم يدنوا شيئًا من سيرته ﴿ﷺ وآله﴾ فى حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، لذلك نجد أول كتاب عن سيرة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دونه عروة بن الزبير (٩٢ هـ) ، ثم تلاه أبان بن عثمان (١٠٥ هـ) ، ثم شرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) ، ثم ابن شهاب الزهرى (١٢٤ هـ) ، ثم عبد الله بن أبى بكر بن حزم (١٣٥ هـ) ، وقد بادت كتب هؤلاء جميعًا ، لم يبق منها إلا أشلاء متناثرة فى بطون كتب التاريخ كتاريخ الطبرى.

ثم جاءت طبقة من المؤلفين كان أشهر رجالها موسى بن عقبة (١٤١ هـ) ، ومعمر بن راشد (١٥٠ هـ) ، ومحمد بن إسحق (١٥٢هـ) ، وكتابه فى السيرة هو أشهر هذه الكتب وأعلاها مقامًا ، وأشدها وثوقاً ، والذى ألّفه فى أوائل أيام العباسيين.

وجاءت طبقه أخرى كان منها زياد البكائى (١٨٣ هـ) والواقدى صاحب المغازى (٢٠٧ هـ) وابن هشام (٢١٨ هـ) ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠ هـ).

وقد افتَّن المؤرخون حول هذه السيرة الكريمة افتناناً كبيرًا ، فمنهم من ألّف فى أعلام نبوته كالبيهقى وأبى نعيم والقاضى عبد الجبار وابن ظفر ، ومنهم من ألّف فى شمائله وأحواله كالترمذى والسيوطى والزرقانى والقاضى عياض ، ومنهم من أرّخ له ﴿ﷺ وآله﴾ فى أطوار حياته ومراحل عمره كابن إسحق وابن هشام وابن سيد الناس والصالحى وصاحب السيرة الحلبية ، ومنهم من أدار كتابه على معجزاته ﴿ﷺ وآله﴾ كابن دحية، ومنهم من ألّف فى صحابته كابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر.. وغيرهم كثير.

وتوالت كتب السيرة عبر التاريخ حتى عصرنا هذا حيث ظهر العديد من كتب السيرة منها كتاب (حياة محمد ﴿ﷺ وآله﴾) للدكتور محمد حسين هيكل الذى عرض السيرة فى صورة رواية ، وكتاب الشيخ محمد الخضرى (نور اليقين فى سيرة المرسلين) الذى حذف أحداثاً كثيرة من السيرة خوفاً من إنكارها لدى بعض الناس لوجود شبهات حولها.

وقام حجة الإسلام والمسلمين الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم ﵇ بإملاء هذا السِفر العظيم للسيرة النبوية بصورة شاملة كاملة جعلته من أعظم المصنفات فى السيرة شانًا ، وأعلاها مترلة ، وأكرمها موضوعًا وأحلاها أخبارًا ، وأنداها على القلوب روحًا وذكرًا ، حيث جمع فيه رضى الله عنه النبوات المبشرة به ﴿ﷺ وآله﴾ فى كتب السابقين وتناول حياته من يوم مولده ، إلى أن أكمل الله

به دينه ، وأتم برسالته للبشر نعمته ، وترك المسلمين على الجلية الواضحة ، والشريعة السمحة المطهرة ، وقد عرض الإمام ﷺ مغازى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بصورة مفصلة مع ما ارتبط بها من أحداث ومواقف ربط بينها وبين أحداث عصرنا.. حتى نستلهم العبرة ، ونستقى الدروس.

وقد وفِّق الإمام أبو العزائم ﷺ فى تنسيق الحوادث وربطها بعضها ببعض ، والرد على الشبهات التى تثار حول السنة بما يتوافق مع العقل ويحفظ عظمة وجلال مقام النبوة. فجاء كتابه عقدًا منضدًا ، وسلسلة متينة محكمة الحلقات ، وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض فى كل موقف من مواقف السيرة الشريفة ببيان قوى واضح ، يجعل القارىء مطمئن النفس، رضىّ القلب ، قرير العين ، يستمتع بما يقرأ ، ويثلج صدره ببرد اليقين.

نفعنا الله بعلوم إمامنا وأسراره ومدده ، وجمعنا معه على سيدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الدنيا والآخرة ، وأبتهل إلى الله تعالى أن يمدنى دائمًا بالتوفيق ، ويلحظ عملى بعين القبول إنه حميد مجيد.

الخليفة الثالث

السيد محمد علاء الدين ماضى أبو العزائم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الظاهر بالاستجلاء فى الكائنات بالآيات ، وفى المشكاة بالتجليات ، وفى الصورة الكاملة بالأنوار ، التى استغرقت الحقيقة الإنسانية حتى أخفتها بظهورها ، فظهرت أنوار الصورة حاجبة لظلال تلك الحقيقة الإنسانية ، فعلا وحدثا معنى قوله تعالى:

﴿ قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾ (الأنفال : ١٧).

فأشرقت حقيقة أنوار الظاهر فى الظهور ، وأنوار الظهور فى المظهر.

والصلاة من الاسم الأعظم ، فى عظمة الكمال ، وعزة الكبرياء ، من غير ملاحظة لشئون ، ولا رعاية بعيون ، على عين بدء نور الظهور ، أول الإرادة ، من لأجله آدم ومن سواه ، ومن لأجله الكون أدناه وأعلاه.

والصلاة من مجلى الذات على مظهر الجمعية فى التفرقة ، والتفرقة فى الجمعية ، فتمم مكارم الأخلاق ، ليكمل الحقائق التى قام بها من أقامهم الله قبل إشراق شمسها.

والصلاة والسلام من حضرة الأسماء والصفات فى تتريل التجليات على الفرد الكامل ، والإنسان الأكمل سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، من حمده الله ، وملائكته ، وأهل الإيمان به فى الدنيا ، والعالم أجمع يوم القيامة ، وسر التحقيق فى الإشارة بقول الله تعالى :

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ (الإسراء : ٧٩).

أكتب على صفحات هذه الأوراق لتشرق أنوار تلك المعانى مجملة للأخلاق ، وتلوح أسرارها للنفوس ، فتشرق بها على مشاهد أنوار القدوس، والحمد لله ، قال تعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ

جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الرعد : ١٧)

وهذا كلام الله الأزلى ، وقد أنزل ، ولا يزال الإنزال ، من الأزل إلى أبد الأبد ، ولكل قلب بمقدار أوديته ، والله أسأل أن يمنحنا الوسعة التى يدوم بها هذا السيل سارياً فى أودية القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى.

ويجعلنا ممن ينظرون بعيون القلوب أكثر من النظر بعيون الرأس ، وأن نكون حاضرين القلب مع الله تعالى ، صادقين فى التوجه ، مخلصين السرائر ، حتى ننال الرضا والمعرفة ، ويبعدنا عما يوجب الاختلاف ويؤدى إلى الخلاف.

ولقد شرح الله صدرى ، أن أكتب عن تاريخ ظهور هذا السيد الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ ونسبة الشريف ، وما ورد من البشائر بمبعثه ﴿ﷺ وآله﴾ على ألسنة الرسل وفى الكتب السماوية مما هو ثابت نقلاً ومقبول عقلاً .

اللهم إنى كتبت ما كتبت ابتغاء مرضاتك ، واتقاء سخطك سبحانك ، ورحمة لبنى الإنسان ، وقياماً بواجب الإسلام علىّ بنص قولك سبحانك : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾. (آل عمران : ١٠٤).

فأسألك يامجيب الدعاء أن تنفعنى بنيتى وقصدى ، وأن تنفع بعملى هذا ، وأن تحفظنى يالهى بحفظك الذى حفظت به الذكر الحكيم من البدع والضلال ومن سوء الحال والمآل.. إنك مجيب الدعاء... وأن تكرم أهلى وأولادى وأخوتى وإخوانى المسلمين جميعاً بالهداية والعناية.. إنك على كل شيىء قدير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل وصحبه وسلم

محمد ماضى أبو العزائم

الباب الأول

- النور المحمدى أصل الوجود.

- البشارات بنبوته ﴿ﷺ وآله﴾ فى الكتب المقدسة.

- ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء.

الفصل الأول

النور المحمدى أصل الوجود

إن الله تقدست ذاته ، اقتضت أسماؤه وصفاته. أن يتجلى ظاهراً بالتتريه ، علياً مقدساً عن التشبيه. فصاغ من نور أسمائه وصفاته التى اقتضى كمالها الظهور ، الحقيقية المصطفوية التى هى نور النور ، فكانت سدرة غشيان جماله العلى ، مواجهة أحاطها الله بضيائه الجلى.

كانت جوهرة الحضرة الأحمدية مخصوصة بالأزلية ، ينظر الله إليها نظر تفريد لتلك الدرة النورانية ، و لم يكن ثم زمان ولا مكان ، ولا أفلاك ولا أكوان. فهو ﴿ﷺ وآله﴾ سدرة منتهى علوم الخلائق ، ومنه تصدر العوارف والرقائق. ثم تنقل ﴿ﷺ وآله﴾ من عالم الغيب والبطون ، إلى عالم الظهور والشئون. وأولوا العزم عنه نواب مبينون لنوره ، حتى أشرقت شمس ذاته المحمدية تنير العالمين بضياء علومه. فهو الأب الأكبر لكل مظهر وظهور من تلك الحقائق ، وهو الأول بدءاً الممد بروحه النورانية كل سابق.

أشرقت شمسه قبيل التجلى سدرة ووجهت من المتجلى
كنت ياسيدى ولم يك عرش فوق ماء تضىء نورك أصلى
للعلى العظيم كنت مرادا فرد ربى ، ونور وجهك مجلى
نظرة ياضياء قلبى بود أحينى سيدى أدم لى وصلى
فى حمى طيبة أعيش مهنى فى صفاء الوصال من غير فصل

١- يروى أن الله تعالى لما خلق سيدنا آدم عليه السلام قال له : [يآدم ارفع رأسك فرفع رأسه فرأى نور محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فى سرادق العرش فقال يارب ما هذا النور ؟ قال : هذا النور نبى من ذريتك اسمه فى السماء أحمد وفى الأرض محمد ولولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضا].

٢- روى الحاكم فى صحيحه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ (لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد ﴿ﷺ وآله﴾ إلا ما غفرت لى ، فقال الله تعالى : وكيف عرفت محمداً و لم أخلقه ؟ قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيدك — أى من غير واساطة أم و أب — ونفخت فىّ من روحك — أى من الروح المبتدأة منك - المتشرفة بالإضافة إليك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله تعالى : صدقت ياآدم إنه لأحب الخلق إلىّ وإذا سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك). وذكر ذلك جماعة من علماء التفسير والقاضى عياض فى الشفا.

٣- وروى أبو الشيخ والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام آمن بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ ومر أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن.

٤- وروى ابن عساكر عن سليمان الفارسى رضى الله تعالى عنه قال : هبط جبريل عليه السلام على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : إن ربك يقول لك إن كنت اتخذت إبراهيم خليلا فقد اتخذتك حبيبا، وما خلقت خلقا أكرم على منك ، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومترلتك عندى ، ولولاك ما خلقت الدنيا.

٥- ولما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام كان لاستقبالهم لذلك النور المحمدى ، فالمسجود له حقيقة هو الله تعالى وآدم عليه السلام كالقبلة ، وتلك القبلة القصد الأعظم منها إنما هو النور المحمدى الذى فى جبهته ، ولما حملت حواء بسيدنا شيث عليه السلام انتقل ذلك النور إليها ثم لما وضعته ظهر ذلك النور فى جبهته.

وكان شيث وصىّ سيدنا أدم عليه السلام على ذريته ، وأوصاه سيدنا آدم عليه السلام ألا يضع ذلك النور إلا فى المطهرات من النساء ، ولم تزل هذه الوصية جارية فيما بينهم تنتقل من قرن إلى قرن إلى أن وصل ذلك النور إلى جده عبد المطلب ، ثم إلى ابنه عبد الله ثم إلى آمنة أمه ﴿ﷺ وآله﴾.

وطهر الله ذلك النسب الشريف من سفاح الجاهلية ، فقد روى البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (ما ولدنى سفاح الجاهلية شيىء.. ما ولدنى إلا نكاح الإسلام) يعنى بعقد صحيح.

وصح عنه ﴿ﷺ وآله﴾ فى أحاديث كثيرة أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان في صلب سيدنا نوح عليه السلام حين ركب السفينة ، وفى صلب سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قذف به فى النار ، وأنه المراد من قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة : ١٢٩) ، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى عليه السلام).

يا نور عالين من أزل إلى أبد … أشرقت من أزل مجلى سنا الأحد
شمس تضيء قبيل البدء ظاهرها … نور التجلى بلا كيف.. ولا عدد
أشرقت فى قدسه والذات فى عما … أظهرت ياسيدى سر البها الصمد
من أجل ذاتك كل الكون أنشأه … كنزا عليا عن الآباء والولد
قد كنت نورا ولا عرش ولا ملك … حتى ظهرت بفيض الود والمدد

الفصل الثانى

البشارات بنبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الكتب القديمة

قيل فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٣٠) ، أن عبد الله بن سلام ﷺ دعا ابنى أخيه مسلمة ومهاجر إلى الإسلام فقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة : [إنى باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه محمد من آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم مسلمة وأبى مهاجر] ، فأنزل الله تعالى الآية.

واسمه فى التوراة أيضاً [حمياطا] أى يحمى الحرم من الحرام، و[قدوميا] أى الأول السابق و [أحيد] وقيل [أريد] أى يمنع نار جهنم عن أمته ، و [طاب طاب] أى طيب.

وفيها أيضاً : [محمد حبيب الرحمن] ووصفة فيها بـ [الضحوك] أى طيب النفس ، وفيها أيضاً : [محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره إلى طابه ، وملكه بالشام]

والتوراة كلمة عبرية مأخوذة من التورية وهى : كتمان السر بالتعريض لأن أكثرها تعاريض من غير تصريح.

ومن ذلك ما جاء عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة. قال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : [ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك بالمتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى

الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفا]

قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحبار ، فسألته فما أخطأ فى حرف. وفى رواية عن كعب : [وأعطى المفاتيح ليبصرون أعيناً عوراً ، ويسمعن آذاناً صمّاً ، ويقيم به سنة معوجة ، يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً].

وعن بعض أحبار اليهود أنه قال : وقفت على جميع ما وصف به فى التوراة إلا هذين الوصفين.. وكنت أشتهى الوقوف عليهما، فجاءه ﴿ﷺ وآله﴾ شخص يطلب منه ما يستعين به ، فذكر له أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لم يكن عنده ما يعينه به ، فقلت : هذه دنانير تدفعها له وتكون على كذا من التمر ليوم كذا ، ففعل. فجئت قبل الأجل بيومين أو ثلاث ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت : ألا تقضينى حقى يامحمد ، إنكم يابنى عبد المطلب أهل مطل ، فقال لى عمر : أى عدو الله تقول لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما أسمع ، وهمّ بى ، فنظر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى سكون وتؤدة وتبسم وقال : (أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك ياعمر.. أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب ، اذهب ووفه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما روعته) ، فأسلم اليهودى.

البشارات الواردة بالتوراة

ولقد ذكر ﴿ﷺ وآله﴾ فى التوراة فى مواضع شتى تعتبر فى غاية القوة والواضح ، فمنها تسع بشارات هى كالآتى :

ما جاء فى الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية.. [١٧ – فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ، ١٨ – وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من وسط إخوتهم وأجعل كلامه من فمه ، ويكلمهم بكل شيىء آمره به ، ١٩ – ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ، ٢٠– فأما النبى الذى يجترىء بالكبرياء ويتكلم فى اسمى ما لم

آمره بأنه يقوله أم باسم آلهة غيرى فليقتل ، ٢١ – فإن أجبت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، ٢٢- فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب و لم يحدث فالرب لم يكن يتكلم به بل ذلك النبى صورة فى تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه].

وفى قوله : من إخوهم رد على النصارى الزاعمين أن الرسول المذكور فى التوراة هو المسيح عليه السلام. ووجه الرد أن المسيح ليس من إخوهم بل منهم لأنه من نسل داود ، بمثل هذا يرد على بعض اليهود الزاعمين أن النبى المذكور فى التوراة هو يوشع بن نون عليه السلام.

هذا ولفظ مثلك فى هذا الجزء ، فإن هذا النبى لا يجب أن يكون من بنى إسرائيل بنص الآية العاشرة من الإصحاح الرابع والثلاثين من سِفر التثنية.

٢- [و لم يقم بعد ذلك فى بنى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه] الآية الحادية والعشرون من الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر التثنية : [هم أغارونى بما ليس إلها أغاظونى بأباطيلهم فأنا أغيرهم بما ليس شعبا ، بأمة غبية أغيظهم].

والمراد بالأمة الغبية عرب الجاهلية لأهم كانوا فى غاية الجهل والضلال ، وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية. ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام وكانوا محقرين عند اليهود لكوهم من أولاد هاجر الجارية.

فمقصود الآية أن بنى إسرائيل أغارونى بعبادة المعبودات الباطلة ، فأغيرهم باصطفاء الذين هم محقرون وجاهلون.

فوفى بما وعد ، فبعث الله فى العرب النبى ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة : ٢).

٣-الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية ، الآيه الثانية فقال : [جاء الرب من سيناء وأشرق من ساعير وتلألأ من جبل فاران.. وأتى من ربوات القدس وعن مجيئه نار شريعته لهم].

فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، وتلألأ من جبل فاران إنزاله القرآن الكريم على سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، لأن فاران جبل من جبال مكة.

ففى الإصحاح الحادى والعشرون من سفر التكوين الآية العشرون يتحدث عن إسماعيل.. [وكان الله مع الغلام ، فكبر، وسكن فى البرية وكان راميا بالقوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمة زوجة من أرض مصر].

ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كانت إقامته بمكة.

٤- الآية العشرين من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين وعد الله فى حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام : [وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا ، اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة].

وقوله : أجعله لأمه كبيرة يشير إلى سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه لم يكن من ولد إسماعيل من كان له أمة كبيرة غيره ﴿ﷺ وآله﴾.

وقد قال الله تعالى ناقلا دعاء إبراهيم فى حقه فى قرآنه المجيد : ﴿ **رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩** ﴾ (البقرة : ١٢٩)

الآية العاشرة من الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين : [لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب].

وكلمة (شيلون) بمعنى الذى له الكل أو الذى هو له ، وفى هذه الآية دلالة على أن مجيء سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ بعد تمام حكم موسى عليه السلام ، لأن المراد من قضيب يهوذا هو سلطة شريعة موسى لأنه بعد يعقوب عليه السلام ما جاء صاحب شريعة إلى زمان موسى إلا هو عليه السلام.

والمراد بمشترع هنا هو عيسى عليه السلام فليس هناك بعد موسى صاحب شريعة إلا عيسى وبعدهما ما جاء صاحب شريعة إلا محمد ﴿ﷺ وآله﴾.

٦- المزمور الخامس والأربعون : [١- أقاض قلبى بكلام صالح ، متكلم أنا بإنشائى للملك ، لسانى قلم كاتب ماهر. ٢- أنت أبدع جمالا من بنى البشر ، انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الأبد. ٣- تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك. ٤- وبجلالك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة والسر فتريك يمينك مخاوف. ٥- نبلك المسنونة فى القلب أعداء الملك ، شعوب تحتك يسقطون. ٦- كرسيك ياالله إلى دهر الدهور قضيب استقامة قضيب ملكك. ٧- أحببت البر وأبغضت الإثم من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك. ٨- كل ثيابك مر وعود وسليخة من قصور العاج سرتك الأوتار. ٩- بنات ملوك بين حظياتك جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير. ١٠ – اسمعى يابنت وانظرى وأميلى أذنك وانسى شعبك وبيت أبيك. ١١ – فيشتهى الملك حسنك لأنه هو سيدك فاسجدى له. ١٢- وبنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية. ١٣ – كلها مجد ابنة الملك فى خدرها. ١٤- منسوجة بذهب ملابسها بملابس مطرزة تحضر إلى الملك فى إثرها عذارى صاحباتها مقدمات إليك. ١٥ – يحضرون بفرح وابتهاج يدخلن إلى قصر الملك. ١٦- عوضا عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رءوساء فى كل أرض. ١٧- اذكر اسمك من جيل إلى جيل من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد].

يبشر داود ﷺ فى هذا المزمور بنبى يكون ظهوره بعد زمانه و لم يظهر عند اليهود نبى موصوف بهذه الصفات وهى :

كونه أفضل البشر.

كون النعمة منسكبة على شفتيه.

كونه متقلدا سيفه.

كونه قويا.

كونه ذات حق ودعة وصدق.

كونه هدية تتوهج بالعجب.

كونه نبله مسنونة.

سقوط الشعوب تحته.

كونه محبا للبر ومبغضا للإثم.

خدمة بنات الملوك إياه.

إتيان الهدايا له.

انقياد كل أغنياء الشعب له.

كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم.

كون اسمه مذكورا من جيل إلى جيل.

مدح الشعوب إياه إلى دهر الداهرين.

وهذه الأوصاف كلها تجتمع فى سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ للآتى :

أ- قال أبو هريرة ﵁ : ما رأيت شيئا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ كالشمس فى الجدار.

وعن أم معبد رضى الله عنها قالت فى بعض ما وصفته به : (أجمل الناس من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب).

ب – وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) أى لا أقول ذلك فخرا بل تحدث بنعمة ربى.

ج – أنه لا خلاف على أن الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ كان أفصح الناس.

د- قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ ﴾ (الأحزاب : ٥٦).

ه – قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (أنا رسول الله بالسيف)

و- كانت قوته الجسمانية على الكمال ، قال ابن عمر رضى الله عنهما : ما رأيت أشجع ولا أجود من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وقال على كرم الله وجهه : (كنا إذا حمى الوطيس – البأس – واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا).

ز- كانت الأمانة والصدق من الصفات الأصيلة له ﴿ﷺ وآله﴾ كما قال النضر بن الحرث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم إنه ساحر لا والله ما هو بساحر).

ح- رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة تراب. فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه.. وكان الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : (ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا).

ط- إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا فى حياته.. وهكذا سائر الصفات الباقية تنطبق على هذا السيد الكريم المبعوث رحمة للعالمين ﴿ﷺ وآله﴾.

٧- الإصحاح الثانى والأربعين من أشعياء : [٨- أنا الرب هذا اسمى ومجدى لا أعطيه لأخر وتسبيحى للمنحوتات. ٩- هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها ، قيل أن تنبت أعلمكم بها. ١٠- غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض أيها المنحدرون فى البحر وكل ما فيه والجزائر وسكانها. ١١- لترفع البرية ومدنها وصوتها ، الديار التى سكنها قيدرا ، لترنم سكان سالع من رءوس الجبال ليهتفوا. ١٢- ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر. ١٣- الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه. ١٤- قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت كالوالدة أصيح أنفخ وأنخر معا. ١٥- أحزب الجبال والآكام وأجفف كل عشبها وأجعل الأنهار يبسا وأنشف الآجام. ١٦- وأسير العمى فى طريق لم يعرفوها ، فى مسالك لم يدروها ، أمشيهم ، أجعل الظلمة أمامهم نورا ، والمعوجات مستقيمة ، هده الأمور أفعلها ولا أتركهم. ١٧- قد ارتدوا إلى الوراء يخزى خزيا المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا]

تبدأ الآية التاسعة من الإصحاح فى الإخبار عن المستجدات فى المستقبل ولذلك جاء فى الآية الثالثة والعشرون : [من منكم يسمع هذا، يصغى ويسمع لما بعد].

والترنيمة الجديدة عبارة عن العبادة على نهج جديد والتى هى فى الشريعة الإسلامية. وتعميمها على سكان أقاصى الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبرارى إشارة إلى عموم نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ ولفظ قيدار أقوى إشارة إليه ﴿ﷺ وآله﴾ لأن سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ من أبناء قيدار بن إسماعيل ، وقوله : (من رءوس الجبال ليهتفوا) إشارة إلى العبادة المخصوصة إلا وهى الحج حيث يهتف الألوف (لبيك اللهم لبيك). وقوله : الرب

كجبار يخرج كرجل حروب ،يشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره.

وفى الآية السابعة عشر إشارة إلى العرب ، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام

٨- الإصحاح الرابع والخمسون من أشعياء : [١- ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل ، قال الرب. ٢- أوسعى مكان خيمتك ولتبسط شقق مساكنك ، لا تمسكى أطيلى أطنابك وشدى أوتادك. ٣- لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمما ويعمر مدنا خربة. ٤- لا تخافى لأنك لا تخزين ولا تخجلى لأنك لا تستحين فإنك تنسين خزى صباك وعار شر ملك لا تذكرينه بعد.

٥-لأن بعلك هو صانعك رب الجنود اسمه ووليك قدوس إسرائيل إله كل الأرض يدعى. ٦- لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب وكزوجة الصبا إذا رذلت قال إلهك. ٧- لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك. ٨- بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وبإحسان يدى أرحمك قال وليك الرب. ٩- لأنه كمياه نوح هذا لى كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك. ١٠ – فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحسانى فلا يزول عنك وعهد سلامى لا يتزعزع قال راحمك الرب. ١١- أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية هاأنذا أبنى بالأثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسسك ١٢- وأجعل شرفك وأبوابك حجارة بهرمانية وكل تخومك حجارة كريمة. ١٣ – وكل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيرا. ١٤- بالبر تثبتين بعيدا عن الظلم فلا تخافين ، وعن الارتعاب فلا يدنو منك. ١٥- ها إنهم يجتمعون اجتماعا ليس من عندى ، ومن اجتمع عليك فإليك يسقط. ١٦ ها أنا ذا قد خلقت الحداد الذى ينفخ الفحم فى النار ويخرج آله لعمله وأنا خلقت المهلك ليخرب.

١٧- كل آلة صوبت ضدك لا تنجح ، وكل لسان يقوم عليك فى القضاء تحكمين عليه ، هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندى يقول الرب]

المراد بالعاقر مكة المعظمة ، لأنها لم يظهر منها نبى بعد إسماعيل عليه السلام ، ولم يترل فيها وحى ، بخلاف أورشليم لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون وكثير فيها نزول الوحى.

وبنو المستوحشة هم أولاد هاجر لأنها كانت بمترلة مخرجة عن البيت ساكنة فى البرية.

ولذلك وقع فى حق إسماعيل فى وعد الله لهاجر فى الإصحاح السادس عشر الآيه الثانية من سفر التكوين : [يكون إنسانا وحشيا] ، وبنو ذات البعل هم أولاد سارة ، فالخطاب هنا من الله إلى مكة آمرا لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر ، لأن كثيرا من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة ، فحصلت الفضيلة لها ، بفضيلة أهلها.

وقد وفى الله بما وعد بأن بعث سيدنا محمدا ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ أفضل البشر خاتم الأنبياء من أهلها ومن أولاد هاجر ، وهو المراد بالحداد الذى ينفخ فى النار وهو المهلك الذى خلق لإهلاك المشركين.

٩- فى الإصحاح الخامس والستين من أشعيا : [أصغيت إلى الذين لم يسألوا وجدت من الذين لم يطلبونى فقلت ها أنا ذا لأمة لم تسم باسم الرب. ٢- بسطت يدى طول.

النهار إلى شعب متمرد سائر فى طريق غير صالح وراء أفكاره. ٣- شعب يغيظنى بوجهى دائما يذبح فى الجنات وينحر على الآجر.٤- يجلس فى القبور ويبيت فى المدافن يأكل لحم الخترير فى آنيته مرق لحوم نجسة. ٥- يقول قف عندك لا تدن مني لأنى أقدس منك هؤلاء دخان فى أنفى نار متقدة كل النهار. ٦- ها قد كتب أمامى لا أسكت بل أجازى ، أجازى فى حضنتهم] فالمراد فى الآية الأولى بالذين لم يسألوا والذين لم يطلبونى العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه.

فما كانوا سائلين عن الله ، وطالبين له قال الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمران : ١٦٤).

البشارات الواردة بالإنجيل

ذكر الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الإنجيل فى عدة مواضع أختار منها ستة بشارات كالآتى:

فى الإصحاح الثالث من أنجيل متى : [١- وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية. قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات].

وفى الإصحاح الرابع من إنجيل متى هكذا : [١٢- ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم أنصرف إلى الجيل... ١٧- ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات... ٢٣- وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت]

وفى الإصحاح السادس من أنجيل متى فى بيان الصلاة التى علمها عيسى عليه السلام تلاميذه هكذا [ليأت الملكوت] ، ولما أرسل الحواريين إلى البلاد الإسرائيلية للدعوة والوعظ وصاهم بوصايا : [وفيم أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين أنه قد اقترب ملكوت السموات] ، كما هو مصرح به فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى.

ووقع فى الإصحاح التاسع من إنجيل لوقا هكذا : [ودعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراض... وأسلهم ليكرزوا بملكوت الله يشفو المرضى].

وفى الإصحاح العاشر من إنجيل لوقا هكذا : [٨ – وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم فكلوا مما يقدم لكم. ٩ – واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله. ١٠ – وأية مدينة دخلتموها و لم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا أنه قد اقترب منكم ملكوت الله]

فظهر أن كلاً من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشروا بملكوت الله ، وبشر عيسى عليه السلام بالألفاظ التى بشر بها يحيى عليه السلام فعلم أن هذا الملكوت كما لم يظهر فى عهد يحيى عليه السلام ، فكذلك لم يظهر فى عهد عيسى ولا فى عهد الحواريين السبعين بل كل منهم بشّر به ومخبر عن فضله ومترج لمجيئه فلا يكون المراد بملكوت الله طريقة النجاة التى ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام ، وإلا لما قال عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون أن ملكوت الله قد اقترب.

وما علم التلاميذ أن يقولوا فى الصلاة وليأت ملكوتك. لأن هذه طريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته فهو (أى ملكوت الله) عبارة عن طريق النجاة التى ظهرت بشريعة سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فهؤلاء كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة.

ولفظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على أن هذا الملكوت يكون فى صورة السلطنة ، ولا فى صورة المسكنة وأن المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لأجله ، وأن مبنى قوانينه لابد أن يكون كتاباً سماوياً ، وكل من هذه الأمور يصدق على الشريعة المحمدية.

وأما القول بأن المراد بهذا الملكوت شيوع الملة المسيحية فى جميع العالم ، وإحاطتها كل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام ، فتأويل ضعيف خلاف الظاهر ، ويرده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام فى الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى ، مثلاً قال : [يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيدا فى حقله]. ثم قال : [يشبه ملكوت السموات حبة

خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله] ، ثم قال : [يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وعبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع]. فشبه ملكوت السموات بإنسان زراع لا لينمو الزراعة وحصادها ، وكذلك شبهه بحبة الخردل لا بصيرورتها شجرة عظيمة ، وشبهه بخميرة لا باختمار جميع الدقيق.

وكذا يرد هذا التأويل قول عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول فى الإصحاح الحادى و العشرين من إنجيل متى هكذا : [لذلك أقول إن ملكوت الله يترع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره]، فإن هذا القول يدل على أن المراد بملكوت السموات طريقة النجاة نفسها، لا شيوعها فى جميع العالم وإحاطتها كل العالم، وإلا لا معنى لترع الشيوع والإحاطة من قوم وإعطائهما لقوم آخرين.

فالحق أن المراد بهذا الملكوت هى المملكة التى أخبر عنها دانيال عليه السلام فى الباب الثانى من كتابه، فمصداق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ والله أعلم وعلمه أتم

٢-فى الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى هكذا : [٣١- قدم لهم مثلا آخر قائلا يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله. وهى أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها]. فملكوت السموات طريقة النجاة التى ظهرت بشريعة سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه نشأ فى قوم كانوا حقراء عند العالم لكونهم أهل البوادى غالبا، وغير واقفين على العلوم والصناعات، محرومين عن اللذات الجسمانية، والكلفات الدنيوية عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر، فبعث الله منهم سيدنا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ فكانت شريعته فى ابتداء الأمر.

بمترلة حبة خردل أصغر الشرائع بحسب الظاهر، ولكنها لعمومها نمت فى مدة قليلة وصارت أكبرها وأحاطت شرقا وغربا، حتى إن الذين لم يكونوا مطيعين لشريعة من

الشرائع تشبثوا بذيل شريعته ﴿ ﷺ وآله﴾. ٣- فى الإصحاح العشرين من إنجيل متى هكذا : [١- فإن ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه. ٢- فاتفق مع العملة على دينار فى اليوم وأرسلهم إلى كرمه. ٣- ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق بطالين. ٤- فقال لهم اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا. ٥- وخرج أيضا نحو الساعة السادسة و التاسعة وفعل ذلك. ٦- ثم نحو الساعة الحادية عشر خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم لماذا وقفتم هاهنا كل النهار بطالين ؟. ٧- قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. ٨- فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله ادع الفعلة واعطهم الأجرة مبتداء من الآخرين إلى الأولين. ٩- فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا دينار دينارا. ١٠- فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا. ١١- وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت. ١٢- قائلين هؤلاء الآخرون.

عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر. ١٣- فأجاب وقال لواحد منهم : ياصاحب ما ظلمتك أما اتفقت معى على دينار. ١٤- فخذ الذى لك واذهب فأنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك. ١٥- أوما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى أم عينك شريرة لأنى أنا صالح. ١٦- هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون].

فالآخرون أمة سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فهم يقدمون فى الأجر ، وهم الآخرون الأولون كما قال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : (نحن الآخرون السابقون) وقال : (إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى).

فى الإصحاح الحادى والعشرون من إنجيل متى هكذا : [٣٣- اسمعوا مثلا آخر كان. إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه إلى

كرامين وسافر. ٣٤- ولما قرب. وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين وسافر ليأخذ إثماره. ٣٥- فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا. ٣٦- ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين من الأولين ففعلوا هم كذلك. ٣٧- فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا : يهابون ابنى.

٣٨- وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوراث هلموا نقلته ونأخذ ميراثه. ٣٩- فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. ٤٠- فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين. ٤١- قالوا له : أولئك الأردياء يهلكم هلاكا رديا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الإثمار في أوقاها. ٤٢- قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كل هذا وهو عجيب في أعيننا. ٤٣- لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يترع منكم ويعطي لأمة تعمل إثماره. ٤٤- ومتى سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه هو يسحقه. ٤٥- ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم]

أقول إن رب بيت كناية عن الله ، والكرم كناية عن الشريعة ، وإحاطتة بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهى ، وأن الكرامين الطاغين كناية عن اليهود كما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم ، والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام ، والابن كناية عن عيسى عليه السلام وقد قتله اليهود أيضا على حد قولهم.

والحجر الذى رفضه البناءون كناية عن سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ والأمة التى تعمل أثماره كناية عن أمته ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهذا هو الحجر الذى كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط عليه هو سحقه ، والقول أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام غير صحيح لوجوه :

الوجه الأول : أن داود عليه السلام قال فى المزمور المائة والثامن عشر هكذا : [الحجر الذى رذله البناءون هو صار رأسا للزاوية. من قبل الرب كانت هذه وهى عجيبة فى أعيننا]. فلو كان هذا الحجر هو عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام رأس الزاوية فأى عجب فى أعين اليهود عموما لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية سيما فى عين داود عليه السلام خصوصا لأن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام فى مزاميره تعظما بليغا ، بخلاف آل إسماعيل ، لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد إسماعيل غاية التحقير وكان كون أحد منهم رأس الزاوية عجيب فى أعينهم.

الثانى : أنه وقع فى وصف هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر يترضض وكل من سقط هو عليه سحقه. ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال : [وإن سمع أحد كلامى ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأنى لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم] كما هو فى الإصحاح الثانى عشر من إنجيل يوحنا ، وصدقه على سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ غير محتاج إلى البيان ، لأنه كان مأمورا بتنبيه الفجار الأشرار فإن سقطوا عليه ترضضوا وإن سقط هو عليهم سحقهم.

الثالث : قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع تلك اللبنة. فأنا اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل).

الرابع: أن المتبادر من كلام المسيح عليه السلام أن هذا الحجر غير الابن لوجوه : أن المسيح عليه السلام من بنى إسرائيل ومن سبط الأنبياء عليهم السلام، وكونه يكون حجر الزاوية لا يحزن داود عليه السلام ولا يجعله يعجب ولا يكون عجيبا عند إسرائيل جميعا.

فلابد وأن يكون هذا الحجر من نسل هاجر التى كان أبناءها مسترذلين عند بنى إسرائيل ، ولأن المسيح عليه السلام صلب كما اعترف به النصارى واليهود ، والمصلوب سحقه اليهود ، فظهر أن من وقعوا عليه لم يسحقهم ولكنه انسحق بهم فى نظرهم ، ومن المقرر أنه عليه السلام لم يقع على شيىء فيسحقه. وأما الحجر المسترذل من البنائين فإنه إنما هو رسول

الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه من نسل إسماعيل الطَّيْلا من هاجر وهو الذى كان حجر الزاوية ووقع عليه العرب أجمعين فرضضهم ، ووقع على العرب والعجم جميعا ممن خالفه فسحقهم ، ولا يزال ولله الحمد من وقع عليه ﴿ﷺ وآله﴾ رضضه ، وإذا وقع هو ﴿ﷺ وآله﴾ على غيره محقه ، ولن يزال إن شاء الله حتى تقوم الساعة.

هذا وكيف يتصور أن المسيح يبشر بنفسه أو سأل الله مجىء نفسه وهو موجود بين الناس ، أو يقول : يسلب الكرم منكم لغيركم ويريد نفسه وأتباعه وهو منهم وأتباعه منهم وليس من غيرهم لعل القارىء يتأمل ، ولو أن المسيح الطَّيْلا بشر بمجىء نفسه وصلى لله ليجىء المسيح نفسه لأقام الحجة على أنه ليس هو المسيح أو دل ذلك على أنه هو جاهل بنفسه وبمن هو نبيهم ، وأعوذ بالله عن فهم يؤدى إلى نقص رسول الله كريم على الله.

أما قولى وانا أعتقد أنه لم يصلب.. فإن الذين وقعوا عليه تمكنوا منه حتى رفعه الله إليه ولم يمحقهم ، فنجا بفقده من بينهم ، والمبشر به يرضض من وقعوا عليه ، ويمحق من وقع عليهم ، والمسيح كم ضرب وكم سحب على وجهه ، وكم وضع الغل فى عنقه فلم يرضض من وقعوا عليه لأنه ليس هو رأس الزاوية ، ولو قيل إن ملك الروم غزا اليهود بعد أربعين سنة من المسيح فذلك انتقام الله ، ينتقم الله به من الظالمين ولو ظلموا غير نبى ، بل ولو غير ولى ، والمثل صريح فى أمة بمحق الله بنفسه من سقط عليهم ، ويرضض هو نفسه من سقطوا عليه وقبح الله عمى البصيرة ولعن الله حظا يقود صاحبه إلى محاربة الحق والصد عنه.

٥- الإصحاح الثانى من رؤيا يوحنا اللاهوتى هكذا [٢٦- ومن يغلب ويحفظ أعمالى إلى النهاية فسأعطيه سلطانا على الأمم. ٢٧- فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أيضا عند أبى. ٢٨- وأعطيه كوكب الصبح. ٢٩- ومن له أذن فليسمع ما يقول الروح بالكنائس].

فهذا الغالب الذى أعطى سلطانا على الأمم ويرعاهم بالقضيب من حديد هو سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ كما قال الله تعالى فى حقه : ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ③ ﴾ (الفتح : ٣) ، وقد سماه سطيح الكاهن : (صاحب الهراوة).

فقد روى أن ليلة ولادته ﴿ﷺ وآله﴾ انشق إيوان كسرى أنو شروان وسقط منه أربعة عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس و لم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة ساوة بحيث صارت يابسة ، ورأى الموبذان فى نومه أن إبلا صعابا تقود خيلا عرابا فقطعت دجلة فانتشرت فى بلادها فخافت كسرى من حدوث هذه الأمور وأرسل عبد المسيح إلى سطيح الكاهن الذى كان فى الشام ، ولما وصل عبد المسيح إليه وجده فى سكرات الموت ، فذكر هذه الأمور عنده فأجاب سطيح : إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح مناما ، يملك منهم ملكوت وملكات على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت ثم مات سطيح من ساعته.

ورجع عبد المسيح فأخبر أنو شروان بما قاله سطيح ، قال كسرى : إلى أن يملك أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه فهلك آخرهم يزدجر فى خلافته. والهراوة العصا الضخمة.. وكوكب الصبح عبارة عن القرآن ، قال الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ **النساء: ١٧٤**. وفى سورة التغابن : ﴿ **قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ **التغابن: ٨** .

٦- وفى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا : [١٥- إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى. ١٦- وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد. ١٧- الروح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه

ماكث معكم فيكون فيكم. ٢٦- وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم. ٢٩- وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتمى متى كان تؤمنون].

وفى الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا : [٢٦- ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من عند الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء].

وفى الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا : [٧- لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم المعزى ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . ٨- ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . ٩- أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . ١٠- وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضا . ١١- وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد أدين . ١٢- إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتكموا الآن . ١٣- وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ١٤- ذاك يمجد لأنه يأخذ مما لى ويخبركم] .

وقبل أن نبين وجه الاستدلال بهذه العبارات يجب أن نتبين أمرين :

الأول : أن الترجمة العربية للإنجيل والمطبوعة فى لندن سنة ١٨٢١ ، ١٨٣١ ، ١٨٤٤ كانت تترجم اسم المعزى بلفظة فارقليط .

والثانى : أن عيسى عليه السلام كان يتكلم العبرانية وكان من عادة أهل الكتاب أن يترجموا الأسماء فإنه لا شك أن الاسم المبشر قد ترجم من العبرانية لليونانية ثم عربه مترجمو العربية مرة أخرى بفارقليط ومرة بالمعزى .

هذا وإن اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليونانى الموجود هو ترجمة له فإن قلنا : أن اللفظ اليونانى هو (باراكلى طوس) فإن معناه المعزى والمعين والوكيل أو الشافع . كما يوجد فى ترجمة الإنجيل المطبوعة بلندن ١٨٧٦ .

وهذه المعانى تصدق على سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾

وإن قلنا : إن اللفظ اليونانى الأصلى (بيركلوطوس) فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح فى حق سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ بلفظ هو قريب من محمد وأحمد ، وإن كان قريب القياس بلحاظ مادتهم.

فى كل سفر من الأسفار آيته   تتلى من الأنبياء ولنا لقد تقرا
قد أعجزت آية الألباب كثرتها   لم تحص عدا وتلك الآى تستقرى
لا تعجبوا فهو خير الرسل قاطبة   وهو الشفيع وفضل الله والبشرى

ضرورة الإيمان برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

هنا بعد أن اتضح الحق جليا ، وانكشف الحجاب عن القلوب وظهرت أسرار الغيوب ، لا أرانى مغاليا إن حكمت بأن من غض بصره عن هذا السيد الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ أو أنكر رسالته كافر بالله سبحانه وبموسى والمسيح عليهما السلام .

عدو لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام . وكيف لا والتواتر الذى نقل إلينا أخبار المسيح وآياته وكتابه أثبتت أنه يأتى رسول من بعده بالبشائر المتقدمة ، وقد بعث الله هذا الرسول داعيا إلى ما دعا إليه الكليم والمسيح عليهما الصلاة و السلام مبينا للناس ما أبهم عليهم من الكتب السماوية ، مفصلا ما أجمل منها مكملا العقائد و العبادات و المعاملات و الأخلاق ، أنزل الله عليه الكتاب معجزة وتبيانا لكل شىء فدعا الناس إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأقام الحجة بالمعجزة الباهرة ، فسارع أهل العلم من اليهود والنصارى واتبعوه خاضعين لما ظهر لهم من الحق واتضح لهم من الحجة .

وأبى أكابر مجرميهم ممن خاف زوال ملكه وضياع عزه ، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون .

وقد سجلت سورة البينة الإجماع الذى وقع بين اليهود والمشركين على الإيمان بالسيد الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ ثم تفرق اليهود كافرين وسبق الأوس والخزرج للإيمان، قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ④ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ⑤ ﴾ (البينة : ١-٥).

وسر سبق الأوس والخزرج للإيمان والتصديق سماعهم البشائر بالنبى المنتظر ﴿ﷺ وآله﴾ والاستفتاح به فى المعارك والنصر به ﴿ﷺ وآله﴾ .

أثر البشائر فى مجتمع أهل الريف

إسلام عبد الله بن سلام :

ذكره ابن إسحق ، قال : وكان حبرا جليلا قال : لما سمعت برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له ، فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة ، فلما سمعت خبر قدومه وكنت فى رأس نخلة أعمل فيها وعمتى تحتى كبرت ، فقالت لى عمتى : خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت فقلت لها : أى عمة والله هو أخو موسى بن عمران بعث به موسى ، فقالت : أى ابن أخى أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع الساعة ؟ قلت : نعم . ثم خرجت فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا ثم كتمت إسلامى عن اليهود.

وجئت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقلت : يارسول الله .. إن اليهود قوم بهت – أى كذابون – وإنى أحب أن تغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى فإنهم إن علموا بإسلامى بهتونى وعابونى .

فأدخلنى ﴿ﷺ وآله﴾ عنده فى خفاء ثم أقبل اليهود فسألهم عنى فقال : (أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟) – اسمه قبل الإسلام – قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت : يامعشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته فإنى أشهد أنه رسول وأومن به وأصدقه وأعرفه . فقالوا : كذبت ثم وقعوا بى ، فقلت يارسول : ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟

فأظهرت إسلامى وأهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث .

وروى ابن عسكر إسلامه فى تاريخ دمشق وفيها يقول : إنى لأجد صفتك فى التوراة : [ياأيها النبى أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل . ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا] .

وروى البخارى عن عطاء بن يسار مثل ذلك .

صفية بنت حيى بن أخطب :

شهدت كذلك وأبوها زعيم خيبر .

يروى ابن إسحق أنها شهدت عمها وأباها قادمين من المدينة بعد أن لقيا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قالت (وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيى بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما فى نفسك عنه ؟ قال عداوته والله ما بقيت) .

ويظهر أثر هذه البشارات فى مجتمع النصارى فيما رواه البخارى عن هرقل قيصر الروم وعظيم المسيحية ، يقول بعد أن عرف أوصاف النبى الكريم من أبى سفيان : فإن كان ما تقوله حقا فسيملك موضع قدمى هاتين .. وقد كنت أعلم أنه خارج و لم أكن أظن أنه منكم . فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت لغسلت عن قدميه .

كتبه ﴿ﷺ وآله﴾ :

وانظر إلى كتبه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المقوقس عظيم القبط بمصر ، وإلى عظيم بصرى الذى دفع بالكتاب إلى هرقل قيصر الروم فقرأه ، وانظر إسلام سلمان الفارس وحديث إسلامه وأن البشارات به ﴿ﷺ وآله﴾ كانت وراء ذلك .

وانظر إسلام طلحة بن عبيد الله ، وهو أحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر رضي الله عنه – عثمان بن عفان ، وطلحه بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف – وأحد العشرة المبشرين بالجنة .. وقد روى الحاكم حديث إسلامه وأنه سمع بشارة راهب فى بصرى .. يسأل أهل الحرم : هل ظهر أحمد بعد ؟ قلت : ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب آخر الأنبياء .

تحدث طلحة إلى أبى بكر فلما أسلما ربطهما معا نوفل بن خويلد فى حبل (قرن) وكان يدعى أسد قريش ، وسمى طلحة وأبو بكر القرينين .

وانظر إلى وفد النصارى الذى قدم على السيد الكريم ﴿ ﷺ وآله﴾ كيف فاضت العيون بالدموع وأسلموا وعاتبهم أبو جهل على سرعة إيمانهم وتصديقهم به ﴿ ﷺ وآله﴾.

وفيهم نزلت الآيات من سورة القصص : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ إلى قوله عز شأنه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

الفصل الثالث

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء

هيا إلى الحق ، فالحق أحق أن يتبع، والباطل أولى بأن يجتنب ، ولا يمنعنكم أباطيل دعاة الضلالة ، بدعوى أن المسيح الله أو ابن الله ، وأن القرآن أخبر بالوصية مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ

مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (النساء : ١٧١) .

فيتركون قوله تعالى : ﴿رسول الله ﴾ ويأخذون قوله سبحانه : ﴿ وكلمة الله وروح منه ﴾ ويظنون ويجهلون معنى الكلمة والروح .

فالكلمة: هى سر القدر الذى به خلق الذباب والبهائم والنباتات والإنس والجن والأفلاك وخلق بها آدم وأبناءه ومن سواه .

والروح : هو الهدى والنور الذى وهبه الله لأنبيائه ورسله ولأوليائه الصالحين ، وهذه الآية خبر عن المواهب التى وهبها الله لسيدنا المسيح عليه السلام .

وقد وهبها الله لأصغر ولى من أولياء المسلمين فوهبه كلمة هى سر القدرة ، ووهبه روح هى البيان والهداية والتوفيق والإقبال على القدس الأعلى ، والإخلاص كما قال المسيح عليه السلام : [من آمن كإيمانى يعمل كأعمالى وأكثر] .

وإنما الآية التى وردت فى القرآن خبرا عن إيجاده وإبداعه هى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ﴾ (آل عمران : ٥٩ ، ٦٠) .

والآية التى وردت فى مقام عيسى عليه السلام ومنزلته عند الله قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء : ١٧٢) ، فأثبت القرآن الشريف أن المسيح عبد . مقهور لعظمته سبحانه ، مربوب لجلاله وكبريائه ، وأكرمه كما أكرم آدم عليهما الصلاة و السلام .

معلوم فى التوراة :أن الله تعالى أكرم سيدنا آدم وأهانه وأنزله من الجنة ليعلم قدره ومنزلته ، وكذلك سيدنا المسيح عليه السلام أكرمه ثم أهانه على يد اليهود بالتكذيب والمخالفة

ليعلم الناس أنه عبد مقهور لله مربوب لعزته وجلاله ، وقد بين الله تعالى أحوال الكاذبين على المسيح بقوله سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة : ١٧)

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ (المائدة : ٧٢ – ٧٧).

وآيات كثيرة فى إثبات كفر من قال بالتثليث ، أو قال بأن المسيح هو الله ، أو قال بغير ذلك مما لا يليق بتتريه ذات الله سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

جهل أهل الكتاب فأخذوا بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ۞ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٥، ٤٦).

فأولوا تأويل أهل الجاهلة الضالين ، وجهلوا اللغة العربية فقالوا : وجيها يعنى هو الله ، وسياق الآية يدل على أن مريم أفضل من سيدنا عيسى عليه السلام إن أرادوا أن يفهموا .

وإن كان فضل سيدنا عيسى عليه السلام جاء من آية أخرى غير هذه الآية ، فإن المبشر بالشيء في الغالب لابد أن يكون أكرمه الله بهذا الشيء ، ومن أكرمه الله بشيء لابد أن يكون كريما على الله من ذلك الشيء .

فمريم الصديقة في هذه الآية أكرم على الله من المسيح عليه السلام حيث أكرمها بهذه البشارة ، ومع هذا الإكرام فإنها أبت تلك الكرامة حتى أقيمت لها الحجة على أنها كرامة .

فعجبا للشيطان الذى هو على صورة الإنسان كيف يخفى على الإنسان لأنه يجهل الحق الصريح ويؤوله إلى الباطل ويعاند ويقيم عليه الحجة بالأباطيل .

فيا أهل الكتاب اتقوا الله في العقول التى وهبها الله لكم وإلا خسرتم الدنيا بتقليدكم الضالين المضلين ، وإعانتكم القوم على الباطل ، وخسرتم الآخرة لأنكم على غير هدى فابحثوا بعقولكم عن الحق حتى يتضح لكم ، وانظروا بفكركم نظر متأمل وأقروا عقيدته وأخلاقه ومعاملته .

وتفهموا أسرار القرآن ، وكلام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهلم سارعوا إلى الإسلام ، لتسعدوا في الدنيا لأنكم بالإسلام تكونون عبيدا لله سبحانه لا فرق بينكم وبين الرسل في النسبة إلى الله .

وإنما الإتباع له ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما جاء به والعمل بسنته فيما بينه بالحجة العقلية .

وكفى الإسلام شرفا أن أساسه الشهادة بوحدانية الله تعالى وأن محمدا عبده ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وكفا شرفا ما أمره الله تعالى به فى القرآن المجيد بقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ ﴾ (الأعراف : ١٨٨) ، وقد بينت لكم فيما سبق نبذة مما ورد من البشائر بمبعثه ﴿ ﷺ وآله﴾ على ألسنة الرسل ، وفى الكتب السماوية وعلى ألسنة الهواتف والجن والكهنة مما هو ثابت نقلا ومقبول عقلا .

هلم بنا يأهل الكتاب :

هلم بنا يأهل الكتاب إلى ما نحن موجهون وجهتنا إليه وهو التمسك بالحق والعمل به ، وقبول الحق ممن يأتى به لسعادتنا ونجاتنا وخيرنا بقطع النظر عن التعصب للأشخاص ، ولأن التعصب للحق هو التعصب حقا ، وكل واحد منا يسعى لنجاة نفسه فى الدنيا ولآخرة ويجتهد أن يكون على الحق وعاملا به ، وناصرا لمن جاء بالحق تابعا له .

وقد وضح جليا بالنقل ، وصح بالعقل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما جاءوا ليخلصوا العالم من الشرك الظاهر والخفى .

وبينوا لهم سبل النجاة ، وطريق الخير والمناهج التى بها يكونون عبيدا لله تعالى الذي خلقنا ، وصورنا وأمدنا بنعماه وبره وفضله وكرمه وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ولم يكلفنا سبحانه وتعالى إلا وسعنا ، مما لا يعجز أبداننا من العبادة ، ولا يكسف نور عقولنا من العقيدة الحقة ، ولم يكلفنا من الأخلاق ما يمحق ما فطرنا عليه من القوى الغضبية والشهوانية ، لأنه خلقنا من عناصر مختلفة ، وجعلنا فى حاجة إلى الغضب لمقتضاه ، والشهوة لمقتضاها ، وأباح لنا ما لابد لنا منه فضلا منه وكرما .

يا أهل الكتاب :

يا أهل الكتاب ارفعوا الستار عن نور العقل الإنسانى ، وأعنى بالعقل الذى يبصر الآيات الدالة على عجائب قدرة القادر وغرائب حكمة الحكيم سبحانه ، ويحكم أن كل متغير حادث ، وأن كل محاط صغير ، وأن كل ما يحتاج إلى قوام ذاته بغيره حقير ، العقل الذى يشهد أن للخلق خالقا ، تتره عن أن يمزج بشيء من خلقه أو يزدوج مع شيء منه ، أو يحل سبحانه فى شيء أو يحل شيء فيه ، تتره وتعالى ، أو يحتاج إلى مخلوق فى ظهوره ، أو وجوده أو بقائه سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

الأفلاك العظام مقهورة بقهره ، ومسخرة بأمره ، وما فوق ذلك وما وراءه مما لا يعلم علمه إلى هو سبحانه من عوالم الملكوت الأعلى وحظائر القدس ، وما دون ذلك من الأفلاك و الأجواء وطبقات النسيم ، والأرجاء وشامخات الجبال و محيطات البحار ، ومجارى الأنهار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما بين ذلك من أنواع الحيوانات التى لا تحس بالعين المجردة، من عمار الأجواء وسكان الأرجاء ، والكامنة فى طبقات الأرض ، والسابحة فى لجج البحار والأنهار ، والراتعة فى الغابات والكهوف ، والداجنة فى العمران مما لا يعلم عدها إلا الله ، ولا يكاشف بحكم وجودها وسر تترعها إلا هو سبحانه ، بل وما فى كل فرد من أفراد بنى الإنسان من همم وإرادات ومزايا وعلوم وأسرار ، كل ذاك مخلوق لله مقهور بقهره مبدع بقدرته وحكمته .

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٢٩) . .

هذا هو العقل الذى أقصد أن ترفع الستارة عن نوره ، فإن ستارة التقليد للآباء ، والتعصب للأهواء ، وحجاب الطمع فيما يزول كسفت تور هذا العقل عن أن تنفذ أشعته على تلك الآفاق المحيطة بنا ، ليدرك دلائل الحق ، ويشهد آياته الدالة على أنه واحد فرد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد .. سبحانه وتعالى .

وإن القوى التى بها جلب المنافع ودفع المضار ، واختراع الآلات والأدوات التى بها نيل الكمالات الإنسانية ، ليس هو العقل الذى به نيل الخير الأبدى ، وتكميل النفس بكمالاتها الإنسانية ، وإنما هو قوة مودوعة فى الإنسان بوجه أكمل منها فى البهائم .. فللبهيم عقل يدبر شئونه به على قدر ضرورياته وكمالياته .

ولما كان الإنسان أكثر حاجيات ، وأحوج إلى الكماليات من الحيوان ، أقتضت الحكمة الإلهية أن يجعل قوة تدبيره على قدر احتياجه ، فسبحانه الحكيم الخبير المدبر المعين.

فمن ظن لفساد رأيه أن العقل الذى به الاختراع ، وجلب النفع ودفع الضر والمنافسة فى الحضور والملك بالقهر والغلبة وعمل المعدات الجهنمية لهلاك بنى الإنسان ، هو العقل الحقيقى فقد جهل حقيقة الإنسان وحكم أن الإنسان وحش كاسر .

يا أهل الكتاب .. سيدنا المسيح إنسان كامل فى الإنسانية ، لا عجب فيه ، ولا عجب فيما أتى به ، وقد أثبت أن قدرة الله أوجدت إنسانا من طين ، وإنسانة من إنسان ، وصح أنه من سبقه من الرسل أتوا بمعجزات أقلها فوق معجزته ، فإن عصا موسى عليه السلام وهى خشبة عملت أعمالا فوق يد سيدنا المسيح عليه السلام .

وإن سيدنا الخليل عليه السلام ألقى فى نار أسعرت فى أسابيع فكانت جنة له .

والمسيح على ما يقولون ، صلبه رجلان ، وعجزت قدرته على أن يخلص نفسه منهم.

فالذى صارت النار له جنة أعجب .

هلم فارفعوا هذا الغلاف عن العقول ، واطلبوا الحق من حيث هو حق ، فإذا اتضحت لكم دلائله ، ووضحت بيناته فأقبلوا واقبلوا وارفضوا الباطل ولو كان من آبائكم ، وردوا الضلال ولو دعاكم إليه الحظ والهوى ، فإن الدنيا دار فانية.

ظهر ياأهل النصرانية إنجيل برنابا.. فقام دعاة الباطل ورؤساء الضلالة ، يردون الحق الجلى خوفا على سيادتهم ورياستهم ، مع أن الإنسان العاقل ... تلقى أكثر الصنائع والفنون عن الحيوانات ، و لم تمنعه نفسه الإنسانية عن أن يتخذ الحيوانات أساتذة له ... فتعلم النسيج من العنكبوت ، وبناء الأكواخ من الطيور ، والادخار من النمل ، مغازلة الزوجة من الحمام ، والسير على البحار من السمك ، والطيران فى الجو من الطيور ، والأشكال الهندسية من النحل ، والغيرة على النساء من الديكة ، وتلقى قوة البخار عن القدر المغطى على النار الممتلىء بالماء عندما رأى الإناء يرتفع .

فإذا كان الإنسان يتلقى النافع فى تلك الدار الدنيا من النباتات والحيوانات والجمادات ، كيف لا يتلقى الحق الذى ظهرت دلائله من أخيه الإنسان ويسارع إلى نيل الخير الحقيقى الباقي.

من رد الحق على أهله وقبل الباطل و تعصب له ، لا ينبغي أن يكون إنسانا ، ولو كان على صورة الإنسان ، بل ولا حيوانا، بل هو شيطان وأضر من الشيطان .

لأن الشيطان لعنه الله وأبعده عن حضرته وجعله ضالا مضلا ، وكذلك الإنسان الذى يتعصب للباطل وينصره ويكره الحق ويحاربه ويعادى أهله يكون شيطانا ملعونا مبعودا عن رحمة الله وروح الله .

وما الفرق بينكم ياأهل النصرانية وبين من اتخذ البقرة التى تحلب له اللبن وتحرث له الأرض وتلد له البقر إلها ، مع نفعه بخيرها ، وتمتعه بمنافعها ؟ ، هو أعقل منكم وأعلم بخير نفسه منكم ، لأنكم اتخذتم إنسانا اعترف بأنه عبد مفتقر إلى الأكل والشرب ، يحزن إن لم يجد التين فى الشجرة ،ويغضب ويلعنها ولا ذنب لها ، ويختفى من أعدائه خوفا منهم حتى يقبضوا عليه ويسوقوه ويصلبوه كما زعمتم .

ثم يردم بالتراب تحت الأرض ، ثم يقوم بعد ذلك ويسألكم بذله وهواه وخزيه طعاما شأن أهل الشراهة وأدنياء الناس ثم تحكمون أنه إله خلقكم ، فتقولون : [يا ربنا وإلهنا يسوع المسيح ،لا تهلك من خلقت بيديك].

أعوذ بالله ، والله إن الحمار المقيد ليرى الإنسان – قد وضع له العلف والماء ومسحه ونظف مربطه – بنظر احتقار ، حتى يرفسه برجله وينفر عند دنوه منه احتقارا للإنسان وفخرا بنوعه ، ولو سئل ونطق لقال : إنى أقوى من الإنسان وأنفع له منه لى ، وأنا مخلوق وهو مخلوق .

فكيف تنسكف تلك العقول حتى تكون أدنى من البهائم .

رحماك اللهم بالإنسان ... إنسان ولدته امرأة بلا رجل ، كما ولدت الأرض إنسانا بلا أب وأم ، وكما تلد الأرض أنواعا من الحيوانات ، وقدرة الله صالحة لإيجاد الشىء من الشىء ، وإيجاده من لا شيىء .

يدرك ذلك العقل الكامل ، وأركان الوجود وجدت من لا شىء ، وهى دلالة على عجائب القدرة ، فسبحان من جعل الدليل عليه حجابا عنه عند أهل الضلالة .

وجعل الحجة له سببا فى إضلال البهائم التى هى على صورة الإنسان ليمتاز الإنسان الحقيقى بعقله الكامل وعلمه بالحق ومسارعته إليه ، وتنجلى حقائق من هم على صورة الإنسان للإنسان الكامل فيزداد إيمانه ويقوى يقينه بعجائب قدرة القادر الذى يجعل أدنى حقائق البهائم فى صورة الإنسان .

أدعوكم لإتباع الحق :

أدعوكم ياأهل الكتاب إلى الحق المنبلج حقاً على لسان هذا الرسول الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ وأخلاقه وأحواله ﴿ﷺ وآله﴾ ولو لم تأت البشائر به على ألسنة الرسل الكرام ، فإن الله ما خلق العقل إلا ليقبل الحجة ويدرك المحجة .

هذا الرسول الكريم ولو لم يأت بمعجزة دالة على صدق رسالته ، أحق أن يتبع ويقتدى به ، لأنه جاء بالحق الجلى للعقل الذكى ، إن كانت لكم أعين تبصرون بها وآذان تسمعون بها وقلوب تفقهون بها .

فكيف تتبعون الحق بالباطل بعد أن بشّر به ﴿ ﷺ وآله﴾ كل رسول من قبله ، وأتى بمعجزات لم يأت بها جميع الرسل من قبله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فإن كان التعصب لدين الآباء ، والإقتداء برؤسائكم خير لكم فى الدنيا من اتباع الحق والعمل به فذلك ما لا يقول به عاقل يحب الخير لنفسه .

لا أقول قولى هذا عناداً ولكن رحمة بكم وشفقة .

وأنا مؤمن بسيدنا المسيح عليه السلام ، مصدق به ، ولو أنى لم أؤمن به لكنت كافراً ، وأنى لا أعلم قدره ومقامه ، كما يعلم هو عليه السلام نفسه ، وكما أخبر به تلاميذه عن نفسه ، وإن الذى جاء به بعض ما يجب أن يكون عليه المسلم فى طفوليته ، وما يجب أن يتلقاه فى نعومة أظفاره ، فكل مسلم كامل الإسلام فهو كالمسيح عليه السلام حقا وصدقا ، بشهادة المسيح عليه السلام لأن المسيح عليه السلام جاء ليتم الناموس .

والمسلم محيط بكل الناموس ، وعامل بجميع ما فيه ، فيكون المسلم الكامل كأنه جميع رسل الله صلوات الله عليهم ، لا قتدائه واتباعه لخير رسل الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى بشرت به الرسل عليهم السلام والكتب المقدسة بنص قول المسيح عليه السلام فى الأناجيل الواردة عنه : (الرسول الكريم الذى يأتى بعدى أتمنى أن أحمل حذاءه) ، وذكر اسمه بكلمة عبرانية معناها الذى يحمده الخالق والخلق ، ولفظه بالعربية محمد .

لا يمنعكم ياأهل النصرانية أباطيل المبشرين ، فإن لهم مقاصد لا يقصدون بها الحق ، ولا الخير لكم ، ولأنهم يريدون بأباطيلهم مقاصد سياسية ، ولعن الله السياسية كم أفسدت دنيا ، وكم أزالت ملكا ، وكم أزهقت نفوسا بريئة .

فسروا ألفاظ الإنجيل بما المسيح عليه السلام برىء منه ، وكيف لا وسيدنا المسيح بغض اليهود لمخالفتهم بعض أحكام التوراة مع اعترافهم بوحدانية الله سبحانه ، فكيف إذا ظهر ووجدكم جعلتموه إلها يعبد من دون الله ، مع أنه كره أن يوصف بالمعلم الصالح ، ودعاكم إلى أن تكونوا مثله ، تعملون كعمله إن آمنتم كإيمانه .

فاطلبوا الحق واقبلوه من أهله ، فإن سيدنا المسيح عليه السلام لم يخلقه الله تعالي ليتخذ إلها أو ليكون ابنا له تنزه الله عن الأبوة والبنوة ، أو ليسلب قدرة الله ومشيئته ويتركه مسكينا عاجزا لا قدرة له ولا مشيئة .

اللهم إنى أشهدك أنهم كذبوا على عبدك ورسولك ، وافتروا عليه فرية أكبر من فرية اليهود عليه ... فإن كذب اليهود على سيدنا المسيح أقل شرا من كذب النصارى عليه ، وذلك أنهم قالوا : إنه ابن يوسف النجار ، ومنهم من قال ابن زنا ، وحكم أنه ساحر تعصبا لأحبارهم ،وكل ذلك دون كذب النصارى على سيدنا المسيح عليه السلام .

فإن تكذيب المسيح كفر أقل من الكفر باتخاذه إلها ، والكفر درجات ، نعوذ بالله من الضلال وأهله .

اللهم إنى كتبت ما كتبت ابتغاء مرضاتك ، واتقاء سخطك سبحانك ، ورحمة لبنى الإنسان ، وقياما بواجب الإسلام على بنص قولك سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .(آل عمران : ١٠٤)

فأسألك يامجيب الدعاء أن تنفعنى بنيتى وقصدى ، وأن تنفع بعملى هذا ، وأن تحفظنى ياإلهى بحفظك الذى حفظت به الذكر الحكيم من البدع والضلال ومن سوء الحال والمآل .. إنك مجيب الدعاء .. وأن تكرم أهلى وأولادى وإخوتى وإخوانى المسلمين جميعا بالهداية والعناية ، وأن تهدى اليهود والنصارى للإسلام .. أنك على كل شىء قدير.

الباب الثانى

من الميلاد إلى البعثة

نسبه الشريف ﴿ﷺ وآله﴾.

حمله ﴿ﷺ وآله﴾.

رضاعته ﴿ﷺ وآله﴾.

كفالة جده وعمه له ﴿ﷺ وآله﴾.

زواجه ﴿ﷺ وآله﴾ من السيدة خديجة رضى الله عنها .

الفصل الأول

نسبه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾

أجمع العلماء على أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا انتسب ينتهي إلى عدنان و لم يتجاوزه ، و كان يقول : (كذب النسابون) ، وذلك لأنه اختلف بين عدنان وإسماعيل اختلافا كثيرا ، ومن سيدنا إسماعيل إلى نبينا آدم عليه السلام ، متفق عليه.

فينبغى لمن أراد أن يذكر نسب الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يوصله إلى (عدنان بن أد) ويقف اقتداء به ﴿ ﷺ وآله﴾.

واجمعوا على أن عدنان ينتهى نسبه إلى إسماعيل عليه السلام فهو (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضير بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نزار بن معد بن عدنان) .

وروى أن أول من وضع أنصاب الحرب عدنان ، وقيل هو أول من كسا الكعبة أو كسيت فى زمنه ، وجاء إنما سمى عدنان من العدن وهو الإقامة لأن الله أقام ملائكة لحفظه ، وسبب ذلك أن أعين الجن والإنس كانت إليه ، وأرادوا قتله وقالوا إن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجال ليخرجن من ظهره من يسود الناس ، فوكل الله به من يحفظه ، وروى فى تاريخ أبو جعفر عن ابن عباس رضي الله عنه قال : (كان عدنان ومد وربيعة وخزيمة وأسد على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلا تذكروهم إلا بخير) .

وروى أن الله تعالى لما سلط بختنصر على العرب أمر الله أرمياء عليه السلام أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كى لا تصيبه النقمة وقال : إنى سأخرج من صلبه نبيا كريما ، أختم به الرسل ، ففعل أرمياء ذلك واحتمله معه إلى أرض الشام فنشأ مع بنى إسرائيل ثم عاد بعد أن هدأت الفتن بموت بختنصر .

وسمى نزارا لشهود نور النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بين عينيه فشكر أبوه الله ، وأطعم العرب وقال : (هذا الطعام نزار – أى قليل – فى جانب ما منحنا الله) .

وجاء أيضا أن مضر إنما سمي بذلك لأنه كان يمضر القلوب أى يأخذها لحسنه وجماله ، ولم يره أحد إلا أحبه لما كان يشاهد فى وجهه من نور النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ومن كلامه : (خير الخير أعجله فاحملوا أنفسكم على مكروهها واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق ناقة) وهو ما بين الحلبتين .

وتواتر أن جده ﴿ﷺ وآله﴾ إلياس كان كبيرا عند العرب يدعونه سيد العشيرة ولا يقضون أمرا دونه وهو أول من أهدى البدن إلى البيت ، وجاء فى الحديث : (لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا ، وكان فى العرب مثل لقمان الحكيم فى قومه) .

وجاء فى الحديث : (لا تسبوا ربيعه ولا مضر) ، وفى رواية :(لا تسبوا مضر فإنه كان على دين إسماعيل عليه السلام) .

وما نقل عن جده ﴿ﷺ وآله﴾ كنانة بن خزيمة أنه كان شيخا عظيما تقصده العرب لعلمه وفضله ، وكان يقول : (قد آن خروج نبى من مكة يدعى أحمد يدعو إلى الله تعالى وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق فاتبعوه تزدادوا شرفا وعزا إلى عزكم ، ولا تفندوا ما جاء به فهو الحق) .

وجاء عن فهر أن اسمه قريش وإليه تنتهى وتجتمع قبائل قريش وما فوقه كنانة ، وسمى قرشا لأنه كان يقرش ، أى : يفتش عن حاجة المحتاج فيسدها بماله .

وما روى عن جده كعب بن لؤى أنه كان يجمع قومه يوم العروبة وهو المسمى يوم الجمعة ويعظمهم ويذكرهم بمبعث النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، ويخبرهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه ﴿ﷺ وآله﴾ وكان يقول لهم : (سيأتى ليحرمكم نبأ عظيم وسيخرج منه نبى كريم) وكان بينه وبين مبعثه ﴿ﷺ وآله﴾ ٥٦٠ عام (خمسمائة وستين سنة) وكانوا

يؤرخون بموته حتى كان عام الفيل فأرخوا به ثم بموت عبد المطلب ثم كان التاريخ فى الإسلام بالهجرة .

وجاء عن كلاب واسمه حكيم ، سمى بكلاب لأنه كان كثير الصيد بالكلاب وقيل من المكالبة لمضايقته على أعدائه.

وجاء عن قصى أن اسمه زيد أو يزيد ويقال له مجمع ، به جمع الله القبائل من قريش فى مكة بعد تفرقها ومن كلامه : (من أكرم لئيما شاركه فى لؤمه ، ومن استحسن قبيحا ترك إلى قبحه ، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان ، والحسود هو العدو الخفى) .

وجاء عن عبد مناف أن اسمه المغيرة وكان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله ، ووجد على بعض الأحجار كتابة منها أن المغيرة بن قصى أوصى قرشا بتقوى الله جل وعلا وصلة الرحم . وكان نور النبى صلى الله عليه وسلم وآله يضىء فى وجهه . وكان فى يده لواء نزار وقوس إسماعيل .

وجاء عن جده هاشم أن اسمه عمرو. ويقال له عمرو العلا لعلو رتبته . فإنه ساد قومه بعد أبيه عبد مناف وحسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس فتكلف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز فعايرته قريش . وقالوا له أتتشبه بهاشم .

ثم دعا أمية هاشما للمنافرة ، فأبى هاشم ذلك ، لسنه وعلو قدره ، فلم تدعه قريش .

فقال هاشم لأمية : أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين فرضى أمية بذلك ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى وكان بعسفان ، فخرج كل منهما فى نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم :

(والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، فى منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر).

فنفر هاشم على أمية فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل وأطعم الناس، وكان يقال لهاشم وإخوته : أقدح النضار أى الذهب، ويقال لهم : المجيرون، لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على العرب .

وكان نور النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يتوقد شعاعه فى وجه هاشم ويتلألأ ضياؤه ، ولا يراه حبر إلا قبل يده ، ولا يمر بشىء إلا خضع له ، تغدوا إليه قبائل العرب ووفوده الأخيار يحملون بناتهم يعرضون عليه أن يتزوج بهن فأبى هاشم ذلك، وكان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحق ويؤمن الخائف ، وكان إذا أهل هلال ذى الحجة ، قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته : (يامعشر قريش إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما — أى عقولا — وأوسط العرب أى أشرفها أنسابا ، وأقرب العرب بالعرب أرحاما ، يامعشر قريش إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل وإنه يأتيكم ، زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم ، فأكرموا ضيوفه وزوار بيته ، فورب هذه البنية لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله ما لم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيبا ، لم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصبا) ، وكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار الندوة .

وجاء عن عبد المطلب بن هاشم ، أنه كان من حلماء قريش وحكمائها ، وكان مجاب الدعوة محرما الخمر على نفسه ، وهو أول من تحنث بحراء ، والتحنث هو التعبد الليالى ذوات العدد ، كان إذا دخل شهر رمضان صعده وأطعم المساكين ، وكان صعوده للتخلى عن الناس ، يتفكر فى جلال الله وعظمته وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رءوس الجبال ، ولذلك كان يقال له مطعم الطير ، وقال له : الفياض ، ولد وفى رأسه

شيبة فقيل له : شيبة الحمد ، ولعل وجه إضافته إلى الحمد رجاء أنه يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له ، وقد حقق الله تعالى ذلك ، فكثر حمدهم له لأنه كان مفزع قريش فى النوائب ، وملجأهم فى الأمور ، وشريفهم وسيدهم كمالا وفعالا ، وانتهت إليه الرئاسة بعد عمه المطلب . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيات الأمور ، وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم من أرض الشام و لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب فى ذلك ففكر وقال : (والله إن وراء هذه الدار داه يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسئ بإساءته) أى : فالظلوم شأنه أن تصيبه عقوبة فإذا خرج من الدنيا و لم تصبه عقوبة ، فهى معدة له فى الآخرة . ويؤثر عنه سنن جاء القرآن الكريم بأكثرها وجاءت السنة المطهرة بها ، منها : (الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الزنا والخمر ، وأن لا يطوف بالبيت عريان ، وكان يفوح منه رائحة المسك الأذفر) وكان نور النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يضىء فى غرته ، وكانت قريش إذا أصابها قحط شديد تأخذ بيد عبد المطلب فتخرج به إلى جبل تبير ، يستسقى الله لهم ، لما جربوه من قضاء الحوائج على يديه ، ببركة نور النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولما جعله الله تعالى فيه من مخالفة ما كان عليه أهل الجاهلية بإلهام من الله تعالى فكان يسأل الله تعالى لهم الغيث فيغيثهم الله .

ولما ولد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كان يحضره عبد المطلب معه فى الاستسقاء ، فيسقون به وأمر أبا طالب أن يحضر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ معه فى الاستسقاء ، ولما قدم أصحاب الفيل مكة هلكوا بدعاء عبد المطلب ومما نقل عنه فى ذلك اليوم :

(اللهم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك ، وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك) . وقال : يامعشر قريش لا يصل إلى هدم البيت ، لأن لهذا البيت رب يحميه ويحفظه.

وكان عبد المطلب يكرم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ويعظمه وهو صغير ويقول : (إن لابنى هذا لشأنا عظيما) وذلك لما كان يسمعه من الكهان والرهبان قبل مولده وبعده ، وكان عبد المطلب معظما فى قريش ، وكانوا يفرشون له حول الكعبة ، فيجلس ويجتمع حوله رؤساء قريش ، ولا يستطيع أحد أن يجلس على فراشه ، ولا أن يطأه بقدمه وكان النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهو صغير السن يزاحم الناس فيدخل حتى يجلس بجنب جده عبد المطلب ، وربما جاء قبل جده فجلس على فراشه ، فإذا أراد أحد من أعمامه أن يمنعه ، يزجره جده عبد المطلب ويقول : دعوه إن له لشأنا . ثم يجلسه عليه معه ، ويمسح ظهره ، ويسره ما يراه يصنع .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت أبى يقول : كان لعبد المطلب مفرش فى الحجر يجلس عليه ، لا يجلس عليه غيره . وكان حرب بن أمية فمن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون الفرش ، فجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوما وهو غلام لم يبلغ الحلم فجلس على الفرش فجذبه رجل فبكى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال عبد المطلب : (ما لابنى يبكى ؟ قالوا : أراد أن يجلس على الفراش فمنعوه . فقال عبد المطلب : دعوا ابنى يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف ، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده) فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه ، حضر عبد المطلب أو غاب .

وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (يبعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك وأبهة الأشراف) .

ومما أكرم الله تعالى به عبد المطلب ، وكان من الإرهاصات لنبوة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حفر بئر زمزم ، وحاصل القصة أن عمرو بن الحرث الجرهمى ، لما أحدث قومه جرهم بحرم الله تعالى الحوادث خاف نزول العذاب بهم ، فعمد إلى أنفس الأموال وهى غزلان من ذهب وسيوف وأدرع وهجر الركن وقيل حجر المقام فجعلها فى زمزم ، وبالغ فى

طمسها ، وفر إلى اليمن بقومه ، فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة إلى أن رفعت الحجب عنها برؤيا رآها عبد المطلب دلته على حفرها بأمارات عليها.

روى ابن إسحق بسنده إلى على عليه السلام قال : قال عبد المطلب : (إنى لنائم فى الحجر إذا أتانى آت احفر طيبة ، فقلت : وما طيبة ؟ فذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر المضنونة فقلت : وما المضنونة ؟ فذهب عنى . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر زمزم . قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تترف أبدا ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم ، بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل . فلما كان الغد ذهب عبد المطلب وولده الحارث فوجد قرية النمل بين أساف ونائلة — الصنمين الذين يذبحون عندهما - ووجد الغراب ينقر عندهما بين الفرث والدم — فى محلهما — فلما بين لعبد المطلب شأنها ، ودل على موضعها ، وعرف أنها صدق ، غدا بمعوله ومعه ولده الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ، فجعل يحفر ثلاثة أيام ، فلما بدا له الطى كبر وقال : هذا طى إسماعيل ، فقالوا : إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها ، فقال : ما أنا بفاعل ، وإن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم ، قالوا له : فانصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة سعد بن هذيم ، قال : نعم .

وكانت بأشراف الشام ، حتى إذا كانوا بمغارة فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر فخرجوا حتى إذا كانوا بمفازة بين الحجاز والشام ظمىء عبد المطلب وأصحابه حتى أيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا وقالوا : إنا بمفازة ، نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم ، فلما رأى ما صنع القوم ، وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع رأيك ، فمرنا بما شئت ، فأمرهم فحفروا قبورهم وقال : من مات واراه أصحابه حتى

يكون الآخر فضيعته أيسر من ركب ، وقعدوا ينتظرون الموت عطشا ، ثم قال : والله إن إلقاءنا للموت بأيدينا عجز ، لنضربن فى الأرض عسى الله تعالى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، وركب راحلته فلما انبعث به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وأصحابه ثم نزل فشربوا واستقوا ، حتى ملأوا أسقيتهم قبائل قريش فقال : هلم إلى الماء فقد سقانا الله فاستقوا وشربوا قالوا : قد والله قضى لك علينا ياعبد المطلب ، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا ، إن الذى أسقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى أسقاك زمزم إلى الكاهنة فأرجع إلى سقايتك راشدا ، فرجع ورجعوا معه ، و لم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم فحفرها من عامه ذاك) .

قصة الذبيح عبد الله

ولما آذاه عدى بن نوفل بن عبد مناف وقال له : ياعبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك ، فقال : أبالقلة تعيرنى ؟ فوالله لئن آتانى الله عشرا من الولد ذكورا لأنحرن أحدهم عند الكعبة .

وقيل سفه ناس من قريش ونازعوهما وقاتلوهما واشتد بذلك بلواه وكان معه ولده الحارث و لم يكن له سواه ، فنذر لئن جاء له عشر بنين وصاروا له أعوانا ليذبحن أحدهم قربانا لله عند الكعبة .

فلما تكامل بنو عبد المطلب عشرة بعد حفر زمزم بثلاثين سنة وأقر الله عينه بهم وهم مشهورون ، نام ليلة عند الكعبة المطهرة فرأى فى المنام قائلا يقول : ياعبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت ، فاستيقظ فزعا مرعوبا وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين ، ثم نام فرأى ما هو أكبر من ذلك فاستيقظ من نومه وقرب ثورا ، ثم نام فرأى ما هو أكبر من ذلك فانتبه وقرب جملا وأطعمه للمساكين ، ثم نام فنودى أن قرب

ما هو أكبر من ذلك فقال : وما هو أكبر من ذلك ؟ قال : قرب أحد أولادك الذى نذرته ؛ فاغتم لذلك غما شديدا .

وجمع أولاده ، وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء بالنذر فقالوا : إنا نطيعك فمن تذبح منا ؟ فقال : ليأخذ كل واحد منكم قدحا ويضع فيه النصل ثم ليكتب فيه اسمه ، ثم ائتوا به ، ففعلوا فدفع عبد المطلب تلك القداح إلى القّيم وقام يدعو الله تعالى

(اللهم إنى نذرت نحر أحدهم ، وأنى أقرع بينهم فأصب بذلك من شئت) ، ثم ضرب السادن القدح فخرج على عبد الله . وكان أحبهم إليه فقبض عبد المطلب على يد ولده عبد الله ، وأخذ الشفرة ثم أقبل على إساف ونائلة - صنمين عند الكعبة — تذبح وتنحر عندهما النسائك ، فلما جاء عبد المطلب بابنه ليذبحه ، قام إليه سادات قريش فقالوا : ما تريد أن تصنع ، والله لا ندعك تذبحه حتى نعذر فيه ،ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا .

وقال المغيرة بن عبد الله — وكان عبد الله ابن أخت القوم - : والله لا نذبحه حتى نعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه ، وقالوا : انطلق إلى فلانة الكاهنة فلعلها أن تأمرك بأمر فيه فرج ، فانطلقوا حتى أتوها بخيبر فقص عليها عبد المطلب القصة ، فقالت لهم : ارجعوا عنى حتى يأتينى تابعى فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما كان الغد قالت لهم : بعد أن غدوا عليها ، قد جاءنى الخبر كم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل ، فقالت : أرجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم — أى احضروه — إلى موضع ضرب القداح ثم قربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها القداح ، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا فى الإبل عشرة ، ثم اضربوا أيضاً وهكذا حتى يرضى ربكم .

فخرج القوم عنها ورجعوا إلى مكة وقربوا عبد الله وعشرة من الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو فى أثناء ذلك ، ويتضرع إلى الله تعالى : فخرجت القداح على ولده عبد الله ، فلم يزل يزيد عشراً وهى تخرج على عبد الله ، حتى بلغت الإبل مائة . فخرجت

القداح على الإبل فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى ، رضى ربك ياعبد المطلب . فزعموا أنه قال : لا والله حتى أضرب عليها القداح ثلاث مرات ، ففعلوا وهو قائم يدعو فخرجت على الإبل فنحرت وتركت لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع ، ولهذا روى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : (أنا ابن الذبيحين) ، ويعنى بالذبيحين : عبد الله وإسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

تحقيق من الذبيحين

حينما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أنا ابن الذبيحين) كان يعنى عبد الله وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وفى هذا الحديث دلالة على أن الذبيح هو إسماعيل .. لا إسحاق ومما يدل على ذلك أن الذبح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها كما جعل السعى بين الصفا والمروة .. ورمى الجمار تذكيرا بشأن إسماعيل وأمه .. ومعلوم أنهما هما اللذان كانا بمكة .. دون إسحق وأمه .

ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة ، وأيضا مما يدل على أنه إسماعيل عليه السلام ظاهر القرآن الكريم فإن الله سمى الذبيح حليما فى قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات : ١٠١) ، لأنه لا أحلم ممن يسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحق عليه السلام سماه عليما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر : ٥٣)

وأيضا فإن الله تعالى بعد أن قص فى كتابه العزيز قصة الذبح قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات :١١٢)،فهذا يدل على تقدم قصة الذبح فتكون مع إسماعيل عليه السلام وأيضا فإن الله تعالى أجرى العادة البشرية أن أكبر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وسيدنا إبراهيم عليه السلام لما سأل الله الولد ، ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته فأمر بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله عنده أعظم من محبة

الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة هى العزم ، وتوطين النفس ، وقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر وفدى بالذبح ، وصدق الخليل عليه السلام الرؤيا .

والذى عليه علماء الصحابة ، والتابعين ومن بعدهم، أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، وأما القول بأنه إسحق فمردود وهذا القول متلقى من أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم – الذى هو التوراة – فإن فيه أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفى لفظ وحيده ، وقد حرفوا ذلك فى التوراة التى بأيديهم ، اذبح ابنك إسحق ، ومن ثم روى فيما ذكره المعانى بن زكريا أن عمر بن عبد العزيز سأل رجلا أسلم من علماء اليهود : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : والله ياأمير المؤمنين إن اليهود يعلمون أنه إسماعيل ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم للفضل الذى ذكره الله تعالى .

نور النبوة فى جبين والده

أظهر الله نور نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ يتلألأ فى وجه والده مشهودا ، وكان عبد الله لوالده برا ودودا ، وخير إخوته حلما وجودا ، وأعفهم بعدا عن الغزل وصدودا .

لما انصرف مع أبيه من نحر الإبل مر على امراة من بنى أسد بن عبد العزى وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه وفيه نور المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ – وكان عبد الله أحسن رجل رؤى فى قريش – لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن ، فأبى إباء من عصمه الله ، وجعله كنزا لحبيبه ومصطفاه وقال لها :

أما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه   يحمى الكريم عرضه ودينه

أنا مع أبى ولا أقدر أن أفارقه

تلك عناية الله بمفرد ذاته المحبوب ، وهو فى كنز الغيوب

وقد هدى الله والله فسماه بأحب الأسماء إليه سبحانه، ففى الحديث : (أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن) وهو الذبيح كما تقدم، وكان ذا عفة وسماحة وكرم ، ولما خرج مع أبيه ليزوجه جوهرة كنز المجد والشرف، آمنة بنت وهب مصدر الجود والتحف ، مر على جملة النساء ، فصارت كل واحدة تعرض نفسها عليه وهو يأبى لديانته وعفته ، فأتى عبد المطلب عم آمنة وهو وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصى ، وقيل : إن وهبا أبوها لا عمها ، فزوج آمنة لعبد الله وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا فدخل بها عبد الله فحملت برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وانتقل ذلك النور إليها لما حملت به ﴿ ﷺ وآله﴾، فكانت أفق هذا الكوكب المضىء لعالين ، وصدفة درة عقد المرسلين .

وفاة والده عبد اللّه

توفى أبوه بالمدينة ، وكان قد رجع ضعيفا مع قريش لما رجعوا من تجارتهم ومروا بالمدينة فتخلف عند بنى عدى النجار وهم أخوال أبيه عبد المطلب لأن أمه منهم فأقام عندهم مرضا شهرا ، فلما قدم أصحابه مكة سألهم عبد المطلب عنه فقالوا : خلفناه بالمدينة مريضا عند أخواله ، فبعث عبد المطلب إليه أخاه الحارث وقيل الزبير ، فوجده قد توفى بالمدينة ودفن بها .

تحدث النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عن جداته

وقد افتخر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بجداته ، أى تحدث بنعمة ربه قاصداً به التنبيه على شرف هؤلاء النسوة وفضلهن على غيرهن ، فقال : (أنا ابن العواتك والفواطم) والعاتكة فى الأصل المتلطخة بالطيب أو الطاهرة .

وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنه عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال : (خرجت من نكاح غير سفاح) أى زنا ، لأن المرأه كانت تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها إن أراد . فكانت

العرب تستحل الزنا ، لأن الشريف منهم كان يتورع عنه علانية ، إلا بعض أفراد منهم حرمه على نفسه فى الجاهلية .

وفى حديث آخر : (خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء ، ما ولدنى إلا نكاح الإسلام)

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ما ولدنى بغى قط منذ خرجت من صلب آدم ولم تتنازعنى الأمم كابراً عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة) .

وعن أنس ﷺ قال : قرأ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ .(التوبة : ١٢٨) ، بفتح الفاء وقال : (أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلها نكاح)

وهذا من أعظم العناية به ﴿ ﷺ وآله﴾ أن أجرى سبحانه نكاح آبائه من آدم إلى أن أخرجه ﴿ ﷺ وآله﴾ من بين أبويه على نمط واحد وفق شريعته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

الفصل الثانى

حمـــلـــه ﴿ ﷺ وآله﴾

إرهاصات النبوة :

لما حملت به أمه ﴿ ﷺ وآله﴾ ظهر لها كثير من خوارق العادات ، إرهاصاً لنبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، منها : أنها لم تشك من حمله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثقلاً ، وأتاها آت فى المنام فقال لها : (إنك حملت بسيد هذه الأمه ونبيها) .

وعن الزهرى رحمه الله تعالى قال : قالت آمنه (لقد علقت به – ﴿ ﷺ وآله﴾ – فما وجدت له مشقة حتى وضعته) ..

وعنها أنها كانت تقول : ما شعرت – أى ما علمت – بأنى حملت به ولا وجدت له ثقلاً – بفتح القاف – كما تجد النساء إلا أنى أنكرت رفع حيضتى .

قالت آمنه وآتانى آت من الملائكة وأنا بين النائمة واليقظانة ، وفى رواية : وأنا بين النائم– أى الشخص النائم –واليقظان فقال :هل شعرت بأنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وفى رواية: بسيد الأنام – أى اعلمى ذلك – وأمهلنى حتى دنت ولادتى، أتانى فقال : قولى إذا ولدته (أعيذه بالواحد من شر كل حاسد) .

وعن كعب الأحبار أن فى صبيحة تلك الليلة أصبحت أصنام الدنيا منكوسة ، أى ولعل ذلك من علامة حمل أمه به ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الكتب القديمة ، وقول الصادق لا يتخلف .. وروى أن الأصنام نكست عند ولادته .. ولا مانع من التعدد .

وتوفى أبوه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأمه حامل به ، وكانت وفاته بالمدينة ودفن بها ﴿ ﷺ وآله﴾ وعن ابن عباس ﵁ قال : لما توفى عبد الله قالت الملائكة : ياإلهنا وسيدنا بقى نبيك يتيماً

لا أب له ، فقال الله تعالى لهم : [أنا له حافظ ونصير] وفى رواية : [أنا وليه وحافظه وحاميه وزبه وعونه ورازقه- وكافيه فصلوا عليه وتبركوا باسمه] ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقيل لسيدنا جعفر الصادق ﵁ : لِمَ يُتِّمَ النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ أى ما حكمة ذلك ؟ قال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق .

والمراد الحقوق الثابتة بعد البلوغ ، لأن أمه ﴿ﷺ وآله﴾ ماتت وعمره ست سنين ، وليعلم أن العزيز من أعزه الله ، وأن قوته ﴿ﷺ وآله﴾ ليست من الآباء والآمهات ، ولا من المال بل قوته من الله تعالى ، وأيضاً ليرحم الفقير واليتيم ، وروى الحاكم بإسناد صحيح أن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك . فقال : (أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام) وصح أيضاً أنها ذلك عند ولادته ، قيل : إن الذى كان عند الولادة كان يقظة والذى عند الحمل كان مناماً .

وكانت تلك السنة التى حملت فيها برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سنة الفتح والابتهاج ، فإن قريشاً كانت قبل ذلك فى جدب وضيق عيش عظيم، فاخضرت الأرض، وحملت الأشجار، وأتاهم الرعد والمطر من كل جانب فى تلك السنة ، وأذن الله تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وارتجس — أى اضطرب وانشق — إيوان كسرى أنو شروان، وكان مبنياً بناء فى غاية الإحكام ، وسمع لشقه صوت هائل وسقط منه أربع عشرة شرفة .

وخمدت نار فارس ، أى مع إيقاد خدامها لها وكتب صاحب فارس لكسرى : أن بيوت النار خمدت تلك الليلة و لم تخمد قبل ذلك بألف عام.

وغاضت بحيرة ساوة ، أى غارت بحيث صارت يابسة كأن لم يكن بها شىء من الماء مع شدة اتساعها ، وفاضت بحيرة طبريا وجرى فيها الماء .

وكانت ولادته ﴿ ﷺ وآله﴾ على المشهور يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل .

لماذا كان الميلاد يوم الاثنين من ربيع ؟

خُص مولده الكريم بشهر ربيع الأول وبيوم الاثنين منه على الصحيح ولم يكن فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، ولا فى الأشهر الحرم ، ولا فى ليلة النصف من شعبان ، ولا فى يوم الجمعة ولا فى ليلتها ، فما الحكمة من ذلك ؟

الجواب : من أربع أوجه :

الوجه الأول : ورد فى الحديث أن الله تعالى خلق الشجر يوم الاثنين ، وهو رمز الأقوات والخيرات التى يتغذى بها الخلق ويحيون ، ويتداوون ، وتنشرح صدورهم لرؤيتها ، وتطيب بها نفوسهم ، وتسكن بها خواطرهم ، فكان ميلاده ﴿ ﷺ وآله﴾ فى هذا اليوم رمز للخير العظيم والبركة الشاملة لأمته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

الوجه الثانى : إن ظهوره ﴿ ﷺ وآله﴾ فى شهر ربيع ذلك الشهر الذى تكثر فيه الخيرات وينعم بها المؤمن والكافر ، فيه إشارة ظاهرة لمن تفطن إليه بالنسبة إلى اشتقاق لفظة (ربيع) ، إذ أن فيه تفاؤلاً حسناً ببشارته لأمته ﴿ ﷺ وآله﴾ والتنويه بعظيم قدر هذا النبى الكريم وأنه رحمة للعالمين وبشرى للمؤمنين ، وحماية للكافرين بتأخير العذاب عنهم فى الدنيا لأجله ﴿ ﷺ وآله﴾ لقول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ .(الأنفال : ٣٣) .

الوجه الثالث : ما فى شريعته ﴿ ﷺ وآله﴾ من شبه الحال ، ألا ترى أن فصل الربيع أعدل الفصول وأحسنها ، إذ ليس فيه برد مزعج ، ولا حر مقلق ، وليس فى ليله ونهاره طول خارق ، بل كله معتدل ، وفصله سالم من العلل والأمراض والعوارض التى يتوقعها الناس فى أبداهم فى زمان الخريف ، بل الناس تنتعش فيه قواهم وتصلح أمزجتهم وتنشرح صدورهم ، لأن الأبدان يدركها فيه من إمداد القوة ما يدرك النبات حين خروجه ، إذ

منها خُلقوا فيطيب ليلهم للقيام ونهارهم للصيام ، فكان ذلك شبه الحال بالشريعة السمحة التى جاء بها ﴿ﷺ وآله﴾ من رفع الإصر والأغلال التى كانت على من كان قبلنا .

الوجه الرابع : شاء الحكيم سبحانه وتعالى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ تتشرف به الأزمنة والأماكن لا هو يتشرف بها ، بل يحصل للزمان والمكان الذى يباشره ﴿ﷺ وآله﴾ الفضيلة العظمى ، فلو ولد ﴿ﷺ وآله﴾ فى الأوقات المتقدم ذكرها لكان ظاهره يوهم أنه يتشرف بها فجعل الحكيم جل جلاله مولده الشريف فى غيرها ليظهر عظيم عنايته به وكرامته عليه ، ولذلك قال ﴿ﷺ وآله﴾ للسائل الذى سأله عن صوم يوم الاثنين : (ذلك يوم ولدت فيه) .

وإذا كانت ساعه الإجابة يوم الجمعة هى الساعة التى خُلق فيها سيدنا آدم عليه السلام ، فما بالنا بالساعة التى ظهر فيها سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الوجود ، وإذا كان الله تعالى بشر الملائكة بآدم وهو هيكل منن طين ، فكيف تكون البشائر بحبيب الله ومصطفاه الصادق الأمين ، وهو القائل (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ، والقائل : (آدم ومن دونه تحت لوائى) ؟ . وإن قال قائل : قد خُص يوم الجمعة بصلاة الجمعة والخطبة وغير ذلك و لم يخص يوم مولده الشريف بشيء فما الحكمة من ذلك ؟

فالجواب :من أنه ﴿ﷺ وآله﴾ ما يخصه فى نفسه الكريمة يخفف فيه الأمر عن أمته فلا يكلفهم فيه زيادة عمل ، لأن المولى سبحانه وتعالى لما أن أخرجه إلى الوجود فى هذا اليوم المعين لم يكلف الأمة فيه زيادة عمل إكراماً لنبيه ﴿ﷺ وآله﴾ بالتخفيف عن أمته بسبب عناية وجوده فيه ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، فهو رحمة للعالمين عموماً ولأمته خصوصاً ومن جملة ذلك عدم التكليف يوم مولده .

(راجع كتاب المدخل لأبى عبد الله محمد بن الحاج العبدرى المالكى) .

وافى ربيع لنا بالخير والبشرى … فيه لقد أشرقت شمس الهدى الكبرى

فيه لقد ولد المختار واتضحت آى الهدى والتهانى فيه قد تترى
قبل الولادة أملاك السما نزلت والنور يشرق دوماً ليلة الذكرى
والبيت ظلل بالأملاك يقدمهم نور من الله من بحبيبه أسرى
أبرز شمساً تضىء الكون أجمعه حتى رأت أمه من نوره بصرى
خرت على رأسها الأصنام خاسئة بل أخمدت نار إضلال لدى كسرى
والجن قد دحروا بالرجم واندحروا لم يسمعوا أبداً شعراً ولا نثراً
فاضت بحيرة طبريا بمولده غاضت بحيرة ساوى الماء ثم جرى
عن أعين الخلق فى الملكوت غيبه جبريل لما به للعالمين سرى
أوما إلى القدس الأعلى بأصبعه رمز إلى أنه فضلاً سما قدراً
قد جمل الملك والملكوت مولده أصل السعادة فى الدنيا وفى الأخرى
بل مريم ابنة عمران وآسية قد يخدمان وكان الفضل للعذرا
فى بيت آمنة العصماء يخدمها حور الجنان تواليها ولا فخرا

رضاعه ﴿ﷺ وآله﴾

معلوم أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، هو الرحمة العامة للعالمين ، من إنس ومن جن وملائكة إلى أعلى عليين . فهو عين الرحمة المفاضة من حضرة الإحسان ، التى وسع الله بها كل شىء بالفضل و الحنان . سعد والله من مس جسمه الشريف أو رآه بمعناه ، أو أحبه وفرح به ووالاه .

كانت أول من أرضعته ﴿ﷺ وآله﴾ أمه آمنة بنت وهب ، ثم ثويبة الأسلمية مولاة أبى لهب ، التى أعتقها حين بشرته بولادته ﴿ﷺ وآله﴾، ومن قبل أرضعت حمزة بن عبد المطلب عمه ﴿ﷺ وآله﴾ .. وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى فهؤلاء

أخوة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من الرضاعة ،أما أخوته من حليمة فهم : عبد الله وأنيسة وجذامة وهى الشيماء.

وكان من عادة العرب التماس المراضع من غير قبيلتهم ، ليكون أنجب للولد وأفصح . ولما جاءت المراضع من بنى سعد إلى مكة ، يلتمسون الرضعاء ومعهم حليمة السعدية .

أخذت كل مرضعه تدخل لتنال شرف إرضاعه ﴿ﷺ وآله﴾ فيسألها جده عبد المطلب عن اسمها وعشيرتها ثم يعرض عنها ، حتى جاءت حليمة السعدية فسألها فقالت : حليمة السعدية من بنى بكر ، فقال جده : حلم وسعد . ووافق على أن ترضعه ﴿ﷺ وآله﴾ .. فسعدت والله حليمة ، وكيف لا ؟ وقد أرضعت خير البرية.

سئل الحافظ ابن حجر عما يقع عن بعض الوعاظ فى المولد فى مجالسهم الحافلة المشتملة على الخاص والعام من الرجال والنساء من ذكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بما يخل بكمال التعظيم ، حتى يظهر للسامعين لها حزن ورقة فيبقى ﴿ﷺ وآله﴾ فى حيز من يُرحم لا من يُعظم ، كقولهم : لم تأخذه المراضع لعدم ماله إلا حليمة رغبت فى رضاعه شفقة عليه ، وأنه كان يرعى غنمها وينشدون :

بأغنامه سار الحبيب إلى المرعى فيا حبذا راع فؤادى له مرعى

وكثير من هذا المعنى المخل بالتعظيم ؟ .

فأجاب بما نصه : ينبغى لمن يكون فطناً أن يحذف من الخبر ما يوهم فى المخبر عنه نقصاً ولا يضره ذلك .

بل نص بعض المالكية أن من قال فى المجالس : إنه ﴿ﷺ وآله﴾ يتيم يرتد .. والعياذ بالله تعالى .

وقد حكى أن عالماً منهم قال : إنه يتيم بنى طالب فأفتى بعض المغاربة بقتله ، فعرض الأمر على الناصر اللقانى فقال : احصنوا دم هذا الأستاذ بتقليد الإمام الشافعى .

وكذا لا يليق أن يقال: إنه ﴿ﷺ وآله﴾ فقير، لأن الجبال راودته عن نفسها أن تكون ذهباً فأبى كما يشير إلى ذلك قول صاحب البردة:

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

فلا يجوز أن يقال: إنه غريب فقير مسكين بل يجب ذكره ﴿ﷺ وآله﴾ بالأسماء المعظمة، ومذهب السادة الأحناف أن ساب النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ومنتقصه يكفر ولكن يستتاب فإن تاب وظهر عليه سيما الصلاح ترك، وإن لم يتب يقتل).. انتهى بحروفه.

فمن قال فى المجالس: إنه يتيم يرتد .. إن صدر هذا القول عن رجل يريد إنقاصه، أما إن صدر عن رجل يقصد معناً آخر لليتم مثل أنه ﴿ﷺ وآله﴾ فريد وعظيم ،وله مكانة عالية،ومفرد فى كل شيء كما يقال : (جوهرة يتيمة) أى نادرة ثمينة يعز نظيرها ..فهذا حق.

حبيب قلبى محمد باالحسن والنور مفرد
كلامه نور روحى منه العطا يتجدد
خذنى بكلى حبيبى إلى المدينة أشهد
مولاى أسعد بوصل حتى أرى نور أحمد
آنس مشوقاً بوصل عساه بالوصل يسعد

تقول حلمية : لما دخلت عليه – تعنى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ - لآخذه ، فإذا هو مدرج فى ثوب صوف أبيض من اللبن وتحته حريرة خضراء ، راقد عليها على قفاه يغط ، تفوح منه رائحة المسك ، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فوضعت يدى على صدره فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه .

أخرج ابن سعد والحسن بن الطراح فى كتاب الشواعر والسيوطى فى الخصائص عن زيد بن أسلم : أن السيدة حليمة لما أخذت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قالت لها أمه السيدة آمنة

بنت وهب رضى الله عنها : (اعلمى أنك قد أخذت مولوداً له شأن ، والله لحملته فما كنت أجد ما تجد النساء من الحمل ، ولقد أتيت فقيل لى : إنك ستلدين غلاماً فسميه أحمد وهو سيد العالمين ، وقد وقع معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء) .

قالت حليمة : ثم أعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن ثم حملته إلى الأيسر ، فأبى وكانت تلك حاله بعد .

قالت : وقام زوجى إلى شاة لنا ، فإذا هى ممتلئة الضرع من اللبن فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رياً وشبعاً ، وبتنا بخير ليلة ، يقول صاحبى حين أصبحنا : والله ياحليمه لقد أخذنا نسمة مباركة ، فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أتانى – أنثى الحمار – وحملته معى عليها فوالله إنها قطعت بالركب ما يقدر على مرافقتها شيء من حمرهم حتى إن صواحبى قلن لى : يابنت أبى ذؤيب ويحك .. أربعى علينا . أى اعطفى علينا بالرفق وعدم الشدة فى السير ، أليست هذه أتانك التى كنت عليها تخفضك طوراً وترفعك طوراً ؟ فأقول لهن : بلى والله ... إنها لهى، فيقلن: والله إن لها لشأناً .

قالت فيما ذكره ابن اسحق وغيره: ثم قدمنا منازل بنى سعد، ولا أعلم أرضاً من أراضى الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا شباعاً لبنا ، أى غزيرات اللبن فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان المقيم فى المنازل من قومنا يقول لرعاهم : اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفطمته .

فازت حليمة بل سعدت بطلعته قبل الرضاع لقد ذابت ضنى فقرا
تأباه يتماً له لم تدر قيمته حتى لقد شهدت آياته تترى

درت شياه فتاة الحى واتسعت   أرزاقها نالت الخيرات واليسرا
حتى لقد حسدت من قومها فسمت   حتى محا المصطفى عن ضيره العسرا
وى ياحليمة !! نلت الخير أجمعه   أصبحت للمصطفى الهادى نعم ظئرا

قالت حليمة رضى الله عنها : فقدمنا مكة على أمه – أى بعد أن بلغ سنتين – ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ فرجعنا به .

فوالله إنه بعد مقدمنا وهو مع أخيه لفى بُهْم لنا – بهائم سود - خلف بيوتنا غذ أتى أخوه يشتد أى يعدو فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه – أى يدخلان يديهما فى بطنه – فقالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما مستنقعا وجهه – أى متغيرا لما ناله من رؤية الملائكة – لا من الشق لأنه بغير ألم، قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يابنى ؟ قال: (جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال : نعم . فأقبلا يبتدرانى فأخذانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا فوجداه وأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو).

أخرج أبو يعلى وأبو نعيم وابن عسكر وابن جرير والسيوطى فى الخصائص أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال : (ثم قال أحدهما للآخر : زنه بعشرة من أمته فوزنونى فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزنونى فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنونى فرجحتهم ، فقال : دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم .. ثم ضموى إلى صدرهم وقبلوا رأسى وما بين عينى ، ثم قالوا : ياحبيب الله لم ترع ، إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك ، ثم جاء الحى فأخبرهم ، فقال بعض القوم : إن هذا الغلام أصابه لمم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : ما بى شيء مما تذكرون إنى أرى نفسى سليمة وفؤادى صحيح ، فقال زوج ظئرى – مرضعتى - : ألا ترون أن

كلامه كلام صحيح إنى لأرجو أن لا يكون بابنى بأس .. فذهبوا بى إلى الكاهن فقصوا عليه قصتى ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم فقصصت عليه قصتى ، فلما سمع قول ، وثب إلىّ فضمنى إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يال العرب .. يال العرب .. اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه ، فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسفهن عقولكم ، وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط ، فعمدت ظئرى فانتزعتنى من حجره وقالت : لأنت أعته ، وأجن ولو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيت به إليك فاطلب لنفسك من يقتلك ، فإنا غير قاتلى هذا الغلام ، ثم احتملونى فأدونى إلى أهلى ، وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشراك) .

قالت حليمة : فرجعت به إلى خبائنا وقال لى أبوه : ياحليمة لقد خشيت على هذا الغلام فألحقيه بأهله ، واخرجى من أمانتك ، فحملناه وقدمنا به مكة ، قيل وهو ابن أربع سنين على الصحيح .

وقد شق صدره مرة ثانية وهو ابن عشر سنين ، ثبت ذلك فى حديث رواه أحمد وابن حبان والحاكم ، أنظره فى شرح الزرقانى . وشق صدره مرة ثالثة عند مجىء جبريل بالوحى حين نبىء رواه أبو داود والطيالسى كما فى شرح المواهب .

وشق صدره رابعة فى ليلة الإسراء كما فى الصحيحين . .

قالت حليمة : فلما قدمت مكة قالت أمه : ما أقدمك به ، ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ، قلت : قد بلغ والله وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث فأديته عليك كما تحبين .

وفاة أمه ﴿ﷺ وآله﴾

لما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ست سنين توفيت أمه ، وفى رواية ابن سعد عن ابن عباس ﵁ قال : لما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ست سنين خرجت أمه به إلى أخوال جده وهم بنى عدى ابن النجار بالمدينة تزورهم ومعه أم أيمن (بركة الحبشية) فأقامت عندهم شهراً ، ومرضت فى الطريق وهى عائدة إلى مكة وتوفيت .

وحضنته أم أيمن حتى أتت به إلى جده عبد المطلب .

يا كنز جوهرة الرضوان والفضل   وشمس قدس أضاءت ظلمة الجهل
يا أم سيد رسل الله أجمعهم   وكنز درته العصماء بالطول
يا أفق شمس الهدى للعالمين بها   قد أشرق النور للظلمات قد يجلى
قد جاء مستجدياً من فضل آمنة   أم النبى إمام الكل فى الكل
أنت النجاة لكل الخلق أجمعهم   أنجيت بالمصطفى أعلى من السفل
يا روض آمنة فاخرت مكرمة   عرشاً بما أوليت من فضل
فيك العناية والخير العظيم نعم   أم النبى إمام أئمة الرسل
روض به منح الرحمن رحمته   وأشرق الشمس شمس البعد والقبل
يا كنز لؤلؤة قد صاغها كرماً   من نوره ربنا بالطول والحول
فى روض آمنة أدعو ولى أمل   فى نيل ما أرتجى بالقلب والقول
فوق الجنان نعم روض ألاح ضيا   قدس الجلالة بالأحوال والفعل
بل فوق مقعد صدق لو شهدت ضيا   أنوار آمنة تجلى بلا ظل
أم الحبيب المرجى كنز درته   وهى النجاة لنا من فادح الهول
يا كنز شمس الهدى ودا وعاطفة   للمجتدى من أتى أرجو عطا أصلى
أوليت للملأ الأعلى الأمان ولى   منك انتظامى بعقد أحبتى أهلى
لى مقصد كنز شمس المصطفى كرماً   للمجتدى نظرة الإحسان بالنيل

أنت الوسيلة للهادى أنال بها كل القصود من القربى من الطول
فى طيبة أتهنى بالقبول بها أحيا أموت بها فى حظوة الوصل
يا سيدى ياشفيع المذنبين أتى عبد بآمنة يرجو الصفا الكل
وهى الوسيلة لى حاشا أرد ولى منها عطاء بفضل منك قد يولى

الفصل الرابع

كفالة جده وعمه له ﴿ ﷺ وآله﴾

وقد كفله جده عبد المطلب حتى كان سنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ثمان سنين على أرجح الأقوال ، وكان يكرم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ويعظمه وهو صغير ، لما كان يسمعه من الكهان والرهبان ، ولتولى البشارات والأخبار عن نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد أخرج البيهقى وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عفير بن زرعة بن سيف بن ذى يزن عن أبيه قال : لما ظهر سيف بن ذى يزن على الحبشة، وذلك بعد مولد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بسنتين ، أتاه بعد ذلك وفود العرب لتهنيه ، وأتاه وفد قريش منهم عبد المطلب ، فقال له سيف : ياعبد المطلب إنى مفوض إليك من سر علمى أمراً لو غيرك يكون لم أبح له به ، ولكن رأيتك معدنه فأطلعتك طلعه (سره) فيكن عندك مخبياً حتى يأذن الله فيه ، إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، خيراً عظيماً ، وخطراً جسيماً ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة ، فقال عبد المطلب : ما هو ؟ قال : إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، إلى يوم القيامة .

ثم قال : هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد ، اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد ولدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويصرف بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم أهل

الأرض، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، ويخمد النيران ، ويكسر الأوثان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النقب ، وإنك جده ياعبد المطلب غير كذب ، فهل أحسست بشىء مما ذكرت لك ؟

قال : نعم أيها الملك ، إنه كان لى ابن وكنت به معجبا وعليه رفيقا ، وإنى زوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام فسميته محمدا ، وقد مات أبوه .

فقال له سيف إن الذى قلت لك كما قلت فاحفظه واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير إلى يثرب دار ملكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق ، أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصره ، وموضع قبره .

وأخرج أبو نعيم والخرائطى وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى طالح عن ابن عباس مثله سواء . (الخصائص الكبرى للسيوطى جـ١ ص ٨٢) .

وتوفى عبد المطلب ودفن بالحجون عند جده قصى .

ولما حضرته الوفاة أوصى به ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى عمه شقيق أبيه أبى طالب ، .

وكان أبو طالب ممن حرم السجود للأوثان والزنا الخمر على نفسه فى الجاهلية كأبيه عبد المطلب .

وحين أوصى به جده لأبى طالب أحبه حبا شديدا لا يحبه لأحد من ولده ، فكان لا ينام إلا إلى جنبه ، وكان يخصه بأحسن الطعام ، وكان يوضع لأبى طالب وسادة يجلس عليها فجاء النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فجلس عليها فقال : إن ابن أخى يحس بنعيم – أى بشرف عظيم .

أدبنى ربى فأحسن تأديبى

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية عند قوله ﴿ﷺ وآله﴾ : (إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى) أى علمنى رياضة النفس ، ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة ، بأفضاله على بالعلوم الوهبية مما لم يقع نظيره لأحد من البرية .

وقال القرطبى : قد حفظه الله من صغره ، وتولى تأديبه بنفسه ، و لم يكله فى شىء من ذلك لغيره ، و لم يزل الله يفعل ذلك به حتى كره إليه أحوال الجاهلية وحماه منها ، فلم يجر عليه شىء منها .. كل ذلك لطف به ، وعطف عليه ، وجمع للمحاسن لديه .

وقال بعضهم : أدب الله روح رسوله ورباها فى محل القرب قبل اتصالها ببدنه باللطف والهيبة ، فتكامل له الإنس باللطف ، والأدب بالهيبة ، واتصلت بعد ذلك بالبدن ليخرج من اتصالها كمالات أخرى من القوة إلى الفعل ، فينال كل من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال ما يلق بالحال ، ويصير قدوة لأهل الكمال .

من جمال قد صاغ ربى الحبيبا   وهو فرد له منيبا قريبا
قد تولاه وهو فى اليتم ربى   وحباه فصار فردا حبيبا
أنت لله مفرد صغت حبى   ولك الله إن سألت مجيبا
أنت نور أضأت قبل التجلى   قبل خلق الأكوان كنت مهيبا
من ضياء قد صاغك الله ربى   جئت ياسيدى أضأت قلوبا
جئت شمسا محوت ظلمة كفر   والضحى وضحت أدر مشروبا
قد أضاءت شمس الحبيب برسم   صرت ياسيدى لنا المرغوبا
أنت قصد العالين محبوب ربى   أنت سر الوجود هب لى النصيبا
أنت سر الأسرار فى كنز غيب   لم يراك الصديق كان نقيبا

كعبة الروح أنت نور هداها   حجت الروح هيكلا موهوبا
جئت ياسيدى لعالم أعلى   رحمة الله والبها المطلوبا
جئت للعالمين خير شفيع   يوم هول نراك تأتى مجيبا
فى اتباع الحبيب رضوان ربى   واتباع المختار صار وجوبا
سيدى نظرة بعين حنان   واجعلنى لذاتك المصحوبا

سفره مع عمه إلى الشام

لما بلغ ﴿ ﷺ وآله﴾ اثنى عشر عاما وشهرين وعشرة أيام سافر عمه أبو طالب إلى الشام فأخذه معه ، فلما نزل الركب بصرى وبها راهب يقال له (بحيرا) ، وكانت قريش كثيرا ما تمر على بحيرا فلا يكلمهم ، حتى كان ذلك العام ، صنع لهم طعاما كثيرا .

وقد كان رأى وهو بصومعته رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، ثم لما نزلوا فى ظل شجرة نظر الغمامة قد أظلت الشجرة ومالت أغصان الشجرة على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأرسل إليهم أنى قد صنعت لكم طعاما يامعشر قريش ، وأحب أن تحضروا كلكم ، كبير كم وصغير كم ، عبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم : يابحيرا إن لك اليوم لشأنا ، ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر عليك كثيرا ، فما شأنك اليوم؟

فقال له بحيرا : صدقت.. قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم .

فلما نظر بحيرا فى القوم ولم ير فى أحد منهم الصفة التى هى علامة النبى المبعوث آخر الزمان ، التى يجدها عنده ، ولم ير الغمامة على أحد من القوم ، ورآها متحلقة على

رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : يامعشر قريش ، لا يتخلف منكم أحد عن طعامى ، فقالوا : يابحيرا ما تخلف أحد عن طعامك ينبغى له أن يأتيك ، إلا غلام هو أحدث القوم سنا ، قال : لا تفعلوا .. دعوه فليحضر هذا الغلام معكم ، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم ، فقال القوم : هو والله أوسطنا وهو ابن أخى هذا الرجل ، يعنون أبا طالب ، وهو من ولد عبد المطلب .

وما تخلف عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه عمه الحارث بن عبد المطلب فاحتضنه وجاء به وأجلسه مع القوم ، ولما سار به لم تزل الغمامة تسير على رأسه ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا ، وينظر إلى أشياء فى جسده كان يجدها عنده من صفته ﴿ﷺ وآله﴾ حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرا فقال : أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فو الله ما أبغض شيئا قط بغضهما .

فقال بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : سلنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ، ومن نومه ، ومن هيئته وأموره ، فيخبره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فيوافق ذلك ما يجد من صفة النبى المبعوث آخر الزمان الذى عنده .

ثم كشف ظهره فرأى خاتم النبوة على الصفة التى عنده ، فقالت قريش : إن لمحمد عند هذا الراهب لقدر .

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال : ما هذا الغلام منك ؟ .

قال : ابنى .

قال: ما هو ابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أباه حيا . قال: فإنه ابن أخى .

قال: فما فعل أبوه ؟ .

قال: مات وأمه حبلى به.

قال: صدقت.

ثم قال: فما فعلت أمه ؟ قال: توفيت قريبا ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلاده ، واحذر عليه يهود . ولئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لتبغينه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا ورويناه عن آبائنا ، واعلم أنى قد أديت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلده. فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة .. حرصا عليه ، وحبا فيه ، وعهدا على نصرته ، والإيمان به ﴿ ﷺ وآله﴾.

حفظ الله تعالى له صغيرا

وقد حفظ الله النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ مما كان عليه أهل الجاهلية، حتى صار أحسنهم خلقا وأعظمهم تنزها عن الفحش ، وأفضل قومه مروءة وأكرمهم مخالطة وخيرهم جوارا ، وأكثرهم صلحا ، وأحفظهم أمانة ، وأصدقهم حديثا ، فسموه الأمين لما جمع من الأمور الصالحة والفعال السديدة .

وقد ورد عن ابن إسحق أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال (قد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وكلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليها الحجارة ، فإنى لأقبل معهم وأدبر ، إذ لكمنى لاكم ما أراها لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، فأخذته فشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى) .

وورد أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : (ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية حتى أكرمنى الله عز وجل بالنبوة إلا مرتين ، قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة فى

غنم لأهله يرعاها ، أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان ، قال : نعم .

فخرجت ، فلما جئت أدنى دار بمكة سمعت غناء وصوت دف ومزامير ، فقلت : من هذا ؟ قالوا: فلان تزوج فلانة، فلهوت بذلك الصوت حتى غلبنى النوم فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبى فقال: ما فعلت ؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك).

– النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ منزه عن القبيح:

إن نسبة الأفعال القبيحة إلى هذا السيد الكريم ، شيء غير مقبول عقلا وشرعا .

فالنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يعلم بأمر نبوته قبل خلق آدم حيث يقول: (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد)، وما مر علينا من بشارات وإرهاصات تؤكد معرفته بأمر نبوته منذ طفولته، وكذلك حادثة شق صدره الشريف، وخاتم النبوة بين كتفيه، وكلام الكهان والرهبان دليل على معرفته الكاملة بمقامه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وإذا كان سيدنا عيسى عليه السلام قد علم بأمر نبوته قبل ولادته وأخبر بذلك بعد الولادة مباشرة فقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي ۞ نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حيا﴾ مريم ٣٠ ، ٣١) .. فكيف بسيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ .

وإذا كان الرب تعالى هو الذى تولى تربيته والعناية به فقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) . . فكيف تتوق نفسه إلى اللهو بسماع غناء ودف ومزامير ؟ !! .

رعايته ﴿ ﷺ وآله﴾ للأغنام

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، قال أصحابه ﵁ أجمعين : وأنت يارسول الله ؟ ، قال : وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط) ، والقراريط اسم مكان وليس المقصود بها الفضة .

وحكمة رعيه للغنم يكشفها السيد عبد الكريم الجيلى ﵁ فى كتابه (لسان القدر بكتاب نسيم السحر) فيقول: ما جعل ﴿ ﷺ وآله﴾ راعى الأغنام ، قبل دركه ا لأحلام ، إلا تنبيها أنه الراعى الأعظم، المتصرف والمستخلف على تدبير العالم ، أما تراه قد شفع فى الأب الأول حتى عفى عنه ، وشفع لأولاده فى الآخرة بالخلاص من جهنم ، كل يقول نفسى نفسى خوفا عليهم من الأمر المبرم ، لكونهم رعيته يقول قائلهم : ما أملك إلا نفسى ، لكنما الراعى الأعظم يقول : أمتى .. لأنه راعيهم وكل راع مسئول عن رعيته فاعلم، فهو الموجود ، الذى عنده راحة الوجود ، وهو المنفس فى المضايق ، عن سائر الخلائق .

بعث ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الأحمر والأسود والفصيح والأعجم ليكون رحمة للعالمين، فلا تظن أن رحمته مخصوصة بالمسلمين والمؤمنين فإنه يشفع للخلائق أجمعين، ألا تراه ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: (آدم ومن دونه تحت لوائى ولا فخر) ليت شعرى هل يصل إلى من يكون تحت لواء سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ شر من البشر ، ما هذا ظنى بذلك العظيم القدر ، وقد صح عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال : إن الله تبارك وتعالى قد وعده أن يعطيه ثلاث حثيات بيده ممن قد استوجب النار .

لما بلغ عمرا يدرك فى مثله الأحلام ، قيل له انزل لرعى الشاة والأغنام ، فأنت الراعى الحقيقى لسائر الأنام ، إنما جعل الرعى لك كالطريقة ،لتتحقق بما سبق لك فى الحقيقة ،لابد لظهور سرك الموهوب ، من حركة منك أيها المحبوب ، فاسع بالجد لكى تنال

المطلوب ، ياهذا احذر على غنم غنيمة الروح من قرب شيطان النفس ، فلا تدع عصا مخالفتها من كف خوف النزع والزيغ واللبس ، لولا ما أراد نبيك ﴿ﷺ وآله﴾ من تحريضك على مخالفة نفسك وحسن سياسة باطنك على الدوام ، لما قال لك مرتبا بحكمته : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) الحواس الخمس والقوى الباطنة والجوارح الظاهرة جميعها رعية لراعيها فالعدل بها أحرى ، إياك أن تستعملها فى الموبقات فتشقى بشقائها فى الأخرى ، فإن ذلك ظلم فى حقها ، وأنت بجزاء أدرى .

حرب الفجار وحلف الفضول

وحضر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حرب الفجار وكان له من العمر أربع عشرة سنة ، عن ابن سعد قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت) وحضر ﴿ﷺ وآله﴾ حلف الفضول ، وهو أشرف حلف فى العرب .

والحلف : اليمين والعهد ، وكان عند منصرف قريش من حرب الفجار وتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه .

وفى رواية : تعاهدوا على أن يردوا الفضول على أهله ولا يعز ظالم على مظلوم ، والمراد بالفضول ما يؤخذ ظلما .

سفره للشام مرة ثانية
فى تجارة للسيدة خديجة

لما بلغ ﴿ﷺ وآله﴾ خمسة وعشرين عاما ، قال له عمه أبو طالب : ياابن أخى هذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون فى

مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام ، وأخاف عليك من يهود . ولكن لا نجد من ذلك بد .

فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لعلها ترسل إلى فى ذلك)

وافترقا .. فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له وقد علمت صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه .

فأرسلت إليه ، وقالت : دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومى .

فذكر ذلك ﴿ ﷺ وآله﴾ لعمه ، فقال : إن هذا لرزق ساقه الله إليك ، فخرج ومعه ميسرة – غلام لخديجة – فى تجارة لها ، وقالت لميسرة لا تعصى له أمرا ، ولا تخالف له رأيا وجعل عمومته يوصون به أهل العير .

ومن حين بدأ المسير ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ظللته الغمامة حتى بلغ سوق بصرى ، فنزل تحت ظل شجرة ، قريب من صومعة الراهب نسطورا .

بشارة نسطورا الراهب بنبوته ﴿ ﷺ وآله﴾

فلما نزل الركب بقرب صومعة الراهب نسطورا، نزل إليهم منها وكان لا ينزل لأحد. وطاف فيهم حتى رأى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فعرف فيه علامات النبوة ، فأكرمه ، وأضافهم من أجله ، وعرفهم أنه نبى هذه الأمة ، وأنه خاتم النبيين ، وقال له : احذر على نفسك من كيد اليهود والنصارى ، وأوصى ميسرة به .

فقيل له : كيف عرفت أنه نبى ؟

قال : إنكم لما أقبلتم لم يبق شجر ولا حجر ، إلا وسجد إلى جهتكم .

وكان ميسرة يقول : كان إذا اشتد الحر ظللته غمامة تسير أينما سار.

وقبل هذا سأل نسطورا ميسرة : من هذا الذى تحت الشجرة ؟

فقال له : رجل من قريش ، من أهل الحرم ، فقال لميسرة : أفى عينه حمرة ؟ قال ميسرة : نعم ، لا تفارقه أبدا ..

وكانت الشجرة قد مالت بظلها إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال نسطورا :هو آخر الأنبياء ، ويا ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج ، فرعى ذلك ميسرة .

ثم حضر ﴿ﷺ وآله﴾ سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها ، فلما رجعا من الشام أخبر ميسرة سيد ته خديجة بما رآه من كرامته ﴿ﷺ وآله﴾ ، وصدقه وأمانته ، وما أخبر به الراهب ، و ما رآه من تظليل الغمام له ، وغير ذلك .

فرغبت فى نكاحه، فخطبته إلى نفسها، وكان كل أشراف قومها حريصا على ذلك.

ولما رجعوا إلى مكة فى ساعة الظهيرة، وخديجة فى غرفة عالية لها رأت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على بعير والغمامة تظلله (رواه أبو نعيم).

ودخل عليها ﴿ﷺ وآله﴾ وأبلغها بما ربحوا فسرت ..

ولما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، فقال : قد رأيت هذا منذ خرجنا ، وأخبرها بقول نسطورا الراهب ، ولما قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بتجارتها وقد ربحت ضعف ما كانت تربح ، أضعفت له ما كانت سمته له ﴿ﷺ وآله﴾ .

زواجه ﴿ﷺ وآله﴾ من السيدة خديجة بنت خويلد

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى تجتمع معه ﴿ﷺ وآله﴾ فى قصى، وهى من أقرب نسائه إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فى النسب.

وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة، لشدة عفتها وصيانتها، وتسمى أيضا سيدة نساء قريش.

وكانت تحت النباش ، ويكنى بأبى هالة بن زرارة التميمى ومات فى الجاهلية ، وكانت ولدت له هند بنت أبى هالة وذكر آخر يسمى هالة ، ثم بعد موت أبى هالة تزوجها عتيق بن عابد المخزومى ، فولدت له بنتا اسمها هند .

وعن نفيسة بنت منبه قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة ، مع ما أراد الله لها من الكرامة والخيرة ، وهى يومئذ أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال . أرسلتنى وسيلة إلى محمد ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن رجع فى عيرها من الشام فقلت: يامحمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ .

فقال: ما بيدى ما أتزوج به .

فقلت: إن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ .

قال: فمن هى ؟ .

قالت : خديجة .

قال: وكيف لى بذلك ؟ .

فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن ائت الساعة كذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، لأن أباها خويلد كان قد مات قبل حرب الفجار .

فذكر ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك لأعمامه، ففرحوا، وخرج معه أبو طالب وحمزة والعباس، وقام أبو طالب خطيبا فيهم قائلا:

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضئى — أصل — معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به . فإن كان فى المال قل — قلة — فإن المال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمد من قد

عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالى وهو بعد هذا ، والله له نبأ عظيم وخطب جليل . . فتزوجها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن أصدقها عشرين بكرة . (صفوة الصفوة – لابن الجوزى ، ج ١ ص ٧٣) .

وتزوجها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبقيت معه خمسا وعشرين سنة ، عشرا منها بعد المبعث ، وخمس عشرة قبله ، و كانت له عونا على الحق، وهى أول من أسلم على يديه من النساء وهى أم أولاده كلهم.. القاسم ، وعبد الله الطاهر ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة.. إلا إبراهيم فإن أمه مارية القبطية .

على روضة الفردوس أو مقعد الصدق   وردنا فشاهدنا ضيا الحق بالحق
على بيت خير الرسل بيت خديجة   تجاذبنا الأحوال فى شدة الشوق
لقد وردت أرواحنا فى صفاتها   فشاهدت الأنوار فى الغرب والشرق
من الشمس شمس المصطفى حيث نوره   به تشرب الأرواح من خمرة العشق
وردت وروحى فى هيام ولهفة   تريد حضورا للشهود بلا ربق
ولكنى استحضرت فى القرب أرتجى   حضور بيان بالتلطف والرفق
لأنى لا أقوى بروحى وظاهرى   مشاهدة الأنوار تجلى من الحق
مقام به روحى تطير صبابة   لأن جمال المصطفى لاح فى رقى
تذكرت مبعثه ونور افتتاحه   ومنعى خديجة فى قيام وفى صدق
ذكرت بلالا بل وعمار عندها   وياسر فى حال اضطهاد وفى حرق
وأيام صبر أشرقت نور ربنا   بأكرم خلق الله من فتقوا رتقى
تذكرت هاتيك الليالى فلاح لى   ضيا القدس ملحوظاً نما عندها شوقى
خديجة أنت الكنز صدقاً وهمة   بلغت مقام الجمع بالصفو فى الفرق
وو اليت خير المرسلين بعزمة   نعم دونها الأملاك بالحق والصدق
خديجة ياأماه أنت وسيلتى   إلى خير رسل الله ياسيدى رقى

عسى أن ترى ووحى الجمال بلاخفا ... يعمر قلبى بالعواطف والحق
أيا منزلا منه الهداية و الرضا ... وفيه رسول الله أرواحنا يسقى
تحن إليك الروح حال صفائها ... ويخشع قلبى للمنزل من فوقى
إلهى إلهى عائذ بك يرتجى ... رضاك وفضلا بالعواطف والرفق
وإحسانك اللهم لى وأحبتى ... به تمحق الكفار يارب لا تبق
بجاه الشفيع المرتجى وبآله ... وأبنائه الأبدال والصحب والرفق

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ والحجر الأسعد

وحضر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بنيان قريش الكعبة ، وكان عمره خمساً وثلاثين سنة ، وذلك أنه جاء سيل ودخل الكعبة وصدع جدرانها فلما أرادوا أن يضعوا الحجر الأسعد اختصموا فيه حتى كادوا يقتتلون .

ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من بنى هاشم، فكان ﴿ﷺ وآله﴾ هو أول داخل ، فقالوا : هذا محمد ، هذا الصادق الأمين ، رضينا به ، فحكموه ، فبسط رداءه ﴿ﷺ وآله﴾ ووضع الحجر فيه وأمر أربعة من رؤساء القبائل الأربع ، أن يأخذوا بأرباع الثوب ، ورفعوه إلى موضعه .. فتناوله بيده المباركة ﴿ﷺ وآله﴾ فوضعه فى موضعه ، وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر ، وأتمت قريش بناء الكعبة .

والملاحظ أن الخلاف بين القبائل ، والاحتكام لأول مقبل من باب الصفا ، يدل على أن السلطة فى مكة كانت قد انحلت ، فلم يبق لرجل منها ما كان لقصي ولا هاشم ولا عبد المطلب من سلطان .. مما كان مؤشراً لبداية عهد جديد قد آن وقت ظهوره فى البلد الحرام .. وفى وضع المصطفى﴿ﷺ وآله﴾ للحجر بيده الشريفة إشارة لقريش إلى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ هو المعنى بذلك .

الباب الثالث

بعثته ﴿ﷺ وآله﴾ .

الهجرة إلى الحبشة .

اجتماع المشركين على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب وكتابة الصحيفة

العرض على القبائل

الإسراء والمعراج

الفصل الأول

بعثته صلى الله عليه وسلم

لما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين وكافة للناس أجمعين.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعث على رأس الأربعين.

وأول ما بدىء ﴿ﷺ وآله﴾ من النبوة الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح أى كضيائه . وحبب إليه الخلوه فكان وحده بغار حراء يتحنث فيه (أى يتعبد) الليالى ذوات العدد ، حتى إذا كان شهر رمضان وفى الليلة الموعودة أتاه جبريل فقال : اقرأ . فقلت : (ما أنا بقارىء) فغطنى ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت: (ما أنا بقارىء). ففعل ذلك به ثلاث مرات ، ثم قال ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥) . فيقول ﴿ﷺ وآله﴾ : (فقرأها، وانصرف عنى وقد استقر ذلك فى قلبى).

ولما قرأ ﴿ﷺ وآله﴾ تلك الآية رجع حتى دخل على السيدة خديجة فقال: (زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم أخبرها .

فقالت له خديجة : (أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً — أى لا يغضبك - إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق)

فانطلقت به خديجة رضى الله عنها حتى أتت ورقة بن نوفل فقات له : اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يابن أخى .. ماذا ترى ؟ فأخبره النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى !! ياليتنى فيها جزعاً ، ياليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك !!

قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (أو مخرجىّ هم ؟) قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما جئت به إلا عُودِى وأوذى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .. ثم لم يلبث أن توفى ورقة.

اقرأ وضم الملك

فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ ﴾ سر غريب وأمر عجيب ، ما الذى أمر بقراءته النبى و لم يكن القرآن نزل بعد ؟ والأمر الإلهى لا يتوجه لعبد إلا لما يحتويه هذا الأمر من أسرار يريد الله أن يظهرها .

قال سبحانه:﴿ اقْرَأْ ﴾ لنعلم أن للنبى قراءة خاصة به .. لم يؤذن رسول الله فى بداية أمر الدعوة بالبلاغ عنها ، و لم يكلف بأن يقول لأحد إنى رسول الله إليك ، لأن الفترة الأولى كانت تخصه وحده ، فله قراءة نورانية ، ذاتية ، لم يكشف لنا الحق الستار عنها ، وهى من خصوصيات النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ .. وقد أشار إليها بقوله : (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه) القرطبى ١/٣٧ .

وكل ذلك مكنوز فى حقيقته المحمدية من كنوز المعارف والعلوم والأسرار، ويدل على هذا الذى ذكرناه قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) .. وحيث كان فى ذلك الوقت نبياً يستحيل أن يجهل الرسالة والنبوة والكتاب ومطالبات الجميع .. خصوصاً بعد قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ : (الرحمن ١-٤) فمن هو الذى تعلم القرآن قبل خلق الإنسان ؟

أما حكمة الضم والإرسال : لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ له هيكل بشرى مادى والملك له هيكل لطيف نورانى ، ولكل منهما طاقة خاصة به ، وسيؤهل النبى بعد ذلك اللقاء للقاءات مستمرة ، وفى الضم والإرسال المتكرر حدث تعادل الشحن فى الهيكلين .. مع احتفاظ كل منهما بصفاته .. وفى المرة الأولى حدث لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما حدث وقال :(زملونى زملونى) أما بعد أن تكرر اللقاء والترول ، وتكرر جلوس جبريل معه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لم يقل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كما قال فى المرة الأولى .

أما الحقيقة الباطنة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلم يحدث لها شحن روحانى لأنها أعلى من حقيقة جبريل والملائكة جميعا بما لا يقاس .. بدليل أن جبريل مع عظم مكانته وسمو مترلته وقف عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج مخبراً عن حقيقة رتبته بقوله : إلى هنا مقامى ولو تقدمت لاحترقت وما منا إلا له مقام معلوم . وقرأ رسول الله مع ربه الأكرم ، وربنا يقول له : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾(العلق : ٣) والقراءة هنا مع ربه ولا دخل لجبريل بها ، فلو كانت (وربِّك) لكانت قسماً ، ولكنها هنا تؤكد لدنية القراءة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل : ٦) ومقام اللدنية لا وساطة فيه.

ومن هنا نعلم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يؤمر بالبلاغ من الله حينما يأذن الله له عندما يترل جبريل بالآية المراد إبلاغها .

ثم بعد نزول الوحى بأول سوره وهى اقرأ .. فتر الوحى ، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ فى مدة فترة الوحى يتردد إلى غار حراء ويجاور فيه كما كان يصنع من قبل . وعن يحى بن بكير قال : سألت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن ابتداء الوحى بعد فترته ؟ فقال : لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .. قال : (جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنويت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، فنظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ،

فنظرت من خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئا بين السماء والأرض فرعبت منه ، فأتيت خديجة فقلت : (دثرونى دثرونى وصبوا على ماء بارداً) فنزلت هذه الآيه :
﴿ ياأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قم فأنذر ۝ وربك فكبر ﴾ (المدثر : ١-٣)

وقد قام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يدعو الناس بعد نزول هذه الآيه خُفية ثلاث سنين دخل بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ دار الأرقم بن أبى الأرقم وهى عند الصفا ، حتى أُمِرَ بإنذار عشيرته الأقربين فى السنة الرابعة من البعثة ، فمكث شهراً ثم جمع بنى عبد المطلب فى دار أبى طالب وهم أربعون فصنع لهم طعاماً ودعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه .

عموم بعثته ﴿ ﷺ وآله﴾

قال تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر : ١)،وهو الخير الكثير من الآلاء والإكرام ، فأعطاه الله تعالى كل خير أعطاه لرسله سراً وعلناً ، وزاده ﴿ ﷺ وآله﴾ حياً ومنتقلاً ، فأرسله ﴿ ﷺ وآله﴾ كافة للناس ورحمة للعالمين ، وجعله خاتم الرسل ، فلم ينسخ شرعه أبد الآبدين ، منحه كل معجزة للرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فضلاً، وزاده عليها إحساناً وطولاً.

بعث فى مكة المكرمة ، بين قومه وعشيرته ، وآله وعترته ،ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فابتدأ دعوته بالعرب الذين هم أولى الناس به ، وأحق الناس باتباعه، لأن الله تعالى بشر فى الأسفار الماضية ، والصحف السابقة ، أنه تعالى جاعل من ولد اسماعيل أمة عظيمة.

فكان العرب أفق هذه الشمس العلية الإلهية ، ومسطع أنوار تلك الرسالة الربانية ، لتكون آية الله جلية للعقول ، واضحة للنفوس ، تنجذب بها العقول التى أهَّلها الله ، وأعدها لفهم أسراره العلية ، وفقه خطابه الكريم فكان كلهم يعرف مكانته العلية ، من الفضل والأمانة والصدق ، والبعد عن الخيانة مع التحلى بمكارم الأخلاق وأجمل الصفات

، والتتره عن كل نقص ورزيلة ، حتى دعوه لشمائله السامية بينهم (بالصادق الأمين) وحكَّموه فيما بينهم فى قضية – وضع الحجر – كانت من أعظم القضايا عندهم ، استلوا من أجلها سيوفهم من أغمادها ، والسهام من كنانتها ، ولكنه ﴿ﷺ وآله﴾ حكم بينهم حكم الحازم العاقل ، والبصير الناقد .

فارتضوا جميعهم حكمه العدل ، واطمأنت النفوس وهدأت العواصف .. ومع هذا كله وأكثر منه أنه لما جاءه الوحى من ربه بقوله تعالى : ﴿ ياأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ۝ قُمْ فَأَنذِرْ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر : ١-٥) قام يعلن بينهم كلمته ، ويدعوهم لتوحيد الله وتتريهه عما لا يليق بجلاله ، من الشريك والمثيل والضد والند والكفؤ والولد وما ولد ، لم يجد منهم إلا رداً لدعوته ، ولجاجا فى خصومته كأنه جاء شيئاً إداً . كانوا متفرقى الأهواء ، مختلفى الشعوب ، متباينة مقاصدهم ، ومفاسدهم التى صارت لهم عادة مستحكمة فى نفوسهم .

كل فريق منهم يناوىء الآخر ، لا يجتمعون على قائد لهم ، لا يتحدون لرئيس ، ولا يقبلون أن يكون لهم سلطان يقهرهم أو ملك يحميهم .

فأخذوا يكيدون له ﴿ﷺ وآله﴾ كيدا ، ويناصبونه العداء ، ويغرون به عقلاءهم ويحرضون عليه جهلاءهم وسفهاءهم .

واستمروا على ذلك حتى شغلهم أمره عن جل أمورهم وكانوا قوماً عمين .

ما لقى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ من أذى المشركين وصبره فى تبليغ الرسالة

جاء سيدنا عيسى عليه السلام داعياً إلى الأخلاق ، فلم يقبل منه قومه وحصل الافتراق . ودعا سيدنا موسى عليه السلام فرعون إلى منح بنى إسرائيل الحرية فى الأعمال ، فأبى وتكبر فأغرقه الله فى الحال، فلم ينتفع فرعون بالدعوة، وكانت عليه أعاذنا الله بلوة. ونادى الخليل عليه السلام بالانتقام فأهلكهم الله، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، فلم ينتفعوا بنوره الماحى للظلام. ونادى نوح فى قومه بعبادة الواحد القهار، فأذوه وكفروا فأغرقهم الله فى الطوفان وأسرع بهم إلى النار، فلم ينالوا خيراً مع وضوح الحجة فى الآثار، وما أرسل الله رسولاً من قبله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا وكان سبباً فى الإهلاك والدمار.

وتفصيل ما أجملته موضح فى الكتب السماوية والأسفار ، ولا يزال البقية الباقية من أقوام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، يحكم العقل عليهم أنهم أهل النار ، بما هم عليه من العقائد المنكرة عقلاً ، لأنهم فى ظلام وضلال ، حتى أشرقت شمس الحبيب المصطفى بالرحمة والحنان ، فهو كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) فهو ﴿ ﷺ وآله﴾ عين الرحمة لكل إنسان ، وهم بين مجوس يعبدون ما صنعته أيديهم من الأحجار ، أو مشركين قد اتخذوا لله ولداً ، أو ضالين مضلين أثبتوا له سبحانه ضداً ونداً.

فما أشرقت شمسه المحمدية ، على العوالم السماوية والأرضية ، إلا وأبصرت العيون العميائية آيات الله ، وصغت الآذان إلى الكلام المقدس وفهمت معناه ، ونطقت الألسنة بالحكمة الروحانية ، وشهدت الأرواح الجمالات الإلهية، وسجدت القلوب لعلام الغيوب، مطمئنة بما تناولته من طهور المشروب.

وقد تعرض ﴿ ﷺ وآله﴾ للإيذاء الشديد من أناس ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ، فلم يسأل الله الانتقام من أحد ، بل كان يدعو لهم بالهداية ، وأن يخرج الله من أصلابهم من يوحده .. لكن كان منهم من سبقت له سابقة السوءى ، ورأى المصطفى بنور قلبه أنه لا خير فيهم ولا فى ذريتهم فدعا على بعضهم كما تشير الروايات التالية : -

(١)روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينما النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يصلى عند الكعبة ، وجمع قريش فى مجالسهم فى المسجد إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائى أيكم يقوم إلى جزور بنى فلان فيجىء بسلاها – فضلات الطعام فى بطنها – فيضعه بين كتفيه إذا سجد ، فانبعث أشقاهم ، وفى رواية : أنه عقبة بن أبى معيط منْ فعل ذلك ، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك ، وثبت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ساجداً ، فانطلق منطلق إلى السيدة فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وهى يومئذ جويرية ، فأقبلت تسعى حتى ألقته عنه ، ثم أقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الصلاة قال : -

(اللهم عليك بقريش ثلاثا ثم سمى رجالاً).

فى صحيح البخارى ثم سمى اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، وعمارة بن الوليد، قال عبد الله: فو الله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر .

بأمثال هذا العدوان وتلك المواجهات الدنية ، راحوا يواجهونه ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يصابرهم صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى ، حتى قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون ما بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد رطبة إلا شىء يواريه إبط بلال) .

٢) حاجهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحجة الواضحة ، والحجة الفاصلة ، بلا عىّ ولا عجز ، وما حاجّ إلا غلب، ولا صورع إلا ظفر وانتصر.

سأله أحدهم ومه عظم تجرد ، من يحى العظام وهى رميم ؟ فقال: يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

ومع ذلك لم تلن قلوبهم للحجة، و لم تسمع للمحجة.

٣)اجتمع الأشراف ورؤساء القبائل، وعمد العشائر يتشاورن ويتناجون بشأنه وإذا هم وقد طلع عليهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأقبل يمشى، حتى استلم الركن وطاف بالبيت،وما إن رأوه حتى غمزوه بالقول ولمزوه ،وأشاروا إليه فوقف عليه الصلاة والسلام وخاطبهم قائلا : -

(أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح).

فوقع القول عليهم موقع الصاعقة، وأخذوا كأنما مرت جائحة أو وقع على رءوسهم **الطير، وتبلبلوا وما أجابوه بحرف إلا أن قال قائلهم:**

انصرف ياأبا القاسم ما كنت جهولا.

ولما أن أفاقوا من غفوهم، استيقظوا من غفلتهم، حتى أدركوا موقفه منهم، فأحاطوا به يستجوبونه ما فعل وما أشار وما قال ، ويحرجونه فما استطاعوا أن يوهنوه فكل من قال منهم :

فعلت كذا بآلهتنا، يقول: نعم. وإذا برجل منهم هم يأخذ بمجاميع ردائه، فأسرع سيدنا أبو بكر وخاطب الجميع: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله) .

فتفرقوا، بعد أن كانوا محيطين به يقولون: أأنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ؟

٤) سئلت أسماء بنت أبى بكر عن أشد ما رأت من المشركين بلغوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالت:

كان المشركون قعود المسجد الحرام، فتذاكروا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وما يقول فى آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المسجد فقاموا إليه وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم. فقالوا: ألست تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال: بلى، قالت : فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر ، فقيل له : أدرك صاحبك ، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والناس مجتمعون عليه فقال : (ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) .

قالت : فلهوا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأقبلوا على أبى بكر يضربونه ، فرجع إلينا لا يمس شيئا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول : (تباركت ياذا الجلال والإكرام) .

أول الناس إيماناً به ﴿ ﷺ وآله﴾

اتفق علماء السير وأهل الأثر أن أول الناس إيمانا به ﴿ ﷺ وآله﴾ السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ، لم يتقدمها رجل ولا امراة ، وكان لا يسمع شيئا يكرهه من قومه ، إلا فرّج الله عنه بها ، إذا رجع إليها وأخبرها به .. ثم سيدنا على بن أبى طالب ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أول هذه الأمة ورودا على الحوض أولها إسلاماً على بن أبى طالب) ولما زوجه السيدة فاطمة قال لها : (زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة ، وإنه لأول أصحابى إسلاماً وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلماً) . وكانت سنه ثمان سنين ، وكان عند النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره .

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .. ثم الصديق أبو بكر ، الذى كان صدراً معظماً فى قريش على سعة من المال ، وكرم الأخلاق ، من رؤساء قريش

ومحط مشورتهم ، كان من أعف الناس رئيساً مكرماً ، سخياً يبذل المال ، محبباً فى قومه ، حسن المجالسة .

كان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا قال ابن سيرين : وهو المقدم فى هذا العلم ، أعلم الناس بأنساب العرب ، كان نقش خاتمه : نِعمَ القادر الله

وهو عتيق من النار ، صديق الإسلام ، أبو بكر لتكبيده للإسلام ، وابتكاره الخصال الحميدة .

قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ما كلمت أحداً فى الإسلام إلا أبى علىّ وراجعنى إلا ابن أبى قحافة فإنى لم أكلمه فى شىء إلا قبله واستقام عليه) .

وتتابع العرب فى دين الله أفواجاً يتقاطرون لسابقة الحسنى من الله التى جمعتهم على رسوله ومصطفاه ، صلى الله عليه . وآله ومن والاه .

إيذاء المشركين لأبى بكر رضى اللّه عنه

ألح الصديق على النبى المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يظهر بالصحابة فى المسجد الحرم ، وقال رسول الله : (ياأبا بكر إنا قليل) فلم يزل به حتى خرج ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم ، وقال أبو بكر خطيباً ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جالس ، ودعا إلى الله ورسوله فهو أول خطيب دعا إلى الله ورسوله .

فثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين يضربوهم ، ووطىء الصديق بالأرجل ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب الصديق بشدة بنعلين مخصوفتين على وجهه رضى الله تعالى عنه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه .

فجاءت بنو تيم – قبيلة أبى بكر – يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر ، وأدخلوه منزله ، ولا يشكون فى موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا: والله لئن مات

أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، ثم رجعوا إلى الصديق وجعلوا يكلمونه وهو لا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم ، وقال : ما فعل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فعزلوه ، فصار يكرر ذلك فقال أمه : والله ما لى بصاحبك علم ، فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب أخت عمر رضى الله عنه ، فإنها كانت أسلمت ، وهى تخفى إسلامها ، فاسأليها ، عنه فخرجت إليها وقالت : إن أبا بكر يسأل عن محمد ، فقالت : لا أعرف محمداً ولا أبا بكر .

ثم قالت لها : تريدين أن أخرج معك ، قالت : نعم ، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً فصاحت وقالت : إن قوماً نالوا منك لأهل فسق وإنى لأرجو الله أن ينتقم منهم .

فقال أبو بكر لابنة الخطاب : ما فعل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ فقالت له : هذه أمك تسمع ، قال : فلا عين عليك منها – أى لأنها لا تفشى سرك – قالت : سالم ، فقال : أين هو ؟ فقالت: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم .

فقال : والله لا أذوق طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى آتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، قالت أمه : فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس فخرجنا به يتكىء علىّ حتى دخل على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله ، وأكب عليه المسلمون كذلك ، فقال : بأبى وأمى أنت يارسول الله ما بى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وفى رواية : زال عنى كل ألم برؤيتك يارسول الله ، وهذا أمى برة بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار فدعا لها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الإسلام فأسلمت.

أبو بكر وجوار ابن الدغنة

ومما أوذى به سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما ابتلى المسلمون بأذى المشركين وأذن ﴿ ﷺ وآله﴾ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة وهى الهجرة الثانية .

خرج أبو بكر رضى الله عنه . مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى إذا وصل برك الغماد ، وفى رواية حتى إذا سار يوماً أو يومين ، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة واسمه الحرث والقارة قبيلة مشهورة كان يضرب بها المثل فى قوة الرمى ، ومن ثم قيل لهم رماة الحدق لا سيما ابن الدغنة ..

قال له : أين تريد ياأبا بكر ؟ قال : اخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض ، فأعبد ربى . قال ابن الدغنة : فإن مثلك ياأبا بكر لا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وأنا لك جار ومانع ، فاعبد ربك ببلدك .

فرجع مع ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة فى أشراف قريش وقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق !! وهو فى جوارى فلم يكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، أى لم يرد جواره .

وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلى به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا.

فقال ابن الدغنة: ذلك لأبى بكر رضى الله عنه.

فمكث أبو بكر يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلى بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره ، ثم ابتنى مسجداً بفناء داره ، فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاء لا يملك عينيه

إذا قرأ القرآن ، فكانت نساء قريش يزدحمن عليه ، فأفزع ذلك كثيراً من أشراف قريش أى من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه فى دراه ،فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء دراه فأعلن بالصلاة والقراءة ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا بهذا.

فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن رأى أن يعلن بذلك فاسأله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا نخفرك ، أى ننقض جوارك ، ونبطل عهدك ، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذى قد عقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت ، أى أزيلت خفارتى فى رجل عقدت له .

فقال له أبو بكر : فإنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله تعالى ، ولما رد جوار ابن الدغنة لقيه بعض سفهاء قريش إلى الكعبة فحثى على رأسه تراباً . فمر عليه بعض كبراء قريش من المشركين فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه : ألاترى ماصنع هذا السفيه ؟

قال له : أنت فعلت بنفسك ، فصار أبو بكر يقول : ربى ما أحلمك .. قالها ثلاثاً

ابن مسعود والجهر بالقرآن

ومما وقع لابن مسعود رضى الله تعالى عنه من الأذية ، أن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اجتمعوا يوماً فقالوا : والله ما سمعت قريش القرآن جهراً إلا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فمن فيكم يسمعهم القرآن جهراً ؟

فقال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه : أنا ، فقالوا : نخشى عليك منهم إنما نريد رجلاً له عشيرته يمنعونه من القوم.

فقال: دعونى فإن الله سيمنعنى منهم.

ثم إنه قام عند المقام وقت غروب الشمس ، وقريش فى أنديتهم فقال : بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ . . . ﴾ واستمر فيها فتأملته قريش وقالوا: ما بال ابن أم عبد ؟ فقال بعضهم : يتلو بعض ما جاء به محمد .

ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر فى قراءته ، حتى قرأ غالب السورة ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أدمت قريش وجهه ، فقال له أصحابه : هذا الذى خشينا عليك منه ، فقال : والله ما رأيت أعداء أهون على مثل اليوم ولو شئتم لآتيتهم بمثلها غداً . قالوا : لا ، قد أسمعتهم مايكرهون .

محاورة قريش للرسول ﴿ ﷺ وآله ﴾

قالت قريش : لنجمع أشراف كل قبيلة ، عند ظهر الكعبة ، ونبعث إليه ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ﴿ ﷺ وآله ﴾ ، فجاءهم وجلس فخاطبه الجمع قائلين : ألا إنك قد أتيتنا بأمر عظيم ، فرقت جمعنا ، وسفهت به أحلامنا ، وعبت به آلهتنا وديننا وكفرت به من مضى من آبائنا.

فإن أردت مالاً جمعناه لك ، أو أردت شرفاً سودناك علينا ، وإن كان يأتيك رئياً تراه طلبنا لك الطب ، حتى نبرئك منه .

فقال لهم : (ما بى ما يقولون ، ما جئت لأطلب أموالكم ، ولا للشرف فيكم ، ولا للملك عليكم ، ولكن بعثنى الله تعالى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا من ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا).

ولما أعيتهم الحيلة فى أمره ﴿ ﷺ وآله﴾ عرضوا عليه أن يشاركوه فى عبادته ، ويشاركهم فى عبادتهم ، فأنزل الله عليه سورة : ﴿ قُلْ ياأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وحينما يئسوا منه طلبوا من أن يخرج من القرآن ما فيه من الطعن على آلهتهم ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (يونس : ١٥)

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (الحجر : ٩٤) جهر بالدعوة بأن صعد على الصفا وجعل ينادى بطونهم ، أى بطون قريش .

فلما اجتمعوا قال : (أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟) قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً ، فقال (إنى نذيركم بين يدى عذاب شديد ، وإنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة) ، فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ وسخر منه ، فنزلت سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾(المسد : ١)

محاورة عتبة بن ربيعة لرسول اللّه ﴿ ﷺ وآله﴾

عن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه فلينظر ماذا يرد عليه ، فاختاروا زعيما من أكبر الزعماء ، وسيداً من علمائكم هو (عتبة بن ربيعة)

ثم بعثوا برسالتهم إليه معه ، فجاء عتبة إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال له : ألا إنك قد أتيتك قومك بأمر عظيم ، فرقت جمعهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أموراً لعلك تقبل منى بعضها .

قال : إن أردت بالذى فعلت مالاً جمعناه لك ، أو أردت شرفاً سوّدناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كان يأتيك رئياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه .قال : (أفرغت ياأبا الوليد ؟) قال : نعم

فأسمعه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أول سورة (فصلت) إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ الآيات من ١-١٣

فرجع عتبة بن نافع إلى قومه ، وعاد إليهم على غير ما فارقهم عليه .

فقالوا : ما وراءك ياأبا الوليد ؟ .

قال : ورائى أنى سمعت من صاحبكم قولاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، أطيعونى يابنى قريش ، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ بعد حين .

فقالوا : لقد سحرك ياأبا الوليد .

فقال لهم : أنتم خادعون .

الجهر بالدعوة

مكث النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مستخفياً بالدعوة ثلاث سنين ، ودخل خلالها الناس فى دين الله حتى فشا الإسلام بمكة ، وأنزل الله تعالى قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ و قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾

فلما جهر بالدعوة ، لم يبعد منه قومه و لم يردوا عليه ، حتى آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك ناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله وهم قليل .

توسط أبى طالب

لما رأت قريش عطف أبى طالب على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مشى رجال منهم إلى أبى طالب فقالوا إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فردهم أبو طالب رداً رقيقاً ، ومضى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يظهر دين الله .

فتذامرت قريش لما تسمع وترى ، من سريان الأنوار ، وعلو توحيد الواحد القهار ، فمشوا إلى أبى طالب مرة أخرى .

فقالوا ياأبا طالب إن لك سنا وشرفاً ومترلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . .

وتحدث أبو طالب مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بشأن قومه فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ (ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

فقال أبو طالب: اذهب ياابن أخى وقل ما أحببت فوالله لا أسلمك إليهم أبداً .. وسعرت نار العداوة ، فوثبت كل قبيلة على من أسلم فيها يعذبوهم ويفتنوهم عن دينهم.

فنادى أبو طالب إلى منع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وحمايته ، فاجتمعوا معه إلا أبو لهب ، وذهبت قريش فى محافلها تفكر ما تقول فى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكيف تميت دعوته وهدم دينه .

فقال الوليد بن المغيرة وهو رأس مشورة المشركين وقد سمع مقالة المشركين إن محمداً كاهن قال الوليد: ما هو بكاهن. قالوا: مجنون .قال: والله ما هو بمجنون قالوا: شاعر ، قال : هذا بعيد عن الشعر بأنواعه رجزه وهجزه وقريضه. قالوا: ساحر، قال : ما هو بساحر . قالوا: فما تقول أنت؟ قال:

والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لمغدق ، وأعلاه لمثمر ، وما أنتم بقائلين مثل قوله وأقرب القول : إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه .

فلما كانت مواسم العرب والحج قعدت قريش طريق الناس تحذرهم سيدنا محمداً ودينه ، فكان ذلك سبباً فى انتشار دين الله وخبره ﴿ﷺ وآله﴾ فى شبه الجزيرة وبلاد كثيرة .

الفصل الثانى

الهجرة إلى الحبشة

الهجرة الأولى إلى الحبشة

بعد أن اشتد إيذاء قريش للرسول ﴿ﷺ وآله﴾ ومن والاه ، يأتيه جبريل برسالة من ربه قائلاً: إن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون) فقال جبريل : صدق من سمّاك الرءوف الرحيم . ولشدة هذا الأذى ووطأته ، أذن ﴿ﷺ وآله﴾ لكثير من أصحابه بالهجرة للحبشة وغيرها فراراً بدينهم .

قال ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه : أخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

وقال فى الحديث الشريف : (من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض ، استوجب له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله ونبيه محمد ﴿ﷺ وآله﴾) فهاجر إليها عدد كبير مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله تعالى بدينهم .

منهم من هاجر بأهله ، ومنهم من هاجر بنفسه ، هاجر عثمان بن عفان رضى الله عنه ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكان ذلك فى السنة الخامسة من البعثة .

قال النبى الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ : (إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام) .

قريش ومحاربتها للمهاجرين

أرسلت قريش بالهدايا مع عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة إلى النجاشى ملك الحبشة ، لكن الرجل رفض أن يسلم أحداً من المسلمين المهاجرين عنده حتى يكلمهم فى شأن دينهم الجديد .

ونهض سيدنا جعفر بن أبى طالب – أمير المهاجرين – فخاطب النجاشى ، وقد سألهم ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد ؟ .

قال جعفر رضى الله تعالى عنه : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله تعالى لتوحيده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، ونهانا عن الفواحش ، فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

فسأله النجاشى : أن يتلو عليه شيئاً مما جاءهم به الرسول من عند الله .

فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشى ، حتى اخضلت لحيته . ثم قال لهم : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت إلى رسولى قريش قائلاً : انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما . ولا يُكادون .

ثم إنهما عادا ، فقالا للنجاشى : أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون .

فأرسل إليهم ، فى ذلك ، فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : هو عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشى بيده الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما زاد عيسى ابن مريم على وزن هذا العود .

ثم رد إليهما هداياهما ، وزاد استمساكه بالمسلمين الذين استجاروا به ، وعاد الرسل إلى قريش خائبين .

وبعد فترة من الزمن بلغهم إسلام أهل مكة ، فرجعوا لما بلغهم ذلك حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار ، أو مستخفيا .

وكان من بين من دخل بجوارٍ عثمان بن مظعون ، دخل بجوار الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة دخل بجوار أبى طالب .

وفى المحرم من السنة السابعة للهجرة كتب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى النجاشى كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث به مع بن أمية القمرى .

فلما قرىء عليه الكتاب أسلم ، وقال : لو قدرت أن آتيه لأتيته .

وكتب إليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ففعل وأصدق عنه تسعمائة دينار ، وكان الذى تولى التزويج خالد بن سعيد بن العاص بن أمية .

الهجرة الثانية إلى الحبشة

مكث المهاجرون فى الحبشة شطراً من رجب وشعبان ورمضان فى السنة الخامسة من النبوة وكان عددهم اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة.

ثم رجعوا مهاجرين ثانية ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً ، إن كان فيهم عمار ابن ياسر ، إذ فيه خلاف بين أهل النقل ، وثمانى عشرة امرأة ، رجعوا عندما بلغهم عن المشركين سجودهم مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند قراءة سورة النجم ، فلقوا من المشركين أشد مما عهدوا .

وبعثت قريش إلى النجاشى فى شأنهم مرتين ، الأولى عند هجرتهم ، والثانية عقب وقعة بدر ، وكان عمرو بن العاص فى المرتين رسولاً ، ومعه فى المرة الأولى عمارة بن الوليد ، وفى الثانية عبد الله بن أبى ربيعة المخزوميان .

وفى الهجرة الثانية خرج جعفر بن أبى طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس ، فولدت له هناك أولاده محمد وعبد الله وعوناً ، وهاجر كذلك عبيد الله بن جحش ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان وقد رأت رؤيا تغير فيها وجهه فأصبح وقد تنصر ومات وهو معاقر للخمر ، وأرسل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ للنجاشى فعقد له عليها ، وقد سمعت فى رؤياها من يقول لها : ياأم المؤمنين .

والحق أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سجد لما تلا الآيات ، فتبعه المشركين فى سجوده فاعتقد الناس أن الصلح قام بين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبين المشركين ، وانتشر ذلك فى أرض الحبشة بين المهاجرين إليها ، فرجعوا ظانين انتشار السلام وعموم الإسلام .. فلقوا من أذية المشركين ما يكن يخطر لهم على بال فرجعوا من حيث جاءوا فكانت هجرتهم الثانية.

بل إن نفراً من المسلمين خرج من اليمن إلى الحبشة فيهم أبو موسى الأشعرى وكانوا خمسين رجلاً .. فأمرهم جعفر بالإقامة واستمروا كذلك حتى قدموا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هم وجعفر يوم فتح خيبر .

إسلام سيدنا حمزة رضي الله عنه

مر أبو جهل برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه ما يكرهه ، فلم يتكلم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأمه لعبد الله بن جدعان فى سكن لها تسمع ذلك وتبصره ، ثم انصرف أبو جهل إلى نادى قريش .

فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحاً سيفه راجعاً من قنصه ، وكان عادته إذا رجع من قنصه لا يدخل إلى أهلة إلا بعد أن يطوف بالبيت ، فمر على تلك الأمة فأخبرته الخبر ، فقال لها حمزة : أنت رأيت هذا الذى تقولين ؟

فقالت : نعم .

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالساً فى القوم فأقبل نحوه حتى قام على رأسه فرفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال : (أتشتمه وأنا على دينه ؟ أقول ما يقول ، فرد على ذلك أن استطعت ؟) .

وسُرَّ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بإسلام حمزة سروراً كبيراً لأنه كان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة ، ومن ثم لما عرفت قريش أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قد عُز بحمزة كفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأقبلوا على بعض أصحابه بالأذية سيما المستضعفين منهم الذين لا جوار لهم . وكان ذلك فى السنة السادسة من بعثته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه

أكرم الله الإسلام برجلين من خيرة رجاله فبعد ثلاثة أيام من إسلام سيدنا حمزة رضي الله عنه ، أسلم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان إسلامهما فتحاً مبيناً، ونصراً مؤزراً .

قال الذهبى : أسلم الفاروق عمر فى السنة السادسة من النبوة ، وله سبع وعشرون سنة ..

والصواب أن له ثلاث وثلاثون سنة .. ففرح به المسلمون وظهر الإسلام بمكة عقب إسلامه .

وأخرج أحمد عن عمر الفاروق قال : خرجت أتعرض رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن فقلت : والله هذا شعر كما قالت قريش ، فقرأ : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ (الحاقة : ٤٠، ٤١) ، قلت : كاهن . فقرأ : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (الحاقة : ٤٢-٤٥) ، إلى آخر الآيات فوقع الإسلام فى قلبى .

وأخرج أبو يعلى والحاكم والبيهقى وابن الجوزى عن أنس قال : خرج عمر متقلداً سيفه فلقيه رجل من بنى زهرة فقال : أين تعمد ياعمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ، قال عمر : ما أراك إلا قد صبوت

قال : أفلا أدلك على العجب ؟! إن ختنك – يعنى صهرك سعيد بن زيد – وأختك فاطمة قد صبئا وتركا دينك . فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب فلما سمع بحس عمر توارى فى البيت فدخل فقال : ما هذه الهينمة – الكلام الخفى الذى لا يُفهم – وكانوا

يقرأون سورة (طه) قالا : ما عدا حديثاً حدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : ياعمر إن الحق فى غير دينك ، فوثب عليه عمر فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفخها – ضربها – نفخة بيده فدمى وجهها ، فقالت وهى غاضبة : إن كان الحق فى غير دينك إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال عمر : أعطونى الكتاب الذى هو عندكم فأقرؤه – وكان يقرأ الكتاب – فقالت أخته : إنك رجس ، وإنه لا يمسه إلا المطهرون ، فقم فأغتسل وتوضأ ، فقام وتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿ طه۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه : ١٤) ، فقال عمر : دلونى على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج فقال : أبشر ياعمر فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أصل الدار – دار الأرقم بن أبى الأرقم – التى فى أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار وعلى بابها حمزة وطلحة وناس ، فقال حمزة : هذا عمر إن يرد الله به خيراً يسلم ، وإن لم يكن غير ذلك يكن قتله علينا هيناً ، والنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يوحى إليه ، فخرج حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه .

وحمائل السيف فقال : (ما أنت بمنته ياعمر حتى يترل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟) فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله .

أخرج ابن سعد فى الطبقات عن الزهرى قال : لما أسلم عمر نزل جبريل عليه السلام فقال : (يامحمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر) وأخرج مثله ابن ماجة والحاكم عن ابن عباس .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود قال : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وأخرج البزار والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال : ٦٤)

وأخرج ابن سعد عن ابن مسعود قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة ، ولقد رأينا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا وسبيلنا .

وأخرج ابن سعد عن صهيب قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت .

إسلام ضماد الأزدى

قال ابن عباس ﷺ: (إن ضماد قدم مكة وكان من أزد شنوءة ، وكان يرقى من الريح ، ولعل المراد به اللمة من الجن .

فسمع سفهاء أهل مكة يقولوا: إن محمداً مجنون، فقال: لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى.

قال: فأتيته .. فقلت : يامحمد إنى أرقى من الريح ، فإن الله يشفى على يدى من شاء فهل لك ؟

فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله) .

فقال له ضماد : أعد علىّ كلماتك هؤلاء . فأعادهن عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثلاث مرات.

فقال ضماد : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هذه .

هات يدك أبايعك على على الإسلام .. فبايعه، وقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : وعلى قومك ، قال : وعلى قومى.

الفصل الثالث

اجتماع المشركين على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب وكتابة الصحيفة

اجتمعت قريش على قتل الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ وقالوا لقومه : خذوا منا دية مضاعفة ، فأبى قومه، فعند ذلك اجتمع رأيهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب ، والتضييق عليهم ، بمنعهم الأسواق ، وأن لا يناكحوهم ، ولا يقبلوا لهم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رأفة ، حتى يسلموا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للقتل .

لم يكن بنى هاشم وبنى المطلب إلى الشعب ، بإخراج قريش لهم وإنما خرجوا إليه لأن قريشاً لما قدم عليهم عمرو بن العاص من عند النجاشى خائباً وردت معه هديتهم ، قد صاحبه الذى هو عمارة بن الوليد ، وبلغهم إكرام النجاشى لجعفر ومن معه من المسلمين ، كبر ذلك على المشركين ، واجتمع رأيهم على قتل الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ .

فلما رأى أبو طالب ذلك ، جمع بنى هاشم وبنى المطلب ، مؤمنهم وكافرهم وأمرهم أن يدخلوا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الشعب ، ويمنعوه ، ففعلوا، فبنو هاشم وبنو المطلب كانوا شيئاً واحداً ، لم يفترقوا حتى دخلوا معهم فى الشعب ، وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل .

فلما علمت قريش ذلك ، أجمع رأيهم على أن يكتبوا عهوداً ومواثيق على أن لا يجالسوهم الحديث.

وكان دخولهم الشعب هلال المحرم بالسنة الرابعة من البعثة ، ومكث بنو هاشم ثلاث سنين وقيل سنتين ، فى أشد ما يكون البلاء وضيق العيش ، وصار لا يقدر أحد أن يوصل

إليهم طعاماً ، ولا أدماً ، حتى أن أبا جهل لقى حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل قمحاً يريد عمته خديجة زوج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهى معه فى الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

فقال له أبو البخترى بن هشام : مالك وماله ؟ فقال أبو جهل : إنما يحمل الطعام لبنى هاشم فقال أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها ، خلِّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البخترى لحى بعير ، أى العظم الذى تنبت عليه الأسنان فضربه ووطئه وطأً شديداً .. وأبو البخترى ممن قتل يوم بدر كافراً .

وأسلم هشام بن عمرو بن الحرث العامرى ﷺ ، وأدخل عليهم فى ليلة ثلاثة أحمال طعاماً ، فعلمت بذلك فمشوا إليه حين أصبح وكلموه فى ذلك ، فقال : إنى غير عائد إلى شيء أخالفكم ، ثم أدخل عليهم ثانياَ جملاً وقبل جملين فعلمت به قريش ، فغالظته – أى غلظت له القول – وهمت به ، فقال أبو سفيان ابن حرب : دعوة ، وصل رحمه أما أنى أحلف بالله ، لو فعلنا مثلما فعل كان أحسن بنا وكان أبو طالب فى كل ليلة يأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يأتى فراشه ويضطجع فإذا نام الناس أقامه وأمر أحد بنيه أو غيرهم من إخوته أو بنى عمه أن يضطجع مكانه خوفاً عليه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يغتاله أحد ممن يريد به السوء .

وولد عبد الله بن عباس ﷺ فى الشعب ، فمن قريش من سره ذلك ومنهم من ساءه .

إخبار النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بما فى الصحيفة

ثم أطلع الله رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ على أن الأرضة – وهى سوسة تأكل الخشب وهى التى دلت الجن على موت سيدنا سليمان عليه السلام - أكلت ما فى الصحيفة من ميثاق وعهد ، أى الألفاظ المتضمنة للظلم وقطيعة الرحم ، و لم تدع فيها اسماً لله تعالى إلا أثبتته فيها .

فذكر ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك لعمه أبى طالب ، فقال له عمه : أربُّك أخبرك بهذا الخبر ؟ قال : نعم

فانطلق فى عصابة – أى جماعة – من قومه من بنى هاشم وبنى المطلب ، وفى رواية أن أبا طالب لما ذكر لأهله قالوا له : فما ترى ؟

قال : أرى أن تلبسوا أحسن ثيابكم وتخرجوا إلى قريش ، فتذكروا ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر .

فخرجوا حتى أتوا المسجد ، فلما رأهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ للقتل .

فتكلم معهم أبو طالب وقال : جرت أمور بيننا وبينكم ، فأتوا بصحيفتكم التى فيها مواثيقكم ، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً ، أى مخرجا سبباً للصلح .

وإنما قال أبو طالب ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، أى فلا يأتون بها ، فأتوا بصحيفتهم لا يشكون أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يُدفع إليهم ، لأنه الذى وقعت عليه العهود والمواثيق ، فوضعوها بينهم وقالوا لأبى طالب توبيخاً له ولمن معه : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم . فقال أبو طالب : إنما أتيتكم فى أمر نصف بيننا وبينكم – أى وسط – لا حيص فيه علينا ولا عليكم .

إن ابن أخى أخبرنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فأكلت كل شىء فيها إلا اسم الله ، وفى لفظ إلا باسمك اللهم .

قال أبو طالب : فإن كان الحديث كما يقول : فأفيقوا ، وفى رواية نزعتم عنه سوء رأيكم – أى رجعتم – ، وإن لم ترجعوا فوالله لا نسلمه أبدا حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً ، دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم واستحببتم ، فقالوا : قد رضينا بالذى تقول.

ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر ﴿ ﷺ وآله﴾ الصادق المصدوق ، فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب قالوا – أى أكثرهم – : هذا سحر ابن أخيك ، وزادهم عنادً وبغياً وعدواناً ، وبعضهم ندم وقال : هذا بغى منا على إخواننا وظلم لهم .

وقد جاء أن أبا طالب قال لهم – أى بعد أن وجدوا الأمر كما أخبر به ﴿ ﷺ وآله﴾ يامعشر قريش علام نحصر ونحبس وقد بان الأمر ، وتعين أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة .

ودخلوا بين أستار الكعبة وقالوا : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع رحمنا ، واستحل ما يحرم عليه منا . ثم انصرفوا إلى الشعب .

وبعد ذلك مشى طائفة منهم وهم خمسة فى نقض الصحيفة ، أو ما تضمنته وهم : هشام بن عمرو بن الحرث ، وزهير بن أمية ابن عمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عاتكة بنت عبد المطلب وقد أسلم بعد ذلك كالذى قبله ، والمطعم بن عدى مات كافراً ، وأبو البخترى بن هشام قتل ببدر كافراً ، وزمعة بن الأسود قتل ببدر كافراً .

نقض الصحيفة

جاء أن هشام بن عمرو بن الحرث رضي الله عنه أسلم بعد ذلك ومشى زهير بن أمية بن عاتكة بنت عبد المطلب رضي الله عنه – والذى أسلم أيضاً – وقال له : يازهير .. أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وأخوالك قد علمت لا يبيعون ولا يبتاعون ؟

فقال : ويلك ياهشام ، فماذا أصنع وأنا رجل واحد ؟ والله لو كان معى رجل آخر لقمت لأنقضها – يعنى الصحيفة .

قال : وجدت رجلاً . قال : من هو ؟ قال : أنا .

فقال زهير : ابغنى رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له يامطعم : أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف – يعنى بنى هاشم وبنى المطلب – وأنت شاهد على ذلك ؟

فقال له : ويحك .. ماذا أصنع إنما أنا رجل واحد .

قلت : قد وجدت ثانياً : م ن هو ؟ قلت : أنا . قال : ابغنى ثالثاً .

قلت : قد فعلت . قال : من هو ؟ قلت : زهير بن أمية . قال : ابغنا رابعاً .

فذهبت إلى البخترى بن هشام فقلت له : نحواً مما قلت لمطعم ، فقال : وهل معين على هذا الأمر ؟ قلت : نعم .

قال : ومن هو ؟ قلت : زهير بن أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا . قال : ابغنا خامساً.

فذهبت إلى زمعة بن الأسود فكلمته فقال : وهل من أحد يعين على ذلك فسميت له القوم .

ثم إن هؤلاء اجتمعوا ليلاً عند الحجون ، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا فى القيام على نقض الصحيفة حتى ينقضوها .

قال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال : ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فقال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت

فقال البخترى : صدق زمعة .

قال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . نبرأ إلى الله تعالى منها ومما كتب فيها .

وقال هشام بن عمرو: نحوا من ذلك

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل

فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فشقها ، وقام هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ، ولبسوا السلاح ، ثم رجعوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب فأمروهم بالخروج ففعلوا .

آية انشقاق القمر

فى شهر شعبان من السنة التاسعة من البعثة أكرم الله رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بشق القمر عندما طلب منه طغاة قريش أن يشقه لهم ليؤمنوا به ، فشُق له ﴿ﷺ وآله﴾ ، فلما انشق فلقين نادى طغاة قريش : شيبتنا يامحمد بسحرك ، وما ازدادوا إلا كفراً وعناداً .

لقد عمى القوم عن إدراك حقيقة أعظم المعجزات المادية لرسول المرسلين ﴿ﷺ وآله﴾ فلم يثبت أن نبياً أو رسولاً من السابقين سخرت له العوالم العلوية إلا لحبيب الله ومصطفاه سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ .

أخرج أبو نعيم عن ابن عباس قال : انتهى أهل مكة إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقالوا : هل من آية نعرف بها أنك رسول ؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال : يامحمد قل لأهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة ليروا آية ، فأخبرهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بما قاله جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة ، فانشق القمر نصفين: نصفا على الصفا ونصفاً على المروة ،

فنظروا ثم قاموا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ، ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا : ما هذا إلا سحر !! فأنزل الله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر : ١)

شق بدر السماء فى شعبان — حجة الله فاقرأ القرآنا
شهر شعبان فيه آيات ربى — قد رآها من حقق الإيمانا
أشَّر المصطفى بإحدى يديه — شق بدر السما رأى الإحسانا
يا حبيبي لبّاك ربك فاسأل — سيد الرسل – ربك الغفرانا
يا حبيبي أنت المراد المرجى — كلنا نرتجى بك الرضوانا
يا حبيبي وداً وعين حنان — فرّق الجمع تابعوا الشيطانا
يا حبيبي أنت الشفيع مجاب — فاسأل الله تشهد الرحمانا
أمة المصطفى إلهى أغثها — واتحاد ليفقهوا الفرقانا
سيدى نظرة لجمع قلوب — وامنحنها القبول والإحسانا

الحديث الأخير لأبى طالب

لما اشتكى أبو طالب ، وبلغ اشتداد المرض به ، قال بعضهم لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقذف أمر محمد فى قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطيه منا .

وفى لفظ : إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء – أى قتل محمد ﴿ﷺ وآله﴾ كما فى بعض الروايات – فتعيرنا العرب ، ويقولون : تركوه حتى إذا كان عمه تناولوه ، فمشى إليه أشرافهم .

وعن مقاتل أن أبا طالب قال عند موته : يامعشر بنى هاشم : أطيعوا محمداً تفلحوا وترشدوا .

قال فى الهدى : ومن حكمة أحكم الحاكمين ، بقاؤه على دين قومه لما فى ذلك من المصالح التى تبدو لمن تأملها ، كذا أقرباؤه وبنو عمه ، تأخر إسلام من أسلم منهم ، ولو أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه لقالوا : عصبية نشأت بها انتصر محمد ﴿ﷺ وآله﴾

والحقيقة أن سيدنا أبا طالب ﵁ وأرضاه هو رجل السياسة الأول فى دعوة الإسلام ، فالشواهد التى مرت من كلام الكهان ، وعلامات النبوة جعلته يؤمن بسيدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منذ البداية سراً ، وأظهر أمام قريش عدم النطق بكلمة الإسلام حتى يتمكن من فض المنازعات بين الرسول الكريم وبين صناديد الكفر والشرك فى قريش .. وكان له ما أراد والأدلة على ذلك كثيرة .

وصية أبو طالب

جمع أبو طالب عند وفاته قريشاً وخاطبهم خطبة ، يحثهم فيها على إتباع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأوصاهم وكان من وصيته أن قال :

(يامعشر قريش انتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا احرز تموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم بها إليكم الوسيلة ، أوصيكم بتعظيم هذه البينية - أى الكعبة — فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منساة _ أى فسحة — فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق ، ففيها هلكت القرون قبلكم .

أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فإن فيها شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيها محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، وهو الصديق فى الرعب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به.

وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن – أى البغض – وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس وقد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم .

يا معشر قريش .. كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد .)

وفى لفظ آخر لما حضرته الوفاة ودعا بني عبد المطلب ، فقال : (لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم من أمره ، فأطيعوه ترشدوا)

إسلام أبى طالب رضي الله عنه

نحن أمام رجل خط بسيرته فى التاريخ سطوراً ، على إشراق حرف ، فكان من المجاهدين فى الطليعة ، وكان من أنصار المبادئ القويمة ، ورسل الإنسانية وهداتها فى الرعيل الأول .

رجل كان له فى الإسلام شأن ، وأبقى أثراً جميلاً ، وفضلاً باقياً ، ولكن شاءت الأهواء أن تزوى عنه العيون ، وتنظر إليه نظرة ظالمة ، فراحت تنال منه ، وتضع فى حقه الأراجيف ، وتنال من جوهر الحق، ورواء الفضيلة .

مر عصر الخلافة الراشدة ، وهو يحفل بمآثر أبي طالب رجل الإسلام الفذ ، ويسجل مآثره الغر ، وأياديه البيض ، ليوفيه بعض حق له عليه .

وجاء عصر بنى أمية ، فأرادوا النيل من رجل الإسلام الإمام علياّ كرم الله وجهه ، فكانت سيرة أبيه إحدى الجوانب ، التى أعملت تلك السلطة فيها معاول الهدم ، وهى تظن : أنها ستأتى على شخصيه هذا الإمام .

– إن لسيدنا أبى طالب مترلة عظيمة عند الله عز وجل وكفاه فخراً ومترلة كونه محامياً وناصراً لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولذلك هبط جبريل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عند موته وقال : (يامحمد أخرج من مكة فليس لك فيها ناصر) راجع جواهر البحار ج ٣ ص ١١٣ .

– وورد عن على بن حسان عن عمه قال : قلت لأبى عبد الله : إن الناس يزعمون أن أبا طالب فى ضحضاح من النار . فقال : كذبوا ما بهذا نزل جبريل على النبى ، قلت : وبم نزل ؟ قال : أتى جبريل فى بعض ما كان عليه فقال : (يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان ،وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم ، وإن أبا طالب أسر الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين) .

وقد أقر سيدنا عبد الله بن عباس بإسلام أبى طالب ، فقد جاء فى الأمالى: بإسناده عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس أنه سأل رجل فقال : ياابن عم رسول الله أخبرنى عن أبى طالب هل كان مسلما ؟

قال : وكيف لم يكن مسلماً وهو القائل :

قد علموا ان ابننا لا مكذب   لدينا ولا يعبأ بقول الأبطال

إن أبا طالب كان مثله مثل أصحاب الكهف حين أسروا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرتين : (راجع محب الدين الطبرى الشافعى ، والشبراوى فى الإتحاف بحب الأشراف ، وابن حجر العسقلانى ج ٣ من الإصابة والسيوطى فى مناهل الصفا ص ٤٣) .

– وأقر أبو ذر بإسلام أبى طالب أيضاً فى البحار نقلاً عن المناقب ، عن تفسير وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم عن أبيه عن أبى ذر الغفارى قال : والله الذى لا إله إلا

هو ما مات أبو طالب حتى أسلم بلسان الحبشة ، قال لرسول الله : أتفقه لسان الحبشة ؟ قال : (ياعم إن الله علّمنى جميع الكلام)

قال : يامحمد (أسدن لمصاقا قاطا لاها) يعنى : أشهد مخلصاً لا إله إلا الله ، فبكى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : إن الله أقر عينى بأبى طالب .

- إن زوجته (فاطمة بنت أسد) كانت ثانى امرأة تدخل الإسلام بعد السيدة خديجة الكبرى ، فيكف يتصور أن يقرها على إسلامها وهو من هو فى قومه؟!!

- ولما رأى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وعلياً يصلى خلفه عن يمينه – وكان معه ولده جعفر - قال لجعفر : صل جناح ابن عمك ، فصلى يساره ، مما يدل دلالة واضحة على إسلامه ، وعلى معرفته الكاملة بأحكام الصلاة، وإلا لما أقر ابنه علياً على إسلامه وصلاته ، ولما أمر ابنه الثانى جعفراً بأن ينضم إلى أخيه فى الصلاة .

ويزيد هذا تأكيداً أن أبا طالب أنشد حينئذٍ شعراً سجل فيه سعادته بذلك فقال :

إن علياً وجعفراً ثقتى   عند ملم الزمان والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما   أخى لأمى من بينهم وأبى
والله لا أخذل النبى ولا   يخذله من بنى ذو حسب

فهو لا يكتفى بأمرهما بالصلاة خلف النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فحسب ، وإنما هو يمدحهما ويثنى عليهما فى ذلك ، ويأمرهما بنصرته وعدم خذلانه ، ويقسم على ألا يصدر منه ، ولا من أحد بنيه خذلان له أبداً .

- إن أبا طالب صمد لتحدى قريش بالمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية ، مقيماً بشعبه فى مكة ، ثلاث سنوات متواصلة مع بنى هاشم ، عانوا خلالها جميعاً من الشظف والمسغبة والحرمان مما تعجز الكلمات عن وصف مداه ، وتقدير عنائه ، دون أن يتطرق إليه الوهن أو الضعف أو التردد ، فهل يكون ذلك لمجرد القرابة دون أن يكون للعقيدة مدخل فيه ؟ .

ثم لخروجه لقريش متحدياً بأن الأرضة قد أكلت وثيقة المقاطعة المودعة بالكعبة و لم يبق فيها إلا اسم الله ، فهل يكون ذلك من غير مسلم ؟ أو هل يبقى بعد ذلك غير مسلم ، لو لم يكن مسلماً من قبل ؟ .

– بعد وفاة أبى طالب ، أذن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بالهجرة ، لأن البقاء بعد وفاته يعنى الإجهاز على الإسلام نهائياً من الأساس لو تعرض النبى للقتل .. وهذا هو ما خطط له المشركون بالفعل ، وكانت ساعة الصفر فى نفس الليلة التى أذن النبى فيها بالهجرة من مكة إلى المدينة ، فهل من كان وزنه بالنسبة للدعوة الإسلامية أن حياته فى مكة حياتها وحياة نبيها ، ومماته تعريض لهما إلى الضياع والفناء ، يكون على غير دين الإسلام ؟!!.

– لما علم بتظاهر قريش على الرسول قال :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً   نبياً كموسى خط فى أول الكتب
فلسنا ورب البيت نسلم أحدا   لعزاء من عض الزمان ولا كرب

– ولما بلغه أن أحد المشركين ، وضع أقذاراً على ظهر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهو ساجد فى الصلاة ، جاء مسرعاً مغضباً إلى حيث يوجد النبى ، وسأل من فعل به هذا ؟ فلما علم أنه الشاعر ابن الزبعرى لطمه لطمة أدمته ، وألقى عليه نفس القاذورات ، ثم توجه إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى عطف وحنان وقال : أرضيت؟.

ثم أنشأ يقول :

أنت النبى محمد   قدماً أعز مسود
أنى تضام ولم أمت   وأنا الشجاع العربد
وبطاح مكة لا يرى   فيها نجيع أسود
وبنو أبيك كأنهم   أسد العرين توقدوا
نعم الأرومة أصلها   عمرو الخطيم الأوحد
ولقد عهدتك صدقاً   بالقول لا تتزيد

مازلت تنطق بالصوا   ب وأنت طفل أمرد

-ولما علم أن قريشاً عملت على الدس لدى نجاشى الحبشة ضد مهاجرى المسلمين إليها ، كتب إليه كتاباً من الشعر يقول فيه:

تعلم مليك الحبش أن محمداً   نبى كموسى والمسيح ابن مريم
أتى بالهدى مثل الذى أتيا به   فكل بأمر الله يهدى ويعصم
وأنكم تتلونه فى كتابكم   بصدق حديث لا حديث المرجم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا   فإن طريق الحق ليس بمظلم

فهل من يدعو إلى الإسلام يكون غير مسلم ؟ !.

-روى عنه أشعار كثيرة تنبئ عن إسلامه ، ذكرها ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة (١٤ /٥٥) منها قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

وقوله :

فأيده رب العباد بنصره   وأظهر ديناً حقه غير باطل

وقوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة   وأبشر وقر بذاك منك عيونا

فهو فى كل هذه الأبيات يصدق سيدنا محمداً ﴿ﷺ وآله﴾ ، ويؤمن بنبوته وبدينه ، ومن ثم تصدى لنصرته بكل مرتخص وغال .

**وفى ضوء ما تقدم جمعه يثور تساؤل يتلخص فى أنه ما هو السر فى هذا اللغط ، الذى دار – ولا يزال يدور – حول إسلام أبى طالب نفياً وإثباتاً ؟ .

وما رأينا مثل هذا الجدل ثار حول إسلام كثير من المنافقين ، وبخاصة من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ولكنه ثار حول إسلام أبى طالب ، لا لشئ إلا لأنه أبو الإمام علىّ كرمّ الله وجهه ، أبى الإمامين ، وجد الأئمة ، متمثلاً فى التشككات التى حيكت لها الأشعار ، والروايات ، تنفيراً للناس ، حتى لا تكون الحقيقة واضحة جلية أمام الرعية ، فيطمئن الحكام إلى استقرار ملكهم ، واستمرار حكم أسرهم .

وفاة أبو طالب وخديجة رضى الله تعالى عنهما

توفى أبو طالب وخديجة رضى الله تعالى عنهما قبل الهجرة بثلاث سنين وبعد خروجهم من الشعب .

فتوفى أبو طالب فى شوال أو فى ذى القعدة وعمره بضع وثمانون سنة ، وكانت خديجة رضى الله تعالى عنها ، أم المؤمنين ، ماتت قبله بخمس وثلاثون يوماً ، وقيل خمس وخمسون ، وقيل ثلاثة أيام ودفنت بالحجون .

ونزل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى حفرتها ، وأدخلها القبر بيده الشريفة ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ , يسمى ذلك العام عام الحزن ، وكانت مدة إقامتها رضى الله تعالى عنها ، مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، خمس وعشرون سنة على الصحيح .

قالت له ﴿ ﷺ وآله﴾ خولة بنت حكيم : :إنى أراك وقد دخلتك خلة لفقد خديجة رضى الله عنها ، فقال : أجل ، أم العيال وربة البيت .

ودخل عليها ﴿ ﷺ وآله﴾ وهى فى الموت فقال: تكرهين ما أرى منك وقد جعل الله فى الكره خيراً كثيراً

لماذا سمى الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ عام وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة عام الحزن ؟

كانت القبائل العربية إذا مات فيها سيد أو عظيم يسمون عام موته بـ (عام الحزن) ، وفى بداية الدعوة الإسلامية كانت العرب ينظرون إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد اتبعه أراذل الناس من العبيد والخدم ، فأراد الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يبين لهم أنه لديه عظماء إذا ماتوا سمى عام موقم بعام الحزن ، فكما أن لديهم عظماء وسادة ، هو أيضاً لديه عظماء وسادة .

والنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يعلم أن الموت قضاء الله وقدره ، وهو أول الناس بالرضا بالقضاء ، وأنسه بالله أغناه عن الاشتغال بالناس ، فهو فى رعاية الله وفى عنايته وحفظه ، قال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .(الطور : ٤٨) . والنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يحزن ، وهو الذى نفى الحزن عن الصديق ليلة الهجرة فقال : ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا ﴾ .(التوبة : ٤٠) ، وأتباعه من الأولياء والصالحين نفى الله عنهم الحزن فقال تعالى ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .(يونس : ٦٢).

وأما قوله عند وفاة أبنه سيدنا إبراهيم عليه السلام : (إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك ياإبراهيم لمحزونون) ليس دليلاً على حزنه لأنه لم يقل : إن عينى لتدمع ، وإن قلبى ليحزن .. إنما أراد أن يفتح باب رحمة للأمة عند الموت كى تدمع العين ويحزن القلب على فراق الأحبة .

(فتأمل هذا إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ ما لا يليق)

ذكر خبر وفد نجران على النبى (ﷺ وآله)

قدم عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو بمكة ، وفد نجران ، وكانوا نحو عشرين رجلاُ من النصارى ، ونجران بلدة على نحو من سبع مراحل من مكة ، كانت منزلاً للنصارى .وقد

بلغهم خبره ﴿ ﷺ وآله﴾ ممن هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فوجدوه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى المسجد ، فجلسوا إليه وسألوه وكلموه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، ينظرون إليهم ، وأخذوا يحاورون النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ويجادلونه فى هذا الدين .

ثم دعا ﴿ ﷺ وآله﴾ وفد نجران إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن فلما سمعوه ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به ﴿ ﷺ وآله﴾ وعرفوا منه ، ما هو موصوف به فى كتابهم .

فلما قاموا عنه عليه الصلاة والسلام ، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا لهم: -

خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم ، من أهل دينكم ، ترتادون أى تنظرون الأخبار لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل .

فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، فصدقتموه بما قال لا نعلم ركبا أحمق منكم .

فقالوا لهم : سلام عليكم .. لا نجاهلكم .. لنا ما نحن عليه .. ولكم ما أنتم عليه .

ويقال نزل فيهم قوله تعالى :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ . . . . ﴾ إلى قوله تعالى﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص : ٥٢ - ٥٥) .

ونزل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِ﴾ . (المائدة : ٨٣)

الفصل الرابع

عرض نفسه ﴿ﷺ وآله﴾ على القبائل

رحلة الطائف

بعد وفاة عمه أبو طالب ، زادت قريش الأذى لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فبدا يأخذ مساراً جديداً للدعوة إلى الله بأن يعرض نفسه على القبائل، فخرج هذا السيد إلى الطائف آملا أن تقبل ثقيف ما جاء به،خرج إليهم ومعه مولاه زيد ابن حارثة .

فلم يقبل سادة ثقيف ، بل وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمعوا عليه ، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، عمد إلى ظل له فجلس فيه .. يدعو ربه قائلاً : -

(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .)

فأرسل له عتبة وشيبة ابنا ربيعة غلاماً نصرانياً يدعى عداس ، بطبق به بعض الفاكهة ، فحين وضعه بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : باسم الله ، فقال عداس : والله إن أهل هذه البلاد لا يقولون هذا الكلام ، فقال الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ : من أى البلاد أنت ؟ فقال : من نينوى ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى ، فأكب عداس على رسول الله ﴿ﷺ

وآله﴾ يقبل قدميه ، فلما أبصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا فلما أتاهما قالا : ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه ، ولم نرك فعلته بأحد منا ، قال : هذا رجل صالح أخبرنى بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله يدعى يونس بن متى ، فضحكا به ، وقالا له : لا يفتنك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع .

وأخرج الشيخان عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا هو جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم نادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى إليك لتأمرنى بما شئت ، إن شئت ان أطبق عليهم الأخشبين - جبلين يحيطان بمكة - فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً .

بيعة العقبة الأولى

بدء إسلام الأنصار

وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يعرض دينه على قبائل العرب فى مواسم الحج ، وكان من نتيجة ذلك أن قبله ستة من الخزرج وقبلوا رسالته ودعوته إلى الإسلام ، ومعاونته فى تبليغ رسالة ربه ، بعد أن آمنوا به ، وصدقوه وصدقوا بما جاء به ، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل ، وهذا بدأ إسلام الأنصار وكان ذلك فى السنة الحادية عشرة من البعثة .

والستة نفر هم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث من بنى النجار ، ورافع ابن مالك من بنى زريق ، وقطبة بن عامر من بنى سلمة، وعقبة بن عامر من بنى خزام ، وجابر بن عبد الله .

وكان من صنع الله أن اليهود كانوا يسكنون مع الأوس والخزرج بالمدينة ، وكانوا أهل كتاب ، و الأوس والخزرج أهل شرك وأوثان ، وإذا حدث بينهم شىء تقول اليهود : إن نبياً سيبعث فينا الآن ، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . وكانوا يصفونه لهم بصفاته ، فلما كلمهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عرضوا الصفات التى كانوا يسمعونها من اليهود فوجدوها متحققة فيه ، فقال بعضهم لبعض : بادروا لا تباعه ، لا تسبقنا اليهود إليه ، وفى رواية فلما سمعوا قوله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من صفته ، ورأوا أمارات الصدق عليه لائحة .

فقال بعضهم لبعض ياقوم :

تعلمون والله أنه هو النبى الذى توعدكم به اليهود ، فلا يسبقوكم إليه فأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

فأسلم أولئك النفر فقال لهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : تمنعون ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى ، قالوا : يارسول الله إنا تركنا قومنا – يعنون الأوس والخزرج – بينهم من العداوة والشر ما بينهم فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا إلى المدينة ، ورضى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منهم بذلك ، فلما وصلوا المدينة أخبروا قومهم ، وانتشر ذكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

بيعة العقبة الثانية

فلما كان العام التالى الثانى عشر من بعثته ﴿ﷺ وآله﴾ أقبل أثنى عشر رجلاً كلهم من الخزرج إلا إثنان منهم من الأوس ، فاجتمعوا عند العقبة وأسلموا ، وبايعوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقون ، ولا يزنون ، ولا يقتلون أولادهم ، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونه فى معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن نقصوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب ، وهذه هى بيعة العقبة الثانية ، فبايعوه فيها على ما تقدم فلما بايعوه أرسل إليهم رجلين من أصحابه يقرآهم القرآن الكريم ويفقهوهم فى الدين ، هما مصعب بن عمير البدرى ، وعبد الله بن أم مكتوم ابن خالة السيدة خديجة رضى الله عنها وعنهم .

وقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حين بايعهم (ومن وفّى فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو طهر له أو قال كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه) رواه البخارى .

وكانت بيعة العقبة الثانية على الإيواء والنصرة و لم تكن على الجهاد ، إذ لم يكن مفروضاً فى ذلك الوقت ، وصل بهم مصعب بن عمير أول جمعة فى الإسلام قبل قدوم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه لم يتمكن من إقامة الجمعة بمكة ، فأمرهم بإقامتها بالمدينة .

الفصل الخامس

الإسراء والمعراج

سبحانك اللهم تتريهاً لذاتك عن الحيز والمكان. وتقديساً لكمالاتك العلية عن الإدراك بالأبصار، وأنت اللطيف الخبير، ونؤمن بأنك ظاهر لا يحجبك شيء. ومع كل شيء، لا بمزاوجة أو ممازجة أو مشاكلة ومجاورة، تترهت صفاتك وتقدست أسماؤك، لو شئت أن تظهر لكل شيء لظهرت، سبحانك حجبت العقول بآياتك الباهرة، والأبصار بمكوناتك الظاهرة، أعجز تصريف قدرتك العجيب وغرائب حكمتك العقول عن أن تدرك حقائق ما خفى من خواص الكائنات، وسر ما اندمج فى مراتب الموجودات، حتى انقلب العقل خاسئاً وحسيراً.

وسجد الخيال حائراً وحقيراً، إكباراً لغريب صنع الصانع، وإعظاماً لعجيب حكمة الحكيم فأسألك اللهم نور يقين يشرف على القلوب يبين لها ما فى السموات والأرض، وعين كشف من فضلك تشهد كيف خلقت الكائنات الحية، ورفعت السموات ونصبت الجبال، وبسطت الأرض، حتى تطمئن القلوب بشهود ما أقمته حججاً واضحة، وبراهين ساطعة على أنك واحد أحد مبدع للكائنات، قام بقيوميتك كل شيء إيجاداً من لا شيء وإنشاء من العدم، وكذلك تكون النشأة الأخرى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ، (يس: ٨٢) وأسألك اللهم أن تجعل لى به كمال التصديق والإيمان والتسليم لآياتك التى تظهرها، وبيناتك التى تتفضل بها، حتى لا يقهرنى عامل طبعى، وحظ نفسى، وميزان عقلى، وقوة هواى، على دواعى الشكوك والريب، ولا يحجبنى عقلى القاصر عن إدراك الضار والنافع لذاتى وتدبير نفسى منفرداً، أو تدبير المجتمع عن مشاهدة أنوار تلك الآيات والانتفاع بأسرارها، والتجمل بمعانيها وأعوذ بك اللهم من رذائل نفسي ورعوناها ولقسها التى تستر عن بصيرتى مشاهد ملكوتك، وأنوار تترلاتك،

حتى يكمل يقينى بالتصديق بمننك التى خصصت بها فرد ذاتك وحبيبك الأكبر ﴿ﷺ وآله﴾ تصديقاً تورثنى به أنوار علومه، وأسرار أحواله وفقه كلامه، وحسن الاقتداء بهديه يامجيب الدعاء .. آمين.

الإسراء من مكة إلى بيت المقدس

إن قصة الإسراء التى أشار إليها القرآن الكريم هى معجزة من أكبر المعجزات التى اختص الله بها حبيبه ومصطفاه سيدنا محمداً ﴿ﷺ وآله﴾، ليقيم الحجة على الكافرين والمنافقين أن ما جاءهم به هو الحق ، فإنه قد وصف لهم موضع المسجد الأقصى ومحتوياته كما عرفوها ، ولم يبرح مكانه من مكة فيما يعتقدون ، ثم أثبت لهم بالدلائل المحسوسة التى لا تقبل الشك ، ولا يعتورها الضعف ، أنه أسرى به إلى بيت المقدس، ثم إلى الرفيق الأعلى، ونزل القرآن مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه ، فأيده فى كل ما روى ، وأثبت أنه رأى ربه عند سدرة المنتهى ، وما كذب الفؤاد ما رأى ، وأنه دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، ولكن العقل المحجب فى ظلمات الكون الذى لا يؤمن بغير المادة ولا يرى إلا بعيون الحس ، ينكر الإسراء أو يتردد فى التسليم به . ومن هنا استطاع بعض فلاسفة الملحدين أن يلجوا من هذه الثغرة للتشكيك فى حقيقة الإسراء وتعارضها مع العقل ، كما حاولوا مثل ذلك فى كثير من دعائم الدين الإسلامي وعقيدته ، ولست أدرى كيف ينكر أمثال أولئك الأغبياء قصة الإسراء ، ويتجرأون على القول بأنها مخالفة للعقل ؟

الإسراء فوق العقل :

إن العقل مهما سما تفكيره ، وعلت مداركه ، لا يستطيع أن يدرك الكثير مما يحيط به من الحقائق الكونية ، ولا أن يصل إلى كنهها ، ومع ذلك فهى حقائق ثابتة يرى آثارها وينتفع بها ويؤمن بها كامل الإيمان دون أن يعرف ماهيتها أو يدرك حقيقتها.

أيها العقل : إنك تحكم أن الشمس قدر الأرض آلاف المرات ، وأنها سابحة فى أفقها من غير عمد تحملها ، فهل وصلت إليها حتى تؤمن بها وتحكم عليها ؟

وكذلك تؤمن بوجود النور والظلمة وتيار الكهرباء ، والتيار اللاسلكى،وترى آثارها التى تدهش وتحير ،ثم تقف منها مكتوف اليدين لا تستطيع الحكم عليها ، ولا الوصول إلى معرفتها .

بل خبرنى أيها العقل ما هى حقيقتك أنت ؟ وأين موضعك من الجسم ؟ هل تقوى على أن تصف نفسك أو تدرك كنهك ؟

فالله الذى حيرك فيما يراه حسك ، وأعجزك عن إدراك نفسك ، هو الذى أسرى بحبيبه إليه وأشهده بدائع آياته ، وطاف به سماواته فى أقل من لمح الطرف .

وهو سبحانه القادر القوى جل عن أن يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وإذا كان العقل الإنسانى المجرد قد وصل مابين أطراف الأرض ، وتحكم فى عناصر الوجود ، ومحا فروق الزمان وأبعاد المكان فكيف بربك العظيم أيها الإنسان ؟!! .

رتلن لى آى إسراء الحبيب   كى أرى نور التجلى من مجيب
وأقرأ النجم وعقب لى "دنا"   فالدنو به شهود ضيا القريب
أسمعّنى لحن " إذا يغشى " عسى   أن أرى غيب التدلى من منيب
واسمعن بالروح منى الآى فى   سر " أسرى " غيبه أعلى عجيب
خل عقلك إن أشرت لغامض   واسمعنها ثم بالقلب الرحيب

فالمقام بيانه فوق النهى   إن شرحتُ الغيب فالشرح مهيب
أسرع المولى الكليم ليرتضى   عنه رب العرش فى حال المغيب
والعلى دعا الحبيب لقربه   فافقهن أسرار إسراء غريب
والكليم أراد ينظر ربه   والكليم مجمل حلل الأديب
والحبيب محمد فرد له   حظوة فيها الحبيب رأى الحبيب
زج فى النور رأى ما لم ير   خص بالخلوة من رب مجيب
يا مراد الذات يامحبو بها   أنت أولى بى وها أنا ذا المعيب
سوف يعطى فى الضحى قد طمأنت   قلب خطاء يريد بك النصيب
سيدي إني بجاهلك أرتجى   أن أنال الغفر من رب قريب
واثق الأفراد خيرة خلقه   للحبيب المصطفى الرب الرقيب
بيعة الرضوان برهان على   أنهم ينجون من يوم عصيب
كيف لا والله بايعهم وفى   "فوق أيديهم " هو الغيب المغيب
عن عقول عن نفوس زكيت   بل وعن روح الفتى الفرد المنيب
رحمةً للخلق أرسلت ولى   نسبة تدلى إلى الأصل النسيب
بالشفيع المرتجى يوم اللقا   جئت أرجو الوصل فى حال المشيب
من لمثل المخطئ الجاني الذي   بعد شيبي جئت فاشفع للمعيب
أنت أولى بى بمحكم آيه   من بنا أولى فسل ربى المجيب
سل لى العفو وتوفيقا لما   يرضى عنه فأحظى بالنصيب
يرضى عنى يمنح القرب الذى   يمح عنى البين أشهد فى قريب

حديث
الإسراء والمعراج

كان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة ، والصحيح أنه فى الليلة السابعة والعشرين من رجب.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبزار وأبو يعلى والبيهقى من طريق أبى العالية عن أبي هريرة قال : (جاء جبرائيل إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه ميكائيل فقال جبرائيل لميكائيل : ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح صدره، فشق عن بطنه فغسله ثلاث مرات، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غل، وملأه حلما وعلما وإيمانا ويقينا وإسلاما وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ، ثم أتاه بفرس فحمل عليه كان خطوة منه منتهى بصره، فسار وسار معه جبرائيل فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى﴿ﷺ وآله﴾ : ياجبرائيل ما هذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه. ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شئ ، فقال : ما هؤلاء ياجبرائيل قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة . ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والنعم ، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئا . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم آخر نىء خبيث فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضج الطيب ، قال : ما هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، و المرأة تقوم من عند زوجها

حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح . ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شئ إلا خرقته ، وقال : ما هذا ياجبرائيل ؟ قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه . ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال ما هذا ياجبرائيل ؟ قال هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها . ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من شئ ، قال : ما هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بكلمة عظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها . ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتا ، فقال : ياجبرائيل ما هذا ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول يارب آتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى ،واستبرقى ،وحريرى ، وسندسى ، وعبقريى ، ولؤلؤى ، ومرجانى وفضتى ،وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى ما وعدتنى ، فقال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، قالت : رضيت . ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة، فقال: ما هذا ياجبرائيل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يارب آتنى ما وعدتنى ، فلقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى ، وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى ما وعدتنى ، قال لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت. ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى صخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا : ياجبرائيل من هذا معك ؟ قال : محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، قالوا أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم ، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء . ثم لقى الأنبياء فأثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا ، وأعطانى ملكا عظيما ، وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى ، وأنقذنى من النار وجعلها بردا وسلاما . ثم إن موسى أثنى على ربه

فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليما ، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى ، وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون . ثم إن داود أثنى على ربه فقال الحمد لله الذى جعل لى ملكا عظيما وعلمنى الزبور ، وألان لى الحديد ، وسخر لى الجبال يسبحن والطير ، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب . ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح ، وسخر لى الشياطين يعملون ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابى وقدور راسيات ، وعلمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شئ فضلا ، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير وفضلنى على الكثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى ، وجعل ملكى طيبا ليس فيه حساب . ثم إن عيسى أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذنه ، ورفعنى وطهرنى وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل . ثم إن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ أثنى على ربه فقال : كلكم أثنى على ربه وإنى مثن على ربى ، فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل على الفرقان فيه بيان لكل شئ ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى أمة وسطا ، وجعل أمتى هم الأولين والآخرين ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى وجعلنى فاتحا وخاتما . فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد . ثم أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها بإناء منها فيه ماء فقيل اشرب منه يسيرا ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن فقيل له اشرب فشرب منه حتى روى ، ثم رفع إليه إناء آخر فقيل له اشرب فقال : لا أريده قد رويت ، فقال له جبرائيل : أما إنها ستحرم على أمتك ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل .

ثم صعد به إلى السماء فاستفتح فقيل : من هذا ياجبرائيل ؟ قال : محمد ، قالوا : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ، فدخل فإذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شئ كما ينقص من خلق الناس على يمينه باب يخرج منه ريح طيبه وعلى شماله باب يخرج منه ريح خبيثة ، إذا نظر إلى الباب الذى على يمينه ضحك واستبشر ، وإذا نظر إلى الباب الذى عن يساره بكى وحزن ، فقلت : ياجبرائيل من هذا ؟

قال : هذا أبوك آدم وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة إذا نظر إلى من يدخله من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن. ثم صعد به إلى السماء الثانية فاستفتح فقيل : من هذا معك ياجبرائيل؟ قال:هذا محمد ، قالوا: أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ، فدخل فإذا هو بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا،قال:من هذا ياجبرائيل؟ قال : عيسى ويحيى . ثم صعد به جبرائيل إلى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا : من هذا؟ قال: جبرائيل، قالوا:ومن هذا معك؟ قال: محمد رسول الله ، قالوا : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ، فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس فى الحسن كما فضل القمر ليلة البدر على على سائر الكواكب، قال:من هذا ياجبرائيل؟ قال: هذا أخوك يوسف . ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال: جبرائيل، قالوا : ومن معك ؟ قال: محمد ، قالوا : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ، فدخل فإذا هو برجل ، قال : من هذا ياجبرائيل قال: إدريس رفعه الله مكانا عليا . ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح قالوا : من هذا ؟ قال: جبرائيل قالوا : ومن معك ؟ قال: محمد ، قالوا : أو قد أرسل إليه ؟ قال :نعم،قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ،

ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم ، قال : من هذا ياجبرائيل ومن هؤلاء الذين حوله؟ قال : هذا هارون المحبب وهؤلاء بنو إسرائيل . ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح فقيل له : من هذا ؟ قال: جبرائيل قالوا : ومن معك ؟ قال: محمد ، قالوا:أو قد أرسل إليه ؟ قال :نعم،قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ، فدخل فإذا هو برجل جالس فجاوزه فبكى الرجل ، قال : ياجبرائيل من هذا ؟ قال : موسى، قال فما له يبكى ، قال : يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله ، وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى الدنيا وأنا فى أخرى فلو أنه بنفسه لم أبال ولكن مع كل نبى أمته . ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح ، فقيل له: من هذا؟ قال: جبرائيل قالوا ومن معك؟ قال: محمد ، قالوا:أو قد أرسل إليه ؟ قال :نعم،قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجئ جاء ، فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسى وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم من ألوانهم شئ فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شئ فدخلوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شئ ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شئ ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شئ فصارت ألوانهم مثل ألوان أصحابهم فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : ياجبرائيل من هذا الرجل الأشمط ومن هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شئ وما هذه الأنهار التى دخلوا ؟ قال هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض،وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لو يلبسوا إيمانهم بظلم،وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شئ فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما الأنهار فأولها رحمة الله ، والثانى نعمة الله ، والثالث سقاهم ربهم شرابا طهورا . ثم انتهى إلى سدرة المنتهى ، قيل له : هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك ، فإذا هى شجرة تخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن،وأنهار من لبن لم يتغير طعمه،وانهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار

من عسل مصفى، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها، والورقة منها مغطية للأمة كلها فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين تقع على الشجرة ، فكلمه الله تعالى عند ذلك فقال له : سل فقال : اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا عظيما ، وسخرت له الجن والإنس والشياطين ، وسخرت له الرياح ، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له ربه : وقد اتخذتك خليلا وحبيبا- وهو مكتوب فى التوراة حبيب الرحمن – وأرسلتك إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معى ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطيئة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعا من المثانى لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر ، وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وجعلتك فاتحا وخاتما ، قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فضلنى ربى بأن أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وألقى فى قلب عدوى الرعب من مسيرة شهر ، وأحل لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض كلها مسجدا وطهورا، وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعرضت عليَّ أمتى فلم يخف على التابع والمتبوع، ورأيتهم أتوا على قوم ينتعلون الشعر ، ورأيتهم أتوا على قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأنما خرمت أعينهم بالمخيط فلم يخف على ما هم لاقون من بعدى

، وأمرت بخمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال : بما أمرت؟ قال بخمسين صلاة ، قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، فرجع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا ، ثم رجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : بأربعين ، قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فرجع فوضع عنه عشرا ، إلى أن جعلها خمسا قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، قال : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت فما أنا راجع إليه ، قيل له أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة ، فإن كل حسنة بعشر أمثالها فرضى محمد ﴿ﷺ وآله﴾ كل الرضى ، قال : وكان موسى من أشدهم عليه حين مر به ، وخيرهم له حين رجع إليه) .

وأخرج الشيخان وابن جرير من طريق سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : حين أسرى به لقيت موسى فنعته فإذا هو رجل مضطرب ، رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، ولقيت عيسى فنعته ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، يعنى حمام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به ، وأتيت بإنائين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر فقيل لى : خذ أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربت ، فقيل لى : هديت الفطرة أما أنك لو أخذت الخمر لغوت أمتك.

وأخرج مسلم من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شئ إلا نبأهم به ، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء وإذا موسى قائم يصلى، وإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم يعنى نفسه ، فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يامحمد هذا مالك صاحب النار فالتفت إليه فبدأنى بالسلام.

وأخرج أحمد وابن ماجة وابن حاتم وابن مردويه من طريق أبى الصلت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال :هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج(غبار)ودخان وأصوات، فقلت : ما هذا ياجبرائيل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب.

وأخرج ابن مردويه والسيوطى من طريق سليمان التيمى عن أنس عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما أسرى بى إلى السماء رأيت موسى يصلى فى قبره.

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد والطبراني فى الأوسط وابن مردويه من طريق أبى معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة قال:لما رجع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليلة أسرى به وكان بذى طوى قال : ياجبرائيل إن قومى لا يصدقوننى ، قال : يصدقك أبو بكر وهو الصديق.

وأخرج الطبرانى وابن مردويه من طريق عبد الأعلى بن أبى المساور عن عكرمة عن أم هانئ قالت : بات رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليلة أسرى به فى بيتى ففقدته من الليل فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إن جبرائيل أتانى فأخذ بيدى فأخرجنى فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار فحملنى عليها ثم انطلق حتى انتهى بى إلى بيت المقدس فأرانى إبراهيم يشبه خلقه خلقى ويشبه خلقى خلقه ، وأرانى موسى آدم طويلا سبط الشعر شبهته برجال أزد شنوءة ، وأرانى عيسى بن مريم ربعة أبيض يضرب إلى الحمرة شبهته بعروة بن مسعود الثقفى ، وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى شبهته بقطن ابن عبد العزى ، قال وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم ما رأيت ، فأخذت بثوبه فقلت : إنى أذكرك الله أنك تأتى قوما

يكذبونك وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطوا بك ، فقالت : فضرب ثوبه من يدى ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم ، فقام مطعم بن عدى فقال : يامحمد لو كنت شابا كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا ، فقال رجل من القوم:

يا محمد هل مررت بإبل لبنى فلان ؟ قال : نعم ، وجدهم فى مكان كذا وكذا وقد انكسرت لهم ناقة حمراء فوجدهم وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها ، قالوا :

فأخبرنا ما عدها وما فيها من الرعاء ؟ قال : قد كنت عن عدها مشغولا ، فنام فأتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاء ، ثم أتى قريشا فقال لهم : سألتمونى عن إبل بنى فلان فهى كذا وكذا وفيها من الرعاء فلان وفلان ، وسألتمونى عن إبل بنى فلان فهى كذا وكذا وفيها من الرعاء ابن أبى قحافة وفلان وفلان وهى مصبحتكم بالغداة على الثنية ، فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال . فاستقبلوا الإبل فسألوا هل ضل لكم بعير ؟ قالوا نعم ، فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء ؟ قالوا: نعم، قالوا : فهل كان عندكم قصعة من ماء ؟ قال أبو بكر : أنا والله وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت فى الأرض ، فصدقه أبو بكر وآمن به فسمى يومئذ الصديق.

حكمة الإسراء

أولا : حكمة الإسراء بالنسبة لسيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

معلوم أن الله تعالى خلق الإنسان لاستعمار الأرض ، ولعبادته جل جلاله ، وللخلافة عنه سبحانه – ولما كانت تلك الحكم الثلاث تقتضى أن يكون الإنسان بفطرته مؤهلا لأرقى درجات الكمال ، عناية من الله تعالى به ، وفضلا منه سبحانه ، أو معدا للدرك الأسفل من النار بحسب ميوله عدلا من الله تعالى . والمؤهلون لأعلى الدرجات أبرار ومقربون ، والمقربون يتفاضلون عند الله تعالى بحسب القرب منه جل جلاله – فرفعهم وأعلاهم من جمّله الله تعالى بصفاته العلية من الرحمة والرأفة والصبر والشكر والإحسان

والولاية والعناية والحفظ وغيرها ، من باقي صفاته جل جلاله حتى يحصل التقرب إليه سبحانه بما هو منه جل جلاله ، وإذا تفضل الله بتلك الصفات على عبد جمعه عليه وجمع به عباده وخصه – تقدست ذاته – بصفاته العلية من العلم والبيان والحكمة والهداية والإكرام والعزة ، وبقدر ما تفضل الله به عليه من تلك المعانى يكون قربه من الله تعالى ، واتصاله به سبحانه وتعالى حتى يجمله بالقوة على تحمل مواجهته سبحانه والتلقى منه وشهود مالا تقوى الملائكة على شهوده ، فضلا عن بنى الإنسان ، وأكمل الناس فى هذا المقام العلى أولو العزم من الرسل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم ، ثم يليهم الأنبياء ، فورثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ثم الأمثل فالأمثل .

خصوصية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾:

لما كانت تلك الكمالات مع تفاوتها لها نهايات هى غايتها ، وتلك النهاية هى غاية الفضل العظيم من الله تعالى ، وهى المنزلة العليا والخصوصية الكبرى التى يختص الله بها فردا واحدا هو خير عباده لديه وأعزهم عليه وأقربهم منه ، يقيمه الله تعالى مقامه يفتتح به سبحانه الإيجاد فيكون أول مخلوق ، ويختتم به معانى الكمال والجمال والجلال، حتى يبين سبحانه به ﴿ ﷺ وآله﴾ ما يحبه ويرضاه ، عقيدة وقولا وعبادة وأخلاقا ومعاملات وأحوالا ، ويحفظ ما تفضل به عليه باقيا بقاء لذكره ، محفوظا بمن اجتباهم من أوليائه حفظا لكرامته ﴿ ﷺ وآله﴾ ودلالة على أنه الفاتح الخاتم ، وهذا الإنسان المخصوص بهذا الفضل العظيم الممنوح كل تلك الكمالات التى تفرد بها دون غيره من العوالم الروحانية والملكوتية والملكية هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وآله الكرام ، وأصحابه الأخيار وورثته الأطهار .

ولتلك المعانى اقتضت الحكمة الإلهية أن يشهده الله ماله عنده سبحانه وتعالى ، ليعلم حق اليقين منزلته من الله تعالى فضلا من الله . افتتحه به من غير سؤال ، وطلبه إليه من غير طلب منه ﴿ ﷺ وآله﴾ كما حصل من أولى العزم من الرسل غيره ؛ فإن نوحا عليه السلام

سأل الله فلم يجبه قال : ﴿ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ (هود: ٤٥) . والخليل عليه السلام سأل الله تعالى أن يريه كيف يحي الموتى فقال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ (البقرة : ٢٦٠) . والكليم صلوات الله وسلامه عليه سأل الله تعالى قائلا: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف : ١٤٣) فلم يجبه سبحانه . وداود عليه السلام سأل الله مقاما فوق الخلافة فلم يجبه وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص:٢٦) . وعيسى عليه السلام سأل ربه المائدة لتطمئن قلوب أصحابه فأجاب سبحانه مشددا عليه بقوله جل جلال ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة ١١٥) .

منزلة الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بين الرسل :

وهذا الفرد المراد لذات الله سبحانه ،الحبيب المصطفى لله تعالى ، افتتحه سبحانه وتعالى بأكمل من تلك الكمالات وأعلى منها ، فتفضل سبحانه عليه بما لم يتفضل به على أحد من أولى العزم . إعلاما منه بمترلته لديه جل جلاله ، ودليلا على أنه حبيب الله تعالى الذى أقامه مقاما لم يقم فيه أحدا من أولى العزم ، ولما كانت عناية الله به﴿ ﷺ وآله﴾ تقتضى أن تكون تلك الكمالات بقدرته سبحانه وتعالى ، ومتى تعلقت القدرة بكائن أبرزته مهما كان ، فسجدت العقول تسليما ، وخشعت القلوب تصديقا ، وابتهجت الأرواح أنسا ، ومن أين للعقل أن يبحث عن حقيقة أبرزتها القدرة الإلهية ؟ اللهم إلا إذا أكرم من سبقت لهم منه الحسنى بشميم هذا العبير أو بذوق هذا الطهور .

اللهم تفضل علينا بما أنت أهله ياذا الفضل العظيم .

للروح نشوتها من مشهد الوجد　　للعقل بهجته فى مطلع الحد
للحس إمداده من علمه الكسبى　　للجسم إسراعه للفوز بالوعد
لنفخة القدس إشراف على المجلى　　إذا تجلى لها المحبوب بالود
العبد جمل بالأوصاف منزلة　　فوق المقامات بالإحسان لا الجهد
عبد يحيط به الوجه الجميل علا　　يجلى العبودة فى الإصدار والورد

يا نفخة القدس فى الإسراء هل تجلى   للروح ساطعة فى حظوة العهد
فالعبد صورته تخفى مكانته   غابت معالمه عن واصل فرد
العبد كنز هدى شمس تضئ دجى   من شامه نال منه غاية القصد
العبد رحمته العبد نعمته   يحي القلوب بما يوليه من رفد
لم يعرف العبد إلا المفردون رأوا   ظلاله أشرقت فى المطلع الحدى
العبد لم يعرفه غير خالقه   من صاغه قائما للحب والرشد
أسرى به الله ليلا كى يرى غيبا   لكل أعلين فى الإطلاق والقيد
إذا رئى ذكر الله لرؤيته   أقبل بروحك مشتاقا إلى العبد
العبد حير عقلى كيف أدرك من   قد جمل العبد بالأوصاف والوجد
من يعرف العبد يعرف ربه فضلا   من يجهل العبد يبلى ثم بالصد
من يعرف الله قبل العبد يجهله   العبد روض الرضا فى مشهد المجد
مولاى أدبنا بالكشف أيدنا   حتى ننال شهود العبد بالعبد

ثانيا : حكمة الإسراء بالنسبة للمسلمين

بينت لك حكمة الإسراء بالنسبة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وله حكم أخرى تتعلق بنا ، وهى أن كل مسلم مطالب بالسفر إلى الحق جل جلاله ، وهذا السفر يسمى سلوكا أو طريقا اصطلاحا . والمسافر إلى الله تعالى يفارق فطره المهملة ومقتضيات بشريته، كالحسد والطمع والحرص وغيرها مما هو مبعد عن الله تعالى

موبق فى نار جهنم إن لم يفارقها السالك باستبدالها بأضدادها من محاب الله ومراضيه ، وتلك المفارقة لا تتسنى للسالك بمجرد العلم بضرر تلك العوائد المذمومة شرعا ؛ فإن أكثر الذين يعلمون قبحها يرتكبونها ، فترى علماء الدنيا يحرصون على جمع المال وادخاره ، ويسارعون فى الأمراء والأغنياء ولو كانوا كفارا ، وهم يعلمون أن تلك الأعمال تغضب

الله تعالى ولا يبالون . لذلك كان لابد للسالك من نور يجعله الله تعالى له تستبين به تلك الرذائل استبانة تجعل القلب ينقبض منها،قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ (التكاثر : ٥،٦). وقال تعالى : ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ (الحديد : ٤). فمن جعل الله له نورا يبلغ به اليقين يرى الجحيم جلية عندما يهم بعمل يوجبها شرعا ، فينفر لا تضاح برهان ربه .

وبيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لتلك الأشياء الموجبة لغضب الله تعالى إنما هو بيان عن شهود عيان، وهذا البيان يحصل للسالكين إلى الله تعالى ، إما بإلهام ، أو بعناية من

الله تعالى تمنعه عن عمل تلك المنكرات ، أو بتذكير وعد الله ووعيده قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ ﴾ (الأعراف : ٢٠١) .

أو برعاية معية الله للعبد . وسالك فى طريق الله تعالى لم تنكشف له شناعة وبشاعة تلك المنكرات يجب عليه أن يتوب من دعوى السلوك ، وإن السالك على طريق يفارق فى كل نفس بعض آثار الطريق ومعالمه ، وكذلك السالك يفارق فى كل نفس بعض عوائده ومألوفاته حتى يخرج من أسوار حظوظه وآماله . ومن نظر إلى تلك المثل التى بينها رسول الله : عن الزنا ، وأكل الربا ، ومال اليتيم، وعن الداعى إلى الفتنة ، والمرائى وغيرهم بغير العبرة والفكرة حرم ذوق حكمة الإسراء ، والله يمنحنا عين العبرة ، ولسان الحكمة ، وصمت الفكرة .. آمين .

إشارات الإسراء

١- إشارة فى قوله تعالى : ﴿ بعبده﴾ أن الله تعالى قد يمن على بعض كمل أوليائه بأن يشهدهم معانى الملكوت بأرواحهم فى نوم أو توجه ، لأنه سبحانه وتعالى قال بعبده و لم يقل برسوله وفى ذلك مزيد فضل على من اجتباه .

٢- فى عرض المشاهد الحقة عليه ﴿ﷺ وآله﴾ كرؤية الدنيا فى صورة عجوز شوهاء ، وكرؤية المثل التى تحصل للزانى، والكذاب، والنمام، وقاطع الطريق، وكل تلك المشاهد حقيقية إشارة إلى أن هذه الأشياء تنكشف للمقبل على الله انكشافا حقيقيا بعامل العناية حتى تجلى له ما عليه تلك الصفات من القبح والرداءة والمنظر المنكر فيفر منها إلى فسيح الملكوت الأعلى ورياض الفردوس ، كما يشاهد عند بعض أهل الإخلاص السالكين طريق الله تعالى الذين استقذروا الدنيا ، واستنكروا ملاذها ، ونعيمها الفانى .

٣- فى عرض الماء والخمر واللبن إشارة إلى أن المقبل على الله تعالى تعرض عليه جمالات الدنيا وتقبل عليه فتميل نفسه إلى الأنفع له،الحافظ لنفسه،المعين على الإقبال على ربه، لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ اختار اللبن الذى هو غذاء وشراب، وهذا دلاله على التقليل والرضا بشيء واحد منها يقوم مقام الجميع، لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ لو شرب الماء لاحتاج إلى اللبن ، ولو شرب الخمر لاحتاج إلى الماء واللبن .

٤- إشارة فى دخوله بيت المقدس وصلاته فيه ﴿ﷺ وآله﴾ ، والصلاة إما أن تكون الدعاء، أو الصلاة الشرعية ، واصطفاف الرسل وراءه ﴿ﷺ وآله﴾ دليل على أن الأرواح الكاملة مطلقة وأنه ﴿ﷺ وآله﴾ إمامهم، وكيف لا ، وقد عاهدهم الله أن يكونوا له أتباعا لو أدركوا زمنه .

وافى البراق لأسباب بها حكم	ليطمئن بمعنى فى المشابهة
حتى وصلت لبيت المقدس منفردا	والرسل بغيتهم نيل المشاهدة
صفوا وراءك إذ أنت الإمام لهم	قد بايعوك على صدق المتابعة
صليت متوجها لله معتصما	بالله حتى بدا نور المفاضلة
أبو همو أنت ياسر الوجود ولا	فخر وسر همو قبل المعاهدة

وهنا غريبة وهى أن جبريل ﵇ أنزله ﴿ﷺ وآله﴾ عند بيت لحم حيث ولد عيسى ﵇، فصلى أى دعا ، وعند قبر موسى ﵇ فدعا ﴿ﷺ وآله﴾ . من هذا نأخذ أن الأماكن تبارك

بما يلامسها وأن الدعاء يقبل فى الأماكن المباركة ، وأنه من السنة أن الإنسان إذا زار قبر نبى أو ولى أن يصلى فيه أى يدعوا الله تعالى معتقدا أن تلك الأماكن يستجاب فيها الدعاء كما ورد فى صحيح السنة فى أحاديث الإسراء ، وما ينكره المدعون العلم على العامة من زيارة روضات الأولياء رضوان الله عليهم بدعوى أنهم يعتقدون أن الموتى ينفعون ويضرون هذا لجهلهم بالسنة . والحقيقة أن أجهل مسلم لا يعتقد أن وليا فى روضته ينفع أو يضر ، ولا أن وليا حيا ينفع أو يضر لأن ذلك شرك ظاهر ، وإنما ينفع الله على يد من يشاء ، ويضر على يد من يشاء ، ولكن السنة بينت لنا أن دعاء الله تعالى فى الأماكن المباركة مستجاب ، وأن دعاء أهل الصلاح والتقوى والعلماء العاملين مستجاب إذا دعوا لأنفسهم ولغيرهم ، ولو قيل لك : إن وليا من أولياء الله تعالى دعا الله فأنزل المطر،أو منع الوباء،أو شفى المريض،أو أغنى الفقير،أو هدى العاصى،أو انتقم من ظالم أو أهلك معتديا فصدق، فإن ذلك كله فى السنة ، وإنما تطرف أهل الجدل الجهلاء بالسنة فأنزلوا عقائد المؤمنين من أهل الصلاح والتقوى من أنهم إذا دعوا الله فى تلك الأماكن يستجاب لهم ، أنزلوها منزلة اعتقادهم الفاسد فى أن فلانا الغنى ينفع،وفلانا الحاكم يضر،فنظروا إلى أهل الإيمان بما نظروا إليه فى أنفسهم فأنكروا عليهم .

ثم أثنى الرسل كلهم عليهم السلام بما كوشفوا به وأثنى ﴿ﷺ وآله﴾ على ربه بقدر ما كوشف به من الكمالات الذاتية والجلالات والجمالات الربانية فتحققوا جميعا أفضليته ﴿ﷺ وآله﴾ وكيف لا ، وهو حبيب الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذى عاهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لحضرته ﴿ﷺ وآله﴾ بأن يكونوا له أتباعا، وأنه ﴿ﷺ وآله﴾ حامل لواء الحمد يوم القيامة ، وأول شافع وأول مشفع ، وله الجاه العظيم عند الله تعالى ، نسأل الله تعالى بجاهه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يمن علينا بحسن اتباعه ﴿ﷺ وآله﴾، وأن يجعلنا على سنته ﴿ﷺ وآله﴾ وممن سبقت لهم الحسنى ، إنه مجيب الدعاء .

المعراج

من القدس إلى السموات

اتفق المسلمون على الإسراء إلى بيت المقدس لورود الحجة فى القرآن الشريف ، وقد وردت حجة المعراج فى القرآن أيضا وفى صحيح السنة ، فمن خالف ما وضحه الكتاب والسنة فهو ممن لا يعتد بكلامه .

والمعراج لغة المرقاة أو المسلم الذى يصعد عليه الإنسان ، وهو هنا المرقاة التى تعرج عليه الملائكة والأنبياء . وكل مؤمن بالله ورسوله مسلم بما ورد ولكننا نطلب المزيد من كشف الحكمة عن غامض تلك الحقيقة حتى يكون مزيدا من العلم لنا ، وقوة فى إيماننا ، وتأييدا لقوة الحب لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وكشفا لبعض ما تفضل الله به عليه من المقامات العلية والمنازلات الربانية ، حتى يكون المؤمن كامل الإيمان ، وكيف ينكر المسلم خبرا صح لديه أنه متصل برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ حفظنا الله تعالى من نفثات الشيطان، ومن صحبة الضلال الذين يفسدون القلوب بالشبه ، وجعلنا الله تعالى ممن يسلمون لرسوله﴿ﷺ وآله﴾ تسليما .

حكمة المعراج

أراد الكثير من السادة العلماء أن يضعوا تبريرا لآية الإسراء والمعراج على حد فهمهم فقالوا : إن الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ تعرض فى العام العاشر من البعثة لمحن كثيرة منها : وفاة زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها ، ومنها وفاة عمه أبي طالب اللذين كانا عونا له وحماية بمالهما وجاههما ، فأراد المولى سبحانه وتعالى أن يُسرى عنه بهذه الرحلة . ولكن معجزة الإسراء والمعراج كانت تأكيدا لقوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء: ١٠٧). فشمول رحمته يقتضى أن يكون لعُمار السموات نصيب من هذه الرحمة بمشاهدته ﴿ﷺ وآله﴾وذلك عن طريق المعراج.

وما كان استفتاح جبريل له﴿ﷺ وآله﴾ لكل سماء إلا ليحظى عُمار كل سماء بشهود أنوار المجلى فى هيكله المحمدى، كما أخذ عُمار الأرض نصيبهم من هذه الرحمة

شعشاع نور "دنا " مشاهد إحسان   ونور "تدلى" مشهد الإيقان
وفى غيب إسراء الحبيب حقائق   وقد حققت بالآي فى القرآن
وأنوار معراج الحبيب به اختفت   مبان معان للفتى الروحانى
لقد أفرد الرحمن ذات محمد   بأسراره لم تعط للإنسان
مشاهد "أو أدنى " عن الروح سترت   وفى غيب "إذ يغشى" تنزل ديان
طهور على الأرواح دارت فأسكرت   أولى العزم من بدء فخل بيانى
وماذا بيانى والعقول عمية   ولا كيف بل لا كم فى الأكوان
مراد لذات الله قد خصه بما   تفرد فيه فى اتحاد تدان
لقد بين القرآن بعض مقامه   لمن جملوا بالروح والريحان
ومن أشهد الأعلين فيك غوامضاً   بليلة إسراء وفضل حنان
لدن أنت ياخير النبيين منزلاً   ومعراجك العالى لكشف عيان
بك الله قد أسرى ليظهر غيبه   لعالين والأعلين تحقيق إيمان
ولم يك رب العرش فوق سمائه   تنزه عن كيف وعن برهان
وحكمة إسراء الحبيب إغاثة   لعالمه الأعلى ورحمة وحنان
ولم ينتقل خير النبيين راقياً   إلى الله نزه حضرة الرحمن
ولكن لإظهار الجمال لأهله   من العالم الأعلى لنيل أمان
بك الله أسرى كى يرى العالم العلى   جمالاً مصوناً جل عن إمكان

إشارات المعراج

١) نصب المعراج له ﴿ﷺ وآله﴾ بين السماء والأرض إظهارا لحكمة الله فى حفظ المراتب ، وإثباتا للأسباب ، وكمال توحيد بمسبب الأسباب ، ثم فتحت له أبواب السماء فرأى فى كل سماء رسولا من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إثباتا لقدرة الله تعالى من أن الجسم يحل فى محلين ، فإنه سمع صوت موسى فى قبره ورآه فى السماء، وللقدرة تصريف عجيب فوق مراتب العقول وإنما يحكم العقل على فعل الخلق ، وفعل الله المنسوب لذاته فوق العقول والأرواح ، وصار يرتقى ﴿ﷺ وآله﴾ من سماء إلى سماء فيشهد فى كل سماء من الآيات الكبرى ومن أسرار القدرة وعجائب الحكمة ما تعجز عنه العبارة- فسبحان من لا يعلم قدره غيره ، ولا يبلغ الواصفون صفته – حتى وصل إلى سدرة المنتهى وهى التى تنتهى إليها علوم الخلائق على قدر مواهب العقول ، ولديها وقف الروح الأمين تكاد الهيبة تذهب به ، ثم رفع المعراج ووضع الرفرف وكان ﴿ﷺ وآله﴾ آنسا بجبريل فلما أن وقف طلب منه الصحبة فقال : إلى هنا انتهى مقامى ولو تجاوزت لاحترقت من أنوار العزة والجبروت ، ثم صعد الرفرف وزج برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الأنوار القدسية ، وهنا تقف عبارات النقل وليس للعبارة أن تفى بآيات تلك الأسرار عن عيون الكشف ، ثم أونس ﴿ﷺ وآله﴾ من السلام ، وعلته من غوامض الأسرار ما خصه به سبحانه وتعالى دون رسله .

٢) وأمره سبحانه وتعالى بالصلوات وكانت خمسين ، ثم قدر سبحانه وتعالى أن ينعم حبيبه بنعيم المواجهة فى تلك الليلة فتردد بين ربه سبحانه وتعالى وبين موسى عليه السلام ، وكان سر ذلك كمال الإكرام لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكمال الأنس لموسى عليه السلام، لأنه كان يشهد من الأنوار المحمدية المشرقة من أنوار الحق ما تبتهج به نفسه ، وكان ليستديم النظر يحب تردده ﴿ﷺ وآله﴾ حتى تفضل الله فجعل الخمسين خمسا ، وتفضل بجزاء الخمسين .. والله ذو الفضل العظيم .

دنا ربنا الأعلى تدلى لحبه ... ومن فوق أو أدنى محا الأكوانا
فإن حبيبى فى سرادق قدس من ... تأهلت الأرواح فيه أمانا
رأى فيه موسى نور قدس منزه ... تمنى يراه فى الكيان عيانا
فرد بلن والفرد فاز بفوقه ... رأى فيه موسى الغيب منه تدانى
يردده موسى ليشهد غيب ما ... تمناه كشفا حين دك مكانا
رأى ربه الفرد المراد محمد ... تجاوز كن حق تحقق كانا
وموسى لقد جعل الصلاة وسيلة ... ليشهد نورا مشرقا وجنانا
إذا كان موسى فى الحبيب مؤهلا ... ليشرب راحا صافيا ودنانا
فواجه بوجهك ياحبيبى قلوبنا ... تصير بيوتا للظهور وحانا
تعطف علينا ياضياء نفوسنا ... وأطلق بسر الغيب منك لسانا

٣) اقتبس أهل المحبة المواجهون بجمال ذى الجلال والإكرام إثبات وجود الحقيقة فى مكانين لأنه﴿ ﷺ وآله﴾ رأى موسى فى قبره يصلى ويتكلم ،ورآه فى السماء السادسة فسلم عليه ووقف معه عليهما الصلاة والسلام موقف الخليل لخليله رحمة وعطفا به﴿ ﷺ وآله﴾ وبأمته ،ورأى نفسه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الجالسين على يمين آدم فى السماء الأولى وتلك حضرة فوق حكم العقل وغاية ما نجيب به لأهل العقول أن الذى رؤى فى السماء هى الأرواح وهو جواب لا يقنع من تفضل الله عليهم بالعرفان لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: رأيت موسى و لم يقل روحه، إنا والحمد لله سلمنا وصدقنا فمنحنا الله ما به اطمأنت قلوبنا . ومن صدق بالغيب تفضل عليه بالشهود .

٤)الإسراء كان بالروح والجسم لأن جبريل كان يسيفتح أبواب السماء ، والروح لا تستفتح تلك الأبواب قال سبحانه: ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (ص : ٥٠). فإذا كانت الأجسام البشرية تفتح لها الأبواب فكيف بالأرواح النورانية ؟ ولأن المعراج لو كان

بالروح لعرف الرسل الموجودين فى السموات لأن الأرواح تعارفت بدءا فلا تتناكر ، وإنما بين جبريل عليه السلام للجسم لا للروح .

٥) جاء فى كلام بعض أهل الإشارات : لما كان ﴿ﷺ وآله﴾ ثمرة شجرة الكون ، ودرة صدفة الوجود ، وسر معنى كلمة كن ،ولم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدى مثمرها ، ورفعها إلى حضرة قدسه،والطواف بها على ندمان حضرته ، أرسل إليه أعز خدام الملك عليه ، فلما ورد عليه قادما ، وافاه على فراشه نائما، فقال له قم ياناائم فقد هيئت لك الغنائم ، قال ياجبريل إلى أين ؟ قال يامحمد ارفع الأين من البين إنما أنا رسول القدم ، أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم ، يامحمد أنت مراد الإرادة ، والكل مراد لأجلك ، وأنت مراد لأجله ، أنت صفوة كأس المحبة ، أنت درة هذه الصدفة ، أنت شمس المعارف ، أنت بدر الطائف ، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمى هذا الحمى إلا لوصلك ، ما روق كأس المحبة إلا لشربك ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ ياجبريل الكريم يدعونى إليه فما الذى يفعل بى ؟ قال : ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال: ياجبريل هذا لى فما لعيالى وأطفالى؟ قال: ولسوف يعطيك ربك فترضى ، قال: ياجبريل الآن طاب قلبى، ها أنا ذاهب إلى ربى . ثم قال جبريل: يامحمد إنما جئ بى إليك الليلة لأكون خادم دولتك ، وحاجب حاشيتك ، وحامل غاشيتك ، وجئ بالمركوب إليك لإظهار كرامتك ، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيبا، أو استدعوا قريبا ، وأرادوا ظهور إكرامه واحترامه ، أرسلوا أخص خدامهم، وأعز نوابهم لنقل أقدامهم ، فجئناك على رسم عادة الملوك ، وآداب السلوك ، ومن اعتقد أنه يصل إليه بالخطا فقد وقع فى الخطأ ، ومن ظن أنه محجوب بالغطا فقد حرم العطا .

وافى لحضرته البراق ملجما   وأتاه جبريل الأمين مسلما
ناداه قم للقرب وانهض للقا   فالله قد صلى عليك وسلما
الملك والملكوت زين بالصفا   لمقامك السامى الرفيع تكرما

بادر لحضرة قدسه وجماله   وتمل ياطه برؤية من سما

٦) ولبعض أهل الإشارات أيضا: كأن الله تعالى قال له ﴿ﷺ وآله﴾ : يامحمد قد أعطيتك نورا تنظر به إلى جمالى ، وسمعا تسمع به كلامى ، يامحمد إنى أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلى، يامحمد أرسلتك إلى الناس شاهدا ومبشرا ونذيرا ، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به ، فأريك جنتى لتشاهد ما أعددت فيها لأوليائى، وأريك نارى لتشاهد ما أعددت فيها لأعدائى ، ثم أشهدك جلالى، وأكشف لك عن جمالى ، لتعلم أنى متره فى كمالى عن الشبيه والنظير والوزير والمشير ، فرآه بالنور الذى قواه من غير إدراك ولا إحاطة ، فردا صمدا ، لا فى شئ، ولا من شئ ، ولا قائما بشئ ، ولا على شئ ، ولا مفتقرا إلى شئ ، وليس كمثله شئ ، فلما كلمه شفاها ، وشاهده كفاحا ، وقيل له يامحمد لابد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع ، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فكان سرا من سر ،لم يقف عليه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل . ولما انتهى إلى بالعرش تمسك بالعرش بأذياله ، وناداه بلسان حاله:

يامحمد أنت فى صفاء وقتك ، آمن من مقتك ، أشهدك جمال أحديته ، وأطلعك على جمال صمديته ، وأنا الظمآن إليه ، اللهفان عليه، المتحير فيه ، لا أدرى من أى وجه آتيه ، جعلنى أعظم خلقه فكنت أعظمهم منه هيبة ، وأكثرهم فيه حيرة ، وأشدهم منه خوفا .

يامحمد خلقنى فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتى لا إله إلا الله فازددت لهيبة اسمه ارتعادا وارتعاشا ، فكتب محمد رسول الله فسكن لذلك قلقى ، وهدأ روعى ، فكان اسمك لقاحا لقلبى ، وطمأنينة لسرى ، فهذه بركة اسمك على ، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلى ؟

يامحمد أنت المرسل رحمة للعالمين ، ولابد لى من نصيب من هذه الرحمة ، ونصيبى ياحبيبى أنت تشهد لى بالبراءة مما نسبه أهل الزور إلى ، وتقوله أهل الغرور على ، زعموا أنى أسع من لا مثيل له ، وأحيط بمن لا كيفية له .

يامحمد من لا حد لذاته، ولا عد لصفاته ، كيف يكون مفتقرا إلى أو محمولا على ، إذا كان الرحمن اسمه،والاستواء صفته،وصفته متصلة بذاته ، فكيف يتصل بى أو ينفصل عنى ؟

يامحمد وعزته لست بالقريب منه وصلا،ولا بالبعيد منه فصلا، ولا بالمطيق له حملا ، أوجدنى منه رحمة وفضلا ، ولو محقنى لكان حقا منه وعدلا .

يامحمد أنا محمول قدرته ، ومعمول حكمته ؛ فأجاب لسان حال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: أيها العرش إليك عنى أنا مشغول عنك ، فلا تكدر على صفوتى ، ولا تشوش على خلوتى ، فما أعاره ﴿ ﷺ وآله﴾ منه طرفا ، ولا أقرأه من مسطور ما أوحى إليه حرفا .

من غوامض

الإسراء والمعراج

١) قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾(الإسراء:١) المراد من قوله بعبده دون نبيه أو رسوله أو حبيبه

لئلا تضل أمته ، أو لأن وصفه بالعبودية المضافة إليه تعالى أشرف المقامات. قال بعض العارفين : ليس للمؤمن صفة أتم ولا أشرف من العبودية ، ولذا وصف بها ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أشرف المواطن كموطن الإسراء ونزول القرآن. والعبد معناه هو الخاضع لربه المعتمد فى جميع شئونه عليه ، وعلم أن الكل منه وإليه، وبالجملة فهذه العبودية التى وصف بها ﴿ ﷺ وآله﴾ أشرف من السيادة التى وصف بها يحيى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾لأن العبودية وصف حقيقى ، والسيادة وصف مجازى، والحقيقى أشرف من المجازى .

٢) وقوله: ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ ذكر الله مبدأ الإسراء بقوله من المسجد الحرام لفضله على جميع المساجد وهو فى الأصل حقيقة فى الكعبة ، قال الله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة : ١٤٤) أى جهة الكعبة ، ثم نقل للمسجد المحيط بها ، ثم أطلق على مكة كلها ، بل وعلى الحرم كله ، وكل آية ذكر بها المسجد الحرام فالمراد به مكة إلا آية القبلة ، فيكون المراد بالمسجد هنا مكة لما قيل : إن الإسراء كان من بيت أم هانئ ، وقيل كان من بيته ، كما تصرح به رواية (فرج سقف بيتى) ، وقد جمع بعضهم بين الأقوال بأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان ساكنا بيت أم هانئ فأضاف البيت مرة إليها لأنها مالكته، ومرة إليه لأنه ساكنه ، فجاءته الملائكة ونقلوه إلى المسجد ليسهل غسل قلبه الشريف من ماء زمزم ومنه ركب وأسرى به .

٣) والأقصى معناه الأبعد سمى بذلك لبعد المسافة بينهما ، والمراد ببيت المقدس الذى بناه سليمان عليه السلام لبنه من فضة ولبنة من ذهب ، ودعا الله فيه بثلاث دعوات : أن تكون الحسنة فيه بألف ، ومن أتاه لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ومن أهدى له زيتا يسرج فيه كان كمن صلى فيه .

وإنما كان الإسراء إليه من مكة والمعراج منه إلى السماء لأنه محل الحشر ، ومحل أرواح الأنبياء ليحصل لهم الشرف بزيارته . ومنها إقامة الحجة على المنكرين العارفين ببيت المقدس لأجل الرد عليهم طبق ما يعرفونه ، ألا ترى أنهم لم يسألوه عن أحوال السموات لجهلهم بها . ومنها أن باب السماء المسمى بمصعد الملائكة يحاذى بيت المقدس فأسرى به إليه ثم عرج به منه ليكون عروجه على الاستقامة .

قوله: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء: ١) قيل بالأنهار والأشجار وأنواع الفاكهة ، وقيل :إن أضرحة الأنبياء ومقر أرواحهم حوله ، وأنه معبد الأنبياء ومهبط الوحى والملائكة، بل قيل : إن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة .

٤) ترتيب الأنبياء فى السموات ليس بالأفضلية لعدم وجود سيدنا نوح وهو من أولى العزم ، وليس بأزمان بعثاتهم لأن سيدنا عيسى ويحى ويوسف وهارون وموسى سبقوا خليل الله إبراهيم فى الترتيب على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .. وإنما كان ترتيبهم لحكمة علية وهى: إشارة إلى أطوار خلق الإنسان وحياته ، فالبداية تراب وهى رمز لوجود آدم عليه السلام فى السماء الأولى قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كلكم لآدم وآدم من تراب) ، ثم عيسى إشارة للروح وهى النفخة ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (الحجر:٢٩) وبوجود النفخة توجد الحياة فكان رمز يحى فى السماء الثانية مع عيسى ، وإذا كانت الحياة ظهر الجمال الإلهى على العبد وهو رمز يوسف فى السماء الثالثة .

ثم يطالب العبد بعد ذلك بالعلم والدراسة وهو رمز إدريس فى السماء الرابعة ، ومن عمل بما علم أورثه الله الحكمة وفصل الخطاب فكان هارون فى الخامسة رمزا للحكمة ، وحكمته عليه السلام ظهرت حين ترك بنى إسرائيل يعبدون العجل وانتظر عودة موسى من الميقات حتى لا يفرقهم وقال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(طه:٩٤).

وإذا أوتى العبد الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا قال تعالى : ﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(البقرة:٢٦٩) وبعد الحكمة يكون العبد مؤهلا لسماع كلام الله حين يقرأ القرآن كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ :(من أراد أن يكلمه الرحمن بغير ترجمان فليقرأ القرآن) ، ويكون العبد مؤهلا للكلام مع الله فى صلاته قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ومن أراد أن يكلم الله فليصلى)، وذلك رمز وجود الكليم موسى فى السماء السادسة ، وبعد المكالمة تكون الخلة وهى تخلل محبة الله تعالى كل ذرة من ذرات كيان العبد ، وهو رمز وجود الخليل إبراهيم فى السماء السابعة .. والخلة هى منتهى مقامات البشرية ، أما المحبة فهى خصوصية هذا السيد الأعظم ﴿ ﷺ وآله﴾ .

٥) ورد عن بعض الأخيار أن الله سبحانه سأله عما يحبه ﴿ﷺ وآله﴾ من الله ، فقال : أن تشرفنى بنسبة العبودة لحضرتك ، وأن تبقينى هنا فلا ترجعنى إلى هناك ، فقال تعالى : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾ وقال: يامحمد إنك تحب البقاء هنا لما أجليته لك هنا ، وإنى أرجعك إلى هناك وأبقى لك هناك ما هنا ، فسبحان من تتره عن الزمان والمكان ، لأنه سبحانه مع حبيبه حيث كان ، وكيف كان ، بل عنده سبحانه وتعالى بلا كيف ، عندية تليق بعظمته سبحانه .

قال لى ما تحب قلت حبيبى ... لست أقوى على فراق الليالى
فأقمنى هنا قال وذاتى ... لك من هاهنا هناك جمالى
ولهذا قد قال فى نص آى ... لى (يد الله) فاقرأنها بحالى

أسأله جل جلاله أن يسقينا طهور محبته ، وأن يشهدنا أنواره التى أشهدها أولياءه ،وأن يجذبنا إليه على براق عنايته ، محفوظين به سبحانه وتعالى من الميل والهوى ، محصنين بحصون سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ .

بيعة العقبة الثالثة

رجع مصعب بن عمير رضى الله عنه إلى مكة مع من خرج من المسلمين والأنصار إلى الموسم مع قوم مشركين حجاج ،حتى قدموا مكة وذلك فى السنة الثالثة عشر من بعثته ﴿ﷺ وآله﴾ .

وكان اللقاء عند العقبة ليلا كما أمرهم ﴿ﷺ وآله﴾ ألا ينبهوا نائما ، ولا ينتظروا غائبا- بعد هدأة من الليل يتسللون كالقطا مستخفين وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان.

وحضر العباس عم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليستوثق له،وكان لم يزل على دين قومه فقال: يامعشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وإنه فى عز ومنعة فى قومه وبلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم موفون له ومانعوه فأنتم

وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور : إنا والله لو كان من أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل المهج دونه ﴿ﷺ وآله﴾ .

فقالوا : قد سمعنا مقالتك فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت فقال ﴿ﷺ وآله﴾ :

(أشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، متى قدمت عليكم) فبايعوه على ذلك رضى الله تعالى عنهم.

وكان أول من بايعه ﴿ﷺ وآله﴾ أسعد بن زرارة وقيل البراء بن معرور ، ولحكمة أرادها الله تعالى ، بلغ قريشاً أمر هذه البيعة فأشتد أذاهم وزاد عذابهم للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه حتى كانوا يضربوه بالحجارة فيسيل الدم من قدميه، وهذا الرسول الكريم على مولاه ومن والاه يأتيه جبريل قائلاً: إن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون) .

وفى بيعة العقبة الثالثة قال أبو الهيثم : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال يعنى اليهود حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أى دمى دمكم، أى تطلبون بدمى وأطلب بدمكم ، فدمى ودمكم واحد ، وعند ذلك قال لهم العباس رضى الله عنه :

عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم فى هذا الشهر الحرام والبلد الحرام، ويد الله فوق أيديكم ، لتجدن فى نصرته ،ولتشدن من أزره، قالوا جميعا : نعم . قال العباس :

اللهم إنك سامع شاهد وابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخى عليهم شهيدا .

ثم قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم :

أسعد بن زرارة ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن أبى خيثمة ، والمنذر بن عمرو ، وعبد الله بن رواحة ،والبراء بن معرور ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وأسيد بن حضير ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، ورافع بن مالك . كل واحد على قبيلة رضى الله عنهم جميعا .

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ لأولئك النقباء: أنتم كفلاء على غيركم ، وأنا كفيل على قومى يعنى المهاجرين . وقيل: إن الذى تولى الكلام من الأنصار وشد العقد لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم. فإنه أخذ بيد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقال :

رويدا ياأهل يثرب إنا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأن إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم ، وأن تقطعكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله تعالى . وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله تعالى . فقالوا : ياأبا سعد أمط عنا يدك فو الله لانذر ، أى لا نترك هذه البيعة ، ولا نستقيلها أى لا نطلب الإستقاله منها .

ثم قالوا بعد أن اتفقوا على البيعة له ﴿ﷺ وآله﴾ : فما لنا بذلك إن نحن قضينا ؟

قال: رضوان الله والجنة .

قالوا : رضينا، ابسط يدك ، فبسط يده ﴿ﷺ وآله﴾ فبايعوه .

هجرة الصحابة الكرام

بعد أن بايع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الأنصار ليلة العقبة طابت نفسه،بأن جعل الله له منعة، أهل حرب ونجدة ، وأخذ البلاء على المسلمين من المشركين ، فضيقوا على أصحابه ، وأتعبوهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكوا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : قد أريت دار هجرتكم وهى يثرب ، فمن أراد منكم أن يخرج ، فليخرج إليها ، فجعلوا يتجهزون ، ويترافقون ، ويتواسون ، ويخرجون ، ويخفون ذلك ، فخرجوا أفواجا وفرقا متقطعة ، وكثير منهم خرج منفردا مستخفيا .

وكان أول من هاجر من مكة إلى المدينة فرارا من المشركين، أبو سلمة: عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومى البدرى،أخو المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ من الرضاعة وابن عمته برة ، وقال فيه الرسول الكريم ﴿ﷺ وآله﴾:(أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد)، وتوالى المسلمون فى الهجرة سرا إلا عمر بن الخطاب ، فإنه تقليد سيفه، وتنكب قوسه، وأخرج سهمه من كنانته ، وجعلها فى يديه معدة للرمى بها ، وحمل عترته ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا، ثم أتى المقام، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، وقال لهم : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى، فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه: وهكذا كان إسلام عمر عزا ، وهجرته نصرا ، وإمارته رحمة .

المؤامرة بالإجماع فى دار الندوة

لما ضاقت نفوسهم به ﴿ ﷺ وآله﴾ ذرعا،وحاروا فيما يصنعونه فيه ليستريحوا منه ، خصوصا ومعهم إبليس فى صورة شيخ نجدى جليل،ودار الندوة هى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، ولا يدخلها من غير قريش إلا إذا بلغ أربعين سنه ، فكانوا يجتمعون فى تلك الدار للتشاور فى الأمور المدلهمة والشئون الخطيرة . ولا يقضون أمرا إلا فيها .

وللتآمر على قتله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامرى : نخرجه من أرضنا لكى نستريح منه ، فرفض هذا الرأى لأنهم قالوا: إذا خرج اجتمعت عليه الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه ، وعزوبة لفظه، وحسن خلقه وأدبه . وقال أبو البخترى بن هشام: نوثقه ونحبسه حتى يدرك ما أدرك الشعراء قبله من الموت ، فرفض هذا الرأى كسابقه لأنهم قالوا : إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخل فى دينه ، حيث يفضلونه على الآباء والأبناء، فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه ، وربما جر ذلك من الحرب علينا لما نحن فى غنى عنه .

فقال طاغيتهم: (بل نقتله)، ولنمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره، نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا ثم يعطى كل فتى سيفا صارما فيعمدوا إليه، فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيفترق دمه فى القبائل جميعا ، ولا تستطيع بنو عبد مناف أن يعادوا جميع العرب فيرضوا بالدية ، فيفدوه جميعا ، ففرحوا لهذا الرأى الجبار الفاجر رأى أبو جهل ، وأقروه . وحسبوا أنهم به بالغون ما أملوا . وهذا فكرهم ولكن إرادة الله فوق كل إرادة .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال:٣٠)، ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (إبراهيم:٤٢)

فأبلغ الله نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ بما دبره الأعداء فى سرهم وبيتوه للوقيعة به ، وأمره سبحانه بالهجرة .أمره الله بالإلحاق بدار هجرته ، بدار فيها ينشر الإسلام ، ويكون فيها لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ العزة والمنعة .. وهذا من الحكمة بمكان عظيم .

فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقالوا : إن قريشا أرادوا ملك العرب فعمدوا إلى شخص منهم وأوعزوا إليه أن يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ، ولكنهم كانوا له أعدى الأعداء ، آذوه شديد الأذى ، حتى اختار الله له ﴿ﷺ وآله﴾ مفارقة بلادهم ، والبعد عنهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ورده إلى مكة بعد فاتحا منصورا .

الباب الرابع

من الهجرة إلى الغزوة

الهجرة الشريفة

شوق الأنصار للقائه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

أسس بناء الدولة الإسلامية .

الفصل الأول

الهجرة الشريفة

استفتح كنوز الفتح باسم الفتاح العليم ، وأستجدى سوابغ الآلاء باسم الوهاب الكريم ، ضارعاً إلى القريب أن يفتح علينا أبواب عطاياه بالمنح والمنن دافعاً عنا وهو القوى الدافع شر المحن والإحن والهرج والمرج والفتن . أن الهجرة الشريفة تبين ما تحمله سيد المرسلين ﴿ ﷺ وآله﴾ من العناء فى سبيل إعلاء كلمة الله بتوحيد الله ، ونجاة المجتمع الإنسانى بالإسلام لله ، مستعينا بالله سبحانه على فادح الآلام وقارس الملام ، ومعاداة أهل الظلم والظلام بهمة ذكرها يحيى الأرواح وينشط الأشباح ، وكيف لا ، وهو﴿ ﷺ وآله﴾ منفرداً قام لله داعيا إلى الحق بين ملوك عبدوا من دون الله فهدم عروشهم ، وجهالة عمياء أصمت الآذان عن الحق ، وأعمت الأبصار عن الهدى ، وقفلت القلوب عن قبول الرشاد ، فتحمل ما لا يتحمله كل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم صبراً فى الله مع الله ، حتى ذلت التيجان ، وانحنى الطغيان ، وساد بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى على كسرى وقيصر وهرقل ومقوقس ، فأصبح الإنسان بالإيمان ليس فوقه إلا الله ذو الجلال والإكرام ، لأن الله خلق الإنسان حراً مريداً .

عجباً كيف تشرق تلك الأنوار فى الظلمات الحالكة فتمحقها ، وتطلع تلك الشمس فى أفق الجهالة والضلالة والكفر بالله وعبادة غيره من الأصنام والكواكب والأناسى والملوك فتملؤه نوراً ، وتكسب الإنسان علوا بالحق حتى يساوى ملائكة السماء ، إخلاصاً وصدقاً وتعظيماً لله ، وبإخوانه رفقاً .

نتأمل حوادث الهجرة الشريفة فنحزن ونفرح ، نحزن لما ألَّم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

من ظلم الظالمين العتاة ومعاداتهم له للخير الذى أبداه ، مع رحمته ﴿ﷺ وآله﴾ لمن آذاه ، ودعائه بالخير والهداية لمن حاربه وجفاه .. مع أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لو دعا عليهم كما دعا نوح وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليه وعليهم لما بقى لهم بقية .

وإلا فأين قوم نوح ؟ أغرقهم الله .

وأين قوم موسى ؟ أرداهم فى البحر القهار المنتقم .

وأين قوم عيسى ؟ أذلهم الله وفرقهم شيعا ، و لم يتحملوا ما تحمله ﴿ﷺ وآله﴾ .

ونفرح بما تفضل الله به على المجتمع الإنسانى الذى قبل من رسول ﴿ﷺ وآله﴾ ما آتاهم به من الإيمان والألفة والمودة والرحمة ، حتى تبدلت العداوة بالحب ، والجفا بالوفا، والظلم بالعدل ، والكفر بالإيمان ،والمسارعة إلى غضب الله بالمسارعة إلى محابه ومراضيه ، حتى أنجى الله كثيرين من خلقه نزهوه عن الشريك والولد ، وأخلصوا له العبادة والعمل ، وأقبلوا عليه بالكلية مفارقين العادة والطبع يعبدونه لا يشركون به شيئا،ولا تزال تلك الأنوار ساطعة فى الآفاق واضحة المحجة قوية الحجة ، وإنما هو الحق لا يأباه إلا شقى ولا ينكره إلا عمى الطرف ، وعناء ينتج الخير والفرح وإن كان أضر وأحزن ليس بعناء .

حقا إن هذا النبى الأمى هو رحمة الله الواسعة ، ونعمة الله العظمى .

أسال الله تعالى أن يتجلى باسمه القريب، الولى ، المجيب ، الهادى ، النور، العليم، المعين ، الجامع، الوهاب ،الكريم، ليجمع على الهدى قلوبنا، وبعنايته يمدنا ، وإلى محابه ومراضيه يجذبنا، ومن الفتن المضلة، والبدع المضرة يحفظنا،ويمكن لنا فى الأرض بالحق ، ويعيد لنا وبنا ما تفضل به على سلفنا الصالح.. إنه مجيب الدعاء .

هجرة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة

أمر الرسول الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ،وأراد الله أن تتأخر هجرته ﴿ﷺ وآله﴾ عن أصحابه حتى تقترن هجرته بتلك الآية الكبرى ،والمعجزة العظمى ، إذ كان فى الليلة التى أراد الكفار قتله ،حيث اجتمع شباب القبائل ،حول داره ﴿ﷺ وآله﴾ لتنفيذ ما تآمروا عليه ،وقد جهلوا أن الرسل لا يقتلون بعكس الأنبياء .

ولكن القوى القادر لم يسلم لهم حبيبه ،بل حرسه بعين عنايته ،وكلأه بجميل ولايته .

لما أمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى المدينة ،توجه من ساعته إلى أبى بكر الصديق ،وأعلمه أن الله تعالى قد أذن له فى الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة ، فقال :نعم .

وكان ذلك فى أواخر صفر السنة الرابعة عشر لتمام ثلاث عشرة سنة من بعثته ﴿ﷺ وآله﴾.

أمر الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ الإمام عليا ابن عمه بالمبيت مكانه فى تلك الليلة ،حتى لا يقع الشك فى وجوده أثناء الليل ، حيث كان المشركون ينظرون من نوافذ الباب ليتأكدوا من وجوده ، فسجى عليا ببردته الخضراء ﴿ﷺ وآله﴾ فى تلك الليلة ،ثم إنهم تسوروا عليه ودخلوا شاهرين سيوفهم ،فثار فى وجوههم فعرفوه ،وقالوا :هو أنت ،أين صاحبك ؟.فقال : لا أدرى .فخرجوا عنه وتركوه .و لم يصل إليه من مكرهم شيئا ،وكفاه الله شرهم ،وحفظه بعنايته ،وتولاه برعايته فى ليلته .

قال بعض أصحاب الحديث :أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل أن انزلا إلى على واحرساه فى هذه الليلة إلى الصباح ،فنزلا إليه ، وهما يقولون :بخ بخ ، من مثلك ياعلى فقد باهى الله بك ملائكته ، وأنزل الله تعالى فيه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(البقرة :٢٠٧).

أخرج ابن سعد عن الإمام على قال:لما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة فى الهجرة أمرنى أن أقيم بعده حتى أودى ودائع كانت عنده للناس، ولذا كان يسمى الأمين .فأقمت ثلاثا ،وكنت أظهر ما تغيبت يوما واحدا .ثم خرجت فجعلت أتبع طريق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ،حتى قدمت بنى عمرو بن عوف ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مقيم ،فترلت على كلثوم بن الهدم وهنالك مترل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

إن الإمام عليا كرم الله وجهه بنومه فى فراش النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يكون هو أول من باع نفسه فى الله،ووقى بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهذا مما يشهد له كرم الله وجهه بقوة جنانه ،وثبات أركانه ،وتمييزه على نظرائه وأقرانه ،من أبطال الحرب وشجعانه رضى الله عنه وصدق إذ يقول:

وقيت بنفسى خير من وطئ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
وبت أراعيهم وما يتهموننى ... وقد وطنت نفسى القتل والأسر
وبات رسول الله فى الغار آمنا ... موقى وفى حفظ الإله وفى ستر
رسول إله خاف أن يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر

واختيار الإمام على كى يبيت مكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان لتدبير محكم ،ونظام دقيق،حيث ينتمى إلى بيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، لأنه لا يسوغ أن يبيت على الفراش رجل آخر مهما كانت مترلته، والإمام على هو نفس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بنص آية المباهلة ، وخلق من شجرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حيث يقول: (خلق الناس من شجر شتى وخلقت أنا وعلى من شجرة واحدة)، وقال: (إن الله جعل ذرية كل نبى من صلبه، وجعل ذريتى من على).

وهو الذى رباه وعلمه وأدبه وكفله، ولا يجوز أن يؤدى عنه ﴿ﷺ وآله﴾ الأمانات إلا الإمام على كرم الله وجهه، وحيث يقول ﴿ﷺ وآله﴾: (على منى وأنا من على) .

خرج الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ على القوم وهم واقفون بالباب، ينتظرون خروجه عليهم، لينفذوا فيه مؤامرتهم، وهو يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ٩) شاهدت الوجوه.

وقد كان من عناية الله تعالى بحبيبه ومصطفاه، أن ألقى عليهم النوم جميعاً، حين خرج عليهم فلم يره أحد منهم، بل و لم يشعر بخروجه أحد، حتى حين ألقى الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ بالتراب على رءوسهم. والحكمة من وضع التراب دون غيره: إشارة لهم بأنهم الأرذلون الأصغرون، الذين أرغموا، وألصقوا بالرغام وهو التراب، أو أنه سيلصقهم بالتراب بعد هذا.

وسار محروساً بعناية الله، حتى تقابل مع أبى بكر خارج مكة، حيث كان على موعد معه، فسارا حتى بلغا غار (ثور)، فاختفيا فيه، وكان على بعد ثلاثة آلاف متر من مكة تقريباً.

وكان أبو بكر قد سأل رسول الله الهجرة، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (لاتعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا) فيطمع أبو بكر أن يكون الصاحب هو النبى ﴿ﷺ وآله﴾. ولما سأل الرسول الصحبة عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك، فجهزهما ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط، وكان أبو بكر قد أستأجره دليلا، وكان هاديا ماهرا، وهو على دين كفار قريش وقتئذ، وواعده بغار ثور بعد ثلاث ليال من ليلة استعداد قريش لتنفيذ أمرها.

أخرج ابن إسحاق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: (كان لا يخطئ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يأتى أبى بكر رضى الله عنه أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الهجرة؛ والخروج من مكة من بين ظهرى قومه. أتانا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال: ما جاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى هذه الساعة إلا

لأمر حدث. قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وليس عند رسول لله أحد إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر- رضى الله عنهما- فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أخرج عنى من عندك. قال: يارسول الله! إنهما ابنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى! قال:إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يارسول الله : قال: الصحبة. قالت: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى، ثم قال يانبى الله! إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلا من بنى الدئل ابن بكر وكانت أمه من بنى سهم بن عمرو –وكان مشركاً- يدلهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما).

ووضعت لهما سفرة فى جراب الغداء، فقطعت أسماء بنت أبى بكر نطاقها وربطت به فم الجراب،فسميت ذات النطاقين لذلك.

هذا ولم يتبين للقوم فساد حيلتهم، وأنهم كانوا يحرسون عليا.لا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾، هاجت نفوسهم،وهموا بإرسال الطلب فى كل ناحية، وجعلوا جوائز عظيمة لمن يأتى بسيدنا محمد﴿ﷺ وآله﴾ أو يدل عليه، ولبئس ما كانوا يصنعون.

واستمروا يطلبونه، حتى لقد وصلوا إلى باب الغار،الذى فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وصاحبه رضي الله عنه، ولو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرهما، ولكن شاء القادر الحكيم أن يجعل العنكبوت ينسج على باب الغار، والحمام يبيض خارجه، فيبهم عليهم الأمر.

وكان أول من دخل إلى الغار أبو بكر، ليكشف ما فيه، فسدد كل فرجة به وجدها ما عدا فرجة لم يجد لها ما يسدها به، فوضع عليها قدم رجله،ودخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الغار، واستراح على فخذ أبى بكر، وإذا بهذه الفرجة ثعبان أراد أن يخرج ليشهد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ،فكانت قدم أبي بكر مانعا وحاجزا ،فعض أبا بكر ليخلي له السبيل ، وتألم أبو بكر أشد الألم ،فوقع من عينيه دمعه شعر بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

فقام قائلا (ما يبكيك ؟) فقال : لثعت يارسول الله وقدم رجله ، فتفل عليها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فشفاه الله ، واعتذر الثعبان بأنه لم يرد أذاه ، إنما أراد شهود وجه رسول الله.

واستمر في الغار ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب ، وكان يأتيهما ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو شاب ثقف ولقن ،فيدلج من عندهما بسحر ،فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها ، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه ،حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وهو ما يمثل دور رجل المخابرات في عصرنا الحاضر .

وكان أيضا عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين يذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما .

فإذا خرج من عندهما عبد الله،تبع أثره عامر بالغنم كى لا يظهر لقدميه أثر . فأعمى الله سبحانه بحكمته وقدرته الأبصار عن رؤيتهما ، مدة إقامتهما في أن يجعل العنكبوت ينسج علي باب الغار ، والحمام يبيض خارجه ، سبحانه من ولى ستار .

وما شهد أبو بكر رجال قريش على باب الغار ، إلا وأثر ذلك على نفسه ،خيفة على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في إدراك الطلب، فسكن عن روعه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله : (لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا) .

وفي ذلك يقول الله تعالي : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

أخرج البيهقى عن ابن سيرين قال ذكر رجال علي عهد عمر رضى الله عنه فكأنهم فضلوا عمر علي أبي بكر – رضي الله عنهما –.فبلغ ذلك عمر فقال : والله !لليلة من أبي بكر خير من آل عمر ،وليوم من أبي بكر خير من آل عمر . لقد خرج رسول الله ﴿ ﷺ

وآله﴾ ليلة انطلق إلي الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه ،حتى فطن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : ياأبا بكر ! مالك تمشى ساعة خلفي وساعة بين يدي ؟ قال : يارسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك . فقال ياأبا بكر !لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني ؟ قال نعم ، والذي بعثك بالحق . فلما انتهيا إلي الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله ! حتى استبرىء فدخل فأستبرأ ثم قال : انزل يارسول الله!فنزل رسول الله .ثم قال عمر:والذي نفسى بيده ! لتلك الليلة خير من آل عمر .

الهجرة أعلي من الإسراء بالنسبة له (ﷺ وآله)

إن تنزل الله سبحانه وتعالي لحبيبه ومصطفاه ليله الهجرة إلي الحق ، أعلي من إسرائه (هجرته إلي القدس) ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن تنزل الحق لفرد ذاته المصطفى هو الكرامة الكبرى ، وهو عين المحبة الكلية ويظهر ذلك من قوله :﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا ﴾ .

لدى الإصطلام الحق في جلوة الصفا   بروحك فاصغى إن أشرت إلي الخفا
ومن راح هجرته تناول مدامة   لتشهد غيب الهجرتين لدى الوفا
سرى هجرة والله جل جلاله   خليل وصديق الحبيب به اقتفى
وسر سرى ينبى بإسرا لمن صفا   وبكة كانت مبدءا بل وموفقا
سرى بعد أن أسرى به الله وارتقى   وهاجر كان الله جل موفقا
ومن مكة يسرى الحبيب مصاحبا   إماما الهدى الصديق من كان منصفا
إلي طيبة يسرى لتشرق شمسه   وذو العرش معه بالتنزل مسعفا
يؤانسه في الغار جل جلاله   وصديقه عطف عليه تخوفا
فناداه لا تحزن معي الله خالقى   فبشرى لمن في الغار صحب المصطفى
سرى سيد الرسل الكرام مهاجرا   إلي الله معه الله أشرح واصفا

سرى قبله أسرى به الله راقيا   إلي القدس زج به فشاهد أتحفا
مع الله في الإسراء بدءا مواجها   وفي طيبة مولاه معه في صفا
فكان سرى المصطفى نحو طيبة   ليظهر غيب معية منه شرفا
ففي ليله الإسرا مع الله ربه   ومولاه معه في السري بلا خفا
إلي بيت مقدسه إلي قدس مجده   وهجرته أعلي وقد محي الجفا
مقامك غيب والتطور غامض   وقدرك أعلي ما أجل وألطفا

وبعد الثلاث جاءهم الدليل عبد الله بن أريقط ، بالراحلتين ، فارتحلوا ،وأردف النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عامر بن فهيرة ليخدمهما، وسار بهم الدليل عن طريق الساحل .

وحيثما سار متبعين طريق المدينة لحقهم في الطريق سراقة بن مالك المدلجي ، وذلك لأن مشركى قريش جعلوا مائه ناقة في رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبي بكر رضى الله عنه ،دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره .

فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس ،فقال : ياسراقة إني رأيت آنفا أسودة بالساحل ،أراهما محمداً وأصحابه ،فعرف سراقة أهم هم ،ولكنه أراد أن يثنى عزم مخبره عن طلبهم ،فقال إنك رأيت فلاناً وفلاناً ، انطلاقا بأعيننا يبتغون ضالة لهم .

ثم لبث في المجلس ساعة وقام وركب فرسه ، وسار حتى دنا من الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن معه فعثرت به فرسه فخر عنها ، ثم ركبها ثانية ، وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفي وهو لا يلتفت ،وأبو بكر يكثر الالتفات .

فساخت قائمتا، فرس سراقة، في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت ،فلم تكد تخرج يديها، حتى سطع لأثرهما غبار ساطع فى السماء مثل

الدخان، فعلم سراقة أن عمله ضائع سدى وداخله رعب عظيم، فناداهم بالأمان.فوقف عليه الصلاة والسلام حتى جاءهم، فقال سراقة:

وقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾،فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرهما بما يريد بهما الناس وعرض عليهما الزاد والمتاع، فلم يأخذ منه شيئا بل قالا له:أخف عنا، أى عم علينا الأخبار.

فسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمان فأمر ﴿ﷺ وآله﴾ أبو بكر فكتب.

بل إن الحبيب المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ بشر سراقة قائلا:

(كيف بك ياسراقة وأنت تلبس سوارى كسرى؟!!(

وتمضى الأيام لتحقق نبوءة الحبيب ﴿ﷺ وآله﴾ فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيؤتى بمجوهرات كسرى ملك الفرس وينادى على سراقة ليلبسه سيدنا عمر سوارى كسرى كما أخبر سيدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وسار ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أن مر فى الطريق بخيمة عاتكة بنت خالد الخزاعية الشهيرة بـأم معبد فنزلا عندها للراحة. فرأى ﴿ﷺ وآله﴾ شاة أضعفها الهزال. وقد سألها الشراب، فقالت: ما عندى إلا هذه الشاة أجهدها المرض وأقعدها عن اللحاق بصواحباتها إلى المرعى وهى عجفاء يابسة.

فاستأذنها أن يحلبها، فأذنت له، فسمى الله تعالى ودعا فحلبها فدرت، فملأ إناء وسقاها وسقى القوم ثم شرب بعدهم، ثم ملأ الإناء ثانيا وتركه لها وارتحلوا.

فأقبل أبو معبد أكثم بن عبد العزى بن معد بن ربيعة يسوق أعنازا عجافا، يتساوكن هزالا.

فقال: من أين لك هذا ولا حلوبة فى البيت؟.

فقالت مر بنا رجل مبارك وذكرت قصته، قال: صفية، فقالت: إنه ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه،حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزره صلعة، وسيم قسيم، فى عينه دعج،وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، وفى عنقه سطع، أحور أكحل أزج، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، إن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حلو المنطق، فصل، لانذر ولا هذر،كأن منطقه خرزات نظمن ، ربعة لا بائن من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود ، لا عابس ولا مفتد.

قال أبو معبد : لنتبعه .. هو والله صاحب قريش الذى تطلبه، فلحقا به ﴿ﷺ وآله﴾ وأسلما .

أخرج ابن سعد عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التى لمس ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة(١٨هـ)زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه،وكنا نحلبها صبوحا وغبوقا وما فى الأرض قليل ولا كثير .

واجتاز ﴿ﷺ وآله﴾ فى طريقه بعبد يرعى غنما ، فاستسقاه أبو بكر رضى الله عنه اللبن، فقال ما عندى شاة تحلب ، غير أن ها هنا عناقا حملت عام أول وما بقى لها لبن .

فقال ﴿ﷺ وآله﴾ ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها ﴿ﷺ وآله﴾ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر رضى الله عنه بمحجن وهو الترس فحلب ﴿ﷺ وآله﴾ وسقى أبا بكر رضى الله عنه، ثم حلب وسقى الراعى ، ثم حلب وشرب فقال الراعى :

بالله من أنت ؟ فو الله ما رأيت مثلك ، فقال : أو تراك تكتم على حتى أخبرك ، قال: نعم ، قال فإنى محمد رسول الله ، قال : أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ؟ قال : إنهم

يقولون ذلك ، قال الراعى : أشهد أنك نبى وأن ما جئت به جلى ، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى ، وأنا متبعك ،قال ﴿ﷺ وآله﴾ : إنك لن تستطيع ذلك يومك فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا .

وأخرج البيهقى عن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال: لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حملنى الطمع فركبت فى سبعين من بنى سهم فلقيته ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : من أنت؟ قلت : بريدة ، فالتفت ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أبى بكر رضى الله عنه وقال : برد أمرنا وصلح ، ثم قال : ممن أنت؟ قالت : من أسلم، قال : سلمنا، ثم قال: ممن ؟ قلت: من بنى سهم، قال : خرج سهماه ياأبا بكر .

فقال بريدة للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ : من أنت؟ قال: أنا محمد بن عبد الله رسول الله ، فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فأسلم بريدة، وأسلم من كان معه جميعا .

قال بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم مطيعين غير مكرهين . فلما أصبح قال بريدة : يارسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحل عمامته ثم شدها فى رمح ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة .

إلى غيب مجلى الذات هاجرت تفريدا ... فأشرق هذا الغيب للروح مشهودا
وفى آى (لا تحزن) شراب تديرها ... على روح صديق فيفقه توحيدا
تهاجر يامولاى والقدس موئل ... لتشهد فى حق العبودة معبودا
تجاوزت ترك الترك فى السير حاضرا ... وصاحبك الممنوح نال وجودا
مع الله فى غار كيونس أشرقت ... له حضرة الإطلاق كشفا وتحديدا
معية قرب فى غياهب ظلمة ... بها الأنس يمحو غربة وجهودا
بأعينه قد كنت فى الغار سيدى ... وصديقك الممنوح خاف صدودا

ويونس فى حوت الجواذب أشرقت   عليه المعانى آنسته سجودا
يرى صاحب المختار فى الغار ظاهرا   وشتان بين الحضرتين ورودا
ومن بيعة الرضوان لاح لى الخفا   نعم كنت يامولاى لله مقصودا
تهاجر فى نور العبودة راقيا   فأوليت يامولاى قربا وتأييدا
تجملت من معنى العبودة سيدى   بأكملها قربا وعلما وتوحيدا
نعم هجرة فيها الجهاد لرفعة   إلى حضرة المجلى وفيت عهودا
لتسقى أهل القرب راحا طهورة   بها شهدوا الرب القريب رشيدا
فداك أبي والروح والعقل سيدى   أر الروح غيب الهجرتين شهودا
فهجرتك الأولى إلى القدس سيدى   وهجرتك الأخرى إلى الحق تأكيدا
أنل آلها من حضرة الغيب ما به   ينال الرضا والفضل منك مزيدا
بطيبة أحيا فى جوارك حاضرا   بروحى لأشهد مشهدا محمودا
ولى بغية لا أستطيع بيانها   وقد شهدت عيناى منك ودودا

دروس الهجرة الشريفة

١- الحق منتصر مهما طال عليه الأمد، ومهما قل مساندوه، والباطل مندحر مهما كثر مشيعوه.

٢- النصر دائما مع الصبر، فما تعجل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ولا كف عن الدعوة إلى ربه.. وهنا وصية للدعاء إلى الله تعالى:

(إن البلاد كالعباد، وإن المكان كالإنسان، فمن العباد من يقبل الهدايا، ومنهم من يرفضها، ومن العباد كذلك من له العناية، فمكة أخرجت المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ والطائف آذته، والمدينة المنورة رحبت به واستقبلته.. فشتان بين إنسان وإنسان، وبين

زمان و زمان، وبين مكان ومكان، هذه المفاهيم لا بد أن يضعها الدعاة نصب أعينهم حين يتوجهون لنشر الدعوة فى البلاد وبين العباد).

٣- الحق لا ينتصر بنفسه بل بأصحابه الذين يدافعون عنه ويحمون حماه، ويضحون بأرواحهم فى سبيله، ويبذلون المال من أجله.

٤- إن الإعداد المادى والروحى عنصر أساسى فى هذا النصر، فقد رتب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رحلة الهجرة، ورسم سبيلها، ووضع الخبرات البشرية فى وضعها المناسب، وجعل الخطة سرية، واعتمد على عنصر المفاجأة، ولم يترك فرصة أو ثغرة ينفذ من خلالها.. متخذا الخطوات التالية:

أ- خروجه ﴿ﷺ وآله﴾ فى وقت يغلب عليه الهجوع حتى لا ينتبه أحد.

ب-إعداد رواحل قوية وتعهدها خارج مكة، ثم إحضارها فى الوقت المناسب.

ج- بدء الرحلة من مكان آخر غير بيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو بيت الصديق رضى الله عنه.

د- التمويه على المتربصين بمن يضطجع فى فراشه وهو الإمام على كرم الله وجهه.

هـ- الإعفاء على آثار الأقدام عند السير عنه طريق أغنام عامر بن فهيرة.

و- التضليل بالسير إلى طريق معاكس.

ز-تعيين دليل للطريق هو عبد الله بن أريقط يعرف بدقة طريق الصحراء وشعاب الجبال.

ح- اختيار مأوى آمن يمكن الاختباء فيه فترة من الوقت إذا ما جد الطلب وراءهما.

ط- اختيار من يحمل الزاد وهى أسماء بنت أبى بكر.

ى- اصطحاب رفيق أمين يؤنس وحشة السفر، ويعين ساعة الشدة.

وهكذا استنفذ جهده ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الإعداد، ثم اتجه إلى ربه يطلب الإمداد، فالتقى الإمداد بالإعداد على أمر قد قدر، وجاء نصر الله والفتح.

٥- على لوحة الهجرة تلمع أسماء كثيرة معظمها للشباب منهم الإمام على الذى ينام مكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾،وعبد الله بن أبى بكر يكشف تحركات العدو، وأسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين تحمل التموين من مكة إلى الغار وسط جنون المشركين بحثا عن رسول الله ليقتلوه، وعامر بن فهيرة الراعى البسيط يقدم اللحم واللبن إلى صاحبى الغار، ويبدد بأغنامه آثار المسيرة الخالدة، فهل لشبابنا أن يتأسى؟ وهل لفتياتنا أن يأخذن القدوة؟!!.

٦- التحقق بعناية الله تعالى ونصرته لأحبابه حتى لو وقف العالم أجمع ضدهم قال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ﴾ أى نصره فى الأزل بسابقة حسناه ولم يقل فسينصره الله.

ولقد تحقق ﴿ ﷺ وآله﴾ بعناية الله الأزلية حين قال لصاحبه: (لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا) فحين قال لصاحبه: (لاَ تَحْزَنْ) فقد نفى الحزن عن نفسه وفؤاده وقلبه، وفى ذات الوقت يريد لمن كان فى معيته أن يكون على نفس النهج، ثم أثبت المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾

لنفسه الأنس بالله حين قال: (إِنَّ اللّهَ مَعَنَا)إذ لو كان خائفا لقال: (إن الحفيظ معنا).

والمعية ثلاثة:

١- معية الهوية من مقام الغيب، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤) وهى معية عامة.

٢- معية الربوبية، قال سيدنا موسى: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (لشعراء:٦٢).

٣- معية الألوهية، قال ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) وهذه أتم وأكمل وأسمى من معية موسى عليه السلام، لأنه قدم معيته على ربه فقال: ﴿ إن معى ربى﴾، والمصطفى العظيم ﴿ ﷺ وآله﴾ قدم ذات الله فقال، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾.

وموسى قال: (معى ربى) فخص نفسه بالمعية دون غيره، والسيد الكريم﴿ ﷺ وآله﴾ قال: (اللَّهَ مَعَنَا) لأن معيته تشمل الكل، وتربى الكل، وتجمع الكل، كما كانت رحمته ﴿ ﷺ وآله﴾ للعالمين.

٧- تعلمنا الهجرة آداب الصحبة، وهى طلب الرفيق المعين على الطريق، ومن لا صاحب له فهو تائه فى أودية الغواية، وقد جعل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المنفرد شيطانا..وفى نهاية السير والسلوك يرتقى هذا الرفيق إلى صديق فيفتدى محبوبه بنفسه وما له، وهذه شروط الصحبة فى النهايات.

الفصل الثانى

شوق الأنصار للقائه ﴿ﷺ وآله﴾

وكان أهل المدينة حين سمعوا بخروج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مهاجرا إليهم وقادما، أخذوا يخرجون كل يوم إلى الحرة "أرض ذات حجارة سوداء".

حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا ذات يوم بعد أن طال انتظارهم فلما آووا إلى بيوتهم، رقى رجل من يهود على أطم، أى تل من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب ، يظهرهم تارة ويخفيهم عن نظره أخرى ، فقال بأعلى صوته:

يا معشر العرب هذا جدكم أى حظكم الذى تنتظرون ، فساروا إلى السلاح بجموعهم ، فتلقوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بظهر الحرة وساروا معه إلى قباء .

" النزول بقباء "

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء وهو موضع بقرب المدينة على بعد ميلين جنوبها ، وكان ذلك فى يوم الاثنين لاثنتى عشر خلت من شهر ربيع الأول وهو شهر مولده ، وشهر بعثته ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان التاريخ من ذلك ثم رد إلى المحرم، أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة .

شهر الربيع مبشر   بالنور للفرد المنيب
فيه الولادة للظهور به الهدى   فيه النبوة من على من رقيب
قد هاجر المختار فيه موجها   لله يرجو أن يطيب
يسرى إلى مولاه متحدا به   لم يحجبن مولاه عنه لا يغيب
فى الغار كان أنيسه   أنسى له روض رحيب

يسرى مسارعة إلى   مولاه وهو له مجيب
فى الغار معه ربه   أخفاه عن عين المعيب
نص القرآن مبين لمقامه   فى آى "لا تحزن " لنا أوفى نصيب

وقد بنى ﴿ﷺ وآله﴾ بقباء أول مسجد أسس فى الإسلام ، الذى من أتاه متوضئا وصلى فيه ركعتين كتب الله له أجر عمرة . والذى وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة:١٠٨) .

وقد صلى فيه رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار، ثم برح قباء بعد أن أقام بها الاثنين،والثلاثاء، والأربعاء،والخميس، وخرج منها يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة فى الطريق ، فصلى بمن معه وكانوا مائة رجل فى بنى سالم بن عوف، فى بطن وادى رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها فى الإسلام لأنه لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع معلنين حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة، وهذا نص الخطبة التى خطبها ﴿ﷺ وآله﴾ وهى أول خطبة للجمعة:

(الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره، وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق،والنور والموعظة، على فترة من الرسلس، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصيهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى المسلم به المسلم ، ثم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وأنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، وعون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه

الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيه بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد، والذى صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك فإنه تعالى يقول: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(ق:٢٩) فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية فإنه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾(الطلاق:٥) ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما .

وأن تقوى الله توقى مقته ، وتوقى سخطه ، وأن تقوى الله تبيض الوجوه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله مابينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ، ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم).

ثم تحول ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة ، والأنصار حوله محيطين به ، شاكين السلاح ، فرحين مسرورين جميعا، واستقبله النساء والصبيان ينشدون آى المسرات قائلين :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة   مرحبا ياخير داع

فما وصل إلى المدينة، إلا والناس يتعلقون بخطام ناقته ، يتنافسون فى نزوله لديهم ، كل يقول بالنزول عنده ، وهو يقول لهم صلوات الله عليه وسلامه: (دعوها أى الناقة فإنها مأمورة)، وفى رواية مسيرة لا مخيرة.

فسارت حتى أناخت بدار أخواله بنى النجار، فنزل ﴿ ﷺ وآله﴾ ففرحوا وحملوا ما كان له من متاع على الراحلة فى بهجة وسرور ..

أخرج البيهقى عن أنس قال : قدم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المدينة فلما دخل جاءت الأنصار برجالها ونسائها ، فقالوا: إلينا يارسول الله ، فقال: دعوا الناقة فإنها مأمورة فبركت على باب أبي أيوب ، فخرجت جوارى من بنى النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جوارى من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

وأخرج أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إنى لأسعى فى الغلمان يقولون : جاء محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فأسعى ولا أرى شيئا . ثم يقولون : جاء محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأسعى ولا أرى شيئا ؛ قال: حتى جاء رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه . فكمنا (توارينا) فى بعض خراب المدينة . ثم بعثا رجلا من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمس مائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين ؛ فأقبل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وصاحبه بين أظهرهم. فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق (الشابة أول ما تدرك) لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ فما رأينا منظرا شبيها به ! قال أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض ؛ فلم أر يومين شبيها بهما .

منحنا الله وإياكم الخير الموفور ببركة تلك الذكرى المباركة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

أنظر كيف وحد الحبيب المصطفى قلوب المسلمين فى ساعة تفرقت فيها القلوب لمحبتهم له ﴿ ﷺ وآله﴾ .

(دعوها فإنها مأمورة) فتعلقت قلوبهم وعيونهم بأرجل الناقة وانصرف عن كل قلب ما كان يشغله بنزول الحبيب ﴿ ﷺ وآله﴾ عنده ، مشهد من مشاهد العزة النبوية والروح المحمدية تؤلف بين القلوب فى وداعة.. وتسكن الخلاف الذى فى النفوس وتجمعهم فى جماعة .

ثم دعا النبى﴿ ﷺ وآله﴾ فقال :(اللهم حبب لنا المدينة ، كحبنا لمكة أو أشد ، اللهم بارك لنا فى صاعها، اللهم اجعل مع البركة بركتين).

ما الحكمة في الهجرة من مكة إلى المدينة؟

إن حكمة الله تعالى قد اقتضت أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ تتشرف به الأشياء ، حتى الأزمنة والأمكنة، لا أنه يتشرف بها ، فلو بقى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى مكة إلى انتقاله إلى ربه لكان يتوهم أنه يتشرف بها ، إذ أن شرفها قد سبق بالخليل ، وإسماعيل، فأراد الله تعالى أن يظهر شرفه ﴿ ﷺ وآله﴾ فأمره بالهجرة إلى المدينة، ولذا لم تكن إلى الأرض المقدسة، موضع أكثر الأنبياء؛ لئلا يتوهم ما ذكر، فلما هاجر إلى المدينة ، تشرفت به ؛ لحلوله فيها وروضته الشريفة بها ، حتى وقع الإجماع كما حكاه القاضى عياض، والباجى، وابن عساكر، على أن أفضل البقاع الموضع الذى ضم أعضاءه الكريمة ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى من الكعبة ؛ لحلوله فيه ، وأن التفضيل للمجاورة والحلول، كتفضيل جلد المصحف على سائر الجلود فلا يمسه محدث، ولا يلابس بقذر ، لا لكثرة الثواب، وإلا لزمه ألا يكون جلد المصحف نفسه أفضل من غيره لتعذر العمل فيه ، وهو خلاف المعلوم من الدين بالضرورة ، وأسباب التفضيل أعم من الثواب، فإنها منتهية إلى عشرين قاعدة ، وعلى أى فإن الرحمات النازلات بذلك المحل يعم فيضها الأمة، وهى غير متناهية؛ لدوام ترقياته ﴿ ﷺ وآله﴾ فهو منبع الخيرات .

أى البلدين أفضل ؟

لا شك أن البقعة التى ضمت جسده الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ أفضل بقاع الأرض .

أنشد بعضهم:

جزم الجميع بأن خير الأرض ما   قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت   كالنفس حين زكت زكا مأواها

وزاد بعضهم بعد هذين البيتين:

وبهذه ظهرت مزية طيبة   فغدت وكل الفضل فى مغناها
حتى لقد خصت بروضة جنة   الله شرفها بها وحباها
ما بين قبر للنبى ومنبر   حيا الإله رسوله وسقاها

ويلى هذه البقعة : الكعبة ، فهى أفضل من بقية المدينة اتفاقا .

وقال بعض العلماء : إن الروضة تنضم لموضع الدفن فى الإجماع على تفضيله بالدليل الواضح، إذ لم يثبت لبقعة أنها من الجنة بخصوصها إلا هى ، فلذا أورد البخارى :" مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة".تعريضا بفضل المدينة ، إذ لا شك فى تفضيل الجنة على الدنيا ،كذلك قال : ولا تخلو من نظر؛ لما فيه من الاحتجاج بالاحتمال، لأن فى معنى روضة احتمالات : كونها تنقل إلى الجنة ، وكون العمل فيها يوجب لصاحبه روضة فى الجنة، وكون الموضع نفسه روضة من رياض الجنة.

واختلف العلماء فى أى البلدين أفضل ؟ فذهب الأكثرون إلى تفضيل مكة ، وذهب بعضهم إلى تفضيل المدينة على مكة .. لأن ميل كل نفس حيث حل حبيبها .

هجرة النساء والصبيان

هجرة أهل بيت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأبى بكر رضى الله عنهم

أخرج ابن عبد البر عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما هاجر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خلفتا وخلف بناته، فلما استقر بعث زيد بن حارثة وبعث معه أبا رافع — رضى الله عنهما— مولاه وأعطاهما بعيرين وخمس مائة درهم أخذاها من أبي بكر رضى الله عنه يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظهر ،وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط رضى الله عنه ببعيرين أو ثلاثة وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر رضى الله عنه أن يحمل أى أم رومان وأنا وأختى أسماء امرأة الزبير رضى الله عنهما فخرجوا مصطحبين ،فلما انتهوا إلي قديد اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمس مائة درهم ثلاثة أبعرة ثم دخلوا مكة جميعا فصادفوا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يريد الهجرة فخرجوا جميعا ،وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة رضى الله عنهن ،وحمل زيد أم أيمن وأسامة حتى إذا كنا بالبيداء نفر بعيرى وأنا في محفة (مركب النساء كالهودج)معى فيها أمى فجعلت تقول : وابنتاه !واعروساه !حتى أدرك بعيرنا وقد هبط الثنية ثنية هرشى (اسم جبل)فسلم الله ،ثم إنا أقدمنا المدينة فنزلت مع آل أبي بكر ونزل آل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يبنى مسجده وأبياتا حول المسجد فأنزل فيها أهله فمكثنا أياما .

وأخرج ابن إسحاق عن السيدة زينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنها قالت : بينا أنا أتجهز لقيتنى هند بنت عتيبة فقالت :يا ابنة محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ! ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك ، قالت : فقلت: ما أردت ذلك ، فقالت :أى ابنة عم لا تفعلي ، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق في سفرك أو بمال تتبلغين به إلي أبيك فإن عندى حاجتك فلا تضطبنى منى فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

قالت : والله ! ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل . قالت : ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك . قال ابن إسحاق : فتجهزت ،فلما فرغت من جهازها قدم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه و كنانته ،ثم خرج بها نهارا يقود بها وهى في هودج لها ،وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذى طوى ،وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود الفهرى ، فروعها هبار بالرمح وهى في الهودج وكانت حاملا فيما يزعمون فطرحت ،وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال : والله !لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما ،فتكركر الناس عنه ،وأتى أبو سفيان حتى وقف عليه فقال : ياأيها الرجل !كف عنا نبلك حتى نكلمك ،فكف.فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :إنك لم تصب ،خرجت بالمرأة علي رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ،فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا ،وأن ذلك ضعف منا ووهن ،ولعمرى ! ما لنا بحبسها من أبيها حاجة وما لنا من ثورة ، ولكن أرجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ؛ فسلها سرا وألحقها بأبيها . قال : ففعل.

وعند الطبرانى عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما : أن رجلا أقبل بزينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ،فلحقه رجلان من قريش فقاتلاه حتى غلباه عليها فدفعاها ،فوقعت علي صخرة فأسقطت وهريقت دما ،فذهبوا بها إلي أبى سفيان ؛فجاءته نساء بنى هاشم فدفعها إليهن . ثم جاءت بعد ذلك مهاجرة فلم تزل وجعة حتى ماتت من ذلك الوجع ؛فكانوا يرون أنها شهيدة .

وعند الطبرانى في الكبير عن عائشة رضي الله عنها زوج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما قدم مكة خرجت ابنته زينب رضى الله عنها من مكة مع كنانة أو ابن كنانة .فخرجوا في طلبها ،فأدركها هبار بن الأسود فلم يزل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها وألقت ما في بطنها فتحملت ؛واشتجر فيها بنو هاشم وبنو أمية .فقال بنو أمية :

نحن أحق بها وكانت تحت ابن عمهم أبي العاص ؛وكانت عند هند بنت عتبة بن ربيعة وكانت تقول :هذا في سبب أبيك . فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لزيد بن حارثة :ألا تنطلق فتجيء بزينب ؟ قال: بلي يارسول الله !قال: فخذ خاتمي فأعطها إياه .فانطلق زيد فلم يزل يتلطف فيلقى راعيا فقال :لمن ترعى ؟فقال :لأبي العاص.فقال: لمن هذه الغنم ؟ فقال : لزينب رضي الله عنها بنت محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فسار معه شيئا ثم قال :هل لك أن أعطيك شيئا تعطيها إياه ولا تذكره لأحد ؟ قال : نعم . فأعطاه الخاتم ،فعرفته .فقالت :من أعطاك هذا ؟ قال :رجل .قالت : فأين أدركته ؟ قال بمكان كذا وكذا .فسكتت حتى إذا كان الليل خرجت إليه ،حتى وصلت معه إلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

هجرة عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما وغيرة من الصبيان

أخرج الطبرانى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :كان قدومنا علي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لخمس من الهجرة .خرجنا متوصلين مع قريش عام الأحزاب ،وأنا مع أخى الفضل رضي الله عنه ومعنا غلامنا أبو رافع رضي الله عنه ،انتهينا إلي العرج فضل لنا في الطريق ركوبة ،وأخذنا في ذلك الطريق علي الجثجاثة حتى خرجنا علي بنى عمرو بن عوف حتى دخلنا المدينة ،فوجدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في الخندق وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ،وأخي ابن ثلاث عشرة سنه .

هجرة ضمرة بن أبي العيص أو ابن العيص أخرج الفريابى عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لما أنزلت : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ (النساء :٩٥) ثم ترخص عنها أناس من المساكين ممن بمكة حتى نزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾(النساء :٩٧)فقالوا :هذه مرجفة حتى نزلت ﴿ إلاَّ

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ (النساء :٩٨)

فقال ضمرة بن العيص – أحد بنى ليث وكان مصاب البصر ،وكان موسرا –: لئن كان ذهاب بصرى ،إنى لأستطيع الحيلة لى مال ورفيق ،أحملونى فحمل ودب وهو مريض، فأدركه الموت وهو عند التنعيم ؛فدفن عند مسجد التنعيم . فترلت فيه خاصة : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ﴾(النساء : ١٠٠).

دعوها فإنها مأمورة

عندما مر الرسول علي بنى سالم بن عوف جاء إلي النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عتبان بن مالك ، وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بنى سالم بن عوف فقالوا :يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة ، قال خلو سبيلها " أى ناقته "فإنها مأمورة ، فخلو سبيلها .

حتى إذا وازنت دار بنى بياضة تلقاه زياد بن لبيد في رجال منهم فقالوا : يارسول الله هلم إلينا إلي العدد والعدة والمنعة ،قال خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعد بن عبادة في رجال بنى ساعدة فقالوا :هلم إلينا يارسول الله إلي العدد والعدة والمنعة ،قال :خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحرث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع في رجال من بنى الحارث بن الخزرج فقالوا ذلك ،فقال خلو سبيلها فإنها مأمورة .

فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدى بن النجار وهم أخواله اعترضه سليط بن قيس في رجال من بنى عدى بن النجار فقالوا :يا رسول الله هلم إلي أخوالك إلي العدد والعدة والمنعة ،خلو سبيلها فإنها مأمورة .

فانطلقت حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار ،بركت على باب مسجده ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يومئذ مربد [مكان يجفف فيه التمر] لغلامين يتيمين من بن النجار وهما في حجر معاذ بن عفراء سهل وسهيل ابنى عمرو .

فلما بركت ورسول الله عليها لم يترل ،فقامت وسارت غير بعيد ورسول الله واضع زمامها لها لا يثنيها به ،ثم التفتت إلي خلفها فرجعت إلي مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحلحلت وزمت [لزمت مكانها] وألقت بجرانها فترل عنها رسول الله .. فاحتمل أبو أيوب رحله ﴿ ﷺ وآله﴾ ونزل النبى عليه وسأل عن المربد ، فقال معاذ بن عفراء : هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ،وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجدا .

قال أبو أيوب رضي الله عنه :

لمل نزل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في بيتى نزل في السفل وكنت أنا أنام وأم أيوب في العلو . فقلت :يا نبى الله بأبي أنت وأمى إنى أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحت ،فاظهر أنت وكن في العلو ونترل نحن ونكون في السفل .

فقال يا أبا أيوب إن الأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت

فكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في سفله وكنا فوقه في السكن ، فلما خلوت إلي أم أيوب يعنى زوجته .قلت لها :رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أحق بالعلو منا تترل عليه الملائكة ويترل عليه الوحى .

فما بت تلك الليلة لا أنا ولا أم أيوب بحاله هنية ،فلما أصبحت ، قلت :يا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما بت الليلة أنا ولا أم أيوب .

قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لم ياأبا أيوب ؟

قلت :كنت أحق بالعلو منا تترل عليك الملائكة ويترل عليك الوحى .

فقال : ﴿ ﷺ وآله﴾ السفل أرفق بنا .

فقلت :لا يكون ذلك والذى بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبدا.

حتى تحول ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى العلو وأبو أيوب إلى السفل .

قال أبو أيوب : كنا نصنع له ﴿ ﷺ وآله﴾ العشاء ثم نبعث به إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ﴿ ﷺ وآله﴾ نبتغى بذلك البركة .وهذا لا ينافى أن الطعام كان يأتيه أيضا من بيوت الأنصار . وبعد أن استقر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى المدينة بعث بزيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة فقدما بفاطمة، وأم كلثوم ، وسودة بنت زمعة ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن. أما رقية فسبقت إلى المدينة مع زوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه . وزينب أخرت عند زوجها أبى العاص ابن الربيع حتى هاجرت بعد غزوة بدر .

الفصل الثالث

أسس بناء الدولة الإسلامية

هاجر رسول الله إلى المدينة وترك مكة التى هى أحب بلاد الله إليه، حيث يوجد بها البيت الحرام ، ولأنها مترل الوحى ، ولأن بها الأهل والأقربين،ولأن بها مآثر إبراهيم ، ولكنه انتقل مع كل هذا إلى المدينة، وما كان ذلك إلا لأنه بأمر ربه أنشأ دولة، ولأنه ما جاء لرهبانية أو روحانية مجردة ، أو لتهذيب النفوس فقط ، بل بعث رحمة للعالمين ، ولا بد من أن تقوم دولة تقيم الحق، وتخفض الباطل، وتمنع الظلم، وتجمع الإنسانية، وتنشر التعاون بين الناس، وتمحو كل الفوارق التى تجعل بعض بنى الإنسان يتحكم فى الآخر، وتمنع الفساد فى الأرض .

ولذلك هاجر حيث يستطيع إقامة الدولة المؤمنة، التى تتناهى عن الشر ، وتتعاون على الخير، وكذلك كل رسول يأتى بشريعة تقوم عليها دولة.

وحينما وصل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة المنورة، وجد عناصر جمة تسكن المدينة ،أهمها: المهاجرين والأنصار، فاتجه تفكيره إلى تكوين المجتمع الإسلامى،

بحيث يكون أسرة واحدة، تضم القبائل المتنافرة، والعناصر المتباينة، وتحقيقا لهذه الغاية قام بالخطوات التالية:

١- بناء مسجد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يبنى مسجدا، ونزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنون:

لا عيش إلا عيش الآخرة   اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن اسحق : فيقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :

لا عيش إلا عيش الآخرة   اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وكان الغرض من بناء المسجد ، أن يكون بيتا لله ، يجتمع فيه المسلمون للعبادة،والمشورة فى كافة شئون الحياة ، وشئون التجارة، ويكون محلا للقضاء، ويلتف المسلمون فيه حول الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ كى يرتشفوا من معينه،ويأخذوا عنه مبادئ دينهم ، ونظم مجتمعهم، وإذا ما تم له هذا امتزجت النفوس والعقليات، وقويت الوحدة ، وتألفت القلوب، بسبب المخالطة، وبهذا تزول رابطة القبلية، ويحل محلها رابطة إسلامية إنسانية واسعة . وهكذا كان المسجد : بيتا لله تعالى لا يعبد معه غيره،وبيتا للمسلمين، فيه مستقرهم، ومأمنهم، وطمأنينتهم ، فيه تكوهم وتخلقهم، فيه وحدة صفهم ورأيهم، فيه اجتماعهم، ومنه انبعاثهم.

وكان المسجد يضم قلوبا متعاطفة عامرة بالإيمان، وعقولا نيرة تنعم بالعلم والمعرفة، وأرواحا تصقل وتهذب، وجنودا يعبئون لرسالة الحق .

كانوا رضى الله عنهم لا يدخلون المسجد إلا على طهارة من بيوتهم ، فإذا دخلوا المسجد صار كل واحد منهم بين مشهدين كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك " فيكون إما شاهدا لربه ، أو على يقين حق أن الله علم به ، ناظر إليه ، حاضر معه .

فكان بعضهم يجلس للمراقبة حتى يؤدى فريضة الجمعة ، وبعضهم يجلس للذكر بالقرآن المجيد والتسبيح والتهليل والتكبير، وبعضهم يجلس يسأله الناس عن أمر دينهم ويتحلق حوله الناس . كان الرجل منهم يكره أن يشغل أخاه لعلمه أن كل إخوته فى المسجد مشتغلون بما يقربهم إلى من هم فى بيته من الآداب والعمل .

وقد بلغ بهم الخشوع فى المسجد مبلغا حتى أنه كان يدخل عليهم فيه اليهودى أو النصرانى فيكاد يذهب عقله أو يصعق ويغشى عليه من هيبة الصحابة فى خشوعهم وسكينتهم وقت انتظار الصلاة، وربما سارع إلى الإسلام . وكم من أسير شهد الصحابة يصلون وكان أشد الناس نفورا من الإسلام فملأ الله قلبه نورا وأقبل على الإسلام بإخلاص. وما تعلم الصبيان الخشوع لله والحب لله والمسارعة إلى مراضى الله إلا بجلوسهم مع آبائهم فى المسجد وشهود ما عليه آباؤهم. وكانوا رضى الله عنهم يجذبون قلوب الكفار بسمتهم وهديهم وخشوعهم لربهم فى مساجدهم، ويجملون الصبيان بالفضائل الإسلامية حتى ينشأ الصبى كوالده .

وحقيقة : إذا أردنا استعادة مركزنا القيادى فى الوجود البشرى ، والواقع الحضارى الإنسانى ، فلنهتم بالمسجد ، وبدوره ، مسجد الأمس ، مسجد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذى كان المدرسة والجامعة والمعهد ، الذى كان موئلا لكل علم وحضارة وهداية

، وبغير المسجد علما وتعلما وتأثرا لن نصل إلى ما نريد لأن المسجد من حيث الرسالة : هو الإسلام ، والإسلام وحده باب الحياة الفاضلة .

٢ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

بعد وصوله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة بخمسة أشهر آخى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، والتوارث .

وذلك حتى يجتمع شمل المهاجرين فى مجتمع الأنصار، ويذوبوا فى بعضهم ، ولتذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض.

ولما اشتد عز الإسلام واجتمع شمل المؤمنين وذهبت الوحشة وما بقيت غير المحبة . أبطل المواريث بين المتواخين وجعل المؤمنين كلهم أخوة . وكان جملة المتآخين تسعين أخ وأربعون من المهاجرين وخمسة وأربعون من الأنصار .

وتمت المؤاخاه فى دار أبى طلحة زيد بن سهل رضى الله عنه .

وقد آخى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بينه وبين على عليه السلام ، فشاركه فى العلم ، وقاسمه فى نحر البدن، وزوجه أفضل بناته ، وأحبهن إليه ، وخصه بذلك لمؤاخاته عليه السلام ، وورد فى حديث المؤاخاة الذى آخى فيه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين أصحابه، فآخى بين كل من شكلين من العلم والحال ، آخى بين أبى بكر وعمر ، وبين عثمان وعبد الرحمن وهما نظيران ، وآخى بين سلمان وأبى الدرداء وهما شكلان فى العلم والزهد ، وآخى بين عمار وسعد وكانا نظيرين ، وآخى بينه وبين علي عليه السلام ، ورضى الله عنهم أجمعين، وهذا من أعلى فضائله لأن علمه من علمه ، وحاله من وصفه.

ثم آخى بين الغنى والفقير ليعتدلا فى الحال، وليعود الغنى على أخيه الفقير بالمال ، قال أبو سلمان الدرانى: إذا آخيت أحدا فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه ، فإنك لا تأمن أن

يعنيك بشر من الأول. قال بعض العلماء : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته،ومعاتبته خير خير من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة.

وقال بعضهم : كدر الجماعة خير من صفو الفرقة .

وأصبح الصحابة الكرام بعد المؤاخاة هياكل متعددة ، سرت فيهم روح واحدة ، كالجسد الواحد تعددت أعضاؤه ولكنه واحد، فإذا تألم عضو منه شعر بالألم كل الجسد . يتألمون جميعا لألم أحدهم ، غنيهم فقير لأنه يؤثر الفقير على نفسه، وفقيرهم غنى لكمال ثقته بربه، صفت قلوبهم فتجملت ظواهرهم، فإذا رأى الأخ الأخ كأنه أشرقت عليه أنوار، فانبسط وانشرح وصافح وفرح ، فيزداد نورا على نوره ، وحالا على حاله ، وعلما على علمه، يبذل كل أخ لأخيه ما يجد من وجد أو موجود، فيغذى الأخ أخاه بعلمه ، والآخر يغذيه بخبزه ، فلا يقابل أخ أخا إلا وفتحت أبواب السماء بالبركات ، وهطلت الأرزاق والفتوحات ، نزع الله ما فى صدورهم من غل ، وما فى قلوبهم من طمع لأنه سبحانه هو المحبوب لهم فى أنفسهم وما تقولون فى اثنين تقابلا على شوق فى الله ، ومحبة في الله ، وبذل فى ذات الله ؟ هذا يبذل لأخيه ما به سعادته الأبدية من علم وحال وخلق حسن ، والآخر يبذل له نفيس طعامه وشرابه وماله ، وما تقولون فيمن تحقق فيهم قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى عن الله تعالى :" المتحابون فى والمتباذلون فى والمتزاورون فى على منابر من نور يغبطهم الملائكة والأنبياء لقربهم من الله " ؟ .

وليس هذا الوصف العلى موجودا إلا فى الصديقين وأبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكل أخ يعامل إخوانه بهذا فهو من الصديقين ، ومن أبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء

والشهداء، فقالوا : يارسول الله صفهم لنا ، فقال: " هم المتحابون فى الله عز وجل، والمتجالسون فى الله تعالى،والمتزاورون فى الله تعالى" (رواه النسائى)

وكان الفضيل بن عياض وغيره يقول : نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

بما تصح الأخوة فى الله ؟

لا تصح الأخوة فى الله عز وجل إلا بما شرط فيها من الرحمة فى الاجتماع، والخلطة عند الافتراق بظهور النصيحة، واجتناب الغيبة وتمام الوفاء، ووجود الأنس وفقد الجفاء ، وارتفاع الوحشة ، ووجود الانبساط، وزوال الاحتشام.

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ " أحب الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه"(رواه ابن حبان والحاكم) وقال ابن عباس فى وصيته لمجاهد: لا تذكر أخاك إذا تغيب عنك إلا بمثل ما تحب أن تذكر به إذا غبت ، وأعفه بما تحب أن تعفى به. وقال آخر : ما ذكر أخ لى فى غيبته إلا تصورت نفسى فى صورته ، فقلت فيه ما أحب أن يقال فى . فهذا حقيقة فى صدق الإسلام، لا يكون مسلما حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه .

وقد كان أبو الدرداء يقول : إذا تغير أخوك وحاله عما كان فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى . وفى حديث عمر وقد سأل عن أخ كان قد آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال: اك أخو الشيطان، قال : مه، قال إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر، فقال إذا أردت الخروج فأخبروني، قال فكتب إليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم۞ حم۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ۞ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ (غافر:١-٣). ثم عاتبه تحت ذلك وعذله ،فلما قرأ الكتاب قال: صدق

الله ونصح لى عمر ، قال : فتاب ورجع . وكان الحسن وأبو قلابة يقولان : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا ، والإخوان يذكروننا الآخرة .

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ " ما زار رجل أخاه فى الله عز وجل شوقا إليه ورغبة فى لقائه، إلا ناداه ملك من خلفه: طبت وطابت لك الجنة " (أخرجه بن عدى). وعن عطاء كان يقول: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث ، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم ، وإن كانوا نسوا فذكروهم. وقال الأحنف بن قيس : ثلاث خلال تجلب بهن المحبة، الإنصاف فى العاشرة، والمواساة فى الشدة، والانطواء على المودة.

وحقيقة الحب فى الله عز وجل أن لا يحسده على دين ولا دنيا، كما لا يحسد نفسه عليهما، وأن يؤثره بالدين والدنيا إذا كان محتاجا إليهما كنفسه، وهذان شرطا الحب فى الله عز وجل اللذان ذكرهما الله تعالى فى قوله:﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ (الحشر: ٩).

ثم وصف محبتهم إذ يصف حقا ويمدح محقا فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾، يعنى من دين ودنيا، ثم قال تعالى فى الشرط الثانى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)، ولا تصح مؤاخاة مبتدع فى الله تعالى، ولا محبة فاسق يصحب على فسوقه، ولا محبة فقير أحب غنيا لأجل دنياه، ولا ما يناله من عاجل مناه، وليس الإخاء كف الأذى لأن هذا واجب، ولكن الإخاء الصبر على الأذى.

وكانت طائفة من الصوفية لا يصطحبون إلى على استواء أربع معان،لا يترجح بعضها على بعض، ولا يكون فيها اعتراض من بعض وهى:

١-إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم.

٢-وإن صلى الليل أجمع لم يقل له أحد نم بعضه.

٣-وتستوى حالاته عنده فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه، فإذا كان عنده يزيد بالعمل وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين.

٤- وقد كان الإخوان يتبايتون على العلوم والأعمال وعلى التلاوة والأذكار.

وبهذه المعانى تحسن الصحبة وتحق المحبة، وكانوا يجدون من المزيد من ذلك والنفع به فى العاجل والآجل مالا يجدونه فى التخلى والانفراد، من تحسين الأخلاق، وتلقيح العقول، ومذاكرة العلوم، وهذا لا يصح إلا لأهله، وهم أهل سلامة الصدور، والرضا بالميسور مع وجود الرحمة، وفقد الحسد ووجد التناصر، وعدم التظاهر، وسقوط التكلف ودوام التآلف، وقد ضم الله عز وجل الصديق إلى الأهل ووصله بهم، ثم رفع الأخ وقدمه على الصديق وهو قوله عز وجل: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ (النور: ٦١).

كان الأخ يدفع مفاتيح خزائنه إلى أخيه ويتصرف فى الحضر، ويتقلب فى السفر، ويقول لأخيه: حكمك فيما أملك كحكمى، وملكى له كملكك، ثم نسق الأقارب على ترتيب الأحكام، وضم إليهم الأخ لما وصفه بتمليكه مفاتحه أخاه، فأقام ذلك مقام ملك أخيه لأنه أقام أخاه مقامه فقال تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾، ثم أخر الصديق بعده إذا لم يكن بحقيقة وصفه، ثم قال عز وجل: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا ﴾ بحضرة الإخوان﴿ أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فى حال تفرقهم، فسوى بين غيبتهم وشهودهم لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم ، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم فى البذل والمحبة .

بعد أن آخى الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بين المهاجرين والأنصار خطا خطوة حاسمة اعتبرت فتحا جديدا فى الحياة السياسية ؛ لتحقيق التحالف بين سكان المدينة جميعا ، .

مسلمين وغيرهم ، حيث قد أحسن اليهود استقباله أملا فى استدراجه إلى صفوفهم، ورد التحية بأحسن منها فتحدث إلى رؤسائهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة ، لا أنهم أهل كتاب موحدون، حتى كان﴿ ﷺ وآله﴾ يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس .. قبلة أنظارهم ، ومثابة بنى إسرائيل جميعا، وزادت رابطة المودة، نظرا لما كان يتمتع به من التواضع والعطف والوفاء إلى نحو ذلك مما أورثه ﴿ ﷺ وآله﴾ قوة السلطان على أهل يثرب .

ونتيجة لهذا كتب بين المسلمين واليهود كتاب صداقة وتحالف إذ تقرر : حرية العقيدة – حرية الرأى– حرمة المدينة – حرمة الحياة– حرمة المال – تحريم الجريمة ... إلى غير ذلك من البادئ السامية ، التى جعلت من هذه الوثيقة السياسية فتحا جديدا فى الحياة السياسية ، والحياة المدنية، وإنها جديرة بالإعجاب على مر التاريخ ، حيث لم يسبقه إليها أى نبى أو رسول. وهذا هو نص هذا الكتاب:

٣– كتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالموادعة بين المسلمين واليهود

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أمرهم الذى كانوا عليه) يتعاقلون بينهم . وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معهم (الديات) الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمر بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث[ابن الخزرج] على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى ،وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا (مثقلا بالدين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة (المساواة) غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

وأن سلم المؤمنين واحدة، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم .

وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

وأن المؤمنين يبرء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن . وأنه من اعتبط (قتل بلا جناية) مؤمنا قتلا عن بيته فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل (الدية) ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا(جانيا) ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإنه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه، وأهل بيته.

وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بن جشم مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وأن البر دون الإثم .

وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .

وأن بطانة يهود كأنفسهم، وانه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وأنه لا ينحجز (لا يلتئم) على ثأر جرح ،وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا [أى على الرضا به] .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وانه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنه مرده إلى الله ، وغلى محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وابره.

وانه لا تجار قريش ولا من نصرها . وان بينهم النصر على من دهم يثرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين .

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة . وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره.

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج أمن، ومن قعد أمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾). وبهذا تمت الألفة ، وسادت الطمأنينة بين الناس، وشعر المسلمون بالعزة والكرامة ، والسيادة والسلطان .. وبدأ التاريخ الإسلامى وافتتح العهد الجديد للإسلام حيث أسست أعظم

مدينة عرفتها الإنسانية، وبدأ الدين الإسلامى يتجه نحو العالمية تحقيقا لقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(الأنبياء:١٠٧).

٤ ـ أسس النظام الاقتصادى للإسلام :

وضع الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ أساسا للنظام الاقتصادى، الهدف منه تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع ، فقرب بين الغنى والفقير ، وجعل للفقير حقا فى مال الغنى ، وجعل للصالح العام للدولة حقا فى أموال الأغنياء، وغير هذا من التشريعات ، التى حققت التعاون بين المسلمين ، وأرست المبادئ الإسلامية العادلة، وبعد هذا ندرك أن الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ قد وضع نواة الدولة الإسلامية على أسس من الإيمان بالله تعالى، والإخاء والحب ، ووضع الدستور الإسلامى للأجيال التالية على نفس الأسس، وحينما سار عليه المسلمون الأول كتب الله لهم النصر وملكوا الدنيا شرقا وغربا وعندما تركوه مزقوا شر ممزق ، وتسلط عليهم من كانوا رقيقا يبايعون فى أسواقهم، وليس منجاة مما نحن فيه إلا بربط حاضرنا بماضينا ، وعلينا أن نتأسى بهم ، حتى نسعد فى دنيانا وأخرانا .

هاجرت ياسر الوجود لحكمة   تخفى على فطن لبيب
كى تشرق الأنوار أرضا وسما   كى يظهر الإسلام مظهره الغريب
آذاك قومك والأقارب سيدى   والعنكبوت يرد مغرورا مريب
والاك ربك بالأئمة آية   كبرى لذى رأى مصيب
كى يظهر الحق المبين مؤيدا   بالمعجزات من البداية للمشيب

الباب الخامس

كتاب الجهاد

الفصل الأول

حكمة الجهاد في سبيل الله

معلوم أن الله سبحانه وتعالي أمر بعض الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بالجهاد قبل سيد رسله ﴿ﷺ وآله﴾ لحكمة تشرق أنوارها لمن كاشفه الله تعالي بسر أحكامه العلية ، وأشهده نور معاني صفات الربوبية ، و لم يتم الجهاد بوجهه الأكمل إلا علي يد سيد رسل الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

فإن الله أمر سيدنا موسى ﷷ أن يجاهد العمالقة ، فأبي عليه بنو إسرائيل وقالو : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ،لتقوم الحجة عليهم بأن الله تعالي أمر بالجهاد، وأنهم عصوا أمر الله تعالي،وتقوم الحجة لأمة حبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾ لأنهم خصصهم الله بما يحب من خير الأعمال، لما في الجهاد من بذل النفس والمال وهما أنفس النفائس عند الإنسان .

وليتضح للعقل السليم أن سيدنا وحبيبنا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل الذى يكرمه الله تعالي بكل أنواع الكرامات التي أكرم بها رسله ويزيده عليها ، ويجعل نوره المحمدى مشرقا علي الكون بما جمع له تعالي من حجة البيان ،ومحجة التبيان ،للنفوس الطاهرة القابلة المؤهلة ،والتمكين في الأرض بالحق ،بقوة الله وقدرته بسيف النقمة وصوت الزجر ،للنفوس الخبيثة الضالة المضلة حفظا للمجتمع الإنساني ،من خبث تلك النفوس ،التي هى الأمراض الفتاكة،والأوبئة المهلكة ، نعوذ بالله منها .

ولما كان سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ أكرمه الله تعالي بأكرم كرامة ، لم يكرم بها أحد من رسله صلوات الله وسلامه عليهم ،وهى أنه حفظ المجتمع الإنساني به ﴿ﷺ وآله﴾ ،من غضب يستأصلهم ،أو سخط يمحقهم ،أو بلاء يقهرهم ، كالمسخ ، والخسف العام ،والفرق العام ،الذى استأصل به أمم الرسل السابقة .

كيف لا ،وقد قال تعالي : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨).

وكان الله سبحانه وتعالي يشتد غضبه علي القوم لفعل بعضهم فيخسف بالجميع الأرض ، أو يهلكهم بالطوفان ، أو يسلط عليهم الجراد والقمل والضفادع ،أو يغرقهم في البحر جميعاً .

فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ حصن بنى الإنسان جميعاً ،ولطف الله تعالي ببركته ﴿ ﷺ وآله﴾ بالعالم ، فشرع الجهاد ليستأصل به سبحانه شراذم الشر ،وبذور الفساد من أئمة الضلال وأخوة إبليس الرجيم رحمه ببنى الإنسان ، وعناية بهم ، إكراماً لذات حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فالجهاد في نظر من أعمى الله بصره وبصيرته ،وختم علي قلبه ،وجعل علي بصره غشاوة ، قسوة وجفوة ،لجهله بحكمة الحكيم القادر ،ورحمة الرءوف الرحيم ،وعناية الطيف الخبير .

وفي الحقيقة ونفس الأمر ،فالجهاد رحمة الله العامة ، ورأفته الشاملة ، رفع الله به الخسف والمسخ والبلاء الذى يترل من السماء ، ويخرج من الأرض. وليست آيات التوراة وأخبارها ببعيدة عمن له علم بالقراءة والكتابة.

فما فعله الله بسبط إسرائيل، بسبب تكذيبهم للمسيح ﵇ من محقهم إلا بقية من سبط يهوذا في ذل وخزى إلي الأبد دليل غلي أن سيد رسل الله وخاتم أنبيائه ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمة الله العامة ،وسيف في يمينه رأفة الله الشاملة ،وبركات الله المتوالية .

قام سيدنا نوح ﵇ يدعو ،فكذبه قومه ،وآذوه أذية دون أذية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من قومه فدعا عليهم حتى أغرقهم الله بالطوفان .

وقام سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون و لم ينله منه أذية كما نال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من قومه فدعا عليهم ، فأخذهم الله بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وسلط عليهم الجراد والقمل والضفادع والدم ،وأغرقهم في البحر آيات مفصلات .

وقام سيدنا هود ولوط وذو الكفل وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام فأوذوا أذية دون ما أوذى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من قومه ،فدعوا علي قومهم .

فمنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم ...ومنهم ... ومنهم ،مما هو معلوم في قصصهم عليهم الصلاة والسلام .

فكان كل رسول جاء قبله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،إذا خالفه قومه دعا عليهم ،وأما هو ﴿ ﷺ وآله﴾ فكان كلما آذاه قومه يدعو الله لهم بالهداية لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كما قال تعالي فيه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء :١٠٧) .

ولما كانت حكمة الله تعالي اقتضت ،أن يكون العالم قسمين شقيا وسعيدا ، ولا بد للشقي من معالجة في الدنيا لراحة العالم من شقائه ،وعذابا في الآخرة جزاء .وللسعيد عناء في الدنيا قياما بما يرضي الله تعالي ينال به سعادة الدنيا . .

والآخرة ، كان ولا بد أن يكون للسعداء عمل تبذل فيه النفوس والأموال في سبيل الله لخير بنى الإنسان ولا يكون ذلك العمل إلا الجهاد .

فالجهاد في سبيل الله ،لإعلاء كلمة الله وإحياء سنه رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ خير الأعمال ، بعد عقد القلب علي التوحيد الخالص ،والقيام بالأركان ،في أوقاتها وشروطها .

وله شروط وآداب ، لابد من مراعاتها ، ليكون خالصا لوجه الله (وسنفرد لها بمشيئة الله تعالي رسالة خاصة) . (١)

وترك الجهاد من المسلمين عند تعيينه إخلاد إلي الأرض ،ورضاء بالحياة الدنيا واطمئنان بها قال الله تعالي : ﴿وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ (يونس :٧) .

الإذن بالقتال

مكث الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة بضع عشرة سنة ينذر بالدعوة من غير قتال ،صابرا علي شدة أذية العرب بمكة ،واستمر بالمدينة صابرا علي عداوة اليهود له .

كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يأتون النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ،ما بين مضروب ومشجوج فيقول لهم: اصبروا، فإنى لم أومر بالقتال.

وحكمة تأخير القتال، أنهم كانوا بمكة قليلين، والمشركون كثير فكان القتال فى حق المسلمين عسير.

فلما خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ من مكة، واستقر بالمدينة، واجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وصارت المدينة دار إسلام، وتم بناء أسس الأمة الإسلامية وهى بناء المسجد دار الاجتماع والتعلم والتشاور، وتمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار عناصر تكوين الأمة الإسلامية، وتمت صحيفة المعاهدة مع اليهود ممن كانوا يقيمون مع المسلمين بالمدينة، واستقر الأساس الاقتصادى.

أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ﴿ ﷺ وآله﴾ فى القتال فى سبيل الله، وذلك فى الثانى عشر من شهر صفر فى السنة الثانية من الهجرة.

---

(١) راجع كتاب الجهاد للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم.

وقد اختلف على أول آية نزلت فى الإذن بالجهاد ولكنها إحدى هذه الآيات وكلها دعوة وحث على الجهاد:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:٣٩).

٢- ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة: ١١١).

٣- ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾ (البقرة: ١٩٠).

الغزوة والسرية والبعث

الغزوة:

هى كل جند فى سبيل الله حضرها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بنفسه وكان بها قتال أو لم يكن.

وكان عدد الغزوات التى غزا فيها بنفسه ﴿ﷺ وآله﴾ مع أصحابه رضوان الله عليهم تسعا وعشرين غزوة وهى:-

غزوة ودان-غزوة بواط-غزوة العشيرة-غزوة سفوان-غزوة بدر الأولى- غزوة بدر الكبرى- غزوة بنى سليم- غزوة بنى قينقاع- غزوة السويق- غزوة قرقرة الكدر- غزوة غطفان- غزوة ذى أمر- غزوة بحران بالحجاز- غزوة أحد- غزوة حمراء الأسد- غزوة بنى النضير- غزوة ذات الرقاع- غزوة بدر الأخيرة وهى غزوة بدر الموعد-غزوة دومة الجندل-غزوة بنى المصطلق- غزوة الخندق- غزوة بنى قريظة- غزوة بنى لحيان- غزوة الحديبية- غزوة ذى قرد- غزوة خيبر- غزوة وادى القرى- غزوة عمرة القضاء- غزوة فتح مكة- غزوة حنين والطائف- غزوة تبوك.

السرية أو البعثة:

هى كل بعثه أرسلت إلى الأعداء و لم يكن حاضرا بها ﴿ﷺ وآله﴾ بنفسه. وكان عدد السرايا التى أرسلها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سبعة وأربعون سرية.

وكانت أول هذه السرايا هى سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه.

سرية حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه تعالى عنه

أول بعوث النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وسراياه أن بعث عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه فى ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة. وقد أمره على ثلاثين رجلا من المهاجرين، ليعترضوا عيرا لقريش، جاءت من الشام، قاصدة مكة.

وذلك لتقوى قلوب أصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ على القتال شيئا فشيئا، وكذا ليتقووا بالغنائم التى يحصلون عليها من تلك العير، وكذا تعويضا للمهاجرين عن الأموال التى خلفوها وراءهم عند الهجرة من مكة و لم يستطيعوا حملها معهم إما خوفا أو ضعفا.

وكان فى العير أبو جهل فى ثلاثمائة راكب، وقيل فى مائة وثلاثين راكبا وقد التقى الجانبان على ساحل البحر فى ناحية العيص، وتصافوا للقتال ثم حجز بينهم بحرى بن عمرو الجهنى، وكان مصالحا للفريقين فانصرف القوم بعضهم عن بعض و لم يكن بينهم قتال، وكان هذا الصلح سترا لحال المسلمين، وبقاء لشوكة أهل الإسلام لكثرة عدد المشركين.

ولقد بعث النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى هذه السرية المهاجرين، لأن الأنصار اشترطوا فى بعثهم له، أن يمنعوه فى دارهم، و لم يذكر لهم ﴿ﷺ وآله﴾ فى البيعة أنهم يخرجون من دارهم، فأراد أن يكون الأمر معهم بالتدريج حتى رضوا به، وطابت به نفوسهم فقاتلو معه ﴿ﷺ وآله﴾ خارج المدينة.

سرية عبيدة بن الحرث بن المطلب

وكانت بعد شهر من سرية حمزة بن عبد المطلب، وقد خرج عبيدة بن الحرث بن المطلب فى ستين رجلا من المهاجرين، إلى بطن رابغ.

وذلك لملاقاة عيرا لقريش،قيل: إن فيهم أبا سفيان بن حرب أو عكرمة بن أبى جهل، أو مكرز بن حفص العامرى، وكانت العير فى مائتى رجل.

فلما التقوا لم يحدث بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه رمى بهم فكان أول سهم رمى به فى الإسلام.

سرية سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه

وكانت إلى الخرار وهو وادى فى الحجاز يصب فى الجحفة، وكانت بعد شهر من سرية عبيدة بن الحرث فى عشرين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عيرا لقريش، فخرجوا على أقدامهم فوصلوا الخرار، بعد خمسة أيام من خروجهم، فوجدوا العير قد مرت بالأمس فرجعوا بدون قتال.

غزوة ودان أو الأبواء

أول غزوة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خرج فيها بنفسه، وودان قرية من أعمال الفرع وتسمى غزوة الأبواء، لأنهما متقاربان من وادى الفرع.

خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى ستين رجلا من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار، يريد عيرا لقريش، فلم يدرك العير التى أراد.

والتقى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ببنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فعقد بينهم و بينه ﴿ﷺ وآله﴾ عهدا.

وكانت المعاهدة بينه ﴿ﷺ وآله﴾ وبينهم على ألا يغزونه، ولا يكثرون عليه جمعا، ولا يعينون عليه عدوا، وأن لهم النصر على من رامهم بسوء، وأنه إذا دعاهم لنصر أجابوه، وعقد ذلك منهم سيد القوم فحشى بن عمرو الصخرى.

وكان لواءه أبيض، وكان معه عمه حمزة رضى الله عنه، واستخلف فى المدينة سعدا بن عبادة رضى الله عنه، وكانت مدة غيابه عن المدينة خمس عشرة ليلة.

غزوة بواط

خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد شهر من غزوة ودان يريد عيرا لقريش، فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش، فى ألفان وخمسمائة بعير.

وكان مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مائتين من أصحابه عليه الصلاة والسلام، من المهاجرين وكان لواءه أبيض، وحمله سعد بن أبى وقاص، واستخلف فى المدينة سعدا بن معاذ رضى الله عنه.

ولما بلغ بواط وهو جبل بجوار ينبغ لم يلق حربا ولا وجد العير؛ فرجع ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة.

غزوة العشيرة

خرج إليها﴿ﷺ وآله﴾ فى جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهرا من الهجرة فى خمسين ومائة رجل، وقيل فى مائتى رجل من المهاجرين ومعهم ثلاثون بعيراً يتعقبونها يريدون عير قريش التى صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة، وكانت قريش جمعت أموالها في تلك العير ،ويقال : إن فيها خمسين ألف دينار وألف بعير ، وكان قائد تلك العير أبو سفيان بن حرب ومعه تسعة وثلاثون رجلا ، منهم مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص رضي الله عنه .فخرج إليها ليغنمها ، فوجدها قد مضت قبل ذلك بأيام ، وهى العير التى خرج إليها حين رجعت من الشام فكان بسببها وقعة بدر ،وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . واستعمل ﴿ﷺ وآله﴾ علي المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى رضي الله عنه . وصالح ﴿ﷺ وآله﴾ في هذه الغزوة بنى كنانة حلفاء بنى مرة .

قال الواقدى : إن هذه الغزوات الثلاث يعنى [الأبواء ثم بواط ثم العشيرة] كان ﴿ ﷺ وآله﴾ يخرج فيها لتلقى تجار قريش حين يمرون إلي الشام ذهاباً وإياباً .

وبسبب ذلك كانت وقعة بدر وكذلك السرايا التى بعثها ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل بدر . ثم رجع ﴿ ﷺ وآله﴾ و لم يلق حربا .

غزوة سفوان

ويقال لها غزوة بدر الأولي

قال ابن اسحق :ولما رجع ﴿ ﷺ وآله﴾ من غزوة العشيرة لم يقم بالمدينة إلا ليالي ، لم تبلغ العشرة، حتى أغار كرز بن جابر الفهرى علي سرح المدينة ،أى الإبل والمواشى التى تسرح للرعى بالغداة .

وكان كرز بن جابر من رؤساء المشركين ،ثم أسلم وصحب رضي الله عنه النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فخرج ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى بلغ سفوان ، موضع من ناحية بدر ،ففاته كرز بن جابر و لم يدركه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فرجع ﴿ ﷺ وآله﴾ و لم يلق كيدا .

وكان اللواء بيد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

واستعمل عليه الصلاة والسلام علي المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه.

سرية أمير المؤمنين عبد الله بن جحش الأسدى رضي الله عنه

قال أبو القاسم البغوى قال بن أبي وقاص :بعثنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في سرية.

قال : لأبعثن عليكم رجلا أصبركم علي الجوع والعطش ،فبعث علينا عبد الله ابن جحش رضي الله عنه. وكان رضي الله عنه أحد السابقين إلي الإسلام وسماه ﴿ ﷺ وآله﴾ أمير المؤمنين فهو أول من تسمى في الإسلام به .

وكانت هذه الغزوة في رجب علي رأس سبعة عشر شهرا وكان معه ثمانية من المهاجرين وقيل اثنا عشر إلي نخله ،وهو موضع علي ليلة من مكة ،بين مكة والطائف ، وكان يعتقب كل اثنين منهم بعيرا .

وكتب له ﴿ ﷺ وآله﴾ كتابا وأمره ألا ينظر إليه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ،فيمعن لما أمره به ولا يستنكره من أصحابه أحد .

فلما سار يومين فتح الكتاب ، فإذا فيه (إذا نظرت في كتابى هذا فامض حتى تترل نخله بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم).

فقال سمعا وطاعة ،وأخبر أصحابة أنه نهاه أن يستنكره أحد منهم .. و لم يتخلف منهم أحد .

وسلك علي الحجاز حتى إذا كان ببحران . أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما بعيرهما الذى يعتقبان عليه فتخلفا في طلبه.

ومضي عبد الله وأصحابه حتى نزلوا بنخله يترصدون قريشا فمرت بهم عيرهم تحمل تجارة من تجارات قريش فيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان .

فترلوا قربهم ، فهابوهم ، فأرشدهم عبد الله إلي ما يزيل روعهم ، فحلق بعض أصحابه رأسه وأشرف عليهم .

فلما رأوه أمنوا وقالا :عمار ،أى معتمرون لا بأس عليكم منهم فقيدوا ركابهم وسرحوها وصنعوا لهم طعاما،فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب أو في أول يوم من شعبان أى شكوا في اليوم أهو من الشهر الحرام ،أم لا،

فإن قتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام ، وإن تركناهم دخلوا حرم مكة فامتنعوا به منا ،ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا علي قتالهم أى قتل من قدروا عليه منهم فقتلوا عمرو بن الحضرمى ، رماه عبد الله بن واقد بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله المخزومى والحكم بن كيسان.

وهرب من هرب، واستاقوا العير فكانت أول غنيمة في الإسلام ،وكان القتل أول قتل وقع نصرة للإسلام.

فقسمها عبد الله بن جحش بين أصحابه ، وعزل الخمس من ذلك لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ باجتهاد منه ،وقيل قدموا بالغنيمة كلها ، فقسمها النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد غزوة بدر وقال لهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ،فسقط في أيدى القوم وظنوا أنهم هلكوا ، وعنفهم إخوانهم فيما صنعوا .

وتكلمت قريش فقالوا : إن محمدا سفك الدماء ، وأخذ المال ،وأسر الرجال في الشهر الحرام ، وتعير بذلك من بمكة من المسلمين .

وبعثت قريش تعير النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بفعل أصحاب السرية فأنزل الله سبحانه وتعالى بعد أن أكثر الناس القول ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ- يعنى الكفر- أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة : ٢١٧) .

فكان في ذلك تأييد لما صدر من تلك السرية.

وبعث قريش إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في فداء الأسيرين وهما عثمان بن عبد الله المخزومى والحكم بن كيسان ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، يعنى سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان المتخلفين في طلب بعيرهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم فقدم سعد وعتبة بعدها بأيام.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ،وقام عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا رضي الله عنه.

وأما عثمان فلحق بمكة ،فمات بها كافرا، ومن يضلل الله فلا هادى له.

الفصل الثانى

تحويل القبلة إلي الكعبة

هذا الموضوع ينبغي أن نبين فيه ما ورد من القرآن الكريم والحديث أولا ، ثم كيفية التحويل ،ثم الحكمة في ذلك ،لتتجلى الحقيقة للراغبين تجليا يجعلهم يذوقون سر حلاوة استقبال القبلة ، وقبل ذلك نلمع إلي حكمة استقبال الأشباح إلي وجهة كونية في وقت قيامها بين يدى قيامها سبحانه وتعالي .

حكمة استقبال الأشباح لوجهة كونية

معلوم أن أكمل مقام يتحقق فيه المؤمن بمقام العبد حقا هو موقف الصلاة، لانكشاف حقيقة الحضرتين لسر القائم بالصلاة فى الصلاة .

إذ كل عمل من الأعمال إذا انكشفت رموزه لعين العامل المخلص لها يرى أن صفات الربوبية مشهودة له – وإن حرص أن يتحقق بمقام العبدية – إلا فى الصلاة .

فالصائم مثلا متشبه بعالين ،وملاحظ معانى صمدية الصمد بمجاهدته نفسه فى ذات الله بتركه ما لا بد لها منه ، فهو وإن كان عبدا مطيعا للأمر ، ولكنه ملاحظ لمعانى صفات الربوبية ، وكذلك فى الصدقة والحج،وفى البر والصلة، وفى العاطفة والرحمة والشفقة على الخلق،لا تتميز الحضرتان تمييزا،يجعل العامل عبدا حقا مشاهدا للحق مشاهدة يكون فيها محفوظا، من أن يلاحظ اتصافه بصفة من صفات الربوبية إلا إقامة الصلاة.

وإن من ذاق حلاوة إقامة الصلاة تنكشف له تلك الحقيقة جلية ، فإن مفتاح الصلاة وإن كل كلمة هى (الله أكبر) إلا أن مدلولها يمحق الغير عن السر محقا يجعل ما سوى الله لا وجود له بنفسه، بل يراه موجودا بالوجود الحقانى فيكون مقهورا مبدعا محدثا.

وبذلك كانت الصلاة مناجاة ومواجهة وحضورا وشهودا .

وحاضر القلب تنكشف له فى كل حركة من حركات الصلاة معانى أسرارها من وقوع بخشوع، وانحناء بذل، وسجود لصغار وهيبة ورهبة .

كل ذلك لم يكن إلا لمواجهة عظمة وكبرياء وعزة وجلال ، إذا فالصلاة تمييز الحضرتين، وإشراق نور الأحدية على الحضرة العبدية . وحضرة العبد حق ، لأن المصلى عبد حقا، وإن الحق حق ، لأن الحق حق حقا .

فيواجه الحق العبدى الحق الربى بالنسب الحقيقى الذى هو ذل وخشوع واحتياج وفقر وفاقه، ويتنزل الحق الربى فيواجه الحق العبدى بجلال جميل رءوف رحيم ، وقريب منعم متفضل، فيكون نورا على نور .

ولما كانت تلك المواجهة لا بد أن تحصل لظاهر العبد وباطنه ، حتى تصح الوصلة بين ظاهر العبد وباطن العبد ، وباطن الحق وظاهر الحق .

فكان ظاهر العبد مقام التنزيه، وباطنه مقام التشبيه، وكان ولا بد من وجهة معينة لظاهر العبد ، ومن إطلاق لباطنه حتى تحصل الطمأنينة لظاهره وباطنه.

لذلك

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يعين وجهة للأشباح يتوجه إليها عند الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى توجها تتحد به القلوب، وتشرق فيه أنوار التوحيد الخالص على كل مسلم توجه ، لتكون الوجهة واحدة .

وتلوح أنوار التوحيد على ظاهر العبد وباطنه فيكون مقيم الصلاة وهو فى الصلاة ، ذائق حلاوة التوحيد ظاهرا وباطنا و متجملا بجمال التفريد والتنزيه سرا وعلنا ، حاضرا بقلبه وقالبه مع ربه سبحانه وتعالى بالانقياد والطاعة للأمر بالتوجه إلى كعبة الأشباح، وحضورا روحانيا بالمواجهة التى حصلت له لتجمله بجمال الرتبة العبدية فى حضرة الإطلاق ، وهذا سر إقامة الصلاة .

ومن لم يكاشف بهذا العلم كشفا أو علما أو حالا فهو ممن قال الله فيهم : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾(الماعون:٤). وذلك لأنه لم تنكشف له حكمة الصلاة المقصودة بالذات للحق سبحانه وتعالى، التى بها تكون الصلاة صلاة حقا عند الله مقبولة لديه سبحانه وتعالى ، تنتج الخيرات التى وعد الله بها المصلين، وتكشف الحجب بين العبد وربه حتى يكون الله أمام وجهه كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (الله فى قبلة أحدكم مادام يصلى). وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (المصلى يناجى ربه).

وعندى أن من لم يجد لذة مشاهدة الحق فى وقت الصلاة أن يعيد صلاته ، فإنما الصلاة فريضة وصلة وقربة، فمن لم يجد تلك اللذة، فقد سقطت عنه الفريضة ظاهرا . ولكنه م يفز برضوان الله تعالى الذى يناله مقيم الصلاة ، و لم أقل يعيدها حكما شرعيا ، ولكنه استنباط فى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لأن يصح للعبد صلاة واحدة أحب إليه من أن يملك الأرض وما فيها).

وقد ورد أن الصلاة ترفع حتى قد لا يصلح للمصلى فريضة واحدة يوم القيامة، فقد ترفع صلاة واحدة بألف صلاة.

والكعبة المكرمة لم تكن جهة من الجهات الأربع للمصلى ولكنها رمز لوحدة ملاحظة للمصلى المشاهد، تتجلى له حقائق المعبود الأحد سبحانه فى توجهه ظاهرا وباطنا إليه.

فإن سكان البلاد الشرقية للكعبة يوجهون وجوههم إلى الغرب منها ، وسكان الغرب يوجهون وجوههم إلى الشرق ، وسكان الجنوب يوجهونها إلى الشمال .

والحاضرون بمكة يصلون حلقا حول الكعبة .

فالكعبة وجهة لا جهة ، ومثال لا حقيقة ، ورمز عن وحدة الواحد ، وإشارة إلى التوحيد الخالص ، والإخلاص فى العمل للأحد الصمد سبحانه ، وبيان لملة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتشبيها بالرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم .

هذا ولما كان كل مسلم يبلغ بمجاهدته لنفسه إلى مقام يتحقق بمشارب رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم حتى يبلغ إلى أن يذوق حلاوة اليقين الحق جعل الله تعالى للمسلمين القبلتين ، فنسخ قبلة بيت المقدس بالكعبة ليكون له الحظ الأوفر بالتشبه برسل الله والتحقق بعلومهم وعملهم عليهم الصلاة والسلام .

فضل عظيم خص به سيد رسله وخاتم أنبيائه، وجعله الله تعالى لأمته الذين هم خير أمة أخرجت للناس، وقد بينت ذلك فى دعوة النصارى واليهود فى كتابنا الإسلام دين ووطن ونسب.

وفى القرآن المجيد يقول الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران: ١١٠). والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أكمل صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

لهذه الحكمة اقتضت إرادة الله تعالى أن تكون صلاتنا للقبلتين حتى نتجمل بأنواع الجمالات الإلهية.

وهذا ما يمكن أن يسطر على صفحات الأوراق من حكمة التوجه إلى الكعبة ، ولولا أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : (إن الله يكره أن تبينوا كل البيان). لكشفت رمزا من رموز الوجهة، ولكنه فضل الله يهبه الله تعالى لمن عمل بما علم ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(العنكبوت :٦٩).

وقال سبحانه : : ﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

ما ورد في تحويل القبلة من الآيات والأحاديث والآيات القرآنية:

قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة :١٤٤)

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٩).

الأحاديث النبوية

فى الصحيحين عن البراء أن أول صلاة صلاها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أى للكعبة صلاة العصر . وعن عمارة بن أوس النصارى قال : صلينا إحدى صلاتى العشاء أى وهى الظهر والعصر فقام رجل على باب المسجد ونحن فى الصلاة فنادى أن الصلاة قد وجهت نحو الكعبة فتحول إمامنا نحو الكعبة .

وعن رافع بن خديجة قال : أتانا آت ونحن نصلى فى بنى عبد الأشهل فقال : إن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قد أمر أن يوجه إلى الكعبة فدار إمامنا إلى الكعبة ودرنا معه .

وعن ابن جرير صلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أول ما صلى إلى الكعبة ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلى ثلاث حجج ثم هاجر فصلى إليه ، ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة .

كيفية التحويل

معلوم أن الله تعالى أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يصلى ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى، و لم تفرض الصلاة إلا فى ليلة الإسراء.

وكان﴿ ﷺ وآله﴾ ومعه أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين فى مكة المكرمة، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يصلى وهو فى مكة متحريا أن يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، وكان أصحابه يتحرون ذلك حتى كان أكثر الناس لا يعلمون أن القبلة بيت المقدس و لم تنكشف تلك الحقيقة جلية إلا بعد الهجرة إلى المدينة ، فكان مستدبرا الكعبة ويواجه بيت المقدس وكان يجد فى ذلك ما يجده ﴿ﷺ وآله﴾، لما كاشفه الله تعالى به ، من أن الكعبة هى البقعة التى باركها الله ، منذ خلق السموات والأرض ، وأنها تسامت البيت المعمور فى السماء السابعة ، وأنها مطاف ملائكة السموات من لدن الخلقة .

كما ورد أن الملائكة بنوها ، وبناها سيدنا آدم ، وبناها سيدنا الخليل وسيدنا إسماعيل عليهم الصلاة والسلام .

وقد خصها الله تعالى بتنزلاته الرحمانية حتى بلغت من الكرامة على الله تعالى أن ينزل عليها فى كل يوم مائة رحمة ، تسعون للمواجهة وعشرة للطائفين، كل ذلك إكراما لحبيبه ومصطفاه ، وإجلالا لقدره ﴿ﷺ وآله﴾ ، وتعظيما لأنها فى بلد مولده ، ومحل وجهته ﴿ﷺ وآله﴾ للصلاة ، ووجهة أمته صلوات الله وسلامه عليه وعليهم من بعده .

فكان صلوات الله وسلامه عليه ، يشتاق إلى أن يؤذنه الله تعالى بالتوجه إليها فى صلاته ، ويتمنى أن لو يمكنه أن يوجهه إلى جهة يجمع فيها بين استقباله مع بيت المقدس، فكان يقلب وجهه إلى سماء الوحى ، استشرافا للأمر الإلهى بالتحويل إليها .

كيف تحول ﴿ﷺ وآله﴾

بينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى منزل أم بشر بن البراء بن معرور رضى الله عنهم لزيارتها حانت صلاة الظهر فصلى بأصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ فى مسجد هناك ، وبينما هو ﴿ﷺ وآله﴾ فى الركوع أوحى الله تعالى إليه بآية التحويل وهى قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة:١٤٤) .

وكان ﴿ﷺ وآله﴾ متوجها إلى بيت المقدس صوب الجدار الشمالى فاستدار﴿ﷺ وآله﴾ واستدار الصحابة معه حتى وجه وجهه الشريف وهو فى الركوع إلى الجدار الجنوبى لمواجهة الكعبة المكرمة حتى صار النساء فى موضع الرجال،والرجال فى موضع النساء .

وخرج عباد بن بشر ومر بجماعة من الأنصار يصلون العصر فى مسجد لهم وهم راكعون فقال : اشهد بالله لقد صليت الظهر مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مستقبلا الكعبة ، ثم جاء قباء والصحابة يصلون الصبح فأخبرهم وهم فى الركعة الثانية فاستداروا إلى الكعبة .

وفى البخارى : بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، فاستداروا إلى الكعبة .

والمسلم حقا من إذا بلغه عن الله تعالى أو عن رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ ما يخالف ما هو عليه، سارع إلى ترك ما هو إلى ما بلغه تصديقا للمخبر ، وتحقيقا بأنه متبع .

لا مبتدع ،خوفا من أن يبلغه عن رسول الله أمر ويصر على ما هو عليه، فيكون مخالفا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعملا بقوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر:٧).بلا تأويل، وله أن يتحرى الحق بعد ذلك، وهذا عمل الصحابة، وعمل السلف الصالح بعدهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وإنما التأويل فيما أبهم على السامع مدلوله، أو خفى عليه تفصيله، فيكون له العذر إذا أخذ بالعزائم، أو مال إلى الأحوط.

وأما فيما لم يبهم عليه، ولا يخفى مدلوله، فالمؤمن يأخذ بظاهره، ويسارع إلى تنفيذه وهى سنة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

وكم من مريد صادق جمله الله بالجمال الذى جمل به أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بالتسليم والمسارعة للعمل بلا تأويل ولا ترديد.

وهذا دليل على سابقة الحسنى، لأن الدين دين الإسلام أى الاستسلام والتسليم.

فنجد أهل التأويل يسارعون إلى إخراج كلام الله تعالى وكلام رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ لغير ما وضع له. والبحث فى التجريح ورد الأحاديث النبوية بدعوى أنها لم تصح، لأنها لم توافق عقله، أو لم تكن من محفوظه، أولد يطلع عليها دليل على ظلمة فى القلب، وقوة فى الجدل قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف: ٥٨).

تأمل فى عمل الصحابة رضى الله عنهم، كيف تحولوا بخبر الفرد عما شهدوا عليه رسولا وجماعة المسلمين مسارعين إلى تنفيذ مدلول الخبر بلا تأن ولا ترو حبا فى المبادرة

إلى طاعة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وانقيادا لما يسمعونه عن الله تعالى وعن رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ولو على لسان الفرد.

ومن أحب الله ورسوله سارع إلى عمل ما يسمعه ولو من الآحاد، وافق هواه أو خالفه.

ومن غلب عليه الرأى والحظ والهوى، يظهر أنه مطيع لله ورسوله ولكنه يخالفهما إلى هواه وحظه ورأيه، مدعيا التأويل، أو الإنكار على الراوى أو غير ذلك، مما يبرهن به على أنه مع هواه ورأيه لا مع الله ورسوله، وما على المسلم الكامل إلا أن يقول كما قال أهل اليقين: سمعنا وأطعنا.

فانظر إلى المسارعة فى السمع والطاعة ثم إلى طلبهم المغفرة بعد ذلك، فهم مع كمال انقيادهم ومسارعتهم إلى تنفيذ أوامر الله تعالى يرون أنفسهم مذنبين، فيطلبون المغفرة. هذا هو الأدب الكامل مع الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾.

وأما أهل الرأى والحظ والهوى، فإنهم مع تركهم المسارعة لا يرون أنفسهم مقصرين مذنبين، بل يرون أنهم أهل تحر، وأهل احتياط، وأنهم الذين يعتد بهم.

نعوذ بالله من سوء الأدب مع الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾، اللهم أدبنا بآداب من اصطفيتهم، وجملنا بجمال التسليم، وامنحنا التوفيق لما تحبه وترضاه.

واحفظنا يا إلهنا من سوء الحظ والرأى والهوى .. إنك مجيب الدعاء.

الفصل الثالث

غزوة بدر الكبرى

ويقال العظمى، ويوم وقعة بدر هو يوم الفرقان، المذكور فى قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال: ٤١).

لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، وهو يوم البطشة الكبرى المذكور فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الدخان:١٦). فهو يوم أعز الله فيه الإسلام ، وقوى أهله، ودفع فيه الشرك وخرب محله، مع قلة عدد المسلمين وكثر ة العدو، فهو آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله.

مع ما كان العدو عليه من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة، والخيل المسومة، والخيلاء الزائدة، أعز الله به رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ وأظهر وحية وتنزيله، وبيض وجه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقبيله، أخزى الشيطان وجيله.

ولهذا قال الله تعالى ممتنا على عباده المؤمنين : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣).أى قليل عددكم، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد. والحاصل أن هذه الغزوة، كانت أعظم غزوات الإسلام إذ منها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرف على الآفاق نوره، ومن حين وقوعها ، أذل الله الكفار وأعز الله من حضرها من المسلمين وهو عند الله من المقربين .

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ (آل عمران : ١٢٣ – ١٢٧)

ليلة الفرقان بين الحق والباطل

ليلة الفرقان فرق في الوجود بين إحسان ونصر أو صدود
فرقت بين الحقائق أظهرت غامض العلم وبينت الحدود
ليلة في ظاهر الأمر ترى وهى هيكلى المجمل للشهود
لا يرى الغيبَ العليَّ سوى فتى نال حسنى الفضل من غير جهو
ليلتا بدر وقدر أشهدا كل فرد نور أسرار العهود
يا مجيب السؤل مضطر أنا أسأل الله التجلي بالودود
كسَّرَتْ قلبي الذنوبُ تداركن بالغفورِ العبدَ في ظل القيود
فُكَّ قيدى واشْرَحَنْ صدرى امْنَحَنْ خيرَك الدائمَ لى حال الورود
أنسَنَّى بالجمال تنيلهُ راغبا يرجوك إحسانَ الورود
من سقامى والمشيب وفاقتى يا ويلى جَمَّلَنَّى بالسعود
أسْعدَنْ في دار دنيا بالعطا وادفعَنْ بالأنس نيرانَ الوقود
أصْلِح الأعمالَ جَمَّلْ حالتى مقعدَ الصدق اجعَلَنْ لي في صعود
كى أهنى بالجميل منعما في اتحاد في قبول لا جهود
وسَّع الإحسانَ من حب عطا في جمال القرب في أنس الشهود
لا تَحاسِبْنى تفضَّلْ بالرضا والمآل اجعله في دار الخلود

أسباب غزوة بدر الكبرى

روى البخارى أن عبد الله بن كعب قال :سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يقول : لم أتخلف عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك غير أنى تخلفت عن غزوة بدر ، و لم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يريد عيرا لقريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم علي غير ميعاد .

خرج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ في طلب العير ، حتى بلغ العشيرة ، ووجدها سبقته بأيام و لم يزل مترقبا قفولها أى رجعوها من الشام ، فلما سمع بقفولها ندب المسلمين أى دعاهم وقال :

(هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها) فانتدب ناس أى أجابوا ،وثقل آخرون أى لم يجيبوا، لظنهم أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لم يلق حربا و لم يحتفل أى يهتم بها ،بل قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من كان ظهره حاضرا فليركب معنا و لم ينتظر من كان ظهره غائبا عنه) .

يوم الخروج لبدر

وكان خروجهم يوم السبت لاثنتى عشر خلت من رمضان علي رأس تسعة عشر شهرا من الهجرة ،وخرجت معه الأنصار و لم تكن من قبل ذلك خرجت معه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

الشهيد من نبوءاته ﴿ ﷺ وآله﴾

ولما خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ إلي بدر قالت له أم ورقة بنت نوفل ،يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك، أمرض مرضاكم لعل الله يرزقنى الشهادة ، فقال لها ﴿ ﷺ وآله﴾ قرى في بيتك ، فإن الله يرزقك الشهادة .

وكانت رضي الله عنها قرأت القرآن ،فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يزورها ويسميها الشهيدة ، فكان الناس يقولون لها : الشهيدة .

فلما كان زمن خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، عدا عليها غلام وجارية . كانت دبرتهما – أى أخبرت وأوصت بعتقهما عقب وفاتها دبر حياتها –فغمياها بقطيفة إلي أن ماتت .

فجيء بهما إلي سيدنا عمر رضي الله عنه ، فأمر بصلبهما ، فكانا أول مصلوب بالمدينة ، وقال صدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،كان يقول : انطلقوا بنا نزور الشهيدة .. رضي الله عنها .

أبو سفيان والتجسس

وكان أبو سفيان حين دنت العير أرض الحجاز يتجسس الأخبار أى يبحث عنها ويسأل من لقى من الركبان تخوفا من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فبلغه أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قد استنفر أصحابه للعير ،ويقال: إنه لقى رجلا فأخبره بذلك فخاف خوفا شديدا ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ،بعشرين مثقالا ليأتى مكة ، وأن يجدع بعيره – أى يقطع أذن بعيره – ويحول رحله ، ويشق قميصه من قبله ومن دبره إذا دخل مكة ، ويستنفر قريشا ويخبرهم أن محمدا قد عرض لعيرهم هو وأصحابه .وكانت تلك العير فيها أموال قريش، حتى قيل: إنه لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى تلك العير إلا حويطب بن عبد العزى. ويقال: إن فى تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعير وقائدها أبو سفيان ومعه مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص، وكان جملة من معه تسعة وثلاثون رجلا. فخرج ضمضم سريعا إلى مكة، وقبل أن يقدم بثلاث ليال رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها .

رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب

بعثت عاتكة إلى أخيها العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فقالت له : ياأخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى أى اشتدت علىّ وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم علىّ ما أحدثك.

وفى رواية قالت : لن أحدثك حتى تعاهدنى أن لا تذكرها، فإنهم إن سمعوها تعنى كفار قريش آذونا وأسمعونا ما لا نحب فعاهدها العباس . ثم قال لها : ما رأيت ؟ قالت :

رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا ياآل غدر إلى مصارعكم فى ثلاث أى بعد ثلاثة أيام ، ومعنى ياآل غدر ياأصحاب الغدر وعدم الوفاء . قالت : فأرى الناس اجتمعوا عليه ، ثم دخل المسجد يتبعونه ، فبينما هم حوله قالت: رأيت بعيره مثل به أى انتصب على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى، حتى إذا كان بأسفل الجبل أرفضت أى تكسرت فما بقى بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلها منها فلقة، فقال لها العباس: والله إن هذه لرؤيا أى عظيمة ، وأنت فاكتميها ، ولا تذكريها لأحد . ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة وكان صديقا له، فذكرها له واستكتمه ، فذكرها الوليد لأبيه ، فتحدث بها . ففشا الحديث قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآنى أبو جهل قال: ياأبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

العباس وأبو جهل : حوار وانتظار

قال العباس فلما فرغت أقبلت ، حتى جلست معهم، فقال أبو جهل : يابنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : يابنى عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم، حتى يتنبأ نساؤكم؟

وفى رواية : أما رضيتم يابنى هاشم أن يكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء ؟ ثم قال أبو جهل : وقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يكن حقا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن فى ذلك شئ نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل البيت فى العرب . قال العباس : فو الله ما كان منى إليه كبير أمر إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئا .

ثورة النساء على أبا جهل

ثم أن العباس لقى من أخته عاتكة أذى شديدا حين أفشى من حديثها ، وقال العباس: فلما أمسيت، لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى تقول لى : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشئ مما سمعت؟ فقلت لهن: وأيم الله لأتعرضن له، وإن عاد قتلته. فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا مغضب أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيته فو الله إنى لأمشى نحوه أتعرضه، ليعود إلى بعض ما قال فأوقع به ، إذ هو قد خرج نحو باب المسجد يشتد ، أى يعدو، فقلت فى نفسى: ما له لعنه الله ، أكل هذا الفرق أى الخوف منى؟ فإذا هو يسمع ما لم أسمع .

الصارخ بمكة والاستعداد

ارتفع صوت ضمضم الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى، واقفا على بعيره قد جدع بعيره ، أى قطع أنفه وأذنه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول : يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة، أى أدركوا اللطيمة وهى العير التى تحمل الطيب والبر، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أدرى أتدركوها. وفى لفظ: أصابها محمد لن تفلحوا أبدا ، الغوث الغوث . قال العباس: فشغلنى عنه وشغله عنى ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعا وفزعوا أشد الفزع ، وخافوا من رؤيا عاتكة. ويروى أنهم قالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير الحضرمى ؟ والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين . إما خارج وإما باعث مكانه رجلا، وأعان قويهم ضعيفهم، وقام أشراف قريش، يحضون الناس على الخروج ، وقال سهيل بن عمر: أتاركون أنتم محمدا والصائبة من أهل يثرب ، يأخذون أموالكم، من أراد مالا فهذا مالى، ومن أراد قوة فهذه قوتى ، ولم يتخلف من أشراف قريش إلا أبو لهب خوفا من رؤيا عاتكة، وكان يقول : رؤيا عاتكة كأخذ بيد

أى صادقة لا تتخلف. وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت عليه دينا فأفلس بها ، فقال له: اخرج وديني لك، وقتل هشام هذا فى هذه الغزوة قتله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

استعداد قريش وخروجها

واستقسم بالأزلام جماعة منهم أمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن خزام، فخرج ما يكرهون.

فلما خرج لهم القدح الناهى المكتوب عليه لا تفعل، أجمعوا على المقام وعدم الخروج، فجاءهم أبو جهل وأزعجهم وحثهم على الخروج وأعانه على ذلك عقبة بن أبى معيط والنضير بن الحرث.

ويقال: إن عداس الذى اجتمع بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ بالطائف وأسلم على يديه قال لسيديه عتبة وشيبة ابنى ربيعة : بأبى وأمى أنتما والله ما تساقان إلا لمصارعكما ، فأرادا عدم الخروج فلم يزل بهما أبو جهل حتى خرجا عازمين على العود عن الجيش. ولما فرغوا من جهازهم، وكان ذلك فى ثلاثة أيام وقيل يومين وأجمعوا على السير أى عزموا عليه وكانوا خمسين وتسعمائة ، وقيل كانوا ألفا وقادوا معهم من الخيل مائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة.

وكان حامل لواءهم السائب بن زيد ، ثم أسلم رضى الله عنه وهو الأب الخامس للإمام الشافعى رضى الله عنه ، وخرجوا على الصعب والذلول لشدة إسراعهم ،ومعهم القيان وهى الإماء المغنيات ، يضربن بالدفوف يغنون بهجاء المسلمين ، وهم فى غاية من البطر والخيلاء حين خرجوهم كما قال تعالى :

﴿خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(الأنفال٤٧). وكان المطعمون لهذا الجيش اثنى عشر رجلا كل واحد منهم ينحر

كل يوم عشرة جزور وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦).

وهؤلاء الإثنا عشر هم :-

أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن خزام ،والعباس بن عبد المطلب ، وأبو البحترى ، وزمعة بن الأسود ، وأبى بن خلف ، وأمية بن خلف ، والنضر بن الحرث ، ونبيه ومنيه ابنا الحجاج .

وقيل الآية المذكورة نزلت فى الذين أنفقوا أموالهم لتجهيز الجيش الذى قاتلوا به النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يوم أحد وقيل من هؤلاء وهؤلاء .

قريش تحذر كنانة

وعند خروجهم من مكة ،تذكروا أى ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب أى والدماء، وقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا ، أى لآن قريشا كانت قتلت شخصا من كنانة . وأن شخصا من قريش كان شابا وضيئا له ذؤابة وعليه حلة خرج فى طلب ضالة فمر ببنى كنانة وفيهم سيدهم وهو عامر بن الخلوج فرآه فأعجبه ، فقال له : من أنت ياغلام ؟ فذكر أنه من قريش ، فلما ولى الغلام قال عامر لقومه: أما لكم فى قريش من دم ؟ قالوا : بلى . فأغراهم به فقتلوه .

ثم قال بنو كنانة لقريش : رجل رجل فقالت قريش : نعم رجل رجل .

ثم أن أخا المقتول ظفر بعامر سيد كنانة ، بمر الظهران فعلاه بالسيف ، حتى قتله ثم خاط بطنه بسيفه ، ثم جاء وعلقه بأستار الكعبة من الليل .

فلما أصبحت قريش رأت سيف عامر، عرفوه وعرفوا قاتله فكان ذلك يصرفهم عن الخروج خوفا من كنانة ، لكون طريقهم فى المسير عليهم ، وخافوا أن يخلفوهم على ديارهم بشئ يكرهونه.

إبليس يوسوس لقريش

فجاءهم إبليس – لعنه الله – فى صورة سراقة بن مالك المدلجى الكنانى وكان من أشراف بنى كنانة وقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشئ تكرهونه وخرج معهم إبليس ، ووعدهم أن بنى كنانة قد أقبلوا لنصرهم وحسن لهم الأمر ، وقربه لهم ، وهونه عليهم كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال:٤٨).

أبو سفيان يفر وأبو جهل يصر

ثم بعد أن خرج ضمضم إلى أهل مكة ، اشتد حذر أبو سفيان فأخذ طريق الساحل ، وجد فى السير حتى فات المسلمين .

فلما أمن أرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع ، وكانوا حينئذ بالجحفة ، فامتنع أبو جهل وقال : والله لا نرجع حتى نحضر بدرا ، فنقيم فيه ثلاثة أيام ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان بالمعازف ، أى بالملاهى وتسمع بنا العرب بمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، وهذا الرياء الذى أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ﴾ (الأنفال:٤٧).

رجوع بنى زهرة عن قتال النبى﴿ ﷺ وآله﴾

ولما بلغ أبو سفيان كلام أبي جهل قال : هذا بغى،والبغى منقصة وشؤم لأن القوم ، إنما خرجوا لنجاة أموالهم وقد نجاها الله تعالى ، ولما قال أبو جهل ما قال رجع من قريش بنو زهرة ،وكانوا نحو المائة وقيل ثلاثمائة، فلذا قيل: لم يقتل أحد منهم ببدر. وقيل : قتل منهم رجلان ، وكان قائد بنى زهرة الأخنس بن شريق الثقفى وكان حليفا لهم فقال لهم : يابنى زهرة ، قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل فإنه كان فى العير،وإنما نفرتم لتخلصوه وماله فارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير منفعة

دعوا ما يقول هذا ، يعني أبا جهل . ثم خلا بأبي جهل وقال: أترى محمد يكذب ، أصدقني ليس بيني وبينك أحد؟ فقال له أبو جهل : ما كذب محمد قط كنا نسميه الأمين، لكن إذا كان في بني عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة ، أي شئ يكون لنا ، ونحن معهم كفرسي رهان ، فرجع الخنس ببني زهرة، والأخنس هذا اختلف في إسلامه ، والأكثرون على انه أسلم عام الفتح ، وكان من المؤلف، ثم حسن إسلامه، قيل: أنه جاء إلى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وأظهر الإسلام وقال: الله يعلم إني لصادق ثم هرب بعد ذلك. فمر بقوم من المسلمين فحرق زرعهم فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ۝ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦).

ثم إن بني هاشم أرادوا الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال لقريش: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

ثم لم يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من الماء وسيأتي أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نزل بعيدا عن الماء أولا ثم انتقل وقرب منه ﴿ﷺ وآله﴾ .

خروج النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وما فيه من الأفعال الحكيمة

ولما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من المدينة استعمل عليها واليا أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسي رضي الله عنه، وكان خرج معه فرد من الروحاء.

واستعمل ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه على الصلاة بالناس ، وخلف عاصم بن عدي رضي الله عنه على قباء وأهل العالية لشئ بلغه﴿ﷺ وآله﴾ عن أهل مسجد الضرار، لينظر في ذلك .

وضرب ﴿ﷺ وآله﴾ عسكره ببئر أبي عتبة ، وأمر أصحابه أن يستقوا منها ، وشرب من مائها ، وفى الإقناع : عسكر ببيوت السقيا وهى عين بينها وبين المدينة يومان ، كان ﴿ﷺ وآله﴾ يستقى الماء منها .

وقد جاء أن عبده ﴿ﷺ وآله﴾ رباحا كان يستقى له ﴿ﷺ وآله﴾ من بئر غرس مرة، ومن بيوت السقيا مرة وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : بئر غرس من عيون الجنة وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ حين فصل من عيون السقيا أن تعد المسلمون فوقف لهم عند بئر أبي غنية فعدوا، وهى على ميل من المدينة . فعرض أصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ ورد من استصغر ، وكان ممن رده أسامة بن زيد ، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت رضى الله عنهم . ورد عمير بن أبي وقاص فبكى فأجازه وقتل وعمره ستة عشر عاما رضى الله عنه .

وخرج ﴿ﷺ وآله﴾ فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، من المهاجرين أربعة وستون وباقيهم من الأنصار ، وقيل : كان المهاجرون نيفا وثمانين وكانت الأنصار نيفا وأربعين ومائتين رضى الله عنهم .

من خلفهم الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ وأسهم له

وخلف عثمان بن عفان على ابنته ﴿ﷺ وآله﴾ رقية وكانت مريضة، وقيل : لأنه كان مريضا بالجدرى ، ولا مانع من وجود الأمرين ، وقد قال ﴿ﷺ وآله﴾ : إن لك لأجر رجل وسهمه. وكان أبو إمامة بن ثعلبة الأنصارى رضى الله عنه أجمع الخروج إلى بدر وكانت أمه مريضة فأمره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالمقام على أمه .

فرجع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من بدر ، وقد توفيت فصلى على قبرها رضى الله عنها.

وكسر بالروحاء خوات بن جبير ، وقال موسى بن عقبة : خرج خوات بن جبير مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما بلغ الصفراء أصاب ساقه حجر ودميت رجله واعتلت فرجع وضرب له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بسهم .

وأهل الأخبار يقولون: إنه شهد بدرا ، وكسر أيضا الحارث بن الصمة وبعث ﴿ﷺ وآله﴾ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد رضى الله عنهم يتحسسان خبر العير، والتحسس بالحاء المهملة أن يبحص الشخص عن الأخبار بنفسه ، وبالجيم أن يبحص عنها بغيره، (وجاء: لا تحسسوا ولا تجسسوا)، ولم يحضرا لهذا القتال بل رجعا بخب

ر العير إلى المدينة،على ظن أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بالمدينة ، فلما علما أنه عليه الصلاة والسلام ببدر خرجا إليه صلوات الله وسلامه عليه فلقياه منصرفا من بدر وأسهم لكل ، وصار كل من أسهم له يقول : وأجرى يارسول الله ، فيقول : وأجرك .

عقدة الألوية ﴿ﷺ وآله﴾

ودفع ﴿ﷺ وآله﴾ اللواء وكان أبيض إلي مصعب بن عمير ، وكان أمامه ﴿ﷺ وآله﴾ رايتان سوداوتان، أحداهما مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والأخرى مع سعد ابن معاذ، وقيل مع الحباب بن المنذر، وفي الإقناع: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ عقد الأولوية وهى ثلاثة لواء يحمله مصعب بن عمير، ورايتان سوداوتان أحداهما مع علي، والأخرى مع رجل من الأنصار. وفيه إطلاق اللواء علي الراية، وخرج بعض أهل اللغة بترادف اللواء والراية. وكان ﴿ﷺ وآله﴾ خرج من المدينة علي غير لواء معقود، وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ بإحصاء من معه فوجدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا.

ففرح وقال: عدة أصحاب طالوت الذين جازوا النهر معه.

دعاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه

ولبس ﴿ﷺ وآله﴾ درعه ذات الفضول، وتقلد بسيفه العضب، وحين فصل ﴿ﷺ وآله﴾ من بيوت السقيا نظر إلي أصحابه وقال اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك، فما رجع منهم أحد إلا وله البعير والبعيران ،واكسى من كان عارياً ، وأصابوا طعاماً من أزواد قريش ، وأصابوا فداء الأسرى فاغتنى به كل عائل .

هداية المصطفي لأهل الوفا

وكان حبيب بن يساف ذا بأس ونجدة ، ولم يكن أسلم ولكنه خرج نجدة لقومه الخزرج ،طالبا للغنيمة ،ففرح المسلمون بخروجهم معهم فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لا يصحبنا إلا من كان علي ديننا .

وفي رواية ارجع فإنا لا نستعين بمشرك ، وتكررت من حبيب المراجعة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وفي الثالثة قال له : تؤمن بالله ورسوله ، قال : نعم فأسلم وقاتل قتالا شديدا. ولما سار ﴿ﷺ وآله﴾ صام يوما أو يومين ثم نادى مناديه: يامعشر العصاة إني مفطر فأفطروا ، وذلك أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال أفطروا فلم يفطروا.

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ وصحبه يعتقبون البعير

وكانت إبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ التي معهم يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيرا،إلا ما كان من حمزة ، وزيد بن حارثة ، وأبي كبشة، وأنيس مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فإن هؤلاء الأربعة كانوا يعتقبون بعيرا ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر.

وفي الإقناع :فكانوا يتعاقبون الإبل الاثنين والثلاثة والأربعة ، فكان ﴿ﷺ وآله﴾ وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومرثد يعتقبون بعيرا ، وفي لفظ كان أبو لبابة وعلي يعتقبون بعيرا مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وذلك قبل أن يرد أبا لبابة للمدينة من الروحاء ،

وبعد أن رده قام مقامه مرثد وقيل زيد بن حارثة ، وقيل زيد كان مع حمزة ، فكان ﴿ﷺ وآله﴾ إذا كانت عقبته قالا له – أى رفيقاه-: اركب حتى نمشى معك، فيقول ﴿ﷺ وآله﴾ : ما أنتما بأقوى منى علي المشى، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما.

وكان رفاعة وخلاد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصارى يعتقبون بعيرا، حتى إذا كانوا بالروحاء برك بعيرهم عيا، فمر بهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقالو: يارسول الله برك علينا بكرنا، فدعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بماء فتمضمض وألقاه فى إناء.

وفى الإقناع: فتمضمض وتوضأ فى إناء ثم قال: افتح فاه، فصب منه فى فيه، ثم صب باقى ذلك عليه، ثم قال: اركبا ومضا فلحقاه إنه لينفر بهم.

وكان فى الجيش خمسة أفراس، فرسان له ﴿ﷺ وآله﴾ وفرس لمرثد ويقال له السيل، وفرس للمقداد بن الأسود، ونسب إليه لأنه تبناه فى الجاهلية ويقال لها سبحة، وفرس للزبير ويقال له اليعسوب. وقيل: لم يكن في الجيش إلا فرسان، فرس المقداد وفرس الزبير . وعن علي رضي الله عنه ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، يجوز أن يكون لم يقاتل فارسا يوم بدر إلا المقداد، وغيره ممن له فرس قاتل راجلا ، ويؤيده ما يأتى :

أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما قسم الغنيمة لم يميز أحد عن أحد ، الراجل مع الراجل ، والفارس مع الفارس .

المسلمون يتجسسون أخبار العير

وفي أثناء الطريق بعرف الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس ، فلم يجدوا عنده خبرا .

فقال له الناس : سلم علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : أفيكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ قالوا : نعم ، فسلم عليه ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرني بما في بطن ناقتى هذه ؟

فقال له سلامة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقبل علي أنا أخبرك عن ذلك ، نزوت عليها ففى بطنها منك سخلة فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾:. مه أفحشت علي الرجل ثم أعرض عن سلامة .

فلما نزلوا بواد يقال له ظفران ،وهو واد قريب من الصفراء ، أتاه ﴿ﷺ وآله﴾ الخير عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، وكان قد بعث ﴿ﷺ وآله﴾ رجلين يتجسسان أخبار عير أبي سفيان فمضيا حتى نزلا بدر فأناخا إلي تل قريب من الماء وأخذا يستسقيان منه ، فسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها : إن أتانى العير غدا أو بعد غدا أعمل لهم ، أى أخدمهم ، ثم أقضيك الذى لك .

فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبراه بما سمعا .

المشورة بين النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه

فاستشار النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه في طلب العير وفي حرب النفير ، أى القوم النافرين للحرب ، والمعنى أن الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ خير أصحابه رضي الله عنهم بين أن يذهبوا للعير أو إلي محاربة النفير . وأخبرهم عن مسير قريش وقال لهم : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش ،وكانت العير أحب إليهم ليستعينوا بما فيها من الأموال علي شراء الخيل والسلاح قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال:٧). وفى رواية استشار النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه وقال لهم : إن القوم قد خرجوا على كل صعب وذلول أى مسرعين فما تقولون العير أحب إليكم من النفير؟ قالوا : بلى أى قالت طائفة منهم :العير أحب إلينا من لقاء العدو . وفى رواية : هل ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنا خرجنا للعير ، فتغير وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد روى ذلك عن أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (الأنفال:٥).

وعند ذلك قام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد فقال: يارسول الله امض لما أمرك الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول لك يارسول الله : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف، فو الله الذى بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد- وهى مدينة بالحبشة - لجالدنا ، لأى ضربنا بالسيوف معك من دونه حتى نبلغه. وفى لفظ نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك؛ قال ابن مسعود: فرأيت وجه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يشرق لذلك وسر بذلك . وفى الكشاف فضحك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال خيرا ثم دعا ، أى للمقداد بخير .

الشورى فريضة إسلامية

ثم قال : أشيروا على، فقال عمر : يارسول الله إنها قريش وعزها والله ما ذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك . فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته .

وروى ابن هشام عن أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : قال لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ونحن بالمدينة: إنى أخبرت عن عير أبي سفيان فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله يغنمناها ويسلمنا ، قلنا نعم ، فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال : قد أخبروا خبرها فاستعدوا للقتال، فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، فأعاد، فقال المقداد: لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول إنا معكما مقاتلون. قال فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد ، وأنزل الله تعالى فى ذلك: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (الأنفال:٥)

حكمة الشورى

معلوم أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لا ينطق عن الهوى وهو المعصوم حقا ، ولكنه خاتم الرسل وهو لا يغيب عن أمته، وإذا فقدته الأمة فقدت خيرى الدنيا والآخرة ، فهو وإن رفع إلى الرفيق الأعلى بانتقاله إلا أن كتاب الله وسنته﴿ﷺ وآله﴾ ووصاياه لم ترفع وهى ميراثه الذى يتفضل الله تعالى به على الأبدال من آل العزائم كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء:٨٣). وهم الذين عناهم الله بقوله : ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء٥٩). الذين ألهمهم الله تعالى علم مراده فى قدره وفى أحكامه فبينوا للناس أمر دينهم عند وقوع الشبهات ، لذلك اقتضت الحكمة أن يسن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ العمل بالشورى ، ولا يترك المشاورة إلا من يريد الخير لذاته دون غيره.

وهنا ننبه الأمة الإسلامية وبالخصوص الأمة المصرية إلى ترك الخلاف والتوبة من الحسد والطمع والحرص على ما يفنى ، فإن الخلاف إتلاف، خصوصا والعدو الشديد بأسه يقترب إلى أفراد من الأمة يتستر بهم ويكيد للأمة فى صورهم ، فيختفى ويوقع الأمة حتى يهلكها ، فعليكم بالمشاورة اقتداء برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد نتج من ترك المشاورة التفرقة التى تمكن العدو من الأمة ، وكنا جماعة المسلمين جسدا واحدا تتألم الرأس بألم خنصر القدم ، وكم سعى العدو أن يفرق بيننا بالسيف فلم يتمكن، وفى الحروب الصليبية أجمعت أوروبا على قهر المسلمين فرد الله الصليبيين بالخيبة والخسران، ولكنهم كادوا لجماعة من المسلمين بفنون الخديعة والشر مما يسمونه سياسة، ففرقت الجسد الإسلامى وأعانت كل أمة منهم على الأخرى ليضربوا المسلمين ببعضهم، وقد شهدت عيوننا وسمعت أذاننا نصرة عرب الحجاز لأعداء الله تعالى على خليفة رسول الله، واشتراك المصريين والشوام مع الأعداء وقيام رجال الهند والمغرب والعراق لقهر المسلمين، وأكثر من هذا أن يقوم المسلم فيكشف عورات المسلمين للإفرنج ، لا تعجب فإن ترك الشورى

مفارقة للجماعة، وإنى على يقين من أن العرق حساس وكل إنسان ينصر قبيله ، فكل من أعان الإفرنج على المسلمين وتولاهم أقام الحجة على نفسه أنه ابن زنا ، لأنه نصر عدوه على أبيه ، واليد لا تضرب الوجه، نسأل الله أن يطهر جماعة المسلمين من تلك النجاسات.

بيان من هم الذين تجب مشاورتهم

يجب أن يكون أهل الشورى هم الأمة الذين ينالهم الخير ويؤلمهم الشر ، ولا يشاور الأجنبى من الأمة، ولا من عرف بمساعدة العدو، ولا من عرف بالدناءة والتعلق بالحكام، وحجة ذلك أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لما طلب من الصحابة أن يشيروا عليه فتكلم أبو بكر وعمر و لم يلتفت إليهما ، حتى قال سعد رضى الله عنه : لكأنك تريدنا يارسول الله ، لأنه أحرص الناس على الخير لأنفسهم ، وأقوى الناس دفعا للعدو عن بلادهم، لذلك يجب أن تسرع الأمة المصرية فى تكوين كتلة وطنية للاستشارة، لتتضح الوسيلة التى بها يعود المجد للأمة وإخراج العدو ، بشرط أن تقوم الحجة لأبنائها من رجال الأمة الغيورين على خيرها وعلى أهم ليسوا أعوانا لأعداء الأمة على تمكينهم من الأمة ، وكل مصرى يبيع وطنه وشرفه وعز أبنائه بوظيفة أو مال وصم نفسه بالخزى والذل إلى الأبد، كما حصل لأهل سوريا ومصر والهند الذين لولاهم لانمحت دول الأعداء من على ظهر الأرض ، وهذا جزاء من حارب الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وإخوته المسلمين نصرة لأعدائه، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من أعان ظالما سلطه الله عليه) رواه ابن عساكر .

الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ يطلب رأى الأنصار

ثم قال عليه الصلاة والسلام ثالث مرة : أيها الناس أشيروا على وإنما يريد الأنصار ، لأهم حين بايعوه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالعقبة قالوا: يارسول الله إنا براء من ذمامك أى من ضمان مناصرتك، حتى تصل دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى زمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا ، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يخشى أن تكون الأنصار لا ترى وجوب

نصرته عليها إلا ممن دهمه ، أى جاءه فجأة من العدو بالمدينة فقط ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم عليه الصلاة والسلام من بلادهم إلى العدو .

فلما قال ذلك ، أى كرر قوله: أشيروا على، قال له سعد بن معاذ- وهو سيد الأوس بل هو سيد الأنصار ، قال الزرقانى: كان فيهم كالصديق رضى الله عنه فى المهاجرين :والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال : أجل، أى نعم، قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك .

عهودا ومواثيق على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أمرت.

وفى رواية: ولعلك تخشى أن الأنصار يرون ألا ينصروك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار و أجيب عنهم، ولعلك يارسول الله خرجت لأمر، فأحدث الله غيره، فامض لما شئت واعطنا ما شئت، وما أخذت منا أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع أمرك، ولئن سرت بنا حتى تأتى برك الغماد لنسيرن معك.

وفى رواية: فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلق عدونا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

وروى مسلم أن سعد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله عنه قال: مثل ما قال سعد بن معاذ رضى الله عنه.

الترجيح بين الروايات

ولفظه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استشار الناس حين بلغه إقبال أبى سفيان فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يارسول الله ؟ والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيض ها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها، أى الإبل إلى برك الغماد لفعلنا.

قال الحافظ بن حجر: ويمكن الجمع بأنه﴿ ﷺ وآله﴾، استشارهم مرتين الأولى بالمدينة أول ما بلغه خبر العير فتكلم سعد بن عبادة بما ذكر، والثانية كانت بعد أن خرج فتكلم سعد بن معاذ.

وقال الطبرانى: إن سعد بن عبادة إنما قال ذلك يوم الحديبية، واختلف فى شهوده بدرا.

قال الزرقانى: إن سعد بن عبادة كان يتهيأ للخروج إلى بدر ويأتى دور الأنصار ويحضهم على الخروج، فنهش إلى لدغته حية قبل أن يخرج فأقام.

فقال﴿ ﷺ وآله﴾: لئن كان سعد لم يشهدها، لقد كان عليها حريصا ثم ضرب له بسهمه وأجره.

كما أن عثمان بن عفان رضى الله عنه تخلف لتمريض زوجته، وجعل له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أجر رجل وسهمه.

فهما معدودان من البدريين وإن لم يحضرا رضى الله عنهما.

إعلامه﴿ ﷺ وآله﴾ بمن يقتل فى بدر وبمضاجعهم

روى البخارى ما حدث به عمرو بن ميمون أنه سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حدث عن سعد بن معاذ فقال، كان صديقا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا نزل بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ انطلق سعد معتمرا، فترل على أمية بمكة، نصف النهار. فلقيهما أبو جهل، فقال يأبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا، وقد أويتم الصابئة وزعمتم أنكم تنصروهم وتعينوهم، أما والله لولا أنك مع صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً فقال له سعد ورفع صوته عليه:أما والله لئن منعتنى لأمنعك ما هو أشد عليك من طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك ياسعد على أبى الحكم سيد أهل الوادى، فقال سعد: دعنا عنك ياأمية فو الله لقد سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: إنهم قاتلوك، قال: بمكة؟ قال: لا أدرى، ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً. فلما رجع أمية إلى أهله قال: ياأم صفوان ألم ترى ما قال سعد؟قالت:وما قال لك؟قال زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتليّ، فقلت له: بمكة، قال لا أدرى، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة. فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: ياأبا صفوان إنك متى ما يراك الناس تخلفت وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتنى فو الله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: ياأم صفوان جهزينى، فقالت له: ياأبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى، قال لها: ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا.

فلما خرج أمية، أخذ لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر.

سيروا على بركة الله

ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين، إما العير وإما النفير، أى وقد فاتت العير، فلا بد من الطائفة الأخرى.

لأن وعد الله لا يتخلف، ويشير على هذا قوله عليه الصلاة والسلام: والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم، أى الذين يقتلون ببدر ولما وصلوا إلى بدر، أراهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مواضع مصارعهم، أى فقد أعلمه الله سبحانه بعد وعده بذلك بالظفر بالطائفة الثانية وأراه مصارعهم.

فعلم القوم أنهم ملاقون القتال وأن العير لا تحصل لهم.

روى مسلم عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال عمر رضى الله تعالى عنه: إن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ليرينا مصارع القوم أهل بدر ويقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى ويضع يده على الأرض ها هنا وها هنا.

فما أماط أحدهم، أى ما تنحى، عن موضع يده الشريفة عليه الصلاة والسلام فهو معجزة ظاهرة.

الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وسرايا الاستطلاع

ثم ارتحل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من ذفران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب ﴿ ﷺ وآله﴾ هو وأبو بكر رضى الله عنه ، وقيل أبو قتادة بن النعمان وقيل معاذ بن جبل حتى وقفا على شيخ من العرب يقال له سفيان ، فسأله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن قريش وعن محمد وأصحابه ، وما بلغه عنهم .

فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما ، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، فقال الشيخ : ذاك بذاك ، قال : نعم .

قال : فإنه قد بلغنى أن محمدا وأصحابه ، خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذى أخبرنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى نزل به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه .

وبلغنى أن قريشا، خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذى أخبرنى صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى نزلت به قريش .

فلما فرغ من خبره قال : من أنتما ؟ فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : نحن من ماء ، اى ماء دافق وهو المنى – ثم إنصرفا عنه، ثم رجع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى أصحابه

ودعى لهم فقال : (اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم أنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم) .

من سرايا الاستطلاع الليلى

فلما أمسى ﴿ ﷺ وآله﴾ بعث عليا بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه رضى الله تعالى عنهم ،إلى بدر يلتمسون الخبر ، فأصابوا رواية لقريش معها غلام لنبيه ومنبه إبنى الحجاج ، وغلام لبنى العاص ، فأتوا بهما ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قائم يصلى .

فقالوا : لمن أنتما ؟ وظنوهما لأبى سفيان، فقالوا : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فقربوهما ، فلما أوجعوهما ضربا ، قالا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما، فلم فرغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من صلاته قال:من صلاته قال:إذا صدقاكم ضربتوهما ، وإن كذباكم تركتموهما .

صدق والله إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش ، قالا: هم وراء هذا الكثيب ، أى التل من الرمال ، الذى بالعدوة القصوى ، أى جانب الوادى المرتفع ، فقال لهما رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : كم القوم ؟ قالوا : كثير ، وفى لفظ : هم والله كثير عددهم ، شديد بأسهم ، قال: ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى .

الفراسة المحمدية

وجهد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخبراه كم هم ؟ فأبيا ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : كم تنحرون من الجزر كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : القوم ما بين التسعمائة والألف أى لكل جزور مائة ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البحترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل ابن خويلد ، والحرث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحرث

، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه إبنا الحجاج ، وسهل بن عمرو العامرى رضى الله عنه فإنه أسلم يوم الفتح وهو من أشراف قريش وخطبائهم ، وعمر بن عبد ود .

حث الهمم لدفع النقم

فأقبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على الناس فقال:هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها، أى قطع كبدها ، أى أشرافها وعظماءها ، وذكر أن مسيرهم وإقامتهم كانت عشر ليال حتى بلغوا الجحفة و هى قرية بقرب رابغ، نزلوا بها عشاء ، وكان مع قريش رجل يقال له جهم بن الصلت رضى الله عنه فإنه أسلم فى عام خيبر ، وقيل أسلم بعد الفتح .

رؤيا جهم بن الصلت

وضع جهم بن الصلت هذا رأسه فأغفى ، ثم قام فزعا فقال لأصحابه :هل رأيتم الفارس الذى وقف على ؟ فقالوا : لا ، قال : قد وقف على فارس فقال قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البحترى وأمية بن خلف وفلان وفلان ، وعد رجالا من أشراف قريش ممن قتل يوم بدر .

وقال: أسر سهيل بن عمرو وفلان وفلان ، وعد رجالا ممن أسر ، قال : ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه ، فقال له أصحابه : إنما لعب بك الشيطان . ولما شاعت هذه الرؤيا فى العسكر وبلغت أبا جهل قال : قد جئتم بكذب بنى عبد المطلب مع كذب بنى هاشم و سيرون غدا من يقتل ، وفى لفظ قال أبو جهل :هذا نبى آخر من بنى المطلب ، سيعلم غدا من المقتول نحن أو محمد وأصحابه .

منزل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى بدر وما فيه من الآيات

ثم لم يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من الماء ، و العدوة جانب الوادى وحافته والمكان المرتفع ، و القصوى البعد من المدينة التى هى أبعد من الأخرى عن المدينة.

ونزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعيدا عن الماء ، بينه وبين الماء رحلة ، فظمئ المسلمون وأصابهم ضيق شديد وأجنب غالبهم وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ فوسوس إليهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وأنكم على الحق ، وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش وتصلون مجنبين وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم ، فيحكموا فيكم كيف شاءوا .

وفى الكشاف : فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ، وحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا وكان الوادى دهسا أى لينا كثير التراب ، تسيخ فيه الأقدام وحوافر الدواب .

وسبقهم المشركون إلى ماء بدر ، فأحرزوه ، و حفروا القلب لأنفسهم ليجعلوا فيها الماء من الآبار المعينة فيشربوا منها ويسقوا دوابهم ، ومع ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب والخوف حتى صاروا يضربون وجوه خيلهم إذا صهلت من شدة الخوف. وألقى الله الأمنة والنوم على المسلمين ، بحيث لم يقدروا على منعه وبعث الله السماء ، أى المطر ، فأطفأت الغبار ، ولبدت الأرض ، أى شدها للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ولأصحابه وطهرهم به وأذهب عنهم رجز الشيطان ، أى وسوسته ورد الله كيده فى نحره ، وشربوا منه ، وملأوا الأسقية ، وسقوا الركائب ، واغتسلوا من الجنابة ، وطابت نفوسهم ، وضر ذلك بالمشركين لكون أرضهم كانت سهلة لينة وأصابهم ما لم يقدروا معه على الارتحال فكان المطر نعمة وقوة للمؤمنين ، وبلاء ونقمة للمشركين .

دلالة الآيات القرآنية فى بدر

قال الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ۝ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الآيات من (٩-١٣ سورة الأنفال)

عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يدعوا على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى إذهب أنت وقومك فقاتلا ، .

ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أشرق وجهه وسره، يعنى قوله .

وعن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم بدر : اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك، فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر .

وقد أشار سبحانه بقوله ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى بالصبر على مجادلة العدو بالوثوق على لطف الله ، ويثبت به الأقدام حتى لا تسوخ فى الرمال .

وعن على ؑ قال: أصابنا من الليل طش من مطر ، فانطلقنا تحت الشجر والجحف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يدعو ربه .

وعنه أيضا ﵇ : ما كان فينا – أى تلك الليلة – قائم إلا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تحت شجرة ويكثر فى سجوده أن يقول : ياحى ياقيوم يكرر ذلك حتى أصبح . أى لأن المسلمين أصابهم تلك الليلة نعاس شديد يلقى الشخص على جنبه .

وعن قتادة : كان النعاس يوم أحد وكان كله آمنة ، لكنه فى بدر كان ليلا قبل القتال ، وفى أحد كان وقت القتال .

قال ابن مسعود : النعاس فى مصاف القتال من الإيمان ، والنعاس فى الصلاة من النفاق ، لأنه فى الأول يدل على الجنان ، وفى الثانى يدل على عدم الإهتمام بالصلاة .

قال على رضى الله عنه : فلما أن طلع الفجر نادى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الصلاة عباد الله ، فجاء الناس من تحت الشجر والجحف فصلى بنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ثم خطب وحض على القتال فى خطبته ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد فانى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، إلى أن قال : وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ...... الحديث .

مشورة الصحابى الجليل

الحباب بن المنذر

قال ابن اسحق : خرج ﴿ﷺ وآله﴾ يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر فترل به ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح رضى الله عنه : يارسول الله أهذا مترل أنزله الله تعالى لا نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال ﴿ﷺ وآله﴾: بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال: فإن هذا ليس بمترل فاهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه ، فنترل به ثم نغور ما وراءه من القلب أى ندفنها ثم نبنى على مائنا فنملؤه ماء

فنشرب ولا يشربون ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أشرت بالرأى ، وفى رواية فترل جبريل فقال : الرأى ما أشار به الحباب .

فنهض ﴿ﷺ وآله﴾ ومن معه من الناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فترل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

وفى رواية : ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم فغلبوهم على الماء ، وأغاروا القلب التى كانت تلى العدو ، فعطش الكفار ، وجاء النصر، وهذا كله إنما حصل بعد إشارة الحباب رضى الله عنه، ومن يومئذ قيل الحباب : ذو الرأى .. رضى الله عنه . وفى كلام بعضهم أنهم نزلوا على ذلك القليب نصف الليل فصنعوا الحوض وملأوه ، وقذفوا فيه الآنية بعد أن استقوا منه رضى الله عنهم .

بناء العريش للنبى﴿ﷺ وآله﴾

وبعد أن استقر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه رضى الله عنهم بالموضع الذى أشار به الحباب قال سعد بن معاذ رضى الله عنه : يارسول الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه وندع عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام .

يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه ﴿ﷺ وآله﴾ خيرا ودعا له بخير. وقال: يقض الله خيرا من ذلك ياسعد، أى وهو نصرهم وظهورهم، ثم بنى له ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك العريش،فوق تل مشرف على المعركة.

وكان ﴿ﷺ وآله﴾ وأبو بكر رضى الله عنه.

دعاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على كفار قريش

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: استقبل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ الكعبة فدعا على نفر من قريش على شيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبو جهل بن هشام وهلاكهم.

فأشهد بالله لقد رأيتم صرعى، قد غيرتهم الشمس وكان يوما حارا فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكثيب.

وهذا يؤيد القول بأنه ﴿ﷺ وآله﴾ سار بأصحابه ليلا يبادرهم إلى الماء، ولما رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾قريشا قد أقبلت بالدروع الساترة، والجموع الوافرة، والأسلحة الشاكية، أى التامة قال: اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها، أى كبرها وعجبها وفخرها، تحاد لك، أى تعاديك، وتخالف أمرك، وتكذب رسولك فنصرك، أى أنجز نصرك، الذى وعتنى به، وفى لفظ: اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتنى بالثبات ووعدتنى إحدى الطائفتين، أى وقد فأتت إحداهما وهى العير، وإنك لا تخلف الميعاد. اللهم أحنهم الغداة أى أهلكهم.

وفى رواية: اللهم لا تفلتن أبا جهل فرعون هذه الأمة، اللهم لا تفلتن زمعة بن الأسود، اللهم واسحق عين وأبى زمعة، واعمى بصر أبو زمعة، اللهم لا تفلتن سهيلا... الحديث.

ليلة محق الظلم

بليلة فرقان بها الحقُّ قد علا ... وبالنور ظلم الظلم والكفر قد جلا
بها الفرد نادى ضارعا يرجُ نصرة ... دعاك بعزم صادق متبتلا
فلبيتَه بحنانة وتعطف ... وكنتَ له غوثاً مغيثا وموئلا
هزمتَ جيوشَ الكفر بالقهر عندما ... توجه مضطرا إليك وسائلا
تنزلت الأملاكُ للنصر عندها ... ووافى له الفرقانُ منك مفصلا
وها أنا مضطر أناديك عائذاً ... أناديك للفضل الإلهى آملا

وأسألُ مبتهلا بذلى وفاقتى   فهب لى بمحض الود منك تنزلا
بليلة فرقان برمضان خصصت   وها نحن فيها أعطنا الفضل والعلا
بُروحك أيدنا وبالنور عمنا   ومقعد صدق فاجعَلَنْ لى منزلا
ووسع لنا الأرزاقَ منك وهب لنا   جمالاً وإحساناً وفضلاً ونائلا
وبالحفظ حَصَّنَّا من الشر كله   وبالوجه واجهنا وبالفضل عاملا
وصل على الفرد المراد الذى به   بفضلك والرضوان صرتُ مجملا

عمير بن وهب عين قريش

ولما اطمأنت قريش أرسلوا عمير بن وهب الجحمى رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وشهد أحد معه ﴿ﷺ وآله﴾ فقالو: احرز لنا أصحاب محمد أى أنظر لنا عدهم، فاستجال بفرسه حول عسكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمينا أو مددا.

فذهب إلى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا من حواليهم، وقال: ما رأيت شيئا، ولكنى قد رأيت يامعشر قريش البلايا، أى وهى فى الأصل النوق، تبرق على قبر صاحبها فلا تعلف ولا تقى حتى تموت تحمل المنايا، أى الموت.. نواضح .

يثرب تحمل الموت الناقع أى البالغ، زاد بعضهم ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعى لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم، زرق العيون، كأنهم الحصى تحت الجحف. يعنى الأنصار قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما نرى أن نقتل منهم رجلا حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك، فتروا رأيكم. فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال: ياأبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تذكر بخير فيها إلى آخر الدهر، قال: وما ذاك ياحكيم؟ قال: ترجع بالناس. فقام عتبة خطيبا فقال

يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون أن تلقوا محمد وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم.

وإن كان غير ذلك أكفاكم و لم تعرضوا منه ما تريدون، إى ياقوم اعصبوها اليوم برأسى، أى اجعلوا عارها متعلقا بى، وقولوا جبن عتبة، وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم، وفى لفظ آخر أن حكيم بن حزام قال لعتبة بن ربيعة: تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى- أى الذى قتله واقد بن عبد الله فى سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة وهو أول قتيل قتله المسلمون- وتحمل ما أصاب محمد من تلك العير، أى الذى غنمه عبد الله بن جحش، فإهم لا يطلبون من محمد إلا ذلك. فقال عتبة: نعم قد فعلت، أى هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من المال ونعم ما قلت ونعم ما دعوت إليه. وركب عتبة جملا له يجيله فى صفوف قريش يقول : ياقوم أطيعونى فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمى وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك . وزاد بعضهم أنه قال : يامعشر قريش أنشدكم الله فى هذه الوجوه التى تضئ ضياء المصابيح- يعنى قريشا- أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنها عيون الحيات يعنى الأنصار . وهذا كما ترى وما يأتى يضعف قول من قال : إنه ﴿ﷺ وآله﴾ عقل ابن الحضرمى ، أى أعطى ديته . وقد كان ﴿ﷺ وآله﴾ لما رأى قريشا ، أقبلت من الكثيب وعتبة على جمل أحمر قال : إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، وفى رواية : إن يكن أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا.

نبوءته ﴿ﷺ وآله﴾بحديث صاحب الجمل الأحمر

ولما رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ صاحب الجمل الأحمر يجيله فى صفوف قريش قال : ياعلى ناد حمزة، وكان أقربهم إلى المشركين، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من صاحب الجمل الأحمر وماذا يقول؟ فقال : هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال وحينئذ

يكون قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ إن يكن فى أحد من القوم خير الخ من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾.

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : انطلق لابن الحنظلية يعنى أبا جهل ، قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد سل درعا له من جرابها ، أى أخرجها منه ، فقلت : يأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا للذى قال ، فقال : انتفخ والله سحره، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وقال لحكيم : ما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور أى فى قلة بحيث يكفيهم الجزور وفيهم ابنه وهو أبو حذيفة – رضى الله تعالى عنه فإنه كان ممن أسلم قديما – فقد تخوفكم عليه ، وفى رواية أنه قال : يامعشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا لأن ابنه مع محمد، ومحمد ابن عمه فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه ؛ فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال : سيعلم أينا أفسد لقومه

سر التصوير الإلهى أمام العيون

وكان من حكمة الله تعالى أن الله جعل المسلمين قبل أن يلتحم القتال فى أعين المشركين قليلا ، استدراجا لهم ليقدموا ، ولما التحم القتال فى أعين المشركين كثيرا ، ليحصل لهم الرعب والوهن ، وجعل الله المشركين عند التحام القتال فى أعين المسلمين قليلا ، ليقوى جأشهم على مقاتلتهم ؛ ومن ثم جاء عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر ، حتى قلت لرجل:أتراهم سبعين؟ قال:أراهم مائة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا ﴾ (الأنفال :٤٤) . وقال الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ (آل عمران : ١٣). أى يرى أولئك الكفار المؤمنين مثليهم رأى العين .

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ إسلام قباث بن أشيم

وقد ذكر أن قباث بن أشيم – رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك – قال فى نفسه يوم بدر : لو خرجت نساء قريش بأكملها لردت محمدا وأصحابه ، وعنه أنه قال لما كان بعد الخندق: قدمت المدينة سألت عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقالوا: هو ذاك في محل المسجد مع ملأ من أصحابه ، فأتيته وأنا لا أعرفه من بينهم ، فسلمت عليه فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : ياقباث أنت القائل يوم بدر لو خرجت نساء قريش بأكمتها ردت محمدا وأصحابه ، فقال قباث: والذى بعثك بالحق ما تحدث به لسانى ولا ترفرفت به شفتاى، ولا سمعه منى أحد ، وما هو إلا شئ هجس فى نفسى ، وحينئذ- يكون معنى قوله ﴿ﷺ وآله﴾ أنت القائل أى فى نفسك- أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأن ما جئت به الحق.

عناد أبي جهل وتسامح النبى ﴿ﷺ وآله﴾

وذكر أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليهم يقول : ارجعوا فإنه إن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه منى . فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفا ، فاقبلوه فو الله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف .فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم ، ثم إن أبا جهل بعث إلى عامر بن الحضرمى أخو المقتول الذى هو عمرو، وقال : هذا حليفك يعنى عتبة يريد أن يخذل الناس عن القتال، وقد تحمل دية أخيك من ماله ، يزعم أنك قابلها ، ألا تستحى أن تقبل الدية من مال عتبة، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم واذكر مقتل أخيك . فقام عامر وكان من حلفاء عتبة ، فاكتشف وحثا عليه التراب ، ثم صرخ وا عمراه وا عمراه . فثارت النفوس، وعامر هذا لا يعلم له إسلام . وفى الاستيعاب : عامر بن الحضرمى قتل يوم بدر كافرا ، وأما العلاء الحضرمى أخوه فمن فضلاء الصحابة رضى الله عنهم وقد كان مجاب الدعوة رضى الله تعالى عنه .

أول أهـــــــل اليمـــــــين

ثم إن الأسود بن الأسد المخزومى – وهو أخو أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد وكان رجلا شرسا سيئ الخلق ، شديد العداوة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وجاء أنه أول من يعطى كتابه بشماله ، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه بيمينه – قال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه ، فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه أى أسرع قطعها فطارت وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دما ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، أى وشرب منه ، وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه ، فاتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض .

نبوءة المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ بمصرع الواردين

وأقبل نفر من قريش، حتى وردوا ذلك الحوض منهم حكيم بن حزام فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : دعوه ، فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل كافرا إلا ما كان من حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجانى يوم بدر

قريش تطلب المبارزة

ثم إن عتبة بن ربيعة ، التمس بيضة أى خوذة ليدخلها فى رأسه فما وجد فى الجيش بيضة تسع رأسه لعظمها ، فاعتجر على رأسه ببرد له ، أى تعمم به ، ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئا وخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة، فخرج إليه فتية ثلاثة من الأنصار أشقاء هم معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء رضى الله تعالى عنهم، وقيل: بدل عوف عبدالله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، وفى رواية: أكفاء كرام إنما نريد قومنا، وفى لفظ آخر: أخرجوا إلينا من بنى عمنا، وفى لفظ: أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمرهم بالرجوع،

فرجعوا إلى مصافهم، وقال لهم خيرا، لأنه كره أن تكون الشوكة لغير بنى عمه وقومه فى أول القتال وعند ذلك نادى مناديهم: يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: قم ياعبيدة بن الحرث وقم ياحمزة وقم ياعلى، وفى لفظ: قوما يابنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى به نبيكم إذ جاءوا ببطلاهم ليطفئوا نور الله، قم ياعبيدة بن الحرث قم ياحمزة قم ياعلى، فلما قاموا ودنوا قالوا لهم: من أنتم؟ أى لأنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح. قال عبيدة: عبيدة. وقال حمزة: حمزة. وقال على: على. قالوا نعم أكفاء كرام. فبارز عبيدة بن الحرث وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على الوليد. فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وأما على فلم يمهل أن قتل وليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فدفعاه واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه أى وأضجعوه إلى جانب موقفة، ﴿ﷺ وآله﴾ فأفرشه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قدمه الشريفة فوضع خده عليه وقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أشهد أنك شهيد، أى بعد أن قال له عبيدة: ألست شهيدا يارسول الله؟. فتوفى فى الصفراء ودفن بها عند مرجع المسلمين إلى المدينة.

وعن على ﵇ قال: أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحرث على الوليد فلم يعب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ علينا ذلك.

وكانت هذه المبارزة هى أول مبارزة فى الإسلام.

الجيش وتوجيهات القائد ﴿ﷺ وآله﴾

عن عبد الرحمن بن عوف قال: صفنا رسول الله يوم بدر بقدح فى يده أى سهم لا نصل له ولا ريش فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر إليهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: معى معى، ثم لما عدل الصفوف قال لهم: إن دنا القوم منكم فانضحوهم أى ادفعوهم عنكم بالنبل، واستبقوا نبلكم أى لا ترموهم على بعد فإن الرمى مع البعد غالبا يخطئ، فيضيع النبل بلا فائدة، وقال لهم: لا تسلوا السيوف حتى يغشوكم، وخطبهم خطبة حثهم

فيها على الجهاد وعلى المصابرة فيه، منها: (وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله عز وجل به الهم وينجى به من الغم) وهذا السياق يدل عل تكرار الخطبة منه ﴿ﷺ وآله﴾، ولا مانع منه، ثم رجع ﴿ﷺ وآله﴾ إلى العريش، فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار، يخافون على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كرة العدو، والنجائب مهيأ لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، إن احتاج إليها ركبها عليه الصلاة والسلام.

روى البخارى عن حمزة بن أسيد، والزبير بن المنذر بن أبى أسيد عن أبى أسيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله لنا يوم بدر: إذا اكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم.

صور

من بطولات إسلامية

فدائية الصغار تسقى أبا جهل البوار

عن عبد الرحمن بن عوف: إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى ،فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانهما إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه: ياعم أرنى أبا جهل، قلت: ياابن أخى وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه فقال: لى الآخر سرا من صاحبه مثله قال: فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

كرامات الأولياء من الصحابة الأجلاء

عن أبى هريرة قال: بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عشرة عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى جد عاصم بن عمر بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدة بين عسفان ومكة، ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا له بقريب من مائة رجل رام.

فاقتصدوا آثارهم، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فاعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق، أن لا نقتل منكم أحد، فقال عاصم بن ثابت: أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر، ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﴿ﷺ وآله﴾ ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما ،ونزل إليهم ثلاثة نفر علي العهد والميثاق منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فلما استكمنوا منهم ، أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها .

قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن لي بهؤلاء أسوة ،يريد القتلى ، فجردوه وعالجوه ، فأبى أن يصحبهم ، فانطلق بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوها ، بعد وقعة بدر فابتاع بنو الحرث بن عامر بن نوفل خبيبا ، وكان خبيب هو الذى قتل الحرث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسير ، حتى أجمعوا قتله فاستعار من بعض بنات الحرث موسى يستحد بها ،فأعارته . فدرج بنى لها — وهى غافلة — حتى أتاه فوجدته مجلسه علي فخذه والموسى بيده ، قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك . قلت : والله ما رأيت أسير قط خير من خبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : لرزق ساقه الله خبيبا فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب : دعونى أصلى ركعتين فتركوه ،فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع ، لزدت ،ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ثم أنشأ يقول:

ولست أبالى حين أقتل مسلما   علي أى جنب كان في الله مصرعى
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك علي أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبوا سروعة عقبة بن الحرث فقتله ، وكان خبيب هو الذى سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة وأخبر أصحابه يوم أصيبوا خبرهم .

وبعث ناس من قريش إلي عاصم بن ثابت حين حدثوا أنه قتل أن يؤتوا بشئ منه يعرف ، وكان قتل رجلا عظيما من عظمائهم .

فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدبر فحمته ، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئا ، وكان قد نزر الله تعالى أن لا يمس مشركا ، وسأل الله تعالى أن لا يمسه مشرك ... أليس في خبيب وفي عاصم بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين كرامات الله لأصفيائه وأوليائه ؟ .

التوسل بآل بدر

أيا منزل الأملاك ليلة فرقان   ومن نصرَ المختارَ بالقرآن
ومن هزم الأعداء شتت شملهم   وهم كثرة في ثورة الطغيان
إليك أتى المضطرُّ في شيخوخة   وفي السقم يرجو واسعَ الإحسان
بأفرادِ بدرٍ مَن إلي الله سارَعوا   فأجلوا ظلامَ الشركِ والكفران
دعاهم رسول الله لبوا نداءَه   وفروا بإخلاص إلي الرحمن
توسلت مضطرًا وقلبي موقن   بنبل الرضا والفضل من منان
لقد بلغت منا القلوب حناجرًا   أغثنا وفَرّقْ عصبةَ الشيطان
لقد طعنوا في الدين جاسوا ديارنا   وتابعهم ظلمَّا أولو البهتان
ألا أسْعِرنْ نارَ الحروب حمية   وقذف شواظ القهر والبركان
حنانيك جدد دينَ أكمل مرسل   وأظهر كما بشرتَ في التبيان
شريعتك اللهم أعل ضياءها   ومكن لنا بالحق كل مكان
وجدد بنا المنهاجَ بالآية التى   بها تقهرُ الأعداءَ بالنيران
وعنا ادفَعنْ سقمًا وفقرًا وشدة   ووسع لنا النعمى بحصن أمان

حارثة في الفردوس الأعلى

ولما اصطف الناس للقتال ، رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال : لا أفر إلا إن فر هذا الحجر ، وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب فقتله عامر بن الخضرمى بسهم أرسله إليه .

ونقل بعض المشايخ أنه أول من يدعى من شهداء هذه الأمة ، وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال يومئذ : مهجع سيد الشهداء ، أى من هذه الأمة . وكون مهجع أول قتيل من المسلمين ، لا ينافي كون أول قتيل من المسلمين عمير بن الحمام لأن ذاك أول قتيل من المهاجرين ، وعمير أول قتيل من الأنصار ، ولا ينافى ذلك أن أول قتيل من الأنصار حارثة بن قيس أى قتل بسهم لم يدر راميه .

ففى البخارى عن حميد قال سمعت أنسا يقول أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام ، قتل بإرسال سهم إليه ، أى فإنه أصابه سهم غرب لا يعرف راميه ، وهو يشرب من الحوض.

وقد جاءت أم حارثة – وهي عمة أنس بن مالك رضي الله عنه – إلي النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالت : يارسول الله حدثنى عن حارثة فإن يكن في الجنة لم أبك عليه ولكن أحزن ، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في دار الدنيا .

وفي رواية : إن يكن في الجنة صبرت، وإن يكن غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . فقال : ياأم حارثة إنها ليست بجنة ولكنها جنات ، وحارثة في الفردوس الأعلى ،فرجعت وهى تضحك وتقول : بخ بخ لك ياحارثة .

وفى رواية زاد، ودعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بإناء من ماء فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أم حارث فشربت، ثم ناولت ابنتها فشربت، ثم أمرهما ينضحان فى جيوبهما، ففعلتا، ثم رجعتا من عند النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وما بالمدينة امرأتان أقر علينا منهما ولا أسر.. رضى الله عنهما.

حارثة من أصحاب الحقيقية

وقد كان حارثة رضى الله عنه سأل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يدعو له بالشهادة فقد جاء أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لحارثة يوما وقد كان استقبله: كيف أصبحت ياحارثة؟

قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: انظر ما تقول فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك.

قال: يارسول الله عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى، فكأنى بعرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها.

قال ﴿ﷺ وآله﴾: أبصرت أو عرفت فالزم، عبد نور الله قلبه.

وفى رواية: بذر الله الإيمان فى قلبه؛ قال: فقلت ادع الله لى بالشهادة، فدعا له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك.

وقال أبو جهل وأصحابه حين قتل عتبة وشيبة والوليد تعبدا: لنا العزى ولا عزى لكم؛ ونادى منادى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: لنا مولانا ولا مولى لكم، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يناشد مولاه

وصار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يناشد ربه، ما وعده من النصر.

وقول البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال وهو فى قبة(العريش) يوم بدر: اللهم أنشدك وعدك...الحديث.

ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة (الصحبة) اليوم فلا تعبد، وفى مسلم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: اللهم إنك أن تشأ لا تعبد فى الأرض، قال ذلك يوم أحد.

وفى رواية: اللهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك، ولا يقوم لك دين، أى لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ آخر النبيين، فإذا قتل هو ومن معه ﴿ﷺ وآله﴾ لا يبقى من يتعبد بهذه الشريعة.

وفى لفظ آخر : اللهم لا تودع منى ولا تخذلنى، أنشدك ما وعدتنى لأنه كان سبحانه وعده النصر.

وفى رواية: ما زال يدعو مادا يده مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبة، فأخذ أبو بكر رداءه، وألقاه فى منكبة، ثم التزمه من ورائه وقال: يانبى الله كفاك تناشد ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.

وفى رواية: والله لينصرنك والله وليبيضن وجهك.

وفى لفظ: قد ألححت على ربك، وكون وعد الله لا يتخلف، لا ينافى الإلحاح فى الدعاء، لأن الله عز وجل يحب الملحين فى الدعاء، وإنما قال أبو بكر رضى الله عنه ذلك لأنه شق تعب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى إلحاحه فى الدعاء، لأنه رضى الله عنه رقيق القلب شديد الإشفاق على النبى ﴿ﷺ وآله﴾.

وقيل: لأن الصديق كان فى تلك الساعة فى مقام الرجاء، والنبى ﴿ﷺ وآله﴾ كان فى مقام الخوف، لأن الله يفعل ما يشاء.

أسرار ليلة الفرقان

روحى اشهدى ليلة الفرقان أسرارا   تطمئن القلبَ تجلى ثَمَّ أنوارا
ويا لسانى فترجم ليلة الذكرى   عمن أنال الرضا والنصر أخيارا
أفراد بدر وأصحاب النبى ومن   قد أظهروا الدين بالإقدام إظهارا
ذكرى ولكنها تجلى لنا المعنى   ترى القلوب شهود العين أقدارا
لبى الإلهُ رسولَ الله يسأله   أن يمنح النصر آلا بل وأنصارا
وافت ملائكة بالنصر يقدمهم   جبريل يهلك أعداء وكفارا
أدعوك فى ليلة الذكرى تمن لنا   بالنصر تمحنا خيراً وإيثارا
مولاى أيدنا بالروح قربنا   أعط القبول وخير منك مدرارا

أدعوك معتقدا نيل القبول ولى   قصد أرى منعمًا برا وغفارا
افتح كنوزَك بالإحسان جملنا   حتى أرى غافرًا برًا وستارا
فى دار دنيا فوفقنى لما ترضى   فى دار أخرى أخ لى الوجه أنوارا
فى مقعد الصدق أنزلنى وأنسنى   حتى أرى المصطفى والآل أنصارا
عمر بنورك قلبى يسرن أمرى   بالشرع جملنى حالا وأسفارا

المدد الملائكي تأييد الله

وحين رأى المسلمون القتال قد نشب عجوا بالدعاء إلى الله تعالى.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه: ما سمعنا مناشدا ينشد ضالته أشد من مناشدة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لربه يوم بدر: اللهم أنشدك ما وعدتنى، فأنزل الله تعالى عند ذلك قوله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩). أى متتابعين ، وقيل: ردف مدد لكم، وقيل: وراء كل ملك ملك آخر.

ويوافق ذلك ما جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: أمد الله نبيه يوم بدر، بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة، وميكائيل فى خمسمائة، فأمده الله تعالى بالملائكة ألف مع جبريل وألف مع ميكائيل.

وجاء: أمده الله بثلاثة آلاف، مع جبريل ألف، وإسرافيل ألف، وميكائيل ألف، وهذا رواه البيهقى فى الدلائل عن الإمام على عليه السلام.

وقيل: وعدهم الله تعالى أن يمدهم بألف ثم زيدوا فى الوعد بألفين، وقيل: أمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة ثم أكملهم خمسة قال تعالى﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِين ﴾(آل عمران:١٢٤). أى ألف مع جبريل و ألف مع ميكائيل و ألف مع إسرافيل ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

قال : ذلك يوم بدر على ما عليه الأكثر، وقيل: كان الإمداد بثلاثة آلاف يوم أحد معلقا على شرط التقوى والصبر عن حوز الغنائم.

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه أن يوم بدر وقع نمل من السماء قد سد الأفق، فإذا الوادى يسيل نملا نازلا من السماء، فوقع فى نفسى أن هذا شئ أيد الله تعالى به نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ وهى الملائكة عليهم السلام.

وعن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود مبثوث حتى امتلأ الوادى فلم أشك أنها الملائكة فلم يكن إلا هزيمة القوم. (والبجاد كساء مخطط من أكسية الأعراب ووقع مثل ذلك فى حنين).

البخارى وشهود الملائكة بدرا

عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها . قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة .

وعن معاذ بن رفاعة بن رافع –وكان رفاعة من أهل بدر ورافع من أهل العقبة – فكان يقول لابنه: ما يسرنى أنى شهدت بدرا بالعقبة .. قال سأل جبريل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بهذا .

وعن يحى سمع معاذ بن رفاعة : أن ملكا سأل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

وعن يحى أن زيد بن الهادى أخبره أنه كان معه يوم حدثه معاذ هذا الحديث فقال زيد : قال معاذ : إن السائل هو جبريل عليه السلام .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال يوم بدر : هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه آلة الحرب . وإنما نزلت الملائكة تشريفا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأمته.

وكانت شركاء لهم فى بعض الفعل ليكون منسوبا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه ، ولأن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه كما فعل بمدائن قوم لوط .

وأهلك قوم صالح وثمود بصيحة واحدة .

وكان إنزال الجن من خواصه ﴿ﷺ وآله﴾ تشريفا و لم يقع ذلك لغيره صلوات الله وسلامه عليه .

وجاء فى حديث مرسل : ما رؤى الشيطان أحقر ولا أدحر ولا أصغر من يوم عرفة إلا ما رؤى يوم بدر .

ألا سارعى بالتوب كى تشهدى بدرا ... فقد وهب القهارُ للخيرة النصرا
لقد شهد الأفرادُ بدرًا فجددوا ... لنا وهم مجدَ الفتوةِ والفخرا
قليلاً نعم كانوا وأعداء ربنا ... كثير ورب العرش أحيا لنا ذكرى
بليلة فرقان ملائكة السما ... لقد نزلوا للنصر نلنا بهم خيرا
لقد أيدوا الدين الحنيفىّ أظهروا ... بإخلاصهم نورًا يدوم لنا دهرًا
وها نحن عدنا للشدائد أدركن ... عبيدَك بالتأييد من جاء مضطرا
أعدها على الإفرنج شتت جموعهم ... فقد طعنوا فى الدين بل أيدوا الكفرا
ألا جدد الإسلام بالنور والهدى ... وبالآى والتأييد ياسيدى يترى
غفلنا وقارفنا الذنوب لجهلنا ... لنا فاغفرن هبنا الهدايةَ والبشرى
فتلك ليالى الصوم فيها بشائر ... وليلة فرقان تعود لنا ذكرى
أيا ليلة الفرقان فيك حقائق ... تذكرنا التأييدَ يرفعنا قدرا
أعيدى لنا الماضى بنصرٍ وعزة ... بإحسان رب العرش من وهب البرا
تجل لنا وافتح كنوزك بالعطا ... لنفرح بالإحسان من ربنا أجرى
لما أنت ترضاه تحب فوفقن ... جميعَ بنى الإسلام ياسيدى جهرا

لنفرحَ فى الدنيا بفضل ورحمة وبالقرب والرضوان نفرح فى الأخرى
وهبنا العطايا عَمِّمْنها إلهَنا لأهلى وأولادى بمن شهدوا بدرا
تجل بشاف واشفنا رب واهدنا وآل وأصحاب ومن جددوا النصرا
وصل على شمس الهدى مصدر الندى صراطك وامنحنا العناية والخيرا

نزول الشيطان وجنده يوم بدر

ورد : أن إبليس جاء فى صورة سراقة المدلجى الكنانى فى جند من الشياطين أى من مشركى الجن ، فى صورة رجال من بنى مدلج من بنى كنانة ، وقال للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . وكان وحده ، ويجوز أن يكون جنده لحقوا به ، فلا منافاة . ولما رأى الشيطان جبريل والملائكة وكانت يده فى يد الحرث بن هشام المخزومى أخا أبى جهل ، انتزع يده من يده ، ثم نكص على عقبيه وتبعه جنده فقال له الحرث : ياسراقة أتزعم أنك جار لنا ، فقال : إنى برىء منكم أنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب .

فتشبث به الحرث وقال له : والله لا أرى إلا خفافيش يثرب ، فضربه إبليس فى صدره فسقط وفر من بين يديه .

قال الحرث: ما علمت أنه الشيطان إلا بعد أن أسلمت . وذكر السهيلى أن من بقى من قريش بعد وقعة بدر وهرب إلى مكة وجد سراقة بمكة فقالوا له : ياسراقة خرقت الصف وأوقعت فينا الهزيمة .

فقال والله ما علمت بشئ من أمركم ، وما شهدت . فما صدقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله تعالى ، فعلموا أنه إبليس لعنه الله .

رؤيا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لجبريل

ثم إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خفق خفقة ، أى مالت رأسه من النعاس ، ثم انتبه فقال : أبشر ياأبا بكر أتانى نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه ، وفى لفظ آخر : .

برأس فرسه يقوده على ثنايا النقع (الغبار) وهو يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته ، وفى رواية : أن جبريل أتى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بعد ما فرغ من بدر على فرس حمراء معقود الناصية، قد خضب الغبار ثنيته ، عليه درعه وقال : يامحمد إن الله بعثنى إليك وأمرنى أن لا أفارقك حتى ترضى ، أرضيت .

ولا مانع من تعدد رؤيته ﴿ﷺ وآله﴾ لجبريل ﵇ وأن هذه بعد تلك ، وأن المرة الأولى مساقها يقتضى أنها كانت مناماً ، وأن الغبار فى المرة الثانية كان أكثر بحيث علا على ثناياه .

ثم خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من العريش إلى الناس فحرضهم وقال : والذى نفسى محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

آكل التمرات ساكن الجنات

وقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلهن : بخ بخ " كلمة تقال لتعظيم الأمر والتعجب منه " ، ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل . وفى رواية : أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فقال عمير بن الحمام : بخ بخ ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : لم تبخبخ ؟ فقال : رجاء أن أكون من أهلها ، فأخذ تمرات فجعل يلوكهن ثم قال : والله إن بقيت حتى ألوكهن، وفى لفظ: إن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فنبذهن وقاتل ، ولا زال يقاتل حتى نال الشهادة رضى الله عنه .

حرص الصحابة على رضاء الله تعالى

وقال عوف بن الحرث بن عفراء : يارسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ أى ما يرضيه غاية الرضا قال : غمسه يده فى العدو حاسرا ، أى لا درع له ولا مغفر ، فترع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رضى الله عنه . والضحك فى حق الله تعالى كناية عن غاية رضاه سبحانه .

وقد جاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال فى طلحة بن الغمر : اللهم إن طلحة يضحك إليك وتضحك إليه ، أى القه راضيا كلقاء المتحابين المظهرين لما فى أنفسهما من غاية الرضا والمحبة.

فهى كلمة وجيزة تتضمن الرضا والمحبة وإظهار البشر فهى من جوامع كلمه التى أوتيها ﴿ﷺ وآله﴾.

وقاتل فى ذلك اليوم معبد بن وهب – زوج هريرة بنت زمعة أخت سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضى الله عنها – بسيفين .

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يرمى المشركين بالحصى

ثم أخذ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حفنة من الحصباء أمره جبريل بذلك كما فى بعض الروايات ، وفى رواية: أنه قال لعلى كرم الله وجهه ناولنى فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : شاهت الوجوه أى قبحت الوجوه .

وزاد بعضهم : الله أرعب وزلزل أقدامهم، ثم نفحهم بها ، أى ألقاها فى وجوه الكفار ، فلم يبقى من المشركين رجل إلا ملأت عينه وانفه وفمه ولا يدرى أين يتوجه يعالج التراب ليترعه من عينه، فاهزموا وقام المسلمون يقتلون ويأسرون، وقتل فى تلك الموقعة سبعون من صناديد المشركين وأسر سبعون، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا.

وفى ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧) . رواه عكرمة ومجاهد وقتادة وعروة وروى عنهم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ فعل ذلك أيضا يوم حنين .

وروى عن جابر أنه نزلت من السماء حصيات ثلاث كأنهن وقعن فى طست فأخذهن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ورمى بهن فى وجوه الكفار فى جهاتهم الثلاث يمنه ويسرة وبين أيديهم .

وفى رواية أنه أخذ ثلاث حصيات فرمى كذلك فانهزم القوم ، ولا مانع من اجتماع الأمرين .

وقاتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بنفسه قتالا شديدا وكذا أبو بكر رضى الله عنه ، فكما اجتهدا فى الدعاء فى العريش اجتهادا فى القتال بإبدائهما جمعا بين المقامين . فلما وضع القوم أيديهم يأسرون و نظر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى سعد فوجد فى وجهه الكراهية لما يصنع القوم فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم .

قال : أجل والله يارسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك فكان الإثخان بالقتل أى الإكثار فيه والمبالغة فيه أحب إلى من استبقاء الرجال .

وذكر بعضهم : أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لأصحابه : إنكم قد عرفتم أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد خرجوا إكراها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله بل يأسره ، وذكر أبا البحترى بن هشام فقال : من لقى منكم البحترى بن هشام فلا يقتله ، أى لأنه كان ممن قام فى نقض الصحيفة . ونص على العباس بن عبد المطلب فقال أبو حذيفة رضى الله تعالى عنه : أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ أى لأنه تقدم أن أباه عتبة وعمه شيبة وأخاه الوليد أول من قتل من الكفار مبارزة ، وعشيرته وهى بنو عبد شمس قد قتل منهم جماعة ، لئن لقيته يعنى العباس

لألجمنه بالسيف ، فبلغت تلك المقالة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لعمر : ياأبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالسيف ؟

فقال عمر : والله لإنه أول يوم كنانى فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأبى حفص يارسول الله دعنى أضرب عنقه يعنى أبا حذيفة بالسيف ، فو الله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قالها يومئذ ، ولا أزال منها خائفا ، إلا أن تكفرها عنى الشهادة .

فقتل يوم اليمامة شهيدا فى جملة من قتل فيها من الصحابة رضى الله عنهم وهم أربعمائة وخمسون وقيل ستمائة .

ولقى المجند رضى الله تعالى عنه أبا البحترى فقال له : إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلى ، أى ورفيقى وكان معه زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن بلجة ، فقال له المجند : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلا بك وحدك ، قال لا والله ، إذا لأموتن أنا وهو جميعا ، لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى ، أى يقتل حرصا على الحياة ، فقتله المجند بعد أن قاتله ، ثم أتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له : والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأثر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى فقتلته .

الوالد الصديق وولده عبد الرحمن

وكان من جملة من خرج مع المشركين يوم بدر عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة ، وقيل عبد العزى فسماه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عبد الرحمن وكان من أشجع قريش وأشدهم رماية ، وكان أسن ولد أبيه ، وكان صالحا ، وفيه دعابة ، فلما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى يوم بدر مرارا فصدفت عنك أى أعرضت ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لو صدفت لى لم أصدف عنك أى أعرض .

والمراد بأهدفت لى : كونه ظهر له بلا ساتر وهو لا يشعر بذلك فكان يمكنه قتله . ولا ينافى ما روى أن عبد الرحمن طلب المبارزة فقام إليه أبوه أبو بكر فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : متعنا بنفسك ياأبا بكر أما علمت أنك عندى بمترلة سمعى وبصرى . وروى أن أبا بكر قال له : أين مالى ياخبيث ؟ فقال له عبد الرحمن : كلاما معناه لم يبق إلا عدة الحرب التى هى السلاح وفرس سريعة العدو. ويدل هذا على أن الصديق ترك مالا عند أهله يوم الهجرة ، وهذا يخالف ما روى عن ابنته أسماء من قولها : إن أبا بكر أرسل ابنه عبد الله فحمل ماله وكانت خمسة آلاف درهم إلى الغار فدخل علينا جدى أبا قحافة .. الحديث . ولعل ماله الذى عناه الصديق الأمتعة والمواشى لا النقد فلا مخالفة .

أبو عبيدة بن الجراح يقتل أباه المشرك

وفى هذا اليوم ، قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه ، وكان مشركا ، فإن أباه قصده ليقتله ، فولى عنه أبو عبيدة لينكف عنه ، فلم ينكف عنه فرجع إليه وقتله ، وأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة :٢٢) .

مقتل أمية بن خلف

وعن عبد الرحمن بن عوف لقد لقيت أمية بن خلف ، وكان صديقا لى فى الجاهلية ، ومعه ابنه على آخذ بيده ، وكان على ممن أسلم والنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة قبل الهجرة ، ففتنهم أقاربهم عن الإسلام ورجعوا عنه وماتوا على كفرهم ، وأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧) . أى وهم الحرث بن ربيعة ، وأبو قيس بن الفاكهة، وأبو قيس بن الوليد ، والعصى بن منبه ، وعلى بن أمية .

وفى السيرة الهاشمية ، وذلك أهم كانوا أسلموا ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة فلما هاجر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة حبستهم آباؤهم وعشيرهم بمكة ، وفتنوهم

فافتتنوا ، أى رجعوا عن الإسلام ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا جميعا . قال عبد **الرحمن بن عوف رضى الله عنه :**

وكان معى أدراع استلبتها فأنا أحملها ، فلما رآنى أمية نادانى باسمى الأول : ياعبد عمرو ، فلم أجبه ، لأنه كان قال لى لما سمانى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عبد الرحمن : أترغب عن اسم سماك به أبوك ؟ فقلت : نعم ، قال الرحمن : لا أعرفه لكنى أسميك بعبد الإله ، فلما نادانى بعبد الإله ، قلت : نعم . فقال له أمية : هل لك فى فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك ؟ قلت : نعم فطرحت الأدراع من يدى وأخذت بيده وبيد ابنه على وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط ، ثم قال لى : ياعبد الإله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره؟ أى كانت فى دروعه بحائل صدره، قلت : ذلك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل . وقيل : إن قائل ذلك ابنه . ثم خرجت أمشى بهما فو الله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى – وكان هو الذى يعذب بلالا بمكة على أن يترك الإسلام – فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فقلت : أى بلال فبأسيرى تفعل ذلك بهما ؟ قال : لا نجوت إن نجا وكررت وكرر ذلك .

ثم صرخ بأعلى صوته يأنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا وكرر ذلك فأحاطوا بنا ، فأصلت رجل السيف ، أى سله فى غمده وذلك الرجل هو بلال ، فضرب رجل ابنه فوقع ؛ وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط فضربوهما بأسيافهم فهبروهما .

والذى فى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف لما استصرخ الأنصار خشيت أن يلحقونا فخلفت لهم ابنه لشغلهم به فقتلوه .

ثم أتونا حتى لحقوا بنا وكان أمية رجلا ثقيلا فقلت : أبرك وألقيت نفسى عليه لأمنعه . فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه ، فأصاب أحدهم رجلى بسيفه أى ظهر قدمى .

وفى كلام ابن عبد البر قال بن هشام : قتل أمية بن خلف معاذ بن عفراء ، وخارجة بن زيد ، وحبيب بن أساف اشتركوا فيه أى مع بلال ،قال ابن إسحق : وابنه على قتله عمار بن ياسر .

وحبيب بن أساف هذا ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وتزوج بنت خارجة بعد أن توفى عنها أبو بكر الصديق رضى الله عنه وهو جد حبيب شيخ مالك رضى الله تعالى عنه .

وقال رسول ﴿ ﷺ وآله﴾ : من له علم بنوفل بن خويلد ؟ فقال على كرم الله وجهه: أنا قتلته ، فكبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال : الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه ، أى أنه لما التقى الصفان نادى نوفل بصوت رفيع يامعشر قريش اليوم يوم الرفعة والعلاء فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ اكفنى نوفل بن خويلد .

وقتل أبو جهل وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : الحمد لله الذى صدق وعده بقتل أبى جهل . وسأل أبو جهل ابن مسعود عن أهل الأجسام الطوال الذين يقتلون ويأسرون فقال له : أولئك الملائكة ، فقال : هم الذين غلبونا لا أنتم ، وهذا غاية فى كفره وعناده حيث تحقق ذلك كله و لم يؤمن بالله وبرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

ثم ابن مسعود رضى الله عنه وطئ على عنقه وعلا فوق صدره يريد حز رأسه – وكان أبو جهل قد أصيب فى المعركة – فقال له : لقد ارتقيت يارويعى الغنم مرتقى صعبا .

قال ابن مسعود : فضربت بسيفى لأحز رأسه ، فلم يغن عنى شيئا فبصق فى وجهى وقال : خذ سيفى وأحزز به رأسى من عرشى ليكون أهى للرقبة - والعرش عرف فى أصل الرقبة – ففعلت .

وجاء أنه قال لابن مسعود رضى الله عنه : احتز من أصل العنق ليرى عظيما مهابا فى عين محمد ، وقل له : ما زلت عدوا لى سائر الدهر واليوم أشد عداوة . ولما أتى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ برأسه وأخبره بقوله، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : كما أنى أكرم النبيين على الله ، وأمتى أكرم على الله ، كذلك فرعون هذه الأمة أشد وأغلظ من فراعنة سائر الأمم، إذ فرعون موسى حين أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وفرعون هذه الأمة ازداد عداوة وكفرا .

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : رحم الله ابنى عفراء قد اشتركا فى قتل فرعون هذه الأمة ، ورأس أئمة الكفر ، وقد كان أبو جهل أشد الناس عداوة وحسدا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولم يلق من الأذية مثل ما لقى من أبى جهل ، وكان مقاربا للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى السن ، وهو المجتهد فى إخراج النفير ، ودعا الله متعلقا بأستار الكعبة قائلا : اللهم انصر أعلى الدينين، وأكرم الحزبين، وفى هذا أنزل قول الله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ ﴾ (الأنفال: ١٩) . ونصر الله دينه ونبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قال ابن قتيبة: ذكر أن أبا جهل قال لابن مسعود رضى الله عنه وهما بمكة : لأقتلنك ، فقال : والله لقد رأيت فى النوم أنى أخذت حدجة حنظل فوضعتها بين كتفيك ،ورأيتنى أضرب كتفيك، ولإن صدقت رؤياى لأطأن رقبتك ولأذبحنك ذبح الشاه . فكان فى تذفيف ابن مسعود رضوان الله تعالى عنه تصديق تلك الرؤيا وجاء فى رواية أن ابن مسعود وجده متقنعا فى الحديد وهو منكب لا يتحرك فرفع سابغة البيضة عن قفاه فضربه فوقع رأسه بين يديه .

وفى رواية الطبرانى أن ابن مسعود رأى بجسم أبى جهل آثار السياط وليس به جرح وأنه أخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: ذاك ضرب الملائكة.

وهذا لا ينافى ما سبق من قطع ابن الجموح لرجله ، ومن ضرب ابن عفراء له. وعن بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم قال : كنا ننظر إلى المشرك أمامنا مستلقيا فننظر إليه فإذا هو قد تحطم أنفه ، وشق وجهه كضربة بالسوط فأحضر ذلك الموضع .

وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه عن أمية رضى الله تعالى عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك ، أى يرفعه عليه ، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

مما تفضل به الله على نبيه

وانكسر سيف عكاشة بن محصن وهو يقاتل ، فأعطاه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جذلا من حطب ، أى أصلا من أصول الحطب ، وقال له : قاتل بهذا ياعكاشة ، فأخذه عكاشة فهزه فعاد فى يده سيفا طويل القامة ، أبيض الحديد ، شديد المتن ، فقاتل به رضى الله عنه ، حتى فتح الله على المسلمين وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عند عكاشة وشهد به المشاهد كلها مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم لم يزل متوارثا عند آل عكاشة رضى الله عنهم .

وجاء فى فضل عكاشة رضى الله عنه أنه ممن يدخل الجنة بغير حساب . وانكسر سيف سلمة بن أسلم رضى الله عنه فأعطاه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قضيبا ، أى عرجونا من عراجين النخل وقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيد ، ولم يزل عنده . وعن خبيب بن عبد الرحمن قال : ضرب خبيب جدى يوم بدر ، فمال شقه فتفل عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأمه ورده فانطبق .

وعن رفاعة بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : لما كان يوم بدر رميت بسهم ففقئت عينى ، فبصق عليها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ودعا لى فما آذانى منها شئ ورجعت كما كانت .

الأمر بإلقاء المشركين فى القليب

ثم أمر ﴿ﷺ وآله﴾ بالقتلى من المشركين ،أن ينقلوا من مصارعهم التى كان أخبر بها ، ويستفاد من جملة الأخبار أن إخباره ﴿ﷺ وآله﴾ بمصارع القوم تكررت منه مرتين قبل الوقعة بيوم أو أكثر ويوم الوقعة ، إلا أن يقال قوله يوم الوقعة أنه وصل بدر نهارا ، والقول بأن ذلك ليلا بناء على أنه ﴿ﷺ وآله﴾ وصلها ليلا.

ثم أمر ﴿ﷺ وآله﴾ أن يطرحوا فى القليب إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه ، فذهبوا ليحركوه فتقطعت أوصاله، فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة .

وفى سنن الدار قطنى : كان ﴿ﷺ وآله﴾ من سنته فى مغازيه ، إذا مر بجيفة إنسان أمر بدفنه ، لا يسأل عنه مؤمنا كان أو كافرا ، وبالنسبة لجيف الكفار كره ﴿ﷺ وآله﴾ أن.

يشق على أصحابه فيأمرهم بدفنهم ، فكان جرهم إلى القليب أيسر ، وكان الحافر لهذا القليب رجل من بنى النجار ذكره السهيلى .

ولما ألقى عتبة والد حذيفة فى القليب رأى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ تغير وجه حذيفة رضى الله عنه ففطن النبى لذلك فقال : لعلك دخلك من شأن أبيك شئ ، قال : حذيفة لا والله ولكن كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام ، فلما رأيت ما مات عليه أحزننى ذلك فدعا له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بخير وقال له خيرا . وورد أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نهى حذيفة عن قتل أبيه ، وقد أراد ذلك .

محادثة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لأهل القليب

فى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه كان النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان اليوم الثالث أمر ﴿ﷺ وآله﴾ برحلته ، فشد عليها رحلها . ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة القليب وجعل يقول : يافلان بن فلان هكذا .. هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا فإنى وجدت ما وعدنى الله حقا .

وفى بعض الطرق أنه ﴿ﷺ وآله﴾ ناداهم بأسمائهم فقال : ياعتبة ، ويا شيبة ابن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ، وكان أمية قريبا من القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

فقال عمر رضى الله عنه: كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها ، وفى رواية : .

أجسادا قد أجيفوا ، وفى لفظ : قد جيفوا .

فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وفى رواية : لقد سمعوا ما قلت غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا .

أسماء أصحاب القليب

من بنى عبد مناف ستة : عبيدة والعاص ولدا أبى أحيحة ، سعيد بن العاص بن أمية ، وحنظلة بن أبى سفيان ، والوليد بن عتبة ، والحرث بن عامر ، وطعيمة بن عدى .

ومن سائر قريش أربعة عشر : نوفل بن عبد ، وزمعة وعقيل ابنا الأسود ، والعاصى بن هشام أخو أبى جهل ، وأبو قيس بن الوليد ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهمى ، وعلى بن أمية بن خلف ، وعمر بن عثمان عم طلحة أحد العشرة ، ومسعود بن أمية أخو أم سلمة ، وقيس بن الفاكه بن المغيرة المخزومى ، والأسود ابن عبد الأسد أخو أبى سلمة ، وأبو العاص بن قيس بن عدى السهمى ، وأمية بن رفاعة .

تسمية من سمى من أهل بدر رضى الله عنهم

روى البخارى فى كتاب المغازى باب تسمية من سمى من أهل بدر فى الجامع الذى وضعه أبو عبد الله على حروف المعجم : النبى محمد بن عبد الله الهاشمى ﴿ﷺ وآله﴾ *إياس بن البكير * بلال بن رباح مولى أبى بكر القرشى * حمزة بن عبد المطلب الهاشمى * حاطب بن أبى بلتعة حليف لقريش * أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشى* حارثة بن الربيع الأنصارى قتل يوم بدر هو وحارثة بن سراقة كان فى النظارة * خبيب بن عدى الأنصارى * خنيس بن حذافة السهمى * رفاعة بن رافع الأنصارى * رفاعة بن عبد المنذر أبو لبابة الأنصارى * الزبير بن العوام القرشى * زيد بن سهل أبو طلحة الأنصارى * أبو زيد الأنصارى * سعد بن مالك الزهرى * سعد بن خولة القرشى * سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشى * سهل بن حنيف الأنصارى * ظهير بن رافع الأنصارى وأخوه * عبد الله بن عثمان أبو بكر الصديق القرشى * عبد الله بن مسعود الهذلى * عتبة بن مسعود الهذلى * عبد الرحمن بن عوف الزهرى * عبيدة بن الحارث القرشى * عبادة بن الصامت الأنصارى * عمر بن الخطاب العدوى * عثمان بن عفان القرشى خلفه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على ابنته وضرب له بسهمه * على بن أبى طالب الهاشمى * عمرو بن عوف حليف بنى عامر بن لؤى * عقبة بن عمرو الأنصارى * عامر بن ربيعة العنزى * عاصم بن ثابت الأنصارى * عويم بن ساعدة الأنصارى * عتبان بن مالك النصارى * قدامة بن مظعون * قتادة بن النعمان الأنصارى * معاذ بن عمرو بن الجموح * معوذ بن عفران وأخوه * مالك بن ربيعة أبو أسيد الأنصارى * مرارة بن الربيع الأنصارى * معن بن عدى الأنصارى * مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف * مقداد بن عمرو الكندى حليف بنى زهرة * هلال بن أمية الأنصارى رضى الله عنهم .

الأسرى

وكان جملة من قتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعون،فمن القتلى أهل القليب المتقدم ذكرهم وكلهم من رؤسائهم، والباقون من باقيهم .

وكان من أفضل الأسرى من بني هاشم سيدنا العباس بن عبد المطلب ﵁ عم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث بن عند المطلب وكلهم أسلموا بعد ذلك .

ومن أسلم من الأسرى من سائر قريش:

أبو العاص بن الربيع زوج السيدة زينب عليها السلام بنت النبى﴿ﷺ وآله﴾ أسلم قبيل فتح مكة، وهى التي بعثت فى فدائه قلادة لها،فلما رأى تلك القلادة ﴿ﷺ وآله﴾ رق لها رقة شديدة وقال للصحابة :إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا . قالوا : نعم يارسول الله فأطلقوه وردوا عليها القلادة .

وشرط عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يخلى سبيل السيدة زينب وأن تهاجر إلى المدينة، وقد كان كفار مكة مشوا إليه أن يطلق زينب بنت رسول ﴿ﷺ وآله﴾ كما طلق ابنا أبي لهب ابنتي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قبل الدخول بهما (رقيه وأم كلثوم) وقالوا له : نزوجك أي امرأة من قريش شئت فأبي ذلك وقال :

لا أفارق صاحبتي وما أحب أن لي بها امرأة ، فشكر له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك، ولما وصل مكة أمرها باللحوق بأبيها فهاجرت.

وكان من الأسري كذلك أبو عزيز زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير أسلم يوم بدر بعد الفداء﵁ ، والسائب بن عبد سلم ﵁ بعد الفداء ، وعدي بن الخيار والسائب

بن حبيش ، وأبو وداعة السهمي ، وسهيل بن عمرو العامرى وكلهم أسلموا في فتح مكة.

وخالد بن هشام المخزومى، وعبد الله بن السائب ، والمطلب بن حنطب وعبد الله بن أبي بن خلف أسلم يوم الفتح .

وعبد الله بن زمعة أخو سودة ، ووهب بن عمر الجمحي ، وقيس بن السائب المخزومى ، وقسطاس مولي أمية بن خلف ، والوليد بن الوليد .

العباس خاتم المهاجرين

وكان العباس ﵁ فيما قاله أهل العلم بالتاريخ قد أسلم قديما وكان يكتم إسلامه ، وكان يسره ما يفتح الله علي المسلمين ، وكان النبي ﴿ﷺ وآله﴾ يطلعه علي أسراره حين كان بمكة ، وكان يحضر مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يعرض نفسه علي القبائل .

وكان يحثهم ويحرضهم علي مناصرته كما في بيعة العقبة .

فهذا كله يدل علي إسلامه ﵁ .

وكان النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أمره بالمقام بمكة ليكتب له أسرار قريش وأخبارها ، ولما أرادوا الخروج واستنفر الناس ما أمكنه التخلف عنهم ولهذا قال ﴿ﷺ وآله﴾ يوم بدر : من لقي العباس فلا يقتله فإنه خرج مكرها .

ولا ينافي ذلك قوله عليه الصلاة والسلام له لما طلب منه الفداء ظاهرا : أمرك أنك كنت علينا غيرك الآن .

فعامله ﴿ﷺ وآله﴾ بظاهر حاله تطييبا لقلوب الصحابة ﵃ حيث فعل مثل ذلك بآبائهم وأبنائهم وعشائرهم .

وجاء أن العباس كان له ديون ومال في قريش وكان يخشى إن ظهر إسلامه ضياعها . و لم يظهر النبي إسلامه رفقا به ، وأذن له في إخفاء إسلامه ليكون له عينا ينقل إليه أخبار القوم.

ومن ثم أظهر إسلامه يوم الفتح وهذا لا ينافي أسبقية إسلامه ، وأنه أظهره للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه يوم بدر ، لأن الذي تأخر هو ظهور إسلامه لأهل مكة حتى يوم الفتح . وكثيرا ما طلب من النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ الإذن بالهجرة وكان المصطفي ﴿ ﷺ وآله﴾ يكتب إليه مقامك بمكة خير لك .

العباس أسيرا

وكان الذي أسر العباس رضى الله عنه كعب بن عمرو الأنصاري السلمي ، ويكني بأبي اليسر ﵁ وكان دميما ، أي: صغير الجثة ، والعباس ﵁ جسيما طويلا فقيل للعباس ﵁ : لو أخذته بكفك لوسعته كفك فقال : ما هو إن لقيته فظهر في عيني كالخندمة – وهو جبل من جبال مكة – وأبو اليسر هذا هو الذي انتزع راية المشركين . وكانت بيد عزيز بن عمير .

وفي رواية أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ سأل كعبا وقال له : كيف أسرت العباس ؟ قال : يارسول قد أعانني عليه ملك كريم. ولما قيل للعباس: هذا أسرك ؟ قال العباس : والله إن هذا ما أسرني لقد أسرني رجل أبلج من أحسن الناس وجها علي فرس أبلق فما أراه في القوم الذي جاء به : والله أنا الذي أسرته يارسول الله ، فقال: أسكت فقد أيدك الله بملك كريم .

وفي الكشاف : إن العباس عم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لما اخذ يسير ببدر لم يجد له قميص وكان رجلا طوالا، فأراد النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد رجوعه إلي المدينة بالأسري أن يلبسه قميصا وكان ذلك بعد أن حصل الفداء وأظهر إسلامه فلم يجد قميصا علي طوله .

فكساه عبد الله بن أبي بن سلول قميصه .. فلهذا لما مات عبد الله بن أبي وهو رئيس المنافقين جاء ابنه وكان من فضلاء الصحابة ﵁ إلي النبي ﴿ﷺ وآله﴾ يطلب قميصه ليكفن أباه فيه رجاء بركة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فأعطاه النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قميصه تطييبا لقلب ابنه وتأليفا لبقية المنافقين ، ومكافأة لما فعله مع عمه العباس ﵁.

ولما أسر رضي الله عنه شد وثاقه كبقية الأسري فصار يئن ، فسمع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أنينه فلم يأخذه نوم فقيل له : ما سهرك يارسول الله؟ قال: أنين العباس ، فقام رجل وأرخي وثاقه .

وفعل بالأسري كلهم إكراما له رضي الله عنه ورضاء لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وجعل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فداء العباس أربعمائة أوقية، وقيل: مائة ، وقيل: أربعون أوقية من ذهب ، وجعل عليه فداء ابن أخيه عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية ، وابن أخيه نوفل ابن الحرث كذلك .

وفي رواية قال له : افد نفسك ياعباس وابن أخويك عقيل ونوفل وحليفك عتبة بن عمرو ففدا نفسه بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية .

من أعلام نبوته خبر العباس وقتال الملائكة الناس

وقال للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ :تركتنى فقير قريش ما بقيت،وفى لفظ تركتنى أسأل الناس فى كفى، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأين المال الذى دفعته لأم الفضل- يعنى زوجته- وقلت لها: إنا أصبت فهذا لبنى الفضل وعبد الله وقثم؟.

فقال:والله إنى لأعلم أنك رسول الله،إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل رضى الله عنها.قال أبو رافع: وأسلمت أن والعباس وكان العباس يكره خلاف قومه لأنه كان ذا مال كثير،وأكثره متفرق فيهم فلما جاء الخير عن مصاب قريش ببدر سرنا ذلك.

مصرع أبو لهب

قال أبو رافع: فو الله إنى لجالس إذا قبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس عندنا، فبينما هو جالس إذ قدم أبو سفيان بن حرث وكان مع قريش فى بدر، فقال أبو لهب: هلم إلى عندك الخبر، فقال والله ما هو إلا لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا،يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله ما لمت الناس لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض،والله ما يقوم لها شيء قال أبو رافع:فقلت والله تلك الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة، وثاورته،أى:قام كل للآخر،فاحتملنى وضرب بى الأرض ثم برك على يضربنى ،فقامت أم الفضل إلى عمود وضربته به فى رأسه

أثرت شجة منكرة، وقالت: استضعفته إن غاب سيده تعنى العباس .

فقال موليا ذليلا فو الله ما عاش إلا سبع ليال صحيحا حتى رمى بالعدسة فقتلته ، فلم يحفروا له ولكن أسندوه إلى الحائط وقذفوه بالحجارة ، والعدسة بثرة من جنس الطاعون ، أى : قرصة ، تتشاءم منها العرب فلما أصابت أبو لهب تباعد عنه بنوه وبقى ثلاثة أيام حتى أنتن .

مصرع النضر بن الحرث

ومن الأسرى النضر بن الحرث العبدرى وكان من أشد الناس عداوة للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وكان يقول فى القرآن : إنه أساطير الأولين ، ويقول : لو شئنا لقلنا مثل هذا ، وغير ذلك من الأقاويل ، فنظر إليه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهو أسير ، فقال النضر للأسير الذى بجانبه : محمد والله قاتلى فإنه نظر إلى بعينين فيهما الموت ، فقال والله ما هذا منك إلا رعب ، ثم قال النضر لمصعب بن عمير العبدرى : يامصعب أنت أقرب من هنا إلى رحما ، فكلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى يعنى المأسورين .. هو والله قاتلى فقال له مصعب : أنت كنت تقول فى كتاب الله تعالى ما تقول ، ثم أمر النبى ﴿ﷺ

وآله﴾ عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه فضرب عنقه ، ذكر بعضهم أن النضر هذا له أخ يسمى باسمه أسلم عام الفتح وشهد حنينا ، وقيل : بل أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة ، ولما ضربت عنق النضر وبلغ الخبر أخته قتيلة ، وقيل : هى ابنته رثته

- ثم أسلمت رضى الله عنها - بأبيات منها :

هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ولأنت نجل نجيبه ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق

وحين سمع ذلك ﴿ﷺ وآله﴾ بكى من باب الرحمة والشفقة وقال : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه . لقبول شفاعتها عنده ، وهذا لا ينافى أن ما فعله ﴿ﷺ وآله﴾ حق .

مصرع المستهزىء بالله ورسوله عقبة بن أبى معيط

ومن الأسرى عقبة بن أبي معيط المكنى بأبي عمرو وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو من المستهزئين به ﴿ﷺ وآله﴾ فأمر بضرب عنقه عند عرق الظبية وهى شجرة يتظلل بها ، وقال حين قدم للقتل : من للصبية يامحمد ؟ قال . النار .

وجاء عن بن عباس رضى الله عنهما أن عقبة لما قدم للقتل نادى يامعشر قريش : مالى أقتل من بينكم صبرا ، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بكفرك واجترائك على الله ورسوله ، وكان شديد السفه والفجور وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ (الفرقان : ٢٧ ـــ ٢٩) .

وفى رواية لما قال : مالى أقتل من بينكم صبرا ، قال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : بكفرك وفجورك وعتوك على الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ .

المشاورة فى شأن الأسرى ببدر

ثم استشار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه فى الأسرى ، فقال لهم : ما ترون فى هؤلاء الأسرى إن الله قد مكنكم منهم ؟

وفى رواية : أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ استشار أبا بكر وعمر وعليا رضى الله تعالى عنهم فيما هو الأصلح من الأمرين القتل أو أخذ الفداء ؟

قال أبو بكر : يارسول الله أهلك وقومك .

وفى رواية : بنو العم والعشيرة والإخوان قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم ، ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونون لنا عضدا .

فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما تقول ياابن الخطاب ؟

قال يارسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك .

ما أرى ما رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكننى من فلان قريب له أو نسيب له فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل أخيه فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا مودة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم

وقال بن رواحة : انظروا واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا .

وفى رواية : أن عمر رضى الله عنه لما قال ذلك أعرض عنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم عاد عليه الصلاة والسلام فقال :

يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم ، فقال عمر رضى الله عنه : أضرب أعناقهم ، فأعرض عنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فعل ذلك ثلاث وهو يعرض عنه لما جبل عليه ﴿ﷺ وآله﴾ من الرأفة والرحمة فى حالة أذاهم له فكيف فى حال قدرته عليهم ﴿ﷺ وآله﴾ ؟.

أمثال الأنبياء وهم صحابته

فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يارسول الله أرى أن تعفو عنهم وتقبل الفداء منهم ، فذهب عنه ﴿ﷺ وآله﴾ ما كان من الغم ، ولم يذكر عن على كرم الله وجهه جوابا مع أنه أحد الثلاثة المستشارين .

قال العلامة الزرقانى : لأنه لما رأى تغير المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ حين اختلف الشيخان لم تظهر له مصلحة حتى يذكرها ، ولهذا لما ظهر لعبد الله بن رواحة الجواب قال : انظروا واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع : قطعت رحمك .

وفى رواية ثكلتك أمك ، فدخل ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : أناس يأخذ بقول عمر ، وأناس بقول أبو بكر ، وأناس بقول ابن رواحة .

ثم خرج ﴿ﷺ وآله﴾ فقال إن الله ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك ياأبا بكر فى الملائكة كمثل ميكائيل يترل بالرحمة ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم قال : فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ومثلك ياأبا بكر مثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

ومثلك ياعمر فى الملائكة مثل جبريل يترل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله ، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح إذ قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، ومثلك

فى الأنبياء مثل موسى إذ قال : ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

حذر الصحابة من مخالفة رسول اللّه

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ متابعا : لو اتفقتما ما خالفتكما ، وأخذ بقول أبى بكر رضى الله عنه وقال : لا يفلتنى أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ، فقال عبد الله بن مسعود : يارسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام فسكت ﴿ ﷺ وآله﴾ فما رأيتنى أخاف أن تقع على الحجارة منى فى ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إلا سهيل بن بيضاء وأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ۝ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ۝ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٦٧ ــ ٦٩) .

الوحى يوافق رأى عمر

جاء فى بعض كتب السيرة : فجاء عمر والنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبو بكر يبكيان فقال : يارسل الله أخبرنى ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ أبكى للذى عرض على أصحابك من الفداء .

وفى رواية : إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب لأنه كره الأسر وأحب الإثخان ، و لم يقل وابن رواحة ، لأنه أشار بإضرام النار وليس بشرع .

التأويل فى الآيـــات

وقال بعضهم : فى هذه الآيات يجوز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام لأن العتـــاب لا يكون فيما صدر عن وحى . وقال السبكى : فى قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِـــيٍّ ﴾ أى : غيرك يامحمد الخ ، وأما أنت وعن الأعمش فى قوله تعالى : ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ﴾ أى : بأنه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا .

فمخير بين قتلهم وأخذ الفداء منهم .

ويؤيده حديث : (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) .

وأحسن ما قيل فى الآية : أن فيها العتاب على ارتكاب خلاف الأولى وأنه كان الأولى الإثخان بالقتل ، لكن ما سبق فى علم الله ، هذا الذى يقع وأنتم مخيرون بين الأمرين ، لم يؤاخذكم بفعل الأمر الجائز لكم المقدر وقوعه قبل خلق السموات والأرض .

الصـــواب فى قضية الأســـرى

ومن تأمل ما جاء فى روايات هذه القضية يظهر له جليا أنـــه ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ كـــان مصيبـــا فيما فعله ، وذلك من وجـــوه متعددة :

الوجه الأول:أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عمل بذلك بمقتضى المشاورة التى أمره الله تعـــالى بها فى قوله : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾(آل عمران:١٥٩).
الوجه الثانى:أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ جنح إلى رأي من قال بالفداء وهو يه-أى أحبه-لما فيه من الرحمة والعطف واللين، بمقتضى المقام الذى أقامه تعالى فيه،وهو قوله تعـــالى: ﴿ وَمَـــا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١,٧).

الوجه الثالث:أن فعله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان موافقا، لما سبق فى الكتاب الأول الذى قضى الله تعالى فيه حل الغنائم له﴿ ﷺ وآله﴾ خاصة،ولم تحل لأحد قبله،كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ ﴾ يعنى فى أم الكتاب الأول : أن المغانم والأسارى حلال لكم .. ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

الوجه الرابع : وكما أن قبوله ﴿ ﷺ وآله﴾ الفداء ، وافق قضاء الله تعالى السابق فى الكتاب الأول ، فانه وافق أيضا الشرع اللاحق النازل فى الكتاب الحكيم ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾ الآية ، فكيف يقال فى أمر وافق الكتاب الأول ووافق الشرع النازل بعد ، كيف يقال : إنه خطأ .

الوجه الخامس : أن نزول التشريع بإحلال الغنائم ، وهو قوله تعالى :
﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾ هو إقرار لما فعله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وتصويب لما رآه، إذ لو كان فعله خطأ كيف يقره الله تعالى عليه ويجعله شرعا باقيا ؟ حتى على قول من جوز الخطأ عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ دون أن يقره الله عليه ، لا يقال : إنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أخطأ فى قضية أسرى بدر لأن الله تعالى أقره على ذلك فمن أين يأتى الخطأ ؟

وقد استمر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم ، إن شاء قتل ، كما فعل ببنى قريظة وإن شاء فادى بمال ، كما بأسرى بدر ، أو فادى بمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء سترق من أسر ، هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء ، وفى المسألة خلاف بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه .

الوجه السادس: لو كان موقفه ﴿ ﷺ وآله﴾ مع أسرى بدر خطأ لأمره الله تعالى أن يرد الفداء وأن يستغفر الله تعالى من الخطأ الذى وقع فيه ، مع أنه سبحانه وتعالى أقره

على ذلك وشرع له ذلك فقال : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾الآية ، فلو كان خطأ لما أقره الله تعالى عليه ولما شرع له ذلك .

الوجه السابع : كيف يحكم بأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أخطأ فى أسرى بدر مع أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أمر أن يخير أصحابه فى ذلك ، ثم عمل بمقتضى ذلك . فقد روى الترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن على كرم الله وجهه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم بدر ، فقال له : خير أصحابك فى الأساري إن شاؤوا القتل وإن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم -أى الصحابة- فى العام المقبل مثلهم، فقالوا:نختار الفداء،ويقتل منا؛أى:يقتل منهم سبعون، رغبة فى الشهادة في سبيل الله تعالى .

وعند ابن سعد مرسل قتادة،قالوا:بل نفاديهم فنقوى بهم عليهم ويدخل العام القابل منا الجنة سبعون ففادوهم .

قال الحافظ القسطلانى: وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه .

أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾..الآية ليس فيها معاتبة للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أصلا،وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بالفداء بغية عرض الدنيا وهو المال المفدى به حين استشار عامة الناس قبل أن يستشير خاصتهم:أبا بكر وعمر وعليا رض الله عنهم كما تقدم .

فأراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أولئك النفر الذين أرادوا المال وآثروا للدنيا على ثواب الآخرة .

أما سيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلم يقصد بقبول الفداء عرض الدنيا،وحاشاه من ذلك ،فإن الدنيا كلها ما لها قيمه عنده وقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾:(مالى وللدنيا،ما أنا والدنيا

إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)،وقد عرضت عليه جبال تهامة أن تكون له ذهبا فأبى، فأين هو من عرض الدنيا؟ !!

كما أن قوله تعالى: ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ۝ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾ فإن هذا إعلان منه سبحانه وتعالى بنعمته ومنته على هذه الأمة بفضل نبيها ﴿ ﷺ وآله﴾ وإعلام بأنه سبق منة القضاء فى الكتاب الأسبق ، بحل الغنائم لهذه الأمة دون غيرها فضلا منه ونعمة بفضل نبيها وكرامته على الله تعالي .

ومن ثم كان﴿ ﷺ وآله﴾ يشيد بهذه النعمة فى جملة من المناقب التى خصه الله تعالى بها فيقول : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الأحمر والأسود ، وأحلت لى الغنائم و لم تحل لأحد قبلى ... إلخ الحديث .

توضيح إشكاله

أما ما جاء فى الحديث ــ إن صح ــ من قول عمر رضى الله عنه : فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبو بكر قاعدان يبكيان قلت: يارسول الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة " شجرة قريبة من نبى الله ﴿ ﷺ وآله﴾" وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ – إلى قوله- فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم.

أقول:الصواب إن هذا الذى عرض عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ من عذابهم كان قبل نزول الآيات المقررة "بكسر الراء الأولى المشددة" تصحيح عمله وتأييد موقفه وتثبيته فيما انشرح إليه صدره من رأى أبى بكر رضى الله عنه ، وفائدة هذا العرض زيادة المنة من الله تعالى بتعظيم النعمة عليهم فيما أباحه لهم مما كان محرما على من قبلهم ، وذلك ببيان ما

يستحق هؤلاء الأسرى من الجزاء والعقاب لو جرى الأمر على ما كان مما هو مشروع من قبل ، فعذابهم هذا الذى رآه ﴿ﷺ وآله﴾ هو الذى يستحقونه لو لم يكن ما شرعه الله مما هدى إليه رسوله الصادق الأمين من قبوله الفداء وأخذ الغنائم ، ثم بعد إظهار ذلك لحضرة المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ بكى ، ثم أعلمه الله جل شأنه بصحة ذلك وأنه هو الحق بما أنزل عليه من الآيات البينات التى صوبت عمله وأيدت قوله وفعله وجعلت ما ذهب إليه شريعة متبعة ، وسمة قائمة ، ونظاما من أصول الأنظمة الحربية فى شأن الأسرى إلى قيام الساعة .

وأما قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ الآية،

فالصواب أن الآية هذه أخبار من الله تعالى لنبيه سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ عن حكم هذه القضية فى الشرائع السابقة ، وهى تقول له : يامحمد ما كان لنبى ممن سبقك من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل والقهر فى العدو ، هذا حكم من سبق أما أنت فقد أبحنا ذلك وأحللنا لك مزية وخصوصية تتميز بها عنهم .

فالآية اشتملت على تقرير تمام النعمة على سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ببيان ما فضله به مولاه واختصه به الله مما كان محرما على من سبقه . فتدبر ، وليس فيها عتاب أو خصام فالحمد لله على ذلك ونسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الفهم فى كتابه العزيز .

الفداء

ثم لم استقر الأمر على الفداء فرق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الأسرى فى أصحابه ليرجعوا بهم إلى المدينة ، حتى يرسل لهم أهلوهم وعشائرهم الفداء .

وقيل : تفريقهم بين أصحابه إنما كان بعد وصولهم المدينة ، وقيل : لما فرقهم قال: استوصوا بهم خيرا .

قال ابن اسحاق : فكان أبو عزيز بن عمير شقيق مصعب بن عمير فى الأسرى فقال : مر بى أخى ورجل من الأنصار يأسرنى فقال : شد يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك .

قال : فكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا من بدر فكانوا إذا قدموا غذائهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر كوصية رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إياهم بنا .

ولما قال أخوه للأنصارى : شد يديك به فقال : ياأخى أهذه وصيتك بى ؟ ثم أرسلت أمه أربعة آلاف درهم ففدته بها ثم أسلم ﴿ﷺ وآله﴾ .

وتواصت قريش على أن لا يعجلوا فى طلب فداء الأسرى ، قالوا : لئلا يتغالى محمد وأصحابه فى الفداء ، فلم يلتفت لذلك المطلب بن أبى وداع السهمى بل قد خرج من الليل خفية ، وقدم المدينة فافتدى أباه بأربعة آلاف درهم .

وقد قال ﴿ﷺ وآله﴾ لما رأى أبا وداعة أسيرا :إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، وكأنكم به قد جاء فى طلب أبيه فجاء وفداه ، فكأنه أول أسير فدى .

واسم أبى وداعة الحرث ثم أسلم ﴿ﷺ وآله﴾ فقد علمه بعضهم من الصحابة. وعند ذلك بعثت قريش فى فداء الأسارى، وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم وكان من أربعة آلاف إلى ثلاثة إلى ألفين إلى ألف درهم ، ومن لم يكن معه فداء ، وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة فإذا تعلموا كان فداؤه . وجاء جبير بن مطعم وهو كافر إلى المدينة يسأل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى أسارى بدر ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لو كان شيخك أو الشيخ أبوك حيا فأتانا فيهم لشفعناه أو لتركتهم له . لأن المطعم كان أجار النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لما قدم من الطائف ، وكان ممن سعى فى نقض الصحيفة .

من أعلام نبوته إسلام سهيل بن عمرو

وكان من جملة الأسارى سهيل بن عمرو العامرى وهو من خطباء قريش وأشرافها وفصحائها،وكان يخطب قريش ويحضهم على قتال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فلما أسر قال عمر للنبى ﴿ﷺ وآله﴾:دعنى أنزع ثنية سهيل بن عمير حتى يلدغ لسانه فلا يستطيع الكلام،لأنه كان أعلم،فلا يقوم عليك خطيبا فى موقف أبدا،فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: لا أمثل به فيمثل الله بى، وإن كنت نبيا، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه.. فكان كذلك،فإنه أسلم عام الفتح وحسن إسلامه،وصار من فضلاء الصحابة حتى إنه لما انتقل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى أراد أكثر أهل مكة الرجوع عن الإسلام حتى خافهم أمير مكة عتاب بن أسيد ؓفتوارى، فقام سهيل بن عمرو خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأتى بخطبة ثبت الله بها الناس، تشبه خطبة أبى بكرؓ التى خطبها بالمدينة يوم انتقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال فى خطبتهؓ:

أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات،ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ألم تعلموا أن الله تعالى قال : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(الزمر : ٣٠)، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٤).وتلا آيات أخرى ثم قال: والله إنى لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها وغروبها فلا يغرنكم هذا من أنفسكم،فتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم،وكلمة الله تامة، وإن الله ناصر من ينصره،ومقوى دينه،وقد جمعكم الله على خيركم بعد نبيكم، يعنى أبا بكرؓ ،ثم قال:وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوه فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه فتراجع الناس وكفوا عما هموا به،فكان فى قيامه ذلك المقام معجزة للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ حيث أخبر

به قبل حصوله بأعوام كثيرة وذلك يوم بدر حين قال لعمر ؓ: عسى أن يقوم مقاما لا تذمه.

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

ومن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على نفر من الأسرى بغير فداء منهم أبو عزة عمرو الجمحى الشاعر، كان يؤذى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ والمسلمين بشعره فقال:يا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إنى فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها فامنن على فمن عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وفى رواية: إن لى خمس بنات وليس لهن شيء فتصدق بى عليهن ففعل وأعتقه وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدا، ولما وصل مكة قال:سحرت محمدا، فرجع لما كان عليه من الإيذاء بشعره،ولما كان يوم أحد خرج مع المشركين يحرضهم علي القتال بشعره ، فأسر فأمر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بضرب عنقه ، فقال: اعتقني وأطلقني فإني تائب فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) فأمر به فضربت عنقه . وأنزل الله قوله تعالى فيه: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٧١) فعلم أن أسري بدر منهم من فدي ومنهم من خلى سبيله بغير فداء ، وهو أبو العاص وأبو عزة ووهب بن عمير ، ومنهم من مات ، ومنهم من قتل وهو النضر بن الحرث ، وعقبة بن أبي معيط .

بشائر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ للقبائل

ولما فرغ رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من طرح أهل القليب في قليبهم ، بعث عبد الله بن رواحة رضى الله عنه بشيرا لأهل العالية وهو محل قريب من المدينة علي عدة أميال ، وزيد بن حارثة بشيرا لأهل السافلة بما فتح الله علي رسوله والمسلمين ، وأركب ﴿ ﷺ وآله﴾ زيد بن حارثة ناقته القصواء ، وقيل : العضباء .

فجعل عبد الله بن رواحة ينادي في أهل العالية : يامعشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقتل المشركين وأسرهم .

ونادي زيد بن حارثة في أهل السافلة ، ويقولان: قتل فلان وفلان ، وأسر فلان وفلان من أشراف قريش ، وصار عدو الله كعب بن الأشرف يكذبهما ، ويقول : إن كان محمد قتل هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها .

قال أسامة بن زيد رضى الله عنهما : فأتانا الخبر بالمدينة حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ زوج عثمان بن عفان وكان عمرها عشرين سنة . ثم زوجة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ابنته الأخرى أم كلثوم وتوفيت عنده رضى الله عنها . فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : زوجوا عثمان لو كان لي ثالثة لزوجته إياها وما زوجته إلا بوحي من الله سبحانه وتعالي .

آراء في تقسيم الغنائم

ثم أقبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ راجعا إلي المدينة ، فلما خرج من مضيق الصفراء قسم الغنيمة ، وكانت مائة وخمسين من الإبل ، وعشرة أفراس ، ومتاعا ، وسلاحا ، وأنطاعا وثيابا ، وأدما كثيرا حمله المشركون للتجارة ، ونادي منادي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن اسر أسيرا فهو له .

فالمقسوم ما بقي بعد إخراج السلب وإخراج الأسري ، قسم علي المسلمين بالسوية بعد الاختلاف فيه ، فادعي من قاتل العدو وحده أنهم أحق به ، وادعي من جمعه أنهم أحق به ، وادعي من كان يحرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في العريش أن غيرهم ليس بأحق به منهم ، أي : لأن سعد بن معاذ رضى الله عنه قلم علي باب العريش الذي به النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وأبو بكر رضى الله عنه في نفر من الأنصار .

فأنزل الله تعالي سورة الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (الأنفال:١) فالنفل قد يطلق علي الغنيمة كما هنا ،وسماها الله تعالي أنفالا لأنها زيادة في أموال المسلمين ، وكذا الفيء المذكور في سورة الحشر التي نزلت في غزوة بني النضير يطلق علي الغنيمة،وسمي فيئا لأن الله تعالي أفاءه علي المؤمنين أي : رده عليهم .

حكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في تقسيم الغنائم

الأصل أن الله إنما خلق الأموال إعانة علي عبادته لأنه إنما خلق الخلق لعبادته ، فقد رد إليهم ما يستحقونه ، كما يعاد فيرد علي الرجل ما غصب من ميراثه وإن لم يقبضه قبل ذلك .

ومنه قول بعضهم : كان أهل الفيء بمعزل عن الصدقة وأهل الصدقة بمعزل عن أهل الفيء كان يعطي من الصدقة اليتيم والمسكين والضعيف ، فإذا احتلم اليتيم نقل إلي الفيء ، أي الغنيمة ، واخرج من الصدقة .

فنزعه الله من أيديهم ، فجعله إلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أي : يضعه حيث شاء ، فدلت الآية علي أن الغنيمة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاصة ، ليس لأحد من المقاتلة شيء منها ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالي : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (الأنفال : ٤١) والأربعة أخماس الباقية للمقاتلة .

أي : فكان ذلك الخمس يخمس خمسة أخماس : واحد له ﴿ ﷺ وآله﴾ ينفل فيه ما أحب ، والأربعة من ذلك الخمس لمن ذكر في الآية ، والأربعة أخماس الباقية تكون للمقاتلة .

وقال بعضهم : إن تحليل الغنائم بهذه الآية ، كانت في وقعه بدر كما ثبت في الصحيحين ، وذلك في قوله تعالي : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا ﴾

فأحل سبحانه الغنيمة لهم رضى الله عنهم ، وقد أسهم ﴿ﷺ وآله﴾ لمن لم يحضر ، كمن أمره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالتخلف لعذر منعه عن الحضور كعثمان بن عفان فإنه ﴿ﷺ وآله﴾ ، خلفه لأجل مرض زوجته رقية بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أو لما كان به رضى الله عنه من الجدري ، ولهذا عد من البدريين ، وأبو لبانة لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ خلفه علي أهل المدينة ، وعاصم بن عدي فإنه خلفه علي أهل قباء والعالية ، ولمن أرسله لكشف العدو ويتجسس خبره فلم يجيء إلا وقد انقضى القتال وهما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ، والحرث بن حاطب أمره في بن عمرو بن عوف ، وخوات بن جبير ، والحرث بن الصمة لأن كلا منهما كان بالروحاء. وأسهم ﴿ﷺ وآله﴾ لأربعة عشر رجلا قتلوا ببدر ، وتنفل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ زيادة علي سهمه سيفه ذا الفقار ، وتنفل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أيضا جمل أبي لهب وكان مهريا ، ولم يزل يغزو عليه حتى ساقه في هدي الحديبية . وهذا الذي كان يأخذه زيادة علي سهمه أي : قبل قسمة الغنيمة ، إذا كان ﴿ﷺ وآله﴾ مع الجيش .يقال له : الصفي والصفية عبدا أو أمه أو دابة أو سيفا أو درعا ، لكن في الإمتاع عن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما كان لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ صفيا من الغنم حضر أو غاب .

قدوم النبي المدينة بعد بدر واستقبالها له

ولما قارب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة خرج المسلمون للقائه وتهنئته بما فتح الله عليه فتلاقوا معه بالروحاء ، فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش : ما الذي تهنونا به فو الله إن لقينا ، أي: ما لقينا ، إلا عجايز صلعا كالبدن المعقولة فنحرناها ، فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : أولئك الملأ من قريش ، أي : الأشراف والرؤساء ، وتلقته الولايد عند دخوله المدينة يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فتلقاه أسيد بن الحضير فقال : الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك .

من أعلام نبوته نطق الجدى المشوى

ولما أقبلوا من بدر فقدوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فوقفوا،فجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه على فقالوا:يا رسول الله فقدناك، فقال:إن أبا الحسن وجد مغصا فى بطنه فخففت عليه،وكان ﴿ﷺ وآله﴾ قدم المدينة قبل الأسارى بيوم .روى عن ابن عباس أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: لما قدمت إلى المدينة وكنت جائعا استقبلتنى امرأة يهودية على رأسها جفنة فيها جدى مشوى فقالت: الحمد لله يامحمد الذى سلمك،كنت نذرت لله إن قدمت المدينة سالما لأذبحن هذا الجدى ولأشوينه ولأحملنه إليك لتأكل منه،فأنطق الله الجدى فقال: يامحمد لاتأكلنى فإنى مسموم، أى: بخلاف ما وقع له ﴿ﷺ وآله﴾ فى خيبر فإنه لم يخبره الذراع بذلك إلا بعد أكله منه ﴿ﷺ وآله﴾، وفى خيبر سأل المرآة عن سبب ما فعلت، وهنا لم يسألها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن ذلك .

مكة بعد بدر وبكاؤها

ولما ظهر خبر قريش،وتحقق عند أهل مكة ما صاروا إليه من القتل والأسر ناحت قريش على قتلاهم ،واستداموه شهرا،وجز النساء شعورهن ،وكن يأتين بفرس الرجل أو راحلته وتسترن بالستور وينحن حولها ،ويخرجن إلى الأزقة .

ثم أشير عليهم أن لا تفعلوا، فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ،ولا تبكوا قتلانا حتى نأخذ بثأرهم وتواصوا على ذلك . وكان الأسود بن زمعة أصيب له فى بدر ثلاثة ولداه وولد ولده وكان يحب أن يبكى عليهم، وكان قد ذهب بصره،أى: بدعوة النبى ﴿ﷺ

وآله﴾ بذلك، لأنه كان من المستهزئين بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه إذا رآهم يقول: قد جاءكم ملوك الأرض ،ومن يغلب على ملك كسرى وقيصر، ويكلم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بما يشق عليه من العمى ، وروى بعضهم أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ دعا بأن يكف بصره ويثكل ولده فاستجاب الله ذلك .

أنوار النصر بالحبشة

ولما بلغ النجاشى خبر نصرته ﴿ﷺ وآله﴾ ببدر ، فرح فرحا شديدا وطلب جعفر بن أبى طالب ومن كان معه بأرض الحبشة من الصحابة رضى الله عنهم فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا خلقة فقالوا له: ما هذا أيها الملك ؟ فقال لهم: إنى أبشركم بما يسركم ، إنه قد جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله نصر نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ وأهلك عدوه فلان وفلان بن فلان وعدد جماعة التقوا بمحل يقال له بدر كثير الآراك ، كنت أرعى فيه غنما لسيدى ابن بنى ضمرة.

فقال له جعفر رضى الله عنه : مالك جالس على التراب وعليك هذه الأخلاق ؟ قال :إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله عز وجل تواضعا عندما أحدث لهم نعمة .

وفى رواية : كان عيسى عليه السلام إذا حدثت له من الله نعمة ازداد تواضعا ، فلما أحدث الله نصرة نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ أحدثت هذا التواضع .

فلما أوقع الله بالمشركين يوم بدر واستأصل رءوسهم قالوا : إن ثأرنا بأرض الحبشة فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عنده من أتباع محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فنقتلهم بمن قتل منا ، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة رضى الله عنهما ــ فإنهما أسلما بعد ذلك ــ إلى النجاشى ليدفع إليهما من عنده من المسلمين وأرسلوا معهما هدايا النجاشى وأصحابه فردهما خائبين ، ولما رجع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة مؤيدا

منصورا خافه كل عدو بها ، وحولها ، وأسلم كثير من أهل المدينة ، فدخل عبد الله بن أبي فى الإسلام ظاهرا ، وقالت اليهود : تيقنا أنه النبى نجد نعته فى التوراة ، وآمن منهم جماعة ، وبقى على كفرهم آخرون ﴿ ومَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ (الأعراف : ١٨٦) .

شهداء المسلمين ببدر

وكان جملة من استشهد ببدر أربعة عشر رجلا ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار ستة من الخزرج واثنان من الأوس رضى الله عنهم .

فالمهاجرون الستة هم :

عبيده بن الحرث بن عبد المطلب قطعت رجله فى المبارزة مع عتبة بن ربيعة وأخيه وولده فمات بالصفراء ، فدفنه ﴿ ﷺ وآله﴾ بها .

و مهجع مولى عمر ابن الخطاب ﷺ ، قيل : أول قتيل وأول من يحيا يوم القيامة من شهداء هذه الأمة وكان قتله بسهم أرسله عامر بن الحضرمى .

وعمير بن أبي وقاص أخو سعد رضى الله عنهما ، روى أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ استصغر عميرا فرده فبكى فلما رأى بكاءه أذن له فى الخروج فقتل وهو ابن ستة عشر سنة .

وعقيل بن بكير الليثى ، وصفوان بن مضاء الفهرى ، وذو الشمالين عمير ، وقيل الحرث ، وقيل عمر الخزاعى .

* والثمانية الأنصار من الخزرج ستة هم : عوف بن عفراء وأخوه شقيقه معوذ بن عفراء ، وحارثة بن سراقة ، وزيد بن الحرث بن قيس بن مالك ، ورافع بن المعلى ، وعمير بن الحمام بن الجموح .

و الأوس اثنان هم : سعد بن خيثمة ، وبشر بن عبد المنذر رضى الله عنهم أجمعين ، وكلهم دفنوا ببدر ماعدا عبيد لتأخر وفاته رضى الله عنه دفن بسمراء ، وقيل بالروحاء .

فضل أهل بدر

أخرج البخارى عن حميد قال : سمعت أنسا ﷺ يقول : أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالت : يارسول الله قد عرفت مترلة حارثه منا فإن يكن فى الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع ؟ فقال﴿ ﷺ وآله﴾ : ويحك أو جنة واحدة ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه فى جنة الفردوس .

عن على كرم الله وجهه قال : بعثنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبا مرثد والزبير ــ وكلنا فارس ــ قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعيرها حيث قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معنا كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا، ما كذب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك .

فلما رأت الجد أو مت ــ أشارت ــ إلى حجزها وهى محجزة بكساء فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال عمر : يارسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى أن أضرب عنقه ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب : ما بى أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ أردت يكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : صدق ولا تقولوا له إلا خيرا ، فقال عمر : فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه ، فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو فقد غفرت لكم ؛ فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

وقد جاء فى فضل أهل بدر أحاديث وآثار منها : أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها ، قال جبريل عليه السلام : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة ، وفى رواية : إن للملائكة الذين شهدوا بدرا فى السماء لفضلا على من تخلف منهم .

وروى الطبرانى بسند جيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : اطلع الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، أو فقد وجبت لكم الجنة . أى : غفرت لكم ما مضى وما سيتم من الذنوب يقع مغفورا ، وقيل : إن ذلك كناية عن الحفظ من الوقوع فى الذنوب فى المستقبل ، ولو وقع شىء منها يلهمون التوبة لتغفر أو يوجد ما يكفر عنهم وليس فيه إباحة الذنوب ولا الإغراء عليها .

غزوة بنى سليم

ولما قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة من بدر إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه ﴿ﷺ وآله﴾ بنى سليم واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى أو ابن أم مكتوم .

وفى رواية أبى داود : إن استخلاف ابن أم مكتوم إنما كان على الصلاة بالمدينة دون القضايا والأحكام ، فإن الضرير لا يجوز له أن يحكم بين الناس لأنه لا يدرك الأشخاص ، ولا يثبت الأعيان ، ولا يدرى لمن يحكم ولا على من يحكم فأمر القضايا والأحكام يجوز أن يكون فرضه ﴿ﷺ وآله﴾ لسباع ، فلا مخالفة .

فلما بلغ ﴿ﷺ وآله﴾ ماء يقال له الكدر ، لأن به طيرا فى ألوانها كدرة ، فأقام ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربا وارتفع القوم ، وهربوا وبقيت نعمهم فظفر بها ﴿ﷺ وآله﴾ وانحدر بها إلى المدينة وقسمها بصرار ــ على ثلاثة أميال من المدينة ــ وكانت خمسمائة بعير ، وكانت غيبته عن المدينة ﴿ﷺ وآله﴾ خمس عشرة ليلة ، وكان لواؤه أبيض حمله الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

تزويج الإمام على عليه السلام بالسيدة فاطمة عليها السلام

وكان فى هذه السنة تزويج سيدنا على بالسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما . عقد عليها فى رمضان ، وقيل : فى رجب ، ودخل بها فى ذى الحجة ، وقيل : بنى بها بعد سبعة أشهر ونصف ، وكان عمرها خمس عشرة سنة ، وكان سن على كرم الله وجهه يومئذ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وأو لم عليها بكبش من عند سعد ، وأصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار وتمر ، واسمها الزهراء والبتول وهى سيدة نساء الدنيا ، حتى أنها أفضل من مريم رضى الله عنها .

ففى الخير قال ﴿ﷺ وآله﴾ : مريم خير نساء عالمها وفاطمة خير نساء عالمها . وقال : يابنية ألا ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ قالت ياأبتى فأين مريم ؟ قال : تلك سيدة نساء عالمها . قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : ما رأيت أحدا قط أفضل من فاطمة غير أبيها ﴿ﷺ وآله﴾ .

خطبة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى عقد الزواج

ولما أراد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يعقد ، خطب خطبة منها : الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع سلطانه ، المرهوب من عذابه وسطوته ، النافذ أمره فى سمائه وأرضه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بحكمته ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ثم إن الله تبارك اسمه ، وتعالت عظمته ، جعل المصاهرة سببا لاحقا ، وأمرا مفترضا ، أو شج به الأرحام وألزم به الأنام فقال عز من قائل :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

(الفرقان : ٥٤) . فأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد : ٣٩) . ثم إن الله تعالى أمر أن أزوج فاطمة من على ، على

أربعمائة مثقال فضة ، أرضيت ياعلى ؟ قال : رضيت .. بعد أن خطب على كرم الله وجهه .

من خطبة سيدنا على فى زواجه من السيدة فاطمة

الحمد لله ، شكرا لأنعمه وأياديه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، شهادة تبلغه وترضيه .
ولما تم العقد ، دعا ﴿ﷺ وآله﴾ بطبق بسر، فوضع بين يديه ثم قال للحاضرين :

انتهبوا . وليلة بنى بها رضى الله عنها ، قال لعلى: لا تحدث شيئا حتى تلقانى، فجاءت بها أم أيمن بركة حتى قعدت فى جانب البيت، وعلى فى جانب آخر ، وجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد صلاة العشاء الآخرة فقال : اهنأ أخى. قالت: أم أيمن أخوك زوجته ابنتك ؟! قال : نعم ، أى : هو كأخى فلا يمتنع على تزويجى إياه بنتى .

بركة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لفاطمة وعلى

ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾ لفاطمة : ائتنى بماء، فقامت تعثر فى ثيابها أو مرطها من الحياء، فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومج فيه ثم قال لها : تقدمى فتقدمت فنضح ثدييها وعلى رأسها وقال : اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، ثم قال : ائتونى بماء ، فقال على كرم الله وجهه : فعلمت الذى يريد فقمت ملأت القعب فأتيته به ، فأخذه فمج فيه وصنع بى كما صنع بفاطمة ، ودعا لى بما دعا لها به ثم قال : اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى شملهما ، وتلا قل هو الله أحد والمعوذتين ثم قال : ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

فراش الزوجين الكريمين رضى الله عنهما

وكان فراشهما رضى الله عنهما ، أهاب كبش، أى : جلده وكان لهما قطيفة، إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما، ثم مكث

﴿ ﷺ وآله﴾ ثلاثة أيام، لا يدخل على فاطمة وفى اليوم الرابع دخل عليهما، فى غداة باردة ، وهما فى تلك القطيفة فقال لهما : كما أنتما ، وجلس عند رأسهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما ، فأخذ على كرم الله وجهه إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفئها وأخذت فاطمة رضي الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك. وقالت له ﴿ ﷺ وآله﴾ فى بعض الأيام : يارسول الله مالنا فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، فقال لها : يابنية اصبرى فإن موسى بن عمران عليه السلام أقام مع امرأته عشر سنين ليس لهم فراش إلا عباءة قطوانية .

وعن على لم يكن لى خادم غيرها . وعنه أيضا : فاطمة شكت ما تلقى من أثر الرحى مما تطحن فأتى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ سبى فانطلقت.. فلم تجده ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبرت عائشة رضى الله عنها ، فلما جاء ﴿ ﷺ وآله﴾ أخبرته عائشة بمجيئها . قالت السيدة فاطمة رضى الله عنها: فجاء ﴿ ﷺ وآله﴾ إلينا ، وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم فقال :

على مكانكما فقعد بيننا ، حتى وجدت برد قدميه على صدرى وقال : ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى ، قلنا بلى قال : كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام إذا أخذتما مضاجعكما من الليل فكبرا ثلاثا وثلاثين ، وسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين.

وذكر الملا على القارىء فى سيرته وابن حجر الهيتمى فى الصواعق المحرقة أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أرسل أبا ذر ينادى عليا فرأى رحى تطحن فى بيته وليس معها أحد ، فأخبر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك فقال : (يأبا ذر أما علمت أن لله ملائكة سياحين فى الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد) . ولم يتزوج عليها حتى توفيت رضى الله تعالى عنهما .

غزوة بنى قينقاع

بنو قينقاع قوم من اليهود، كانت منازلهم بطحان مما يلى العالية ، وكانوا أشجع اليهود وكانوا صاغة ، وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه وعبد الله بن أبى بن سلول ، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد ، ونبذوا العهد ،أى : لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان عاهدهم ،وعاهدهم بنى قريظة وبنى النضير أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوا ، وقيل : على أن يكونوا معه لا عليه ، وقيل : على أن ينصروه على من دهمه من عدوه فهم أول من غدر من اليهود ، مع ما هم عليه من العداوة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسبب غدرهم ونقضهم العهد : أن امرأة من العرب ــ وكانت زوجة لبعض الأنصار الساكنين بالبدو ــ قدمت بجلب لها ، وهو ما يجلب ليباع من إبل وغنم وغيرها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ منهم، فجعل جماعة منهم يراودونها عن كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وقيل : خلة بشوكة وهى لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون وتواثبوا من كل جهة ، فبلغ الخبر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال ما على هذا أقررناهم ، فتبرأ عبادة بن الصامت رضى الله عنه من حلفهم وقال : يارسول الله أتولى رسول الله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار ، وتشبث به عبد الله بن أبى بن سلول ، و لم يتبرأ كما تبرأ عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، وأنزل الله فى ذلك : ﴿ ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ .. إلى قوله تعالى .. فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(المائدة : ٥١ ــ ٥٦).

دعوة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ لليهود ونصحه لهم

فجمعهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال لهم : يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، أى : ببدر وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله تعالى إليكم به، قالوا: يامحمد إنك ترى أنا قومك، أى: تظننا أنا مثل قومك ، ولا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وفى لفظ لتعلمن أنك لم تقابل مثلنا ، أى : لأنهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالا، وأشدهم بغيا وأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ۞ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا .. الخ الآية ﴾(آل عمران: ١٢،١٣).

يعنى وقعة بدر وأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء .. الخ الآية ﴾ (الأنفال : ٥٨) . ثم إن القوم تحصنوا فى حصونهم . فسار إليهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار ، وكان خروجه فى نصف شوال فى السنة الثانية من الهجرة ، واستمر إلى هلال ذى القعدة الحرام وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ واستعمل على المدينة أبا لبابة الأنصارى رضى الله عنه ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب وكانوا أربعمائة حاسر وثلاثمائة دراع ، فسألوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يخلى سبيلهم وأن يجلوا من المدينة أى : يخرجوا منها ، وأن لهم النساء ولبذرية ، ويجعلون بقية الأموال للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ومنها الحلقة وهى السلاح ، ولم يكن لهم نخيل ول أراضى تزرع ، فصالحهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على ذلك . فتزلوا وخمست أموالهم ، جعل منها أربعة أخماس للمؤمنين المجاهدين وخمس له ﴿ﷺ وآله﴾ .

شفاعة ا بن سلول فى اليهود ولعنة النبى لهم

ثم أجلاهم إلى الشام ، وقيل : نزلوا على أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأمر بهم أن يكتفوا فأراد قتلهم ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبى بن سلول وألح عليه فقال : يامحمد أحسن فى موالى ، فأعرض عنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من خلفه ، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويحك أرسلنى وغضب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى رأوا لوجهه سمرة لشدة غضبه ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم قال : ويحك أرسلنى ، فقال : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، فإنهم أعزتى وأنا امرؤ أخشى الدوائر ، وفى لفظ : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ،فإنهم أعزتي وأنا امر أخشى الدوائر، وفي لفظ: والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسرة أى : لا درع لهم ، وثلاثمائة دراع ،وقد منعونى من الأحمر والأسود ، وتحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خلوهم ، لعنهم الله ، ولعنه معهم ، وتركهم من القتل ، وقال له : خذهم ، لا يبارك الله لك فيهم ، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ .. الخ الآية ﴾ (المائدة : ٥٢) .

إشراف عبادة بن الصامت على إجلائهم

ثم أمر سول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يجلوا من المدينة ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، وأمهلهم ثلاثة أيام فجلوا منها ، بعد ثلاث أى بعد أن سألوا عبادة بن الصامت أن يمهلهم فوق الثلاث ، فقال : لا .. ولا ساعة واحدة ، وتولى إخراجهم وذهبوا إلى أذرعات بلدة بالشام ، و لم يمضى الحول عليهم حتى هلكوا أجمعين بدعوته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى قوله لابن أبى : لا بارك الله لك فيهم .

سفاهة ابن سلول

ويذكر أن ابن أبي بن سلول قبل خروجهم جاء إلى منزله ﴿ﷺ وآله﴾ : ليسأله فى إقرارهم ، فحجب عنه ، فأراد الدخول ، فدفعه بعض الصحابة رضى الله عنهم ، فصدم وجهه فى الحائط فشجه فانصرف مغضبا ، فقال بنو قينقاع : لا نمكث فى بلد يفعل فيها بأبي الحباب هذا ولا ننتصر له ، وتأهلوا للجلاء ، وقيل : الذى تولى إخراجهم محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه ، ولا مانع أن يكون هو وعبادة ابن الصامت اشتركا فى إخراجهم .

تقسيم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ سلاحهم

ووجد ﴿ﷺ وآله﴾ فى منازلهم سلاحا كثيرا ، لأنهم كانوا أكثر اليهود أموالا وأشدهم بأسا ، وأخذ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من سلاحهم ثلاث قسى أحدهم تدعى الكتوم ، لا يسمع لها صوت إذا رمى بها ، وقوسا تدعي الروحاء وقوسا تدعى البيضاء ، وأخذ درعين ، درعا يقال له السفدية ، والآخر يقال له فضة ، وثلاثة أرماح ، وثلاثة أسياف ، ووهب ﴿ﷺ وآله﴾ درعا لمحمد بن سلمة رضى الله عنه ودرعا لسعد بن معاذ رضى الله عنه ، وقسم بقية السلاح والأموال .

قتل أبى عفك اليهودى

وقدم فى (المواهب) قتل أبي عفك ، على غزوة بنى قينقاع فقال : ثم فى شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك اليهودى ، وكان شيخا كبيرا ، قد بلغ من العمر عشرين ومائة سنة ، وكان يحرض الناس على قتال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ويقول فيه الشعر فقال ﴿ﷺ وآله﴾ من لى بهذا الخبيث ؟ فقال سالم بن عمير : على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه .

فأمهل يطلب له غرة ، أى : غفلة ، حتى كانت ليلة صائفة نام أبو عفك بفناء مترله ، وعلم به سالم فأقبل إليه ، ووضع سيفه على كبده ثم اعتمد عليه حتى خشى أى : دخل فى الفراش ، فصاح عدو الله أبو عفك ، فثار إليه أناس ممن كانوا على موافقته فى الكفر والتحريض ، فأدخلوه مترله فمات فقبضوه ، ورجع سالم بن عمير رضى الله عنه إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فبشره بدلك فدعا له بخير .

غزوة السويق

لما أصاب قريشا ما أصابهم ، حلف أبو سفيان أن لا يمس النساء والطيب حتى يغزو محمدا .

فخرج فى مائتى راكب من قريش لبر يمينه ، حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد ، ثم أتى لبنى النضير وهم حى من اليهود وقصد حيى بن أخطب وكان من رؤساء بنى النضير، وكان مجيئه إليه فى الليل، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له لأنه خاف ، فانصرف وجاء إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير وصاحب كترهم ، أى : مالهم الذى كانوا يجمعونه ويدخرونه لنوابتهم فاستأذن عليه ، فأذن له .

فاجتمع به .. ثم خرج به إلى أصحابه ، فبعث رجلا من قريش فأتوا ناحية من المدينة فحرقوا نخلا منها ، ووجدوا رجلا من الأنصار هو معبد بن عمرو ، وحليفا للأنصار ، فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ، فعلم بهم الناس، فخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى طلبهم فى مائتين من المهاجرين والأنصار . وكان خروجه لخمس خلون من ذى الحجة ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر الأنصارى رضى الله عنه ، وجعل أبو سفيان وأصحابه يخفقون رواحلهم للهرب ، فجعلوا يلقون جورب السويق ، وهو عامة أزوادهم فأخذه المسلمون ، و لم يلحقوهم ، وانصرف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ راجعا إلى المدينة

وكانت غيبته ﴿ﷺ وآله﴾ خمسة أيام . ورأى أبو سفيان أنه بفعله ذلك ، خرج من حلفه ، وهو أنه لا يمس نساء ولا طيبا حتى يغزو محمدا .

الغسل من الجنابة

وحكى بعضهم : أن أبا سفيان عبر بذلك بقوله : لا يمس رأسه ماء من جنابة ، حتى يغزو محمدا ، وهذا يدل على أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ، ومن ثم قال الدميرى : إن الحكمة فى عدم بيان حكم الغسل فى آية الوضوء ، كون الغسل من الجنابة معلوما قبل الإسلام وذلك من بقية دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فهو من الشرائع القديمة .

سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف

وكانت لأربع عشر ليلة مضت من ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة ، على رأس خمسة وعشرين شهرا من الهجرة . بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ محمد بن مسلمة الأنصارى الأوسى ومعه أربعة من الأنصار إلى كعب بن الأشرف اليهودى، ليقتلوه . قال ابن إسحق : إن كعب بن الأشرف كان مع اليهود بالحلف .وكان أبوه عربيا من بنى نبهان ، أصاب دما فى الجاهلية فأتى المدينة ، فحالف بنى النضير ، فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق ، فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما ، ذا بطن ، وشاعرا مجيدا ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله فكان يعطى أحبار يهود ويصلهم .

فلما قدم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة جاء أحبار اليهود من بنى قينقاع ومن بنى قريظة إلى كعب بن الأشرف ، ليأخذوا صلتهم على عادتهم فقال لهم : ما عندكم من أمر هذا الرجل ؟ فقالوا : هو الذى كنا ننتظره ، ما أنكرنا من نعوته شيئا ، فقال لهم : قد حرمتم كثيرا من الخير ارجعوا إلى أهليكم ، فإن الحقوق فى مالى كثيرة . فرجعوا عنه خائبين ، ثم رجعوا إليه وقالوا : إنا عجلنا فيما أخبرناك به أولا ، ولما استنبأنا علماءنا ، غلطنا ، فليس

هو المنتظر ، فرضى عنهم ووصلهم ، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئا من ماله ، وكان يهجو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أشعاره ، ويحرض كفار قريش على قتاله .

وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حين قدم المدينة مأمورا بتأليف الناس والصبر على الأذى كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران :

(١٨٦) . ولأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ورد المدينة وأهلها أخلاط مجتمعون من قبائل شتى ، مختلفة أحوالهم وعقائدهم فأراد استصلاحهم بجمعهم على كلمة الإسلام . وكان المشركون واليهود، يؤذون المسلمين أشد الأذى ، فصبروا على ذلك . وكان كعب بن الأشرف من أشد الناس أذى للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وللمسلمين ، وكان قد عاهد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا يعين عليه أحدا ، فنقض العهد وسبه وسب أصحابه ، وكان من عداوته أنه لما قدم البشيران : بقتل من قتل ببدر وأسر من أسر قال كعب : أحق هذا ؟ ترون أن محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ؟

فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما أيقن الخبر ، ورأى الأسرى مقرنين كبت وذل وخرج إلى قريش يبكى على قتلاهم ، ويحضهم على قتال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وكان كلما نزل ببيت يحرض أهله وينشدهم الأشعار فيبلغ النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك فيدعو حسانا فيهجو من نزل عندهم ، ثم رجع إلى المدينة فتغزل فى نساء المسلمين، وذكرهن بسوء فلما أبى أن يترع عن أذاه قال رسول الله من لنا بابن الأشرف ؟ أى : من ينتدب لقتله ،فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا ، وقد خرج إلى المشركين بمكة فجمعهم على قتالنا ؟ .

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

(إخباره بحال كعب بن الأشرف بمكة وهو بالمدينة)

وجاء فى رواية : أنه حالف قريشا عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، فأخبر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بخبره أصحابه ، وكعب بمكة وقال لهم :إن الله أخبرنى بذلك ثم قرأ على المسلمين ما أنزل الله تعالى فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ۝ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥١، ٥٢) .

عن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنه قال : انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والمؤمنين ، ويمتدح عدوكم ويحرضهم عليه ، فلم يرضى بذلك حتى ركب إلى قريش ، فاستقواهم على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . فقال له أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ فقال : أنتم أهدى سبيلا وأفضل . فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ.. الخ الآية ﴾ وخمس آيات فيه وفى قريش ، فجزم عروة أنها نزلت فى كعب ونحوه .

قتل كعب بن الأشرف وما فيه من الحيلة

روى البخارى قال عمرو : سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ؟ فقام محمد بن مسلمة فقال: يارسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم ، قال : فأذن لى أن أقول شيئا قال: قل ، فجاء محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف فقال : إن هذا الرجل يعنى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قد سألنا صدقة ونحن ما نجد ما نأكله.

وفى رواية : إن نبينا قد أراد منا الصدقة ، وليس لنا مال نصدق ، وإنه قد عنانا ، وإنى قد أتيتك استسلفك قال كعب : وأيضا والله لتملنه ، قال : قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه

حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا طعاما . قال وأين طعامكم ؟ قالوا : أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه . قال: ألم يأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل .ثم أجابهم بأنه يسلفهم . وقال: أرهنونى، قالوا: أى شيء تريد ؟ قال: أرهنونى نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ،ولا نأمنك وأى امرأة تمتنع منك لجمالك؟- وقولهم هذا له على سبيل التهكم ،وإن كان هو فى نفسه جميلا- قال: فأرهنونى أبناءكم. قالوا وكيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ؟ ولكن نرهنك اللأمة،أى :السلاح، مع علمك بحاجتنا، قال :نعم-وإنما قالوا ذلك لئلا ينكر عليهم مجيئهم إليه بالسلاح-فواعده أن يأتيه.

فجاءه أيضا أبو نائلة وقال له:ويحك ياابن الأشرف إنى قد جئتك فى حاجة

أريد أن أذكرها لك ،فاكتم عنى ،قال: أفعل ، قال:كان قدوم هذا الرجل- يعنى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ -بلاء من البلاء .. عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحد، وقطعت عنا السبل، حتى جاع العيال وجهدت الأنفس ،وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا،فقال كعب :أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك ياابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال :إنىأردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك، وتحسن فى ذلك ،وإن معى أصحابا على مثل رأى،وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن إليهم ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء. فقال :إن فى الحلقة لوفاء. وكان أبو نائلة أخا لكعب من الرضاع،ومحمد بن مسلمة ابن أخيه من الرضاع، فجاءه محمد بن مسلمة وأبو نائلة ومعهما عباد بن بشر، والحرث بن أوس بن معاذ ،وأبو عيسى بن جبير ، وكلهم من الأوس . ولما فارقوا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، رجع ﴿ﷺ وآله﴾ إلى بيته وكان ذلك بالليل ، وكانت الليلة مقمرة ، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ، وكان حديث عهد بعرس فناداه أبو نائلة ، ثم بقية أصحابه فعرفهم ، فوثب فى ملحفته فأخذته امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ تحارب ،

وإن أصحاب الحروب لا يترلون فى مثل هذه الساعة ، قال لها : إنه أبو نائلة لو وجدنى نائما ما أيقظنى . فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر .

وفى رواية قالت : اسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . قال إنما هو ابن أخى محمد ابن مسلمة ، ورضيعى أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب ، فترل فتحدث معهم ساعة ، فتحدثوا معه ثم قالوا له : هل لك ياابن الأشرف أن تمشى إلى شعب العجوز – موضع قريب منهم – نتحدث به بقية ليلتنا .فقال: إن شئتم فخرجوا يتماشون .. فمشوا ساعة ثم إن أبا نائلة ، ادخل يده فى باطن رأسه ثم شم يده فقال ما رأيت كالليلة طيبا أعطر ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها ، وأمسكه من شعره وقال : اضربوا عدو الله .

وفى البخارى : أن ابن مسلمة قال لأصحابه: إذا ما جاء كعب فإنى قائل بشعره، أى : آخذ به ، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فاضربوه ، فترل إليهم منوشى، وهو ينفح منه بريح الطيب فقال ابن مسلمة: ما رأيت كالليلة طيبا ، فقال : عندى أعطر نساء العرب وأجملهن ، فقال : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال : نعم ، فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال : أتأذن لى ؟ قال نعم ، فيحتمل أن كلا من محمد ابن مسلمة وأبو نائلة استأذنه فى ذلك ، وكان كعب يدهن بالمسك المفتت والعنبر حتى يتلبد فى صدغيه ، فلما تمكن أبو نائلة أو محمد بن مسلمة من إمساكه ضربوه بأسيافهم ، وقد صاح عدو الله صيحة منكرة ، وصاحت امرأته ياآل قريظة والنضير مرتين فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه نار، قال محمد بن مسلمة : فوضعت سيفى فى ثنته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ، فوقع عدو الله،فجزوا رأسه ، واحتملوه فى مخلاة كانت معهم، واجتمعت اليهود من كل ناحية ، فأخذوه على غير الطريق ففاتوهم فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام النبى ﴿ﷺ وآله﴾ تلك الليلة يصلى ، فلما سمع تكبيرهم كبر وعرف أهم قد قتلوه ثم انتهوا إليه

فأخبروه بمقتل عدو الله فقال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك يارسول الله ورموا برأسه بين يديه ، فحمد الله تعالى على قتله لعنه الله .

حال المسلمين واليهود بعد قتل كعب بن الأشرف

عن بن عباس رضى الله عنهما قال : أصاب ذباب السيف الحرث بن أوس بن معاذ رضى الله عنه فجرح فى رجله أو رأسه حتى نزف الدم ، فتفل ﴿ﷺ وآله﴾ على جرحه فلم يؤذه بعد وقد خافت اليهود بعد قتل عدو الله ، فليس بالمدينة يهودى إلا وهو يخاف على نفسه .

وفى رواية : فلما أصبح ﴿ﷺ وآله﴾ قال : من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه ، فخافت اليهود فلم يطلع من عظمائهم أحد ، و لم ينطقوا وخافوا أن يبيتوا ، وأصبحوا مذعورين فأتوا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقالوا: قتل سيدنا غيلة ، فذكرهم صنيعه ، وما كان يحرض عليه ويؤذى المسلمين فخافوا و لم ينطقوا ، ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينهم وبينه صلحا، فكان ذلك الكتاب مع على رضى الله عنه ولا يشكل قتله على هذا الوجه ، لأنه نقض عهد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهجاه وسبه ، وكان عاهده أن لا يعين عليه أحدا ، ثم جاء مع أهل الحرب معينا عليه .

غزوة ذى أمر " غطفان "

بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن جماعة من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ، جمعهم دعثور بن الحرث محارب سماه بعضهم غورث بن الحرث، فخرج إليهم ﴿ﷺ وآله﴾ في أربعمائة وخمسين رجلا، استعمل على المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلما سمعوا بمجيئه ﴿ﷺ وآله﴾ هربوا فى رءوس الجبال وأصاب المسلمون رجلا منهم يقال له حبار أو حبان ،فأدخل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبره بخبرهم ، فقال : لن يلاقوك سمعوا بمسيرك وهربوا فى رءوس الجبال ، وأنا

سائر معك فدعاه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للإسلام فأجابه ، وضمه إلى بلال ليعلمه الشرائع ، وأخذ ذلك الرجل بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمين طريقا وهبط بهم على قومه.

فوصل المسلمون ما يقال له (ذو أمرّ) فعسكر به ﴿ﷺ وآله﴾ وأصابهم مطر كثير بلت ثياب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وثياب أصحابه فترع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثوبيه، ونشرهما على شجرة ليجفا واضطجع تحتها . وكان ذلك بموضع قريب من المشركين،فكانوا ينظرون إليه وهم فى رءوس الجبال .

عصمة الله لنبيه ﴿ﷺ وآله﴾

واشتغل المسلمون بشئوهم،فقال المشركين: لد عثور وكان شجاعا سيد قومه، قد انفرد محمد فعليك به.

وفى رواية قال: قتلنى الله إن لم أقتل محمدا، فأقبل ومعه سيفه، حتى قام على رأسه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: من يمنعك منى اليوم؟ فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾:الله. ودفع جبريل فى صدره،فوقع السيف من يده،وسقط هو على ظهره،فأخذ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ السيف وقال له:من يمنعك منى؟ قال له:لا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فرد عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سيفه ثم أتى قومه، فجعل يدعوهم إلى الإسلام وأخبرهم أنه رأى رجلا طويلا دفع فى صدره فوقع على ظهره،قال: فقلت إنه ملك فأسلمت وعلمت أنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولا أكثر عليه جمعا، فاهتدى به خلق كثير رضى الله عنه وأنزل الله تعالى فى ذلك: ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ (المائدة: ١١). وقيل: نزلت فى بنى النضير حين أرادوا اغتياله ﴿ﷺ وآله﴾ ،وقيل: نزلت فى كفار قريش لما أرادوا الفتك به ﴿ﷺ وآله﴾ وهو والمسلمين بعسفان يصلون صلاه الخوف، ثم رجع ﴿ﷺ وآله﴾ و لم

يلق حرباً. وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة،وكانت هذه الغزوة لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول.

غزوة بحران

موضع بناصية الفرع،وتسمى غزوة بنى سليم أيضاً،بينها وبين المدينة ثمانية برد،ولما بلغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن جمعاً كثيراً من بنى سليم اجتمعوا ببحران، خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ فى ثلاثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الأول فى السنة الثالثة للهجرة و لم يظهر وجها للمسير، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه وأحث السير حتى بلغ بحران ،وكان قبل وصوله إليها بليله لقى رجلاً من بنى سليم، فأخبره أن القوم تفرقوا، فحسبه مع رجل فلما وصل إليها ،وجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة و لم يلق كيداً وأطلق الرجل ،وكانت غيبته ﴿ ﷺ وآله﴾ عشر ليال بعد أن أقام بذلك المحل أياما.

وفى هذه السنة عقد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لعثمان بن عفان على ابنته أم كلثوم بعد وفاة أختها رقية،وفى شعبان من هذه السنة تزوج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ من السيدة حفصة بنت عمر رضى الله تعالى عنه بعد انقضاء عدتها ،وكان قد عرضها أبوها على أبى بكر وعثمان فلم يجبه أى منهما فقال عمر لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ :إن الله زوج عثمان خيرا من ابنتك وزوج ابنتك خيرا من عثمان..فتزوجها﴿ ﷺ وآله﴾ .

الفصل الرابع

غزوة أحد

وكانت فى شوال سنة ثلاث-باتفاق الجمهور وشذ من قال سنه أربع من الهجرة،وأحد-جبل من جبال المدينة، قيل:سمى بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال

التى هناك ،وهذا الجبل يقصد لزيارة سيدنا حمزة بن عبد المطلب ومن فيه من الشهداء ﵁ ،وهو على نحو ميلين من المدينة "البخارى".

أحد يحبنا.. قال عباس بن سهل عن ابن حميد عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وعن قتادة سمعت أنسا رضى الله عنه أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال:هذا جبل يحبنا ونحبه.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ طلع على أحد فقال :هذا جبل يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت ما بين لابتيها.

قصة غزوة أحد فى صحيح البخارى

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٢١).وقوله جل ذكره: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ۝ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (آل عمران :١٣٩-١٤٣) .

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلي قوله تعالي : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ... .إلخ الآية ﴾ (آل عمران : ١٥٢ — ١٦٩)

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : صلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ علي قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات بعد أن طلع المنبر : إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ، قال : وكانت آخر نظرة نظرها إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

عن البراء رضى الله عنه قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﴿ﷺ وآله﴾ جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير قال : لا تبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، فلما التقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتدون في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ٠٠ فقال عبد الله : عهد إلي النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبو صرف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلا ، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد ؟ فقال: لا تجيبوه، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : لا تجيبوه ، فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ، فلوا كانوا أحياء لأجابوه ، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت ياعدو الله أبقي الله عليك ما يخزيك ، قال أبو سفيان : أعل هبل ، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾ : أجيبوه ، قلوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله أعلي وأجل ٠ وقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزي لكم ، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾ : أجيبوه ، قالوا : ما

نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولي لكم ، قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، وتجدون مثله لم آمر ولم تسوءني .

سبب غزوة أحد

إن قريشا لما أصابهم يوم بدر ما أصابهم ، مشي عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية – وكلهم أسلموا بعد ذلك رضى الله عنهم – ومشى معهم رجال آخرون من أشراف قريش إلي أبي سفيان رضى الله عنه – فإنه أسلم بعد ذلك – وإلي كل من له تجارة في تلك العير التي كانت سببا في وقعه بدر وكانت تلك العير موقوفة بدار الندوة ، لم تعط لأربابها فقالوا : إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال علي حربه لعلنا ندرك منه ثأرا عمن أصاب منا ، ونحن طيبو النفس إن تجهزوا بربح هذه العير جيشا إلي محمد ، فقال : أبو سفيان : وأنا أول من أجاب إلي ذلك ، ونبو عبد مناف معي ، فجعلوا لذلك ربح المال ، فسلم لأهل العير رءوس أموالهم وكانت خمسين ألف دينار ، وأخرجوا أرباحها وكان الربح لكل دينار دينار ، فكان الذي أخرج خمسين ألف دينار وتجهزت قريش ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة ،وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الجمحي : ياأبا عزة إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك ، ولك علي إن رجعت أن أغنمك ، وإن أصبت اجعل بناتك مع بناتي ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر فقال : إن محمدا قد من علي ، وأطلقني – يعني يوم بدر – وأخذ علي أن لا أظاهر عليه أحدا ، حين أطلقني فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال : بلي فأعنا بلسانك .

فخرج أبو عزة ومسافع ، يستنفران الناس بأشعارهم ، فقيل : إن مسافعا لم يعرف له إسلام ، وقيل : أسلم بعد ذلك ، وأما أبو عزة فجيء به إلي النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فأمر عاصم بن ثابت رضى الله عنه فضرب عنقه ، ودعا جبير بن مطعم رضى الله عنه – فإنه أسلم بعد ذلك – غلاما حبشيا يقال له وحشى رضى الله عنه – فإنه أسلم بعد

ذلك – وكان يقذف بحربة له ، قذف الحبشة قلما يخطىء بها فقال له : أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب بعمي طعيمة بن عدي فأنت حر ، لأن حمزة هو القاتل لطعيمة بن عدي يوم بدر ، وقيل : إن انبة سيده طعيمة قالت له : إن قتلت محمدا أو حمزة أو عليا في أبي فإني لا أري في القوم كفؤا له غيرهم ، فأنت عتيق .

فسار القوم بالقيان والدفوف والمعازف ، أي : آلات الملاهي والخمور والبغايا ، وخرج من نساء قريش خمس عشرة امرأة مع أزواجهن منهم هند بنت عتبة ، زوج أبي سفيان رضى الله عنهما – فإنهما أسلما عام الفتح هي وزوجها – وخرجت أم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة بن أبي جهل رضى الله عنهما – فإنهما أسلما أيضا – وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحرث ابن هشام ، وربطة بنت منبه السهمية مع زوجها عمرو بن العاص وغيرهن من النسوة يبكين قتلي بدر ، وينحن عليهم ، ويحرضنهم علي القتال وعدم الهزيمة والفرار ٠٠ وكان خروجهن من مكة لخمس مضين من شوال ٠

العباس وكتابه للنبي ﴿ﷺ وآله﴾

وكتب العباس للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبره بجمعهم وخروجهم وراودوه علي الخروج معهم ، فأبي واعتذر بما لحقه يوم بدر ، ولم يساعدهم بشيء من المال ، فجاء كتابه للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ وهو بقباء ،وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بني غفار استأجره وشرط عليه ، أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك ٠ فلما جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لأبي بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أبيا ، ثم نزل ﴿ﷺ وآله﴾ علي سعد بن الربيع ، فأخبره بكتاب العباس رضى الله عنه فقال : والله إني لأرجو أن يكون خيرا ، فاستكتمه إياه ، ولما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من عنده ، قالت له امرأته : ما قال لك ؟ فقال لها : يا أم محمد ما أنت وذاك ؟ فقلت : قد سمعت

ما قال وأخبرته بما قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فاسترجع وأخذ بيدها ، ولحق النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وأخبره خبرها فقال : يارسول الله إني خفت أن يفشوا الخبر ، فتري أني أنا المفشى له وقد استكتمتني إياه فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : خل عنها ٠٠ رضى الله عنها وعنه ٠

تحالف قريش يدا واحدة ضد المسلمين

وسارت قريش ، وهو ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس وسبعمائة دراع ، ومعهم الأحابيش الذين حالفوا قريشا وهم بنو المصطلق ،وبنو الهون بن خزيمة ، واجتمعوا عند (حبيش) وهو جبل بأسفل مكة ، وتحالفوا علي أهم مع قريش يدا واحدة ، ما سجا ليل ووضح نهار ، ومارسى حبيش مكانة ، فسموهم أحابيش باسم الجبل ، وقيل سموا بذلك لتحبشهم ، أي : تجمعهم ٠

من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ أبو عامر الراهب

وخرج معهم أبو عامر الراهب في سبعين فارسا من الأوس ، وكان أبو عامر الراهب في المدينة مقاوما للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ومباعدا له ، ومنكرا لنبوته ،وكان قبل ذلك مترهبا ، ويزعم أنه ينتظر النبي المبعوث ، ويذكر للناس كثيرا من صفاته ، ويقول لهم : قد قرب خروجه ، فلما هاجر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلي المدينة ، واتضحت صفاته للأنصار ، واتبعوه ، حسده أبو عامر وأنكر نبوته ، وكان رئيسا في الأوس ، كعبد الله بن أبي في الخزرج فكل منهما حسد النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لكن عبد الله بن أبي دخل في الإسلام ظاهرا ، وهذا خرج من المدينة كافرا مباعدا ، فدعا عليه النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بأنه يموت وحيدا طريدا فاستجاب الله دعاءه ،وسماه (الفاسق) بدلا من الراهب ٠

غسيل الملائكة

وأما ابنه حنظلة فهو من فضلاء الصحابة رضى الله عنه وهو من المستشهدين بأحد ،وهو الذي غسلته الملائكة ،ومات أبو عامر الفاسق بأرض الروم كافرا وحيدا طريدا

أحبابه لدعائه ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه لما فتحت مكة خرج فارا إلي الروم ، ثم إن القوم بعد أن تجهزوا خرجوا وقائدهم أبو سفيان فسار بهم حتى نزلوا ببطن الوادي ، من قبل أحد مقابل المدينة وكان وصولهم يوم الأربعاء ثاني عشر من شوال فأقاموا به الأربعاء والخميس والجمعة بذى الحليفة ، وأرجفت اليهود والمنافقون فبعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عينين له ، أى : جاسوسين ، فأتيا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بخبرهم ، ويقال : إن عمرو بن سالم الخزاعى ، مع نفر من خزاعة، فارقوا قريشا من ذى طوى وجاءوا إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبروه خبرهم وانصرفوا.

وحرست المدينة ، وبات سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة رضى الله عنهم وعليهم السلاح فى المسجد بباب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى أصبحوا .

رؤيا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأحد وتأويلها

ورأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رؤيا قال : رأيت البارحة فى منامى خيرا رأيت بقرا تذبح، ورأيت فى ذبابة سيفى – وهو ذو الفقار – ثلما وفى لفظ كأن ظبة سيفى انكسرت ، وفى لفظ : ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة ، وكأنى مردف كبشا ، فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، وأولت الدرع الحصينة " المدينة " وأولت الكبش بأنى أقتل صاحب الكتيبة .

وقد صدق الله رؤياه ﴿ﷺ وآله﴾ فكان الرجل الذى من أهل بيته سيدنا الحمزة سيد الشهداء رضى الله عنه ، وقتل سيدنا على كرم الله وجهه طلحة بن عثمان العبدرى صاحب لواء المشركين فهو صاحب الكتيبة ، وكبش القوم سيدهم .

وقال عروة بن الزبير رضى الله عنه وجماعة : كان الذى بسيفه ما أصاب وجهه الشريف ﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ وكسروا رباعيته ، وجرحوا شفته السفلى .

المدينة درع حصينة

ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه امكثوا بالمدينة ، فإن دخل القوم المدينة ، قاتلناهم ورموا من فوق البيوت ، فأنا أعلم بها منهم – وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهى كالحصن – وكان ذلك رأى أكابر المهاجرين والأنصار ووافق على ذلك عبد الله بن أبي بن سلول ، أى : فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أرسل إليه يستشيره تألفا له ولم يستشره قبل ذلك ، فكان رأى عبد الله بن أبي بن سلول مع رأيه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال رجال من المسلمين لم يحضروا بدرا وأسفوا على ما فاتهم من مشهدها: يارسول الله إنا كنا نتمنى هذا اليوم .. اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم ، فقال ابن أبي : يارسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله فإن أقاموا .. أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا خائبين كما جاءوا ، فكان رأى عبد الله بن أبي مع رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأشار بالخروج جماعة ممن استشهد يومئذ – وكان غالبهم ممن أسف على ما فاتهم من مشهد بدر – أخرج بنا لأعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا ، أى : فيكون ذلك جراءة منهم علينا ، والله لا نطمع العرب فى أن تدخل علينا منازلنا ، وفى لفظ أن الأنصار قالوا : يارسول الله ما غلبنا عدوا لنا أتانا فى دارنا ، أى : فى ناحية من نواحيها ، فكيف وأنت فينا ؟ ووافقهم على ذلك حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وقال للنبى

﴿ﷺ وآله﴾ : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجادلهم بسيفى خارج المدينة ، كل ذلك ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كاره للخروج فلم يزالوا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى وافق على ذلك وصلى الجمعة بالناس ثم وعظهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بذلك ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا ، أى : اجتمعوا ، وقد حضر أهل العوالى

، ثم دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيته ومع أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فعمماه وألبساه ، وصف الناس ينتظرون خروجه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما : استكرهتم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على الخروج فردوا الأمر إليه : فما أمركم به – وما رأيتم له فيه هوى – فأطيعوه ، فخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد لبس لأمته ، وظاهر بين درعين ، أى : لبس درعا فوق درع ، وأظهر الدرع وحزم وسطها بمنطقة من أدم ، من حمائل سيفه ﴿ﷺ وآله﴾ وتقلد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ السيف، وألقى الترس فى ظهره ، أى : وفى رواية فركب ﴿ﷺ وآله﴾ فرسه " السكب " وتقلد القوس وأخذ قناثه بيده ، ولا مانع أن يكون جمع بين ذلك ، فقالوا له ﴿ﷺ وآله﴾ :ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك للخروج فاصنع ما شئت . وفى رواية : إن شئت فاقعد ، فقال : قد دعوتكم إلى القعود فأبيتم وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، وندم الذين كانوا أشاروا عليه ﴿ﷺ وآله﴾ بالخروج •

عقده ﴿ﷺ وآله﴾ الألوية

وعقد ﴿ﷺ وآله﴾ الألوية ، لواء للأوس ، وكان بيد أسد بن حضير ، ولواء للمهاجرين، وكان بيد على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقيل : بيد مصعب بن عمير ، لأنه من بنى عبد الدار وهم أصحاب اللواء فى الجاهلية ، ولواء الخزرج ، وكان بيد

الحباب بن المنذر ، وقيل : بيد سعد بن معاذ رضى الله عنه • وخرج ﴿ﷺ وآله﴾ فى ألف رجل ، وقيل : تسعمائة ولعله تصحيف عن سبعمائة لما قيل من أن عبد الله بن لأبى ابن سلول رجع بثلاثمائة فبقى سبعمائة من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منهم مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه ﴿ﷺ وآله﴾ يعدوان ، سعد ين معاذ ، وسعد بن

عباده دار عين رضى الله تعالى عنهما ، واستعمل ﴿ﷺ وآله﴾ على المدينة ابن أم مكتوم .

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ لا ينتصر بمشرك على مشرك

وسار ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أن وصل رأس الثنية ، وعندها وجد كتيبة كبيرة ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : حلفاء بنى عبد الله بن أبى بن سلول من يهود فقال: أسلموا ، فقيل : لا ، فقال : إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك ، فردوهم فعاد عبد الله بن أبى أبن سلول بثلث الناس ، فقال أطاعهم وعصانى ، وكان من تبعه أهل النفاق والريب وأتبعهم عبد الله بن حزام أخو بنى سلمة ، يذكرهم الله أن لا يخذلوا نبيهم فقالوا : نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم وانصرفوا ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أبعدكم الله أعداء الله ، فيسغني الله عنكم عنكم وبقى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى سبعمائة . وقالت طائفة من الأوس ، لم تكن سمعت بقوله ﴿ﷺ وآله﴾ : إنا لا ننتصر بأهل الشرك على أهل الشرك ، ألا نستعين بحلفائنا من يهود، أى : يهود بنى قريظة ، وكانوا حلفاء سعد بن معاذ وكان فى الأنصار كالصديق في المهاجرين فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لا حاجة لنا فيهم وسار ﴿ﷺ وآله﴾ وعسكر بالشيخين وهما أطمان ، أى : جبلان ، وعند ذلك عرض قومه ، فرد جمعا شبابا لم يرهم بلغوا خمس عشرة سنة بل أربع عشرة سنة منهم عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير، و عرابة بن أوس خلافا لمن أنكر صحبته ، وأبو سعيد الخدرى ، وسعد بن خيثمة رضى الله عنهم ، وزيد بن حارثة الأنصارى ، كان أبوه حارثة من المنافقين ، من أصحاب مسجد الضرار ، ورافع بن خديج ، وسمرة بن جندب .

السبق إلى الجهاد

ثم أجاز ﴿ﷺ وآله﴾ رافع بن خديج ، لما قيل له : إنه رام ، وأصيب فى ذلك اليوم بسهم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أنا أشهد له يوم القيامة . وعندما أجازه قال

سمرة بن جندب لزوج أمه : أجاز رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رافع بن خديج ، وردنى ، وأنا أصرعه فأعلم بذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : تصارعا . فصرع سمرة بن جندب رافعا فأجازه ﴿ﷺ وآله﴾ .

بركة دعوته ﴿ﷺ وآله﴾ لابن حبته

وممن رده ﴿ﷺ وآله﴾ يوم أحد لصغر سنه سعد بن حبته ، عرف بأمه حبته ، فلما كان يوم الخندق رآه ﴿ﷺ وآله﴾ يقاتل قتالا شديدا ، فدعاه ومسح على رأسه ، ودعا له بالبركة فى ولده ونسله ، فكان عما لأربعين ، وخالا لأربعين ، وأبا لعشرين من ولده، ومن ولده أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رضى الله تعالى عنهم .

رؤيا النبى ﴿ﷺ وآله﴾لحمزة بن عبد المطلب

فما فرغ العرض ، إلا وقد غابت الشمس ، فأذن بلال بالمغرب فصلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء فصلى بهم رضى الله عنهم ، وبات واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة فى خمسين رجلا يطوفون بالمعسكر ونام ﴿ﷺ وآله﴾ وذكوان بن عبد القيس يحرسه ، لم يفارقه لما قال ﴿ﷺ وآله﴾ من يحرسنا الليلة ؟ حتى كان السحر ، وجاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال : لقد رأيت ، أى : فى النوم ، الملائكة تغسل حمزة رضى الله تعالى عنه . وأولج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى السحر ، فحانت صلاة الصبح بالشوط– حائط بين المدينة وأحد – ومن ذلك المكان رجع عبد الله بن أبي بن سلول ، فلما رجع بمن معه قالت طائفة : نقتلهم ، وقالت طائفة أخرى : لا نقتلهم ، وهما أن يقتتلا . والطائفتان هما بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم ﴾ (النساء :٨٨) أي: ردهم إلي كفرهم ، بما كسبوا .وقال ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه : من يخرج بنا على القوم من كثيب ، أي : من طريق قريب ، لا يمر بنا عليهم ، فقال أبو خيثمة : أنا يارسول الله ، فنفذ به من حرة بني حارثة وبين أموالهم حتى دخل في حائط للمربع

بن قيظي ، فلما سمع حس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن معه قام الحارث وكان رجلا منافقا ضريرا ، فقام يحثي التراب ، أي : في وجوههم • ويقول : إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي وأخذ حفنة من تراب في يده وقال : والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لضربت بها وجهك يامحمد ، فابتدر إليه سعد بن زيد فضربه بالقوس في رأسه فشجه وأراد القوم قتلة ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى البصر والقلب ، وغضب له ناس من بني حارثة ، وكانوا علي مثل رأيه منافقين لم يرجعوا مع من رجع مع عبد الله بن أبي بن سلول فهم بهم أسيد بن حضير ، حتى أومأ إليه – أي أشار – رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بترك ذلك ، وذب فرس بذنبه فأصاب قراب سيف صاحبه فاستله، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : سيوفكم فإني أري السيوف ستسل اليوم ، وسار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى نزل بعدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلي أحد واستقبل المدينة ، وصف المسلمين في جبل أحد ، بعد أن بات تلك الليلة ، وحانت صلاة الصبح ، والمسلمون يرون المشركين فأذن بلال ، وأقام الصلاة •

من خطبة النبي بأحد

وصلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأصحابه صفوفا ، وخطب خطبة حثهم فيها علي الجهاد ، ومن جملة ما ذكر فيها : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيا وامرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومن استغني عنها استغني الله عنه والله غني حميد ، وما أعلم من عمل يقربكم إلي الله تعالي إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلي النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نفث ، أي : أوحي ، وألقي في روعي ، أي : قلبي ، الروح الأمين الذي هو جبريل أنه لن تموت نفس حتي تستوفي أقصي رزقها لا ينقص منه شئ وإن أبطأ عنها •• فاتقوا الله ربكم وأجملوا في الطلب – أي

أحسنوا – أي : طلب الرزق ، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكي تداعي إليه سائر جسده والسلام عليكم ٠

تحذير النبي ﴿ﷺ وآله﴾ للرماة

عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : لقينا المشركين يومئذ ، أي : يوم أحد ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير ، وسبعمائة دراع ، وجعلوا علي الميمنة خالد بن الوليد ، وعلي الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلي الخيل صفوان بن أمية أو عمرو بن العاص ، وعلي الرماة عبد الله بن ربيعة وكان فيهم مائة رام ، والظعن خمس عشرة امرأة ٠

وكان المسلمون مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ سبعمائة ، وفرسه ﴿ﷺ وآله﴾ وفرس أبي بردة بن نيار ٠ وأجلس النبي ﴿ﷺ وآله﴾ جيشا من الرماة بالنبل وكانوا خمسين رجلا ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير بن النعمان أخا بني عمرو بن عوف ، وقال : لا تبرحوا من مكانكم ٠ وفي رواية زهير في الجهاد : حتى أرسل إليكم ، وعند ابن اسحق انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فإثبت مكانك ٠

وفي رواية : إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا علي القوم أو وطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ٠ وزاد في رواية : إن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ٠

وفي رواية قال للرماة : الزموا مكانكم لا تبرحوا منه فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى تدخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدافعوا عنا وارشقوهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم علي النبل ، وإنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ٠٠ اللهم إني أشهدك عليهم ٠

أبو دجانة وسيف المصطفي ﴿ﷺ وآله﴾

وأخرج ﴿ﷺ وآله﴾ سيفا كان مكتوبا في إحدى صفحتيه

في الجبن عار وفي الإقبال مكرمة   والمرء يجبن لا ينجو من القدر

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : من يأخذ هذا السيف بحقه فقام إليه رجال فبسطوا أيديهم وكل منهم يقول : أنا يارسول الله ، منهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والزبير رضى الله عنهم ، فأمسكه عنهم ولم يعطه لهم ، حتى قام أبو دجانة واسمه سماك بن أوس الأنصاري رضى الله تعالي عنه فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال: أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني قال : أنا آخذه بحقه يارسول الله ، قال : لعلك إن أعطيتكه تقاتل في الكبول ، أي : مؤخر الصفوف ، قال : لا يارسول الله ، فأعطاه إياه وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب . فلما رآه ﴿ﷺ وآله﴾ يتبختر قال : إنها لمشيه يبغضها الله تعالي إلا في مثل هذا الموطن ، لأن فيها دليل علي عدم الاكتراث بالعدو .

وليس في هذه القصة دليل علي أن أبا دجانة أشجع من النفر الذين منعهم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ إعطاء السيف ، بل هذه خصوصية لأبي دجانة ، ولعل ذلك بوحي من الله تعالي لإظهار شأن الأنصار وفضلهم حيث أعطاه لرجل منهم .

قال الزبير رضى الله تعالي عنه : لما منعنيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ – وكان طلبه ثلاث مرات وأعطاه أبا دجانة – قلت : والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة ؟ فاتبعته فأخذ عصابة له حمراء مكتوبا في أحد طرفيها (نصر من الله وفتح قريب) وفي طرفها الآخر (الجبانة في الحرب عار ومن فر لم ينج من النار) فعصب بها رأسه فقال الأنصار : أخرج عصابة الموت فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي   ونحن بالسفح لدي النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكبول   أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقي أحدا من المشركين إلا قتله قال أنس : ففلق أبو دجانة بالسيف هام المشركين ، قال الزبير : وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا ذفف عليه ، أي: قتله، فجعل كل واحد منهما ، يدنو من صاحبه فدعوت الله تعالي أن يجمع بينهما

، فالتقيا، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة ، فاتقاه بدرقته فعضده بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته حمل بالسيف علي رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها •

قال أبو دجانة : رأيت إنسانا يحمي الناس ، أي: يشجعهم حمسا شديدا ، فسرت إليه فلما حملت السيف عليه ولول ، أي: دعا بالويل ، أي: قال : ياويلاه ، فعلمت أنه امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن أَضرب به امرأة •

وعن الزبير رضى الله عنه قال : خرج أبو دجانة بعد ما أخذ السيف ، واتبعته فجعل لا يمر بشئ إلا أفراه وهتكه ، وفلق به المشركين ، وكان إذا شحذه بالحجارة ، ثم يضرب به العدو كأنه منجل ، حتى أتي نسوه في سفح الجبل ومعهن هند وهي تغني تحرض المشركين ، فحل عليها ، فنادت بالصخرة فلم يجبها أحد فانصرف عنها ، فقلت له : كل سيفك رأيته فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة ، قال : كرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ امرأة لا ناصر لها •

أبو عامر الراهب وتحريض النساء

وعند اصطفاف القوم نادي أبو سفيان بن حرب : يامعشر الخزرج خلوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم ، فشتموه أقبح شتم ، ولعنوه أشد اللعن رضي الله تعالي عنهم •

وعند ابن سعد في الطبقات : كان أول من أنشب الحرب بينهم أبو عامر الراهب وسماه النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ الفاسق • وكان بالمدينة •• فلما هاجر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ حسده وكفر به وخرج إلي مكة ، وكان يعد قريشا لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان • فخرج بمن معه مع من خرج من قريش فنادي أبو عامر ، فقال المسلمون لا مرحبا بك ولا أهلا يافاسق ، ولا أنعم الله بك عينا ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان معه عبيد قريش فتراموا بالحجارة هم والمسلمون ، حتي ولي أبو عامر وأصحابه ، وجعل نساء المشركين يضربن بالدفوف و العرابيل

ويحرضن ويذكرهم قتلي بدر ويقلن : ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار ٠ ضربا بكل بتار ٠ وويها : كلمة إغراء وتحريض كما تقول دونك فلان ، والأدبار الأعقاب ، أي : الذين يحمون أعقاب الناس ، والبتار القاطع ، ويقلن أيضا : نحن بنات طارق ٠ نمشي علي النمارق ٠ مشي القطا ببوارق ٠ ذو المسك في المفارق ٠ أن تقبلوا نعانق ، ونفرش النمارق ٠ أو تدبروا نفارق ٠ فراق غير دامق ٠ والطارق : النجم ، قيل : المراد بنات رجل بلغ العلو وارتفاع القدر كالنجم ٠ وكان النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ، إذا سمع تحريض النساء وقولهن ذلك قال: اللهم بك أجول وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبى الله ونعم الوكيل٠

حوارى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

ولابن عساكر : فلما لقيناهم ، وجعل الرماة يرشقون خيلهم بالنبل قتلوا هوارب ، وخرج رجل من المشركين ، على بعير له فدعا للبراز فأحجم عنه الناس ، حتى دعا ثلاث فقام إليه الزبير رضى الله عنه فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه فاقتتلا فوق البعير فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : الذى يلى حضيض الأرض مقتول ، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير رضى الله عنه فذبحه ، فأثنى عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : لكل نبى حوارى وإن حواريي الزبير ٠ وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : لو لم يبرز له الزبير لبرزت له ٠ لما رأى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من أحجام الناس عنه ٠ وخرج رجل من المشركين بين الصفين وهو طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكان بيده لواء المشركين ،وكان قال لهم أبو سفيان : إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، فإما أن تكفونا وإما أن تخلوا بيننا وبين اللواء ، يحرضهم بذلك ، فقالوا : ستعلم إذا التقينا كيف نصنع ٠٠ وذلك أراد لأن اللواء كان فى بنى عبد الدار وهو منهم ، فصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء من يبارز ؟ مرارا ، فلم يخرج إليه أحد . فقال : ياأصحاب محمد ، زعمتم أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم

بسيوفنا إلى الجنة ،فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفى إلى الجنة ؟ • كذبتم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم فبرز له على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فالتقيا بين الصفين فبدره على فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوقع وهو كبش الكتيبة • رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأظهر التكبير وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نقصت صفوفهم • وفى رواية : أنه ضربه فقطع رجله ووقع على الأرض وبدت عورته فقال : ياابن عم أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهز عليه فقال له بعض أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلنى بعورته ، فعطفنى عليه السؤال بالرحم وعرفت أن الله قد قتله ، وفى رواية قال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ما منعك أن تجهز عليه ؟ فقال : ناشدنى الله والرحم ، فقال : اقتله فرجع وقتله • ثم حمل لواءهم أخو طلحة عثمان بن أبى طلحة أبو شيبة الذى تنسب إليه الشيبيون وهم أمام النسوة يرتجز :

إن على أهل اللواء حقا إن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة رضى الله عنه فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره ، فرجع حمزة رضى الله عنه وهو يقول : أنا ابن ساقى الحجيج يعنى عبد المطلب ، ثم حمله الجلاس بن طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله فأخذه أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبى طلحة فرماه سعد أبن بى وقاص رضى الله تعالى عنه فأصاب حنجرته فأدلع لسانه إدلا ع الكلب فقتله •

عاصم حمى الدبر

ثم حمله مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلج فقتله ، ثم حمله الحرث بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، وكانت أمهما معهما – أى مسافع والحرث – واسمها سلافة فكان كل واحد منهما بعد أن رماه عاصم يأتى أمه ويضع رأسه فى حجرها فتقول له : يابن من أصابك فيقول سمعت رجلا حين رمى

بقول : خذها وأنا ابن الأفلج ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب الخمر فيه ، وجعلت لمن جاء برأس عاصم مائة من الإبل ، وحاول المشركون الإمساك برأسه رضى الله عنه ليحتزوها لسلافة لكن الله تعالى أرسل الدبر تحمى عاصما قالوا : إذا جاء الليل أمسكنا به فجاء السيل والظلام واختفى عاصم رضى الله عنه ، وكان قد نذر قبل ذلك لله تعالى أن لا يمس مشركا ، وسأل الله تعالى أن لا يمسه مشرك ، فاستجاب الله دعوته •

لواء المشركين ينتقل بين القتلى

ثم حمله كلاب بن أبي طلحة بن أبي عبيد الله فقتله الزبير بن العوام،فكل من مسا فع والحرث وكلاب و جلاس الأربعة قتلوا كأبيهم وعمهم وهما عثمان وأبو سعيد، وعند ذلك حمله أرطاة بن شر حبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فقتله على رضى الله تعالى عنه،وقيل:حمزة رضى الله تعالى عنه، ثم حمله أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف فقتله قزمان ، فحمله ولد لشر حبيل بن هاشم فقتله قزمان أيضا • ثم حمله صواب غلامهم وكان عبدا حبشيا فقتله علي كرم الله وجهه وقيل : سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، وقال قائل : قتله قزمان وهو أثبت الأقوال فلما قتل أصحاب اللواء ، بقي اللواء مطروحا حتي أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ولا يعرف لها إسلام فرفعته لقريش فلاثوا به ، أي : استداروا حوله • وخرج عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالي عنهما شاهرا سيفه فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : شم سيفك وارجع إلي مكانك ، ومتعنا بنفسك

وقد وقع للصديق رضي الله عنه أن العرب لما ارتدت بعد انتقاله ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج مع الجيش لقتال أهل الردة شاهرا سيفه ، فأخذ علي كرم الله وجهه بزمام راحلته وقال : إلي أين ياخليفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أقول لك كما قال رسول الله ﴿ ﷺ

وآله﴾ يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا وارجع إلي المدينة ، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدا فرجع وأمضي الجيش ، وعلي كرم الله وجهه مع الجيش ٠ وفي أول الأمر يوم أحد حملت خيل المشركين علي المسلمين ثلاثا والمسلمون ينضحوهم بالنبل فترجع متفرقة منهزمة ، وحمل المسلمون علي المشركين فنهكوهم ، أي : أضعفوهم قتلا ، ولما حميت الحرب قامت هند في النسوة اللاتي معها وأخذت الدفوف ، يضربن بها خلف الرجال ويقلن : ويها بني عبد الدار الخ العبارات المتقدمة ٠ ثم أنزل الله النصرة علي المسلمين ، فساروا يحسون الكفار حسا ، أي : يقتلوهم قتلا ، كما قال الله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ (آل عمران : ١٥٢) ٠ حتي كشفوهم وانهزموا لا يلوون علي شئ لما رأوا من قتل أصحاب اللواء ، ونساؤهم يدعون بالويل (هربوا حتي رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن من سوقهن قد بدت خلاخلهن) قال الزبير : والله لقد رأيتني أنظر إلي خدم هند بنت عتبة ، .أي : ما في ساقها من الحلي هي وصواحبها مشمرات هوارب ، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم ، وقال أصحاب عبد الله بن جبير :– وهم الرماة الذين أمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالبقاء في أماكنهم – أخذوا يقولون : الغنيمة فقال عبد الله بين جبير عهد إلي النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا تبرحوا فأبوا ، ووقعوا ينتهبون المعسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم ،

واشتغلوا عن الحرب وقالوا لعبد الله بن جبير : لم يرد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هذا ، قد انهزم المشركون فما مقامنا هنا ٠ وثبت أميرهم عبد الله في نفر يسير دون العشرة مكانه وقال : لا أجاوز أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما أبو صرف وجوههم ، أي : تحيروا ،فلم يدروا أين يذهبون ٠

شعار وعار

وكان شعار المسلمين يومئذ (أمت أمت) وهو أمر بالموت ، والمراد التفاؤل بالنصر ، وجعلوا هذه الكلمة يتعارفون بها مع حصول التفاؤل بها ٠ وشعار الكفار (ياللعزى) وهي شجرة كانوا يعبدونها ٠ (ياهبل) وهو صنم كانوا يعبدونه – داخل الكعبة وقيل خارجها – ونظر خالد بن الوليد إلي خلاء الجبل الذي كان فيه الرماة وقلة أهله ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا علي من بقي من الرماة ، فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنهم وانتقضت صفوف المسلمين ، واستدرات رحاهم وحالت الريح فصارت دبورا ، وكانت قبل ذلك صبا ، ونادي إبليس لعنه الله ، إن محمدا قد قتل ، واختلط المسلمون فصاروا يقتتلون علي غير شعار ، ويضرب بعضهم بعضا ما يشعرون به من العجلة و الدهش ، فكان ممن قتلوه خطأ اليمان والد حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فقال ابنه : غفر الله لكم وترك ديته ، وصرخ إبليس لعنه الله : أي عباد الله ، يعني المسلمين ، أخراكم ، أي : احترزوا من جهنم ٠ أخراكم وهي كلمة تقال لمن يخشى أن يؤتي عند القتال من ورائه فرجعت أولاهم فاقتتلت مع أخراهم واختلط العسكران ، فلم يتميزوا لشدة ما دهشهم ، فأصيب سبعون قتيلا من المسلمين ذكرهم ابن سيد الناس ، فزادوا علي مائة ، وقيل : إن السبعين من الأنصار خاصة رضي الله تعالي عنهم ٠ لكنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ثبت ولم يفارق مكانه الذي وصل إليه وقت انهزام المشركين ، ولم تزل قدماه شبرا واحدا ،وما زال يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا ، ويرمي بالحجر ، وثبت معه جماعة من أصحابه رضي الله عنهم ، أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين منهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالي عنه وسبعة من الأنصار ٠ وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة ، حتي خلص العدد إلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقذف بالحجارة حتى وقع لشقة ، وأصيبت رباعيته ، وشج في وجهه وكلمت شفتاه ، وكان الذي أصابه من ضربة ، وجعل الدم يسيل علي وجهه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأشرف أبو سفيان

صخر بن حرب وقال : أفي القوم محمد ؟ فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا تجيبوه ٠٠ الخ آخر القصة المذكورة آنفا ٠ ومما قاله أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، أي : نوبة لك ونوبة عليك ، وتجدون متله ، أي : بمن استشهد من المسلمين ، كجدع الآذان والأنوف ، لم آمر بها أن تفعل بهم ، ولم تسورنى وإن كنت ما أمرت بها ٠

هند وحمزة وقتلي المسلمين

وعند ابن إسحق عن صالح بن كيسان قال : خرجت هند ونسوة معها يمثلن بالقتلي من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ويجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من ذلك خدما وقلائد ٠ وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها اللاتي كن عليها لوحشي قاتل حمزة ، وبقرت عن كبد حمزة رضي الله عنه ، فلاكتها فلم تسغها فلفظتها ثم علت علي صخرة مشرفة ، فصرخت بأعلى صوتها فقالت : نحن جزيناكم بيوم بدر ، والحرب بعد الحرب ذات سعر ، ما كان عتبة لي من صبر ، ولا أخي الوليد ٠٠ شفيت نفسي ، وقضيت نذري ، شفيت وحشي غليل صدري ، فشكر وحشي علي عمري ، حتى ترم أعظمي في قبري ٠

آخر قتيل لحمزة رضى الله عنه

وقاتل حمزة رضي الله تعالي عنه ، ذلك اليوم قتالا شديدا ، حتى بلغ الذين قتلهم واحدا وثلاثين رجلا ، كلهم من شجعاهم ، وكان رضي الله عنه يقاتل بسيفين بين يدي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يقول : أنا أسد الله ، وخرج سباع بني عبد العزى الخزاعى فقال : هل من مبارز ؟ فبرز له حمزة رضي الله تعالي عنه وقال : هلم ياابن مقطعه البظور ، أي : لأن لأمه كانت ختانة بمكة ٠ ثم قال حمزة : أتحاد الله ورسوله، أي: تحاربهما وتعاندهما ، ثم شد عليه حمزة رضي الله تعالي عنه فضربه ضربه فقتله بها فكان كأمس الذاهب ، وكان ذلك آخر قتيل قتله حمزة رضي الله عنه ٠ وألب حمزة ليأخذ درعه ٠٠ قال وحشي غلام جبير بن مطعم : إني لأنظر إلي حمزة ، يهد الناس

بسيفه ، وقد عثر حمزة رضي الله عنه فانكشف الدرع عن بطنه ، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه ، فوقعت في ثنته وهو موضع تحت السرة وفوق العانة ، فأقبل نحوي ثم وقع فأمهلته حتي مات ،فجئت فأخذت حربتي ، ثم تنحيت إلي العسكر ، ولم يكن لي شيء في حاجة غيره ٠٠٠ لأن حمزة كان قد قتل طعيمة بن عدي يوم بدر فقالت ابنة طعيمة لوحشي : إن قتلت محمدا أو حمزة أو عليا في أبي فأنت عتيق ٠ وفي رواية : قال لي مولاي جبير بن مطعم إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر ، ولا مخالفة لاحتمال أن كلا ممكن ابن طعيمة و جبير قالا له ذلك ٠ وعنه أنه قال : خرجت ما أريد أن أقتل ولا أقاتل إلا حمزة ، وكان يقذف بالحربة قذف الحبشة قلما يخطيء ثم أسلم وحشي بعد ذلك وقتل بتلك الحربة مسيلمة الكذاب وكان يقول : أرجو أن هذه تكفر تلك ٠

وفي رواية: قتلت خير الناس في الجاهلية (يعني حمزة رضي الله عنه)،وشر الناس في الإسلام (يعني مسيلمة الكذاب) ٠

استشهاد مصعب وشائعة موت النبي

وكان مصعب بن عمير رضي الله عنه ، يقاتل يوم أحد دون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان حامل اللواء وقاتل قتالا شديدا حتي قتل رضي الله عنه وأخذ اللواء ملك في صورته .

وفي رواية لما قتل أعطي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الراية عليا كرم الله وجهه، فلعل الملك حمل اللواء قبل ظهور موته لهم وشيوعه فيهم ، ولما ظهر وشاع أعطي النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ عليا كرم الله وجهه ، وكان الذي قتله عبد الله بن قميئة لعنه الله ، وهو يظنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأن مصعبا رضي الله عنه كان إذا لبس لأمته يشبه النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فصاح ابن قميئة – لظنه الخائب – إن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ قد قتل .

روي ابن سعد : أن مصعبا رضي الله عنه يوم أحد قطعت يده اليمني ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ – الآية ﴾ (آل عمران : ١٤٤). ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء ، أى: أكب عليه ، وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ – الآية ﴾ .

قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية يومئذ بل انطق الله بها ، لما سمع قول القائل : قد قتل محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وقيل : إن الصارخ الذى قال قد قتل محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ليس هو ابن قميئة بل إبليس لعنه الله ، وأنه تصور فى صورة جعال بن سراقة الضمرى ، وكان رجلا صالحا ممن أسلم قديما ، ورجع المسلمون يقتل بعضهم بعضا وهم لا يشعرون ، واستمروا إلى قرب المدينة ، وتفرق سائرهم ووقع فيهم القتل .

قال الحافظ ابن حجر : إنهم صاروا ثلاث فرق ، فرقة استمرت فيها الهزيمة إلى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انفض القتال وهم قليل وهم الذين نزل فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٥٥) . وفرقة صاروا حيارى فلما

سمعوا أن النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ قد قتل فصارت غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه، أو يستمر على بصيرته فى القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثر الصحابة رضى الله عنهم

وفرقة ثبتت مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية شيئا فشيئا ، لما عرفوا أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ حى ، ووثب بعض الصحابة على جعال بن سراقة ليقتلوه ، فتبرأ من ذلك القول الذى نطق به الشيطان وهو على صورته ، وشهد خوات بن جبير وأبو بردة بأن جعالا كان عندهم وبجانبهم حين صرخ ذلك الصارخ .

قال موسى بن عقبة : لما غاب رسول الله عن أعين بعض القوم واختلط بعضهم ببعض ، وسمعوا الصارخ قال رجل من المنافقين : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا . وقال بعضهم لو كان نبيا ما قتل ، فارجعوا إلى دينكم الأول وفى ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا ﴾ (آل عمران : ١٤٤). وقال رجل منهم لم يعرف اسمه ، ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى ليستأمن لنا من أبى سفيان . ياقوم أن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتيكم الكفار فيقتلوكم ، فإنهم يدخلون البيوت ، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما – : ياقوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قتل عليه ، وشهد له بهذه المقالة عند النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ سعد بن معاذ رضى الله ، ووافق أنس بن النضر جماعة كثيرون على هذه المقالة وهم المؤمنون أهل الصدق والتمكين فى اليقين .

وروى ابن إسحاق : أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما ، جاءا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم فقالوا : إن كان قتل فما تصنعون بالحياة بعد ، قوموا فموتوا على ما

مات عليه ثم استقبل العدو ، فقاتل حتى قتل رضى الله عنه ٠ قال أنس : ولقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه رضى الله عنه ٠ وفى البخارى عن أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلته المشركين ، لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : ياسعد الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها دون أحد ، قال سعد فما أستطيع أن أصف ما صنع ٠ قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ، مابين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ، عرفته ببنانه ٠ ٠وأنس بن مالك لم يحضر أحد ، وإنما سمع ذلك من سعد بن معاذ رضى الله عنه.

الشجاع المسلم ثابت بن الدحداح

وممن قال مثل مقال أنس بن النضر رضى الله عنه ، ثابت بن الدحداح رضى الله عنه فإنه قال : يامعشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يموت قاتلوا عن دينكم ، فإن الله مظهركم وناصركم ، فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار رضى الله عنهم

وثبت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وقت رجوع المسلمين ، ولم يحصل منه ﴿ ﷺ وآله﴾ فرار ولا انهزام ، ولا انصراف عن موقفه الذى وصل إليه حين انهزام المشركين بإجماع المسلمين

قال ابن سعد : مازال ﴿ﷺ وآله﴾ يرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ، ويرمى بالحجر ، وكان أقرب الناس إلى القوم .

وجاء على كرم الله وجهه وغيره : كنا إذا اشتد الناس ، أى حمى القتال ، اتقينا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وروى البيهقى عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه : فو الذى بعثه بالحق ما زالت قدمه شبرا واحدا ، وإنه لفى وجه العدو ، وتفيء إليه طائفة من أصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ مرة وتفترق مرة .

فربما رأيته قائما يرمى عن قوسه ، ويرمى بالحجر حتى انحازوا عنه ، وعن على كرم الله وجهه قال : لما انجلى الناس يوم أحد ، نظرت فى القتلى فلم أر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقلت : والله ما كان ليفر وما أراه فى القتلى ، ولكن أرى أن الله غضب علينا بما صنعنا ، ورفع نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ فما لى خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت غمد سيفى ثم حملت على القوم ، فأفرجوا إلى ، فإذا أنا برسول الله بينهم يقاتلهم .

الصحابى مجاب الدعوة

وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه قال : لما جال الناس عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تلك الجولة ، يوم أحد قلت : أذود عن نفسى ، فإما أن أستشهد ، وإما أن ألحق برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فبينا أنا كذلك إذا برجل محمر وجهه ، ما أدرى من هو فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه فملأ يده من الحصى ثم رمى به فى وجوههم فتنكبوا على أعقابهم القهقرى ، حتى أتوا الجبل ففعل ذلك مرارا ، ولا أدرى من هو ، وبيني وبينه المقداد ، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد : ياسعد هذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يدعوك ، فقلت : أين هو ؟ فأشار إليه . فقمت وكأنه لم يصبنى شيء من الأذى وأجلسنى أمامه فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : اللهم استجب لسعد وسدد رميته وأجب

دعوته فكان سعد مجاب الدعوة . قال : حتى فرغ النبل من كنانتى نثر لى ﴿ﷺ وآله﴾ ما فى كنانته ، وانكشف الناس عنه ﴿ﷺ وآله﴾ .

وعن سعد رضى الله عنه قال : لقد رأيتنى والنبى ﴿ﷺ وآله﴾ يناولنى النبل ويقول : ارم فداك أبى وأمى ، حتى إنه ليناولنى السهم ماله نصل فيقول : ارم . وجاء أن سعد رضى الله تعالى عنه رمى يوم أحد ألف سهم ما منهم سهم إلا ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : ارم فداك أبى وأمى ففداه فى ذلك ألف مرة . وعن على كرم الله وجهه قال : ما سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : فداك أبى وأمى إلا لسعد رضى الله عنه يوم أحد . فلا ينافى أنه قال مثل ذلك للزبير يوم الخندق . وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يفتخر بسعد ويقول : هذا سعد خالى فليرنى امرؤ خاله ، وهو رضى الله عنه من بنى زهرة ومنهم أم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ . وكان إذا غاب قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما لى لا أرى الصبيح المليح الفصيح .

الذين ثبتوا فى المعية المحمدية

وثبت معه ﴿ﷺ وآله﴾ أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ، وطلحة ، والزبير ، وأبو عبيدة رضى الله عنهم ، وكذا على فقد صحت الروايات والأحاديث بأن عليا كرم الله وجهه ممن ثبت ، وبعض الرواة لم يذكره لأنه كان حامل اللواء بعد مصعب فلا يحتاج إلى أن يقال ثبت .

وسبعة من الأنصار وهم : أبو دجانة ، والحباب بن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، والحرث بن العمة ، وسهيل بن حنيف ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وزاد بعضهم سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنهم، وبعضهم محمد بن مسلمة. بل جاء أنه ثبت بين يديه﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ ثلاثون رجلا كلهم يقولون: وجهى دون وجهك، ونفسى دون نفسك ، وعليك السلام غير مودع .

وعند الحاكم أن المقداد ممن ثبت،ولا تنافى فى الروايات لاختلاف الأحاديث لاختلاف الأحوال لأنهم تفرقوا فى القتال ،فلما ولى من ولى وصاح الشيطان اشتغل كل واحد بهمه والذب عن نفسه . ثم عرفوا بقاءه ﴿ﷺ وآله﴾ فتراجعوا إليه أولا فأولا، ثم بعد ذلك كان يقدمهم إلى القتال فيشتغلون به. وذكر بعضهم ممن ثبت جابر عبد الله،وعمار ،وابن مسعود رضى الله عنهم . وفى بعض الروايات لم يبق معه ﴿ﷺ وآله﴾ إلا رجلين من قريش وسبعه من الأنصار ولعله فى بعض اللحظات لا ختلا ف الحال كما مر. وثبت أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما تفرقت أصحابه صار يقول: إلي يافلان ،أنا رسول الله فما يعرج إليه أحد والنبل يأتيه من كل جانب ،والله يصرفه عنه ﴿ﷺ وآله﴾ ،وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٣). وجاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال يومئذ:أنا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لا كذب أنا ابن عبد المطلب أنا ابن العواتك. ولا مانع أن يقول ذلك يوم وقعة أحد ويوم وقعة حنين .

ومن ثبت معه ﴿ﷺ وآله﴾ أبو طلحة زيد بن سهل الأنصارى زوج أم أنس بن مالك رضى الله عنه فإنه استمر بين يدى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يحوز عنه بحجفته، وكان رجلا راميا شديد الرمى فنثر له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كنانته بين يديه، وصار رضى الله عنه يقول: نفسى لنفسك فداء، ووجهى لوجهك وقاء،فلم يزل يرمى بها. وكان الرجل يمر بالجعبة فيها النبل فيقول النبى ﴿ﷺ وآله﴾ انثرها لابن طلحة،وكسر ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة، وصار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يشرف على القوم ،أى: ينظر إلى القوم، ليرى مواضع النبل فيقول له أبو طلحة: يانبى الله بأبى أنت وأمى،لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحرى دون نحرك. وتطاول أبو طلحة رضى الله عنه بصدره يقى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وما زال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يرمى عن قوسه حتى اندقت سبتها والسبة ما انعطف من طرفى القوس اللذين هما محل الوتر. وفى

رواية:حتى تقطع الوتر، وبقى فى يده قدر شبر ،فأخذ القوس عكاشة بن محصن رضى الله تعالى عنه ليوتر له فقال لرسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ :لا يبلغ الوتر، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ :مده يبلغ، قال عكاشة: والذى بعثه بالحق لقد مددته حتى بلغ وطويت منه لفتين أو ثلاثا وكان ﴿ﷺ وآله﴾ أقرب الناس إلى القوم.

وممن ثبت معه ﴿ﷺ وآله﴾ وكان مشهورا بالرماية سهل بن حنيف رضى الله عنه ، وكان بايع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ على الموت فثبت معه ﴿ﷺ وآله﴾ ،حتى انكشف الناس عنه وجعل ينضح بالنبل يومئذ عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ،وقال ﴿ﷺ وآله﴾ :انبلوا سهلا ،أى : أعطوه نبلا. وممن ثبت مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عمارة المازنية ،واسمها نسيبة بالتصغير، وهى زوج زيد بن عاصم وأم ولده عبد الله بن زيد،فعنها رضى الله تعالى عنها قالت: خرجت يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى ،فانتهيت إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو فى أصحابه والربح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقمت أباشر القتال دونه،وأذب عنه بالسيف وأرمى عنه بالقوس حتى جرحت. روى أنه كان على عاتقها جرح مجوف له غور فقيل لها:من أصابك بهذا ؟قالت:ابن قمئة، لما ولى الناس عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اقبل ابن قمئة يقول : دلوني علي محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير رضى الله عنه فضربني هذه الضربة وضربته ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وفي رواية : أن نسيبة يوم أحد وزوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله قال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : بارك الله عليكم أهل البيت . فقالت له نسبية رضي الله عنها : أدع الله أن نرافقك في الجنة فقال : اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة .. وعند ذلك قالت : ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا وقال ﴿ﷺ وآله﴾ في حقها : ما التفت

يمينا ولا شمالا يوم أحد إلا ورأيتها دوني ٠ وقد جرحت رضي الله عنها اثني عشر جرحا ما بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ٠

وممن قاتل دون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أبو دجانة الأنصاري رضي الله تعالي عنه فقد جاء أنه تترس دون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، أي : جعل نفسه ترسا ، فصار يقع النبل علي ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر النبل فيه رضي الله عنه ٠

وممن قاتل دون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عمارة بن زياد بن السكن رضي الله عنه حتى أثبتته الجراح ، أي : أصابت مقاتله ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ادنوه مني فوسده قدمه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ مات رضي الله عنه وخده علي قدمه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ ٠

وممن قاتل دون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مصعب بن عمير رضي الله تعالي عنه حتى قتله ابن قمئة لعنه الله وهو يظنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ – كما مر – فرجع إلي المشركين فقال : قتلت محمدا ٠ وقيل : إن القاتل لمصعب بن عمير ، أبي بن خلف الجمحي أخو أمية بن خلف المقتول ببدر ، الذي كان يعذب بلالا رضى الله عنه ٠ يروي أنه أقبل أبي بن خلف يوم أحد نحو النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يقول : أين محمد لا نجوت إن نجا ؟ فاستقبله مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتل مصعبا ، فاستقبله رجال من المسلمين ، فأمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخلو طريقه ، فأقبل وهو يقول : ياكذاب أين تفر؟ فتناول النبي﴿ ﷺ وآله﴾ الحربة من الحرث بن الصمة أو الزبير بن العوام رضي الله عنه فرماه ﴿ ﷺ وآله﴾ فأصابت عنقه وخدشته خدشا غير كبير ، واحتقن الدم ، أي : لم يخرج ، بذلك الخدش فرجع وهو يقول : قتلني والله محمد، فقالوا : لقد ذهب والله فؤادك ٠ وفي رواية : عقلك ، إنا لنأخذ الهام من أضلاعنا فنرمي بها فما بك والله من بأس ، ما أجزعك !! إنما هو خدش ، ولو كان الذي بك بعين أحدنا ما ضره فقال : واللات والعزي لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز – السوق المعروف – وفي رواية : لو كان بربيعة ومضر ٠ وفي رواية : لو كان بأهل الأرض لماتوا أجمعين فإنه قال لي

بمكة: أنا أقتلك ، فو الله لو بصق علي لقتلني ، أي : فضلا عن هذه الضربة ، وكان أبي يقول للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة : يامحمد إن عندي العود ، يعني فرسا ، أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها ، فيقول له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أنا أقتلك إن شاء الله ٠ فحقق الله قول نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولم يقتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيده الشريفة أحدا إلا أبي بن خلف لعنه الله لا قبل ولا بعد ، ثم مات عدو الله وهم راجعون إلي مكة ٠

وفي الخبر : كل من قتله نبي أو قتل بأمر نبي في زمنه يعذب من حين قتل إلي أن ينفخ في الصور٠ وجاء : أشد الناس عذابا من قتله نبي٠ وفي رواية : اشتد غضب الله علي رجل قتله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فسحقا لأصحاب السعير ٠ لأن الأنبياء عليهم السلام مأمورون باللطف والشفقة علي عباد الله ، فما يحمل الواحد منهم علي قتل شخص إلا أمر عظيم ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أكملهم لطفا ورفقا وشفقة علي عباد الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ٠

وأنزل الله تعالي يوم أحد علي المسلمين النعاس قال الله تعالي:﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ٠٠٠ الخ الآية ﴾ (آل عمران : ١٥٤) ٠ ثم أنزل الله الأمن علي المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم ﴿يغشي النعاس طائفة منكم ﴾ هم أهل الصدق واليقين ، ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ هم المنافقين لم يغشهم النعاس ، قد أهمتهم أنفسهم لا يهمهم أمر الآخرة والدين إنما همهم أنفسهم وشهواتها ، ولا يهمهم أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لذا لم تترل عليهم السكينة لأنها وارد روحاني لا يتلوث بهم ﴿ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي : يظن الذي يجب أن يظن به سبحانه ، وهو أنه لا ينصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ أي : الظن المختص بالملة الجاهلية ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا

قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٥٤) أي : مصارعهم بأحد ليكون ما علم الله تعالي أن يكون ، والحذر لا يمنع القدر ،والتدبير لا يقاوم التقدير ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران : ١٥٤) . وهي الأسرار والضمائر .

عن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنها قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، أي : وهم في مصافهم ، حتى يسقط سيفي من يدي مرارا يسقط وآخذه .

وقال الزبير بن العوام رضى الله عنه : لقد رأيتني مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد حين اشتد علينا الخوف وأرسل علينا النوم ، فما منا من أحد إلا وذقنه في صدره فو الله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ . وعن كعب بن عمرو الأنصاري رضي الله تعالي عنه قال : لقد رأيتني يومئذ في أربعة عشر من قومي إلي جنب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد أصابنا النعاس أمنة ، لأنه لا ينعس إلا من يأمن ، فما منهم من أحد إلا غط غطيطا ، حتى كان الحجف ، أي الدرق ، تتناطح . ولقد رأيت سيف بشر بن البراء من معرور سقط من يده وما شعر .

وسبق في غزوة بدر أنه حصل لهم النعاس ليله القتال لا فيه ، وجاء إن النعاس في الصف من الإيمان ، وفي الصلاة من الشيطان .

وكانت الطائفة المنهزمة تفرقت فرقا ، فمنهم من ذهب إلي المدينة فلقيتهم أم أيمن رضي الله تعالي عنها فجعلت تحثو التراب في وجوههم وتقول لبعضهم : هاك المغزل فاغزل به وهلم سيفك ، أي : أعطني سيفك ، لأقاتل به . وطائفة لم يدخلوا ،واستشكل علي استقبال أم أيمن إياهم أنه جاء أنها كانت تسقي الجرحى في الجيش ، وأن حباب بن الفرقد رمي بسهم فأصاب أم أيمن وهي تسقي الجرحى ، فتكشفت

فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك علي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فدفع إلي سعد سهما لا نصل له وقال : ارم به ، فرمي به ، فوقع عدو الله مستلقيا حتى بدت عورته ، فضحك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى بدت نواجذه ثم قال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته فكان مجاب الدعوة رضي الله عنه ، وقد يقال :

لا منافاة بين كون أم أيمن كانت في الجيش وبين كونها بالمدينة حين وصول بعض المنهزمين إلي المدينة لجواز أن تكون رجعت ذلك الوقت من الجيش إلي المدينة رضي الله عنها .

ما أصاب النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ من الجراح يوم أحد

عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة رضي الله تعالي عنه قال : رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اشتد غضب الله علي قوم فعلوا بنبيه يشير إلي رباعيته ، اشتد غضب الله علي رجل يقتله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في سبيل الله .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اشتد غضب الله علي قوم أدموا وجه نبي الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هذان الحديثان وإن كان ابن عباس وأبو هريرة لم يشهدا وقعه أحد إلا أنهما تحملاه ممن حضرها ، أو سمعاه من النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بعده ، فإنه ورد أنه لما كان يوم أحد وقد حفر أبو عامر الفاسق الذي كان مع المشركين كما تقدم ، حفرا في موضع المعركة وزعم أن ذلك من مكايد الحرب ، فوقع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في حفرة منها ، فأغمي عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ وجحشت ، أي : خدشت ، ركبتاه ، فأخذ علي كرم الله وجهه بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالي عنه حتى استوي قائما ، وكان سبب وقوعه ﴿ ﷺ وآله﴾ أن ابن قمئة لعنه الله علاه بالسيف فلم يؤثر فيه السيف ، إلا أن ثقل السيف أثر في عاتقه فشكا منه ﴿ ﷺ وآله﴾ شهرا أو أكثر ، وقذف ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحجارة ، حتى وقع لشقه ، ورماه عتبة بن أبي وقاص فكسر رباعيته اليمني السفلي ، وشق شفته السفلي ﴿ ﷺ وآله﴾ . والرباعية السن التي تلي

الثنية من كل جانب ، وللإنسان أربع رباعيات ، ودعا عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ فاستجاب الله دعاءه ، فقتله حاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالي عنه،كما رواه الحاكم فى المستدرك قال حاطب رضى الله عنه :لما رأيت ما فعل عتبة برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ :قلت لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أين توجه عتبة فأشار إلى حيث توجه، فمضيت حتى ظفرت به ،فضربته بالسيف فطرحت رأسه، فنزلت فأخذت رأسه وفرسه وسيفه وجئت به إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فقال لى: رضى الله عنك. وأما ما ذكره ابن منده من أنه أسلم واستند لقول أخيه سعد فى ابن أمة زمعة: عهد إلى أخى عتبة إنه ولده ، فليس فيه ما يدل على إسلامه لاحتمال أن يكون عهد عليه وهو فى كفره بأن أمة زمعة حملت منه.

وقد شدد أبو نعيم فى الإنكار على ابن منده وذكره فى الصحابة ،واحتج بما رواه عبد الرازق عن سعيد بن المسبب أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ دعا على عتبة حين كسر رباعيته وأدمى وجهه فقال :اللهم لا تحول عليه الحول حتى يموت كافرا ،فما حال الحول حتى مات كافرا إلى النار. وقال الحافظ بن حجر:إن ذكره فى الصحابة غلط، وليس فى الآثار ما يدل على إسلامه ، بل فيها ما يصرح بموته على الكفر ، فلا معنى لإيراده فى الصحابة .

وروى ابن إسحق عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : ما حرصت على قتل رجل قط ، حرصى على قتل أخى عتبة حين صنع برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما صنع ، ولقد كفانى فيه قول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اشتد غضب الله على من أدمى وجه رسوله . وصح أنه لم يولد من نسل عتبة ولد ، فيبلغ الحلم ، إلا وهو أبخر ، أى : منتن الفم ، أهتم ، أى : مكسور الثنايا ، يعرف ذلك فى عقبه . وجاء أن الذى جرح وجهه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ عبد الله بن قمئة .

وفى رواية عبد الله بن شهاب الزهرى – شهد أحدا مع الكفار ثم أسلم رضى الله عنه – وهو الذى شجه فى جبهته . ولعل هذا حصل منه قبل أو بعد قوله : دلونى على محمد لا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ واقف إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه ، فعاتبه صفوان فى ذلك فقال : والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع ، وأن ابن قمئة جرح وجنته وهى ما ارتفع من لحم خده ، فدخلت حلقتان من المغفر فى وجنته ﴿ ﷺ وآله﴾ وهشمت البيضة على رأسه ، أى : كسرت ، وسال الدم على وجهه ، ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه فى حفرة ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما . وفى الصحيح عن قيس قال : رأيت يدا طلحة شلاء ، لأنه وقى بها النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد ، وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال : كان ذلك اليوم كله لطلحة ، وانتزع أبو عبيدة عامر بن الجراح الحلقتين اللتين كانتا فى وجنته ﴿ ﷺ وآله﴾ وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه فكان ساقط الثنيتين .

قال بعضهم : ولما سقط مقدم أسنان عبيدة ، صار أهتم ولم ير قط أهتم أحسن من أبى عبيدة ، لأن ذلك الهتم حسن فمه . وقيل : إن عقبة بن وهب بن كلدة هو الذى نزع الحلقتين من وجنته ﴿ ﷺ وآله﴾ . وقيل : إنه أبو بكر رضى الله عنه .. فيجوز أن الثلاثة عالجوها رضى الله عنهم ، وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه الدم من وجنته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ثم ازدرده فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : من مس دمه دمى لم تصبه النار . وفى رواية : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى هذا وأشار إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ فاستشهد فى هذه الغزوة رضى الله عنه . وجاء أنه لما ضربه ابن قمئة قال : خذها وأنا ابن قمئة فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أقمأك الله عز وجل ، أى : صغرك وأذلك ، وقد استجاب الله تعالى فيه دعوة نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه بعد الواقعة خرج إلى غنمه ، فوافاها على ذروة الجبل ، أى : أعلاه

فأخذ يعترضها ، فشد عليه كبشها ، فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع . وفى رواية : فسلط الله عليه تيسا من جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة . ويمكن الجمع بأنه لما نطحه الكبش ووقع من شاهق الجبل إلى أسفل سلط الله عليه عند ذلك تيس الجبل فنطحه حتى قطعه قطعا قطعا زيادة فى نكاله وخزيه و وباله لعنة الله عليه

وجعل يمسح ﴿ ﷺ وآله﴾ الدم عن وجهه وهو يقول :كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعو إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . والمعنى أن الله تعالى مالك الملك . ومالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ليس لك من أمرهم شىء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم فإنهم ظالمون مستحقون للعذاب واختلف فى سبب نزول الآية على قولين : أحدهما : نزلت فى قصة أحد ، واختلف القائلون بذلك فقيل : السبب ما وقع من شجه﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد . عن أنس أنه شج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد فى رأسه فقال : كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ .. الآية ﴾ . وقيل : إنه﴿ ﷺ وآله﴾ لما رأى ما فعلوا بحمزة من المثلة قال : لأمثلن بسبعين منهم فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ .. الآية ﴾ وقيل : أراد أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت لعلمه تعالى أن أكثرهم يسلمون . قال : وكل هذه الأشياء حصلت يوم أحد فنزلت الآية عند الكل فيم يمتنع حملها على الكل ، وقيل : إنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا فمنعه الله بنزولها . وفى البخارى عن الزهرى حدثنى سالم عن أبيه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة ، ولأبى ذر فى الركعة الآخرة من الفجر بعد أن شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد يقول : اللهم العن

فلانا وفلانا صفوان بن أمية ، وسهل بن عمرو ، والحرث بن هشام – يقول ذلك – بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ إلى قوله تعالى فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . وعن حنظلة بن أبى سفيان أنه قال سمعت سالم بن عبد الله يقول : كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لما جرح يوم أحد يدعو على صفوان بن أمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو العامرى ، والحرث بن هشام فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ إلى قوله فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : فيسلموا أو يعذبهم إن ماتوا كفارا ، والثلاثة المسلمون أسلموا يوم الفتح وحسن إسلامهم ولعل هذا هو السر فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ .

القول الثانى : أنها نزلت فى قصة القراء الذين بعثهم ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى بئر معونة فى صفر سنة أربعة من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن فقتلهم عامر بن الطفيل وقنت ﴿ ﷺ وآله﴾ شهرا يدعوا على جماعة من تلك القبائل باللعن .

ولكن أكثر العلماء متفقون على أنها فى قصة أحد .

الرحمة المهداه

وقال الأوزاعى : بلغنا أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لما جرح يوم أحد أخذ شيئا فجعل ينشف فيه دمه ، ليمنعه من النزول على الأرض ، ولو وقع منه شىء على الأرض لنزل العذاب عليهم من السماء ثم قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، فاعتذر عنهم ﴿ ﷺ وآله﴾ وتضرع إلى الله تعالى أن يمهلهم حتى يكون منهم أو من ذريتهم من يؤمن بالله تعالى ، وقد حقق الله رجاءه ﴿ ﷺ وآله﴾ وهذا دعاء لهم بالتوبة من الشرك ، حتى يغفر لهم ، وليس دعاء لهم بغفران الشرك . فلا يشكل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء : ٤٨) . ولا قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة : ١١٣) . فإذا قيل كيف شج

رأسه وكسرت رباعيته والله تعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة : ٦٧) ؟ • أجيب بأن هذه الآية نزلت بعد ، وعلى تسليم أنها نزلت قبل فالمراد عصمته من القتل ﴿ ﷺ وآله﴾ •

قال الشيخ محيى الدين بن العربى رضى الله عنه : لا يخفى أن أجر كل نبى فى التبليغ يكون على قدر ما ناله من الشقة الحاصلة من المخالفين له ، وعلى قدر ما يقاسيه منهم وله أجر الهداية لمن أطاعه ، ولا أحد أكثر من نبينا ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه لم يتفق لنبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ما اتفق له ﴿ ﷺ وآله﴾ فى كثرة طائعى أمة إجابته ، ولا فى كثرة عصاة أمة دعوته الخارجين عن الإجابة •

أول من عرف النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد

وكان أول من عرف الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد الهزيمة وبعد قول الشيطان : قتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كعب بن مالك الأنصارى رضى الله تعالى عنه ، وهو أحد الثلاثة المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ (التوبة : ١١٨)• قال:

عرفت عينيه ﴿ ﷺ وآله﴾ تزهران وتتوقدان تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ • وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم قال : لما صاح الشيطان قتل محمد ، لم نشك فى أنه حق ، وما زلنا كذلك حتى طلع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين السعدين ، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضى الله عنهما فعرفناه بكتفيه إذا مشى ، ففرحنا كأنه لم يصبنا ما أصابنا ، فلما عرف المسلمون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، ومنهم أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة، والزبير ، والحرث بن الصمة وجماعة آخرون رضى الله عنهم ،

وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة على فرس أبلق ، وعليه لأمة كاملة قاصدا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو متوجه للشعب . وهو يقول : لا نجوت إن نجا ، فوقف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فعثر بعثمان فرسه فى بعض تلك الحفر التى حفرها أبو عامر الفاسق فمشى إليه الحرث على رجليه فبرك و ذفف عليه وأخذ درعه و مغفره فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : الحمد لله الذى أحانه ، أى : أهلكه ، وأقبل عبيد بن أبى جابر العامرى يعدو ، فضرب الحرث على عاتقه فجرحه فاحتمله أصحابه ووثب أبو دجانة إلى عبيد فذبحه بالسيف ولحق برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ ذهاب عرج طلحة

ثم أراد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يعلو الصخرة التى بالشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ ضعف لكثرة ما خرج من دم رأسه الشريف ووجهه مع كونه عليه درعان – أخذا بالأسباب – فجلس تحته ﴿ﷺ وآله﴾ طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فنهض به حتى استوى عليها فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أوجب طلحة ، أى : شيئا استوجب به الجنة ، حين صنع برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما صنع . وقد قيل : إن طلحة كان فى مشيه اختلاف لعرج كان به فلما حمل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ تكلف استقامة المشى لئلا يشق عليه ﴿ﷺ وآله﴾ فذهب عرجه ، ولم يعد إليه رضى الله عنه .

فاطمة وجرح الرسول ﴿ﷺ وآله﴾

وعطش رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عطشا شديدا،وقد جاء على كرم الله وجهه بماء فى درقته ليغسل به جرح النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فلم يشرب منه ﴿ﷺ وآله﴾ ،لتغير وجده بالماء من طول مكثه. فخرج محمد بن مسلمة رضى الله عنه يطلب له ماء فلم يجد ،فذهب بعيدا فأتى بماء عذب فشرب منه ﴿ﷺ وآله﴾ ،ودعا له بخير رضى الله عنه ،وجاء أن نساء المدينة خرجن ومعهن السيدة فاطمة بنت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فلما لقيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اعتنقته، وجعلت تغسل جراحاته وعلى يسكب الماء ، فيتزايد الدم ،فلما رأت ذلك أخذت شيئا من حصير ، فأحرقته بالنار حتى صار رمادا، فأخذت ذلك الرماد وكمدته به ﴿ﷺ وآله﴾ حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم.

اعتلاء المشركين الجبل

وبينما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الشعب مع أولئك النفر من أصحابه، إذ علت طائفة من قريش الجبل ، معهم خالد بن الوليد ،فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :اللهم إنهم لا ينبغى لهم أن يعلونا ،اللهم لا قوة إلا بك ،فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين رضى الله عنهم حتى أهبطوا من الجبل ونزل قوله تعالى﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٩) .أى:لا تضعفوا عن الحرب، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر بالكفار،ولعل هذا كان قبل أن يعلو ﴿ﷺ وآله﴾ الصخرة، أو لعل الجبل كان أعلى من تلك الصخرة. وفى بعض الروايات أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال لسعد ابن أبي وقاص :أرددهم ،قال:كيف وحدى ؟ فقال له:أرددهم، قال سعد: رضى الله عنه:فأخذت سهما من كنانتى فرميت منهم رجلا فقتلته ،ثم أخذت سهما فإذا هو سهمى ،ثم أخذت سهما فإذا هو سهمى الذى رميت به، فرميت به آخر فقتلته،ثم أخذت سهما آخر فإذا هو الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهما فإذا

هو سهمى الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم ،فقلت: هذا سهم مبارك فكان عندى فى كنانتى لا يفارق كنانتى ، وكان بعده عند بنيه رضى الله عنه. ويحتاج الأمر إلى الجمع بين كون الراد لهم سعد رضى الله عنه وعمر بن الخطاب رضى الله عنه وجماعة من المهاجرين. روى عنه أنه قال:لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد فيرده على رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه حتى كان بعد ، أى:حتى بعد انقضاء الحرب لم أعرفه فظننت أنه ملك . وفى رواية عنه قال:

رميت بسهم فرده على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ —وسهمى أعرفه حتى واليت بين ثمانية أو تسعة كل ذلك يرده على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فقلت هذا سهم دم ،أى :يصيب، فجعلته فى كنانتى لايفارقنى.

ولا منافاة بين هذا وبين قوله:ثم أخذت سهما ،لأن قوله المذكور لا ينافى كونه أخذه بمناولته ﴿ ﷺ وآله﴾ لا من كنانته كما قد يتبادر ،ولا بين قوله:فيرده على رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، لأنه يجوز أن ذلك الرجل كان يرد السهام التى يرمى بها حتى لا تفنى سهامه إلا هذا السهم فإنه لم يرده له بل يناوله له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويرده عليه.

ولا منافاة بين قوله:واليت بين ثمانية أو تسعه ،وبين إخباره بقوله:ثم أخذت سهما إلى أن عد خمس مرات لأنه يجوز أن تكون تلك الخمسة قتل فيها وفيما زاد لم يقتل بل خرج.

وصلى ﴿ ﷺ وآله﴾ ظهر ذلك اليوم وهو جالس من الجراح التى أصابته ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وصلى المسلمون خلفه قعودا، ثم نسخ . وقيل:إن الذين صلوا قعودا هم الذين أصابتهم الجراح. وفى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة بن عبيد الله التى وقى بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ شلاء وتذف الدم بطلحة رضى الله عنه حتى غشى عليه،فجاء أبو بكر الصديق ونضح الماء فى وجهه حتى أفاق، فقال :ما فعل

رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟فقال له أبو بكر :هو بخير وهو أرسلنى فقال:الحمد لله كل مصيبة بعده جلل،أى: قليلة ٠

من أهل الجنة

وأصيب فم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وجرح عشرين جرحا فأكثر، وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جرح، وقتل الأجرم بن عبد الأشهل كان يأبى الإسلام على قومه بنى الأشهل،فلما كان خروج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أحد جاء إلى المدينة فسأل عن قومه فقيل بأحد ،فبدا له الإسلام،أى :رغب فيه،فأسلم ثم أخذ بيضته ورمحه ولأمته وركب فرسه فغدا حتى دخل فى عرض الناس ،أى: جانبهم ،فقاتل حتى أثبتته الجراح فبينما رجال من بنى الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به فقالوا:والله إن هذا الأجرم فسألوه ما جاء بك مناصرة لقومك أم رغبة فى الإسلام؟ فقال :بل رغبة فى الإسلام آمنت بالله ورسوله ثم جئت وقاتلت حتى أصابنى ما أصابنى، ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم فذكروه لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال :إنه لمن أهل الجنة ٠ وكان أبو هريرة يقول:حدثونى برجل من أهل الجنة أو دخل الجنة ولم يصل ،يعنى الأجرم رضى الله عنه.

غسيل الملائكة

وقتل حنظلة ﵁ ابن أبي عامر الفاسق، وكان أراد أن يقتل والده فاستأذن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فنهاه عن قتله، ودعا عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يموت وحيداً طريداً فمات كذلك.

وسبب موت حنظلة رضى الله عنه أنه ضرب فرس أبي سفيان فوقع على الأرض فصاح وعلاه حنظلة يريد ذبحه فرآه شداد بن الأسود فحمل عليه فقتله، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : إن صاحبكم حنظلة لتغسله الملائكة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحائف الفضة. فسئلت زوجته وهى جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول وكانت من المؤمنات الصادقات فقالت: خرج جنباً، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : لذلك غسلته الملائكة.

وجاء: أنه التمس فى القتلى فوجدوه يقطر رأسه وليس بقربه ماء، تصديقا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وقد رأت زنوممجته تلك الليلة أن السماء فرجت فدخل ثم أطبقت، وجاء أنها أشهدت عليه أربعة من قومها أنه دخل بها لأنه ﵁ كان دخل عليها عروسا تلك الليلة التي صبحتها وقعة أحد، وكان استأذن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى الدخول بها، ولزمته رضى الله عنها، لما غدا يريد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وعلقت منه ﵁ بعبد الله بن حنظلة فى تلك الليلة ولما مثل كفار قريش بشهداء أحد، لم يمثلوا بحنظلة، لكون والده معهم.

وقد جاء أن أبا قتادة الأنصارى ﵁ لما رأى ما فعله كفار قريش بالمسلمين من التمثيل،أراد أن يمثل بقتلاهم فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ :إن قريشا أهل أمانة من بغاهم العواثر أكبه الله على فيه، وعساك إن طالت بك حياة، أن تحقر عملك من أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى ، فقال

أبو قتادة: والله يارسول الله ما غضبت إلا لله ولرسوله فقال: صدقت بئس القوم كانوا لنبيهم.

وأراد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكرر عليهم الدعاء فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾فكف عن ذلك، وقال: لئن ظفرت بهم لأمثلن بأربعين منهم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ (النحل: ١٢٦) . فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أصبر وأحتسب.

الفخر بالأنصار وبهم

وأقبل رجل من المشركين مقنعا بالحديد يقول: أنا ابن عويف، فتلقاه رشيد الأنصارى الفارسى فضربه على عاتقه فقطع الدرع فقال: خذها وأنا الغلام الفارسى– ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يرى ذلك ويسمعه – فقال﴿ﷺ وآله﴾ : هلا قلت خذها وأنا الغلام الأنصارى، وكان قد قتله بتلك الضربة ، فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول يعدو كأنه كلب وهو يقول: أنا بن عويف فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه. فقال: خذها وأنا الغلام الأنصارى،فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: أحسنت يأبا عبد الله، وكان يومئذ لا ولد له.

لو أقسم على الله لأبره

وقتل عمرو بن الجموع وكان أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربع مثل الأسود ، يشهدون مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المشاهد. فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له:قد عذرك الله فأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: إن بنىّ يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك، فو الله إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه الجنة، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أما أنت فقد أعذرك الله فلا جهاد عليك. وقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه ولعل الله يرزقه الشهادة، فأخذ سلاحه وخرج وتوجه إلى القبلة وقال: اللهم أرزقنى

الشهادة ولا تردنى خائباً إلى أهلى فقتل ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : والذى نفسى بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح.

وعمرو بن الجموح ﵁ كان فى الجاهلية سادناً على أصنامهم، وكان فى الإسلام يولم عنه ﴿ﷺ وآله﴾ إذا تزوج ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقد وقع منه ﴿ﷺ وآله﴾ مثل ذلك لأنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، فإنه لما كسرت أخته الربيع ثنية جارية من الأنصار، فطلب أهلها القصاص. وأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بكسر ثنية الربيع، وصار كلما يقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بكسر ثنية الربيع قال أخوها أنس المذكور: والله لا تكسر ثنية الربيع، فرضى القوم بالأمر منه فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره.

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك فى حق البراء بن مالك أخى أنس بن مالك رضى الله عنهما . فعن أنس ﵁ أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك. ومصداق ذلك ما وقع له ﵁ فى مقاتلة الفرس، فإن الفرس غلبوا المسلمين فقالوا له: يابراء أقسم على ربك، فقال: أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فحمل ﵁ وحمل المسلمون معه فقتلوا عظيم الفرس وانهزم الفرس ثم قتل البراء ﵁ .ومما وقع أنه كان مع أخيه أنس ﵁ عند بعض حصون العدو بالعراق وكانوا يلقون كلاليب معلقة فى سلاسل محماة يخطفون بها الإنسان فكان من جملة من خطف أنس، فأقبل البراء وصعد محلا عاليا وأمسك السلسلة بيده ولازال حتى قطع السلسلة ثم نظر إلى يده فإذا عظمها يلوح ليس عليه لحم، ونجى الله أنسا ﵁ بذلك.

وقال﴿ﷺ وآله﴾ ذلك فى حق أويس القرنى ﵁ ، فعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: إن خير التابعين رجل يقال له أويس بن عامر القرنى فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم.

وفى رواية خطابا لعمر﵁ : يأتى عليك أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمن، كان به برص فبريء منه إلا موضع درهم، له أم هو بها بار، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل.

فوق البعير المأمور

وقتل أيضا يوم أحد ابن عمرو بن الجموح وهو خلاد ﵁ وقتل أخو زوجته هند بنت حزام وهو عبد الله والد جابر﵁ ، فحملتهم هند على بعير لها تريد أن تدفنهم فى المدينة فلقيتها عائشة رضى الله عنها وقد خرجت فى نسوة يستروحن الخبر فقالت لها عائشة رضى الله عنها: جاء خبر الجيش، فقالت أما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فصالح وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، ثم قالت من هؤلاء ؟ قالت: أخى عبد الله وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح ﵁ فبرك بهم البعير، وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك وإن وجه إلى أرض أحد نزع. فرجعت إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبرته فقال: إن الجمل مأمور فقبرهم بأحد، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ لهند : ياهند مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن، ولعل هذا كان قبل أن ينادى برد القتلى إلى مضاجعهم ﵁. قال جابر: كان أبي أول قتيل للمسلمين قتله أبو الأعور السلمى.

من أعلام نبوته عين قتادة

وأصيب على الصحيح عين قتادة يوم أحد، حتى وقعت على وجنته، وقيل: صارت فى يده، فأتى بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له: إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت

رددتها ودعوت الله لك فلم تفقد منها شيئا، فقال يارسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن الجنة لجزاء جميل وعطاء جليل، ولكنى رجل مبتلى بحب النساء(يعنى زوجاته) وأخاف أن يقلن أعور فلا يردننى. ولكن تردها وتسأل الله لى الجنة، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أفعل ياقتادة، وفى رواية : وإن لى امرأة أحبها وأخشى إن رأتنى أن تقذرنى، فأخذها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيده وردها إلى موضعها، وقال: اللهم أكسه جمالا.

وعند الطبرانى عن قتادة قال: كنت أتقى السهام بوجهى دون وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكان أخر سهم ندرت منه حدقتى فأخذتها بيدى ، وسعيت بها إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما رآها فى كفى دمعت عيناه وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : اللهم ق قتادة كما وقى وجه نبيك، وردها إلى موضعها، وقال: اللهم أجعلها أحسن عينيه و أحدهما، أى: أقواهما نظراً، فكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.

ورُمِي أبو دهم الغفارى واسمه كلثوم بن الحصين بن خالد بسهم فوقع فى نحره فبصق عليه ﴿ﷺ وآله﴾ فبريء.

وانقطع سيف عبد الله بن جحش فأعطاه ﴿ﷺ وآله﴾ عرجون نخلة فعاد فى يده سيفاً، فقاتل به حتى قتل ﵁ . وكان السيف يسمى العرجون.

وكان الذى قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق الثقفى فقتله الإمام علىّ كرم الله وجهه بعد ذلك

ودفن عبد الله بن جحش هو وخاله حمزة رضى الله عنهما فى قبر واحد.

وهذا نحو حديث عكاشة السابق فى غزوة بدر إلا أن سيف عكاشة كان يسمى العون وهذا يسمى العرجون.

هند وحمزة

واشتغل المشركون ذكورا وإناثا بقتلى المسلمين يمثلون بهم ، يقطعون الآذان والأنوف والفروج ،ويبقرون البطون،وهم يظنون أنهم أصابوا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأشراف أصحابه رضي الله عنهم .

وجاء وحشى بعد أن مات حمزة وأخذ حربته وأخرج كبده وذهب بها إلى هند بنت عتبة وقال لها: هذا كبد حمزة قاتل أبيك فأخذتها ومضغتها فلم تقدر أن تسيغها فلفظتها، وأعطته ثوبها وحليها ووعدته عشرة دنانير بمكة.

وجاء فى رواية: أن نساء المشركين خرجن مع هند وصرن يمثلن بقتلى المسلمين. يجدعن، أى: يقطعن من آذانهم وأنوفهم، واتخذن من ذلك قلائد وكانت هند نذرت أن تأكل من قلب حمزة رضي الله عنه لكونه قتل أباها، فاستخرج لها وحشى فلذة من قلبه فلاكتها فلم تستطع بلعها فلفظتها. ولما بلغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: هل أكلت منه شيئا؟ قالوا: لا، قال: إن الله حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئا أبدا، أى ولو أكلت منه واستقر فى جوفها لم تمسسها النار.

وفى رواية لو دخل بطنها لم تمسسها النار لأن حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيء من جسده النار رضي الله عنه .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل ثم ارتحل القوم وساروا.

وبعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على بن أبى طالب كرم الله وجهه، أو سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فقال له: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وماذا يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، أى : جعلوها منقادة بجانبهم ، وامتطوا الإبل أي ركبوا ظهورها فإنهم يريدون المدينة. والذى نفسى بيده إن أرادها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزهم.

قال على أو سعد بن أبي وقاص: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة ، بعد ما تشاوروا فى نهب المدينة. فأشار عليهم صفوان أن لا تفعلوا فإنكم لا تدرون ما يغشاكم.

رجل تبوأ مقعده من الجنة

ثم بعد ذهاب القوم فرغ المسلمون لقتلاهم يتفقدونهم فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : من ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفى الأحياء هو أم فى الأموات؟ أى: لأن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ رأى الأسنة قد أشرعت إليه، فقال أبي بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره لك يارسول الله. فقال﴿ﷺ وآله﴾ : إن رأيت سعد بن أبي الربيع فأقرأه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : كيف يجدك؟ فنظر أبي فوجده جريحاً وبه رمق، أى: بقية روح، فقال له: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟ فقال: قد طعنت اثنتى عشرة طعنة وقد أنفذت إلى مقاتلى، فأبلغ رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ منى السلام، وقل: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى الله نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى نبيكم، أى: يصل إليه شيء من الأذى، وفيكم عين تطرف. قال أبي: ثم لم أبرح حتى مات فجئت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبرته خبره.

وفى رواية: اقرأ على قومى السلام وقل لهم: يقول لكم سعد بن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : رحمة الله نصح لله ولرسوله حياً وميتاً وخلف بنتين ﵁ . فأعطاهما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من ميراثه الثلثين، فكان ذلك بيان المراد من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ (النساء: ١١) و فى

ذلك نزلت، أى: اثنان فما فوقها: ودخلت بنت له على أبى بكر الصديق ﵁ فألقى لها رداءه، لتجلس، فدخل عمر﵁ فسألاه عنها. فقال: هذه ابنة من هو خير منى ومنك.قال: ومن هو ياخليفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ قال: رجل تبوأ مقعده من الجنة، وبقيت أنا وأنت، هذه ابنة سعد بن الربيع ﵁ .

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وحمزة

وخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب ﵁ فقال له رجل: رأيته بتلك الصخرات وهو يقول: أنا أسد الله وأسد رسوله، اللهم أنى أبرأ إليك مما جاء هؤلاء النفر أبو سفيان وأصحابه، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء بانهزامهم. وهذا الدعاء نقل عن أنس بن النضر بن مالك خادم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نحو حمزة ﵁، فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه ومثل به فجدع أنفه وأذناه، وقطعت مذاكيره فنظر ﴿ﷺ وآله﴾ - ولم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه وقال: لن أصاب بمثلك ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا، وقال: رحمة الله عليك فإنك كنت ما علمتك فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم، أما والله لأمثلن بسبعين. وفى رواية بثلاثين رجل منهم مكانك.

ولما رأى المسلمون جزع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على عمه قالوا: لئن أظفرنا الله تعالى بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن الله تعالى أنزل فى ذلك: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ۝ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ ﴾ (النحل: ١٢٧،١٢٦). فعفا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وصبر، ونهى عن المثلة، وكفّر عن يمينه عليه الصلاة والسلام. وكان نزول هذه الآيات بعد أن مثل ﴿ﷺ وآله﴾ بالعدنيين،وقيل: إن هذه الآية مكية وقصة أحد فى المدينة بعد الهجرة بثلاث سنوات، ولا مانع من أن يكون هذا مما تكرر نزوله.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما رأينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ باكيا أشد من بكائه على حمزة رضي الله عنه . وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب، حتى نشق، أى شهق، حتى بلغ به الغشى يقول: ياعم رسول الله وأسد الله، ياحمزة يافاعل الخيرات، ياحمزة ياكاشف الكربات، ياذاب، أى: يامانع عن وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، أى قال ذلك ﴿ﷺ وآله﴾ ، لا مع البكاء. فلا يقال هذا من الندب المحرم وهو تعديد محاسن الميت لأن ذلك مخصوص بما إذا قارنه البكاء، وليس من نعى الجاهلية المكروه، وهو النداء بذكر محاسن الميت على أن النداء بذلك محل كراهته إذا كان على وجه التفاخر والتعاظم، ولم يكن وصفا لنحو صالح للحث على سلوك طريقته، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : جاءنى جبريل عليه السلام وأخبرنى بأن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

صفية ورسول الله

وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ الزبيررضي الله عنه أن يرجع أمه صفية أخت حمزة رضى الله عنها عن رؤيته فقال لها: ياأم إن رسول الله رضي الله عنه يأمرك أن ترجعى، فدفعت فى صدره وقالت: لم وقد بلغنى أنه مثّل بأخي، وذلك فى الله فما أرضانى بما كان فى الله من ذلك، أى: أناشد رضا بذلك من غيرى، لأحتسبن ولأصبرنّ إن شاء الله تعالى. فجاء الزبيررضي الله عنه فأخبره رضي الله عنه بذلك فقال: خلوا سبيلها، فجاءت واسترجعت واستغفرت له رضي الله عنه. وفى رواية: أن صفية لقيت علياً والزبير رضى الله عنهما فقالت لهما:ما فعل حمزة فأرياها أنهما لا يدريان، أى: رحمة بها، فجاءت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: إنى أخاف على عقلها، فوضع ﴿ﷺ وآله﴾ يده الشريفة على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت. وفى رواية: أنها لما منعها على والزبير رضى اله عنهما قالت: لا أرجع حتى أرى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما رأته قالت: يارسول الله أين ابن أمى حمزة قال ﴿ﷺ وآله﴾ : هو فى الناس قالت: لا أرجع حتى أنظر إليه فجعل الزبير يمنعها فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : دعها

فلما رأته بكت فصارت كلما بكت بكى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم أمر به فسجّى ببرده. عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول: أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير له﴿ ﷺ وآله﴾ إلى أحد من القتلى بالأكثرية قدمه فى اللحد مما يلى القبلة. وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ولم يغتسلوا.. فيحرم غسل الشهيد ولو جنباً والصلاة عليه، والحكمة فيهما كدفنهم بدمائهم إبقاء أثر الشهادة عليهم.

أما حديث صلاته ﴿ ﷺ وآله﴾ على قتلى أحد صلاته على الميت، فالمراد دعا لهم كدعائه للميت جمعاً بين الأدلة، وحملوا على ذلك أيضاً حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين صلاته على الميت، أى: دعا لهم، كدعائه للميت كالمودع للأحياء والأموات حين قرب أجله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فذلك توديع لهم ، بذلك قال السهيلى: لم يرد عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه صلى على شهيد فى شىء من مغازيه، إلا هذه الرواية فى أُحد، وكذلك لم يصل على الشهداء أحدُ من الأئمة بعده ﴿ ﷺ وآله﴾ ، نعم جاء أن حنظلة كان جنباً فغسلته الملائكة رضى الله عنه كما تقدم.

منزلة شهداء أُحد

وحمل أناس موتاهم ليدفنوهم بالمدينة، فجاءهم منادى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: ردوا القتلى إلى مضاجعهم، فأدرك المنادى واحداً لم يكن يدفن فردوه، ومن دفن أبقوه.

وجاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال فى قتلى أُحد: أنا شهيد على هؤلاء، وما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لما أصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا يتكلوا، أى: يمتنعوا عن الحرب. فقال الله: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧١) وقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لجابر رضي الله عنه : إن الله كلم أباك كفاحاً، فقال: سلنى أعطك، فقال: أن أرد إلى الدنيا، فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عز وجل: إنه سبق أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، قال: أى رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء .. الآية﴾ .

رحمة مهداة

وعن بشير بن عفرة ﵁ قال: أصيب أبي يوم أُحد فمر بي النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وأنا أبكى فقال: أما ترضى أن تكون عائشة أمك وأنا أكون أباك.

قتال الملائكة يوم أُحد

واختلف العلماء هل قاتلت الملائكة يوم أُحد أم لا؟

قال مجاهد: حضرت الملائكة ولم تقاتل، وما قاتلت إلا يوم بدر، لكن جاء عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: رأيت عن يمين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيناهما قبل ولا بعد، أى وهما جبريل وميكائيل . قال البيهقى: لا منافاة لأنهم لم يقاتلوا يوم أُحد عن القوم فلا ينافى أنهم قاتلوا عنه ﴿ﷺ وآله﴾ خاصة.

لكن جاء عن الحرث بن الصمة ﷺ قال: سألنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو فى الشعب عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: رأيته فى جنب الجبل، فقال: الملائكة تقاتل معه. قال الحرث فرجعت إلى عبد الرحمن فإذا بين يديه سبعة صرعى، فقلت: ظفرت يمينك، كل هؤلاء قتلت؟. فقال: أما هذا وهذا فأنا قتلتهما، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره، فقال: صدق الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾

قال بعضهم: إن مقاتلة الملائكة عن خصوص عبد الرحمن بن عوف لا تنافى مقاتلتهم يوم بدر عن عموم القوم، وتقدم أنه لما سقط اللواء من يد مصعب بعد قتله ﷺ أخذه ملك فى صورة مصعب.

ولما أراد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يتوجه إلى المدينة ركب فرسه وخرج المسلمون حوله وعامتهم جرحى رضى الله عنهم، ومعه ﴿ﷺ وآله﴾ أربع عشرة امرأة كن بأصل أحد وقال: اصطفوا حتى أثنى على ربى عز وجل، فاصطف الرجال خلفه صفوفا وخلفهم النساء فقال: اللهم لك الحمد كله، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما أبعدت، ولا مبعد لما قربت. ثم توجه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش رضى الله عنها ابنة عمته ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأخت زوجته زينب

رضى الله عنها، فقال لها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : احتسبى، قالت: من يارسول الله؟ قال: خالك حمزة، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون هنيئا له بالشهادة، ثم قال لها: احتسبى قالت: من يارسول الله؟ قال: أخوك عبد الله بن جحش، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون هنيئا له بالشهادة، ثم قال لها: احتسبى قالت: من يارسول الله؟. قال: زوجك مصعب بن عمير، فقالت واحزناه وصاحت وولولت، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن زوج المرأة لبمكان ما هو لأحد، لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها، ثم قال لها: لم قلت هذا ؟ قالت: تذكرت يتم بنيه فراعنى، أى: فلا تؤاخذنى، فدعا لها أن يحنن الله عليهم الخلق، فتزوجت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . فكان أوصل الناس لولدها، وولدت له محمد بن طلحة رضي الله عنه

سلامة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أحب إلينا

وجاءت أم سعد بن معاذ رضى الله عنها وعنه تعدو نحو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو على فرسه، وابنها سعد بن معاذ آخذ بلجام فرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال له سعد: يارسول الله أمى، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : مرحبا بها، فوقف لها، فدنت منه حتى تأملت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فعزاها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد أشويت المصيبة، أى: استقللتها.

ودعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لمن قتل بأحد بعد أن قال لأم سعد: أبشرى وبشرى أهلهم، إن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعاً، وقد شفعوا فى أهليهم، قالت: رضينا يارسول الله، ومن يبكى عليهم بعد هذا. ثم قالت: يارسول الله ادع الله لمن خلفوا، فقال: اللهم أذهب حزن قلوبهم؟، وأجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا.

البكاء على حمزة

وسمع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نساء الأنصار يبكين على أزواجهن وأبنائهن وإخوانهن. فقال ﴿ﷺ وآله﴾: حمزة لا بواكى له، وبكى ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولعله لم يكن لحمزة رضى الله عنه بالمدينة زوجة ولا بنات. فأمر سعد بن معاذ رضي الله عنه نساءه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، يبكين حمزة بين المغرب والعشاء، وكذلك أسيد بن حضير رضي الله عنه أمر نساؤه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يبكين حمزة، ولما وصل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة، أنزله السعدان عن فرسه سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة رضى الله عنهما. ثم اتكأ عليهما حتى دخل بيته، ثم أذن بلال لصلاة المغرب، فخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، على مثل تلك الحال يتوكأ على السعدين فصلى ﴿ﷺ وآله﴾ المغرب. فلما رجع من صلاة المغرب إلى بيته سمع البكاء. فقال ما هذا ؟ فقيل: نساء الأنصار يبكين على حمزة. فقال: رضى الله عنكن وعن أولادكن، وأمر أن يرجع النساء إلى بيوهن رضى الله عنهن، وصارت بعد ذلك نساء الأنصار لا تبكى على ميتها إلا ابتدأن بحمزة رضي الله عنه .

وباتت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة عى بابه ﴿ﷺ وآله﴾ بالمسجد يحرسونه ﴿ﷺ وآله﴾ ، خوفاً من قريش أن تعود إلى المدينة، وجملة القتلى من المسلمين يوم أُحد سبعون رضي الله عنه .

ولما سمع المنافقون بكاء المسلمين على قتلاهم، أظهروا الشماتة هم واليهود وأظهروا أقبح القول فقالوا: ما محمد ﴿ﷺ وآله﴾ إلا طالب ملك، ما أصيب بمثل هذا نبى قط، أصيب فى بدنه، وأصيب فى أصحابه، وقالوا: لو كان من قتل معكم عندنا ما قتل. فاستأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فى قتل هؤلاء المنافقين فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟.

فقال: بلى، ولكن تعوذا من السيف وقد بان أمرهم، وأبدى الله أضغانهم، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : نهيت عن قتل من أظهر ذلك.

وصار ابن أبى–لعنه الله–يوبخ ابنه عبد الله ﵁، وقد أثبتته الجراح فقال له ابنه: الذى صنع الله ورسوله خير. وكان من عادة عبد الله بن أبى بن سلول، أنه إذا جلس رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ على المنبر قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه، وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، فبعد أحد أراد أن يفعل كذلك، فلما قام أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه، وقالوا له: اجلس ياعدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنى إنما قلت شراً، وقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فقال: والله ما ابتغى أن يستغفر لى.

الحكمة من هزيمة أحد

وأنزل الله تعالى قصة أُحد فى آل عمران فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ (آل عمران: ١٢١).

وقد ذكر الله الحكمة فيما أصاب المؤمنين بمخالفتهم أمر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وعرفهم سوء عاقبة المصيبة، وشؤم ارتكاب المخالفة،بما وقع من ترك الرماة موقعهم الذى أمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا يبرحوا عنه بقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٢) .

ومن الحكم فى ذلك أن عادة الله تعالى جرت أن الرسل عليهم الصلاة والسلام تُبتَلى ثم تكون العاقبة لهم، ولو انتصروا دائماً، لدخل فى المسلمين من ليس منهم، ولم يتميز

الصادق من غيره كما قال تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤). ولو انغلبوا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين، ليتميز الصادق من الكاذب قال تعالى:﴿ مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩) وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا مستورا عن المسلمين فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول كانخذالهم وقولهم: لو نعلم قتالا لا تبعناكم، عاد ما كان يضمرونه ويتكلمون به فيما بينهم، ويخفونه عن المسلمين مصرحا به، وعرف المسلمون أن لهم عدوا فى دارهم فاستعدوا له وتحرزوا منه.

ومن الحكم فى ذلك أيضا أن فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضما للنفس وكسر لشماختها وتكبرها وتعاظمها، فلما ابتلى المؤمنون صبروا، وأما المنافقون جزعوا.

ومنها أن الله تعالى هيأ للمؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها،قال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢) قال ابن إسحق: أى حسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا من ثوابى الكرامة، ولم أختبركم بالشدة وابتليكم بالمكاره، حتى أعلم صدقكم فى الإيمان بى، والصبر على ما أصابكم، أى:أعاملكم، معاملة المبتلى المختبر ليظهر علمى لكم، ويكون ما أظهره مطابقا لما سبق فى علمى.

ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقهم الله إليها إكراما لهم، حيث اتخذ منهم شهداء، وكانوا يتمنون ذلك قبل لقاء العدو، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٤٣).

ومنها أن الله سبحانه أراد إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك، حيث اعتقدوا أهم على شيء من ظفرهم الصورى بالمسلمين، فزادوا عتواً وتجبراً وطغياناً فى إيذاء أوليائه، ومحص الله بذلك المؤمنين،ومحق لذلك الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤١).

أى: يهلك الكافرين ، الذين حاربوا يوم أُحد ولم يسلموا، والمعنى: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص، وإن كانت على الكافرين، فلمحقهم ومحو آثارهم.

ومنها أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصيبوا ببعض العوارض الدنيوية، من الجراحات، والآلام، والأسقام، تعظيماً لأجورهم، وليتأسى بهم أتباعهم فى الصبر على المكاره. قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ۝ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران: ١٣٧ ــ ١٣٩). وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦ ــ ١٤٧).

غزوة حمراء الأسد

كانت صبيحة موقعة أُحد، إذ وقعت يوم الأحد لست عشرة مضت من شوال بالسنة الثالثة للهجرة، وكانت أُحد يوم السبت السابق له.

قال الواقدى: باتت وجوه الأنصار على بابه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أُحد خوفاً من كثرة العدو، فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمر فأخبر النبى أنه قد أقبل من عند أهله قرب المدينة، إذ قريش قد نزلوا فسمعهم يقولون: ما

صنعتم شيئاً أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، قد بقى منهم رءوس يجتمعون لكم،فارجعوا نستأصل من بقى، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم، ويقول: لا تفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم فإنى لا آمن إن رجعتم تكون الدولة عليكم.

لذلك أذن مؤذن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخرج المسلمون خلف قريش، وأن لا يخرج إلا من حضر أُحد. وذلك إرهاباً للعدو، ولتعلم قريش أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج فى طلبهم على كثرة جراح من معه، وأن المسلمين يمتلكون مع القوة للقتال، الإيمان الشديد بالله ومحبة النبى .

ودعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بلوائه وهو معقود ولم يحل، فدفعه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. وقال الحافظ بن كثير: إن الذين خرجوا إلى حمراء الأسد كل من شهد أُحد، وكانوا سبعمائة قتل منهم سبعون.

ومضى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأصحابه ودليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة بن الخزرج حتى عسكر بحمراء الأسد.

وقد روى النسائى والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس ﴿ ﷺ وآله﴾: لما رجع المشركون من أُحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما ،صنعتم ارجعوا. فسمع بذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فندب المسلمون فانتدبوا فخرج بهم حتى بلغ حمراء الأسد فأنزل الله عز وجل:﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران: ١٧٢)

وركب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فرسه وهو مجروح، وفى وجهه اثر الحلقتين، ورباعيته مكسورة، وشفته السفلى مشقوقة، وركبتاه مجروحتان فى وقعة الحفرة.

ولقيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقال: يأبا طلحة أين سلاحك؟ فقال: قريب، فذهب وأتى به، وبأبى طلحة بضع وسبعون جراحة منها سبعة بصدره .

فقال ﴿ﷺ وآله﴾ يأبا طلحة أين تظن القوم؟ فقال: بالسيالة

فقال ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك الذى ظننت، أما أهم ياطلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة. وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ياابن الخطاب إن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن.

ولما عسكر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بحمراء الأسد وهو على بعد ثمانية أميال من المدينة، أقام بها الاثنين و الثلاثاء والأربعاء، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار، حتى ترى من المكان البعيد، حتى يرهبوا بذلك عدوهم.

قال ابن اسحاق: إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لقى بحمراء الأسد معبدا بن أبى معبد الخزاعى وهو يومئذ مشرك وأسلم بعد رضي الله عنه ــ وكان بنو خزاعة عيبة، نصح للنبى رضي الله عنه مسلمهم و كافرهم، كلهم يحبونه ﴿ﷺ وآله﴾ ــ فقال: يامحمد والله لقد عز علينا ما أصابك فى نفسك، وما أصابك فى أصحابك، و لوددنا أن الله أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت بغيرك،. ثم مضى حتى أتى أبا سفيان وأصحابه وهم بالروحاء وقد أجمعوا على الرجوع، وقالوا: أصبنا فى أحد أصحاب محمد وقادهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرن عليهم، فلنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك؟ قال: محمد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك، ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل، قال: لقد اجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل بقيتهم، قال: فإنى أهاك عن ذلك، فملئوا رعبا من ذلك، ورجعوا إلى مكة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن الله قذف فى قلب أبى سفيان الرعب بعد الذى كان منه يوم أحد فرجع إلى مكة.

وعاد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمسة أيام، وظفر ﴿ﷺ وآله﴾ عند رجوعه إلى المدينة بمعاويه بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس فأمر بقتله. وكان عثمان بن عفان قد أخذ له الأمان لثلاثة أيام حيث إنه دخل المدينة ليلة أحد والتقى بعثمان بن عفان الذى آجره،وأمنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لثلاثة أيام وحلف إن وجده بعدها لقتله، وخرج الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ إلى حمراء الأسد فأقام معاوية يستعلم أخبار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليأتى بها قريش، فلما عاد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة، خرج معاوية هاربا فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : إنكم ستجدونه بموضع كذا وكذا فاقتلوه، فأدركه زيد بن حارثة، وعمار رضى الله عنهما فقتلاه.

سرية أبى سلمة

كانت أول المحرم من السنة الرابعة من الهجرة إلى قطن بفتح القاف و الطاء، وهو جبل بناحية فيد بفتح الفاء وسكون الياء وبالدال المهملة آخره، وهو اسم ماء لبنى أسد بنجد.

بعث ﴿ﷺ وآله﴾ أبا سلمة_ عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن مخزوم القرشى المخزومى _ ومعه مائة وخمسون رجلا من المهاجرين والأنصار؛ وذلك فى طلب طليحة و سلمة ابنى خويلد الأسديين، لأنه قد بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أهما يدعوان قومهما ومن أطاعهما لحربه ﴿ﷺ وآله﴾ ، فنهاهم قيس بن الحرث، فلم ينتهوا.

وقد عقد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأسلم اللواء لأبى سلمة وقال: سر حتى تترل أرض بنى أسد بن خزيمة فأغر عليهم؛ فأسرع السير حتى انتهى إلى أدنى قطن، فأغار على سرح لهم، مع رعاء لهم ثلاثة نفر، وخاف الباقون وهربوا من منازلهم، وعسكر أبا سلمة فى قطن وفرق قومه ثلاثة فرق، فرقة قامت معه، وفرقتان أغارتا فى ناحيتين فرجعتا إليه سالمتين، وقد غاب أبو سلمة عن المدينة عشرة أيام.

سرية عبد الله بن أ نيس

يوم الاثنين لخمس خلون فى المحرم فى السنة الرابعة من الهجرة ، أرسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عبد الله بن أنيس رضى الله عنه الجهنى السلمى الأنصارى، بعثه ﴿ﷺ وآله﴾ وحده، لقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى، وكان بعرنة ، موضع قريب من عرفة، لأنه بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أنه جمع الجوع لحربه، فقال لعبد الله: ائته فاقتله.

فقال: صفه لى يارسول الله حتى أعرفه. قال: إذا رأيته هبته، وفرقت منه، ووجدت له قشعريرة، وذكرت الشيطان، قال عبد الله: وكنت لا أهاب الرجال فقلت: يارسول الله ما فرقت من شيء قط. فقال: آية ما بينك وبينه ذلك . و استأذنته أن أقول.

فقال: قل ما بدا لك وانتسب لخزاعة. فأخذت سيفى وخرجت أعتزى لخزاعة فلما وصلت إليه بعرفة لقيته يمشى ووراءه الأحابيش فهبته وعرفته بنعت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقلت: صدق الله، وصدق رسوله، وقد دخلت وقت العصر حين رأيته، فصليت وأنا أمشى، وأومىء برأسى إيماء، ثم دنوت منه فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بنى خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك.

قال: أجل إنى لفى الجمع له، فمشيت معه وحدثته فاستمع إلى حديثى، ومشيت معه وهو يتوكأ على عصا يهد الأرض، حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه، وهم يطيفون به، فقال: هلم أخا خزاعة، فدنوت منه، قال: اجلس، قال: فجلست معه حتى إذا نام الناس، اغتررته وقتلته، ثم أقبلت أسير الليل وأتوارى بالنهار، خوفا من الطلب أن يدركنى، حتى قدمت المدينة فوجدته ﴿ﷺ وآله﴾ بالمسجد، فقال: أفلح الوجه، قلت: أفلح وجهك يارسول الله، وأخبرته، فدفع عصا وقال: تخصر بها فى الجنة، فإن المتخصرين فى الجنة قليل، وكانت غيبته ثمانى وعشرة ليلة.

قال موسى بن عقبة: وقد أخبر ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه بقتل عبد الله بن أنيس لسفيان بن خالد قبل قدوم عبد الله بن أنيس رضي الله عنه .

بعث الرجيع

بعد قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى ذهب بنو لحيان من هذيل إلى عضل و القاره وهما قبيلتان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة، فجعلوا لهم إبلا على أن يكلموا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، أن يخرج إليهم نفرا من أصحابه؟، فقدم سبعة نفر مظهرين الإسلام فقالوا: يارسول الله إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث معهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ستة من أصحابه وهم عاصم بن ثابت، ومرثد ابن أبي مرثد، وخبيب بن عدى الأوسى البدرى، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وخالد بن البكير، وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ عاصم بن ثابت فخرجوا فى شهر صفر، فى أول السنة الرابعة من الهجرة، مع القوم حتى أتو الرجيع ـ وهى ماء لهذيل بن مدركة بن إلياس بين مكة و عسفان ـ فغدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا ليعينوهم على قتلهم. فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا رجالا بأيديهم السيوف وهم نحو مائتى رجل. فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله لا نريد قتلكم ولكن عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم، وقالوا ذلك .

لأنهم يريدون أن يسلموهم لكفار قريش، ويأخذوا فى مقابلهم مالا، لعلمهم أنه لا شيء أحب على قريش من أن يأتوا بأحد من أصحاب محمد ﴿ﷺ وآله﴾ يمثلون به ويقتلونه بمن قتل منهم ببدر وأحد، فأبوا أن يقبلوا منهم. فقال كل من مرثد، وخالد ن البكير، وعاصم بن ثابت: والله لا نقبل عهدا من مشرك وقاتلوا حتى قتلوا ﵃ . وأما زيد وخبيب وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة، فقام المشركون بربط قيودهم واقتادوهم فقال ابن طارق: هذا أول الغدر، فرفض أن يصاحبهم فقتلوه.

وذهب المشركين بخبيب، وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة، باعهما جامع وزهير الهذليان بأسيرين من هذيل بمكة، والذى اشترى خبيب بنى الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، لأن خبيبا هو الذى قتل عامر بن نوفل يوم بدر. واشترى زيدا بن الدثنة صفوان بن أمية ﵁ ـ لأنه أسلم بعد ذلك ـ وكان زيد قد قتل أبيه أمية؛ وكان شراؤهما فى ذى القعدة، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم فقتلوهما.

سرية بئر معونة

كانت فى شهر صفر فى أول السنة الرابعة من الهجرة، وكانت هذه السرية إلى رعل و زكوان، وسميت باسم بئر معونة لنزولهم بها، وتعرف هذه السرية أيضا بسرية القراء.

قال ابن إسحاق: عن طريق شيوخه أنه قدم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبو براء عامر ابن مالك بن جعفر العامرى فأهدى إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فرس وراحلتين فقال ﴿ﷺ وآله﴾: لا أقبل هدية مشرك وعرض عليه الإسلام، فقال: يامحمد إنى أرى أمرك هذا حسنا شريفا، وقومى خلفى فلو أنك بعثت معى نفرا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك، فإنهم إن اتبعوك، فما أعز أمرك، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: إنى أخشى أهل نجد عليهم؛ قال أبو براء: أنا لهم جار، أى: هم فى ذمامى وعهدى وجوارى، فابعثهم.

فبعث ﴿ﷺ وآله﴾ المنذ بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون، وقيل: أربعون. فلما وصلوا إلى بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان أخا ام سليم خال أنس بن مالك، ﵁ بكتابه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابى العامرى، وهو ابن أخى ابن براء، ومات كافرا، فلم ينظر إلى كتابه بل عدا على الرجل حتى قتله.

ثم استصرخ بنى عامر قومه على بقية القوم، فلم يجيبوه، وقالوا: لن نخفر أبى براء، أى: لن ننقض عهده وزمانه، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم عصيبة ورعلا وذكوان فأجابوه إلى ذلك، ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا كلهم، إلا كعب بن زيد الأنصارى الخزرجى البدرى ﵁ ، فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا؛ وأما عمرو بن أمية الضمرى فإنه أسر وأطلق.

قال أنس بن مالك ﵁ :جاء خبرهم إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على لسان جبريل ﵇ فى تلك الليلة فقال: هذا سببه عمل أبى براء، حيث أخذهم فى جواره، قد كنت لهذا كارها متخوفا، فبلغ ذلك أبا براء فمات عقب ذلك أسفا على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل.

روى ابن سعد بن مالك ﵁ قال: ما رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وجد أى حزن على أحد ما وجد على أهل بئر معونة، لكونه لم يرسلهم لقتال، إنما هو مبلغون رسالته، وقد جرت عادة العرب قديما، بأن الرسل لا تقتل.

ودعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة شهرا، وفى رواية أربعين يوما، يدعو على رعل، وذكوان، وعصيبة، ولحيان. قال أنس ﵁: وبلغ الله نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ على لسان جبريل أنهم لقوا ربهم فرضى عنهم وأرضاهم.

غزوة بنى النضير

اختلف العلماء بالسنة التى حدثت فيها، فذهب الزهرى وجماعة وسار عليه البخارى أنها كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد، وذهب ابن اسحاق أنها كانت بعد بئر معونة، ورجح المحققون قوله، و قالوا: كانت فى السنة الرابعة فى ربيع.

وبنو النضير هى قبيلة كبيرة من اليهود، ينسبون إلى هارون أخى موسى عليهما السلام. ذهب الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ إلى بين بنى النضير وكان على بعد ميلين من المدينة، ليستعين بهم فى دية قتيلين من بنى عامر، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف فيسهل الدفع منهم لكون المدفوع لهم من حلفائهم. فلما أتاهم ﴿ﷺ وآله﴾ قالوا: نعم يأبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وقد آن لك أن تزورنا، وأن تأتينا، اجلس تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا. فلما خلا بعضهم إلى بعض قالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحالة، منفردا ليس معه أحد من أصحابه إلا نحو العشرة، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ قاعدا إلى جنب جدار من بيوتهم، فقالوا: من يعلوا على هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه الصخرة. فقال سلام بن مشاكم لليهود: لا تفعلوا فوالله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه.

قال ابن اسحاق: وأتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الخبر من السماء مع جبريل عليه السلام بما أراد به القوم، فقام ﴿ ﷺ وآله﴾ مظهرا أنه يقضى حاجة، وترك أصحابه فى مجالسهم.

.

ورجع مسرعا إلى المدينة؛ ثم أن أصحابه ﴿ ﷺ وآله﴾ استبطأوه فقاموا فى طلبه، فقال لهم حيى بن أخطب اليهودى: لقد عجل أبو القاسم كنا نريد أن نقضى حاجته، ونقر به، وندمت اليهود على ما صنعوا.؟

ولما انتهى أصحابه إليه ﴿ ﷺ وآله﴾، قالوا: قمت ولم نشعر، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به، قال موسى بن عقبة: ونزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (المائدة: ١١). قال ابن إسحاق: ثم أمر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه بالتهيء لحرب بنى النضير،ثم سار بالناس إليهم، وحمل الراية على بن أبى طالب كرم الله وجهه، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين فى عوالى المدينة من ناحية قباء فحاصرهم ست ليال، وقيل خمسة عشر يوما، وقيل قريبا من عشرين،فتحصنوا منه بالحصون، فقطع نخلا لهم يسمى العجوة، وآخر يسمى اللين، وكان ذلك أحرق لهم لأنه خير أموالهم. وقد كان رهط من النافقين منهم عبد الله بن أبى بن سلول بعثوا إلى بنى النضير حين هموا بالخروج أن أثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فانتظروا ذلك، وقذف الله الرعب فلى قلوبهم فلم ينصروهم وفى ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُون ﴾ (الحشر:١٢،١١). ثم لما اشتد عليهم الحصار سألوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾،

أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم، وكان جلاؤهم نقمة عليهم من الله تعالى.
وروى ابن سعد أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ حين هموا بغدره وأعلمه الله بذلك نهض إلى المدينة سريعا، ثم بعث إليهم محمد بن مسلمة ﵁، أن أخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرا، فمن رؤى منكم بعد ضربت عنقه، فمكثوا على ذلك أياما، يتجهزون وأكثروا من أناس من أشجع إبلا، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم فإن معى ألفين من قومى من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم شيء، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع حي بن أخطب فيما قاله عبد الله بن أبي. فأرسل إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إنا لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.
فكبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكبر المسلمون بتكبيره، وقال: حاربت يهود، وسار إليهم ﴿ ﷺ وآله﴾، فى أصحابه مشاة على أرجلهم لقرب الموقع، وصلى العصر فى فناء بنى النضير فلما رأوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قاموا على حصونهم ومعهم النبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة ولم تعنهم، واعتزلهم عبد الله بن أبى بن سلول ولم يعنهم، وكذا حلفاؤهم من غطفان، وبنى لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قبة من خشب عليها مسموح أرسل بها إليه سعد بن عبادة، وجعلوها عند مسجد بنى خطمة، ودخلها ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان مزوك اليهودى، راميا فيرمى فيبلغ القبة، فحولت إلى مسجد الفضيخ فتباعدت من النبل. ثم فقد على ﵁ فى ليلة قرب العشاء، فقال الناس: يارسول الله ما نرى عليا، فقال: دعوه فإنه فى بعض شأنكم، وبعد قليل جاء برأس مزوك، وكان قد كمن له حين خرج يطلب غرة فى المسلمين، وكان شجاعا راميا . فشد عليه على كرم الله وجهه فقتله، وفر من كان معه.
ولما يأسوا من نصرهم، قال بنو النضير: نحن نخرج من بلادك، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لأقبل هذا اليوم، ثم قال لهم: اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا

الحلقة وهى الدروع والسلاح، فرضوا بذلك ونزلوا عليه، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، لينقلوا ما استحسنوه منها من الخشب وغيره، وأيدى المؤمنين يخربون باقيها، نكالا وخزيا لهم.

قال ابن اسحاق: خرجوا بالنساء والأبناء والأموال ومعهم الدفوف والمزامير والفتيات، يعزفن خلفهم بزهاء وفخر لم ير مثله.

وخرج بعضهم إلى خيبر، وسار آخرون إلى أذرعات بالشام، هذا وفى شأن بنى النضير، نزلت معظم آيات سورة الحشر، وقد سمى ابن عباس ﵄ سورة الحشر بسورة بنى النضير.

غزوة ذات الرقاع

وتسمى غزوة محارب، وغزوة بنى ثعلبة، بنى أنمار، وغزوة صلاة الخوف لوقوعها فيها، وغزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأمور العجيبة، واختلف فيها متى كانت، وفى سبب تسميتها بذلك.

فقال ابن اسحاق: إنها كانت بعد النضير سنة أربع فى شهر ربيع الآخر، وبعد جمادى الأولى. وقال عبيدة: إنها كانت سنة خمس ومال البخارى إلي أنها كانت بعد خيبر سنة ٧ هـــ واستدل على ذلك بما رواه عن أبي موسى الأشعرى ﵁ وهو:-

خرجنا مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ستة نفر من الأشعريين مع الجيش، بيننا بعير فنقبت أقدامنا، وسقطت أظفارى، فقلنا: نلف على أقدامنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع. وإذا ثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، وثبت أنه لم يجيء إليه ﴿ﷺ وآله﴾ من الحبشة إلا بخيبر لزم أن تكون غزوة ذات الرقاع بعد خيبر، إلا أن يدعى تعدد غزوة ذات الرقاع مرتين، وأنها كانت قبل خيبر وبعدها ، والتى وجدت فيها صلاة الخوف هى الثانية. والبخارى مع روايته عن أبي موسى الصريحة فى تأخر غزوة ذات الرقاع عن غزوة خيبر قدم غزوة ذات الرقاع على خيبر.

ومثل الإمام البخارى لابد وأن يكون له فى تقديمها حكمة، ويظهر للمتأمل بعد اليقين بصحة حديث سيدنا أبو موسى الأشعرى ﵁ وأنه رجع من الهجرة فى خيبر أنها بعد خيبر، ولمن تقديم البخارى لها لما ثبت عن أهل السير ﵃ ،أنها كانت فى السنة الرابعة، وكان الإمام البخارى يشير إلى أن ذات الرقاع غزوتان الأولى فى السنة الرابعة، والثانية فى السنة السابعة التى قررها بحديث أبي موسى الأشعرى. فهى وإن كانت متأخرة بالنسبة للغزوة الثانية فهى متقدمة بالنسبة للغزوة الأولى على الراجح.

لماذا نتدارس سيرته ﴿ﷺ وآله﴾ ؟

وإنما المراد من دراستنا المغازى بيان سيرته ﴿ﷺ وآله﴾ وأعماله وأحواله ﴿ﷺ وآله﴾ ، واستنباط الأحكام الشرعية، والأخلاق المرضية، والأحوال السنية. ومنها ليتجمل المسلم بحلل الجمال المحمدى، وينهج فى سيرة على نهجه القويم ﴿ﷺ وآله﴾، وليس المراد من بيان سيرته ، و مغازيه ﴿ﷺ وآله﴾ ضبط الأيام وتحقيق الحوادث في زمان ومكان إذ ليس ذلك مراد لمن يريد أن يتحلى بتلك الحلل العلية ، فإن العلم بالسيرة ، مورد أهل العزائم الظمآى المتعطشين لارتشاف طهور أخلاقه ﴿ﷺ وآله﴾ وأعماله ومعاملاته

﴿ﷺ وآله﴾ ، وبيان أحوال أصحابه ﴿ﷺ وآله﴾، وهممهم العلية التى بلغوا بها نيل رضوان الله الأكبر، حتى يتشبه المسلم بهم،ويسارع إلى الاقتداء و الاتباع لهم ﵃ أجمعين.

وسنوضح كل سيرته وسيره ﴿ﷺ وآله﴾ فى تلك الغزوة حتى يستبين للمسلم ما كان عليه ﴿ﷺ وآله﴾ . وإن اختلف أهل السير فى زمانها، فذلك شيء لا يضر، كما أن اختلافهم فى تسميتها فشيء اقتضته حال الغزوة، فإن قيل ذات الرقاع فصادق أن يقول إنهم لفوا الرقاع على أرجلهم، وصادق لأن تكون صلاة الخوف وقعت فيها، وهى كالمرقعة، وأن تكون أرض الغزوة فيها قطع بيض وحمر كالرقع، وأن تكون خيولهم ذات سواد وبياض واجتماع تلك المعانى كلها صالحة، لأن تسمى به ذات الرقاع، وتسميتها باسم القبائل التى غزاها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيها مقبول عقلا، وإنما تسميتها اصطلاح للرواة، ولم يرد نص صريح عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بتسميتها وإلا لكنا وقفنا عنده. وإنما حصل الخلاف فى تسميتها لعدم ورود النص

الصريح، وفى كل غزوة اختلف الرواة فى التسمية، بحيث أن ننظر إلى الاختلاف بهذا النظر، ولا نطيل بإعادة الحكمة على المطالع.

وكان من خبر هذه الغزوة ما قاله ابن اسحق: غزا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نجدا، يريد بنى محارب بن حفصة بن قيس بن عيلان، وبنى ثعلبة بن سعد بن غطفان بن قيس بن عيلان، فمحارب وسعد ابنا عم، وسبب ذلك أنه بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أنهم جمعوا جموعا لمحاربته ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبر أصحابه وأمرهم بالتجهيز، ثم خرج فى أربعمائة من أصحابه، وقيل: سبعمائة، وقيل: ثمانمائة، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى، وقيل: عثمان بن عفان رضى الله عنهما.

قال ابن عبد البر: وعليه الأكثر، ومن قال: إنه ﴿ﷺ وآله﴾ استعمل أبا ذر، نظر فى قوله، لأن أبا ذر لما أسلم بمكة، رجع إلى بلاد قومه، فلم يجيء حتى مضت بدر وأحد والخندق وهذا النظر بناء على أنها كانت قبل الخندق، وأما على أنها كانت بعد الخندق، فلا يتأتى هذا النظر، ويجوز الجمع بينهما بأن يكون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقام أبا ذر للصلاة، وأقام عثمان أميرا رضى الله عنهما.

أول صلاة خوف للنبى ﴿ﷺ وآله﴾

وسار ﴿ﷺ وآله﴾ إلى موضع يقال له وادى بعرة، وبعث السرايا، فرجعوا إليه من الليل وأخبروه أنهم لم يروا أحد، فسار ﴿ﷺ وآله﴾ حتى نزل نخلا فى مجالسهم، فلم يجد بها أحد، ووجد نسوة فأخذهن. ونخل ـ موضع من نجد من أراضى عطفان ـ وبلغ الخبر القوم، فخافوا وتفرقوا فى رءوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا لمحاربة النبى
﴿ﷺ وآله﴾ وجيشه، فتقارب الناس ودنا بعضهم من بعض، وأخاف الناس بعضهم بعضا، أى: خاف المسلمون أن تغير المشركون عليهم، وهم على غير استعداد لهم، حتى صلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ صلاة الخوف بالناس، وكانت أول صلاة للخوف

صلاها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وورد من طريق لا بأس به، أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، صلى بأصحابه صلاة الظهر فهم المشركون أن يقاتلوهم فى صلاتهم، فقال قائل منهم: دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أبنائهم_لأن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كانوا يحافظون على صلاة العصر_ فأرجأوا الهجوم عليهم عند استقبالهم صلاة العصر فأرسل الله جبريل﵇ لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ببيان صلاة الخوف وأخبره عزم العدو على مفاجأتهم فيها، فلما حانت العصر وتحفز العدو، قسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الجيش قسمين، فجعل قسما منه فى وجه العدو، وقسما أقام بهم الصلاة. فصلى ركعة بالقسم الأول ووقف﴿ﷺ وآله﴾ فصلى الصحابة الركعة الثانية أفذاذا ثم انصرفوا إلى وجه العدو، وأقبل القسم الثانى فأحرموا بالصلاة وراء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فصلى بهم الركعة الثانية حتى أتم التشهد وقاموا إلى العدو. ومن هنا يظهر أن الصلاة لا تسقط عن المؤمن ولو كان فى الجهاد الأكبر، حتى أمر الله المؤمن وهو فى الملحمة أن يقيم الصلاة، وهو يقتل العدو،وهو راكب وماشى،ودمه سائل،متوجه للقبلة أو لغيرها بحسب مقتضيات الحال جعلنا الله من المحافظين على الصلوات.

بهجة النفس بمواجهة الحق تفقد الشعور بالألم

نزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ شعبا فى الوادى، فلما أتى الليل قال: من يكلؤنا؟ قام سيدنا بشر بن عباد وسيدنا عمار بن ياسر رضى الله عنهما فقالا: نكلؤك الليلة يارسول الله ، ووقفا على باب الشعب فقال سيدنا عباد ﵁ : أنا أكفيك أول الليل فنم، وأنت تكفينى آخر الليل، فنام سيدنا عمار بن ياسر ﵁ وقام سيدنا عباد بن بشر يصلى، وكان زوج إحدى النساء الأسيرات غائبا فقدم فبلغه الخبر فقال: لأصيبن محمدا أو أريق من دم أصحابه، فلما أقبل وجد عبادا يصلى، فقال: ربيته القوم، يعنى: عينهم، فرماه بسهم وهو يصلى فانتزعه وهو متوجه لربه ثم رماه بالثاني فانتزعه وهو

مواجه لربه، فرماه بالثالث فانتزعه وهو مواجه لربه، ثم خطر على قلب بشر ﷺ أنه فى حراسة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وعلى ثغر من ثغور الله، وخشى أن يترف الدم فيخشى عليه، فأيقظ عمارا ﷺ فلما رأى عمار الدم يسكب من جراحات عديدة قال: ما منعك أن توقظنى من أول سهم، قال: كنت أصلى، ولولا أنى خشيت أن أستهين بثغر من ثغور رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ما أيقظتك ولو زهقت نفسى ، فلما رأى المشرك سيدنا عمار فر هاربا.

لا تعجب أيها المطالع من أحوال أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فإنما هى أحوال عن مشاهد حق اليقين، وعن وجود مع الله سبحانه وتعالى، وعن مواجهة لوجهه الجميل، وبهجة بمناجاة، ولذة بسماع كلامه المجيد عنه سبحانه، ولو كان الصحابى هو الناطق به، لذة أنسته شديد الألم وأنسته نفسه، وحسه لعل العاقل يقول: تغالى، أو يقول: لم يعمل الحكمة أو خالف السنة. دع ميزان العقل أيها العاقل فإن مشاهد القدس ومشاهد الوجه الجميل لتفنى الواجد عن حسه، وتحجبه عن نفسه، حتى يكون فعل غير ذلك تقصير ودليل على الحجاب .

ولو أننا تتبعنا أحوالهم ﷺ ، فى أضيق المضايق وأشد الشدائد لتحققنا قدر اللذة والبهجة التى تحصل لهم بمناجاته، والفناء عن حسهم ونفسهم عند الإقبال على حضرته، والتحقق بنيل رضوانه سبحانه وتعالى. وليس ذلك بعجيب إلا عند من لم يذق حلاوة الإيمان ولذة التقوى ولم يصف جوهر نفسه، فتواجه جمال الرب جل جلاله، وتأنس بمحبة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . وقد بينت جملا من أحوال أهل اليقين فى قسم التصوف فى كتاب (أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾) فليراجعه طالب التجمل بتلك الأحوال، والله أسأل أن يمنحنى وإخوتى المؤمنين يقينا حقا تزكو به نفوسنا، وتطمئن به قلوبنا، وتنشرح به صدورنا إنه مجيب الدعاء.

من هذا نعلم أن أعمال أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هى السنة؛ وأن بعض أهل الغرة بالله ينكرون مجاهدة أهل المشاهدة، و يرموهم بأهم من أهل البدع جهلا منهم بقدر عظمة المقصود لأهل المجاهدة، الذى تبذل لأجله الأنفس الغالية، والأموال الثمينة .. وقد علم كل أناس مشربهم.

الحافظ الله

ويقال: إن رجلا من القوم وهو غورث على الأشهر، وقيل: غويرث بن الحرث قال لهم: ألا أقتل لكم محمد؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، أى: أجيء إليه على غفلة، فجاء إليه ﴿ﷺ وآله﴾ وسيفه في حجره فقال: يامحمد أرنى أنظر إلى سيفك هذا، فأخذه من حجره فاستله ثم جعل يهزه ويهم، فيقبضه الله، أى: يخزيه، ثم قال: يامحمد ما تخافنى؟ قال:لا، بل يمنعنى الله تعالى منك.ثم دفع السيف إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فأخذه ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: من يمنعك منى؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله، قال: أعاهدك على أنى لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ سبيله، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس وأسلم هذا بعد، وكانت له صحبة.

وفى رواية: جاء إليه ﴿ﷺ وآله﴾ وهو جالس وسيفه فى حجرة فقال: يامحمد انظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم، فأخذه فاستله ثم جعل يهزه ثم قال: يامحمد أما تخافنى؟ قال: لا، وما أخاف منك؟ قال: وفى يدى السيف، قال: يمنعنى الله تعالى منك، ثم غمد سيف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فرده عليه. وهذه واقعة غير واقعة دعثور المتقدمة فى غزوة ذى أمر فهما واقعتان أحدهما مع دعثور والثانية مع غورث. وفى رواية: لما قفل رسول الله راجعا إلى المدينة أدركته القائلة يوما بواد كثير العضاة، أى: الأشجار العظيمة التى لها شوك، وتفرق الناس فى العضاة، أى: الأشجار، يستطيلون بالأشجار.

نزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تحت ظل شجرة، أى: ظليلة، قال جابر ﵁: تركناها للنبى فعلق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سيفه فيها، فنمنا نومة، فأخذ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يدعونا فجئنا إليه فوجدنا عنده أعرابيا جالسا فقال: إن هذا قد اخترط سيفى وأنا نائم. فاستيقظت وهو فى يده مصلتا أى: مسلولا، فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله، قال: ذلك ثلاث مرات. ولم يعاقبه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . وهذه الرواية: مع ما قبلها يقتضى سياقهما جعلهما واقعتين لا واقعة واحدة، ويبعد أن يكون ذلك الأعرابى غورثا، وغورث صاحب الواقعة الأولى فيكون تعدد منه ذلك الفعل مرتين. وأنزل الله تعالى: ﴿ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ (المائدة: ١١).

وتقدم أن سبب نزولها إرادة إلقاء الحجر عليه ﴿ﷺ وآله﴾ من بعض أهل بنى النضير لعنهم الله، وتقدم أنه لا مانع من تعدد النزول لتعدد الأسباب، وإنما لم يعاقب ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك الأعرابى، وهى على استئلاف قلوب الكفار ليدخلوا فى الإسلام. وكانت مدة غيبته ﴿ﷺ وآله﴾ خمس عشرة ليلة، وبعث ﴿ﷺ وآله﴾ جعال بن سراقة إلى المدينة. مبشرا بسلامة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وسلامة المسلمين ﵃ ، وكان ﵁ من أهل الصفة. وأبطأ جمل جابر﵁ ، فنخسه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وفى لفظ أنه حجنه بمحجنه فانطلق متقدما بين يدى الركب .

الله أرحم من الطائر بفرخه

وفيها أيضا: جاء رجل بفرخ طائر، فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدى الذى أخذ فرخه، فعجب الناس من ذلك، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أتعجبون من هذا الطائر أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه؟ والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه.

البركة المحمدية

وفيها أيضا: جيء له ﴿ﷺ وآله﴾ بثلاث بيضات من بيض النعام فقال لجابر: دونك ياجابر فاعمل هذه البيضات، قال جابر ﵁: فعملتهن، ثم جئت بهن فى قصعة فجعلنا نطلب خبزا فلم نجد، فجعل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى كل إلى حاجته، أى: الشبع، والبيض فى القصعة كما هو.

الجمل يشتكى لرسول اللّه (ﷺ وآله)

وفيها أيضا: جاء جمل يرتحل، أى: حتى وقف عنده ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأرغى فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أن ترون ما قال هذا الجمل؟ هذا جمل يستعيذ بى على سيده ويزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنتين وأنه أراد أن ينحره. اذهب ياجابر إلى صاحبه فأت به، قال جابر ﵁: فقلت: لا أعرفه، قال: إنه سيدلك عليه، قال جابر: فخرج بين يدى حتى وقف على صاحبه فجئته به فكلمه ﴿ﷺ وآله﴾ فى شأن الجمل.

جمل يحتمى بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ويدعو للأمة ونبيها

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ دخل حائط رجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فمسح عليه فسكن، ثم قال: من رب هذا الجمل؟ فجاء نفر من الأنصار فقال: هذا لى يارسول الله فقال: ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله فإنه شكى إلى أنك تجيعه و تدئبه.

وفى رواية: كنا جلوس مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إذا بعير أقبل حتى وقف على هامة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فرغا، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾: أيها البعير اسكن فإن تك صادقا فلك صدقك، وإن تك كاذبا فعليك كذبك، إن الله تعالى قد أمن عائذنا ولن يخيب لائذنا، فقلنا: يارسول الله ما يقول هذا البعير؟ قال: يريد أهله نحره وأكل لحمه فهرب منهم، واستغاث بنبيكم، فبينما نحن كذلك إذ أقبل أصحابه يتعادون، فلما نظر

إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلاذ بها، فقالوا: يارسول الله هذا بعيرنا هرب منذ ثلاثة أيام فلم نجده إلا بين يديك، فقال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أما أنه يشكو؟ فقالوا:يا رسول الله ما يقول؟ قال: يقول إن ربى فيكم سنين وكنتم تحملون عليه فى الصيف إلى موضع الكلأ، فإذا كان الشتاء حملتم عليه إلى موضع الدفا، فلما كبر استفحلتموه، فرزقكم الله به إبلا سليمة، فلما أدركته هذه السنة الجديدة هممتم بنحره وأكل لحمه، فقالوا: والله يارسول الله قد كان ذلك، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ما هذا جزاء المملوك الصالح من مواليه، فقالوا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أنا لا نتعبه ولا ننحره، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: كذبتم، قد استغاث بكم فلم تغيثوه، وأنا أولى بالرحمة منكم، لأن الله قد نزع الرحمة من قلوب المنافقين وأسكنها فى قلوب المؤمنين، فاشتراه ﴿ﷺ وآله﴾ منهم بمائة درهم، وقال: أيها البعير انطلق حيث شئت، فرغى البعير على هامة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له ﴿ﷺ وآله﴾: آمين، ثم رغا الثانية فقال

﴿ﷺ وآله﴾: آمين، ثم رغا الثالثة فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : آمين،ثم بكى الرابعة فبكى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقلنا: يارسول ما يقول هذا البعير؟ فقال: قال: جزاك الله خيرا أيها النبى عن الإسلام والقرآن، قلت: آمين.

قال: سكن الله رعب أمتك كما سكنت قلبى، قلت: آمين.

قال: حقن الله دماء أمتك كما حقنت دمى، قلت: آمين.

قال: لا جعل الله بأسهم بينهم شديد، فبكيت لأنى سألت ربى فيها، أى: فى هذه الرابعة، فمنعنى إعطاءها.

متى شرع التيمم؟

وفى هذه السنة الرابعة تزوج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ هند رضى الله عنها بعد موت أبى سلمة ابن عبد الأسد رضي الله عنه.

وما روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: تزوجها سنة اثنين ليس بشىء، قيل: وفيها شرع التيمم.

غزوة بدر الأخيرة

وتسمى غزوة بدر الصغرى، لعدم وقوع القتال فيها، فهى صغرى بالنسبة للتى وقع فيها القتال وهى الكبرى، وتسمى هذه أيضا بدر الموعد للمواعدة عليها مع أبى سفيان يوم أحد، وتسمى بدر الثالثة وكانت فى شعبان سنة أربع بعد ذات الرقاع على قول ابن اسحق:

لما قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من غزوة ذات الرقاع أقام بقية جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى شعبان، وقيل: فى شوال، وقيل فى مستهل ذى القعدة كل ذلك سنة أربع، وكان وصوله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى بدر هلال ذى القعدة وهذا لا يناسب إلا القول بأن خروجه ﴿ﷺ وآله﴾ كان فى شوال، وكان ذلك موسما لبدر فى كل سنة يحضره الناس، ويقيمون به ثمانية أيام وحين خرج من المدينة استخلف عليها عبد الله بن رواحة. وخرج ﴿ﷺ وآله﴾ فى ألف وخمسمائة من أصحابه، وكان الخيل عشرة أفراس وعند تهيؤ المسلمين للخروج قدم مكة نعيم ابن مسعود الأشجعى، أى: وكان ذلك قبل إسلامه ﷺ، فأخبر قريشا بتهيؤ المسلمين لحربهم، فكره أبو سفيان الخروج وجعل لنعيم عشرين بعيرا، على أن يذهب إلى المسلمين ويخذلهم وحمله على بعير، أى: وقال له أبو سفيان: بدا لى أن لا أخرج وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جرأة، فلأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى، فالحق بالمدينة، وأعلمهم أنا فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولم عندى من الإبل كذا وكذا ادفعها لك على يد سهيل بن عمرو، فجاء نعيم بن عمرو فقال له: ياس أبا يزيد تضمن لى هذه الإبل وأنطلق إلى محمد وأثبطه؟ قال: نعم، فجاء نعيم المدينة، وأرجف بكثرة جموع أبى سفيان، وصار يطوف فيهم حتى قذف الرعب فى قلوب المسلمين، ولم

يبق لهم فيه فى الخروج، واستبشر المنافقون واليهود وقالوا: محمد لن يفلت من هذا الجمع. فجاء أبو بكر وعمر إلى النبى﴿ﷺ وآله﴾ وقد سمعا ما ارجف به المسلمون، وقالا له: يارسول الله إن الله مظهر نبيه ومعز دينه، وقد وعدنا القوم موعدا لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسر لموعدهم فو الله عن فى ذلك لخيرا.

فسر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك ثم قال: والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد، فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون، وحمل لواء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وخرج المسلمون معهم بتجارات إلى بدر، فربحت الضعف، الدرهم درهمين. ثم إن أبا سفيان قال لقريش: لقد بعثنا نعيم ليخذل أصحاب محمد عن الخروج، ولكى نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع، فإن كلن محمد لم يحرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنا، لأنه إن لم يخرج كان هذا لنا عليه، وإن خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب قالوا: نعم ما رأيت.

فخرج أبو سفيان فى قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا حتى انتهوا إلى مجنة وهو سوق معروف من ناحية مر الظهران، وقيل: إلى عسفان. ثم قال: يامعشر قريش لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه الماء، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا فرجع الناس، فسماهم .

أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم لتشربوا السويق. وأقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على بدر ينتظر أبا سفيان على ميعاده مدة الموسم التى هى ثمانية أيام.

فإنه﴿ﷺ وآله﴾ انتهى غلى بدر هلال ذى القعدة، وقام السوق صبحة الهلال، فأقاموا الثمانية أيام والسوق قائمة. وصار المسلمون كلما سالوا عن قريش، وقيل لهم: قد جمعوا لكم، يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، حتى قيل لهم: لما خرجوا من بدر إنها قد امتلأت ممن الذين جمعهم أبو سفيان يرعبونهم ويرهبونهم، فيقول المؤمنون:

حسبنا الله ونعم الوكيل، فلما قدموا بدرا، وجدوا أسواقا لا ينازعهم فيها أحد، فأنزل الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

فالمراد بالناس الأول نعيم نزل مترلة الجماعة، وقيل: إنهم كانوا أربعة من المنافقين_ لعنهم الله_ وافقوا نعيما على ما قاله حتى إن قائلهم قال للمسلمين: إنما أنتم لهم أكلة رأس، وإن ذهبتم غليهم لا يرجع منكم أحد. وقيل القائلون: ركب من عبد القيس كانوا قاصدين المدينة للميرة فجعل لهم أبو سفيان حمل أبعرهم زبيبا إن هم خذلوا المسلمين وأرجفوهم ولا مانع من وجود ذلك كله.

وقيل: إن الآية كانت بحمراء الأسد عند انصرافه من أحد، ولا مانع أن يكون صدر الآية مشيرا إلى المرين.

ثم انصرف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة هو وأصحابه. وسمع الناس بمسيره وذهب صيته إلى كل جانب، وكبت الله عدوهم، وبلغ قريشا خروج المسلمين . إلى بدر وكثرهم وأنهم كانوا أصحاب الموسم، والمخبر لهم بذلك معبد بن معبد الخزاعى، فإنه بعد انقضاء الموسم، خرج سريعا إلى مكة وأخبرهم بذلك، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترءوا علينا ورأوا أنا خلفناهم، وإنما خلفنا الضعف.

غـزوة دومة الجندل

سميت بدومة بنى إسماعيل عليه السلام ،لأنه كان نزلها، وهى بلدة بينها وبين دمشق خمس ليال، وهى أقرب بلاد الشام إلى المدينة، وبينها وبين المدينة خمس أو ست عشرة ليلة، أى: وهى بقرب تبوك.

وسببها أنه بلغه﴿ ﷺ وآله﴾ أن بها جمعا عظيما يظلمون من مر بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة ، فخرج ﴿ ﷺ وآله﴾ فى ألف ممن أصحابه، وذلك فى أواخر السنة الرابعة. وذكر بعضهم أنها كانت فى ربيع الأول من السنة الخامسة واستخلف ﴿ ﷺ وآله﴾ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى، وكان﴿ ﷺ وآله﴾ يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل لهم، يقال له مدكور من بنى عذرة﵁ فلما دنا منهم قال له مدكور العذرى: أقم لى حتى أطلع لك على سوائم القوم فإنها ترعى هنا، فخرج العذرى فوجد آثار النعم و الشاء، وهم مغربون، فأخبره فهجم على ماشيتهم ورعاتهم. فأصاب من أصاب وهرب من هرب، ونزل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بساحتهم، فلم يلق بها أحدا، لأنهم لما جاءهم الخبر تفرقوا فرقا من المنصور بالرعب، وبعث السرايا فرجعت سالمة، ولم تلق منهم أحدا، أى: ورجعت كل سرية بإبل، وأخذ محمد بن سلمة رجلا منهم، وجاء به إلى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ فسأله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم، فعرض عليه الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة فى عشرين من ربيع الآخر، وفى رجوعه وادع، أى: صالح، عيينة بن حصن الفزارى واسمه حذيفة الفزارى أن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا لأن أرضه كانت أجدبت، ولما سمن حافره، .

وخفه، وانتقل إلى أرضه غزا على لقاح رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالغابة ، وقيل له بئسما جزيت به محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾، أحلك أرضه حتى سمن حافرك وخفك ، وتفعل معه ذلك فقال : هو حافرى .

وعيينه هذا أسلم بعد الفتح، وشهد حنينا والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، وكان يقال له : الأحمق المطاع ، كان يتبعه عشرة آلاف، فتاه ، أى : أخذه التيه ، ودخل على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بغير إذن، وأساء الأدب، فصبر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على جفوته وقال فيه ﴿ ﷺ وآله﴾ إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه، وقيل : إن

ذلك إنما قيل فى مخرمة بن نوفل ولا مانع من تعدد ذلك ، وقد ارتد عيينة بعد ذلك فى زمن الصديق ، فإنه لحق بطليحة بن خويلد الأسدى حين تنبأ وآمن به ، فلما هرب طليحة ، أسرة خالد بن الوليد ﵁ وأرسل به إلى الصديق ﵁ فى وثاق. فلما دخل المدينة ، صار أولاد المدينة ينخسونه بالحديد ويضربونه ويقولون : أى عدو الله كفرت بالله بعد إيمانك، فيقول: والله ما كنت آمنت ، فمن عليه الصديق ﵁ فأسلم ولم يزل مظهر الإسلام .

نزول آية الحجاب وتسمية آل البيت

وفى سنة أربع : نزلت آية الحجاب لأزواجه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وفيها كانت ولادة الإمام الحسين ﵇ ، ووقع أنه لما ولد سماه على كرم الله وجهه حربا ، فلما جاء ﴿ﷺ وآله﴾ قال : بل أسميه حسين ، أى : كما فعل ذلك بالحسن عليهما السلام، فلما ولدت الثالث جاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : أرونى ابنى ما سميتموه قال على كرم الله وجهه: حرب ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ بل هو محسن .

وفى هذه الغزوة – دومة الجندل- ماتت أم سعد بن عبادة وكان ابنها مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولما قدم ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة، صلى على قبرها بعد شهر ، وقال له سعد : يارسول الله أأتصدق عليها ؟ قال : نعم، قال : أى الصدقة أفضل ؟ قال : الماء، فحفر بئرا وقال : هذه لأم سعد .. رضى الله عنها .

تزويجه ﴿ﷺ وآله﴾ السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها

فى السنة الخامسة من الهجرة ، تزوج ﴿ﷺ وآله﴾ من السيدة زينب بنت جحش، ولما كانت هذه الحادثة سببا لطعن الطاعنين في الدين أحببت أن أبسط فيها القول : معلوم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ خاتم النبيين بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا ليتمم مكارم الأخلاق ، ويبين سبل الله لا يحتاج بعده إلي مبين سواه ﴿ﷺ وآله﴾ فهو الرسول الكريم علي الله سبحانه وتعالى ، أقام به الحجة وبين به المحجة، وجمع به لعامة الناس ما لا بد لهم منه دينا و دنيا من بيان ما كانوا عليه، وما سيكونون عليه بعده ﴿ﷺ وآله﴾، أمرا ونهيا، وندبا وكراهة، وإباحة إلي يوم المعاملات والأخلاق، وما لا تكمل النفوس إلا به من علم اليقين، وما لا تزكوا إلا به من المجاهدات والرياضات، وما لا نجاة إلا به من العقيدة، وكشف الحجاب عن العوالم التى لا بد أن يؤمن بها المسلم مما لا سبيل للعقل إلي إدراكه إلا به ﴿ﷺ وآله﴾، ولا للنفوس وإن كملت إلي تحصيله إلا ببيانه ﴿ﷺ وآله﴾، فبين به الأحكام والحكم، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (المائدة : ٣) وهذا خبر من الله تعالى وبشرى لنا وحجة علينا منه سبحانه وتعالى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أن الحجة تقوم علينا ولنا، والمحجة تظهر لنا وفينا بإنسان سوى منا ، يصطفيه الله سبحانه وتعالى لذاته ، ويجمله برسالته، ويعلمه ما لا بد لنا منه، ويأمره أن يعمل لنقتدى، ويقول لنسمع ونطيع، فنكون سامعين منه، مشاهدين عمله، آنسين به ﴿ﷺ وآله﴾، ملاحظين أن طاعته طاعة الله تعالى، .

واتباعه محبة الله تعالى، واتباع ما جاءنا به وترك ما نهانا عنه وصول إلى الله تعالى، فنكون فى الحقيقة ونفس الأمر مطيعين لله، سامعين من الله، مؤتمرين لأمر الله، وكان فى قدرة الله أن يرسل لنا ملكا رسولا، ولكنه أعلم بالقوة البشرية، وفضله ورحمته وكرمه علينا ببعثه سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ لا تحصى عدا، ولا تستقصى حدا.. أسأله سبحانه وتعالى أن يعيننا على شكر نعماه إنه مجيب الدعاء.

هذا ولما كان سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الأنبياء أتم الله النعمة به علينا، وأكمل به﴿ ﷺ وآله﴾ ديننا، وأغنانا به ﴿ ﷺ وآله﴾ غناء لا فقر لا فقر بعده إلا إلى الله، وأعزنا به ﴿ ﷺ وآله﴾ عزا لا ذل بعده إلا إلى الله، فكان من كمال نعمته سبحانه علينا أن يكشف له أحلامه العلية، وشريعته الحنيفية، وملته الخليلية، ودينه الإسلامى، تارة بقوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وآونة بعمله ﴿ ﷺ وآله﴾، ومرة بفعله فى نفسه، حتى تتجلى الأحكام الشرعية تجليا لا يحتاج إلى تأويل لإبهامه، ولا إلى لتفصيل لإجماله، ومن جعل الله له نورا فى قلبه، وقرأ سيرته ﴿ ﷺ وآله﴾، وسيره ﴿ ﷺ وآله﴾، تنبلج له تلك الحقيقة كالشمس ضحوة، فلا يسعه إلا أن يقول: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ (النمل: ١٩) ثم يقول: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء﴾ (المائدة: ٥٤) لشهوده فضل الله العظيم عليه برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ونعمته الكبرى التى عمت العالم كله.

وهنا أكشف لك حكمة تزويجه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها، ليعلم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ نور الله المشرق لعباده أجمعين فى عمله الشخصى ﴿ ﷺ وآله﴾، وعمله الاجتماعى، وقوله، وحاله، ومعاملاته ﴿ ﷺ وآله﴾، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِك عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٧) صرح الله سبحانه وتعالى لحكمة تزويجه ﴿ ﷺ وآله﴾

بزينب بنت جحش رضى الله عنها تصريحا لايحتاج إلي تأويل، مبينا أن ذلك العمل حكم من أحكام الله تعالى، تبين سنة الله التى لا تبديل لها، وذلك لرفع الحرج عن المؤمن إذا تبنى لنفسه أجنبيا من أن يتزوج زوجة من تبناه إذا طلقها ، وكان هذا من العار عند الجاهلية، ومما يسب به الرجل إذا فعله ، وجاء القرآن المجيد فحرم زوجة الابن علي الأب وأشكل الأمر، فاقتضت حكمة الله أن ينزع من قلوب المسلمين عادة لصقت بها، وبدعة استحكمت فيها، وهى إنزالهم المتبنى منزلة الابن للصلب حكما، ولو أنها نسخت علما مع استحكامها عملا لما تخلت النفوس عن عادتها. ومعلوم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل وعمله بنفسه في نفسه هو الفضيلة العظمى عند كل مسلم، والحق الصراح بلا شك ولا ريب، وأكمل الله لنا ديننا بأن أمر رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بزواج زينب بنت جحش لتتم النعمة علينا بعمله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولتزول من القلوب ما أشربته من العوائد الجاهلة ، وينمحى من النفوس ما اعتادته من السنة المضلة، قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ (النساء : ٢٣) قال الله تعالى ما حيا تلك الضلالة مثبتا حكمه وسننه سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ (الأحزاب : ٤ ، ٥) .

نبذة عن تاريخ زينب أم المؤمنين رضى الله عنها

قدمت هى وأخوها على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو بالمدينة، فوهبت نفسها لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ووهبها أخوها لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، فهى السيدة الكريمة نسبا وحسبا، فرغب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأن يزوجها لزيد بن حارثة رضى الله عنهما، وطلب منها ذلك ، فقالت : حتى أو آمر

نفسى ، ثم قالت : يارسول الله أنا أكرم منه حسبا، وكذلك أبا أخوها، فأنزل الله تعالى آيه القرآن وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(الأحزاب : ٣٦) فسمعت وأطاعت بعد أن قالت : إنى وهبت نفسى لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فكيف يزوجنى مولى؟ أو ما معناه ... فزوجها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ زيدا وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما، ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا ، وخمسين مدا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر، أعطاه ذلك كله رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

من هنا يظهر لمن له عقل أن السيدة زينب رضى الله عنها وهبت نفسها ، وأن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أباها وزجها سيدنا زيد ﵁،وأنها أبت أن تتزوج مولى وهى الشريفة النسب الكريمة النفس، فلولا أن الله سبحانه وتعالى نفى عن المؤمن والمؤمنة الخيرة في أنفسهم ما تزوجته ولا قبلته، ومعلوم أنها بنت عمته ﴿ﷺ وآله﴾، وأنه ﴿ﷺ وآله﴾ من خصوصياته أن يتزوج من يشاء من بنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته بلا حجر عليه، ومن شاء من كل امرأة وهبت نفسها له ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأن السيدة زينب رضى الله عنها لم تكن محجوبة عنه ﴿ﷺ وآله﴾ من صغرها حتى يتصور أنه رآها أول مرة في بيت زيد،بل ولا يخطر علي قلب عاقل يعلم مكانه الرسل عليهم الصلاة والسلام من العصمة والإقبال بالكلية علي جناب القدس الأعلى ، وفراغ القلب مما سوى الله وما سواه، وأن همتهم العلية ﴿ﷺ وآله﴾ أجمعين لا تتعلق بغير الله فضلا عن سيد رسل الله وإمام أنبيائه ﴿ﷺ وآله﴾ ومن أكمل الله به دينه، وأتم به سبحانه وتعالى نعمته، ولما أن تزوجها سيدنا زيد ﵁ كان زواجه لإظهار حكم الله، وبيان سنن الله تعالى فى خلقه، وعاشت معه رضى الله عنهما مقهورة صبرا على خيرة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكان سيدنا زيد يشكوها لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾،فكان

صلوات الله وسلامه عليه يأمر بإمساكها، ويأمره بتقوى الله تعالى في معاملتها، حتى أمره الله تعلى بزواجها بعد طلاق زيد لإظهار حكمة الحق ومحو أحكام الجاهلية .

وهنا يحسن أن أكتب ما تقرر في كتاب (وسائل إظهار الحق)الذى وضع للرد على الضالين المضلين، ممن نظر إلى هذه الحادثة بغين خفاش لا تطيق النظر إلى الشمس العلية، وإن كنت لا أبرىء بعض من كتبوا في تاريخ .

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ممن جهلوا حكم سيرته ﴿ ﷺ وآله﴾، وحجبوا عن أنوار سيرته، ولم يفقهوا كلام الله تعالى ولا كلام رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، فإنهم لجهلهم بحكمة الله تعالى في تقرير أحكامه نظروا إلي حادثة نظر من جهل الخصوصية، ووقف عند البشرية، وأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن أمره الله تعالى بأن يقرر هذا الحكم الشرعى بنفسه في نفسه ليمحوا العادة الجاهلية من بين المسلمين بزواج السيدة زينب بعد طلاق زيد لها، كان يكبر عليه الأمر لمكان زيد منه وحبه له، ولما استحكم في نفوس العرب من تلك العادة، وكان كلما رآى زيدا أو زينب رضى الله عنهما يحزنه الأمر، ويخشى على القلوب من تأثيرهم، ويحب أن الله تعالى يقرر هذا الحكم علما لا عملا بذاته ﴿ ﷺ وآله﴾، ودام هذا الأمر حتى قدر الله تعالى طلاق زيد لزينب ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على ما هو عليه من إكبار الأمر، حتى جاء الوحى بما هو كائن فى علم الله، وما هو مراد الله تعالى . فغفل بعض جهلاء المؤرخين عن تلك الحكم الجلية أنوارها، البينة أسرارها، ونظروا إلى الجانب المحمدى بنظر إنسان لإنسان، غافلين عن الخصوصية والمكانة التى اصطفاه الله لها وأقامه فيها، فإن الله تعالى ما أقام رسولا من رسله السابقين مقاما أنزله فيه منزلة نفسه كما أقام سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، فقد أنزله الله في منزلة نفسه في غير ما آيه قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح : ١٠) وقال تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء : ٨٠) وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء : ٦٤) فغفر الله لى ولهم يقولون: نظر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى زينب فمال قلبه إليها وهى زوجة مولاه وابنه، وتتره قلب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يميل .

لغير ذات أحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وإنما كان ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن أمره الله تعالى بتقرير هذا الحكم فى نفسه إذا نظر إلى زينب يتأثر تأثر من أكبر الأمر، ويرجوا أن يقرر الله الحكم علما رحمة بقلوب المسلمين، ومحبة لحبه زيد بن حارثة ؓ وما كان يتأثر ﴿ ﷺ وآله﴾ تأثيرا بشريا. أعوذ بالله من الجهل بمكانة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ومن تقرير أعماله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقدر عقولنا، ومن فهم سيرته المحمدية بموازين أفكارنا، وإنما هو رسول الله لا ينبغى أن نقرر سيرته ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا بنور يهبه الله لنا، وفتح مبين يمن الله به علينا ...وهذا ما تقرر بكتاب (وسائل إظهار الحق) تحت عنوان (الفضيلة الثانية) .

لا تعجب أيها المسلم إذا رأيت الخفاش (أى الوطواط) يسكن نهارا ويتعيش ليلا، فإن الله خلق خلقا يبغضون النور ويحبون الظلمة، يسارعون في الفتنة والضلالة والغواية وهم يعلمون أنهم على الباطل عنادا وعلوا بغير الحق، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، جهلا بالحق وعمى عن اهدى. وكيف لا ؟ .. وقد صارت الفضائل العمرانية والخيرات الاجتماعية والمنافع العامة للمجتمع الإنسانى رذائل وظلمات في أعين من هم أعمى من الخفاش بصرا، وكيف لا؟ .. وهم ينكرون على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى بشر به المسيح في أناجيله، وموسى في توراته، وإبراهيم في أسفاره ، وداود في مزاميره، وذكر اسمه في النبوات بأوصافه . ما الذى ينكرونه عليه ﴿ ﷺ وآله﴾؟ ينكرون عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ تزويجه بالسيدة زينب بنت جحش، ولو أنهم قرأوا القرآن

وكانت لهم عقول تعقل حكم هذه الحادثة لتخلوا عن دينهم، واعتنقوا الدين الإسلامى، لكمال ما يظهر لهم .

ومن حكم تلك الحادثة، ولكن صدق الله العظيم في قوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَا لأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٧٩) يقولون: إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عشق زينب حتى أخذت من قلبه مأخذا– تنزه قلبه ﴿ﷺ وآله﴾ عن أن يشتغل بغير ربه– حتى طلقها زيد فتزوجها ﴿ﷺ وآله﴾ .

سبحان الله لو كنت أيها المنكر راغبا في البيان لبين لك طفل صغير من أطفال المسلمين أسرار تلك الحادثة، أو كنت باحثا عن الحق لانجلت لك الحقيقة بمجرد سماع آيات القرآن الشريف. أكتب لك الآية ثم أشرح لك ما فيها صريحا من الحكم ومما يؤخذ منها بطريق الالتزام أو التضمن من الحكم، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب : ٣٧) هذه الآية الشريفة ليس على أنوارها العلية ستائر تحجبها عن العقل، ولا حجب تمنع أشعتها عن أن تنفذ إلى القلب. ولكن لعن الله الضلال، وفتح الله العناد. أشرح ما يمكن أن أبينه لعدو منتقد، وأخفى من أسرار الحكمة العلية وأنوار الأسرار الغالية، ما لا يمكن أن أبيحه إلا لمسلم كامل .

أنت تعلم أن زيدا مملوك من موالى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأن زينب بنت جحش من أشرف بيوتات قريش، وقد بلغت من المجد والشرف أن لها نسبا مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فزوجها زيدا ليمحى ظلمات الجهالة عن نفوس المسلمين، فيعلموا حق العلم أن العبد المملوك في مستوى واحد مع الهاشمى المالك، وأنه كفء لأشرف امرأة

من قريش حتى يكون الفخر بالتقوى لا بالأنساب، وبالنفوس الزكية الطاهرة لا بالعصبية والأموال .

لو أنك أيها المنتقد أدركت سر زواج زيد لزينب وما أنتجه فى المجتمع الإسلامى من المساواة بين أفراد المسلمين،ى حتى صار العبد المسلم مع الشريف القريشى المسلم، لذقت من رحيق الكمالات الإسلامية شرابا طهورا، يجعل قلبك يدرك حكم الأحكام الإسلامية، فتتنبه من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، ويوحى إليك أن المراد النجاة بأى دين وعلى أى طريق، وبإتباع أى نبى يكون دينه مطابقا للعقل والحق. وليس المراد التعصب للآباء الضالين، والاقتداء بالرؤساء المضلين، تعصبا يبلغ بالإنسان مبلغ البغض للحق الصريح والعناد لإحياء الباطل القبيح .

هذا سر من أسرار زواج زيد بزينب رضى الله عنهما، وقال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ ﴾ إلى أن قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ ﴾ (النساء :٢٣) هذه الآية تحرم على الرجل أن يتزوج زوجة ابنه الذى من صلبه، وكان العرب قبل الإسلام ينسب الرجل الولد لنفسه، فيقول: ابنى ، ثم يتزله منه مترلة ولد الصلب، وأحكام الله تعالى تغاير أحكام الجاهلية. ولما كان رسل الله صلواته وسلامه عليهم يجب أن يبدءوا بتنفيذ الأحكام على أنفسهم قبل كل أحد .

ليكونوا قدوة وأئمة للأمة، ويكون للأمة أسوة حسنة فيهم .

أمر الله تعالى رسوله أن يأمر زيدا بطلاق زينب وأن يتزوجها لنفسه ليهدم أحكام الجاهلية. وكانت عوائد العرب مستحكمة في أنفسهم استحكاما يجعلهم ينقصون من يخالف العادة، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حريص على تأليفهم كما وصفه الله، فشق هذا الأمر عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ خوفا على قلوب الناس من الانزعاج. وعلى نفوسهم من الرعونات والتروع إلى ما لا يحمد، وابتهل إلى الله تعالى أن يجعل

هذا الحكم علما لا عملا، حتى كان ﴿ﷺ وآله﴾ كلما وقع نظره على زينب وعلم الآية التى تأمره بتنفيذها على نفسه في نفسه ليمحوا الله الباطل ويحق الحق بكلماته، يصعب عليه الأمر خوفا على الخلق، ويخشى أن يكون هذا الأمر مفسدا لعقائد بعض الصحابة. وكانت زينب كلما نظرت إلى زيد عزت عليها نفسها أن تكون زوجا لمولى، وهى الشريفة النسب الكبيرة النفس. وكان زيد يلتمس من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يأمره بطلاقها تخلصا من أذيتها له، ورسل الله ﴿ﷺ وآله﴾ يمنعه حتى طلقها زيد ﵁، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يخشى على قلوب الناس وعقائدهم، حتى عاتبه الله بقوله تعالى :

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ ما أمرك الله به من زواج زينب بعد طلاقها من زيد لمحو الضلالة التى كان عليها أهل الجاهلية من أن الرجل إذا تبنى ولدا لا يتزوج زوجة الولد، ولا الولد يتزوج زوجة من انتسب إليه، وهى أحكام جاهلية لم ينزل بها من سلطان .

وهذا الأمر حكم من أحكام الله تعالى لا بد أن يبديه الله في ذات رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ليتقرر علما وعملا، فلا يشك مسلم بعد ذلك في صريحة، ثم بينه صريحا فقال .

سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ أى : طلقها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أى: زوجناك زينب بنت جحش مطلقة زيد الذى تبنيته ليرتفع الحرج عن المؤمنين، ويجوز لكل مؤمن أن يتزوج زوجة من يتبناه إذا طلقت منه، وهو حكم الله سبحانه وتعالى، وإنما التحريم بالنسب الحقيقى لا بالنسب القولى .

وهذه سنه الله تعالى في رسله، فإنه سبحانه إذا أمر بأمر وجب على الرسول أن يسارع إلى تنفيذه في نفسه عملا أو تركا. أنظر إلى قوله ﴿ﷺ وآله﴾ " كل دم فى الجاهلية تحت قدمى هذا وأول دم أضعه دم الحارث بن عبد المطلب، وكل ربا فى الجاهلية تحت

قدمى هذا وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب" فبدأ بتنفيذ أحكام الله فى نفسه بنفسه ليقرر الأحكام علما وعملا، ثم نفذ أحكام الله فى أقرب الناس له لأن الحارث بن عبد المطلب عمه، والعباس بن عبد المطلب عمه .

إذا أسلمت أيها المعاند وفقهت تلك الحكم الجليلة يمكن أن تباح لك من أسرار الحكم التى تنتقش كمالاتها فى نفسك، وتشرق أنوارها على قلبك، فتكون بها رجلا كاملا مؤهلا لدخول ملكوت الرب سبحانه، رحمة بك أيها المعاند لأنك إنسان مثلى قادك هواك وحظك إلى الهاوية، والأخوة الإنسانية تقضى على أن أسعى فى نجاتك منها بقدر استطاعتى بالموعظة الحسنة والرفق، لأنى أدعوك إلى الحق وإلى السعادة،لا كما تفعل أنت من فحشك وقذفك وجعل الحسن قبيحا، وأنت تدعوا إلى الضلال بالجهل عن حق، فعساك أيها .

الإنسان أن تحفظ رتبتك من الوجود، وتعلم أن التعصب للآباء والغرور بالملك والسيادة من مهاوى الهلاك عاجلا وآجلاً. وكفى بالإنسان تعساً أن يترك الحق الجلى ويسعى في إخفائه، وينصر الوبىء ويسعى فى إظهاره وأكتفى بما أشرت إليه فى معنى الآية لأن مريد الحق يميل إليه متى ظهرت بوادره، ومريد الباطل يفر من الحق ولو لمسه بيديه .

غزوة بنى المصطلق

ويقال لها:غزوة المريسيع، وبنو المصطلق وهم بنو جزيمة، و جزيمة: هو المصطلق من الصلق وهو رفع الصوت، والمريسيع: اسم ماء من مياههم، أى: من ماء خزاعة، مأخوذة من قولهم: رسعت عين الرجل إذا دمعت من فساد، وذلك الماء فى ناحية قديد. وكانت فى شعبان سنة خمس من الهجرة لليلتين خلتا منه، وقيل، أربع كما فى البخارى نقلاً عن ابن عقبة، وقيل: سنة ست وأن عليه أكثر المحدثين ﷺ .

وسببها أنه بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أن رئيسهم الحارث بن أبى ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها– وقد أسلم لما جاء فى فدائها كما سيأتى– سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأجابوه و تهيأوا للمسير معه، وكانوا ينزلون ناحية الفرع .

بريدة الفدائى الشجاع

فبعث ﴿ﷺ وآله﴾ بريدة بن الخطيب الأسلمى ﵁ ليعلم حالهم الذى هم عليه، واستأذن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يقول ما يتلخص به من شرورهم فأذن له، فأتاهم ولقى الحارث بن أبي ضرار، ورأى جمعهم فقالوا له: من الرجل؟ قال رجل منكم قدمت بما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل فأسير فى قومى ومن أطاعنى فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم، فقال له الحارث: فنحن على ذلك فجعل علينا. قال بريدة: اركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومى، فسروا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبره خبر القوم فندب ﴿ﷺ وآله﴾ الناس إليهم، فأسرعوا الخروج، وقادوا الخيل وهى ثلاثون فرساً، عشرة للمهاجرين، منها فرسان لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اللذاذ والظرب، وعشرون للأنصار ﵃،واستخلف النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على المدينة زيد ابن حارثة رضى الله عنهما، وقيل: أبا ذر الغفارى، وقيل: نميلة بن عبد الله الليثى.

وخرج معه صلوات الله وسلامه عليه، من نسائه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما، وخرج معه ناس كثيرون من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها، منهم عبد الله بن أبي بن سلول،وزيد بن الصلت ليس لهم فى رغبة فى الجهاد وإنما غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة، وسار ﴿ﷺ وآله﴾ حتى بلغ محلاً نزل به، فأتى برجل من عبد القيس فسلم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له: أين أهلك؟ قال: بالروحاء، قال: أين تريد؟ قال: إياك جئت لأؤمن بك وأشهد أن ما جئت به حق وأقاتل معك عدوك، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: الحمد لله الذى هداك للإسلام، وسأل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أى الأعمال أحب؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: الصلاة لأول وقتها، فكان بعد ذلك يصلى الصلاة لأول وقتها .

وأصاب ﴿ﷺ وآله﴾ عينا، أى: جاسوسا، فى طريقه للمشركين، وكان وجهه الحارث ليأتيه بخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فسأله رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عنهم، فلم يذكر

من شأنهم شيئا، فعرض عليه الإسلام فأبى، فأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه فضرب عنقه. فلما بلغ الحارث مسير رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأنه قتل عينه، سيء بذلك ومن معه، وخافوا خوفا شديدا، وتفرق عنه جمع كثير كانوا معه، وانتهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المريسيع، وضربت له ﴿ﷺ وآله﴾ قبة من آدم، وكان معه فيها صلوات الله عليه عائشة وأم سلمة رضى الله تعالى عنهما، فتهيأ المسلمون للقتال، ورفع ﴿ﷺ وآله﴾ راية المهاجرين إلى أبى بكر ﵁ وعنهم﴿ﷺ وآله﴾، وقيل:لعمار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ﵁، وأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عمر بن الخطاب ﵁ أن يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسهم وأموالكم، ففعل عمر ذلك فأبوا، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه أن يحملوا عليهم، فحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم إنسان وقتل منهم عشرة، وأسر سائرهم: الرجال، والنساء، والذرية، واستاق إبلهم، وشياههم، فكانت الإبل ألفى بعير، والشاء خمسة آلاف شاة، واستعمل ﴿ﷺ وآله﴾ على ذلك مولاه سقران واسمه صالح وكان ﵁ حبشيا، وكان السبى مائتى أهل بيت، وفى كلام بعضهم كانوا أكثر من سبعمائة، وكانت السيدة بنت الحارث الذى هو سيد بنى المصطلق فى السبى رضى الله تعالى عنهما، وقيل: أغار عليهم ﴿ﷺ وآله﴾ غافلون، فقتل مقاتلهم، وسبى سبيهم، وهذا القول هو الذى فى صحيح البخارى ومسلم رضى الله عنهما، والأول فى السيرة الهاشمية .

شعار المسلمين

وجمع بأنه يجوز أن يكون ﴿ﷺ وآله﴾ لما أغار عليهم ثبتوا، وصفوا للقتال ثم انهزموا، ووقعت الغلبة عليهم، أى: وقتل منهم من قاتل ولم يستأسر، وكان شعار المسلمين، أى: علامتهم التى يعرفون بها فى ظلمة الليل أو عند الأختلاط، يامنصور أمت، تفاؤلا بأن يحصل لهم النصر، بعد موت عدوهم .

ثم فرق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ السبى فصارفى أيدى الناس، وبعث ﴿ﷺ وآله﴾ أبا ثعلبة الطائى إلى المدينة بشيرا من المريسيع، وجمع ﴿ﷺ وآله﴾ المتاع الذى وجده فى رحالهم والسلاح والنعم والشاء، وعدلت الجزور بعشرة من الغنم .

زواجه﴿ﷺ وآله﴾ من جويرية بنت الحارث

وكان من جملة السبى " جويرية بنت الحارث" فى سهم سالم بن قيس وابن عم له، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته من برّة . وكاتبها ، أى : على تسع أوراق من ذهب ، فدخلت عليه﴿ﷺ وآله﴾ فقالت له : يارسول الله إنى امرأة مسلمة، أى أسلمت لأنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وإنى برّة بنت الحارث سيد قومه، أصابنا من الأمر ما قد علمت ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات فى المدينة، وكاتبنى على مالا طاقة لى به ، وإنى رجوتك، فأعنى فى مكاتبتى ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أو خير من ذلك ؟ قالت : ماهو ؟ قال : أؤدى عنك كتابك وأتزوجك، قالت : نعم يارسول الله قد فعلت. فأرسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه، فقال ثابت ﵁: هى لك يارسول الله، بأبى أنت وأمى ، فأدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما كان كاتبها عليه ، وأعتقها وتزوجها ﴿ﷺ وآله﴾ وهى ابنة عشرين سنة وسماها" جويرية" ، أى: وكان اسمها برة. وكذلك ميمونة وزينب بنت جحش كان اسم كل منهما برة، فغيره ﴿ﷺ وآله﴾، وكذا اسم بنت أم سلمة برة ، فسماها زينب. ويذكر أن عليا كرم الله وجهه هو الذى أسرها، ولا مانع أن يكون عليا كرم الله وجهه أسرها ثم وقعت فى سهم ثابت وابن عمه عند القسمة، لأنه لم يثبت فى هذه الغزوة عنه ﴿ﷺ وآله﴾ جعل الأسرى لمن أسرهم كما وقع فى بدر ، إلا ما يأتى من قوم أبى سعيد الخدرى، ورغبن فى الفداء، وقد يقال : رغبوا فى الفداء بعد القسمة .. والله أعلم.

رؤيا جويرية

ولما خرج الخبر للناس أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ تزوج جويرية فقال الناس: أصهار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأرسلوا ما بأيديهم من ذلك السبى . قالت عائشة رضى الله عنها : فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها رضى الله عنها ، وقيل: أنها طلبت قومها من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ليلة دخوله بها فوهبهم لها، وهذا لا يمنع كون المسلمين حين سمعوا أنه ﴿ﷺ وآله﴾ تزوجها أطلقوا الأسرى، فكان ذلك زيادة إكرام من الله تعالى لنبيه

﴿ﷺ وآله﴾ حتى لا يسأل أحداً منهم فى ذلك بشى، ثم هدى الله أكثرهم للإسلام رضي الله عنهم

.

وجاء أن جويرية رضى الله عنها قالت، رأيت قبل قدوم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بثلاث ليالى كأن القمر يسير فى يثرب حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر بها أحدا من الناس حتى قدم ﴿ﷺ وآله﴾ ، فلما سبينا، رجوت الرؤيا، فلما أعتقنى وتزوجنى، ما شعرت إلا بجارية من بنات عمى تخبرنى بفك الأسرى فحمدت الله تعالى. وجاء أن بعض الأسرى إنما أطلقوا بفداء.

وجاء عن جويرية رضى الله عنها أنها قالت: لما أتانا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ونحن على المريسيع، سمعت أبي يقول: أتانا مالا قبل لنا به، فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح مالا أصف من الكثرة، فلما أسلمت وتزوجنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ورجعنا جعلت أنظر إلى المسلمين، فليسوا كما كنت أرى فعلمت أنه رعب من الله تعالى يلقيه فى قلوب المشركين. وكان رجل منهم ممن أسلم وحسن إسلامه؛ يقول: كنا نرى رجالا بيضاء على خيل بلق، ما كنا نراهم قبل ولا بعد، وهو يدل على أن الملائكة عليهم السلام كانت مدداً لهم فى هذه الغزوة، ولم يقتل فى غزوة بنى المصطلق من المسلمين إلا

رجلاً واحداً، قتله رجل من الأنصار خطأ يظنه من العدو، والمقتول هو هشام بن صبابة ﵁ .

قتل الغادر

وقدم أخو هذا المقتول من مكة مظهر الإسلام. وقال: جئت أطلب دية أخى، فأمر له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بدية أخيه، فأخذها مائه من الإبل، وأقام عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدا، ويوم فتح مكة أهدر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دمه فقتل فى ذلك اليوم .

ثم إن أباها– السيدة جويرية– الحارث، قدم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة، بعد رجوعه يريد فداء ابنته رضي الله عنها وفكاكها، فلما كان بالعتيق نظر إلى إبله التى يريد أن يفدى ابنته بها فرغب فى بعيرين منها كانا من أفضلها، فأعقبهما فى شعب من شعاب العقيق، ثم أقبل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: يامحمد أصبتم ابنتى، وهذا فداؤها فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: فأين البعيرين اللذين عقبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله، والله ما اطلع على ذلك أحد إلا الله تعالى .

وقيل: إنه أسلم قبل ذلك، وهذا إظهار لإسلامه ﵁، ثم أمره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يخبر ابنته بإسلامه فقالت له: أحسنت وأجملت، فقال لها أبوها، يابنية لا تفضحى قومك، يعنى بالرق، فقالت: أخذت الله ورسوله فرضى أبوها بذلك. .

فتنة تطفأ

ثم بعد انقضاء الحرب وهم على الماء، اختصم أجير لعمر بن الخطاب ﷺ كان يقود له فرسه، يقال له جهجهاه ﷺ، انطلق ليملأ قربا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأبى بكر وعمر رضي الله عنهما فوجد الناس يزدحمون على الماء، فأمر الناس الإمساك ليملأ قرب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فنازعه رجل من الأنصار وكان أجيرا لعبد الله بن أبى وهو سنان بن فروة ﷺ فتنازعا، فضرب المهاجرى وهو أجير عمر، حليف الخزرج فسال الدم، وفى لفظ: دفعه، فنادى حليف الخزرج يامعشر الأنصار وقيل: قال: ياللخزرج، ونادى أجير عمر يامعشر المهاجرين، وقيل: قال، يالكنانة يالقريش فأقبل جمع من الجيشين، وشهروا السلاح، حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ فأخبر بالحال، أى: فقالوا، رجل من المهاجرين ضرب رجلا من الأنصار، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: دعوهما، أى: تلك الكلمة، فإنها فتنة، أى: مذمومة، لأنها من دعوى الجاهلية.

وجاء: من دعا دعوى الجاهلية كان من محشى جهنم، أى: مما يرمى به فيها، قيل: يارسول الله وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم. قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما إن كان ظالما فلينهه فإنه ناصر، أى: له، وإن كان مظلوما فلينصره، أى: يزيل ظلامته.

ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه، فسكتت الفتنة، وانطفأت ثائرة الحرب، وعند تخاصم الرجلين، غضب عبد الله بن أبى بن سلول، وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين، وكان عندهم زيدا بن أرقم ﷺ وهو غلام حدث السن، فقال عبد الله بن أبى– لعنه الله–: والله ما رأيت كاليوم مذلة أو قد فعلوها ونافرونا، أى: غلبونا، وكاثرونا فى بلادنا، وأنكرونا ملتنا، والله ما أعدنا، أى: أظننا، أى: معاشر الأنصار وقريش، وفى رواية: وجلابيب قريش هؤلاء، يعنى إلا كما قال الأول، أى:

الأقدمون، فى أمثالهم: سمن كلبه يأكلك، أى: ويقولون أجع كلبك يتبعك، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعنى بالأعز نفسه– قبحه الله– و بالأذل النبى ﴿ﷺ وآله﴾، و الجلاليب جمع جليب ما يجلب من بلد إلى غيره، يعنى أغراب، ثم أقبل على من حضر من قومه فقال: هذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، أى: ثم لم ترضوا بما فعلتم، حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا فقتلتم دونهم، يعنى النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد ﴿ﷺ وآله﴾، وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى بقوله حكاية عنهم: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ﴾ (المنافقون: ٧) أى: الناس عنه، فسمع ذلك زيد بن أرقم ﵁ على الصحيح وقيل: سفيان بن تيم، فمشى به إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ﵁، ونفر من المهاجرين والأنصار، وفى البخارى فذكرت ذلك لعمى أو لعمر فذكروه للنبى ﴿ﷺ وآله﴾، فدعانى فحدثته، فكره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك، وتغير وجهه وقال له: ياغلام لعلك غضبت عليه، قال: والله يارسول الله لقد سمعته منه، قال: لعله أخطاء سمعك، ولامه من حضر من الأنصار؛وقالوا: عمدت إلى سيد قومك تقول فيه ما لم يقل.

وفى البخارى: فكذبنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط، وجلست فى البيت، أى: الخباء، فقال لى عمى: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومقتك. فقال زيد: لقد سمعت ما قال، ولو سمعت هذه المقالة، من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وإنى لأرجو أن يترل الله تعالى على رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ما يصدق حديثى، فعند تغير وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استأذنه عمر فى أن يقتل ابن أبى، والتمس منه أن يأمر غيره بقتله، إذا لم يأذن له فى ذلك .

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان من أمر ابن أبى ما كان، جئت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو فى فيء شجرة، أى: ظلها، عنده غليم أسود يغمز ظهره، أى: يكبسه فقلت: يارسول الله كأنك تشتكى ظهرك فقال: تقحمت ابن الناقة، أى: ألقتنى الليلة، فقلت: يارسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن أبى، أو مر محمد بن مسلمة بقتله، وفى رواية: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾: كيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه؟. وأنزل الله فى حق عمر رضي الله عنه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ۝ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية: ١٤ ، ١٥) وفى لفظ عمر رضي الله عنه: إن كرهت أن يقتله مهاجرى، فأمر به أنصاريا، فقال ترعد له أنوف كثيرة بيثرب ، يعنى المدينة . ولكن أذن بالرحيل، وكان ذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها، أى : وفى رواية لما شاع الخبر ولم يكن للناس حديث فى ذلك اليوم ، أى: الوقت، إلا ذلك. أذن ﴿ ﷺ وآله﴾ بالرحيل وكانت ساعة لم يكن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يرحل فيها لشدة الحر، فارتحل الناس، وسار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فجاء أسيد بن حضير رضي الله عنه فحياه بتحية النبوة وسلم عليه بقوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وقال: يانبى الله لقد رحلت فى ساعة منكرة، ما كنت تروح فى مثلها ، أى : فإنه صلوات الله عليه لا يرحل إلا أن يرد الوقت ، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: أما بلغك ما قال صاحبكم؟ فقال: أى صاحب يارسول الله ؟ قال: عبد الله بن أبى بن سلول ، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل، قال: فأنت والله تخرجه إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال : يارسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك، وفى رواية: لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا، وقد تقدم الاعتذار عنه بذلك فى غير مرة . ثم سار رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ بالناس سيرا خفيفا ، وسار يومهم ذلك وليلتهم ، وصدر ذلك اليوم الثانى حتى آذهم الشمس، ثم نزل ﴿ ﷺ وآله﴾ بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما وإنما فعل ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليشتغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس. من حديث عبد الله بن أبي بن سلول قال: وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ورده على الغلام إلى ابن أبي – لعنه الله – فقال له : يأبا الحداد إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فليستغفر لك ولا تجحده فيترل فيك ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فأت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فاعتذر له واحلف له ما قلته، فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئا، ثم مشى إلى رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: يابن أبي إن كانت سبقت منك مقاله فتب، فجعل يحلف بالله ماقلت ما قال زيد وما تكلمت به. وفى لفظ: أنه أرسل إلى ابن أبي فأتاه فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى عنك، فقال: والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك، وإن زيدا لكاذب فقال من حضر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من الأنصار: يارسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، وفى لفظ: كبيرنا وشيخنا لا يصدق عليه كلام غلام . ثم إن عبد الله رضي الله عنه ولد عبد الله بن أبي بن سلول – وكان اسمه الحباب فسماه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم مات أبوه عبد الله – لما بلغه مقالة عمر رضي الله عنه من قتل أبيه جاء رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: يارسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي – يعنى والده – فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى أن أحمل لك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها رجل أبر بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقى معنا .

قال وفى رواية: فمرنى فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى بين الناس فأقتله فأدخل النار، فعفوك أفضل ومنتك أعظم، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ما أردت ولا أمرت به ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا، فقال عبد الله : يارسول الله إن أبى كانت أهل هذه البحيرة – يعنى المدينة – اتفقوا على أن يتوجوه عليهم، فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنا بك، ومعه قوم من المنافقين يطيفون به، ويذكرونه أمورا قد غلب الله عليها. وتقدم أنه وقع لعبد الله ﵁ مثل ذلك مع أبيه وهو أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مر على جماعة منهم عبد الله بن أبى فسلم عليهم ، ثم ولى فقال عبد الله بن أبى : لقد عثا ابن أبى كبشة فى هذه البلاد، فسمعها ابنه عبد الله ، فاستأذن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى أن يأتى برأس أبيه فقال: لا ولكن بر أباك .

ثم لما انتهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى العتيق تقدم الحباب بن عبد الله بن أبى سلول حتى أمسك بناقة أبيه وقال : والله لا تدخلها ، أى: المدينة ، حتى يأذن لك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وتعلم اليوم من الأعز ومن الأذل . وفى رواية : حتى تقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الأعز وأنت الأذل ، أو لأضربن عنقك، فقال ويحك أفاعل أنت؟ قال: نعم فلما رأى منه ﵁ الجد ، قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لابنه: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا ، وأنزل الله تعالى سورة المنافقين .. قال زيد بن الأرقم ﵁ : رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تأخذه البرهاء ويعرق جبينه الشريف، وتثقل يدا راحلته فقلت: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوحى إليه، ورجوت أن ينزل الله تصديقى، فلما سرى عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أخذ بأذنى وأنا على راحلتى يرفعها إلى السماء، حتى ارتفعت عن مقعدى وهو يقول: وعت أذنك ياغلام وصدق الله حديثك، وكذب المنافقين، فكان يقال له ﵁ ذو الأذن الواعية ، وصار قوم عبد الله بن أبى عند نزول سورة المنافقين يعاتبونه ويعنفونه، ولما

بلغه ﴿ ﷺ وآله﴾ بغض قومه له ومعاتبتهم له قال ﴿ ﷺ وآله﴾ لعمر بن الخطاب ﵁: كيف ترى ياعمر؟ إنى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر ﵁ : قد والله علمت لأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أعظم بركة من أمرى . وجاء أنه لما نزلت سورة المنافقين وفيها تكذيب ابن أبى قال له أصحابه : اذهب إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال : أمرتمونى أن أؤمن فآمنت ، وأن أعطى زكاة مالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ (المنافقون:٥) وجاء أن عبد الله بن أبى جلس إلى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ فشرب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال له: بالله يارسول الله أما أبقيت فضلة من شرابك أسقها أبى لعل الله يطهر بها قلبه، فأفضَل له فأتاه بها فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : فضلة من شراب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك ، فقال له أبوه: فهلا جئتنى ببول أمك، فإنه أطهر منها، فغضب وجاء إلى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ وقال : يارسول الله أما أذنت لى فى قتل أبى ، فقال النبى﴿ ﷺ وآله﴾ : بل ترفق به وتحسن إليه.

ولما كان﴿ ﷺ وآله﴾ بقرب المدينة هاجت ريح شديدة ، تخوفوها كادت تدفن الراكب أى خافوا أن تكون لأمر حدث بالمدينة على أهلهم فإن مدة الموادعة التى كانت بينه﴿ ﷺ وآله﴾ وبين عيينة بن حصن كان ذلك حين انقضائها ، فخافوا على المدينة منهم فقال﴿ ﷺ وآله﴾ : ليس عليكم منه ، يعنى من عيينة بن حصن، يئس .. ما بالمدينة من نقب، أى باب ، إلا وملك يحرسه وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكن تقصف هذه الريح لموت عظيم من الكفار ، وفى رواية: لموت منافق، وفى لفظ: مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة ، فكان كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ مات فى ذلك زيد بن رفاعة بن التابوت وكان كهفاً للمنافقين، كان من عظماء يهود بنى قينقاع، وكان ممن أسلم ظاهراً.

من اعلام نبوته الإخبار بالغيب

وفقدت ناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ القصواء، من بين الإبل ليلا، فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه، فقال زيد بن الصلت، وكان منافقا من بنى قينقاع ، وكان بمجمع من الأنصار: أين يذهب هؤلاء فى كل وجه ؟

قالوا: يطلبون ناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد ضلت. قال: أفلا يخبره الله بمكانها. أى وفى لفظ: كيف يدعى أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته، ولا يخبره الذى يأتيه بالوحى ؟. فأنكر عليه القوم وقالوا : قاتلك الله ياعدو الله ، نافقت وأرادوا قتله، فعمد هاربا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ متعوذا به، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (وذلك الرجل الذى يسمع أن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقال: ألا يخبره الله بمكانها ؟ والله أخبرنى بمكانها ولا يعلم الغيب إلا الله ، وإنها لفى الشعب، مقابلكم قد مسك زمامها بشجرة، فاعمدوا نحوها).

فذهبوا فأتوا بها حيث قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقام ذلك الرجل سريعا إلى رفقائه فقالوا له حين دنا: لا تدن منا. فقال لهم: أنشدكم الله .. هل أتى منكم أحد محمدا فأخبره خبرى؟ قالوا : لا والله ولا قمنا من مجلسنا.

فقال : إنى وجدت ما تكلمت به عنده ، فأشهد أن محمدا رسول الله ، كأنى لم أسلم إلا اليوم .. فقالوا له : اذهب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يستغفر لك .

فذهب إليه واعترف بذنبه واستغفر له ، ووقع مثل هذا – أى هبوب الريح وإضلال ناقته ﴿ﷺ وآله﴾ – فى غزوة تبوك .

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، أى : الكذب على السيدة عائشة أم المؤمنين الصديقة المبرأة المطهرة رضى الله عنها .

وحاصل القصة ما رواه الإمام البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : خرجت مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه .

حتى إذا فرغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة قافلين ، أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل فمضيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جذاع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه.

قالت : وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه، وهم يحسبون أنى فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا ، لم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا. ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعى ولا مجيب، فتيممت مترلى الذى كنت به، وظننت أنهم سيفقدوننى، فيرجعون إلى فبينا أنا جالسة فى مترلى ، غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش، فأصبح عند مترلى فرأى سواد إنسان نائما، عرفنى حين رآنى، وكان رآنى قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه غير استرجاعه.

وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش فى نحو الظهيرة وهم نزول، فهلك من هلك بقول البهتان والافتراء، والذى تولى كبر الإفك – أى معظمه – عبد الله بن أبى ابن سلول ، فإنه كان أول من أشاعه فى المعسكر .. فإنه كان يترل مع جماعة المنافقين ، مبتعدين من الناس، فمرت عليهم رضى الله عنها فقالوا: من هذه؟ قالوا : عائشة وصفوان.

فقال : فجر بها ورب الكعبة، وفى لفظ: ما برأت منه وما برأ منها. وفى رواية: والله ما نجت منه ولا نجا منها .

وصار يقول – لعنه الله – امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم أشاع ذلك فى المدينة بعد دخولهم بها ، لشدة عداوته لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وقال عروة بن الزبير: أخبرت أن حديث الإفك كان يشاع ويتحدث به عند ابن أبى فيقره ، ويستمد ويستوشيه ، أى : يستخرجه، بالبحث عنه، ليكثر إشاعته.

وقال عروة أيضا : لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت، ومسطح ابن أثاثة، وحمنة بنت جحش، فى ناس آخرين لا علم لى بهم ، غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١١).

قال عروة كانت عائشة رضى الله عنها تكره أن يسب عندها حسان، وتقول : إنه الذى قال:

فإن أبي ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة رضى الله عنها : فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشئ من ذلك، وهو يريبنى فى وجعى ، أنى لا اعرف من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل علىّ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيسلم على ثم يقول : كيف تيكم؟ ثم ينصرف. فذاك يريبنى.

ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع ، وكان متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ، قريباً من بيوتنا .

قالت : وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى دهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح فى مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها : بئس ما قلت .. أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ فقالت : أى هنتاه أو لم تسمعى ما قال؟ قالت :

قلت : ما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك .

قالت : فازددت مرضا ، فلما رجعت إلى بيتى ، دخل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فسلم ثم قال: كيف تيكم ؟.

فقلت له : أتاذن لى أن آتى أبوى .. قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما .. قالت فأذن لى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقلت لأمى : ياأماه ماذا يتحدث الناس ؟.

قالت : يابنية .. هونى عليك فو الله لكلما كانت امرأة وطيئة عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا كثرن عليها .. قالت: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى .

قلت : ودعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى ، يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله، قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه.. فقال أسامة : أهلك ولا نعلم إلا خيرا .

وأما على فقال : يارسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بريرة فقال: (أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك ؟) قالت له بريرة: والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمسه غير أنها جارية

حديثة السن، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله . قالت : فقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبى وهو على المنبر فقال : (يامعشر المسلمين..من يعذرنى– أى ينصفنى– من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى، فو الله ما علمت على أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا – يعنى صفوان– ما علمت عليه إلا خيرا) وزاد فى رواية: (ولا يدخل فى بيتى) وفى لفظ: (بيتا من بيوتى إلا وأنا حاضر، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى ، يقولون عليه غير الحق).

فقام سعد بن معاذ– أى سيد الأوس– فقال : يارسول الله.. أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة– وهو سيد الخزرج– وقد احتملته الحمية، وفى لفظ أجهلته الحمية– وكان قبل ذلك رجلا صالحا – أى لما ذكر سعد بن معاذ الخزرج الذين هم قوم سعد بن عبادة، غضب سعد بن عبادة لأجلهم وحملته الحمية لهم ، على أن يجهل، أى : قال قول الجهل.. فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله .

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه وأنفك راغم، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ... أى : والمراد بكونه منافقا أنه يفعل فعل المنافقين.. ومن ثم لم ينكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك إن كان سمعه .

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، لأنه كان بين الحيين مشاحنة ومحاربة. ورسول الله قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم ، وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .. حتى أنى لأظن أن البكاء فالق كبدى ، فبينا أبواى جالسان عندى وأنا

أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكى معى، فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ علينا فسلم ثم جلس ،ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها . ولقد لبثت شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشئ .

قالت : فتشهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حين جلس ثم قال : (أما بعد ياعائشة ، إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه).

قالت : فلما قضى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مقالته، قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة.. فقلت لأبى : أجب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما قال . فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما قال. فقالت أمى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فقلت وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ من القرأن كثيرا : إنى والله قد علمت..لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به.. فلئن قلت لكم : إنى بريئة لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقننى.. فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف- تعنى سيدنا يعقوب ﵇- حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨). ثم تحولت واضطجعت على فراشى، والله يعلم أنى حينئذ بريئة، وأن الله مبرئى ببرائتى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى لشأنى فى نفس كان أحقر أن يتكلم الله فى بأمر.

ولكن كنت أرجوا أن ينظر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها، فوالله ما دام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذ من البرهاء. حتى أنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو فى يوم شاتى، من فعل القول الذى يترل عليه، قالت: فسرى عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (ياعائشة أما الله فقد برأك)

فقالت لى أمى: قومى إليه.

فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل...قالت: وأنزل الله فى براءتى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ۝ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ۝ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ۝ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور: ١١–٢٠).

قال الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عل مسطح شيئا أبدا بعد الذى قاله.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢). قال الصديق: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه.. وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يارسول الله.. احمى سمعى وبصرى، والله ما

علمت إلا خيرا. قالت عائشة: وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فعصمها الله بالورع، جعلها الله أفضل نسائه بعد عائشة و خديجة.

قالت: وطفقت أختها حمنة، تحارب لها فهلكت فى من هلك. وقالت عائشة رضى الله عنها فى وصف زينب بنت جحش رضى الله عنهما: لم أر امرأة قط خيرا من زينب فى الدين وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل المتقرب به إلى الله، ما عدا سورة، أى: حدة، تسرع فيها الفيئة، أى: ترجع عنها سريعا رضى الله عنها .

رؤيا عائشة رضى الله عنها

وفى حياة الحيوان عن عائشة رضى الله عنها لما تكلم الناس فى الإثم رأيت فى منامى فتى فقال لى: مالك؟ قلت: حزينة مما ذكر الناس، فقال: ادعى بهذه يفرج الله عنك قلت: وما هى؟ قال: قولى ياسابغ النعم، ويا دافع النقم، ويا فارج الغمم، ويا كاشف الظلم، ويا أعدل من حكم، ويا حسيب من ظلم، ويا أول بلا بداية، ويا آخر بلا نهاية، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا.

قالت: فقلت ذلك فانتهيت وقد أنزل الله فرجى.

قال بعضهم: برأ الله تعالى أربعة بأربع، برأ يوسف ﵇ بشاهد من أهل زليخة، وبرأ موسى ﵇ من قول اليهود فيه: أن له أدرة بالحجر الذى فر بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها، وبرأ عائشة بهذه الآيات الشريفة .

من دلائل النبوة براءة عائشة

وفى كتاب الإشارات للفخر الرازى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ فى تلك الأيام التى تكلم فيها بالإفك، كان أكثر أوقاته فى البيت، فدخل عليه عمر ﵁ فاستشاره ﴿ﷺ وآله﴾ فى تلك الواقعة، فقال: يارسول الله أنا أقطع بكذب المنافقين، وأخذت براءة عائشة رضى

الله عنها من الذباب، لأن الذباب لا يقرب بدنك، فإذا كان الله تعالى صان بدنك أن يخالطه الذباب لمخالطته القاذورات،فكيف أهلك؟

ودخل عليه ﴿ﷺ وآله﴾ عثمان بن عفان ﷺ فاستشاره، فقال له عثمان: يارسول الله أخذت براءة عائشة رضى الله عنها من ظلك، فإنى رأيت الله تعالى صان ظلك أن يقع على الأرض، أى: لأن ظل شخصه الشريف كان لا يظهر فى شمس ولا قمر لئلا يوطأ بالأقدام، فإذا صان ظلك فكيف بأهلك؟.

وهنا لطيفة لا بأس بها: وهى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، كان مسافرا، وكان سايره يهودى، فلما أراد المفارقة قال: عبد الله ﷺ لليهودى بلغنى أنكم تدينون بإيذاء المسلمين، فهل قدرت على شيء من ذلك معى وأقسم عليه فقال:– عليه لعنة الله– إن أمنتنى أخبرتك فأمنه فقال: لم أقدر عليك فى شيء أكثر من أنى كنت إذا رأيت ظلك وطأته بقدمى، وفاء بأمر ديننا. ودخل عليه ﴿ﷺ وآله﴾ على كرم الله وجهه، فاستشاره، فقال له على: أخذت براءة عائشة رضى الله عنها من شيء، هو أنا صلينا خلفك، وأنت تصلى بنعليك، ثم إنك خلعت إحدى نعليك، فقلنا ليكونن ذلك سنة لنا، قلت: لا، إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن فى تلك النعل نجاسة فإذا كان لا تكون النجاسة بنعليك، فكيف تكون بأهلك؟ فسر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك.

وعن أبي أيوب الأنصارى ﷺ أنه قال لزوجته أم أيوب رضى الله عنها: أما ترين ما يقال من الإفك، قالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء بحرم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فعائشة خير منى وصفوان خير منك.

خصائص عائشة رضى الله عنها

وجاء أن ابن عباس رضى الله عنهما دخل على عائشة رضى الله عنها فى مرض موتها فوجدها وجلة من القدوم على الله، فقال لها:لا تخافى فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة

ورزق كريم، فغشى عليها من الفرح بذلك، لأنها كانت تقول متحدثة بنعمة الله عليها:لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة "لقد نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يتزوجنى، ولقد تزوجنى بكرا، وما تزوج بكر غيرى، ولقد توفى وإن رأسه ﴿ﷺ وآله﴾ فى حجرى، ولقد قبر فى بيتى، وإن الوحى يتزل عليه فى أهله، فيفرقون منه وإن كان ليتزل عليه وأنا معه فى لحاف واحد، وأبى ﵁ خليفته وصديقه، ولقد نزلت براءتى من السماء، ولقد خلقت طيبة عن طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما" .

شرعية التيمم

وفى هذه الغزوات نزلت آية التيمم: ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت: خرجنا مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فى بعض أسفاره– قال ابن عبد البر هى غزوة بنى المصطلق– قالت: حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجبيش، انقطع عقد لى فأقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء–وليس معهم ماء– فأتى الناس إلى أبى بكر ﵁ فقالوا له: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة رضى الله عنها، أقامت برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والناس وليسوا على ماء، فجاء أبو بكر ﵁، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ واضع رأسه على فخذى قد نام، فقال: حبستين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، قالت عائشة رضى الله عنها: . فعاتبنى أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعننى بيده فى حاصرتى، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على فخذى، فقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى أصبح الصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم. ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ فقال أسيد بن حضير: ما هى أول بركتكم ياآل أبى بكر، قالت: فبعثنا البعير فأصبنا العقد تحته.

وفى رواية قال أسيد لها: جزاك الله خيرا، ما نزل أمر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجا،وللمسلمين فيه خيرا، وقال لها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ما أعظم بركة قلادتك، وقال لها أبو بكر ﵁: والله يابنتى إنك كما علمت مباركة . فعلى هذا يكون العقد قد سقط مرتين، وقد اختلف أئمة السير اختلافا كثيرا، هل كان ذلك فى غزوة واحدة أو غزوتين؟فقيل: فى غزوة واحدة هى بنى المصطلق والقائلون بذلك اختلفوا هل قصة الإفك أسبق أم قصة التيمم، والقائلون فى غزوتين قالوا: مرة ضاع العقد فى غزوة ذات الرقاع، ومرة فى غزوة بنى المصطلق، واستدل كل بأدلة يطول ذكرها، والتحقيق أن قصة الإفك فى غزوة بن المصطلق، والاختلاف إنما هو فى قصة التيمم، أى: وجاء فى سبب مشروعية التيمم غير ما ذكر.

شرعية صلاة الخسوف

وفى هذه السنة الخامسة، خسف القمر، فصلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأصحابه، صلاة الخسوف، حتى انجلى القمر، وصارت اليهود تضرب بالطساس وتقول: سحر القمر. فأخذ ضرب الطساس والصفيح والأوانى عند خسوف القمر، .

والسنة التى تجب أن تعمل وقت الخسوف أن نقتدى برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حينما سارع إلى المسجد، وسارع إليه أصحابه ﵃، وصلى بهم ﴿ﷺ وآله﴾ ركعتين حتى تجلى القمر، وهى السنة كما ورد، وإن كان الأولى عند المالكية أن يصلى الرجل فى بيته فذا ركعتين ركعتين، حتى ينجلى، وقام اليهود فى ليلة كسوفه يضربون الطساس والأوانى ويصيحون سحر القمر حتى تجلى.

الواجب على العلماء

وقد غلبت سنة اليهود على جهلاء المسلمين، حتى تركوا سنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بسنة اليهود، فتراهم إذا خسف القمر، سارعوا إلى الصفائح والطبول وضربوا عليها،

ويصيحون كصياح اليهود، معتقدين أن القمر قد سحر، وذلك لجهلهم بالسنة العملية، ولتهاون العلماء من تذكير العامة وتنبيههم ومسارعتهم إلى عملها. وإنى وإن كنت مالكيا استحسن لتجديد وتنبيه الناس لها، أن أهل العلم فى مثل هذه الأحوال ينبهون الناس للاجتماع فى المساجد ليصلوا بهم، ثم بعد ذلك يبينون لهم أن مذهب المالكية أن يصلى المسلم فى بيته منفردا. حتى ينجلى القمر، لتتضح السنة للعامة عند مقتضاها.

وكم من بدعة محت السنة، وصارت ألصق بالقلوب من السنة، حتى لو قام عالم بين الناس يعمل السنة أنكروا عليه، وشنعوا، وحجتهم أنا وجدنا آباءنا.

وكم من عادة تعارفها المسلمون هى كالسنة فى حسنها، لأنه عمل يحبه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فيقوم الجهلاء بحكمة الأحكام الشرعية، مقبحين لها مشنعين على عاملها، مع أن السنن الصريحة المدونة فى أصغر كتب الفقه متبدلة بسنن اليهود، ومع ذلك لا ترى منكرا ولا مشنعا عليها، ولا منبها العامة على ترك العمل بها، واستبدلها بالسنة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن بينه أهل العلم بالواجب عليهم، ويعينهم على العمل به، ويرزقهم الحكمة فى الدعوة إلى الله تعالى، حتى تنجذب إليهم قلوب العامة ويتقبلون منهم، ويقبلون عليهم.. إنه مجيب الدعاء.

الفصل الخامس

غزوة الخندق

ويقال لها غزوة الأحزاب.. وهى الغزوة التى ابتلى الله فيها عباده المؤمنين، وثبت الإيمان فى قلوب أوليائه المتقين، وأظهر سبحانه ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق المعاندين. وسببها أنه لما وقع إجلاء بن النضير من أماكنهم كما تقدم، سار منهم جمع كبير منهم سيدهم حيى بن أخطب أبو صفية أم المؤمنين رضى الله عنها، وعظيمهم سلام بن مشكل، ورئيسهم كنانة بن الحقيق، وهو ذات بن قيس، وأبو عامر الفاسق وغيرهم. وخرجوا من خيبر حتى قدموا مكة على قريش، فقالوا لهم: سنكون معكم على محمد حتى نستأصله، أى: ونكون معكم على عداوته، فقال أبو سفيان: مرحبا وأهلا.. وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾.

زاد فى رواية أنه قال لهم: لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم.. ففعلوا.

قال ابن إسحق: فقالت قريش لأولئك اليهود: إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أخبرونا أفديننا خير أم دينه؟. قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وفى رواية: أنحن أهدى سبيلا أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى سبيلا. أى: لأنكم تعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم فأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا..﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ٥١ – ٥٥). فسرت قريش بقول اليهود لهم

ذلك، وبشهادهم لهم، ولما حرضوهم ودعوهم لمحاربته نشطوا لدعوهم، واستعدوا لذلك، وتواعدوا على وقت يخرجون فيه، وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا قد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها ألا يخذل بعضهم بعضا، ويكونوا كلهم يدا واحدة ما بقى منهم رجل.

اليهود تجمع الأحزاب ضد المسلمين الأحباب

ثم خرج أولئك اليهود، وجاءوا إلى غطفان ودعوهم وحرضوهم على حرب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم، وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم عليهم وبايعوهم على ذلك.

فاجتمعوا معهم وخرجت قريش فى أربعة آلاف وعقدوا اللواء فى دار الندوة، وحمله عثمان بن أبى طلحة، وقائد القوم أبو سفيان بن حرب،وقد أسلم بعد ذلك ﵁، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، ولقيتهم بنو سليم بمر الظهران فى سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية، وخرجت معهم بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأسد وقد أسلم بعد ذلك ﵁. وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزارى وقد أسلم بعد ذلك ثم ارتد ثم أسلم زمن الصديق.وخرج الحرث بن عوف المرعى، فى بنى مرة، وقد أسلم بعد تبوك ﵁، وكان قومه الذين خرجوا معه أربعمائة. وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم، مسعود بن رخيلة، وقد أسلم بعد ذلك ﵁. وخرج غيرهم من قبائل العرب، وكان عدة أولئك الأحزاب عشرة آلاف كما قال ابن إسحق.

ولما تهيأت قريش للخروج، أتى ركب من خزاعة فى أربع ليال، حتى أخبروا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فلما سمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بما أجمعوا عليه ندب الناس، أى: دعاهم، وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم فى أمرهم، أى: قال لهم:(هل نبرز من المدينة أو نكون فيها؟ فأشاروا عليه ﴿ﷺ وآله﴾ بالخندق، والذى أشار عليه بذلك

سلمان الفارسى ﵁ فقال: يارسول الله إنا كنا بأرض فارس، إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، أى: فإن ذلك كان من مكائد الفرس، فأعجبهم ذلك.فضربوا على المدينة الخندق، أى: وعند ذلك ركب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فرسا له، ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعا يترل له، وجعل سلع (اسم جبل) خلف ظهره. وأمرهم بالجد ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا.. فعمل فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾مع المسلمين، أى:وحمل التراب على ظهره الشريف ﴿ﷺ وآله﴾، ترغيبا للمسلمين وأمرهم بالطاعة .

حفر الخندق

سلمان منا آل البيت

ودأب المسلمون، يبادرون قدوم العدو، واستعاروا من بنى قريظة آله كثيرة من مساحى وكرادين ومكاتل، وكان الخندق فى شامى المدينة من طرفى الحارة الشرقية إلى طرف الغربية، عند جبل سلع، وخط ﴿ﷺ وآله﴾، لكل عشرة من الناس، عشرة أذرع يعلمون فيها، وكان سلمان ﵁ يعمل بعشرة، فتنافس فيه المهاجرون والأنصار فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: سلمان منا أهل البيت.

بشائر الفتح باليد المحمدية

وعن سلمان الفارسى ﵁ ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قريب منى، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى، فقلت: بأبى أنت وأمى يارسول الله ما

هذا الذى رأيته يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال أوقد رأيت ذلك ياسلمان؟ قلت: نعم، قال:

أما الأولى: فإن الله تعالى فتح على بها اليمن.

وأما الثانية: فإن الله تعالى فتح على بها الشام والمغرب.

وأما الثالثة: فإن الله تعالى فتح على بها المشرق.

وذكر أنه لما اشتدت تلك الكدية على سلمان، أخذ ﴿ﷺ وآله﴾ المعول من سلمان وقال: بسم الله، وضرب ضربته فكسر ثلثها وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح فى جوف الليل المظلم فكبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: اعطيت مفاتيح اليمن إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب. ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر، فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها ، زاد فى رواية (الحمر) .

ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة فكبر وقال : أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فى مكانى هذا .

وفى رواية: إنى لأبصر قصور المدائن الأبيض الآن . وجعل ﴿ﷺ وآله﴾ يصف لسلمان أماكن فارس، ويقول سلمان : صدقت يارسول الله هذه صفاتها، أشهد أنك رسول الله، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾ : هذه فتوح يفتحها الله بعدى ياسلمان .

وإنما وقع التنافس في سلمان﵁ حتى قال بعضهم :

لقد رقي سلمان بعد رق   منزلة شامخة البنيان
وكيف لا والمصطفي قد عده   من أهل بيته العظيم الشأن

لأنه ﵁ – كما قدمنا – كان يعمل بعشرة رجال في الخندق ، حتى أصيب بالعين من قيس بن صعصعة فلبط به – أي صرع فجأة –، وتعطل عن العمل ، فأخبر النبي ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (مروه فليتوضأ وليغتسل، ويكفئ الآثار خلفه) ففعل فكأنما نشط من عقال، أي : حل من عقال .

النبي ﴿ﷺ وآله﴾ يتخير الأسماء

وكان من جملة من يعمل في الخندق جعال بن سراقة أو جعبل ، وكان رجلا دميما صالحا من أصحاب الصفة ﵁ ، فغير رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اسمه فسماه (عمر) فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جعبل عمرا   وكان للبائس يوما ظهرا

وصار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا قالوا عمرا، قال : عمر . وإذا قالوا: ظهرا، قال: ظهرا.

شد العزائم بالإنشاد

وحصل للصحابة ﵁ تعب وجوع ، لأنهم كانوا في زمان عسر وعام مجاعة ، ولما رأى ﴿ﷺ وآله﴾ ما بأصحابه من النصب والجوع قال متمثلاً بقول ابن رواحه ﵁ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

وأجابوه ﵃ بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمــــــداً   علي الجهاد ما بقينا أبدا

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ متمثلا بقول ابن رواحة وهو ينقل التراب، وقد واري الغبار جلد بطنه الشريف ﴿ﷺ وآله﴾ :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينـــــــا   وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينـــا

يمد بها صوته مكررا لها ، (أبينا أبينا) . ولما بدأ ﴿ﷺ وآله﴾ بالحفر في الخندق قال:بسم الله وبه بدينا ، ولو عبدنا غيره شقينا ،يا حبذا ربا وحبذا دينا .

صورة من التعاون والصبر في حفر الخندق

وصار الشخص منهم ﵁ إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ويستأذنه في اللحوق بها ، فإذا قضي حاجته رجع إلي ما كان عليه من عمله ،رغبة في الخير ، واشتد عليهم ﵃ في حفر الخندق كدية ، أي : محل صلب، فشكوا ذلك لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فأخذ المعول وضرب فصار كثيبا أهيل أو أهيم، أي: رملا سائلا، وفي رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ دعا بماء، ثم بما شاء الله أن يدعو به ثم نضح ذلك الماء، أي: رشه، علي تلك الكدية . قال بعض الحاضرين : فو الذي بعثه بالحق، إنها لانت حتى عادت كالكثيب ، أي: الرمل ما ترد فأسا ولا مسحاة (وهي الجرفة من الحديد) .

وكان أبو بكر﵁ وعمر ينقلان التراب في ثيابهما، إذا لم يجدا مكاتل من العجلة، وكان زيد بن ثابت ﵁ ممن ينقل التراب، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في حقه: أما إنه نعم الغلام،وغلبته عينه فنام في الخندق، فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم ،فلما قام

فزع علي سلاحه ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياباز قد نمت حتى ذهب سلاحك ، ثم قال: من له علم سلاح هذا الغلام؟ فقال عمارة: أنا يارسول الله وهو عندي فقال: رده عليه، ونهي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا .

من أعلام نبوته في حفر الخندق

وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾منها ما في صحيح البخاري ﷺ عن جابر ﷺ: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية لا يعمل فيها المعول ، فجاءوا للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فشكوا له فقال: رشوها بالماء، فقام وبطنه معصوب بحجر ،ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فاخذ المعول ﴿ ﷺ وآله﴾ فسمي ثلاثا ثم ضرب ، فعاد المضروب رملا يسيل وقد ذكرناه فيما تقدم .

ومن أعلام نبوته﴿ ﷺ وآله﴾ ما ثبت في الصحيح من حديث جابر ﷺ من تكثير الطعام القليل ، فإنه ﷺ كان عنده صاع من شعير و شويهه، فأحب أن يدعو النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وبعض أصحابه إليها ، فلما أخبر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك دعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه وكفاهم ذلك الطعام كما سيأتي في مبحث المعجزات .

وجاءت ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان ﷺ ،بجفنه من تمر لأبيها وخالها ابن رواحة رضي الله عنهما، ليقديا به فقال لها ﴿ ﷺ وآله﴾ : هاتيه، فصبته في كفيه فما ملأهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم قال: لإنسان اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلي الغذاء فاجتمعوا عليه ، فجعلوا يأكلون وجعل التمر يزيد حتى صدروا عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

وأقاموا في حفر الخندق ستة أيام، وقيل عشرين، وقيل : أربع وعشرين وقيل: شهر . وكان تباطؤ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف، وصار الواحد منهم يتسلل إلي أهله من غير استئذان له ﴿ﷺ وآله﴾ وهم يحفرون في الخندق .

فقد حكي الله عن المنافقين أهم حين سمعوا أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: فتحت لي فارس والشام اليمن في الحديث المتقدم ، والنصرة من الله تعالي. قالوا: ما وعد الله ورسوله إلا غرورا. وقال جمع منهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسري وأها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق ، أي: الخوف، لا تستطيعون أن تبرزوا .

فأنزل الله تعالي : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء﴾ (آل عمران:٢٦). وقيل في سبب نزولها: إنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم. فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك؟ .

قال ابن إسحق : وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وعثمان رضي الله عنهما: افتحوا ما بدا لكم ، والذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحوها إلي يوم القيامة ، إلا وقد أعطي الله محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ مفاتيحها قبل ذلك .

ولما فرغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من حفر الخندق ، أقبلت قريش ومن معها وكانوا عشرة آلاف ، فنزلت قريش بمجمع الأسيال وغطفان ومن معهم إلي جانب واحد . وكان المسلمون الذين خرجوا مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاثة آلاف فجعلوا ظهورهم إلي (سلع) وهو جبل معروف بالمدينة، فضرب هنالك عسكره، أي: وضربت له ﴿ﷺ وآله﴾ قبة من أدم، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يعقب فيها بين ثلاثة من نسائه،

وسائر نسائه
﴿ﷺ وآله﴾ في بني حارثه ٠ وجعل النساء والذراري في الآطام، وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه ٠

فلم التحم الأمر، أمر من لم يبلغ خمس عشرة سنه، أن يرجع إلي أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة وممن أجازه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب ﵁ ، وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فصارت كالحصن وفي كلام بعضهم كان أحد جوانب المدينة عورة، وسائر جوانبها مشتبكة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها، فاختار ذلك الجانب للخندق واستخلف ﴿ﷺ وآله﴾ علي المدينة ابن أم مكتوم ﵁ وأرسل ﴿ﷺ وآله﴾ سليطا وسفيان بن عوف، طليعة للأحزاب فقتلوهما، فأتي بهما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فدفنهما في قبر واحد فهما الشهيدان القرينان ٠

وأعطي لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ﵁ ، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة ﵁ ، وبعث مسلمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير تخوفا علي الذراري من بني قريظة، أي: لما بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ من نقضهم العهد وأنهم يريدون الإغارة علي المدينة ٠

فان حيي بن أخطب خرج حتى أتي كعب بن أسد القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد صالح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ علي قومه، وعاقده فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبي أن يفتح له، فقال له حيي: ويحك ياكعب، افتح لي أكلمك، فقال له: أذهب عني إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ ، فلست بناقض ما بيني وبينه، فاني لم أر منه إلا وفاء وصدقا، فنسبه حيي إلي البخل وقال له: والله ما أغلقت دوني إلا تخوفا علي جشيشتك أن آكل معك منها، والجشيشة البر يطحن غليظا، ولم يزل به حتى فقح له، فقال: ويلك ياكعب أن توافقني جئتك بعز

الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بجمع السيول، ومن دون مترل قريش غطفان وقد عاهدوني علي أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ ومن معه،فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر ، وبجسام قد أهريق ماؤه برعد وبرق وليس فيه ستر ٠ ويحك ياحيي دعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد ﴿ﷺ وآله﴾ إلا صدقا ووفاء٠ ولم يزل به يفتله في الذروة والغارب حتى نقض عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأعطاه حيي عهدا،علي أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ أن أدخل معك في حصنك، يصيبني ما أصابك، ثم أرسل حيي بن أخطب إلى قريش أن يأتيه منهم ألف رجل وإلى غطفان أن يأتيه منهم بألف ليغيروا علي المدينة، وجاء الخبر بذلك لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فعظم البلاء، وصار الخوف علي النساء والذراري أشد من الخوف علي أهل الخندق ٠

ولما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن بني قريظة نقضوا العهد،قال: من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم،قال الزبير﵁ : فقلت: أنا يارسول الله، فانطلقت إليهم،فلما رجعت إليه ،جمع لي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بين أبويه في الفداء، أي قال: فداك أبي وأمي٠ وفي رواية:أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة ،وخوات بن جبير ﵁ ليعرفوا الخبر، فقال: انطلقوا، فانظروا، أحق ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا؟ فان كان حقا فألحنوا إلي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاء الناس، أي: تكلموا لي بكلام فيه إشارة وتلوع، ولا تأتوا بكلام صريح لئلا يفهم كل الناس، خوفا علي الناس أن يقع لهم تثبيط، وأصل اللحن العدول بالكلام عن الوجه المعروف عند الناس إلي وجه لا يعرفه إلا صاحبه ٠ وإن كانوا علي الوفاء، فيما بيننا فاجهروا به للناس،فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم علي أخبث ما بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وقال بعضهم: لا عهد بيننا وبين محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ولا عقد ٠

ثم أقبل السعدان ومن معهما علي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلحنوا له كما أمرهم، وقالوا: عضل والقارة كغدرهما بأصحاب الرجيع، أي:غدروا كغدرهما بأصحاب الرجيع ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين نصرة الله وعونه ولا منافاة بين إرسال هؤلاء وإرسال الزبيرؓ ، لاحتمال أنهم أرسلوا دفعه أو بعد إرساله، وخص هؤلاء القوم بالإرسال لأنهم حلفاؤهم، فيحتمل أن يرجعوا إلي العهد بعد نقضه حياء من حلفائهم، فغلبت عليهم الشقوة، فعند ذلك عظم البلاء واشتد الخوف، فأتاهم عدوهم من فوقهم ، أي: من أعلي الوادي ، من قبل المشرق، فإنه نزل به غطفان، ومن أسفل منهم، أي: من أسفل الوادي من قبل المغرب، فانه نزل به قريش .

قال ابن عباس رضي الله عنهما:﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ عيينة بن حصن ومن معه ، ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أبو سفيان بن حرب ومن معه ﴿ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (الأحزاب : ١٠) . أي: الظنون المختلفة بالنصر واليأس وظهر النفاق من بعض المنافقين كما قال تعالي:﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب:١٢) قال ذلك معتب بن قشير، وكان منافقا قال : كان محمد يري أن نأكل من كنوز كسر وقيصر، وأحدنا لا يأمن من أن يذهب إلي الغائط، وقيل : القائل ذلك عبد الله بن أبي سلول ومن معه من المنافقين ، وقال رجال منهم، أي: المنافقين ﴿ ياأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (الأحزاب:١٣) إلي منازلكم بالمدينة ، فقالوا: يارسول الله ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ من العدو ، أي: غير حصينة، فأذن لنا نرجع إلي ديارنا، فأنها خارج المدينة،قال تعالي : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣) .

ولما نظر المشركون إلي الخندق ، قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، وصار المشركون يتناوبون، فيغدوا أبو سفيان في أصحابه يوما ويغدوا خالد بن الوليد

يوما، ويغدو عمرو بن العاص يوما، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوما،ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوما، ويغدو حماد بن الخطاب يوما، فلا يزالون يجلبون خيلهم ويفترقون مرة ويجتمعون أخري، ويناوشون أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، أي: يقربون منهم، ويقدمون رجالهم ومكثوا علي ذلك مدة ، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصي

صاحب الجثة الخبيثة

وفي تلك المدة أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة علي فرس له، ليوثبه الخندق يريد قتل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في زعمه، فوقع في الخندق فاندفعت عنقه فقتله الله، قيل: رماه المسلمون بالحجارة ثم نزل إليه سيدنا علي كرم الله وجهه فقتله، وعظم ذلك علي المشركين، فأرسلوا إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إنا نعطيكم الدية وأذنوا لنا في دفنه، وفي رواية: أنهم أعطوا في جسده عشرة آلاف علي أن يدفع إليهم ليدفنوه، فرد إليهم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أنه خبيث لموته كافرا محاربا الله ورسوله ، وخبيث الدية، فلعنه الله ولغي ديته، ولا نمنعكم أن تدفنوه ولا أرب لنا في ديته .

لا نعطي الدنية في ديننا

وأقام ﴿ﷺ وآله﴾ علي الخندق، وعدوهم يحاصرهم ولم يكن بينهم قتال إلا أنهم لا يدعون الطلائع بالليل، يطمعون في الغارة .

وكان النبي ﴿ﷺ وآله﴾ يثبت المسلمين ويبشرهم ويقول لهم: أبشروا بعون الله ونصره، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن كسري وقيصر، ولتنفقن أموالهما في سبيل الله، يقول ذلك حين يري ما بالمسلمين من الكرب، ثم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما رأي شدة الأمر، بعث إلي عيينة بن حصن الفزاري وإلي الحرث بن

عوف المري في أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة،علي أن يرجعا هما ومن معهما عنه،فجاءا مستخفيين من أبي سفيان،فوافقاه علي ذلك بعد أن طلبا النصف، فأبي عليهما إلا الثلث فرضيا ٠

وفي رواية: أحضرت الدواة والصحيفة، ليكتب عثمان بن عفان ﷺ الصلح: فلما أراد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يوقع الصلح بعث إلي سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما ، فذكر لهما ذلك ، واستشارهما فيه ٠

فقالا يارسول الله أمر تحبه فتصنعه، أم شئ أمرك به الله به لابد لنا من العمل به، أم شئ تصنعه لنا؟ وفي لفظ: إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولكن فيه هوي فسمع وطاعة، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لو أمرني الله ما شاورتكما، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر شوكتهم إلي أمرنا، فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم ، أي:غطفان، علي الشرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قري أو بيعها، وإن كانوا ليأكلون العلهز في الجاهلية من الجهد، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعز بك وبه نقطعهم أموالنا ٠ أي: وفي لفظ نعطي الدنية ، ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بينا وبينهم٠ وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : فأنت وذاك فأخذ سعد الصحيفة، ومحا ما فيها من الكتابة، وقال لعيينة والحرث: ارجعا بيننا وبينكم السيف رافعا صوته، ثم قال لسعد: ليجهدوا علينا ٠ ثم إن جماعة من قريش أقبلوا من ناحية ضيعته وهم علي خيولهم وأكرهوا الخيل حتى اقتحموا الخندق، وفيهم عكرمة بن أبي جهل ﷺ فإنه أسلم بعد ذلك، وفيهم هبيره بن أبي وهب، أي: وهو زوج أم هانئ أخت علي كرم

الله وجهه ورضي الله عنهما ،وأبو أولادها- مات علي كفره – وضرار بن الخطاب ، وعمرو بن ود ٠

مبارزة عمرو بن ود

وكان عمرو بن ود من الشجعان المشهورين، فقال: من يبارز؟ فقام علي كرم الله وجهه وقال: أنا له يانبي الله،فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ اجلس إنه عمرو بن ود ، ثم كرر عمرو النداء وجعل يوبخ المسلمين ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لي رجلا وأنشد أبياتا منها :

ولقد بححت من النداء　　　وبجمعكم هل من مبارز
إن الشجاعة في الفتي　　　والجود من خير الغرائز

فقام علي كرم الله وجهه فقال: أنا له يارسول الله، فقال: اجلس إنه عمرو بن ود، ثم نادي الثالثة فقام علي كرم الله وجهه فقال : أنا له يارسول الله، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنه عمرو، فقال علي: وإن كان عمرو، فأذن له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأعطاه سيفه وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته، وقال :اللهم أعنه عليه، اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني فردا وأنت خير الوارثين .

وفي رواية : أنه﴿ ﷺ وآله﴾ رفع عمامته إلي السماء وقال: إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر وحمزة يوم أحد، وهذا علي أخي وابن عمي فلا تذرني فردا وأنت خير الوارثين٠

فمشي إليه علي كرم الله وجهه وأنشد أبياتا منها :

لا تعجلن فقد أتاك　　　مجيب قولك غير عاجز
ذو نية وبصيرة　　　والصدق منجي كل فائز

ثم قال: ياعمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلي إحدى خصلتين إلا أخذهما منه، قال له: أجل،أي نعم، قال له علي كرم الله وجهه : فأنا

أدعوك إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وإلي الإسلام، فقال : لا حاجة لي بذلك ،فقال له علي : فأني أدعوك إلي البراز، قال وفي رواية:إنك كنت تقول لا يعوني أحد إلي واحدة من ثلاث إلا قبلتها٠ ٠ قال: أجل، قال علي : فني أدعوك أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،وتسلم لرب العالمين، فقال: ياابن أخي أخر عني هذه،قال :وأخري ترجع إلي بلادك فإن يك محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ صادقا كنت أسعد الناس به، وإن يك كاذبا كان الذي تريد ،قال : هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبدا، كيف وقد قدرت علي استيفاء ما نذرت ، أي: فإنه نذر لما أفلت هاربا يوم بدر وقد جرح أن لا يمس رأسه دهنا حتى يقتل محمدا

﴿ﷺ وآله﴾ ، قال: فالثالثة ما هي؟ قال : البراز ، فضحك عمرو، قال :هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروعني بها ، قال له عند طلب المبارزة : لم ياابن أخي فو الله ما أحب أن أقتلك ، فقال له علي كرم الله وجهه: ولكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، أي : أخذته الحمية، وفي رواية أن عمرو قال له: من أنت ،أي : لأن عليا كرم الله وجهه كان مقنعا بالحديد ، قال : علي ، قال ابن عبد مناف، قال : أنا علي بن أبي طالب، قال: غيرك ياابن أخي من أعمامك من هو أشد منك فاني أكرة أن أهريق دمك، وفي رواية:فان أباك كان صديقا ، فقال علي : أنا والله ما أكرة أن أهريق دمك، فغضب، فقال له علي كرم الله وجهه: كيف أقاتلك وأنت علي فرسك ولكن انزل معي،فاقتحم عن فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار، فعقر فرسه وضرب وجهه كي لا يغره، وأقبل علي علي كرم الله وجهه ، فاستقبله علي بدر قته، فضربة عمرو فيها فقدها ، وأثبت فيها السيف ،وأصاب رأسه فشجه فضرب علي علي حبل عاتقه ، أي : وهو موضع الرداء من العنق فسقط وكبر المسلمون، فلما سمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ التكبير عرف أن عليا كرم الله وجهه قتل عمرو لعنه الله ٠

وفي رواية : لما قتل عمرو، حمل ضرار بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب ﷺ ،وهبيرة بن أبي وهب، علي علي كرم الله وجهه فأقبل علي عليهما ، فأما ضرار فولي هاربا ، ولم يثبت • وأما هبيرة فثبت ثم ألقي درعه وهرب ، وكان فارس قريش وشاعرها ، وقد أسلم بعد ﷺ .

وحين قتل عمرو، رجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هاربين ، فتبعهم الزبير ﷺ ، وضرب نوفل بن عبد الله بالسيف فشقة نصفين ووصلت الضربة إلي كاهل فرسه . فقيل له ياأبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك • فقال :

والله ما هو السيف ولكنها الساعد.

وقيل : إنه تقدم أن نوفل بن عبد الله وقع في الخندق فاندفعت عنقه علي ما سبق •

حواري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

وحمل الزبير علي هبيرة بن أبي وهب – وهو زوج أم هانئ أخت علي بن أبي طالب – فضرب ثغر فرسه فقطعة ، وسقطت درع كان محقبها الفرس، أي: كانت علي مؤخر الفرس • فأخذها الزبير ، وألقي عكرمة بن أبي جهل رمحه وهو منهزم •

وفي كلام ابن عبد البر رحمه الله : ثبت عن الزبير ﷺ أنه قال: جمع لي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أبويه مرتين يوم أحد ، ويوم بني قريظة، فقال: (ادن فداك أبي وأمي) • وفي الخير:(إن لكل نبي حواريا، وإن حواري الزبير) الحديث• وقال : (الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي) •

ويذكر أن الزبير ﷺ كان له ألفا من العبيد يؤدون إليه الخراج ، وكان يتصدق بذلك كله ، ولا يدخل بيته من ذلك درهما واحدا •

وكان ذلك من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ • فقد جاء أنه لما نزل قوله تعالي : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) قال الزبير: يارسول الله، أي نعيم يسأل عنه

وإنما هي الأسودان التمر والماء؟٠ ٠ قال: (أما إنه سيكون) ، وقد جعله رضي الله عنه سبعة من الصحابة وصيا علي أولادهم ٠

فكان يحفظ علي أولادهم مالهم، وينفق عليهم من ماله،وهؤلاء السبعة منهم: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن مسعود ﵁ وأرضاهم ٠

وفي رواية: أن ضرار بن الخطاب لما هرب تبعه أخوه عمر بن الخطاب ﵁ وصار يشتد في أثره، فكر ضرار راجعا وحمل علي عمر بالرمح ليطعنه ثم أمسك وقال: هذه نعمة مشكورة أثبتها عليك، ويد لي عندك غير مجزي بها فاحفظها ، ووقع له مع عمر نظير ذلك، فإنه التقي معه بالقناة ثم رفعها عنه وقال : ما كنت لأقتلك ياابن الخطاب ، ثم من الله علي ضرار فأسلم وحسن أسلامة ﵁ ٠

وكان شعار المسلمين: (حم لا ينصرون)، ولعل المراد بالمسلمين الأنصار، فلا يخالف ما في الإقناع، وكان شعار المهاجرين (ياخيل الله)، وفيه خرجت طائفتان للمسلمين ليلا، ولا يشعر بعضهم ببعض ولا يظنون إلا أنهم العدو ، فكانت بينهم جراحة وقتل ثم نار، وشعار المسلمين(حم لا ينصرون)، فكف بعضهم عن بعض ٠

وقد يقال: يجوز أن تكون الطائفتان كانتا من الأنصار ﵁ وجاءوا ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : جراحكم في سبيل الله ومن قتل فشهيد، ورمي سعد بن معاذ بسهم قطع أكهله، وهو عرق في الذراع تتشعب منه عروق البدن ، ويقال : لهذا العرق عرق الحياة ، أي : رماه بن العرقة– اسم جدته سميت بذلك لطيب عرقها – وقال: خذها وأنا ابن العرقة ٠

فلما بلغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك قال: عرق الله وجهه في النار ، وقيل: القائل ذلك سعد ﵁، وعند ذلك قال سعد : اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم– يعني قريشا– فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتي تقر عيني، وفي لفظ : حتي تشفيني من

بني قريظة،وفي لفظ: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا ، فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ٠

وقد استجاب الله له، فلم يقم لقريش حربا بعدها ٠ ٠ وما مات حتي حكم في بني قريظة– كما سيأتي– وقيل: إن الذي أصاب سعدا هو أبو أسامة الجشني حليف بني مخزوم، وقيل : خفاجة بن عاصم بن حيان ٠

ملأ الله بطونهم نارا

واستمرت المقاتلة في يوم من أيام الخندق في سائر جوانبه إلي الليل ، ولم يصل ﴿ﷺ وآله﴾ ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وصار المسلمون يقولون:ما صلينا !! فيقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (ولا أنا) ٠ فلما انكشف القتال جاء ﴿ﷺ وآله﴾ إلي قبته فأمر بلالا فأذن وأقام للظهر فصلي، ثم أقام لكل صلاة ، وصلي هو وأصحابه ﵃ ٠ وجاء في رواية جابر ﵁ : أنه أذن وأقام لكل صلاة ٠

وجمع النووي قضيتان جرتا في أيام الخندق ، فإنها كانت خمسة عشر يوما ، وفي رواية أن التي فاتت صلاة العصر ، ويحمل ذلك علي أنه وقع في بعض تلك الأيام ٠

وفي بعض الروايات: شغلونا عن الصلاة الوسطي صلاة العصر ، حتي غابت الشمس ، ملأ الله أجوافهم نارا ، وفي لفظ : بطونهم وقلوبهم نارا ٠

ثم إن طائفة من الأنصار ، خرجوا ليدفنوا ميتا بالمدينة منهم، فصادفوا عشرين بعيرا محملة شعيرا وتمرا وتبنا ، حمل ذلك حيي بن أخطب مددا وتقوية لقريش، فأخذها الأنصار وأتوا بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فتوسع بها أهل الخندق ٠

فلما بلغ أبا سفيان ذلك ، قال : إن حييا لمشئوم، قطع بنا وما نجد ما نحمل عليه ، إذا رجعنا ٠

ثم إن خالد بن الوليد كر بطائفة من المشركين، يطلب غرة للمسلمين، أي : غفلة ، فصادف أسيد بن حضير ﵁ علي الخندق في مائتين من المسلمين ، فناوشوهم ، أي:

وتقاربوا منهم ساعة، ثم بعد ذلك صاروا يرسلون الطلائع يطمعون في الغارة أي : الإغارة . فأقام المسلمون في شدة من الخوف .

دعاء الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ علي الفلول

وفي الصحيحين: دعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ علي الأحزاب فقال : (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم و زلزلهم) ، وقام ﴿ ﷺ وآله﴾ في الناس فقال: (يأيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية، فان لاقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) أي : السبب الموصل إلي الجنة عند الضرب بالسيف في سبيل الله .

ودعا ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: (ياصريخ المكروبين، يامجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي ، فإنك تري ما نزل بي وأصحابي) .

وقال المسلمون : هل من شئ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ . قال: (نعم . قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا) فأتاه جبريل عليه السلام فبشره أن الله يرسل عليهم ريحا وجنودا، وأعلم ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه وصار يرفع يديه ويقول : (شكرا شكرا) .

وجاء أن دعاءه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، واستجيب له ذلك اليوم الذي هو يوم الأربعاء بين الظهر والعصر ، فعرف السرور في وجهه ،أي: ومن ثم كان جابر يدعو في مهماته في ذلك اليوم في ذلك الوقت ويتحرى ذلك اليوم. وكان النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يختلف إلي ثلمة في الخندق ، والثلم الخلل في الحائط ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يذهب إلي تلك الثلمة، فإذا أخذه البرد ﴿ ﷺ وآله﴾ جاءني فأدفأته في حضني، فإذا دفئ خرج إلي تلك الثلمة ويقول : ما أخشي أن يؤتي المسلمون إلا منها . فينما رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في حضني صار يقول : ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلمة الليلة ، فسمع صوت السلاح

فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : من هذا؟ فقال سعد بن أبي وقاص أتيت أحرسك يارسول الله ، فقال: عليك هذه الثلمة فاحرسها، وقام ﴿ﷺ وآله﴾ حتي غطي ، ثم قام في قبته يصلي، لأنه كان ﴿ﷺ وآله﴾ إذا أحزنه أمر فزع إلي الصلاة ثم خرج ﴿ﷺ وآله﴾ من قبته فقال : هذه خيل المشركين تطيف بالخندق . ثم نادي ياعباد بن بشر قال : لبيك ، قال : هل معك أحد؟ قال: نعم، أنا في نفر حول قبتك يارسول الله ، وكان عباد ألزم الناس بقبة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يحرسها . فبعثه ﴿ﷺ وآله﴾ يطيف بالخندق .

وأعلمه أن خيل المشركين تطيف به . ثم قال: اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، لا يغلبهم غيرك ، فرماهم المسلمون حتي رجعوا .

الحرب خدعة

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أسلم وكتم إسلامه، فأتي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: يارسول الله إني أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت . وفي رواية: أن نعيما لما سارت الأحزاب ،سار مع قومه غطفان وهو علي دينهم فقذف الله في قلبه الإسلام . فخرج حتي أتي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بين المغرب والعشاء فوجده يصلي فلما رآه جلس ، ثم قال له النبي ﴿ﷺ وآله﴾: ما جاء بك يانعيم ؟ قال: جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق ، فأسلم ثم قال: يارسول الله إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت .فقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا فان الحرب خدعة أي: ينقضي أمرها بالمخادعة، ففيه التحذير من مكر الكافرين وأنه لا ينبغي التهاون بهم، والندب إلي خداع الكفار وإن لم يتيقظ لذلك ، لم يأمن أن ينعكس الأمر عليهم .

وفي الحديث أيضا الإشارة إلي استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة ، فلذا قصر الحرب علي الخدعة في قوله ﴿ﷺ وآله﴾ :(فان الحرب خدعة) فهو كقوله :(الحج عرفة) ٠

ثم قال نعيم : يارسول الله إني أقول ما يقتضيه الحال وإن كان خلاف الواقع ، فقال: قل ما بدا لك فأنت في حل ،فخرج نعيم حتي أتي بني قريظة وكان لهم نديما ٠قال: فلما رأوني رحبوا بي وعرضوا علي الطعام والشراب ٠ فقلت: إني لم آت لشيء من هذا إنما جئتكم تخوفا عليكم لأشير عليكم برأيي ، يابنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ٠ فقال لهم : اكتموا عنى ٠٠ قالوا: نفعل ، قال : لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع ولبنى النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم وبها نساؤكم وأموالكم وأبناؤكم ، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم ، أى : عاونتموهم عليه ، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة ، أى : فرصة أصابوها . وإن كانت غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين بلادكم ، والرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم سبعين رجلا ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ حتى يناجزوه ، أى : يقاتلوه٠ قالوا: لقد أشرتم بالرأى والنصح ، ودعوا له وشكروا وقالوا : نحن فاعلون ، قال : ولكن اكتموا على ، قالوا : نفعل ٠

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه من أشراف قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى لمحمد﴿ﷺ وآله﴾ وأنه قد بلغنى أمر قد رأيت أن أبلغكموه فاكتموا على ٠٠٠ قالوا : نفعل ، قال : تعلمون معشر يهود بنى قريظة ، قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ﴿ﷺ وآله﴾ من نقض عهد ، وقد أرسلوا إليه _ وأنا

عندهم ــ إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم أى : سبعين رجلا ، فنعطيك إياهم ، فتضرب أعناقهم، وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارنا، يعنون بنى النضير ثم نكون معك علي من بقي منهم حتي نستأصلهم ، فأرسل إليهم نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم هذا رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً ، واحذروهم علي أسراركم، ولكن اكتموا عني، ولا تذكروا هذا الأمر ، قالوا : لا نذكره، ثم خرج حتي أتي غطفان فقال: يامعشر غطفان إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ،ولا أراكم تتهموني. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا علي... قالوا: نعم، ثم قال لهم:مثل ما قال لقريش وحذرهم .

فلما كان ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلي بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر،فاعدوا للقتال حتي نناجز ، أي: نقاتل ، محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ ونفرغ مما بيننا وبينه فقالوا لهم: إن اليوم الذي يلي هذه الليلة يوم السبت. وقد علمتم ما نال منا من تعدي في السبت ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتي تعطونا رهنا سبعين رجلاً . فقالوا: صدق والله نعيم .

وفي رواية: أن بني قريظة أرسلت لقريش قبل مجيء رسل قريش إليهم رسولاً يقول لهم: هذا التواني، والرأي أن تتواعدوا علي يوم يكونون معكم فيه، لكنكم لا تخرجوا حتي ترسلوا إليهم سبعين رجلاً رهناً من أشرافكم ، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون، رجعتم وتركتموهم ، فلم ترد لهم قريش جواباً. وجاءهم نعيم وقال لهم: كنت عند أبي سفيان وقد جاءه رسولكم ، فقال: لو طلبوا مني عناقا ما دفعتها إليهم فاختلفت كلمتهم . وجاء حيي بن أخطب لبني قريظة ، فلم يجد منهم موافقة له ، وقالوا: لا

نقاتل معهـــــــم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهناً عندنا ، وخذل الله بينهم ٠

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾

وبعث الله عليهم الريح ، أي: ريح الصبا في ليال شديدة البرد، فكفأت قدروهم ،وطرحت آنيتهم ، وقلعت بيوهم ، وقطعت أطنابها، وصارت الريح تلقي الرحل علي أمتعتهم ٠

وفي رواية: دفنت الرجال ، وأطفأت نارهم، وأنزل الله عليهم ملائكة زلزلتهم، قال الله تعالي : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب:٩) ولم تقاتل الملائكة بل نفثت في روعهم الرعب ٠

قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور) ، وفي لفظ : (نصر الله المسلمين بالريح) ٠ وكانت ريحا صفراء ملأت عيونهم ، ودامت عليهم واشتدت في ليلة باردة ، مع أصوات مثل الصواعق، ولم تجاوز عسكر المشركين، وكانت تلك الليلة شديدة الظلمة ، بحيث لا يري الشخص أصبعه إذا مدها ٠٠ فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون : بيوتنا عورة ٠ أي: من العدو ، لأنها خارج المدينة، وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة ، فأذن لنا نرجع إلي نسائنا وأبنائنا وذرارينا ٠٠٠ فيأذن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ لهم٠

قيل : ولم يبق معه ﴿ ﷺ وآله﴾ في تلك الليلة إلا ثلاثمائة ، وكان رجوع المنافقين فرارا، وأما المؤمنون الصادقون فمن رجع منهم ، إنما رجع لألم البرد والجوع الشديدين، أو الخوف الحقيقي علي بيوهم ، أو لفهمهم عدم التغليظ في ذهاب من يذهب ، فكشفوا حال بيوهم ثم رجعوا، ثم قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من يأتينا بخبر القوم ؟) ٠

فقال الزبير : أنا يارسول الله ،قال ذلك ثلاثا، والزبير﵁ يجيبه بما ذكر ، فقال : ﴿ﷺ وآله﴾ (لكل نبي حواري- أي ناصر- وإن حواري الزبير) وفي رواية : أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال : (أي رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ، ثم يرجع ، وأسأل الله أن يكون رفقي في الجنة) وفي لفظ: (معي يوم القيامة) ، وفي لفظ : (يكون رفيق إبراهيم يوم القيامة)٠٠ قال ذلك ثلاثا فما قام أحد من شدة الجوع والبرد ٠

فدعا حذيفة بن اليمان وأرسله-كما سيأتي – ولم يرسل الزبير﵁ مع سؤاله ذلك ثلاثا ، لأن له حدة وشدة ، يملك معها نفسه أن يحدث بالقوم شيئا مما نهي عنه حذيفة فيما يأتي ٠٠ فأختار إرسال حذيفة لذلك ، هذا هو التحقيق عند أئمة السير وهو أن المرسل إنما هو حذيفة ﵁ ونسب بعضهم الإرسال إلي الزبير ، وهو اشتباه ٠

وإنما إرساله الزبير﵁ في كشف خبر بني قريظة ، لما نقضوا العهد ، قال حذيفة ﵁ : لما دعاني رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لم أجد بدا من القيام حيث نوه باسمي فجئته ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: (تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم) فقلت : الذي وبعثك بالحق ، إن قد رعت، أي : ما قدرت علي ما بي من الجوع والخوف والبرد ، فقال: (اذهب حفظك الله من أمامك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك حتي ترجع إلينا) ٠ قال حذيفة: فلم يكن لي من بد من الذهاب ، فقمت مستبشرا بدعائه ﴿ﷺ وآله﴾ فما شق علي شئ مما كان ، وقال : (يا حذيفة ٠٠ اذهب فادخل في القوم) وفي رواية أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما كرر قوله :(ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة)، ولم يجيبه أحد ٠ قال أبو بكر الصديق : يارسول الله حذيفة بن اليمان، قتال حذيفة ﵁: فمر علي رسول الله ، وما علي إلا مرط لامرأتي ، ما يجاوز ركبتي، وأنا جاث علي ركبتي، فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : حذيفة ، قال : حذيفة فتقا صرت به الأرض، قلت : بلي يارسول الله ٠

قال: قم فقمت ، قال : إنه كان في القوم خبر فأتني بخبرهم ، قلت: والذي بعثك بالحق ، ما قمت إلا حياء منك من البرد، قال : لا بأس عليك من حر ولا برد حتي ترجع إلي ٠٠ فقلت: والله ما بي أن أقتل، ولكني أخشي أن أوسر ٠ فقال : إنك لن تؤسر ، اللهم أحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ٠

قال حذيفة : فمشيت كأني في حمام ٠

وقد ذكر ابن ظفر في ينبوع الحياة في تفسير قوله تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب:٩) وهبت ريح الصبا ليلا فخلعت الأوتاد ، وألقت عليهم الآنية ، وكفأت القدور ، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصى، وسمعوا في نواحي ، أي : أرجاء معسكرهم التكبير ، وقعقعة السلاح ، أي : من الملائكة ، فصار سيد كل حي يقول لقومه : يابني فلان هلموا إلي ، فإذا اجتمعوا قال: النجاة ، النجاة ٠

فارتحلوا هرابا في ليلتهم ، وتركوا ما استثقلوه من متاعهم ، فغنمه المسلمون ٠

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

وانصرف ﴿ﷺ وآله﴾ من غزوة الخندق يوم الأربعاء ، لسبع بقين من ذي القعدة ، وكان قد أقام بالخندق محاصرا ، خمسة عشر يوما، وقيل: أربعة وعشرون يوما ، وقيل : شهرا ٠

وحين انجلاء الأحزاب قال ﴿ﷺ وآله﴾ : الآن نغزوهم ، نحن نسير إليهم ٠ وفي رواية : قال ﴿ﷺ وآله﴾ بعد انصراف الأحزاب : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، وقد كان كما أخبر ﴿ﷺ وآله﴾ ففي ذلك علم من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ ٠

وأرسل أبو سفيان كتابا إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيه : (باسمك اللهم ، فأني أحلف باللات والعزي وإساف ونائلة وهبل ، كما في لفظ : لقد سرت في جمع وأنا لا أريد أن لا أعود إليك أبدا حتي أستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بالخندق

أي : وفي لفظ فقد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها وإنما تعرف ظل رماحها ، وشبا سيوفها، وما فعلت هذه إلا فرارا من سيوفنا ولقائنا ، ولك مني يوم كيوم أحد) .

فأرسل إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ جوابه فيه: أما بعد٠٠ أي ٠٠ بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ من محمد رسول الله إلي صخر بن حرب٠٠فقد أتاني كتابك ، وقديما غرك بالله الغرور ، وأما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتي تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة، وليأتيني عليك يوم أكسر فيه اللات والعزي وإساف ونائلة وهبل ، حتي أذكرك ذلك ، ياسفيه بن غالب .

وقد حقق الله قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكسر اللات والعزي وغيرهما من الأصنام وأعز الله الإسلام بإخباره بذلك قبل وقوعه ، وهو علم من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

شهداء الخندق

وذكر ابن إسحق : أنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لا غير ، سعد بن معاذ ﵁ وسيأتي بيان وفاته ، وأنس بن أوس، وعبد الله بن سهل ، والثلاثة من الأوس .

ومن الخزرج: الطفيل بن النعمان، وتعلبه بن غنمة، وكعب بن زيد ﵁ وأرضاهم .

وقتل من المشركين ثلاثة: منبه بن عبيد العبدري أصابه سهم فمات منه بمكة ، ونوفل بن عبد الله المخزومى ، وعمرو بن ود لعنهم الله .

وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه﴿ ﷺ وآله﴾ كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة ، يبدأ فيكبر ثلاث مرات ، ثم يقو : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علي كل شئ قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) .

وهذا من السجع المحمود ، وهو ما جاء بالانسجام ، والاتفاق بلا قصد ، والمذموم ما يأتي بتكلف واستكراه ٠

غزوة بني قريظة

بنو قريظة هم قوم من اليهود بالمدينة، من حلفاء الأوس وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ ﷺ ، لما أنصرف من الخندق، دخل المدينة في اليوم الذي انصرف فيع لسبع بقين من ذي القعدة هو وأصحابه ﴿ ﷺ وآله﴾ ووضعوا السلاح ، وكان قد صلي الظهر، ودخل بيت عائشة رضي الله عنها، وقيل : بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها، ودعا بماء فبنما هو﴿ ﷺ وآله﴾ يغتسل وقد غسل شق رأسه الشريف ٠ وفي رواية: بينما رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في الغسل يرجل رأسه قد رجل أحد شقيه ٠

اللّه يأمر النبي بالمسير لبني قريظة

وفي رواية: غسل رأسه واغتسل، ودعا بالمجمرة ، ليتبخر، أتاه جبريل عليه السلام معتجرا بعمامة سوداء من إستبرق، وهو نوع من الديباج ، رخاها بين كتفيه، وفي رواية : عليه لأمة ، ولا معارضة لأنه يجوز الاعتجار بالعمامة علي تلك اللأمة ، وهو علي بغلته الشهباء عليها قطيفة، وهي كساء له ، وبر من ديباج أحمر ، فقال: أو قد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال: نعم، قال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح، وفي رواية قال: يارسول الله غفر الله لك ، أو قد وضعت السلاح وما رجعت الآن إلا من طلب القوم يعني الأحزاب ، وقد بلغنا الأسد، أي: حمراء الأسد،عن الله يأمرك يامحمد بالمسير إلي بني قريظة فإني عامد إليهم بمن معي من الملائكة ، فأزلزل بهم الحصون، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن في أصحابي جهدا ، فلو أنذرتهم أياما فقال جبريل: انهض إليهم ، أي: بني قريظـــــة ، فو الله لأدقنهم رقا كدق البيض علي الصفاء ولأدخلن فرسي

هذا عليهم في حصونهم ثم لأضعضعنها، فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتي سطع الغبار في زقاق بني غنم وهم طائفة من الأنصار •

وفي البخاري عن أنس﵁ قال : كأني أنظر إلي الغبار ساطعا في زقاق بني غنم ، لموكب جبريل حين سار لبني قريظة •

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما رجع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم الخندق ، بينما هو عندي، إذ دق الباب ، وفي رواية : نادي مناد فارتاع لذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، أي: فزع ووثب وثبة منكرة • وخرجت في أثره فإذا رجل علي دابة ، والنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ متكئ علي معرفة الدابة يكلمه ، فرجعت• فلما دخل قلت من ذلك الرجل الذي كنت تكلمه ، قال: ورايتيه ، قلت : نعم، قال: بمن شبهتيه، قالت : بدحية الكلبي• قال ذلك جبريل : أمرني أن أمضي إلي بني قريظة •

وهذا يؤيد أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان عند منصرفه من الخندق في بيت عائشة رضي الله عنها وجاء في رواية عنها: فكأني برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يمسح الغبار عن وجه جبريل وهو، أيك جبريل ، ينفض رأسه من الغبار •

الأمر النبوي وفهم الصحابة

فأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مؤذنه وهو بلال ﵁ أن ينادي في الناس من كان سامعا مطيعا، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة ، وفي رواية: لا يصلين الظهر ، وجمع بينهما بأن من الناس من صلي الظهر ومنهم من لم يصلها فقيل للذين لم يصلوا الظهر: ألا تصلوا الظهر إلا في بني قريظة ، وللذين صلوها، لا تصلوا العصر إلا في بني قريظة ، وبعث مناديا يقول : ياخيل الله اركبي، أي : يافرسان خيل الله، ثم سار إليهم ﴿ ﷺ وآله﴾وبعث عليا كرم الله وجهه علي المقدمة ودفع إليه لواءه ، وكان اللواء عل حاله لم يحل عند مرجعهم من الخندق ، واستعمل علي المدينة ابن أم مكتوم ﵁ ولبس ﴿ ﷺ وآله﴾ السلاح والدرع والمغفر والبيضة وأخذ قناته بيده وتقلد القوس ،

وركب فرسه اللحيف ، وقيل : ركب حمارا وهو اليعفور عاريا، ويمكن أنه ركب في بعض الطريق حمارا وفي بعضه فرسه • وسار ﴿ﷺ وآله﴾ والناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ستة وثلاثون فرسا، ومر بنفر من الأنصار وقد لبسوا السلاح • فقال : هل مر بكم أحد؟ قالوا: نعم ، دحية الكلبي مر علي بغله بيضاء ، وفي رواية: علي فرس أبيض عليه اللأمة وأمرنا بحمل السلاح • فقال لنا : رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يطلع عليكم الآن ، فلبسنا سلاحنا وصففنا ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾:ذلك جبريل بعث إلي بني قريظة يزلزل حصوهم ، ويقذف الرعب في قلوبهم •

اليهود جبناء ماكرون

فلما دنا علي بن أبي طالب ﵁ من الحصن ومعه نفر من المهاجرين والأنصار ، وغرز اللواء عند أهل الحصن سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه ﴿ﷺ وآله﴾ ، فسكن المسلمون وقالوا: السيف بيننا وبينكم ، فلما رأي علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مقبلا أمر أبا قتادة الأنصاري أن يلزم اللواء ورجع إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : يارسول الله لا عليك إلا تدنوا من هؤلاء الأخابث • قال : لعلك سمعت لي منهم أذي ؟ قال : نعم ، قال : لو رأوني لم يقولوا شيئا ، فلما دنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من حصوهم قال : ياإخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ قالوا : ياأبا القاسم ما كنت جهولا •

وفي رواية: نادي بأعلى صوته نفرا من أشرافهم حتي أسمعهم وقال : أجيبوا ياأخوة القردة والخنازير وعبد الطاغوت – وهو ما عبد من دون الله – هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ أتشتموني ؟

فجعلوا يحلفون ما قلنا ، ويقولون : ياأبا القاسم ما كنت جهولا •

وفي رواية : ما كنت فاحشا .

وقال لهم أسيد بن حضير : ياأعداء الله لا تبرحوا من حصونكم حتي تموتوا جوعا ، وإنما أنتم بمترلة ثعلب في حجر . فقالوا : ياابن الحضير نحن مواليك وخاروا ، أي : خافوا وقال : لا عهد بيني وبينكم وإنما قال لهم : ياإخوة القردة والخنازير . لأن اليهود مسخ شباهم قردة وشيوخهم خنازير عند اعتدائهم يوم السبت بصيد السمك .

ثم إن جماعة من الصحابة ﵃ شغلهم ما لم يكن لهم منه بد عن المسير لبني قريظة ليصلوا بها العصر فأخروا صلاة العصر إلي أن جاءوا بعد صلاة العشاء الآخرة امتثالا لقوله ﴿ﷺ وآله﴾ : فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة ، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة ، وبعضهم قال: نصلي ما أراد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها. وإنما أراد الحث علي الإسراع ، فصلوا في أماكنهم ، وقيل: وجماعة صلوا علي ظهور دوابهم ، ثم ساروا فما عابهم الله في كتابه ولا عنفهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأن كلا من الفريقين مأجور بقصده لأنهم مجتهدون ، ولم يعنف الذين أخروها لقيام عذرهم في التمسك بظاهر الأمر .

حصار النبي ﴿ﷺ وآله﴾ لبني قريظة

وحاصر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بني قريظة خمسا وعشرين ليلة وقيل : خمسة عشر يوما وقيل : شهرا ، وكان طعام الصحابة ﵃ التمر يرسل به إليهم سعد بن عبادة ﵁ وقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ : نعم الطعام التمر .

واشتد الحصار علي بني قريظة ، وقذف الله الرعب في قلوبهم ، وكان حيي بن أخطب دخل معهم حصنهم حين رجعت الأحزاب وفاء لكعب بما عاهده عليه .

توجيه كعب بن أسد لبني قريظة

فلما أيقنوا أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غير منصرف عنهم حتي يناجزهم ، أي : يقاتلهم ، قال كبيرهم كعب بن أسد : يامعشر يهود قد أنزل بكم من الأمر ما لا ترجون وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها ، قالوا :وما هي ؟ قال :

١. نتابع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتبكم ، فتأمنون علي دمائكم وأموالكم ونسائكم ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب ، حيث لم يكن من بني إسرائيل ٠ ولقد كنت كارها لنقض العهد،ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس يعني حيي بن أخطب ،أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم أنه يخرج بهذه القرية نبي فاتبعوه وكونوا له أنصارا ،وتكونون آمنتم بالكتابين الأول والآخر يعني التوراة والقرآن ، أي : وكانت يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في كتبهم، ويعلمون الولدان صفته ، وأنه مهاجره المدينة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت يهود بني قريظة وبني النضير وفدك و خيبر يجدون صفة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قبل أن يبعث وأن دار هجرته المدينة ، ولما قال لهم كعب ذلك قالوا : لا نفارق حكم التوراة ، ولا نستبدل به غيره٠

٢. قال كعب : فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم ونخرج إلي محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا نسلا،أي: ولدا يخشى عليه ،وإن نظفر فلعمري لنجن النساء والأبناء ،قالوا: نقتل هؤلاء المساكين !! فما خير العيش بعدهم ٠

٣. قال: فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت وإن عسي أن يكون محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه قد أمنونا فيها، فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، أي : غفلة، قالوا: نفسد لسبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من علمت ، وأصابه ما لم يخف عليك من المسخ .

عمرو بن سعدي والوفاء

وقال لهم عمرو بن سعدي قد خالفتم محمدا فيما عاهدتموه عليه ٠ ولم أشرككم في عذركم فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا علي اليهودية وأعطوه الجزية فو الله ما أدري أيقبلها أم لا ؟ قالوا: نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه، وإن القتل خير من ذلك ،قال : فإني بريء منكم وخرج فـــي تلك الليلة فمر بحرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعليه محمد بن مسلمة ﵁ فقال محمد بن مسلمة : من هذا ؟ قال: عمرو بن سعدي ، قال محمد: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام وخلي سبيله ، وبعد ذلك لم يدر أين هو ٠ وقيل: وجدت رمته ٠وأخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خبره فقال: ذلك رجل نجاه الله بوفاته ، وفي لفظ أنه قال لهم : قبل أن يقدم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ لحصارهم يابني قريظة لقد رأيت عبرا ٠٠ رأيت دار إخواننا بني النضير خالية بعد ذلك العز والخلد والشرف والرأي الفاضل والعقل ٠ تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل، لا والتوراة ما صلت هذا علي قوم قط ولله بهم حاجة ٠ وقد أوقع ببني قينقاع وكانوا أهل عدة وسلاح ونحوة ٠ فلا يخرج أحد منهم رأسه حتي سباهم، فكلم فيهم فتركهم علي إجلائهم من يثرب ٠

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ فو الله إنكم لتعلمون أنه نبي ، وقد بشرت به علماؤنا، ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسلب والجلاء ٠ ثم أقبل علي كعب بن أسد وقال : والتوراة التي نزلت علي موسي ﵇ يوم طور سيناء إنه للعز الشرف في الدنيا ٠ فينما هم علي ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قد حلت بساحتهم فقال : هذا الذي قلت لكم٠

وبعد الحصار قيل أرسلوا بنباش بن قيس إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يترلوا علي ما نزلت عيه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة فإبي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية ، فأرسلوه ثانيا بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها . فأبي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا أن يترلوا علي حكم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فعاد نباش إليهم بذلك .

قصة أبو لبابة

ثم أهم بعثوا إلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن ابعث إلينا أبا لبابة وهو رفاعة بن عبد المنذر الأنصاري﵁ لنستشيره في أمرنا ، أي:لأنه لا مناص لهم، لأن ماله وولده وعياله كانت في بني قريظة وكانوا محالفين للأوس وهو منهم فأرسله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال، وأسرع إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة المحاصرة، وتشتيت ما لهم، فرق لهم، وقالوا: يأبا لبابة أتري أن نترل علي حكم محمدا

﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ قال: نعم، وأشار بيده إلي حلقه، أي: أنه الذبح ، وفي لفظ ما تري أن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ قد أبي أن نترل إلا علي حكمه؟ قال : فانزلوا وأومأ بيده إلي حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا . قال أبو لبانة : فو الله ما زالت قدماي من مكانهم حتي عرفت أني خنت الله ورسوله ، أي: لأن في ذلك تنفير لهم عن الانقياد له ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن ثم أنزل الله في ذلك: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ۝ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٧ ،٢٨) وقيل: الذي نزل في ذلك قوله تعالي : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبه : ١٠٢) .

الحق أن كلا من الآيتين نزل فيه، الأولي: في اللوم عليه، والثانية: في توبته .

وفي رواية أبي لبانة ﷺ قال: لما أرسلت بنو قريظة إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يرسلني إليهم دعاني فقال: اذهب إلي حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس فذهبت إليهم . فقام كعب بن أسد فقال: ياأبا لبانة قد عرفت ما بيننا وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا . ومحمد ﴿ﷺ وآله﴾ لا يفارق حصننا حتي نتزل علي حكمه . فلو زال عنا، لحقنا بأرض الشام أو خيبر، ولما نطأ له أرضا، ولم نكثر عليه جمعا أبدا ما تري؟ فإنا قد اخترناك علي غيرك ، أنتزل علي حكم محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ قال أبو لبابة: فندمت واسترجعت فقال لي كعب: مالك ياأبو لبابة ؟ فقلت : قد خنت الله ورسوله، ثم نزلت من عندهم، وإن عيني لتسيل من الدموع ، ثم انطلق أبو لبابة علي وجهه فلم يلق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وارتبط في المسجد بعمود من أعمدته. وهي التي كانت عند باب أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وكان أكثر تنفل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ عندها .

وتعرف باسطوانة أبي لبابة، واسطوانة التوبة ، وكان الوقت شديد الحر، وكان ارتباطه بسلسلة ثقيلة وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حيت أموت أو يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبدا ولا يري في بلد خان الله ورسوله فيد أبدا .

جواز التوسل بالنبي ﴿ﷺ وآله﴾

فلما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءني لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتي يتوب الله عليه . يشير بذلك إلي قوله تعالي : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:٦٤) . ومن قال إنه إنما فعل ذلك حين تخلف عن غزوة تبوك فقد أغرب .

ثم مكث أبو لبابة ﷺ مربوطا ست ليال ر يذوق طعاما ولا شرابا ، وتأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فتربطه بالجذع،وقيل : مكث مربوطا بضع عشرة ليلة يطلقونه للصلاة ،ثم يأمرهم بإعادة الربط حتي خر مغشيا عليه ٠

ثم أنزل الله تعالي توبته علي النبي﴿ ﷺ وآله﴾ في قوله تعالي : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة:١٠٢) وكان نزول توبته ﷺ ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في بيت أم سلمة رضي الله عنها ٠٠ قالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من السحر وهو يضحك فرحا بالتوبة أنه بالمؤمنين رءوف رحيم، قالت : فقلت: يارسول الله مم تضحك؟ أضحك الله سنك، قال: تيب علي أبي لبابة قالت : أفلا أبشره يارسول الله ؟ قال: بلي إن شئت. فقامت على باب حجرتها – وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب – فقالت:يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه وقيل: قالوا له: قد تيب عليك فحل نفسك ، فقال : لا والله لا أحلها حتي يكون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هو الذي يحلني فجاءه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو خارج لصلاة الصبح فحله ،فقال : يارسول الله إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي ٠ فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ يجزيك الثلث أن تتصدق به ٠

وجاء في بعض الروايات عن أبي لبابة ﷺ عند ذكر هذه القصة حين ربط نفسه، قال: فكنت في أمر عظيم في حر شديد عدة ليال، لا آكل فيهن شيئا ولا أشرب ، وقلت: لا أزال هكذا حتي أفارق الدنيا أو يتوب الله علي ، وذكرت رؤيا رأيتها ونحن محاصرون بني قريظة ، فإني رأيت كأني في حمئة ، أي: طين أسود ، آسين، أي:متغير، فلم أخرج منها حتي كدت أن أموت من ريحها ، ثم رأيت نهرا جاريا فأراني اغتسلت فيه حتي استنقيت، وأراني أجد ريحا طيبة، فاستعبرتها أبا بكر ﷺ فقال: لتدخلن في أمر

عظيم تغتم له ثم يفرج الله عليك ، فكنت أذكر قوله وأنا مرتبط فأرجو أن يترل الله توبتي فلم أزل كذلك حتي كنت ما أسمع الصوت من الجهد، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ينظر إلي حتي أنزل الله توبتي ثم إن بني قريظة نزلوا علي حكم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأمر بهم فكتفوا وجعلوا ناحية ، وكانوا ستمائة، وقيل: سبعمائة وخمسين مقاتلا، وهو الذي تقدم عن حيي بن أخطب، وقيل: كانوا بين الثمانمائة والسبعمائة ، وقيل: كانوا أربعمائة، ويجوز أن يكون ما زاد علي ذلك أتباعا لا يعدون فلا تخالف .

وأخرج النساء والذراري من الحصون، وجعلوا ناحية ، فكانوا ألفا واستعملوا عليهم عبد الله بن سلام، فتواثب الأوس، فقالوا: يارسول الله موالينا وحلفاؤنا وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد فعلت، يعنون بني قينقاع لأنهم كانوا حلفاء الخزرج، ومن الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول وقد نزلوا علي حكم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد كلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له علي أن يجلو كما تقدم، فظنت الأوس من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يهب لهم بنو قريظة كما وهب بني قينقاع للخزرج . فلما كلمته الأوس أبي أن يفعل ببني قريظة ما فعل ببني قينقاع، ثم قال لهم : أما ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلي ، فقال: ذلك إلي سعد بن معاذ وقيل إنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لهم: اختاروا من شئتم من أصحابي فاختاروا سعد بن معاذ وهو سيد الأوس حينئذ ، وقيل : إن بني قريظة هو الذين قالوا : نترل علي حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فرضي بذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قال ابن هشام : حدثني من أثق به أن عليا كرم الله وجهه صاح علي بني قريظة وهم محاصرون ياكتيبة الإيمان ، ثم تقدم هو والزبير وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأقتحمن حصنهم، فخافوا وقالوا: نترل علي حكم سعد بن معاذ . قال الحافظ بن حجر : كأنهم أولا أذعنوا الترول علي حكم المصطفي ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلما سأله الأنصار فيهم رد الحكم إلي سعد بن معاذ .

وروي الطبراني عن عائشة رضي الله عنها: فلما اشتد بهم البلاء قيل لهم أنزلوا علي حكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما استشاروا أبا لبابة قالوا: نترل علي حكم سعد فحصل في سبب رد الحكم إلي سعد أمران: أحدهما، سؤال الأوس ، والآخر إشارة أبي لبابة وكانوا حلف سعد ، وكان سعد بن معاذ ؓ يومئذ في المسجد النبوي في خيمة رفيدة رضي الله عنها .

امرأة بالمسجد لعمل البر

وقد كان ﴿ﷺ وآله﴾ قال لقوم سعد بن معاذ ؓ حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة ، حتي أعود من قرب ، و رفيدة هذه امرأة من أسلم ، كانت لها خيمة في المسجد تداوي فيها الجرحى من الصحابة ممن لم يكن له من يقوم عليه، فأتاه قومه فحملوه علي حمار ثم أقبلوا به علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهم يقولون له : ياأبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فأحسن فيهم، فقد رأيت من ابن أبي ما صنع في حلفائه وهو ساكت ، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، وقال بعضهم : واقوماه .

استعمال السيادة والقيام للكبير

فلما انتهي سعد إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وإلي المسلمين وهم حوله جلوس قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : قوموا إلي سيدكم، فقالوا: ياأبا عمرو إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، وفي رواية: فقمنا صفين يحييه كل رجل منا حتي انتهي إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : احكم فيهم ياسعد ، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، قال : قد أمرك الله أن تحكم فيهم ، فقال سعد : أي لمن في الناحية التي ليس فيها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، عليكم بذلك عهد

الله وميثاقه إن الحكم فيهم بما حكمت ، قالوا: نعم ، قال: وعلي من في الناحية التي فيها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾وهو معرض عن رسول الله﴿ﷺ وآله﴾إجلالا له،ثم قال سعد لبني قريظة ترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم، فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به سعد .

قال سعد : فإني أحكم فيهم ، أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار : إخواننا يعنون المهاجرين منعا لهم ، فقال: إني أحببت أن يستغنوا عنكم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لسعد لقد حكمت بحكم الملك .

وفي رواية : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات قد طرقني بذلك الملك سحرا ، والمراد أن شأن هذا الحكم العلو والرفعة ، ثم أمر أن يجمع ما في حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألفا رمح ، وخمسمائة ترس وحجفة ، ووجد أثاث كثير، وآنية كثيرة ، وجمال نواضح، أي :يسقي عليها الماء،وماشية وشياه كثيرة ، وخمس ذلك مع النخل والسبي، ثم قسم الباقي علي الغانمين، وفي رواية: ثم أمر بالباقي فبيع ثم قسمه بين المسلمين ، ونهي ﴿ﷺ وآله﴾ أن يفرق بين الأم وولدها ، أي : في السبايا الأعم من بني قريظة، وقال:لا يفرق بين أم وولدها حتي يبلغ ، وقيل: يارسول الله وما بلوغه؟ قال : تحيض الجارية ويحتلم الغلام، وكان إذا وجد الولد الصغير ليس له أم لم يبيع من المشركين ولا يباع من المسلمين ، وكانت أسهم القسمة ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما ، لان المسلمين ثلاثة آلاف ، والخيل ستة وثلاثون ، وللفرس سهمين ولصاحبة سهم ، ثم إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمر بالأساري أن يكونوا في دار أسامة بن زيد ، والنساء والذرية في دار بنت الحرث النجارية .

ثم غدا ﴿ﷺ وآله﴾ إلي المدينة، ثم خرج إلي سوق المدينة فخندق فيها خنادق ، أي : حفر فيها حفائر ، وفي رواية: شق أخدودها وجلس ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه أصحابة ثم أمر بقتل كل من نبت شعر عانته ، فبعث إليهم فجاءوا أرسالا تضرب أعناقهم ويلقون في تلك الخنادق، وقد قال بعضهم لسيدهم كعب بن أسيد ياكعب ما تري يصنع بنا ؟ قال: انتم في كل موطن لا تعقلون ألا ترون أنه من ذهب منكم لا يرجع ، هو والله القتل ، فقد دعوتكم إلي غير هذا فأبيتم علي ، قالوا: ليس حين عتاب ، فلم يزل ذلك الدأب حتي فرغ منهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثم رد عليهم التراب في تلك الخنادق ، وعند قتلهم صاحت نساؤهم وشقت جيوبها ، ونشرت شعورها ، وشربت خدودها ، وملأت المدينة بالنواح والعويل ، وكان من جملة من أتي به معهم عدو الله حيي بن أخطب مجموعة يداه إلي عنقه بحبل فلما نظر إليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: ألم يمكن الله منك ياعدو الله قال: بلي ، وأبي الله إلا تمكينك مني والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ٠ وفي رواية قال: بلي، ولقد قلقنا كل مقلقل ولكن من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل علي الناس فقال: أيها الناس إنه لا باس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله علي بني إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه ٠٠ لعنه الله ٠

كعب بن أسيد سيد اليهود

ولما أتي بكعب بن أسيد سيد بني قريظة قال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ياكعب ، قال نعم ياأبا القاسم ، قال: ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقا بي ، أما أمركم باتباعي، وأنكم إن رأيتموني تقرئون منه السلام، قال: بلي ، والتوراة ياأبا القاسم لولا أن تعيرني يهود بالجذع من السيف لاتبعتك ولكني علي دين يهود ، فأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يقدم فتضرب عنقه ففعل به ذلك ٠ وكان المتولي لقتلهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما ، وقيل : إن بعضا منهم

تولي قتله الأوس ، لما جاء أن سعد بن عبادة و الحباب بن المنذر رضي الله عنهما قالا: يارسول الله إن الأوس قد كرهت بني قريظة لمكان حلفهم ، فقال سعد بن معاذ ﷺ : ما كرهته من الأوس أحد فيه خير فمن كرهه فلا أرضاه الله ، وقال أسيد بن حضير ﷺ فقال: يارسول الله لا تبق دارا من الأوس فقتلوا إلا فرقت فيها منهم فمن سخط فلا يرغم الله الأنف ، فابعث إلي داري أول درهم ففرق ﴿ﷺ وآله﴾ منهم فيها فقتلوهم ٠

قال بعضهم : إن الطائفة الذين كرهوا ذلك بعض من الأوس من بعث به إلي دارهم اتباعا لرضا الله تعالي ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ وإزالة لما حاك في صدورهم ، وما عدا ذلك تعاطي قتله علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما ٠٠ فلا تنافي ٠ وبقي صلوات الله عليه عند الأخدود وكانوا كلهم بين الستمائة والسبعمائة، ولم يقتل من النساء إلا واحدة خرجت من بين النساء يقال لها: بيانة وقيل : مزنة، وكانت طرحت رحى علي خلاد بن سويد ﷺ فقتله بإرشاد زوجها، لأنه أحب ألا تبقي بعده فيتزوجها غيره ، وقد أسهم ﴿ﷺ وآله﴾ لخلاد بن سويد ﷺ هذا وقال: إن له أجر شهيدين، وأسهم لسنان بن محصن وقد مات في زمن الحصار ٠

اليهودي الزبير بن بطا

وكان في بني قريظة الزبير بن بطا ، وكان شيخا كبيرا، وكان قد من علي ثابت بن قيس في الجاهلية يوم بعاث وهي الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج قبل قدومه

﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان الظفر فيها للأوس علي الخزرج ٠ وذلك أن الزبير بن بطا أخذ ثابت بن قيس فجز ناصيته ثم خلي سبيله ، فجاء ثابت للزبير يوم قتل بني قريظة، فقال له : يأبا عبد الرحمن هل تعرفني ؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني أردت أن

أجزيك بيدك عندي ، قال : إن الكريم يجزي الكريم وأحوج ما كنت إليه الآن ، ثم أتي ثابت إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: يارسول الله : هو لك، فأتاه فقال : إن رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ قد وهب لي دمك فهو لك ، فقال شيخ كبير : لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ قال ثابت : فأتيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقلت : يارسول الله بأبي وأمي امرأته وولده فقال هم لك ، فجئته فقلت له: أهلك وولدك لك ، فقال : أهل بيتي بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم علي ذلك ، قال: فأتيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقلت له: يارسول الله ما له قال : هو لك، فأتيته فقلت له: قد أعطاني رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مالك فهو لك، فقال: أي ثابت أما أنت قد كافأتني، وقد قضيت الذي عليك وأبي إلا أن يقتل وقال : ألقي الأحبة يعني قومه فقتلة الزبير بن العوام ﵁ ، ولما بلغ أبا بكر ﵁ قوله ألقي الأحبة قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدا فيها مخلدا • وفي رواية أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال لثابت بن قيس : لك أهله وماله إن أسلم أو لم يسلم ، ثم أن القتل كان لمن أنبت ومن لم ينبت كان في السبي • قال عطية القرظي : كنت غلاما فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي عن القتل • وكان رفاعة القرظي قد أنبت فأرادوا قتله، فلاذ بسلمي بنت قيس أم المنذر وكانت إحدى خالاته ﴿ﷺ وآله﴾ أي: خالات جدة عبد المطلب ، لأنها من بني النجار ، فقالت : يارسول الله بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة فوهبه لها ، فأسلم﵁ •

زواج الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ من ريحانة بنت شمعون

واصطفي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لنفسه الكريمة من نساء بني قريظة ريحانة بنت شمعون بن زيد القرظي فتزوجها بعد أن أسلمت رضي الله عنها ، وحاضت حيضة وأصدقها اثنتا عشرة أوقية ونشا ، أي: نصف أوقية ، وأعرس بها في المحرم سنة ست • وقيل : كان يطؤها بملك اليمين ، وقد أشار سبحانه إلي قصة بني قريظة بعد ذكر

قصة الأحزاب في قوله تعالي ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ۞ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله علي كل شيء قديرا ﴾ (الأحزاب : ٢٦، ٢٧) .

من أعلام نبوته لن تغزوكم قريش

ووفاة سعد بن معاذ

ولما انقضي شأن بني قريظة قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزوهم ، وأقر الله عين سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل بني قريظة ، فإنه سأل الله لما أصيب بالسهم في الخندق وقال: اللهم لا تمتني حتي تقر عيني من بني قريظة ، وقيل: إن دعاءه بذلك في الليلة التي صبيحتها نزلوا علي حكمه ، ويجوز أن يكون دعا بتلك الدعوة مرتين ، وفي لفظ: فدعا الله أن لا يميته حتي يشفي صدره من بني قريظة ، فاستجاب الله دعوته ، وكان جرحه قارب البرء فدعا الله وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه من وطنك ، اللهم إني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتي أجاهدهم فيك ، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، أي: الجراحة ، واجعل موتي فيها، فانفجرت تلك الجراحة من ليلته تلك فلم يرعهم ، أي: أهل المسجد إلا الدم يسيل إليهم من خيمة لرجل من بني غطفان ، وهو زوج رفيدة الأسلمية ، فقالوا : ياأهل الخيمة ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم فإذا سعد يسيل جرحه دما له هدير فمات منها .

ولم يحضر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ موته بل جاءه جبريل عليه السلام فقال : من هذا العبد الصالح ، وفي رواية : من هذا الميت الذي فتحت أبواب السماء لصعود روحه واهتز

العرش لقدومها ، فقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سريعا يجر ثوبه إلي سعد بن معاذ ﷺ فوجده قد مات ، وجاء أنه شهد جنازته ﷺ سبعون ألفا من الملائكة ما وطئوا الأرض إلا يومهم ذلك . ولما حملت جنازته ﷺ قال بعض المنافقين : ما أخف جنازته وكان رجلا بادنا ، وكان المنافقين قالوا ذلك استهزاء به ، وإن خفته لخفة ميزانه بزعمهم الفاسد ، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾ : ردا عليهم إن الملائكة كانت تحمله .

ولما احتمل علي نعشه رضي الله عنه بكت أمه وقالت : ويل أم سعد سعدا صرامة واحدا وسؤددا ومجدا وفارسا سعدا سد به مسدا ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ ﷺ .

وفي رواية قال لها : لا تزيدي علي هذا وكان قيما علمته والله حازما في أمر الله ، قويا في أمره كل النوائح تكذب إلا أم سعد .

وروى أنه قال لها: ليرقأ دمك،ويذهب حزنك،فإن ابنك يضحك الله له. وذلك كناية عن إقبال الله عليه بالوحو الريحان،والمغفرة والرضوان

وروي البيهقي أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ حمل جنازة سعد بين العمودين ومشي أمام جنازته ثم صلي عليه ٠

أول امرأة تبايع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

وجاءت أمه ونظرت إليه في اللحد ، وقالت: احتسبتك عند الله غز وجل وعزاها ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو واقف على قدميه على القبر ،فلما سوى التراب على قبره رش عليه الماء ، ثم وقف ﴿ ﷺ وآله﴾ ودعا له رضى الله عنه وأم سعد بن معاذ﵁ هى كبشة بنت رافع بن عبيد الأنصارية الخدرية،وهى أول من بايع النبى﴿ ﷺ وآله﴾ من نساء الأنصار رضى الله عنهن.

كرامه الصالحين عند اللّه

وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال: هديت للنبى﴿ ﷺ وآله﴾ حلة حرير فجعل أصحابه يمسوها ويعجبون من لينها فقال﴿ ﷺ وآله﴾ :أتعجبون من لين هذه الحلة،والذى نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها والين.. وهذا الحديث فيه إشارة إلى عظيم منزله سعد بن معاذ عند الله تعالى فى الجنة، وإن أدنى ثيابه خير من هذه الحلة،لأن المنديل أدنى الثياب لأنه معد للوسخ والامتهان فغيره أفضل منه بالأولى.

وعن أبي سعيد الخدرى قال:كنت ممن حضر لسعد ﵁ قبره فكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا.وعن جابر ﵁ قال:لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سبح ﴿ ﷺ وآله﴾ فسبح الناس معه،ثم كبر فكبر الناس معه، فقالوا: يارسول الله مم سبحت ؟ قال :لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فلج الله عنه . وكان ﵁ فى الأنصار كأبى بكر فى المهاجرين ﵁ .

سرية القرطاء وحديث ثمامة ﵁

كانت هذه السرية لعشر خلون من المحرم فى السنة السادسة من الهجرة، و القرطاء هم من بطن من بنى بكر ،كانوا يترلون بناحية ضريه وهى قرية لبنى كلاب على طريق البصرة إلى مكة، وهى إلى مكة أقرب ،وبها جبل يسمى البكرات وبين ضريه والمدينة سبع ليال.

بعث﴿ ﷺ وآله﴾ محمد بن مسلمة إلى القرطاء فى ثلاثين راكبا إبلا وخيلا وأمره أن يسير بالليل ويكمن بالنهار،وصادف فى طريقه ركبانا نازلين،فأرسل رجلا من أصحابه يسأل من هم، فذهب الرج ثم رجع إليه فقال: قوم من محارب، فترل قريبا منهم ثم أمهلهم حتى عطنوا، أى:بركوا الإبل، حول الماء، فأغار عليهم فقتل نفرا منهم،أى:عشرة، وهرب ثائر هم واستاق نعما وشاء، ولم يتعرض للظعن،أى:النساء﵁.

ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بنى بكر بعث عائد بن بشير إليهم، وخرج محمد بن مسلمة ﵁ فى أصحابه فشن عليهم الغارة فقتل منهم عشرا وساقوا النعم والشاء.

وقيل: قتل نحو العشرين وهرب الباقون منهم،ثم انحدر إلى المدينة ﵁ ، فخمس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما جاء به، وعدل الجزور بعشرة من الغنم، وكان النعم مائة وخمسين بعيرا، والغنم ثلاثة آلاف شاة.

وأسرت تلك السرية ثمامة بن أثال الحنفى من بنى حنيفة،أى: سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه ، وجيء به إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال لهم : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى، فأحسنوا أساره، أى: قيده .

فعن أبي هريرة ﵁ أن خيلا الرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أخذت رجلا ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال

الحنفي فربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره ﴿ﷺ وآله﴾ لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيرق قلبه ، فخرج إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: ماذا عندك ياثمامة ؟ قال: عندي خير يامحمد إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم علي شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه حتي كان الغد ثم قال له : ما عندك ياثمامة ؟ قال : عندي ما قلت لك ، فقالوا: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلي نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله ألا الله وأن محمدا رسول الله ، ثم قال : والله يامحمد ما كان علي وجه الأرض وجه أبغض إلي من وجهك ، وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي ، والله ما كان دين أبغض إلي من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا تري ؟ فبشره النبي ﴿ﷺ وآله﴾، أي : بخيري الدنيا والآخرة ، وأمره أن يعتمر ... فلما قدم مكة يلبي وينفي الشرك عن الله قال له قائل : صبوت ، أي : خرجت من دينك ن قال: لا ، ولكن أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولا والله تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتي يأذن فيها النبي ﴿ﷺ وآله﴾ .

وروي أنهم قدموه ليضربوا عنقه فقال قائل منهم : دعوه فإنكم تحتاجون إلي اليمامة ، فخلوا سبيله ،ولذا قيل فيه :

ومنا الذي لبي بمكة معلنا … برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

ثم خرج إلي اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلي مكة شيئا فكتبوا إليه ﴿ﷺ وآله﴾ إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا ، فكتب ﴿ﷺ وآله﴾ إلي ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل .

وروي البيهقي في الدلائل أن ثمامة بن أثال الحنفي لما أتي به النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وهو أسير خلي سبيله فأسلم ولحق بمكة ، ثم رجع فحال بين أهل مكة والميرة من اليمامة

حتي أكلت قريش العلهز ، أي: الوبر والدم، فجاء أبو سفيان إلي النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : ألست تزعم أنك بعثت رحمه للعالمين ؟ قال: بلي ، قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع . وفي رواية : أنشدك الله والرحم، قد أكلنا العلهز ، فكتب إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل .

رحمة شاملة وفوائد عظيمة

فانظر إلي هذا الحلم العظيم ،والرحمة الشاملة ، والرأفة العظيمة، يواجهه بهذا الخطاب الخشن مع شدة حاجته إليه ، ومحاربته له قريبا في وقعه الأحزاب ، ومع ذلك لم يمتنع من قضاء حاجته تصديقا لقوله تعالي : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
(القلم : ٤) بل جاء في بعض الروايات : أنه دعا لهم بالمطر فسقاهم الله .

وفي قصة ثمامةرضي الله عنه فوائد منها جواز ربط الكافر بالمسجد ، والمن علي الأسير الكافر ، والاغتسال عند الإسلام ، وإن الإحسان يزيل البغض ، ويثبت الحب ، وإن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم يشرع له أن يستمر في ذلك الخير ، وملاطفة من يرجى إسلامه من الأسري إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام ولا سيما من يتبعه علي الإسلام العدل الكثير من قومه. وفيه بعث السرايا إلي بلاد الكفار ، واسر من وجد منهم ، والتخير بعد ذلك في قتله أو إبقائه .

وفيه تعظيم أمر العفو عن المسيء لأنه أقسم أن بغضه انقلب حبا في ساعة واحدة بما أسداه إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ من العفو والمن بغير مقابل .

وجاء في بعض الروايات : نه بعد إسلامه جاءوه بالطعام فلم ينل منه إلا قليلا ، وباللقحة فلم يصب من حلا بها إلا يسيرا فعجب المسلمون ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : مم تعجبون أمن رجل أكل أول النهار في معي كافر وأكل آخر النهار في معي مسلم ؟ !! إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، وإن المسلم يأكل في معي واحدة . ثم صار ثمامة رضي الله عنه

من فضلاء الصحابة رضي الله عنه وهدي الله تعالي به خلقا كثيرا من قومه ، ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة ، ولا خرج عن الطاعة قط ، بل جاء أنه قام حميدا بعد انتقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم۝تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ (غافر : ١– ٣) ٠ ثم قال لهم فأين هذا من هذيان مسيلمة ؟ فأطاعه ثلاثة آلاف وانحازوا إلي المسلمين رضي الله عنهم ونفعنا به

غزوة بني لحيان

بناحية عسفان، ولحيان قبيلة من هذيل – وذلك أنه بعد مضي ستة أشهر من غزوة بني قريظة غزا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بني لحيان – نسبة إلي لحيان بن هذيل بن مدركة ٠

وسببها : أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وجد ، أي : حزن حزنا شديدا ، علي أصحابه المقتولين بالرجيع وهم حبيب وعاصم بن ثابت أصحابه رضي الله عنهم وأراد أن ينتقم من هذيل فأمر أصحابه رضي الله عنهم بالتهيؤ ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة ، أي : غفلة ، فخرج ﴿ ﷺ وآله﴾ مائتي رجل ومعهم عشرون فرسا عسكر بهم ، واستعمل علي المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه وسلك علي غراب وهو جبل بناحية المدينة ، ثم علي طريقه إلي الشام ، ثم علي ذات اليسار حتي استقام به الطريق علي الجحفة من طريق مكة ، ثم أسرع السير حتي انتهي إلي بطن غراب - وادي بينه وبين عسفان خمسة أميال – وهي منازل بني لحيان حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا ، فترحم عليهم ودعا لهم بالمغفرة رضي الله عنهم ، فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رءوس الجبال خوفا من المنصور بالرعب ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلم يقدر علي أحد منهم ، أي: وأرسل سرايا في كل ناحية فلم يجدوا أحدا ، وأقام علي ذلك يومين يبعث السرايا في كل ناحية من نواحيهم ، فلما رأي ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه فاته ما

أراده من غرتهم قال: لو أنا هبطنا عسفان لرأي أهل مكة أنا قد جئنا مكة ، فخرج حتي أتي عسفان ، ونزل بها ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتي بلغا (كراع الغميم)

ثم كرا راجعين. وفي لفظ آخر: فبعث أبا بكر ﵁ في عشرة فوارس لتسمح بهم قريش فيذعرهم فأتوا كراع الغميم وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال يضاف (كراع) إليه، وكراع جبل أسود بطرف الحرة ممتد إليها وقد يقال: منافاة بين اللفظين.

ثم توجه ﴿ﷺ وآله﴾ راجعا إلى المدينة هو وأصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ ولم يلقوا كيدا .

قال ابن إسحق : إنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما لم يحصل من غرتهم ما أراد قال ﴿ﷺ وآله﴾ : لو أنا نزلنا بعسفان ثم بعث فارسين من أصحابه بلغا كراع الغميم ثم أرسل أبا بكر ﵁ مع عشرة فوارس ،وانصرف ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة وهو يقول :آيبون تائبون لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة النظر فى الأهل والمال، اللهم بلغنا بلاغا صالحا ينظر إلى خير مغفرتك ورضوانك.

وكانت غيبته ﴿ﷺ وآله﴾ عن المدينة فى هذه الغزوة أربع عشرة ليلة.

غزوة ذى قرد ويقال غزوة الغابة

وقرد اسم ماء على نحو بريد من المدينة مما يلى بلاد غطفان ،والقرد فى الأصل الصوف الرديء ،والغابة الشجر الملتف.

وسببها :لما قدم ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة من غزوة لحيان لم يقم بها إلا ليال قلائل حتى أغار عيينة بن حصن الفزارى فى خيل من غطفان على لقاح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالغابة،وهى عشرون لقحة ،وهى ذات اللبن القريبة العهد بالولادة وكانت ترعى بالغابة تارة،وهو موضع الشجر الذى لا مالك له بل هو لاحتطاب الناس ومنافعهم ،وبذى قرد تارة أخرى لتقارب الموضعين.

وكان أبو الغفارى وابنه وامرأته ﵁ فيها فأغار عليها عيينة بن حصن ليلة الأربعاء فى أربعين فارسا ،فاستاقوها وقتلوا ابن أبي ذر ﵁ واسمه ذر وكان يرعى الإبل وأسروا المرأة واسمها ليلى .

وفى رواية : جاء أن أبا ذر الغفارى استأذن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكون فى اللقاح ، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لا تأمن عيينة بن حصن وذويه أن يغيروا عليك ، فألح عليه ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لكأنى بك قد قتل ابنك وأخذت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك ، فكان أبو ذر ﵁ يقول : عجبا لى ، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : لكأنى بك ، قد قتل ابنك وأخذت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك ، وأنا ألح عليه ، فكان والله ما قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فإنى والله لفى مترلنا ولقاح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد روحت وحلبت عتمتها ، ونمنا فلما كان الليل أحدق بنا عيينة بن حصن فى أربعين فارسا فصاحوا بنا وهم قيام على رءوسنا ، فأشرف لهم ابنى فقتلوه ، وكان معه ثلاثة نفر فتنحوا وتنحيت عنهم وشغلهم عني إطلاق عقل اللقاح، ثم صاحوا في أدبارها، فكان آخر العهد بها ، ولما قدمت المدينة علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبرته تبسم ٠

وروي بدل عيينة بن حصن ابنه عبد الرحمن بن عيينة ، ولا منافاة لأن كلا منهما كان في القوم ٠

سيد الفرسان أبو قتادة

وحاصل قصه هذه الغزوة أهم لما أغاروا علي اللقاح في يومهم ذلك جاء الصريخ فنادي : الفزع الفزع ونودي : ياخيل الله اركبي ٠٠ وركب ﴿ﷺ وآله﴾ في خمسمائة، وقيل: في سبعمائة ، واستعمل علي المدينة ابن أم مكتوم ﵁ وخلف سعد بن عبادة ﵁ في ثلاثمائة يحرسون المدمينة، وعقه لواء المقداد ﵁ في رمحه وقال: امض حتي تلحقك الخيول وأنا علي أثرك ، فأدرك أخريات العدو ٠

وفي البخاري ومسلم عن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: خرجت قبل أن يؤذن بالأولي ، وكانت لقاح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ترعي بذي قرد، فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أخذت لقاح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قلت: من أخذها ؟ قال: غطفان وفزارة، فصرخت ثلاث صرخات : ياصباحاه، فأسمعت ما بين لا بتي المدينة ٠

وفي رواية للطبراني وابن اسحق :فأشرفت من سلع ثم صحت ياصباحاه ، فانتهي صياحي إلي النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فنودي في الناس الفزع الفزع، فترامت الخيول إليه، فكان أول من انتهي إليه فارسا المقداد ، ثم عبادة بن بشر، وسعد بن زيد الأنصاري وأسيد بن خضير وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة ، وأبو قتادة، وأبو عياش

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

وفي رواية: أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أمر سعد بن زيد وقال: أخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس وقيل: أمر المقداد ، فساروا وتقدمهم أبو قتادة ، فأدرك في طريقة مسعده بن حكمة الفزاري فقتله وسجاه ببردة ، وقيل: حبيب ٠

فلما وصل المسلمون إليه وهو مسجى استرجعوا ، أي: قالوا:إنا الله وأنا إليه راجعون، ظنا منهم أن المسجي هو أبو قتادة وأنه قتل ، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾ : ليس بأبي قتادة ولكنه قتيل وضع عليه برده لتعرفوه فتخلوا عن قتيلة وسلبه، وفي رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: والذي أكرمني بما أكرمنى به إن أبا قتادة علي آثار قوم يرتجز، فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى كشف البرد عن وجهه المسجي فإذا وجه حبيب ، فقال: الله أكبر صدق الله ورسوله غير أبي قتادة ، وقيل: الذي غطاه ببرده مسعدة قال النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أبو قتادة سيد الفرسان بارك الله فيك ياأبا قتادة وفي ولدك وفي ولد ولدك وأعطاه ﴿ﷺ وآله﴾ فرس مسعده وسلاحه ، وقال: بارك الله لك فيه، ولقي عكاشة بن محصن رضي الله عنه في طريقه أبان بن عمرو وابن عمر علي بعير واحد فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعا، واستنقذ بعض اللقاح ، وقتل من المسلمين محرز بن نضلة من بني أسد بن خزيمة رضي الله عنه ،وكان رأي قبل ذلك بيوم أن سماء الدنيا فرجت وما بعدها حتي انتهي إلي السماء السابعة، ثم انتهي إلي سدرة المنتهي فقيل له : هذا متزلك فعرضها علي أبي بكر رضي الله عنه – وكان من أعلم الناس بالتعبير – فقال له : أبشر بالشهادة وكان ممن شهد بدرا .

قال ابن إسحق: كان أول فارس لحق بالقوم فقال: قفوا يامعشر بني اللكيعة فحمل عليه رجل منهم فقتله وتحول علي فرسه، فلحقه أبو قتادة فقتله ، وتحول علي الفرس ، وأدرك سلمة بن الأكوع رضي الله عنه القوم .

قال ابن إسحق: إن سلمة رضي الله عنه صرخ وا صباحاه ، ثم خرج يشتد في آثار القوم فكان مثل السبع ، وكان يسبق الخيل في جريه ، فلم يزل يشتد حتي لحق بالقوم وهو علي رجليه يرميهم بالنبل .

وفي البخاري ﵁ : ثم اندفعت علي وجهي حتي أدركتهم ، وقد أخذوا يستقون من الماء فجعلت أرميهم بنبلي وكنت راميا وأقول: خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يود الردع ، وارتجز حتي استنقذ اللقاح وثلاثين برده ٠

وفي صحيح مسلم: فأقبلت أرميهم بالنبل وأرتجز ، فما زلت أرميهم وأعقرهم ، فإذا رجع إلي فارس منهم أثبت شجرة فجلست في أصلها ثم رميته فعقرته، فإذا تضايق الجبل ودخلوا في مضايقه ، علوت الجبل فرميتهم بالحجارة فما زلت كذلك حتى ما خلق الله لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من بعير إلا خلفه وراء ظهري ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين برده ، وثلاثين رمحا يتخففون بها ، فأتوا مضيق فأتاهم عيينة ممدا لهم فجلسوا ينفدون وجلست علي رأس قرن فقال: من هذا ؟ قالوا: لقد لقينا من هذا البرح، يعني : الشدة والأذى ، ما فارقنا السحر حتى الآن ، وأخذ كل شيء في أيدينا وجعله وراء ظهره ، فقال عيينة : لولا أنه يري وراءه طلب لكم لتركّكم ، ليقم إليه أربعة منكم قال سلمة :

فصعدوا الجبل ، فقلت لهم: أتعرفونني ؟ فقالوا: من أنت ؟ قلت ابن الأكوع ، والذي أكرم وجه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يطلبني رجل منكم فيدركني ولا أطلبه فيفوتني ٠٠ فقال رجل منهم: أظن ٠٠ فرجعوا ، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يؤمهم الأحزم الأسدى ، فلما رأيت الأحزم أول الفرسان نزلت من الجبل وأخذت بعنان فرسه ،قلت له : احذر القوم لا يعتطفوك حتى يلحق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه فقال: ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق وأن النار حق فلا تحل بيني وبين الشهادة فخليت عنه ، فالتقي هو وعبد الرحمن بن عيينة فعقر فرس عبد الرحمن وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول علي فرسه ، فلحق عبد الرحمن أبا قتادة فعقر عبد الرحمن فرس أبي قتادة فقتله أبو قتادة وتحول أبو قتادة ﵁ إلي الفرس، وسار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى نزل بالجبل من ذي قرد بناحية خيبر

وتلاحق به الناس ، وقال له سلمة بن الأكوع : يارسول الله إن القوم عطاش فلو بعثتني في مائة رجل استنفذت ما بقي في أيديهم من السرح ، وأخذت بأعناق القوم . قد يقال لا يخالف هذا ما تقدم من قوله حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا خلفته وراء ظهري وخلوا بينهم وبينه ، لجواز أن يكون صدر عنه ما تقدم ، ثم تحقق أن الذي استنقذه هو وأبو قتادة جملة منها .

من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾

وفي رواية عن سلمة قال : قلت : يارسول الله ابعث معى فوارس لندرك القوم فقال رسول الله بعد أن ضحك ﴿ ﷺ وآله﴾ : تحذف ملكت فاسجح ، أي : ارفق ، والمعنى قد قدرت فاعف والساحة السهولة، أي: لا تأخذ بالشدة فقد حصلت النكاية في العدو، فهزموا وقتلوا رؤساءهم وسليت منهم الرماح والبرد والحمد لله علي نصر الإسلام

ثم قال ﴿ ﷺ وآله﴾: إنهم الآن ليقرون في قومهم ، يعني أنهم وصلوا إلي غطفان وهم يضيفونهم ويساعدونهم ، فلا فائدة في البعث في آثارهم . وإنما كانوا عطاشا لأن سلمة رضي الله عنه ذكر أنه تبعهم إلي قبيل غروب الشمس إلي أن عدلوا إلي شعب فيه ماء يقال له ذو قرد فنحاهم ، أي : طردهم عنه، ومنعهم الشرب منه ، وتركوا فرسين وجاء بهما سلمة رضي الله عنه إلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يسوقهما وقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : شخص يارسول الله القوم الآن يغبقون بأرض غطفان، أي : يشربون اللبن بالعشى ، الذي هو الغبوق، فجاء رجل من غطفان فقال : مروا علي فلان الغطفاني فنحر لهم جزورا فلما أخذوا يكشفون جلدها رأوا عيرة فتركوها ، وخرجوا هرابا ، وفيه معجزة له ﴿ ﷺ وآله﴾ حيث أخبر بذلك ، فكان كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولما

نزل ﴿ﷺ وآله﴾ بالمحل المذكور لم تزل الخيل تأتي والرجال علي أقدامها وعلي الإبل حتى انتهوا إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومكث يوما وليلة •

وعن أبي سلمة ﵁ وأتاني عمى عامر بن الأكوع بسطيحة فيها ماء ، وسطيحة فيها لبن فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله علي الماء الذي أجليتهم عنه ، فإذا هو ﴿ﷺ وآله﴾ قد أخذ كل شيء استنفذته منهم ، ونحر لهم بلال ناقته ، وشوي له من كبدها وسنامها • وصلي ﴿ﷺ وآله﴾ بالناس صلاة الخوف ، أي: الخوف أن العدو يجيء إليهم ، ولما أصبح ﴿ﷺ وآله﴾ قال : خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجالاتنا سلمة رضي الله عنهما.

وعند خروجه﴿ﷺ وآله﴾وتلاحق بعض الفرسان به قال لابن عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك للحق بالناس قال أبو عياش : فقلت يارسول الله إني أفرس الناس فو الله ما جري بي خمسين ذراعا حتى طرحني ، فعجبت لذلك • وقسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في كل مائة من أصحابه جزورا ينحروها ، وكانوا خمسمائة وقيل : سبعمائة .

سيدنا وابن سيدنا

وبعث سعد بن عبادة ﵁ بأحمال تمر وبعشر جزائر ، فوافت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بذي قرد، أي: وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : اللهم أرحم سعدا وآل سعد ، نعم المرء سعد بن عبادة .

فقالت الأنصار : هو سعد سيدنا وابن سيدنا من بيت يطعمون في المحل – الجدب – يحملون الكل – الضعيف – ويحملون عن العشيرة ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين .

لا نذر في معصية اللّه ولا فيما لا تملك

وأقبلت امرأة أبي ذر رضي الله عنهما علي ناقة من إبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أي : من حملة اللقاح وهي القصوى أفلتت من القوم فطلبوها فاعجزهم ٠ وفي لفظ : وانفلتت المرأة من الوثاق ليلا فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه، حتى انتهت إلي العضباء فلم ترغ فقعدت في عجزها ، ثم زجرها وعلموا بها فطلبوها فأعجزهم ، ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرنها ٠٠ فلما أخبرت النبي ﴿ﷺ وآله﴾ الخبر فقالت: يارسول الله قد نذرت أن أنحرها إن نجاني الله عليها ، وآكل من كبدها وسنامها ، فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : بئسما جزيتها إن حملت ، أي: لأجل أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحيرها ؟ ٠٠ لا نذر في معصيه الله ولا فيما لا تملكين ٠

وفي لفظ: لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم ، وإنما هي ناقة من إبلي ، ارجعى إلي أهلك علي بركة الله تعالي ٠ ورجع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلي المدينة وهو علي ناقته العضباء مردفا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وقد غاب عنها خمس ليال ، وأعطي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سلمة سهم الفارس والراجل جميعا مع كونه كان راجلا ٠

سرية عكاشة بن محصن الأسدى إلي غمر مرزوق

غمر هو ماء لبني أسد علي ليلتين من قيد قلعة بطريق مكة ، وكانت في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة فخرج عكاشة رضي الله عنه في أربعين رجلا عقب أمره ﴿ﷺ وآله﴾ له بالخروج دون تراخ فوجد القوم علموا بهم فهربوا فنزلوا أعلي بلادهم ، فوجدوا ديارهم خلوفا ، أي :خليفة عن سكانها لهربهم ، فبعث المسلمون طليعة فرأوا أثر النعم قريبا فقصدوها فأصابوا رجلا منهم فأمنوه ، فدلهم علي نعم لبني عم لهم ، فأغاروا عليها ، فاستاقوا مائتي بعير وأطلقوا الرجل ، وقدموا بالإبل علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولم يلقوا كيدا رضي الله عنه وأرضاهم

سرية محمد بن مسلمة الأنصاري وسرية أبي عبيدة رضي الله عنهما إلي ذي القصة

ذي القصة موضع قريب من المدينة ، بينة وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا من طريق الربذة، فبعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ محمد بن مسلمة ؓ في عشرة نفر لبني ثعلبة وبني عوال من ثعلبة بذي القصة في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة، فورد عليهم ليلا بمن معه ، وقد كمن لهم المشركون لشعورهم بمجيئهم إليهم ، وكانوا مائة رجل، فتركوا محمد بن مسلمة حتى نام هو وأصحابه ؓ ثم أحدقوا بهم .

فما شعر المسلمون إلا وقد خالطهم النوم ،ورموهم بالنبل ، فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس فصاح في أصحابه : السلاح، فوثبوا فتراموا بالنبل ساعة من الليل ، ثم انحاز أصحاب محمد إليه وقد قتلوا من القوم رجلا ، ثم حمل القوم عليهم بالسلاح فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة فإنه وقع جريحا ، فضربوا كعبه فلم يتحرك فظنوا موته ، فجردوهم من ثيابهم وانطلقوا ، فمر رجل من المسلمين بمحمد بن مسلمة وأصحابه ؓ فرآهم صرعى فاسترجع ، أي : قال إنا لله وإنا إليه راجعون . فتحرك له محمد بن مسلمة ، فحمله حتى ورد به المدينة جريحا ، فبعث ﴿ ﷺ وآله﴾ أبا عبيدة عامر بن الجراح – أمين هذه الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة ؓ – في ربيع الآخر في أربعين رجلا إلي مصارعهم فأغاروا عليهم فلم يجدوا أحدا ، ووجدوا نعما وشاء فساقه ورجع .

وصريح هذا أن بعـــث أبا عبيدة ؓ طلب ثأر المقتولين ، وقيل : إن سببه أن بني ثعلبة و أنمار أجمعوا علي أن يغيروا علي صرح المدينة وهي تدعى بهيفاء وهو موضع علي سبعه أميال من المدينة – فبعث ﴿ ﷺ وآله﴾ أبا عبيدة في أربعين حين صلوا المغرب فمشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة مع الصبح فأغاروا عليهم ، فأعجزوهم هربا في الجبال ، وأصاب رجلا واحدا فأسلم فتركه ، وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه وشيئا من متاعهم ، فخمسه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقسم ما بقي عليهم ؓ

سرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلي بني سليم

كانت بالجموح وهي ناحية ببطن نخل علي أربعة أميال من المدينة وكانت في شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة ٠

بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ زيد بن حارثة إلي بني سليم بالجموح ، فسار حتى ورد ذلك المحل ، فأصابوا أمرآة من مزينة اسمها حليمة فأسرها فدلتهم علي منازل بني سليم، فأصابوا نعما وشاء ، ووجدوا جماعة منهم فأسروهم فكان فيهم زوج حليمة المزينة ، فلما رجع زيد إلي المدينة بما أصاب وهب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لتلك المرأة زوجها ونفسها

والظاهر أنها أسلمت ، وتوقف بعضهم في ثبوت ذلك وقال : لا أعلم لها إسلاما ولا صحبة ولا ترجمة ٠ وليس في الصحابيات حليمة إلا المرضعة رضى الله عنها ، ولم يذكروا عدة الإبل والغنم والأسري ٠

سرية زيد بن حارثة ﵁ إلي العيص

قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ زيد بن حارثة في سرية إلا أمرة عليهم ولو بقي لاستخلفه ٠

وفي البخاري : عن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: غزوت مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سبع غزوات يؤمره علينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ٠

والعيص موضع علي أربع ليال من المدينة ، وكانت غزوة زيد هذه في جمادى الأولي سنة ست من الهجرة ٠

وسببها : أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بلغه أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام فبعث زيدا ومعه سبعون راكبا ، وقيل: مائة وسبعون ليتعرض لها فأدركها وأخذها وما فيها وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف وأسر منهم ناسا ، منهم أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد مناف واسمه لقيط أو الزبيرة أو هشيم أو مهشم أو ياسر ، وأمه

هالة بنت خويلد ، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة وأمانة ومالا ٠ وهو زوج السيدة زينب بنت النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ورضى الله عنها ٠ فلما قدم المدينة أسيرا أجارته زوجته السيدة زينب رضى الله عنها بعد أن استجار بها، ونادت في الناس حين صلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الفجر ٠

أبو العاص في جوار زينب رضى الله عنها وإسلامه

وفي رواية : حين كبر ﴿ ﷺ وآله﴾ وكبر الناس معه ، نادت : أيها الناس إني قد أجرت إبا العاص ، فلما سلم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من الصلاة أقبل علي الناس فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا : نعم ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده ما علمت بشئ من هذا حتى سمعت ما سمعتم ، المؤمنون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت ثم انصرف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فدخل علي ابنته وقال : قد أجرنا من أجرت

وفي الصحيحين قال ﴿ ﷺ وآله﴾: ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلما ، أي أزال خفارته، أي : نقص جواره وعهده فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين ٠ ثم دخلت عليه زينب رضى الله عنها فسألته أن يرد علي أبي العاص ما أخذ منه فأجابها إلي ذلك وقال لها: أي بنيه أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له ، أي : لتحريم نكاح المؤمنين علي المشركين ٠

وفي رواية: أن زينب رضى الله عنها قالت للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن أبا العاص إن قرب فابن عم ، وإن بعد فأبو ولد ، وإني قد أجرته ، فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ لأصحابه ﵃: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ٠ وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فئ الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به ٠ فقالوا ، يارسول الله بل نرده عليه ، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ، والرجل بالأداوة حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئا ، ثم ذهب إلي مكة فأدي إلي كل

ذي مال ماله ، ثم قال: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا: لا، قال: هل أوفيت ذمتي ؟ قالوا: اللهم نعم، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ، قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوفا أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما ردها الله عليكم وفرغت منها أسلمت .

وذكر أن المسلمين قالوا لأبي العاص : ياأبا العاص إنك في شرف من قريش ، وأنت ابن عم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، أي لأنه يلتقي مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في جده عبد مناف ، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة ؟ فقال : بئسما أمرتموني أفتتح دينى بغدره ، أي : بالغدر وعدم الوفاء ، ثم ذهب إلي مكة ﵁ فوفي كل ذي حق حقه وأسلم كما تقدم .

وهاجر ﵁ وكانت زينب رضى الله عنها قد هاجرت قبله وتركته علي شركه ، ثم بعد أن أسلم وهاجر ردها إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالنكاح الأول ، وقيل : بنكاح جديد ،وهذا هو الذي عليه العمل لأن الإسلام فرق بينهما قال الله تعالي: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (الممتحنة : ١٠) وقيل: إن هذه الآية متأخرة عن هذه الوقعة فلم يكن اختلاف الدينين مقتضيا للتحريم إلا بعد نزولها. وفي الصحيحين:أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أثني علي أبي العاص في مصاهرته خيرا وقال: حدثني فصدقني ، ووعدني ووفي لي. وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يصلي وهو حامل أمامه بنت زينب رضى الله عنها من أبي العاص .

مات ﵁ ،في خلافة الصديق ﵁ وأما زينب رضى الله عنها فقد توفيت في حياة أبيها ﴿ ﷺ وآله﴾ وهي أكبر بناته ﴿ ﷺ وآله﴾ ورضى الله عنهن .

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلي بني ثعلبة بالطرف

الطرف اسم ماء عين علي ستة وثلاثين ميلا من المدينة بطريق العراق ، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة .

بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ زيد بن حارثة ﵁ إلي بني ثعلبة في خمسة عشر رجلا بالطرف فأصاب نعما وشاء ولم يجد أحدا لأنهم هربوا وظنوا أن يكون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سار إليهم بنفسه ، وأن هؤلاء مقدمة له ، فصبح زيد بالنعم – وهي عشرون إبلا وشاء – المدينة ، وغاب أربع ليال عن المدينة ، وقد خرجوا في طلبه فأعجزهم ، وكان شعارهم الذي يتعارفون به في ظلمة الليل أمت أمت .

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلي جزام

محل يقال له حسمى وراء وادي القرى وذلك من جهة الشام ، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة وقيل : سبع ، فتكون بعد الحديبية لأنها بعد رجوع دحية من عند قيصر ، وبعث دحية إلي قيصر كان آخر سنة ست من الهجرة بعد الحديبية .

وسبب هذه السرية : لأنه أقبل دحية الكلبي﵁ من عند قيصر ملك الروم وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ وجهه إليه بكتابه يدعوه إلي الإسلام .

ولما وصل إليه أجازه بمال كثير وكساه لأنه قارب أن يسلم، ولم يسلم خوفا علي ملكه ، فأقبل بذلك إلي أن وصل ذلك المحل فلقيه الهنيد بن عارض وأبيه في ناس من جذام وهي قبيلة من معد بجبال حسمي فقطعوا عليه الطريق ، وسلبوه كل شئ معه ولم يتركوا عليه إلا ثوبا خلقا ، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب – رهط رفاعة بن زيد الجذامي ممن كان أسلم – منهم فنفروا إليهم واستنقذوا لدحية ﵁ ما أخذ منه ، واقتتلوا معهم حتى ردوا ما كان معهم إلي دحية .

وقدم دحية علي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبره بذلك، فبعث ﴿ ﷺ وآله﴾ زيد بن حارثة رضي الله عنه في خمسمائة رجل ورد معه دحية ، فكان زيد ﵁ يسير

بالليل ويكمن بالنهار ، ومعه دليل من بني عذرة ، فأقبل بهم حتى هجم علي القوم ، أي: علي الهنيد وابنه ومن كان معهم ، مع الصبح فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهم وأخذوا من النعم ألف بعير ، ومن الشاة خمسة آلاف ، ومن السبى مائة من النساء والصبيان .

فلما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد بن حارثة ﷺ ركب نفر منهم حسان بن ملة، وأبو زيد بن عمرو، فلما وقفوا علي زيد بن حارثة ﷺ قال حسان: إنا قوم مسلمون، فقال : اقرأ أم الكتاب فقرأها ، فقال زيد: نادوا في الجيش إن الله قد حرم علينا :ثغرة القوم التى جاءوا منها إلا من ختر .

وكانت أخت حسان في الأساري فقال له زيد : خذها ، فقالت امرأة : أتنطلقون ببناتكم وتذرون أمهاتكم ، فقال زيد لأخت حسان : اجلسى مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكن ، ونهي الجيش أن يهبطوا إلي واديهم الذي جاءوا منه فأمسوا في أهليهم فلما شربوا عتمتهم ركبوا حتى صبحوا رفاعة ، فقال له حسان بن ملة : إنك لجالس تحلب المعز ونساء جذام أساري قد غرها كتابك الذي جئت به ، فدعا رفاعة بجمل فشد عليه رحله وخرج ومعه جماعة فساروا ثلاث ليال، فلما دخلوا المدينة وانتهوا إلي المسجد دخلوا علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما رآهم ألاح لهم بيده، أن تعالوا من وراء الناس ، فاستفتح رفاعة المنطق ، فقام رجل فقال : يارسول الله إن هذا له قوم سحره فرددها مرتين ، أي : عندهم فصاحة لسان وبيان ، فقال رفاعة : رحم الله من لم يخبرنا في يومنا هذا إلا خيرا ثم دفع كتابه إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : دونك يارسول الله ،فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : ياغلام اقرأه علي وفيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلي رفاعة بن زيد إني بعثته إلي قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلي الله وإلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾،فمن أقبل ففي حزب الله وحزب رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ومن أدبر فله أمان شهرين .

فلما قرأه استخبرهم فأخبروه الخبر ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ كيف أصنع بالقتلي ثلاث مرات ؟ فقال رفاعة: أنت أعلم يارسول الله لا نحرم عليك حلالا ولا نحل لك حراما، فقال أبو زيد بن عمرو :أطلق لنا يارسول الله من كان حيا ، ومن قتل فهو تحت قدمي هذه ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : صدق أبو زيد اركب معهم ياعلي ، فقال : إن زيدا لن يطيعني ، فقال: خذ سيفي هذا فأعطاه سيفه ، فقال : ليس لي راحلة فحملوه علي بعير وخرجوا ، فإذا رسول لزيد علي ناقة من إبلهم فأنزلوه عنها فقال : ياعلي ما شأني؟ قال: ما لهم عرفوه فأخذوه ، ثم ساروا فوجدوا الجيش بفيفاء، فأخذوا ما في أيديهم وأخبروهم أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ إنما بعث عليا ﵁ إلي زيد بن حارثة ﵁ يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم ٠

سرية زيد بن حارثة إلي وادي القرى

وهو موضع قريب من المدينة علي طريق الحاج من جهة الشام ، وكانت في رجب سنة ست من الهجرة ، سار ﵁ إلي وادي القرى فلقي به بني فزارة وقاتلهم ٠ وقتل من المسلمين قتلي منهم ورد بن مرداس ﵁ وحمل منهم جريح به رمق ٠

سرية عبد الرحمن بن عوف ﵁ إلي دومة الجندل

وهو حصن وقري من طرف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة ، وكانت في شعبان سنه ست من الهجرة ٠ وقد ذكر ابن اسحق ﵁ في أول هذه القصة حديثا فقال : حدثنى من لا أتهم عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أنه قال: سرت لأسمع وصية رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لعبد الرحمن بن عوف ﵁ وكنت عاشر عشرة من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في مسجده : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان، وعلي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، ومعاذ ، وحذيفة ، وأبو سعيد ، فإذا فتي من الأنصار أقبل يسلم علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثم جلس فقال : يارسول الله أي

المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقا ، ثم قال: فأي المؤمنين أكيس ؟ قال: أكثرهم للموت ذكرا ، وأحسنهم له استعدادا قبل أن يترل بهم ، أولئك الأكياس ٠٠ ثم سكت الفتى وأقبل علينا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : يامعشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن :

إنه لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ٠

وما نقص المكيال والميزان في قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات وشدة المؤونة وجور السلطان لعلهم يذكرون ٠

وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا البهائم لم يسقوا ٠ وما نقض قوم عهد الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فاخذوا ما كان في أيديهم ٠

وما حكم قوم بغير كتاب الله وتجرءوا فيما أنزل الله إلا جعل الله تعالي بأسهم بينهم وفي رواية : ألبسهم الله شيعا وأذاق بعضهم بأس بعض ٠

ثم أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ عبد الرحمن بن عوف أن يتجهز لسرية بعثة عليها وقال له : إني باعثك في سرية من يومك هذا أو من الغد إن شاء الله تعالي ، ثم أمره أن يسري من الليل إلي دومة الجندل في سبعمائة ، وعسكروا خارج المدينة ، فلما كان وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال : أحببت يارسول الله أن يكون آخر عهدي بك وكان عليه عمامة من كرابيس ، أي : غليظة ، قد لفها علي رأسه فنقضها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيده، ثم عممه بعمامة سوداء وأرخي بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحوا من ذلك ثم قال : هكذا يابن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف ٠

ثم أمر ﴿ﷺ وآله﴾ بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، ثم قام ﴿ﷺ وآله﴾ : فحمد الله وأثنى عليه وصلى علي نفسه ﴿ﷺ وآله﴾ ثم قال: خذها ياابن عوف ، أو قال : اغزوا جميعها في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم ، فأخذ عبد الرحمن اللواء .

وفي رواية : بعثه إلي كلب بدومة الجندل ، وقال: إن استجابوا لك، أي : أطاعوك فأسلموا فتزوج ابنة ملكهم ، فسار عبد الرحمن بن عوف ﵁ بجيشه حتى قدم دومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلي الإسلام ، وقد كانوا أبو أول ما قدم عليهم أن يعطوا إلا السيف ، ثم أسلم في اليوم الثالث الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا وكان ملكهم رئيسهم ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ﵁ ، وأقام عبد الرحمن بقيتهم بالجزية ، وتزوج تماضر بنت الأصبغ وقدم بها المدينة ففازت بشرف الصحبة رضى الله عنها .

وفي رواية : أن عبد الرحمن بن عوف ﵁ كتب إلي النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يخبره بإسلام من أسلم من القوم وأنه أراد أن يتزوج فيهم ، فكتب إليه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يتزوج بنت الأصبغ فتزوجها .

ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عبد الرحمن لم بكتف بقوله أولا إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم لاحتمال أنه أراد إن أسلم الجميع مع أنه قد بقي منهم جماعة علي الجزية فكتب إليه احتياطا ، فولدت له ﵁ بعد ذلك سنة بضع وعشرين من الهجرة أبا سلمة وهو الحافظ الثقة كثير الحديث إمام العلماء ، وهو من كبار التابعين ﵁ واسمه عبد الله ، وقيل: إسماعيل توفي سنة أربع وتسعين من الهجرة .

سرية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلي بني سعد بن بكر بفدك

وهي قرية بينها وبين المدينة ستة أميال وفي لفظ ثلاث مراحل ، وهي خراب الآن . وفي الصحاح فدك قرية بخيبر ، وكانت في شعبان سنة ست من الهجرة.

وسببها:أنه

﴿ﷺ وآله﴾ بلغه أن لبني سعد جمعا يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، وأن يجعلوا لهم تمر خيبر ، أي: ما يوجد من غلتها ، فبعث ﴿ﷺ وآله﴾ عليا كرم الله وجهه في مائة رجل عليهم فسار الليل وكمن النهار إلي أن نزلوا محلا ببني خيبر وفدك فوجدوا به رجلا فقالوا : ما أنت ؟ قال: باغ، أي : طالب لشيء ضل منى ، فقالوا: هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد ؟قال: لا علم لي به ، فشددوا عليه فأقر أنه عين لهم بعثوه إلي خيبر يعرض علي يهودها نصرهم علي أن يجعلوا لهم من تمرها كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم ، فقالوا له : فأين القوم؟ قال: تركتهم قد تجمع منهم مائتا رجل ، قالوا: فسر بنا حتى تدلنا ،قال: علي أن تؤمنونى ، قالوا: إن دللتنا عليهم أو علي سرحهم أمناك وإلا فلا أمان لك ، قال : فذاك . فخرج بهم دليلا حتى ساء ظنهم به ، ثم أفضى بهم ،إلي أرض مستوية فإذا نعم كثيرة وشاء ، فقال: هذه نعمهم وشاؤهم ، فأغاروا عليها ، فقال : أرسلوني ، فقالوا : حتى نأمن الطلب وهرب الرعاء إلي جمعهم فحذروهم فتفرقوا ، فقال الدليل : علام تحبسوننى وقد تفرقت الأعراب ؟ قال علي : حتى نبلغ معسكرهم فانتهى بهم إليه فلم ير أحد فأرسلوه وساقوا النعم والشاء معهم ، وكانت خمسمائة بعير ، وألفي شاء ، وهربت بنو سعد بالظعن ، فعزل علي كرم الله وجهه صفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لقوحا ، أي : حلوبا، قريبة عهد بنتاج تدعي الحفدة لسرعة سيرها . . ومنه في الدعاء : (إليك نسعى ونحفد) ثم عزل الخمس

وقسم الباقى علي أصحابه ﵃ ، وقدم علي ومن معه ﵃ ولم يلقوا كيدا ، ورد الله كيد المشركين فلم يمدوا اليهود لعنهم الله .

سرية زيد بن حارثة ﵁ إلي أم قرفة

وقرفة اسم امرأة هي بنت ربيعة بن بدر الفزاري التى جري فيها المثل (أمنع من أم قرفة) لأنها كان يعلق في بيتها خمسون سيفا لخمسين رجلا كلهم لها محرم ، كنيت بابن لها يسمى قربة، وكان لها عشرة بنين وبنتان ، وكانت بناحية وادي القرى علي سبع ليال من المدينة جهة الشام ، وكانت هذه السرية في رمضان سنة ست من الهجرة .

وسببها: أن زيد بن حارثة ﵁ خرج في تجارة إلي الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم ، وقدم على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبره وفي رواية : أن زيدا ﵁ حلف أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بني فزارة فرجع وأخبر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فبعثه إليهم في جيش وقال لهم : اكمنوا النهار وسيروا بالليل ، فكمن هو وأصحابه بالنهار وساروا بالليل ومعهم دليل من فزارة فعلمت بهم بنو فزارة ، فجعلوا لهم ناظورا ، فحين يصبحون يصعد علي جبل مشرف فينظر وجه الطريق الذي يرون أنهم يؤتون منه فيبصرون مسافة يوم فأكثر فيقول : ناموا لا بأس عليكم فلما كان الصحابة ﵃ على نحو ليلة أخطا دليلهم الطريق فسار في آخر حتى أمسوا وهم علي خطأ ، فعاينوا الحاضرين من بني فزارة فحمدوا خطأهم ، ثم صبحهم زيد وأصحابه ﵃ وكبروا وأحاطوا بمن حضر من بني فزارة فقتلوهم ، وأخذوا أم قرفة وكانت ملكة رئيسة ، وكانت ذات شرف في قومها ، وأخذوا بنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر وعمه قيس بن المحسر .

وقدم زيد بن حارثة ﵁ من وجهه ذلك فقرع باب النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فقام ﴿ ﷺ وآله﴾ إليه وهو يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسأله فأخبره بما أظفره الله به .

وكان سلمة بن الأكوع ﵁ هو الذي أسر بنت أم قرفة فسألها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فوهبها له ، ثم وهبها ﴿ ﷺ وآله﴾ لخاله حزن بن أبي وهب فولدت له عبد الرحمن بن حزن .

سرية عبد الله بن عتيك ﵁ لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي

وفي البخاري: أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق كان بخيبر ، وكان تاجر أهل الحجاز . وعن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب بالمال الكثير علي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو الذي حزب الأحزاب يوم الخندق . بعث إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ عبد الله بن عتيك الخزرجي الأنصاري ﵁ في رمضان سنة ست من الهجرة وقيل : ذي الحجة سنة خمس من الهجرة بعد واقعة الأحزاب .

وفي البخاري : قال الزهرى : بعد قتل كعب بن الأشرف الواقع سنة ثلاث من الهجرة ، قال ابن اسحق : إن الزهري أخذ ذلك عن عبد الله بن كعب بن مالك فقال: لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد إذنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وتحريضه عليه استأذنيه الخزرج في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر . قال ابن إسحق: حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : كان مما صنع الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،تصاول الفحلين ، أي : يحمل كل منهما علي الآخر ، والمراد أن كلا من الأوس والخزرج يدفع عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ويتفاخر بذلك ، لا يصنع الأوس شيئا فيه غناء عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا قالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذا فضلا علينا عند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وفي الإسلام ، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس: مثل ذلك . ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذه فضلا علينا أبدا فتذاكر الخزرج من رجل لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يشبه كعب بن الأشرف في العداوة فذكروا أبا رافع سلام بن

أبي الحقيق ، أي : لأنه كان يؤذي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ،لأن الأوس والخزرج كانا يتنافسان فيما يقرب إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فاستأذنوه ﴿ﷺ وآله﴾ ، في قتله فأذن لهم ، فانتدب لقتله خمسة من الخزرج عبد الله بن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة واسمه الحرث بن ربعى ، والأسود بن خزاعى ، ومسعود بن سنان الأسلمي حليف بني سلمة – بطن من الخزرج – فخرجوا إليه واستأذنوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وأمرهم ألا يقتلوا وليدا ولا امرأة ، فذهبوا إلي خيبر وكمنوا فلما هدأت الرجل عن الحركة جاءوا إلي منزله وكان في حصن مرتفع فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أدخل الحصن فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه ليخفي شخصه كي لا يعرف كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس وكانوا فقدوا حمارا لهم فخرجوا بقبس يطلبونه ، فكان ذلك سبب تقنع به عبد الله بن عتيك بثوبه وجلوسه كأنه يقضى حاجته مخافة أن يعرف ، فناداه البواب : ياهذا إن كنت تريد الدخول فادخل فإني أريد أن أغلق الباب لأنه ظن أنه من أهل الحصن الذين خرجوا لطلب الحمار ، قال : ابن عتيك فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأقاليد أي : المفاتيح علي وتد في كوة فقمت إلي الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر الناس عنده .

وفي رواية : فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل وكان في غرفة عالية له إليها عجلة من خشب ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلق علي من داخل وقلت : إن القوم إن نذروا به لم يخلصوا إلي حتى أقتله ، فانتهيت إليه فإذا هو وسط عياله في بيت مظلم قد طفئ سرجه لا أدري أين هو ، وكان عبد الله بن عتيك يتكلم اليهودية فقدمه أصحابه ليتكلم بكلام أبي رافع فيظنه

أنه من قومه فلا يفزع منه فاستفتح باب غرفته فرأته امرأته فقال لها : جئت أبا رافع بهدية ، ففتحت له وقالت : ذاك صاحبك فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها بالسيف فسكتت ، قال : فقلت أبا رافع لأعرف موضعه ، فقال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة وأنا دهش فما أغنت شيئا ولم أقتله ، وصاح أبو رافع فخرجت من البيت وكمنت غير بعيد فقالت امرأته : ياأبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك ؟ قال : ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك ، قال : فدخلت عليه كأني أغيثه ، وغيرت صوتي فقلت : ما هذا الصوت ياأبا رافع ؟ قال : لا أم لك إن رجلا في البيت ضربني قبل بالسيف، فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله فصاح ، وقام أهله وصاحت امرأته، ثم وضعت ظبة السيف ، أي : حدة ، في بطنه حتى دخل في ظهره وسمعت صوت العظم فعرفت إني قد قتلته ، فجعلت افتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلي درجة فوضعت رجلى وأنا أري إني قد انتهيت إلي الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة ثم خرجت وكمنت في موضع . وأوقد اليهود النيران وذهبوا في كل وجه يطلبون حتى إذا أيسوا رجعوا إليه وجلست كامنا ، وقلت لا أخرج الليلة حتي أعلم أقتلته ؟

فلما صاح الديك ، صعد الناعي علي السور فقال : أنعي أبا رافع تاجر الحجاز فانطلقت إلي أصحابي فقلت : النجاة النجاة ، أي : أسرعوا ،فقد قتل الله أبا رافع . وفي رواية : فعصبت رجلي وأتيت أصحابي أحجل فقلت : انطلقوا فبشروا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فإني لا أبرح حتي أسمع الناعي ، فلما كان وجه الصبح صعد الناعي فقال : أنعي أبا رافع ، فقمت أمشى فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فبشرته ﴿ﷺ وآله﴾ ، وفي رواية فانتهيت إلي النبي﴿ﷺ وآله﴾ فحدثته فقال : ابسط رجلك فبسطها فمسحها بيده المباركة ﴿ﷺ وآله﴾ فكأني لم أشتكها قط .

وجاء في رواية الأسود بن خزا عي أحد الأربعة الذين كانوا مع عبد الله بن عتيك أنه تخلف ليتحقق موت أبي رافع ، قال : فذهبت أنظر حتى دخلت في الناس فوجدت امرأته ورجالا من يهود حوله وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسي قلت : أني لابن عتيك بهذه البلاد ، ثم نظرت في وجهه فقالت : فاظ ، أي : مات ، وإله يهود فما سمعت من كلمة كانت ألذ في نفسي منها ، ثم أدرك أصحابه فأخبرهم الخبر . وجاءني في بعض الروايات أن عبد الله بن عتيك لما تمادي عليه المشى أحس بألم رجله وهو سائر مع أصحابه في الطريق فحملوه ، ثم لما أتاه ﴿ﷺ وآله﴾ مسح عليه فزال عنه جميع الألم ببركته ﴿ﷺ وآله﴾ .

وفي رواية عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال : توجهنا من خيبر فكنا نكمن بالنهار ونسير بالليل ، وإذا كمنا أقعدنا منا واحدا يحرسنا ، فإذا رأي ما يخافه أشار إلينا فلما قربنا من المدينة كانت نوبتي فأشرت إليهم فخرجوا سراعا ثم لحقتهم فدخلنا المدينة قالوا ماذا رأيت ؟ قلت : ما رأيت شيئا ولكن خشيت أن تكونوا عييتم فأردت أن يحملكم الفزع .

وعن عبد الله بن عتيك رضي الله عنه قال كقدمنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في مقتل ابن أبي الحقيق وهو علي المنبر فلما رآنا قال : أفلحت الوجوه .

فوائد هذه القصة

١. جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة، واسر وقتل من أعان عليه ﴿ﷺ وآله﴾ بيده أو ماله أو لسانه.

٢. جواز التجسس علي أهل الحرب وتطلب غرهم أي :غفلتهم ، والأخذ بالشدة في محاربتهم

٣. إبهام القول للمصلحة

٤. تعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ٠

الحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك علي أبي رافع بصوته ، واعتماده علي صوت الناعي بموته ٠

ووقع في بعض الروايات : إن الذي قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس ، والصواب ما في صحيح البخاري : إن الذي قتله ابن عتيك ، وفي قتل أبي رافع وكعب ابن الأشرف يقول حسان بن ثابت ﵁ :

لله در عصابة لاقيتهم يا ابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم مرحا كأسد في عرين معرف
حتى أتوكم في محل بلادكم فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم مستصغرين لكل أمر مجحف

سرية عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ﵁

كانت إلي أسير بن رزام اليهودي بخيبر، كانت في شوال سنة ست من الهجرة ٠ وسببها : أنه لما قتل أبو رافع بن أبي الحقيق ٠٠ أمرت يهود عليها أسيرا فقال : والله ما سار محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ إلي أحد من يهود ، ولا بعث أحدا من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد ولكني أصنع ما لا يصنع أحد من أصحابي ، فقالوا : وما عسيت أن يصنع ؟ قال: أسير في غطفان فأجمعهم ونسير إلي محمد – ﴿ ﷺ وآله﴾ – في عقر داره فإنه لم يغز أحد في عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد قالوا : نعم ما رأيت ٠

فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحربه - ﴿ﷺ وآله﴾ - وبلغه ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك وكان قبل فتح خيبر فوجه إليه ﴿ﷺ وآله﴾ عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر سرا في رمضان يسأل عن خبر أسير وغرته ، ليستكشف له الخبر .

فأتي ناحية خيبر فدخل الحوائط وفرق الثلاثة في ثلاثة من حصونها فوعوا ما سمعوا من أسير وغيره . ثم خرج بعد ثلاثة أيام فقدم علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لليال بقين من رمضان فأخبره بكل ما رآه وسمعه .

وقدم عليه أيضا ﴿ﷺ وآله﴾ خارجة بن حسيل فاستخبره ﴿ﷺ وآله﴾ ما وراءه فقال : تركت أسير ابن رزام يسير إليك في كتائب يهود .

فانتدب له ثلاثون رجلا فبعث عليهم عبد الله بن رواحة فقدموا عليه فقالوا : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، قال : نعم ، ولي منكم مثل ذلك فقالوا : نعم ، فقالوا : إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك علي خيبر ويحسن إليك فطمع في ذلك ، فشاور يهود فخالفوه في الخروج ، وقالوا : ما كان محمد ﴿ﷺ وآله﴾ يستعمل رجلا من بني إسرائيل ، قال : بلي ، قد مللنا الحرب وخرج. وفي رواية لابن اسحق: لما قدموا عليه كلموه وقربوا له وقالوا له : إنك إن قدمت علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استعملك وأكرمك ، فلم يزالوا به حتي خرج معهم وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين .

وفي رواية : فحملة أي : أسير ، عبد الله بن رواحة حتى إذا كانوا بقرقرة موضع علي ستة أميال من خيبر – ندم أسير علي مسيره إلي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأراد الفتك بعبد الله بن رواحة ﵁ ففطن له وهو يريد السيف فاقتحم به عبد الله ثم ضربه بالسيف فقطع رجله ، فضربه أسير بمخرش في يده فشجه .

وفي رواية : عن عبد الله بن رواحة ﵁ ، وأهوي أسير بيده إلي سيفي ففطنت له فدفعت بعيري وقلت غدرا ، أي : عدو الله ، مرتين ٠ فنزلت فسقطت بالقوم حتى انفرد لي أسير فضربته بالسيف فأطحت عامة فخده وساقه فسقط عن بعيره ، ومال أصحاب النبي ﴿ﷺ وآله﴾ علي أصحابه فقتلوهم لظهور إرادة الغدر لهم منهم غير رجل واحد أعجز ناشدا جريا أفلت علي رجليه ، ولم يصب من المسلمين أحد ولله الحمد ، فما قتلوا اليهود بعد التأمين إلا لكونهم غدروا ، ثم قدموا علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكان

﴿ﷺ وآله﴾ يحدث أصحابه فقال : تمشوا بنا إلي الثنية لنبحث عن أصحابنا ، فخرجوا معه فلما أشرفوا عليها إذا هم بسرعان أصحابنا فجلس ﴿ﷺ وآله﴾ في أصحابة فانتهينا فحدثناه الحديث فقال : قد نجاكم الله من القوم الظالمين ٠

وتفل ﴿ﷺ وآله﴾ علي شجه عبد الله بن رواحة ، ومسح ﴿ﷺ وآله﴾ وجهه ودعا له وقطع له قطعة من عصاه فقال : امسك هذه معك علامة بيني وبينك يوم القيامة أعرفك بها ، فإنك تأتي يوم القيامة متخصرا ٠ فلما دفن عبد الله جعلت معه علي جلده دون ثيابه ٠

والشارع إذا خص بعض صحبه بشئ لا يسأل لم يفعله مع بقية الصحابة ﵃ ، وإن كان ربما تتشوف النفس للسؤال عن حكمة ذلك ٠

سرية كرز بن جابر الفهرى وقصة عكل وعرينة

وسماها بعضهم سرية سعيد بن زيد ﵁ إلي العرنين ، وكرز بن جابر الفهرى كان أحد رؤساء قريش ، استشهد عام الفتح ، وعكل حي من قضاعة ، وعرينة حي من بجيله ، وكانت هذه السرية في جمادى الأولي سنة ست من الهجرة وقيل : في شوال سنة ست ٠

وسببها : أن ناسا من عكل وعرينة سبعة أو ثمانية قدموا علي سول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فبايعوه علي الإسلام ، وتلفظوا بكلمة التوحيد ، وأظهروا الإسلام ٠ وكانوا حين قدموا المدينة سقاما مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم قد كادوا يهلكون فقالوا : يارسول الله إنا كنا أهل ضرع ، أي : ماشية وإبل ، ولم نكن ، أهل ريف وكرهنا الإقامة بالمدينة ، وذكروا له ﴿ ﷺ وآله﴾ أن المدينة وبيئة وخمة ، فلو أذنت لنا فخرجنا إلي الإبل فأمر لهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بزود من الإبل وهي من الثلاثة إلي العشرة ، وقيل: كانت خمسة عشر ومعها راع وأمرهم باللحوق بها ليشربوا من ألبانها ، أي : لان في لبن اللقاح جلاء وتلينا ، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة وصحت أجسامهم ، كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ – وكان عبدا له يسمي يسار قتلوه ومثلوا به فقطعوا يده ورجله وجعلوا الشوك في عيينه – واستاقوا الذود ، فجاء الصريخ بما وقع منهم فبعث ﴿ ﷺ وآله﴾ في آثارهم خيلا من المسلمين قريبا من العشرين ، وأمر عليهم كرز بن جابر الفهرى رضي الله عنه ، وأرسل معهم من يقص آثارهم ، فأدركوهم فأحاطوا بهم ، فأسروهم وجاءوا بهم فأمر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وإنما سمر أعينهم لأنهم فعلوا مثل ذلك بالراعي رضي الله عنه فكان ذلك قصاصا ، أي : كالقصاص ٠ قال أنس رضي الله عنه : فلقد رأيتهم يكدم ، أي : يعض ، بعضهم الأرض بفيه حتى ماتوا ٠ وفي رواية : كانوا يستسقون ، أي : يطلبون الماء ، فلا يسقون لأنهم اعتدوا فلا حرمة لهم وأنزل الله تعالي في هؤلاء : ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ ﴾ (المائدة : ٣٣) وهؤلاء كفروا وقتلوا وحاربوا وقطعوا الطريق وسرقوا ٠

وجوه من العبرة

وفي القصة من الفوائد :

١. قدوم الوفود علي الإمام ونظره في مصالحهم ٠

٢. مشروعية الطب والتداوي بألبان الإبل ، وأن كل جسد يداوي بما اعتاد ٠

٣. قتل الجماعة بالواحد سواء قتلوه غيلة أو حرابة إن قلنا إن قتلهم كان قصاصا والمماثلة في القصاص وأنه ليس من المثلة المنهي عنها ٠

٤. ثبوت حكم المحاربة في الصحراء وأما في القرى ففيه خلاف ٠

٥. جواز استعمال أبناء السبيل إبل الصدقة في المشرب وغيره قياسا عليه بإذن الإمام ٠

سرية عمرو بن أمية الصخري وسلمة بن أسلم
رضي الله عنهما إلي أبي سفيان

بعثهما رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلي أبي سفيان بن حرب بمكة ليغتالاه ٠

وسببها : أن أبا سفيان أرسل للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ليقتله ٠ قال لنفر من قريش : ألا أحد يغتال لنا محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه يمشي في الأسواق وحده ، فأتاه رجل من الأعراب في منزله وقال له : – يعني نفسه – قد وجدت أجمع الرجال قلبا ، وأرشدهم بطشا ، وأسرعهم شدا ، أي : حربا ، فإن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ومعي خنجر مثل خافية النسر ، فأسوره ثم أخذه في عير فأسير وأسبق القوم عدوا ، فإني عارف بالطريق ، فقال له : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيرا ونفقة وقال : أطو أمرك ٠
فخرج ليلا فسار علي راحلته خمسا وصبح ظهر الحرة صبح سادسة إلي أن قدم المدينة

، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فدل عليه ، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ في مسجد عبد الأشهل ، فعقل راحلته ، وأقبل يسأل عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه خنجر ليغتاله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فلما رآه النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال : إن هذا ليريد غدرا وإن الله حائل بينه وبين ما يريد . فذهب لينحني علي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فجذبة أسيد ين حضير ﵁ بداخلة إزاره ، أي : بحاشيته من داخل ، فإذا بالخنجر فأسقط في يده ، أي : ندم ، وقال : دمي دمى ، أي : اتركوا دمي وخلوا دمي ، فأخذ أسيد ﵁ بلببه ، أي : منحره ، وخنقه أشد الخنق، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : اصدقني ما أنت ؟ قال : وأنا آمن ، قال : نعم ، فأخبره فخلي عنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فأسلم ﵁ وقال : يامحمد والله ما كنت أفرق ، أي : أخاف الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم إنك أطلعت علي ما هممت به مما لم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع وأنك علي حق وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان فجعل ﴿ﷺ وآله﴾ يتبسم .

فأقام الرجل أياما ثم استأذن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في الخروج فأذن له فخرج ولم يسمع له بذكر ، ولم يعرف أحد من الحفاظ اسم ذلك الرجل .

وعند ذلك بعث ﴿ﷺ وآله﴾ عمرو بن أمية الضمرى ﵁ ومن تقدم معه إلي أبي سفيان وقال : إن أصبتما منه غرة فاقتلاه .. فدخلا مكة .. ومضى عمرو بن أمية الضمرى يطوف بالبيت ليلا ، فرآه معاوية بن أبي سفيان . وفي رواية : قدما مكة ، وجلسا بشعب ثم دخلا مكة ليلا فقال جبار لعمرو : لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ثم طلبنا أبو سفيان . فقال عمرو : إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفنيتهم وإنهم إن رأوني عرفوني فإني أعرف بمكة من الفرس الأبلق . فقال : كلا إن شاء الله ، قال عمرو : فطفنا بالبيت وصلينا ثم خرجنا نريد أبا سفيان ، فو الله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إلي رجل من أهلها فعرفني فقال : عمرو بن أمية، فو الله إن قدمها إلا الشر ، فقيل :

إن هذا الرجل الذي أبهمه هو معاوية بن أبي سفيان ، وقيل : غيره ، فأخبر أبو سفيان وقريشا بوجود عمرو بمكة ، فخافوه وطلبوه ، وكان فاتكا جريئا في الجاهلية ، والفتك : القتل علي غرة ، أي : غفلة ، فحشد ، أي : جمع له أهل مكة وصاروا يطلبونه فهرب عمرو وسلمة وجبار بن صخر ، فلقي عمرو رجلا من رءوس المشركين وهو عبد الله بن مالك التميمى فقتله ، وقتل آخر من بني الديل سمعه يتغنى ويقول : ولست بمسلم ما دمت حيا ۰۰ ولست أدين دين المسلمينا ۰

ولقي رسولين لقريش بعثتهما قريش إلي المدينة يتجسسان الأخبار فقتل أحدهما وأسر الآخر فقدم به المدينة فجعل عمرو يخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خبره ويضحك ﴿ﷺ وآله﴾ ثم دعا له بخير ۰

وفي سيرة ابن هشام بعد قوله السابق إن قدمنا إلا الشر ۰۰ فقلت لصاحبى : النجاء فخرجنا نشتد حتي أصعدنا في جبل وخرجوا في طلبنا ، حتي إذا علونا الجبل يئسوا منا فرجعنا – فدخلنا كهفنا في الجبل فبتنا فيه وقد أخذنا حجارة فرضمناها دوننا فلما أصبحنا غدا رجل من قريش ، يعنى عبد الله بن مالك التميمى ، يقود فرسا له ويختلي عليها فغشينا ونحن في الغار فقلت : إن رآنا صاح بنا فأخذنا وقتلنا ، قال : ومعي خنجر قد أعددته لأبي سفيان ، فخرجت إليه فضربته علي ثديه ضربة فصاح صيحة أسمع أهل مكة ، ورجعت فدخلت مكاني ، وجاء الناس يشتدون وهو بآخر رمق ، فقالوا : من ضربك ؟ قال : عمرو بن أمية ، وغلبه الموت فمات مكانه ولم يدلل علي مكاننا فاحتملوه ، فقلت لصاحبي لما أمسينا : النجاء ۰۰ فخرجنا ليلا من مكة نريد المدينة فمررنا بالحرس وهم يحرسون جثة خبيب بن عدي ، فقال أحدهم : والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية لولا أنه بالمدينة لقلت إنه عمرو بن أمية ۰۰ فلما حاذي الخشبة التي عليها خبيب رضي الله عنه شد عليها فاحتملها ، وخرج يشند فخرجوا وراءه حتي أتي جرفا ، أي : مهبط مسيل ، فرمي الجثة في الجرف فغيبه الله عنهم ولم

يقدروا عليه ، فقلت : لصاحبي : النجاء : ومضيت ثم أويت إلي جبل ودخلت كهفا فبينما أنا فيه إذا دخل علي شيخ من بني الديل أعور في غنيمة فقال : من الرجل ؟ فقلت : من بني بكر ، فقال : مرحبا ، فاضطجع ثم رفع عقيرته ، فقال : ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا ، فقلت في نفسي : ستعلم ، ثم أمهلته حتى إذا نام أخذت قوسي فجعلت سيتها في عينه الصحيحة – والسيه ما عطف من طرفها – ثم تحاملت عليه حتى بلغت العظم ، ثم خرجت ثم جئت العرج ثم سلكت حتى إذا أهبطت النقيع ، إذا رجلان من قريش ، كانت قريش بعثتهما علينا إلي المدينة فقلت : استأسرا فأبيا ، فرميت أحدهما بسهم ، واستأسر الآخر فأوثقته رباطا وقدمت به إلي المدينة .

قصة الحديبية ويقال غزوة الحديبية

وهي بئر سمى المكان باسمها . وقيل شجرة . وقيل : قرية أكثرها في الحرم ، علي تسعة أميال من مكة .

وسببها : أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، أي : بعضهم محلق وبعضهم مقصر . وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وعرق مع المعرقين ، وطاف هو وأصحابه واعتمر ، وأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، ثم أخبر أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة ، فتجهزوا للسفر فخرج ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الاثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد العمرة ، ولا يريد قتالا واستنفر العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش ، أي: يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق من العرب ، وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس ، أي : أهل مكة ومن حولهم من حربة ، وليعلموا أنه ﴿ﷺ وآله﴾ إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له ، وكان إحرامه ﴿ﷺ وآله﴾ من

ذي الحليفة بعد أن صلي بالمسجد الذي بها ركعتين وركب من باب المسجد ، وانبعثت به راحلته مستقبلا القبلة ، وأحرم وأحرم معه غالب أصحابه ومنهم من لم يحرم إلا بالجحفة ٠ ولفظ تلبيته ﴿ﷺ وآله﴾ : "لبيك اللهم لبيك ٠٠ لبيك لا شريك لك لبيك ٠٠ إن الحمد والنعمة لك والملك ٠٠ لا شريك لك " واستعمل ﴿ﷺ وآله﴾ علي المدينة الشريفة نميلة بن عبد الله الليثى ، وقيل : ابن أم مكتوم ، وقيل : أبو رهم كلثوم بن الحصين ، أي وقيل : استخلف أبا رهم مع ابن أم مكتوم جميعا ، فكان ابن ام مكتوم علي الصلاة ، وكان أبو رهم حافظا للمدينة ، وكان خروجه ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن استنفر العرب ومن حوله من البوادي ٠٠ فتثاقل كثير منهم وقالوا : أنذهب إلي قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ، واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ٠ وأنهم ليس لهم من يقوم بذلك ٠ فأنزل الله تعالي تكذيبهم في اعتذارهم بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (الفتح : ١١) وخرج معه أم سلمة رضى الله عنها ، وأم عمارة ، وأم منبع ، وأم عامر الأشهلية رضى الله عنهن ، ومعه المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وأبطأ عليه كثير منهم كما تقدم ، وساق معه الهدي سبعين بدنه ، أي : وقد جللها في ذي الحليفة بعد أن صلي بها الظهر،ثم أشعر منها عدة وهي موجهات للقبلة في الشق الأيمن من سنامها ، ثم أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ ناحية بن جندب وكان اسمه ذكوان فغير رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ اسمه وسماه ناحية ، لما أنه نجا من قريش ، فأشعر ما بقي وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم وقلدوها ، والإشعار جرح بصفحة سنامها ٠ والتقليد أن تقلد في عنقها قطعة جلد أو نعلا بالية ليعلم أنه هدي فيكف الناس عنه ٠ وكان جملة أصحابه الذين خرجوا معه ﴿ﷺ وآله﴾ ألفا وأربعمائة ، وقيل : ألفا وخمسمائة ، وقيل : ألفا وثلاثمائة ٠

الجمع بين الروايات المختلفة

والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة ، فمن قال ألف وخمسمائة جبر الكسر ومن قال : وأربعمائة ألفاه ، وأما القول :بأن العدد ألف وثلاثمائة فرواية عبد الله بن أبي أوفي ﷺ فيمكن حملها علي ما اطلع عيله هو ، واطلع غيره علي زيادة مائتين ، وزيادة الثقة مضمونة أو أن الألف والثلاثمائة هم الذين خرجوا من المدينة ابتداء ثم تلاحقوا أو أن الزيادة من النساء والخدم والصبيان والأتباع الذين لم يبلغوا الحلم .

ولم يخرج ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه سلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب، وقال له عمر ابن الخطاب ﷺ : أتخشى يارسول الله من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب عدتها ؟ فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا .

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

كان معهم مائتا فرس . فأقبلوا نحوه ﴿ﷺ وآله﴾ في بعض المحال ، وكان بين يديه ركوة يتوضأ منها ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : يارسول الله ليس عندنا ماء نشربه ولا ماء نتوضأ منه إلا ما في ركوتك ، فوضع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يده في الركوة فجعل الماء يفور بين أصابعه الشريفة أمثال العيون ، وفي لفظ : فجعل الماء ينبع من بين أصابعه الشريفة ، وفي لفظ آخر : فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه ، وفي لفظ آخر : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، واستدل به بعضهم علي أن الماء خرج من نفس بشرته الشريفة

﴿ﷺ وآله﴾ ، قال أبو نعيم : وهو أعجب من نبع الماء لموسي عليه السلام من الحجر فإن نبعه من الحجر متعارف معهودة ، وأما من بين اللحم والدم فلم يعهد . قال بعضهم : وإنما لم يخرجه ﴿ﷺ وآله﴾ بغير ملامسة ماء تأدبا مع الله تعالي لأنه سبحانه وتعالي

المنفرد بابتداع المعدومات من غير أصل ، قال جابر رضي الله عنه : فشربنا وتوضأنا ولو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا خمسة عشر مائة .

فلما كانـــوا بعسفان جاء إليه ﴿ﷺ وآله﴾ بشر بن سفيان العتكي، أي : وقد كان ﴿ﷺ وآله﴾ أرسله إلي مكة عينا له ، فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم وهم النساء والصبيان ، وفي لفظ : فخرجوا ومعهم العوز المطافيل أي : النياق ذوات اللبن التي معها أولادها ليتزودوا بذلك ولا يرجعون خوف الجوع ، أو العوز المطافيل النساء معهن أطفالهن ، أي : أنهم خرجوا بنسائهم معهن أولادهن ، ليكون أدعي لعدم الفرار ، أي : ويجوز أن يكون خرجوا بذلك جميعه ، قد لبسوا جلود النمر ، أي : أظهروا العداوة والحقد ، وقد نزلوا بذي طوي يعاهدون الله ألا يدخلها عليهم عنوة أبدا ، والمراد أنهم خرجوا بما ذكر لإرادة طول المقام وعدم الفرار .

المشورة عمل نبوي

ولما سمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن قريشا تريد منعه عن البيت قال : أشيروا على أيها الناس ، أترون أنى أميل إلي عيال هؤلاء الكفار الذين يريدون أن يصدونا عن البيت وذراريهم فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع علينا من المشركين وإلا تركناهم محزوبين ، وإن يجيئوا تكن عنقا قطعها الله تعالي ، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : الله ورسوله أعلم ، يارسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد فتوجه للبيت فمن صدنا عنه قاتلناه . ورووي أن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : نحو مقالته يوم بدر بعد كلام أبي بكر رضى الله عنهما ، قال : والله يارسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، لكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله يارسول الله لو سرت بنا إلي برك الغماد لسرنا معك ما بقي منا رجل ، فقال ﴿

ﷺ وآله﴾ : امضوا علي اسم الله وكان أبو هريرة ﷺ يقول : ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاروة لأصحابه من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ امتثالا لقوله تعالي : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ثم قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياويح قريش نهكتهم الحرب ، أي : أضعفتهم ، وفي لفظ : أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، أي : كاملين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ؟ فو الله ما أزال أجاهد علي الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفر هذه السالفة ، أي : صفحة العنق فهو كناية عن القتل

فصاروا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن خالد بن الوليد بالغميم موضع قريب من مكة في خيل لقريش فيها مائتا فارس منهم عكرمة بن أبي جهل طليعة وهي مقدمة الجيش فخذوا ذات اليمين ٠

وفي رواية : قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل ممن أسلم وهو حمزة بن عمرو الأسلمي : أنا يارسول الله فسلك بهم طريقا وعرا ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلي أرض سهلة ، قال لهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : قولوا نستغفر الله ونتوب إليه ٠٠ فقالوا ذلك ، فقال : والله إنها للحطة التي عرضت علي بنو إسرائيل فلم يقولوها ٠ وفي رواية : فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمضي – اسم موضع يخرج علي مهبط الحديبية أسفل مكة – فسلك الجيش ذلك الطريق ٠٠٠ فلما رأت خيل قريش قد خالفوا عن طريقهم ركبوا راجعين إلي قريش ٠

وفي رواية : فو الله ما شعر بهم خالد بن الوليد حتى إذا هم بقترة الجيش ، أي : غباره ، فانطلق يركض نذيرا لقريش ٠

صلاة الخوف بعسفان

وفي رواية : أن خالدا دنا في خيله حتي نظر المصطفي ﴿ﷺ وآله﴾ والصحابة ، وصف خيله بينهم وبين القبلة٠٠ فأمر ﴿ﷺ وآله﴾ عباد بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه فصف أصحابه ٠٠ وحانت صلاة الظهر فصلاها بهم ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال خالد : قد كانوا علي غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن ستأتي الساعة صلاة أخري هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم ،فترل جبريل ﷺ بين الظهر والعصر بقوله تعالي :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ (النساء : ١٠٢)

فحانت صلاة العصر والعدو جهة القبلة ٠٠ فصلي بهم صلاة الخوف فرتب القوم صفين وصلي بهم ٠٠ فلما سجد سجد معه صف ٠٠ وحرس صف ٠٠ فلما قام هو ومن سجد سجد معه من حرس ولحقوه ٠٠ وسجد معه في الثانية من حرس أولا ٠٠٠ وحرس الآخرون ٠٠ فلما جلس سجد من حرس ٠٠ وتشهد بمن وراءه ٠٠ وسلم ٠ وهذه الكيفية تعرف بصلاة عسفان ٠

ثم سار النبي ﴿ﷺ وآله﴾ حتى إذا كان بالثنية التي تشرف علي الحديبية وتهبط علي قريش وتسمي ثنية المرار، بركت ناقته ﴿ﷺ وآله﴾ فقال الناس : حل حل ٠٠ وهي كلمة تقال للناقة إذا تركت السير فتمادت علي عدم القيام ، فقالوا : أخلات القصواء خلات القصواء ،أي: حرنت وبركت من غير علة ٠٠ والخلاء للإبل كالحران للخيل ، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾ : ما خلات القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس ،أي : حبسها الله عن دخول مكة ٠٠ لأن الصحابة لو دخلوا مكة علي تلك الصورة وصدهم قريش ٠٠ لوقع القتال المفضي إلي سفك الدماء ونهب الأموال ٠٠ لكن سبق في علم الله أنهم لا يدخلون الآن لأنه سيدخل في الإسلام خلق منهم ، وستخرج من أصلابهم أناس يسلمون ويجاهدون٠

وكان بمكة جمع كثير مؤمنون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان فلو طرق الصحابة مكة لما أمن أن يصاب منهم ناس بغير عمد ، كما أشار إليه بقوله تعالي : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الفتح : ٢٥) وجواب لو محذوف ، أي : لأذن لكم في الدخول والقتال وإنما منعكم من الدخول والقتال﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء﴾ أي : من الكفار الذين سبقت لهم السعادة ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أي : لو تميز الكفار من المؤمنين المستضعفين ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ثم قال ﴿ ﷺ وآله﴾ عقب قوله حبسها حابس : والذي نفسى بيده لا يسألوني خطة فيها تعظيم حرمات الله ، أي : ترك القتال في الحرم والجنوح إلي السلم والكف عن إراقة الدماء .. وفي رواية : لا تدعوني قريش إلي خطة يسألوني فيها صلة الرحم وهي من حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، أي : أجبتهم إليها ، وإن كان فيها تحمل المشقة ،ثم زج الناقة فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية، ثم قال للناس : انزلوا .. فقالوا : يارسول الله ما بالوادي ماء نترل عليه .. وكان فيه حفرة فيها ماء قليل يأخذونه قليلا قليلا .. فأخذوه حتى نزحوه .

وشكوا إليه ﴿ﷺ وآله﴾ العطش فانتزع ﴿ﷺ وآله﴾ سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فنزل ناجية بن الأعجم ، وقيل : ناحية بن جندب ، وقيل : عبادة بن خالد أو خالد بن عبادة ، وقيل : البراء بن عازب ﵁ فوضعه في البئر ،ويمكن أن الجميع تعاونوا في ذلك ، قال : فو الله ما زال بجبيش ، أي : يفور الماء ، حتى صدوا عنه ، أي : رجعوا وراء بعد وردوهم .

وفي رواية : فما زال الماء بجبيش اغترفوا بآنيتهم جلوسا علي شفير البئر .

وفي البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه ﴿ﷺ وآله﴾ جلس عي البئر ، ثم دعا بإناء فمضمض ، ودعا ثم صبه فيها ثم قال : دعوها ساعة فأرووا أنفسهم وركابهم حتي ارتحلوا . وعند غير البخاري توضأ في الدلو ثم أفرغه فيها ، وانتزع السهم فوضعه فيها ويمكن الجمع بأنه فعل ذلك كله .

وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم قال : عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ركوة يتوضأ منها ، فأقبل الناس نحوه فقال : ما لكم ؟ قالوا يارسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . وجمع ابن حبان بينهما بأن ذلك وقع مرتين ، وكانت قصة الركوة قبل قصة البئر .

وقد أخرج الإمام أحمد عن جابر﵁ القصة وفيها : فجاء رجل بإداوة فيها شيء من ماء ، ليس فى القوم ماء غيره ، فصبه ﴿ﷺ وآله﴾ فى قدح ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم انصرف وترك القدح ، وتزاحم الناس عليها فقال : على رسلكم فوضع كفه فى القدح ثم قال : أسبغوا الوضوء قال : فلقد رأيت العيون ــــ عيون الماء ــــ تخرج من بين أصابعه ، واختلاف حديث جابر﵁ لعله من تصرف الرواة ﵁ .

ووقع فى بعض الروايات أنهم توضأوا وشربوا وسقوا دوابهم وملأوا قربهم ، فقيل :

كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا ألفا وأربعمائة .
وفى حديث زيد بن خالد ﷺ أنهم أصابهم مطر بالحديبية ، فكان ذلك وقع بعد القصتين المذكورتين .

معجزات نبوية وبركة محمدية والإفادة من غير المسلمين

بينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقة بن عمرو بن ربيعة الخزاعى فى نفر من قومه خزاعة وكان ذلك قبل إسلامه فإنه أسلم عام الفتح ﷺ كانت خزاعة عيبة نصح للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وكانت بنو هاشم تحالفت فى الجاهلية مع خزاعة فاستمر ذلك فى الإسلام فقال بديل للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : غورت ، أى : أبعدت عن المدينة ، ولا سلاح معك ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : لم نجيء لقتال .. فتكلم أبو بكر ﷺ فقال له بديل : أنا لا آتيهم

ولا قومى ، ثم قال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى أعداد مياه الحديبية ومعهم العوز المطافيل وهى النياق ذات اللبن ، و المطافيل الأمهات التى معها أطفالها كما ذكرنا .
وخص كعب بن لؤى وعامر بن لؤى لرجوع أنساب قريش الذين بمكة أجمع إليهما .
وقوله : أعداد مياه الحديبية ، قال الحافظ بن حجر : يشعر بأنه كان مياه كثيرة وأن

قريشا سبقوا إلى النزول عليها ، فلهذا عطش المسلمون ، وقد جاء التصريح بذلك عن عروة بن الزبير رضي الله عنه ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مجيبا لبديل : إنا لم نجيء لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين . وإن قريشا قد نهكتهم الحرب ، أى : أضعفت قوتهم و أهزلتهم وأضعفت أموالهم وأضرت بهم . فان شاءوا ماددتهم ، أى : جعلت بينى وبينهم مدة ، نترك الحرب فيها ويخلوا بينى وبين الناس من كفار العرب وغيرهم ، فإن أظهر ، أى : بإظهار الله تعالى ، دينى بحيث يدخله الناس ويتبعونى فيما جئت به . فإن شاءوا الدخول فيما دخل فيه الناس فعلوا . . وإلا ، أى : وإن لم أظهر ، فقد جموا ، أى : استراحوا من القتال .

وفى رواية فإن ظهر الناس على فذلك الذى يبغون .

وفى رواية : وإن لم يقتلوا قاتلوا وبهم قوة . . وإنما رد الأمر﴿ ﷺ وآله﴾ مع أنه حازم بأن الله تعالى سينصره ويظهره لوعد الله تعالى له بذلك على طريق التنزل مع الخصم . وفرض الأمر على ما زعمه ، ثم قال : وإن هم أبوا فو الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، وهى صفحة العنق ، وكنى بذلك عن القتل ، أى : حتى الموت ، وأبقى وحيدا فى قبرى . وقيل : المراد أنه يقاتل حتى ينفرد وحده فى مقاتلتهم ، والمعنى أن لى من القوة بالله والحول به سبحانه ما يقتضى مقاتلتهم عن دينه لو انفردت ، فكيف لا أقاتلهم عن دينه مع كثرة المؤمنين ونفاذ بصائرهم فى نصر دين الله ولينفذن الله أمره ؟ .

وفى هذا تصريح بما كان عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ من القوة والثبات فى تنفيذ حكم الله ، وتبليغ أمره سبحانه ، والندب إلى صلة الرحم والإبقاء على من كان من أهلها ، وبذل النصيحة للقرابة ، فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . . فأذن له ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قال الزرقانى فى شرح المواهب : وفى هذا جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم ،

ولو كانوا من أهل دينهم ، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهارا على غيرهم ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ، ولا من موادة أعداء الله ، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم ، وإنكاء بعضهم ببعض . ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق . ثم انطلق بديل مع من معه من قومه حتى أتى قريشا ، فقال ناس منهم : هذا بديل وأصحابه وإنما يريدون أن يستخبروكم فلا تسألوهم عن حرف واحد ، فرأى بديل أنهم لا يستخبروهم فقال : إنا قد جئنا من عند محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ أتحبون أن نخبركم عنه ؟ فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . . ولكن أخبره عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبدا حتى لا يبقى منا رجل واحد . وقال ذوا رأى منهم : هات ما سمعته يقول ، ولم يكن أبا سفيان حاضرا هذه القضية على الصحيح بل كان غائبا فى بعض تجاراته ، فمن ذكره معهم فقد غلط .

وفى رواية : فأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفى بأن يسمعوا كلام بديل فإن أعجبهم قبلوه وإلا تركوه ، فقال صفوان بن أمية والحرث بن هشام : أخبرونا بالذى رأيتم وسمعتم ، فحدثهم بما قال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فرجعوا إلى قريش فقالوا : إنكم تعجلون على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ إنه لم يأتى لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت ، فقالوا : وإن كان جاء لا يريد قتالاً بل جاء زائراً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تتحدث عنا العرب بذلك أبداً ، فقام عروة بن مسعود الثقفى ــــ وقد أسلمﷺ عند منصرفه ﴿ ﷺ وآله﴾ من الطائف وهو أحد الرجلين الذين قال الله تعالى فيهما : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) فأحدهما الوليد بن المغيرة كان بمكة ومات كافرا ، والثانى عروة بن مسعود الثقفى وكان بالطائف ، فالقريتان مكة والطائف فقال لقريش : ياقوم ألستم بالوالد ، أى : مثل الوالد فى الشفقة على ولده ، قالوا : بلى ، قال : أو لست بالولد مثله فى النصح لوالده ؟ قالوا

: بلى ٠ ٠ بل جاء أن أم عروة سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف فأراد أهم ولدوه فى الجملة ٠

قال : فهل تتهمونى ؟ قالوا : لا ، ما أنت عندنا بمتهم ، قال : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ ، أى : دعوهم إلى نصركم ، فلما امتنعوا من الإجابة جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ، قالوا : بلى ، قال : فإن هذا يعنى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قد عرض عليكم خطة رشد ، أى : خصلة خير وصلاح وإنصاف ، اقبلوها ودعونى آتيه ، أى : أجيء إليه ، قالوا : ائته ٠ فأتى عروة بن مسعود النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فجعل يكلم النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ بنحو ما قال بديل ، فقال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾: نحوا من قوله لبديل السابق وأخبروه أنه لم يأت يريد حربا ٠ ٠ وعند قول النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن هم أبوا فو الذى نفسى بيده لأقاتلهم ، قال عروة : أى محمد أخبرنى إن استأصلت قومك ، أى : أهلكتهم بالكلية ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح ، أى : أهلك ، أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، أى : وإن تكن الغلبة لقريش ، فإنى والله لأرى وجوها أشوابا ، يعنى أخلاطا من الناس حليفا أن يفروا عنك ويدعوك ٠

وفى رواية : فكأنى بهم لو لاقيت قريشا قد أسلموك ٠ ٠ فتؤخذ أسيرا فأى شيء أشد عليك من هذا ؟ وإنما قال ذلك لأن العادة جرت أن الجيوش المجتمعة لا يؤمن عليها الفرار بخلاف من كان من قبيلة واحدة ، فإنهم يأنفون الفرار عادة ٠ وما درى عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة ، وقد ظهر له ذلك بعد من مبالغة المسلمين فى تعظيمه ﴿ ﷺ وآله﴾ ٠

غيرة الصحابة على رسول اللّه (ﷺ وآله)

وجعل عروة بن مسعود يكلم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فكلما تكلم بكلمة أخذ بلحيته ﴿ﷺ وآله﴾ وكانت تلك عادة العرب ، وكان المغيرة بن شعبة بن مسعود الثقفى وهو ابن أخى عروة بن مسعود قائما على رأس النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه السيف بقصد الحراسة وعليه المغفر ، قال عروة بن الزبير : إن المغيرة لما رأى عروة بن مسعود لبس لأمته ، جعل على رأسه المغفر ليستخفى من عمه عروة ، وقام على رأس النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

قال الحافظ بن حجر : ففيه جواز القيام على رأس الأمير بالسيف لقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو ، ولا يعارضه النهى عن القيام على رأس الجالس لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر .

فكان المغيرة كلما أهوى عروة بن مسعود بيده إلى لحية النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حزب يده. بنعل السيف وهو ما يكون أسفل القرب من فضة أو غيرها ، وفعل المغيرة ذلك إجلالا وتعظيما للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان يقول لعروة : أخر يدك عن لحية رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .. فانه لا ينبغى لمشرك أن يمسه ، فيقول عروة : ما أفظك وما أغلظك وقد كانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاحظة يريدون بذلك التحية والتواصل ، وفى الغالب إنما يضع ذلك النظير بالنظير، وبما إن عروة لعظمته فى قومه رأى أنه نظير للنبى ﴿ﷺ وآله﴾، وما علم حينئذ أنه لا نظير له ﴿ﷺ وآله﴾ ..فاللائق منعه ، فلذا كان المغيرة ﷺ يمنعه لكن كان﴿ﷺ وآله﴾ يغضى ، أى : يتغافل ويسكت لعروة فلا يؤاخذه بفعله ولا يمنعه ، استمالة وتأليفا له ولقومه . والمغيرة كان يمنعه فلما تكرر المنع من المغيرة رفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟

وفى رواية : فلما أكثر المغيرة مما يقرع يده غضب وقال : ليت شعرى من هذا الذى قد آذانى من بين أصحابك ؟ • • والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشر منزلة • فتبسم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، فقال له عروة : من هذا يامحمد ؟ قال : هذا ابن أخيك شعبة فلما علم أنه ابن أخيه اشتد غضبه عليه •

حب الصحابة لرسول اللّه (ﷺ وآله)

ثم إن عروة بن مسعود جعل يرمق أصحاب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بعينه فقال حين حدث الحديث : والله ما تنخم يعنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده تبركا ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، أى : أسرعوا بفعله وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه﴿ ﷺ وآله﴾ تعظيما له ﴿ ﷺ وآله﴾ فكان فى فعلهم ﵁ ذلك رد لما ظنه من فرارهم ، فكأنهم قالوا بلسان الحال : من نحبه هذه المحبة ونعظمه هذا التعظيم ، كيف يظن بنا أن نفر عنه ونسلمه لعدوه ؟ بل هم أشد اغتباطا ، أى : تعلقا ، وتمسكا به وبدينه ونصره

﴿ ﷺ وآله﴾ من هذه القبائل التى تراعى بعضها لمجرد الرحم •

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم فو الله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والله ما يتنخم نخامة فوقعت فى يد رجل منهم إلا دلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يتقاتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده إجلالا وتوقيرا ، وما يحدون النظر إليه تعظيما له ، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدا ، فرووا رأيكم . وفى رواية : فقال عروة : أى قوم قد رأيت الملوك ما رأيت مثل محمد

وما هو يملك ، ولقد رأيت الهدى معكوفا وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة ٠ وهذا دليل على جودة عقله وتفطنه لما كان عليه الصحابة من المبالغة فى تعظيمه ﴿ ﷺ وآله﴾ وتوقيره ، ومراعاة أموره ، وردع من حفا عليه بقول أو فعل ، والتبرك بآثاره ٠ فلم يسمع القوم ما قاله عروة بن مسعود وما رغبهم فيه من الصلح ، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف تعظيم الحرمات عند المشركين فقال رجل من بنى كنانة يسمى الحليس بن علقمة ، ولا يعرف له إسلام ،.

وكان سيد الأحابيش ، أى : القبائل التى تجمعت من غير قريش : دعونى آته يعنى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، أى : أذهب إليه ، فقالوا ائته ٠٠ فلما أشرف على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه .﵁ قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ :هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن يعنى التى تهدى للحرم فابعثوها ، أى : أثيروها دفعة واحدة ليعتبر برؤيتها ، ويتحقق أهم لا يريدون حربا ، فيعينهم على دخول مكة لنسكهم ، فبعثوها واستقبله الناس يلبون بالعمرة ٠ فلما رأى الحليس ذلك ، قال متعجبا : سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا ، أى : يمنعوا عن البيت ٠ وفى رواية قال : أبى الله أن تحج لخم وجذام وكندة وحمير ويمنع ابن عبد المطلب ٠ وفى رواية : فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى بقلائده ، وقد حبس عن محله رجع ولم يصل إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وجاء عند الحاكم أنه صاح وهو على بعد فقال : هلكت قريش ورب الكعبة ٠ ٠ إن القوم إنما أتوا عمارا ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : أجل ياأخا بنى كنانة .

قال الحافظ بن حجر : فيحتمل أنه خاطبه على بعد ولم يصل إليه جمعا بين الروايتين ٠ فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت ، فقالوا له : اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك، فغضب عند ذلك وقال يامعشر قريش : والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاهدناكم ٠ ٠ أيصد عن بيت الله من كان معظما له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد ﴿ ﷺ وآله﴾

وما جاء له . . أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : أكفف عنا ياحليس . . حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

وفى القصة دليل على أن كثيرا من المشركين كانوا يعظمون حرمات الإحرام والحرم ، وينكرون على من يصدوا عن ذلك . . تمسكا منهم ببقايا دين الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

ثم قال رجل منهم يقال له مكرز بن حفص بن عامر بن لؤى – ولم يذكره أحد فى الصحابة إلا ابن حبان . . فإنه ذكره بلفظ يقال له صحبة – فقال : دعونى آته . . فلما أشرف عليهم قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : هذا مكرز وهو رجل فاجر . وفى رواية : غادر . . وذكر الواقدى أن مكرز هذا أراد أن يبيت المسلمين بالحديبية . . فخرج فى خمسين رجلا . . فأخذهم محمد بن مسلمة وهو على الحرس وانفلت مكرز . . فكان ﴿ﷺ وآله﴾ أشار إلى ذلك حين قال : وهو رجل فاجر أو غادر . . فجاء إلى النبى

﴿ﷺ وآله﴾ وجعل يكلمه ، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نحوا مما لبديل وأصحابه . . فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو العامرى . . وكان خطيب قريش . . وقد أسلم عام الفتح ﷺ ، وكان ملازما للجهاد حتى استشهد يوم اليرموك ، وكان يقول : والله لا أدع موقفا وقفت مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله ، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت على المسلمين مثلها ، لعل أمرى أن يتلوا بعضها بعضا . ولما جاء خبر وفاة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أهل مكة . . اضطرب الناس وكادوا يرتدوا فخطب الناس خطبة كخطبة الصديق بالمدينة ﷺ . . وثبتهم فيها ، وكان محمود الإسلام ﷺ من حين أسلم .

قيل : إن وصول سهيل بن عمرو إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كان قبل انصراف مكرز بن حفص من عند النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وقيل : إن مكرز رجع إلى قريش فأخبرهم بقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأن ذهاب الحليس ثم عروة بعد مكرز ، وجمع بأنه رجع فأخبرهم ثم جاء سهيل فى الصلح ٠ ٠ ولما جاء سهيل قال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : قد سهل لكم من أمركم ٠ ٠ وكان مع سهيل حويطب بن عبد العزى ٠

قال ابن اسحق : دعت قريش سهيل بن عمرو فقالت : اذهب إلى هذا الرجل يعنى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ولا تكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فو الله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، فأتى سهيل ، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لما رآه مقبلا : قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل ، فلما انتهى إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ برك على ركبتيه ٠٠ وجلس النبى﴿ ﷺ وآله﴾ متربعا ٠٠ وقام عباد بن بشر و سلمة بن أسلم على رأسه مقنعين فى الحديد ٠٠ وجلس المسلمون حوله ٠ ٠ فجرى بينهما القول ٠٠ وأطال سهيل الكلام وتراجعا ، فقال له عباد بن بشر : اخفض صوتك عند رسول الله ، فخفض صوته ، ولم يزالا يتراجعان حتى تم الصلح بينهما ٠٠ وهذا يقتضى أن إرسال سهيل كان قبل أن يرسل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان بن عفان ﷺ إلى أهل مكة ، وجرى على ذلك كثير من أهل السير . وقال آخرون : إن إرسال سهيل بن عمرو كان بعد إرسال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان بن عفان ﷺ إلى أهل مكة ٠

الرسول المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾ وسياساته للمشركين

قيل : إن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لما نزل الحديبية أحب أن يبعث إلى قريش يعلمهم أنه إنما قدم معتمرا لا مقاتلا فبعث خراش بن أمية الخزاعى على جمله ﴿ ﷺ وآله﴾ فعقره عكرمة ابن أبى جهل ٠ ٠ وأراد قتله ٠ ٠ فمنعه الأحابيش ٠ فأتاه ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبره فدعا عمر ابن الخطاب ﷺ ليبعثه ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء لهم ، فقال

عمر : يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وما بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها . . ولكن أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفانﷺ ، أى: فإن بنى عمه يمنعونه. فدعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان وكتب له كتابا إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت . . ومعظما لحرمته ، وأمر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان أن يأتى رجالا مسلمين مستضعفين بمكة ونساء مستضعفات بها ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم بأن نصر الله وشيك ، أى : قريب أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

فخرج عثمانﷺ ودخل مكة ومعه عشرة من الصحابةﷺ بإذن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم ، فلقيه قبل أن يدخل مكة أبان بن سعيد بن العاص وأسلم بعد ذلك ﷺ وكان ابن عم عثمان ﷺ فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . . وجعله بين يديه . فجاء إلى عظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أرسله به ، وهم يردون عليه ويقولون : إن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يدخلها علينا أبدا . فلما فرغ عثمان ﷺ من رسالة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقال المسلمون الذين كانوا مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : قد خلص عثمان إلى البيت . . فطاف به دوننا . فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ، قالوا : وما يمنعه يارسول الله وقد خلص إليه ؟ قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ذاك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف . . ولو مكثت كذا وكذا سنة .

فلما رجع عثمان . . وقيل له فى ذلك ، أى : قالوا له : طفت بالبيت ؟ فقال : والذى نفسى بيده لو مكثت بها معتمرا كذا وكذا سنة ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

المبايعة على الموت فى سبيل الله

واحتبست قريش عندها عثمان ثلاثة أيام ، وأشاع الناس أنهم قتلوه هو والعشرة الذين معه ، فبلغ ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال عند بلوغه ذلك : لا نبرح حتى نناجز القوم ، أى : نقاتلهم ، ودعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الناس إلى البيعة . . وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادى الناس إلى البيعة ، قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه : بايعناه

﴿ ﷺ وآله﴾ وبايعه الناس على عدم الفرار . . وأنه إما الفتح وإما الشهادة .

وفى رواية : بايعناه على الموت . ولما لم يكن قتل عثمان محققا بل كان بالإشاعة، بايع عنه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، أى :على تقدير حياته. وفى ذلك إشارة منه﴿ ﷺ وآله﴾ إلى أن عثمان لم يقتل . . وإنما فعل المبايعة مع القوم لأجل أخذ ثأر عثمان رضي الله عنه جريا على ظاهر تلك الإشاعة تثبتا وتقوية لأولئك القوم ، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال : اللهم هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك .

وفى لفظ : إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ فأنا أبايع عنه ، فضرب بيمينه شماله . . وما ذاك إلا لأنه علم ﴿ ﷺ وآله﴾ عدم صحة القول بقتله رضي الله عنه.

وبعد أن جاء عثمان رضي الله عنه بايع تحصيلا لتلك الفضيلة ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكانت البيعة تحت شجرة هناك من أشجار السمر وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح : ١٨) فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ :لا يدخل النار أحد بايع تحت تلك الشجرة ، وكانوا ألفا وأربعمائة . كما تقدم رضوان الله الأكبر عليهم.

وجاء أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : أيها الناس إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية . وأول من بايعه ﴿ ﷺ وآله﴾ سنان بن سنان الأسدى ، وقيل : إنه أبو سنان أخو عكاشة بن

محصن رضى الله عنهما ولما بايعه ﷺ قال : أبايعك على ما فى نفسك . قال وما فى نفسك ؟ قال : أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل . وصار الناس يقولون : نبايعك على ما بايعك عليه سنان . وقيل : أول من بايع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وقيل : سلمة بن الأكوع ﷺ .

وقيل : إن سلمة بايع ثلاث مرات أول الناس وآخر الناس ووسط الناس بأمره ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الثانية والثالثة بعد قول سلمة قد بايعت ، فيقول له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : وأيضا ، وذلك ليكون له فى ذلك فضيلة لأنه أراد أن يؤكد بيعته لعلمه بشجاعته وعنايته فى الإسلام وشهرته فى الثبات ﷺ . وجاء أن عبد الله بن عمر ﷺ بايع مرتين ، وكان محمد بن مسلمة ﷺ على حرس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فبعثت قريش أربعين ، وقيل : خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص ، الذى قال فيه ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنه رجل غادر أو فاجر ، ليطوفوا بعسكر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، رجاء أن يصيبوا منهم أحدا أو يجدوا منهم غرة ، أى : غفلة ، فأخذهم محمد بن سلمة إلا مكرز فأتى بهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فحبسوا ، وبلغ قريشا حبس أصحابهم ، فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة ، وقتل من المسلمين ابن رسيم بسهم ، فأسر المسلمون منهم اثنا عشر رجلا .

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا ، وأشار أهل الرأى منهم بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل ، فيقيم ثلاث معه بالسلاح الراكب السيوف فى القرب والقوس ، فبعثت قريش سهيل بن عمرو العامرى ومعه حويطب بن عبد العزى وقيل معه جمع منهم ، وقيل : إرسال سهيل كان مرتين جاء ورجع إليهم ثم رجع إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلما أقبل سهيل قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل ثانيا ، وطالت المراجعة بينه وبين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومن جملة ذلك أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال له : لم لا تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ؟ فقال له

سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، أى : بالشدة والإكراه ، ولكن ذلك بالعام القادم ٠ ٠ ثم تم الأمر على الصلح على الآتى :

١ – على ترك القتال .

٢ – أن توضع الحرب بينهم عشر سنين .

٣ – وأن يأمن بعضهم بعضا .

٤ – وأن يرجع عنهم عامه هذا ويأت فى العام القادم ويخلون له ﴿ ﷺ وآله﴾ مكة ثلاثة أيام .

٥ – وأن لا يدخلوها إلا بالسيوف فى قربها .

٦ – واشترط سهيل على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ شروط منها أنه قال : لا يأتيك من رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . وقيل : هذا الشرط إنما ذكره عند كتابة الكتاب .

فلما تم الأمر ولم يبق إلا كتابة الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب ﷺ فأتى أبا بكر ﷺ فقال : ياأبا بكر أليس هو برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ .

قال : بلى .

قال عمر : أولسنا بمسلمين ؟ .

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية ، أى : الخصلة المذمومة ، فى ديننا ٠

فقال أبو بكر ﷺ : ياعمر الزم غرزه ، أى : ركابه ٠ وفى رواية قال له : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه حتى تموت ٠ ٠ فإنى أشهد أنه رسول الله .

فقال عمر ﵁ : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى عمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال له مثل ما قال لأبى بكر ، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى الله .

كتابة عقد الصلح

ثم دعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أوس بنى خوات ﵁ وأمره بأن يكتب بينهم فقال له سهيل بن عمرو : لا يكتب إلا ابن عمك على أو عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وكان ذلك بعد رجوع عثمان ﵁ على بعض الروايات ، فأمر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عليا كرم الله وجهه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ، أى : الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، أى : لأن قريشا كانت تكتبها فقال المسلمون : والله لا يكتبها وإنما يكتب بسم الله الرحمن الرحيم وضج المسلمون ، ثم أسكتهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لعلى كرم الله وجهه : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سهيل بن عمرو ، فقال سهيل ابن عمرو : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم نصدك عن البيت ولكن اسمك واسم أبيك • وفى رواية : لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ولتابعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ لعلى كرم الله وجهه : أمح رسول الله ، فقال على كرم الله وجهه : ما أنا بالذى أمحوه ، وفى رواية : والله لا أمحوك أبدا ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: أرينيه فأراه إياه فمحاه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، وقال : أنا رسول الله وإن كذبتمونى وأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فجعل على ﵁ يبكى ويأبى إلا أن يكتب محمد رسول الله ، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مقهور .

وهذا من معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ وأعلام نبوته فإنه أشار لما سيقع بين سيدنا على وبين سيدنا معاوية رضى الله عنهما فإنهما بعد حرب صفين وقعت بينهما مصالحة إلى رأس الحول ، فلما كتب الكاتب هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين على بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان ، قال عمرو بن العاص وكان أحد الحكمين وكان من جهة معاوية : لا تكتب أمير المؤمنين ، وأرسل معاوية أيضا لعمرو بن العاص يقول : لا تكتب أن عليا أمير المؤمنين . . . لو كنت أعلم أن عليا أمير المؤمنين ما قاتلته فبئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم أقاتله ، ولكن أكتب على بن أبي طالب وأمح أمير المؤمنين ، فقال أصحاب على كرم الله وجهه لعلى : ياأمير المؤمنين لا تمح اسم إمارة المؤمنين فإنك إن محوتها لا تعود إليك ، فلم يسمع منهم ، وقال للكاتب : امحها ، ثم تذكر قول النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ له فى الحديبية : إن لك مثلها تعطيها وأنت مقهور . فقال : الله أكبر مثلا بمثل . . والله إنى لكاتب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم الحديبية إذ قالوا لست برسول الله ولا نشهد لك بذلك ، اكتب اسمك محمد بن عبد الله .

فقال له عمرو بن العاص : أنشبه بالكفار ؟ ووقع بينهما نزاع فى ذلك حتى تمت الكتابة على عدم ذكر أمير المؤمنين وظهر صدق قول النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لعلى ﵁ : إن لك مثلها تعطيها وأنت مقهور .

ولما أبى على يوم الحديبية . . أن يكتب إلا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ووافقه على ذلك بعض الحاضرين من أصحاب رسول الله ، منهم أسيد بن حضير وسعد بن عبادة رضى الله عنهما ، فأخذا بيد على كرم الله وجهه ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، وضج المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون : لا نعطى هذه الدنية فى ديننا ، فجعل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يخفضهم ويوحى بيده إليهم أن اسكتوا ، ثم أمر عليا كرم الله وجهه أن يكتب محمد بن عبد الله فكتب ، وقيل : أمر محمد ابن مسلمة ﵁ فكتب . والحق أن الذى كتبه محمد بن

مسلمة نسخة أخرى مثل ذلك الكتاب ، لأن سهيلا قال : يكون هذا الكتاب معى ، فكتب محمد بن مسلمة مثله ليكون عند المسلمين رضى الله عنهم .

من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى صلح الحديبية

قال العلماء : وافقهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على عدم كتابة بسم الله الرحمن الرحيم وكتب باسمك اللهم ، وكذا وافقهم فى كتابة محمد بن عبد الله للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح التى أطلع الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ عليها وحجب المسلمين عنها حتى ضحوا وتشوشوا من ذلك . ولم يكن أحد فى القوم راضياً بجميع ما يرضى به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ غير أبى بكر الصديق كرم الله وجهه لشدة تصديقه ومتابعته .

وبهذا يتبين علو مقامه كرم الله وجهه . . ويمكن أن الله تعالى كشف لقلبه وأطلعه على بعض تلك الأسرار التى ترتبت على ذلك الصلح لفنائه فى الذات المحمدية . . ولعلمه بمراد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه حقيق بذلك ﷺ ، كيف وقد قال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : والله ما صب الله فى قلبى شيئاً إلا وصببته فى قلب أبى بكر .

قال أبو بكر ﷺ : ما كان فتح أعظم من فتح الحديبية ، ولكن قصر رأيهم عما كان بين رسول الله وبين ربه ، والعباد يعجلون والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . . ولقد رأيت سهيل بن عمرو فى حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله بدنه . . ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ينحره بيده ، ودعا الحلاق فحلق رأسه . . فأنا أنظر إلى سهيل بن عمرو ويتلقط من شعره ﴿ ﷺ وآله﴾ ويجعل بعضه على عينيه . . وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بسم الله الرحمن الرحيم ، أى : ورسالة النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ ، فحمدت الله الذى هداه للإسلام ، مع أنه لا مفسدة فى عدم كتابة بسم الله الرحمن الرحيم وعدم كتابة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بل ترتب عليهما مصلحة ، وإنما المفسدة لو طلبوا كتابة ما لا يحل. ثم كتب على كرم الله وجهه : هذا

ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : على أن يخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، وأراد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك إظهار ما تكلم به مع سهيل بن عمرو أولاً ليطلع المسلمون على أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بذل الجهد للمسلمين فى ذلك الصلح ، فقال سهيل : والله لا نخلى بينك وبين البيت وتتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب على كرم الله وجهه ذلك .

فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل إلا رددته إلينا وإن كان على دينك ، ومن جاء قريشاً ممن تبعك لم يردوه إليك .

وفى رواية لمسلم من حديث أنس﵁ : أن قريشاً صالحت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على أن من جاءنا منكم لم نرده إليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه إلينا . فقالوا : يارسول الله أتكتب هذا ؟ قال : نعم ، فإنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

وفى رواية للبخارى : وكان فيما اشترط سهيل على النبى﴿ﷺ وآله﴾ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه . فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا ، أى : غضبوا . . وأنفوا . . فأبى سهيل إلا ذلك ، فكاتبه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على ذلك ، فقال المسلمون متعجبين : سبحان الله . . كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ وكان ممن قال ذلك عمر بن الخطاب ﵁ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وسهيل بن حنيف ﵃ .

وفى رواية أن عمر بن الخطاب ﵁ قال : يارسول الله أترضى بهذا ؟ فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا ورددناه فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

ومما كتب فى كتاب الصلح ما رواه الإمام البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنهما : لا يدخل مكة بالسلاح إلا السيف فى القرب ، وألا يخرج من أهلها أحد إن أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحد إن أراد أن يقيم بها .

وعند ابن اسحق على أن بيننا عيبة مكفوفة ، أى : أمور مطوية فى صدور سليمة ، إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، أى : لا سرقة ولا خيانة ، والمراد أن يأمن بعضهم من بعض فى نفوسهم وأموالهم سرا وجهرا . وقيل : الإسلال من سل السيوف ، والإغلال من لبس الدروع ، وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. فتواثبت خزاعة وقالوا : نحن فى عقد محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وعهده ، وتواثبت بنو بكر وقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل مكة علينا ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا مع سلاح الراكب السيوف فى القرب لا تدخلها بغيره ، وأن الحرب توضع بينهم عشر سنين .

وفى رواية : أربع سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

أسرار الفتح فى الحديبية

فإن قيل : ما الحكمة فى كونه ﴿ﷺ وآله﴾ وافق سهيلا على هذه الشروط التى من جملتها أنه لا يأتيه رجل منهم وإن كان على دين الإسلام إلا ويرده إليهم ؟ .

فالجواب كما نقله النووى عن العلماء ﷺ : إن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هى ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التى علمها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وخفيت عليهم فحمله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك على موافقتهم ، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين .. ولا تظهر عندهم أمور النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كما هى ، ولا يجتمعون بمن يعلمهم بها مفصلة ، فلما حصل الصلح اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى

المدينة وجاء المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونهم ، وسمعوا منهم أحوال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعجزته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة ، وحسن سيرته وجميل طريقته ، وعاينوا بأنفسهم كثيرا من ذلك فمالت أنفسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة ، كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص رضى الله عنهما ، وغيرهما ٠٠ وازداد الآخرون ، أى : الذين لم يسلموا ، ميلا إلى الإسلام ٠

فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما قد تمهد لهم الميل ، وكانت العرب من غير قريش ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش لما يعلمونه فيهم من القوة والرأى ولأنهم كانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به ، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ (النصر ١ ، ٢) ، ففيه إشارة إلى أنه عند حصول نصر الله لنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ على أعدائه وفتح مكة يدخل الناس أفواجا جماعات ٠ ٠ وكان الأمر كذلك فجاءه ﴿ ﷺ وآله﴾ العرب بعد فتح مكة من أقطار الأرض طائعين وكان هذا الصلح هو سبب فتح مكة كما سيأتى إن شاء الله تعالى فالله ورسوله أعلم بالحكمة البالغة ٠٠ فإن صد المسلمين عن البيت كان فى الظاهر هضما للمسلمين ، وفى الباطن عزا لهم وقوة ، فأذل الله المشركين من حيث أرادوا العز لأنفسهم ، وقهرهم من حيث أرادوا الغلبة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلله الحمد والمنة على ما أنعم به وتفضل ٠

قصة أبو جندل وصبره

قال البخارى عند ذكر كتابة الشروط : فبينما هم كذلك ، وقال ابن إسحق : فان الصحيفة لتكتب ، إذ دخل أبو جندل واسمه العاص بن سهيل بن عمرو يرسف فى

قيوده ، وكان قد أسلم بمكة قبل ذلك ؓ فحبسه أبوه ومنعه من الهجرة وأوثقه بالقيود ، فحين سمع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه بالحديبية احتال على نفسه حتى خرج من السجن وتنكب الطريق وركب الجبال حتى هبط على المسلمين ففرح به المسلمون وتلقوه ٠ فقام سهيل بن عمرو إلى ابنه أبي جندل حين رآه فضرب وجهه ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، ثم جمع عليه ثوبه الذى هو لابسه وقبض عليه نحره وقال سهيل : هذا يامحمد أول ما أقاضيك ، أى : أول شيء أحاكمك عليه أن ترده إلى ، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : إنا لم نقض الكتاب بعد أى : لم نفرغ من كتابته ، فقال سهيل : والله إذا لا أصالحك على شيء أبدا ، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : فأجزه لى ، قال : ما أنا بمجيز ذلك ، قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل ، فقال مكرز و حويطب : بلى قد أجزنا ذلك ٠ فأخذاه وأدخلاه فسطاطا وكفا أباه عنه ، فأبى سهيل بن عمرو إجازتهما ، وقيل : إنما أجازاه ليكف عنه العذاب ليرجع إلى طاعة أبيه ، فكان ذلك من فجور مكرز الذى أخبر عنه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فإنه قال : ذلك نفاقا وفى باطنه خلافه .

قال ابن إسحق : ثم قال سهيل : يامحمد قد لجت القضية ، أى : وجبت وتمت ، بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت فجعل ينثره ويتلببه ويجره ليرده إلى قريش ، فلما رآى أبو جندل أباه كان مصمما على أخذه ، قال : أى معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ٠٠ ألا ترون ما قد لقيت ، وكان قد عذب فى الله عذابا شديدا ، وفى رواية : جعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته يامعشر المسلمين : أرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ، فزاد الناس ذلك على ما بهم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ياأبا جندل اصبر واحتسب فإنا لا نغدر ٠ وقد تم الصلح قبل أن تأتى ٠ وقد تلطفت بأبيك فأبى ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فوثب عمر بن الخطاب ؓ إلى جانب أبي جندل يقول له : اصبر ياأبا جندل فإنما هم

المشركون ، وإنما دم أحدهم كدم الكلب ويدنى له السيف ، قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، وجعل يقول : إن الرجل ليقتل أباه ٠٠ والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم فى الله تعالى ، فقال عمر : نهانا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن قتله وعن قتل غيره ، فقال أبو جندل : ما أنت أحق بطاعة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ منى ٠

ولعل عمرﷺ ظن جواز قتل أبى جندل لأبيه لكونه أراد أن يفتنه عن دينه ، وإن قال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياأبا جندل اصبر واحتسب ، ثم رجع أبو جندلﷺ إلى مكة فى جوار مكرز بن حصن و حويطب بن عبد العزى فأدخلاه مكة ٠٠ وكفا عنه أباه ، وسيأتى فى آخر القصة أن أبا جندل فى مدة الهدنة هرب من مكة ومعه جماعة من المستضعفين وأنهم انضموا إلى أبى بصير وقطعوا الطريق على قريش حتى كتبت قريش للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ تسأله بالأرحام أن يأويهم عنده كما سيأتى ٠ ثم إن سهيل بن عمرو له ابن آخر اسمه عبد الله بن سهيل ، أسلم قديما وخرج مع المشركين يوم بدر ٠٠ فلما وصلوا بدرا خرج من بينهم ودخل فى أصحاب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وشهد بدرا والمشاهد كلها ، وأما أبو جندل فاسمه العاص وأول مشهد شهده فتح مكة ، ثم إن قريشا أرسلت عثمان بن عفانﷺ ، وبهذا يعلم أن بيعة الرضوان كانت قبل الصلح ، وأنها السبب الباعث لقريش عليه .

وقد وقع فى المواهب ما يقتضى أن البيعة كانت بعد الصلح ، وأن الكتاب الذى ذهب به عثمان كان متضمنا للصلح الذى وقع بينه﴿ ﷺ وآله﴾ وبين سهيل بن عمرو فحبست قريش عثمان ﷺ فحبس النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ سهيلا ٠

قال الحلبى : ولا يخفى ما فيه ٠٠ قيل : فى سبب نزول قوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ٠٠﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾ (المائدة : ٢)، إن المسلمين لما صدوا عن البيت بالحديبية مر بهم

ناس من المشركين يريدون العمرة ، فقال المسلمون : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، أى : لا تصدوا هؤلاء العمار إن صدوكم أصحابهم .

ويروى أن قريشا بعثت إلى عبد الله بن أبي بن سلول إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل ، فقال له ابنه عبد الله وهو المسمى بالحباب كما تقدم ؓ: يأبت اذكرك الله أن تفضحنا فى كل موطن ، تطوف ولم يطف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فأبى حينئذ وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

المراجعة فى صلح الحديبية

ولما فرغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من الصلح أشهد عليه رجالا من المسلمين وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة ؓ . ومن المشركين حويطب بن عبد العزى ، و مكرز بن حفص ، وما تم هذا الصلح إلا بعد توقف كثير من المسلمين فيه .

وصاروا يراجعون النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ويسألونه أن لا يوافق على تلك الشروط لا سيما عمر بن الخطاب ؓ فإنه أتى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وراجعه كما تقدم . ومن مراجعته أن قال له : ألست نبى الله حقا ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى .. قال : فلم نعط الدنية ، أى : الحالة الخسيسة ، فى ديننا إذا ونرجع ولم يحكم الله بيننا فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قال : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ، أى: للرؤيا التى رآها ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟ قال : لا ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : فإنك آتيه ومطوف به ، أى : وكذلك الصحابة ؓ لأنه كان ﴿ﷺ وآله﴾ أخبرهم بأنه رأى أنهم يدخلون المسجد الحرام ويطوفون بالبيت ووعدهم بذلك ، فلما رأوا الصلح دخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون وشق عليهم ؓ. قال عمر

ﷺ : لقد دخلنى أمر عظيم وراجعت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ مراجعة ما راجعته مثلها قط ، حتى قال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ : ألا تسمع ياابن الخطاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول ما يقول، تعوذ بالله من الشيطان الرجيم فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان .

وروى البزار عن عمر رضى الله عنه: اتهموا الرأى على الدين فلقد رأيتنى أرد أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ برأيي فرضى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبيت ، حتى قال : ياعمر أترانى رضيت وتأبى . وفى رواية قال : ياابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله ، فرجع متغيظا فلم يصبر ، حتى جاء أبو بكر فقال : ياأبا بكر أليس هو نبى الله حقا ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلم نعط الدنية فى ديننا إذا ؟ فقال أبو بكر : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه فاستمسك بغرزه ، أى : ركابه ، أى : لا تفارقه ، فو الله إنه على الحق ، قال : قلت أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ، قال : بلى ، أفأخبرك أنا نأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال فإنك آتيه ومطوف به ، فأجابه بمثل ما أجابه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ .

ثم إن هذه الرواية مصرحة بأن إتيانه لأبى بكر كان بعد إتيانه للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وتقدمت رواية صحيحة بأن ذلك كان قبل إتيانه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ويمكن الجمع بأن تلك المراجعة تكررت .. فجاء لأبى بكر وراجعه قبل وبعد .. ودل جواب أبى بكر الموافق للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على أن أبا بكرﷺ من أكمل الصحابة علما ، وأعرفهم بأحوال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، وأعلمهم بأمور الدين ، وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى ، فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله ، وبارع علمه ، وزيادة عرفانه ، ورسوخه ، وزيادته فى كل ذلك على غيره .

وقد جاء فى بعض الروايات أن المسلمين استنكروا الصلح المذكور وكانوا على رأى عمر ﷺ وعنهم ، فلم يوافقهم أبو بكرﷺ بل كان هواه فيما يرضى رسول الله ﴿ ﷺ

وآله﴾ سواء . ولجلالة قدر أبى بكر ﵁ وسعة علمه عند عمر ﵁ لم يراجع عمر فى ذلك أحد بعده أو قبله ﵁ لشدة ما حصل لعمر ﵁ من الغيظ ، ولقوته فى نصر الدين وإذلال الكافرين .

قال العلماء : لم يكن سؤال عمر وكلامه شكا فى الدين .

ففى رواية ابن إسحق : أنه لما قال له : الزم غرزه فإنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، بل كان سؤاله طلبا لكشف ما خفى عليه من المصلحة وحثا على إذلال الكفار وظهور الإسلام ، كما عرف فى خلقه وقوته فى نصر الدين وإذلال المبطلين .. ففى ذلك دليل على جواز البحث فى العلم حتى يظهر المعنى . وفى البخارى قال عمر ﵁ : فعملت لذلك أعمالا .

وفى ابن إسحق : فما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرا . وعند الواحدى عن ابن عباس رضى الله عنهما لقد أعتقت بسبب ذلك رقابا وصمت دهرا ، وإنما فعل ذلك ﵁ لتوقفه عن المبادرة بامتثال الأمر ، وإن كان معذورا فى جميع ما صدر عنه ، بل مأجورا لأنه مجتهد .. وإنما توقف لتظهر له الحكمة .

جمل يغيظ المشركين

ولما فرغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من الصلح والإشهاد .. وتوجه سهيل بن عمرو ومن معه بالكتاب ، قام ﴿ﷺ وآله﴾ إلى هديه فنحره ومن جملته جمل كان لابن نجيب مهرى غنمه المسلمون منه يوم بدر ، ثم صار له ﴿ﷺ وآله﴾ وكان يضرب فى لقاحه وفى رأسه برة ، أى حلقة من فضة ، وقيل : من ذهب ، وإنما أدخله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الهدى ليكون فى ذبحه إغاظة للمشركين .. وكان قد فر هذا الجمل من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبى جهل ، فخرج فى إثره عمرو بن غنمة الأنصارى فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ودفعوا فيه عدة ثياب ، فقال

رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ : لولا أنا سميناه فى الهدى فعلنا ، وفى لفظ قال لهم سهيل بن عمرو : إن تريدوه فأعرضوا على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ مائة من الإبل فإن قبلها فأمسكوا هذا الجمل وإلا فلا تتعرضوا له ، فعرضوا ذلك عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ فأبى وقال : لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقبلت المائة ، فردوه إليه فنحره وفرق لحمه ولحم بقية الهدى على الفقراء الذين حضروا الحديبية .

نحر الهدى وما فيه من العبرة

وفى رواية : أنه﴿ ﷺ وآله﴾ بعث إلى مكة عشرين بدنة مع (ناجية) رجل من أسلم.

وفى رواية : أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد فراغه من الكتاب أمرهم بالنحر والحلق ثلاث مرات فلم يقم منهم أحد ، فدخل ﴿ ﷺ وآله﴾ على أم سلمة رضى الله عنها وهو شديد الغضب فاضطجع فقالت : ما شأنك يارسول الله ؟ فذكر لها ما لقى من الناس وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم أن ينحروا وأن يحلقوا فلم يفعلوا ، وفى لفظ قال : عجيب يأم سلمة ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ، قلت لهم : انحروا واحلقوا وحلوا مراراً فلم يجبن أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى . فقالت : يارسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ، ثم أشارت إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخرج ولا يكلم أحدا منهم ، وينحر بدنه ، ويحلق رأسه ، ففعل ذلك أى : أخذ الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعا صوته بسم الله والله أكبر ، ثم دخل ﴿ ﷺ وآله﴾ قبة له من أدم ودعا نجراش الخزاعى فحلق رأسه ورمى شعره على شجرة ، فأخذه الناس و تحاصوه ، وأخذت أم عمارة رضى الله عنها طاقات منها فكانت تغسله للمريض وتسقيه فيبرأ . وكانت بدنه ﴿ ﷺ وآله﴾ التى نحرها بالحديبية سبعين ، ولما

رآه الناس نحر وحلق قاموا ونحروا وحلقوا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً للازدحام وإرادة التعجيل اقتداء به﴿ ﷺ وآله﴾ ٠

وكان نحرهم للهدايا بالحديبية وهى فى الحرم فى قول مالك ﵁ ، وبعضها فى الحل وبعضها فى الحرم فى قول الشافعى﵁٠ وفى رواية : إن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أمر بالهدى فساقه المسلمون إلى جهة الحرم ، فقام إليه مشركو قريش فحبسوه فأمر ﴿ ﷺ وآله﴾ بنحره . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما صدت الهدايا عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها ، فنحر﴿ ﷺ وآله﴾ بدنه حيث حبسوه وهى الحديبية ٠ والمراد نحر أكثره فلا ينافى ما رواه ابن مسعود ﵁ قال : بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من هديه بعشرين بدنة لتنحر عنه عند المروة مع رجل من أسلم ٠ وبعث الله ريحا فحملت شعورهم فألقتها فى الحرم جبرا لهم فى صدهم عن البيت فاستبشروا بقبول عمرتهم ، ولما حلق رجال وقصر آخرون قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : يرحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين ، قال : يرحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين ٠ وفى رواية : وقال فى الرابعة : والمقصرين ٠

وفى قصة بيعة الرضوان دليل على فضل الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح :١٨)٠ وفى صحيح البخارى ﵁ عن جابر﵁ قال : أنتم خير أهل الأرض (يوم الحديبية) ٠ وأخرج مسلم وغيره عن جابر﵁ لا يدخل النار من شهد بدرا والحديبية ٠ وعن سعيد الخدرى ﵁ قال : لما كانت الحديبية قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا توقدوا نارا بليل ، فلما كان بعد ذلك قال : أوقدوا واصطفوا فإنه لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم ٠ وفى مسلم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة ٠ ودل قوله

﴿ ﷺ وآله﴾ : لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة ... أهم مبشرون بالجنة رضي الله عنه .

وأما قولهم : العشرة المبشرون بالجنة ، فالمراد أهم ذكروا بأسمائهم فى حديث واحد حيث قال أبو بكر : فى الجنة .. الخ الحديث . قال ابن عبد البر : ليس فى الغزوات ما يعدل بدرا أو يقرب منها إلا الحديبية حيث كانت بيعة الرضوان . قال الزرقانى : لكن قال غيره الراجح تقديم أحد على الحديبية وأها التى تلى غزوة بدر فى الفضل .

القول الأصح فى نزول سورة الفتح

وكانت إقامته ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحديبية بضعة عشر يوما وقيل : عشرين يوما . . وقال بعضهم : مدة غزوته هذه كلها شهرا ونصف ، ثم رجع ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة وفى نفوس أصحابه رضي الله عنه شيء من عدم الفتح الذى كانوا لا يشكون فيه . . فأنزل الله تعالى سورة الفتح بين مكة والمدينة بكراع الغميم ، وقال ابن إسحق : نزلت بضنجان جبل على بريد من مكة . وفى البخارى عن عمررضي الله عنه قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ :لقد أنزلت على سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .. ثم قرأ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(الفتح : ١).وروى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية الأنصارى الأوسى رضي الله عنه قال شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ واقفا عند كراع الغميم وهو موضع أمام عسفان وقد جمع الناس وقرأ عليهم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فقال رجل يارسول الله أو فتح هو ؟ قال : أى والذى نفسى بيده إنه لفتح . وعند ابن سعد : فلما نزل ها جبريل عليه السلام قال : هنيك يارسول الله .. فلما هنأه جبريل عليه السلام هنأه الناس . وعن عروة بن الزبير قال : أقبل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ راجعا فقال رجل من الصحابة : ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد

هدينا ، ورد ﴿ﷺ وآله﴾ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه ، فبلغه ﴿ﷺ وآله﴾ قول ذلك الرجل فقال : بئس الكلام .. بل هو أعظم الفتح ، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية .. ويرغبون إليكم فى الأمان .. ولقد رأوا منكم ما كرهوا .. وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح ..

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم . أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾(الأحزاب : ١٠) . فقال المسلمون : صدق رسول الله ، والله هو أعظم الفتوح .. والله يانبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا .

وعن الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال : لم يكن فى الإسلام فتح قبله أعظم منه .. إنما كان القتال حيث ألتقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضع الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة لم يكلم أحد ذو عقل فى تلك المدة بالإسلام إلا دخل فيه . ولقد دخل فى هاتين السنتين مثل من كان دخل فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويدل عليه .. أنه ﴿ﷺ وآله﴾ خرج فى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة فى عشرة آلاف ، وما ظهر من مصلحة الصلح أنه كان مقدمة بين الفتح الأعظم الذى دخل الناس عقبه فى دين الله أفواجا .. فكانت قصة الحديبية مقدمة الفتح فسميت فتحا إذ مقدمة الظهور ظهور .

من دلائل نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

وجاء أنهم فى مدة إقامتهم بالحديبية حصلت للناس مجاعة فقالوا : يارسول الله جهدنا ، أى : أصابنا الجهد وهو المشقة ، من الجوع وفى الناس ظهر ، أى : إبل ، فانحره لنأكل

من لحمه ولندهن من شحمه ولنحتذى من جلوده . فقال عمر بن الخطاب ﵁ : يارسول الله لا تفعل فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمثل .. كيف بنا إذا لقينا عدونا غدا جياعا رجالا ، ولكن إن رأيت أن تدعو الناس إلى أن يجمعوا بقايا أزوادهم ثم تدعو لهم فيها بالبركة فإن الله سيبلغها بدعوتك .فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ابسطوا انطاعكم وعباءكم ففعلوا . ثم قال : من كان عنده بقية من زاد أو طعام فلينثره . ودعا لهم ... ثم قال : قربوا أوعيتكم فأخذوا ما شاء الله وملأوا أوعيتهم وأكلوا حتى شبعوا وبقى مثله .

وفى مسلم : خرجنا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا ، فأمرنا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن نجمع ، فجمعنا أزوادنا فبسطنا له نطعا فاجتمع زاد القوم على النطع فكان كربضة العتر ، أى : كقدر العتر وهى رابضة باركة ، وكنا أربع عشر مائة وأكلنا حتى شبعنا ثم حشونا جربنا ، فضحك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى بدت نواجذه ، فقال : أشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله عبد مؤمن بها إلا حجب من النار .

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ لرجل من أصحابه: هل من وضوء ؟ وهو ما يتوضأ به فجاء رجل بإداوة وهى الركوة فيها نطفة ماء ، أى : قليل ماء ، وقيل : للماء اليسير نطفة لأنه ينطف ، أى : يصب ، فأفرغها فى قدح ووضع راحته الشريفة ﴿ ﷺ وآله﴾ فى ذلك الماء فتوضأنا كلنا ، أى : الأربعة عشر مائة ندفقه دفقة ، أى : نصبه صبا شديدا .

وذكر بعض المفسرين فى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ (الفتح : ٢٧) . أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ رأى وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين فأخبرهم بذلك فلما صدوا ، قالوا له : أين رؤياك يارسول الله ؟ . فأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ الآية .

قال الحلبى فى السيرة : لا يخالف هذا ما تقدم أن الرؤيا المذكورة كانت بالمدينة وأنها السبب الحامل على الإحرام بالعمرة لجواز تكرار الرؤيا .

ذكر بعضهم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لما دخل مكة عام القضية وحلق رأسه قال : هذا الذى وعدتكم . فلما كان يوم الفتح وأخذ المفتاح قال : ادعوا إلى عمر بن الخطاب ﵁ فقال : هذا الذى قلت لكم . ولما كان فى حجة الوداع وقف بعرفة وقال : هذا الذى قلت لكم . فإن قيل : إنه لم يذكر فى الرؤيا أخذ المفتاح ولا أن يقف بعرفة . . أجيب : بأنه يجوز أن يكون أخبر بذلك بعد الرؤيا وأن المراد من ذلك مجرد دخوله والله أعلم .

أما الشجرة التى كانت البيعة عندها فقد بلغ عمر﵁ فى خلافته أن ناسا يصلون عندها ويطوفون بها ، فخاف ﵁ من اتساع الأمور وظهور البدعة وأن تعبد كالأصنام فأمر بها فقطعت .

النساء المؤمنات لا يرجعن

ولما قدم ﴿ ﷺ وآله﴾ المدينة هاجرت إليه أم كلثوم وبنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها ، وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ثم خرجت فى مدة الصلح مهاجرة ماشية على قدميها من مكة إلى المدينة ، وصحبت رجلا من خزاعة حتى قدمت المدينة وهى أخت عثمان ﵁ لأمه ، لأن أم عثمان ﵁ تزوجها بعد أبى عثمان عقبة بن أبى معيط فولدت له الوليد بن عقبة وأم كلثوم بنت عقبة وذكر بعضهم أنها أول امرأة هاجرت وفيه نظر ولما قدمت المدينة دخلت على أم سلمة رضى الله عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوفت أن يردها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عملا بالشرط ، فلما دخل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على أم سلمة رضى الله عنها أعلمته فرحب بأم كلثوم ، فخرج أخوها عمارة والوليد فى ردها بالعهد فقالا :

يامحمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه ، فقالت : يارسول الله أنا امرأة وحال النساء الضعف أفتردونى إلى الكفار يفتنونى عن دينى ولا صبر لى ، فنزل القرآن بأن النساء المؤمنات لا يرجعن وأن الشرط فى الرجال فقط ، وأن النساء يمتحن قال الله تعالى:﴿ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾(الممتحنة : ١٠) ، فأبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يرجعها إليهم ، وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزا ، ولا هاجرت إلا لله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وفى رواية : كانت المرأة إذا جاءت حلفها عمر بالله أنها ما خرجت راغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فإذا حلفت لم ترد ويرد صداقها إلى بعلها .

فلما رجع الوليد وعمارة مكة أخبرا قريشا فرضوا بذلك ، ولم يكن لأم كلثوم رضى الله عنها زوج بمكة ، فلما قدمت المدينة تزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ فى مدة الصلح يرد الرجال ولا يرد النساء بعد امتحانهن .

قصة أبو بصير المجاهد

وممن جاء من الرجال إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أبو بصير رضي الله عنه ، وكان مسلما بمكة فحبسوه فهرب حتى وصل إلى المدينة ، فكتب فى رده أزهر بن عبد عوف وقد أسلم بعد ذلك رضي الله عنه ، وهو من الطلقاء يوم الفتح ، وهو عم عبد الرحمن بن عوف والأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة وقد أسلم بعد ذلك رضي الله عنه كتب أزهر بن عوف والأخنس بن شريق فى رد أبى بصير كتابا وبعثا به رجلا من بنى عامر يقال له خنيس ومعه مولى يهديه الطريق ، فقدما على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالكتاب فقرأه أبى بن كعب رضي الله عنه على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه من رد من قدم

عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصاحبنا ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ : ياأبا بصير إنا أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك ، فقال : يارسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ قال : ياأبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن حولك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق معهما . . وصار المسلمون يقولون له : الرجل يكون خيرا من ألف رجل يريدون بذلك إغراؤه على من معه . . حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار ومعه صاحباه ، فقال أبو بصير لأحد صاحبيه ومعه السيف : أصارم سيفك هذا ياأخا بنى عامر ، فقال : نعم ، انظر إليه إن شئت . . فاستله العامرى ثم هزه وقال : لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما ما إلى الليل ، فقال له أبو بصير : ناولنيه أنظر إليه . . فناوله . . فلما قبض عليه ضربه به حتى برد يعنى مات ، ثم طلب المولى الذى كان معه يهديه الطريق فوجده قد خرج سريعا حتى أتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ وهو جالس فى المسجد ، فلما رآه رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ والحصى يطن تحت قدميه . وفى لفظ يطير من تحت قدميه من شدة عدوه وأبو بصير فى أثره قد أعجزه ، فقال ﴿ ﷺ وآله ﴾ : إن هذا الرجل قد رأى فزعا ، وفى رواية : ذعرا ، فلما انتهى إلى النبى

﴿ ﷺ وآله ﴾ وهو جالس فى المجلس قال له : ويحك مالك ، قال : قتل صاحبكم صاحبى ، وأفلت منه ولم أكذب إنى لمقتول واستغاث برسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ فأمنه ، فإذا أبو بصير أناخ بعير العامرى بباب المسجد ودخل متوشحا السيف وقال لرسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ : وفت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه ، فقال : اذهب حيث شئت . فقال يارسول الله : هذا سلب العامرى الذى قتلته رحله وسيفه فخمسه ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ : إذا خمسته رأونى لم أوف لهم بالذى عاهدهم عليه ، ولكن اذهب وشأنك بسلب صاحبك . وعند ذلك

ذهب أبو بصير إلى محل من طريق الشام يمر به ذو الميرة واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة فكانوا يتسللون إليه ، وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذى رده ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الحديبية ، وخرج من مكة سبعون راكبا أسلموا فلحقوا بأبي بصير وكرهوا أن يقدموا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى مدة الهدنة خوفا من أن يردهم إلى أهلهم ، وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل ، فقطعوا مارة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عيرا إلا أخذوها .. حتى كتبت قريش له ﴿ﷺ وآله﴾ تسأله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لهم بهم ، وفى رواية : أن قريشا أرسلت أبا سفيان بن حرب فى ذلك ، وأن قريشا أسقطت هذا الشرط وقالت : إن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره ، فكتب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه ، وأن من معهم من المسلمين يلحقوا ببلادهم وأهلهم ، ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش ولا لعيرهم ، فقدم كتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عليهما ، وأبو بصير يشرف على الموت لمرض حصل له ، فمات ﷺ وكتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى يده يقرؤه .

جواز بناء المساجد على المشاهد

فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجداً ، وقدم أبو جندل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع ناس من أصحابه ورجع باقيهم إلى أهلهم وأمنت قريش على عيرهم ، وتحقق قول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سيجعل الله لأبي جندل وأصحابه فرجاً ومخرجاً . وعلم أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذين صعب عليهم رد أبو جندل إلى قريش مع سهيل بن عمرو أن طاعة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خير مما أحبوه ، وأن رأيه

أفضل من رأيهم ، وعلموا بعد ذلك أن المصالحة كانت أولى لهم كما تقدم بيان ذلك .

نزول آية الظهار

وبعد الحديبية قبل خيبر، وقيل : بعد خيبر نزلت آية الظهار ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾(المجادلة : ١) . وسبب ذلك أن أوس بن الصامت – لا عبادة بن الصامت كما قيل – وكان شيخا كبيراً وفى رواية كان به لمم من الجنون ، وكان فاقد البصر ، قال لزوجته خولة بنت ثعلبة وفى لفظ بنت خويلد وكانت بنت عمه وقد راجعته فى شيء فغضب : أنت على كظهر أمي ، وكان ذلك فى الجاهلية طلاقاً ، أى : كالطلاق فى تحريم النساء . ثم راوده‍ا عن نفسها قالت : كلا . . لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى أسأل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . وفى رواية : أنه لما قال لها أنت علىّ كظهر أمى . . أسقط فى يده . وقال : ما أراك إلا قد حرمت علىّ . . انطلقى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فاسأليه فدخلت عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يمشط رأسه الشريف ، أى : عنده ما شطة ، أى : وهى عائشة رضى الله عنها تمشط رأسه . وفى لفظ : كان الظهار أشد الطلاق وأحرم الحرام إذا ظاهر الرجل من امرأته لا ترجع إليه أبداً . فقال لها ﴿ ﷺ وآله﴾ : ما أمرنا بشيء من أمرك . . ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فقالت : يارسول الله والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق . . وإنه أبو ولدى وأنه أحب الناس إلى . فقال : حرمت عليه . فقالت : أشكو إلى الله فاقتى وتركى إلى غير أحد وقد كبر سنى ودق عظمى . وفى لفظ : أنها قالت : اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى ، وما شق على من فراقه ، وما نزل بى ومصيبتى . قالت عائشة رضى الله عنها : فبكيت وبكى من كان فى البيت رحمة لها ورقة عليها . وفى لفظ قالت : يارسول الله إن زوجى أوس بن الصامت

تزوجنى وأنا ذات مال وأهل ٠٠٠ فلما أكل مالى وذهب شبابى ونقصت بطنى ٠٠ وتفرق أهلى ظاهر منى ، فقال لها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما أراك إلا قد حرمت عليه . فبكت وصاحت وقالت : أشكو إلى الله فقرى ووحدتى ، وصبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا ٠٠ وصارت ترفع رأسها إلى السماء فبينما هو ﴿ﷺ وآله﴾ قد فرغ من شق رأسه وأخذ فى الشق الآخر أنزل الله الآية ، فسرى عنه وهو يبتسم ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : مريه فليحرر رقبة ، فقالت : والله ما له خادم غيرى ، قال : مريه فليصم شهرين متتابعين فقالت : والله إنه لشيخ كبير ، إنه إن لم يأكل فى اليوم مرتين يندر بصره أى : لو كان مبصرا ٠٠ فلا ينافى ما تقدم أنه كان فاقد البصر ، قال : فليطعم ستين مسكينا ، فقالت : والله ما لنا اليوم وقية ، فقال : مريه فلينطلق إلى فلان يعنى شخصا من الأنصار أخبرنى أن عنده شطر وسق من تمر يريد أن يتصدق به فليأخذه منه ٠ وفى رواية : مريه فليأت أم المنذر بنت قيس فليأخذ منها شطر وسق من تمر فليتصدق به على ستين مسكينا ٠ ٠ وليراجعك ٠٠ ثم أتته فقصت عليه القصة فانطلق ففعل ٠ وفى لفظ قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : فأنا سأعينه بفرق من تمر ٠٠ فبكت وقالت : وأنا يارسول الله سأعينه بفرق آخر ، قال : قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيرا ٠ وفى رواية : لما قال ﴿ﷺ وآله﴾ : ما أعلم إلا قد حرمت عليه ، قالت عائشة رضى الله عنها : وراءك فتنحت ، فلما نزل عليه ﴿ﷺ وآله﴾ الوحى وسرى عنه ، قال : ياعائشة أين المرأة ؟ قالت : ها هى ٠٠٠ هذه ، قال : أدعيها ٠٠٠ فدعوتها ٠٠٠ فقال لها النبى ﴿ﷺ وآله﴾: اذهبى فجيئى بزوجك ، فذهبت فجاءت به ٠٠٠ وأدخلته على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فإذا هو ضرير البصر فقير سيء الخلق ٠٠ فقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : أتجد رقبة ؟ قال : لا ، وفى لفظ قال : ما لى بهذا من قدرة ؟ قال : أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : والذى بعثك بالحق إنى إذا لم أكل فى اليوم مرتين كل بصرى ، أى :

لو كان موجودا ، قال : أتستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ قال : لا ، إلا أن تعيننى به ، فأعانه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فكفر عنه ٠

عدالة مشهودة وجرأة معهودة

وهذا أول ظهار وقع فى الإسلام ٠٠٠ ومر سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بخولة هذه فى أيام خلافته ٠ فقالت له : قف ياعمر ، فوقف لها ٠٠ ودنا منها ٠٠ وأصغى إليها ٠٠ وأطالت الوقوف ٠٠ وأغلظت له القول ، أى : قالت له : هيهات ياعمر ٠٠ عهدتك وأنت تسمى عميرا وأنت فى سوق عكاظ ترعى القبان بعصاك ٠٠ فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ٠٠ فاتق الله فى الرعية ٠٠ واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ٠٠ ومن خاف الموت خشى الفوت . فقال لها الجارود : قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين ، فقال عمر ﷺ : دعها ٠

وفى رواية : أو تدرى من هذه؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عنى إلى الليل ما انصرفت حتى تنقضى حاجتها ٠

وأرسل ﴿ ﷺ وآله﴾ الكتاب لقيصر فى تلك السنة ، بعد رجوعه ﴿ ﷺ وآله﴾ من الحديبية ٠٠ وكان وصوله لديه فى المحرم سنة سبع كما سيأتى فى كتبه ﴿ ﷺ وآله﴾ للملوك يدعوهم إلى الإسلام ٠

الفصل السادس

غزوة خيبر

و خيبر بوزن جعفر ، وهى مدينة ذات حصون ومزارع ونخل كثير على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام سميت باسم رجل من العمالق نزلها يقال له خيبر ، ومعلوم أن البريد أربعة فراسخ وكل فرسخ ثلاثة أميال .

قال ابن إسحق : أقام ﴿ﷺ وآله﴾ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة ختام سنة ست وأقام من المحرم افتتاح سنة سبع أياما قيل : عشرون يوما ، وقيل : قريبا من ذلك ، ثم خرج إلى خيبر ، أى : وهو ما يذهب إليه الجمهور ، ونقل سيدنا الإمام مالك ؓ أن خيبر كانت سنة ست وإليه ذهب الإمام ابن حزم ، واستعمل ﴿ﷺ وآله﴾ على المدينة غيلة بن عبد الله الليثى ، وقيل : سباع بن عرفطة ، ويمكن الجمع بأنه استخلف أحدهما أولا ثم عرض ما يقتضى استخلاف الآخر ، وكان معه ﴿ﷺ وآله﴾ ألف وأربعمائة رجل وماتا فارس . وقد استنفر ﴿ﷺ وآله﴾ من حوله ممن شهد الحديبية ينفرون معه، وجاء المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه ﴿ﷺ وآله﴾ رجاء الغنيمة ، فقال : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا ، أى : لا تعطوا منها شيئا ، ثم أمر مناديا ينادى بذلك فنادى به .

خادم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

قال أنس ؓ: وقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لابن طلحة وهو زوج أم أنس ؓ حين أراد الخروج إلى خيبر : التمسوا إلى غلاما من غلمانكم يخدمنى ، فخرج أبو طلحة مردفى وأنا غلام قد راهقت ، فكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا نزل خدمته ، فسمعته كثير ما يقول : (اللهم أنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلع الدين وغلبة الرجال) . قال الحلبى : وهذا

السياق يدله على أن أول خدمة أنس له حينئذ ، وهو مخالف ما صح أنه عند قدومه ﴿ ﷺ وآله﴾ المدينة جاءت به أمه وقالت : هذا ابنى وهذا غلام كيس وكان عمره عشر سنين ، وقيل : تسع سنين ، وقيل : ثمان سنين ، ففى مسلم عن أنس ﵁ قال : جاءت بى أمى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد أزرتنى بنصف خمارها وردتنى بنصفه فقالت : يارسول الله هذا أنيس ابنى أتيتك به ليخدمك فادع الله له فقال : اللهم أكثر ماله وولده . وعند غير مسلم : وأطل عمره وأدخله الجنة .

وقد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما قال لابن طلحة ما ذكر رجاء أن يأتى له بمن هو أقوى من أنس على السفر شفقة على أنس ﵁ ومن ثم لم يخرجه ﴿ ﷺ وآله﴾ معه ، وفيه أنه خرج معه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى بدر ، فقد جاء أنه قيل لأنس ﵁ : أشهدت بدرا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾؟ فقال : لا أم لك وأين غبت عن بدر .
وقد يقال جاز أن يكون عرض لأنس ﵁ حين خروجه ﴿ ﷺ وآله﴾ خيبر ما يقتضى الشفقة عليه فى عدم إخراجه ﵁ معه ﴿ ﷺ وآله﴾ وكان الله قد وعد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند منصرفه من الحديبية فى سورة الفتح بمغانم بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾(الفتح : ٢٠) ، أى : مغانم خيبر وخرج معه ﴿ ﷺ وآله﴾ من نسائه أم سلمة رضى الله عنها .

جواز إقراض الشعر بين يديه ﴿ ﷺ وآله﴾

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ فى مسيره لعامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع رضى الله عنهما : انزل فحدثنا من هنيهاتك ، أى : من أراجيزك وشعرك ، وفى لفظ : انزل حرك بنا الركاب وكان يحدو حداء حسنا ، وفى رواية : وكان عامرا رجلا شاعرا فقال : يارسول الله تركت قول الشعر ، فقال له عمر بن الخطاب ﵁ : اسمع وأطع فنزل يرتجز ويقول :

والله لولا الله ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فدا لك ما أبقينا   وألقين سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا   إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا   ونحن عن فضلك ما استغنينا
إن الذين قد بغوا علينا   إذا أرادوا فتنة أبينا

وعند إنشاد الأبيات المذكورة قال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : يرحمك ربك ، وفى رواية : غفر لك ربك ، وما قال ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك لأحد فى مثل هذا الموطن إلا استشهد ؛ فقال عمر ﵁ : وجبت ، أى : الشهادة ، يارسول الله هلا أمتعتنا به ، أى : هلا أخرت الدعاء له بذلك إلى وقت آخر ، فاستشهد ﵁ حيث رجع إليه سيفه فقتله ، فإنه أراد أن يضرب به ساق يهودى فجائت ذبابته فى ركبته فمات من ذلك . فقال الناس : قتله سلاحه . وفى رواية : قتل نفسه ، أى : فليس بشهيد ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إنه لشهيد .

وفى فتح البارى عن بعض الصحابة فلما وصلنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول : قد علمت خيبر أنى مرحب .. شاكى السلاح بطل مجرب . . إذا الحروب أقبلت تلتهب .

فبرز له عامر ﵁ يقول :

قد علمت خيبر أنى عامر   شاكى السلاح بطل مقابر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب فى ترس عامر﵁ فذهب عامر يسفل لمرحب ، أى : يضربه من أسفل ، فعاد سيفه على نفسه ، أى : أصاب عين ركبة عامر فمات من ذلك الحديث .

وكون عامر ارتجز لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، أى : حدا به، لا ينافى ما جاء أن البراء بن مالك كان حسن الصوت وكان يرتجز لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى أسفاره ، لأن

المراد فى الغالب أو فى بعض أسفاره ﴿ﷺ وآله﴾ . وفى رواية : قال سلمة بن الأكوع ﷺ : يارسول الله فداك أبي وأمى زعموا أن عامرا أحبط عمله ، وفى لفظ : يزعم أسيد بن حضير وجماعة من أصحابك أن عامرا حبط عمله إذ قتل بسيفه ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : كذب من قال ذلك ، أى : أخطأ فى قوله ، وإن له أجرين ، وجمع بين أصبعيه إنه لجاهد مجاهد ، و الجاهد الجاد فى أمره ، فلما قام به وصفان كان له أجران ﷺ .

خيبر ورفع الصوت بالدعاء

وفى البخارى عن أنس ﷺ أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أتى خيبر ليلا، أى: قرب منها ، فنام هو وأصحابه دونها ، ثم ركبوا إليها بكرة فصبحوها بالقتال ، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ إذا أتى قوما بليل لم يغزهم ، أى : لم يسرع بالهجوم عليهم ، حتى يصبح وينظر فإن سمع أذانا كف عنهم ، وإلا أغار عليهم . فلما أتى خيبر أصبح ولم يسمع أذانا فركب .

وفى رواية لابن إسحق : إنه﴿ﷺ وآله﴾ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه : قفوا ، ثم قال : (اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإن نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله) . وفى لفظ (ادخلوا على بركة الله) وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يقول هذه الكلمات لكل قرية دخلها .

وجاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أربعوا على أنفسكم ، أى : ارفقوا بأنفسكم ، لا تبالغوا فى رفع أصواتكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم .

قال عبد الله بن قيس ﷺ :وكنت خلف دابته ﴿ﷺ وآله﴾ فسمعنى أقول :لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فقال : ياعبد الله بن قيس ، قلت : لبيك يارسول الله

قال : ألا أدلك على كلمة من كتر الجنة ؟ قلت : بلى يارسول الله فداك أبى وأمى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويحتاج الجمع بين هذا وبين أمره ﴿ﷺ وآله﴾ بأن أصحابه يرفعون أصواهم بالتلبية ، وقد يقال النهى عنه هنا الرفع الخارج عن العادة الذى ربما آذى بدليل قوله ﴿ﷺ وآله﴾

أربعوا على أنفسكم ، أى : ارفقوا بها ، كما تقدم فلا منافاة .

والحقيقة والله أعلم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ نهاهم عن رفع الصوت بالتهليل والتكبير لأن الأصوات تسرى ليلا لمكان بعيد وكانوا بالقرب من خيبر ، وأهل خيبر على يقين من غزو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لهم فى يوم ما ، ومعلوم عندهم أن التكبير والتهليل خاص بالمسلمين فإذا رفعوا أصواهم ليلا دعا ذلك إلى سماع اليهود ، وسماعهم يؤدى إلى الاستعداد الذى ربما أضر بتدبير الجهاد وأخر الفتح . ومن فهم قوله ﴿ﷺ وآله﴾ : فإنكم لا تدعون ، ولم يقل فإنكم لا تكبرون ولا تهللون لأن الوقت ليس وقت ذكر ولكنه وقت ابتهال وتضرع لله تعالى بالنصرة على الأعداء ، ومقتضى الحال يقتضى الإخفات بالدعاء تحرفا للقتال ولم ينه ﴿ﷺ وآله﴾ المهلل والمكبر فى غير هذا الوقت عن رفع صوته ، كيف لا ؟ وكان أصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ يرفعون أصواهم بالذكر عقب الصلوات الخمس ، وبتلاوة القرآن المجيد ، وبالتلبية ، ومن فقه عن الله تعالى وعن رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ تظهر له أنوار القرآن المجيد والسنة المطهرة .

نبوءته ﴿ﷺ وآله﴾ بخراب خيبر

فلما أصبح ﴿ﷺ وآله﴾ وأبصر عمالها وقد خرجوا بمساحيهم و مكاتلهم إلى زروعهم ورأوه ﴿ﷺ وآله﴾ قالوا : محمد والخميس ، أى :الجيش العظيم معه قيل له : الخميس لأنه خمسة أقسام : المقدمة ، و الساقة ، والميمنة والميسرة وهما الجناحان ،

والقلب وأدبروا هرابا ، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ٠٠ قالها ثلاثا .

وحكى الواقدى : أن أهل خيبر سمعوا بقصده ﴿ ﷺ وآله﴾ لهم فكانوا يخرجون فى كل يوم عشرة ألاف مقاتل متسلحين مستعدين صفوفا ، ثم يقولون : محمد يغزونا هيهات هيهات ، حتى إذا كان الليلة التى قدم فيها المسلمون ناموا ولم تتحرك لهم دابة ، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس .

وذكر أن عبد الله بن أبى بن سلول أرسل إليهم يخبرهم بأن محمدا سائر إليكم ، فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم ، واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير ، وقوم محمد شرذمة قليلون عذل لا سلاح معهم إلا قليل .

فلما كانت تلك الليلة التى نزل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ صبيحتها بساحتهم ، لم يتحركوا تلك الليلة ، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس ، فأصبحوا ، أى : قاموا من نومهم ، وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم الفوس ، ويقال لها ، الكرازين و المساين ومعهم المكاتل ، أى : وهى القفف الكثيرة ، فلما رأوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولوا هاربين إلى حصونهم ٠ فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ٠٠ قالها ثلاثا .

وبذلك استدل على جواز الاقتباس من القرآن ، وإنما قال ﴿ ﷺ وآله﴾: الله أكبر خربت خيبر ، لأنه لما رأى آلة الهدم وهى المساحى و المكاتل تفاءل بأن حصونهم ستخرب ، ويحتمل أن الله تعالى أعلمه بذلك بالوحى وهو الأصح ، وصلى الصبح ﴿ ﷺ وآله﴾ بغلس ثم دفع رايته العقاب إلى الحباب بن المنذر ﵁ ، ودفع راية لسعد بن عبادة ﵁.

وذكر ابن إسحق : أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ نزل بواد يقال له الرجيع بينهم وبين غطفان لئلا يمدوهم وكانوا حلفاءهم ، وأن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر فسمعوا حساً خلفهم

فظنوا أن المسلمين خلفوهم فى زراريهم فرجعوا وأقاموا وخذلوا أهل خيبر ، أى : تركوهم . وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصون الكثيبة ، وجمعوا المقاتلة فى حصون النطاة .

المشورة والمكيدة فى الحرب

وكان النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نزل قريبا من حصون النطاة فجاءه الحباب بن المنذر ﵁ فقال : يارسول الله : إنك نزلت مترلك هذا فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم وإن كان هذا لرأى تكلمنا ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : هو الرأى فقال : يارسول الله إن أهل النطاة لى بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لا نحطاط نبلهم ، ولا نأمن من بياقم يدخلون فى حمر النخل ، أى : النخل المجتمع بعضه على بعض ، تحول يارسول الله ، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أشرت بالرأى إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا . ودعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ محمد بن مسلمة فقال : انظر لنا مترلا بعيدا فطاف محمد بن مسلمة وقال : يارسول الله وجدت لك مترلا ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : على بركة الله وتحول لما أمسى وأمر الناس بالتحول . وفى لفظ : إن راحلته ﴿ﷺ وآله﴾ قامت تجر بزمامها فأدركت لترد ، فقال : دعوها فإنها مأمورة ، فلما انتهت إلى موضع من الصخرة بركت عندها ، فتحول رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ إلى الصخرة وتحول الناس إليها واتخذوا ذلك معسكرا ، وكان ذلك الموضع حائلا بين أهل خيبر و غطفان، وابتنى هنالك مسجداً صلى به طول مقامه بخيبر ، وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة فوقع المسلمون فى قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ، ثم نهاهم عن القطع فما قطع من نخيل خيبر غيرها ، وقاتل ﴿ﷺ وآله﴾ يومه ذلك أشد القتال وعليه درعان وبيضة و مغفر وهو على فرس يقال له الظرب ، وفى

يده قناة وترس ، وما قيل : إنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ركب على حمار مخطوم برسن من ليف وتحته أكاف من ليف فلعله كان فى الطريق ، أما حال الحرب فإنه ركب ذلك الفرس ، وألح على حصن ناعم بالرمى وهو من حصون النطاة ويهود تقاتل .

ودفع لواءه لرجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئا ، فدفعه إلى آخر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئا ، وخرجت كتائب يهود بقدمهم رجل منهم يقال له ناشر فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى موقفه ، فاشتد ذلك على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأمسى مهموما . وفى ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة رضى الله عنهما برحى ألقيت عليه من ذلك الحصن ألقاها عليه مرحب اليهودى ، وقيل : كنانة بن الربيع اليهودى ، ويحتمل أنهما اجتمعا فى ذلك ، وكان محمود بن مسلمة ﵁ قد حارب حتى أعياه الحرب وثقل السلاح وكان الحر شديدا ، فانحاز إلى ظل ذلك الحصن ، فألقى عليه حجر الرحى فهشم البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه وندرت عينه ، فأدركه المسلمون فأتوا به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقة فمات ﵁ من شدة الجراحة ، فجاء أخوه محمد بن مسلمة ﵁ إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : إن اليهود قتلوا أخى محمود ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا تتمنوا لقاء العدو و اسألوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت ، ثم الزموا الأرض جلوسا ، فإن غشوكم فانهضوا وكبروا .
ومكث ﴿ ﷺ وآله﴾ سبعة أيام يقاتل أهل حصون النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة ﵁ للقتال ويخلف على العسكر عثمان بن عفان ﵁ ، فإذا أمسى رجع إلى

ذلك المحل ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه ، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يناوب بين أصحابه فى حراسة الليل .

فلما كانت الليلة السادسة من السبع استعمل عمر بن الخطاب ﷺ ، فطاف عمر بأصحابه ﷺ حول العسكر وفرقهم فأتى برجل من يهود خيبر فى جوف الليل فأمر به عمر ﷺ أن يضرب عنقه ، فقال : اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه ، فأمسك عنه وانتهى به إلى باب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فوجده يصلى فسمع ﴿ ﷺ وآله﴾ كلام عمر ﷺ ، فلما سلم من صلاته أدخله عليه فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لليهودى : ما وراءك ؟ قال : تؤمننى ياأبا القاسم ؟ قال : نعم ، قال : خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة ، قال : فأين يذهبون ؟ قال : إلى الشق يجعلون فيه ذراريهم و يتهيأون للقتال .

ولعل المراد ما أبقوه من ذراريهم فلا ينافى ما تقدم من أنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصون الكثيبة ، أو أن ذلك المخبر أخبر بحسب ما فهم أنهم يجعلون ذراريهم فى الشق . والحال أنهم إنما يذهبون ليجعلوا زراريهم فى حصون الكثيبة . . فليتأمل .

وأخبره أن فى هذا الحصن يعنى حصن الصعب من حصون النطاة فى بيت فيه تحت الأرض منجنيقا ودبابات ودروعا وسيوفا ، فإذا دخلت الحصن غدا وأنت تدخله ، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن شاء الله ، قال اليهودى : إن شاء الله ، أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيرى ، وأخرى قيل : وما هى ؟ قال : ستخرج المنجنيق وتنصبه على الشق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك ، وكذلك تفعل بحصون الكثيبة ، ثم قال : ياأبا القاسم احتقن دمى ، قال : أنت آمن ، قال : ولى زوجة فهبها لى ، قال : هى لك ، ثم دعاه إلى الإسلام فقال : أنظرنى أياما .

فاتح خيبر رجل يحبه الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾

وكان ﴿ﷺ وآله﴾ تأخذه الشفيقة فى بعض تلك الأيام فيبعث أناسا من أصحابه فلم يكن فتح ، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾ لمحمد بن مسلمة ﷺ لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يولى الله الدبر يفتح الله عز وجل على يديه ، فيمكنه الله من قاتل أخيك ؛ وعند ذلك لم يكن أحد من الصحابة ﷺ له منزلة عند النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلا ورجا أن يعطاها . وفى رواية : فبات الناس يخوضون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كلهم يرجو أن يعطاها .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم ، ولعل ذلك لا ينافى ما جاء أن وفد ثقيف لما جاءوه ﴿ﷺ وآله﴾ قال لهم : تسلمن أو أبعثن إليكم رجلا منى وفى رواية : مثل نفسى فليضربن أعناقكم وليسبين ذراريكم ، وليأخذن أموالكم . قال عمر ﷺ : فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، وجعلت أنصب صدرى إليه ﴿ﷺ وآله﴾ رجاء أن يقول : هو هذا . فالتفت ﴿ﷺ وآله﴾ إلى على كرم الله وجهه فأخذ بيده وقال : هو هذا . . هو هذا . وقد يقال : لا يلزم من محبة الشيء تمنيه بخلاف العكس . وفى هذه الغزوة أحب الإمارة وما تمناها لأن الوصف فى ذلك أبلغ من الوصف هنا .

ويروى أن عليا كرم الله وجهه لما بلغه مقالته ﴿ﷺ وآله﴾ قال : اللهم لا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت . فبعث ﴿ﷺ وآله﴾ إلى على كرم الله وجهه وكان أرمدا شديد الرمد ، وكان قد تخلف بالمدينة ثم لحق بالقوم ، فقيل للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ : إنه يشتكى عينه ، فقال : من يأتينى به ؟ فذهب إليه سلمة بن الأكوع ﷺ وأخذ بيده يقوده حتى أتى به النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقد عصب عينيه فعقد له لواءه الأبيض .

قال ابن إسحق : لم تكن الرايات إلا يوم خيبر فإنه ﴿ﷺ وآله﴾ فرق الرايات يومئذ بين أبي بكر وعمر و الحباب بن المنذر وسعد بن عبادة ﵁ وإنما كانت الألوية وكانت راية رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سوداء من برد لعائشة رضى الله عنها تدعى العقاب . .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى : وكانت له راية سوداء ، وفى رواية بيضاء .

وربما جعل فيها الأسود ، ولعل السواد كان كتابة فى ذلك اللواء ، ولعل هذا اللواء الذى فيه الأسود هو المعنى بما جاء فى بعض الروايات كان له لواء أبيض مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أى : بالسواد ، فلا تنافى بين الروايات ٠

فقال على : يارسول الله إنى أرمد كما ترى لا أبصر موضع قدمى ، فوضع رأسه فى حجره﴿ﷺ وآله﴾ ثم بصق ﴿ﷺ وآله﴾ فى عينيه، وفى رواية:فتفل فى كفه وفتح له عينيه فدلكهما فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع ، وقال على كرم الله وجهه : فما رمدت بعد يومئذ ، وفى رواية : فما رمدت ولا صدعت ، وفى رواية : فما اشتكيتها حتى الساعة ٠

وفى هذا السياق لطيفة : وهو أن من طلب شيئا أو تعرض لطلبه يحرمه غالبا ، وأن من لم يطلب الشيء ولا يتعرض لطلبه ربما وصل إليه ، وقد أشار إلى ذلك ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله : رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكن لأجل سؤاله إياه أخر عنه سنة ٠ وقد قيل : لو وقعت قلنسوة من السماء لا تقع إلا على رأس من لا يريدها .

فضائل تتزاحم ونصر دائم

ثم دعا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لعلى﵁ وكرم الله وجهه بقوله :(اللهم اكفه الحر والبرد) ، قال على رضى الله عنه : فما وجدت بعد ذلك حرا ولا بردا .

ثم أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أعطى عليا الراية ليذهب للقتال ، فقال على كرم الله وجهه : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فى الإسلام ، فإن لم يطيعوا لك بذلك فقاتلهم ، فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم .

وفى رواية قال على : علام أقاتلهم ؟ قال : على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم .

وفى رواية: لما أعطاه الراية قال له: امش ولا تلتفت ، فسار شيئا ثم وقف ولم يلتفت فصرخ : يارسول الله علام أقاتلهم ؟ قال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .

وعن حذيفة ﵁ قال : لما هيأ على كرم الله وجهه يوم خيبر للحملة قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ياعلى والذى نفسى بيده إن معك من لا يخذلك هذا جبريل عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فأبشر بالرضوان والجنة ، ياعلى إنك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم .

وفى رواية: إنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان يعطى الراية كل يوم واحد من أصحابه ويبعثه، فبعث أبا بكر رضى الله عنه فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث عمر بن الخطاب ﵁ من الغد فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث رجلا من الأنصار فقاتل ورجع ولم يكن فتح .

وفى رواية : ألبسه درعه الحديد وشد ذا الفقار الذى هو سيفه فى وسطه وأعطاه الراية ووجهه إلى الحصن ، فخرج على كرم الله وجهه يهرول حتى ركزها تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال : على بن أبى طالب ، قال اليهودى : علوتم والتوراة التى أنزلها الله على موسى ثم خرج إليه أهل الحصن وكان

أول من خرج إليه الحارث أخو (مرحب) وكان معروفا بالشجاعة ، فانكشف المسلمون ووثب على كرم الله وجهه عليه فتضاربا وتقاتلا فقتله على كرم الله وجهه وانهزم اليهود إلى الحصن ، ثم خرج إليه مرحب ، وفى رواية : أن مرحبا لما علم أن أخاه قد قتل خرج سريعا من الحصن وقد لبس درعين وتقلد بسيفين وأعتم بعمامتين ولبس فوقهما مغفرا وحجرا قد ثقبه قدر البيضة ، ومعه رمح لسانه ثلاث أسنان ٠ ٠ وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تلتهب   وأحجمت عن صولة المغلب

فبرز له على عليه السلام وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة
كليث غابات شديد القشورة
أكيلكم بالسيف كيل السندرة

ثم حمل مرحب على على كرم الله وجهه وضربه فطرح ترسه فى يده ، فتناول على كرم الله وجهه بابا كان عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن ، ثم ألقاه من يده وراء ظهره ، وكان طول الباب ثمانين شبرا ، ولم يحركه بعد ذلك سبعون رجلا إلا بعد جهد ، وهذا فيه دلالة على فرط قوة على كرم الله وجهه وكمال شجاعته .

ثم إن عليا كرم الله وجهه ضرب مرحبا فتترس فوقع السيف على الترس فقده وشق المغفر والحجر الذى تحته والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ السيف فى الأضراس ٠ ٠ وإلى ذلك أشار بعضهم وقد أجاد بقوله :

و شادن أبصرته مقبلا   فقلت من وجدى به مرحبا

قد فؤادى فى الهوى قدة   قد على فى الوغى مرحبا

وما ذكر من قتل على كرم الله وجهه لمرحب هو الصحيح المروى فى صحيح مسلم وغيره ، وذكر بعض السير أن الذى قتل مرحبا محمد بن مسلمة كرم الله وجهه فقال : إن مرحبا طلب المبارزة فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : من لهذا ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا يارسول الله فإن أخى قتل بالأمس ولم يأخذ أحد بثأره وكان الذى قتله مرحب فقال

﴿ﷺ وآله﴾ : قم إليه اللهم أعنه عليه .. فقام إليه وبارزه فضربه مرحب فاتقى محمد بن مسلمة ضربته بدرقته فوقع سيف مرحب فيها فعضت عليه و أمسكته ، فضربه محمد بن مسلمة فقتله ، وفى رواية : فضربه فى ساقه .

فيحتمل أنه بارزه وضربه فى ساقه وعلى ﵁هو الذى قتله ، وقيل : أن الذى قتله محمد بن مسلمة ﵁ إنما هو الحارث أخو مرحب فاشتبه على بعض الرواة وكان مكتوبا على سيف مرحب (من يصبه يعطب) .

وقول على كرم الله وجهه : أنا الذى سمتنى أمى حيدرة ، أراد بذلك إعلام مرحب برؤية رآها علمها على كرم الله وجهه مكاشفة ، وذلك أن مرحبا رأى تلك الليلة مناما أن أسدا افترسه ، فأشار بقوله : (حيدرة) وهو من أسماء الأسد إلى أنه الأسد الذى يفترسه ، فلما سمع ذلك مرحب ارتعد وضعفت نفسه ، وهذا الاسم سمت عليا به أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وأرادت أن يكون اسم ابنها كاسم أبيها ، وكان أبو طالب غائبا فلما قدم كره ذلك الاسم وسماه عليا .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى ياسر   شاكى السلاح بطل مغاور

وكان أيضا من مشاهير فرسان يهود وشجعاهم ، وهو يقول : من يبارز ؟ فخرج له الزبير ﷺ ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها وكانت مع القوم وهى عمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : يارسول الله إنه يقتل ابنى ، فقال : بل ابنك يقتله إن شاء الله تعالى فقتله الزبير ، وعند ذلك قال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : فداك عم وخال لكل نبى حوارى وحوارى الزبير .

وذكر الزمخشرى : أن هذه الواقعة للزبير كانت فى بنى قريظة . وفى رواية: أن القاتل لياسر على بن أبى طالب كرم الله وجهه .. ويمكن الجمع بأهما اشتركا فى ذلك .

سجدة القلب دليل العناية الإلهية

وكان من جملة قتلى المسلمين الأسود الراعى وكان أجيرا لرجل من اليهود يرعى له غنما ، وكان عبدا حبشيا يسمى أسلم وقيل : يسار ، فجاء إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو محاصر وقال : يارسول الله اعرض على الإسلام فعرضه عليه فأسلم . وفى رواية قال:إن أسلمت ماذا لى ؟ قال ﴿ ﷺ وآله﴾ :الجنة، فأسلم ، فلما أسلم قال : يارسول الله إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم فكيف أصنه بها ؟ وفى رواية : إنها أمانة وهى للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك ، قال : اضرب فى وجهها فإنها سترجع إلى ربها ، فقام الأسود فأخذ حفنة من حصى فرمى به وجهها وقال : ارجعى إلى صاحبك فو الله لا أصاحبك ، فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم ذلك الأسود فقاتل مع المسلمين فأصابه حجر وفى رواية سهم فقتله ولم يسجد لله سجدة ، فأتى به إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعه نفر من أصحابه فأعرض عنه ، فقالوا : يارسول الله لم أعرضت عنه ؟ قال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه وتقولان : ترب الله من ترب وجهك وقتل من قتلك . زاد فى لفظ : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير قد كان الإسلام من نفسه حقا .

انظر إلى أسلم هذا وهو عبد حبشى كيف جذبته العناية الإلهية ، ودعاه الحق ، وسمع بأذن قلبه فأقبل بكليته ، كيف بلغ من اليقين مبلغا أشهده ما أعده الله لمن آمن وعمل الصالحات ، وزهد ما فى يده بحال على جمله الله به بقدر يقينه ، وأمانته ، يخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن الشاء التى معه (أى الغنم) ، ليعلم حكم الله فيها .

فأمره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالوفاء مع أنها مال الحربيين ، وهى حل للمسلمين ، لو أخذت من أيديهم ، ولكن المسلم لابد أن يفى بذمته ، فردها زاهدا فيها ، بما واجهه الله به ، ثم أقبل بكله على الله تعالى فبذل نفسه بعد أن بذل الدنيا بما واجهه الله به من حسن الثواب ، وخير الجزاء ، مع أن جسده لم يسجد لله سجدة ، ولكن قلبه سجد لله سجودا جعله قريبا من الله ، وهذه هى أحوال اليقين وصولة الحق التى يحصل بها الإصطلام والفناء عما سوى الله سبحانه وتعالى ٠ وكم لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أحوال سجد العقل دون سرها ، ومن أنوار كسفت الأبصار عن مواجهتها عليها أسس القوم طريقهم ، ومنها استنبطوا أحوالهم ٠ ٠ نفعنا الله بهم ووفقنا الله للعمل بما كانوا عليه ﷺ.

استعجل الموت فكان من أهل النار

ثم إن الله تعالى فتح ذلك الحصن وهو حصن ناعم وهو أول حصن من حصون النطاة على يد على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وعن يزيد بن أبى عبيد قال : رأيت أثر ضربة بساق سلمة بن الأكوع ﷺ فقلت : ما هذه الضربة ؟ قال : هذه ضربة أصابتنى يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة ٠٠ رواه البخارى.

وفى البخارى أيضا عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال فى رجل ممن يدعى الإسلام : إنه من أهل النار . فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراح فكان بعض الناس يرتاب ، أى يشك فى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنه من أهل النار ، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها سهما فنحر نفسه ، فاشتد رجل من المسلمين وهو أكثم الخزاعى فقال : يارسول الله صدق الله حديثك انتحر فلان فقتل نفسه ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : قم يابلال فأذن فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وأن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

وفى رواية : عن سهل بن سعد الساعد ﷺ أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فمال إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفى أصحابه رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه ، فقيل : ما أجزى أحد منا اليوم كما أجزى فلان ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : أما أنه من أهل النار ، فقال رجل من القوم : أنا أصاحبه فخرج معه كلما وقف وقف معه ، وإذا أسرع أسرع معه فجرح الرجل جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : أشهد أنك رسول الله ، قال : وما ذاك ؟ قال الرجل : الذى ذكرت آنفا أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فقلت : أنا لكم به ، فخرجت فى طلبه ، ثم جرح جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند ذلك : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة ، تدركه الشقاوة أوالسعادة عند خروج نفسه فيختم له بها ، وإنما الأعمال بالخواتيم .

وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى هذا الرجل : إنه من أهل النار يحتمل أن يكون ذلك لنفاق فى قلبه أطلع الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ عليه ، أو لأنه يرتد بعد ذلك ويستحل قتل نفسه .

قال العلماء : هذا الرجل أعلمنا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه نفذ عليه الوعيد بالنار ، ولا يلزم منه أن كل من قتل نفسه يقضى عليه بالنار ، بل يحتمل أن هذا الرجل حين أصابته الجراحة ارتاب وشك فى الإيمان ، أو استحل قتل نفسه فمات كافرا ، ويؤيده قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ٠

وجاء فى رواية : أن الذى نادى بلال ، وفى أخرى عمر بن الخطاب ، وفى أخرى عبد الرحمن بن عوف ﷺ . قال الحافظ بن حجر : يجمع بينهم نادوا جميعا فى جهات مختلفة ٠ ثم إنه وقع اختلاف بين رواية أبى هريرة وسهل بن سعد رضى الله عنهما فى الألفاظ ، فقيل : إن القصة متعددة فى موطنين لرجلين مختلفين ٠ وقيل : إنها قصة واحدة والاختلاف من تصرف الرواة ، وسيأتى أن أبى هريرة ﷺ لم يحضر قتال خيبر إنما جاء عند قسم غنائمها ، فلعله سمع القصة من بعض الصحابة ﷺ ٠

ذرة من عمل القلوب

خير من أمثال الجبال من عمل الجوارح

فى هذه الحادثة نتحقق أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يطلعه الله على سر القدر ، فإنه ﴿ﷺ وآله﴾ بشر كثيرا من أصحابه رضوان الله عليهم بالجنة ، ثم أخبر أن هذا الرجل الذى جاهد جهادا جعل الصحابة يعجبون منه فى النار ، وسر ذلك أن أعمال الجوارح إن لم تكن ناتجة عن إخلاص فى القلب لذات الله تعالى ، وعلم يقين بتوحيده سبحانه وبعظمته التى تمحو كل حظ من القلوب فى الدنيا والآخرة ، لا يكون مقبولا ولا ماضيا لما فى القلوب مما يوجب القطيعة والغضب من الله تعالى ، ولذلك فإن المرشدين من أئمة العارفين يجعلون عنايتهم فى تربية تلاميذهم بأعمال القلوب وتزكية النفوس ، وتعليمهم الإيمان والإخلاص والصدق قبل العمل ، وينشلوهم من أوحال التوحيد ، لأن ذرة من عمل القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله . فمن أوتى حظه من الصبر واليقين لا يبالى بما فاته فى العمل ، ولو أن هذا الرجل آمن حقا لما سلب إيمانه ، ولكنه سمع الناس يقولون فقال و رأى الناس يعملون فعمل للحمية الجاهلية والعصبية ، ولم يذق للإيمان حلاوة ، ولا للتوحيد لذة ، ولا للإخلاص طعما ، فهو لخراب قلبه من تلك المعانى كالكافر سواء بسواء .

وما العلم والأعمال من غير خشية		سوى آلة صماء سؤل

المنافق

قال ﴿ﷺ وآله﴾ : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم . فإذا رأيت أهل المجاهدة فى تزكية أنفسهم وطهارة قلوبهم وعمارتها باليقين الحق فلا تنقد عليهم عملهم ، وإن قصروا فى أعمالهم البدنية حاشا الواجب بأن

خرجوا من التجريد إلى الأسباب ، أو من الأسباب إلى التجريد ، أو من الإقامة إلى السياحة ، أو من الشهرة إلى الكمون ، فإن تزكية النفوس وأنس القلوب بالحق فوق تلك الدنيا وما فيها لمن علم طريقة التوحيد ، وتحقق ما أعده الله للمخلصين .

هذه الحادثة تجعل المخلص على خطر عظيم لجهل السابقة ، والعابد فى خوف شديد ، والعالم فى خشية ورهبة . ومنها نصدق ببعض بشائر الأولياء لتلاميذهم ، فإن الولى يقتبس من مشكاة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

نسأل الله تعالى أن يمنحنا الأدب مع حضرته العلية ، والتآدب بأدب حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ إنه مجيب الدعاء ، وأن يعيننا بوجهه الكريم من السلب بعد العطا ، ومن كفران النعمة وحرمان الرضا ، وأن يجعلنا سبحانه وتعالى ممن لهم الأمن وهم مهتدون .. إنه مجيب الدعاء .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فتح الحصون وإخراج ما يكتمون

ولم يزل القتال بين المسلمين واليهود ، والمسلمون يفتحون حصونهم حصنا بعد حصن حتى أتموها ، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون ، واستشهد من المسلمين خمسة وعشرين رجلا ، وقيل : أربعة وثلاثون ، وفتح الله حصون اليهود حصنا حصنا وهى النطاة بوزن حصاة ، وحصن الصعب ، وحصن ناعم ، وحصن قلعة الزبير بن العوام ﷺ نسب إليه لكونه صار فى سهمه بعد وكان فى قلة جبل ، والشق، والقموص، وحصن البر، وحصن أبي الوطيح، والسلالم وهو حصن ابن أبى الحقيق وأخذ ﴿ ﷺ وآله﴾ كنز آل أبي الحقيق الذى كان فى مسك ، أى : جلد حمار ، ولما كثر جعلوه فى مسك ثور ، فلما كثر جعلوه فى مسك جمل ، وكان قد غيبوه فى خربة فأدل الله رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ عليه فأخبر بموضعه وكان من مال بنى النضير الذى حمله حيي بن أخطب لما أجلى عن المدينة .

روى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن أهل خيبر شرطوا له ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا يكتموه شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ، فأتى بكنانة والربيع فقال لهما : ما فعل مال حيي الذى جاء به من بنى النضير ؟ قال : أذهبته الحروب والنفقات ، فقال : العهد قريب والمال أكثر .

وروى البيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه﴿ ﷺ وآله﴾ أتى بكنانة وأخيه الربيع وابن عمهما فقال : أين آنيتكم التى كنتم تعيرونها أهل مكة ؟ قالوا : هربنا فلم نزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى فذهب منا كل شيء ، فقال : إن كتمتمانى شيئا فأطلعت عليه استحللت به دماءكما وذراريكما ، فقالا : نعم ، فدعا رجلا من الأنصار فقال : اذهب إلى نخل كذا وكذا فانظر نخلة مرفوعة فأتنى بما فيها ، فجاءه بالآنية والأموال ، فقومت بعشرة ألاف دينار ، فضرب عنقهما وسبى أهليهما بالنكث الذى نكثاه .

وفى رواية : أن كنانة جحد أن يكون يعلم مكان الكنز ، فدفعه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الزبير فمسه بعذاب ، فقال : رأيت حييا يطوف فى خربة ههنا ، ففتشوها فوجدوا المسك فقتل ابن أبى الحقيق .

حصن الصعب مدد الجيش

وأصاب المسلمين مجاعة قبل فتح الحصون ، وأرسلت أسلم إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون : أجهدنا الجوع ، فلامهم رجل وقال : من بين العرب تصنعون هذا ، فقال هند بن حارثة أخو أسماء : والله إنى لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مفتاح الخير ، فجاءه أسماء وبلغه ما قالت أسلم ، فدعا لهم ، وقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه ، وقال : اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا ، ودفع اللواء للحباب بن المنذر ، وندب

الناس ففتح الله حصن الصعب قبل ما غابت الشمس من ذلك اليوم بعد أن أقاموا على محاصرته يومين ، وما بخيبر أكثر طعاما منه من شعير وتمر وودك ، أى : سمن وزيت وشحم وماشية ومتاع ، وكان بهذا الحصن خمسمائة مقاتل ، وقبل فتحه خرج رجل يقال له الدبال فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى فقتله وقال : خذها وأنا الغلام الغفارى ، فقال الناس : حبط جهاده ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ لما بلغه ذلك : يؤجر ويحمد .

وحملت يهود حملة منكرة فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحباب بن المنذر ﷺ فحض ﴿ ﷺ وآله﴾ المسلمين على الجهاد فأقبلوا : وزحف بهم الحباب فانهزمت يهود وأغلقوا الحصن عليهم ، ثم إن المسلمين اقتحموا الحصن عليهم يقتلون ويأسرون فوجدوا فى ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن وغيرها شيئا كثيرا ، ونادى منادى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : كلوا واعلفوا ولا تحملوا ، أى : لا تخرجوا به إلى بلادكم .

وعن عبد الله بن مغفل ﷺ قال: أصبت من فىء خيبر ، أى : غنيمتها ، جرابا فاحتملته على عنقى أريد رحلى فلقينى صاحب المغانم الذى جعل عليها وهو أبو اليسير كعب بن زائد الأنصارى ﷺ فأخذ بناصيتى وقال : هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين ، فقلت : لا والله لا أعطيك ، فجعل يجاذبنى الجراب فرآنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ونحن نصنع ذلك فتبسم ضاحكا ثم قال لصاحب الغنائم : لا أبالك خل بينه وبينه ، فأرسلنى فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى فأكلناه .

روى : ولما قدم ﴿ ﷺ وآله﴾ خيبر كان التمر أخضر فأكثر الصحابة من أكله فأصابتهم الحمى ، فشكوا ذلك لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : بردوا لها الماء فى الشنان ، أى : القرب ، ثم صبوا عليكم منه بين أذانى الفجر ، واذكروا اسم الله عليه ففعلوا فذهبت عنهم .

شجرتان تستران رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

وفى هذه الغزوة أراد﴿ﷺ وآله﴾ أن يقضى حاجته فقال لابن مسعود﵁ : ياعبد الله انظر هل ترى شيئا ؟ يقول ابن مسعود : فنظرت فإذا شجرة واحدة فأخبرته ، فقال لى : انظر هل ترى شيئا ؟ فنظرت شجرة أخرى متباعدة من صاحبتها فأخبرته ، فقال : قل لهما إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأمركما أن تجتمعا ، فقلت لهما ذلك ، فاجتمعتا فاستتر بهما ، ثم قام فانطلقت كل واحدة إلى مكانها .

وكل الحصون فتحت عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سلالم فإنهما مكث المسلمون على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهم ، فهم ﴿ﷺ وآله﴾ أن يحمل عليهم وأن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الصلح على حقن دماء المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، وأن لا يصحب أحد منهم إلا ثوب واحد فصالحهم على ذلك ، وعلى أن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئا فتركوا ما لهم من أرض ومال وصفراء وبيضاء والكراع والحلقة والبز إلا ثوبا واحدا .

فمن قال : إن خيبر فتحت عنوة حمل على غير هذين الحصنين ، ومن قال : صلحا ، حمل على هذين ، ووجدوا فى الحصنين المذكورين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربية بجعالها ، ووجدوا فى أثناء المدينة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر ﴿ﷺ وآله﴾ بدفعها إليهم .

صفية بنت حيى أم المؤمنين رضى اللّه عنها

ثم جمع السبى فجاء دحية بن خليفة الكلبى﵁ فقال : يارسول الله أعطنى جارية ، فقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : اذهب فخذ جارية فأخذ صفية بنت حيي ، وكانت امرأة حسناء فتنافس الناس فيها ، فجاء رجل إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : خذ جارية من

السبى غيرها ، فأخذ أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صفية ، وكانت صفية بنت حيى من سبط هارون أخى موسى ﷺ ، فاصطفاها ﴿ﷺ وآله﴾ لنفسه ثم أعتقها وتزوج بها رضى الله عنها . وكانت رضى الله عنها قبل ذلك رأت أن القمر وقع فى حجرها فذكرت ذلك لأبيها فلطم وجهها وقال : إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب فلم يزل الأثر فى وجهها حتى أتى بها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فسألها عنه فأخبرته . وعن ابن برزة ﷺ قال : لما نزل ﴿ﷺ وآله﴾ خيبر كانت صفية عروسا فرأت فى المنام أن الشمس نزلت حتى وقعت فى صدرها ، فقصت ذلك على زوجها فقال : ما تمنين إلا هذا الملك الذى نزل بنا .

ولا تنافى لإمكان رؤيتها القمر أولا ، ثم الشمس ثانيا ، فأخبرت بالمنام الأول أباها ، وبالثانى زوجها رضى الله عنها .

قصة الشاة المسمومة

وفى هذه الغزوة سمت اليهودية الشاة للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأهدتها إليه، واسمها زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم . روى البخارى عن أبي هريرة ﷺ قال : لما فتحت خيبر واطمأن ﴿ﷺ وآله﴾ بعد فتحها أهديت للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ شاة فيها سم ، فلاك منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة ، وازدرد بشر بن البراء لقمة فقال

﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه : ارفعوا أيديكم ثم قال : اجمعوا لى من كان ههنا من اليهود ، فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إنى سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقونى عنه ؟ فقالوا : نعم ياأبا القاسم ، فقال : من أبوكم ؟ قالوا : أبونا فلان ، أى : وانتسبوا إلى غير أبيهم فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : كذبتم بل أبوكم فلان ، قالوا : صدقت وبررت . ثم قال : هل أنتم صادقونى عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم ياأبا القاسم وإن كذبنا عرفت كما عرفته فى أبينا ، فقال لهم ﴿ﷺ وآله﴾ : من

أهل النار ؟ قالوا : نكون فيها زمانا يسيرا ثم تخلفوننا فيها ، فقال لهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اخسئوا فيها والله لن نخلفكم فيها أبدا ، ثم قال لهم : هل أنتم صادقونى عن شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم ، قال : هل جعلتم فى هذه الشاة سما ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ما حملكم على ذلك ؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك وإن كنت نبيا لم تضرك .

وفى رواية : أرسل ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى اليهودية فقال : هل سممت هذه الشاة ؟ فقالت : من أخبرك ؟ قالت : أخبرتنى هذه فى يدى مشيرا للزراع ، قالت : نعم ، قال لها: ما حملك على ذلك ؟ قال : إن كنت نبيا يطلعك الله ، وإن كنت كاذبا فأريح الناس منك ، وقد استبان لى أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أنى على دينك ، وأن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فعفا عنها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولم يعاقبها ، وتوفى من أصحابه الذين أكلوا معه بشر بن البراء ﵁ ، و احتجم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة . وفى رواية : أن اليهودية قبل أن تضع السم جعلت تسأل أى أجزاء الشاة أحب إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ فقالوا لها : الذراع فعمدت إلى شاة لها فذبحتها ثم عمدت إلى سم يقتل من ساعته بعد أن شاورت يهود على سموم متعددة فعينوا لها هذا السم فسمت الشاة وأكثرت فى الذراعين والكتف . وجاء أن بشر بن البراء مات بعد حول من تلك الأكلة بسبب ذلك السم ، فدفع ﴿ ﷺ وآله﴾ تلك اليهودية لأوليائه فقتلوها فيه .

الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ متخلق بأخلاق الله تعالى

وبهذا يجمع بين الروايات المختلفة ، فإن فى بعضها أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لم يعاقب تلك اليهودية ، وفى بعضها أنه قتلها ، فيحمل على قتلها قصاصا فى بشر بن البراء ، وما كان ﴿ ﷺ وآله﴾ ينتقم لنفسه بل يعفو ويصفح لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ متخلق بأخلاق الله ، والله تعالى غفور رحيم تواب كريم عفو رءوف رحيم مع كمال قدرته على الانتقام

ممن يعصاه ، وقد سجلت قدرة الله تعالى فى ذاته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأشرقت أنوارها علنا فى مواطنها الحقيقية ، ومقتضياتها اللازمة ٠٠ فسبحان من كمل حبيبه ومصطفا﴿ ﷺ وآله﴾ بكمال أخلاقه الربانية ، وجمله سبحانه وتعالي بمعانى أسمائه الجمالية ، حتى ظهرت أسرار تلك المعانى العالية ظهور الشمس فى السماء الصحو .

وهل بعد أن يوضع السم فى الطعام ويقدم له ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه ، ويمضغ مضغة منه ويأكل بعض أصحابه منه ، ثم يعلمه الله به وتثبت الحجة على المرآة التى وضعته هى وقومها ويعفو عنها .

وبعد أن يأتى الأعرابى ويستل سيفه وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ منفردا عن الجيش ، ثم أن يعلوه بالسيف قائلا: من ينجيك منى ؟ فيقول له ﴿ ﷺ وآله﴾ : الله تعالى ، فيقع السيف من يده ويتناوله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويمكنه الله ممن يريد قتله فيعفو عنه .

وبعد أن يقدم من مكة رجل هو جمرة من جمرات العرب قد ضمن له أبو سفيان وقريش مالاً كثيراً على قتله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فيدخل عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى المسجد ويدنو منه كالمسلم ويستل خنجرا مسموماً ليقتله به ، فيمكنه الله منه ويعفو عنه .

وبعد أن يرمى بالأحجار حتى يسيل الدم منه ﴿ ﷺ وآله﴾ ويقول : رب اهدى قومى فإنهم لا يعلمون .

وبعد ٠٠ وبعد.. وبعد٠٠ لا يشك من علم بهذا ولو كان كافراً فى أنها أخلاق الله سبحانه وتعالى ، الذى ينعم على عباده فيعصونه ربا ، ويفسدون فى أرضه وهو يعفو ويغفر ولا يعاجلهم بالنقمة ، فسبحانه من إله منٌ علينا بأن جعلنا من أمة هذا السيد الرءوف الرحيم ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد منّ الله تعالى على كثير من أصحابه ﴿ ﷺ وآله﴾ وعليهم وعلى تابعهم وتابعيهم رضوان الله عليهم بجمال أخلاقه ﴿ ﷺ وآله﴾ عناية به ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وإكراماً لجنابه عليه أكمل الصلاة وأفضل التسليم ٠٠ أسأل الله تعالى

بجاهه العظيم ، وبقدره عنده سبحانه أن يجعلنى وأهلى وإخوتى جميعاً من أهل معيته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وممن فازوا بمحبته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قدوم جعفر من الحبشة وجواز تمايل الصوفية

وبعد فتح خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبى طالب ﷺ ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلا ، فتلقى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ . جعفرا وقبل جبهته وعانقه وقام له . وقد قام لصفوان بن أمية لما قدم عليه ، ولعدى بن حاتم رضى الله عنهما .

ثم قال ﴿ ﷺ وآله﴾ لجعفر ﷺ : ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ قال ﴿ ﷺ وآله﴾: أشبهت خلقى وخلقى ، فرقص ﷺ من لذة الخطاب .. ولم ينكر ﴿ ﷺ وآله﴾ رقصه .. وجعل ذلك أصلا لتمايل الصوفية عندما يجدون من لذة المواجيد فى مجالس الذكر والسماع .

وفى لفظ : جعفر أشبه الناس بى خلقا وخلقا .

وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يسميه أبا المساكين ، لأنه ﷺ كان يحب المساكين ويجلس لهم ويحدثهم ويحدثونه .وقدم من الحبشة مع جعفر ﷺ أبو موسى الأشعرى ﷺ وجماعة من قومه .

ففى البخارى ومسلم عن أبى موسىﷺ قال : بلغنا مخرج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين أنا وإخوان لى أنا أصغرهم أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم فى ثلاث أو اثنين وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة فألقتنا إلى النجاشى ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب ، فقال : إن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعثنا هنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا فوافقنا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ حين افتتح خيبر فأسهم لنا ، ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئا إلا من شهدها معه إلا أصحاب سفينتنا ، مع جعفر وأصحابه فإنه قسم لهم معنا .

وكانت أسماء بنت عميس رضى الله عنها متزوجة بجعفر بن أبي طالب وولدت له بالحبشة ابنه عبد الله ، وحين قدمت معه قال لها عمر ﵁ : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ، فغضبت وذكرت ذلك لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فقال : ليس بأحق بى منكم ؛ له ولأصحاب هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وقبل قدومهم إليه قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا . فقدم الأشعريون ﵃ ، وذكر أهم عند مجيئهم صاروا يقولون : غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه . وفى كلام بعضهم ما يفيد أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال فى حقهم : أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة ، الفقه يمان والحكمة يمانية .

وعند البيهقى من حديث طويل فى قصتهم . .وفيه أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواهم بالقرآن بالليل .

قدوم أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين رضى الله عنها

وكان من جملة من قدم معهم من الحبشة أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان عقد عليها وهى بالحبشة ، فإنها كانت رضى الله عنها ممن هاجر الهجرة الثانية للحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش ، وقد قدمنا قصة تزويجها بالنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وحكمة ذلك .

وجاء أنه لما رجعت إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ مهاجرة الحبشة قال : ألا تخبرونى بأعجب شىء رأيتم بأرض الحبشة ، فقال فتية منهم : يارسول الله بينما نحن جلوس إذ مر بنا عجوز من عجائزهم وعلى رأسها قلة فيها ماء فمرت بصبى فدفعها فوقعت على ركبتها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت ، أى : قامت ، التفتت إليه فقالت : سوف تعلم

ياغدر إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، تعلم أمرى وأمرك عنده ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : صدقت كيف يقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من قويهم ؟ .

قدوم أبو هريرة ﷺ

وقدم على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى هذه الأيام أيضا أبو هريرة ﷺ وطائفة من قومه . قال أبو هريرة ﷺ : قدمنا المدينة ونحن ثمانون بيتا من دوس – اسم قبيلته – فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفارى ﷺ فأخبرنا أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بخيبر وهو محاصر للكثيبة فأقمنا حتى فتح الله .

نصف أرض فدك لرسول اللّه (ﷺ وآله)

وذكر أنه لما أقبل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على خيبر ودنا منها بعث محيصة بن مسعود ﷺ إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم ، قال محيصة : فجئتهم فجعلوا يتربصون ويقولون : إن بخيبر عشرة ألاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ما نرى أن محمدا يقرب إليهم ، فمكثت عندهم يومين ثم أردت الرجوع فقالوا : نحن نرسل معك رجالا منا يأخذون لنا الصلح ، وكل ذلك وهم يظنون أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يقدر على فتح خيبر ، حتى جاءهم أناس من حصن ناعم وأخبروهم أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فتحه ، فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع فى نفر يصالحون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يحقن دماءهم ويجليهم ، ويخلوا بينه وبين الأموال ، ففعل ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وقيل:تصالحوا معه على أن يكون لهم نصف الأرض ولرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ النصف الآخر ، فكان فدك على الأول لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعلى الثانى كان له نصفها ، لأنها لم تؤخذ بمقاتلة ، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ ينفق منها ، ويعود منها على صغير بنى

هاشم ويزوج منها أيمهم ٠٠ ولما انتقل ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى وولى أبو بكر ﴿ ﷺ وآله﴾ الخلافة سألته السيدة فاطمة رضى الله عنها أن يجعلها أو نصفها لها ، فأبى وروى لها أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، أى : على المسلمين ٠

إسلام حجاج بن علاط السلمى

وقدم على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، وكان مكثرا من المال فقال : يارسول الله إن مالى عند امرأتى ومتفرق فى تجار مكة ، فأذن لى أن آتى مكة لآخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على أخذ شيء منه ، فأذن له رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال : يارسول الله لابد لى أن أقول ، أى : خلاف الواقع ، لأحتال على التوصل لأخذ مالى ، قال : قل ، قال : فخرجت حتى انتهيت إلى الحرم فإذا رجال من قريش يشممون الأخبار ، وقد بلغهم أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سار إلى خيبر أهل القوة والمنعة ، بعد ما وقع بينهم من المراهنة على مائة بعير فى أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يغلب أهل خيبر أولا ، فقال حويطب بن عبد العزى وجماعة بالأول ، وقال عباس بن مرداس وجماعة بالثانى ، فلما جاءهم حجاج قالوا : والله حجاج عنده الخبر ولم يكونوا علموا بإسلامه ﷺ ثم قالوا : ياحجاج بلغنا أن القاطع يعنون النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قد سار إلى خيبر ، فقلت : عندى من الخبر ما يسركم ، فاجتمعوا على يقولون : ياحجاج أيه ، فقلت : لم يلق محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه قوما يحسنون القتال غير خيبر فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها قط ، وأنهم أسروا محمدا وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فنقتله بين أظهرهم ، وفى لفظ : يقتلونه بمن كان أصاب من رجالهم ، فصاحوا وقالوا لأهل مكة : قد جاءكم الخبر هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم ، قال حجاج : وقلت لهم أعينونى على غرمائى أريد أن أقدم فأصيب من مغانم محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هناك ، فجمعوا إلى مالى على أحسن ما يكون ، ثم فشا الخبر بمكة وأظهر المشركون الفرح والسرور بمكة ، وحزن من كان بمكة من المسلمين المستضعفين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب

﵁ فجعل لا يستطيع أن يقوم ، ثم أرسل إلى حجاج غلاما وقال له يقول لك العباس : الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا ، فقال له حجاج : اقرأ على أبى الفضل السلام ، وقل له : ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره واكتم عنى ، فأقبل الغلام فقال : أبشر ياأبا الفضل ، فوثب العباس فرحا كأن لم يكن مسه شيء ، وأخبره بذلك وأعتق العباس ذلك الغلام ، وقال : لله على عتق عشر رقاب ، فلما كان الظهر جاءه حجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام وقال : إنى أخشى الطلب فإذا مضت الثلاث فأظهر أمرك ، فوافقه العباس رضى الله عنهما على ذلك ، فقال : إنى أسلمت وإن لى عند امرأتى مالا ودينا على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إلى ، وإنى استأذنت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن أقول فأذن لى أن أقول ما شئت ، وإنى تركت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قد فتح خيبر ، وجرت سهام الله وسهام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيها ، وتركته عروسا بابنة ملكهم حيى بن أخطب ، وقتل ابن أبى الحقيق وأخبره الخبر بتمامه . فلما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس ﵁ تلك الليالى الثلاث ، فلما مضت الثلاث عمد العباس ﵁ إلى حلة فلبسها وتخلق بخلوق وأخذ بيده قضيبا ، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون : لا يصيبك إلا خير ياأبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة ، قال : كلا والله الذى خلقكم به لم يصبنى إلا خير بحمد الله ، أخبرنى حجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وجرى فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ صفية بنت ملكهم حيى بن أخطب لنفسه وأنه تركه عروسا بها ، وإنما قال لكم ذلك ليخلص ماله ، وإلا فهو ممن أسلم ، فرد الله الكآبة التى كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون : ياعباد الله انفلت عدو الله يعنون حجاجا أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك .

تقسيم الغنائم فى أم الهزائم

وقد قسم ﴿ ﷺ وآله﴾ غنائم خيبر فأعطى الراجل سهما ، والفارس ثلاثة أسهم بعد أن خمسها خمسة أجزاء ثم دفع ﴿ ﷺ وآله﴾ الأرض لأهل خيبر ليعملوا فيها بشطر ما يخرج ، ورضخ ﴿ ﷺ وآله﴾ للنساء و الرضخ أعضاء مال ليس بكثير كأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ جعل لكل امرأة أقل مما أخذ الرجل – وكن عشرين امرأة فيهن صفية عمته ﴿ ﷺ وآله﴾ وأم سليم، وأم عطية الأنصارية رضى الله عنهن . قالت أم المؤمنين السيدة عائشة : أتيت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى نسوة فقلت : يارسول الله قد أردن الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا ، فقال : على بركة الله ، قالت : فخرجت معه فلما افتتح خيبر رضخ لنا وأخذ هذه القلادة ووضعها فى عنقى ، فو الله لا تفارقنى أبدا وأوصت أنها تدفن معها .

وفى السيرة الهاشمية أنها قالت : وكنت جارية حديثة السن فأردفنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على حقيبة رحله ، قالت ، فلما كان الصبح وأناخ راحلته ونزلت عن حقيبة رحله وإذا بها دم منى وكانت أول حيضة حضتها ، قالت : فتقبضت إلى الناقة و استحييت ، فلما رأى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حالى ، قال : مالك لعلك نفست ، قلت : نعم ، قال : فأصلحى من نفسك ثم خذى إناء من ماء فاطرحى فيه ملحا ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم ثم عودى لمرتحلك ، قالت : فكنت لا أتطهر من حيضة إلا جعلت فى طهرى ملحا وأوصت أن يجعل ذلك فى غسلها حين ماتت رضى الله عنها .

ثم دفع ﴿ ﷺ وآله﴾ لأهل خيبر الأرض لما قالوا له : نحن أعلم بها منكم ، وأعمرها بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع وقال لهم على : إنا إذا شئنا أن نخرجكم لأخرجناكم . والشطر فى هذا ظاهر فى النصف .

وكان﴿ ﷺ وآله﴾ يرسل إلى خيبر عبد الله بن رواحة﵁ خارصا ، قيل: وإنما خرص عليهم عبد الله عاما واحدا ثم مات ، وهذا يخالف قول بعضهم : كان عبد الله ابن رواحة ﵁ يأتيهم كل عام يخرصها يعنى الثمار عليهم ، ثم يضمنهم الشطر ، فشكوا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ شدة خرصه ، وأرادوا أن يرشوه فقال : ياأعداء الله تطعمونى السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ، ولأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض.

وكان يخرص عليهم بعده جبار بن صخر وكان خارصا لأهل المدينة ، ثم إن الصديق﵁ أقرهم بعده ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ثم أقرهم عمر﵁، إلى أن خرج ولده عبد الله ﵁ فى خلافة أبيه إلى خيبر فعدى عليه من الليل فصدعت يداه ورجلاه ، فقام عمر ﵁ خطيبا فقال : إن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان عامل أهل خيبر على أموالهم ، أى : أرضهم ونخيلهم وقال لهم : نقركم على ما أقركم الله ، وإن عبد الله بن عمر ﵁ خرج إلى ما له هناك فعدى عليه من الليل فصدعت يداه ورجلاه وليس لنا عدو هناك غيرهم ، وقد رأيت إجلاءهم ، ووافقه الصحابة ﵃ على ذلك .

لا يبقى دينان بأرض العرب

فلما أجمع الصحابة على ما رآه سيدنا عمر ﵁ جاءه أحد بنى الحقيق فقال : ياأمير المؤمنين أتخرجنا وقد أقرنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وعاملنا على أموالنا وشرط ذلك لنا .
فقال له أمير المؤمنين سيدنا عمر ﵁ : أظننت أنى نسيت قول رسول الله لك كيف بك إذا أخرجت من خيبر بعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة ؟ فقال : كانت هذه هزيلة من أبى القاسم ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فقال : كذبت ياعدو الله .

ثم بلغه ﵁ أنه﴿ ﷺ وآله﴾ قال:لا يبقى دينان فى جزيرة العرب. وقوله﴿ ﷺ وآله﴾: لأخرجن اليهود والنصارى . وفى لفظ : المشركين من جزيرة العرب . وفى رواية : آخر ما تكلم به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : اخرجوا اليهود من الحجاز . وفى لفظ : إن عشت أخرجت اليهود والنصارى من الحجاز . أى : وهو مكة والمدينة واليمامة وطرقها وقراها، كطائف لمكة ، و خيبر للمدينة .

والمراد بجزيرة العرب الحجاز المشتملة عليه ، وقيل : له حجاز لأنه حجز بين نجد وتهامة . ففحص عمر ﵁ عن ذلك حتى تيقنه وتلج صدره ، فأجلى يهود خيبر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من تمر وغيره ، وأجلى يهود فدك ، ونصارى نجران ، فلا يجوز إقامتهم بذلك أكثر من ثلاثة أيام غير يوم الدخول والخروج .

كلام النبى (ﷺ وآله) مع الحمار

وروى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لما فتح خيبر أصاب حمارا أسود فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ما اسمك ؟ قال : يزيد بن شهاب أخرج الله من نسل جدى ستين حمارا كلهم لا يركبهم إلا نبى ، وقد كنت أتوقعك لتركبنى لم يبق من نسل جدى غيرى ، ولم يبق من الأنبياء غيرك ، قد كنت لرجل يهودى وكنت أتعثر به عمدا ، وكان يجيع بطنى ويضرب ظهرى ، فقال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : فأنت يعفور .

وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يبعثه إلى باب الرجل فيأتى الباب فيقرعه برأسه ، فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . فلما انتقل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى ألقى نفسه فى بئر جزعا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فمات .

غزوة وادى القرى

وادى القرى اسم موضع بقرب المدينة كان به جماعة من اليهود . عن أبي هريرة ﵁ لم انصرفنا من خيبر مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأتينا وادى القرى نزلناها أصيلا مع غروب الشمس ، وحاصرهم ﴿ﷺ وآله﴾ أربعة أيام ، وهيأ ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه للقتال وصفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ﵁ ، وراية إلى الحباب بن المنذر ﵁ ، وراية إلى سهل بن حتيف﵁ ، وراية إلى عباد بن بشر﵁ ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا احترزوا أموالهم ودماءهم وحسابهم على الله ، فامتنعوا من ذلك وبرز رجل منهم فقتله الزبير ﵁ ، ثم آخر فقتله أيضا ، ثم آخر فقتله على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم آخر فقتله أبو دجانة ﵁ ، ثم آخر فقتله أيضا ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلا ، كلما قتل رجل دعا من بقى إلى الإسلام حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها رسول الله عنوة ، وغنمه الله أموالهم وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا وقسم ما أصابه ﴿ﷺ وآله﴾ على أصحابه ، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها وولاهم ﴿ﷺ وآله﴾ عمرو بن سعيد بن العاص .

وصالح ﴿ﷺ وآله﴾ أهل تيماء على الجزية ، فإنه لما بلغهم فتح وادى القرى و خيبر وفدك صالحوه ﴿ﷺ وآله﴾ على الجزية ، فأقاموا ببلادهم وأرضهم فى أيديهم وولاها ﴿ﷺ وآله﴾ يزيد بن أبي سفيان وكان إسلامه يوم فتحها ﵁ .

و تيماء بلدة معروفة بين المدينة ، والشام على سبع مراحل من المدينة ، وصالحه أيضا أهل فدك على أن لهم نصفها وله ﴿ﷺ وآله﴾ نصفها فأقرهم على ذلك .

ثم رجع ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة منصورا مؤيدا من الله تعالى ، ولما قرب من المدينة سار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه ليلة فلما كان قبيل الصبح نزل وعرس وقال : ألا رجلا حافظا لعينه يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ، قال بلال ﵁ : أنا يارسول الله أحفظه

عليك ، وفى لفظ قال : يابلال اكلأ لنا الليل ، فنام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه ، وقام بلال ﷺ يصلى ما شاء الله ثم استند إلى بعير واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام، فلم يستيقظ رسول الله ولا أحد من الصحابة ﷺ حتى ضربتهم الشمس ٠ وكان أول من استيقظ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : ما صنعت يابلال ؟ قال : يارسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك ، قال : صدقت وتبسم ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وفى رواية:أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ التفت إلى أبى بكر الصديق وقال له: إن الشيطان أتى بلالا وهو قائم يصلى فلم يزل يهدئه كما يهدىء الصبى حتى نام ، ثم دعا رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ بلالا فأخبر بلال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بمثل ما أخبر به﴿ ﷺ وآله﴾ الصديق ، فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ، ثم سار ﴿ ﷺ وآله﴾ بالناس يقود بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، وأمر بلالا فأقام الصلاة . وفى رواية : فاقتادوا رواحلهم . وفى رواية : فاستيقظ القوم وقد فزعوا فأمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادى وقال : هذا واد به شيطان فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادى .

فلما فرغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : إذا تسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تعالى يقول ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (طه : ١٤) . وفى رواية : إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردها إلينا فى حين غير هذا فإذا رقد أحدكم عن الصلاة أو نسيها ثم فرغ إليها فليصلها فى وقتها . وقيل : إن ذلك كان فى مرجعه ﴿ ﷺ وآله﴾ من الحديبية . وقد يقال لا مانع من التعدد وأنه وقع وهو راجع من وادى القرى كما ورد فى الآثار الصحاح ووقع نظير ذلك وهو راجع من الحديبية ٠٠ بدليل ما جاء عن ابن مسعود ﷺ قال : أقبلنا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ زمن من الحديبية ٠

وفى رواية : لما انصرفنا من غزوة الحديبية قال النبى﴿ ﷺ وآله﴾: من يحرسنا الليلة ؟ فقلت : أنا يارسول الله ، قال : إنك تنام ، ثم أعاد من يحرسنا الليلة ؟ فقلت : أنا حتى أعاد ذلك مرارا وأنا أقول أنا ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : فأنت . قال : فحرستهم حتى إذا كان وجه الصبح أدركنى قول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنك تنام ، فنمت فما أيقظنا إلا حر الشمس فى ظهورنا .

سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ إلى تربة

واد بقرب مكة على يومين منها ناحية العبلاء ، وهو موضع على أربع ليال من مكة .. وكانت فى شعبان سنة سبع ، بعث ﴿ ﷺ وآله﴾ عمر بن الخطاب ؓ ومعه ثلاثون رجلا وأرسل معه ﴿ ﷺ وآله﴾ دليلا من بنى هلال ، فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر إلى هوازن ، أى : إلى الطائفة التى كانت منهم ، بتربة فهربوا . وجاء عمر بن الخطاب ؓ إلى محالهم فلم يلق منهم أحدا بل ترفعوا وأخذوا سائر مالهم من نعم وغيرها ، فانصرف راجعا إلى المدينة ، فلما كان بذى الجدر موضع على ستة أميال من المدينة قال له رجل من بنى هلال : هل لك فى جمع آخر تركته من خثعم سائرين قد أجدبت بلادهم؟

فقال عمرؓ :لم يأمرنى ﴿ ﷺ وآله﴾ بهم إنما أمرنى أن أعمد لقتال هوازن بتربة.

سرية أمير المؤمنين أبى بكر الصديق ؓإلى بنى كلاب

بنى كلاب قبيلة بنجد بناحية ضربة ، وكانت فى شعبان سنة سبع أيضا ، ويقال : إلى بنى فزارة فسبى منهم جماعة وقتل آخرين .

ففى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع ؓ قال : بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أبا بكر إلى بنى فزارة وأمره علينا حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة فوردنا الماء وقتل من قتل منهم ، ورأيت الذرارى والنساء فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل

فأدركتهم فرميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا وفيهم امرأة أم قرفة عليها قشع من أدم ومعها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر ﵁ ، فنفلنى أبو بكر ابنتها فلم أكشف لها ثوبا ، فقدمنا المدينة فلقينى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : ياسلمة هب لى المرأة لله أبوك ، فقلت : هى لك ، فبعث بها إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا فى أيدى المشركين . قال بعضهم : إن تسمية المرأة بأم قرفة وهم لأن ذلك إنما كان فى سرية زيد بن حارثة ﵁ .

سرية بشير بن سعد الأنصارى الخزرجى ﵁ إلى بنى مرة بفدك

وكانت أيضا فى شعبان سنة سبع ، ومعه ثلاثون رجلا ، فلما وصلوا إلى محل القوم لقوا رعاء الشاء فسألوهم عن الناس ، فقالوا : هم فى نواديهم والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء فاستاق النعم والشاء وانحدر إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم فأدركه العدد الكثير منهم عند الليل ، فباتوا يرمونه بالنبل حتى فنيت نبل أصحاب بشير ﵁ فأصيبوا وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير حتى جرح وصار به رمق ، فضربوا كعبه اختبارا لحاله فلم يتحرك ، قالوا : قد مات ، ورجعوا بنعمهم وشائهم ، وقدم علبة بن زيد ﵁ بخبرهم على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ثم قدم بعده بشير بن سعد ، وذلك أنه استمر فى القتلى حتى أمسى ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك ، فأقام عند يهود بها أياما حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة ﵁ .

سرية غالب بن عبد الله الليثى ﷺ إلى أهل الميفعة

الميفعة على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد ، وكانت السرية فى شهر رمضان سنة سبع من الهجرة فى مائة وثلاثين رجلا ، وقيل : فى مائتين وثلاثين فهجموا عليهم فى وسط محالهم فقتلوا من أشراف لهم ، واستاقوا نعما وشاء إلى المدينة .

وفى هذه السرية قتل أسامة بن زيد رضى الله عنهما نهيك بن مرداس الأسلمى ، وقيل : الغطفانى بعد أن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياأسامة من لك بلا إله إلا الله ؟ فقال : يارسول الله إنما قالها تعوذا من القتل ، قال : هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ، فقال أسامة : لا أقاتل أحدا يشهد أن لا إله إلا الله .

وفى رواية : أن قوم مرداس لما انهزموا بقى وحده وكان ألجأ غنمه لجبل فلما لحقوه قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم ، فقتله أسامة بن زيد رضى الله عنهما فلما رجعوا نزل قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ (النساء : ٩٤) ، وقيل : إن ذلك فى سرية أخرى سنة ثمان كان أسامة هو أميرها ، وأنه لما قدم المدينة قال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياأسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ قال أسامة : يارسول الله إنما كان متعوذا ، فما زال يكرر ، أى : قوله أقتلته .. إلخ ، حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم ، أى : لأن الإسلام يجب ما قبله ، فقيل : أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ دفع لأهل القتيل ديته ، وأمر أسامة أن يعتق رقبة واستغفر له .

وسيأتى عن أسامة ﷺ بعثنا رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الحرقة من جهينة فصبحناها ، فكان رجل يدعى مرداس بن نهيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا ، وإذا أدبروا

كان من حاميتهم فهزمناهم ، فتبعته أنا ورجل من الأنصار فرفعت عليه السيف فقال : لا إله إلا الله ، وزاد فى رواية : محمد رسول الله ، فكف الأنصار عنه ، فطعنته برمحى حتى قتلته ، ثم وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى ما أقدر على أكل الطعام ، حتى قدمت على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقبلنى وأعتقنى .

قال بعضهم : وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ، ويحب أن يثنى عليه خيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه ، فجعل القوم يحدثون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويقولون : يارسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ولقيه رجل فقال الرجل : لا إله إلا الله ، فشد عليه أسامة فقتله وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ رفع رأسه الشريف لأسامة فقال : ياأسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ فقال أسامة ﷺ : إنما قالها خوفاً من السلاح ، وفى رواية : إنما كان متعوذاً من القتل ، قال أسامة ﷺ ولا زال رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ يكرر علىّ حتى تمنيت أنى لم أسلم إلا يومئذ .

سرية بشير بن سعد الأنصارى ﷺ إلى يمن وجبار

وهى أرض لغطفان ويقال : لفزارة ، وكانت فى شوال سنة سبع من الهجرة ، بعثه ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعه ثلاثمائة رجل تجمعوا بأرض غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن للإغارة على المدينة قبل أن يسلم ﷺ فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير إليهم هربوا ، وأصاب لهم نعما وشاء فغنمها ، ثم لقوا جمع عيينة وهو لا يشعر بهم فناوشوهم ، ثم انهزم جمع عيينة وتبعهم المسلمون فأسروا منهم رجلين وقدموا بهما المدينة على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأسلما فأرسلهما والمناوشة تدانى الفريقين وأخذ بعضهم بعضا .

وعيينة بن حصن كان يقال له الأحمق المطاع ، لأنه كان يتبعه عشرة ألاف . وقيل له : عيينة لأن عينه كفلت ، أى : عظمت وكبرت ، فلقب بذلك ﷺ .

عمرة القضاء ويقال لها عمرة القضية

سميت بعمرة القضاء لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قاضى قريشاً عليها ، أى :صالحهم ، ومن ثم قيل : لها عمرة الصلح ، ويقال لها : عمرة القصاص ، قال السهيلى رحمه الله : وهذا الاسم أولى بها لقوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾

(البقرة : ١٩٤) ، فتحصل من أسمائها أربعة : القضاء ، والقضية ، والصلح ، والقصاص . لأنها كانت فى هلال ذى القعدة سنة سبع ، أى : وهو الشهر الذى صده فيه ﴿ ﷺ وآله﴾ المشركون عن البيت منها سنة ست ، وليست قضاء عن العمرة التى صدّ عن البيت فيها فإنها لم تكن فسدت بصدّهم له عن البيت ، بل كانت عمرة تامة معدودة فى عمره ﴿ ﷺ وآله﴾ التى اعتمرها صلوات الله وسلامه عليه بعد الهجرة وهى أربعة : عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، وعمرة الجعرانة لما قسم غنائم حنين ، والعمرة التى قرنها

﴿ ﷺ وآله﴾ مع حجة الوداع بناء على ما هو الراجح من أنه كان قارناً ، وكلها فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجه ﴿ ﷺ وآله﴾ . .

وقد مكث ﴿ ﷺ وآله﴾ فى مكة ثلاث عشرة سنة لم ينقل عنه أنه اعتمر خارجاً من مكة إلى الحل فى تلك المدة أصلاً ، ولم يفعل هذا على عهده ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا عائشة رضى الله عنها كما سيأتى فى حجة الوداع ، وكون العمرة لا تفسد بالصدّ إنما هو على ما يراه الإمام الشافعى ﷺ ، وأما على من يرى أن العمرة تفسد بالصدّ عنها وأنه يجب قضاؤها كما هو المنقول عن أبى حنيفة ﷺ فواضح أنها قضاء .

وهذه العمرة ليست من الغزوات وإنما ذكرها الإمام البخارى ﵁ فيها لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج مستعدا بالسلاح للمقاتلة خشية أن يقع من قريش غزو ، وليس من لازم الغزو وقوع المقاتلة . ومن ثم قيل : إنها غزوة الأمن .

خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ قاصداً مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشاً فى الحديبية ، أى : من أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ يدخل مكة فى العام القابل معه سلاح المسافر ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام . وفى أنيس الجليل ما يفيد أن اشتراط الثلاثة أيام كان فى عمرة القضاء ، ففيه : ثم خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ معتمراً عمرة القضاء فأبى أهل مكة أن يدعوه ﴿ ﷺ وآله﴾ يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم ثلاثة أيام ، وأن لا يخرج من أهلها أحد إن أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحد إن أراد أن يقيم بها .

وأصحابه ﴿ ﷺ وآله﴾ كانوا ألفين خلاف النساء والصبيان ، وأمر ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فلم يتخلف أحد إلا من استشهد فى خيبر ومن مات ، وخرج معه ﴿ ﷺ وآله﴾ جمع ممن لم يشهد الحديبية .

واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارى ﵁ ، وقيل : أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفارى ﵁ ، وساق معه ﴿ ﷺ وآله﴾ ستين بدنة وقلدها ، أى : جعل فى عنق كل بعير قطعة من جلد أو نعلا بالية ، ليعلم أنه هدى فكيف الناس عنه ، ولم يذكر هنا الأشعار وجعل عليها ناجية بن جبدب ﵁ .

وحمل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ السلاح والدروع والرماح وقاد مائة فرس وإنما فعل ذلك ﴿ ﷺ وآله﴾ احتياطا وتوثقا خوفا من غدر قريش ، فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة ﵁ ، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد ﵁ ، وأحرم ﴿ ﷺ وآله﴾ من المسجد، وسلك طريق الفرع ولبى ولبى المسلمون معه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولما قدم الخيل والسلاح أمامه ، قيل : يارسول الله حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تدخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافر السيوف فى القرب ، فقال

رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لا يدخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منا فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبا منا .

فمضى بالخيل محمد بن مسلمة إلى مر الظهران فلما كان بها وجد نفرا من قريش فسألوه عن سبب مجيئه بالخيل ، فقال : هذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله تعالى ، أى : وقد رأوا سلاحا كثيرا فخرجوا سراعا فأتوا قريشا فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعوا وقالوا : والله ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابتنا ومدتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ وبعثوا محمد بن مكرز بن حفص فى نفر من المشركين من قريش إليه ﴿ﷺ وآله﴾ حتى لقوه ببطن يأجج فى أصحابه والهدى والسلاح قد تلاحق فقالوا : والله يامحمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر السيوف فى القرب ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : إنى لا أدخل عليهم بسلاح ، فقال مكرز : هو الذى تعرف به البر والوفاء ، ثم رجع مكرز إلى مكة مسرعا فقال : إن محمدا على الشرط الذى شرط لكم وهو لا يدخل بسلاح ، ونزل ﴿ﷺ وآله﴾ بمر الظهران وقدم السلاح إلى بطن يأجج وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى رضي الله عنه فى مائتى رجل ، حتى قضى الكل مناسك عمرهم رضي الله عنهم ، ولما اتصل خروجه لقريش خرجت قريش من مكة إلى رءوس الجبال ولم يقدروا على رؤيته ﴿ﷺ وآله﴾ هو وأصحابه يطوفون بالبيت عداوة وبغضا وحسدا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وفى رواية خرجوا استنكافا أن ينظروا إليه ﴿ﷺ وآله﴾ غيظا وحنقا ، أى : حسدا .

رفع الصوت بالشعر والدعاء يغيظ الكفار

وقدم ﴿ﷺ وآله﴾ الهدى أمامه بذى طوى وخرج من الثنية التى تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة ﵁ يمشى بين يديه وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله   بأن خير القتل فى سبيله
نحن قتلناكم على تأويله   كما قتلناكم على تنزيله
رب إنى مؤمن بقيله   إنى رأيت الحق فى قبوله

فقال له عمر بن الخطاب﵁ :يا ابن رواحة أبين يدى رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : خل عنه ياعمر فلهى ، أى : هذه الأبيات ، أى : نكايتها ، فيهم أسرع من نضح النبل ، ثم قال﴿ﷺ وآله﴾ لابن رواحة ﵁ : (قل لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) • فقالها وقالها الناس ، وفى أمره بذلك زيادة إغاظة للكفار لتأذيهم بها أكثر من الشعر المذكور ، لا سيما وقد قالوها كلهم معلنين بها ﵃ .

ولم يزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يلبى حتى استلم الركن بمحجنه مضطبعا بثوبه وطاف على ناقته . وفى رواية : ماشيا ، وهرول ثلاثة أشواط والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم • وفى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليهم وقد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم ﴿ﷺ وآله﴾ أن يرملوا الأشواط الثلاث الأولى ليرى المشركون قوتهم ، فقالوا : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى وهنتهم لهؤلاء أجلد من كذا وكذا ، إنهم لينفرون نفر الظبى . والمشركون كانوا على جبل قينقاع ينظرون إليه ﴿ﷺ وآله﴾

وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت ولما قالوا : أوهنتهم ، أى أضعفتهم ، حمى يثرب وأطلع الله نبيه

﴿ﷺ وآله﴾ على ما قالوا ، قال ﴿ﷺ وآله﴾ : رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة . وإنما لم يأمر ﴿ﷺ وآله﴾ بالرمل فى الأشواط كلها واقتصر على الثلاث رفقا بهم ﵃ واضطبع ﴿ﷺ وآله﴾ بردائه وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة ﵃ كذلك ، وهذا أول رمل واضطباع فى الإسلام ، وأمر أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم قريش لأنهم إنما يرونهم إذا كانوا بين الركنين الشاميين ، وبعد فراغه ﴿ﷺ وآله﴾ من السعى بين الصفا والمروة على راحلته نحر هديه عند المروة وحلق هناك ، ثم أمر مائتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج يقيمون على السلاح ويأتى الآخرون ليقضوا نسكهم ففعلوا .

وأقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بمكة ثلاثة أيام كما شرطه قريش فى الهدنة ، فلما كان الظهر من اليوم الرابع جاء سهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى فقالا : ننشدك الله والعهد إلا ما خرجت من أرضنا ، فرد عليهما سعد بن عبادة ﵁ فأسكته ﴿ﷺ وآله﴾ وأذن بالرحيل .

قال الحافظ بن حجر : كأنه دخل فى أوائل النهار فلم تكمل الثلاث إلا فى مثل ذلك الوقت من نهار الرابع بالتلفيق ، وكان مجيئهما قرب ذلك الوقت .

وفى البخارى من حديث البراء فلما دخلها يعنى مكة ومضى الأجل ، أى : الأيام الثلاثة ، أتوا عليا كرم الله وجهه فقالوا : قل لصاحبك أخرج عنا فقد مضى الأجل ،فخرج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فتبعته ابنة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما واسمها أمامة أو عمارة أو سلمى أو غير ذلك تنادى ياعم ياعم ، فتناولها على كرم الله وجهه وقال لفاطمة رضى الله عنها وهى فى هودجها : دونك ابنة عمك ، وقال على كرم الله وجهه للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ : نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهران المشركين ، فلم ينهه

فخرج بها ثم اختصم فيها على وجعفر وسعد بن حارثة كرم الله وجهه ، أى : فى أنها تكون عند أيهم ، وكان ذلك بعد أن قدموا المدينة ، فقال على كرم الله وجهه : أنا أخذتها وأخرجتها من بين ظهران المشركين ، وقال جعفر ؓ ابن أبى طالب : هى ابنة عمى وخالتها أسماء بنت عميس تحتى ، وقال زيد بن حارثة : هى ابنة أخى ، أى : لأن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أخى بينه وبين حمزة ؓ ، فكان لكل فيها شبهة فقضى بها النبى﴿ ﷺ وآله﴾ لخالتها، وقال : الخالة بمنزلة الأم ، وقال لعلى : أنت منى وأنا منك ، تطييبا لخاطره ، وقال لجعفر : أشبهت خلقى وخلقى ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا .
وإنما أقرهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على إخراجها مع اشتراط المشركين أن يرد إليهم من جاء إليه ، وأن لا يخرج بأحد من أهلها لأنهم لم يطلبوها ، ولأن النساء المؤمنات لم يدخلن فى ذلك الشرط .

زواجه ﴿ ﷺ وآله﴾ من ميمونة رضى الله عنها

وتزوج ﴿ ﷺ وآله﴾ ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها عند رجوعه وهو حلال بسرف ، وجاء فى رواية أنه عقد عليها وهو محرم ﴿ ﷺ وآله﴾ وبنى بها وهو حلال ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قال المحققون : إن ذلك وهم والصحيح الأول • وسرف بكسر الراء محل بين مساجد عائشة وبطن مرو وهو أقرب إلى مساجد عائشة ، وفيه دخل ﴿ ﷺ وآله﴾ بميمونة تحت شجرة هناك ، وكان محل موتها ودفنها . دفنت فيه بعد ذلك رضى الله تعالى عنها ، فإنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أخبرها عليها السلام بأنها لا تموت بمكة ، فلما ثقل عليها المرض وهى بمكة قالت : أخرجونى من مكة فإنى لا أموت بها فإن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أخبرنى ذلك فحملوها حتى أتوا بها ذلك الموضع فماتت به ودفنت به ، أى : وهى آخر امرأة تزوجها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وآخر من توفى من أزواجه ﴿ ﷺ وآله﴾ ورضى عنهن •

ويستنبط من تلك الحادثة أمور منها :

١ - أن المؤمن يجب عليه أن يحتاط من عدوه الكافر بإعداد العدة ولا يستسلم لعهده وميثاقه ، لأن الكافر لا ميثاق له كما فعل ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أخذ السلاح .

٢ - ومنها إظهار القوة والنشاط فى العبادة ليكبت أعداء الله بما يظهر على المؤمن عند العبادة من نشاط وفرح ، وبحال أعدائه غير حال أحبائه . ومعلوم أن أعدا عدو المؤمن نفسه والشيطان ، فإذا نشط فى العبادة قهر نفسه الأمارة بالسوء ، وأيأس إبليس منه ، وأذل أعداءه ، وهى من السنة لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أمر المسلمين بالهرولة فى السعى فى الأشواط الثلاث .

٣ - ومنها سماع الشعر الدال على عزة المؤمن وذلة الكافر ، وعلى إكرام الله عباده المؤمنين وإذلاله لأعدائه الكافرين ، وهو السنة عند المقتضيات ، لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سمع ابن أبي رواحة واستحسن كلامه ومدحه عليه ، و أنكر على سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عندما أراد أن يسكته ، وكل شعر تزكت به النفوس واطمأنت به القلوب واشتاقت لعلام الغيوب يجب سماعه عند مقتضياته ، وإنما حرم الشعر أو كرهه إذا كان يحث على الفسوق والفجور وقطيعة لرحم ويحدث الضغائن بين الناس وعمل الفواحش .

٤ – ومنها أن يكون المؤمن عند عهده فلا يغدر ولا يخون عهده لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عاهدهم على ثلاثة أيام ، فلما تمت الأيام بارح مكة .

٥ – ومنها أن النساء لا يدخلن فى العهد إذا عاهد المسلمون الكفار على أن يرجعوا من جاء لهم من الكفار ، وهى من السنة لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لم يرجع السيدة بنت سيدنا حمزة ﷺ وقد صرح القرآن الكريم بذلك فى سورة الممتحنة .

٦ - ومنها أن المحرم له أن يقبل الزواج لنفسه منفذا على مزيد صحته أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ عقد على السيدة ميمونة وهو محرم .

سرية الأخرم بن أبى العوجاء السلمى ﵁ إلى بنى سليم

بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الأخرم بن أبى العوجاء السلمى﵁ إلى بنى سليم فى ذى الحجة سنة سبع فى خمسين رجلا ، فخرج إليهم فعلم بخروجه عين لبنى سليم فأخبرهم بخروجه إليهم وحذرهم ، فجمعوا لابن أبى العوجاء جمعا كثيرا فأتاهم وهم معدون له فدعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا إليه ، فتراموا بالنبل ساعة ، وأتتهم الأمداد وأحاط الكفار بالمسلمين من كل ناحية ، وقاتلوا القوم قتلا شديدا حتى قتل عامتهم . وفى رواية : قتلوا جميعا حتى أميرهم ، وقيل : تركوه جريحا ، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أول يوم من صفر .

وقيل : نجا معه اثنان أو أكثر فعاونوه فى الذهاب إلى المدينة ﵃ .

الشهادة عز والأسر ذل

أعمال أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هي الحجة التي تجب على كل مسلم أن يقتدى بها، ولا يشك عاقل في أن قبيلة من أكبر قبائل العرب لا يقل عدد مقاتليها عن ألف وهم في بلدهم ومحل قوتهم ومنعتهم، والصحابة ﵃ خمسون قدموا من سفر فادح وليس لهم قوة إلا الله، ولا ركن يركنون إليه إلا الله، ومع ما لهم فيه من تعب السفر والقلة والغربة، ولكن اليقين الحق جعلهم ينفذون أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كائنا ما كان فثبتوا ﵃، ورضوا بما عند الله، وتعجلوا الإقبال عليه سبحانه ومجاورته تعالى في فردوسه الأعلى .

بذلوا تلك النفوس الغالية معتقدين أنها لابد أن تفاض على ظبى السيوف، ولم يمنعهم هذا الاعتقاد في بذلها في سبيل الله للفوز بما عنده. ثبت خمسون أمام قبيلة من أشهر قبائل

العرب فروسية وشجاعة، قد أعدت لهم العدة من أيام، فنأخذ من فعلهم أن المؤمن الكامل لا يفر من عدوه الكافر، ولو أن المؤمن أمامه مائة من الكافرين. وكان يمكنهم ﷺ عندما رأوا تلك العدة التي لا قبل لهم بها أن يفروا، و لكن المؤمن ليس بفرار من سبيل الله . وأن يستسلموا فيؤسروا ثم يفديهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ولكن المؤمن لا يرضى بالذل لغير الله، ولئن تفاض نفسه على حد السيف في سبيل الله الحق أشهى إليه من أن يكون أسيراً في يد كافر .

وقد تقرر أن الفرار يوم الزحف من الكبائر، لأن الفار من الزحف جاهل بما أعده الله له، فإن المؤمن الذي آمن بالغيب تشرف نفسه الطاهرة الذكية على ملكوت الله الأعلى لكمال توحيده وتصديقه فيرى ما أعد الله للمجاهدين، فيكون القتل في سبيل الله بغيته، وأعظم الوسائل التي ينال بها مقصده الأسمى. وهكذا المؤمن يجب أن يتشبه بأصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وليس بمؤمن من يحوله عن دينه رغبة في مال، أو طمع في منصب، وخوف من فقر، بل المؤمن لا يحوله عن الرغائب فضلاً عن الفرائض ولا سفك دمه .

والله أسأل سبحانه أن يمنحنا اليقين الحق الذي يحفظنا به من أن نخاف غيره أو نرغب في غيره سبحانه وتعالى.. إنه مجيب الدعاء .

سرية غالب بن عبد الله الليثى رضي الله عنه إلى بني الملوح بالكديد

والكديد بفتح الكاف وكسر الدال المهملة ماء بين عسفان وقديد، وكانت في صفر سنة ثمانية.. روى ابن إسحق وغيره عن جندب بن مكيش الجهمي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غالب بن عبد الله الليثى على سرية كنت فيها وأمره بشن الغارة على بني الملوح بالكديد، فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء فأخذناه، فقال: إني جئت أريد الإسلام وما خرجت إلا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقلنا له: إن تكن مسلماً فلن يضرك رباط يوم وليلة، وأن تك غير ذلك كنا قد

استوثقنا منك، فشددناه وثاقاً، ثم خلفنا عليه رجلاً من أصحابنا أسود، وقلنا له: إن غارك فاحتذ رأسه، ثم سرنا حتى أتينا تلاً مشرفاً على الحاضر فاستندت عليه فعلوت على رأسه فنظرت إلى الحاضر، فو الله إني لمنبطح على التل إذ خرج رجل من خبائه فقال لامرأته:

إني لأرى على التل سواداً ما رأيته في أول يومي، فانظري إلى أوعيتك هل تفقدين شيئاً لا تكون الكلاب جرت بعضها؟ فنظرت وقالت: لا والله ما فقدت من أوعيتي شيء، قال: فناوليني قوس وسهمين فناولته، فأرسل سهماً فما أخطأ بين عيني فنزعته وثبت مكاني، فأرسل الأخر فوضعه في منكبي فنزعته ووضعته وثبت مكاني، فقال لامرأته: لو كان رئية لقوم لقد خالطه سهماي لا أبالك إذا أصبحت فابتغيهما فخذيهما لا تمضغهما الماشية، ثم دخل، وأمهلناهم حتى إذا اطمأنوا وناموا – وكانوا في وجه السحر – فشنينا عليهم الغارة، فقتلنا منهم واستقنا النعم، وخرج صريخ القوم فجاءنا قوم لا قبل لنا بهم، فمضينا بالنعم ومررنا بابن البرصاء وصاحبه واحتملناهما معنا، وأدركنا القوم حتى قربوا منا فما بيننا وبينهم إلا وادي قديد، فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سحابة نراها ولا مطر فجاء بشيء ليس لأحد به قوة، ولا يقدر أحد أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا وإنا لنسوق نعمهم لا يستطيع رجل منهم أن يمر إلينا، ونحن نحدوها سراعاً حتى فتناهم فلم يقدروا على طلبنا، فقدمنا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

والحارث بن مالك هو ابن البرصاء وهى أمه، وقيل: أم أبيه، وهو صحابي ﵁ سكن مكة ثم المدينة وتوفى آخر خلافة معاوية رضي الله عنهما، له حديث واحد وهو قوله: سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول يوم الفتح: لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة .

وقد وقع نظير ذلك، أي: سيل الوادي، لقطنة بن عامر حين توجه إلى بني خثعم بناحية تبال .

العذاب أهون من المعصية

من هذه السرية نأخذ علم ما كان عليه أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من احتياط لدينهم وأنفسهم، ومن التحفظ خشية من أن يخدعهم الناس فإنهم ﵃ لما قدم عليهم الحارث بن البرصاء يظهر الإسلام وهم في سير لعدوهم خشوا أن يكون تكلف الإسلام ليعلم ما هم عليه، ويفر إلى عدوهم – والحرب خدعة – فقبلوا منه ظاهره ووكلوا أمره إلى الله، ولكنهم احتاطوا لدينهم ولأنفسهم فتحفظوا عليه، فالحيطة من السنة التي يجب على كل مسلم أن يراعيها في جميع شئونه، وقد يكون للرجل رأي ومذهب، أو أمل في عمل للدين، فيأتي عدو له ويظهر له أنه من رأيه ومذهبه، فيستسلم له، ويخبره بما هو عليه من الرأي والمذهب، ويأمن له فيعلمه بالآمال التي يحب هو نيلها، ويسعى في تنجيزها، فيكيد له ذلك العدو كيداً من حيث لا يحسب هو .

وعمل أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يجب أن يكون نوراً يهتدي به المؤمن في سيره، هذا والمؤمن إذا كان على ثغر من ثغور الإسلام وتحقق أن تساهله يؤدي إلى ضياع من وراءه من المسلمين يجب عليه أن يثبت ولو قطعت أطرافه إرضاء لله ولرسوله، ومحافظة على من وراءه من إخوته المؤمنين، فإن الصحابي الذي وقف على التل ينظر ما عليه أعداؤهم ضرب النبل بين عينيه فخرق جبهته فلم يتحرك حركة، ولو تحرك حركة لصاح الرجل بالقوم واستأصل الصحابة ﵃، ولعلك تعرف قدر الآلام التي تحصل للإنسان إذا شجت رأسه بنبل، ولكن لذته بحفظ من وراءه، وسروره بإعلاء كلمة الله أنسته الآلام الشديدة التي تصرع أقوى الحيوانات، فضلاً عن الإنسان، ثم رمى بسهم في منكبه فلم يتحرك حتى كأنه جبل شامخ لا حياة له، ولعلك تعلم قدر الألم خصوصاً ألم من يعلم أنه هدف للسهام، لأنه ﵁ سمع كلام الرجل وراءه وهو يفوِّق السهم إليه وتلقاه بعزم وصبر، حتى أن الرامي لم يحس منه بحركة فتحقق أنه جماد ونام مطمئناً، والصحابي مع هذا ثابت في مكانه كأنه في روضة من رياض الجنة، آنس فرح بما قام به من الأعمال التي ترضي الله

تعالى وترضي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وتحفظ أخوته المؤمنين، وتبلغهم رغائبهم من عدوهم.. وهذه صفة كل مؤمن .

انظر كيف نظر الله إليهم نظرة رحمة ورأفة وعناية، فعمهم الله جميعاً برأفته وعنايته، ومكنهم من عدوهم، ومنحهم السلامة والغنيمة، فلما أن أدركهم العدو، عمهم بخفي لطفه، وشامل إكرامه، بجيش من السيل حتى أنجاهم من كيد عدوهم الذي لا قبل لهم به، وأقبلوا على الله وعلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غانمين فرحين مستبشرين بمغفرة من الله ورضوان.. انظر إلى الحكمة والتبصرة والعزيمة الماضية والصبر، وإلى مواهب الله وفضله العظيم، وإكرامه لهم، وتشبه بهم تكن منهم.. والله ذو الفضل العظيم .

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

قال عمرو بن العاص: كنت للإسلام مجانباً أو معانداً، حضرت بدراً مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، فقلت في نفسي كم أوضع، والله ليظهرن محمداً على قريش، فلحقت بمالي بالرهط وأقللت من الناس، أي: من لقائهم، فلما حضر الحديبية وانصرف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في الصلح، ورجعت قريش إلى مكة، جعلت أقول يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه، ما مكة بمنزل ولا الطائف، ولا شيء خير من الخروج، وأنا بعد نائي عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي وكانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدمونني فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا وسيدنا وزعيمنا في يمن نفسه وبركة أمر، قلت: تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه، فإن يظهر محمد

كنا عند النجاشي، نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا هذا الرأي .

قلت: فاجمعوا ما نهديه له — وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم - فحملنا أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري — وكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد بعثه بكتاب يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وفي رواية: كان في دعوته إلى الإسلام — فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية ولو دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذ فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت عنها حتى قتلت رسول محمد، فدخلت على النجاشي فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك أهديت لك أدما كثيرا، ثم قدمته فأعجبه وفرق منه شيئاً بين بطارقته، وأمر بسائره فأدخل في موضع، وأمر أن يكتب ويحتفظ به، فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول عدو لنا قد وترنا، أي: أصابنا بظلم ومكروه، وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله، فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره، فابتدر منخراي فجعلت أتلقى الدم بثيابي، فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فرقا منه، ثم قلت: أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك. قال: فاستحيا وقال: ياعمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟

قال عمرو: فغير الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحق والعرب والعجم وتخالف أنت، ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم، أشهد به عند الله ياعمرو فأطعني واتبعه، فو الله أنه لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم وكساني ثياباً، وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم

فألقيتها، ثم خرجت على أصحابي فلما رأوا كسوة النجاشي سروا بذلك وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه في أول مرة وقلت أعود إليه، فقالوا: الرأي ما رأيت .

قال: ففارقتهم وكأني أعمد إلى حاجة فعمدت إلى موضع السفن فأجد سفينة قد شحنت تدفع، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعبة وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً، وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان مترلاً وأحدهما دخل في الخيمة والآخر يمسك الراحلتين، فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قلت: أين تريد؟ قال: محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبقى أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارها، قلت: وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فترلنا جميعاً في المترل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة، فما أنس قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يارباح يارباح يارباح، فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بين هذين، وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننت أنه بشر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بقدومنا، فكان كما ظننت، وأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا على أظلعنا عليه، وإن لوجهه تهللاً والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا. فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت، فو الله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياءً منه .

قال: فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي و لم يحضرني ما تأخر، فقال: إن الإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها، قال: فو الله ما عدل بي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المترلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة وكان عمر على خالد كالعاتب .

إسلام خالد بن الوليد

قال الواقدي: حدثني يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت أبي يحدث عن خالد بن الوليد قال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني في موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في أصحابه بعسفان، فقمت بإذائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا - وكانت فيه خيرة — فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقى؟

أين أذهب؟ إلى النجاشي! فقد اتبع محمد وأصحابه عنده آمنون فأخرج إلى هرقل فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم في عجم، فأقيم في داري بمن بقى فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة في عمرة القضية فتغيبت و لم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إلي كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإني لم أرى أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام لا يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عنك وقال: أين خالد؟ فقلت:

يأتي الله به، فقال: (مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره) فاستدرك ياأخي ما قد فاتك من مواطن صالحة .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني سؤال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عني، ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة، فخرجت في بلاد خضراء واسعة فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك. قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: ياأبا وهب أما ترى ما نحن فيه إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف؟ فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبقى غيري ما اتبعته أبداً . فافترقنا وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية . قلت: فاكتم علي، قال: لا أذكره .

فخرجت إلى مترلي فأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما علي وأنا راحل من ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمترلة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي، فأسرع الإجابة، وقلت له: إني غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفج مناخة، قال: فاتعدت أنا وهو يأجج إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة وجدنا عمرو بن العاص بها، قال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﴿ﷺ وآله﴾، قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فسر بنا، فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلقيني أخي، فقال: أسرع فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد أخبر بك فسر بقدومك وهو

ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال يتبسم إلى حتى وصلت إليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: تعال، ثم قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير، قلت: يارسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادعو الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الإسلام يجب ما كان قبله، قلت: يارسول الله على ذلك، قال: اللهم أغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله، قال خالد: وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، و والله ما كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه .

السابقة حاكمة

هؤلاء الثلاثة أشد الناس على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعلى المسلمين، وكم وقفوا مواقف لأذية رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأذية أصحابه تقشعر لها جلود المؤمنين، ولكن سابقة الحسنى وسر القدر الإلهي غيب عن قوى العقول البشرية، من كان يشهد هؤلاء في مواطنهم الأولى ومسارعتهم إلى محو الحق يعتقد أنهم من أهل جهنم، والغيب خفي عن البصائر، ومواهب الله وعطاياه الإلهية لا تمنعها قضاؤه وقدره، كما أن المواهب والعطايا لا تمنع القضاء والقدر، فكم من محارب لله ورسوله وهو من أكبر أولياء الله تعالى بحسب السابقة، وكم من موال لله ورسوله ظاهراً وحاله مجهول، فلا المسيء المخطيء ييأس من رحمته وروحه، ولا المطيع المقبل يأمن جانب الله ومكره، ولذلك فكمل العارفين يتوبون إلى الله عقب كل عمل بار، وبعد الفراغ من كل قربة يتقربون بها إلى الله عن مشاهدة وأمر، أما عن المشاهدة فلعجزهم بحسب فطرهم عن القيام بحقوق عبوديتهم للمعبود الصمد، وقصورهم الذاتي عن القيام بشكر نعماه التي لا تحصى، وأما بالأمر فلقوله

سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٩٩) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠) .

فأمرهم بالاستغفار بعد الإفاضة، والإفاضة أكمل أعمال القربات، وأمرهم بالاستغفار بعد تقدم خير، وأمر حبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن جاهد في الله حق جهاده، وفتح الله له مكة وسارع الناس إلى الدخول في دين الله بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١) .

انظر إلى سادة قريش الثلاثة كيف عاندوا حتى انبلجت لهم أنوار الحق، فأقبلوا على الحق خاضعين راغبين في الإسلام، وانظر إلى كلام النجاشي لعمرو بن العاص وهو عالم من علماء النصرانية كيف دعاه إلى الإسلام، وناب عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في بيعة عمرو ليظهر لك العجب العجاب، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (الكهف:١٧) .

سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى بني مرة

لما رجع ﷺ من سرية بالكديد مؤيداً منصوراً بعثه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ثمان. روى ابن سعد أنه ﴿ﷺ وآله﴾ هيأ الزبير بن العوام ﷺ وقال له: سر حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء، فقدم غالب بن عبد الله من سرية الكديد وقد أظفره الله عليهم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ للزبير: اجلس وبعث غالباً ومعه مائتا رجل فأغاروا عليهم مع الصبح، وذلك أنه لما دنا منهم بعث الطلائع ومعهم علبة بن الحارث إلى محالهم فأشرف على جماعة منهم ثم رجع وأخبره الخبر.

وروى ابن سعد عن حويصة ﵁ قال: بعثني ﴿ﷺ وآله﴾ في سرية مع غالب إلى بني مرة فأغرنا عليهم مع الصبح، وقد أخذ علينا أميرنا أن لا نفترق، وآخى بيننا وقال: لا تعصوني فإنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: (من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني) وإنكم متى تعصوني فإنكم تعصون نبيكم، فآخى بيني وبين أبي سعيد الخدري ﵁ فأصبنا القوم.

وروى أنه لما دنا من القوم حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني وألا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأي لمن لا يطاع، ثم ألف بين كل اثنين وقال لهم: لا يفارق أحد منكم زميله، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري.

وإذا كبرت فكبروا، فلما أحاط بالقوم كبر غالب، فكبروا معه وجردوا السيوف، فخرج الرجال فقاتل ساعة، ووضع المسلمون فيهم السيف، وكان شعارهم أمت أمت، وقتلوا منهم قتلى وأصابوا منهم نعماً وشاء وذرية فساقوها، وكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل، أو عدلها من الغنم لكل بعير عشرة .

طاعة أمير رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ واجبة

في هذه السرية يظهر لنا أن طاعة أمير رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيما لا معصية فيه واجبة، وأن الروية في كل الأمور حسنة وفي الجهاد واجبة، وأن اتحاد القلوب وارتباطها موجب لعواطف الحق سبحانه وتعالى، مؤد في نظر الله تعالى إلى الجماعة، وأن الجماعة إذا خالفهم واحد منهم وجب على الجميع إزالة ما في نفسه أو رده عنهم، وأن سيدنا غالب ﵁ قام بأعمال من الحكمة والروية ترضي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عنه، وتجعل له المنزلة السامية في قلبه ﴿ﷺ وآله﴾ .

فعلى كل مسلم أن يقتدي به لتكون له تلك المترلة في قلب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولو كان في آخر الزمان، فإنما هي أخلاق وأعمال تصدر عن إخلاص لذات الله لا ينقصها طول الزمان ولا بعد المكان، وكل مسلم منحه الله تلك الحكمة والبصيرة والهمة الصادقة وقام لله عاملاً في سنة، كان محبوباً لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في أي زمان كان، وفي أي مكان كان، وكان أهلاً ومحلاً للبشائر التي بشر الله بها عباده الصالحين، وبالوعد الذي وعد الله به أولياءه المتقين.. أسأل الله تعالى أن يهب لنا الحكمة والعناية والفضل العظيم إنه مجيب الدعاء.. آمين.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سرية شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه إلى جمع من هوازن

بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ شجاع بن وهب رضي الله عنه في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن، أي: يقال لهم بنو عامر بالسيئ، وهو ماء من ذات عرق على ثلاث مراحل من مكة .

وكانت تلك السرية في شهر ربيع الأول سنة ثمان. وأمره ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يغير عليهم فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غافلون، أي: وقد نهى أصحابه أن يمنعوا في الطلب فأصابوا نعماً كثيراً وشاء، واستاقوا ذلك إلى المدينة، فكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيراً، وعدل البعير بعشرة من الغنم، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة .

سرية كعب بن عمير الغفاري رضي الله عنه

بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء وادي القرى في خمسة عشر رجلاً، وكانت في ربيع الأول سنة ثمان، فسار حتى انتهوا إلى ذات أطلاح، وكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، حتى دنى من القوم فرآه عين لهم، فأخبر بقلة الصحابة فجاءوا على الخيل، فدعاهم المسلمون إلى الإسلام فلم يستجيبوا ورشقوهم بالنبل، فقاتلهم المسلمون أشد القتال حتى قتلوا عن آخرهم، إلا

كعب بن عمير فإنه ظن قتله، فلما أمسى تحامل حتى أتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبره الخبر، فشق عليه ذلك ﴿ﷺ وآله﴾ فهم بالبعث إليهم، فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر فتركهم .

سرية مؤتة أو غزوة مؤتة

مؤتة موضع معروف عند الكرك، وهي مدينة من عمل البلقاء معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس. وكانت في جماد الأولى سنة ثمان. وسماها البخاري وابن إسحق غزوة لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبي ﴿ﷺ وآله﴾ .

وكان سببها أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أرسل الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصري من جهة هرقل وهو الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له: أين تريد؟ فقال: الشام، فقال: فلعلك من رسل محمد ﴿ﷺ وآله﴾؟ قال: نعم، فأمر به فأوثق رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه – ولم يقتل لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غيره – فلما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك اشتد الأمر عليه، وجهز جمعاً من أصحابه وعدهم ثلاثة آلاف، وبعثهم إلى مقاتلة ملك الروم، وأمر عليهم ﴿ﷺ وآله﴾ مولاه زيد بن حارثه ﷺ وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتضى المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً .

وكان ممن حضر ذلك المجلس يهودي اسمه النعمان فقال: يامحمد إن كنت سميت من سميت أصيبوا جميعاً، لأن أنبياء بني إسرائيل كانوا استعملوا الرجل على القوم، ثم قالوا: إن أصيب فلان فلو سموا مائة أصيبوا جميعاً، ثم جعل يقول لزيد: أوصى فإنك لا ترجع إلى محمد ﴿ﷺ وآله﴾ إن كان نبياً، قال: زيد أشهد أنه رسول الله صادق بار .

آداب الجهاد في الإسلام

وعقد ﴿ﷺ وآله﴾ لواء أبيض ودفعه إلى زيد، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعو من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا، وإلا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم، فأسرع الناس بالخروج وعسكروا بالجرف – وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام – وخرج ﴿ﷺ وآله﴾ مشيعاً لهم حتى بلغ سنية الوداع فوقف وودعهم وقال: (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء) وودعهم الناس وقالوا لهم: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

ولما ودع ابن رواحة ﵁ بكى، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقرأ آية: .﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (مريم: ٧١) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فلما ساروا نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة ﵁ .

لكنني أسأل الله مغفرة … وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة … بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي … أرشده الله من غاز وقد رشدا

وفي رواية: أن عبد الله بن رواحة لما أراد وداع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وفراقه، قال النبي ﴿ﷺ وآله﴾:

قل شعراً تقتضبه اقتضاباً، أي: من غير روية، فقال ﷺ:

إني تفرست فيك الخير نافلة   فراسة خالفت فيك الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله   والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فقال ﴿ﷺ وآله﴾: وأنت فثبتك الله ياابن رواحة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن رواحة تخلف حتى صلى الجمعة مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فلما صلى رآه قال: ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال: أردت أن أصلي معك الجمعة ثم ألحقهم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم.

ثلاثة آلاف يقاتلون مائتين وخمسين ألفاً

فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، وقام شرحبيل بن عمرو الغساني فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، فلما نزل المسلمون وادي القرى بعث أخاه سدوس بن عمرو في خمسين من الكفار فاقتتلوا مع المسلمين، وقتل سدوس وانكشف أصحابه، ونزل المسلمون معان وبلغهم كثرة العدو فأقاموا على معان ليلتين – ومعان بفتح الميم موضع أو جبل من أرض الشام – وبلغ المسلمين أن هرقل نزل بأرض البلقاء في مائة ألف من مشركي الروم مع ما انضم إليه من لخم وجذام وقيس وبهراء من قبائل العرب يبلغون مائة ألف وهم الذين جمعهم شرحبيل .

وجاء في رواية: أن القوم كانوا مائتي ألف من الروم وخمسين من العرب ومعهم خيول كثيرة، فقال المسلمون: نكتب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فنخبره الخبر فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له، فشجعهم عبد الله بن رواحة ﷺ على المضي بعد

إقامة الليلتين وقال لهم: ياقوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة ﷺ، فمضوا إلى مؤتة، ووفاهم المشركون فجاء منهم من لا قبل لأحد به من العدد الكثير الزائد على مائتي ألف والسلاح والكراع، أي: الخيول والديباج والحرير والذهب، إظهاراً للقوة والشدة بكثرة أموالهم وآلات حروبهم .

وفي هذا دليل على فرط شجاعة الصحابة ﷺ، وقوة قلوبهم، وتوكلهم على الله، وعدم مبالاتهم بأنفسهم لأنهم باعوها لله تعالى، إذ أقدم ثلاثة آلاف على أكثر من مائتي ألف أصحاب حروب وشدة، وهذا إنما هو لما وقر في قلوبهم، واطمأنت عليه نفوسهم من الثقة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر: ٥١) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧٣) وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧) والتقى المسلمون والمشركون فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم ﷺ .

استشهاد زيد وجعفر رضي الله عنهما

فقاتل زيد بن حارثة ﷺ ومعه راية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، أي: لواءه، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرماح ﷺ، فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ﷺ فقاتل به وهو على فرسه فألجمه القتال وأحاط به، فنزل عن فرس له شقراء فعقرها وقاتل حتى قتل، وهو أول رجل عقر من المسلمين، وفرسه أول فرس عقر في سبيل الله، وكان ﷺ حين اشتد القتال وأحاط به العدو يقاتل ويقول: ياحبذا الجنة واقترابها... طيبة وبارداً شرابها... والروم روم قد دنا عذابها... كافرة بعيدة أنسابها... على إن لاقيتها ضرابه .

وإنما عقر فرسه ﵁ خوفاً أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين، ولأن يقاتل ولا يفر ففيه دليل على فرط شجاعته ﵁، فإنه لما أخذ اللواء ﵁ قاتل قتالاً شديداً فقطعت يمينه فأخذه بيساره، فقطعت يساره فاحتضنه، وقاتل حتى قتل ﵁، ووجد فيه بضع وسبعون – وفي رواية وتسعون – جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ليس فيها شيء في دبره ولا ظهره، أي: ليس منها شيء في حال الأدبار بل كلها في حال الإقبال، لمزيد شجاعته ﵁، و لم ينكر عليه ﵁ أحد من الصحابة رضوان الله عليهم عقر فرسه، وبه استدل من جوز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به الكفار وتقاتل عليه المسلمين .

دروس الحادثة

١– من هذه الغزوة يظهر لنا قدر التقى عند الله وعند رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وإن كان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أتقياء ﵃ ولكن مقاماتهم في التقوى تتفاوت، ولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنهما أمارة الجيش وفيهم سيدنا جعفر بن أبي طالب من سادات بني هاشم، وممن هاجر الهجرتين، وممن قال له ﴿ ﷺ وآله﴾: أشبهت خلقي وخلقي، وفيه سادات المهاجرين والأنصار، وسيدنا زيد ﵁ تعلم أنه مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فقدمه ﴿ ﷺ وآله﴾ وجعله أميراً عليهم – ونعم الأمير هو – فإن الله سبحانه وتعالى وضع الأنساب إلا نسبه الشريف فإنه رفعه قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) فليس في الإسلام نسب يفتخر به، ولا حسب تتفاوت به مقاديرهم، والنسب الحقيقي والحسب الحقيقي هو التقوى، ونعم.. لأن أول من أقبل على الحق وأوذى فيه أعبد رفعهم الله بالتقوى وشرفهم بالإسلام، حتى صار الرجل منهم وهو لا نسب له بينهم متصلاً بنسب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (سلمان منا أهل البيت) وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: (أدخل الإسلام بلالاً في نسبي) .

٢– ومنها إظهار معجزات الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: إن أصيب زيد فجعفر، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، وإن أصيب عبد الله بن رواحة فليختر

القوم أميرهم، فبين ﴿ﷺ وآله﴾ ما سيكون لهم رضي الله عنهم، فأصيب من أخبر عنهم، ثم قام ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبر الصحابة يوم قتلهم بما حصل لهم، وهم في بلاد الشام وهو ﴿ﷺ وآله﴾ بالمدينة .

٣- ومنها ما كان عليه أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من اليقين الحق الذي رخصت معه النفوس الغالية في سبيل الله، حتى بلغوا درجة الفناء عما سوى الله حتى عن أنفسهم، وكان القتل في سبيل الله أحب إليهم مما سواه في كل خير يشتهى، فكان الصحابي يسارع إلى الشهادة كما يسارع غيره إلى الجلوس على عرش الملك المطلق أو أكثر. ولم أف الحقيقة نصيبها لأن ثلاثة آلاف من الصحابة ينظرون إلى مائتين وخمسين ألفاً من الروم والعرب من رجال الحرب والطعان والقوة والسلاح والميرة والحصون، وهم ﵁ في قلة وغربة وحاجة إلى الضروري لهم ومع ذلك فإنهم قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما ازدادوا إلا تثبيتاً ويقيناً، ومسارعة إلى فردوس الله الأعلى، وإقبالاً على الله سبحانه بالكلية .

هجم سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنهما على هذا البحر المتلاطم بأمواجه، وهذا الأفق المتساقطة صواعقه، كأن بينه وبين الجنة قيد شبر، وكأن حورها وولدانها ينادونه أن هلم إلينا، فألقى بنفسه عن يقين حق، وشهود صادق، وإخلاص في ذات الله، ولم يلتفت ﵁ حتى أخذته السيوف والرماح .

وسيدنا الإمام جعفر بن أبي طالب ينظر بعين رأسه، فما مالت راية رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلا وقد مدت إليها تلك اليد كأنها توضع في يد الله للبيعة له سبحانه، فاستلم الراية مشاهداً أنه خليفة ربه، العامل بأمره لإعلاء كلمته، وقهر عدوه سبحانه وتعالى، ولم يسعه أن يقف في مركزه وأن ينظم جيشه، ولكنه رأى تلك الأنفاس أغلى وأعز من أن يلتفت لاخوته أو يتكلم معهم كلمة، وقدم فخاض لجة هذا الجيش، وهو كأنه ﵁ قضاء الله المبرم عليهم، وأعداء الله محيطون به حتى قطعت يداه ﵁، فقبض على السيف بحضنه، وما

أنس به أنساه آلام جراحه التي تبلغ المائة من طعن وضرب ورمى، وهذا أمر يعجز العقل أن يتصوره، وتقف قوة الخيال أن تتخيله، وإنه عمل فوق قوة الإنسان، وحال فوق أحوال الملائكة المقربين، لم يكن ذلك إلا من مشهد قدسي ويقين حق، وإني لأتخيل أن الرب جل جلالة تنزل وأدناه منه وآنسه وناداه مرحباً به ومستهلاً له، فأفنته لذة شهوده عن وجوده، وغيبه من أدناه بمعناه عن مبناه .

رأى ﵁ أن جواده لا يؤاتيه همة وعزيمة فعقر الجواد، وكأنه يقول لنفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم خاض تلك الغمرات كأنه يخطر في روضات الجنات، حتى أشرقت أنوار روحه الطاهرة القدسية على عوالم عالين، وفقدت أنفاسه الطاهرة وأعماله المباركة الأمة الإسلامية، فما مالت الراية في يده ﵇ إلا ويد الله مدت إليها فتناولها الإمام الثالث بعزم نبوي، وحال محمدي، وشهود عن حق يقين، وائتسى بأمره الذي قبله فلم يلتفت، وهو سيدنا عبد الله بن رواحة .

هذه العزائم التي سجد العقل بفنائها لم تكن واجبة عليهم ﵃، ولو أنهم رجعوا جميعاً إلى المدينة لكانوا متحيزين إلى فئة، ولو أنهم فروا من أمامهم لكانوا متحرفين للقتال، ولكن أبت تلك النفوس المطهرة القدسية والهمم القلبية إلا أن تظهر ما خفى في قلوبهم من اليقين الحق، وما تجملت به سرائرهم من الوفاء لرسوله بالعهد، حتى أبت تلك النفوس أن تقف عند الواجب، وسارعت إلى الكمال الأكمل في القيام بحقوق الله وحقوق رسوله ﴿ﷺ وآله﴾، لأنها تبتغي الغاية التي لا غاية بعدها، والبغية التي إليها أرواح الأنبياء تسارع.. ألقى سيدنا جعفر ابن أبي طالب ﵇ لجماعة المسلمين درساً عملياً بين لهم فيه كيف ترخص النفوس الغالية، وتتلذذ بالقتل عند المقتضيات فإن رجلاً واحد يهجم على مائتين وخمسين ألفا هذا الهجوم – وهو الخبير بفنون الحرب العالم بالذين هم أمامه شجاعة وكثرة – لا يشك شاك أنه ما أقدم هذا الإقدام إلا فرحاً بلقاء الله، ومسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر. ومن كوشف بالجمال الإلهي وعلم السبيل إلى رضوانه الأكبر، وسمع

الحق جل جلاله يناديه بعد أن تجلى له، هل تكون نفسه غالية عليه؟ لا والله.. أو يحول بينه وبين رضوان الله حائل ويتمهل عليه؟ لا والله .

بهذا رفع الله عباده الصالحين، ومكن لهم في الأرض، وأذل لهم أعداءهم، وكل مؤمن صدق الله ورسوله بيقين حق، وعزيمة ماضية، واجهه الله بتلك الأنوار، وجمله بتلك الأحوال.. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ومن لم يصبر على طاعة الله، و لم يتحمل الشدة في نيل مرضات الله، فهو يدعى الإيمان ويكذب على نفسه، وإن العبد المؤمن ليبتلي في دينه حتى تظهر حجة صدقه مع الله، ورغبته فيما عند الله، وفنائه عما سوى الله سبحانه وتعالى، وبذلك يكون من أهل رضوان الله، يمكن الله له في الأرض، ويجعل له الخير في الدنيا والآخرة قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (إذا أحب الله العبد ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه) .

البلايا عطايا

فأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ — وأخص من اصطفاهم رسول الله – لم يروا الصبر عند البلايا يناسب مقامهم، حتى كانت البلايا عند نزولها بهم كأنها عين العطايا، يفرحون بها رضاء بقدر الله، كما يفرح غيرهم بالجلوس على سرير الملك، فاصطفاهم الله لشهود جماله العلي، واختارهم لأن يكونوا عنده في مقعد صدق، ورفع الحجاب بينه وبينهم. وهذا هو الفناء الحقيقي الذي يفرح به أهل الله الصالحون في مواجيدهم، ويشرحونه في كتبهم، ويرشدون إليه تلاميذهم، ويحملون به مريديهم، وهو مشهد فوق العقل قدراً، وأين اللائمون على الرجال، المنتقدون عليهم إذا سمعوا أحوال هؤلاء الأئمة ﷺ، وتدبروا في أعمالهم، لعل العاقل منهم ينكر عليهم ويقول: خالفوا وتغالوا و لم يتوسطوا. وما عملوه رضي الله تبارك وتعالى عنهم هو الواجب عليهم لمبدعهم الكريم، الذي تفضل عليهم بالهداية والعناية، وجذبهم إليه فبذلوا النفس والنفائس حباً في لقاه، وهو سبحانه وتعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا

أحد. فبذل النفس والنفائس قليل في جانب ما نالوه من مولاهم، وحقير بالنسبة لما أولاهم قال الله تعالى: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (الصافات:٦١) وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٧) وهذا هو العمل حقاً الذي شكر الله العاملين عليه، وأثنى عليهم به، وهو الذي وفقهم له، وأعانهم عليه، سبحانه وتعالى بيده الخير وإليه المصير، وهو ذو الفضل العظيم .

استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

أخذ اللواء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ثم تقدم به – وهو على فرسه – فجعل يستترل نفسه، ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتترلنه   لتترلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة   مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة   هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضاً:

يا نفس إن تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   أن تفعلي فعلهما هديت

يريد رضي الله عنه صاحبيه زيداً وجعفراً رضي الله عنهما، ثم نزل عن فرسه فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في الناس فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده وأخذ سيفه فقاتل رضي الله عنه وأرضاه .

روى سعيد بن منصور أنهم دفنوا يومئذ في قبر واحد زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه .

ثلاثة ضاقت الجنة عن أرواحهم

نزل سيدنا عبد الله بن رواحة عن فرسه اقتداء بأميره السابق، ومنافسة في حظائر القدس، ومسارعة إلى لقاء الله العلي سبحانه، تجلت له روحه القدسية ﷺ متجردة عن نفسه، فخاطب نفسه بها بما خاطبه بها من الشعر فانقادت نفسه وجسمه لروحه القدسية فأقدم ﷺ على الموت إقداماً على القرب من الله، والحظوة بجنابه العلي، فلحق بربه راضياً عنه مرضياً منه، ونجز الله تعالى إشارة رسوله ﴿ﷺ وآله﴾. ضم تلك الهياكل النورانية الثلاثة قبراً واحداً، وعجباً تضيق الجنة - والله — بهم لأنه لم يخطر على سرهم خاطر لغير الله، و لم تلتفت أرواحهم الطاهرة نفساً عن مواجهة الله سبحانه، فكيف يسع قبر أجساماً ضاقت الجنة عن أرواحها؟ وحسبك أيها القلم فإنما هو روضة من رياض الجنة، أو حظيرة من حظائر الوادي المقدس. وكيف لا ؟ والله تعالى معهم وعندهم، وفيه قتلوا . .

أسأل الله تعالى أن يهب لنا من مواهبهم اللدنية ما به نكون مقبلين عليه، مخلصين لذاته العلية.. إنه مجيب الدعاء .

ثم أخذ اللواء ثابت بن أرقم العجلاني ﷺ البلوي حليف الأنصار، وكان ممن شهد بدراً، وقال: يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد ﷺ. وفي رواية: أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد وقال: أنت أعلم بالقتال مني، فلم يقبل خالد اللواء وقال: أنت أحق به مني لأنك ممن شهد بدراً، فنادى ثابت: يامعشر المسلمين فاجتمع الناس على خالد بن الوليد ﷺ وسلموه اللواء فأخذه .

وفي الصحيح حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله عليهم، وانكشف الناس فكانت الهزيمة. وفي رواية: قاتلوا المشركين حتى هزموهم. فعند ابن سعد أن خالد ﷺ لما أخذ أمر اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا وأظهر الله المسلمين. فقيل: سبب ذلك أن خالداً ﷺ لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقه، وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجيء عدد للمسلمين فرعبوا وانهزموا، فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم .

وكان جملة من قتل من المسلمين اثنى عشر رجلاً، وهذا من عناية الله تعالى بالإسلام وأهله ومزيد إعزازه ونصره لهم، إذ جيش عدته ثلاثة آلاف يلقون أكثر من مائتي ألف فلا يقتل منهم إلا أثنى عشر رجلاً، مع أنهم اقتتلوا مع المشركين سبعة أيام .

وأما قتلى المشركين فلا يحصون، فكانت هذه السرية من أعظم معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ الباهرة التي أكرم الله بها أصحابه ﷺ، ورفعت الأرض يومئذ لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى نظر إلى معترك القوم، فأخبر أصحابه. وذلك أنه لما اطلع على ذلك نادى في الصلاة: الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وعيناه تزرفان وقال: أيها الناس باب خير، باب خير، ثلاثا، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبد الله

بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد و لم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره . وفي رواية: ثم أخذ الراية خالد بن الوليد نعم عبد الله، وأخوا العشيرة، وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين من غير إمرة حتى فتح الله عليهم . وفي رواية: اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره؛ فمن يومئذ سمي خالد ﵁ سيف الله .

وعن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنهما قال: اشتكى عبد الرحمن بن عوف ﵁ خالد بن الوليد ﵁ إلى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: ياخالد لم تؤذ رجلاً من أهل بدر لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله، فقال: يارسول الله إنهم يقعون في فأرد عليهم، فقال: لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار .

قال بعضهم: كون ما وقع يوم مؤتة فتحاً ونصراً واضح لإحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم، لأنهم كانوا أكثر من مائتي ألف والصحابة ﵃ ثلاثة آلاف وكان مقتضى العادة أنهم يقتلون بالكلية .

وجاء في رواية: أصاب خالد منهم مقتلة عظيمة، وأصاب غنيمة، وهذا لا يخالف ما جاء أن طائفة من الصحابة ﵃ فروا إلى المدينة لما عاينوا كثرة جموع الروم، فصار أهل المدينة يقولون لهم: أنتم الفرارون، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: بل هم الكرارون. وجاء في رواية: أنا فئتكم يشير إلى قومه: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ (الأنفال: ١٦) يعني أن فرارهم كان من الانحياز إلى فئة، وأيضاً زاد العدو على ضعفهم بل زاد على عشرة أضعافهم .

والحاصل أن المسلمين لما قتل عبد الله بن رواحة ﵁ انهزموا وتفرقوا وذهب جماعة منهم إلى المدينة، ثم اجتمع الناس لما انحاز خالد بن الوليد ﵁ ورتب الناس – وقد مدح رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خالداً على ذلك وأثنى عليه – ففتح الله على يديه ﵁ .

وعن بعض الصحابة ؓ لما قتل ابن رواحة ؓ انهزم المسلمون ؓ أسوأ هزيمة ثم تراجعوا، ولقد لقوا من أهل المدينة لما رجعوا شراً حتى أن الرجل يجيء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه فيأبون يفتحون له ويقولون له: هلا تقدمت مع أصحابك فقتلت، حتى أن كبراء الصحابة ؓ جلسوا في بيوتهم استحياء، كلما خرج واحد منهم صاحوا به، وصار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يرسل إليهم رجلاً رجلاً ثم يقول: أنتم الكرارون في سبيل الله .

ويعنون بالفرار انحيازهم مع خالد ؓ حين انحاز العدو عنهم، وإنما انحاز خالد ؓ لترتيبه العسكر، وقد مدحه ﴿ ﷺ وآله﴾ على ذلك وأثنى عليه ؓ .

وصف المعركة من أعلام نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾

ولما قدم يعلى بن أمية ؓ على النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بخبر الجيش، قال له النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك، قال: فأخبرني يارسول الله لأزداد يقيناً، فأخبره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الخبر كله ووصف له ما كان، فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً، وإن أمرهم لكما ذكرت، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم. وحين رآى ذلك قال: حمى الوطيس، أي: حميت الحرب واشتدت، وقيل: إن الذي جاء بخبرهم أبو عامر الأشعري ؓ .. ولا مانع من أن كلا منهما جاء بالخبر .

على مثل جعفر فلتبكي البواكي

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها زوج جعفر بن أبي طالب ؓ قالت: دخل على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال: ائتني ببني جعفر فأتيته بهم فشمهم وزرفت عيناه. وفي رواية: وبكى حتى نقطت لحيته الشريفة ﴿ ﷺ وآله﴾، فقلت: يارسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيئاً؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم، قالت: فقمت أصيح، واجتمع علي النساء، وجعل

رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: ياأسماء لا تقولي هجراً ولا تضربي خداً، وقال: اللهم قدمه – يعني جعفرا – إلى أحسن الثواب، واخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته.

وخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أهله فقال: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم. وفي لفظ أنه ﴿ﷺ وآله﴾ دخل على فاطمة عليها السلام وهي تقول: ياعماه، فقال: على مثل جعفر فلتبك البواكي، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾: اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم وفي رواية: قد شغلهم ما هم فيه .

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن سلمى مولاة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ عمدت إلى شعير فطحنته ونسفته ثم عجنته وأدمته بزيت وجعلت عليه فلفلاً، قال: عبد الله فأكلت من ذلك الطعام، وحبسني رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع إخوتي ثلاثة أيام ندور معه ﴿ﷺ وآله﴾ كل ما صار في بيت إحدى نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا .

وهذا الطعام الذي جعل لآل جعفر ﵁ هو أصل طعام التعزية .

ثم أمهل ﴿ﷺ وآله﴾ آل جعفر ثلاثا فقال لهم: لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ثم قال: أئتوني ببني أخي، فجيء بنا كأننا أفرخ فدعا الحلاق فحلق رءوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي ثم دعا لهم. قال: عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما دعا لي فقال: اللهم بارك له في صفقة يمينه، فما بعت شيئاً ولا اشتريته إلا بورك لي فيه .

وجاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: مثل لي زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة ﵃ في خيمة من در كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيداً وابن رواحة في أعناقهما صدوداً، أي: إعراضاً ورأيت جعفر ليس في عنقه صدود، فسألت فقيل: إنهما حين غشيهما الموت أعرضا بوجوههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل .

الاجتهاد في تعيين الإمام

انتقل الأمير ابن رواحة إلى مقعد صدق شهيداً بين معترك الوغى وكان قلب المسلمين، فلما أن مالت الراية من يده اشتد حزن المسلمين على أمرائهم، ولم يعين لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أميراً بعد بن رواحة فكان ذلك موجباً لضعف القلوب، واختلاف الآراء وعدم الإجماع، فاختلف الناس منهم من رأى الرجوع إلى المدينة، ومنهم من رأى أن لا يفارق العدو حتى يفعل الله ما يشاء .

من هذا نعلم أن المسلمين إذا اختلفوا في تعيين الإمام واجتهد كل واحد منهم، كان لكل واحد أجر ما دامت وجهتهم الإخلاص لله، لأن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقر من رجعوا إلى المدينة وأثنى عليهم، مع أن أهل المدينة شنعوا عليهم في الفرار من الزحف.

استلم الراية سيدنا خالد بن الوليد بعد تمنع، لأنه يعلم أن من شهد بدراً أولى بها لسابقيته في الإسلام، ولم يقتد بأمرائه السابقين، ولكنه تلقى منهم درساً أفاده الله تعالى به فاجتهد ﷺ، واجتهاد المؤمن نور يجعله الله في قلبه إن أخلص وجهه لله، وأداه اجتهاده إلى أن ينحاز عن العدو حتى يرتب جيشه، ثم غير مواطن القتال حتى واجه كل جماعة من المسلمين غير من كانوا يواجهونهم من الكفار، وهجم ﷺ هجمة خبير بالحروب عالم بخدعها، فهزم الله الكافرين أجمعين . فكان عمل الأمراء ﷺ من أكبر آيات الله تعالى التي قذف الله بها الرعب في قلوب الكافرين، وعمل سيدنا خالد من خفي ألطاف الله تعالى بعباده المخلصين، فإن مائتين وخمسين ألفاً من الروم والعرب يهزمها ألفان من الصحابة، ولم يقتل منهم إلا اثنى عشر رجلاً ذلك هي أكبر معجزة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

ومن هنا يستنبط أن المخلص المجتهد يمده الله تعالى بعنايته، وأن الاجتهاد واجب في موطنه، ونعلم العلم اليقيني أن الوقوف عند الواجب ممدوح ينال به العبد

مغفرة الله، وأن المنافسة في الكمالات وبذل النفس والنفيس في مواطن ذلك محمود عند الله تعالى ينال به العبد المخلص رضوان الله الأكبر، والفوز بنعيم الله في مقعد صدق قال الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٦٣) وشتان بين من علم علم يقين ومن شهد عين يقين، فأهل علم اليقين وقفوا عند الواجب، وأهل عين اليقين تجاوزوه إلى مشاهدهم قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ (النساء: ٩٥) وخير المسلمين من سارع إلى مغفرة من ربه وجنات عرضها السموات والأرض باذلاً نفسه ونفائسه .

عودة وفرحة

ولما دنى الجيش تلقاهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والمسلمون ولقيهم الصبيان، فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: خذوا الصبيان فاحملوهم واعطوني ابنى عبد الله بن جعفر، فأتى به فأخذه فحمله بين يديه .

وكان عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما ولد بالحبشة وأمه أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وتزوجها أبو بكر ﵁ بعد جعفر ﵁ فولدت له محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: هنيئاً لك أبوك يطير مع الملائكة في السماء .

وقد قال حسان بن ثابت ﵁ قصيدة يرثي بها جعفر بن أبي طالب ومن معه ﵃:

تأوبنى ليل بيثرب أعسر   وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجيت لى عبرة   سفوجا وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية   وكم من كريم يبتلي ثم يصبر
رأيت خيار المسلمين تواردوا   شعوبا وخلفا بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا   بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبدالله حين تتابعوا   جميعا وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم   إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم   أبي إذا سيم الظلامة مجسر
فطاعن حتى مال غير مؤسد   بمعترك فيه القنا متكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه   جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى فى جعفر من محمد   وفاء وأمرا حازما حين يأمر
وما زال في الأسلام من آل هاشم   دعائم عز لا يزلن ومفخر
هموا جبل الأسلام والناس حولهم   رضام إلي طود يروق ويبهر
بها ليل جعفر وابن أمه   علي ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهموا   عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج اللأواء في كل مارق   عماس إذا ما ضاق بالناس مدر
هم أولياء الله أنزل حكمه   عليهم ، وفيهم ذا الكتاب المطهر

من عمل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نعلم أنه يسن للقادم على بلد خصوصاً إذا كان ممن يستعمل يستقبله الناس أن يركب معه على الدابة صبي من صبيانهم. وفي ذلك دليل على الرحمة بالصبيان، والعناية بهم، وإدخال السرور على آبائهم وأهل بلدهم، فإن من أحب قوماً أحب أطفالهم .

تبديل الهيكل الإنساني بهيكل لطيف نوراني

ولما كان سيدنا جعفر ﵁ قطعت يده فاستلم السيف باليد اليسرى فقطعت، فاستلمه بحضنه، ومن فقد شيئاً لله أبدله الله خيراً منه، ثم بذل جسمه ونفسه لله سبحانه فأبدل الله جسمه بجسم نوراني ملكي، ونفسه بنفس قدسية، وأطرافه بأجنحة ملكية، حتى صار وهو الإنسان البشري – قد أبدله الله بكل ما بذله خيراً منه – ملكاً من الملائكة العالين، وصار هيكله الإنساني هيكلاً نورانياً لطيفاً، رفعه الله كما رفع رسله الكرام بجسمه ونفسه إلى على سمواته يطير مع ملائكته المقربين. فقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: هنيئاً لك أبوك يطير مع الملائكة، قول عن وحي يوحى، أو عن شهود عيان، لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقاً. وإني آمنت وصدقت بقوله ﴿ﷺ وآله﴾، وبأن الله تعالى أبدل هذا السيد الهاشمي بكل عضو فقده خيراً منه، وأبدله بجسمه خيراً منه، وبنفسه روحاً قدسية، ومن أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه بكله، ومن كان مرة ومرة كان الله له كذلك. وسر قوله: يطير مع الملائكة، أنه ﵁ عقر جواده فكأنه قد أقبل على الله بنفسه وماله فأقبل الله عليه بكله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، تفضل على هذا السيد ﵁ في حياته الدنيا بالحب الخالص لذات الله، والفناء الخالص عما سوى الله، ووفقه سبحانه وتعالى بمعونته وهدايته فبذل نفسه ونفائسه في ذات الله، ثم إن له سبحانه وتعالى فضلاً منه وكرماً ما هو خير له.. قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ (البقرة: ٢٤٥) وخير قرض يقرضه المؤمن ربه – وهو الغني عمن سواه المفتقر إليه كل من عداه – بذل

نفسه في سبيل الله، ومن بذل نفسه لله يضاعف الله له فيمنحه نفساً قدسية، ويجمل نفسه الملكية بالرقى إلى الدرجات العلا فوق مقامها الأول، وهذا منهاج أهل الله الصالحين الذين بلغ بهم الحب في الله مبلغاً جعلهم يبذلون نفسهم ونفائسهم إرضاء لحبيبهم سبحانه وتعالى، ومسارعة إلى لقاه جل جلاله .

وأهل الله الصالحون في جهاد أبداً، وإن لم يقفوا في الصف لجهاد أعداء الله، وإن كان الوقوف في الصف لإعلاء كلمة الله وإزهاق الباطل هو البرهان الحق على حب الله وحب رسوله ﴿ﷺ وآله﴾، لأنه يتحقق من المؤمن ببذل كل شيء. ومن قدم نفسه للسيف والمقذوفات النارية راضياً بذلك هل يصعب عليه أن يبذل ماله؟ ولكن هناك جهاد وإن لم يكن برهاناً ظاهراً فهو برهان عند الله على كمال محبة العبد لربه وهو جهاد النفس في ذات الله .

هذه هي العلوم التي يتلقاها العارفون من أحوال أفراد أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، والأسرار التي يشيرون إليها في مواجيدهم العالية من ميراث أئمة أصحاب رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ .

من السنة استقبال القادم من أهل الصلاح

ونعلم أن من السنة استقبال القادم والاحتفال به خصوصاً إن كان من عمال الله النافعين عباد الله، فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خرج مع أصحابه ﵁ لاستقبال المجاهدين. يقول ﴿ﷺ وآله﴾: من كثر سواد قوم فهو منهم. وإنما تعلم منازل الناس عند الله بمن يحتفلون به ويعظمونه، ومن احتفل بالظلمة وعظمهم فهو منهم، ومن احتفل بالأتقياء العاملين البررة فهو منهم، ومن احتفل بالمجاهدين في سبيل الله فهو منهم
.

ومن السنة أيضاً أن الإنسان يعظم اليتيم ويرحمه ويعتني به ويقدمه على غيره من نظرائه، فإن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قدم سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما .

سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد بلى وعذرة

وهو وراء وادي ذات القرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام، وبلى قبيلة كبيرة ينسبون إلى بلى بن عمرو الحاف بن قضاعة، وكذا عذرة ينسبون إلى عذرة بن سعد بن قضاعة .

وتسمى سرية ذات السلاسل سميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، والمراد أنهم تجمعوا وانضم بعضهم إلى بعض في أول الأمر، فلا ينافي أنهم لما قرب المسلمون منهم ألقى الله في قلوبهم الرعب وفروا

وقيل: سميت بذلك لأن بها ماء يقال له السلسل. وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان .

وسببها أن جمعاً من قضاعة تجمعوا للإغارة وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعث ﴿ ﷺ وآله﴾ عمرو بن العاص ﷺ في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً .

وعن عمرو بن العاص ﷺ قال: بعث إلى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي فقال: ياعمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك، قلت: إني لم أسلم رغبة في المال، قال: نعم المال الصالح للمرء الصالح، فعقد له ﴿ ﷺ وآله﴾ لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، فسار هو ومن معه – وكان يكمن النهار ويسير الليل – فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء، وبعث معه مائتين

من سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فأراد أبو عبيدة ﷺ أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددا، أي: معينا ومقوياً، وأنا الأمير، أي: لا إمارة لك حتى تؤم الناس، فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً هينا عليه أمر الدنيا، فقال: ياعمرو إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال لي: لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك، فأطاع له أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وصل إلى العدو من بني بلى وعذرة، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا بعد أن اقتتلوا ساعة، فهزمهم المسلمون فأقام هنا ثلاثة أيام، وكان يبعث الخيل فيأتون بالشاء والنعم فينحرون ويأكلون، ولم يكن في ذلك غنائم تقسم .

وقال البلاذرى: فلقى العدو من قضاعة وغيرهم وكانوا مجتمعين ففرقهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم، وهذا يعضده قوله ﴿ﷺ وآله﴾: فيغنمك الله ويسلمك.. كما مر. وروى ابن راهوية والحاكم عن بريدة أن عمرو بن العاص ﷺ أمرهم في تلك الغزوة أن لا يوقدوا ناراً فأنكر ذلك عمر ﷺ، فقال له أبو بكر ﷺ دعه فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب فسكت عنه .

وروى ابن حبان عن عمرو بن العاص ﷺ أنهم سألوه أن يوقدوا ناراً فمنعهم، فكلموا أبو بكر ﷺ فكلمه في ذلك فقال: لا يوقد أحد ناراً إلا قذفته فيها، قال: فلقوا العدو فهزموهم فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم، فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ فسأله فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد، فحمد أمره .

وروى الشيخان عن عمرو بن العاص ﷺ قال: قدمت عن جيش ذات السلاسل فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، فأتيته حتى قعدت بين يديه فقلت: يارسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة،

قلت: إني لست أعني النساء إنما أعني الرجال قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب، فعد رجالاً فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم وقلت في نفسي: لا أعود أسأله عن هذا .

وفي الحديث، جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الوجهة، وفضل أبي بكر على الرجال، وبنته على النساء، ومنقبة لعمرو بن العاص ﵁ لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإن لم يقتضي ذلك أفضليته عليهم، لكن يقتضي أن له فضلاً في الجملة .

وقد قال رافع الطائي: وهذه الغزوة التي يفتخر بها أهل الشام ويحتجون بها على فضل عمرو بن العاص ﵁ .

الخصوصية لا تقتضي الأفضلية

من هذه السرية يظهر لنا من أسرار الأحوال المحمدية ما كان خفياً، أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ سيدنا عمرو بن العاص ﵁ على تلك السرية، ومهاجرة أصحابه ﴿ ﷺ وآله﴾ في السابقين الأولين ممن أثنى الله عليهم، وخصهم بفضله العظيم وعمرو بن العاص حديث عهد بالإسلام بعد عداوة الله ورسوله وكيد للإسلام وأهله، فكان لتأميره من الحكم ما يجعل السالكين يتعرضون لعظيم فضل الله، وإن لم تكن لهم سابقة، ويجعل من عادى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأشرقت على قلبه أنوار الإسلام يسارع إلى الإسلام مطمئناً، ويجعل سيدنا عمرو وأمثاله تطمئن قلوبهم للإسلام، وتنشرح صدورهم بثقة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ويجعل الإمام يولى الأمور أهل الخبرة بها، العالمين بأسرارها، بقطع النظر عمن معه من أهل الفضل والتقوى، لأن الخصوصيات تتفاوت في الرجال، فقد يكون الرجل أقرب الناس إلى الله، وغيره أعلم بنوع من الفنون التي بها يظهر الدين، والعلوم التي ترتب الأحكام وتدار بها شئون المجتمع الإسلامي.

نستنبط من تلك السرية أن المسلم لا حظر عليه أن يجتهد ما دام يستند إلى سند شرعي، وله أن يحفظ مترلته بالقيام بواجبه، ولو كان معه من هو أولى منه بعمله، فإن سيدنا عمروﷺ نافس سيدنا أبا عبيدة في الإمامة للصلاة، وسيدنا أبو عبيدة أمير رسول ومن المهاجرين الأولين وأمين الأمة، وفي الجيش الصديق الأكبر، والفاروق الأكبر، كل ذلك لم يمنع سيدنا عمرو بن العاص من أن يحفظ مترلته التي تفضل بها عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

نأخذ من هذه السرية أن الأمير يطاع ما لم يأمر بمعصية، لأن سيدنا عمرو ﷺ نهاهم عن إيقاد النار، ونهاهم عن اتباع العدو، فوجدوا عليه، ورفعوا الأمر لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما تقدم، فأقره .

ومنها معجزة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه قال لعمرو بن العاص ترجع سالماً غانماً فكان كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ .

ومنها أن صاحب الخصوصية قد يرى أن الخصوصية تقتضي الأفضلية، فظن عمرو بن العاص أنه أفضل الصحابة، لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جعله أميراً على أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وأكابر المهاجرين والأنصار، فكشف له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن الحقيقة، وأن الخصوصية لا تقتضي الأفضلية، فمن اختصه الله بمزية يجب عليه أن لا يعقد أفضليته على غيره، فإن ذلك ربما أدى إلى الغرور بالنفس ومدحها فأوجب مقت الله.. نعوذ بالله من مقت الله .

وهنا سر من أسرار الطريق، وهو أن السالك حقاً الذي منحه الله خصوصية، نظر إلى نفسه نظرة عالم بها متحقق بحقيقتها، فوزن بين ما من الله وما منه، ثم شهد حقيقة منة الله عليه فيما من الله إليه، وحقيقة جنايته وظلمه لنفسه فيما منه الله، فكان نظره إلى نفسه موجب لتوبته، لشهوده أن كل قربات تقرب بها إلى الله بتوفيقه ومعونته، وأنه مع القيام بها لا يخلو من الرياء أو الشرك .

أما من الشرك فلأنه لا يمكن أن يخلص الإخلاص الحق اللائق لجنابه العلى، ولا بد أن يكون له في عمله بغية ولو الفردوس الأعلى. أو رياء لو أنه يرى نفسه محسنة، وذلك موجب لنقص في العمل، وتقبيح للنفس .

ولا يكون الكامل كاملاً إلا إذا تاب من عمل أقرب القربات، وذلك لشهوده نفسه، ومكاشفته بحقيقتها، ونظر منة الله عليه فيما أورده، وفيما وهبه، وفيما اختصه به. وفي إجابة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لعمرو ﵁ بقوله: عائشة، تأنيساً لقلبه لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ تنزه سره المحمدي أن يحب أحداً من الخلق لغير الله، وإنما قال له عائشة ليعلم عمرو أنه ﴿ﷺ وآله﴾ ما أحبها إلا لحب أبيها، ولم يحب أبيها إلا لله سبحانه وتعالى، فيفهم مراده من إجابته ﴿ﷺ وآله﴾، ولكن الإشارات المحمدية العلية لا يدركها إلا أهل السابقية في الإسلام، المرتاضون بمجالسة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

بين لنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما يجب على أهل الخصوصية من النظر إلى أنفسهم بالازدراء، والنظر إلى غيرهم بالتعظيم حتى تدوم لهم الخصوصية، ومن اختص بمزية واغترت نفسه بها فكأنه عظم ما منه لا ما هو من الله له .

فالواجب على أهل الخصوصية أن يعظموا المنعم الوهاب الحنان المنان، وأن تصغر أنفسهم في أعينهم لمشاهدتهم منة الله عليهم في الخصوصية، ومن شهد منة الله تعالى كيف يشهد لنفسه منزلة، وإنما يشهد لنفسه منزلة من غفل عن شهود منة الله المعطي الوهاب .

سرية الخبط

وهي سرية أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال القرشي الفهري أحد العشرة المبشرين بالجنة ﵁، وسماها البخاري غزوة سيف البحر بكسر السين، أي: ساحل البحر، واشتهرت بسرية الخبط .

بعث ﴿ ﷺ وآله﴾ أبا عبيدة ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وكان فيهم عمر بن الخطاب ﵁ إلى أرض جهينة، ليلقى عيراً، لقريش ولمحاربة حي من جهينة، وكانت في رجب سنه ثمان بعد نكث قريش العهد وقبل فتح مكة، وزودهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جراباً من التمر لم يجدوا غيره، وقيل: كان معهم غيره، فلما فنى ما معهم أكلوا الخبط وهو – بفتح الخاء المعجمة والباء الموحدة – ورق السلم . قال جابر ﵁: كنا نضرب بعصينا الخبط (ورق الشجر) ونبله بالماء فنأكله . وفي رواية: كان الرجل منا يأكل تمرة تمرة، فقالوا الجابر: كيف كنتم تصنعون؟ قال: نمصها كما يمص الصبي الثدي ثم نشرب عليها الماء فيكفينا يومنا إلى الليل، ثم أكلوا الخبط بعد فناء التمر .

وابتاع لهم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما جزراً ونحرها لهم. وفي رواية: أنهم أصابهم جوع شديد فقال قيس: من يشتري مني تمراً بالمدينة بجزر تجزر هنا؟ فقال له رجل من جهينة: من أنت؟ فانتسب، فعرفه الجهني فقال: عرفت نفسك فابتاع منه خمس جزر بخمسة أو سق وأشهد له نفراً من الصحابة، وامتنع عمر ﵁ لكون قيس لا مال له، فقال الأعرابي: ما كان سعد ليقصر بابنه وأرى وجهاً حسناً وفعلاً شريفاً، فأخذ قيس الجزر فنحر له ثلاثة كل يوم جزور، فلما كان اليوم الرابع نهاه أميره فقال: عزمت عليه أن لا تنحر أتريد أن نغفر ذمتك ولا مال لك؟ فقال قيس: ياأبا عبيدة أترى أبا ثابت يقضي ديون الناس، ويحمل الكل، ويطعم في المجاعة، ولا يقضي عني تمراً لقوم مجاهدين في سبيل الله، فكاد أبو عبيدة يلين وجعل عمر يقول: أعزم فعزم عليه، فبقيت جزورات فقدم بهما قيس المدينة ظهراً يتعاقبون عليها، وبلغ سعداً مجاعة القوم فقال إن يكن قيس كما أعرف فسينحر لهم، فلما لقيه قال: ما صنعت في مجاعة؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نهيت، قال: ومن نهاك؟ قال: أبو عبيدة أميري، قال: ولم قال؟

زعم أنه لا مال لي وإنما المال لأبيك، فقال: لك أربع حوائط أدناها تجد منه خمسين وسقا .

وقدم الجهني مع قيس فأوفاه أوسقه وحمله وكساه، فبلغ النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فعل قيس فقال: إن الجود من سمة أهل ذلك البيت. وقيل: إن قيساً نحر قبل الثلاث ستاً مما كان معه من الظهر ثم ثلاثاً من التي اشتراها من الجهني، وكان قيس من دهاة العرب أهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة والبسالة لشجاعته .

ومن وقف على ما وقع بينه وبين معاوية رضي الله عنهما حين ولاه سيدنا علي ﷺ مصر بعد قتل سيدنا عثمان ﷺ لرأي العجب العجاب من وفور عقله. كان في الكرم ما لا مزيد عليه، وقفت له عجوز مرة وقالت: أشكوا إليك قلة الجرذان ببيتي – والجرذان نوع من الفئران – فقال: ما أحسن هذا السؤال، وقال لها: لأكثرن جرذان بيتك فملأ بيتها طعاماً. وقيل: قالت له: مشت جرذان بيتي على العصا فقال لها: لأدعهن يثبن وثوبا الأسود، ثم ملأ لها بيتها طعاماً. ولا مانع من تعدد الواقعة .

وكان قيس لا شعر بوجهه – وكان مع ذلك جميلاً – وكانت الأنصار تقول: وددنا أن نشتري لقيس بن سعد لحية بأموالنا كلها .

أيها المنكر على رجال الطريق الآلم لذة والفناء راحة

لأهل الطريق من هذه السرية مآخذ عجيبة تدق خفاء عن العقول، فإنهم ﷺ قد يخرجون من أموالهم لله، وقد يسيحون في الأرض بلا زاد إلا ما يكفي اليوم، ولهم من الثقة بالله، وحسن الحظ به ما يجعلهم أوثق بما عند الله مما في أيديهم، وكيف لا؟ ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جهز تلك السرية التي عدد رجالها كعدد أهل بدر وأعطاهم جراباً من التمر زاداً لهم، لقلة الزاد يومئذ، فخرجوا وقلوبهم مطمئنة بالله، حتى صار الرجل منهم يقتات في اليوم بالتمرة الواحدة وهو مسافر في سبيل الله في تعب ليله ونهاره، وفي أشد ما يكون إلى الحاجة من الطعام الذي، يقوم به صلبه، ولم يخطر على

قلب أحدهم خاطر لما هم فيه من اللذة بشهود الفناء عما سوى الله، والفناء عن مرادهم بمراد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكيف لا؟ وقد تحملوا من فادح الشقة ومرارة الجوع ما لا يصبر عليه ذو كبد رطبة، مع البهجة والأنس والفرح بتنفيذ أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فيا أيها العاقل المنتقد على رجال الطريق كسر موازين عقلك، فإن لله مواجهات يواجه بها من اختارهم بجمال رباني يغنيهم بشهوده عن كل جمال كوني، وبنور إلهي يكشف به كل نور عقلي حتى يكون الألم لذة، والفناء راحة، والجوع شبعاً، والظمأ ريا، ولا تعجب فلو نظرت نظر بصير وتفكرت بعقلك لعلمت أن الأمر معقول، فإن المبتهج بليلة عرسه، والمسرور بنيل منصب، والمهتم بإكرام من يحب، ينسى نفسه نسياناً حتى لا يشعر بجوع ولا عطش بل ولا ألم عناء، وهذا أمر عقلي محسوس، فكيف بمن واجهه ربه جل جلاله، وكاشفه بما أعده له من الرضوان الأكبر والفضل العظيم، لعله ينسى كل شيء حتى نفسه، ومن جهل أحوال أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعليهم ينكر كثيراً من الحق، ويقع في كثير من الباطل لوقوفه عند عقله المكسوف، وحظه المألوف .

سرية عددهم كعدد أهل بدر يتزودون جراباً من تمر أقل من النصف وسق، ويخرجون إلى بلاد الشام ليقابلوا عيراً لصناديد قريش في بوادي بين أعدائهم وجوع وظمأ، أي عقل يسلم هذا؟، وأين من ينكر هذا العمل والآمر به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والمنفذ له خيرة أصحابه كأبي عبيدة وعمر وقيس بن سعد وأمثالهم ﵃؟ لا تنكر أيها المعقول على أهل الطريق أعمالهم، فمآخذهم من القرآن المجيد، ومن عمل رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾، وعمل أصحابه ﵃. ولكنك أيها المنكر جهلت كثيراً من أعمال دينك ووقفت عند عقلك، انظر إلى سيدنا قيس بن سعد ﵁ كيف استدان الجزر ولا مال له

ثقة بالله تعالى، لعزيمته على الوفاء و هو الكرم الفطري. وانظر إلى سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا أبي عبيدة كيف منعاه عن الشراء ورضوا أن يموتوا جوعاً ولا يعملون عملاً يظنونه شبهة .

هذه هي الأحوال التي فوق أحوال الملائكة قدراً في وقت يباح فيه كل شيء للضرورة، ومع ذلك فأبت تلك النفوس الطاهرة إلا أن تموت، أو تستعين بما أحل الله، هذه مآخذ الرجال وعليها أسسوا طريقهم، وبها عاملوا ربهم سبحانه وتعالى، ومنها دخلوا على حضرة نبيهم ﴿ ﷺ وآله﴾ فكانوا وهم في الزمان الأخير كأنهم معه ﴿ ﷺ وآله﴾ حسا ومعنى، وإنما هي شمائل وأخلاق ومنافسة في القربات وتشبه بالمفلحين، واقتداء بالأئمة المهتدين.. والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولنرجع إلى تمام قصة سرية الخبط قال أهل السير: ثم أخرج الله لهم دابة من البحر تسمى العنبر، وهي سمكة كبيرة يتخذ من جلدها الترسة، وقيل: إن العنبر المشموم رجيعها، قال الأزهري: العنبر سمكة بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين ذراعاً، وفي رواية لجابر ﷺ: فألقى لنا البحر حوتاً ميتاً لم نرى مثله فأكلنا منه نصف شهر. وفي رواية: ثمانية عشر يوماً، حتى صحت أجسامنا وأدهنا من ودكه، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنصبه ونظر إلى أطول بعير فجاز تحته براكبه. وفي رواية: ثم أمر بأجسم بعير معنا فحمل عليه أجسم رجل فخرج من تحتها وما مست رأسه. وفي رواية: فدخل، أي: الراكب، تحتها ما يطأطيء رأسه. وفي رواية مسلم عن جابر ﷺ: فلقد رأيتنا نفترق من وقب عينيه، أي: حدقتيه، الدهن بالقلال ونقتطع منه القدر، أي: القطع من اللحم، كالثور. وفي رواية عن جابر أيضاً: فدخلت أنا وفلان فعد خمسة في حجاج عينها ما يرانا أحد حتى خرجنا، فسبحان القوي القادر .

فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فذكرنا له ذلك فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه فتطعمونا؟ فكان معنا منه شيء، فأرسلنا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأكل .

ولم يذكر أحد من أهل السير أنهم قاتلوا أحد في هذه السرية، بل أقاموا نصف شهر أو أكثر في مكان واحد ثم رجعوا ولم يلقوا كيداً .

لا ينكر كرامات الأولياء إلا محروم

لا ينكر إكرام الله أولياءه إلا محروم الكرامة، فإن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أكرمهم الله تعالى بما أخرج لهم من البحر عند الحاجة إليه، وأكل الصحابة رضي الله عنهم من لحمه هذه المدة يبين لنا أنه كان مملحاً، وإقرار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأعمالهم وأكله مما بقي معهم من لحمها دليل على أن اللحوم المملحة مباحة، وعليه فيباح السمك المملح المشهور ببلاد مصر بالملوحة أو الفسيخ، وإن كنا جماعة المالكية نرى حل الطبقة العليا منه فمأخذنا فيها من عمل الصحابة رضي الله عنهم، لأن السمكة التي أكل منها الصحابة كانت واحدة. ولكن لو فرضنا أن البحر قذف عدة سمك بعضة فوق بعض في أرض من الملح ووجده الصحابة رضي الله عنهم هل كانوا يمتنعون من الطبقة السفلى؟ لا أظن ذلك .

وعندي أن أكل السمك الملح ما لم يتغير مباح، وقد يحفظ اللحم قديداً مملحاً فيكون مباحاً ما لم يتغير، فكذلك الحكم في السمك فإنه لحم وقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ (النحل:١٤) والطري غير النضيج، ولا يؤكل من البحر لحماً طرياً غير السمك المملح. وصرف الآية عن ظاهرها اللغوي تعسفاً، والله سبحانه وتعالى إنما تعبدنا بظاهر القرآن، وقد يسر لنا الأمر في مثل هذه الأمور وإنما المحظور علينا فيه ما حرم، وقد أكرمنا الله تعالى بما أجراه لنا على يد أصحاب رسول الله ﴿ﷺ

وآله﴾ من الحوادث التي بينت لنا ما لم يكن ليستبين لنا إلا بعلمهم ﵃. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقنا للعمل بما يحبه ويرضاه حتى نكون على ما كان عليه أصحاب نبيه ﴿ﷺ وآله﴾.. إنه مجيب الدعاء آمين .

سرية أبي قتادة ﵁ إلى نجد

واسم أبي قتادة الحارث وقيل: عمرو أو النعمان بن ربعي الأنصاري السلمي، بعثه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى خضرة أرض محارب بنجد في شعبان سنة ثمان، وبعث معه خمسة عشر رجلاً، وأمره أن يشن الغارة على غطفان بأرض فسار الليل وكمن النهار، ثم هجم على جمع منهم فقاتله منهم رجال وقتل من أشرافهم وسبى سيدنا أبو قتادة ومن معه ﵃ سبياً كثيراً، واستاق النعم فكانت الإبل مائتي بعير والغنم ألفي شاة. وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: بعث ﴿ﷺ وآله﴾ سرية قبل نجد فكنت فيها فغنموا إبلاً كثيرة وغنماً، فكانت سهامنا إثنى عشر بعيراً، ونفلنا بعيراً بعيراً فرجعنا بثلاثة عشر بعيراً .

وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان السبي أربع نسوة وأطفال وجوار، وكان فيهم جارية وضيئة كأنها ظبي وقعت في سهم أبي قتادة فجاء محمية بن جزء الزبيدي فقال: يارسول الله إن أبا قتادة قد أصاب في وجهه هذا جارية وضيئة وقد كنت وعدتني جارية، فأرسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أبي قتادة فقال: هب لي الجارية فوهبها له، فدفعها إلى محمية بن جزء الزبيدي.. والله سبحانه وتعالى أعلم .

الدروس المستفادة من هذه السرية

من هذه السرية نتعلم أن المؤمن إذا نال ما هو في غنى عنه وطلبه أخوه المؤمن لا يذم الطالب إذا كان في حاجة، ولا يعد ذلك طمع لأن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقر الزبيدي على طلبه، واستوهب ﴿ﷺ وآله﴾ الجارية من سيدنا أبي قتادة ووفى وعده للزبيدي بهبتها له، وعمل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حجة، ومن عمله ﴿ﷺ وآله﴾ نتعلم كيف نجتهد في استنجاح مقاصد الغير، فإنه ﴿ﷺ وآله﴾ طلبها لنفسه من أبي قتادة لينال الزبيدي مقصده، ومن عمل هذا العمل كان ممن يتجمل بجمال الأخلاق المحمدية. وعلى المؤمن إذا قصده أخوه أن يبذل ما في وسعه لنيله طلبته، وبعض من لا علم لهم لو وقع مثل هذا الأمر أمامهم ينكرونه على من قام به جهلاً منهم، وأعمال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أصول تستنبط منها فروع. أسأل الله أن يجعلنا ممن يفقهون سيرة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وسيرة أصحابه ﵃، ويعيننا أن نتشبه بهم، نفعنا الله بهم أجمعين .

سرية أبي قتادة ﵁ إلى إضم

وهو – بكسر الهمزة وفتح الضاد المعجمة وبالميم – واد على ثلاثة برد في المدينة. وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان من سنة ثمان، وذلك أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما هم أن يغزو أهل مكة بعد أن نقضوا العهد – كما سيأتي – بعث أبا قتادة ﵁ في ثمانية أنفار سرية إلى بطن إضم ليظن ظان أنه ﴿ﷺ وآله﴾ توجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار فلا تستعد قريش لحربه ويدخل عليهم على حين غفلة، وكان يقول: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها..

واستجيب له فعميت الأخبار عنهم فلم يأتهم خبر عنه ولا علموا بذلك إلا ليلة دخوله ﴿ﷺ وآله﴾ – كما سيأتي – فخرج أبو قتادة ومن معه ﵃ فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم عليهم بتحية الإسلام، أي: قال السلام عليكم، وقيل: عظمهم بالانقياد

ومنه كلمة الشهادة التي هي أمارة على إسلامه، فقتله محكم بن جثامه فأنزل الله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ (النساء: ٩٤) روى الإمام أحمد والطبراني عن عبد الله بن أبي حدود ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى أضم في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحكم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له ومعه متبع له ووطب من لبن، فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محكم فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه، فلما قدمنا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأخبرنا الخبر نزل فينا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا.. إلى آخر الآية).

ثم إن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا جمعاً، وبلغهم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج من المدينة وتوجه إلى مكة فلحقوه بالسقيا، فأخبروه الخبر فقال لمحكم: أقتلته بعد ما قال آمنت بالله. وفي رواية: بعد ما قال إني مسلم، فجلس محكم بين يدي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليستغفر له وقال: إنما قالها متعوذاً، قال: أفلا شققت عن قلبه لتعلم أصادق هو أم كاذب، قال: وهل قلبه إلا مضغة من لحم، قال ﴿ ﷺ وآله﴾: إنما كان ينبئ عنه لسانه. وفي رواية: لا ما في قلبه تعلمه ولا لسانه صدقت، فقال: استغفر لي يارسول الله فرفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يديه ثم قال: اللهم لا تغفر لمحكم، قالها ثلاثاً بصوت عال، أي: زجراً وتهويلاً لهذا الأمر كيلا يتهاون الناس بقتل النفس المؤمنة، فقام محكم وهو يتلقى دموعه ببرديه فما مضت له سابعة من الليالي حتى مات، فجهزوه ودفنوه فلفظته الأرض، ثم عادوا ودفنوه فلفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته الأرض، فضموا عليه الحجارة حتى واروه، فذكر ذلك لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرمة ما بينكم بما أراد منه .

وفي رواية: إن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله، أي: حرمة من يأتي بها. ولفظ الأرض له يرد ما قيل أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استغفر له بعد دعائه عليه، إلا أن يكون المراد استغفر له بعد موته. ويوافقه ما في بعض الروايات: أراد الله أن يجعله موعظة لكم لكيلا يقدم رجل منكم على قتل من يشهد أن لا إله إلا الله أو يقول إني مسلم، اذهبوا به إلى شعب بني فلان فادفنوه، فإن الأرض ستقبله فدفنوه في ذلك الشعب .

فيجوز أن يكون استغفر له حينئذ، وجاء في بعض طرق هذه القصة أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ صلى بحنين ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يختصمان في عامر بن الأضبط، عيينة بن حصن يطلب دمه – وعيينة يومئذ رئيس غطفان – أي: ويقول ومن يارسول الله إني لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحر مثل ما أذاق نسائي، والأقرع يدافع عن محكم لمكانه من خندق، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول لعيينة ومن معه: بل تأخذون الدية خمسين في سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا وهو يأبى عليه فلم يزل به حتى اتفقا على الدية. ثم سأل محكم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أن يستغفر له إلى آخر القصة. وقيل: إن الذي لفظته الأرض غير محكم، لأن محكماً مات بحمص أيام ابن الزبير ﷺ والذي لفظته الأرض اسمه فليت .

الدروس المستفادة من هذه السرية

لا تخلو أعمال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من حكم علية، وأحكام شرعية، وأحوال روحانية، فحكمة تلك السرية ما ظهر من التدابير النبوية في الجهاد، فإن الله سبحانه وتعالى إذا قدر أمراً من الأمور هيأ أسبابه المرتبطة به ومهما كان توقع القوة التي فوق الأسباب متحقق فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لا يبدل سنن الله التي وضعها، وحكمه التي أقامها، والأواسط أي: الأسباب، التي ربط بعضها ببعض ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٦٢) وإنما القوة التي فوق الأسباب تكون متحققة عند كمال الأضرار بفقد الأواسط كما حصل لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في ليلة الغار حينما نسج العنكبوت وباض

اليمام حتى أخفى الله معالمه عن قريش وهو محل نظرهم من الأرض فلم يروه. وكما أكرم الله خليله فجعل له النار برداً وسلاماً، فالمؤمن الكامل خليفة ربه في أرضه يقف عند الأواسط أدباً مع سنة الله في خلقه، حتى إذا عجز انتظر القوة التي فوق الأسباب، وإنما الأسباب ميسرة بمسبب الأسباب وهي الدلائل الناطقة بعجائب قدرته وغرائب حكمته .

أرسل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أبا قتادة إلى إضم لينشر بين العرب خبر توجهه إليهم فيبلغ قريشاً فيكون ﴿ ﷺ وآله﴾ قد تحرف للجهاد، وتكشف للمؤمن الستار عن أسرار التدبير والروية والحكمة في الأعمال صغيرها وكبيرها ودفع ما يتوقع من الشبهة ليكون المؤمن على نهج سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، مؤتسياً به ﴿ ﷺ وآله﴾، فكان كما أراد ﴿ ﷺ وآله﴾، فإن قريشاً أعمى الله الأخبار عنهم حتى باغتهم في أبواب مكة ﴿ ﷺ وآله﴾ هذه من حكمة تلك السرية .

وأما ما يؤخذ منها من الأحكام فما علمته من تغليظ الأمر في قتل من يقول لا إله إلا الله، فإنه لا يحل دم إنسان إلا بواحدة من ثلاث: ردة بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس مؤمنة بغير نفس. أشتد غضب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على من قتل رجلاً قال: السلام عليكم، وشنع الله على من يفعل ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ (النساء:٩٤) فكان غضب رسول الله وتشنيع الله دليل على أن المؤمن يجب أن يأخذ بالظاهر، ويكل أمر القلوب إلى الله، وأنه لو خالف الظاهر بحسب علمه أو ظنه أو وهمه كان حكمه كحكم المعتدي على المؤمن الكامل، ولكن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مع هذا الغضب الشديد والدعاء على فاعل هذا الفعل بأن الله لا يغفر له، درأ الحد بالشبهة فأخذ بظاهره ولم يبحث عن قلبه بقوله: إنه قالها متوقياً من القتل، وأخذ بظاهره كما هو نص الشرع قال الله تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ (الإسراء:٢٥) فنحن مكلفون أن نحكم بالظاهر والسرائر يتولاها رب العزة جل جلاله، خصوصاً فيما يقضي حداً من حدود الله تعالى .

ولكني لا آمرك أيها الأخ أن تستسلم في كل شيء فتأخذ بالظاهر، إنما ذلك في أمور مخصوصة، وعليك أن تحتاط لنفسك مع تسليم باطنه إلى الله من غير ظن سوء ولا قصده، فإن المؤمن لا يخدعه المنافق ولا يخدع مؤمناً .

من هذه السرية ظهر لنا قدر قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، بل قدر قول السلام عليكم، وأن قائلها يحفظ دمه وماله وعرضه، وأن المعتدي على قائلها مستوجب لغضب الله وغضب رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وقد أصبحنا في زمان يستنكف المسلم أن يقول السلام عليكم، وإذا سمعها من أخيه حقره في نفسه، ويجب أن يحيى أخاه برطانة الفرنج، ويعتني بمن يحببه بتلك الألفاظ اللهم رحماك بنا .

الفصل السابع

غزوة الفتح الأعظم وهو فتح مكة شرفها الله تعالى

وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس بسببه في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً .

خرج ﴿ﷺ وآله﴾ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بالحديبية، فإنه كان قد وقع الشرط أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعهده .

حلف خزاعة وعبد المطلب

وكانت خزاعة حلفاء جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل في ساحات وأفنية من السقاية كانت في يد عبد المطلب فأخذها منه نوفل، فاستنهض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، ثم كتب إلى أخواله بني النجار فجاء منهم سبعون وقال: ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه وإلا ملأنا منك السيف فرده. ثم حالف نوفل بني أخيه عبد شمس، فحالف عبد المطلب خزاعة، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك عارفاً، ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب فقرأه عليه أبي بن كعب رضي الله عنه وهو باسمك اللهم هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذ قدم عليه سراتهم وأهل الرأي منهم، غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم، أن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده وما لا ينسى أبداً، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرق ثبير وثبت حراء، وما بل بحر صوفة ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجددا أبد الدهر سرمداً. وفي رواية: حلفاً جامعاً غير مفرق، الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا

ينكث، ما أشرقت شمس على ثبير، وحن بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان، واعتمر بمكة إنسان، حلف أبد لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شدا، وظلام الليل مدا، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون، على عبد المطلب النصرة لهم عن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب، أو حزن أو سهل، وجعلوا الله على ذلك كفيلاً، وكفى به جميلاً .

ولما ذكرت خزاعة ذلك الحلف للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم الحديبية قال ﴿ ﷺ وآله﴾: ما أعرفني بحلفكم، وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف، وكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام. وهذا الذي نفاه في الإسلام هو ما كان على الفتن والقتال والغارات، والذي قواه الإسلام ما كان على نصر المظلوم وصلة الأرحام والخير ونصرة الحق، فلا تنافي حينئذ .

القتال بين بني بكر وخزاعة ونقض العهد

ثم أنه قد كان بين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة وبين خزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر ومعه جماعة من قبيلة بني الديل حتى بيت خزاعة – وهم على ماء لهم يسمى الوتير بأسفل مكة – فأصاب منهم رجلاً يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة وهي قوله: لا إله له، يابني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري أنكم لتسرفون فلا تصيبون ثأركم فيه .

وقيل: إن سبب القتال بين بني بكر وخزاعة أن شخصاً من بني بكر هجا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وصار يتغنى به، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه، فثار الشر بين الحيين

مع ما كان بينهم من العداوة، وطلب بنو بكر من قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم بذلك فبيتوا خزاعة، ووقع القتال بينهم وكان جملة من قتل من خزاعة عشرين أو ثلاثة وعشرين. وقاتل مع بني بكر جمع من قريش خفية منهم صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعكرمة بن أبي جهل، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو - وكل هؤلاء أسلموا بعد ذلك ﵃ - ولم يشاوروا في ذلك أبا سفيان، وقيل: شاوروه فأبى عليهم وظنوا أنهم لم يعرفوا، وأن هذا لا يبلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ولا زالوا يقاتلون خزاعة حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، فلما ناصرت قريش بني بكر على خزاعة — ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من العهد والميثاق ندموا. وفي رواية: ولما لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع وانتهوا بهم في عماية الصبح، ودخلت رؤساء قريش منازلهم وهم يظنون أنهم لا يعرفون، وأصبحت خزاعة مقتولين على باب بديل ورافع، فقال سهيل بن عمرو لنوفل بن معاوية البكرى: قد حصرتهم تريد قتل من بقى وهذا مما لا نطاوعك عليه فاتركهم، فتركهم فخرجوا. وندمت قريش على ما صنعوا وجاء الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان ومن كان معه فلاماهم على ما صنعوا وقالا: إن بينكم وبين محمد مدة وهذا نقض لها، وقالت قريش: إن محمد غازينا، فقال ابن أبي سرح: لا يغزوكم حتى يخيركم في خصال كلها أهون من غزوة، يرسل إليكم أن دوا قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً، أو تبرأوا من حلف بني بكر، أو ننبذ إليكم على سواء، فقال سهيل بن عمرو: نبرأ من حلفهم أسهل، وقال شيبة بن عثمان: ندى القتلى أهون، وقال قرطة بن عمرو: لا ندى ولا نبرأ لكنا ننبذ إليه على سواء، وقال أبو سفيان: ليس هذا بشيء وما الرأي الصواب إلا جحد هذا الأمر، أي: كون قريش دخلت في نقض عهد أو قطع مدة، وأنه قطع قوم بغير رضا منا ولا مشورة فما علينا، قالوا: هذا الرأي ولا رأي غيره. وكان هذا النقض من قريش في شعبان سنة ثمان .

وأطلع الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ على ذلك يوم وقوعه حتى قال لعائشة ﵂ صبيحة وقعة خزاعة: لقد حدث ياعائشة في خزاعة أمر، فقالت: أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال: ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى، قالت: يارسول الله خير، قال: خير .

وروى الطبراني في حديث ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: بات عندي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليلة فقام ليتوضأ للصلاة فسمعته يقول في متوضئه بالليل: لبيك لبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت نصرت ثلاثاً، فلما خرج قلت: يارسول الله سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت نصرت ثلاثاً كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ فقال: هذا راجز بني كعب – وهم بطن من خزاعة – يستصرخني، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر .

وهذا علم من أعلام النبوة باهر، فإما أنه أعلم بذلك بالوحي وعلم ما تصوره الراجز في نفسه، أو أن الراجز كان يرتجز وأسمع الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ كلامه .

الاستعداد للفتح العظيم

قال أهل السير: ولما انقضى قتال بني بكر وخزاعة خرج عمر بن سالم الخزاعي أحد بني كعب – وهم بطن من خزاعة – ومعه أربعون راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه .

وقبل قدومهم بثلاث أمر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ عائشة رضي الله عنها أن تجهزه، أي: تهيىء له أهبة السفر وما يحتاج إليه في قطع المسافة، اعتماداً على ما أطلعه الله عليه مما وقع من نقض العهد، وأمرها أن لا تعلم أحداً، فدخل عليها أبو بكر ﵁ - قبل أن يخبره النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ويستشيره في – ذلك فقال: يابنية ما هذا الجهاز؟ فقالت: ما أدري، فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر فأين يريد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾؟ فقالت: لا علم

لي. وفي رواية لأبن أبي شيبة: أنها أعلمته. وجمع بينهما بأنه دخل عليها مرتين الأولى قالت له: لا علم لي، ثم أخبرته ﴿ﷺ وآله﴾ فأذن لها في إخبار أبيها لكونه عيبة سره، فدخل عليها ثانياً فأخبرته فقال: والله ما انتقضت الهدنة بيننا، وخرج ﵁ فذكر ما قالت له للنبي ﴿ﷺ وآله﴾، فذكر له ﴿ﷺ وآله﴾ أنهم أول من غدر .

قالت ميمونة رضي الله عنها: فأقمنا ثلاثاً، أي: بعد قوله لها هذا راجز بني كعب، ثم صلى بالناس .

صلى اليوم الثالث فسمعت الراجز ينشده، وذلك أن عمرو بن سالم أقبل هو ومن معه حتى دخل على النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وهو جالس بالمسجد فقال منشئاً:

يارب إني ناشد محمداً … حلف أبيه وأبينا الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا … ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا … وجعلوا لي في كداء رصدا
فانصر رسول الله نصرا أبدا … وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا … أن سيم خسفا وجهه تربدا
هم بيتونا بالوتير هجدا … وقتلونا ركعا وسجدا

وفي رواية:

هم قتلونا بصعيد هجدا … نتلو القرآن ركعا وسجدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا … فهم أذل وأقل عددا

فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: نصرت ياعمرو بن سالم. وفي رواية: فقام ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يجر رداءه وهو يقول: لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي. وفي رواية

قال: والذي نفسي بيده لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي وأهل بيتي. وفي رواية: قالت عائشة رضي الله عنها: لقد رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غضب مما كان من شأن بني كعب غضباً لم أره غضبه منذ زمان. وفي رواية: أنه دمعت عيناه حين سمع شعر عمرو بن سالم وقال: خزاعة مني وأنا منهم .

وسأل ﴿ﷺ وآله﴾ عمرو بن سالم فيمن تهمتكم؟ قال في بني بكر، قال: كلها، قال: لا ولكن في بني نفاثة – وهم بطن من بني بكر – قال ﴿ﷺ وآله﴾ لعمرو بن سالم وأصحابه: ارجعوا أو تفرقوا في الأودية، فرجعوا وتفرقوا وذهبت فرقة إلى الساحل، وفرقة لزمت الطريق، وقصد بذلك ﴿ﷺ وآله﴾ إخفاء ﴿ﷺ وآله﴾ مجيئهم للنبي ﴿ﷺ وآله﴾.

ثم قدم بديل بن ورقاء الخزاعي على النبي ﴿ﷺ وآله﴾ بعد ذهاب عمرو بن سالم ومعه نفر من قومه فأخبروه ﴿ﷺ وآله﴾ الخبر، ورجعوا ولزم بديل الطريق في نفر من قومه، وقيل: إن بديلاً لم يفارق مكة حتى لقيه في الفتح بمر الظهران. وفي رواية: أنه

﴿ﷺ وآله﴾ قال لركب خزاعة: أنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم في خصال ثلاث، فبعث إليهم ضمرة يخيرهم بين أن يدوا قتلى خزاعة، أو يبرأوا من حلف بني نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء، فأتاهم ضمرة فأخبرهم، فقال قرطة بن عمرو: لا ندى ولا نبرأ ولكن ننبذ إليه على سواء .

الرعب يملأ قلب أبو سفيان

ثم ندمت قريش على ما ردوا به فبعثوا أبا سفيان يجدد الصلح ويزيدهم في المدة، وقيل: إن أبا سفيان توجه مبادراً قبل أن يبلغ المسلمين الخبر، و لم يعلم بمسير خزاعة قلبه، وقيل: إن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة مشياً إلى أبي سفيان فقالا: لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمد في أصحابه، فقال أبو سفيان: قد رأت هند بنت

عتبة رؤيا كرهتها وخفت من شرها، قالوا: وما هي؟ قالت: رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة مليا، ثم كان ذلك الدم كأن لم يكن، فكرهوا الرؤيا .

وقال أبو سفيان: هذا أمر لم أشهده و لم أغب عنه ولا يحمل إلا علي، والله ما شوورت فيه ولا هويته حتى بلغني ليغزونا محمد إن صدقني ظني وهو صادقي، وما بد من أن آتى محمدا فأكلمه، فقالت قريش: أصبت .

فخرج ومعه مولى له على راحلتين، وعند رجوع ركب خزاعة من المدينة لقوا أبا سفيان بعسفان، فسألهم هل ذهبتم إلى المدينة؟ قالوا: لا، وتركوه وذهبوا، فجاء إلى مبركهم بعد أن فارقوه فأخذ بعرا وفتته فوجد فيه النوى، فعلم أنهم ذهبوا إلى المدينة .

وفي رواية: أن أبا سفيان لقى بديل بن ورقاء بعسفان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل قد جاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال للقوم: أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها؟ قالوا: لا علم لنا بها إنما كنا بالساحل نصلح بين الناس في قتيل. وفي لفظ قال: من أين أقبلت يابديل قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل، قال: أو ما أتيت محمدا؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة، أي: توجه إليها، قال أبو سفيان: لئن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى، فجاء إلى منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى، فقال أبو سفيان: أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا. وقبل قدوم أبي سفيان المدينة قال ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه ﷺ: كأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدد العهد وزد في المدة وهو راجع بسخطة، فلما انتهى أبو سفيان إلى المدينة دخل على بنته أم حبيبة أم المؤمنين زوج النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ورضى الله عنها، فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فطوته عنه، فقال: يابنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، قال: والله لقد أصابك يابنية بعدي شر، فقالت: بل هداني الله للإسلام فأنت ياأبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام

وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، فقام من عندها فأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة، فأبى عليه .

قال ابن إسحق: إنه كلم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فلم يرد عليه شيئاً. وفي رواية قال: يامحمد إني كنت غائباً في صلح الحديبية فجدد العهد وزدنا في المدة، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: فلذلك جئت، قال: نعم، فقال: هل كان من حدث؟ فقال: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: فنحن على ذلك، فأعاد أبو سفيان القول فلم يرد عليه شيئاً .

فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلمه أن يكلم له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: ما أنا بفاعل. وفي رواية: قال لأبي بكر: تكلم محمداً أو تجير بين الناس، فقال: جواري في جوار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

فأتى عمر رضي الله عنه فقال: أنا أشفع لكم، والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. وفي رواية قال له عمر رضي الله عنه: ما كان من حلفنا جديداً فأخلفه الله، وما كان متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله، فقال أبو سفيان: جوزيت من ذي رحم شراً .

ثم دخل على علي كرم الله وجهه وعنده فاطمة رضي الله عنها، وحسن رضي الله عنه يدب بين يديها، فقال: ياعلى إنك أمس القوم بي رحماً، وإني جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي، فقال علي رضي الله عنه: ويحك يأبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة وقال: يابنت محمد هل لك تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت: والله ما بلغ بنيى هذا أن يجير بين الناس، وما كان أحد يجير على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وفي رواية: أنه جاء عثمان رضي الله عنه قبل علي كرم الله وجهه فقال: جواري في جوار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. ثم أتى سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال: يأبا ثائب إنك سيد هذه

البحيرة فأجر بين الناس وزد في المدة، فقال سعد: جواري في جوار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما يجير أحد عليه .

فأتى أشراف قريش والأنصار فكلمهم وكلهم يقول: جواري في جوار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما يجير أحد عليه. فلما أيس منهم دخل على فاطمة رضي الله عنها فقال: هل لك أن تجيري بين الناس؟ فقالت: إنما أنا امرأة وأبت عليه، فقال: مري ابنك، فقالت: ما بلغ أن يجير، فقال لعلي كرم الله وجهه: ياأبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم ألحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد.. ثم دخل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: يامحمد إني قد أجرت بين الناس، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: أنت تقول ذلك ياأبا حنظلة، ثم ركب بعيره وانصرف إلى مكة .

أبو سفيان يعود إلى مكة متهماً

وكان غيبته قد طالت واتهمته قريش أشد التهمة وقالوا: قد صبأ وتبع محمداً سراً وكتم إسلامه، فلما دخل على هند امرأته ليلاً قالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته فقالت: ما صنعت؟ فأخبرها الخبر وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي، فضربت برجلها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم فما جئت بخير، فلما أصبح حلق رأسه عند أساف ونائلة وذبح لهما ومسح بالدم رؤوسهما وقال: لا أفارق عبادتكما حتى أموت، وأراد بذلك أن تبرئه قريش مما اتهمته به من قولهم: إنه صبأ، فلما صنع ذلك قالوا له: ما وراءك هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة في مدة فإنا لا نأمن أن يغزونا؟ فقال: والله لقد أبى علي. وفي رواية: كلمته فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن

الخطاب فوجدته أدنى العدو. وفي رواية: أعدى العدو. وكلمت عليه أصحابه فما قدرت على شيء إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوما يوما أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن عليا لما ضاقت بي الأمور قال: أنت سيد بني كنانة فأجر بين الناس فناديت بالجوار، قالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا وإنما قال: أنت تقول ذلك يأبا حنظلة، قالوا: رضيت بغير رضا، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين، والله ما زاد على على أن لعب بك تلعبا، فقال: والله ما وجدت غير ذلك، فقالوا: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا صلح فنأمن .

وتجهز رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يستشير أصحابه رضي الله عنهم

وروى ابن أبي شيبة عن أبي مالك الأشجعي قال: خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من بعض حجره فجلس عند بابها – وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه – فقال: ادع لي أبا بكر فجاء فجلس بين يديه فناجاه طويلاً فرفع عمر صوته فقال: يارسول الله هم رأس الكفر الذين زعموا أنك ساحر وأنك كاهن وأنك كذاب وأنك مفتر ولم يدع شيئاً مما يقولون ألا ذكره، ثم قال: وأيم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة، فأمره فجلس عن شماله، ثم دعا الناس فقال: ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين، قالوا: نعم يارسول الله، فأقبل بوجهه الكريم على أبي بكر رضي الله عنه فقال: إن إبراهيم عليه السلام كان ألين في الله تعالى من الدهن بالليل، ثم أقبل على عمر رضي الله عنه فقال: إن نوحاً كان أشد في الله تعالى من الحجر، وإن الأمر أمر عمر فتجهزوا وتعاونوا أبا بكر فقالوا : أنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: قال لي: كيف تشير علي في غزو مكة؟ قلت: يارسول الله هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني. ثم دعا عمر فقال: هم رأس الكفر حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه، وقد أمركم بالجهاد لتغزوا مكة .

وجاء في بعض الروايات: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ تجهز وما أعلم أحد، والمراد أنه ما أعلم عامه الناس، فلا ينافي أنه أعلم كبار أصحابه ﵃، فتجهز الناس .

وقال حسان ﵁ يحرض الناس ويذكر مصاب رجال خزاعة:

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة   رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم   وقتلى كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي   سهيل بن عمرو حرها وعقابها
وصفوان عودا حز من شفر أسته   فهذا أوان الحرب شد عصابها
فلا تأمننا ياابن أم مجالد   إذا احتلبت صرفا وأعصل نابها
ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا   لها وقعة بالموت بفتح بابها

قال ابن إسحق: قوله بأيدي رجال يعني قريشاً، وابن أم مجالد عكرمة بن أبي جهل، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فلتة .

وأمر جماعة أن تقيم بالأنقاب، وكان عمر ﵁ يطوف على الأنقاب فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه. وفي رواية: ثم أمر بالطرق فجست، فعمي على أهل مكة لا يأتيهم خبر .

قصة حاطب ابن أبي بلتعة

كتب حاطب بن أبي بلتعة البدري بني أسد ﵁ كتاباً وأرسله إلى مكة يخبرهم بمسير النبي ﴿ﷺ وآله﴾، وأرسله مع امرأة استأجرها بعشرة دنانير، وقال لها: أخفيه ما استطعت ولا تمري على الطريق فإن عليه حرساً، فأطلع الله نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ على ذلك،

فقال ﴿ﷺ وآله﴾: لعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود ﵁، انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ – وهو موضع على بريد من المدينة – فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فخذوه منها. قالوا: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فالتمسناه فلم نر كتاباً فقلنا: ما كذب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لتخرجن الكتاب أو لنلقين عنك الثياب .

وفي رواية: أو لنكشفنك، أو لنضربن عنقك، فلما رأت الجد حلت قرونها فأخرجته من عقاصها (ضفائر الشعر). وفي رواية: فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها فأحرجته، فأتينا به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعه إلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية.. أما بعد: يامعشر قريش فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل، فو الله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام. وفي رواية: أن لفظ الكتاب أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أذن في الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد .

فدعا النبي ﴿ﷺ وآله﴾ حاطباً فقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، قال: ما حملك على هذا؟ قال حاطب: يارسول الله لا تعجل على أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، وفي لفظ: ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششت منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش - يعني حليفاً لهم – ولم أكن من أنفسها. وفي رواية: ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه، وكان من معك من المهاجرين ممن له أهل أو مال بمكة لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت – إذ فاتني النسب فيهم – أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. وفي رواية فقال خاطب: والله ما ارتبت في الله منذ أسلمت ولكنني كنت امرأ غريباً، ولي في مكة بنون وأخوة فكتبت كتاباً لا يضر الله ورسوله، ولم

أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به، فقال له عمر ﵁: قاتلك الله، ترى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش. وفي رواية أنه قال: إنه يعلم يارسول الله أنك أخذت على الطريق، وأمرت أن لا نرى أحداً يمر ممن ننكره إلا رددناه، يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾:إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وفي رواية: فقد وجبت لكم الجنة. وفي أخرى لا يدخل النار أحد شهد بدراً، فدمعت عينا عمر ﵁ وقال: الله ورسوله أعلم.. وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة:١) فالذي نزل في ذلك إلى هنا، وقيل: إلى قوله ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ (الممتحنة:٤) .

الدروس المستفادة من قصة حاطب ابن أبي بلتعة

وإنما قال عمر ﵁: دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق مع تصديق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لحاطب فيما اعتذر به، لما كان عند عمر ﵁ من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظن أنه يستحق القتل لكونه خالف ما أمر به النبي ﴿ﷺ وآله﴾ من إخفاء مسيره عن قريش، وحرصه على عدم وصول خبره إليهم، وبعثه جماعة على الطريق حتى لا يبلغهم الخبر، فلذا ظن أنه استحق القتل لكنه لم يجزم بذلك، فلذلك استأذن في قتله، وأطلق عليه منافقاً لكونه أظهر خلاف ما أبطن. وحاطب كان معذوراً متأولاً بما ذكره من عذره، وكفاه منقبة شهادة الله له بالإيمان حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾ .

وقوله ﴿ﷺ وآله﴾: لعل اله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ليس فيه إباحة المعاصي لهم، وإنما هو خطاب إكرام وتشريف تضمن أنهم ﵃ حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة، وتأهلوا لأن يغفر لهم ما سيحصل من الذنوب لو فرض وقوعه منهم، وما أحسن قول بعضهم:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

وقد أظهر الله صدق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة المثلى.. يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم ﵃ .

الخروج إلى مكة

ولما أراد ﴿ﷺ وآله﴾ الخروج من المدينة وعزم على غزو أهل مكة، بعث إلى من حوله من العرب وطلب حضورهم (أسلم وغفار وأشجع وسليم وغيرهم) فأرسل إليهم يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسلاً من كل ناحية، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف. وقيل: اثنى عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم. وقيل: إن العشرة آلاف خرج بهم من نفس المدينة ثم تلاحق به ألفان .

قال الحلبي في السيرة: وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس، وكانت مزينة ألفاً ومعهم مائة فرس، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرساً، وكان معه ﴿ﷺ وآله﴾ من زوجاته أم سلمة وميمونة رضي الله عنها، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

وقيل: أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري، وجمع بينهما بأن أبا رهم جعله للقضايا والأحكام، وابن أم مكتوم للصلاة .

وخرج ﴿ﷺ وآله﴾ من المدينة لعشر ليال خلون في رمضان بعد العصر سنة ثمان من الهجرة، وقيل: لليلتين خلتا من رمضان، وقيل: لست عشرة، وقيل: لثمان عشرة. قال النووي: لا أعلم خلافاً في أن ذلك في شهر رمضان، أي: وإنما الخلاف فيما مضى منه حين الخروج، ولما بلغ ﴿ﷺ وآله﴾ الكديد – بفتح الكاف وهو موضع بين قديد وعسفان – أفطر لأنه بلغه أن الناس شق عليهم الصيام، وقيل له: إنما ينظرون فيما فعلت، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من ماء، وقيل: من لبن، فوضعه على راحلته ليراه الناس فشرب فأفطر، فناوله رجلاً إلى جنبه فشرب فلم يزل مفطراً رفقاً بالمسلمين حتى انسلخ الشهر، لأنه وإن قدم مكة قبل تمام الشهر لكنه كان في أهبة القتال وبعث السرايا و لم ينو الإقامة، ولذا كان يقصر الصلاة .

العباس أسلم قديماً وهاجر أخيراً

وكان العباس بن عبد المطلب ؓ عم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قد خرج بأهله وعياله مهاجراً فلقى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالجحفة، وكان إسلامه قديماً، وكان يكتمه بأمر النبي ﴿ﷺ وآله﴾، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ أمره بالإقامة بمكة ليكتب له أخبار قريش، وكان العباس ؓ يسره ما يفتح الله على المسلمين، وما أظهر إسلامه لأهل مكة إلا يوم الفتح، وكان مقيماً بمكة على سقايته، وكان ينفع المستضعفين بمكة وبه يتقون، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عنه راض. وقيل: إنه لقى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ بذى الحليفة فبعث ثقله إلى المدينة، وسار مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ إلى مكة للفتح .

وروي الطبراني عن سهل بن سعد الساعدي ﵁ قال: استأذن العباس النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في الهجرة، فكتب إليه ياعم أقم مكانك الذي أنت فيه فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة. ولما لقيه قال: هجرتك ياعم آخر هجرة كما أن نبوتي آخر نبوة .

ابن العم والعمة أشد الناس أذية لرسول اللّه (ﷺ وآله)

وكان ممن لقيه ﴿ﷺ وآله﴾ في الطريق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عمه ﴿ﷺ وآله﴾ وأخوه في الرضاع من حليمة السعدية، وكان مع أبي سفيان ولده جعفر، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمته ﴿ﷺ وآله﴾ عاتكة بنت عبد المطلب وهو أخو أم سلمة زوج النبي ﴿ﷺ وآله﴾ لأبيها، لأن أمها عاتكة بنت عامر بن قيس .

وكان لقاء أبي سفيان ومن معه للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ بنقب العقاب بين مكة والمدينة، وقيل: بالأبواء، وهم مسلمون مهاجرون، واسم أبي سفيان كنيته، وقيل: اسمه المغيرة، وكان يألف النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ولا يفارقه قبل النبوة، فلما بعثه الله عاداه وهجاه، وأجابه عنه حسان ﵁ كثيراً. وكان عبد الله بن أبي أمية قبل إسلامه شديداً على النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وعلى المسلمين. وفي لفظ: وكان كل منهما، أي: من أي سفيان وعبد الله، من أشد الناس أذية لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأعرض عنهما ﴿ﷺ وآله﴾ لما لقياه – لما كان منهما من شدة الأذى والهجو – فالتمسا الدخول عليه ﴿ﷺ وآله﴾، فكلمته أم سلمة رضي الله عنها فيهما فقالت: يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك، فقال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال – يعني قوله له: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك – فقالت له أم سلمة رضي الله عنها: لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك .

فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان: ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا – يعني ولده جعفرا – ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك النبي ﴿ﷺ وآله﴾ رق لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه وأسلما، وأنشده أبو سفيان معتذراً مما مضى فقال:

لعمرك أني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليلة فهذا أواني حين أهدى وأهتدى
هذا بي هاد غير نفسي ونالني مع الله من طردت كل مطرد
أصد وأنأى جاهداً عن محمد وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

قال ابن إسحق: لما قال: ونالني مع الله من طردت كل مطرد، ضرب ﴿ﷺ وآله﴾ صدره وقال: أنت طردتني كل مطرد .

وقال علي كرم الله وجهه لأبي سفيان بن الحارث عند أذنه ﴿ﷺ وآله﴾ له في الدخول عليه: ائت من قبل وجهه فقل له ما قال أخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له ﴿ﷺ وآله﴾: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢) ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منذ أسلم حياء منه. وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يحبه ويشهد له بالجنة، ولزم ركاب النبي ﴿ﷺ وآله﴾ يوم حنين و لم يفارقه. وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يقول فيه: أرجو أن يكون خلفاً من حمزة. وقال له ﴿ﷺ وآله﴾: كل الصيد في جوف الفرا. وقيل: قال ذلك لأبي سفيان بن حرب (ولا مانع من التعدد)

وتوفى أبو سفيان بن الحارث ﵁ سنة خمس عشرة أو عشرين بالمدينة، وصلى عليه عمر بن الخطاب ﵁، وقبره بالمدينة معروف يزار، عليه قبة منيرة. يروى أنه قال عند

موته: ولا تبكن على فإني لم أنطق بخطيئة منذ أسلمت. وأما عبد الله بن أمية المخزومي فكذلك كان بعد إسلامه شديد الحياء من النبي ﴿ﷺ وآله﴾، ولا يستطيع أن يرفع طرفه إليه حياء منه، واستشهد في غزوة الطائف رضي الله عنه .

عقد الألوية

وعقد ﴿ﷺ وآله﴾ الأولوية بقديد ودفعها للقبائل فأعطى لبني سليم لواء وراية، ولبني غفار راية، ولأسلم لواءين، ولبني كعب راية، ولمزينة ثلاثة ألوية، ولجهينة أربعة ألوية، وكان جماعة من بني بكر أسلموا فكانوا معه ﴿ﷺ وآله﴾ فأعطاهم لواء، ولأشجع لواءين. ورأى أبو بكر الصديق مناماً قبل عقد الأولوية، وقيل: عند نزولهم بمر الظهران، فقال: يارسول الله رأيت أنا دنونا من مكة فخرجت إلينا كلبة تهر، أي: تصوت، فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فإذا هي تشخب لبناً، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: ذهب كلبهم وأقبل درهم، وهم يساوون بأرحامهم، وإنكم لاقون بعضهم، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

وقوله: ذهب كلبهم، أي: شدتهم، وقوله: وأقبل درهم، المراد خيرهم وهو انقيادهم للإسلام.

ثم لما نزل ﴿ﷺ وآله﴾ مر الظهران أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش أو تسمع بها فترعب من كثرتها، واستجاب الله لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخذ العيون والأخبار عن أهل مكة، ولم يبلغهم مسيره وهم مغتمون محزونون متحيرون خائفون .

العباس يشفق وأبو سفيان يتجسس

وتقدم أن العباس رضي الله عنه استقبل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وهو مهاجر فبعث أهله إلى المدينة ورجع مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾. قال العباس: حين نزل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ مر الظهران رقت نفسي لأهل مكة وقلت: وا صباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة

عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فجلست على بغلة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ البيضاء فخرجت عليها، حتى جئت الأراك لعلي أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليخرجوا فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان من قضاء الله وقدره أن خرج أبو سفيان ابن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء الخزاعي يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به. وقيل: إنه بلغهم مسيره ﴿ﷺ وآله﴾ ولم يعلموا إلى أي جهة. وقيل: إن قريشاً بعثوا أبا سفيان يتجسس وقالوا: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً.

فأقبل أبو سفيان وحكيم وبديل يسيرون فلما سمعوا صهيل الخيل راعهم ذلك، ورأوا كثرة النيران فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، هذه كنيران عرفة، فقال بديل: هذه نيران بني عمرو — يعني خزاعة - فقال أبو سفيان: هم أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فلما دخل أبو سفيان ومن معه عسكر المسلمين أخذهم حرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وفي رواية: أخذتهم الخيل تحت الليل، وكان الحرس عند نفر من الأنصار، وكان عمر بن الخطاب ﵁ عليهم تلك الليلة فجاءوا بهم، فلما أخذوا بخطم أبعرتهم قال أبو سفيان: من أنتم؟ قالوا: هذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه، هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم؟

وروى الطبراني عن أبي ليلى قال: كنا مع رسول الله بمر الظهران فقال: إن أبا سفيان بالأراك فخذوه، فأخذناه. وفي رواية: إن العباس ﵁ كان صديقاً لأبى سفيان فلما ركب العباس البغلة ليتوجه إلى الأراك رجاء أن يجد من يبعثه لقريش ليأخذوا أماناً، إذ سمع صوت أبي سفيان فأخذه وجاء به، فأمسكه الحرس، فأجاره من الحرس أن يقتلوه، وقال عمر ﵁ لأبي سفيان حين مر العباس به عليه: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد .

قال العباس وقلت له: ياأبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: أبو الفضل قلت: نعم، قال: مالك فداك أبي وأمي؟ قلت: والله هذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به. وفي رواية: قد جاءكم في عشرة آلاف، فقال: وا صباح قريش والله فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأستأمنه لك، فترك صاحبيه وركب خلف العباس ؓ، فكان كلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والعباس ؓ عليها، قال: عم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على بغلته .

قال العباس: ثم خرج عمر ؓ يشتد نحو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فركضت البغلة وسبقته، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ودخل عليه عمر في أثرى فقال: يارسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدعني أضرب عنقه، قال العباس ؓ قلت: يارسول الله إني قد أجرته – ولعل العباس وعمر لم يبلغهما قوله ﴿ﷺ وآله﴾: لاقون بعضهم فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه – قال العباس ؓ: ثم جلست إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقلت: لا يناجيه الليلة وزنى رجل، فلما أكثر عمر في شأن أبي سفيان، قلت: مهلا ياعمر فوالله لو كان من رجال بني عدى ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً ياعباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: اذهب ياعباس به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به (كذا في رواية ابن إسحق) .

وذكر موسى بن عقبة وغيره أن العباس قال: يارسول الله أبو سفيان وحكيم وبديل فقد أجرهم وهم يدخلون عليك، قال: أدخلهم، فدخلوا عليه فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم، فدعاهم إلى الإسلام وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله فشهد بديل

وحكيم، وقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن في النفس من هذا شيئاً بعد فأرجئها، أي: أخرها، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: اذهب به ياعباس، فذهب به فلما أصبح أتى به أول النهار على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

إسلام أبو سفيان

وروى أن أبا سفيان لما أصبح ورأى الناس بادروا إلى الوضوء قال: ما للناس أمروا في بشيء، قالوا: لا، ولكنهم قاموا إلى الصلاة، فأمره العباس فتوضأ وانطلق به، فلما كبر ﴿ﷺ وآله﴾ كبر الناس، ثم ركع فركعوا، ثم رفع فرفعوا، ثم سجد فسجدوا، فقال: ما رأيت كاليوم طاعة قوم جمعهم من ههنا وههنا، ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له، ياأبا الفضل أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك، فقال العباس: إنه ليس بملك ولكنها النبوة، فقال: أوذاك؟ . فلما رآه ﴿ﷺ وآله﴾ بعد فراغه من الصلاة قال: ويحك ياأبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله، فلما رأى أبو سفيان مخاطبة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ له بهذا الخطاب اللين العذب، وأنه ﴿ﷺ وآله﴾ أغضى وضرب صفحاً عما جرى منه في عداوته ومحاربته، قال: بأبي أنت وأمي ما أحكمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لأغنى عني شيئاً، لقد استنصرت إلهي واستنصرت إلهك، فوالله ما لقيتك من مرة إلا نصرت علي، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لكنت غلبتك .

ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾: ويحك ياأبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله، فقال:

بأبي أنت وأمي ما أحكمك وأكرمك وأصلك، أما هذه ففي النفس منها شيء، فخاف عليه العباس أن يبادر أحد بقتله – لأنه ليس وقت مجادلة لا سيما مع شدة حنق المسلمين عليه – فقال له: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق ؓ . وروى الحافظ الذهبي عن سعيد بن

المسيب قال: لما دخل ﴿ﷺ وآله﴾ مكة ليلة الفتح ولم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهند أترين هذا من الله؟ ثم أصبح فقال له النبي ﴿ﷺ وآله﴾: قلت لهند أترين هذا من الله، فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به، ما سمع قولي هذا إلا الله وهند .

وروى ابن عساكر عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: خرج ﴿ﷺ وآله﴾ وأبو سفيان جالس في المسجد فقال في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﴿ﷺ وآله﴾ فضرب صدره وقال: بالله نغلبك، فقال: أشهد أنك رسول الله .

وروى الحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رأى أبو سفيان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يمشي والناس يطئون عقبه فقال في نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال وجمعت له جمعاً، فجاء ﴿ﷺ وآله﴾ حتى ضرب في صدره فقال: إذن يخزيك الله، فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث بذلك نفسي.

والحاصل: أن أبا سفيان كان في أول الأمر مستكرهاً، فلم يزل ﴿ﷺ وآله﴾ يترفق به ويتألفه حتى تمكن الإسلام من قلبه، ولقد حضر مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ غزوة الطائف ففقئت عينه فجاء بها في يده إلى النبي ﴿ﷺ وآله﴾، فقال له: إن شئت أرجعها الله إليك خيراً مما كانت، وإن شئت خيراً منها في الجنة، فرمى بها وقال: خيراً منها في الجنة . وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك في خلافة عمر ﵁، وكان يحث الناس ويحرضهم على القتال ويقول: هذا يوم من أيام الله انصروا دين الله ينصركم الله .

قال أنس بن مالك ﵁: لقد رأيته أعمى يقوده غلامه يدخل به على عثمان ﵁ في زمن خلافته. وتوفي في خلافة عثمان ﵁، وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع سنة أربع وثلاثين. وقيل: سنة إحدى وثلاثين، وعمره ثمان وثمانون سنة .

إياك أن تصغى لما ينقله بعض المؤرخين

قال السيوطي في تحفة الأدب: روى القزويني في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لطم أبو جهل فاطمة رضي الله عنها في أول بعثة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فشكت إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال لها: ائت أبا سفيان، فأتته فأخبرته فأخذ بيدها حتى وقف على أبي جهل فقال لها: الطميه كما لطمك، ففعلت، فجاءت إلى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبرته فرفع يديه وقال: اللهم لا تنسها لأبى سفيان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما شككت أن إسلامه كان لدعوة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقد أوصى ﴿ﷺ وآله﴾ بأصحابه وأنصاره وأصهاره وهو من أصهاره، لأن ابنته أم حبيبة رضي الله عنها كانت زوجة النبي ﴿ﷺ وآله﴾. وقال ﴿ﷺ وآله﴾: إني سألت الله أن لا يدخل النار أحد ممن صاهرني أو صاهرته.. فإياك أن تصغى لما ينقله بعض المؤرخين، ويتشدق به بعض أهل الزيغ والضلال في الطعن فيه وفي ابنه، أو في أحد من أصحاب النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فتكون من الهالكين، وما جرى بين الصحابة من الاختلاف فهو محمول على الاجتهاد وكلهم مأجورون إن شاء الله تعالى.. فنسأل الله أن يحيينا ويميتنا على محبة أهل البيت وأصحاب النبي ﴿ﷺ وآله﴾، وأن لا يجعل لأحد منهم في عنقنا ظلامة .

قال موسى بن عقبة: قال أبو سفيان وحكيم بن حزام: يارسول الله جئت بأوباش الناس ممن يعرف وممن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: أنتم أظلم وأفجر فقد غدرتم بعد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب – يعني خزاعة – بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه، فقالا: صدقت يارسول الله، وقال بديل: والله يارسول الله لقد غدروا، ولو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدونا – يعني بني بكر – ما نالوا منا، ثم قال: لو كنت جعلت جدك ومكيدتك لهوازن فهم أبعد رحماً وأشد عداوة لك، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: إني لأرجو من ربي أن يجمع لي ذلك كله، فتح مكة وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن وغنيمة أموالهم وذراريهم، فإني أرغب إلى الله تعالى في ذلك .

أبو سفيان رجل يحب الفخر

ثم قال أبو سفيان: يارسول الله ادع الناس بالأمان، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها أهم آمنون؟ قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: نعم، من كف يده وأغلق داره فهو آمن. ثم أراد العباس ﷺ تثبيت إسلام أبي سفيان — لئلا يدخل عليه الشيطان من حيث إنه كان متبوعاً فأصبح تابعاً ليس له من الأمر شيء – فقال: يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، ثم أعانه أبو بكر ﷺ، فقد روى ابن أبي شيبة أن أبا بكر ﷺ قال: يارسول الله أن أبا سفيان رجل يحب السماع، أي: الشرفة — يعني فاجعل له شيئاً — فقال ﴿ﷺ وآله﴾: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قال: وما تسع داري، زاد ابن عقبة: ومن دخل دار حكيم فهو آمن — وهي من أسفل مكة ودار أبي سفيان أعلاها – ومن دخل المسجد فهو آمن. قال: وما يسع المسجد، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، قال أبو سفيان: هذه واسعة .

وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ مناديه أن ينادي بذلك كله، إلا من استثناهم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وأمر بقتلهم كما سيأتي. ثم قال له العباس: النجاء إلى قومك، أي: بعد أن حبسه حتى مرت عليه جنود الله كما سيأتي، وفي رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بعث أبا سفيان وحكيم بن حزام إلى أهل مكة ينادون فيهم بذلك، حتى جاء أبو سفيان قومه صرخ بأعلى صوته: يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك، قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فقامت فيه هند زوجته فأخذت بشاربه وقالت: اقتلوا الحميت، أي: الضخم الدسم الأحمس، قبحت من طليعة قوم .

وفي رواية: أنها أخذت بلحيته ونادت ياآل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق، هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم، فقال لها: ويحك اسكتي وادخلي بيتك، والله لتسلمن أو لأضربن عنقك. وقال لهم: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فقد جاءكم بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد .

أربعة رغب النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في إسلامهم وروى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال قبل مجيء أبي سفيان ومن معه إليه: إن بمكة أربعة نفر أربأ بهم عن الشرك، وأرغب بهم في الإسلام: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو.. وهذا يدل على أن جبير أسلم يوم الفتح كمن ذكر معه، وقيل: إن إسلامه كان قبل ذلك .

وحكيم بن حزام رضي الله عنه أبوه حزام بن خويلد أخ لخديجة زوج النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ورضي الله عنها، فهي عمة حكيم، وكان عمره حين أسلم ستين سنة، وعاش في الإسلام ستين، وتوفى وعمره مائة وعشرون سنة. وكان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، أعتق في الجاهلية مائة رقبة، وفي الإسلام مثل ذلك، فإنه حج في الإسلام ووقف بعرفه وأعتق بها مائة وصيف في أعناقهم أطواق الفضة منقوش عليها عتقاء الله عن حزام، وأهدى مائة بدنة قد جللها بالحبرة، وأهدى ألف شاة رضي الله عنه .

أول عرض عسكري إسلامي يوم المرحمة

ولما أراد ﴿ﷺ وآله﴾ السير من مر الظهران قال للعباس رضي الله عنه: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه عند خطم الجبل حتى يرى جنود الله. وجاء أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي قال: يارسول الله لو أمرت بأبي سفيان فحبس على الطريق، فحبسه العباس بالمضيق دون الأراك. وفي رواية ومعه حكيم بن حزام، فقال أبو سفيان: أغدرا، قال: لا، ولكن لي إليك حاجة حتى تنظر جنود الله وما أعد الله للمشركين. وفي رواية قال له: إن أهل النبوة لا يغدرون .

وأمر ﴿ ﷺ وآله﴾ كل قبيلة أن تكون عند راية صاحبها وتظهر ما معها من القوة والعدة، فأصبح الناس على ظهر، وقدم بين يديه الكتائب، ومرت القبائل على قاداتها، والكتائب على راياتها، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة. والكتيبة بالتاء المثناه القطعة من الجيش، وأبو سفيان ينظر إليهم ويسأل عنهم .

وأول من قدم خالد بن الوليد ؓ في بني سليم وهم ألف، وقيل: تسعمائة، معه لواءان يحملهم العباس بن مرداس، وخفاق بن بدنة، فحين مروا بأبي سفيان كبروا ثلاثاً، فقال أبو سفيان للعباس: من هؤلاء؟ فقال: خالد بن الوليد، فقال: خالد الغلام؟ قال: نعم، قال ومن معه؟ قال: بنو سليم قال: مالي ولبني سليم .

ثم مر على أثره الزبير بن العوام ؓ في خمسمائه من المهاجرين وأفتاء العرب فكبروا ثلاثاً، فقال أبو سفيان للعباس، من هؤلاء؟ قال: الزبير بن العوام، قال: ابن أختك، قال: نعم .

ثم مرت كتيبة بني غفار في ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر ؓ فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، فقال: ياعباس من هؤلاء؟ قال: غفار، قال: مالي ولغفار .

ثم مرت أسلم في أربعمائة فيها لواءان يحملهما بريدة بن الخصيب، وناجية ابن الأعجم، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، فقال: من هؤلاء؟ قال: أسلم، قال: مالي ولأسلم .

ثم مرت بنو كعب وهم خزاعة في خمسمائة يحمل رايتهم بشر بن سفيان، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، فقال: من هؤلاء؟ قال: بنو كعب أخوه أسلم، قال: هؤلاء حلفاء محمد، قال: نعم .

ثم مرت مزينة فيها مائة فرس وثلاثة ألوية يحملها النعمان، وعبد بن عمرو بن عوف، وبلال بن الحارث، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، قال: من هؤلاء؟ قال: مزينة، قال: مالي ولمزينة قد جاءتني تقعقع من شواهقها .

ثم مرت جهينة في ثمانمائة فيها أربعة ألوية يحملها معبد بن خالد، وسويد بن صخر، ورافع بن مكيث، وعبد الله بن بدر، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، قال: من هؤلاء؟ قال: جهينة، قال: مالي ولجهينة والله ما كان بيني وبينهم حرب قط . ثم مرت كنانة بنو ليث وضمرة وسعد بن بكر في مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثي، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، قال: من هؤلاء؟ قال: بنو بكر، قال: نعم أهل شؤم، والله هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم.

ثم مرت أشجع وهم ثلاثمائة معهم لواءان يحملهما معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود الأشجعي، فكبروا ثلاثاً، قال: من هؤلاء؟ قال: أشجع، قال: هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ﴿ﷺ وآله﴾، فقال له العباس: أدخل الله الإسلام في قلوبهم فهذا فضل الله .

ومرت بنو تميم وبنو فزارة وسعد بن هذيم وهم من قضاعة، فصنعوا مثل ذلك. وقيل: إن مرور هؤلاء كان قبل أشجع، وأن أشجع كانت آخرهم . ثم قال أبو سفيان: أبعد ما مضى محمد ﴿ﷺ وآله﴾؟ فقال له العباس: لو أتت الكتيبة التي محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال وما ليس لأحد به طاقة، قال: ومن له بهؤلاء طاقة ؟

وجعل الناس يمرون وهو يقول عند مرور كل قبيلة ما مر محمد ﴿ﷺ وآله﴾؟ فيقول العباس: لا، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، في كل بطن منها لواء – وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق – فيهم ألفا دارع وفيهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقال أبو سفيان: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة رضي الله عنه ومعه راية الأنصار – وتقدم أن راية المهاجرين كانت مع الزبير رضي الله عنه - وكان جملة من كبار المهاجرين مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ والأنصار، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رويدا يلحق أولكم آخركم. وفي رواية: ثم جاءت كتيبة خضراء فيها ألفا دارع وفيهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه المهاجرون والأنصار، وفيها الرايات والألوية، مع كل بطن من بطون الأنصار لواء وراية، وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيها زجل بصوت عال

وهو يقول: رويدا يلحق أولكم آخركم. وفي رواية: قال أبو سفيان: سبحان الله ياعباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في الأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله ياأبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، فقال: ياأبا سفيان إنهما النبوة، فقال: نعم إذا .

فلما حاذى سعد بن عبادة أبا سفيان قال: ياأبا سفيان اليوم يوم الملحمة، أي: يوم الحرب الذي لا يوجد منه مخلص، اليوم تستحل الكعبة، أي: يقتل من أهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة، فقال أبو سفيان: ياعباس حبذا يوم الدمار، أي: حبذا يوم الهلاك، تمنى أبو سفيان أن يكون له يد وقوة فيحمى قومه ويدفع عنهم، وقيل معناه: هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدر عليه — قال ذلك غلبة وعجزا -. وقيل: المعنى هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي لقربك من النبي ﴿ﷺ وآله﴾ .

وسمع مقالة سعد بن عبادة رجل من المهاجرين قيل: هو عمر بن الخطاب ﵁. وقيل: سمعها رجلان وهما عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما فقالا: يارسول الله ما نأمن أن تكون لسعد صوله في قريش، فقال لعلي كرم الله وجهه: أدركه فخذ الراية منه، ثم أمره أن يسلمها لأبنه قيس بن سعد بن عبادة، ورأى ﴿ﷺ وآله﴾ أن الراية لم تخرج عنه حيث صارت لابنه. وقيل: إنما أمر بأخذ الراية منه حين حاذى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أبا سفيان، فإنه قال للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ لما حاذاه وهو مار في جنود الله: أمرت بقتل قومك، قال: لا، فذكر له أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرحم، أي: قال له أنشدك الله في قومك فإنك أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم، فقال: ياأبا سفيان اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشاً، أي: بالإسلام والدين وبإنقاذهم من الضلال المبين. وفي رواية: ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة (أشار بهذا إلى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ هو الذي يكسوها ذلك العام وقد وقع ذلك فالمراد من اليوم الزمان) ثم أرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها لابنه قيس ﵁ .

وروى ابن عساكر عن جابر رضي الله عنه قال: لما قال سعد بن عبادة ذلك القول تعرضت امرأة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقالت:

يا نبي الهدى إليك لجا   حي قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر   ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو   م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعدا يريد قاصمة الظهـ   ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ   ـظ رمانا بالنسر والعواء
فاهيه فإنه الأسد الأسـ   ـود والليث والغ في الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى   يا حماة اللواء أهل اللوء
لتكونن بالبطاح قريش   بقعة القاع في أكف الإماء
إنه مصلت يريد لها الرأ   ى صموت كالحية الصماء

فلما سمع ﴿ﷺ وآله﴾ هذا الشعر دخلته رأفة ورحمة، فأمر بالراية فأخذت من سعد ودفعت لابنه قيس .

وجاء أنه لما جاءه الرسول من النبي ﴿ﷺ وآله﴾ بتسليمها لابنه أبي أن يسلمها إلا بأمارة من النبي ﴿ﷺ وآله﴾، فأرسل إليه بعمامته فسلمها لابنه. وجاء في بعض الروايات أنه ﴿ﷺ وآله﴾ سلمها لعلي. وفي بعضها أنه سلمها للزبير بن العوام فدخل مكة برايتين. قال الحافظ بن حجر: والذي يظهر في الجمع بين الروايات أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أرسل علياً رضي الله عنه ليترعها ويدخل بها، ثم خشى تغير خاطر سعد فأمر بدفعها لابنه قيس، ثم أن سعدا

خشى أن يقع في ابنه شيء ينكره النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فسأل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أن يأخذها منه، فحينئذ أخذها الزبير .

ثم بعد مرور جنود الله كلها بأبي سفيان قال له العباس: النجاء إلى قومك، فجاء إليهم يصيح بالأمان، فأمسكته زوجته وقالت: اقتلوه إلى آخر ما تقدم .

صفة دخول مكة

وأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن تركز رايته بالحجون، قال عروة بن الزبير: أخبرني نافع عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت العباس يقول للزبير رضي الله عنهما في حجة اجتمعوا فيها بمكة في خلافة عمر رضي الله عنه ها هنا أمرك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن تركز الراية قال: نعم .

قال: الحلبي في السيرة: وفي ذلك المحل بنى مسجد يقال له مسجد الراية .

ودخل ﴿ﷺ وآله﴾ من الثنية العليا، وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخلوا من الثنية السفلى. روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته القصواء مردفا أسامة بن زيد رضي الله عنهما خلفه، وهذا من مزيد تواضعه وكريم أخلاقه، حيث أردف في هذا الموكب العظيم خادمه وابن خادمه رضي الله عنهما، والمتكبر يعد أرداف ابنه إذا ركب في السوق عارا عليه، ماذاك ألا تكبر برأ الله منه نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ .

وفي رواية: دخل ﴿ﷺ وآله﴾ مكة يوم الجمعة معتجرا بشقة برد حبرة حمراء. وفي رواية: وعليه عمامة سوداء حرقانية، واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، وهو يقول: اللهم إن العيش عيش الآخرة. وفي رواية: دخل وعلى رأسه المغفر.. ويمكن الجمع بين ذلك كله . وروى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل ﴿ﷺ وآله﴾ عام الفتح، أي: لما أراد الدخول،

رآى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم والتفت إلى أبي بكر ﷺ وقال: ياأبا بكر كيف قال حسان، فأنشده قوله:

عدمت بنيتي إن لم تروها تثير النقع من كنفى كداء
ينازعن الأعنة مسرجات يلطمهن بالخمر النساء

فقال ﴿ﷺ وآله﴾: ادخلوها من حيث قال حسان .

وروى الطبراني عن العباس ﷺ قال: لما بعث ﴿ﷺ وآله﴾ قلت لأبي سفيان بن حرب: أسلم بنا قال: لا والله حتى أرى الخيل تطلع من كداء، قلت: ما هذا قال شيء طلع بقلبي لأن الله لا يطلع هناك خيلاً أبداً. قال العباس ﷺ: فلما طلع ﴿ﷺ وآله﴾ من هناك ذكرت أبا سفيان به فذكره .

وتقدم هذا الحديث بأطول من هذا، وأنهما توجها إلى اليمن في تجارة، واجتمعا بحبر من أحبار اليهود وسألاه عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾، فسألهما عن صفاته، فوصفاه له، فقال: هو هو ذبحت يهود، وقام وترك رداءه، فتعجب أبو سفيان من تصديق اليهود به وخوفهم منه، فقال له العباس: ألا تسلم بنا، لا والله حتى أرى الخيل تطلع من كداء. إلى آخر الحديث .

كيف دخل خالد والزبير مكة؟

قال الحافظ ابن حجر: وقد ساق موسى بن عقبة دخول خالد والزبير سياقاً واضحاً موافقاً للأحاديث الصحيحة فقال: وبعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء بالفتح والمد، وأمره أن يركز رايته بالحجون، وأن يمكث عند الراية ولا يبرح حتى يأتيه .

وبعث خالد بن الوليد في قبائل منها قضاعة وسليم وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، أي: أقربها إلى الثنية التي دخل منها، وهو أول بيوت مكة من الجهة التي دخل منها. وكان لواؤه ﴿ﷺ وآله﴾ يوم دخل مكة أبيض، ورايته سوداء تسمى العقاب، وكان من برد لعائشة رضي الله عنها. وجعل أبا عبيدة على الرجالة، أي: المشاة، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار وكانت معها الراية حتى نزعت منه، واستمر بلا راية في مقدمة كتيبة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأمرهم ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، فاندفع خالد بن الوليد ﵁ حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها ناس من بني بكر، وبني الحارث بن عبد مناف، وناس من هذيل الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالداً، ومنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة، فصاح خالد في أصحابه فقاتلوهم فانهزموا أقبح الانهزام، وقتل من بني بكر نحو أربعة وعشرين رجلاً، ومن هذيل أربعة، حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة – وكانت سوقاً بمكة – ثم دخلوا الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال هرباً، وتبعهم المسلمون، فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان: يامعشر قريش علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح في الطرق فيأخذه المسلمون .

وروى ابن إسحاق: أن أصحاب خالد لقوا ناساً من قريش منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وتجمعوا بالخندق ليقاتلوا المسلمين فناوشوهم شيئاً في القتال، فقتل من أصحاب خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، وقتل من المشركين أثني عشر أو ثلاثة عشر، ثم انهزموا، وفي ذلك يقول جحاش بن قيس يخاطب امرأته حين لامته على الفرار، وقد كان سابقاً يصلح سلاحه ويعدها: إن يأتيها أسرى المسلمين يكون خادماً لها، وكانت أسلمت سراً. وفي رواية: إنها رأته وهو يبرى نبلاً له، فقالت له: لم تبر

هذا النبل؟ قال: بلغني أن محمداً يريد أن يفتح مكة ويغزوها، فلئن كان لأخدمنك خادماً من بعض من نستأسره، فقالت: والله لكأني بك قد رجعت تطلب مخبأ أخبؤك فيه، لو رأيت خيل محمد ﴿ﷺ وآله﴾، فلما دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الفتح، أقبل إليها وقال: ويحك هل من مخبأ؟ فقالت له: وأين الخادم فقال لها: دعيني عنك وأنشد يقول:

إنك لو شهدت يوم الخندمه   إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه   واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه   ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه   لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

وكان شعار المهاجرين يوم الفتح وحنين والطائف يابني عبد الرحمن، وشعار الخزرج يابني عبد الله، وشعار الأوس يابني عبيد الله .

وقتل من أصحاب خالد أيضاً رجلان حبيش بن الأشعر الخزاعي – أخو أم معبد التي مر بها النبي ﴿ﷺ وآله﴾ مهاجراً – وكرز بن جابر الفهري وهذا أسلم بعد غزوة بدر، وكان قبل ذلك من رؤساء المشركين، وهو الذي أغار على مسرح النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في غزوة بدر الأولى، ثم لما أسلم استعمله النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وبعثه في طلب العرنيين كما تقدم .

ولما وقع القتال بأسفل مكة نظر ﴿ﷺ وآله﴾ إلى بارقة السيوف فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ فقالوا نظن أن خالداً قوتل وبدئ بالقتال فلم يكن له بد أن يقاتلهم. وجاء في رواية أنه قيل له: يارسول الله هذا خالد بن الوليد يقتل، فقال: قم يافلان فقل له فليرجع يديه من القتل، فأتاه الرجل فقال له: إن نبي الله يقول لك اقتل من قدرت عليه – وأجرى الله ذلك على لسانه – فقتل سبعين، فأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فذكر له

ذلك، فأرسل إليه ألا أمرك أن تنذر خالداً قال: أردت أمرا فأراد الله أمراً، فكان أمر الله فوق أمرك، وما استطعت إلا الذي كان، فسكت ﴿ﷺ وآله﴾ وما رد عليه .

وقوله: قتل سبعين لا ينافى رواية أربعة وعشرين، لأن زيادة الثقة مقبولة، والأقل داخل في الأكثر .

وقال موسى بن عقبة قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن اطمأن لخالد ﵁: قاتلت وقد نهيتك عن القتال، فقال: هم بدأونا بالقتال وقد كففت يدى ما استطعت، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: قضاء الله خير. وجاء في رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: كفوا القتال إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر – وهي الساعة التي أحلت لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ – وكان دخوله ﴿ﷺ وآله﴾ لعشر بقين من رمضان، ومعه ﴿ﷺ وآله﴾ زوجتاه أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما .

خمسة عشر ليس لهم أمان

وتقدم أنه استثنى أناساً من الدخول في الأمان وأمر بقتلهم ، وهم خمسة عشر ما بين رجل وامرأة : عبد الله بن أبي سرح ، وعبد الله بن خطل ، و قينتان كانتا عنده تغنيان بهجاء النبي ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمين ، وعكرمة بن أبي جهل ،و الحويرث ابن نقيذ ،و مقيس بن صبابة ،و هبار بن الأسود ، وكعب بن زهير ، والحارث بن هشام وهو أخو أبي جهل لأبويه، وزهير بن أبي أمية، وسارة وهي مولاة لبني المطلب، وصفوان بن أمية ،وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية ، ووحشى قاتل حمزة ، (وأكثر هؤلاء أسلموا كما سيأتى بيانه) .

أهدر دمه في الفتح فكان على يديه الفتوحات

أما عبد الله بن أبي سرح بن الحارث العامرى فإنه كان أسلم ثم ارتد ولحق بمكة، وصار يتكلم بكلام قبيح في حق النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فأهدر دمه ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الفتح ،فلما علم بإهدار دمه لجأ إلي عثمان بن عفان ﷺ– وكان أخاً له من الرضاع – فقال: يأخي استأمن لى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قبل أن يضرب عنقى ،فغيبه عثمان ﷺ حتى هدأ الناس واطمأنوا ،ثم أتى به إليه ﴿ﷺ وآله﴾ وصار يقول عثمان : يارسول الله أمنته فبايعه ،والنبي ﴿ﷺ وآله﴾ يعرض عنه مراراً ،ثم قال :نعم ،فبسط يده فبايعه ،فلما خرج عثمان وعبد الله قال ﴿ﷺ وآله﴾ لمن حوله: أعرضت عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه . وكان عباد بن بشر ﷺ نذر إن رأى عبد الله بن أبى سرح قتله ،وكان قائما علي رأس النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وهو متقلد سيفه ينتظر النبي ﴿ﷺ وآله﴾ يشير إليه أن يقتله ، فقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : انتظرتك أن تفى بنذرك ، فقال يارسول الله خفتك ،أفلا أو مضت إلي، فقال : لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين ،وهو الإيماء بالطرف.

قال الزرقانى : ثم أدركته العناية الأزلية، وأتته السعادة الأبدية فأسلم وحسن إسلامه، وعرف فضله وجهاده، وكان علي ميمنة عمرو بن العاص ﵁ في فتح مصر، وكان له المواقف المحمودة في الفتوح، وهو الذى افتتح أفريقيا في خلافة عثمان بن عفان ﵁ سنة ثمان أو سبع وعشرين ،وكان ذلك الفتح من أعظم الفتوح ،بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وغزى الأساود في النوبة سنة إحدى وثلاثين، وهدى باقى النوبة الهدنة الباقية بعده ، وغزى ذات الصوارى سنة أربع وثلاثين ، وولاه عمر ﵁صعيد مصر ،ثم ضم إليه عثمان ﵁ مصر كلها ، وكان محموداً في ولايته ، واعتزل الفتنة حتى مات سنة سبع أو تسع وخمسين.

وروى البغوى بإسناد صحيح عن يزيد بن أبي حبيب قال : لما كان عند الصبح قال ابن أبي سرح اللهم اجعل آخر عملى الصبح فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه ،ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه ﵁ .

هجا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بشعره فقتل والمغنية

أما عبد الله بن خطل فإنه إنما أمر بقتله لأنه كان ممن قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم، وكان اسمه عبد العزى فسماه النبي ﴿ﷺ وآله﴾ عبد الله وبعثه لأخذ الصدقة، وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه. وفى رواية: كان معه مولى يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً، ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم، فعدى عليه فقتله، ثم الاتد مشركاً، وكان شاعراً فجعل يهجو النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى شعره، وكان قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذى يصنعه.

وقد جاء أنه يوم فتح مكة ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة، فلما رأى خيل الله دخله الرعب، فانطلق إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أستارها، فأخذ رجل سلاحه وركب فرسه ولحق برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالحجون، فأمر بقتله.

وقيل: لما طاف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالكعبة، قيل: هذا ابن خطل متعلقاً بأستار الكعبة، قال: اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً، ولا تمنع من إقامة حد واجب، فقتله سعيد بن حريث وأبو برزة الأسلمى، وقيل: الزبير، وقيل: سعيد بن ذئيب، وقيل: سعيد بن زيد.. والظاهر أنهم اشتركوا فى قتله، جمعاً بين الأقوال.

وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ بقتل قينتيه فقتلت أحداهما، واستؤمن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للأخرى فأمنها فأسلمت.

أشد الناس عداوة تنجيه زوجته
وينال الشهادة فى اليرموك

وأما عكرمة بن أبى جهل فإنما أمر ﴿ﷺ وآله﴾ بقتله لأنه كان من أشد الناس أذية للنبى ﴿ﷺ وآله﴾، وكان أشد الناس على المسلمين، ولما بلغه أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أهدر دمه هرب ليلقى نفسه فى البحر أو يموت تائهاً فى البلاد، وكانت امرأته أم حكيم رضى الله عنها بنت عمه الحارث بن هشام ﵁ أسلمت قبله، فاستأمنت له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وروى أبو داود والنسائى أن عكرمة ركب البحر، أى: حين هرب، فأصابتهم ريح عاصف فنادى عكرمة اللات والعزى، فقال أهل السفينة: أخلصوا إن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً ها هنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينج من البحر إلا الإخلاص لا ينجى فى البر غيره، اللهم لك عهد إن عافيتنى مما أنا فيه أن آت محمداً ﴿ﷺ وآله﴾ حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً غفوراً كريماً، فجاء وأسلم، أى: بعد أن ذهبت إليه زوجته وجاءت به.

وقد ذكر كثير من المفسرين أنه نزل فيه ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ (لقمان: ٣٢).

وروى البيهقى أن امرأته قالت: يارسول الله قد ذهب عكرمة عنك إلى اليمن وخاف أن تقتله فأمنه، فقال: هو آمن، فخرجت فى طلبه فأدركته وقد ركب سفينة، ونوتى يقول له: أخلص أخلص، قال: ما أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله قال: ما هربت إلا من هذا، و إن هذا أمر تعرفه العرب و العجم حتى النواتى، ما الدين إلا ما جاء به محمد ﴿ﷺ وآله﴾. قال: و غير الله قلبى، و جاءت أم حكيم تقول: ياابن عم جئتك من عند أبر الناس و خير الناس، لا تهلك نفسك، إنى قد استأمنت لك رسول الله ﴿ﷺ

وآله﴾، فرجع معها، و جعل يطلب جماعها فتأبى و تقول: أنت كافر و أنا مسلمة، فقال: إن أمرا منعك منى لأمر كبير، فلما وافى مكة أو المدينة قال ﴿ﷺ وآله﴾يأتيكم عكرمة فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى.

قال الزهرى و أبى عقبة: فلما رآه ﴿ﷺ وآله﴾ وثب قائما فرحا به، و رمى عليه رداءه وقال: مرحبا بمن جاء مؤمنا مهاجرا، فوقف بين يديه ﴿ﷺ وآله﴾ و معه زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام رضى الله عنهما – و هى منتقبة – فقال: إن هذه أخبرتنى أنك أمنتنى، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: صدقت فأنت آمن، فقال: إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله، و تقيم الصلاة، و تؤتى الزكاة، و كذا، و كذا، حتى عد خصال الإسلام. قال: ما دعوت إلا إلى الخير، و أمر حسن جميل، قد كنت فينا يارسول الله قبل أن تدعونا و أنت أصدقنا حديثا و أبرنا، ثم قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، قال: ثم ماذا؟ قال: تقول أشهد الله و أشهد من حضرنى أنى مسلم مجاهد مهاجر، فقال عكرمة ذلك (رواه البيهقى).

و فى رواية قال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك عبده و رسوله، و طأطأ رأسه من الحياء، فقال له: ياعكرمة ما تسألنى شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه، قال: استغفر لى كل عداوة عاديتكها، فقال: اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها، أو منطق تكلم به، ورد ﴿ﷺ وآله﴾زوجته له، أى: أبقاها على نكاحها الأول، حيث اجتمعا فى الإسلام قبل تمام عدتها، و كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة رضي الله عنه.

و روى ابن عبد البر أنه ﴿ﷺ وآله﴾ رأى فى منامه أنه دخل الجنة و رآى فيها عذقاً فأعجبه فقال لمن هذا؟ فقيل: لأبى جهل، فشق عليه و قال: لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، فلما جاءه عكرمة بن أبى جهل مسلما، فرح به، و أوَّل ذلك العذق بعكرمة . . و استدل بذلك على تأخى الرؤيا، و أنها قد تكون لغير من ترى له.

و لم يزل عكرمة ﵁ مستقيما حاله حتى استشهد فى الشام فى خلافة أبى بكر الصديق ﵁، و قيل: إنما استشهد فى خلافة عمر ﵁.

و تفصيل ذلك أن أبو بكر الصديق ﵁ لما فرغ من قتال أهل الردة قوم مسيلمة الكذاب، جهز الجيوش لغزو الروم و أمر عليهم أبا عبيدة ﵁، ثم عزله وولى خالد بن الوليد ﵁، و كان ممن خرج مع الناس عكرمة بن أبى جهل، و الحارث بن هشام، و سهيل بن عمرو ﵁، و وقفوا أنفسهم للجهاد و أنهم لا يرجعون، فحضروا فتوح الشام بعد حروب كثيرة.

ثم توفى أبو بكر ﵁ و استخلف عمر بن الخطاب ﵁، فولى أبا عبيدة ﵁ على الجنود، و أبقى خالد بن الوليد ﵁ أميراً فى الأمراء تحت أمر أبى عبيدة، فخرجوا من الشام لفتح بقية المدائن التى حوله، ففتحوا بعلبك و مدائن كثيرة.

ثم توجهوا لفتح حمص و لاقتهم الروم بجموع كثيرة، فاقتتلوا مع المسلمين قتالاً شديداً، و لم يكن أحد فى يوم حمص أشد قتالا و أكثر بأسا من عكرمة بن أبى جهل، حتى كان يقصد الأسنة بنفسه، فقيل له: اتق الله و ارفق بنفسك، فقال: ياقوم أنا كنت أقاتل عن الأصنام، فكيف اليوم و أنا أقاتل فى طاعة الملك العلام؟ و إنى أرى الحور العين يتشوقن إلَّى، و لو بدت واحدة منهن لأهل الدنيا لأغنتهم عن الشمس و الفمر، و لقد صدقنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيما وعدنا، ثم سل سيفه و غاص فى الروم و لم يزدد إلا إقداماً، و قد عجبت الروم من حسن صبره و قتاله، فبينما هو كذلك إذ حمل عليه البطريق الكبير من بطارقتهم و يسمى هربيس و بيده حربة عظيمة تضئ و تلهب، فهزها فى كفه و ضربه بها فوقعت فى قلبه و مرقت من ظهره، فاستشهد و عجل الله بروحه إلى الجنة ﵁.

فوقف عليه ابن عمه خالد بن الوليد ﵁ و بكى بكاء شديداً، ثم كرّ سعيد بن زيد – أحد العشرة المبشرين – على البطريق الذى قتل عكرمة فقتله، وعجل الله بروحه إلى النار.

ثم فتح الله عليهم حمص، و كان جملة من قتل من الكفار فى ذلك اليوم خمسة آلاف، و جملة من استشهد من المسلمين مائتان و خمسة و ثلاثون رجلاً ﵃.

و فى الإحياء للإمام الغزالى فى كتاب (تلاوة القرآن) كان عكرمة بن أبى جهل ﵁ إذا نشر المصحف غشى عليه و يقول: هو كلام ربى، هو كلام ربى ﵁.

و لما انقضت عدة زوجته أم حكيم رضى الله عنها – و كانت خرجت مع زوجها إلى الشام – تزوجها خالد بن سعيد ﵁ و أراد أن يدخل بها، فجعلت تقول: لو أخرت الدخول حتى يقضى الله هذه الجموع – تعنى الروم – فقال خالد: إن نفسى تحدثنى أنى أصاب فى جموعهم، قالت: فدونك، فدخل بها فى خيمته، فما أصبح الصبح إلا والروم قد اصطفت، فخرج خالد ﵁ فقاتل حتى قتل، فشدت أم حكيم رضى الله عنها عليها ثيابها، و أخذت عمود الخيمة التى دخل بها فيها خالد، فقتلت بذلك العمود سبعة من الروم.

و جاء أن عكرمة ﵁ شكى إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قولهم له: عكرمة بن أبى جهل، فنهاهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و قال: لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات. و فى رواية: لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء. و فى أخرى: اذكروا محاسن موتاكم و كفوا عن مساويهم.

و قد كان قبل إسلامه ﵁ بارز رجلاً من المسلمين فضحك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقال له بعض الأنصار: ما اضحكك يارسول الله و قد فجعنا بصاحبنا؟ قال: أضحكنى أنهما فى درجة واحدة فى الجنة.

و من ثم قتل عكرمة ﵁ شهيدا فى قتل الروم فى وقعة اليرموك كما تقدم.

أهدر دمه لأنه تطاول على أهل البيت

و أما الحويرث بن نقيذ – بنون و قاف مصفراً – بن وهب بن عبد بن قصى فإنما أهدر دمه ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه كان يعظم القول فيه ﴿ﷺ وآله﴾، و ينشد الهجاء فيه، و يكثر أذاه و هو بمكة. و كان العباس ؓ حمل فاطمة و أم كلثوم رضى الله عنها بنتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث بهما الجمل فرمى بهما الأرض، و شارك هبار بن الأسود فى نخس جمل زينب رضى الله عنها لما هاجرت، فأهدر ﴿ﷺ وآله﴾ دمه، فقتله على كرم الله وجهه.

و ذلك أنه سأل عنه و هو فى بيته قد أغلق عليه بابه فقيل: هو فى البادية فتنحى على ؓ عن بابه، فخرج يريد أن يهرب من بيت إلى آخر فتلقاه على ؓ فضرب عنقه.

أهدر دمه لأنه غدر و ارتد

و أما مقيس بن صبابة فإنه كان أسلم ثم أتى على أنصارى فقتله، و كان الأنصارى قتل أخاه هشام بن صبابة خطأ فى غزوة ذى قرد – ظنه من العدو – فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصارى، ثم ارتد و رجع إلى قريش، فأهدر ﴿ﷺ وآله﴾ دمه فقتله غيلة بن عبد الله الليثى.

أساء إلى أهل البيت و تاب فعفا عنه ﴿ﷺ وآله﴾

و أما هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى الأسدى فإنه كان شديد الأذى للمسلمين، و كان عرض لزينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين هاجرت، فنخس بها الجمل حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، و لم تزل مريضة حتى ماتت رضى الله عنها، فأهدر ﴿ﷺ وآله﴾ دمه يوم الفتح، فهرب و اختفى ثم جاء إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و هو بالجعرانة.

قال جبير بن مطعم ؓ: كنت جالسا مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عند منصرفه من الجعرانة فطلع هبار بن الأسود فقالوا: يارسول الله هبار بن الأسود، قال: قد رأيته،

فأراد رجل القيام إليه، فأشار إليه أن اجلس فوقف هبار فقال: السلام عليك يانبى الله أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله، و قد هربت منك فى البلاد، و أردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك و صلتك و صفحك عمن جهل عليك، و كنا يارسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، و أنقذنا من الهلكة، فاصفح عن جهلى، و عما كان يبلغك عنى فإنى مقر بسوء فعلى، معترف بذنبى، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: قد عفوت عنك، و قد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام، و الإسلام يجب ما قبله.

قال الزهرى: إن هبار ﵁ لما قدم المدينة جعلوا يسبونه، فشكى ذلك له ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: سب من سبك، فكفوا عنه.

أساء على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ثم مدحه فخلع عليه بردته

و أما كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى فإنما أهدر دمه ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه كان من الشعراء الذين تكلموا بهجاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾، و صار يعير أخاه بجيرا حين أسلم.

و كان من خبر كعب و أخيه بجير، أن بجيراً قال لكعب: اثبت فى غنمنا حتى آتى هذا الرجل – يعنى النبى ﴿ﷺ وآله﴾– فأسمع كلامه و أعرف ما عنده، فأقام كعب بأبرق العزاف– وهو ماء لبنى أسد بين المدينة والربذة– ومضى بجير فأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فسمع كلامه و آمن به.

وسبب قول بجير لأخيه: اثبت فى غنمنا حتى آتى هذا الرجل إلخ، أن أباهما زهيرا كان يجالس أهل الكتاب فسمع منهم أنه قد قرب مبعثه ﴿ﷺ وآله﴾، و رأى زهير فى منامه أنه قد مد سبب، أى: حبل من السماء، وأنه مد يده ليتناوله ففاته، فأول ذلك بالنبى الذى يبعث فى آخر الزمان و أنه لا يدركه، و أخبر بنيه بذلك المنام، و بما سمعه من أهل الكتاب و أمرهم و أوصاهم إن أدركوه أن يسلموا، فكتب بجير إلى أخيه كعب يخبره بأنه قد ظهر أمره و تحققت نبوته، و أنه آمن به و اتبعه، و حثه على القدوم إليه ليؤمن كإيمانه فكتب إليه كعب:

ألا بلغا عنى بجيرا رسالة   فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل   على أى شئ غير ذلك دلكا
فإن كنت لم تفعل فلست بآسف   و لا قائل أما عثرت لعالكا
على خلق لم تلف أما و لا أبا   عليه و لا تلقى عليه أخا لكا

سقاك بها المأمون كأسا دوية فأنهلك المأمون منها و علكا و كان ﴿ﷺ وآله﴾ يسمى فى الجاهلية الأمين المأمون، ثم أرسل كعب بالأبيات إلى أخيه بجير، فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأنشده إياها، فلما سمع ﴿ﷺ وآله﴾ سقاك بها المأمون، قال: صدق و إنه لكذوب و أنا المأمون، و لما سمع قوله: على خلق لم تلف أما و لا أبا عليه، قال: أجل لم يلف عليه أباه و لا أمه، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾: من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله، فكتب إليه أخوه بجير إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد قتل رجالاً ممن كان يهجونه و يؤذونه، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر، أى: أقبل مسرعاً، إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، و إن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض، أى: محل ينجيك، و كتب له هذه الأبيات:

فمن مبلغ كعبا فهل لك فى التى   تلوم عليها باطلاً و هى أحزم
فدين زهير و هو لا شئ دينه   فتنجو إذا كان النجاء و تسلم
لدى يوم لا ينجو أو ليس بمفلت   من للناس إلا طاهر القلب مسلم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده   و دين أبا سلمى على محرم

فلما بلغت الأبيات كعبا، و بلغه أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أمر بقتله و أراق دمه، ضاقت عليه الأرض، و خاف على نفسه و أرجف به، أى: خوفه من كان حاضراً عنده من مجيئه لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقالوا له: إنك لمقتول، فلما لم يجد بدا ومخلصا يلتجئ إليه إلا الإسلام، خرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من فتح مكة، فنزل

على رجل من جهينة كانت بينه و بينه معرفة، فغدا به إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين صلى الصبح، ثم أشار له إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و قال: هذا رسول الله فقم إليه و استأمنه فجاء حتى جلس إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فوضع يده فى يده، و تظاهر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأنه لا يعرفه، فقال: يارسول الله إن كعب بن زهير قد جاءك يستأمنك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن جئتك به، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: نعم، فقال: أنا يارسول الله كعب بن زهير، ثم تشهد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم أنشده قصيدته المعروفة التى أولها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم عندها لم يفد مكبول
و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إلى أن قال فيها:

تمشى الوشاة بجنبيها و قولهم   إنك يا بن أبى سلمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله   لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبالكم   فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى و إن طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول

نبئت أن رسول الله أوعدنـــى   و العفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة   القرآن فيه مواعيظ و تفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة و لم   أذنب و لو كثرت فى الأقاويل

إلى أن قال فيها:

إن الرسول لنور يسضاء بـــه   مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا زولوا

إلى آخر القصيدة.

قال ابن الأنبارى: إنه لما وصل إلى قوله: إن الرسول لنور يسضاء به مهند من سيوف الله مسلول، رمى عليه الصلاة و السلام إليه بردة كانت عليه، وأن معاوية ﵁ فى زمن خلافته بذل له فيها عشرة آلاف درهم فقال:ماكنت لأوثر بثوب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذى أعطانيه أحدا، فلما مات بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً، فأخذها منهم.

و روى ابن إسحاق: أنه لما جاء إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يارسول الله دعنى و عدو الله أضرب عنقه، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: دعه عنك فإنه جاء تائبا نازعاً، أى: مائلاً مشتاقاً إلى الإسلام، كافاً عن الشرك تاركاً له، فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم، و خص المهاجرين بمدحته فى قصيدته لأنهم لم يتكلموا فيه إلا بخير، و عرض بذم الأنصار، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: لولا ذكرت الأنصار بخير فهم أهل لذلك، فقال بعد ذلك يمدح الأنصار:

من سره كرم الحياة فلا يزل   فى مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر   إن الخيار همو بنو الأخيار
الناظريـــن بأعـــين محمـــرة   كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعـــين نفوســـهم لنبيـــهم   للموت يوم تعانق و كرار

يتطهرون يرونه نســـكا لـــهم　　　بدماء من علقوا من الكفار

و قد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء، و كذا أبوه زهير، و أخوه بجير، و ابنه عقبة بن كعب، و ابن ابنه العوام بن عقبة ﵁.

وجاء عن سعيد بن المسيب:أن كعباً لما قدم المدينة سأل عن أرق الصحابة ﵃، فدل على أبي بكر ﵁ فأخبره، فمشى أبو بكر و كعب على أثره حتى صار بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: رجل يبايعك يارسول الله فمد يده فبايعه.

قال العلامة الزرقانى: و الجمع ممكن بأنه لما قدم المدينة نزل على الجهنى فأخبره بأن أبا بكر أرق الصحابة، وأتى به إليه فسارا به معا، ثم تقدم الصديق وكعب على أثره، فلما آمن عرفه بنفسه. . و الله أعلم.

أم هانئ بنت أبى طالب تجير رجلين

و أما الحارث بن هشام المخزومى – و هو أخو أبي جهل شقيقه – فإنه كان شديدا على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمين، وكذا زهير بن أبي أمية المخزومى أخو أم سلمة رضى الله عنها فإنه كان شديدا فى كفره، فأهدر دمهما ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الفتح، فهربا واختبيا فى بيت أم هانئ بنت أبي طالب رضى الله عنها فأجارهما، فأجاز ﴿ﷺ وآله﴾ جوارها، ثم جاءت بهما فأسلما و حسن إسلامهما رضى الله عنهما.

و كون الذى أجارته مع الحارث بن هشام هو زهير بن أبي أمية هو الصحيح. و قيل: الذى أجارته معه هو عبد الله بن أبي ربيعة. و قيل: هو هبيرة بن أبي وهب.

قال الحافظ ابن حجر: و هذا ليس بشئ لأن هبيرة هرب عند الفتح إلى نجران فلم يزل بها مشركاً حتى مات، و كانت أم هانئ رضى الله عنها تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومى.

روى الإمام أحمد و غيره عن أم هانئ رضى الله عنها قالت: لما كان يوم الفتح فر إلى رجلان من أحماء من بنى مخزوم، فدخل عليّ كرم الله وجهه فقال: و الله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما بيتى، ثم جئت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما رآنى قال: مرحبا و أهلاً بأم هانئ ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبرعليّ كرم الله وجهه، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: قد أجرنا من أجرت ياأم هانئ.

و المشهور أن إسلام أم هانئ رضى الله عنها كان عام الفتح، و قيل: أسلمت قديماً و كانت تكتم إسلامها.

و عن الحارث بن هشام ﵁ قال: أجارتنى أم هانئ رضى الله عنها و أجاز النبى ﴿ﷺ وآله﴾ جوارها، صار لا يتعرضنى أحد بعد ذلك، و كنت أخشى عمر بن الخطاب ﵁ فمر عليّ و أنا جالس و لم يتعرض لى، و كنت أستحى أن يرانى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما أذكر برؤيته أياى ما كنت أفعله فى كل موطن مع المشركين، فلقيته وهو داخل المسجد، فلقينى بالبشر، و وقف حتى جئته، فسلمت عليه و شهدت الشهادة الحق، فقال: الحمد لله الذى هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام. ثم صار بعد ذلك من فضلاء الصحابة و ابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كان من فضلاء التابعين و علمائهم و عبادهم ﵁. و كذا ابن ابنه أبو بكر بن عبد الرحمن و ابنه عبد الملك بن أبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ﵃.

مغنية تهجو و النبى يعفو

و أما سارة فهى مولاة لبنى المطلب بن عبد مناف و إنما أهدر ﴿ﷺ وآله﴾ دمها لأنها كانت مغنية بمكة تغنى بهجاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾، وهى التى كانت معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة، و كانت قدمت المدينة تشكو الحاجة و تطلب الصلة فقال لها ﴿ﷺ وآله﴾: ما كان فى غنائك ما يغنيك، فقالت: إن قريشاً منذ قتل من قتل منهم ببدر تركوا الغناء فوصلها، و أوقر لها بعيرا طعاماً، فرجعت إلى مكة، و كان ابن خطل يلقى إليها هجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فتغنى به، فاختفت عند فتح مكة، ثم استؤمن لها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فجاءته و أسلمت و حسن إسلامها رضى الله عنها.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يعالج نفس صفوان بالمال

و أما صفوان بن أمية بن خلف الجمحى فكان أيضا من أشد الناس عداوة وأذية لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و للمسلمين، فأهدر دمه ﴿ﷺ وآله﴾، فاختفى و أراد أن يذهب و يلقى نفسه بالبحر، فجاء بن عمه عمير بن وهب الجمحى ﵁ و قال: يانبى الله إن صفوان سيد قومه قد هرب ليقذف نفسه فى البحر، فأمنه فإنك أمنت الأحمر و الأسود ، فقال: أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: اعطنى آية يعرف بها أمانك فإنى قد طلبت منه العود، فقال: لا أعود معك إلا أن تأتينى بعلامة أعرفها، فأعطاه ﴿ﷺ وآله﴾ عمامته التى دخل بها مكة، فلحقه بها و هو يريد أن يركب البحر، فقال له صفوان: اغرب عنى لا تكلمنى، فقال: أى صفوان فداك أبي و أمى جئتك من عند أفضل الناس، و أبر الناس، و أحلم الناس، و خير الناس، و هو ابن عمك، عزه عزك، و شرفه شرفك، و ملكه ملكك، قال: إنى أخافه على نفسى، قال: هو أحلم من ذلك و أكرم، و أراه العمامة التى جاء بها، فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: إن هذا يزعم أنك أمنتنى، قال: صدق، فقال: أمهلنى بالخيار شهرين، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: أنت بالخيار أربعة أشهر.

ولما أراد ﴿ ﷺ وآله﴾ الخروج إلى حرب هوازن استقرض منه أربعين ألف درهم و طلب منه دروعاً كانت عنده، فقال: أغصباً يامحمد، قال: لا، و لكن عارية مرجوعة أو مضمونة، ثم خرج مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ حين خرج لحرب هوازن و هو على شركه، فلما قسم ﴿ ﷺ وآله﴾ غنائم هوازن بحنين أعطاه مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، ثم رآه ﴿ ﷺ وآله﴾ يرمق شعباً مملوءاً نعما و شاء فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال: هو لك و ما فيه.

و فى رواية: أن صفوان ﵁ طاف مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ليتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلاً وغنماً فأعجبه وجعل ينظر إليه، فقال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾: أعجبك هذا الشعب ياأبا وهب، قال: نعم، قال: هو لك بما فيه. فقبض صفوان ما فى الشعب و قال: إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا، ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبى، أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، فأسلم و حسن إسلامه ﵁، و ترك المدة التى كان طلبها.

و كان يقول: كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أبغض الخلق إلىّ فما زال يعطينى حتى صار أحب الخلق إلىّ.

النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يعفو عن هند بنت عتبة

وأما هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان وأم ابنه معاوية ﵁ فإنما أهدر دمها ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنها مثلت بعمه حمزة ﵁ يوم أحد، و لاكت قلبه و لم تقدر على ابتلاعه فلفظته، فلما كان يوم الفتح و رأت جند الله، اختفت فى بيت أبي سفيان زوجها، ثم أسلمت و أتته ﴿ ﷺ وآله﴾ بالأبطح و قالت: الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتمسنى رحمتك يامحمد، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة به، ثم قالت: أنا هند بنت عتبة، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: مرحباً بك، ثم أرسلت إليه بهدية جديين مشويين و قديد مع جارية لها فقالت: إنها تعتذر إليك و تقول لك: إن غنمنا اليوم قليلة الوالدة،

فقال ﴿ﷺ وآله﴾: بارك الله لكم فى غنمكم و أكثر والدها. قالت هند: فلقد رأينا من كثرها ما لم نره من قبل، و ذلك بدعائه ﴿ﷺ وآله﴾.

و قالت: كنت أرى فى النوم إنى فى الشمس أبداً قائمة و الظل قريب منى لا أقدر عليه، فلما دنى ﴿ﷺ وآله﴾ رأيت كأننى دخلت الظل، فكان ذلك فى الدخول فى الإسلام. و جاء أنها لما أسلمت عمدت إلى صنم كان فى بيتها فجعلت تضربه بالقدوم و تقول: كنا منك فى غرور.

و روى البخارى و مسلم عن عائشة رضى الله عنها، قالت هند بنت عتبة: يارسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلَىَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلَىَّ أنه يعزوا من أهل خبائك، قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: و أيضا و الذى نفسى بيده، أى: ستزيدين من ذلك ويتمكن الإيمان فى قلبك، فيزيد حبك لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و يقوى رجوعك عن بغضه.

ثم قالت: يارسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علَىَّ حرج أن أطعم من الذى له عيالنا؟ قال: لا أراه بالمعروف.

و كان إسلامها بعد إسلام زوجها، فأقرهما ﴿ﷺ وآله﴾ على النكاح الأول، لأن الإسلام جمعهما فى العدة، بل قيل: إن بين إسلامها و إسلام زوجها ليلة واحدة.

حوار هند فى بيعة النساء

و كانت هند امرأة ذات أنفة و رأى و عقل. و جاء فى رواية أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء و فيهم هند بنت عتبة منتقبة خوفا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فلما دنين من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال لهن: بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، و لا تزنين، و لا تقتلن أولادكن، و لا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن و أرجلكن، و لا تعصيننى فى معروف.

فلما قال: و لا تسرقن، قالت هند: و الله إنى كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة الهنة و ما كنت أدرى أكان ذلك حلالاً أم لا، فقال أبو سفيان – و كان حاضرا – أما ما أصبت فيما مضى فأنت فى حل عفى الله عنك، فضحك النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و عرفها فقال: و إنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم، فاعفو عما سلف عفى الله عنك يانبى الله.

و لما قال: و لا تزنين، قالت: أو تزنى يارسول الله الحرة؟.

و لما قال: و لا تقتلن أولادكن، قالت: ربيناهم صغاراً فقتلتهم كباراً.

و فى لفظ: وهل تركت لنا ولدا إلا قتلته يوم بدر، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى على قفاه، و تبسم ﴿ﷺ وآله﴾.

و لما قال: و لا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن و أرجلكن، قالت: و الله إن إتيان البهتان لقبيح، و ما تأمرنا إلا بالرشد و مكارم الأخلاق.

و لما قال: و لا تعصيننى فى معروف، قالت: و الله ما جلسنا مجلسنا هذا و فى أنفسنا أن نعصيك فى معروف.

و حضرت هند قتال الروم يوم اليرموك مع أبى سفيان، و كانت تشجع المسلمين و تحرضهم على القتال مع بقية النسوة اللاتى كن معها.

و توفيت فى خلافة عمر رضي الله عنه فى اليوم الذى توفى فيه أبو قحافة والد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

قتل الحمزة فأهدر دمه، و تاب فقتل مسيلمة

أما وحشى فهو الذى قتل سيدنا الحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فأهدر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ دمه، فهرب إلى الطائف، و كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يحب أن يراه. و جاء فى بعض الروايات: و أراد الله الإسلام لوحشى، فأرسل إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾يقول: هل لى من توبة؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ (النساء:٤٨) فأرسل إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: لعلى لست من أهل مشيئته فلا يغفر لى، فنزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠) فقال وحشى: لعلى لم أعمل عملاً صالحاً، و أرسل إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) و أرسل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ له بذلك، فقدم من الطائف على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ و بايع و أسلم، و قال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾: حدثنى كيف قتلت حمزة، فحدثه، فلم يزد بعد أن سمع الحديث أن قال: ويحك غيب عنى وجهك. و ستأتى رواية أخرى عن إسلامه رضي الله عنه.

و قد أراد الله لوحشى فى خلافة سيدنا أبى بكر الصديق أن يخرج لقتال مسيلمة الكذاب، فكان وحشى هو الذى شد عليه فقتله، و كان كثيراً ما يعاتب نفسه على قتله لحمزة، فلما قتل مسيلمة قال: لقد قتلت مسيلمة بنفس الحربة التى قتلت بها حمزة، قتلت خير الناس بعد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، و قتلت شر الناس. . لعل الله يغفر لى هذه بتلك.

أماكن الهجر توجب الشكر

و فى رواية البخارى قال ﴿ﷺ وآله﴾: منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله مكة الخيف. و فى رواية: بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر– يعنى به المحصب – و ذلك أن قريشا و كنانة تحالفت على بنى هاشم و بنى المطلب أن لا يناكحوهم ولا . يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كما تقدم.

و إنما اختار ﴿ﷺ وآله﴾ النزول فى ذلك الموضع ليتذكر ما كانوا فيه، فيشكر الله على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم، و تمكنه من دخول مكة ظاهراً غالباً على رغم من سعى فى إخراجه منها، و مبالغة فى الصفح عن الذين أساءوا، و مقابلتهم بالمن و الإحسان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

و عن جابر ﵁ قال: لما رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيوت مكة وقف فحمد الله و أثنى عليه و نظر إلى موضع قبته، أى: التى ضربت له بعد، و قال: هذا منزلنا ياجابر حيث تقاسمت قريش علينا، قال جابر ﵁: فذكرت حديثا كنت سمعته منه قبل ذلك بالمدينة، منزلنا إذا فتح الله علينا مكة فى خيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر.

و قال ذلك أيضا ﴿ﷺ وآله﴾ فى حجة الوداع، فعن أبى هريرة ﵁ أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال يوم النحر و هو بمنى: منزلنا بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر.

إسلام أبو قحافة والد الصديق

و لما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من الكعبة وجلس فى المسجد و الناس حوله، ذهب أبو بكر ﵁ و جاء بأبيه عثمان و يكنى بأبى قحافة يقوده و قد كف بصره، فلما رآه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه. و فى لفظ: لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه – تكرمة لأبى بكر ﵁– فقال أبو بكر ﵁: يارسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه، فأجلسه بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فمسح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ صدره و قال: أسلم تسلم، فأسلم.

و لم يعش لأبى قحافة ابن ذكر إلا أبا بكر ﵁، و هنأ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبا بكر بإسلام أبيه، فعند ذلك قال أبو بكر ﵁ للنبى ﴿ﷺ وآله﴾: و الذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه – يعنى أبى قحافة – و ذلك أن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك.

ذرية بعضها من بعض

و كان رأس أبى قحافة ﵁ و لحيته مبيضتين بالشيب، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: غيروهما و جنبوه السواد. و كانت أم أبى بكر بنت عم أبيه، أسلمت قديماً حين أسلم أبو بكر ﵁، و أخته أم فروة رضى الله عنها أسلمت أيضاً، و أبناؤه و بناته.

قال بعضهم: لم يكن أحد من الصحابة أسلم هو و والداه و أخته و جميع أولاده و بناته غير أبى بكر ﵁. و بنوه ثلاثة: عبد الله و هو أكبرهم مات أول خلافة أبيه، و عبد الرحمن، و محمد، و كانت ولادة محمد ﵁ عام حجة الوداع. و بناته ثلاث: أسماء و هى أكبرهن و هى شقيقة عبد الله، و عائشة و هى شقيقة عبد الرحمن، و أم كلثوم مات أبو بكر ﵁ و هى فى بطن أمها، و أخبر بأنها أنثى قبل وفاته، عندما قال لعائشة رضى الله عنها: إنما هما أخواك و أختاك، و لم تكن تعلم أن لها أختاً غير أسماء رضى الله

عنها فسألته عن ذلك، فأشار إلى الحمل المذكور و قال: أراها أنثى، فكان ذلك من كراماته رضي الله عنه.

و قد ذكر جملة من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (الأحقاف:١٥،١٦) قال بعضهم: لا يعرف فى الصحابة أربعة متناسلون أسلموا و كل واحد أبوا الذى بعده إلا فى بيت أبى بكر رضي الله عنه، أبو قحافة و ابنه أبو بكر و ابنه عبد الرحمن و ابن عبد الرحمن محمد. و من أثبت غير ذلك كزيد بن حارثة و أبيه حارثة، أى: فإنه أسلم و ابنه أسامة بن زيد و ابن أسامة، فقد نوزع فى ثبوت أن ابن أسامة رآه النبى ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾، فأما أبو بكر رضي الله عنه و أهل بيته فمتفق على ثبوت ذلك فيهم.

المحيا محياكم والممات مماتكم

و بعد أن فتح الله مكة جاء ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ إلى الصفا حيث ينظر إلى البيت و رفع يديه و قام يدعو و يذكر الله بما شاء، و قد أحدقت به الأنصار فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فقد أدركته رغبة فى قريته و رأفة بعشيرته، فنزل عليه الوحى بما ذكر القوم، فرفع رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ رأسه و قال: يامعشر الأنصار قلتم أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته و رأفة بعشيرته، قالوا: قلنا ذلك يارسول الله، قال: فما اسمى إذن إن فعلت ذلك؟ كيف أسمى وأوصف بأنى عبد الله ورسوله؟ كلا لا أفعل ذلك، إنى عبد الله و رسوله، أى: من كان هذا وصفه ذلك،هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، و الممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون و يقولون: والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن، أى: البخل بالله و رسوله، أى: لا نسمح أن يكون رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ فى غير بلدتنا

يعنون المدينة، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: فإن الله ورسوله يعذرانكم، أى: يقبلان عذركم و يصدقانكم.

و فى رواية أن الأنصار قالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها، فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لاشئ يارسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: معاذ الله المحيا محياكم و الممات مماتكم.

و تقدم له ﴿ﷺ وآله﴾ فى بيعة العقبة نظير ذلك، وهو أن الأنصار قالوا: يارسول الله هل عسيت أن نصرناك و أظهرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا، فتبسم ﴿ﷺ وآله﴾ ثم قال: بل الدم الدم و الهدم الهدم.

ثلاثة استقرض النبى ﴿ﷺ وآله﴾ منهم

و استقرض ﴿ﷺ وآله﴾ من ثلاثة نفر من قريش أخذ من صفوان بن أمية قبل أن يسلم خمسين ألف درهم، و من عبد الله بن ربيعة أربعين ألف درهم، و من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فرقها فى أصحابه من أهل الضعف، ثم وفّاها مما غنمه فى هوازن، و أقام ﴿ﷺ وآله﴾ بمكة بعد فتحها تسعة عشر. و قيل: ثمانية عشر يوماً و اعتمده البخارى، يقصر الصلاة فى مدة إقامته بها، لأنه كان يترقب المسير إلى حرب هوازن لسماعه بتجهزهم لمحاربته.

عتاب بن أسيد والى مكة

و ولى مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف و كان عمره إحدى و عشرين سنة. و فى رواية أن عمره كان ثمانى عشرة سنة و جعل معه معاذ بن جبل رضي الله عنه يعلّم الناس الفرائض و السنن، و جعل رزق عتاب كل يوم درهماً، فكان رضي الله عنه يقول: لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم. و فى رواية أنه خطب الناس فقال: أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﴿

ﷺ وآله﴾ كل يوم درهما فلا حاجة لى إلى أحد، و بقى على عمله إلى آخر خلافة الصديق ﵁، و توفى فى اليوم الذى توفى فيه الصديق ﵁. و قيل: بل استعمله عمر ﵁ و عاش إلى سنة إحدى و عشرين، و كانت وفاته فى خلافة عمر ﵁.

وإنما استعمله النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان رأى فى المنام أن أسيدا والده ولى على مكة مسلما فمات كافراً، فكان تأويل تلك الرؤيا ولاية ولده عتاب ﵁ حين أسلم، و كان ﵁ من فضلاء الصحابة و عبادهم.

و جاء أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لما ولاه قال له: انطلق فقد وليتك على أهل الله، قال ذلك ثلاثاً. و فى رواية قال له: ياعتاب أتدرى أنى وليتك على أهل الله فاستوصى بهم خيراً، يقول ذلك ثلاث مرات. فكان عتاب ﵁ شديدا على المريب، ليِّنًا على المؤمن، و قال: و الله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يارسول الله لقد استعملت على أهل مكة عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلق الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فتح له، فدخلها فأعز الله به الإسلام لنصرته للمسلمين على من يريد ظلمهم.

قال بن الجوزى: إنما استعمل ﴿ ﷺ وآله﴾ عتاباً حين أراد الخروج إلى حرب هوازن،

و فى كلام غيره أن ذلك كان بعد غزوة الطائف و عمرة الجعرانة، حين أراد ﷺ وآله الذهاب إلى المدينة، و لا تخالف لاحتمال أن يراد أنه أبقاه على ذلك حين أراد الرجوع إلى المدينة. و كان لعتاب رضي الله عنه ولد اسمه عبد الرحمن يقال له يعسوب قريش حضر وقعة الجمل مع علىّ كرم الله وجهه فقتل، و احتمل نسر يده و ألقاها بمكة فعرفوها بخاتمه فجهزوها و صلوا عليها و دفنوها.

و الكلام على هذه الغزوة الشريفة يطول و فيما ذكر كفاية، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

أقوال المادحين فى الفتح

و قد أشار الإمام البوصيرى لبعض ما وقع فيها فقال:

صرعت قومــه حبائــل بغى أحدها المكر منهم و الدهــاء
فأتتهم خيل إلى الحــرب تختا ل و للخيل فى الوغى خيلاء
قصدت منهــم القنا فقوافى ال طعن منها ما شأنــه الإيطاء
و أثارت بأرض مكــة نقــعاً ظن أن الغدو منــها عشــاء
أحجمت عنده الحجون و أكدى دون إعطائــه القليل كــداء
ودهت أوجهــا بــها و بيوتــا ملّ منــها الأكفاء و الأقواء
فدعو أحلم البريــة و العــف و جــواب الحليم و الإغضاء
ناشدوه القربى التى من قريش قطعتــها البغضاء و الشحناء

فعفا عفو قادر لم ينغصه   عليهم بما مضى إغراء
و سواء عليه فيما أتاه   من سواه الملام و الإطراء
و لو أن انتقامه لهوى النفـ   ـس لدامت قطيعة و جفاء
قام لله فى الأمور فارضى   الله منه تباين و وفاء
فعله كله جميل و هل ينـ   ـضح إلا بما حواه الإناء

وقد أجاد العلامة أبو محمد عبد الله بن أبي زكريا يحى بن على الشقراطسى حيث يقول فى قصيدته المشهورة بعد ما ساق قصة بدراً تبعها بثمانية وعشرين بيتا فى قصة الفتح لأنهما كانتا عظيمتين، فبدرة أول مشهد نصر الله رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ فيه، وهذا يوم استيلائه على مكة التى هى من أشرف البقاع، ويوم عزّه فى بلاده التى أوذى فيها، و دخل الناس فى دين الله أفواجاً فقال:

و يوم مكة إذ أشرفت فى أمم   تضيق عنها فجاج الوعث والسهل
خوافق ضاق زرع الخافقين بها   فى قاتم من عجاج الخيل والإبل
وجحفل قذف الأرجاء ذى لجب   عرمرم كزهراء السيل منسحل
وأنت صلى عليك الله تقدمهم   فى بهو إشراق نور منك مكتمل
ينير فوق أغر الوجه منتجب   متوج بعزيز النصر مقتبل
يسمو أمام جنود الله مرتدياً   ثوب الوقار لأمر الله ممتثل
خشعت تحت بهاء العز حتى سمت بك   المهابة فعل الخاضع الوجل
و قد تباشر أملاك السماء بما   ملكت إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهو ومن فرق   والجو يزهو إشراقاً من الجذل
و الخيل تختال زهوا فى أعنتها   والعيس تنثال رهوا فى ثنى الجدل
لولا الذى خطت الأقلام من قدر   وسابق فى قضاء غير ذى حول
أهل ثهلان بالتهليل من طرب   و ذاب يذبل تهليلا من الذبل

الملك لله هذا عز من عقدت   له النبوة فوق العرش فى الأزل
شعبت صدع قريش بعد ما قذفت   بهم شعوب شعاب السهل و القلل
قالوا محمد قد زادت كتائبه   كالأسد تزأر فى أنيابها العصل
فويل مكة من آثار و طأته   وويل أم قريش فى جوى الهبل
فجدت عفوا بفضل العفو منك ولم   تلمم و لا بأليم اللوم و العذل
أضربت بالصفح صفحا عن طوائلهم   طولاً أطال مقيل النوم فى المقل
رحمت أشج أرحام أتيح لها   تحت الوشيج وشيج الروع والوجل
عاذوا بظل كريم و العفو ذى لطف   مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل
زان الخشوع وقار منه فى خفر   أرق من خفر العذر أفى الكلل
و الكفر فى ظلمات الرجس مرتكس   ثاو بمنزلة البهموت فى زحل
حجزت بالأمن أقطار الحجاز معاً   وملت بالخوف عن حيف وعن طلل
و حل أمن و يمن منك فى يمن   لما أجابت إلى الإيمان عن عجل
و أصبح الدين قد حفت جوانبه   بعزة النصر واستولى على الملل
قد طاع منحرف منهم لمعترف   وانقاد منعدل منهم لمعتدل
أحبب بخلة أهل الحق فى الخلل   و عز دولته الغراء فى الدول

إسلام معاوية و فضائله

و كان جملة من أسلم و بايعه ﴿ﷺ وآله﴾ على الإسلام معاوية و أخوه يزيد ابنا أبى سفيان. و قيل: إن إسلام معاوية كان عام الحديبية.

و عن معاوية ﵁ قال: لما كان عام الحديبية وقع الإسلام فى قلبى فذكرت ذلك لأمى، فقالت: إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت، فأسلمت و أخفيت إسلامى، فقال لى يوماً أبو سفيان و كأن شعر بإسلامى، أخوك خير منك هو على دينى.

فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامى، و لقيته ﴿ﷺ وآله﴾ فرحب بى، و كتبت له بعد أن استشار فى ذلك جبريل ﵇ فقال: استكتبه فإنه أمين.

و فى البخارى أن كريبا قال لابن عباس رضى الله عنهما: إن معاوية يوتر بركعة، فقال: دعه فإنه فقيه، قد صحب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. و جاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أردفه يوما خلفه فقال: ما يلينى منك؟ قلت: بطنى، قال: اللهم املأه حلماً وعلماً.

وعن العرباض بن سارية ﵁ قال: قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لمعاوية ﵁:اللهم علّمه الكتاب والحساب، و قه العذاب، و مكن له فى البلاد.

و عن بعض الصحابة ﵁ أنه سمع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يدعو لمعاوية ﵁ يقول: اللهم اجعله هاديا مهدياً، واهده و اهد به و لا تعذبه. و قال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾: إذا ملكت فأحسن. و فى رواية: إذا ملكت من أمر أمتى شيئاً فاتق الله و أعدل. و فى رواية: يامعاوية إنك ستلى أمر أمتى فارفق بها. و يذكر أنه كان عنده قميص رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و إزاره و رداءه و شئ من شعره، فقال عند موته: كفنونى فى القميص، وأدرجونى فى الرداء، و أزرونى بالإزار، و احشوا منخرى و شدقى من الشعر، و خلوا بينى و بين أرحم الراحمين.

و لما حضرته الوفاة قال: اللهم ارحم الشيخ العاصى، ذا القلب القاسى، اللهم أقل عثرتى، و اغفر ذلتى، و عد بحلمك على من لا يرجو غيرك، و لم يثق بأحد سواك، ثم بكى حتى علا نحيبه، و كانت وفاته بدمشق سنة ستين من الهجرة وهو ابن اثنين و ثمانين سنة. و قيل: ثمان وسبعين سنة، وكان أبيض جميلا و هو من الموصوفين بالحلم.

ولى الشام لعمر و عثمان رضى الله عنهما عشرين سنة، و ولى الخلافة سنة أربعين، و مكث خليفة عشرين سنة إلا ستة أشهر.

و أما ما وقع بينه و بين على كرم الله وجهه فمذهب أهل السنة أن ذلك كان باجتهاد منهما فلا يعترض على أحد منهما. و قد قال ﴿ﷺ وآله﴾: (الله الله فى أصحابى و أصهارى وأنصارى فمن سبهم فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين).

ذكر من اختفى يوم فتح مكة

١- منهم وحشى بن حرب الذى أهدر ﴿ﷺ وآله﴾ دمه لكونه قتل عمه حمزة ﵁ فلما فتحت مكة هرب إلى الطائف. قال: فكنت بالطائف فلما خرج وفد الطائف ليسلموا ضاقت علىّ المذاهب، فقلت: الحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد، فوالله إنى لفى ذلك من همى إذ قال لى رجل: ويحك و الله إنه ما يقتل أحداً يدخل فى دينه، فخرجت حتى قدمت عليه، فلم يرعه إلا و أنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق، فلما رآنى قال: وحشى، قلت: نعم يارسول الله، قال: اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة؟ فحدثته فلما فرغت عنه، قال: ويحك غيب وجهك عنى، فكنت أتنكب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حيث كان، لئلا يرانى حتى قبضه الله.

ثم خرج وحشى مع من خرج لقتال أهل الردة فى خلافة أبى بكر ﵁ فقتل مسيلمة الكذاب بحربته التى قتل بها حمزة ﵁، فكان يقول: أرجو أن تكون هذه بتلك، أى: أن هذه تكفر تلك.

٢- و ممن اختفى يوم الفتح عتبة و معتب ابنى أبى لهب، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لعمه العباس: أين ابنا أخيك لأراهما - يعنى عتبة و معتب بن أبى لهب - فقال العباس ﷺ: فيمن تنحى من مشركى قريش، قال: ائتنى بهما، فركبت إليهما فأتيته بهما، فدعاهما للإسلام فأسلما، فَسُرَّ بإسلامهما و دعا لهما، ثم قام ﴿ ﷺ وآله﴾ و أخذ بأيديهما و انطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف، و السرور يُرى فى وجهه، فقال له العباس ﷺ: أسرَّك الله يارسول الله، إنى أرى السرور فى وجهك، قال: غنى استوهبت ابنى عمى هذين من ربى فوهبهما لى، و شهدا معه حنينا و الطائف، و لزماه يوم حنين، و قلعت عين معتب يوم حنين.

٣- و ممن اختفى أيضاً سهيل بن عمرو، و كان ابنه عبد الله مسلماً فجاء إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ليأخذ له أماناً فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: هو آمن بأمان الله فليظهر، ثم قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لمن حوله: من لقى سهيلاً بن عمرو فلا يحد النظر إليه، فلعمرى إن سهيلاً له عقل و شرف، و ما مثل سهيل يجهل الإسلام. فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال سهيل: كان و الله براً صغيراً، براً كبيراً، ثم إنه خرج إلى حنين و هو على شركه ثم أسلم بالجعرانة، و صار من فضلاء الصحابة ﷺ. حتى أن الله ثبت به أهل مكة يوم جاءهم خبر وفاته ﴿ ﷺ وآله﴾ فكادوا أن يرتدوا، فخطبهم خطبة مثل الصديق ﷺ بالمدينة و قال فيها: من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤) فثبتهم الله به ﷺ، و استشهد ﷺ فى اليرموك.

وقيل: توفى بالشام فى طاعون عمواس.

ودخل ﴿ﷺ وآله﴾ مكة يوم الاثنين بين أبى بكر و أسيد بن حضير رضى الله عنهما وهو متواضع، مطأطئ رأسه على ناقته القصواء، مردفاً أسامة بن زيد رضى الله عنهما خلفه، و هو ﴿ﷺ وآله﴾ يقرأ سورة الفتح.

وعن أنس ﵁ قال: لما دخل ﴿ﷺ وآله﴾ مكة يوم الفتح استشرفه الناس فوضع رأسه على رحله متخشعاً. وفى رواية: حتى أن رأسه لتكاد تمس رحله، أى: تواضعاً لله لما رأى ما أكرمه به فى الفتح، ولم يزل يقرأ سورة الفتح فى حال دخوله حتى جاء البيت فطاف به.

وفى شرح المواهب للعلاَّمة الزرقانى: أن طوافه ﴿ﷺ وآله﴾ إنما كان بعد أن استقر فى خيمته ساعة واغتسل، وعاد للبس السلاح والمغفر، ودعا بالقصواء فأدنيت إلى باب الخيمة، وقد خف به الناس فركبها، وسار وأبو يكر ض يحادثه، فمرّ ببنات أبى أحيحة بالبطحاء وقد نشرن شعورهن يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم إلى أبى بكر ض واستنشده قول حسان الماضى (يلطمهن بالخمر النساء) إلى أن انتهى إلى الكعبة ومعه المسلمون، فاستلم الركن بمحجنه، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، ورجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً، حتى جعل ص يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون، فطاف بالبيت ومحمد بن مسلمة آخذ بزمام الناقة سبعاً، واستلم الحجر الأسود كل طوفة بمحجنه، وكان ذلك الاثنين لعشر بقين من رمضان وهو حلال غير محرم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدّوا أقدامها بالرصاص، فجاء ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه قضيب فجعل يهوى به على كل صنم منها فيخر لوجهه. وفى رواية: لقفاه. وفى رواية: ما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه،

ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، من غير أن يمسّه بما فى يده، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

وفى رواية: فأتى فى طوافه على صنم إلى جنب البيت من جهة بابه يعبدونه وهو "هبل" وكان فى يده ص قوس فجعل يطعن بها فى عينيه ويقول: جاء الحق .. الآية. ثم أمر به فكسر، فقال الزبير ض لأبى سفيان ض : قد كسر هبل، أما إنك قد كنت يوم أحد فى غرور حتى تزعم أنه قد أنعم، فقال أبو سفيان: دع هذا عنك ياابن العوام، لقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

وعن أبى سعيد الخدرى ض قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الفتح: هذا ما وعدنى ربى ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح.

وقد أشار صاحب الهمزية إلى ذلك فقال:

واستجابت له بنصر وفتح   بعد ذاك الخضراء والغبراء
وتوالت للمصطفى الآية الكبرى   عليهم والغارة الشعواء
فإذا ما تلا كتابنا فى   الله تلته كتيبة خضراء

ولما فرغ ﴿ﷺ وآله﴾ من طوافه نزل عن راحلته. روى ابن أبى شيبة عن عمر ﵁ قال: ما وجدنا مناخاً فى المسجد لراحلته ﴿ﷺ وآله﴾ حتى أنزل على أيدى الرجال فأخرجت الراحلة فأنخيت بالوادى، ثم انتهى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المقام فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم وقال: لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً، فنزع له العباس دلواً فشرب منه وتوضأ، والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم، والمشركون ينظرون ويعجبون ويقولون: ما رأينا قط أبلغ من هذا، ولا سمعنا به، ثم جلس ﴿ﷺ وآله﴾ فى ناحية المسجد وأبو بكر ﵁ قائم على رأسه بالسيف، ثم دعا عثمان بن طلحة ﵁ ففتح له الكعبة ودخلها ﴿ﷺ وآله﴾ هو وبلال، وأسامة بن زيد، وعثمان بن طلحة ﵁ ، وصلى ركعتين بين العمودين اليمانيين.

وفى رواية: جعل عمودين عن يمينه، وعموداً عن يساره، وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت على ستة أعمدة. وفى رواية: أن بين موقفه ﴿ﷺ وآله﴾ وبين الجدار الذى استقبله قريباً من ثلاثة أذرع. وفى رواية: أن دخوله ذلك كان ثانى يوم الفتح.

أحكام يوم الفتح

ثم وقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وصدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم خطب خطبة طويلة وذكر فيها جملة من الأحكام منها: لا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، والبينة على المدَّعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر، ثم قال: يامعشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، والناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية ﴿ ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣) ثم قال: يامعشر قريش ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، وأول من قال .

ذلك سهيل بن عمرو، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أقول كما قال أخى يوسف: ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، (يوسف: ٩٢). اذهبوا فأنتم الطلقاء، أى: الذين أطلقوا، فلم يسترقوا، ولم يؤسروا، فخرجوا كأنما نُشروا من القبور، فدخلوا فى الإسلام.

ومما ذكره فى تلك الخطبة قوله: أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ويعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب، ثم قال: يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم .. إلى آخر ما تقدم.

كيف فتحت الكعبة

وقد اختلفت الروايات فى كيفية إحضار مفتاح الكعبة له حين أراد الدخول، والصحيح أنه دعا عثمان بن طلحة وقال: ائتنى بالمفتاح ــ وتقدم أنه أسلم فى مدة صلح الحديبية وهاجر هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ﷺ ــ فذهب عثمان إلى أمه سلامة بنت سعيد الأنصارية الأوسية ــ وقد أسلمت بعد ذلك رضى الله عنها ــ فلما جاءها ليأخذ منها المفتاح أبت أن تعطيه، فقال: ياأمة ادفعى لى المفتاح فإنه رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ ، فأبت أن تعطيه وقالت: لا واللات والعزَّى، فقال لها: لا لات ولا عزَّى قد جاء أمر غير ما كنا فيه، والله لتعطينه و إنك إن لم تفعلى قتلت أنا و أخى و أنت، قتلتينا و و الله لتدفعنه، أو ليأتين غيرى فيأخذه منك، فأدخلته فى حجرها و قالت: من يدخل يده هنا.

قال الزهرى: و أبطأ عثمان على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و هو ينتظر حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق و يقول: ما يحبسه.

و فى رواية فجعلت تقول: إن أخذه منكم لا يعطيكموه، فبينما هو يكلمها إذ سمع صوت أبى بكر و عمر رضى الله عنهما فى الدار، وعمر رافع صوته و هو يقول: ياعثمان اخرج، فقالت: يابنى خذ المفتاح فإن تأخذه أحب إلى من أن يأخذه تيم و عدى، أى: أبو بكر و عمر، فأخذه عثمان فخرج يمشى إذا كان قريبا من وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عثر عثمان فسقط منه المفتاح فحنى عليه و تناوله. و فى رواية: فاستقبله ﴿ﷺ وآله﴾ ببشر ففتح له عثمان الباب. و فى رواية: فأخذه ﴿ﷺ وآله﴾ منه و فتح الكعبة. فيحتمل أنهما تشاركا فى الفتح، فقد روى الفاكهى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كانت بنو أبى طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح الكعبة غيرهم، فأخذ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المفتاح ففتح بيده.

قال العلامة الزرقانى: و يحتمل الجمع بأنه ﴿ﷺ وآله﴾ لما فتح الضبة بالمفتاح عاونه فدفع الباب ففتحه له، أى: فصح إسناد الفتح لكل منهما.

و جاء خالد بن الوليد، و كان حين دخل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ الكعبة على باب الكعبة يذب الناس.

و لما خرج ﴿ﷺ وآله﴾ من الكعبة جلس فى المسجد و مفتاح الكعبة فى يده فقام إليه على كرم الله وجهه فقال: يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك

و سلم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ ما معناه: إنما أعطيكم ما تبذلون فيه أموالكم للناس، أى: و هو السقاية، لا ما تأخذون فيه من الناس أموالهم و هى الحجابة، لشرفكم و علو مقامكم.

و فى رواية أن العباس ﵁ تطاول يومئذ لأخذ المفتاح فى رجال من بنى هاشم، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أين عثمان بن طلحة فدعا به فقال: هك مفتاحك ياعثمان اليوم يوم بر و وفا، و أنزل الله هذه الآية فى شأن عثمان بن طلحة:

﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (النساء:٥٨).

و روى الأزرقى و غيره عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية فى عثمان بن طلحة، أخذ ﴿ﷺ وآله﴾ منه مفتاح الكعبة و دخلها يوم الفتح، فخرج و هو يتلوها فدعا عثمان فدفع المفتاح إليه، و قال: خذوها، أى: الحجابة، يابنى أبى طلحة لا ينزعها منكم إلا ظالم. قال: و قال عمر ﵁: خرج ﴿ﷺ وآله﴾ من الكعبة و هو يتلو هذه الآية ما سمعته يتلوها قبل ذلك. قال السيوطى: ظاهر هذا أنها أنزلت فى جوف الكعبة. و روى الأزرقى عن ابن المسيب خذوها خالدة تالدة لا يظلمكوها إلا كافر. و فى رواية عن ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن سابط أنه ﴿ﷺ وآله﴾ دفع المفتاح إلى عثمان فقال: خذوها خالدة مخلدة إنى لم أدفعها إليكم و لكن الله دفعها إليكم، و لا ينزعها منكم إلا ظالم.

وروى ابن سعد وغيره عن عثمان بن طلحة ﵁ قال: لقينى ﴿ﷺ وآله﴾ بمكة قبل الهجرة فدعانى إلى الإسلام فقلت: يامحمد أتعجب لك حيث تطمع أن أتبعك و قد خالفت دين قومك و جئت بدين محدث، قال: و كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية

يوم الاثنين و يوم الخميس، فأقبل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس – و ذلك بعد بعثته – فأغلظت له و نلت منه فحلم عنى، ثم قال: ياعثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت، فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ و ذلت – يعنى ما دامت قريش أنت لا تقدر على ذلك – فقال: بل عمرت و عزت يومئذ، و دخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعا ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، أى: لأنه كان معروفاً بينهم بالصدق و الأمانة، قال عثمان: فأردت الإسلام فإذا قومى يزبروننى زبراً شديداً، فلما كان يوم الفتح قال: ياعثمان ائتنى بالمفتاح فأتيته به ثم دفعه إلىّ و قال: خذوها، يعنى سدانة البيت خالدة تالدة لا يترعها منكم إلا ظالم، ياعثمان إن الله استأمنك على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، قال عثمان: فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذى قلت لك، فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت، قلت: بلى أشهد أنك رسول الله. و الروايات السابقة هى التى صحت بها الأحاديث، و عثمان المذكور هذا هو ابن طلحة بن أبى طلحة و اسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب العبدرى، و طلحة أبو عثمان قتل كافراً يوم أحد. و يقال لعثمان: الحجبى، و لآل بيته الحجبة، و يعرفون الآن بالشيبيين نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة و هو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة. قال الحافظ بن حجر: إن أبا طلحة له ولدان عثمان و طلحة، أتى عثمان بشيبة، و أتى طلحة بعثمان، فلما مات عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخذ المفتاح ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة، لأن عثمان بن طلحة كان لا ولد له، و بقى

فى أولاد شيبة و هم الشيبيون.

قال العلاّمة الزرقانى: و فى هذه الأخبار كلها دليل على بقاء عقبهم إلى الآن. قال العلاّمة الشمس الحطاب المالكى المكى: و لا التفات إلى قول بعض المؤرخين أن عقبهم انقطع فى خلافة هشام بن عبد الملك فإنه غلط لقول مالك ﵁: لا يشرك مع الحجبة فى الخزانة أحد لأنها ولاية منه ﴿ﷺ وآله﴾، و مالك ولد بعد هشام بن عبد الملك بنحو عشرين سنة، و ذكر ابن حزم و ابن عبد البر جماعة منهم فى زمانهما و عاشا إلى ما بعد نصف المائة الخامسة. و كذا ذكر العلاّمة القلقشندى وعاش إلى إحدى و عشرين و ثمانمائة. و لا دلالة لزاعم انقراضهم فى إخدام معاوية ﵁ الكعبة عبيداً، لأن إخدامها غير ولاية فتحها كما هو معلوم، و كثيرا ما يقع فى كلام المؤرخين كالأزرقى و الفاكهى ذكر الحجبة ثم الخدمة بما يدل على التغاير.

إسلام شيبة بعد آيات بينات

و قد تقدم الكلام على إسلام عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فى قصة إسلام خالد ابن الوليد و عمرو بن العاص ﵄. و أما شيبة بن عثمان بن أبي طلحة فأسلم عام الفتح و قال ﵁ يحدث عن سبب إسلامه:

ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم بعض ما عليه أباؤنا من الضلالات، و لما كان عام الفتح و دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة صار إلى حرب هوازن، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى أن أصيب من محمد غرة فأقتله فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها. و فى لفظ: اليوم أدرك ثأرى من محمد، أى: لأن أباه و عمه و جملة من بنى عمه قتلوا يوم أحد قتلهم حمزة و علىّ و غيرهم ﵃، قال و قلت: لو لم يبق من العرب و العجم أحدا إلا اتبع محمداً ما تبعته، لا يزداد ذلك الأمر عندى إلا شدَّة، فلما اختلط الناس يوم حنين و نزل ﴿ﷺ وآله﴾ عن بغلته، أصلت السيف و دنوتُ منه أريد الذى أريد منه، و دفعنت السيف حتى كدت أوقع به الفعل، و رفع إلىَّ

شواظ من نار كالبرق كاد يهلكني، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه. و فى رواية: فلما هممت به حال بينى و بينه خندق من نار و سور من حديد. و لا مانع من وقوع كل ذلك.

قال: فالتفت إلىَّ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و تبسم و عرف الذى أريد، فنادانى ياشيبة ادن منى، فدنوت منه، فمسح صدرى ثم قال: اللهم أعذه من الشيطان. قال شيبة: فو الله لهو فى الساعة صار أحب إلىّ من سمعى و بصرى، و أذهب الله ما كان فىَّ، ثم قال: ادن فقاتل فتقدمت أمامه أضرب بسيفى، و الله أعلم أنى أحب أن أقيه بنفسى و كل شئ، و لو كان أبى حيا و لقيته تلك الساعة لأوقعت السيف به، فجعلت ألزمه فيمن لزمه، أى: ثبت معه يوم حنين، حتى تراجع المسلمون و كروا كرة رجل واحد، و قربت إليه بغلته فاستوى عليها قائما.

و جاء فى رواية عن شيبة بن عثمان الحجبى ﵁ قال: خرجت مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم حنين فو الله إنى لواقف مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذ قلت: يارسول الله إنى لا أرى خيلا بلقا، قال: ياشيبة إنه لا يراها إلا كافر فضرب بيده على صدرى، ثم قال: اللهم اهد شيبة فعل ذلك ثلاثا، فما رفع ﴿ﷺ وآله﴾ يده عن صدرى الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلىّ منه.

و لما انقضى القتال و رجع ﴿ﷺ وآله﴾ إلى معسكره فدخل خباءه دخلت عليه ما دخل عليه غيرى، حباً لرؤية وجهه ﴿ﷺ وآله﴾ و سرورا به، فقال: ياشيبة الذى أراد الله خير مما أردت بنفسك، ثم حدثنى بكل ما أضمرته فى نفسى مما لم أذكره لأحد قط، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أنك رسول الله، ثم قلت له: استغفر لى، فقال: غفر الله لك.

بلال يؤذن على ظهر الكعبة ليغيظ المشركين

و جاء أن بلالاً ﷺ أمره النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يؤذن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة ليغيظ بذلك المشركين، و كان أبو سفيان و عتاب بن أسيد، و فى رواية: و خالد ابن أسيد أخو عتاب: و الحارث بن هشام و غيرهم، جلوساً بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد أو خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون يسمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، و قال الحارث بن هشام: أما و الله لو أعلم أنه حق لاتبعته إن يكن الله يكره هذا فسيغيره. و فى رواية أنه قال: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً. و قال بعض بنى سعيد بن العاص: لقد أكرم الله سعيداً قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة. و قال الحكم بن أبى العاص: والله إن هذا الحدث عظيم، عبد بنى جمح يصيح على بنية أبى طلحة. و قال أبو سفيان: لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء، فخرج عليهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال لهم: قد علمت الذى قلتم، ثم ذكر لهم ذلك، فقال، أما أنت يافلان فقلت كذا، و أما أنت يافلان فقلت كذا، و أما أنت يافلان فقلت كذا، فقال أبو سفيان: أما أنا يارسول الله فما قلت شيئاً، فضحك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. فقال الحارث بن هشام و عتاب بن أبى أسيد و خالد بن أبى أسيد: نشهد أنك رسول الله، و الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

يستهزئ بصوت بلال فيصير مؤذنا للكعبة

وصار بعض من قريش يستهزئون و يحكون صوت بلال غيظاً، وكان من جملتهم أبو محذورة و كان من أحسنهم صوتا، فلما رفع صوته بالأذان مستهزئا سمعه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأمر به النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فمثل بين يديه – و هو يظن أنه مقتول – فمسح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ناصيته و صدره بيده الشريفة، قال: فامتلأ قلبى و الله إيمانا و يقيناً و علمت أنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فألقى عليه رسول الله الأذان و

علمه إياه و أمره أن يؤذن لأهل مكة، و كان سنه ست عشرة سنة، و أولاده بعده كانوا يتوارثون الآذان بمكة.

و يروى أن جويرة بنت أبي جهل قالت عند أذان بلال على ظهر الكعبة: والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً، و لقد جاء لأبي الذى جاء لمحمد من النبوة فردّها، و لم يرد خلاف قومه، ثم أسلمت و حسن إسلامها رضى الله عنها.

شريك النبى فى الجاهلية و حبيبه فى الإسلام

و ممن جاءه ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الفتح السائب بن عبد الله المخزومى، و قيل: عبد الله بن السائب، و قيل: السائب بن عويم، و قيل: قيس بن السائب بن عويم، و كان شريكا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ قبل بعثته ﴿ﷺ وآله﴾، قال: لما أسلمت أخذ عثمان و غيره يثنون على فقال ﴿ﷺ وآله﴾: لا تعلمونى به كان صاحبى، و فى لفظ: لما أقبلت عليه قال: مرحباً بأخى و شريكى كان لا يدارى و لا يمارى، قد كنت تعمل أعمالاً فى الجاهلية. لا تتقبل منك، أى: لتوقفها على الإسلام، و هى اليوم تتقبل منك، أى: لوجود الإسلام.

جاء شقيا و ذهب وليا

و جاء أن فضالة بن عمير بن الملوّح حدث نفسه بقتل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و هو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يارسول الله، قال: ما الذى كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شئ كنت أذكر الله، فضحك النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة رضي الله عنه يقول: و الله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلىَّ منه.

و فى سيرة ابن هشام قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلمّ إلى الحديث فقلت: لا، و انبعث فضالة رضي الله عنه يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لها   يأبى علـــى الله و الإســـلام
لـــو مـــا رأيت محمدا و قبيله   بالفتح يـــوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحـــى بـــينا   والشرك يغشى وجهه الإظلام

تحطيم الأصنام من الكعبة

و بقى من الأصنام التى كانت على الكعبة صنم لخزاعة كان فوق الكعبة و كان من صخر، و فى رواية: من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض، فأمر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عليا كرم الله وجهه أن يرميه، فرمى به و كسره، و جعل أهل مكة يتعجبون.

و روى الحاكم عن علىِّ كرم الله وجهه انطلق بى ﴿ﷺ وآله﴾ حتى أتى بى الكعبة فقال: اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد على منكبى ثم قال: انهض فنهضت، فلما رآى ضعفى تحته قال: اجلس فجلست، ثم قال: ياعلى اصعد على منكبى ففعلت فلما نهض بى خيّل لى أنى لو شئت نلت أفق السما، فصعدت فوق الكعبة، و تنحى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: الق صنمهم الأكبر و عالجه، قال: فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فألقيته.

و قد أجاد القائل:

يارب بالقدم التـــى أوطأتـــها فى قاب قوسين المحل الأعظما
و بحرمة القدم التى جعلت لها   كتف المؤيد بالـــرسالـــة سلـــما
ثبت على متن الصراط تكرما   قدمى و كن لى منقذا و مسلـــما
و اجعلها ذكرى فمن كانا لـــه   ذخرا فليس يخاف قط جهـــنما

و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة أبى أن يدخل البيت و فيه الآلهة، أى بحسب زعمهم، و كانت تماثيل على صور شتى فأمر بها فأخرجت.

و فى رواية أمر عمر بن الخطاب ؓ و هو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور. فكان عمر رضى الله عنه هو الذى أخرجها، و أخرجوا صورة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام فى أيديهما الأزلام التى كانوا يستقسمون بها، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: قاتلهم الله أما و الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط.

و فى رواية عن جابر ؓ و كان عمر ؓ قد ترك صورة إبراهيم ؑ فلما دخل ﴿ﷺ وآله﴾ رآها فقال: ياعمر ألم آمرك أن لا تدع فيها صورة، قاتلهم الله جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام، ثم رأى صورة مريم فقال: امسحوا ما فيها من الصورة، قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون.

و فى رواية أسامة بن زيد رضى الله عنهما: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ دخل الكعبة فرآى صوراً فدعا بماء فجعل يمحوها. . و هو محمول أنه بقيت بقية خفيت على من محاها أولا. و ذكر بعضهم أن صورة عيسى و أمه بقيتا أو بقى بعض أثرهما حتى رآهما بعض من أسلم من نصارى غسَّان، فقال: إنكما لببلاد عربية، فلما هدم ابن الزبير رضى الله عنهما البيت ذهبا فلم يبق لهما أثر.

ثم نادى منادى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بمكة: من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره، فكسروا الأصنام التى كانت فى بيوتهم، و عمدت هند بنت عتبة رضى الله عنها إلى صنم كان فى بيتها و جعلت تضربه و تقول: كنا منك فى غرور.

ثم بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ السرايا إلى كسر الأصنام التى حول مكة لأنهم كانوا

اتخذوا لهم أصناماً جعلوا لها بيوتا يعظموها، و يهدون لها، و يطوفون بها كما يطوفون بالكعبة، فكان فى كل حى صنم، فمنها العزَّى و مناة و سواع، و سيأتى ذكر السرايا إليها.

قتيل صبيحة الفتح

و لما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه و هو مشرك، فقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خطيباً بعد الظهر مسنداً ظهره إلى الكعبة، و قيل: كان على راحلته فحمد الله و أثنى عليه و قال: أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات و الأرض، و يوم خلق الشمس و القمر، و وضع هذين الجبلين، فهى حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله و اليوم الآخر يسفك بها دماً، و لا يعضد فيها شجرة، و لم تحل لأحد كان قبلى، و لم تحل لأحد يكون بعدى، و لم تحل لى إلا هذه الساعة – يعنى من صبيحة يوم الفتح إلى العصر – غضبا على أهلها، ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد قاتل فيها فقولوا له: إن الله تعالى قد أحلها لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ و لم يحلها لكم.

و قد جاء فى صحيح مسلم: لا يحل أن يحمل السلاح بمكة، يامعشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر القتل، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، و إن شاءوا نعقله، ثم ودى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة و هو ابن الأقرع الذهلى – و كان مع بنى بكر – فلما دخل مكة و هو على شركه عرفته خزاعة، فأحاطوا به فطعنه منهم خراشى

الخزاعى بشقص فى بطنه حتى قتله، فلامه ﴿ﷺ وآله﴾، و قال: لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر لقتلت خراش – و الشقص ما طال فى النصل و عرض – و قال ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الفتح: لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة، أى: لا تغزى على الكفر، أى: لا يقاتلوا على أن يسلموا.

هل فتحت مكة صلحا أم عنوة؟

و اختلف العلماء – رحمهم الله – هل فتحت مكة صلحاً أو عنوة؟ فقال الأكثرون: إنها فتحت عنوة، و قال الشافعى و أحمد فى رواية عنه: إنها فتحت صلحا، و جمع بعضهم بين الروايات بأن أعلاها فتح صلحاً، أى: الذى سلكه النبى ﴿ﷺ وآله﴾، و أسفلها فتح عنوة، أى: الذى سلكه خالد بن الوليد ﵁، و لما قرب ﴿ﷺ وآله﴾ فى دخول مكة، أى: قبل أن يدخلها بيوم، قال له أسامة بن زيد رضى الله عنهما: يارسول الله أين تنزل غداً؟ زاد و فى رواية: أتنزل فى دارك يارسول الله؟ فقال ﴿ﷺ وآله﴾: و هل ترك لنا عقيل من منزل. و فى رواية: و هل ترك لنا عقيل من رباع أو دور، و كان عقيل ورث أبا طالب هو و أخوه طالب، و لم يرث جعفر ولاعلىّ معهما شيئاً لأنهما كان مسلمين، و ترك لهما النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ما يخصه تفضلاً و استمالة و تأليفاً لهما، و قيل: تصحيحاً لتصرفات الجاهلية، كما تصحح أنكحتهم. ثم إن عقيلاً أسلم، و أما طالب ففقد ببدر و كان من المشركين.

كشف الأسرار و الحكم

التى تضمنها فتح مكة المكرمة

تجلت الأخلاق الربانية التى تجمل بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأجلى مظاهرها فى فتح مكة، فإن أهل مكة بعد أن حاربوا الله و رسوله، و آذوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، و حاربوه المرة بعد المرة، و بذلوا كل ما فى وسعهم لمحو الحق متظاهرين بأشد العداوة و ألد العداء، كان لا يشك اثنان أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا أظهره الله عليهم لا يبقى منهم نافخ نار، و كان القوم يعتقدون ذلك تمام الاعتقاد، حتى إذا أظهره الله عليهم و مكنه منهم، عمتهم رحمته التى فطره الله عليها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) و قال تعالى: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) و شملتهم رأفته ﴿ ﷺ وآله﴾.

شرف ﴿ ﷺ وآله﴾ مكة كإنما هو والد رءوف رحيم قدم من سفر على أبناء بررة، نسى ﴿ ﷺ وآله﴾ شرورهم و أذيتهم، و عطف عليهم عاطفة من يحب لهم الخير و يرجو لهم النجاة من هول يوم القيامة، فأمنهم إلا نفراً منهم استوجبت أعمالهم الانتقام منهم لله تعالى، ولكن سعة الرحمة الإلهية التى جمل الله بها حبيبه ومصطفاه بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:٦٤) و سعتهم حتى صاروا من كبار الصحابة.

حفظ الله رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ و عصمه سبحانه و تعالى من أن ينقض عهداً عاهده، أو يخلف وعداً وعده، حتى نقضت قريش العهد و أخلفوا الوعد، لحكم هى طهارة بيت الله من الأصنام و عبادة غير الله، فكان نقض قريش العهد سبباً لفتح مكة. نظر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الأمر نظرة حريص على أمته، رءوف رحيم بالمؤمنين، فأحب ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا يسفك دم فى مكة، و أن يفتحها الله تعالى بآية تكون معجزة له ﴿ ﷺ

وآله﴾ حتى يحفظ الله تعالى أهل حرمه من أن يقتل رجل منهم بسيف الله فيخلد فى نار جهنم، رحمة منه ﴿ﷺ وآله﴾ بقوم لم يتركوا نوعاً من أنواع الأذية إلا أوقعوه به ﴿ﷺ وآله﴾، و لا باباً من أبواب الشر إلا فتحوه، فكان جزاؤهم فى الحقيقة أن يقطعوا بسيوف المؤمنين إربا، و أن يعجل الله بهم إلى جهنم، و لكن رحمة الله التى فطر عليها حبيبه و مصطفاه وسعت قوماً لم يتركوا شيئاً من أنواع الشرور إلا فعلوها برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فأخفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمره، وسأل الله أن يمنع عنهم الأخبار، لم تكن حكمة ذلك خديعة حربية يريد بها مباغتتهم و استئصالهم لا و الله، و لكن ﴿ﷺ وآله﴾ أحب أن لا يعلموا بمسيره إليهم حتى يصبحهم فيكون ذلك داعياً لاستسلامهم وطلبهم الأمن منه ﴿ﷺ وآله﴾،وهى رحمته الواسعة ﴿ﷺ وآله﴾، ورأفته العامة، وقد أكرمه الله تعالى بما أحب، فأمسك الأخبار عن قريش حتى صبحهم ﴿ﷺ وآله﴾، فلما رأوه ﴿ﷺ وآله﴾ امتلأت قلوبهم رهبة، فكانت السعادة لهم و لأولادهم من بعدهم، حكمة قد تخفى على كثير ممن لم تتزك نفسه، و لم يكاشف بجزء من الرحمة المحمدية.

انظر إلى تلك الرحمة المحمدية و سعتها، كيف مكنه الله من أشد أعدائه و ألد بغضائه، فكان ﴿ﷺ وآله﴾ و هو يريد جهادهم يجتهد أن يرحمهم، و هو يقصد حربهم يحب أن يدفع عنهم الشرور و البلايا. و قد أوذى فى الله منهم أذية لم يؤذها نبى من قومه، و كل رسول قبله ﴿ﷺ وآله﴾ و عليهم كانوا إذا مكنهم الله من قومهم سألوه أن يخسف بهم الأرض، أو يغرقهم فى اليم، أو يأخذهم بالسنين، أو يمسخهم قردة و خنازير. و هذا السيد ﴿ﷺ وآله﴾ مكنه الله من أشد أعدائه و ألد بغضائه فكان ﴿ﷺ وآله﴾ أحرص الناس على هدايتهم، و أرأف الناس بهم، و أحن الناس عليهم، حتى شملهم منه برحمة و عاطفة قد لا تكون من والد رءوف رحيم بولد بار وحيد. الله أكبر هذا هو السيد الذى يقول الله تعالى مثنيا عليه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

ويقول سبحانه وتعالى:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران:١٥٩) و يقول سبحانه و تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) هو و لا شك سيد رسل الله، و أكمل من تخلق بأخلاق الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و على آله و أصحابه و ورثته.

لقد أعلم الله رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بغدر بنى بكر و قريش، و أسمعه استغاثة عمرو بن سالم الخزاعى فى مكة وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ بالمدينة فلباه ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم وفد عليه خزاعة مستغيثاً به ﴿ ﷺ وآله﴾ فأجابهم بما أجابهم به، و أخفى الأمر حتى قام متوجهاً إلى مكة ﴿ ﷺ وآله﴾ و أمر بحفظ الطرق.

و كتب حاطب بن أبى بلتعة لقريش بالخبر، و لو وصلت كتابته لقريش لسالت الأودية دماء، حتى تصبح الأرض و ليس عليها قرشى، و لكن الرءوف الرحيم الذى أرسله الله رحمة للعالمين أعلمه الله بعمل حاطب رحمة بقريش، و إكراماً له ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى يكون كما أخبر الله رحمة للعالمين لا نقمة للعالمين، فلما أن كشف الله هذا السر عفا عن حاطب، و هذا الأمر من أكبر النفاق، لأنه خيانة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لكن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وفى يحفظ السابقية لأصحابه، و ينظر إلى حسناتهم فى سابقتهم، ويحمل معاصيهم وسيئاتهم على جانب رحمته الواسعة، ورأفته العميمة، فيعفو و يغفر ﴿ ﷺ وآله﴾، جعل حكمه عفوه عنه أنه شهد بدراً.

وهنا حكمة خفية على من لا بصر له، و هى أن الذين كانوا يحاربون الله ورسوله فى بدر هم قريش، و من حارب قومه فى بدر و أصاب منهم فى بداية الإسلام و زمن الخوف، كيف يميل إليهم فى وقت القوة و المنعة. و الحقيقة أن مسلماً يؤمن بالله ورسوله لا يميل إلى الكفار و لو كانوا آباءه أو أبناءه بقلبه، و إن مال بلسانه فلغرض لا يخلو من حكمة، فكيف بصحابى من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

بين لنا ﴿ﷺ وآله﴾ أن السابقية يجب أن تراعى فى أضيق المضايق، وأن يعامل الصاحب بها مهما سقط أو ذل خصوصاً إذا جاء معترفاً. و الأولى بكل مسلم أن يتشبه بأخلاق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة و معه جيش الله، فكانت راية الأنصار فى يد سعد بن عبادة، و كان كل مسلم يعتقد أن أنهار الدماء تجرى بين أودية مكة، لما يعلم كل مسلم من سوء فعل أهلها و قبح صنيعهم، و لا يشك مسلم فى ذلك حتى قال سيدنا سعد ﵁ كلمته التى تقدمت لك لاعتقاده ذلك، فبلغت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فكره ﴿ﷺ وآله﴾ هذا الكلام من سعد لما هوعليه من الرحمة والرأفة الحرص ﴿ﷺ وآله﴾، و أمره أن يعطى الراية لسيدنا قيس بن سعد لما يعلمه من الرحمة فيه ﵁، و هو ﴿ﷺ وآله﴾ الوفى العطوف الرؤف الرحيم الحريص على جميع الخلق ﴿ﷺ وآله﴾.

يظن الناس أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قدم مكة ليهينها، لا و الله، ما أقدمه الله عليها إلا ليعزها، و يظهر مجدها، و ينشر فضلها بين العالم أجمع.

دخل ﴿ﷺ وآله﴾ هو و أصحابه ﵁ بسلاح المجاهدين فما لبث ﴿ﷺ وآله﴾ إلا و صارت تلك الهيأة التى ظاهرها قهر قد تبدلت و صارت مظهراً من مظاهر الحفاوة و الإجلال و التجلة و الإعظام لبيت الله و حرمه و مسجد خليل الله.

ظن كفار قريش أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جاء ليذل الكعبة و أهلها، و إذا به ﴿ﷺ وآله﴾ يطوف مهللاً مكبراً حامداً مسبحاً، فأذل الله به الأصنام، و طهر به بيته الحرام من الرجس و الأوثان، و حفظ الله بفتح مكة جزيرة العرب من أن يعبد فيها غير الله عز وجل.

أقر ﴿ﷺ وآله﴾ السقاية و السدانة و الحجابة لأهلها تعظيماً لحرم الله، وإكراماً لجيران بيت الله، و براً بوالديه و صلة لأرحامه ﴿ﷺ وآله﴾.

صلى ﴿ ﷺ وآله﴾ نافلة فى جوف الكعبة ليظهر لنا أن كل جزء من أجزاء الكعبة وجهة للأشباح، و يبين لنا أن تحية ظاهرها للقادم غير تحية باطنها للداخل فيها، حتى يكون كما قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣).

لفتتح عمله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالمهمة التى هى سر الحكمة فى بعثته ﴿ ﷺ وآله﴾ و هى كسر الأصنام ومحوها عن وجه الأرض، حتى يكون الدين كله لله، و هذا وعد من الله تعالى، فلم يترك على الكعبة صنماً إلا أزاله إعلاء لكلمة الله، و تجريداً لتوحيد الله. أمر علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه أن يضع قدميه على كتفيه ﴿ ﷺ وآله﴾ ليكسر صنمهم الأكبر، ففعل علىَ بن أبي طالب كرم الله وجهه، و فى هذا سر غامض، و إشارة من أعظم إشارات التوحيد، و هى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ يحمل على كتفيه ليمحق الأصنام الظاهرة، وليرى أمته ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه عبد مهمته تجريد القلوب من الشرك الخفى، و تطهيرها مما يشوبها من العقائد الباطلة، حتى تنعقد القلوب على أنه عبد الله و رسوله

﴿ ﷺ وآله﴾، فلما رآى الناس علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه على كتفيه الشريفة ليكسر الأصنام، سكرت أرواحهم بخمر التوحيد الخالص، و علموا قدر رأفته و رحمته بالمؤمنين ﴿ ﷺ وآله﴾.

سمى فتح مكة فتحاً لم يكن لفتح مكة فقط، بل هو فتح أكيد للأرض جميعها و خصوصاً لجزيرة العرب.

تلك الأخلاق المحمدية نوعت تلك النفوس الإبليسية حتى جعلتها نفوس ملكية، و ألانت تلك القلوب الحجرية حتى جعلتها قلوباً خائفة لله رب العالمين، و صدق الله العظيم بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)

و يقول سبحانه و تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (آل عمران:١٠٣).

و نعم إنا و الله ليجب علينا أن نذكر نعمة الله علينا، و أعظم نعمة الله علينا هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، و كنا أعداء فألف الله به بين قلوبنا، و كنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا الله به ﴿ ﷺ وآله﴾ منها إلى الإيمان به سبحانه، و إلى فردوسه الأعلى .

هدم العزى

بعث ﴿ ﷺ وآله﴾ خالد بن الوليد ﵁ إلى العزى عقب فتح مكة بخمس ليال، و معه ثلاثون فارساً ليهدمها، و كان هذا البيت ببطن نخلة تعظمه قريش و كنانة و مضر كلها، و كان سدنتها بنو شيبان بن سليم حلفاء بنى هاشم، و كانت أعظم أصنامهم، و ذلك أن عمرو بن لحى – لعنه الله – قال لهم: إن الرب يشتى عند اللات، و يصيف عند العزى، فعظموها و بنوا لها بيتاً، و كانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة، و يطوفون و ينحرون عندها، و مع ذلك يعرفون فضل الكعبة عليها لأنها بيت الخليل و مسجده ﵇.

فلما سمع سادن العزى بمسير خالد بن الوليد إليها علق سيفه عليها و اشتد فى الجبل الذى هى فيه و هو يقول:

أيا عزّى شدى شدة لا شوى لها على خالد ألق القناع و شمرى أيا عزّى إن لم تقتلى المرء خالداً فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى فلما انتهوا إليها هدموا البيت التى هى فيه، و كسروا الصنم، ثم رجع إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة فأخبره، فقال: رأيت شيئاً خرج منها حين هدمتها؟ قال: لا، قال فإنك لم تهدمها، أى: الهدم الأبدى المزيل لها حقيقة، فإن الذى فعلته هو إزالة الصورة الظاهرة، و بقى أمر خفى لا تزول إلا بزواله، فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد ﵁ و هو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه

امرأة عجوزة عريانة سوداء، ثائرة الرأس، تحثو التراب على رأسها و وجهها، فجعل السادن يصيح بها و هو يقول: أعزّى بعض غضباتك، فضربها خالد ﵁ و هو يقول: ياعز كفرانك لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك. ثم رجع إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبره، فقال: تلك العزَى لا تعبد أبدا.

مداخل الشيطان لبنى آدم

لعن الله الشيطان لم يترك باباً من أبواب الشر للإنسان إلا فتحها و كيف لا، و قد بذل جهده حتى دخل الجنة و أخرج آدم ﵇، فمن أمكنه أن يخرج آدم من الجنة بإيقاعه فى المعصية، كيف يرضى أن يدخل أبناءه الجنة، أو يجعلهم يوحدون الله و يعبدونه لينالوا رضاه.

علم كيف يتمكن من قلوب بنى آدم، و كيف يجذبها إليه، فأتى لكل قلب من الجهة التى ينجذب إليها، تمنى آدم ﵇ و حواء الخلود فى الجنة فكان طمعهما مدخل إبليس عليهما، فدلاهما على الشجرة بغرور، و أقسم بالله لهما أن من أكل منها يخلد فى الجنة، و كانت طلبتهما فصدقاه، لأنهما كانا لا يعلمان أن أحداً يقسم بالله كذباً.

ثم جاء لأبناء آدم فدخل على كل قلب من الباب الذى يطمع فيه، فزين معاصى الله، حتى أظهر للإنسان من الحيل و الدهى ما جعله يتخذ الحجر إلهاً يعبد من دون الله، و ذلك لأن الإنسان بصفته من الطين يميل إلى الثقة بالمحسوس و السكون إليه، فحسن لهم الأصنام، و جاء لبعض الأشرار من بنى الإنسان فنفث فى قلوبهم شرور الخبث حتى جعلهم يحتالون على الناس بأخفى الحيل ليوهموهم أن هذا الصنم فى جوفه الرب.

فمنهم من كان يضع فى جوف الصنم مرجلاً مملوءاً بالماء له فوهة مسدودة بصمام، ثم يوقد النار تحتها حتى يمتلئ بخاراً، و يحضر العامة أمام هذا الصنم ويقول: إن الإله غضبان، و يقف أمام الصنم خاشعاً و يسجد و يركع كأنه يستعطفه، و عندها يكون البخار ارتفع، حتى يمزق الصمام، فيخرج صوت البخار من المرجل، كأنه الرعد

القاصف فيغشى على الناس، و يبكون و يبتهلون إلى الصنم، و عندها يقول الخادم: الرب لا يرضيه إلا بذل الأموال أو ذبحكم أمامه، فيبذلون أموالهم، و عندها يخرجون النار من تحت المرجل فيزول الصوت المزعج، و كان يصنع ذلك بعض خبثاء الآشوريين.

و منهم من يضع فى جوف الصنم بنتاً سوداء صغيرة، و يتولى تربيتها أهل الخبث و الدهاء، حتى إذا كبرت كانت أشر من الشيطان. كما كان فى العزَى، فإن تلك المرأة الخبيثة لاحتجابها عن الناس و طول خلوتها تجردت نفسها، حتى صار لها اتصال بالمفارق من الشياطين، كما يحصل لأهل الإيمان من العباد الذين بذلوا أنفسهم حتى صار لهم اتصال بالمفارق من الملائكة.

و كم أفسد الشيطان من الإنس و الجن عقائدا كاملة، و أخلاقاً فاضلة، و إخلاص لله فى أعمال صالحة. نعوذ بالله من الشيطان و شره.

و لو أن الإنسان تأمل بعقله لعلم أن الجسم كائنا ما كان مخلوق مقهور، وجد بعد أن لم يكن، و يفنى بعد أن كان، و أن الله العلى الكبير لا يحل الأجسام و لا تحله الأجسام – تنزه و تعالى – الخلق كلهم عبيد مقهورون، وعباد مربوبون، وإنما هى وسوسة الشيطان الذى كره أن ينجوا آدمى من نار جهنم، لأنه بسبب كبره على آدم ﵇ طرد و لعن، فهو ينتقم لنفسه من آدم و ذريته. أعاذنا الله من كيده، و حفظنا من دسائسه، و حصننا بحصونه المنيعة من الشيطان و شره.

هدم سواع

و هى سرية عمرو بن العاص ﵁ إلى هدم سواع، و هو صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة و كان بعثه ﴿ﷺ وآله﴾ فى رمضان أيضاً بعد الفتح.

قال ابن جريج: سواع بن شيث بن آدم لما مات صورت صورته، و عظمت لموضعه من الدين، و لما عهدوا فى دعائه من الإجابة، و أولاده يغوث و يعوق و نسرا، فلما

ماتوا صورت صورهم، فلما خلفت الخلوف قالوا: ما عظم هؤلاء أباؤنا إلا لأنها ترزق و تشفع و تضر فاتخذوها آلهة.

قال السهيلى: و كان بدء عبادتها فى عهد مهلاييل ابن قينان قبل نوح عليه السلام. و فى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب، و هى أسماء قوم صالحين، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسونها أنصاباً و سموها بأسمائهم فلم تعبد، فلما هلك أولئك و نسخ العلم عبدت.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: فانتهيت إلى سواع و عنده السادن قال: ما تريد؟ فقلت: أمرنى رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم وآله﴾ أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك، فقلت: لم؟ قال: يمنعك. قلت: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك و هل يسمع أو يبصر حتى يمنعنى، قال: فدنوت منه فكسرته، و أمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم نجد فيه شيئاً، ثم قلت للسادن كيف رأيت؟ فقال: أسلمت لله رب العالمين، و لم يذكر أحد عدد الذين كانوا مع عمرو رضي الله عنه.

هدم مناة

و هى سرية سعد بن زيد الأشهلى رضي الله عنه إلى مناة.

و هى صنم للأوس و الخزرج و من دان دينهم، و قيل: إنها أيضاً لهذيل و بنى كعب و خزاعة و غسان و كانت بالمشلل – جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد – و كان بعثه فى رمضان أيضاً بعد الفتح.

فخرج سعد بن زيد رضي الله عنه فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها و عليها سادن. قال السادن: ما تريد؟ قال: أريد هدم مناة. قال: أنت و ذاك – تهكما لظنه أنه لا يقدر عليه – فأقبل سعد يمشى إليها، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، أى:

منتشرة الشعر، تدعو بالويل و تضرب صدرها، فقال السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد فقتلها.

و أقبل إلى الصنم و معه أصحابه فهدموه، و لم يجدوا فى خزانته شيئاً، و انصرف راجعاً إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾. ثم ما ذكر من أن الذى ذهب لهدمها سعد بن زيد الأشهلى و ما مشى عليه فى المواهب تبعاً لطبقات ابن سعد.

و قال ابن إسحاق: إن الذى بعثه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لهدمها أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه. وفى سيرة ابن هشام أنه على بن أبى طالب كرم الله وجهه، و يمكن أن الجميع ذهبوا لذلك.

غزوة حنين

و هو اسم موضع فى طريق الطائف إلى جنب ذى المجاز، و هو سوق كان فى الجاهلية. و قيل: حنين اسم لما بين مكة و الطائف، و تسمى غزوة أوطاس و هو اسم لموضع كانت به الواقعة، و تسمى أيضاً غزوة هوازن.

و هوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر و كانت فى شوال. و سببها: أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ من مكة، جمعها مالك بن عوف النصرى من بنى نصر بن معاوية بن بكر، و كانوا مشفقين من أن يغذوهم رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ بعد فتح مكة، و قالوا: لا مانع له من غزونا، و الرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا.

و اجتمع إليه القبائل جموعا كثيرة منهم بنو سعد بن بكر و هم الذين كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مسترضعا فيهم، و معهم دريد بن الصمة، و كان شجاعا مجربا مسنا، و قد عمى و صار لا ينتفع إلا برأيه و معرفته بالحرب، لأنه كان صاحب رأى و تدبير و معرفة بالحروب.

و منهم سقيف و يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف، و ذو الخمار سبيع بن الحارث و أخوه الأحمر بن الحارث، وكان جملة من اجتمع من بنى سعد و سقيف أربعة آلاف، و انضم إليهم من أعداد سائر العرب جموع كثيرة، و كان مجموعهم كلهم ثلاثين ألفا، و جعلوا أمر الجميع إلى مالك بن عوف النصرى و كان عمره ثلاثين سنة، و اشترطوا عليه أن يأخذ برأى دريد بن الصمة.

دريد بن الصمة ينصح هوازن

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمرهم أن يسوقوا معهم مواشيهم و أموالهم و نساءهم و أبناءهم كي يثبتوا عند الحرب و لا يفروا، فلما نزلوا أوطاس، جمع الناس و فيهم دريد بن الصمة، فقال دريد: بأى واد أنتم؟ فقالوا: بأوطاس قال: نعم، مجال الخيل، لا حزن ضرس، و لا سهل دهس، مالى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبعار الشاء، وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس ذلك، فقال: يامالك إن هذا يوم له ما بعده، ما حملك على ما صنعت؟ قال: سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه و ماله، قال دريد: رويعى ضأن، و الله ما له و للحرب، أى: من كانت هذه صفته ما له و للحرب، و الله هل يرد المنهزم شئ؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه و رمحه، و إن كانت عليك فضحت فى أهلك و مالك، و قال: ما فعلت كعب و كلاب؟ قالوا: لم يشهدها أحد منهم، قال: غاب الجد و الحد، لو كان يوم علاء و رفعة، لم تغب عنه كعب و لا كلاب، وددت أنكم فعلتم ما فعلا، ثم قال: إن يومك هذا الذى تلق فيه محمدا ما بعده يوم، فقال له مالك: إنى لأطمع أن ترى ما يسرك، فقال دريد: يامالك ارفع من معك إلى عليا بلادهم، ثم الق القوم على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، و إن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك و مالك، قال مالك: و الله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت و كبر علمك، فقال لهوازن: قد شرط مالك أن لا يخالفنى و قد خالفنى، فأنا أرجع إلى أهلى فمنعوه، و قال مالك: و الله لتطيعننى يامعشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، و كره أن يكون لدريد فيها ذكر، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده و لم يفتنى، و قالت هوازن لمالك: أطعناك، فقال لهم دريد: إن هذا فاضحكم فى عورتكم يعنى النساء و الذرية، و ممكن منكم عدوكم، و لاحق بحصن ثقيف و تارككم فانصرفوا و اتركوه، فأبوا، فلما رأى دريد أنهم خالفوه، قال:

ياليتنى فيها جزع   أخب فيها و أضع
أقود وطفاء الزمع   كأنها شاة صدع

ثم أمر مالك بالخيل فجعلت صفوفاً، و جعل المشاة خلفهم، ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً، ثم جعل الإبل و البقر و الغنم وراء ذلك كى لا يفروا و يقاتلوا عن كل ذلك، ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم، و شدوا عليهم شدة رجل واحد. و بعث عيوناً ليأتوه بالخبر فرجعوا إليه و قد تفرقت أوصالهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، فو الله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى فلم ينهه ذلك.

النبى (ﷺ وآله) يخرج للقاء هوازن

و لما بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خبر هوازن و اجتماعهم و تحزبهم، أجمع المسير إليهم، وبلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أن عند صفوان بن أمية أدراعاً و سلاحاً، فأرسل إليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾– وهو يومئذ مشرك على دين قومه، و أخذ أماناً من النبى ﴿ﷺ وآله﴾، و سأله أن يعطيه مهلة شهرين، ثم إن شاء تبعه و دخل فى الإسلام، و إن شاء ذهب حيث شاء، فأعطاه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أربعة أشهر، ثم أسلم بعد ذلك ﵁– و قال له: أرنا سلاحك نلق فيه عدونا، فقال له صفوان: أغصبا يامحمد؟ فقال: بل عارية مضمونة نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح، ثم سار النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و معه ألفان من مسلمة الفتح، مع عشرة آلاف من أصحابه، فكانوا اثنى عشر ألفا و كان خروجهم من مكة يوم السبت لست خلون من شوال، و كان ﴿ﷺ وآله﴾ قبل خروجه استقرض من ثلاثة نفر من قريش: أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، و من عبد الله بن ربيعة أربعين ألف درهم، و من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فرقها فى أصحابه أهل الضعف

ليستعينوا بها، و كان ذلك عند عزمه على الخروج لحرب هوازن، ثم وفاها ﴿ﷺ وآله﴾ من غنمه من هوازن و قال: إنما جزاء السلف الحمد و الأداء. واستعار ﴿ﷺ وآله﴾ من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب و هو ابن عمه ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاثة آلاف رمح، وقال: كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين، و لما خرج ﴿ﷺ وآله﴾ خرج الناس معه، و أهل مكة ركبانا و مشاة، حتى النساء خرجن يمشين بنشاط رجاء الغنائم. و استعمل ﴿ﷺ وآله﴾ على مكة عتاب بن أسيد ﵁، و ترك معه معاذ بن جبل ﵁ يعلم الناس الأحكام والشرائع، وخرج معه ﴿ﷺ وآله﴾ من المشركين الذين أمنهم و لم يسلموا حين خروجه ثمانون رجلا، منهم صفوان بن أمية، و سهيل بن عمرو و غيرهما، و أسلما بعد ذلك رضى الله عنهما، و تقدمت قصة إسلامهما رضى الله عنهما.

النبى (ﷺ وآله) فى أرض المعركة

فلما قرب ﴿ﷺ وآله﴾ من محل العدو رتب أصحابه و وضع الألوية و الرايات مع المهاجرين و الأنصار، فلواء المهاجرين أعطاه عليا كرم الله وجهه، و قسم الرايات على كل بطن، فأعطى سعد بن أبي وقاص ﵁ راية، و أعطر عمر بن الخطاب ﵁ راية، و هكذا، و أعطى لواء الخزرج للحباب بن المنذر ﵁، و لواء الأوس لأسيد بن حضير ﵁، و جعل لكل بطن راية يحملها واحد منهم، ثم رتب قبائل العرب التى كانت معه و فرق عليهم الألوية و الرايات، و لبس ﴿ﷺ وآله﴾ درعين و البيضة والمغفر و ركب بغلته البيضاء و اسمها دلدل، و أرسل إليهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رجلا من أصحابه و هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى ﵁، و أمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم و مكث يوما أو يومين و سمع ما يقولون، ثم أتى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و أخبره أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف و عنده رءوساء هوازن، فسمعه

يقول لأصحابه: إن محمدا لم يقاتل قوما قط قبل هذه المرة، و إنما كان يلقى قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم و نساءكم و أبناءكم من ورائكم، ثم تكون الحملة منكم، و اكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف، و احملوا حملة رجل واحد، و اعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا.

و فى رواية أن ابن حدرد قال للنبى ﴿ﷺ وآله﴾: إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا و كذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم و نعمهم و شائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و قال: تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله.

ما كان أول الأمر من الفرار ثم العاقبة للمتقين

فقال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم عن قلة، فشق ذلك على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فكانت الهزيمة كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ۞ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ۞ ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٥–٢٧) و لما كان ﴿ﷺ وآله﴾ بحنين و انحدر فى الوادى و ذلك عند غبش الصبح، خرج عليهم القوم، و كانوا قد كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه، و ذلك بإشارة دريد بن الصمة فإنه قال لمالك: اجعل كمينا يكون لك عونا إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم، و كررت عليهم أنت بمن معك، و إن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد، فحملوا عليهم حملة رجل واحد. و كانت هوازن رماة فاستقبلوهم بالنبل كأنه جراد منتشر لا يكاد يسقط لهم سهم. قال جابر: فلما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما نتحدر فيه انحدارا فى عماية الصبح، و كان القوم قد سبقونا إلى الوادى، فكنوا لنا فى شعابه و مضايقه قد تهيأوا و أعدوا، فو الله ما راعنا و نحن منخطفون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة

رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون، لا يلوى أحد على أحد، و انحاز رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذات اليمين ثم قال: أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله قالها ثلاثا، ثم احتملت الإبل بعضها بعضا، إلا أنه قد بقى مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نفر من المهاجرين و الأنصار وأهل بيته، منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والعباس، وابنه الفضل، و أبو سفيان بن الحارث، و ربيعة بن الحارث، و عتبة و معتب ابنا لهب، و أيمن بن أم أيمن و استشهد يومئذ، و أسامة بن زيد.

قال: و كان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس، فإذا أدرك رجلا طعنه ثم رفع رايته لمن وراءه فاتبعوه، فحمل عليه على كرم الله وجهه فقتله.

وفى رواية: فاستقبلهم من هوازن ما لم ير مثله قط من السواد و الكثرة، وخرجت الكتائب من مضيق الوادى، فحملوا حملة واحدة فانكشفت خيل بنى سليم مولية، و كانت مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و أصحابه، فتبعهم أهل مكة و الناس فانهزموا. و قيل: إن الطلقاء و هم أهل مكة قال بعضهم لبعض، أى: قال من كان منهم إسلامه مدخولاً: أخذلوهم فهذا وقته، فانهزموا أول من انهزم، و تبعهم الناس، و لما انهزم الناس تكلم رجال من أهل مكة بما فى أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر و الأزلام معه، و قالوا: غلبت و الله هوازن. و لم يرض صفوان بن أمية بتلك المقالة – و كان ذلك قبل إسلامه – فقال لقائل ذلك: يكفيك الكثكث، أى: الحجارة و التراب. و قال هشام بن كلدة: و هو أخو صفوان بن أمية لأمه – و كان صفوان يومئذ مشركاً – الآن بطل سحر محمد، فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك، فو الله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلَى من أن يربنى رجل من هوازن. و مر رجل على صفوان هذا فقال له: أبشر بهزيمة محمد و أصحابه فو الله لا يجبرونها أبداً، فغضب صفوان و قال: أتبشرنى بظهور الأعراب، فو الله لرب من قريش، أى: مالك يدير أمرى، أحب إلَى من رجل من الأعراب. و قال عكرمة بن أبى

جهل لمن قال لا يجبرونها أبداً: ليس هذا لك و لا بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شئ، إن ديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً. و قال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأرى من محمد – و كان أبوه قتل بأحد – قال: فأردت به لأقتله فأقبل تغشى فؤادى فلم أطق ذلك، و وصلت الهزيمة إلى مكة، و سر بذلك قوم لم يتمكن الإسلام من قلوبهم و أظهروا الشماتة. و قال قائل منهم: ترجع العرب إلى دين آبائها. و ثبت الله عتاب بن أسيد و جماعة معه فلم يتغيروا عما هم عليه، حتى جاءهم البشرى بنصرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و أصحابه، و انهزام هوازن و من معهم.

الذين ثبتوا يوم حنين

و اختلف فى عدد الذين ثبتوا معه ﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ فقيل: مائة. و قيل: ثمانون. و قيل: اثنى عشر. و قيل: ثلاثمائة، و لا مخالفة لإمكان الجمع باختلاف اللحظات، فكانوا تارة قليلا، و تارة كثيرا، و تارة يجتمعون معه، و تارة يتفرقون عن يمينه و شماله يقاتلون. و عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم حنين فولى الناس و بقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين و الأنصار، فقمنا على أقدامنا و لم نولهم الدبر، و هم الذين أنزل الله عليهم السكينة، و رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على بغلته لم يمض قدما.

و كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عمه ﴿ﷺ وآله﴾ آخذ بلجام بغلته يكفها أن تتقدم فى نحر العدو. و جاء فى رواية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان آخذا باللجام. فلعله كان يمسكه تارة و العباس أخرى، و كان أبو سفيان بن الحارث و هو ابن عم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و رضي الله عنه، آخذ بركابه ﴿ﷺ وآله﴾، قال رضي الله عنه: لما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسى و بيدى السيف مصلتا والله يعلم أنى أريد الموت دون ﴿ﷺ وآله﴾، وهو ينظر إلى فقال له العباس رضي الله عنه: يارسول الله أخوك و ابن عمك أبو سفيان فارض عنه، فقال

﴿ ﷺ وآله﴾: غفر الله له كل عداوة عادانيها، ثم التفت إلى و قال: ياأخى، فقبلت رجله فى الركاب. و قال ﴿ ﷺ وآله﴾: أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة. وفى رواية: سيد فتيان أهل الجنة.

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى ﴾

و كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يركض ناحية هوازن و يقول: أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، و أخذ كفا من تراب فرماه فى وجوههم و قال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنسا إلا ملأ الله عينيه من تلك القبضة.

و جاء فى بعض الروايات: أنه حين أراد تناول التراب حادت به بغلته و مال به السرج، و كان ابن مسعود قريبا منه، قال: فقلت ارتفع رفعك الله، فقال: ناولنى كفا من التراب، فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت ترابا. و قيل: نزل و أخذ التراب بيده. و قيل: قال للعباس: ناولنى من الحصاء، فألهم الله البغلة فانخفضت به حتى كاد بطنها ليمس الأرض، فتناول من البطحاء فحثا فى وجوههم و قال: شاهت الوجوه حم لا ينصرون.

و عن مالك بن أوس قال: حدثنى عدة من قومى شهدوا ذلك اليوم يقولون لقد رمى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا شكا القذى فى عينيه، و لقد كنا نجد فى صدورنا خفقا كوقع الحصى فى الطاس، ما يهدأ ذلك الخفاق. و هذا الرمى وقع فى هذه الغزوة و فى غزوة بدر، و فى ذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧). و إلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:

ورمى بالحصى فأقصد جيشا   ما الحصا عنده و ما الإلقاء

وعن عبد الرحمن بن مولى عن رجل كان فى المشركين يوم حنين قال: لما التقينا يوم حنين نحن و أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لم يقوموا لنا حلب شاة، فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم و نحن فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو

رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا، قال: فالهزمنا و ركبوا أكتافنا.

إذا اجتمع الأحباب على النبى ﴿ﷺ وآله﴾

كان النصر و الفتح المبين

ولما رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما رأى من الهزيمة صار يقول: إلى أيها الناس إلى. قال الراوى للحديث: فلم أر الناس يلوون على شئ، فقال﴿ﷺ وآله﴾: لعمه العباس – و كان آخذا بلجام بغلته دلدل و هو عليها، و كان العباس جسيما شديد الصوت، و كان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال – : اصرخ فى الناس يامعشر الأنصار، ياأصحاب السمرة، يعنى الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان، ففعل فأجابوه لبيك لبيك، فكان الرجل يريد أن يثنى بعيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ثم يترل عنه و يؤم الصوت.

و فى رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ نادى بنفسه أيضا بعد نداء العباس فالتفت عن يمينه فقال: يامعشر الأنصار، فقالوا: لبيك لبيك أبشر يارسول الله نحن معك، قال بعض الرواة: ما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلا عطفة الإبل على أولادها. و فى رواية: أقبلوا كأهم الإبل إذا حنت على أولادها، فأمرهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار قتالا شديدا، فنظر إلى قتالهم فقال: الآن حمى الوطيس(و هو التنور يخبز فيه) يضرب مثلا لشدة الحرب التى يشبه حرها حر التنور، و هذا من فصيح الكلام، و لم يسمع من أحد قبل النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فولى المشركون الأدبار، و المسلمون يقتلون و يأسرون فيهم.

و كان فى ركوبه ﴿ﷺ وآله﴾ البغلة فى هذا الموطن الذى هو موطن الحرب و الطعن والضرب تحقيق لنبوته، كما خصه الله به من مزيد الشجاعة و تمام القوة، و إلا فالبغال عادة من مراكب الطمأنينة و الأمن، و لا يصلح لمواطن الحرب فى العادة إلا الخيل،

لأن الخيل مخلوقة للكر و الفر بخلاف البغال و الإبل. . فبين ﴿ ﷺ وآله﴾ أن الحرب عنده كالسلم قوة قلب، و شجاعة نفس، و ثقة بالله، و توكلا عليه. و قد أجمعت الصحابة ؓ أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ما انهزم مع من انهزم، بل صار يقدم فى وجه العدو، بل ما انهزم فى موطن قط، و قد انعقد الإجماع على ذلك. قال القاضى عياض: من قال إنه انهزم يستتاب، فإن تاب و إلا قتل.

و لما انهزم المشركون تبع أثرهم المسلمون قتلا و أسرا حتى حدث بعض من هوازن بعد إسلامه قال: ما خيل لنا إلا أن كل حجر و شجر فارس يطلبنا، و أنزل الله من الملائكة خمسة آلاف. و قيل: ستة عشر ألفا. فقيل: إنهم قاتلوا. و قيل: لم يقاتلوا، و إنما نزلوا لإلقاء السكينة فى قلوب المؤمنين، بإلقاء الخواطر الحسنة.

و جاء أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ رفع يديه و دعا و قال: اللهم أنشدك ما وعدتنى، اللهم لا ينبغى أن يظهروا علينا، اللهم كنت و تكون و أنت حى لا تموت، تنام العيون و تنكدر النجوم و أنت حى قيوم، لا تأخذه سنة و لا نوم، ياحى ياقيوم، اللهم إن تشأ أن لا تعبد بعد اليوم، اللهم لك الحمد و إليك المشتكى و أنت المستعان. فقال له جبريل عليه السلام لقد لقنت الكلمات التى لقن الله موسى يوم فلق له البحر، كان البحر أمامه و فرعون خلفه و اجتلد الناس.

فو الله ما رجعت راجعة المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتوفين عند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، و لما انعطف المسلمون راجعين بعد أن انتهوا فى قتالهم هوازن إلى قتل الذرية، نهاهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن قتل الذرية و قال ﴿ ﷺ وآله﴾: من قتل قتيلا فليسلبه.

روى أن أبا طلحة الأنصارى ؓ قتل وحده عشرين قتيلا و أخذ أسلابهم، وأدرك ربيعة بن رفيع السلمى دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله و هو يظن أنه امرأة، فإذا هو شيخ كبير أعمى و لا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد؟ فقال: أقتلك، قال: و

من أنت؟ قال: ربيعة بن رفيع السلمى، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا فقال له دريد: يسخر به بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم أضرب به و ارفع عن العظام و اخفض عن الدماغ، فأنى كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم قد منعت نساءك، فقتله. فلما أخبر ربيعة أمه بقتله قالت له: أما و الله لقد أعتق اثنين بل ثلاثا، هلا تكرمت عن قتله كما أخبرك بمنه علينا، فقال: ما كنت لأتكرم عن رضاء الله و رسوله. و قيل: القاتل لدريد الزبير بن العوام ﵁. و كانت أم سليم رضى الله عنها مع زوجها أبى طلحة زيد بن سهل الأنصارى ﵁ و كانت رضى الله عنها حازمة وسطها ببرد لها و فى حزامها، و كانت حاملا بابنها عبد الله بن أبى طلحة فقال لها زوجها: ما هذا الخنجر الذى معك يأم سليم؟ قالت: إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به، فقال أبو طلحة: ألا تسمع يارسول الله ما تقول أم سليم، فأعاد عليه القول، فجعل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يضحك، و قالت أم سليم رضى الله عنها للنبى ﴿ﷺ وآله﴾: بأبى أنت و أمى يارسول الله أقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: إن الله قد كفى و أحسن، أى: قد غفر لهم، كما قال تعالى: ﴿وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ۞ ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٦،٢٧).

وجرح خالد بن الوليد جراحات أثقلت به. و عن بعض الصحابة ﵁ قال: رأيت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ – بعد ما هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم– يمشى فى المسلمين و يقول: من يدلنى على رحل خالد بن الوليد حتى دل عليه، فوجده قد أسند إلى مؤخرة الرحل، لأنه أثقل بالجراحة فتفل ﴿ﷺ وآله﴾ فى جراحاته فبرأ لوقته.

نزول الملائكة يوم حنين

وعن جبير بن مطعم ؓ قال: لقد رأيت قبل هزيمة هوازن و الناس يقتتلون، شيئا أسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا و بين القوم، فإذا نمل مبثوث قد ملأ الوادى، فلم أشك أنه الملائكة، و لم تكن إلا هزيمة القوم.

و عن جمع من هوازن قالوا: لقد رأينا يوم حنين رجالا بيضا على خيل بلق، عليهم عمائم صفر قد أرخوها بين أكتافهم، بين السماء و الأرض، كتائب لا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم.

عدد القتلى و الغنائم

و كان جملة من قتل من المسلمين فى هذه الوقعة أربعة فقط، و قتل من المشركين وقت الحرب أكثر من سبعين. قيل: و فى الانهزام أكثر من ثلاثمائة، و أسر منهم خلق كثير، و من النساء ستة آلاف نفس، و غنم المسلمون من الإبل أربعة و عشرين ألف بعير، و من الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، و من الفضة أربعة آلاف أوقية، و لم يذكروا عدد البقر لأنها كانت قليلة بالنسبة لما ذكر.

و لما وقعت هزيمة هوازن أسلم كثير من كفار مكة وغيرهم، لما رأوا من نصر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

و عن عائذ بن عمرو ؓ قال: أصابتنى رمية يوم حنين فى جبهتى، و سال الدم على وجهى وصدرى، فسلت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بيده عن وجههى و صدرى إلى ترقوتى، ثم دعا لى فصار أثر يده غرة سائلة كغرة الفرس.

و لما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس فأرسل إليهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبا عامر الأشعرى ؓ كما سيأتى على الأثر.

الحقائق و الأسرار العلية لهذه الغزوة

كشف الله لنا بتلك الغزوة حقائق لم نكن لنعلمها، و أسرارا لم نكن لندركها، بين لنا سبحانه و تعالى أن أحوال سيدنا و مولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ كلها خارقة للعادة، وأنها من الله مباشرة سبحانه، و أنها فوق الأسباب و فوق العقل، و أن الإسلام دينه الحق، تولاه بنفسه، و نصره بلا سبب، و نشره فى المنافقين نشرا أعجز العقول، و أدهش الأفكار.

أنظر إلى غزوة حنين بعد أن فتح الله لرسوله مكة، و دانت قريش للإسلام، ومحى الله الأصنام و الضلال، و خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ لهوازن و جموعهم و معه المهاجرون والأنصار ﵃ و مسلمة الفتح، نظر بعض الصحابة إلى الجيش و كثرته، وإلى ما كانوا فيه من القلة قبل فقالوا: متى لقاء العدو؟ و قال آخرون: لم نغلب من قلة، فكأنهم نسوا أن الدين دين الله، و أن سيدنا و مولانا محمدا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأن الله نصره، وأيده بروحه سبحانه و تعالى، و أمده بملائكته فى مواطن كثيرة، فكان نسيانهم من فرحهم بفتح الله لهم مكة، و كانت تلك الكلمات الصادرة عن قلوب الصحابة دالة على أن السرور بالفتح حجب الأنفس عن مشاهده كمال التوحيد، الذى ينبغى أن يكون عليه أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، غضب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و قال لمن قال متى لقاء العدو: لا تتمنوا لقاء العدو و لكن سلوا الله العافية. ومعلوم أن الله جل جلاله إذا أحب قوما أمدهم بروح منه، فحفظهم من النسيان و الغفلة، و جذبهم إليه بالآيات الدالات على تنزيهه سبحانه عن أن يحتاج فى إعلاء كلمته إلى كثرة الخلق أو قلتهم، أو أن يحتاج فى إعزاز رسله إلى الجيوش و الجموع، و أقام الحجة عليهم، فلما أن التقى الجيشان انهزم أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و لم يبق معه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا أفراد بنى هاشم.

و أحدق هذا الجيش المستقبل به ﴿ ﷺ وآله﴾ و هو على بغلته، لعلك علمت أنهم جاءوا بنسائهم و ذراريهم و أموالهم حتى يدافعوا مدافعة من لا ينهزم، فقبض ﴿ ﷺ

وآله﴾ قبضة من التراب و رماهم بها، فما بقى رجل منهم إلا و ملأ الله عينيه ترابا، وهى رمية الله حقا، و قضاء الله المبرم على أعدائه، ثم تراجع الصحابة ﵃ فوجدوا القوم فى هزيمة، فعلموا حق العلم أن دين الله يعليه بنفسه، و أن أعداء الله ينتقم الله منهم بنفسه، و أن الكثرة لا تغنى من الله شيئا.

تجلت أنوار التوحيد لأصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بتلك الحادثة، حتى علموا حق العلم أن الفاعل المختار يفعل ما يشاء، لا يمنع قضاؤه كثرة العدد و العدد، و لا ينصر دينه الحق إلا على أيدى من كمل توحيدهم، و لو أن رجلا واحدا مؤمنا كامل الإيمان مخلصا تحقق بكمال التوحيد، و قام مخلصا لله، لأمده الله تعالى بما به يهلك أعداءه، و يجدد سنن نبيه ﴿ﷺ وآله﴾.

نصر الله رسوله بآية كبرى هى قبضة من الحصباء ملأت العيون و القلوب رعبا، و العقول حيرة، حتى فر الجيش لا يلوى على أحد، تركوا أموالهم و أعراضهم و أبناءهم، حتى كأن أبواب جهنم فتحت، فتبرأ الوالد من ولده، و الوالدة من ولدها، و أكرم الله رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بنصرته، و حيزت الأموال كلها للمجاهدين فى سبيل الله.

أنظر بعين بصيرتك إلى كلمة قالها صحابى لم يلق لها بالا كيف أثرت و أدت إلى غيرة الواحد الأحد، الذى يحب أن يكون أصحاب نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ و التابعين لهم فى فناء عن مدادهم، و عن سوى الحق، لا يشهدون لأنفسهم حولا و لا قوة لإشراق أنوار التوحيد على قلوبهم، و لتحققهم أن الفاعل المختار هو الله الواحد الأحد، هذا و هم صفوة الله من خلقه، و حزب الله من عباده، و المهاجرون إلى الله و رسوله، و أنصار الله و رسوله، آخذهم الله بكلمة فأقام عليهم الحجة البالغة، حتى طهرت نفوسهم، و عمرت بكمال التوحيد قلوبهم، و شاهدت أنوار الوحدانية أسرارهم، و من منحهم الله المحبة أدبهم على صغير الأمر و كبيره، أعوذ بوجهه العظيم من الاستدراج، و من

أحوال من كرههم الله تعالى الذين قال فيهم: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف:١٨٣).

بعد أن نصر الله نبيه ﴿ﷺ وآله﴾، و صارت الغنيمة له ﴿ﷺ وآله﴾، تجلت كمالاته المحمدية، وبسط بساط رحمته و رأفته لكل وارد، فهطل سيب فضله على مسلمة مكة تمكينا للإسلام فى قلوبهم، و محوا للأحقاد منها، و لتطمئن القلوب من جهته ﴿ﷺ وآله﴾، ولتزول الأضغان منها، وتبدل بمحبة الله و رسوله ﴿ﷺ وآله﴾، و هذه هى حقيقة الرحمة والرأفة المتصف بها ﴿ﷺ وآله﴾، و الحجة البالغة على أنه ﴿ﷺ وآله﴾ رسول الله حقا، لا قيمة للدنيا و ما فيها عنده ﴿ﷺ وآله﴾، بل الدنيا و ما فيها لا يساوى جناح بعوضة عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، و يجب أن يكون كل مؤمن أكرمه الله بصحبة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ متشبها به ﴿ﷺ وآله﴾، بل و كل تابع لأصحابه ﴿ﷺ وآله﴾.

سعى إبليس لعنة الله عليه أن يدس دسيسة على الصحابة بسبب منح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الأموال لقريش، و أدخل فى قلوبهم أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقيم مع قريش. فقال بعضهم: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حن لقومه و وطنه بمكة، و كان هذا الكلام فاتحة لكلام آخر، نعوذ بالله من وسوسة الشيطان و خبثه، فشرح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ صدور الأنصار و أذهب الله كيد إبليس، فقام الشيطان لعنة الله عليه و هم أن يدخل فى قلوب بعض الأحداث ما يحزنها لمنح الأموال لمسلمة الفتح، حتى كثر الكلام فى هذا الموضوع، وبلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو ﴿ﷺ وآله﴾ الرؤف الرحيم بالمؤمنين، فاستأصل ﴿ﷺ وآله﴾ شأفة المرض بالحكمة المحمدية التى هى عن رأفةورحمة وحرص، حتى ملأ الله قلوبهم يقينا و رضى بما فعل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، و فرحا بما أبدلهم الله من الغنيمة، لأن الله سبحانه وتعالى أرجع العرب بالشاء والإبل، و أرجع الأنصار برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و شتان بين العطيتين، و أخزى الله الشيطان

و جنوده، و أنزل الله تعالى الآيات المبينات قال سبحانه و تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣). فبين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه إنما يجاهد فى سبيل الله لا للغنيمة، بل لإعلاء كلمة الله، و نجاة العالم من هول يوم القيامة.

أظهر ﴿ ﷺ وآله﴾ فى قسمة الغنيمة بعمله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما كشف للمؤمن الحجاب عن حقيقة الدنيا وحقارتها عند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ يبذلها للأعداء ليتألفهم و ينجيهم بها من عذاب يوم القيامة، ليعلم المؤمنين بعمله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما لابد أن يعملوا به. و يبين لهم حكمة الجهاد فى سبيل الله أن المراد به إعلاء كلمة الله تعالى لا الأثرة بالأموال والعلو على العباد، و قهرهم بالجبروت و القوة، ف﴿ ﷺ وآله﴾ أغدق الأموال إغداقا على أشهر الناس عداوة له، و نفورا منه، و كفرا به، مع تمكين الله إياه منهم، حتى أبدل الله تلك القلوب القاسية، و الطباع الجافية، و النفوس اللقسة، بقلوب عقدت على محبته ﴿ ﷺ وآله﴾، ونفوس فطرت على الإخلاص له ﴿ ﷺ وآله﴾، وأخلاق هينة لينة فى طاعته ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى كأنهم ولدوا ولادة روحانية، بعد أن تجلت لهم أخلاقه الطاهرة، ومقاصده المحمدية، و تحققوا حق يقين أنه رسول الله حقاً لا غاية له فى الدنيا و ما فيها، و أن الدنيا و ما فيها لا تساوى جناح بعوضة فى نظره ﴿ ﷺ وآله﴾، وبلغت رحمته الواسعة بهم مبلغاً حتى صاروا رحماء فى نفس المجلس، ومن سعة تلك الرحمة زهدوا فى الدنيا زهداً دام لهم حتى فارقوها، برهان ذلك ما سيأتى لك عن سيدنا حكيم بن حزام، و عن سيدنا صفوان، و عن أبى سفيان و غيرهم، فإن الله تعالى أبدلهم حتى صاروا كأنهم روحانيون ملائكة مقربون.

تجلت تلك الحقائق فازداد الذين آمنوا إيماناً مع الإيمان من مسلمة الفتح، و اطمأنت القلوب بفعله ﴿ﷺ وآله﴾، و أحق الله الحق بكلماته، و أبطل الباطل، و نادى لسان الحال فى عالم الملك: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١). أسأل الله تعالى أن يهبنا عقلاً نفقه به سيرة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وتنكشف لنا به حكمة أعماله ﴿ﷺ وآله﴾، مع التشبه به ﴿ﷺ وآله﴾، و حسن الاقتداء بهديه ﴿ﷺ وآله﴾

غزوة الطائف

و ذلك أنه ﴿ﷺ وآله﴾ حين خرج من حنين و حبس الغنائم بالجعرانة، سار إلى الطائف، وجعل خالد بن الوليد على مقدمته فى ألف من أصحابه.

و كانت ثقيف لما انهزموا دخلوا حصنهم بالطائف و أغلقوه عليهم، بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم من القوت لسنة، و تهيأوا للقتال و كان معهم مالك بن عوف و جمع من أشراف قومه.

و مر ﴿ﷺ وآله﴾ فى طريقه بحصن لمالك بن عوف فأمر به فهدم، و مر بحائط، أى: بستان، لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إما أن تخرج، و إما أن نحرق عليك حائطك، فأبى أن يخرج منه، فأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بإحراقه.

و لما كان ﴿ﷺ وآله﴾ ببحرة الرغاء قبل وصوله إلى الطائف، قتل بها رجلاً من بنى ليث قصاصاً، كان قد قتل رجلاً من هذيل، فأمر بقتله، و هو أول دم أقيد به فى الإسلام.

و لما وصل خالد ؓ الطائف نزل بمن معه من المسلمين قريباً من الحصن، وعسكر هناك فرموا المسلمين رمياً شديداً، حتى أصيب كثير من المسلمين بجراحات، و قتل من المسلمين اثنا عشر رجلاً، منهم عبد الله بن أمية المخزومى ؓ– و هو أخو أم سلمة رضى الله عنها – و أصيب عين أبى سفيان ؓ، فأتى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و عينه فى يده

فقال: يارسول الله هذا عينى أصيب فى سبيل الله، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾: إن شئت دعوت فردت عليك، و إن شئت فعين من الجنة، قال: فى الجنة و رمى بها من يده رضي الله عنه.

النبى (ﷺ وآله) يحاصر الطائف

ولما وصل ﴿ﷺ وآله﴾ الطائف نزل قريباً من الحصن، ثم لما قتل من المسلمين ارتفع إلى موضع مسجد الطائف اليوم و حاصرهم. قال ابن سعد: و كانت مدة حصارهم ثمانية عشر يوماً. و قيل: خمسة عشر يوماً. و قال ابن هشام: سبعة عشر يوماً. و قيل: أربعين يوماً. و قيل: غير ذلك. و نصب ﴿ﷺ وآله﴾ منجنيقا أشار به سلمان الفارسى رضي الله عنه، بل قيل: إنه صنعه بيده و قاتلهم قتالاً شديداً.

و أقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ينادى أهل الحصن و يقول: من يبارز؟ فلم يطلع عليه أحد، و ناداه عبد ياليل: لا ينزل إليك منا أحد، و لكن نقيم فى حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يذهب ذلك الطعام، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا، و ما زالوا يقاتلوا حتى كان يوم الشدخة عند جدار الطائف، دخل نفر من المسلمين تحت دبابة عملوها، ثم زحفوا بها إلى الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة لأنهم فطنوا لهم، فخرجوا من تحتها فرماهم من بالطائف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً. و الدبابة آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود، يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها.

فلما رماهم من بالطائف بالنبل أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بقطع أعنابهم و تحريقها، فقطع المسلمون قطعا زريعاً. فسألوه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يدعها لله و للرحم، فأجابهم لذلك ودعها، و نادى منادى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أيما عبد نزل من الحصن و

خرج لنا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، و قيل: ثلاثة و عشرون، ونزل منهم شخص في بكرة، فقيل له: أبو بكرة نقيع بن الحارث عبداً لحرث بن كلدة.

فلما أسلم أهل الطائف تكلمت سادات أولئك العبيد في أن يردهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرق، فقال: لا أفعل، أولئك عتقاء الله، و دفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

و أستأذن عيينة بن حصن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في أن يأتي ثقيفاً في حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام، فأذن له في ذلك، فأتاهم فدخل حصنهم فقال لهم: تمسكوا في حصنكم فو الله لنحن أذل من العبيد، و لا تعطوا بأيديكم، و لا يشق عليكم قطع هذا الشجر، ثم رجع إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له: ما قلت لهم ياعيينة؟ قال: أمرتهم بالإسلام و دعوتهم إليه، و حذرتهم النار، و دللتهم على الجنة. فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: كذبت، إنما قلت لهم كذا و قص عليه القصة. فقال: صدقت يارسول الله أتوب إلى الله و إليك من ذلك.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يأذن بالرحيل

و لم يؤذن لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى فتح الطائف، ثم أن خويلة بنت حكيم السلمية وهى امرأة عثمان بن مظعون قالت: يارسول الله أعطنى إن فتح الله عليك الطائف حليَّ بادية بنت غيلان، أو حلىَ الفارعة بنت عقيل – و كانتا من أكثر النساء حلياً – فقال لها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أرأيت إن كان لم يؤذن لى فى ثقيف، ياخويلة و ما أظن أن نفتحها الآن.

فخرجت فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ﵁ فدخل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: يارسول الله ما حديث حدثتنيه خويلة أنك قد قلته لها، قال: قد قلت، قال: أو ما أذن الله فيهم يارسول الله؟ قال: لا، قال: أفلا أوذن بالرحيل يارسول الله ؟ قال: بلى، فأذن بالرحيل.

و قيل: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استشار نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب أو المقام عليهم فقال: يارسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته، و إن تركته لم يضرك، فأذن بالرحيل ﴿ﷺ وآله﴾.

قال ابن اسحق: و بلغنى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال لأبى بكر الصديق ﵁: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: و أنا لا أرى ذلك.

الحكمة فى عدم فتح الطائف

و كأن الحكمة فى أنه لم يؤذن له ﴿ﷺ وآله﴾ فى فتح الطائف ذلك العام أن لا يستأصل أهل ذلك الحصن قتلا، فأخر الله سبحانه و تعالى أمرهم حتى جاءوا طائعين مسلمين (كما سنذكر ذلك فى الوفود).

ولما أذن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل،ضج الناس من ذلك، و قالوا: نرحل و لم يفتح علينا، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: فاغدوا على القتال، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: إنا

قافلون إن شاء الله فسروا بذلك و أذعنوا، و جعلوا يرحلون و رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يضحك تعجبا من سرعة تغير رأيهم، لأنهم ﵃ رأوا أن رأيه ﴿ﷺ وآله﴾ أبرك وأنفع من رأيهم فرجعوا إليه، و قال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، و نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. فلما ارتحلوا قال: قولوا آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

فلما رجع الناس قال رجل: يارسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف، فقال: اللهم اهد ثقيفا و ائت بهم مسلمين.

و رحم اللّه البوصيرى حيث يقول:

جهلت قومه عليه فأغضى وأخوا الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علما و حلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

ولما رأت ثقيف الناس قد رحلوا عنهم نادى سعيد بن عبيد الثقفى ألا إن الحى مقيم، فقال عيينة بن حصن: أجل و الله مجدة كراما، فقال رجل من المسلمين: قاتلك الله ياعيينة أتمدحهم بالامتناع من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، قال: إنى و الله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفا، و لكنى أردت أن أصيب من ثقيف جارية لعلها تلد لى رجلا، فإن ثقيفا قوما مناكير.

إسلام سراقة بن مالك

و عند انحداره ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الجعرانة لقيه سراقة بن مالك، و هو واضع للكتاب الذى كتبه له ﴿ﷺ وآله﴾ عند الهجرة بين أصبعيه، و ينادى أنا سراقة و هذا كتابى، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: هذا يوم وفاء و مودة، أدنوه فأدنوه منه فأسلم رضي الله عنه، و سأل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذى ملأه لإبله هل له فى ذلك أجر؟ فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: نعم فى كل ذات كبد حراء أجر.

إحصاء الغنائم و إسلام هوازن

و لما وصل ﴿ﷺ وآله﴾ الجعرانة أمر بإحصاء السبى فكان كما تقدم ستة آلاف من النساء و الذرية و الأسرى، و من الإبل أربعة و عشرون ألفا، ومن الغنم أكثر من أربعين ألفا، و من الفضة أربعة آلاف أوقية، غير ما يتبع ذلك من الأمتعة. . و كان ﴿ﷺ وآله﴾ قد انتظر قدوم هوازن و تربص بهم اثنى عشر ليلة، ثم بدأ بقسمة الغنائم فقسمها، ثم قدم عليه هوازن مسلمين و رد عليهم السبى كما سيأتى، و سألهم عن رئيسهم مالك بن عوف النصرى، فقالوا: هو مع ثقيف بالطائف، فقال: أخبروه أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله و ماله و أعطيته مائة من الإبل، فلما أخبروا مالكا بذلك ركب مستخفيا فأدرك النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بالجعرانة، وقيل: بمكة، فرد عليه أهله و ماله و أعطاه مائة من الإبل كما وعد ﴿ﷺ وآله﴾، فأسلم وحسن إسلامه.

و قال حين أسلم يمدح النبى ﴿ﷺ وآله﴾:

ما إن رأيت و لاسمعت بمثلــه   فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى أعطى للجزيل إذا احتدى   ومتى تشا يخبرك عما فى غد
فكأنه ليث على أشبالـــــــــه   وسط الهباة جآذر فى مرصد

واستعمله ﴿ﷺ وآله﴾ على من أسلم من قومه ﵁ و ﵁، فكان يقاتل بهم ثقيفا، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، و ضيق عليهم حتى أسلموا، و شهد فتح القادسية و دمشق فى خلافة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁.

و لما جاء وفد هوازن إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن قسم الغنائم سألوه أن يرد عليهم سبيهم و أموالهم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: مع من ترون – يعنى من المسلمين – و قد اسأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، و قد قسمت، فاختاروا إما السبى و إما المال، فاختاروا السبى فكلم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المسلمين فى رد سبيهم عليهم فردوه كلهم، إلا عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزا كبيرا و قال: هذه أم الحى لعلهم أن يغلوا فداءها ثم ردها بست فرائض كما سيأتى.

أخته و أمه ﴿ﷺ وآله﴾ من الرضاع فى السبى

و كانت فى السبى أخته ﴿ﷺ وآله﴾ من الرضاع و هى الشيماء. و قيل أمه حليمة، و لا مانع من أن يكونا جميعا، فقالت أخته ﴿ﷺ وآله﴾: أنا أختك، فقال لها: و ما علامة ذلك؟ فذكرت له علامة فعرفها و تذكرها، و قام فبسط لها رداءه و صنع مثل ذلك بأمه حليمة حين جاءته ﴿ﷺ وآله﴾. و قيل: إن قومها قالوا لها: إن هذا الرجل أخوك فلو أتيته فسألتيه فى قومك لرجونا أن يحابينا، فأتته فقالت: أتعرفنى؟ قال: من أنت؟ قالت: أنا أختك بنت أبى ذؤيب و آية ذلك كذا، فرحب بها فاستوهبته السبى و هو ستة آلاف فوهبهم لها، فما عرفت مكرمة مثلها، و لا امرأة أيمن على قومها منها. و خيرها ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: أن أحببت فعندى محببة مكرمة، وأن أحببت أن أمتعك و ترجعى إلى قومك، قالت: بلى تمتعنى و أرجع إلى قومى، فأعطاها نعما و شاء و غلاما يقال له مكحول و جارية. و قيل: أعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعما وشاء.

عمه ﴿ﷺ وآله﴾ من الرضاع فى السبى

و جاءه ﴿ﷺ وآله﴾ أبو صرد و يكنى بأبى برقان و كان عما له ﴿ﷺ وآله﴾ من الرضاع فقال: يارسول الله أنا أصل و عشيرة، و قد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، وأن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات و العمات و الخالات و نرغب إلى الله و إليك يارسول الله. و قال زهير بن صرد: يارسول الله إن ما فى الحظائر عماتك و خالاتك و حواضنك اللاتى كن يكفلنك، أى: لأن مرضعته حليمة كانت من هوازن، لو أرضعنا للحرث بن أبى شمر ملك الشام، أو للنعمان بن المنذر ملك العراق، ثم نزل بنا مثل ما نزلت بنا، لرجونا عطفه و عائدته علينا، و أنت خير المكفولين، ثم أنشد أبياتا يستعطفه بها منها قوله:

أمنن علينا رسول الله فى كـــــرم   فإنك المرء نرجوه و ننتظـــــر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها   إذ فوك يملؤه من محضها الدرر
إنا نؤمن عفوا منك تلبســـــــــه   هذى البرية أن تعفو و تنتصـــر
فالبس العفو من قد كنت ترضعه   من أمهاتك إن العفو مشتـــــهر

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يرد سبى هوازن

فقال ﴿ﷺ وآله﴾: إن أحسن الحديث أصدقه، أبناؤكم و نساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبى و إما المال، و قد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون. و فى رواية قال لهم: قد وقعت المقاسم مواقعها فأى الأمرين أحب إليكم السبى أم الأموال؟ و فى رواية قال لهم: أما مالى و لبنى عبد المطلب فهو لكم.

ثم قال لهم: أنا إن صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نشفع برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المسلمين، و بالمسلمين إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى أبنائنا و نسائنا و أظهروا إسلامكم، و قولوا: نحن إخوانكم فى الدين، فسأسأل لكم الناس.

فلما صلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاءونا تائبين، و إنى قد رأيت أن أرد إليهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، و من أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفئ الله علينا فليفعل، و قال: أما ما كان لى و لبنى عبد المطلب فهو لكم، و قال المهاجرون و الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، و قال الأقرع بن حابس: ما كان لى ولبنى تميم فلا، و قال عيينة بن حصن: ما كان لى و لفزازة فلا، و قال عباس بن مرداس: ما كان لى و لسليم فلا، فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقال:

وهنتمونى، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: من تمسك بحقه من السبى فله بكل إنسان ست فرائض، من أول شئ نصيبه فردوا على الناس أبناءهم و نساءهم، ورد ﴿ﷺ وآله﴾ جميع السبى، و لم يتخلف منه أحد إلا عجوز من عجائزهم كانت عند عيينة بن حصن كما تقدم، فأبى أن يردها، و قال حين أخذها: أرى عجوزاً إنى لأحسب أن لها فى الحى نسباً، و عسى أن يعظم فداؤها، فمرَ عليه ولدها و هو زهير بن صرد فسامها منه و أعطاه مائة من الإبل فيها، فأبى عيينة وطمع فى الزيادة، فتركه و ذهب و غاب عنه ثم مرَ عليه معرضاً، فقال له عيينة: خذها بالمائة، فقال: لا أدفع إلا خمسين فأبى عيينة، فغاب عنه ثم مرّ معرضاً فقال: خذها بالخمسين فقال: لا أدفع إلا خمسة و عشرين فأبى عيينة، فغاب عنه ثم مرّ عليه معرضاً فقال: خذها بالخمسة و العشرين، فقال: لا أخذها إلا بعشرة فأبى عيينة، فغاب عنه ثم مرّ معرضاً فقال: خذها بالعشرة، فقال: لا أخذها إلا بستة، و الله ما ثديها بناهد، و لا بطنها بوالد، و لا فوهاً ببارد، و لا صاحبها بواجد عند فوقها، أى: حزين، و لا ردها بناكد، أى: غزير، فقال له عيينة: خذها لا بارك الله لك فيها. و ذلك بسبب دعائه ﴿ﷺ وآله﴾ فإنه دعا على من أبى أن يرد من السبى شيئاً أن يبخس، أى: يكسد ثمنه، و لما أخذها ولدها قال لعيينة: إن

رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كسا السبى قبطية، فقال: لا و الله ما ذاك لها عندى فى فارقة حتى آخذ لها منه ثوباً (و القبطية بضم القاف ثوب أبيض من ثياب مصر منسوبة للقبط).

و روى أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمر رجلاً أن يقدم مكة فيشترى للسبى ثياباً فلا يخرج الحر منهم إلا كاسياً، و أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بحبس أهل مالك بن عوف النصرى عند عمته عاتكة أم عبد الله بن أبي أمية المخزومى، حتى جاء مالك فسلم إليه أهله، و كان الوفد كلموه ﴿ﷺ وآله﴾ فى ذلك، فقال: إنما أريد بهم الخير، و لم يجز أن تجرى السهمات فى مال مالك بن عوف حتى حضر و رده عليه، و زاده مائة من الإبل.

قسمة الغنائم

أخرج البخارى عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصارى قال: لما أفاء الله على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم، و المؤلفة قلوبهم هم أناس أسلموا يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً.

و قد سرد ابن طاهر فى المبهمات له أسماءهم و هم: أبو سفيان بن حرب، و سهيل بن عمرو، و حويطب بن عبد العزى، و حكيم بن حزام، و أبو السنابل ابن بمكك، و صفوان بن أمية، و عبد الرحمن بن يربوع، و هؤلاء من قريش. و عيينة بن حصن الفزازى، و الأقرع بن حابس التميمى، و عمرو بن الأهتم التميمى، و العباس بن مرداس السلمى، و مالك بن عوف النصرى، و العلاء بن حارث الثقفى قال بن حجر: و فى ذكر الأخيرين نظر، فقيل: إنما جاءا طائعين من الطائف إلى الجعرانة.

و ذكر الواقدى فى المؤلفة معاوية و يزيد ابنى أبي سفيان، و أسيد بن حارثة، و مخرمة بن نوفل، و سعيد بن يربوع، و قيل: ابن عدى، و عمرو بن وهب، و هشام بن عمرو، و زاد بن إسحاق: النضر بن الحارث، و الحارث بن هشام، و جبير بن مطعم،

و ممن ذكره فيهم: أبو عمر سفيان بن عبد الأسد، و الثائب بن أبي الثائب، و مطيع بن الأسود، و أبو جهم بن حذيفة.

و ذكر ابن الجوزى فيهم: زيد الخيل، و علقمة بن علاثة، و حكيم بن طلق بن سفيان بن أمية، و خالد بن قيس السهمى، و عمير بن مرداس. و ذكر غيرهم فيهم: قيس بن مخرمة، و أحيحة بن أمية بن خلف، و ابن أبي شريف، وحرملة بن هوذة، وخالد بن هوذة، وعكرمة بن عامل العبدرى، وشيبة بن عمارة، وعمرو بن ورقة، ولبيد بن ربيعة، و المغيرة بن الحارث، و هشام بن الوليد المخزومى. . فهؤلاء زيادة على الأربعين نفساً، قاله فى الفتح.

الى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقسم الغنائم فى المؤلفة قلوبهم

لما رجع ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الجعرانة قسم الغنائم و بدأ بالمؤلفة قلوبهم، و هم ناس من قريش أسلموا يوم الفتح أسلاماً ضعيفاً، و أراد ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يتمكن الإيمان فى قلوبهم، و كان فيهم من لم يسلم بعد ثم أسلم كصفوان بن أمية.

و لما جمعت الغنائم و أحصيت، جاء أبو سفيان إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما رأى كثرة المال قال: يامحمد أصبحت أكثر قريش، فتبسم ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم أعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من فضة، فقال يارسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: ابنى معاوية و يزيد فأعطاه لكل واحد منهما مائة من الإبل و أربعين أوقية من فضة، فأخذ أبو سفيان و ابناه ثلاثمائة من الإبل و مائة و عشرين أوقية من الفضة، فقال أبو سفيان: بأبى أنت و أمى يارسول الله لأنت كريم فى الحرب، و كريم فى السلم، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، و سالمتك فنعم المسالم كنت، هذا غاية الكرم، جزاك الله خيراً. و جاء حكيم بن حزام فسأل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأعطاه مائة من الإبل، ثم سأل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأعطاه مائة، ثم سأله فأعطاه مائة ثم قال له: ياحكيم هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، و من أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، و كان كالذى

يأكل و لا يشبع، و اليد العليا خير من اليد السفلى، فأخذ حكيم المائة الأولى و ترك ما عداها و قال: يارسول الله و الذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر ﵁ يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم كان عمر ﵁ فى زمن خلافته يدعوه ليعطيه فيأبى أن يقبل، فكان عمر ﵁ يقول: يامعشر المسلمين إنى أعرض على حكيم حقه الذى قسم الله له فى هذا الفئ فيأبى أن يقبله ﵁.

و الذين أعطاهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مائة من الإبل كثير، منهم: أبو سفيان و ابناه يزيد ومعاوية، و حكيم بن حزام، و الأخنس بن شريق، و جبير بن مطعم، و الجد بن قيس السهمى، و الحارث بن الحارث بن هشام. أخو أبو جهل، و حاطب بن عبد العزى، و حرملة بن هوذة، و حويطب بن عبد العزى، و حكيم بن طليق، و خالد بن أسيد، و خلف بن هشام، و زهير بن أبى أسيد، و زيد الخيل، و السائب بن أبى السائب، و صيفى بن عائذ، و سهل و سهيل ابنا عمرو، و شيبة بن عثمان الحجبى، و عبد الرحمن بن يعقوب الثقفى، و سفيان بن عبد الأسد المخزومى، و صفوان بن أمية، و كان قد خرج معه مع من خرج و هو على شركه، فأعطاه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مائة ثم مائة ثم وادياً مملوءاً إبلاً و غنماً، فلم يزل يعطيه حتى أسلم ﵁.

وممن أعطاه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مائة الأقرع بن حابس التميمى،وعيينة بن حصن الفزارى، و أعطى العباس بن مرداس السلمى دون المائة، و كان مثلهما رئيساً على قومه، كما أنهما رئيسان على قومهما فقال يخاطب النبى ﴿ﷺ وآله﴾:

أتجعل نهبى و نهب العبيد   بين عيينة و الأقرع
فما كان حصن و لا حابس   يفوقان مرداس فى المجمع
و ما كنت دون امرىء منهما   ومن تخفض اليوم لا يرفع
و ما كنت فى الحرب ذا تدرىء   فلم أعط شيئاً و لم أمنع

فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ اقطعوا عنى لسانه و أعطوه مثل أصحابه. و فى رواية، ياأبا بكر اقطع عنى لسانه و أعطيه مائة من الإبل، فأعطى تمام المائة. و العبيد اسم فرسه. و أعطى ﴿ﷺ وآله﴾ جماعة من المؤلفة قلوبهم خمسين من الإبل منهم: عثمان بن وهب المخزومى، و عمير بن ودقة، و عمير بن وهب، و عدى بن قيس، السهمى، وعمرو بن مرداس، و مخرمة بن نوفل الزهرى، و هشام بن عمرو العامرى، و سعيد بن يربوع.

و ذكر بعضهم: أن ممن أعطاه مائة أبا جهم بن حذيفة العدوى، و أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب و هو ابن عم النبى ﴿ﷺ وآله﴾، و عكرمة بن عامر العبدرى، وعلقمة بن علاثة، و عمرو بن الأهتم، و العلاء بن جارية الثقفى، و كعب بن الأخنس، و لبيد بن ربيعة العامرى، و مالك بن عوف رئيس هوازن، و مطيع بن الأسود القرشي، و النضير بن الحارث بالتصغير أخو النضر المقتول ببدر، ونوفل بن معاوية الكنانى، و هشام بن الوليد المخزومى.

ثم قسم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بقية الغنائم على بقية الأعراب، قال أهل المغارى: أمر ﴿ﷺ وآله﴾ زيد بن ثابت ﵁– و كان من أعظم كتابه ﴿ﷺ وآله﴾ – بإحضار الناس و الغنائم ثم قسمها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل و أربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثنا عشر من الإبل و مائة و عشرين شاة، و إن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للزائد.

فضائل الأنصار

و لم يعط ﴿ﷺ وآله﴾ الأنصار شيئاً، و حث على إكرامهم و احترامهم، لكن لا يبلغون درجة المهاجرين السابقين الذين خرجوا من ديارهم، و قطعوا عن أقاربهم وأحبابهم، وحرموا أوطانهم وأموالهم، و الأنصار و إن اتصفوا ﵃ بصفة النصرة و الإيثار و المحبة و الإيواء لكنهم مقيمون فى مواطنهم، و حسبك شاهداً قوله ﴿ﷺ

وآله﴾ هذا، لأن فيه إشارة إلى جلالة رتبة الهجرة، فلا يتركها فهو نبى مهاجرى لا أنصارى ﴿ ﷺ وآله﴾: (و لو سلك الناس وادياً و شعباً لسلكت وادى الأنصار و شعبها) و المراد بلدهم. و قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: (الأنصار شعار و الناس دثار) أى: أنهم بطانته وخاصته، و أنهم ألصق به و أقرب إليه من غيرهم. و قوله: (إنكم ستلقون بعدى أثره فاصبروا حتى تلقونى على الحوض) يوم القيامة فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، مع الثواب الجزيل على الصبر.

عن الزهرى قال: أخبرنى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أفاء من أموال هوازن، فطفق النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يعطى رجالاً المائة من الإبل فقالوا: أى الأنصار، يغفر الله لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يعطى قريشاً ويتركنا، و سيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحدث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم، و لم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا، قام النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: ما حديث بلغنى عنكم، فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يارسول الله فلم يقولوا شيئاً، و أما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ يعطى قريشا و يتركنا، و سيوفنا تقطر من دمائهم، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾: فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبى﴿ ﷺ وآله﴾إلى رحالكم،فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.

و فى مناقب الأنصار من طريق أبى التياح عن أنس: (أو لا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم، و ترجعون برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى بيوتكم)، قالوا: يارسول الله قد رضينا، فقال لهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾: (ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله و رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنى على الحوض). قال أنس: فلم يصبروا.

و فى قوله: ستلقون، علم من أعلام النبوة لأنه كان كما قال ﴿ﷺ وآله﴾، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم ﴿ﷺ وآله﴾.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يعطى درسا عظيما فى التربية للأنصار

زاد مسلم فحمد الله و أثنا عليه فقال: يامعشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى إلى الإيمان، و كنتم متفرقين – بسبب حرب بعاث و غيره الواقع بينهم مما تقدم ذكره – فألفكم الله بى، و عالة، و لأبى ذر و كنتم عالة، أى: فقراء لا مال لكم، فأغناكم الله بى، كلما قال ﴿ﷺ وآله﴾ شيئا قالوا: الله و رسوله أمن، قال ﴿ﷺ وآله﴾: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

قال: و فى لفظ لأبى ذر: كلما قال شيئا قالوا: الله و رسوله أمن قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا و كذا. و فى حديث أبى سعيد فقال: أما و الله لو شئتم لقلتم فصدقتم أتيناك مكذبا بفتح الدال فصدقناك، و مخذلا فنصرناك، و طريدا فآويناك، و عائلا فواسيناك. زاد أحمد من حديث أنس قالوا: بل المنة لله و لرسوله.

وإنما قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك تواضعاً منه و إلا ففى الحقيقة الحجة البالغة، و المنة له ﴿ﷺ وآله﴾ عليهم كما قالوا ﵁.

(ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة و البعير و تذهبون بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى رحالكم) ذكرهم ما غفلوا عنه ﵁ من عظيم ما اختصوا به منه ﴿ﷺ وآله﴾، بالنسبة إلى ما اختص به غيرهم من عرض الدنيا الفانية (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار) قاله استطابة لنفوسهم، و ثناء عليهم ﵁، و ليس المراد منه الانتقال عن النسب الولادى لأنه حرام، مع أن نسبه ﴿ﷺ وآله﴾ أفضل الأنساب و أكرمها، و هو تواضع منه ﴿ﷺ وآله﴾.

المنافقون لا يرضون بحكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

و لم يعط ﴿ﷺ وآله﴾ الأنصار و لا كبار المهاجرين شيئاً، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله تعالى، فأخبر ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك فغضب وقال: إذا لم أعدل فمن يعدل، رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر، فقال عمر بن الخطاب و خالد بن الوليد رضى الله عنهما: أئذن لنا نضرب عنقه يارسول الله فقال: دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى.

فعامل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك الرجل بظاهر حالة، تألفاً للناس ليدخلوا فى الإسلام. (البخارى) المؤلفة قلوبهم هم قوم أسلموا و نيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبهم، أو أشراف يترقب بإعطائهم و مراعاتهم إسلام نظائرهم، قال مجاهد: يتألفهم

عن ابن سعيد الخضرى رضي الله عنه قال: بعث إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بشيء فقسمه بين أربعة وقال:أتألفهم، فقال رجل: ما عدلت فقال: يخرج من ضئضئى هذا قوم يمرقون من الدين(والرجل هذا من بني تميم يقال له ذو الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير) والأربعة الذي أعطاهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليتألفهم هم: الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المجاشعى، وعيينة بن الفزارى، وزيد الطائى، ثم أحد بنى نبهان، وعلقمة بن علاثة العامرى، ثم أحد بنى كلاب، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أتألفهم ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إليهم من المال .

عود إلى الأنصار

وقال ناس من الأنصار ليسوا منافقين: يغفر الله لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعطى قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله إن هذا لعجب، إذا كانت شدة فنحن ندعى لها وتعطى الغنائم لغيرنا، وددنا أن نعلم ممن كان هذا، فإن كان من الله تعالى

صبرنا، وإن كان من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ استعتبناه. فبلغ الخبر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم، فلما اجتمعوا قام ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: ما حديث بلغنى عنكم، فقال فقهاء الأنصار: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ إنى أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر ومصيبة، أتألفهم، وإنى أردت أن أخبرهم أو أجبرهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالأموال. وفى رواية: بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى بيوتكم. (الحديث.. وقد ذكرنا الروايات الواردة فيه) فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

الحكمة من تقسيم الغنائم على المؤلفة قلوبهم

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن الغنائم لما حصلت قسمت على من لم يتمكن الإيمان من قلبه، لما بقى فيه من الطمع البشرى من حب المال، فكان ذلك سبباً لاجتماع قلوبهم على محبته ﴿ﷺ وآله﴾ لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها.

وإنما لم يعط ﴿ﷺ وآله﴾ أكابر المهاجرين والأنصار مع اسحقاقهم جميعاً، لرسوخ الإيمان فى قلوبهم، فوكلهم إلى قوة إيمانهم، فكان فى قسمها على المؤلفة استجلاب قلوبهم، وقلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضى رئيسهم، فيكون سبباً لإسلامهم، ولتقوية قلب من دخل فى الإسلام منهم فيتبعهم من دونهم، فكان فيه مصلحة عظيمة .

ولذا لم يقسم من أموال مكة عند فتحها شئ مع احتياج الجيوش إلى المال الذى يعينهم على ما هم عليه، واستقرض ﴿ﷺ وآله﴾ ممن استقرض منهم كما تقدم، لأجل حرب هوازن، ولما قيل له ﴿ﷺ وآله﴾: أعطيت عيينة والأقرع وتركت جعيل بن سراقة، قال: أما والذى نفس محمد بيده لجعيل خير من طلوع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكنى أتألفهما ليسلما، أى: يقوى إسلامهما، ووكلت جعيل بن سراقة لإسلامه، وإنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ منه مخافة أن يكبه الله فى النار على وجهه. وفى رواية: إنى

لأعطى أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغني، منهم عمرو بن تغلب، قال عمرو: فو الله ما أحب أن لى بها حُمْر النّعم.

وقد جاءت أحاديث كثيرة فى مدح الأنصار رضي الله عنه، والدعاء لهم، ولأبنائهم، ولأبناء أبنائهم رضي الله عنه.

وفى البخارى عن جبير بن مطعم رضي الله عنه بينما أنا مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مقفله من حنين إذ علقت برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الأعراب يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة يقولون: يارسول الله أقسم علينا فيأنا حتى أخطروه، أى: ألجأوه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: أعطونى ردائى، فلو كان عندى عدد هذه العضاه نعما. وفى رواية: لو كان عندى عدد شجر تهامة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً، أى: إذا جربتمونى لا تجدونى ذا بخل ولا ذا كذب ولا ذا جبن، ثم قام ﴿ﷺ وآله﴾ إلى جنب بعير وأخذ وبرة من سنامه فرفعها، ثم قال للناس: والله مالى من فيئكم، أى: غنيمتكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، أى: لأن أكثره كان ﴿ﷺ وآله﴾ يصرفه فى مصالح المسلمين رضي الله عنه.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يعتمر من الجعرانة

ثم بعد تمام قسمة الغنائم اعتمر ﴿ﷺ وآله﴾ من الجعرانة، ودخل مكة وطاف وسعى وحلق ورجع إلى الجعرانة من ليلته، فكأنه كان بائتاً بها، وكانت مدة إقامته ﴿ﷺ وآله﴾ الجعرانة ثلاث عشرة ليلة، وجاء فى الحديث أنه اعتمر من الجعرانة سبعون نبياً، ثم توجه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة واستعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد، أى: تركه باقياً على عمله، وترك معه معاذ بن جبل وأبا موسى الآشعرى رضى الله عنهما يعلمان الناس القرآن والفقه فى الدين، وكان قدومه المدينة لثلاث يقين من ذى القعدة، وقيل: لست بقين منه.

البعث إلى بنى تميم وتعرف بسرية

عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم

وسببها: أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعث بشر بن سفيان العدوى الكلبى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم، وكانوا مع بنى تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بنى كعب، فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لم تعطوهم أموالكم؟ فاجتمعوا وأشهروا السلاح، ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة، فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولابد فى ديننا من دفع الزكاة، فقال بنو تميم: والله لاندع بعيراً واحداً يخرج، فلما رأى بشر ذلك قدم المدينة وأخبر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك، فعند ذلك بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم فى خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى، فكان يسير الليل ويمكن النهار. فهجم عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى امرأة، وثلاثين صبياً، فجاء بهم إلى المدينة، فأمر بهم ﴿ ﷺ وآله﴾ فحسبوا فى دار رملة بنت الحارث،فجاء فى أثرهم جماعة من رؤسائهم منهم عطارد بن حاجية، والزبرّقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم ورباح بن الحارث، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذرارى. ..

بنو تميم ينادونه من وراء الحجرات

فجاءوا إلى باب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالاً يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فاستبطئوه فجاءوا من وراء الحجرات فنادوا بصوت جاف: اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين، وذمّنا شين، يامحمد اخرج إلينا، فخرج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد تأذى من صياحهم، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾ (الحجرات: ٤،٥). وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يكلمونه فوقف معهم، فقالوا له: نحن ناس

من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك، فقال لهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾: ما بالشعر بعثنا، ولا بالفخار أمرنا، ثم مضى فصلى الظهر ﴿ﷺ وآله﴾، ثم جلس فى صحن المسجد.

المفاخرة بالخطابة

ثم قالوا:إن مدحنا لزين وإن شتمنا لشين، نحن أكرم العرب، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: كذبتم بل مدح الله الزين وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب، ثم قالوا: فأذن لخطينا وشاعرنا، قال ﴿ﷺ وآله﴾ أذنت فليقم.

وفى رواية: لم أبعث بالشعر ولم أومر بالفخر، ولكن هاتوا. فقدموا عطارد ابن حاجب. وفى رواية: قال الأقرع بن حابس لشاب منهم: قم يافلان فاذكر فضلك وفضل قومك، فتكلم وخطب فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله، الذى جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق عدداً فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لوشئنا أكثرنا، وإنما أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا.. ثم جلس.

وفى رواية: أنه قال: الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه، وأعطانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن خير أهل الأرض، وأكثرهم عدداً، وأكثرهم سلاحاً، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا، أو بفعال هى أفضل من فعالنا. فأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه، فقال له: قم فأجب الرجل فى خطبته، فقام ثابت ﵁ فقال: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله ، ثم إن من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم قلباً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المهاجرون من قومه، وذوو رحمه أكرم الناس أحساباً، وأحسن الناس

وجوهاً، وخير الناس مقالاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نحن، فنحن أنصار الله ورسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله، وكان قتله علينا يسيراً.. هذا واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلاُم عليكم. وفى رواية: أنه قال: الحمد لله نحمده ونستعينه، ونؤمن به ونتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بنى عمه، أحسن الناس وجوهاً، وأعظم الناس أخلاقاً، فأجابوه، والحمد لله الذى جعلنا أنصاره، ووزراء رسوله، وعزاً لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع منا نفسه وماله، ومن أباها قاتلناه، وكان رغمه فى الله علينا هيناً، أقول قولى وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

المفاخرة بالشعر

ثم قال الزبرقان لرجل منهم: قم يافلان قل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل قومك فقام فقال:

نحن الكرام فلا حىٌّ يعادلنا   نحن الرءوس وفينا يقسم الربع
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد   إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ علىّ بحسان بن ثابت رضي الله عنه فحضر فقال له: قم فأجبه، فقال: يسمعنى ما قال، فأسمعه، فقال حسان رضي الله عنه أبياتاً منها:

نصرنا رسول الله والدين عنوة   على رغم عات من بعيد وحاضر
وأحياؤنا من خير من وطىء الحصا   وأمواتنا من خير أهل المقابر

وقال الأقرع بن حابس: إنى والله يامحمد قلت شعراً فاسمعه، فقال: هات، فأنشده:

أتيناك كيما تعرف الناس فضلنا   إذا حالفونا عند ذكر المكارم

وإنا رءوس الناس من كل معشر   وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فقال رسول اللّه (ﷺ وآله): قم ياحسان فأجبه، فقال حسان ﵁:

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم   يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم   لنا خول من بين ظئر وخادم

كلمات النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نور يهدى القلوب

فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للأقرع: لقد كنت غنيا يأخا بنى دارم، إن تذكر ما كنت ترى إن الناس قد نسوه، فكان هذا القول من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عليهم أشد من قول حسان، وحينئذ قال الأقرع بن حابس: لخطيبه- يعنى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ - أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا: ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم دنا إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال:أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: ما يضرك ما كان قبل هذا، وكان الأقرع شريفا فى الجاهلية والإسلام ﵁ .

ثم إنه ﴿ﷺ وآله﴾ رد عليهم الأسارى والسبى، وأحسن جوائزهم بعد أن أسلموا كلهم، وأعطى كل واحد اثنتى عشرة أوقية من الفضة، واختلف فى عدد هذا الوفد فقيل: كانوا سبعين، وقيل: كانوا ثمانين رجلا.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: إن القوم لما أسلموا بقوا فى المدينة مدة يتعلمون القرآن والدين. وفى البخارى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون﴾ (الحجرات:٤). إذ العقل يقتضى حسن الأدب.

(عن ابن جريج)عبد الملك بن عبد العزيز أنه قال: أخبرنى ابن أبى مليكة عبد الله أن عبد اله بن الزبير بن العوام أخبرهم أنه قدم ركب من بنى تميم على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فسألوه أن يؤمر عليهم أحدا، فقال أبو بكر له ﴿ﷺ وآله﴾: أمر عليهم القعقاع بن

معبد، وقال عمر: أمر عليهم، وفى رواية: بل أمر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما: ما أردت بذلك إلى إلا خلافى، أى: إنما تريد مخالفتى، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا فتجادلا وتخاصما حتى ارتفعت أصواقما فى ذلك فترل قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ (الحجرات:١،٢). وعن البراء قال: جاء رجل إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: يامحمد إن حمدى زين، وإن ذمى شين، فقال: ذاك الله تبارك وتعالى. وعن قتادة: مثله، وزاد فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ﴾ أى: لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال، لما فيه من حفظ الأدب، وتعظيم الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾، الموجبين للثناء والثواب من الله تعالى.

سرية أبى عامر الأشعرى ﷺ وتسمى غزوة أوطاس

بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾- لما فرغ من غزوة حنين- أبا عامر عبيد بن سليم بن حضار الأشعرى- وهو عم أبي موسى الأشعرى على المشهور- أميرا إلى أوطاس خلف الفارين من هوازن يوم حنين، ومعه جمع من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، منهم سلمة بن الأكوع ﷺ، فالتقوا بأوطاس وهو واد فى ديار هوازن. وكان المنهزمون انقسموا ثلاث فرق: فرقة منهم لحقت بالطائف، وفرقة بنخلة، وفرقة بأوطاس، فانتهى إليهم أبو عامر، فإذا هم مجتمعون فناوشوه القتال، وقتل منهم أبو عامر ﷺ تسعة أخوة مبارزة، بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه بأنى دعوته إلى الإسلام فلم يسلم، ثم برز له العاشر فدعاه إلى الإسلام وقال: اللهم أشهد عليه، فقال: اللهم لاتشهد على، فكف عنه أبو عامر ﷺ ظنا منه أنه أسلم، فأفلت ثم أسلم بعد وحسن إسلامه ﷺ، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا رآه قال: هذا شريد أبى عامر.

ثم استشهد أبو عامر رضي الله عنه، قتله أخوان وهما: العلاء وأوفى ابنا الحارث بن جشيم.

وجاء أن أبا موسى رضي الله عنه أدرك قاتل عمه فقتله، ففى الخبر قال أبو موسى الأشعرى: وبعثنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع أبى عامر عبيد، أى: عمه، إلى من التجأ إلى أوطاس، فرمى أبو عامر فى ركبته، رماه جشمى، أى: رماه رجل جشمى نسبة لبنى جشم، وهم أوفى والعلاء ابنا الحارث بسهم فأثبته فى ركبته، قال أبو موسى: فانتهيت إليه فقلت له: ياعم من رماك بهذا السهم؟ فأشار إلى أبى موسى، هو التفات، وكان الأصل أن يقول وأشار إلى فقال: ذاك قاتلى الذى رمانى، قال أبو موسى: فقصدت له فلحقته، فلما رآنى ولى، أى: أدبر، فاتبعته، أى: سرت فى أثره، وجعلت أقول له: ألا تستحى ألا تثبت فكف عن التولى فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبى عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم فنزعته فنزا، أى:انصب منه من موضع السهم الماء قال: ياابن أخى أقرىء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ السلام عنى، وقل له استغفر لى. واستغفر بلفظ الطلب، والمعنى أن أبا عامر سأل أبا موسى أن يسأل له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يستغفر له، قال أبو موسى: واستخلفنى أبو عامر على الناس أميراً، فأقرنى الناس، فمكث يسيراً ثم مات رضي الله عنه.

فقاتل أبو موسى القوم حتى هزمهم، وفتح الله على يديه، وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا، قال: فرجعت فدخلت على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى بيته حال كونه على سرير مرمّل منسوج بحبل ونحوه، وعليه فراش، ونقل عن الشيخ أبى الحسن أنه قال: الذى أحفظه فى هذا ما عليه فراش، قال: وأرى أن(ما) سقطت هنا، قد أثر رمال السرير فى ظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر وأنه قال له قل له ﴿ﷺ وآله﴾ استغفر لى، فدعا ﴿ﷺ وآله﴾ بماء فتوضا ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبى عامر، قال أبو موسى: ورأيت بياض إبطيه فيه رفع اليدين فى الدعاء، خلافاً لمن خصه بالاستسقاء، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾: اللهم اجعله فى المرتبة يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس،

فقلت: ولى فاستغفر يارسول الله: فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً.

بعث قيس بن سعد إلى صُدَاء

بعث ﴿ﷺ وآله﴾ قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى رضى الله عنهما إلى ناحية اليمن بعد انصرافه ﴿ﷺ وآله﴾ من الجعرانة، فى أربعمائة فارس، وأمره أن يقاتل قبيلة صُدَاء- وهم حىّ من اليمن- فقدم زياد بن الحارث الصدائى فسأل عن ذلك البعث، فأخبر به، فقال يارسول الله: أنا وافدهم إليك فاردد الجيش، وأنا أتكفل بإسلام قومى وطاعتهم، فقال: اذهب إليهم فردّهم، فقال: إن راحلتى قد كلت، فبعث ﴿ﷺ وآله﴾ خلفهم فردّهم، ورجع الصدائى إلى قومه، فقدموا بعد خمسة عشر يوماً .
فأسلموا ﵁.

بعث الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق

بعث النبى ﴿ﷺ وآله﴾ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ الصدقات من بنى المصطلق- وبنو المصطلق بطن من خزاعة- وكان بينهم وبين الوليد عداوة فى الجاهلية، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلاً بالإبل والغنم يؤدوها عن زكاهم فرحاً به، وتعظيماً لله ولرسوله ﴿ﷺ وآله﴾، فحدثه الشيطان أهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم، مع أهم إنما خرجوا بالسلاح تجملاً، فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه، وأخبر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مستنداً لظنه أهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة. وفى رواية: أخبره أهم ارتدوا، فهمّ ﴿ﷺ وآله﴾ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وبلغ ذلك القوم. وفى رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بعث إليهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر خفية فى عسكر معه، وأمره أن يخفى عنهم قدومه، فلما دنا منهم بعث عيوناً ليلاً، فإذا هم ينادون بالصلاة ويصلون، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا طاعة وخيراً، فرجع إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبره. وفى رواية: بعث ﴿ﷺ وآله﴾ إليهم بعثاً

فاستقبلهم الحارث بن ضرار الخزاعى وكان رئيس القوم فقال: إلى أين بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: و لم؟ قالوا: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعث الوليد فزعم الوليد أنك منعته الزكاة وأردت قتله، فقال: لا والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتانى، ثم قدم على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فلما دخل عليه ﴿ﷺ وآله﴾ قال له ﴿ﷺ وآله﴾: منعت الزكاة وأردت قتل رسولى. قال: لا والذى بعثك بالحق، وقدم الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ الخبر على وجهه، فبعث ﴿ﷺ وآله﴾ معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويقرئهم القرآن.

والوليد بن عقبة بن أبى معيط كان أخا لعثمان بن عفان ﵁ لأمه، ولاه عثمان ﵁ الكوفة ثم عزله، ولما مات عثمان ﵁ اعتزل الوليد الفتنة فلم يشهد مع على كرم الله وجهه ولا غيره، وأقام بالرقة إلى أن توفى فى خلافة معاوية ﵁.

سرية عبد الله بن عوسجة ﵁ إلى بنى عمرو بن حارثة

وقيل: حارثة بن عمرو فى مستهل صفر. وقيل: ربيع الأول سنة تسع من الهجرة يدعوهم إلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوا، واستخفوا بصحيفة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فغسلوها ورقعوا بها أسفل دلوهم، فأخبر ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك، فدعا عليهم بذهاب العقل فقال: مالهم ذهب الله بعقولهم، فهم إلى اليوم أهل رعدة، أى: اضطراب فى أجسادهم، وعجلة فى كلامهم، وكلام مختلط لا يفهم. قال الواقدى: رأيت بعضهم ذا عى لايحسن الكلام.

سرية قطبة بن عامر الخزرجى ﵁ إلى خثعم

خثعم قريبة من تربة بضم الفوقية وفتح الراء، من أعمال مكة على يومين أو أكثر، وكانت فى صفر سنة تسع، وبعث معه عشرين رجلا، وأمره أن يشن الغارة عليهم فجاءوهم واقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى فى الفريقين، ثم هزموهم، وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة.

سرية الضحاك بن سفيان الكلابى ﷺ إلى بنى كلاب

كانت فى ربيع الأول سنة تسع بجيش فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، فقاتلهم بمن معه فهزمهم، وغنم أموالهم.

سرية علقمة بن مجزز المدلجى إلى طائفة من الحبشة بساحل البحر قريبا من جدة

مجزز بضم الميم وفتح الجيم ومعجمتين الأولى كسورة ثقيلة، بعثه ﴿ﷺ وآله﴾ فى ثلاثمائة فانتهى إلى جزيرة فى البحر، فلما خاض البحر ليصل إليهم، هربوا فرجع علقمة ومن معه و لم يلقوا كيدا، ولما أراد الرجوع علقمة أراد بعض القوم التعجيل والرجوع إلى أهلهم قبل بقية الجيش، وكان فيهم عبد الله بن حذافة السهمى ﷺ، فأمره علقمة عليهم وكان فيه دعابة، أى: مزاح، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا نارا يصطلون عليها، فقال لهم عبد الله بن حذافة: عزمت عليكم ألا تواثبتم فى هذه النار، فلما هم بعضهم بذلك، قال: امنعوا أنفسكم فإنما كنت أمزح، فذكروا ذلك للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ لما قدموا، فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه.

وعبد الله بن حذافة هذا من قدماء المهاجرين ﷺ، وممن شهدوا بدرا، ومن مناقبه ﷺ ما أخرجه البيهقى عن ابن رافع ﷺ قال: وجه عمر ﷺ جيشا إلى الروم وفيهم عبد الله بن حذافة ﷺ فقال له ملك الروم: تنصر وأشركك فى ملكى، فأبى، فأمر به أن يصلب إن لم يتنصر، فلما ذهبوا به بكى فقال: ردوه فقال له: لم بكيت؟ قال: تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هذا فى الله، فعجب منه .

ثم قال له: قبل رأسى وأنا أخلى عنك، فقال: وعن جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبل رأسه، فخلى سبيلهم، فقدم على عمر ﷺ، فقام عمر فقبل رأسه ﷺ.

الأسرار العلية لصحابة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى هذه السرية

رضى الله عن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأمدنا بأسرارهم العلية ، بلغ بهم الإسلام لله سبحانه وتعالى ، والطاعة لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، والإخلاص لله تعالى والرغبة فيما عند الله تعالى مبلغا جعلهم يبذلون النفس طاعة لله ولرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، بل وطاعة لأمير رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، كما قال سيدنا خبيب :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... علي أى جنب كان لله مضجعى
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك علي أوصال شلو ممزع

وكما فعل أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في هذه السرية ، فإن سيدنا عبد الله بن حذافة ﷺ عندما أمرهم أن يلقوا أنفسهم في النار تواثبوا إليها مسرعين طاعة لأمير أمره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، و لم يكن ذلك جهلا منهم بحكم الله ، فإنهم علي يقين أنهم ما فروا إلي الإسلام إلا فرارا من النار ، ولا جهلا يقدر أنفسهم لا والله ،ولكن صفت تلك النفوس ،وطهرت القلوب ، حتى بلغ بهم اليقين الحق أن مسلما لا يأمر بمخالفة الله تعالي ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ وأن المؤمن لا يأمر إلا بما هو خير لأخيه ،لأن قلوبهم انطوت علي الخير إلي إخوتهم المؤمنين ، وعلموا حق اليقين إن كل مؤمن بكل مؤمن من نفسه ، واعتقادا أن كل من قام في هذا المقام من الإمارة عليهم يكون معصوما لأنه كخليفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. كشفت لنا تلك الحادثة عن مقدار تسليم النفوس عند صفاها ، وأن المؤمنين فى حالة إقبالهم على الله وإخلاصهم لجنابه العلى يجب أن يكون أميرهم أو مرشدهم أو متولى شئوهم من أهل التمكين الأكبر ، والأخذ بالعزائم والرحمة الواسعة، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة، والخشية الكاملة من الله تعالى ، حتى يحفظ الله به إخوته المؤمنين الذين معه من ضياع دينهم أو عافيتهم أو أموالهم ، فإن النفوس إذا ووجهت بأنوار الجمال ، وأسرار الجلال الإلهى انقادت انقيادا كالسيل لمن يقودها إلى الله

بلا روية ولا فكر ، لاستسلامها استسلام منجذب بالكلية للنعيم الأبدى فى فردوس الله الأعلى ، أو لمقعد صدق عند مليك مقتدر ، فيحتقر الواجد نفسه وماله فى سبيل نيل بغيته ، فلو أمر بأن يلقى نفسه فى النار لألقاها ، ولكنه ﴿ﷺ وآله﴾ أزال الغطاء عن الحقيقة حتى تجلت لكل مسلم فقال ﴿ﷺ وآله﴾ :لا طاعة فى معصيته الله . ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقال ﴿ﷺ وآله﴾ لو دخلوها ما خرجوا منها . وذلك لأن الإنسان لا يستسلم حقا بلا بحث ولا روية ، ولا طلب حجة إلا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فإذا صحب غير رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأمره بما لم يستبين له وجه الشرع فيه خالفه شرعا ، وإن سلم مداراة له إن كان أميرا خوفا منه ، أو كان مرشدا حتى يقيم له الحجة شرعا، أو يفيء إلى أمر الله ، والواجب شرعا ترك المأمور به إن تحقق أنه معصية الله ، ما لم يكره عليه ، وقد شرحت وليس بعد بيان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيان .

وقد بلغت الجهالة بالنفوس مبلغا حتى صار بعض من يقتدون بالشاطحين التائهين يطيعوهم فى معصية الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ويتبعوهم على مخالفة كتاب الله حتى يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ويحسن لهم الشيطان أهواءهم . . نعوذ بالله من الكفر بعد الإيمان.

أمر الصحابى وهو أمير على أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يلقوا بأنفسهم فى النار فتواثبوا إليها طاعة لأمره ، وتسليما له وهم أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، اعتقادا منهم أن طاعته طاعة رسول الله ، ومخالفته مخالفة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ونعم ، ولكن فيما ومتى تكون طاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله ؟ تكون كذلك فيما إذا أمر بما أمرهم به الله سبحانه ،ونهى عما نهاهم الله عنه، وأمر بما أمر به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ونهى عما نهاهم عنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، أو أمر بفضيلة شرعية لا تخفى على ذى عقل .

وقد بلغ اليقين الحق بأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مبلغا جعلهم كانوا إذا أمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعمل فى الجهاد ، وظهر لهم فيه ما تترعج منه قلوبهم قالوا : يارسول الله أمن الله هذا أم هو الرأى والمشورة ؟ فيقول : هذا الرأى والمشورة ، فيقولون : الأولى أن نفعل كذا يارسول الله ، فيطيعهم ﴿ ﷺ وآله﴾ . كل ذلك من اليقين الحق الذى جمل الله به قلوبهم حتى كان الحق هو المحبوب حقا ، يحبون فيه ، ويبغضون فيه ، ولو أن عظيما غنيا كبيرا قريبا حبيبا خالف الله تعالى ، أو خالف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لكان عندهم حقيرا ذليلا بغيضا عدوا ، ولو أن فقيرا ذليلا بغيضا عدوا أطاع الله لصار عندهم عظيما حبيبا عزيزا ، وكانوا إنما يحبون الخلق لعملهم بالكتاب والسنة ، ويبغضونهم لمخالفتهم للكتاب والسنة ، فكان المحبوب حقا هو الحق ، وكان المبغوض حقا هو الباطل . ومن أحب الخلق غير ملاحظ فى محبته الحق فهو عدو لله ولرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومن أطاعهم فى معصية الله كان مشركا بالله ، لأن الله تعالى يقول :﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ (التوبة:٣١). وفى الحقيقة أنهم لم يتخذوهم أربابا يعبدون ، ولكنهم كانوا يحكمون بأحكام تغاير أحكام التوراة فيتبعون أحكامهم و يتركون أحكام التوراة، ومن خالف حكم الله واتبع حكم مخلوق فقد اتخذه ربا من دون الله ، يقول الله تعالى :﴿ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام:٦٢). فالحاكم حقا هو الرب جل جلاله ، ومن قبل حكم غيره وخالف حكمه سبحانه فقد اتخذه ربا من دون الله ، وما من بدعة من البدع كانت فى السابقين إلا وقد أظهرها من لا خلاق لهم . فصلت فى هذه الحادثة ما لا علاقة له بالتاريخ لمقتضى دعا إليه الحال ، ونتج عنه مضار وبلايا بين جماعة المسلمين ، حتى يتنبه الناس ، ويعلم كل مسلم من يطيع ومن يخالف ، حتى تكون الطاعة لله ولرسوله لا لمخلوق يخطئ ويصيب . . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يحفظ جماعة المسلمين من ولاية الجهلاء ، وإمارة الشبان ، ومن الدعاة الذين هم على أبواب . . جهنم آمين .

سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه

لهدم صنم طيىء

وهو بموضع يسمى الفلس ، بعثه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى ربيع الأول سنة تسع ، وبعث معه مائة وخمسين رجلا من الأنصار . وفى رواية: كانوا مائتى رجل ، فأغار على أحياء من العرب ، وشن الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر ، وحرق الصنم بعد أن هدمه ، ووجد فى خزانته ثلاثة أسياف ، وثلاثة أدرع وغنم سبيا ونعما وشاء وفضة ، وقدم بذلك المدينة ، وكان فى السبى سفانة بنت حاتم الطائى فأسلمت وحسن إسلامها رضي الله عنها ،ومن عليها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فدعت له فقالت : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلي لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم إلا وجعلك سببا لردها عليه .

وكان المن عليها سببا لإسلام أخيها عدى بن حاتم ﵁ ، وكان ﵁ من فضلاء الصحابة ، ولم يرتد مع من ارتد من العرب بعد وفاة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بل ثبت علي الإسلام ، وكان يبعث بصدقات قومه إلي الصديق الأكبر ﵁ .

وروى له ﵁ أصحاب السنن الستة .

قال ابن إسحاق في قصة سبى أخت حاتم : أصابت خيله ﴿ﷺ وآله﴾ ابنة حاتم في سبايا ، فجعلت في حظيرة في المسجد ، فمر بها ﴿ﷺ وآله﴾ فقامت إليه – وكانت جزلة – فقالت : يارسول الله هلك الوالد وغاب الوافد ؟ فقال : ومن وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم ، قال : العار من الله ورسوله ، فمضى حتى كان الغد ، قالت : مر بى فقلت له وقال مثل ذلك ، حتى كان بعد الغد مر بى ويئست ، فأشار إلي علي بن أبى طالب كرم الله وجهه – وهو خلفه – أن قومى إليه فكلميه ، فقمت فقلت : يارسول الله هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك ، قال : قد فعلت فلا تعجلى حتى تجدى ثقة يبلغك بلادك ثم آذنيني ، فقدم رهط من طيىء ، قالت : فأخبرته أن لى

فيهم ثقة وبلاغا فكسانى وحملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت حتى قدمت الشام علي أخى فقال : ما ترين في هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يك نبيا فللسابق إليه فضيلة ، وإن يك ملكا فلن تزال في عز اليمن وأنت أنت ، فقلت : هذا هو الرأى ، فقدم فأسلم والقصة طويلة .

سرية عكاشة بن محصن الأسدى ﷺ إلي الحباب

الجباب بكسر الجيم وموحدتين بينهما ألف ، أرض عذرة بضم العين وسكون الذال المعجمة ، وبلى بفتح الباء وكسر اللام وشد التحية ، وهما قبلتان من قضاعة ، وقيل : إن الجباب أرض فزارة وكلب ، ولعذرة فيها شرك ، وكانت هذه السرية في شهر ربيع الآخر سنة تسع ، ولم يذكر سببها ، ولا عدد من ذهب فيها ، ولا ما جرى .

الفصل الثامن

غزوة تبوك

وهو مكان معروف بينه وبين المدينة من جهة الشام أربعة عشر مرحلة ، وهى غزوة العسرة مأخوذة من قوله تعالي :﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ (التوبة : ١١٧) . لما وقع فيها من العسرة في الماء والظهر والنفقة ، وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها قال تعالي على لسان المنافقين : ﴿ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ﴾ (التوبة : ٨١) . وقد فضحهم الله في آيات كثيرة في سورة التوبة كقوله تعالي: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي ﴾ (التوبة : ٤٩). وكقوله تعالي:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ (التوبة : ٦٥).

لما عاد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أقام بالمدينة – بعد عوده من الطائف – ما بين ذى الحجة إلي رجب سنة تسع من الهجرة ، ثم أمر الناس ﴿ ﷺ وآله﴾ بالتجهيز لغزو الروم ، وأعلم الناس مقصدهم لبعد الطريق ، وشدة الحر ، وقوة العدو . وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها ، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد روى البخارى ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : لم يكن ﴿ ﷺ وآله﴾ يريد غزوة ألا ورَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وغزا عدواً كثيراً ، فجلا للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم بالوجه الذى يريد . والتورية : ذكر لفظ يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر ، فيستوهم السامع إرادة القريب ، والمتكلم يريد البعيد .

وكان سببها : ما ذكر ابن سعد في طبقاته وغيره أن المسلمين بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً ، وأجلبت معهم لخم وجزام وغيرهم من متنصرة العرب ، فندب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ الناس إلي الخروج ، وأعلمهم بجهة غزوهم ليتأهبوا لذلك بما يحتاجونه في السفر والحرب .

وروى الطبرانى من حديث عمران بن حصين الخزاعى رضي الله عنهما قال : كانت نصارى العرب كتبت إلي هرقل أن هذا الرجل الذى يدّعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن ، فبعث رجلا من عظمائهم يقال له قباذاً ، وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولم يكن للناس قوة في الذهاب لتلك الأرض لفقد الظهر والنفقة ، وكان عثمان رضي الله عنه قد جهز عيراً إلي الشام ، فلما سمع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يحث علي النفقة والحملان قال : يارسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، قال عمران رضي الله عنه : فسمعته ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : لا يضر عثمان ما عمل بعدها . وقد أظهر الله صدق رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فإن عثمان رضي الله عنه لم يزل على أعمال أهل الجنة حتى فارق الدنيا رضي الله عنه .

التنافس على الإنفاق من أخلاق صحابته ﴿ﷺ وآله﴾

ولما أراد ﴿ﷺ وآله﴾ الخروج حث الناس على النفقة والحملان فجاءوا بصدقات كثيرة ، فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فجاء بما له كله أربعة آلاف درهم ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: هل أبقيت لأهلك شيئا؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فسأله هل أبقيت لهم شيئا؟ قال: نعم نصف مالى، وجاء عبد الحمن بن عوف رضي الله عنه بمائتى أوقية إليه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر ، وجهز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش حتى كان يقال : ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شنق أسقتهم . قال ابن إسحاق : أنفق عثمان رضي الله عنه في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها .

وأرسل ﴿ﷺ وآله﴾ إلي أهل مكة وقبائل العرب يستنصرهم .

ثم إن رجالا من المسلمين وهم البكاءون وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، وكانوا أهل حاجة فاستحملوه﴿ﷺ وآله﴾ أى : طلبوا منه ما يركبون عليه ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ،فتولوا يبكون ، وهم : سالم بن عمير الأنصارى ، وأبو ليلى عبد

الرحمن بن كعب الأنصارى ، والعرباض بن سارية السلمى ، وهرم بن عبد الله بن رفاعة الأنصارى ، وعمرو بن عثمة الأنصارى ، وعبد الله بن مغفل المزنى ، وآخرون غيرهم ﵃ ، وهم الذين قال الله تعالي فيهم :﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة : ٩٢) . فلقيهم ياميز بن عمر بن كعب النضرى فسألهم عما يبكيهم ، فأعلموه ، فأعطى أبا ليلى عبد الحمن بن كعب ، وعبد الله بن مغفل المزنى بعيرا ، فكانا يعتقبانه مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

ومن البكائين قوم أبي موسى الأشعرى ﵁ ففى البخارى عن أبي موسى ﵁ أنه أرسله أصحابه إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يسأله الحملان فقال : والله لا أحملكم .وفي رواية : وما عندى ما أحملكم عليه ، فرجع حزينا إلي قومه ، ثم جاء النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ زود من الإبل فبعث إليه وأعطاه إياه .

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إلى رسول الله تعالى ، فلم يعذرهم الله وكان عدة من المسلمين تخلفوا من غير شك ، منهم : كعب بن مالك ، و مروان بن الربيع ، وهلال بن أمية .

منزلة على بمنزلة هارون ﵇

واستخلف ﴿ ﷺ وآله﴾ على المدينة على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وخلفه أيضا على أهله وعياله كرم الله وجهه ، فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا ،فلما سمع على كرم الله وجهه ذلك أخذ سلاحه ولحق بالنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو نازل بالجرف فقال: يانبى الله زعم المنافقون أنك خلفتني لأنك استثقلت مني ، وتخففت مني فقال : كذبوا وإنما خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفني فى أهلى و أهلك ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ، فرجع إلى المدينة . وفى

رواية : فقال على كرم الله وجهه : رضيت ، ثم رضيت ، وسار ﴿ ﷺ وآله﴾ .

عقد الألوية والرايات

ولما ارتحل ﴿ ﷺ وآله﴾ من ثنية الوداع متوجهاً إلى تبوك عقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر ؓ ، ورايته العظمى للزبير ؓ ، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج للحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواء أو راية ، أى : لبعضهم راية . وسار بالناس وهم ثلاثون ألفاً ، وقيل : أربعون ألفاً ، وقيل : سبعون ألفاً ، وكانت الخيل عشرة آلاف ، وقيل : اثنى عشر ألفاً . ووقع له ﴿ ﷺ وآله﴾ فى هذه الغزوة كثير من الأخبار بالمغيبات وغيرها من المعجزات وخوارق العادات ، وسيأتى إن شاء الله التعرض لكثير منها .

المخلفون عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

وتخلف جماعة من المنافقين ، منهم : عبد الله بن أبى بن سلول بعد أن كان قد خرج بقومه وعسكر بهم أسفل من ثنية الوداع ثم قال : يغزوا محمد بنى الأصفر ، أى : وهم الروم ، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال ، يقول ذلك إرجافاً برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه ؓ، ثم رجع بقومه وتخلفوا .

واجتمع جمع من المنافقين فى بيت سويلم اليهودى فقال بعضهم : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله لكأنى بهم ، يعنى : الصحابة، غداً مقرنين فى الحبال ، يقولون ذلك أرجافاً وترهيباً للمؤمنين .

والجلاد : الضرب بالسيوف .

فأوحى الله إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ اجتماع القوم وما قالوا ، فقال لعمار بن ياسر رضى الله عنهما : أدرك القوم فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل : بل قلتم كذا وكذا ،

فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يعتذرون إليه وقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب .

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ للجد بن قيس : ياجد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ؟ قال : يارسول الله أو تأذن لى التخلف ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى ، فإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال : أذنت لك ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة : ٤٩). والفتنة التى سقطوا فيها هى التخلف عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والرغبة عنه . وفى رواية: أنه لام الجد على مقالته ولده عبد الله وقال له : والله ما يمنعك إلا النفاق وسيترل الله فيك قرآناً ، فأخذ نعله وضرب به وجهه ، فلما نزلت الآية قال له : ألم أقل لك ، فقال له : اسكت يالكع ، فوالله لأنت أشد على من محمد . وفى رواية : أن الجد لما امتنع واعتذر بما تقدم قال للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : ولكن أعينك بمالى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ (التوبة : ٥٣). والمحققون على أن الجد بن قيس تاب من النفاق وحسنت توبته ﷺ .

وقال بعض المنافقين لبعض : لا تنفروا فى الحر فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١). وجاء المعتذرون من الأعراب وهم الضعفاء والمقلون ، ليؤذن لهم فى التخلف فأذن لهم ، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر ، وإظهار علة جرأة على الله ورسوله ، وقد عناهم الله بقوله تعالى : ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (التوبة : ٩٠).

وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع ، ومن غير عذر كانوا ممن لا يتهم فى إسلامهم ، وستأتى قصتهم إن شاء الله تعالى

أبو خيثمة يتخلف ثم يلحق برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

وكان ممن تخلف أبو خيثمة الأنصارى ﵁ فلما أن سار ﴿ﷺ وآله﴾ ومضت أيام دخل أبو خيثمة على أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط قد رشت كل منهما عريشها ، وبردتا فيها ماء ، وهيأتا طعاماً ، وكان اليوم يومئذ شديد الحر، فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا ، فقال : رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، ما هذا بالنصف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فهيئا لى زاداً ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحل وأخذ سيفه ورمحه ، ثم خرج فى طلب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى أدركه نزل بتبوك ، وقد كان أبو خيثمة أدرك عمير بن وهب فى الطريق يطلب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فترافقا حتى دنوا من تبوك ، فقال أبو خيثمة لعمير : إن لى ذنباً فلا عليك أن تتخلف عنى حتى أتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ففعل ، فلما دنى أبو خيثمة قال الناس : هذا ركب مقبل ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : كن أبا خيثمة ، فلما دنى نظروه قالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :أولى لك ياأبا خيثمة . وأولى لك كلمة تهديد وتوعد ، ثم أخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خبره ، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خيراً ودعا له بخير ﵁ .

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ فى ديار ثمود

ولما مر ﴿ﷺ وآله﴾ بالحجر ديار ثمود سجى ثوبه على رأسه واستخف راحلته، وقال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم . . وإنما سجى ثوبه على رأسه ﴿ﷺ وآله﴾ لأن الغطاء يتبعه الفكر والاعتبار ، فكأنهم أمرهم بالفكر فى أحوال توجب البكاء من تقدير الله عز وجل على أولئك بالكفر ، مع

تمكينه لهم فى الأرض و إمهالهم فيها مدة طويلة ، ثم إيقاع نقمته بهم و شدة عذابه ، وهو سبحانه مقلب القلوب فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته مثل ذلك .

ونهى ﴿ﷺ وآله﴾ الناس أن يشربوا من مائها شيئاً ، وأن يتوضئوا للصلاة ، وأن يعجن منه ، وأن يحاس به حيس ، وأن يطبخ به طعام ، والعجين الذى عجن به ، أو الحيس الذى فعل به يعلفونه الإبل ، والطعام الذى طبخ به يلقى ولا يأكلون منه شيئاً .

ثم ارتحل ﴿ﷺ وآله﴾ بالناس و لم يزل سائراً بهم حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، وأخبرهم ﴿ﷺ وآله﴾ أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة، وقال : من كان له بعير فليشد عقاله ، ونهى الناس فى تلك الليلة عن أن يخرج أحد منهم وحده بل معه صاحبه ، فخرج شخص وحده لحاجته فخنق ، وخرج آخر فى طلب بعير له ند فاحتملته الريح حتى ألقته فى جبل طيىء، فأخبر بذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ، ثم دعا للذى خنق فشفى ، والذى ألقته الريح بجبل طيىء أرسلته طيىء له ﴿ﷺ وآله﴾ حين قدم المدينة .

دعاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يغيث الصحابة رضي الله عنهم

وكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصلى بالناس ، واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر فكان يطوف فى أصحابه . على العسكر ، وأصبح الناس يوما ولا ماء معهم وحصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم ، حتى حكمهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها ، فعن عمر رضي الله عنه خرجنا فى حر شديد فترلنا مترلاً أصابنا فيه عطش ، حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه و يجعل ما بقى على كبده، وفى لفظ : على صدره ، فشكوا ذلك للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له أبو بكر : يارسول الله قد عودك الله من الدعاء خيراً فادع الله لنا ، فقال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه ﴿ﷺ وآله﴾ فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابه فمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا ما يحتاجون إليه . وذكر بعضهم : أن تلك السحابه لم تتجاوز العسكر ، وأن رجلاً من الأنصار قال لآخر متهم بالنفاق: ويحك قد ترى ، فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة :٨٢). أى : وتجعلون بذل شكر رزقكم تكذيبكم حيث تنسبون المطر للأنواء . وقيل : إنه قال له : ويحك هل بعد هذا شىء ؟ قال : سحابه مارة . وفى لفظ : إنهم لما شكوا إليه شدة العطش قال : لعلى لو استسقيت لكم فسقيتم قلتم بنوء كذا وكذا فقالوا : يانبى الله ما هذا بحين أنواء ، فدعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بماء فتوضأ ، ثم قام فصلى فدعا الله تعالى فهاجت ريح وثارت سحابة فمطروا حتى سال كل واد ، فمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ برجل يغترف بقدحه وهو يقول : هذا نوء كذا . . فترلت الآية .

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ تعريف مكان الناقة الضالة

وضلت ناقته ﴿ﷺ وآله﴾ يوماً فقال رجل من المنافقين الذين خرجوا معه : إن محمداً يزعم أنه نبى وأنه يخبركم بخير السماء وهو لا يدرى أين ناقته ، فقال﴿ﷺ وآله﴾: إن رجلاً يقول كذا وكذا وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها ، إنها فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها ، فذهبوا فوجدوها كذلك ، فجاءوا بها .

قيل : وقع نظير هذا فى غزوة بنى المصطلق وأن الواقعة تعددت ، وقيل : إنه من الاشتباه على بعض الرواة .

ولما قال ﴿ﷺ وآله﴾ : إن رجلاً يقول كذا وكذا . . إلخ ، جاء بعض الصحابة إلى رحله وقال لمن فى الرحل : والله لعجب فى شيء حدثناه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن مقالة رجل قال كذا وكذا وأخبر الله نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ به ،فقال له بعض من فى الرحل : هذه المقالة قالها فلان قبل أن تأتى بيسير، يعنى : شخصاً حاضراً فى رحله ، فقال : يا عباد الله فى رحلى داهية وما أشعر ، أخرج ، أى : عدو الله ، من رحلى ولا تصحبنى فيقال : إنه تاب ، ويقال : إنه لم يزل على شر حتى هلك .

كن أبا ذر من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾

وتباطأ جمل أبى ذر ﵁ لما به من الإعياء فتخلف عن الجيش ، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ماشياً، فأدركه نازلاً فى بعض المنازل، وقبل مجيئه قالوا له : تخلف أبو ذر يارسول الله أبطأ به بعيره ، فقال :دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه. ولما أشرف على ذلك المترل ونظره شخص فقال: يارسول الله هذا رجل يمشى على الطريق وحده، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: كن أبا ذر، فلما تأمله القوم قالوا: يارسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: رحم الله أبا ذر يمشى وحده ، ويموت وحده ،

ويبعث وحده . وكان كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ فقد مات وحده بالربذة ﵁ ، سكنها فى خلافة عثمان ﵁ بسبب اختلاف وقع بينه وبين بعض الصحابة فى بعض ألفاظ القرآن وتفسير بعض من معانيه ، فخشى عثمان وأبو ذر رضى الله عنهما اتساع الأمر فاستأذن أبو ذر عثمان رضى الله عنهما أن يسكن الربذة فأذن له فبقى بها حتى توفى وحده كما أخبر ﴿ﷺ وآله﴾ .

لا يتوفى نبى حتى يؤمه رجل صالح

وعن المغيرة بن شعبة ﵁ قال : لما كنا بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لحاجته بعد الفجر ، وتبعته بماء فأبطأ حتى أسفر الناس بصلاة الفجر ولم يأتهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقدموا عبد الرحمن بن عوف ﵁ فصلى بهم ، فانتهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن توضأ ومسح خفيه إلى عبد الرحمن بن عوف وقد صلى ركعة ، فصلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع عبد الرحمن ركعة ، ثم قام وأتى بالركعة الثانية وقال لهم بعد فراغه : أحسنتم أو أصبتم ، ثم قال : لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح فى أمته .

وهذا لا ينافى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ صلى خلف أبى بكر ﵁ ، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يصل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ خلف أحد من أمته إلا خلف أبى بكر . والمراد صلاة كاملة ، فلا ينافى فى صلاته ركعة خلف عبد الرحمن بن عوف ولم ينقل أنه ﴿ﷺ وآله﴾ صلى خلف أحد غير أبى بكر وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما . وتقدم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان يستخلف أبا بكر ﵁ على عسكره يصلى بالناس ، فلعل ذلك فى بعض الأيام ، فلا ينافى صلاة عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بهم فى هذا اليوم ، أو أنه كان يصلى مع أبى بكر ﵁ بعض القوم ومع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بعض لكثرة القوم ، فلما تأخر ﴿ﷺ وآله﴾ فى قضاء الحاجة صلى عبد الرحمن ﵁ بالذين كانوا مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

قلة ماء عين تبوك

ولما نزلوا بتبوك وجدوا عينها قليلة الماء ، فاغترف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غرفة بيده من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه ، ففارت عينها حتى امتلأت . وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال : بلغ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن فى الماء قلة، أى: ماء عين تبوك ، وقد قال لهم : إنكم تأتون غدا إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تنالوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى ، وأمر مناديا نادى بذلك ، فجئناها فإذا العين مثل الشراك تبض من ماء ، وقد سبق إليها أربعة ، وقيل : رجلان من المنافقين ومسا من مائها فسبهما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما بلغه ذلك ، ثم أنهم غرفوا من تلك العين قليلا قليلا حتى اجتمع شيء فى شن فغسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير . وفى رواية : فجعلوا فيها سهاما دفعها إليهم فجاشت بالماء .

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ لمعاذ ﷺ : يامعاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملىء جنانا ، أى : بساتين ، فرأى ذلك وكان كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ .

ناموا عن صلاة الصبح

وقبل قدوم تبوك بليلة نام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح ، وقد كان قال لبلال ﷺ : اكلأ لنا الفجر ، فأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه ، ثم قال له ﴿ﷺ وآله﴾ : ألم أقل لك يابلال اكلأ لنا الفجر . وفى رواية : إن بلالا قال لهم : ناموا وأنا أوقظكم فاضطجعوا و لم يستيقظوا إلا بحر الشمس ، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أين ما قلت ؟ قال : يارسول الله ذهب بى مثل الذى ذهب بك . وفى رواية: أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . قال ﴿ﷺ وآله﴾ للصديق ﷺ : إن الشيطان صار يهدىء بلالا للنوم كما يهدأ الصبى للنوم حتى ينام ، ثم دعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بلالا فسأله عن سبب نومه ، فأخبره بما قاله النبى ﴿ﷺ وآله﴾ للصديق ،

فقال الصديق ﵁ للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ : أشهد أنك رسول الله ، ثم انتقل ﴿ﷺ وآله﴾ غير بعيد ثم صلى الصبح قضاء .

حفظك الله بما حفظت به نبيه ﴿ﷺ وآله﴾

وفى منصرفه ﴿ﷺ وآله﴾ من تبوك قال أبو قتادة ﵁ : بينما نحن مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو قافل من تبوك وأنا معهم إذ خفق خفقة- وهو على راحلته- فمال على شقه، فدنوت منه فدعمته فانتبه ، فقال : ياأبا قتادة هل لك فى التعريس ، أى : النزول للنوم ، فقلت : ما شئت يارسول الله ، قال : انظر من خلفك فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال : ادعهم ، فقلت : أجيبوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فجاءوا فعرسنا . وفى رواية : قال أبو قتادة : فبينما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يسير حتى ابهار الليل- وأنا إلى جنبه- فنعس فمال عن راحلته ، فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا تهور الليل مال ميلة أخرى فدعمته حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة- هى أشد من الميلتين الأولتين- حتى كاد يسقط فدعمته ، فرفع رأسه فقال : من هذا ؟ قلت : أبو قتادة ، قال : متى كان هذا مسيرك معى ؟ قلت : ما زال هذا مسيرى منذ الليلة ، قال : حفظك الله بما حفظت به نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ . وذكر بعضهم ذلك عند منصرفه من خيبر ، فيحتمل تعدد ذلك ، أو أنه من الاشتباه على بعض الرواة .

منزل حضرنا فيه الشيطان

ثم قال أبو قتادة ﵁ : ثم قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : هل ترى من أحد ؟ يعني من الجيش ، قلت : هذا راكب ، ثم قلت : هذا راكب آخر اجتمعنا وكنا سبعة . وفى رواية : خمسة برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فمال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن الطريق ثم قال : احفظوا علينا صلاتنا ، فنمنا حتى خرج الوقت ، وكان أول من استيقظ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والشمس فى ظهره ، فقمنا فزعين ، ثم قال : اركبوا فركبنا ، فسرنا حتى ارتفعت الشمس ، ثم دعا بميضئة كانت معى فيها شيء من ماء فتوضأ منها وبقى فيها شيء . وفى رواية : جرعة من ماء ، ثم قال : احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ . فصلى بنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الفجر بعد طلوع الشمس ، أى : بعد أن ارتحلوا . ففى رواية قال ﴿ﷺ وآله﴾ : ارتحلوا فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان .

إذا نام النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لم يوقظه أحد حتى يستيقظ

وفي البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما : كنا في سفر مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وإنا لنسير حتى في آخر الليل وقعنا وقعة ،ولا وقعة أحلى من المسافر منها ، فما أيقظنا إلا حر الشمس ، وكان النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إذا نام لم يوقظه أحد حتى يكون هو يستيقظ ، لأنا لا ندرى ما يحدث له في نومه ، أى : من الوحى ، فكانوا يخافون من إيقاظه قطع الوحى . فلما استيقظ عمر ﵁ ورأى ما أصاب الناس ، أى : من فوت صلاة الصبح ، كبر ورفع صوته بالتكبير ، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير ، حتى استيقظ النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

وفي رواية : أن الصديق استيقظ أولاً ثم لا يزال يسبح ويكبر حتى استيقظ عمر ، ولا زال يكبر حتى استيقظ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما استيقظ شكوا إليه الذى أصابهم ، أى :من فوت صلاة الصبح ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لا ضير ارحلوا ، فارتحلوا ، فسار غير بعيد ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ، ونودى بالصلاة فصلى بالناس . وعن بعض الصحابة

ﷺ قال:وبعد أن صلينا وركبنا جعل بعضنا يهمس إلي بعض ، ما كفارة ما صنعنا من تفريطنا في صلاتنا ؟ فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ما هذا الذى تهمسون دونى ؟ قلنا : يانبى الله تفريطنا في صلاتنا قال: أما لكم فيَّ أسوة ، ثم قال : ليس في النوم التفريط ، إنما التفريط علي من لم يصل الصلاة حتى يجئ وقت الأخرى .

وقد اختلفت الروايات في حكاية هذه القصة ، فرواها بعضهم في غزوة خيبر ،وبعضهم في الحديبية ، وبعضهم في تبوك ،فاختلف العلماء في توجيه ذلك ،فذهب بعضهم إلى تعدد القصة ، وبعضهم حمل ذلك على الاشتباه من الرواة ، وجزم بعضهم بأها فى غزوة تبوك .

واستشكل هذا النوم بقوله ﴿ﷺ وآله﴾ : نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا . وأجيب بأن القلب إنما يدرى المعانى المتعلقة به لا ما يتعلق بالعين كرؤية الشمس وطلوع الفجر .

من أعلام نبوته نبع الماء من بين أصابعه

ثم إن أكثر الجيش كان قد تقدم ، وما بقى معه ﴿ﷺ وآله﴾ إلا سبعة أو خمسة كما تقدم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لمن كان معه : ما ترون الناس ؟ يعنى : الجيش ، فعلوا ؟ قالوا:الله ورسوله أعلم ، فقال : لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا، وذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما أرادا أن يترلا بالجيش على الماء، فأبوا ذلك عليهما فترلوا عند زوال الشمس على غير ماء بفلاة من الأرض لا ماء بها، وقد كانت أعناق الخيل والركاب تنقطع عطشا، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أين صاحب الميضأة ؟ فقيل : هو ذا يارسول الله، قال: جئنى بميضئتك، فجاء بها وفيها شيء من الماء . وفى رواية : دعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالركوة فأفرغ ما فى الأدواء فيها ، ووضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء من بين أصابعه وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى رووا وروت خيلهم وركاهم . قال بعضهم: وواضح أن هذا العطش غير المتقدم الذى دعا فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فترل المطر .

وفى كلام بعضهم أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما حصل للقوم العطش أرسل نفرا من أصحابه وفيهم على والزبير رضى الله عنهما ، لكن تقدم أن عليا ؓ تخلف فى غزوة تبوك ، فإن صح إرساله مع النفر فلعله لحق النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، أو أن ذلك كان فى غزوة أخرى بعث ﴿ﷺ وآله﴾ النفر لطلب الماء ، وأمرهم أن يستعرضوا الطريق، وأعلمهم أن عجوزا تمر فى محل كذا على ناقة معها سقاء، فقال لهم : اشتروا منها ماءها بما عز وهان، وائتوا بها مع الماء ، فلما بلغوا ذلك المكان، إذ بالمرأة ومعها السقاء فسألوها عن الماء ، أنا وأهلى أحوج إليه منكم ، فسألوها أن تأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع الماء فأبت وقالت : هذا الساحر . وفى رواية : الذى يقال له الصابىء ، وخير الأشياء أن لا آتيه ، فشدوها وساقا وأتوا بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال لهم : حلوا عنها ، ثم قال لها : أتأذنين لى فى الماء ولتصيبين ماءك كما جئت به ، قالت : شأنكم ، فقال لأبى قتادة ؓ : هات الميضأة ، فقربت إليه محل السقاء ، وتفل فيه وصب فى الميضأة ماء قليلا ، ثم وضع يده فيه ، ثم قال ادنوا منى فجعل الماء يفور ويزيد ، والناس يأخذوا منه حتى ما تركوا معهم إناء إلا ملأوه وأرووا إبلهم وخيلهم ، وبقى فى الميضأة ثلثاها . والميضأة هى الأداوة التى يتوضأ منها .

وهذا السياق يدل على أن هذا العطش ثالث ، لأن الثانى وضع ﴿ﷺ وآله﴾ يده فى الركوة التى صب فيها فى الميضأة ، وفى هذا وضع يده فى الميضأة بعد أن لم يجدوا فى الميضأة شيئا.وفى رواية: أن تلك المرأة أخبرته ﴿ﷺ وآله﴾ أنها مؤتمة، أى: لها التام، فقال للقوم: هاتوا ما عندكم فجمعوا لها فى كسر وتمر، ثم قال لها: اذهبى واطعمى هذا عيالك . وفى رواية : أينا ملك، وصارت تعجب مما رأت ولما قدمت على أهلها قالوا لها : لقد احتيستي علينا، فقالت: حبسنى أنى رأيت عجبا أرأيتم مزادتى هاتين فوالله لقد شرب منهما قريب من تسعين نفرا، وملؤا فى القرب والمزاد وأعطاهما ما لا أحصى ، ثم هما الآن أوفر منهما يومئذ، فإما أن يكون هذا الرجل أسمر أهل الأرض، وإما يكون نبى كما

يقول، فكان الصحابة يغزون على من كان حولها ممن لم يسلم ويتركونها وقومها، فكان الناس يقولون: ما رأينا امرأة أدخلت على قومها من البركة مثل ما أدخلت هذه المرأة على قومها.

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ تكثير الطعام

وفى مسلم لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة بحيث صارت تمص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها فقالوا: يارسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال عمر ﵁ : يارسول الله إن فعلت فنى الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها فى ذلك، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : نعم، فدعا بنطع فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتى بكف ذرة، ويجىء الآخر بكف من تمر، ويجىء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير، فدعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالبركة، ثم قال لهم، خذوا فى أوعيتكم، فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه،وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة.

وفى رواية : إلا وقاه الله من النار . وتقدم نظير ذلك فى الرجوع من غزوة الحديبية ولا مانع من التعدد.

ولعل هذا كان بعد أن أذبح لهم طلحة بن عبيد الله جزورا فأطعمهم وسقاهم، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أنت طلحة الفياض ، وسماه يوم أحد طلحة الخير، ويوم حنين طلحة الجود، لكثرة إنفاقه على العسكر ﵁.

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ تكثير السمن والتمر

وعن بعض الصحابة ﵁ قال : كنت فى غزوة تبوك على نحى السمن، فنظرت إلى النحى وقد قل ما فيه، وهيأت للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ طعاما ووضعت النحى فى الشمس

ونمت، فانتهيت بخرير النحى فقمت فأخذت رأسه بيدى، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد رأى: لو تركته لسال الوادى سمنا .

وعن العرباض بن سارية ﵁ قال: كنت مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بتبوك فقال ليلة لبلال: هل من عشاء؟ فقال : والذى بعثك بالحق لقد نفضنا جربنا، فقال: انظر عسى أن تجد شيئا، فأخذ الجرب ينفضها جرابا جرابا فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت فى يده ﴿ﷺ وآله﴾ سبع تمرات، ثم دعا بصحفة فوضع التمر فيها، ثم وضع يده الشريفة على التمرات وقال : كلوا بسم الله، فأكلنا ثلاثة أنفس، وأحصيت أربعا وخمسين تمرة أعدها عدا عدا ونواها فى يدى الأخرى، وصاحباى يصنعان كذلك، فشبعنا ورفعنا أيدينا، فإذا بالتمرات السبع كما هى، فقال: يابلال ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعا.

فلما كان من الغد عاد ﴿ﷺ وآله﴾ بلالاً بالتمرات، فوضع ﴿ﷺ وآله﴾ يده الشريفة عليهن ثم قال: كلوا باسم الله، فأكلنا حتى شبعنا، وإنا لعشرة، ثم رفعنا أيدينا، وإذا التمرات كما هى، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: لولا أن استحى من ربى لأكلنا من هذه التمرات حتى نرد إلى المدينة من آخرنا، فأعطاهن غلاماً فولى وهو يلوكهن.

خالد بن الوليد يفتح دومة الجندل

ولما وصل ﴿ﷺ وآله﴾ تبوك أرسل خالد بن الوليد ﷺ فى أربعمائة فارس إلى أكيدر ابن عبد الملك النصرانى- وكان ملكاً عظيما من قبل هرقل بدومة الجندل، وذلك حصن وقرى بينها وبين الشام خمس ليال- وقال له: إنك ستجده ليلاً يصيد البقر، فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه فى ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد فاستأسروا أكيدر وقتلوا حساناً، وكان عليه قباء من ديباج مخوض بالذهب، فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قبل قدومه، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم فيعجبون منه، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : أتعجبون من هذا ؟فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد- يعنى سعد بن معاذ- فى الجنة أحسن من هذا . وهرب من كان معهما فدخلوا الحصن وأغلقوه، ثم أجاز خالد أكيدر من القتل حتى يأتى به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على أن يفتح لخالد دومة الجندل، وصلحه على ألفى بعير، وثمانمائة فرس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، ففتح الحصن، فدخله خالد وأخذ ما صالحه عليه وخمَّسه، ثم قدم بأكيدر على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فحقن ﴿ﷺ وآله﴾ دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله.

كتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأهل أيلة وجرباء وأذرح وميناء

وأتاه ﴿ﷺ وآله﴾ وهو بتبوك يوحنا بن روية وهو صاحب أيلة ومعه أهل جرباء- وهى قرية بالشام- وأهل أذرح- مدينة هناك- فأهدى صاحب أيلة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بغلة بيضاء، فكساه ﴿ﷺ وآله﴾ بردا، فصالح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على إعطائه الجزية، بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وكتب له ﴿ﷺ وآله﴾ ولأهل أيلة كتاباً صورته:(بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله و محمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤية وأهل أيلة، سفنهم وسيارالهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله و محمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحوز ماله

دون نفسه وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر).

وكتب لأهل أذرح وجرباء ما صورته:(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد النبى لأهل أذرح وجرباء، أهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين).

وصالح ﴿ﷺ وآله﴾ أهل ميناء على ربع ثمارهم .

إغاظة الكفار وعز المسلمين وفضيحة المنافقين

وأقام ﴿ﷺ وآله﴾ بتبوك بضع عشرة ليلة، وقيل عشرين ليلة و لم يجاوزها، و لم يلق كيداً، وفرّ الناس من أهل الكتاب وغيرهم رعباً منه ﴿ﷺ وآله﴾ عند سماعهم بمسيره ﴿ﷺ وآله﴾، فكان من حكمة الله تعالى فى هذه الغزوة ما حصل من إغاظة الكفار، وظهور عز المسلمين،وفضيحة المنافقين وإذلالهم.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يدفن ذا البجادين بيده الشريفة

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: رأيت وأنا بتبوك شعلة من نار فى ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات، وإذا هم قد حفروا له،ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه، وهو يقول: أدليا إلىَّ أخاكما، فأدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال:اللهم قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه. يقول ابن مسعود: ياليتنى كنت صاحب الحفرة، أى: والبجاد والكساء المخطط الغليظ، لأنه لم يكن لعبد الله المذكور ﵁ إلا بجاداً واحداً فشقه نصفين فأتزر بواحد وارتدى بالآخر. وقدم المدينة وأسلم وقرأ قرآناً كثيراً، وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾عبد الله، ولما خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى تبوك خرج معه وقال: يارسول الله ادع الله لى بالشهادة، فقال له ﴿ﷺ وآله﴾: ائتنى بلحاء شجرة، أى: بقشرها، فأتاه بذلك فربطه ﴿ﷺ وآله﴾ على عضده

وقال: اللهم حرم دمه على الكفار، قال: يارسول الله ليس هذا ما أردت، قال: إنك إذا أخذتك الحُمى فقتلتك لأنت شهيد، فأخذته الحُمى بعد الإقامة بتبوك أياما ومات بهاﷺ.

الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يرجع للمدينة دون قتال

واستشار ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه فى مجاوزة تبوك، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: يارسول الله إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه ، فقالوا : يارسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمرا .

وخطب ﴿ﷺ وآله﴾ خطبة فيها : أما بعد، فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى،ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، والنساء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، والسعيد من وعظ بغيره، ومن يغفر يغفر له، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله..استغفر الله لى ولكم.

وأهدى له ﴿ﷺ وآله﴾ بعض أهل الكتاب جبنة،فدعا بالسكين فسمى الله وقطع وأكل ﴿ﷺ وآله﴾ ، ثم انصرف ﴿ﷺ وآله﴾ قافلا إلى المدينة، وبنى فى طريقه عشرين مسجدا.

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ وهو راجع إلى المدينة

وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل قليل جدا، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه، فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا الماء الذى فيه ، فلما أتاه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقف عليه فلم يجد فيه شيئا، فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: فلان وفلان، فقال: أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه، ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل ﴿ﷺ وآله﴾ فوضع يده تحت الوشل فصار يصب فى يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به ومسحه بيده، ودعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بما

شاء أن يدعو به، فانخرق من الماء، وكان له حس كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: لئن بقيتم أو أبقى منكم أحد لتسمعن بهذا الوادى وقد أخضب ما بين يديه وما خلفه، أى: وهذا خلاف عين تبوك التى تقدم له ﴿ﷺ وآله﴾ فيها ما يشبه هذا . وقوله لمعاذ: يامعاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملىء جناناً إلى آخره، لأن تلك العين كانت بتبوك وهذا عند منصرفه من تبوك ﴿ﷺ وآله﴾ .

المنافقون يضمرون كيدا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

واجتمع رأى من كانوا معه من المنافقين وهو إثنا عشر رجلاً، وقيل: أربعة عشر، وقيل: خمسة عشر رجلاً، على أن ينكثوا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى العقبة التى بين تبوك والمدينة، فقالوا: إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادى وسلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ العقبة، فلما سمعوا بذلك المنافقين استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة، وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ عمار بن ياسر رضى الله عنهما أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما أن يسوق من خلفه .

وفى الدلائل عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال: كنت ليلة العقبة آخذ بخطام ناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقود به وعمار بن ياسر يسوقه، أو أنا أسوقه وعمار يقوده، أى: يتناوبا ذلك، فبينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه فنفرت ناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى سقط بعض متاعه، فغضب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه محجن، فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال: إليكم إليكم ياأعداء الله، فإذا هو بقوم ملثمين . وفى رواية: إنه ﴿ﷺ وآله﴾ صرخ بهم فولوا مدبرين، فعلموا

أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اطلع على مكرهم به . فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس . فرجع حذيفة يضرب الناقة، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : هل عرفت أحداً من الركب الذين رددهم؟ قال: لا، كان القوم ملثمين، والليلة مظلمة .

وعن ابن عمرو الأسلمى ﵁ أنه كان يقول: لما سقط متاع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأردت جمعه نور لى فى أصابعى الخمس فأضاءت حتى جمعت ما سقط، حتى ما بقى من المتاع شىء .

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يفضح كيد المنافقين

وفى لفظ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وراحلة فلان، قال: هل علمت ما كان من شأنهم وما أرادوه؟ قال: لا، قال: إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة فيزحمونى فيطرحونى منها، إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم وسأخبر كما بهم واكتماهم . فلما أصبح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جاء إليه أسيد بن حضير فقال: يارسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادى فقد كان أسهل من سلوك العقبة، فقال: أتدرى ما أراد المنافقون وذكر القصة، فقال يارسول الله: قد نزل الناس واجتمعوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى همَّ بهذا، فإن أحببت بيّن بأسمائهم، والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم، فقال: يارسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أليس يظهرون الشهادة؟!! ثم جمعهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبرهم بما قالوه، وما أجمعوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر، فأنزل الله تعالى:﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ (التوبة: ٧٤) وأنزل الله تعالى:﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾(التوبة: ٧٤). ودعا عليهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: اللهم أرمهم بالدبيلة، وهى سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من ظهورهم .

صاحب سر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

وكان يقال لحذيفة ﷺ: صاحب سر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال حذيفة: نزل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن راحلته فأوحى الله إليه راحلته باركة، فقامت تجر زمامها فلقيتها فأخذت بزمامها، وجئت إلى قرب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأنختها، ثم جلست عندها حتى قام النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فأتيته بها، فقال: من هذا؟ قلت: حذيفة، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : إنى مسر إليك سرا فلا تذكرنه، إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان، وعد جماعة من المنافقين فلما توفى ﴿ﷺ وآله﴾ كان عمر بن الخطاب ﷺ فى خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك، أخذ بيد حذيفة ﷺ فناداه إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه سيدنا عمر ﷺ ، وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه .

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ عند انصرافه: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا . كانوا معكم، قالوا: يارسول الله وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر.

قصة مسجد ضرار

ثم أقبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى نزل بذى أوان- محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار- وقال البكرى: أظن أن الراء سقطت من بين الهمزة والواو أى أروان منسوب إلى البئر المشهور . وحين نزل ﴿ﷺ وآله﴾ أتاه خبر مسجد الضرار فأنزل الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (التوبة: ١٠٧) أى: لإضرار أهل قباء، فإن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء حسدتهم أخوتهم بنو تميم بن عوف، وقالوا: نصلى فى مربط حمار لا لعمر الله، أى: لأنه كان لامرأة تربط فيها حمارها، ولكننا نبنى مسجدا، ونرسل إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يصلى فيه ويصلى فيه. أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فيثبت لنا الفضل والزيادة على إخوتنا، وكان المسلمون فى تلك الناحية كلهم يصلى فى مسجد قباء، فلما بنى هذا المسجد صرف عن مسجد قباء جماعته وصلوا بذلك المسجد، فكان به تفريق

للمؤمنين، فكانوا يجتمعون فيه ويعيبون النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ويستهزئون به، ويقال : إن أبا عامر الراهب الذى سماه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ الفاسق هو الآمر لهم ببنائه، فقال لهم: ابنوا لى مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة. وأنهم لما فرغوا من بنائهم أرسلوا إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يأتيهم ويصلى فيه كما يصلى فى مسجد قباء، فهمَّ أن يأتيهم فأنزل الله تعالى الآية.

وفى رواية: أتوه ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يارسول الله قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، قال : إنى على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما قفل من المسير وسألوه إتيان المسجد، جاءه ﴿ﷺ وآله﴾ الخبز من السماء، فأمر جماعة منهم وحشى قاتل حمزة ﵁ وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاحرقوه واهدموه على أصحابه، ففعل به ذلك . وكان ذلك بين المغرب والعشاء ووصل الهدم إلى الأرض، وأعطاه ﴿ﷺ وآله﴾ لثابت بن أرقم ﵁ يجعله بيتاً .

ولما أشرف ﴿ﷺ وآله﴾ على المدينة قال: هذه طابة اسكننيها ربى تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد. فلما قرب منها خرج الناس لتلقيه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وقد كان المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أخبار السوء، يقولون: إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، فلما بلغتهم سلامة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه وبان لهم كذبهم ساءهم ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿ﷺ وآله﴾ إن تصبك حسنة تسوءهم ﴿ﷺ وآله﴾ (التوبة: ٥٠).

الفرح بقدومه ﴿ﷺ وآله﴾

وخرج مع الناس لتلقيه ﴿ﷺ وآله﴾ النساء والصبيان والولائد، وصعدت المخدرات على الأسطحة يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعى لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وقد ذكر بعضهم هذا عند مقدمه إلى المدينة، ولا مانع من تعدد ذلك.

ولما دخل المدينة ﴿ﷺ وآله﴾ قال له العباس بن عبد المطلب ﵁ :أتأذن لى يارسول الله أن أمتدحك قال: قل لا فض الله فاك فقال:

من قبلها طبت فى ظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
وردت نار الخليل مكتتما فى صلبه أنت كيف يحترق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض فضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذاك الضياء وفى النور وسبل الرشاد نخترق

موفقه ﴿ﷺ وآله﴾ من المخلفين المنافقين

ولما دنا من المدينة تلقاه أيضاً عامة الذين تخلفوا، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه: لا تكلموا رجلاً منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم، فأعرض عنهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمون حتى أن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه.

وعن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما غزا غزوة تبوك جهد الظهر جهداً شديدا حتى صاروا يسوقونه، فشكوا إليه ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك، ورآهم يسوقونه، فوقف

﴿ ﷺ وآله﴾ فى مضيق والناس يمرون فيه فنفخ فى الظهر وقال: اللهم احمل عليها فى سبيلك، فإنها تحمل على القوى والضعيف، والرطب واليابس، فى البر والبحر، فزال ما بها من الإعياء، وما دخلنا إلا وهى تنازعنا أزمتها . وهى من معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وقد كان تخلف من المنافقين بضعة وثمانون رجلا . وتخلف أيضا كعب بن مالك رضي الله عنه وكان من الخزرج، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضى الله عنهما، ولم يكن الثلاثة من أهل النفاق .

فأما المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتذرون، فقبل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ظاهرهم وعلانيتهم واستغفر لهم، ووكل سريرتهم إلى الله تعالى .

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وأما الثلاثة فأرجأهم وأخر أمرهم ينتظر أمر الله تعالى فيهم ، وأنزل الله تعالى فيهم:﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٦). نزلت هذه الآية فى أول أمرهم، ونزل فى آخر أمرهم عند قبول توبتهم رضي الله عنهم :﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ (التوبة: ١١٨).

وكان كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث عن تخلفه وصاحبيه فى غزوة تبوك، ففى البخارى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك – وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، وكان بنيه أربعة عبد الله ، وعبد الرحمن، ومحمد، وعبيد الله – قال: سمعت أبى كعب بن مالك يحدث عن حديثه حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب، أى: الله ، أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى بدر يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم، أى: بين المسلمين، وبين عدوهم كفار قريش على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليلة العقبة مع الأنصار حين تواثقنا، أى: تعاهدنا، وتعاقدنا على الإسلام

والإيواء والنصرة قبل الهجرة، وما أحب أن لى بها، أى: بدلها، مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر، أى: أعظم ذكر فى الناس منها، كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر، أى: منى_ كما فى مسلم _ حين تخلفت عنه ﴿ﷺ وآله﴾ فى تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعددا كثيرا، وذلك أن الروم جمعت جموعا كثيرة، وهرقل رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء فجلى، أى: أوضح، للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم ﴿ﷺ وآله﴾ بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان، أى: لكثرتهم، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى، أى: لكثرة الجيش، ما لم ينزل فيه وحى، وغزا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال . وفى رواية ابن موسى بن عقبة عن ابن شهاب: فى قيظ شديد فى ليالى الخريف، والناس خارفون فى نخيلهم .

وتجهز رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمون معه، فطفقت فأخذت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا من جهازى، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه متى شئت، فلم يزل يتمادى بى الحال حتى اشتد بالناس الجد، وهو الجهد فى الشيء والمبالغة فيه، فأصبح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمون معه ولم أقض من جهادى شيئا، فقلت: أتجهز بعده

﴿ﷺ وآله﴾ بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت، ولم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، أى: فات وسبق، وهممت أن أرتحل فأدركهم_ وليتنى فعلت ذلك_ فلم يقدر

لى ذلك (فيه أن المرء إذا لاحت له فرصة فى الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولا يسوف بها لئلا يحرمها). قال كعب: فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فطفت فيهم، أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أى: يظن به النفاق، ويتهم به، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى مسلمة وهو عبد الله بن أنيس السلمى الصحابى المشهور: يارسول الله حبسه برداه (تثنية برد) ونظره فى عطفيه، أى: جانبيه، كناية عن كونه معجبا بنفسه، ذا زهو وتكبر، أو لباسه،أو كنى به عن حسنه وبهجته . والعرب تصف الرداء بصفة الحسن وتسميه عطفا لوقوعه على عطفى الرجل ، فقال معاذ ابن جبل ﵁ له : بئس ما قلت ، والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . قال كعب بن مالك : فما بلغنى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ توجه قافلا ، أى: راجعا إلى المدينة . حضرنى همى فطفقت أتذكر الكذب . وعند ابن أبى شيبة: وطفقت أعد العذر لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا جاء، وأهيىء الكلام وأقول بماذا أخرج من سخطه، واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل: إن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قد أظل قادما، أى: دنا قدومه، زاح، أى: زال عنى الباطل، وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه، أى: جزمت به، وعقدت عليه قصدى. ولابن أبى شيبة: وعرفت أنه لا ينجينى منه إلا الصدق. وأصبح رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قادما فى رمضان كما قال ابن سعد.

وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع ركعتين فركعها، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك، جاءه المتخلفون الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم عن غزوة تبوك فطفقوا يعتذرون، أى: يظهرون العذر إليه ﴿ ﷺ وآله﴾، ويحلفون له_ وكانوا بضعة وثمانين رجلا من منافقى الأنصار قاله الواقدى _ وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين

وثمانين رجلا من غفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي بن سلول ومن أطاعه من قومه من غير هؤلاء، وكانوا عدد كثير فقبل منهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ علانيتهم ، أي: ظواهرهم، وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى .

قال كعب: فجئته ﴿ﷺ وآله﴾ فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب بفتح الضاد، ثم قال: تعال أمشى حتى جلست بين يديه، وعند ابن عائذ فى مغازيه: فأعرض عنه ، فقال: يانبى الله لم تعرض عنى فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت؟ فقال لى: ما خلفك عن الغزو؟ ألم تكن قد ابتعت، أى: اشتريت ظهرك، قال: فقلت: بلى، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا وفصاحة وقوة كلام، بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلى مما يقبل ولا يرد، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط على ، ولئن حدثتك اليوم حديث صدق تجد، أى: تغضب، على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله عنى، لا والله ما كان من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك ما يشاء، فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك ، أى: من ذنبك ، استغفار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لك ، فوالله ما زالوا يؤنبونى ، أى: يلوموننى لوما عنيفا، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى، ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما: مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفى بنسبة إلى بنى واقف ابن امرؤ القيس .

وعند ابن أبى حاتم من مرسل الحسن أن سبب تخلف الأول أنه كان له حائط حين زهى ، فقال فى نفسه:قد غزوت قبلها، فلو أقمت عامى هذا فلما تذكر ذنبه، قال: اللهم

إنى أشهدك أنى قد تصدقت به فى سبيلك . وأن الثانى كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا، فقال: لو أقمت هذا العام عندهم فلما تذكر ذنبه، قال: اللهم لك على أن لا أرجع إلى أهلى ولا مالى فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة. قال كعب: فمضيت حين ذكروهما لى، أى: الرجلين.

درس تربوى للمريدين

ونهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، أى: خصوصا الثلاثة، كقوله: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت، أى: تغيرت، فى نفسى الأرض، فما هى الأرض التى أعرف لتوحشها على، وهذا يجده الحزين والمهموم فى كل شيء حتى يجده فى نفسه.

قال السهيلى: وإنما اشتد الغضب على من تخلف، وإن كان الجهاد فرض كفاية، لكنه فى حق الأنصار فرض عين، لأنهم كانوا بايعوا على ذلك، ومصداق ذلك قولهم وهم يحفرون الخندق: نحن الذى بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا، فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة، لأنه كالنكس لبيعتهم .

وعند الشافعية: أن الجهاد كان فرض عين فى زمنه ﴿ﷺ وآله﴾ .

قال كعب: فلبثنا على ذلك خمسين ليلة_ استنبط منه جواز الهجران أكثر من ثلاث .

وأما النهى عن الهجر فوق ثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعى_ فأما صاحباى مرارة وهلال فاستكانا وقعدوا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم، أى: أقواهم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف، أى: أدور، فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا؟ إنما لم يجزم بتحريك شفتيه ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه لم يكن يديم النظر إليه من الخجل . ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر، أى: أنظر إليه فى خفية، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل ﴿ﷺ وآله﴾

إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس، أى: من إعراضهم، مشيت حتى تسورت، أى: علوت، جدار حائط أبى قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى ﷺ ، أى: بستانه، وهو ابن عمى لأنه من بنى سلمة_ وليس هو ابن عمه أخا أبيه الأقرب_ وأحب الناس إلى فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام لعموم النهى عن كلامه_ فقلت: ياأبا قتادة أنشدك، أى: أسألك، بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشتدته، أى: فسألته، بالله كذلك، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، وليس ذلك تكليم لكعب لأنه لم ينو به ذلك لأنه منهى عنه، بل أظهر اعتقاده، فلو حلف لا يكلم زيدا فسأله عن شىء فقال: الله أعلم ولم يرد جوابه ولا أسمعه فلا يحنث، ففاضت عيناى حتى تسورت الجدار للخروج من الحائط.

قال: فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام فلاحا_ وكان نصرانيا ولم يسمعه_ ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إلى، يعنى ولا يتكلمون، مثلا بقولهم هذا كعب، مبالغة فى هجره والإعراض عنه، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان جبلة بن الأيهم، أو هو الحارث بن أبى شمر.

وعند ابن مردويه: فكتب إلى كتابا فى سرقة من حرير، فإذا فيه: أما بعد، فإن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، أى: حيث يضيع حقك، فالحق بنا نواسك_ من المواساة_ فقلت لما قرأتها، أى: الصحيفة المكتوب فيها، وهذا أيضا من البلاء.

وعند ابن أبى شيبة: قد طمع فى أهل الكفر فتيممت، أى: قصدت بها التنور، أى: الذى يخبز فيه، فسجرته، أى: أوقدته، بها وهذا يدل على قوة إيمانه، وشدة محبته لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

وعند ابن عائذ: أنه شكا حاله إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: ما زال إعراضك عنى حتى رغب فى أهل الشرك.

شدة البلاء بداية الفرج

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال الواقدى: هو خزيمة بن ثابت، قال: وهو الرسول إلى مرارة وهلال بذلك، ولأبى ذر إذا رسول لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأتينى فقال: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأمرك أن تعتزل امرأتك عميرة بنت جبير الأنصارية، أم أولاده الثلاثة، أو هى زوجته الأخرى خيرة، فقلت: أأطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك، فقلت: لامرأتى الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر، فلحقت بهم .

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية خولة بنت عاصم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقالت: يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضايع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك_ بالجزم على النهى _ قالت: إنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . .

قال كعب: فقال لى بعض أهلى_ قال: فى الفتح لم يقف على اسمه_ واستشكل هذا مع النهى عن كلام الثلاثة منه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأجيب بأنه عبر عن الإشارة بالقول فلم يقع الكلام اللسانى وهو المنهى عنه. قال ابن الملقن: وهذا بناء منه على الوقوف عند اللفظ وإطراح جانب المعنى وإلا فليس المقصود بعدم المكالمة عدم اللفظ باللسان فقط، بل المراد هو وما كان بمثابته من الإشارة المفهمة لما يفهمه القول باللسان . وقد يجاب بأن النهى كان خاصا بمن عدا زوجة هلال وغشيانه إياها، وقد أذن لها فى خدمته، ومعلوم أنه لابد فى ذلك من مخالطة وكلام، فلم يكن النهى شامل لكل أحد، وإنما هو شامل لمن لا تدعو حاجة هؤلاء إلى مخالطته، وكلامه من زوجة وخادم ونحو ذلك.

فلعل الذى قال لكعب من أهله: لو استأذنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى امرأتك لتخدمك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، كان ممن لم يشمله النهى، قال كعب: قلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وما يدرينى ما يقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب قوى على خدمة نفسى، فلبثت بعد ذلك عشرة ليال كملت_ بفتح الميم_ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن كلامنا أيها الثلاثة.. فلما صليت صلاة الفجر صابح خمسين ليلة_ وأنا على ظهر بيت من بيوتنا _ فبينا أنا جالس على الحال التى قد ذكر الله، قد ضاقت على نفسى ، أى: قلبى، لا يسعه أنس ولا سرور من فرط الوحشة والغم، وضاقت على الأرض بما رحبت . رحبها، أى: سعتها، وهو مثل للحيرة فى أمره، كأنه لا يجد فيها مكانا يقر فيه قلقا وجذعا، وإذا كانوا هؤلاء لم يأكلوا مالا حراما، ولا سفكوا دما حراما، ولا أفسدوا فى الأرض، وأصابهم ما أصابهم، فكيف بمن واقع الفواحش والكبائر؟!!. وجواب بينا قوله: سمعت صوت صارخ أوفى، أى: أشرف، على جبل سلع بأعلى صوته: ياكعب بن مالك أبشر، وكان الذى أوفى على سلع أبا بكر الصديق ، فصاح: قد تاب الله على كعب، قال كعب: فخررت ساجدا شاكرا لله، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن ، أى: أعلم ، رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بتوبة الله علينا حين صلى الناس صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا أيها الثلاثة بتوبة الله علينا، وذهب قبل صاحبى مرارة وهلال مبشرون يبشرونهما، وركض إلى رجل فرسا. وعند الواقدى: أنه الزبير رضي الله عنه ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أعلى من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته هو حمزة الأسلمى يبشرنى، نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه لى بتوبة الله تعالى على، والله ما أملك من الثياب غيرهما يومئذ_ وقد كان له مال غيرهما كما صرح به فيما يأتى_ واستعرت ثوبين، أى: من أبى قتادة كما عند الواقدى، فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فيتلقانى الناس

فوجا فوجا_ جماعة جماعة_ يهنونى، ولأبى ذر يهنوننى بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك. قال كعب : حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحتى وهنانى. والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره_ وكانا أخوين آخا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بينهما_ وذكر أهل المغازى: أنه كان أخا الزبير، لكن كان الزبير أخا فى أخوة المهاجرين، فهو أخو أخيه. ولا أنساها لطلحة، أى: هذه الخصلة، أى: لا أزال أذكر إحسانه إلى بذلك، وكنت رهين مسرته. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، أى: سوى يوم إسلامه وهو مستثنى تقديرا وإن لم ينطق به، أو أن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير من جميع أيامه، وإن كان يوم إسلامه خيرها، فيوم توبته المضاف إلى إسلامه خير من يوم إسلامه المجرد عنها . قال كعب: قلت أمن عندك يارسول الله أم عند الله تعالى ؟ قال: لا، بل من عند الله. زاد بن أبى شيبة: أنتم صدقتم الله فصدقكم.

وكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف منه ذلك، فلما جلست بين يديه ﴿ﷺ وآله﴾ قلت: يارسول الله إن من توبتى ان أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله، أى: صدقة خالصة لله ولرسوله، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ له خوفاً من تضرره بالفقر وعدم صبره على الإضاقة: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر، فقلت:

يارسول الله إن الله إنما نجانى بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحد من المسلمين أبلاه الله، أى: أنعم عليه، فصدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ أحسن مما أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى يومى هذا كذباً، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسوله:﴿ لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (التوبة:١١٧) أى: تجاوز عنه إذنه للمنافقين فى التخلف كقوله تعالى:﴿ عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٣) ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ فيه حث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ والمهاجرين والأنصار، وإن تفاوتت مراتب التوبة إلى قوله تعالى: ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩) فى إيمانهم دون المنافقين، أو مع الذين لم يتخلفوا، فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن لا أكون كذبته، أى: أن أكون كذبته فلا زائدة كقوله تعالى:﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ (ص: ٧٥) فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ ﴾ (التوبة: ٩٥) أى: رجعتم إليهم من الغزو إلى قوله:﴿ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٩٦) أى: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم،وأرجأ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى:

﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ (التوبة: ١١٨) وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وقدم ﴿ﷺ وآله﴾ من تبوك فى رمضان سنة تسع، وبعد قدومه ﴿ﷺ وآله﴾ وجد عويمر العجلانى امرأته حبلى فقذفها بشريك بن سحماء، فلاعن بينهما ﴿ﷺ وآله﴾ فى المسجد بعد العصر، بعد أن دعا عويمر وقال له: اتق الله فى زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان ، ودعا امرأته خويلة وقال لها: اتقى الله ولا تخبرينى إلا بما صنعت . . وقصتهما طويلة فى الصحيحين وغيرهما .

حكمة حوادث غزوة تبوك

تقرر أن الله بعث حبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾ رحمة للعالمين، فكانت كل أعماله صلوات الله عليه وأحواله لا تخلو من حكمة، بل من حكم لا تحصى، وأسرار لا تستقصى. فإن أعماله ﴿ﷺ وآله﴾ فى المغازى أكمل دروس عملية يتلقاها المجاهدون منه ﴿ﷺ وآله﴾ ويلقونها على أبنائهم ومن بعدهم، وهى الأصول التى يستنبط منها الفقيه الأحكام الشرعية عزائمها ورخصها، وهى الروض الجنى الذى يقتطف منه مريد الله سبحانه وتعالى أكمل أزهار الآداب والأخلاق، وأجمل أنواع المعاملات، وهى المشهد الذى يتجلى فيه كمال الإخلاص لله، وحقيقة الصدق مع الله، وحسن الثقة به سبحانه وتعالى، ويتحلى فيه شاهده بحلة الزهد فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة، وبذل النفس والنفيس فى محبة الله سبحانه، وإعلاء كلمته جل جلاله .

والجهاد هو الحجة الواضحة التى تقوم للإنسان أو عليه بأنه مؤمن كامل، أو منافق جاهل ، هذه الحكم التى يمكن أن يشهدها عامة المسلمين بلا روية ولا بحث، وهناك مشاهد أخرى تتجلى لأهل القلوب من الصديقين والشهداء إن شاء الله تعالى ألمع عند ذكر حوادث تبوك إلى شيء من تلك المشاهد. فحكمة الجهاد إذا تجلت للعقول تتحقق أن الجهاد هو الرحمة الحقيقية لجميع بنى الإنسان ، لأن بالجهاد محو لأمراض فتاكة بالنفوس تجعلها تخلد فى مهاوى غضب الله، ولولا الجهاد ما ظهر الحق وزهق الباطل، ولا أمن الناس على أنفسهم وأموالهم ، ولا عرف الناس ربهم وسارعوا إلى العمل بما

يحب، ولا تحقق المؤمن أن الملك حقا الكبير المتعال الدائم ملكه الدائم سلطانه هو الله ، وأن كل من عداه عبد مقهور وإنسان مربوب، وإنما تكون له السلطة إذا قام منفذا لأحكام الله ، مقيما لحدود الله ، فيكون السلطان لله ، والحكم لله ، والأمر والخلق لله ، وإنما هو عبده مثلنا مقيم لحدود الله ، منفذا لأحكامه سبحانه ، لولا الجهاد لما انتشر العدل بين العالم، ولا ظهرت رحمة القلوب الرحيمة، وقهرت على العدل النفوس الخبيثة، فالجهاد رحمة الله العامة، ونعمته التى يتفضل بها على عباده، وما تركه قوم من المسلمين إلا ديثوا بالذل والصغار، وسيموا بالخسف .

لم تكن غزوة تبوك من المغازى التى يجب أن ننظر إليها نظر من يريد أن يعلم بعض سيرته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولكنها غزوة كشفت الستار عن غوامض تجلت للقلوب والأبصار، كمل الله بها دينه، وأتم بها شرعه، وميز بها بين عباده، ووضح بها سبل الوصول إلى حضرته، ومواطن محابه سبحانه ومساخطه، حتى ظهر أن المؤمن لا ينبغى له أن يخالف فى مندوب، ولو خالف فى مندوب ندب الله إليه ورسوله لكاد يخرج عن الإسلام .

فغزوة تبوك كأنها الكاشفة لحقائق لابد منها للمؤمن وإليكها.

١- بيان مقام الصحابة رضي الله عنهم فى بذل ما لهم

تجلت مقاماتهم العلية رضي الله عنهم عندما حثهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على النفقة والرواحل، فسبق الصديق الأكبر وهو السباق رضي الله عنه فدخل ومعه الفاروق رضي الله عنه ، فقدم سيدنا عمر ما أحضره لله ورسوله، وقدم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فسأل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الفاروق فقال: بما جئت؟ قال: بنصف مالى وتركت النصف الآخر لأولادى، وقال الصديق الأكبر: جئت بكل مالى وتركت الله ورسوله لأولادى، هذا مقام التفاوت بالعلم بالله، ومنزلة كمال التمكين فى التجمل بمقام العبد لله سبحانه، قال الله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١).

أما سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فإنه متحقق ببيع نفسه وماله، لا يرى له نفسا ومالا يقربه، لأن النفس والمال مملوكان لله سبحانه ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والمملوك لا يسأل أن يقرب شيئا .

قام أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان ﵁ بتجهيز ثلث الجيش، وقدم سيدنا عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية، حتى ظهور نور الإيمان المشرق على القلوب جليا ظاهرا على الجوارح، وأقاموا الحجة ﵃ أن الله ورسوله أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأهليهم وأوطانهم، ولكنهم درجات عند الله، وكلهم علماء حكماء، أمدنا الله بخير الدنيا والآخرة ببركتهم .

وقام كل مسلم بتقديم ما لديه حتى قام البرهان على أنهم جميعا ﵃ خزن الله المحفوظة لطلبه وأمره، وأنصار الله المستعدون للجهاد فى سبيله لإعلاء دينه وكلمته، حتى صار المؤمن يلوح فى محياه نور الرضا عن الله، والفرح بما دعاه الله إليه وأقامه فيه من العمل لإعلاء كلمته سبحانه .

ثم ظهرت ظلمات النفاق الكامنة فى القلوب على الوجوه، فصارت عليها غبرة ترهقها قترة، وصدق الله العظيم قال سبحانه وتعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾(عبس: ٣٨ ـــ ٤٢) فصار المؤمن يعرف حق المعرفة أخاه المؤمن بما جمله الله به من كمال الرضا عن الله ، والبذل فى الله، والمسارعة إلى الجهاد فى إعلاء كلمة الله وطاعة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ويعرف المنافق حقا بما على وجهه من ظلمات النفاق وخزى الضلال، وغبرة الجهالة بالله، وقترة المخالفة لرسول الله، ثم كشف الله عنهم ستره حتى ظهروا للمؤمنين حقا ، وتبينوا لهم صدقا ، وصدق الله العظيم قال تعالى:﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، وقال تعالى:﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ

بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ﴾ (الأنفال: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿ الم۞أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت : ١،٢). فكان حث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المؤمنين على النفقة فتنة من الله تعالى ، أظهر الله بها مكنون القلوب، وخفى النفوس، قال الله تعالى:﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٩). فكان المنافقون كما قال الله تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون: ٤). فأظهر الله سبحانه بتلك الغزوة ما انطوت عليه قلوبهم، ولا يزال المؤمن يعرف المؤمن والمنافق، فإن المؤمن يسارع ببذل ماله فى مراضى الله تعالى، والمنافق يبغض أن يبذل ماله إلا فى معاصى الله سبحانه وتعالى، ولا تزال علامات المنافقين جلية فى حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وهممهم، وعلامات المؤمنين جلية فى وسيم محياهم، ونور الإيمان لا يحجبه شيء، وظلمة النفاق لا يحجبها شيء.

٢- القصور لا يجعل كامل الإيمان يرضى بالقعود

معلوم أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب من لا طاقة له ممن قصر به الحال، وإنما العقوبة لمن أمكنه أن يعمل وقصر، ولكن المؤمن الكامل ولو أقعده الحال وعدم الوسعة بذل نفسه ولو أنه فقدها ليقوم عاملا لله سبحانه. وأحوال أهل المحبة ومواجيدهم العلية لا تخفى على أهل الذوق، فإن باعث المحبة يدعوهم إلى الخروج عن الاعتدال، وعمل ما لا تطيقه النفوس البشرية، والشرف إلى ما هو فوق الهمم، وكم أخرجت المحبة أهلها إلى أحوال لا تتحملها الجمادات، وأعمال يراها العقل مستحيلة، ظهرت تلك الحقيقة جلية فى نفر من الصحابة ﷺ ممن أقعدهم الجهد عن مشاركة أهل اليسار فى الجهاد، فتوجه سبعة منهم إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أى: يرجون منه الزاد والراحلة

ليجاهدوا فى سبيل الله، فاعتذر إليهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، واعتذار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إليهم كان يجب أن يسقط الواجب عليهم الذى طالبتهم أنفسهم الزكية به، ولكن مع اعتذار رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ إليهم نظروا فى أنفسهم أنها تحرم هذا المشهد، وتفقد مجلس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وحضور الصلوات معه ﴿ ﷺ وآله﴾، ونصرته وقهر عدوه، فحزنوا الحزن الذى كاد يذيب قلوبهم.

علام يبكون ﷺ ؟! أقصروا فى حق واجب عليهم، أم تساهلوا فى مرغب فيه؟ لا والله، ولكنهم تمثلوا ما يحرمونه لقعودهم فى المدينة، واعتقدوا أن تخلفهم عن رسول الله من أعظم البلايا وأشد الرزايا، فبكوا على أنفسهم، لا لتقصير ولكن رغبة أن يساعدهم الله سبحانه فيشهدهم ما يحبه من المشاهد العلية من تلك الحادثة التى أثنى الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بها عليهم، يمكننا أن نسلم أحوال أهل المحبة ومواجيد أهل المعرفة التى تدعوهم أن يخرجوا عن الاعتدال فى نظر جاهل، فقد يترك الرجل النعيم والترف والقصور والرياض ويفر إلى الصحارى، وقد يترك الجاه والملك ويخرج إلى الغابات فيعيش على ورق الشجر وماء العيون متلذذا بحاله، فرحا بالنعمة، وقد يفر من أهله وجيرانه وأقاربه والناس أجمعين إلى الله تعالى، ويهجر كل مألوفاته وعوائده، وقد. . وقد. وقد تقدم ذكر أسمائهم ﷺ فى الغزوة. هذا وإن أهل المحبة ما اشتاقوا إلى شىء لله فى الله إلا يسره الله تعالى ولو كان مستحيلا عادة، فإنهم ﷺ التمسوا من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الزاد والراحلة فاعتذر، فألحوا حتى أقسم لهم بالله أنه لا يحملهم، بعد أن قال لهم: لا أجد ما أحملكم، فحزنوا حزنين: حزن لأنهم لم يفوزوا برغائبهم، وحزن لأنهم ألحوا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى أقسم. ولأهل المحبة مخاوف لا تسطر على صفحات الأوراق، وقد ألمعنا إلى شىء منها فى باب المحبة من كتاب (أصول الوصول) . ولكنهم ﷺ مع هذا لم تقف همتهم حتى يسر الله لهم ما يحبونه، وجملهم

الله سبحانه وتعالى، وقال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: إنى ما حملتكم ولكن حملكم الله تحلة ليمينه .

ولأهل المحبة عيون يشرفون بها على الغيب المصون، فإن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما ألحوا فى الطلب إلا وهم يعتقدون فى الله سبحانه وتعالى الذى يحبونه أنه لا يحرمهم تلك المشاهد الربانية. أنظر إلى مسألة سيدنا يعقوب عليه السلام كيف كان على يقين أن الله يجمعه على ولده يوسف عليهما السلام بعد مضى الزمن الذى يوجب اليأس منه، لأن عيون أهل المحبة ترى ما لا يراه الناظرون.

٣- من لم ينظر بعيون الإيمان لا يسارع إلى نيل الرضوان

علمت أحوال أهل المحبة المشاهدين بعيون الإيمان جمال الملكوت الأعلى، ومسارعتهم إلى خوض عباب الشدائد الفادحة، وبكاءهم حزنا على أنفسهم التى تتمتع بالنعيم بين الأهل والأولاد ولم تشهد المشاهد التى تشيب لها الوليد، من طول الشقة، ولقاء أشد الأعداء، وألد الألداء. فسبحان من لذذ أحبابه بشهود جماله فى المظاهر التى لا تتحملها الجبال، وإليك بيان من لم يتفضل الله عليهم بعيون الإيمان التى تبصر الملكوت الأعلى، ونظروا بعيون العقول والرؤوس إلى جمال الملك الأدنى وملاذ الأشباح، لاحتجابهم عن مشاهد الأرواح، فكانوا كالأنعام بل هم أضل، لمسارعتهم إلى لذة عاجلة ليست فى الحقيقة ونفس الأمر لذة إلا لأنواع من أسفل طبقات البهائم، فإن لذة الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية محصورة فى مراضى الله ومحابه سبحانه، ولو كان فى ذلك الانغماس فى سعير النار، وكيف لا؟ وهى سنة أهل الخلة، فإن الخليل الأكبر ﴿ ﷺ وآله﴾ ألقى فى النار راضيا مرضيا، ونزه الله سره من أن يشهد الأواسط والأسباب لاستغراقه فى شهود حقيقة التوحيد، لغلبة الخلة الماحقة لغير الخليل سبحانه وتعالى من قلبه وسره، حتى لقد أتاه الروح الأمين سائلا له حاجته فأبى إلا أن يفوض أمره إلا إلى علام الغيوب، الذى بيده ملكوت كل شيء.

نظر أهل النفاق بعيون الرءوس، وسمعوا بآذان الرءوس، فلم تصل أنوار النبوة إلى القلوب حتى تشرف على الغيوب، فكان ظاهرهم ظاهر المسلمين، وباطنهم باطن من يقول:﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤). فكان دخولهم فى الإسلام لتحفظ أموالهم وتحقن دماؤهم، قال الله تعالى:﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ٩)، وقال سبحانه وتعالى:﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا

مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون ۞ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٤،١٥).

حتى كشف الله الستر عنهم بما ميز به بين عباده، فدعاهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى جهاد الروم فى سبيل الله، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران:٥٤). أجمعوا على أن يخرجوا فى الجيش، ثم بعد مفارقة المدينة يعتذرون خديعة منهم لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه الكرام ﷺ .

وسياسة قبح الله السياسة وأهلها، تجعل الباطل حقا والحق باطلا،وكم من وحوش كاسرة وشياطين مردة هم شر على بنى الإنسان من إبليس الرجيم، يدعون أنهم أهل السياسة .

لم يرد المنافقون أن يمتنعوا عن الخروج فى المدينة خشية من أن يوقع بهم أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولكن خرجوا ولا والله ما خرجوا لخير ، أعمى الله عيون سرهم، وطمس بصائرهم، وأبعدهم عن شهود الخير الحقيقى، وسبطهم عن المسارعة إليه، ليتبين أحوال المؤمنين الذين أشهدهم الله بعيون الإيمان حقيقة الخير فسارعوا إليه، وبذلوا النفوس والنفائس مخلصين لله رب العالمين. تمكن المنافقون_ أخزاهم الله بخديعتهم_ حتى ميلوا إليهم أهل القلوب المريضة،والنفوس اللقسة، ورجع نمرودهم عبد الله بن أبى بن سلول ومعه قريبا من نصف الجيش، بعد أن اعتذروا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبعد أن كان يلاطفهم ﴿ ﷺ وآله﴾ للبقاء فى الجيش من الوجهة التى يميلون إليها ويرغبونها، رحمة منه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبيانا لما يجب على المرشد أن يدعو به أهل النفوس اللقسة تشريعا منه ﴿ ﷺ وآله﴾ لأمته، وحرصا منه ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى لا يقولوا: نفرنا أوشدد علينا ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (الكهف: ١٧).

ومن هذا أخذ المرشدون أنوار الحكمة، فترى المرشد حريصا على قوم، رءوفا رحيما بقوم، شديدا على قوم، سر قوله تعالى:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(الشعراء: ٢١٥،٢١٤). اعتذر القوم لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عذرا انتحلوه من عند أنفسهم، واعتقدوا أنهم بذلك نجوا من سخط رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ذلك لجهلهم بالله كما قال الله تعالى:﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر:١٣) . فرجعوا إلى المدينة على يقين أن أحدا ممن مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يرجع إلى المدينة، لعلمهم بكثرة الروم وقوتهم، وجهلهم بالقوة الإلهية التى فوق الأسباب التى أشهدها الله أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بما وهبهم من عيون الإيمان، بل وعيون الإحسان، وعيون الإيقان.

حكمة خفيت إلا على من واجههم الله تعالى بأنوار أسمائه الحسنى، وكاشفهم بغوامض التوحيد، وأشهدهم جمال ملكوته الأعلى، فكان تخلف هؤلاء مزيد إيمان لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وقوة يقين لهم، وحب لما يحبه الله، وبغض لأعمال هؤلاء، وتصديق لوعد الله تعالى ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وحفظا لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من الاشتغال بالمنافقين، ومن الافتتان بهم لأنهم كالمرض المعدى، وتبين لجميع المسلمين الأعمال والأحوال والأخلاق التى يحبها الله، والتى يبغضها الله، فإذا ظهرت المعانى التى يحبها الله فى مسلم تحققنا أنه محبوب لله، لأن الله أثنى على أهلها، ومدحهم، وأمر بالمسارعة إليها، وإذا ظهرت الصفات التى يبغضها الله تعالى تحققنا أن الذى قامت به مبغوض لله، وعدو لكل مسلم وأن من جالسه أو جانسه أو مدح عمله عدو لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾.

لم تظهر تلك الحكم جلية لأصحاب رسول الله لأنهم عند رجوع المنافقين حزنوا، ولكن ما لبثوا إلا وقد واجههم الله تعالى بأنواره القدسية فشكروا الله على ما أنعم به عليهم، وما حفظهم من الوقوع فيه. وصارت حكمة تلك الحادثة تتجلى لهم حتى رجعوا إلى

المدينة آمنين غانمين فرحين، وظهر الخزى والذل على المنافقين، وهكذا تنتج طاعة الله النصرة والعزة والمجد فى الدنيا ، والرضوان الأكبر والفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر، وتنتج معصية الله الذل والخزى والبلايا فى الدنيا ، والغضب والعذاب فى الآخرة .. أعوذ بالله من موجبات غضبه .

تعب أصحاب رسول اللّه (ﷺ وآله) معه أياما ورجعوا كما قال النابغة :

بلغنا السماء مجدنا وثناؤنا … وإنا لنبغى بعد ذلك مظهرا

فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أى مظهر تريده؟ قال : الجنة بك يارسول الله إن شاء الله ، فكان كل صحابى يكاد الفرح والسرور ينطق بلسان حاله ، والعزة بالله ورسوله تظهر على جوارحه، وكان المنافق يكاد الذل والهوان والخيبة تنطق بلسان حاله ، وصدق الله العظيم قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون ٨) أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسارعين لمحابه ومراضيه ، وأن يعيذنا بوجهه العظيم من مخالفته ومعاصيه، ومن البدع المضلة، إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٤- قلب المحبوبين لا يطمئن إلا بالحق اليقين

سنة أهل الخلة الأواهين الذين منحهم الله تعالى الشوق الحقيقى ، وأعاهم بكمال عنايته ، وجعلهم لا تقف بهم همتهم إلا إلى غاية الغايات ونهاية النهايات ، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالعيان مهما بلغت درجة الكشف فى البيان ، والخليل الأكبر ﴿ ﷺ وآله﴾ إمامهم كما قال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج : ٧٨) . سأل الله سبحانه وتعالى أن يريه كيف يحيى الموتى ، قال له الله جل جلاله: أو لم تؤمن؟ فلو لم يكن السؤال من ذى همة علية لا تقف دون الغاية العظمى لصعق رهبة ،

ولكن صاحب المقام الأعلى لا تقف همته دون الغاية التى لا غاية فوقها ، فأجاب ربه سبحانه وتعالى قائلا : بلى ولكن ليطمئن قلبى ، فبين ﴿ﷺ وآله﴾ بإجابته لربه سبحانه وتعالى أن طمأنية قلب الخليل لا تكون إلا بالعيان لا بالبيان ، وكذلك كان أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ممن على قلب الخليل ﴿ﷺ وآله﴾ لا تطمئن قلوبهم إلا بالعيان ، وأمامنا فى هذا أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه – وهو أول من أحيا تلك السنة – استخلفه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على المدينة ، وكان يستخلف قبل ذلك عبد الله بن أم مكتوم ﵁ ، فسمع وأطاع ﵇ وهو يجد فى نفسه ما يجده خليل لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من آلام مفارقته ، وحزن الأسف على أن لا يشهد تلك المشاهد ، وبلاء من أنه يقوم مقاما كان يقوم فيه رجلا ليس بصيرا، ولهفة من أن يكون بين أهله فى أمن ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بين الأعداء ، سمع وأطاع وفى نفسه ما فيها مما لا يصفه الواصف ، ولولا قهر الأمر وكمال الرهبة فى قلبه من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لالتمس منه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يصحبه ، مكث فى المدينة كرم الله وجهه ورضى عنه وهو على أشد من جمر الغضى ، وعلم المنافقون ما يريده رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من بقاء سيدنا على كرم الله وجهه بالمدينة ، ونور الخلة الذى فى قلبه ﵁ أخفى عنه أسرار تلك الحكمة ، لأنه يعتقد أن نظرة فى وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خير من الدنيا وما فيها ، ومن النفس والأهل والمال والأولاد ، فقام المنافقون – أخزاهم الله – وأشاعوا فى المدينة أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كره صحبة على كرم الله وجهه فأبقاه فى النساء ، بعد أن بلغه ما يجده فى نفسه كرم الله وجهه ، فكان كلامهم على ما يجده كرم الله وجهه مؤجج نيران حزنه وآلامه حتى اعتورته الأهوال، وجذبته بواعث الخوف على نفسه ، وصار قلبه الكريم لا يطمئن بالبيان حتى .

يبلغ حق اليقين بالعيان ، فترك المدينة فارا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مستغيثا بجنابه المحمدى، واصلا الليل بالنهار ، والنهار بالليل حتى وصل إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

، فعلم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منه ما فى نفسه من الشوق الباعث والخوف المحرق، فأدناه ﴿ﷺ وآله﴾ بحنان وعاطفة أزالت ما يجده من أرجاف المنافقين ، وواجهه ﴿ﷺ وآله﴾ بود ولطف كشف له بهما أسرار حكمة بقائه فى المدينة ، وقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : اخلفنى فى أهلى ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى. فتجلت له أنوار الحكمة التى أرادها ﴿ﷺ وآله﴾ وغوامض الأسرار التى تفضل الله بها عليه حتى أقامه مقام نفسه ، وزال عنه كرم الله وجهه ما يجده من لبسه، فأقبل على الله آيبا إلى المدينة ، مسرورا بما أنعم الله عليه من أكل المقامات ، وما أنزله الله تعالى فيه مما لم ينزل فيه أحد من الأئمة كرم الله وجهه، فكان ﵁ بمفرده فى المدينة كأنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، لما ملأ الله به قلوب المنافقين من الرعب والذل والخشية، وهى الحكمة التى أرادها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، لأن تلك الغزوة بعيدة الشقة نائية عن المدينة وكان أكثر المسلمين المخلصين مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، والذين تخلفوا عنه ﴿ﷺ وآله﴾ بعد الضعفاء من الصحابة كرم الله وجهه هم المنافقون ، وكان لهم كيد يريدون أن يكيدوه ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف :٢١) . أما ما كان يحسن من إقامة عبد الله بن أم مكتوم ﵁ قبل تلك الغزوة ، فإن تلك المغازى الأولى كانت على مقربة من المدينة ، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لا ينطق عن الهوى فى أمر أو نهى .

٥- التفضيل للمنافسة والتفضيل للعصبية

وهنا يحسن بى أن أشير إلى أمر اقتضاه المقام، اشتغل بعض الناس بتفصيل بعض الصحابة على بعض،بالوجه الذى لا ينبغى أن يخوض عبابه مسلم يتقى الله ويخشى لقاءه، وإن عارضنى معارض لأن ذلك كان فى عهد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾،وفى زمن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، أجيبه: بأن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان الرجل منهم يقول أبو بكر فعمر و مرادهم بذلك المنافسة فى أن يجاهدوا أنفسهم ليتشبهوا

بهما رضى الله عنهما ، لأن أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كانوا يرون أن أبا بكر نال ماله مما وفقه الله وأعانه عليه من بذل النفس والنفيس، ولم يكن التفضيل فى عصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ للتفرقة بين جماعة المسلمين، ولكن ليتنافس كل مسلم لينال قسطا من كل المواهب العلية، إن لم ييسر له الله تعالى نيلها جميعا، ومكث الناس كذلك فى عصر الصديق وعصر الفاروق رضى الله عنهما حتى دخل فى الإسلام الأعاجم والنصارى، وفتحت لهم الدنيا، كما أخبر ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله: إنى لا أخشى عليكم الفقر ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها.

فانتهى زمن التفضيل للمنافسة، وظهر زمن التفضيل للعصبية و المنافسة فى الدنيا، حتى تفرقت الكلمة، وسلت السيوف من المسلمين على بعضهم، لفتنة شيطان مارد، ولمة إبليس رجيم – نعوذ بالله منه – كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾: إن إبليس يئس أن يعبد فى جزيرة العرب ولكن لا يزال بينهم بالتحريش.

عجبا يقوم المسلمون فى وجوه بعضهم بعض، هذا يقول أبو بكر ﷺ ويقيم الأدلة، وهذا يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويقيم الأدلة، ولو أن سيدنا الصديق الأكبر ﷺ قابل من تعصبوا له لعلي رءوسهم بسيفه فقتلهم لتفرقتهم للجماعة، أو لفسوقهم عملا بقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣). ولو واجههم سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه لقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو نفاهم من الأرض عقوبة لهم على الله ورسوله، وعلى أحباب الله وصفوته من عباده أجمعين.

أيها المسلم ما الذى اعترى قلبك المعمور بنور القرآن حتى حجب أنوار القرآن عنه، وسرك المجمل بحكمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى ألفت سرك عنها، وبلغ فيك سوء

الأدب حتى تحكم حكما لم يحكم الله به ولا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ولا الأئمة الراشدين والمرشدين، ولم يكن أصلا من أصول دينك طولبت بتحقيقه وعلمه، ولا مرغبا إليه سارعت لعمله، كل مسلم يحب كل مسلم كما يحب نفسه كما هى سنة المسلمين،ويحب له من الخير ما يحبه لنفسه هذا فى أهل عصره، ممن لم ير من رأى من رأى من رأى من رأى التابعين لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فكيف بمن أحبهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأثنى الله عليهم وعطفهم عليه فى أكمل مقامات العناية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٤). فقوم عطفهم الله على جنابه المقدس فى مقام الولاية والعناية، وأثنى الله عليهم بقوله: ﴿ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

أليس صغير هؤلاء ممن لم ير رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا مرة واحدة وثبت أنه من الصحابة أحب إلينا من أنفسنا، والله يكون جواب المسلم إلا بلى، هل قمنا لهم بما يجب علينا من الواجب لرجال سفكوا دماءهم، وبذلوا أموالهم، وتركوا دينهم وأوطانهم لإعلاء كلمة الله، وإحياء لسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى وصل إلينا هذا النور ونحن على بسط الأمن وفرش الراحة، والله لو أن المسلم حج ألف سنة، وجاهد ألف سنة، وتصدق بقدر أحد وعتق ألف رقبة، ووهب ذلك لأصغر صحابى – أستغفر الله من قولى أصغر – لأن مسلما رأى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، يفتخر على عوالم الملكوت لنظره الى وجه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لو فعل المسلم كل ذلك شكرا لله على ما أكرمه الله به من الخير على يد أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لكان مقصرا عاجزا عن القيام بما يجب لهم عليه، فكيف يبلغ من الضلال مبلغا يفضل به فلانا على فلان، ويدعوهم العناد إلى الوقوع فى غضب الله بتنقيص من أقامهم الله مقام نفسه، وأنزلهم منازل رسله﴿ ﷺ وآله﴾ .

أما أقامهم مقام نفسه سبحانه وتعالى فبقوله جل جلاله لرسوله : ﴿ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:٦٤). أما إقامتهم مقام رسله عليهم الصلاة والسلام فبقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣) . والشهداء يوم القيامة هم رسل الله . استغفر الله أيها الأخ المسلم من لمة الشيطان المارد ، واجعل خشية الله فى قلبك، وعظم من عظم الله ،ودع الحكم لله ، فإنه لم يكل ذلك إليك ، وما الذى ينالك أيها الأخ المسلم من تفضيل فلان على فلان، أذلك من أركان الإسلام أو شئ أوجبه الله عليك ؟!!.

لا والله ولكن تحرش الشيطان بيننا أدى هذا الكلام الصادر عن النفوس الخبيثة، والقلوب النجسة، إلى ذم بعض أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم إلى بغضهم، ثم إلى لعنهم على المنابر .

وسلت السيوف ، وسالت الدماء، أعوذ بالله من الشيطان ومن دسائسه ، ولا يزال فى المسلمين من يلعن بعض الصحابة جهلا بمقامهم ﷺ، لم يتمكن إبليس الرجيم – لعنه الله – من إفساد الدين لأنه دين الحق المكين، فسعى بخيله ورجله حتى فتح باب التفضيل بين المسلمين ليفسد أحوال من اتبعه، ويشغلهم عن العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أعاذ الله المسلمين من شره وكيده، وحفظ قلوبنا وأعاننا أن نشكره سبحانه وتعالى ، ونشكر من أجرى إلينا النعمة على يديهم من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

لم يتفرق المسلمون إلى فرق متعددة إلا وأصل ذلك التفضيل ، ولو أن كل مسلم ترك الحكم على غيره واجتهد فى الحكم على نفسه ليزكيها، لدام لنا المجد ، وبقيت لنا السيادة ، وسعدنا فى الدنيا والآخرة ، ولكن تركنا ما يجب علينا لأنفسنا ولربنا سبحانه وتعالى ولرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، واشتغلنا بما حظره علينا الشرع الشريف، وقد بينت ما يجب على كل مسلم فى كتاب (النور المبين لعلوم اليقين) فليراجعه من أراد أن يكون مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولو كان فى آخر الزمان ، وقد بينت ما يحصل بين أهل الطرق من التفضيل فى كتاب (تذكرة المرشدين والمسترشدين) أورده هنا مجملا لفائدة المطالع .

إخوانى منحنا الله الحلم والتأنى . اعلموا أنه من أشر الشرور أن يكره المسلم أخاه المسلم لغير معصية الله ، وينفر منه ويعاديه كما يحصل بين أهل المذاهب وأهل الطرق ، فإن أهل كل طريق يبغضون من لم يسلك طريقهم، ويعتقدون أنهم على الحق وأن غيرهم على الباطل، وقد يبلغ بهم العناد إلى أن يلعن بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم بعضا، من غير بينة ولا حجة من كتاب ولا سنة، بل للحمية الجاهلية، والعصبية الجهنمية ، ولو أنهم تأملوا قليلا لتبين لهم أنهم جميعا إخوانا فى الله ، الإمام لنا القرآن ، والنبى سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وربنا جميعا الله تعالى ، وأنه لا خلاف بيننا فى عقيدتنا ، ولا فى عبادتنا ، ولا فى معاملتنا ، ولكن الشيطان نعوذ بالله منه ينزغ بين الأخ وأخيه ليوقعه فى عداوة من أوجب الله محبته، ومحاربة من أوجب الله تعالى عليه مسالمته ، وقطيعة من أوجب الله تعالى صلته، ويا ليت ذلك يكون لله أو فى الله ، بل لحظ متبع، وهوى مطاع ، وتعصب لرأى قد يكون فاسدا ، حتى أصبح أهل الطريق كأنهم وحوش متنافرة ، يسعى كل فريق فى ضرر الآخر ، خروجا من السنة ، ومخالفة للكتاب العزيز ، قال الله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٠). فيا إخوانى جعلنى الله وإياكم نورا للقلوب، وانشراحا للصدور، كونوا رحماء حلماء حكماء، وأحبوا كل أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله حبا للكلمة ، وحبا لله ولرسوله ﷺ وآله ، وإياكم أن تتهاونوا بسنة من السنن الخفيفة أو المؤكدة ، أو بركن من أركان الدين، أو يدفعكم عدوكم الشيطان إلى عداوة أخ من إخوانكم المسلمين، فإن ذلك كله مروق من أخوة الإيمان، ومخالفة للجماعة ، إنما النسبة إلى المرشد نسبة تلقى العلم والأسرار ، وليست نسبة تخرجكم عن الأخوة فى الله لكل مسلم، وإنما النسبة للمرشد تؤكد لكم روابط الأخوة، وتكشف لكم واجباتها ، وتوضح لكم حقيقة المحبة فى الله تعالى ، كما يجب على كل مسلم لإخوانه ، نعم يجب عليك ، أن تقول تلقيت العلم من فلان، واسترشدت عليه ، ونفعنى الله بعلمه ، وأسعدنى الله بصحبته، ورويت عنه، وتسعى فى أن تدل عليه جميع إخوانك المسلمين ليتفقهوا فى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا جهلت ونسيت فمدحته وذممت غيره ، وعظمته وصغرت غيره، وأحببته وكرهت غيره، فقد خالفت طريق المتقين، كما أنك إذا تلقيت علومه، واسترشدت على يديه، وأسعدك الله بحاله، ثم لم تنسب إليه لتظهر نفسك وتخفى المرشد كنت مدلسا، وربما أوقع هذا التدليس صاحبه فى نفاق به يكون فى الدرك الأسفل من النار، وخير الأمور الوسط، والخير كل الخير أن ينجى الله على يدك عباده ، ويجمعهم من التفرقة، ويبين لهم الطريق المستقيم ليسلكوا عليه، هذا ليس من موضوع التاريخ فى شئ، ولكن العاقل من استوفى ما تقتضيه المناسبات حتى يكون قد نبه إخوته المؤمنين لما فى طريق الله من الشعب المتفرقة التى تبعد السالك عن مقصوده الأعظم، وتلفته إلى ما يضر ولا ينفع، والغاية تبرر الوسيلة .. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا الحب الخالص فى الله وفى رسوله ﷺ وآله ، وأن يعيذنا جميعا من المعاصى التى توجب النقم ، وتغير النعم ، وتهتك الحرم ،

وأن يهب لنا مواهب فضله العظيم ، ويوردنا موارد أهل محبته المقربين .. إنه مجيب الدعاء .

٦- من جهل علم الله بما هو أخفى مما فى سريرته عصى الله مختفيا فى حجرته

معلوم أن الإيمان نور يباشر سويداء القلوب مباشرة تجعل المؤمن الكامل كأنه يرى الله حيث كان ، فلا يغيب عنه نفسا ، ولا يتحرك لغيره سبحانه وبغيره سبحانه وتعالى حركة ، وتجعل المؤمن السالك على يقين كامل أن الله عالم بسره وجهره ، كما قال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧). ويعتقد حق اليقين أنه سبحانه معه وإن لم يكن يره بعيون سره، هذا أقل مقامات أهل اليقين وأول معارج التوابين، ودون ذلك مهاوى أهل الكبائر ، وسجن أهل النفاق ، لأن أهل الكبائر غفلوا عن هذا العلم الذى يجعلهم يعتقدون أن الله يراهم ، فستروا عن مواجهة أنوار هذا العلم، فوقعوا فى المعاصى ، ثم تذكروا فأبصروا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١) .

والمنافق أظلم أفق قلبه ولكن سلطان الحق قهره، فخاف من الخلق الذين أيدهم الحق بسلطانه ، فأظهر ما لا يبطن تقية من سفك دمه وسلب ماله ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ۞ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾(البقرة: ٨-١٠). وهؤلاء نعوذ بالله منهم ومن حالهم ، يظهرون أهم مؤمنين خوفا من أهل الإيمان ، وقلوبهم مظلمة بكثائف الكفر والشرك كما قال تعالى : ﴿يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (النساء: ١٤٢، ١٤٣) . صغر الحق فى قلوبهم وعظم سلطانه فى أعينهم كما قال الله تعالى: ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (النساء : ٧٧) . وقال

تعالى : يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك أل عمران :١٥٤ زين لهم الشيطان أ،هم ستكون لهم دولة ، والحق يعلوا والباطل يسفل كما قال الله تعالي :﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾ (الفتح:٦). ولا يخلوا زمان ولا مكان من أهل النفاق، وإنما يظهرون للمؤمنين عند ظهور أنوار الحق وبيان كلامه الذى تحن إليه أرواح المؤمنين ، فيظهر نفاقهم عند ذلك لبغضهم للحق وأهل الحق، ومحاربتهم لهم .

زين للمنافقين الشيطان أن يكيدوا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه كيدا ، واجتمعوا فى دار سويلم اليهودى ، ولو كانوا مؤمنين حقا لآمنوا بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد : ٤) . ولآمنوا بقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُو مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾(المجادلة:٧) . ووالله ما أظهروا الإيمان بألسنتهم إلا تقية السيف ، اللهم إنى أسالك أن تجعل سيفك ماضيا مسلولا، وسلطانك ظاهرا منصورا ، وأن تعز حزبك ، وأن تذل أعداءك حتى يظهر الحق وينمحق الباطل ، إنك مجيب الدعاء .

سفهوا فى خلوهم رأى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لضلالهم، فلما أنبأه الله تعالى بما كانوا عليه وما قالوه ، هموا أن يبرئوا أنفسهم، ولكن صولة الحق قهرهم، فقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ (التوبة:٦٥). ولعنة الله على المنافقين أين كانوا وكيف كانوا ، فإنهم كرهوا العمل بكتاب الله ، والاهتداء بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وسعوا فى إزاغة قلوب المؤمنين، وتفرقة جماعتهم ، فهم المرض العضال فى الجسد الإسلامى ، ولله فى بقائهم حكمة تنكشف لأهل المواجهة ، يذوق رحيقها من كان فى مشاهدة تنزل حكيم قادر فى مقام تفصيل قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ (الصف:٨).

٧- المؤمن قد يتساهل إذا وجد ولكنه يأخذ بالحزم إذا فقد

بعض أهل الإيمان إذا تيسر له ما به رفعة شأنه عند الله تعالى ، ونيل ما به القرب من جنابه العلى، ظن أن هذا ممكن لا يفوته، وسهل لا يتعسر عليه، فيتهاون فى الأخذ به ويرجئه معتقدا أنه يدركه متى أراد، حتى إذا فقد نيله وحرم إدراكه حصل له الحزن على فواته، وعدم الصبر الذى يجعله يتسلى به عنه، وطالبته نفسه الطاهرة بالمسارعة إلى مواطن أنسها، وانخلع قلبه جزعا على ما فاته، وأقبل بكليته باذلا ما فى وسعه لنيل هذا المقصد بكل وسيلة توصلت إليه، وصارت اللذة عنده ألما، والأنس وحشة ، والأمن خوفا ، والراحة تعبا ، حتى بلغ مقصده الذى تساهل فيه فى وقته.

وكذلك كان سيدنا أبو خيثمة الأنصارى ﵁ فإنه كلما هم أن يتجهز للسفر مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ظن أن الأمر سهل، وأن التهيئ للسفر سهل عليه، حتى أذنهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بالرحيل، فقام أهل الحزم مسارعين إلى العمل بأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولم يتسن لأبى خيثمة حتى خرج الجيش وأقام هو بالمدينة ، فلما توجه إلى بيته وشهد الظل الظليل والماء البارد وأهله معه ، واجهه الحق بما أعده للسابقين المسارعين إلى طاعة الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، وقال : رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الصحارى والقفار وأبو خيثمة فى ظل ظليل وماء بارد وأهله. واستغفر الله وتاب إليه، وتجهز وخرج حتى لحق برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهذه من أدل دليل على كمال الإيمان ، والنظر بعيونه، وهو مقام من مقامات اليقين وأهله نفوسهم لوامة، وليسوا من أهل النفوس اللقسة الذين إذا تساهلوا فى نيل الخير أبطئوا فتسلوا فنسوا، ولكن أهل هؤلاء النفوس وهم المعنيون بقوله تعالى:﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة:٢٥٧). وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١).

وأعمال أصحاب رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ هى إمام للمتقين، والحجة للسالكين، والنور المشرق للواصلين .. أسأل الله تعالى أن يذيقنا ما أذاقهم من حلاوة الإيمان ، ولذة التقوى ، وما صافاهم به من الرحيق المختوم، ومن الطهور الذى لا مزج فيه ولا شوب.. إنه مجيب الدعاء آمين .

٨- التماس الخير من الله فى أماكن الطاعة وخوف الوقوع فى الشر بالجلوس فى أماكن المعصية

الصدفة معدومة عند العارفين ،وكثيرة عند الجاهلين ، فإن المعارف على يقين أنه ما من حركة ولا سكنة إلا وهى بتقدير الله تعالى عن علم وتدبير ، والجاهل بالله إذا وقع فى أمر من الشر أو نال خيرا، قال : بالصدفة حصل لى كذا ، ونلت كذا ، فالله جل جلاله يقدر معاصيه فى أماكن يبغضها، ويظهرها سبحانه على أيدى من يكرههم، لأن المعاصى مكروهة لله ، وإن قدرها سبحانه وتعالى وأعان على حصولها ويسرها لأهلها لحكمة اقتضتها ، ليس هذا المختصر محل بيانها ، سنشرحها بمشيئة الله تعالى فى كتاب (الصوفية) فالمكان الذى يعصى الإنسان فيه الله تعالى يبغضه سبحانه وتعالى ، ويكره الذى تظهر المعصيه على يده، والمعصية نفسها مبغوضة لله تعالى ، وخصوصا إذا كانت المعصية فى ذات رسله صلوات الله عليهم ، حتى أوجبت معاجلة العصاة بالنقمة فى الدنيا ، من خسف أو مسخ أو إغراق أو إحراق، قيدت المر بهذه الأشياء ، لأن رسل الله صلوات الله عليهم أوذوا فى أماكن ولكن الله بارك فيها وشرفها ، كما حصل لحبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة لأنه سبحانه نصر حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأظهره فيها، وأعلى الحق ، فلم تكن محل معصية الله ونقمته ، بل كانت محل إعلاء كلمة الله وإظهار دينه ، وذلك لأن حبيبه ومصطفاه بعثه الله رحمة للعالمين ، حريصا على الخلق أجمعين ، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ كلما أوذى سأل الله الهداية لمن آذاه قائلا﴿ ﷺ وآله﴾ : رب أهد قومى فإنهم لا يعلمون ، وقد أخبر الله تعالى أنه أمن من نزول

العذاب فى الدنيا ، قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال:٣٣). وصدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم .

أما المدن الأخرى التى قدر الله تعالى أن لا يظهر الحق فيها ولا بأهلها، وبلغ عنادهم حتى قتلوا أنبياءهم ، فعجل الله لهم العقوبة فهى المعنية بما أشير إليه، وهذا العمل سنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبيانه الذى بينه لنا ، فإنه ﴿ ﷺ وآله﴾ عندما مر فى غزوة تبوك بديار ثمود التى تجلى فيها القهار المنتقم شديد البطش تغشى بثوبه ﴿ ﷺ وآله﴾ واستعاذ بالله تعالى من موجبات نقمه رحمة منه على بنى الإنسان، ومشاهدة لإطلاق مقام ذى الجلال والعزة والقهر والجبروت ، فعلى المؤمن الكامل إذا شهد آثار النقمة عن المعصية والمخالفة أن يسرع من ملابسة أهلها ، ومن الوجود فى محلها ، وأن يتغشى بثوبه ، وأن يستعيذ بالله تعالى مما يوجب النقمة ، ويسأله سبحانه العفو والعافية ، لأن تلك الأماكن وهذه الأعمال تشهد المؤمن الكامل جلال الربوبية فيكاد قلبه يذوب خوفا وخشية من مقام ربه، ويخشى من مجالستهم مجانستهم، ومن مجانستهم أن يكون منهم .

التبرك بأضرحة الأولياء من السنة

إذا تقرر أن الأماكن يبارك فيها الله تعالى بإقامة أهل الطاعة فيها ، وعمل الطاعات فيها ، فمن السنة التبرك بها والدعاء فيها ، ودوام المكث فيها ، ومجالسة أهلها ، ولذلك فإنك ترى المؤمنين أهل التسليم يزورون الأماكن التى عبد الله تعالى فيها ، ويتبركون بأضرحة الأولياء ، لأنها ضمت أجساما يحبها الله سبحانه كانت عاملة لمحابه جل جلاله ، وقد ينكر على أهل الإيمان من لا .ذوق لهم ولا معرفة بحكمة زيارة أضرحة الأولياء، ودعاء الله تعالى فى تلك الأماكن مع أن ذلك ثابت فى السنة ومقرر فى الأحاديث الصحيحة ، ولو أنهم قرأوا حديث البخارى فى قصة الإسراء لعلموا أن جبريل عليه السلام أنزل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ببيت لحم محل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام ، وبمحل قبر

سيدنا موسى عليه السلام ، وأمره بالدعاء ، فأهل الإيمان – الذين هم على عقائد العجائز– لهم نور من فضل الله يواجههم الله به يجذبهم إلى العمل بالسنة من حيث لا يعلمون ، وأهل العناد والذين تعبوا فى تحصيل ما لا ينفع مما يظنونه علما وهو جهل لأنه سلب الخشية من قلوبهم، وإنما العلماء هم أهل الخشية من الله كما قال الله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ (فاطر:٢٨). فيظنون لجهلهم أن أهل الإيمان المسلمين يعتقدون أن أضرحة الأولياء تزار لأنهم ينفعون أو أن أهل الإيمان المسلمين يعتقدون أن أضرحة الأولياء تزار لأنهم ينفعون أو يضرون، وحاشا مؤمن شهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله يعتقد أن مسلما من أمته ﴿ ﷺ وآله﴾ يرى مسلما مثله تقيا ميتا فى قبره ينفع أو يضر، ولكنها أماكن ضمت أجساما أحبها الله تعالى ، وأحبها رسوله﴿ ﷺ وآله﴾، فيتجلى فيها سبحانه برحمته وده على من أحبهم أو زارهم فيها ، كما أن الأماكن التى يعصى الله فيها يتجلى فيها سبحانه بالقهر والإنتقام على من عصاه فيها، وإنما هو وجد عن يقين، وكشف عن تمكين، لا رأى وحظ وعناد .. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجملنا بما جمل به أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأن يشهدنا ما به يدوم أنسنا لجنابه العلى ، وقربنا من حضرته العلية .. إنه مجيب الدعاء آمين.

أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه أن لا يردوا ماء ثمود للحكمة التى تقدم بيانها، مع أن الماء . والمكان لله ، ولكن عيون الإيمان تشهد الملكوت فتتجلى لها حقائق معانى ظهور الحق بمقتضيات أسمائه وصفاته، وقد ظهر الحق جل جلاله لأهل هذا الماء بحكم عدل منتقم قهار لظلمهم لنفسهم ، ومحاربتهم رسل الله صلى الله تعالى عليهم، فالمؤمن الكامل العالم بتاريخ رسل الله صلوات الله عليهم يكره أن يرد مثل هذا الماء ، لما تشهده عيون بصيرته، ويخشى أن تعمه النقمة ، وكذلك الحال فيمن ركن إلى الظالمين، أو انتفع بما لهم أو جاههم تعمه النقمة ، وما من عمل من أعمال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو كلية تؤخذ منها الجزئيات ، وأصل تستنبط منه الفروع، قال الله تعالى :﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ

إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود: ١١٣). فعلى العبد المؤمن أن يعادى أهل المعاصى ، وأن يتباعد عن مجاورهم أو مجالستهم أو الانتفاع بهم إلا لضرورة داعية مع مفارقة قلبه وبغضه لما هم عليه ، فإن المؤمن قد تدعوه الضرورة إلى أن يتداوى بالنجس من الظاهر ليدفع نجاسة بنجاسة ، كما تدعو الصياد الضرورة أن يستعين بالكلب، والركون الذى حرمه الله تعالى ونهى عنه هو ميل القلب والإعتماد والمودة، أما تبادل المنافع الذى لا بد منه فليس من المنهى عنه ، إلا إذا أدى إلى ميول النفس وركون القلب.

دخول أهل التقوى والإصلاح فى الأماكن يزيل منها النقم والبلايا

أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يردوا بئر ناقة سيدنا صالح عليه السلام، لأنه الله سبحانه وتعالى جعله شربا لنبيه ولآيته التى أظهرها وهى الناقة، ومن هذا نستنبط أن مجالسة أهل التقوى وطعامهم وشرابهم نعمة من نعم الله على العباد، لأن أماكنهم مباركة والجلوس فيها يجمل الجالسين بعواطف الرحمة والحنان والفضل الإلهى، كما ان زيارة أهل المعاصى والجلوس فى أماكنهم يوجب النقمة نعوذ بالله.. وهذا أمر يكاد أن يكون بديهيا فى الدين، وله شاهد فى الحس والعيان ، فإنك تعلم أن الأمراض الخبيثة تتعدى إلى الأصحاء إذا قدر الله تعالى ذلك، وكم من مرض تفشى وعم خطبه بسبب ملامسة المريض ، وكم من نعمة أجراها الله تعالى على يد أهل العلم والجاه والمال بمجالستهم، وهذا أمر معقول، فكذلك الشأن فى أهل المعاصى الذين مقتهم الله ، وفى أهل الطاعات الذين اجتباهم الله ، وما من سر من أسرار الشريعة إلا ولو تبصر فيه العاقل لرأى له نظائر محسوسة فى الوجود الخارجى، ولكن من أعمى الله بصائرهم صاروا كما قال الله تعالى :﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٤).

ومن ذلك فدخول أهل التقوى والإصلاح فى الأماكن يزيل منها النقم والبلايا، ويجدد لها البركات والخيرات فضلا من الله وإحسانا، لأن أهل التقوى منظورون بأعين الرحمة والرأفة واللطف والإحسان من الله تعالى، فإذا دخلوا بيتا تجلى ربنا لأهله بالجمال، وذلك لأن أهل التقوى لا يدخلون إلا بيوت من جملهم الله بالأخلاق الحسنة الجميلة ، وجعل فى قلوبهم عواطف ورحمة للمتقين، وكم أزال الله بلاء عن أهل بلد وأهل بيت بزيارة تقى عابد ، وكل ذلك من السنة– وإن جهلها من يدعون العلم والحكمة فى سنة عيادة المريض، وتعزية المصاب– تتجلى لمن تزكت نفسه، وليس هذا موضع بيان تلك الحكم .. والله تعالى أسأل أن يفقهنا فى ديننا، وأن يمنحنا العلم بسنن حبيبه ومصطفاه ، والتشبه بأصحابه الكرام عليهم الصلاة والسلام .

٩– من زكى نفسه من المسلمين كان له ما يشاء عند ربه معجزة لخير رسله صلى الله عليه وعليهم

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ۞ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ۞ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر:٣٣–٣٥) المعجزات حجج على غير المؤمن، وسراج منير يقتبس منه المؤمن نور الأحوال المحمدية التى يجمل الله بها ورثته عليه وعليهم الصلاة والسلام ، إن الله سبحانه وتعالى جعل رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها ، فإذا زكى المسلم نفسه حتى بلغت مراتب كمالاتها النفسانية، وتجملت بجمال نشأتها الأولى، لأن النفوس من عالم الأمر، وإنما قهرها الله سبحانه وتعالى على ملابسة الأجسام وهى مفارقة لها، قال تعالى :﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ (الأنعام:١٨). للحكمة العلية التى منها نيل كمالاتها بالأجسام ، ونيل الأجسام كمالاتها بالنفوس، ولله جل جلاله حكم اختص سبحانه بعلمها، إذا شاء أن يحيط عبدا

من عباده بشئ منها تفضل عليه، قال الله تعالى :﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾(البقرة: ٢٥٥).

نهى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الصحابة في ليلة من ليالى غزوة تبوك عن أن يخرج أحد منفردا، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا نهى عن أمر تركه الصحابة رضوان الله عنهم بعزيمة، لكمال يقينهم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لا ينطق عن الهوى، ولا ينطق إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر ، فدعت الضرورة رجلا لأن يخرج لقضاء حاجة الإنسان، وآخر لرد بعير له ند منه ، فهبت ريح عاصفة ، فاختنق الأول ، واحتملت الثانى كما تقدم .

من هذه الحادثة ينكشف لنا حقيقة لا بد من النظر فيها بعين العبرة ، وهى أن الإنسان قد يؤمر بالأمر فيقبله موقنا وتعروه دواع تجعله يترك العمل به ، وقد ينهى عن عمل فيتركه موقنا وتعروه دواع تجعله يعمله بلا روية ، فيحصل من ذلك ما لا يحمد في الدنيا والآخرة ،فعلى المؤمن الكامل أن يتروى في كل حادثة نزلت به، حتى لا يترك عملا أمر به، ولا يعمل ما نهى عنه مهما قضيت عليه الضرورة، وذلك شأن المستبصرين المؤمنين، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف : ٢٠١) . ولما كان عمل الصحابيين بما نهى عنه رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ ، لم يكن لمخالفة ولكن لضرورة ألجاهما الله تعالى ، فشفى الله الأول بنظر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وسقط الآخر على جبال طىء سالما فرده بنو طىء على المدينة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وهكذا كل مؤمن دعته الضرورة للوقوع في محظور ناسيا أو مضطرا ، فإن الله تعالى يمنحه الذكرى فيتوب إلى الله ، فيغفر الله له ، وإنما العقوبة لمن فعل المنهى، أو ترك المأمور به انتهاكا لحرمة الله ، غير مبال بعقوبته سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء : ١١٠) .

١٠- استسقاؤه ﴿ﷺ وآله﴾ بغزوة تبوك وما يستنبطه المؤمن من ذلك عمال الله المخلصين لجنابه العلى مع الله تعالى والله تعالى معهم ، لأنه سبحانه وتعالى وفقهم فاستجابوا له واستجاب لهم جل جلاله ، وأعانهم فأطاعوه وأطاعهم سبحانه وتعالى ، وكل أعمال المؤمن خالصة لله تعالى كائنة ما كانت تلك الأعمال ، إلا أنها تتفاضل ، فالمجاهد لإعلاء كلمة الله أفضل من المجاهد لمعاش من أوجب الله عليه القيام بهم ، وكذلك المجاهد فى الحج ، والمجاهد في طلب العلم ، والمجاهد في العبادة ، كلهم في عمل لله يستجيب الله لهم إذا سألوه سبحانه ، لأنه جل جلاله وفقهم فاستجابوا له سبحانه وتعالى.

اشتد العطش بأصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهم في غزوة تبوك، حتى كاد يذهب بأرواحهم ﵃ ، فشكى الصديق الأكبر الأمر لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كما تقدم، والتمس منه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يدعوا الله تعالى لهم ، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ أتحبون ذلك ؟ فقالوا : نحب ، فرفع يديه الكريمتين فأنزل الله الأمطار حتى سالت الأودية .

حكمة سؤاله ﴿ﷺ وآله﴾ لهم

أولا : لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ يعلم أنهم في أرقي مقامات الرضا عن الله سبحانه ، وأنه لا يدعوهم إلي الدعاء إلا الاضطرار الذى لا قبل لهم به ، وهو اسم الله الأعظم الذى إذا حصل للعبد وسأل ربه ، كشف السوء عنه قال تعالى :﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النمل : ٦٢) .

ثانيا : أن إجماع قلوب المجتمع وحبه لشيء ليس معصية لله، فتح لأبواب فضل الله، وهذا سر الختم في طريقنا، لأن الختم إذا شكل أعضاء الجسد، وأعرض عليهم الأمر فأحبوه، سأل الله فاستجاب الله لهم قبل أن يتموا دعاءهم .

ثالثا : أنه ﴿ﷺ وآله﴾ يحب أن يجعل الله تعالى لهم همة علية تطمئن بها قلوبهم، إذا شهدوا أنهم أحبوا أمرا فأحبه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وسأل الله فاستجاب سبحانه .

رابعا : أن مقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فوق مقام الخلة، ومنزلته﴿ﷺ وآله﴾ من ربه فوق كشف أولى العزم من الرسل، وكمل الصديقين من أمته ، وهو المقام المحمود الذى يحمده فيه وملائكته ورسله والمؤمنون على ما تفضل به على جنابه المحمدى من الكمالات، وهو المقام الذى يكون فيه كمال التفويض لله رب العالمين، فسألهم ﴿ﷺ وآله﴾ أتحبون ذلك ، ليكون الدعاء لهم ضرورة منهم . وأنت تعلم أن سيدنا الخليل عليه السلام عندما ألقى فى النار سأله جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا .

ورفع الأمر الفادح لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من أصحابه عليه وعليهم الصلاة والسلام كرفعه لله بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم لأن الله تعالى أقام حبيبه ومصطفاه مقامه فيما أنزله عليه ﴿ﷺ وآله﴾ .

المعجزة يزيد الله بها المؤمن إيمانا

أمطرت السماء بدعائه ﴿ﷺ وآله﴾ فزاد الله المؤمنين إيمانا ، وقال منافق شهد الحادثة بنفسه وشق بطن بعيره فشرب ماء فرثه: هذا نوء كذا من الكواكب، فغضب عليه صحابي وقال : ليس هذا وقت الأنواء، فقال المنافق: سحابة مرت ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) . أسأل الله تعالى أن يحفظنا من الشك والريب ، وأن يعيذنا من الضلال والعناء، وأن يمنحنا المزيد من الإيمان ، وأن يكرمنا بالاستجابة لنا فضلا منه وكرما .

١١- المؤمن فى مزيد من الإيمان ، والمنافق في المزيد من النفاق

فقدت ناقة الرسول﴿ﷺ وآله﴾ فى غزوة تبوك ، فتساءل الصحابة عنها معتقدين أنها أهملت فطلبت المرعى ، ولم يفكروا فى شئ إلا أنها ناقة فك عقالها فسارت على وجهها ، ونظر المنافقون إلى الأمر نظرة ضلال ، فقال أحدهم : إن محمدا يزعم أنه نبى يعلم خبر السماء وهو لا يعلم أين ناقته ، فأعلم الله نبيه بقول المنافق، فقال رسول الله ﴿

ﷺ وآله﴾ لأصحابه : إن رجلا يقول كذا وكذا ، وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى ربى ، وإن ناقتى بشعب كذا كما تقدم .

فانطلقوا إليها فأحضروها ، فلم يزيد المنافق بعد ذلك إلا نفاقا ، وعلى ما أظن أنه قال فى نفسه : هذا سحر ، ونعوذ بالله من النفاق ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ ﴾ (الأنعام: ٧١) . والمعجزة متعينة على رسل الله صلوات الله عليهم حفظا لقلوب المؤمنين ، ولولا ذلك ما أخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه رضي الله عنهم .

من هذا الخبر نعلم حق العلم أن أحدا غير الله لا يعلم الغيب ، وإنما يعلم الله من عباده من شاء بما شاء، وما من شدة تحصل للمؤمن إلا ويجعل الله له منها فرجا ومخرجا ، ويجدد له بها خيرا وعزا ، لأن من أخلاق المؤمن الصبر ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣) . ومن كان الله معه دام له الفضل والسعة .

١٢- حادثة سيدنا أبى ذر رضي الله عنه بغزوة تبوك وحكمتها

أبطأ به جمله كما تقرر قبل ، فأخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الرءوف الرحيم بالمؤمنين، فما السر فى هذا ؟ !!.

حكمته والله أعلم :

أولا: أن سيدنا أبا ذر ﵁ كان من أكمل أهل مقام التوكل على الله ، الذين بلغ بهم الحب فى الله مبلغا جعله يتلذذ بالآلام فى الله تعالى ، ويأنس بما يستوحش منه غيره ، ولأهل هذا المقام مزيد من الله تعالى بما ينالهم من الوصب والعناء ، وكذلك كان الأمر فإن سيدنا أبا ذر ترك بعيره ، وحمل متاعه على كتفه، واقتفى أثر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مسارعا إلى الله ، ومشتاقا إلى نيل فضله العظيم ، ورضوانه الأكبر . ورسوله﴿ﷺ وآله﴾ يحب أن يبلغ أفراد أمته الغاية التى لا غاية بعدها ، فرار إلى الله تعالى ، وإقبالا عليه جل جلاله ، وفناء عما سواه، وهى حقيقة رحمته ورأفته﴿ﷺ وآله﴾ لأهل العزائم من أفراد أمته عليه وعليهم الصلاة والسلام .

ثانيا : أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه ﵃ كانوا على سفر فى صحارى قاحلة وبوادى ما حله ، والجيش كثير ، والزاد قليل ، فو كل أمر أبى ذر ﵁ لله الرءوف الرحيم ، الحفيظ السلام المعين ، وهى الرحمة المحمدية بجماعة المسلمين ، والإمام فى الصلاة لا ينتظر القادم عليه.

ثالثا : أن يكون الإمام أبو ذر ﵁ قدوة لأصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى عمله ، حتى لو قدر الله تأخير أحدهم يعلم حكم الله فى ذلك ، فيتوكل على الله ، ويثق به سبحانه ، ورحمة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تتجلى لأهل الإيمان بقدر مقاماتهم من اليقين ، وأنواعها لا تحصى ولا تحصر ، وكم لله من نعمة أخفاها فى بلية ، وكم له من فضل عظيم ستره برزية ، وكم عطية أسبغها بعد منع ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح:٥، ٦). فالمؤمن من يكاشف برحمة ورأفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى أعماله التى ينكرها أهل الجهالة، فحدود الشرعية هى شدة فى الظاهر، ولكنها عين الرأفة والرحمة والمنة من الله تعالى .

نظر الصحابة رضى الله عنهم من بعد إلى رجل يمشى منفردا على الطريق، فأخبروا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : كن أبا ذر فتأمله الصحابة بعد ذلك فقالوا : هو والله أبو ذر ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ كما سبق : رحم الله أبو ذر ، يمشى وحده، ويموت وحده ، ويبعث وحده ﵁ .

كلمة كن وهبها الله لحبيبه ومصطفاه﴿ ﷺ وآله﴾

قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: كن، يشير إلى أن الكلمة وهبها الله لحبيبه ومصطفاه، ومعلوم فيما تقدم أن الصحابة سبقوا أبا ذر وهم فى أمن ركبانا ، وهو حامل متاعه وماشى .

على قدميه لامعين له إلا الله تعالى، فالتحاقه بهم ﵁ جميعاً من خوارق العادات، ولا يتصور العقل أن رجلاّ يتأخر عن الجيش أياماّ، ويحمل متاعه، ويمشى فى قفاز مجهولة، ويلحق الجيش إلا بسر فوق الأسباب، يمنحه مسبب الأسباب، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

(الطلاق:٢ــ٣) . وهذه قوة الله التى فوق الأسباب .

فقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : كن، هى كلمة يراد بها إنشاء ما لم يكن يتصور عقلاّ ولا عادة، ولقدرة الله عجائب أدهشت العقول ، فكان كما أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. وقد تقدم لى أن المؤمن إذا زكى نفسه كان له ما يشاء عند ربه ، فكيف بمصدر هذا الفضل العظيم للخلق أجمعين ؟!! .

فى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ كن،إشارة لا ينبغي بيانها إلا لكمل أهل الإيمان ممن ينظرون بعيون اليقين، وسأشير إلى بعض أسرارها فى كتاب (الصوفية) إن شاء الله ، أخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن الغيب فكان كما أخبر ، فمات أبو ذر وحيداً بالربذة ، ولم تجد زوجته رضى الله عنها من يكفنه، فخرجت على الطريق فى حيرة شديدة،

فرزقها الله تعالى برجال من الصحابة والتابعين خرجوا فى تجارة لهم، سألوها عن أمرها فأخبرتهم، فأسرعوا فرحين بما أكرمهم الله به، باكين لفقد هذا النور من الوجود، وقد تقدم لك الخبر برمته فى الغزوة .

١٣ - الرسول لم يوجد الشىء من لا شىء أدباً مع الله

قدم ﴿ﷺ وآله﴾ عين تبوك وليس بها ماء، فأخرجوا ما فيها فى شن، فغسل ﴿ﷺ وآله﴾ وجهه ويديه ومضمض، ثم ألقى الماء فى العين فجرت بالماء، من هذا نعلم أن الذى يوجد الشيء من لا شيء هو الله وحده، وأن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أعلمنا ذلك بعمله، وكان إذا شاء ﴿ﷺ وآله﴾ أن يوجد معجزة له رحمة بأمته ﴿ﷺ وآله﴾ بارك الله فى القليل فجعله كثيرا، وهو أدب الله الذى أدبه لحبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾ .

سرية أبي سفيان والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما

وكانت هذه السرية بعد أن رجع ﴿ﷺ وآله﴾ من تبوك، وذلك أنه وفد عليه ﴿ﷺ وآله﴾ ثقيف مسلمين بعد رجوعه من تبوك، وستأتى قصة وفدهم .

فأرسل ﴿ﷺ وآله﴾ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما لهدم اللات بالطائف، فذهبا فى بضعة عشر رجلا فهدموها حتى سووها بالأرض .

وفى رواية: أن المغيرة أراد أن يقدم أبا سفيان فى هدمها، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك فلما دخل المغيرة علاها ليضربها بالمعول ، أى: الفأس العظيم التى يقطع بها الصخر، وقام قومه دونه يحمونه خشية أن يرميه أحد بسهم ، وخرج نساء ثقيف من الحجال حسرا، أى: مكشوفات ، يبكين على الطاغية، وكانوا يظنون أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك. وفى رواية: وأراد المغيرة أن يسخر بثقيف، فقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف فلما علا على الطاغية ليهدمها القى

نفسه. وفى لفظ: أخذ يرتكض، فصاحوا صيحة واحدة فقالوا : أبعد الله المغيرة قتلته الربة، وقالوا: والله لا يستطيع هدمها، فوثب وقال لهم: قبحكم الله إنما هى لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم أخذ فى هدمها فهدمها إلى أن كسر بابها، وهدم أساسها، واخرج ترابه لما سمع سادها يقول : ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، ثم أخذوا حليتها وكسوتها وما فيها من طيب وذهب وفضة وأقبلوا حتى دخل عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ فحمد الله على نصره وإعزاز دينه.

سرية جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه إلي ذي الخلصة

ذو الخلصة اسم بيت كان فيه صنم لقوم جرير بن عبد الله ، وكانت هذه السرية قبل وفاته﴿ ﷺ وآله﴾ بنحو شهرين . قال جرير رضي الله عنه قال لي النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: ألا تريحني من ذي الخلصة، فقلت: بلى، فانطلقت في مائة وخمسين فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك للنبي﴿ ﷺ وآله﴾ فضرب في صدري وقال: اللهم ثبته، واجعله هاديا مهديا، فما وقعت عن فرس بعد.

وكان ذو الخلصة بيتا في اليمن لخثعم وبجيلة يقال له الكعبة، فانطلق إليها فكسرها وحرقها، ثم بعث إلى رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فقال رسول جرير: والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب، فبارك في خيل أحمس ورجالها خمس مرات. وروى الطبراني عن جرير قال: بعثني النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى اليمن أقاتلهم وأدعوهم أن يقولوا لا إله إلا الله. قال الحافظ بن حجر: والذي يظهر أنه غير بعثه إلى الصنم، ويحتمل أنه بعثه إلى الجهتين على الترتيب، ويؤيده ما وقع عند ابن حبان في حديث أنه﴿ ﷺ وآله﴾ قال له: ياجرير إنه لما يبق من طواغيت الجاهلية إلا بيت ذي الخلصة، فإنه يشعر بتأخير هذه القصة جدا، وقد شهد جرير حجة الوداع فكان إرساله بعدها فهدمها، ثم توجه إلى اليمن، ولما رجع بلغته وفاة النبي﴿ ﷺ وآله﴾.

وحكى بعضهم أم موضع ذي الخلصة صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله عنهماإلى أبنى

أُبْنَى بضم الهمزة وسكون الباء الموحدة وفتح النون فألف مقصورة، اسم موضع بين عسقلان والرملة بالبلقاء من أرض الشام، وهي آخر السرايا، كما أن غزوة تبوك آخر الغزوات.

لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة، أمر ﴿ﷺ وآله﴾ بالتهيء لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا﴿ﷺ وآله﴾ أسامة بن زيد فقال: سر إلى موضع قتل أبيك يوم مؤتة فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فاغز صباحاً على أهل أُبْنَى وأحرق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله عليهم فأقل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون والطلائع. فلما كان يوم الأربعاء بدأ به ﴿ﷺ وآله﴾ وجعه فحمّ وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد ﴿ﷺ وآله﴾ لأسامة لواءً بيده ثم قال: اغز بسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله.

فخرج﴿ﷺ وآله﴾ بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريده وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من المهاجرين الأولين والأنصار إلا اشتد لذلك وتهيأ للخروج، منهم أبو بكر، وعمر، ،أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص ﵁ فتكلم قوم وقالوا: يستعمل رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ على المهاجرين الأولين والأنصار هذا الغلام، وكان سن أسامة سبع عشرة سنة. وقيل تسع عشرة سنة. وقيل عشرين سنة.

وجاء أن الخليفة المهدى لما دخل البصرة رأى أياس بن معاوية – الذي يضرب به المثل في الذكاء وهو صبي – وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة، فقال المهدى: أفٍ لهذه الغفانين أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحديث، ثم التفت إليه المهدى وقال: كم سنك يافتى؟ فقال: سنى أطال الله بقاء أمير المؤمنين سن أسامة بن زيد بن

حارثة ﵁ لما ولاه رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ جيشاً فيه أبو بكر و عمر رضي الله عنهما، فقال تقدم بارك الله فيك، وكان سنه سبع عشرة سنة.

فضائل أسامة بن زيد

ولما بلغ رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ مقالتهم وطعنهم في ولايته مع حداثة سنه، غضب ﴿ ﷺ وآله﴾ غضباً شديداً وخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميرى أسامة، ولئن طعنتم في إمارته فلقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله أنه كان لخليقاً بالإمارة، وأن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وأن كان من أحب الناس إلَيَّ، وأنه لمظنّة لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فأنه من خياركم. وتقدم أنه ﵁ كان يقال له: الحب بن الحب. وكان رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يمسح خشمه وهو صغير بثوبه، ثم نزل﴿ ﷺ وآله﴾ فدخل بيته، وذلك في يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

وجاء المسلمون الذين يخرجون من أسامة يودعون رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ويخرجون إلى المعسكر بالجرف، وجعل رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: أنقذوا بعث أسامة، واستثنى﴿ ﷺ وآله﴾ أبا بكر وأمره بالصلاة بالناس.

فلا منافاة بين من روى أن أبا بكر ﵁ كان من ذلك الجيش ومن روى أنه تخلف لأنه كان من جملة الجيش أولا ثم تخلف لما استثناه﴿ ﷺ وآله﴾ وأمره بالصلاة بالناس، وبهذا يرد بعض قول الرافضة طعنا في أبي بكر ﵁ أنه تخلف عن جيش أسامة وأنه﴿ ﷺ وآله﴾ لعن المتخلف عن جيش أسامة، لما علمت أن تخلفه كان بأمر منه ﴿ ﷺ وآله﴾ وفيه إشارة إلى أنه الخليفة بعده﴿ ﷺ وآله﴾ وأما اللعن الذي ذكروه فلم يرد في حديث أصلاً.

فلما كان يوم الأحد ورسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ في فراشه دخل أسامة من عسكره والنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ مغمور، فطأطأ رأسه فقبله وهو﴿ ﷺ وآله﴾ لا يتكلم، ثم جعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة، قال أسامة ﵁: فعرفت أنه﴿ ﷺ وآله﴾ يدعو لي ثم رجع أسامة إلى معسكره.

ثم دخل عليه﴿ ﷺ وآله﴾ يوم الاثنين فقال له: اغد على بركة الله، فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا برسول أمه أم أيمن رضي الله عنها قد جاء يقول إن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يتوفى.

وفي لفظ: فسار حتى بلغ الجرف فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول له: لا تعجل إن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثقيل، فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ﵃ فانتهوا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى حين زاغت الشمس، فدخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريده بلواء أسامة معقودا حتى أتى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فغرزه عنده.

جهز الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ونفذ الصديق ﵁

فلما بويع لأبي بكر ﵁ أمر بريده أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة، وأن يمضي أسامة لما أمر.

ولما اشتهر أمر انتقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ظهر النفاق وقويت شوكة أهله، وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية، ومن كان يرغب فيهم، وارتدت طوائف من العرب وقالوا: نصلى ولا ندفع الزكاة.

كل ذلك ظهر قبل أن يتوجه جيش أسامة، فعند ذلك كلم الناس أبا بكر ﵁ أن يمنع أسامة من السفر، وقالوا: كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فأبى أبو بكر ﵁ أن يمنع أسامة من الخروج، وقال والله الذي لا إله إلا هو لو

جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما أرد جيشاً وجهه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولا حللت عقده.

ثم كلم أبو بكر ﵁ أسامة في عمر ﵁ أن يأذن له في التخلف ليستعين به الصديق ﵁ في مشورته وأمر الخلافة، ففعل.

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشر خرج أسامة ﵁ في ثلاثة آلاف، معهم ألف فرس، وودعه أبو بكر ﵁ بعد أن سار إلى جانبه ساعة ماشياً، وأسامة ﵁ راكب، وعبد الرحمن بن عوف ﵁ يقود براحلة الصديق ﵁ فقال أسامة: ياخليفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لست بنازل ولست براكب، ثم قال له الصديق: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، وقد وقع نظير ذلك لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما بعث معاذاً﵁ إلى اليمن، شيعه ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يمشي تحت راحلة معاذ وهو يوصيه.

نصر ساحق وتأييد كبير

ثم أن أسامة ﵁ سار إلى أهل أُبنى فشن عليهم الغارة أى: فرق الناس عليهم، وكان شعارهم يامنصور أمت، فقتل من قتل، واسر من أسر، وحرق منازلهم، وحرث أرضها فأزال نخلها، وأجال الخيل في عرصاتهم، ولم يقتل من المسلمين أحد.

وكان أسامة ﵁ على فرس أبيه وقتل قاتل أبيه، وأسهم للفارس سهمين وللراجل سهماً، وأخذ لنفسه مثل ذلك، فلما أمسى أمر الناس بالرحيل وأسرع السير، وبعث مبشراً إلى المدينة بسلامتهم، وخرج أبو بكر ﵁ فى المهاجرين والأنصار ممن لم يكنّ من تلك السرية، يتلقون أسامة ومن معه ﵁ وسروا بسلامتهم، ودخل أسامة واللواء بين يديه حتى انتهى إلى باب المسجد فدخل فصلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته.

وكان في خروج هذا الجيش نعمة عظيمة، فإنه كان سبباً لعدم ارتداد كثير من طوائف العرب أرادوا ذلك، وقالوا: لولا قوة أصحاب محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، فثبتوا على الإسلام.

أسامة الأمير

وكان عمر بن الخطاب ﵁ حتى بعد أن ولى الخلافة إذا رأى أسامة ﵁ قال: السلام عليك أيها الأمير، فيقول أسامة ﵁ غفر الله لك يأمير المؤمنين تقول لى هذا فيقول: لا أزال أدعوك ما عشت الأمير، انتقل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأنت عليَّ أمير.

وفي الصحيحين: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان يأخذ أسامة والحسن رضي الله عنهما فيقول: اللهم أحبهما فإني أحبهما.. ومناقبه ﵁ كثيرة .. توفى بالمدينة.

ومما ينبغي أن يلحق بالغزوات والسرايا بعوثه ﴿ﷺ وآله﴾.

البعوث وعالمية الإسلام

مكث النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في مكة ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله على بصيرة، ودخل عشرات من الناس في الدين الجديد أغلبهم من المستضعفين، ومع اتساع دائرة الدعوة اتسعت دائرة المعاناة، ومن ثم كان لابد من الخروج إلى دائرة أو دوائر أوسع وتمثل ذلك في عملين:

الأول: هجرتان قام بهما بعض المسلمين إلى الحبشة بدأت أولاهما في العام الخامس من البعثة.

الثاني: هجرة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ من مكة إلى المدينة بعد التمهيد لها ببيعتى العقبة الأولى والثانية.

وفي المدينة أنشأ النبي ﴿ﷺ وآله﴾ والدولة كاملة الأركان لا بالمعايير القديمة ولكن بما يشترطه القانون الدولى، والفقه الدستورى الحديث في وقتنا الحاضر من وجود شعب دائم، وإقليم محدد، وحكومة، وأهلية الدخول في علاقات مع الدول الأخرى.

ودفاعاً عن العقيدة لدولة الناشئة، حارب النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أعداء الإسلام فى معارك مشهورة، منها بدر، وأحد، والخندق، ومؤتة، والمريسيع.. الخ.

وفى العام السادس للهجرة كان "صلح الحديبية" بين النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقريش، وشعر كثير من المسلمين بقساوة شروط هذا الصلح، وأثبتت الأيام بعد نظر النبي ﴿ﷺ وآله﴾: فقد اعترفت قريش رسمياً بتوقيعها هذا الصلح بسيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وبالمسلمين كجماعة لها قوة وثقل وكيان وأهمية.

جنى المسلمون كسبا سياسيا كبيرا بفتح الباب على مصراعيه لمن أراد من العرب الدخول في حلف سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾، وفيه دخلت قبيلة خزاعة وقالوا: (نحن في عقد محمد وحلفه).

لم تفد قريش من الهدنة شيئاً، بينما أفاد النبي ﴿ﷺ وآله﴾ الكثير: إذ عاد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمون إلى مكة معتمرين في العام القابل، وقد دامت الهدنة عامين فحسب، ولكنهما كانا كافيين للنبي ﴿ﷺ وآله﴾ لتثبيت مركزه، ولمد المسلمين بالقوة اللازمة لكسر شوكة المشركين، وتقويض سلطانهم.

وفي هذه الأثناء دك المسلمون معاقل اليهود في خيبر وفدك في العام السابع للهجرة، وبعث ﴿ﷺ وآله﴾ بحملة إلى مؤتة في العام الثامن من الهجرة، وانضم إلى صفوف المسلمين جماعات وجماعات، وأسلم أشخاص من ذوى الحيثية والقدرة والحنكة.

وبهذا الصلح بدأ الانفتاح على مناطق وأقطار أخرى تحقيقاً لعالمية الإسلام، فكانت رسائل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الملوك والأمراء والرؤساء في السنة السادسة للهجرة، وهي غير كتبه ﴿ﷺ وآله﴾ التي كتبها بالأمان.

وتشترك كل هذه الرسائل في مضمون محورى واحد وهو الدعوة إلى الإسلام، وقد جاءت هذه الدعوة في أساليب متعددة وصور مختلفة تراعى شخصية المرسل إليه ومكانته السياسية و الإجتماعية والدينية، ولكن بجانب هذه الفكرة المحورية كانت هناك مضامين أخرى فرعية مشتركة بين هذه الكتب جميعاً أو أغلبها منها:

١- في الإسلام السلامة ومن امتنع عن الإسلام أثم.

٢- محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المبعوث للناس كافة.

٣- الممتنع عن الإسلام لا يحمل إثم بقائه على الكفر فحسب، ولكن إثم رعاياه كذلك، لأنهم يتبعونه ضلالة أو هداية. " والناس على دين ملوكهم ".

٤- الاستشهاد بآية أو بآيات من القرآن الكريم مناسبة للمقام، ومتعلقة بطبيعة المرسل إليه ليكون القرآن حجة عليه.

فكل هذه الرسائل كانت الفكرة الأساسية التي تحملها هي الدعوة إلى الإسلام، ثم هى تمزج في تضاعيفها بين الترغيب في اعتناق الدين الجديد، والترهيب المجمل في نتيجة المخالفة برفض اعتناق الإسلام، وهو الدين الخاتم الذي جاء به سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ مبعوثاً للناس كافة.

ولما أراد ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يكتب للملوك قيل له: يارسول الله إنهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما، أي: ليكون في ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم، وفيه أن هذا واضح إذا كان الختم عليها بعد طيها، ويجعل عليها نحو شمع ويختم فوق ذلك. والظاهر أن ذلك لم يكن، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن التزوير لبعده مع الختم، فاتخذ ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتما من فضة، أي: بعد أن اتخذ خاتما من ذهب، فاقتدى به ﴿ ﷺ وآله﴾ ذو اليسار من أصحابه فصنعوا خواتيم من ذهب، ولما لبس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك لبس أصحابه خواتيمهم،

فأخبره جبريل عليه السلام من الغد بأن الذهب حرام على ذكور أمتك، فطرح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك الخاتم، فطرح أصحابه خواتيمهم رضي الله عنهم.

وكان نقش خاتمه الفضة ثلاث أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر.

والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل، فمحمد آخر سطر، ورسول في الوسط، والله فوق، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم بها، فكان ذلك الخاتم في يده ﴿ﷺ وآله﴾، ثم في يد أبي بكر، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان، حتى وقع في بئر أريس في السنة التى توفى فيها عثمان رضي الله عنه فالتمسوه ثلاث أيام فلم يجدوه، واختلفت الروايات في موضع الخاتم من يده ﴿ﷺ وآله﴾ فقيل: في خنصر اليسار وهو المروى عن عامة الصحابة، وقيل:في خنصر اليمين وهو المروى عن طائفة منهم ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم، وجمع البغوى أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فعل كلا من الأمرين، تختم في يمينه وفي يساره، لكن قال: التختم في اليسار كان آخر الأمرين وكان يجعل فصه مما يلي كفه الشريف ﴿ﷺ وآله﴾.

وعند عزمه ﴿ﷺ وآله﴾ على إرسال الكتب وتكلمه مع أصحابه في ذلك، خرج على أصحابه يوماً فقال: أيها الناس إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدوا عنى يرحمكم الله، ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم، فقال أصحابه: وكيف أختلف الحواريون على عيسى يارسول الله؟ قال: دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأما من بعثه مبعثا قريبا رضى وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا كره وأبى، فشكا ذلك عيسى إلى ربه، فأصبحوا وكل منهم يتكلم بلغة القوم الذى وجه إليهم، ونعرض فيما يلي نصوص بعض الرسائل:

٢- كتابه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى قيصر

قيصر هو: المدعو هرقل ملك الروم، أرسل إليه ﴿ﷺ وآله﴾ كتابه على يد دحية الكلبي ﵁ والدحية بلسان اليمن الرئيس، وقيصر معناه في اللغة البقير لأنه بقر، أي: شق عنه لأن أم قيصر ماتت في المخاض فشق عنه وأخرج فسمى قيصر، وكان يفتخر بذلك ويقول: لم أخرج من فرج، ثم صار قيصر اسما لكل من ملك الروم، وكان إرسال الكتاب لقيصر سنة ست من الهجرة بعد رجوعه ﴿ﷺ وآله﴾ من الحديبية، وكان وصوله إليه من المحرم سنة سبع، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ قال قبل ذلك: من ينطلق بكتابي هذا فيصير إلى هرقل وله الجنة؟. فقال دحية: أنا يارسول الله، فأعطاه ذلك الكتاب. وقيل أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أمر دحية ﵁ أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى قيصر، فلما انتهى دحية إلى الحارث أرسل معه عدى بن حاتم ﵁ فإنه أسلم بعد ذلك ليوصله إلى قيصر فذهب به إليه، فقال قومه لدحية: إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك، قال دحية ﵁: لا أفعل ذلك أبدا ولا أسجد لغير الله تعالى، قالوا: إذا لا يؤخذ كتابك فقال له رجل منهم: أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له، فقال دحية: وما هو؟ فقال: إن له على كل عتبة منبرا يجلس عليه فدع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو، ثم يدعو صاحبها، ففعل، فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب، فدعا الترجمان الذي يقرأ بالعربية، ثم قال له: انظر لنا من قومه أحدا نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب ﵁ بالشام قبل إسلامه، أى: كان بغزة مع رجال من قريش في تجارة لهم زمن هدنة الحديبية، وكان أول الهدنة في ذى القعدة سنة ست. وقيل: إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كتب لقيصر من تبوك في السنة التاسعة وجمع بينهما بأنه كتب لقيصر مرتين.

قيصر يحاور أبا سفيان

وحاصل القصة كما هو في البخارى:

قال: حدثنا أبو اليمان، قال: أنبأنا شعيب عن الزهرى قال: أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مادا فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم به نسبا، فقال: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه، قال: فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل ارتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل

قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله عز وجل، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله عز وجل ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، م دعا بكتاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿ ويا هل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾).

قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لفظهم فلا أدرى ماذا قالوا، وأمر بنا فأخرجنا فلما أن خرجت مع أصحابى وخلوت بهم قلت لهم: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة يعنى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ هذا ملك

بني الأصفر يخافه. قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره، أي: للإسلام، وكان ذلك يوم فتح مكة، وقد حسن إسلامه وطاب له قلبه بعد ذلك ﵁.

الختان علامة النبى الخاتم ﴿ ﷺ وآله﴾

وكان ابن الناطور صاحب إيليا وهرقل، أسقف على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوما خبيث النفس فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتنوا إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له بروميا- وكان نظيره فى العلم- وصار هرقل إلى حمص، فلم يرى حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنه نبى، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم على وقال: إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه.

قيصر يكذب وأبو سفيان يساعده وبطريق يصدق أمر النبى (ﷺ وآله)

وعند ذلك كتب كتابا وأرسله مع دحية إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول فيه: إنى مسلم ولكنى مغلوب، وأرسل بهدية، فلما قرأ ﴿ﷺ وآله﴾ الكتاب. قال: كذب عدو الله ليس بمسلم، وقبل ﴿ﷺ وآله﴾ هديته وقسمها بين المسلمين، ومصداق قوله ﴿ﷺ وآله﴾ أن قيصر بعد هذه القصة بسنتين قاتل المسلمين بغزوة مؤتة.

ويروى أن أبا سفيان رضي الله عنه قال لقيصر لما سأله هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فقال: لا، لكن أخبرك عنه أيها الملك خبرا تعرف به أنه كذب، قال: وما هو؟ قلت: يزعم أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء إلى مسجدكم هذا ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح، فقال بطريق، أى: قائد من قواد الملك كان واقفا عند رأس قيصر: صدق أيها الملك، فنظر إليه قيصر فقال: ما أعلمك بهذا؟ قال: إنى كنت لا أنام ليلة أبدا حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كنت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلا، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا: لا نستطيع نحركه حتى نصبح، فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر، فقال قيصر لقومه: ياقوم ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبيا بشركم به عيسى بن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم، قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله في غيركم وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء، وأمر بإنزال دحية وإكرامه.

قيصر يتأدب مع رسالة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

وذكر أن ابن أخى قيصر أظهر الغيظ الشديد وقال لعمه: قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ألق به، يعنى الكتاب، فقال له: والله إنك لضعيف الرأى أترى أرمى

بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر، هو أحق أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق أنا صاحب الروم والله مالكي، أي: وفي لفظ أن أخا قيصر لما سمع الترجمان يقرأ من محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى قيصر صاحب الروم ضرب في صدر الترجمان ضربة شديدة، ونزع الكتاب من يده، وأراد أن يقطعه، فقال له قيصر: ما شأنك؟ فقال: تنظر في كتاب رجل قد بدأ بنفسه قبلك وسماك قيصر صاحب الروم، وما ذكر لك ملكا، فقال له قيصر: إنك أحمق صغيرا، ومجنون كبيرا، أتريد أن تمزق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه، ولعمري إن كان رسول الله كما يقول، لنفسه أحق أن يبدأ بها مني،ولئن سماني صاحب الروم لقد صدق ما أنا إلا صاحبهم وما ملكهم، ولكن الله سخرهم لي، ولو شاء لسلطهم علي كما سلط فارس على كسرى فقتلوه. ولما جاءه ﴿ﷺ وآله﴾ الخبر عن قيصر قال:ثبت ملكه. وفي لفظ: سيكون لهم بقية.

رسالة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تحفظ ملك قيصر

ولقد صدق الله ورسوله فقد ذكر الحافظ بن حجر رحمة الله تعالى عليه أن الملك المنصور قلاوون أرسل بعض أمراءه إلى ملك المغرب بهدية، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الإفرنج في شفاعة فقبله وأكرمه وقال له: لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج له صندوقا مصحفا بالذهب، وأخرج منه مقلمة، وفي لفظ:قصبة من الذهب.

–قال السهيلي رحمه الله تعالى: قال: بلغني أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهب تعظيما له– فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه، وقد ألصق عليه خرقه حرير فقال: هذا كتاب نبيكم لجدي قيصر ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وذكر لنا آباؤنا عن آبائهم أن ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزول الملك عنا، ونحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا، أي: ولا ينافيه ما جاء إذا هلك قيصر

فلا قيصر بعده، لأن المراد إذا زال ملكه عن الشام لا يخلفه فيه أحد، وكان كذالك لم يبق إلا ببلاد الروم.

رسالة ثانية لقيصر من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

وفى صحيح ابن حيان عن أنس ﵁ أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كتب إليه أيضا من تبوك يدعوه وأنه قارب للإجابة ولم يجب. وقد ذكر حامل كتابه إليه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهرانى أصحابه محتبيا فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: هو هذا، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه، فناولته كتابى، فوضعه فى حجره ثم قال: من أنت؟ قلت: إنى رسول قوم، وعلى دين قوم لا أرجع عنهم حتى أرجع إليهم، فضحك ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، فلما فرغ من قراءة كتابى قال: إن لك حقا وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا قوم سفر، فقال رجل: أنا أجوزه، فأتى بحلة فوضعها فى حجرى فسألت عنه، فقيل لى: إنه عثمان بن عفان ﵁.

٢-كتابه (ﷺ وآله) إلى كسرى ملك فارس

كتب إليه ﴿ﷺ وآله﴾ كتابا وبعث به مع عبد الله بن حذافة السهمى ﵁– لأنه كان يتردد على كسرى كثيرا– وقيل: أرسله مع غيره، وفى الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس)، أى: الذين هم أتباعك. قال عبد الله بن حذافة ﵁ فأتيت إلى بابه وطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه فدفعت إليه بكتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقرىء عليه فأخذه وفمزقه.

وفى رواية: أن كسرى لما أعلم بكتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أذن لحامل الكتاب أن يدخل عليه، فلما وصل، أمر كسرى أن يقبض منه الكتاب فقال: لا، حتى أدفعه إليه كما أمرنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال كسرى: أدنه، فدنا فناوله الكتاب، فدعا من يقرؤه، فقرأه فإذا فيه: من محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى كسرى عظيم فارس، فأغضبه حين بدأ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بنفسه وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، وأمر بإخراج حامل ذلك الكتاب، فأخرج، فلما رأى ذلك قعد على راحلته وسار، فلما ذهب عن كسرى ثورة غضبه بعث يطلب حامل الكتاب فلم يجده، فلما وصل إليه ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبره الخبر قال ﴿ﷺ وآله﴾: مزق ملك كسرى. وفى رواية: مزق الله ملكه. وفى رواية: اللهم مزق ملكه كل ممزق.

كسرى يأمر بالقبض على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فيقتله ولده

وكتب كسرى إلى أمير له فى اليمن يقال له باذان: إنه بلغنى أن رجل من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه، يكتب إلى بهذا الكتاب، أى: الذى بدأ فيه بنفسه وهو عبدى. وفى رواية قال له: إن لم تكفنى رجلا خرج بأرضك يدعونى إلى دينه وإلا فعلت فيك كذا- يتوعده- فابعث إليه رجلين جلدين فليأتيا به، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مع قهرمانه، وبعث معه رجلا آخر من الفرس، وبعث بهما إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكتب معهما إلى رسول ﴿ﷺ وآله﴾ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف فسألوه عنه فقال: هو بالمدينة، فلما قدما عليه المدينة قالا له: شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى بعث إلى الملك باذان أن يبعث إليك من يأتى بك، وقد بعثنا إليك، فإن أبيت أهلكك وأهلك قومك وخرب بلادك، وكان على زى الفرس من حلق لحاهم وأعفا شوارهم، فقال لهما: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا: أمرنا ربنا- يعنيان كسرى- ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتيانى غدا،

وأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الخبر من السماء بأن الله سلط على كسرى ابنه فقتله فى شهر كذا فى ليلة كذا، أي: ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأول سنة تسع، فلما كان الغد دعاهما وأخبرهما الخبر، وكتب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى باذان أن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى يوم كذا فى شهر كذا، فلما أتى باذان الكتاب توقف، قال: إن كان نبيا فسيكون ما قال، فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على يد ولده شيرويه. قيل قتله ليلا بعد ما مضى من الليل سبع ساعات فيكون المراد باليوم فى هذه الرواية مجرد الوقت، وفى رواية أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال لرسول باذان: اذهب إلى صاحبك وقل له: إن ربى قد قتل ربك الليلة. ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة، فكان كما أخبر ﴿ﷺ وآله﴾ فلما جاءه ﴿ﷺ وآله﴾ هلاك كسرى قال: لعن الله كسرى أول الناس هلاكا فارس ثم العرب.

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنهما أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: لتفتحن عصابة من المسلمين أو المؤمنين أو رهط من أمتى كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض، فكنت أنا وأبى فيهم وأصبنا من ذلك ألف درهم.

تحقق نبوءته ﴿ﷺ وآله﴾

وقدم على باذان كتاب شيرويه فيه: أما بعد فقد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس، فإنه قتل أشرافهم فتفرق الناس، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى يكتب إليك فيه، فلا تزعجه حتى يأتيك أمرى فيه فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ثم ملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم فى خلافة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومزقهم الله كل ممزق تحقيقا لدعوته ﴿ﷺ وآله﴾.

٣- كتابه (ﷺ وآله) للنجاشى ملك الحبشة

بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عمرو بن أمية الضمرى ﵁ إلى النجاشى سنة ست وبعث معه كتابا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة سلم أنت، أى: أنت سالم لأن السلم يأتى بمعنى السلامة، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، أى: المنقطعة عن الرجال التى لا شهوة لها فيهم، والمنقطعة عن الدنيا وزينتها، الطيبة الحصينة– ومن ثم قيل لسيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ البتول– حملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى).

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم ودعا بحق من عاج، أى: وهو عظم الفيل، وجعل فيه كتاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم. وفى رواية: بعث ﴿ ﷺ وآله﴾ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فكان أول رسول، وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام، وفى الآخر يأمره أن يزوجه ﴿ ﷺ وآله﴾ أم حبيبة، فأخذ الكتابين وقبلهما ووضعهما على رأسه وعينيه ونزل عن سريره تواضعا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق.

رسالة النجاشى إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

وكتب النجاشي إليه ﴿ﷺ وآله﴾ جواب الكتاب وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من النجاشى أصحمة، السلام عليك يانبى الله من الله ورحمة الله وبركاته الذى لا إله إلا هو، زاد فى لفظ الذى هدانى للإسلام. أما بعد، فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعث به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه- يعنى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين - فأشهد أنك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ صادقا مصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، أى: جعفر بن أبى طالب، وأسلمت على يده لله رب العالمين). وعند ذلك قال ﴿ﷺ وآله﴾ اتركوا الحبشة ما تركوكم.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ رأى الخير فى النجاشى

وذكر أن عمرو بن أمية قال للنجاشى: أى: عند إعطائه الكتاب،: ياأصحمة إن على القول و عليك الاستماع، إنك كأنك فى الرقة علينا منا، و كأنا فى الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه، و لم نخفك على شرقط إلا أمناه، و قد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، و الإنجيل بيننا و بينك شاهد لا يرد، و قاض لا يجور، و فى ذلك موقع الخير و إصابة الفضل، و إلا فأنت فى هذا النبى الأمى ﴿ﷺ وآله﴾ كاليهود فى عيسى بن مريم ، و قد فرق النبى﴿ﷺ وآله﴾ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، و أمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف، و أجر ينتظر، فقال النجاشى: أشهد بالله أنه النبى الذى ينتظره أهل الكتاب، و أن بشارة موسى براكب الحمار عيسى براكب الجمل، و أن العيان ليس بأشفى من الخبر.

زاد بعضهم: و لكن أعوانى من الحبشة قليل فانظرنى حتى أكثر الأعوان و ألين القلوب.

٤-كتابه (ﷺ وآله) للمقوقس

المقوقس معناه المطول البناء، و هو لقب كل من ملك القبط و هم أهل مصر و الأسكندرية و ليسوا من بنى إسرائيل. بعث ﴿ﷺ وآله﴾ حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ﵁ إلى المقوقس، و ذلك أنه ﴿ﷺ وآله﴾ عند منصرفه من الحديبية قال: أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر و أجره على الله، فوثب إليه حاطب و قال: أنا يارسول الله، قال: بارك الله فيك ياحاطب: فأخذت الكتاب وودعته ﴿ﷺ وآله﴾ و سرت إلى منزلى، و شددت على راحلتى، وودعت أهلى وسرت. و فى رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أرسل مع حاطب جبرا مولى ابن رهم الغفارى و الكتاب مع حاطب و فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط (و ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) و ختم الكتاب.

حكيم جاء من عند حكيم

و جاء به حاطب ﵁ حتى دخل على المقوقس بالأسكندرية- بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده، فذهب إلى الأسكندرية فأخبر أنه فى مجلس مشرف على البحر، فركب حاطب ﵁ سفينة و حاذى مجلسه- و أشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه، فلما جئ به نظر إلى الكتاب و فضه وقرأه و قال: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه، أى: من قومه و أخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه، قال: أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم قال له حاطب ﵁: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى- يعنى فرعون- فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك و لا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، و أعداهم له يهود، و أقربهم منه النصارى، و لعمرى ما بشارة موسى بعيسى ﵇ إلا كبشارة عيسى بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، و كل نبى أدرك قوما فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبى و لسنا ننهاك عن دين المسيح ﵇ و لكنا نأمرك به، فقال: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه و لا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، و لا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء و الإخبار بالنجوى، و سأنظر. و أخذ كتاب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و جعله فى حق عاج و ختم عليه و دفعه إلى جارية له .

رسالة و هدايا المقوقس إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾

ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾: (بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، أى: فإنه قد دفع له مائة دينار وخمسة أثواب، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، أى: وهما مارية وسيرين، وبثياب، أى: وهى عشرون ثوبا من قباطى مصر . وفى رواية: وأرسل له عمائم وقباطى وطيب وعودا وندا ومسكا، مع ألف مثقال من الذهب، ومع قدح من قوارير، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يشرب فيه، ثم قال: وأهديت لك بغلة لتركبها، والسلام عليك). ولم يزد على ذلك ولم يسلم. وفى رواية: أهدى له ﴿ﷺ وآله﴾ مع الجاريتين جارية أخرى اسمها قيسى وهى أخت مارية. وفى رواية: ذكر جارية رابعة اسمها بريرة وكانت سوداء، وأن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أهدى واحدة من تلك الجوارى لأبي جهم بن حذيفة العدوى وهى أم ابنه زكريا الذى كان خليفة عمرو بن العاص ﵁ على مصر، وأهدى ﴿ﷺ وآله﴾ أخرى لحسان بن ثابت ﵁ وهى أم عبد الرحمن بن ثابت ﵁. وفى رواية: أن المقوقس أهدى للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ مع الجوارى غلاما أسود خصيا يقال له مأبور . وفى رواية: أنه أهدى مع البغلة حمارا أشهب يقال له يعفور، وأما البغلة فتسمى الدلدل وكانت شهباء، ولم يكن يومئذ فى العرب بغلة غيرها، وأهدى له أيضا فرسا وهو اللزاز، ففى رواية: أن المقوقس قال لحاطب: مالذى يحب صاحبك من الخيل؟ فقال له حاطب: الأشقر، وقد تركت عنده فرسا يقال له: المر تجز، فانتخب له فرسا من خيل مصر الموصوفة، فأسرج وألجم وهو فرسه الميمون، وأهدى له عسلا من عسل بنها- قرى من قرى مصر-

فأعجب به ﴿ﷺ وآله﴾ ودعا فى عسل بنها بالبركة، ولما أكل منه قال: إن كان عليكم أشرف فهذا أحلى، وأهدى له ﴿ﷺ وآله﴾ مربعة يضع فيها المكحلة، وقارورة الدهن، والمشط، والمقص، والسواك، ومكحلة من عيدان شامية، ومرآة، ومشطا. وفي رواية: أنه أرسل مع الهدية طبيباً، فقال له النبى : ﴿ﷺ وآله﴾ ارجع إلى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع .

ثم إن المقوقس قال لحاطب: ارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً، قال حاطب: فرحلت من عنده وبعث معى جيشاً يحرسنى إلى أن دخلت جزيرة العرب، ووجدت قافلة من الشام تريد المدينة، فرد الجيش وارتفقت بالقافلة.

حوار المقوقس مع ثقيف

وفى بعض كتب السير أن المغيرة بن شعبة ﵁ وفد على المقوقس ومعه رهط من ثقيف– وكان ذلك قبل إسلام المغيرة– فلما دخلوا على المقوقس قال: ما صنعتم فيما دعاكم إليه محمد؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد، قال: كيف صنع قومه؟ قال: اتبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه فى مواطن كثيرة، قال: فإلى ماذا يدعو؟ قالوا: إلى أن نعبد الله وحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعو إلى الصلاة، والزكاة، وصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا، والربا، والخمر، فقال المقوقس: هذا نبى مرسل إلى الناس كافة، ولو أصاب القبط والروم لاتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى، وهذا الذى تصفون منه نعت الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر، فقالت ثقيف: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا معه، فهز المقوقس رأسه وقال: أنتم فى اللعب.

ثم سألهم عن أشياء مثل سؤال هرقل لأبى سفيان، ثم قال لهم: ما فعلت يهود بيثرب؟ قلنا: خالفوه فأوقع بهم، فقال: هم حسدوه أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف.

حوار المقوقس مع حاطب بن أبى بلتعة

وذكر الواقدى وابن الحكم من طريق أبان بن صالح قال: أرسل المقوقس إلى حاطب، أى: حين جاءه بكتاب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: أسألك عن ثلاث، فقال: لا تسألنى عن شيء إلا صدقتك، قال: على ما يدعو محمد؟ قلت: إلى أن نعبد الله وحده، ويأمر بخمس صلوات فى اليوم والليلة، وصيام رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة، والدم، إلى أن قال: صفه لى، فوصفته فأوجزت، قال: بقيت أشياء لم تذكرها، أفى عينه حمرة؟ قلت: ما تفارقه، قال: وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزى بالتمرات والكسر، لا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم، قلت: هذه صفته، قال: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه من الشام وهناك كانت تخرج الأنبياء قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب فى أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعنى على اتباعه، وأنا أضن بملكى أن أفارقه، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهر على ما هاهنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذه حرفاً، ولا أحب أن تعلم بمحاورتى إياك أحداً، قال حاطب ﵁: فذكرت قوله لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه كما قال، ولم يزد على هذا، ولم يسلم، بل استمر على نصرانيته حتى فتح المسلمون منه مصر فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﵁.

٥- كتابه (ﷺ وآله) إلى المنذر بن ساوى التميمى وكان بالبحرين

بعث ﴿ﷺ وآله﴾ إليه العلاء بن الحضرمى رضي الله عنه ومعه كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، قال فى شرح المواهب: ولم نر أحدا ذكر لفظ ذلك الكتاب، إلا أن البعض ذكر أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حدد فيها ملامح المسلم وهى: (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا). فلما وصل إليه الكتاب آمن وكتب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (أما بعد يارسول الله فإنى قد قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه، وبأرضى يهود ومجوس، أى: باقين على كفرهم، فأحدث إلى أمرك فى ذلك). فكتب إليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، أما بعد، فإنى أذكرك الله فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن ينصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية). وجاء فى رواية: أنه كتب إليه أن أفرض على كل رجل ليس له أرض أربعة دراهم وعباءة. وفى رواية: كتب إليه أن أعرض عليهم الإسلام فإن أبوا أخذت منهم الجزية على أن تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم.

العلاء ينصح والمنذر يسلم

وذكر السهيلى فى الروض أن العلاء لما قدم على المنذر قال له: يامنذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تقصرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأى، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب أن لا تصدقه؟ ولمن لا يخون أن لا تأمنه؟ ولمن لا يخلف أن لا تثق به؟ فإن كان هكذا فهو النبى الأمى الذى والله لا يستطيع عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه، إذ كل ذلك منه على أمية أهل العقل وفكر أهل النظر، فقال المنذر: قد نظرت فى هذا الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر.

٦- كتابه (ﷺ وآله) إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى ملك عمان

روى مسلم عن أبي برزة ﵁ قال: بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ رجلا إلى قوم فسبوه وضربوه فجاء إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك. وروى الإمام أحمد عن عمر ﵁ قال: سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: إنى لأعلم أرضا يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر، لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا بحجر . وعمان بضم العين المهملة وتخفيف الميم بلدة من بلاد اليمن. بعث رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ عمرو بن العاص ﵁ إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى وبعث معه كتابا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، إنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما). وختم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الكتاب.

حوار عمرو بن العاص مع عباد ابن الجلندى

قال عمرو ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان فعمدت إلى عباد- وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً- فقلت: إنى رسول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إليك وإلى أخيك، فقال: أخى المقدم علىّ بالسن والملك وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: ياعمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك- يعنى العاص بن وائل- فإن لنا فيه قدوة؟ قال: مات ولم يؤمن بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾، وودت له لو كان آمن وصدق به، وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام، قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبا، فسألنى أين كان إسلامى؟ فقلت: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة، أى: رؤساء النصرانية والرهبان، قلت: نعم، قال: انظر ياعمرو وما تقول إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له، أى: أكبر فضيحة، من كذب، قلت: وما كذبت وما نستحله فى ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى، قلت له: بلى، قال: بأى شيء علمت ذلك ياعمرو، قلت: كان النجاشى ﷺ يخرج له خراجا فلما أسلم النجاشى وصدق بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ قال: لا والله ولو سألنى درهما واحدا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خراجا ويدين دينا محدثا، فقال هرقل: رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضن بملكى

لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول ياعمرو، قلت: والله صدقتك، قال عباد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر، وصلة الرحم، وينهى عن الظلم، والعدوان، وعن الزنا، وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر، والوثن، والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا، أى: تابعا، قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم، قال: إن هذا الخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من الصدقات فى الأموال، ولما ذكرت المواشى قال: ياعمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه، فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون هذا.

إسلام جيفر وأخوه وقومهما بعد حوار مع عمرو بن العاص رضي الله عنه

قال عمرو: فمكثت أياما بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه خبرى، ثم إنه دعانى فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى، أى: عضدى، قال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه كتابا مختوما، ففض خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه ثم قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب فى الإسلام، وإما راهب مقهور بالسيف، فقال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال مبين، فما أعلم أحد بقى غيرك فى هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه، تطؤك الخيل وتبيد خضراءك، أى: جماعتك، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل

والرجال، قال: دعنى يومى هذا وارجع إلى غدا، فلما كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى، فرجعت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله ألفت، أى: وجدت، قتالا ليس كقتال من لاقى، قلت: وأنا خارج غدا، فلما أيقن بمخرجى، خلا به أخوه فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا، وصدقا وخليا بينى وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عونا على من خالفنى، وأسلم معهما خلق كثير، ووضعت الجزية على من لم يسلم، وكان بعث كتابه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى ملكى عمان فى ذى القعدة سنة ثمان.

٧- كتابه (ﷺ وآله) إلى هوزة بن على الحنفى صاحب اليمامة

اليمامة بلاد بالمشرق كثيرة النخيل على نحو ست عشرة مرحلة من مكة. كتب ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى صاحب اليمامة هوذة بن على الحنفى، وأرسل الكتاب مع سليط بن عمرو العامرى رضي الله عنه —وكان ممن أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وشهد بدرا وغيرها واستشهد باليمامة فى قتال أهل الردة— وفى الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك). فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مختوما أنزله وحياه وقرأ عليه الكتاب، فرد ردا فيه لطف.

قال السهيلى: وقال له سليط رضي الله عنه: ياهوذة إنك سودتك أعظم حائلة، أى: بالية، وأرواح فى النار، وإنما السيد من متع بالإيمان، ثم زود بالتقوى، إن قوما سعدوا برأيك فلا يشقون به، وإنى آمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهى عنه، آمرك بعبادة الله،

وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن فى عبادة الله الجنة، وفى عبادة الشيطان النار، فإن قبلت نلت ما رجوت، وأمنت ما خفت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء، وهول المطلع، فقال هوذة: ياسليط سودنى من لو سودك شرفت به، وكان لى رأى أختبر به الأمور ففقدته فموضعه من قلبى هواء، فاجعل لى فسحة يرجع إلى فيها رأيي فأجيبك به إن شاء الله.

وذكر الواقدى أن أركون دمشق الرمى من عظماء النصارى كان عند هوذة، فقال له هوذة: جاءنى كتاب من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يدعونى إلى الإسلام فلم أجبه، فقال الأركون:لم لا تجيبه؟ قال: ضننت بدينى وأنا ملك قومى ولئن تبعته لن أملك، قال: بلى والله لئن اتبعته ليملكنك،وأن الخير لك فى اتباعه، وأنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم ﵇،وأنه المكتوب عندنا فى الإنجيل محمد رسول الله. وأركون هذا أسلم على يد خالد بن الوليد ﵁ فى خلافة مولانا أبى بكر الصديق ﵁.

رسالة هوذة إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾

ثم إن هوذة كتب للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ جواب كتابه و قال فيه: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومى وخطيبهم، والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر اتبعك). و كأنه أراد الشركة فى النبوة و الخلافة بعده ﴿ﷺ وآله﴾.

من أعلام نبوته ﴿ﷺ وآله﴾ نبأ مسيلمة الكذاب

و أجاز هوذة سليطا بجائزة و كساه أثوابا من نسيج هجر، فقدم بكتابه على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأخبره بخبره فلما قرأ الكتاب على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: لو سألنى سيابة من الأرض، أى: قطعة منها، ما فعلت، باد و باد ما فى يديه، أى: هلك، و هو خبر أو دعاء. فلما انصرف النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من الفتح أخبره جبريل ﵇ بأن هوذة قد مات على كفره، فقال ص: أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ، يقتل بعدى،

فكان كذلك فظهر بها مسيلمة الكذاب– لعنه الله– و قتل. و فى رواية: فقال قائل: يارسول الله من يقتله؟ قال: أنت و أصحابك، قال بعضهم: و الظاهر أن المخاطب من الذين اشتركوا فى قتله، و تقدم الخلاف فى قاتله، و المشهور أنه وحشى قاتل سيدنا الحمزة رضى الله عنهما.

٨-كتابه (ﷺ وآله) إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى

و كان أميرا بدمشق من جهة قيصر، و كان إقامته بغوطتها و هو موضع بالشام كثير الماء و الشجر. بعث ﴿ﷺ وآله﴾ شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغسانى و بعث معه كتابا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، و إنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك). و ختم الكتاب.

قال شجاع ﵁.: فخرجت حتى انتهيت إلى بابه فأقمت يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إنى رسول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا، و جعل حاجبه يسألنى عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و ما يدعو إليه، فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبه البكاء، و يقول: إنى قرأت فى الإنجيل و أجد صفة هذا النبى بعينه فكنت أراه، أى: أظن أنه يخرج بالشام، فأراه قد خرج بأرض القرظ، فأنا أؤمن به و أصدقه، و أنا أخاف من الحارث بن شمر أن يقتلنى، فكان هذا الحاجب يكرمنى و يحسن ضيافتى، و يخبرنى عن الحارث باليأس منه، و يقول: هو يخاف قيصر. فخرج الحارث يوما وجلس و على رأسه التاج و أذن لى عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقرأه، ثم رمى به و قال: من ينزع منى ملكى؟ أنا سائر إليه و لو كان باليمن جئته، على بالناس، فلم يزل جالسا يعرض عليه حتى الليل، و أمر بالخيل أن تنقل، ثم قال لى: أخبر صاحبك بما ترى. و كتب إلى قيصر يخبره الخبر، وصادف أن كان عند

قيصر دحية الكلبى ﵁ بعثه إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لا تسر إليه واله عنه، أى: لا تذكره، و اشتغل بإيليا، أى: بيت المقدس، و معنى إيلياء بالعبرانية بيت الله، و المراد باشتغاله بذلك أن يهيئ لقيصر الإنزال ببيت المقدس، فإنه كان نذر المشى إلى بيت المقدس شكرا لله حيث كشف عنه جنود فارس، فجاء إليه كتاب قيصر، أى: الذى فيه أنه يلهو عنه و لا يذكره. . و أنا مقيم، فدعانى و قال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غدا، فأمر لى بمثقال و بمائة مثقال ذهبا، ووصلنى حاجبه بنفقة و كسوة، و قال لى ذلك الحاجب: اقرأ على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منى السلام و أخبره أنى متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبرته بما كان من الحارث، فقال: باد، أى: هلك، ملكه، و أقرأته السلام من الحاجب و أخبرته بما قال، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: صدق.

٩-كتابه (ﷺ وآله) إلى بنى نهد

وهم قبيلة باليمن كانوا يتكلمون بألفاظ غريبة وحشية لا تعرفها أكثر العرب و كان ﴿ﷺ وآله﴾ يخاطب كل قوم و يكاتبهم بلغتهم و ذلك من أنواع بلاغته ﴿ﷺ وآله﴾، فكان يتكلم مع كل ذى لغة غريبة بلغته، و مع كل ذى لغة بليغة بلغته، اتساعا فى الفصاحة، و استحداثا للألفة و المحبة، فكان يخاطب أهل الحضر بكلام ألين من الدهن، و أرق من المزن، و يخاطب أهل البدو بكلام أرسى من الهضب، و أرهف من العضب، فانظر إلى دعائه ﴿ﷺ وآله﴾ لأهل المدينة حين سألوه ذلك، فقال: اللهم بارك لهم فى مكيالهم، و بارك لهم فى صاعهم و مدهم. و فى رواية: اللهم بارك لنا فى تمرنا، و بارك لنا فى مدينتنا، و بارك لنا فى صاعنا، و بارك لنا فى مدنا، اللهم إنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة.

ثم انظر دعاءه ﴿ﷺ وآله﴾ لبنى نهد و قد وفدوا عليه فى جملة الوفود فقام طهفة بن رهم النهدى يشكو الجدب إليه فقال: يارسول الله أتيناك من غورى تهامه بأكوار الميس، ترتمى بنا العيس، نستحلب الصبير، و نستخلب الخبير، و نستعضد البرير، و نستخيل الرهام، و نستحيل الجهام، من أرض غائلة النطاء، غليظة الوطاء، قد نشف المدهن، و يبس الجعثن، و سعط الأملوج، و مات العسلوج، و هلك الهدى و مات الودى، برئنا إليك يارسول الله من الوسن و العنن، و ما يحدث الزمن، لنا دعوة الإسلام، و شرائع الإسلام، ما طمى البحر، و قام تعار، و لنا نعم همل، أغفال ما تبل ببلال، و وقير كثير الرسل قليل الرسل، أصابتها سنة حمراء مؤذلة ليس بها علل و لا نهل.

فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الدعاء لهم: اللهم بارك لهم فى محضها و مخضها و مذقها، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له فى المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلما، ومن آتى الزكاة كان محسنا، و من شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا، لكم يابنى نهد و دائع الشرك، و وضائع الملك، لا تلطط فى الزكاة، و لا تلحد فى الحياة، و لا تتثاقل عن الصلاة.

ثم كتب معه كتابا إلى بنى نهد جاء فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى بنى نهد بن زين، السلام على من آمن بالله عز و جل و رسوله، لكم يابنى نهد فى الوظيفة الفريضة، و لكم الفارض و الفريش، و ذو العنان الركوب و الفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، و لا يعضد طلحكم، و لا يحبس دركم، ما لم تضمروا الآماق، و تأكلوا الرباق، من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الوفاء بالعهد و الذمة، و من أبى فعليه الربوة).

الصحابة الكرام يتعجبون من لسان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

و روى عن على عليه السلام قلنا: يانبى الله نحن بنى أب واحد، و نشأنا فى بلد واحد، و أنك تتكلم بلسان العرب ما لا نعرف أكثره، قال: إن الله عز و جل أدبنى فأحسن تأديبى، و نشأت فى بنى سعد بن بكر، أى: فجمع لى بذلك قوة عارضة البادية و جزالتها، و خلوص ألفاظ الحاضرة و رزان كلامها.

و تفسير هذه الألفاظ هو:

– غورى تهامة: ما انحدر منها. و الأكوار: الرحل. و الميس: بفتح الميم شجر صلب يعمل منه رحل الإبل. و نستحلب الصبير: سحاب أبيض متراكب يتكاثف، أى: نستدر السحاب. و نستخلب الخبير: أى: نقطع عشب الأرض و نأكله. و نستعضد البرير: أى نأكل ثمر الأراك من الجدب. و نستخيل الرهام: أى نتخيل المطر فى السحاب و إن كان ضعيفا. و أرض غائلة النطاء: أى شديدة البعد. و الجعثن: أصل النبات. و الأملوج: ورق الشجر. و العسلوج: غصن النبات إذا يبس. و الودى: فسيل النخل.

أما تفسير قوله (ﷺ وآله) هو:

– فى محضها: أى خالص لبنها. و مذقها: و هو اللبن الممزوج بالماء. و ابعث راعيها فى الدثر: أى فى الخصب و النبات الكثير. و افجر له الثمد: أى كثر القليل و فجره و اجعله كثيرا. لا تلطط: أى لا تمنع. و لا تلحد: أى لا تمل عن الحق.

و فى شرح الشهاب الخفاجى على الشفاء أن جماعة وفدوا على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حين بعث، فلما دخلوا المسجد الحرام لم يعرفوا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ – و كانوا لا يعرفون العربية– فقال رجل منهم بلغته: من أبونا أسران؟، أى: أيكم رسول الله؟ فلم يفهم الحاضرون قوله، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: أشكد أورى، و معنى أشكد تعال و

أقبل و هلم، و أورى معناها هنا و إلينا، و جعل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يجيبه بلغته، و لا يفهم القوم، فأسلم و بايع و انصرف لقومه. و كان النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قد أخبر الصحابة بقدومه و لغته. . فسبحان من علمه ذلك إنه المنعم الكريم.

١٠- كتابه (ﷺ وآله) لذى المشعار الهمدانى

المشعار اسم موضع باليمن لقب به مالك بن نمط الهمدانى، و همدان شعب عظيم، أى: قبيلة من همدان، و يكنى مالك بأبي ثور، وفد على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مقدمه من تبوك فقال: يارسول الله نصبة من همدان من كل حاضر و باد أتوك على قلص نواج متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم فى الله لومة لائم من مخلاف خارف و يام، لا ينقضى عهدهم عن سنة ما حل، و لا سوداء عنقفير ما قام نعلع و ما جرى اليعفور بصلع.

فكتب لهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾، أى: أمر بكتابة ما صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف و أهل جناب الهضب و حفاف الرمل مع وافدها و من أسلم من قومه، على أن لهم فراعها و وهاطها و عزازها، ما أقاموا الصلاة، و آتوا الزكاة، يأكلون علافها، و يرعون عفاءها، الناس من دفئهم و صرامهم ما سلموا بالميثاق و الأمانة، و لهم من الصدقة الثلث، و الناب، و الفصيل، و الفارض، و الداجن، و الكبش الحوزى، و عليهم فيها الصالغ و القارح).

١١- كتابه ﴿ﷺ وآله﴾ لقطن بن حارثة العليمى

والعليمى بمهملة مصغرة نسبته لبنى عليم الكلبى، وفد قطن مع قومه على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فأسلم وأنشد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قوله:

رأيتك ياخير البرية كلها   نبت نضارا فى الأرومة من كعب
أغر كان البدر سنة وجهه   إذا ما بدا للناس فى حلل العضب
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجها   ودنت اليتامى فى السقاية والجدب

فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾ خيرا، وكتب له كتابا، وخاطب فيه قومه بما يعرفون من لغتهم، وهذا صورته: (هذا كتاب من محمد لعمائر كلب وأجلافها، ومن ظأره الإسلام من غيرهم من قطن بن حارثة العليمى بإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها، فى شدة عقدها، ووفاء عهدها، بمحضر من شهود المسلمين، وسمى جماعة منهم دحية بن خليفة الكلبى، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أنيس، عليهم من الهمولة الراعية البساط الظئار فى كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية، وفى الشورى الورى مسنة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر، وفى العثرى شطره بقيمة الأمين لا يزاد عليهم وظيفة، ولا يفرق عهد على ذلك الله ورسوله، وكتبه ثابت بن قيس بن شماس).

١٢- كتابه ﴿ﷺ وآله﴾ لوائل بن حجر فراء الحضرمى ؓ

ونسبه ينتهى إلى مالك بن مرة بن حمير بن زيد الحضرمى، كان أبوه من أقيال اليمن، ووفد هو على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ واستقطعه أرضها فأقطعه إياها، وأرسل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ معه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما يسلمه إياها، وكان معاوية ؓ حافيا فأحرقه حر الشمس، فسأله أن يردفه خلفه فأبى، ورأى أنه لا يكون كفئا لأن يكون

رديفه فقال له: لست ممن يردفه الملوك فسأله نعليه أن يلبسهما فأبى، وقال: دونك ظل ناقتى فامشى فيه وذلك كافيك، فنال حر الشمس من معاوية غايتها، وشق عليه ذلك. عفاش وائل بن حجر حتى أدرك خلافة معاوية فوفد عليه فتلقاه وأكرمه، فقال وائل: فوددت لو كنت حملته بين يدى.

وكان لوائل صنم قبل الإسلام من عقيق يعبده ويسجد له، فنام عنده يوما فى الظهيرة فسمع صوتا هائلا، فأتى فسجد له، فسمع هاتفا يقول:

وأعجبا لوائل بن حجر   يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا ترجى من نحيت صخر   ليس بذى عرف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا بذى ضر   لو كان ذا حجر أطاع أمرى

فرفع رأسه وقال: بماذا تأمرنى؟ فقال:

ارحل إلى يثرب ذات النخل   وسر إليها سير مستقل
فدن بدين الصائم المصلى   محمد الرسول خير الرسل

ثم خر الصنم لوجهه، فقام إليه فجعله رفاتاً، ثم سار حتى أتى المدينة ودخل المسجد، فأدناه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وبسط له رداءه وأجلسه معه، ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس هذا وائل بن حجر سيد الأقيال أتاكم من أرض بعيدة راغباً فى الإسلام، فقال: يارسول الله بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم فتركته واخترت دين الله، فقال: صدقت، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده، ثم نزل الكوفة فى آخر عمره وتوفى بها فى خلافة معاوية رضي الله عنه وله بها عقب.

ثم بعث له ﴿ﷺ وآله﴾ كتاباً فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الأقيال العياهلة، والأرواع المشابيب، فى البيعة شاة لا مقورة الألياط، ولا ضناك وأنطوا الثبجة، وفى السيوب الخمس، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة، واستوفضوه

عاماً، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم فى الدين، ولا غمة فى فرائض الله تعالى، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال).

أمراء الولايات

وبعد أن بعث ﴿ﷺ وآله﴾ كتبه فى الآفاق، أمر أمراء فى كل قطر دخل فى طاعته، وانقاد لشريعته، فمن أمرائه ﴿ﷺ وآله﴾ باذان بن ساسان كان نائباً لكسرى على اليمن فلما هلك كسرى بإخبار النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كما تقدم، أسلم باذان لظهور صدق النبى

﴿ﷺ وآله﴾ له فى إخباره بهلاك كسرى مع ما بلغه عنه من المعجزات، وأرسل للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ بإسلامه وإسلام من معه، فأمره ﴿ﷺ وآله﴾ على اليمن وفاء بقوله ﴿ﷺ وآله﴾ لرسولا باذان حين أرادا الرجوع إليه: قولا له: إن أسلمت أقرك على ملكك، وهو أول أمير فى الإسلام على اليمن، وأوّل من أسلم من ملوك العجم، ثم مات واستعمل

﴿ﷺ وآله﴾ ابنه شهر بن باذان، وقيل: إن باذان خرج للوفود على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فلحقه الأسود العنسى الكذاب الذى ادعى النبوة باليمن فقتله، وقيل: إن الذى قتله الأسود إنما هو ابنه شهر لا هو، وأن العنسى تزوج زوجته بعد قتله– وكانت مسلمة– فأعانت فيروز الديلمى على قتل الأسود، فإنها مكنته من الدخول عليها ليلاً فقتله.

وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص ﵁، وولى زياد بن لبيد الأنصارى ﵁ حضرموت وهو مخلاف باليمن، وولى أبا موسى الأشعرى ﵁ زبيد وعدن، وولى معاذ بن جبل ﵁ الجند ومخاليفها، وولى أبا سفيان بن حرب ﵁ نجران وهو موضع باليمن، قال بعضهم: إنه لما توفى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كان أبو سفيان بمكة فلعل مدة تلك الولاية لم تطل، وولى ابنه يزيد تيماء بلدة بناحية تبوك.

ثم إن أبا بكر لما جهز الجيوش للشام كان أوّل أمير عقد رايته يزيد بن أبى سفيان، ثم ولى الشام فى خلافة عمر رضى الله عنه بعد أبى عبيدة ﵁ وقيل: أخيه معاوية، وتوفى يزيد ﵁ بالشام وهو أكبر من معاوية، قال بعضهم: إن يزيد بن أبى سفيان، أفضل آل أبى سفيان وكان من فضلاء الصحابة ﵁، وولى ﴿ﷺ وآله﴾ عتاب بن أبى أسيد ﵁ مكة، وولى على بن أبى طالب كرم الله وجهه القضاء باليمن، وولى عمرو بن العاص ﵁ عمان، إلى غير ذلك مما بسطه أهل السير، وفى هذا القدر كفاية، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

رؤى حول بعوثه ﴿ﷺ وآله﴾

ورسائل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ – وقد قدمنا بعضها- بينها سمات وملامح فارقة لا يخطئها النظر:

١- فبعضها يأتى موجزا فى سطرين أو ثلاثة، ويدعو إلى الإسلام مباشرة دون تفصيل كرسالته إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك).

٢- فى رسالة واحدة فقط وهى الموجهة إلى المنذر بن ساوى يذكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ملامح المسلم، فالمسلم- على حد قوله ﴿ﷺ وآله﴾- "من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا".

٣- وانفردت رسالته إلى النجاشى عن رسائله كلها بأمرين هما: ذكر بعض أسماء الله الحسنى: " الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن"، وشرح طبيعة سيدنا المسيح عيسى ابن مريم ﵇ فهو " روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، حملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه".

والعجيب أن يذكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك فى كتابه إلى النجاشى، وربما كان أولى به رجل كالمقوقس "عظيم القبط" حتى يبعث فيه حسه الدينى.. فهو زعيم دينى قبل كل شىء، ولكن معرفة الواقع التاريخى آنذاك تجعلنا نؤمن بأن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى اختصاصه رسالته للنجاشى بذكر المسيح وكيفية ولادته كان هو حق، فقبل هجرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة بعدة أعوام هاجر جعفر بن أبى طالب وعشرات من المسلمين إلى الحبشة، وأرسلت قريش فى أثرهم وفدا منهم عمرو بن العاص لاستعادة هؤلاء "الفارين الخارجين" وإرجاعهم إلى مكة، أو على الأقل محاولة تأليب النجاشى عليهم، فلم يجدوا سبيلا يتسللون منه إلى قلب النجاشى إلا طبيعة المسيح، ورأى المسلمين فيه "وهو سيء من وجهة نظر الكفار مما قد يغضب النجاشى"، وشرح المسلمون "الفارون" وجهة نظر الإسلام فى خلق المسيح ومكانته عند المسلمين، فخابت مؤامرة الكفار، وعامل النجاشى المسلمين معاملة طيبة.

وقد أراد النبى ﴿ﷺ وآله﴾- بإعادة ذكر هذه المسألة فى رسالته- تأييدا لما ذكره المسلمون، وتأكيدا له، وكسبا لمشاعر هذا الملك العظيم، وقد تحقق ما أراد، فأرسل إليه النجاشى كتابا يعلن فيه أنه أسلم على يد جعفر بن أبى طالب، ويعبر عن إيمانه بما ذكره الرسول فى طبيعة المسيح عليه السلام.

٤- كما انفردت رسالة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى النجاشى بذكر "مطلب خاص" هو أن يحسن النجاشى إلى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة، فهم فى دار غربة فارون بدينهم من الشرك والظلم والعدوان.

٥- وأكد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى بعض هذه الكتب مسؤولية الحكام عن ضلال الرعية، وكان هذا التأكيد صريحا قارعا شديد اللهجة فى رسائل ثلاث، وهى رسالته إلى كسرى الفرس، وهرقل الروم، والمقوقس عظيم القبط فى مصر، فالأولان هما أوسع حكام الأرض نفوذا، والثالث هو صاحب الهيمنة الدينية على أقباط مصر،

وفى كتابه إلى قيصر الروم: "...فإن توليت فعليك إثم الأريسيين"، ففى كتابه إلى كسرى الفرس: "...فإن أبيت فعليك إثم المجوس..". وفى كتابه إلى المقوقس "...فإن توليت فإنما عليك إثم القبط".

ولكن هذه الفروق التى ذكرناها بين الرسائل آنفا لا تبتعد، بل هى ترتبط بالفكرة المحورية الرئيسية فى هذه الرسائل، وهى الدعوة إلى الإسلام.

الآثار وردود الفعل

وقد كان تأثير هذه الرسائل مختلفا:

١– فيروى أن هرقل بعد أن قرأ رسالة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عاد إلى حمص دار ملكه، ونزل قصره العظيم بها، وأغلق أبوابه، وأمر مناديا ينادى: ألا إن هرقل آمن بمحمد واتبعه، فأقبلت الأجناد فى سلاحها، وطافت بقصره تريد قتله، فأرسل إليهم إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم، فقد رضيت، فرضوا عنه.

وهناك رواية أخرى خلاصتها أنه كتب كتابا وأرسله مع دحية الكلبى إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول فيه: "إنى مسلم ولكنى مغلوب" فلما قرأه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: (كذب عدو الله، ليس بمسلم).

٢–وأما كسرى أبرويز، فإنه مزق الرسالة، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (مزق الله ملكه)، فسلط الله عليه ابنه شيرويه فقتله.

٣– وقبل المقوقس رسالة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾، وأهدى إليه ضمن ما أهدى مارية القبطية، فتسراها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأنجب منها ابنه إبراهيم الذى مات رضيعا، وماتت مارية مسلمة سنة ١٦ هـــ.

٤– وأما الحارث بن أبى شمر الغسانى، فإنه لما أتته الرسالة قال: أنا سائر إليه (يعنى محاربا) فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (باد ملكه).

٥– وأما هوذة بن على، فبعث يطلب من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن يجعل له الأمر من بعده حتى يسلم، وإلا قصده وحاربه، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: اللهم اكفنيه، فمات بعد قليل.

٦– وأما النجاشى، فإنه آمن برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ واتبعه وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب ﷺ وأرسل ابنه فى ستين من الحبشة فغرقوا فى البحر، وبعث إليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يزوجه بأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب، وكانت مهاجرة فى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش فتنصر هناك، فزوجه إياها، وقام النجاشى بصداقها أربعمائة دينار من عنده.

٧– وأما المنذر بن ساوى، فإنه أسلم، وأسلم معه أهل البحرين، والذين لم يسلموا فى حياة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أسلموا فى حياة خلفائه.

المتابعات الجوابية

وفى بعض الأحيان لا تنتهى المسألة بالرسالة والرد عليها، بل تمتد المتابعة إلى كتابة رسالة تأتى الثالثة فى الترتيب الزمنى، وتكون جوابا أو وردا على الرد، ونكتفى بمثال واحد لهذه "المتابعة الجوابية": جاء رد المنذر بن ساوى ملك البحرين على رسالة الرسول– بعد أن أعلن إسلامه– بالنص التالى:

أما بعد يارسول الله: (فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث لى فى ذلك أمرك). أى: أشر على بما أفعل، فكتب إليه ﴿ﷺ وآله﴾:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد: فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع

رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية).

تنوع رسائله ﴿ﷺ وآله﴾

وهذه الرسائل الديوانية أو الرسمية أو العامة تميل فى أغلبها إلى الإيجاز والمباشرية فى معالجة الموضوع، وغلبة عنصر الفكر على الوجدان، وجاء الأداء التعبيرى فيها بالأسلوب المرسل دون تكلف أو تصيد، بعيدا عن السجع والتزين اللفظى، وهى مطعمة غالبا ببعض آيات من القرآن الكريم.

وفيما يتعلق بالدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة نقرأ للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ عشرات من الرسائل والكتب والعهود والوصايا، ككتاب الموادعة أو دستور المعايشة بينه وبين اليهود ومن ساكنهم فى المدينة وما حولها، ومنها الرسائل والكتب التشريعية التى كان يكتبها ويوجهها إلى الأفراد أو القبائل يعرض فيها أحكام الدين المختلفة فى مجال العبادات والمعاملات وغيرها، ومنها كتب الإقطاع والغنائم التى يمنح بمقتضاها فرد أو قبيلة الحق فى امتلاك أرض أو ماء أو شجر أو ما شابه ذلك، أو احتكار الانتفاع بذلك بصفة دائمة أو وقت محدود.

ومنها الكتب الإدارية والتنظيمية التى تتعلق بتنظيم أمور الدولة وإدارتها فى حالتى الحرب والسلم، وتصدق كذلك على كتب تولية الولاة والقادة والتكليف بمهام محددة.

ومنها كتب التجسس والاستطلاع وهى رسائل سرية أشهرها الرسائل المتبادلة بين النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وعمه العباس ﵁ الذى بقى فى مكة ليكون عينا للنبى على قريش.

وللنبى ﴿ﷺ وآله﴾ رسالة خاصة أو إخوانية واحدة لم ينقل التاريخ غيرها وهى الرسالة التى كتبها إلى الصحابى الجليل معاذ بن جبل ﷺ يعزيه فى ابن له مات جاء فيها:

(سلام الله عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم إن أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله المستودعة، وعواريه المستردة يمتع الله بها إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك هذا من مواهب الله المستودعة، وعواريه المستردة، متعك الله به فى غبطة وسرور، وقبضه بأجر كثير إن صبرت واحتسبت).

شك فى غير محلة

يشكك البعض فى رسائل النبى إلى الملوك سنة ٦ هـــ بمقولة إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لم يكن قد بلغ فى تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التام، فكيف يعقل أن يهتم بإخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربيا له ولا طول؟!!.

وهو شك فى غير موضعه وليس له ما يبرره للأسباب التالية:

١– الهدف من هذه الكتب لم يكن "إخضاع كبار الملوك"– كما يشككون– بل كان دعوة هؤلاء إلى هدى الإسلام، وليس فى هذه الكتب ما يوحى بطلب النبى خضوعا واستسلاما وتبعية.

٢– القول إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لم يكن له فى تلك السنة حول وطول، قول غير صحيح، ففى هذا العام هابته قريش، وإلا لقاتلته فى الحديبية، بل إنه والمسلمين– مع أنهم لم يكن معهم من السلاح إلا السيوف فى أغمادها– تأهبوا لقتال قريش اعتقادا منهم أن قريشا قتلت عثمان بن عفان رسول رسول الله إليها فى مكة.

٣– المسلمون خلال عامين فقط "الخامس والسادس من الهجرة" استطاعوا أن يقوموا بعشرين غزوة وسرية.

٤– على أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمين معه كانوا يعوضون بقوة الإيمان وشجاعة القلب والتسليم بقاعدة ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا ﴾ ما يعوضهم عن العدد والعدد وقوة السلاح.

٥– هذه الكتب بعث بها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الملوك والرؤساء بعد أن عزل "جبهة قريش" سياسيا وعسكريا، وجنى بصلح الحديبية مكاسب سياسية كبرى.

٦- أخيرا: من يقرأ هذه الرسائل يرى أنها ذات سمات وملامح لا تختلف عن سمات الأسلوب النبوى فى رسائله الأخرى.

ومما ينبغى أن يلحق بالبعوث وفوده ﴿ﷺ وآله﴾.

الوفود التى وفدت على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

لما من الله سبحانه وتعالى على رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة، وفرغ من غزوة تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجهة، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وكانت هذه السنة تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحق: وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك.

وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها للإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله، كما قال عز وجل: (أفواجا) يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالى لنبيه ﴿ﷺ وآله﴾: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (سورة النصر).

وقد تقدم ذكر وفد هوازن بالجعرانة بعد فتح مكة، وكذا وفد عليه مالك بن عوف النصرى وذلك فى أواخر سنة ثمان، وكذا وفد عليه بنو تميم فى سرية عيينة بن حصن وكان ذلك فى المحرم سنة تسع.

وفد نصارى نجران

نجران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، تشتمل على ثلاث و سبعين قرية، وفد عليه وفدهم و كانوا يدينون بالنصرانية، و كانوا ستين راكبا جاءوا يجادلونه ﴿ﷺ وآله﴾ فى شأن عيسى عليه السلام.

و كان وصوهم إلى المدينة بعد دخول وقت العصر، و كانوا قد دخلوا المسجد النبوى، فقاموا يصلون فيه، فأراد الناس منعهم، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ دعوهم، تأليفا لهم، فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم.

و لما فرغوا من صلاتهم، عرض ﴿ﷺ وآله﴾ عليهم الإسلام، و تلا عليهم القرآن، فامتنعوا. و قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: كذبتم.. يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، و أكلكم الخنزير، و زعمكم أن لله ولدا.

و فى رواية ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رهطا من نجران قدموا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا، قال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله. قال: أجل، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل فقال له: قل لهم إذا أتوك: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٥٩). (و نزل الوحى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران:٦١). ثم قال لهم: إن الله أمرنى إن لم تنقادوا للإسلام أباهلكم، أى: ندعوا و نجتهد فى الدعاء باللعنة على الكاذب. فقالوا له: يأبا القاسم نرجع فننظر فى أمرنا، فخلا بعضهم ببعض، فقال بعضهم: و الله قد علمتم أن الرجل نبى مرسل، و ما لا عن قوم قط نبيا إلا استئصلوا، أى: أخذوا عن آخرهم، و إن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه، و صالحوه، و ارجعوا إلى بلادكم. و فى لفظ

أنهم واعدوه على الغد، فلما أصبح ﴿ ﷺ وآله﴾ أقبل و معه السادة حسن و حسين و فاطمة و على ﵃، و عند ذلك قال لهم الأسقف: إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل لهم جبلا لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى، فقالوا له ﴿ ﷺ وآله﴾: لا نباهلك. ثم أنهم صالحوا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على الجزية، و كتب لهم كتابا، و قالوا: أرسل معنا أمينا، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ﵁.

وفى أهل نجران و فى الرد عليهم أنزل الله أكثر آيات سورة آل عمران و افتتحها بالتوحيد بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء﴾(آل عمران:٦).

أى: بأن يجعلكم من أم و أب، أو من أم بلا أب فيكون فى أول الكلام إشارة إلى الرد عليهم.

و فى البخارى: عن حذيفة بن اليمان أنه قال: جاء العاقب و السيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يريدان أن يلاعناه. فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فو الله إن كان نبيا فلاعنا، لا نفلح نحن و لا عقبنا من بعدنا.

فقالا: إنا نعطيك ما سألتنا، و ابعث معنا رجلا أمينا، و لا تبعث معنا إلا أمينا. فقال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين.

فاستشرف له أصحابه ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: قم ياأبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: هذا أمين هذه الأمة.

الحكمة من المباهلة

إن المقام كان يوحى ببروز معسكر الإيمان مقابل معسكر الشرك، و إن الذين برزوا هم طليعة و مقدمة الأمة و أقدس ما فيها من نفوس أذهب الله عنها الرجس فطهرهم تطهيرا، فلا ترد لهم دعوة، و لا تكذب لهم كلمة، و لو أرادت الأمة المحمدية أن تعود لها عزها و مكانتها فلابد أن تقدم أهل البيت الكرام أمام الصفوف حتى يواجهوا بهم أعداءهم، و من هنا نفهم أن ما وردنا عن أهل البيت من فكر وتشريع ورواية وتفسير وهداية وتوجيه هو جار مجرى هذا الموقف، فهم الصادقون فى لهجتهم و سيرهم و منهجهم.

فالقرآن تحدى بهم أعداء الإسلام، و جعل خصومهم الكاذبين، المعرضين للعنة و العذاب: ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ و لولا ضمان الاستقامة و الصدق فيما يصدر عنهم لما منحهم الله هذا الشرف، و لما نطق القرآن بذلك.

و فى هذه الآية الكريمة يباهل الله و رسوله بهم أعداءه فيعترف بمقامهم العظيم، و مكانتهم المقدسة، و لولا ما لهم من حرمة خاصة على الله سبحانه و قدسية متميزة لديه، لما دعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأن يخرج بهذه الكوكبة الطاهرة يتحدى أعداء الله بنزول العذاب، و ضمان استجابة الدعاء.

و قال ﴿ﷺ وآله﴾: (والذى نفسى بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، و لو لاعنوا لمسخوا قردة و خنازير، و لا ضطرم عليهم الوادى نارا، و لاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر،و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا).

و فى الآية دقائق لغوية لابد من الوقوف عندها، و هى إضافة هذه الكوكبة (الحسن و الحسين و فاطمة و على) إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ (أبناءنا) و (نساءنا) و (أنفسنا)، فلولا تجسيد الحادثة، و خروج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و معه هذه الكوكبة من هؤلاء

السادة لانصرف الذهن من إطلاق كلمة (نساءنا) إلى أزواج النبى ﴿ﷺ وآله﴾، و (أبناءنا) إلى فاطمة و بناته الأخريات، و (أنفسنا) إلى ذاته المقدسة وحدها، إلا أن رسول الله بإخراجه لهؤلاء الأربعة معه دون غيرهم، فسر لنا أن صفوة نساء الأمة و قدوتها السيدة فاطمة، و أن صفوة أبناء المسلمين الحسن و الحسين، و نسبهم القرآن إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فكانوا وفق منطوق الآية أبناءه، و اعتبر القرآن الإمام عليا كنفس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وفد تميم الدارى و أصحابه

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الداريون، أبو تميم الدارى و أخوه نعيم و أربعة آخرون، و كانوا على دين النصرانية، فأسلموا فحسن إسلامهم ﵁.

و كان وفدهم عليه ﴿ﷺ وآله﴾ مرتين، مرة بمكة قبل الهجرة، و مرة بالمدينة بعد الهجرة.

ففى المرة الأولى سألوه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يعطيهم أرضا فى الشام، فقال لهم ﴿ﷺ وآله﴾: سلوا حيث شئتم.

قال أبو هند– و هو من أصحاب تميم–: فنهضنا من عنده نتشاور، فى أى الأراضى نأخذ، فقال تميم: نسأله بيت المقدس و كورها، فقال له أبو هند: هذا محل ملك العجم، وسيصير ملك كل العرب، فأخاف أن لا يتم لنا، قال تميم: نسأله بيت جيرون و كورها، فنهضنا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فذكرنا ذلك له فدعا بقطعة من أدم و كتب لنا كتابا نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للداريين إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون، و جيرون، و المرطوم، و بيت إبراهيم ﵇، إلى أبد الأبد، شهد بذلك عباس بن عبد المطلب، و خزيمة ابن قيس، و شر حبيل بن حسنة).

و كتب و أعطانا كتابنا، و قال: انصرفوا، حتى تسمعوا أنى قد هاجرت، قال أبو هند: فانصرفنا، فلما هاجر ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة قدمنا عليه و سألناه أن يجدد لنا كتابا آخر، فكتب لنا كتابا نسخته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لتميم الدارى و أصحابه، أنى أعطيتكم بيت عينون، و جيرون، و المرطوم، وبيت إبراهيم، برمتهم و جميع ما فيهم عطية بت، و نهميت، و سلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد، فمن آذاهم فيه آذاه الله. شهد أبو بكر بن أبى قحافة، و عمر بن الخطاب، و عثمان بن عفان، و على بن أبى طالب، و معاوية بن أبى سفيان).

وفد ثقيف

لما قدم ﴿ﷺ وآله﴾ من تبوك فى رمضان قدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف، و كان من خبرهم أنه لما انصرف ﴿ﷺ وآله﴾ من محاصرتهم، تبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم رضي الله عنه، و سأل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يرجع إلى قومه يأمرهم بالإسلام، فقال له ﴿ﷺ وآله﴾: إنهم قاتلوك، فقال عروة: يارسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، أى: أولادهم. و فى رواية: أبصارهم، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمرتبته فيهم، لأنه كان محببا مطاعا، و فيه كانوا يقولون كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١). فالقريتان مكة و الطائف، و الرجلان الوليد ابن المغيرة بمكة ، و عروة بن مسعود الثقفى بالطائف .

عروة بن مسعود مثل صاحب يس

فتوجه إلى قومه، فلما أشرف لهم على علية دعاهم إلى الإسلام و أظهر دينه، فرموه بالنبل من كل جانب فأصابه سهم فقتله. و فى لفظ: أنه قدم الطائف عشاء فجاءته

ثقيف يسلمون عليه، فدعاهم إلى الإسلام و نصح لهم، فعصوه و أسمعوه من الأذى ما لم يكن يخشاه منهم، فخرجوا من عنده، فلما كان السحر و طلع الفجر قام على غرفة فى داره و تشهد، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله، فقيل له قبل أن يموت: ما ترى فى دمك؟ قال: كرامة أكرمنى الله بها، و شهادة ساقها إلى فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم فدفنوه معهم ﵁ و عنهم.

و قال فى حقه ص: إن مثله فى قومه كمثل صاحب يس أنه قال لقومه: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات، فقتله قومه،و المراد المذكور فى سورة يس. و قد قال ﴿ ﷺ وآله﴾ مثل هذه المقالة فى حق شخص آخر يقال له قرة بن حصن أو ابن الحارث ﵁، بعثه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى بنى هلال بن عامر يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: مثله مثل صاحب يس.

إسلام وفد ثقيف

ثم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة ﵁ أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم فرأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ رجلا، فكلموا فى ذلك عبد ياليل بن عمرو– و كان فى سن عروة ﵁– فأبى لأنه خشى أن يفعل به كما فعل بعروة. و قيل: كلموا مسعود بن عبد ياليل، فقال: لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا: فبعثوا معه خمسة أنفار منهم: شر حبيل بن غيلان أحد أشراف ثقيف. و يقال وفد عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ تسعة عشر رجلا هم أشراف ثقيف: فيهم كنانة بن عبد ياليل– و هو رئيسهم يومئذ– وفيهم عثمان بن أبى العاص– وهو أصغرهم– فلما قربوا من المدينة رآهم المغيرة بن شعبة الثقفى فذهب مسرعا ليبشر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقدومهم عليه، فلقى أبا بكر ﵁ فأخبره، فقال له أبو بكر بن الحارث ﵁: أقسمت عليك لا تسبقنى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى أكون أنا أحدثه ففعل،

فدخل أبو بكر ؓ على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة و علمهم كيف يحيون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأبوا إلا تحية الجاهلية و هى عم صباحا، ثم قدموا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فضرب لهم قبة فى ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، و يروا الناس إذا صلوا، و كانوا يغدون إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كل يوم و يخلفون عثمان بن أبى العاص عند متاعهم، فكان عثمان ؓ إذا رجعوا ذهب إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يسأله عن الدين و يستقرئه القرآن، و إذا وجد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نائما ذهب إلى أبى بكر ؓ، و كان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأحبه.

و كان فى هذا الوفد رجل مجذوم فأرسل له ﴿ﷺ وآله﴾ يقول له : إنا بايعناك فارجع.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يؤمر عليهم أصغرهم و يكتب لهم كتابا

وعند انصراف وفد ثقيف قالوا: يارسول الله أمر علينا رجلا يؤمنا فأمر عليهم عثمان بن أبى العاص، لما رأى ﴿ﷺ وآله﴾ من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن و تعلم الدين. و قال الصديق ؓ للنبى ﴿ﷺ وآله﴾: يارسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام و تعلم القرآن. و روى ابن منده و غيره عن عثمان بن أبى العاص ؓ قال: استعملنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و أنا أصغر الذين وفدوا عليه من ثقيف، لأنى كنت قرأت سورة البقرة فى مدة إقامتهم. و عنه ؓ قال: قلت: يارسول الله إن القرآن يتفلت منى، فوضع يده على صدرى و قال: ياشيطان اخرج من صدر عثمان، فما نسيت شيئا بعده أريد حفظه. و عنه ؓ قلت: يارسول الله ادع الله أن يفقهنى فى الدين و يعلمنى، قال: ماذا؟ قلت: فأعدت عليه القول، فقال: لقد سألتنى عن شئ ما سألنى عنه أحد من أصحابك، اذهب فأنت أمير عليهم، و على من تقدم عليه من قومك. و عنه ؓ قال: قلت: يارسول الله اجعلنى إمام قومى، قال: أنت إمامهم، و قال له: إذا أممت فأخف بهم الصلاة، و اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا.

و كان خالد بن سعيد بن العاص ﵁ هو الذى يمشى بينهم و بين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى كتب لهم كتابا، و كان الكاتب له خالد المذكور و من جملته: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبى رسول الله إلى المؤمنين، إن صيد "وج" وعضاهه حرام لا يعضد، من وجد يفعل ذلك فإنه يجلد، و تنزع ثيابه). ووج واد بالطائف، و قيل: هو الطائف، و العضاه كل شجر له شوك، مفرده عضة.

وكان هؤلاء الوفد لا يطعمون طعاما يأتيهم من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا ﵁، و سألوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يترك لهم الصلاة، فقال: لا خير فى دين لا صلاة فيه، و فى لفظ: لا ركوع فيه، و أن يترك لهم الزنا، و الربا، و شرب الخمر، فأبى ذلك، و سألوه أن يترك لهم الطاغية– التى هى صنمهم– لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم و هى اللات، و كانوا يقولون لها الربة، فأبى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فسألوه أن يتركها سنة فأبى، حتى سألوه شهرا واحدا، و أرادوا بذلك ليدخل الإسلام فى قومهم، و لا يرتاع سفهاؤهم و نساؤهم و زراريهم بهدمها، فأبى عليهم ذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

حكمة الوفد سبب إسلام القوم

و عند خروجهم قال لهم سيدهم كنانة: أنا أعلمكم بثقيف اكتموا إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال، وأخبرهم أن محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ سألنا أمورا عظيمة فأبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية، و أن نترك الزنا، و الربا، و شرب الخمر، فلما رجعوا و جاءهم ثقيف و سألوهم، قالوا: جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف و دان له الناس، فعرض علينا أمورا شدادا، و ذكروا ما تقدم، قالوا: و الله لا نعطيه و لا نقبل هذا أبدا، فقالوا لهم: أصلحوا السلاح و هيئوا للقتال، و رموا حصونكم، فمكثت ثقيف كذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم و قالوا: و الله ما لنا به من طاقة،

فارجعوا إليه و أعطوه ما سأل، فعند ذلك قالوا لهم: قد قاضيناه و أسلمنا، فقالوا لهم: لم كتمتمونا؟ قالوا: أردنا أن يترع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا، و مكثوا أياما، فقدم عليهم رسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبا سفيان بن حرب، و المغيرة بن شعيبة رضى الله عنهما لهدم الطاغية فهدماها كما تقدم، و أخذا ما فيها من المال و الحلى، فلما قدما على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمر ﴿ﷺ وآله﴾ أبا سفيان أن يقضى بين بنى عروة و أخيه الأسود من مال الطاغية فقضاه. و ذلك أن أبا مليح بن عروة بن مسعود و ابن عمه قارب بن الأسود أخو عروة بن مسعود سألا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى ذلك، و كانا قدما على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مسلمين لما قتلت ثقيف عروة بن مسعود ﵁ قبل أن تسلم ثقيف كما ذكرنا، فأجابهما لذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وفد بنى عامر بن صعصعة

جاء فيهم عدو الله عامر بن الطفيل، و أربد بن قيس، و جبار بن سلمى، و كان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم، و كان عامر بن الطفيل سيدهم، كان ينادى مناديه بسوق عكاظ: هل من راجل فنحمله، أو جائع فنطعمه، أو خائف فنؤمنه؟ و كان من أجمل الناس، و كان مضمر الغدر بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال لأربد– و هو أخو لبيد الشاعر– : إذا قدمنا على هذا الرجل فإنى شاغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف، و قد قال له قومه: ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم، فقال: و الله لقد كنت آليت، أى: حلفت، أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش، فلما قدموا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال عامر بن الطفيل: يامحمد خالنى، أى: اجعلنى خليلا و صديقا لك، قال: و الله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، قال: يامحمد خالنى، و جعل يكلم ﴿ﷺ وآله﴾ و ينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يأتى بشئ. و فى رواية: لما أتاه ﴿ﷺ وآله﴾ و سده، أى: ألقى له وسادة يجلس

عليها، ثم قال له

﴿ﷺ وآله﴾: أسلم ياعامر، فقال له عامر: إن لى إليك حاجة؟ قال: أقرب منى، فقرب منه حتى حنى على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، و هذا يدل على أن قوله خالنى، أى: اجعل لى منك خلوة، و هو المناسب لقول عامر لأربد: إنى شاغل عنك وجهه.

و ذكر أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و قد قال له: أسلم ياعامر، فقال: أتجعل لى الأمر بعدك إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ليس ذلك لك و لا لقومك، أى: إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء، أى و قال له: يامحمد أسلم على أن لى الوبر و لك المدر، فقال: لا، فقال: مالى إن أسلمت، فقال: لك ما للمسلمين، و عليك ما عليهم، فقال: أما والله لأملأنها عليك خيلا و رجالا. و فى رواية: خيلا جردا، و رجالا مردا، و لأربطن بكل نخلة فرسا، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: يمنعك الله عز و جل.

قال السهيلى: و جعل أسيد بن حضير ﵁ يضرب فى رءوسهما و يقول: اخرجا أيها الهجرسان، أى: القردان، فقال له عامر: و من أنت؟ فقال: أسيد بن حضير، فقال: أحضير بن سماك؟ قال: نعم، قال: أبوك كان خيرا منك، قال: بلى، أنا خير منك و من أبى، لأن أبى كان مشركا و أنت مشرك.

و مكث ﴿ﷺ وآله﴾ أياما يدعو الله عليهم و يقول: الله اكفنى عامر بن الطفيل بما شئت، و ابعث له داء يقتله و اهد قومه، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾: و الذى نفسى بيده لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزاحمت قريشا على منابرها، ثم دعا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و قال: ياقوم آمنوا، ثم قال: اللهم اهد بنى عامر، و اشغل عنى عامر بن الطفيل كيف شئت و متى شئت.

و فى البخارى أنه قال للنبى ﴿ﷺ وآله﴾: أخيرك بين ثلاث خصال: يكون لك أهل السهل و لى أهل الوبر، و أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقرى.

(و الله يعصمك من الناس)

و لما خرجوا من عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال عامر لأربد: ياأربد أين ما كنت أمرتك به؟ و الله ما كان على وجه الأرض من رجل أخافه على نفسى منك أبدا، و أيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا، فقال: لا أبا لك لا تعجل على، و الله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى و بين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف؟.

و فى رواية: إلا رأيت بينى و بينه سورا من حديد.

و فى رواية: لما وضعت يدى على قائم السيف يبست فلم أستطع أن أحركها. وفى رواية: لما أردت سل سيفى نظرت فإذا فحل من الإبل فاغر فاه بين يدى يهوى إلى، فو الله لو سللته لخفت أن يبتلع رأسى.

و يمكن الجمع بين الروايات بأن ما فى الرواية الأولى كان بعد أن تكرر منه الهم، و ما فى الرواية الثانية كان بعد ما حصل منه هم آخر، و كذا يقال فى الثالثة.

موت الطفيل بالطاعون و أربد بالصاعقة و إسلام قومهما

و خرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر ابن الطفيل الطاعون فى عنقه، و فى لفظ: حلقه، و آوى لبيت امرأة سلولية من بنى سلول و كانوا موصوفين باللؤم، و فى كلام السهيلى: إنما اختصها بالذكر لقرب نسبها لأنها منسوبة إلى سلول بن صعصعة، و الطفيل من بنى عامر بن صعصعة، أى: فهى تأسف عليه، و صار يأسف الذى كان موته ببيتها، و صار يمس الطاعون و يقول: يابنى عامر غدة، أى: أغد غدة كغدة البعير، و موتا فى بيت امرأة من بنى سلول، ائتونى بفرسى، ثم ركب فرسه و أخذ رمحه و صار يجول حتى وقع عن فرسه ميتا، ويذكر أنه صار

يقول: أبرز ياملك الموت، و فى لفظ: ياموت أبرز لى، أى: لأقاتلك، فلم يزل كذلك حتى أماته الله تعالى، فأجاب سبحانه دعوة حبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ فقتل بالطاعون قبل أن يصل إلى قومه- لعنه الله تعالى- و هذا دليل على فرط حماقته. و قدما صاحباه على قومهما فقالوا لأربد: ما وراءك ياأربد؟ فقال: لا شئ، و الله لقد دعانا إلى عبادة شئ لوددت أنى عنده الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمله يتبعه، فأرسل الله عليه و على جمله صاعقة أحرقتهما، و كان ذلك فى يوم سحوقا قائظ، و أنزل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ (الرعد:١٣). و أما جبار بن سلمى الذى هو ثالثهم فقد أسلم مع من أسلموا من بنى عامر رضي الله عنه و حسن إسلامه.

٥- وفد ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه

قيل: وفد على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى سنة خمس، و الصواب أنه سنة تسع كما قاله الحافظ ابن حجر. قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما سمعنا بوافد وفد كان أفضل من ضمام بن ثعلبة، بينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بين أصحابه متكئا جاءه رجل من أهل البادية على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله و قال: أيكم ابن عبد المطلب؟ و فى رواية: أيكم محمد ﴿ﷺ وآله﴾؟ قالوا: هذا الأبيض المرتفق، أى: الأبيض المشرب بحمرة، المتكئ على مرفقه، فدنا منه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: أنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد على، فقال: سل عما بدا لك، فقال: يامحمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق، فقال: أنشدك برب من قبلك و رب من بعدك، و فى رواية: أنشدك بالذى خلق السموات و الأرض و نصب هذه الجبال، آالله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده و لا نشرك به شيئا و أن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آالله أمرك أن نصلى خمس صلوات فى كل يوم و ليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آالله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترد على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آالله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آالله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا؟ قال: اللهم نعم، قال: فإنى آمنت و صدقت، و أنا ضمام بن ثعلبة.

و لما رجع إلى قومه كان أول شئ تكلم به أن سب اللات و العزى، فقال له قومه: ياضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، فقال: ويلكم إنهما و الله لا يضران و لا ينفعان، إن الله قد بعث رسولا و أنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه، و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، و قد

جئتكم من عنده بما أمركم به و نهاكم عنه، فلم يبق من القوم رجل و لا امرأة إلا و أسلم ﵁.

و كان عمر ﵁ يقول: ما رأيت رجلا أحسن مسألة، و لا أوجز من ضمام بن ثعلبة ﵁.

من سبقت له الحسنى يكفيه قليل الحكمة

لا تعجب من حال هذا الرجل المدهش الذى لم يسمع من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلا كلمة هى: حرف جواب، و هى: اللهم نعم، كيف رجع و هو كامل اليقين، ينطق بالحكمة العالية، تخرج الكلمة من فيه فتخرق القلوب، و تجذب النفوس، فإن الحق تنزهت ذاته كاشف أهل الحسنى يوم ألست بمصون جماله، و على جلاله، حتى شهدت النفس و تصورت أسرار الربوبية، و لكن دواعى البشرية ومقتضيات الآدمية سترت هذا العلم المصون عن الإنسان، فإذا سمع الحكمة انفتق رتق هذا الحجاب، و خر العقل ساجدا لربه، و سارعت النفس منيبة إليه سبحانه، و ظهر مكنون العلم مصورا على جوهر النفس، و اقشعر الجلد، واضطرب القلب، ثم لان الجلد، و اطمأن القلب بذكر الله تعالى، فأهل الحسنى السابقة بينما يكون الرجل منهم فى ظلمات البعد و إذا به قد بلغ مقامات الصديقين بكلمة من الحسنى يسمعها، أو بإشارة من العارف يفقهها، أو بنفس من أنفاس واله واجد يتنفسه.

و إنما رسل الله صلوات الله و سلامه عليهم و ورثتهم نور مشرق لأهل البصائر و القلوب، لمن لهم أعين يبصرون بها، و آذان يسمعون بها، و قلوب يفقهون بها، و لا تعجب ممن كانوا يؤذون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فبين النور و الظلمة مباينة، و بين الحق و الباطل مفارقة، و من جهل شيئا عاداه.

أسأل الله أن يجملنى و أهلى و أولادى و إخوانى ممن سبقت لهم الحسنى.. إنه مجيب الدعاء.

٦- وفد عبد القيس

كانت منازلهم بالبحرين، و كان ممن وفد فيهم الجاروذ، و كان نصرانيا قد قرأ الكتب فقال أبياتا يخاطب بها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ منها قوله:

يانبى الهدى أتاك رجال   قطعت فدا فدا و آلا فآلا
تتقى وقع شر يوم عبوس   أوجل القلب ذكره ثم هالا

قيل: كان مجيئهم سنة عشر، فعرض ﴿ﷺ وآله﴾ الإسلام على الجاروذ بعد إنشاده الأبيات، فقال: يامحمد إنى كنت على دين و إنى تارك دينى لدينك، فتضمن لى ذنبى، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: نعم أنا ضامن لك أن قد هداك إلى ما هو خير لك منه، فأسلم و أسلم أصحابه ﵃. و جاء فى رواية: أنه كان مع الجاروذ سلمة بن عياض الأسدى و أن الجاروذ قال لسلمة: إن خارجا خرج يزعم أنه نبى، فهل لك أن تخرج إليه، فإن رأينا خيرا دخلنا فيه، و أنا أرجو أن يكون هو النبى الذى بشر به عيسى بن مريم ﵇؟.

النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يكشف ما يكتمون

لكن يضمر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأله عنها، لا يخبر بها صاحبه، فلعمرى إن أخبرنا بها إنه لنبى يوحى إليه، فلما قدما عليه ﴿ﷺ وآله﴾ قال له الجاروذ: بما بعثك ربك يامحمد؟ قال: بشهادة أن لا إله إلا الله و أنى عبد الله و رسوله، والبراءة من كل ند يعبد من دون الله، و بإقام الصلاة لوقتها، و إيتاء الزكاة لحقها، و صوم رمضان، و حج البيت بغير إلحاد، من عمل صالحا فلنفسه، و من أساء فعليها، و ما ربك بظلام للعبيد، قال الجاروذ: يامحمد إن كنت نبيا أخبرنا عما أضمرنا عليه، فخفق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خفقة كأنها سنة، ثم رفع رأسه و العرق يتحدر عنه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: أما أنت ياجاروذ فإنك أضمرت أن تسألنى عن دماء الجاهلية، و عن حلف الجاهلية، و

عن المنيحة، ألا و إن دم الجاهلية موضوع، وحلفها مردود، و لا حلف فى الإسلام، ألا و إن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابتك أو لبن شاة.

و أما أنت ياسلمة فإنك أضمرت أن تسألنى عن عبادة الأوثان، و عن يوم السباسب، و عن عقل الهجين، فأما عبادة الأوثان فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء : ٩٨) . و أما يوم السباسب فقد أعقب الله ليلة خيرا من ألف شهر، فاطلبوها فى العشر الأخير من رمضان، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها، تطلع الشمس فى صبيحتها لا شعاع لها، و أما عقل الهجين فإن المؤمنين أخوة تتكافأ دماؤهم، يجير أقصاهم على أدناهم، أكرمهم عند الله أتقاهم، فقالا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك عبده و رسوله.

خير أهل الشرق

و جاء فى رواية: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ بينما يحدث أصحابه إذ قال لهم: سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق. و فى رواية: يسبق ركب من أهل المشرق لم يكرهوا على الإسلام، قد أمضوا، أى: أهزلوا الركائب، و أفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس، فقام عمر ؓ فتوجه نحو مقدمتهم فلقى ثلاثة عشر راكبا، و قيل: كانوا عشرين راكبا، و قيل: كانوا أربعين رجلا، فقال: من القوم؟ قالوا: من بنى عبد القيس، فقال: أما إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قد ذكركم آنفا فقال خيرا، ثم مشى معهم حتى أتوا النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال عمر ؓ للقوم: هذا صاحبكم الذى تريدون، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم بباب المسجد، و دخلوا بثياب سفرهم، و تبادروا يقبلون يده ﴿ﷺ وآله﴾ و رجله، و كان فيهم عبد الله بن عوف الأشج و هو رأسهم، وكان أصغرهم سنا، فتخلف عند الركائب حتى أناخها و جمع المتاع، و ذلك بمرأى من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و أخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشى حتى أخذ بيد رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ فقبلها، و كان رجلا دميما، ففطن لنظر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى دمامته، فقال: يارسول الله إنه لا يستقى، أى: لا يشرب فى مسوك الرجال، أى: جلودهم، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه و قلبه، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: إن فيك خلتين. وفى رواية: خصلتين، يحبهما الله و رسوله الحلم و الأناة، فقال: يارسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما؟ قال: بل الله تعالى جبلك عليهما، فقال: الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله و رسوله. و الأناة: كقناة التؤدة، أى: التأنى فى الأمر. و قد جاء فى الحديث: (التؤدة و الاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة و عشرين جزءا من النبوة).

آمركم بأربع و أنهاكم عن أربع

و فى رواية: لما قدموا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال لهم: من القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: مرحبا بالقوم. و فى رواية: بالوفد غير خزايا و لا ندامى، فقالوا: يارسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة، أى: لأن مساكنهم بالبحرين، أى: و ما والاها من أطراف العراق، و أنه يحول بيننا و بينك هذا الحى من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام. و صرح فى بعض الروايات بأنه رجب، فمرنا بأمر نأخذ به و نخبر به من وراءنا و ندخل به الجنة، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: آمركم بأربع و أنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم.

و فى مسند الإمام أحمد ذكر الحج فيما أمرهم به.

وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير، وفى رواية: والمقير، والمراد النهى عن انتباز النبيذ فى هذه الأشياء لأنها تسرع بالتخمر الذى هو سبب الإسكار، و الدباء القرع، و الحنتم جرار مدهونة بدهان أخضر يحمل فيها الخمر، و النقير أصله النخلة ينقر وينبذ فيه

التمر، والمقير ما طلى بالقار وهو الزفت. و جاء فى رواية: بدل المقير المزفت، قال: احفظوهن و أبلغوهن من وراءكم، أى: من قومكم. وفيه دليل على أن إبلاغ الخبر و تعليم العلم واجب.

و فى رواية قال: و اشربوا فى أسقية الأدم، أى: الجلود، يعنى انتبذوا فيها بدل تلك الأوانى، فقالوا: يارسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذام، أى: الفيران، أى: لا تبقى فيها أسقية الأدم، قال: و إن أكلها الجرذام، قال: ذلك مرتين أو ثلاث، فقال له الأشج: يارسول الله إن أرضنا ثقيلة واخمة، و إنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخص لنا فى مثل هذه و أومأ بكفه، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: ياأشج إن أرخصت لك فى مثل هذه، شربته فى مثل هذه و فرج يديه و بسطها، يعنى أعظم منها، حتى إذا سمل أحدكم من شرابه، أى: سكر، قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف، و كان فى القوم رجل قد وقع له ذلك و هو جهنم بن قثم، قال: لما سمعت ذلك من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جعلت أسدل ثوبى لأغطى الضربة وقد أبداها الله لنبيه ﴿ﷺ وآله﴾.

و فى رواية: إنهم سألوه عن النبيذ، فقالوا: يارسول الله إن أرضنا أرض وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ، قال: فلا تشربوا فى النقير فكأنى بكم إذا شربتم فى النقير قام بعضكم إلى بعض بالسيوف، و ضرب رجل منكم ضربة لا يزال يعرج منها حتى يوم القيامة، فضحكوا، ثم قال: ما يضحككم؟ قالوا: و الله لقد شربنا فى النقير فقام بعضنا إلى بعض بالسيوف فضرب هذا ضربة بالسيف فهو أعرج كما ترى، ثم ذكر لهم ﴿ﷺ وآله﴾ أنواع تمرهم فقال: لكم تمرة تدعونها كذا، و تمرة تدعونها كذا، فقال له رجل من القوم، بأبى أنت و أمى يارسول الله، لو كنت ولدت فى جوف هجر ما كنت أعلم منك الساعة، أشهد أنك رسول الله، فقال: إن أرضكم رفعت لى منذ قعدتم، فنظرت من أدناها إلى أقصاها، وقال لهم: خير تمركم البرتى يذهب بالداء و لا داء معه.

النهى عن الانتباذ منسوخ

وإنما اقتصر فى المناهى على شرب الأنبذة فى الأوعية المذكورة مع أن فى المناهى من عوائد فى التحريم لكثرة تعاطيهم لها، ثم إن النهى عن الانتباذ فى هذه الأوانى إنما كان فى أول تحريم الخمر حين كانت نفوسهم راغبة فى شربها، معتادة لها، ثم لما استقر أمر التحريم و توطنت نفوسهم على تركها، و التباعد عنها قال ﴿ﷺ وآله﴾: كنت نهيتكم عن الانتباذ فى هذه الأوانى فانتبذوا فى كل إناء، و اجتنبوا المسكر فالنهى عن الانتباذ فيها منسوخ، و القصد انتباذ المسكر فقط.

وكان فى عبد القيس أبو الوازع بن عامر و ابن أخته مطر بن هلال، و لما ذكروا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ أنه ابن اختهم قال: ابن أخت القوم منهم. و كان فيهم ابن أخى الوازع و كان شيخا كبيرا مجنونا، جاء به الوازع معه ليدعو له ﴿ﷺ وآله﴾، فمسح ظهره ودعا له فبرأ لحينه، و كسى شبابا و جمالا حتى كان وجهه وجه العذراء. و جاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ زودهم الأراك يستاكون به.

٧- وفد بنى حنيفة بن لجيم و معهم مسيلمة الكذاب

وفدوا عليه ﴿ﷺ وآله﴾ و كانوا سبعة عشر رجلا و معهم مسيلمة الكذاب. قيل: جاء بنو حنيفة إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و معهم مسيلمة الكذاب يسترونه بالثياب تعظيما له، وكانت تلك عادتهم فيمن يعظمونه، و كان أمره عند قومه كبيرا، و كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جالسا فى أصحابه معه عسيب من سعف النخل فى رأسه خويصات، فلما انتهى مسيلمة إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾- و هم يسترونه بالثياب- كلم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وسأله أن يشركه معه فى النبوة، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه. و قيل: إن بنى حنيفة جعلوه فى رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يارسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا فى رحالنا يحفظها لنا، فأمر له

﴿ﷺ وآله﴾ بمثل ما أمر لواحد من القوم- و هو خمس أواق من فضة، فلما رجعوا

إليه أخبروه بما قال عنه، فقال: إنما قال ذلك لأنه عرف أن لى الأمر من بعده، فلما رجعوا و انتهو إلى اليمامة ارتد عدو الله و تنبأ و كذب- و قال: أما إنه ليس بشركم مكانا، فلما رجعوا و انتهوا إلى اليمامة ادعى مسيلمة أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أشركه معه فى النبوة، و قال لمن وفد معه: ألم يقل لكم حين ذكرتمونى أما إنه ليس بشركم مكانا، ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه فى الأمر، أى: و هو ﴿ﷺ وآله﴾ إنما أراد بذلك أنه حفظ ضيعة أصحابه.

و فى الصحيحين: أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أقبل و معه ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، و فى يد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه، و قد بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أن مسيلمة قال: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾: إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها، و إنى لأراك الذى رأيت منه ما رأيت، و هذا قيس يجيبك عنى، ثم انصرف عنه ﴿ﷺ وآله﴾. و الذى رأى منه ﴿ﷺ وآله﴾ أنه رأى فى المنام أن فى يده سوارين من ذهب، قال: فأهمنى شأنهما، فأوحى الله تعالى إلى فى المنام أن أنفخها، فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى، أى: و هما طليحة العنسى صاحب صنعاء، و مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، فإن كلا منهما ادعى النبوة فى حياته ﴿ﷺ وآله﴾، و كان طليحة العنسى يقول: إن ملكا كان يقال له ذو النون يأتينى كما يأتى جبريل عليه السلام فلما بلغه ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك قال: لقد ذكر ملكا عظيما فى السماء يقال له ذو النون.

و يمكن الجمع بين تلك الروايات بتكرار مجيء مسيلمة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

ثم صار مسيلمة- لعنه الله- يتكلم بالهذيان يضاهى به القرآن فمن ذلك قوله- قبحه الله- لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا، ثم أن اللعين وضع عن قومه الصلاة، وأحل لهم الخمر و الزنا، ترغيبا لهم فى اتباعه، و هو مع

ذلك يشهد لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالنبوة، و يدعى أنه مشارك له، وهذا من سخافة عقله، إذ النبى لا يبيح الحرمات.

الكذاب يرسل و النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يرد

و كتب مسيلمة– قبحه الله– إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كتابا، فقال: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإنى قد أشركت فى الأمر معك، و إن لنا نصف الأمر، و ليس قريشا قوما يعتدون) و بعث رجلين.

فكتب إليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين). ثم قال للرجلين: و إنما تقولان مثل ما يقول، قالا: نعم، قال: أما و الله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

الكذاب يجهز جيوشا لحرب المسلمين

و كانت دعوى مسيلمة النبوة فى حياة النبى ﴿ﷺ وآله﴾، لكن لم تظهر شوكته و لم تقع محاربته إلا فى زمن الصديق الأكبر رضي الله عنه. فإن مسيلمة كان أقوى أسباب الفتنة على بنى حنيفة، جمع جموعا كثيرة ليقاتل بها الصحابة، فجهز له الصديق رضي الله عنه جيشا أمر عليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه فقتل أصحاب مسيلمة، ثم كان الفتح بقتل مسيلمة لعنه الله.

الأسود العنسى يدعى النبوة و يعاونه شيطانان

ولما خرج الأسود العنسى بصنعاء وادعى النبوة،غلب عامل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على صنعاء وهو المهاجر بن أبي أمية، ويقال: إنه مر به فلما حاذاه عثر حمار المهاجر فادعى الأسود أنه سجد له و لم يقم الحمار حتى قال له شيئا فقام، و كان مع الأسود شيطانان يقال لأحدهما سحيق مصفر، و الآخر شقيق مصفر أيضا، و كانا يخبرانه بكل شئ

يحدث من أمور الناس، و كان باذان عاملا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ أيضا بصنعاء فمات، فجاء شيطان الأسود فأخبره، فخرج فى قومه حتى ملك صنعاء، وتزوج المرزبانة زوجة باذان، فواعدت فيروز الديلمى و غيره فدخلوا عليه ليلا- و قد سقته الخمرة سرفا حتى سكر، و كان على بابه ألف حارس- فنقب فيروز ومن معه الجدار حتى دخلوا فقتله فيروز واحتز رأسه وأخرجوا المرأة و ما أحبوا من متاع البيت، و أرسلوا الخبر إلى المدينة فوافاهم عند وفاته ﴿ﷺ وآله﴾.

قال أبو الأسود عن عروة: أصيب الأسود قبل وفاة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بيوم و ليلة، فأتاه الوحى فأخبر أصحابه، ثم جاء الخبر إلى أبي بكر رضي الله عنه. و قيل: وصل الخبر بذلك صبيحة دفن النبى ﴿ﷺ وآله﴾.

٨- وفد طيئ مع زيد الخيل رضي الله عنه

وفد عليه ﴿ﷺ وآله﴾ وفد طيئ و فيهم قبيصة بن الأسود، و سيدهم زيد الخيل، و كان زيد أعظم قومه جودا، و حلما، و خلقا، و أحسنهم وجها، و شعرا، و كان يركب الفرس الطويل العظيم فتخط رجلاه فى الأرض كأنه راكب حمار، فقال له النبى ﴿ﷺ وآله﴾- و هو لا يعرفه-: الحمد لله الذى أتى بك من حزنك و سهلك، و سهل قلبك للإيمان، ثم قبض على يده، فقال: من أنت؟ فقال: أنا زيد الخيل بن مهلهل، أشهد أن لا إله إلا الله و أنك عبد الله و رسوله، فقال له ﴿ﷺ وآله﴾: بل أنت زيد الخير.

وعرض الإسلام على من معه، فأسلموا و حسن إسلامهم، ثم قال له: يازيد ما أخبرت عن رجل قط شيئا إلا رأيته دون ما أخبرت عنه غيرك، فإنه لم يبلغ ما قيل فيه كل ما فيه من الفضل، و سماه زيد الخير، و أجاز ﴿ﷺ وآله﴾ كل واحد منهم خمس أواق، وأعطى زيد الخير إثنى عشر أوقية ونشا، وأقطعه محلين من أرضه و كتب له بذلك كتابا.

و لما خرج من عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ متوجها إلى قومه، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: إن ينجو زيد من حمى المدينة، أى: ما ينجو منها، ففى أثناء الطريق أصابته الحمى، و فى لفظ قال له: يازيد تقتلك أم ملدم– يعنى الحمى– و لما مات ؓ أقام قبيصة بن الأسود النائحة عليه سنة، ثم وجه براحلته و رحله و فيه كتاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذى أقطعه فيه محلين بأرضه، فلما رأت امرأته الراحلة أضرمتها بالنار فاحترقت و احترق الكتاب. و قيل: إن زيد الخير بقى إلى خلافة سيدنا أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب ؓ، وأنه لما ارتدت العرب عند وفاة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ثبت على الإسلام وكتب إلى أبي بكرؓ بهذين البيتين :

أما تخشين الله بيت أبي نصر ‌ ‌ ‌ ‌ فقد قام بالأمر الجلي أبي بكر
نجي رسول الله في الغار ‌ ‌ ‌ ‌ وصاحبه الصديق في معظم الأمر

حديث عدي بن حاتم ؓ

قال عدى بن حاتم ؓ : كنت امرءا شريفاً في قومي ، آخذ الربع من الغنائم، كما هو عادة سادات العرب في الجاهلية ، فلما سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كرهته، ما رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله﴿ﷺ وآله﴾ حين سمع به منى ، وقلت لغلام كان راعيا لإبلي: لاأبالك اعزل لي من إبلي أجمالاً زللا سمانًا، فاحبسها قريبًا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطيء هذة البلاد فآذني ،ففعل، ثم إنه أتاني ذات يوم فقال : ياعدى ما كنت صانعًا إذا غشيك محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت الرايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد، فقلت له: قرب لي أجمالي، فقربها،فاحتملت أهلي وولدي، والتحقت بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلفت بنتًا لحاتم في الحاضر

فأصيبت فيمن أصيب من الحاضر، أي: سبيت، فلما قدمت في السبايا علي رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبلغ رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾هربي إلي الشام، مَنّ عليها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكساها وحملها وأعطاها نفقة، وخرجت إلي أن قدمت عليّ الشام ،فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلي ظعينة تؤمنا ، فقلت : ابنة حاتم ، فإذا هي ،فلما وقفت على قالت : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك وقطعت بقية والديك وعورتك ، فقلت : أي أخية لا تقولي إلا خيرا ، فوالله ما لي من عذر ، ولقد صنعت ما ذكرت ، ثم نزلت وأقامت عندي ، فقلت لها – وكانت امرأة حازمة –: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعًا ،فإن يكن نبيًا فللسابق إليه فضيلة، وإن يكن ملكًا فأنت أنت ، فقلت : والله إن هذا للرأي ، قال : فخرجت حتى جئت المدينة ، فدخلت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لقائدنى إليه ، إذا لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها ، فقلت: ما هذا بملك ، ثم مضى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من أدم وحشوها ليف فقدمها إلىّ ، وقال : اجلس على هذه ، فقلت : بل أنت تجلس عليها ، قال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالأرض ، فقلت : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال له ما معناه : ياعدى بن حاتم أسلم تسلم ، قالها ثلاثاً ، فقلت : إني على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بديني ، قال : نعم ، ألست من الركوسية ؟ – لأنه كما تقدم كان نصرانياً – فقلت : بلى ، فقال : ألم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ أي : تأخذ ربع الغنيمة كما هو شأن الأشراف من أخذهم في الجاهلية ربع الغنيمة ، قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبيّ مرسل يعلم ما يجهل ، ثم قال﴿ ﷺ وآله﴾ لعلك ياعدى إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن

المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية – وهى قرية بينها وبين الكوفة نحو مرحلتين – على بعيرها حتى تزور البيت ، أي : الكعبة ، لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم .

قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج البيت ،وأيم الله لتكونن الثانية ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه .

وفى الترمذي : أنه لما قدم قالوا هذا عدىّ بن حاتم ، وكان النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال قبل ذلك : أنى لأرجو الله أن يجعل يده في يدي ، فكان سبب إسلامه إصابة خيل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أخته كما تقدم ، رضي الله عنه .

٩ – وفد عروة بن مسيك المرادى

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عروة مفارقاً لملوك كندة ، وكان بين قومه (مراد) وبين همدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا ، في يوم يقال له الردم .

وقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟ فقال : يارسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوءه ؟ فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرا . واستعمله ﴿ﷺ وآله﴾ على مراد وزبيد ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فكان معه في بلاده رضي الله عنهما حتى توفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقال عروة عند توجهه إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :

لما رأيت ملوك كندة أعرضت   كالرجل خان الرجل عرق نسائها
قربت راحلتي أؤم محمداً   أرجو فواضلها وحسن ثرائها

١٠- وفد بني زبيد

وفد بنو زبيد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وفيهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان فارس العرب ، مشهوراً بالشجاعة ، شاعراً مجيداً، قال لا بن أخيه قيس المرادي، إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له : محمد- ﴿ﷺ وآله﴾ - قد خرج بالحجاز ، يقول : انه نبيّ فانطلق بنا إليه ، حتى نعلم علمه فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك ، وإذا لقيناه اتبعناه ، وان كان غير ذلك علمنا علمه ، فأبى عليه قيس ذلك ، وسفه رأيه ، فركب عمرو ﵁ حتى قدم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع قومه فأسلم ، فلما بلغ ذلك قيساً : خالفني وترك أمري ورأيي ، وتوعد عمرا . فقال عمرو في قيس أبياتا منها :

فمن ذا عاذري من ذي سفاه   يريد بنفسه شد المزاد
أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مرادي

أي : وبعد وفاته ﴿ﷺ وآله﴾ ارتد عمرو هذا مع الأسود العنسى ، ثم أسلم وحسن إسلامه وشهد فتوحات كثيرة في أيام الصديق وأيام عمر رضي الله عنهما ، وأسلم قيس بعد ذلك ، واختلف في صحبته ﴿ﷺ وآله﴾ .

١١ – وفد كندة

كندة قبيلة باليمن ينسبون إلى كندة لقب جدهم ثور بن عفير ، وله ﴿ﷺ وآله﴾ جدة منهم وهى أم جده كلاب ، وفد عليه ﴿ﷺ وآله﴾ ثمانون من كندة ، وقيل : ستون ، فيهم الأشعث بن قيس وكان وجيهاً مطاعاً في قومه وهو أصغرهم ، فلما أرادوا

الدخول عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ سرحوا شعورهم وتكحلوا ، ولبسوا جبب الحبرة قد سجعوها بالحرير ، فلما دخلوا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قالوا : أبيت اللعن ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لست ملكاً أنا محمد بن عبد الله ، قالوا : لا نسميك باسمك ، قال : أنا أبو القاسم ، فقالوا : ياأبا القاسم إنا خبأنا لك خباءً فما هو ؟ – وكانوا خبئوا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عين جرادة في ظرف سمن – فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والكهان والمتكهن في النار، وقالوا : كيف نعلم أنك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ فأخذ كفا في حصباء فقال : هذا يشهد أني رسول الله، فسبح الحصى في يده ، فقالوا : نشهد أنك رسول الله ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن الله بعثني بالحق وأنزل على كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا : أسمعنا منه فتلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . . . حتى بلغ ، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (الصافات : ١ – ٥) . ثم سكت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسكن بحيث لا يتحرك منه شيء ودموعه تجرى على لحيته ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالوا : إنا نراك تبكى أفمن مخافت من أرسلك تبكى ؟ فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : خشيتي منه أبكتني ، بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت ، ثم تلى ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء : ٨٦) . ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى ، قال : فما بال هذا الحرير في أعناقكم ، فعند ذلك شقوه وألقوه ، ولعل سجعهم جاوز الحد الجائزشرعاً ، وكان على النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ حين دخلوا عليه حلة يمانية قالوا : إنها حلة ذى يزن وعلى أبي بكر وعمر مثلها ، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا قدم عليه وفد لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك ، وقد قال الأشعث بن قيس له ﴿ ﷺ وآله﴾ : نحن بنوا آكلة المرار ، وأنت ابن آكلة المرار ، ويعنون جدته أم كلاب فقد تقدم أنها من كندة ، وآكل المرار هو الحارث بن عمر، ولقب بذلك لأكله شجراً يقال له المرار في غزوة غزاها ، ولما قال له الأشعث ما ذكر

، قال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا وننتفي من أبينا ، أي : لا ننسب إلى الأمهات ونترك النسب إلى الآباء ، فقال الأشعث بن قيس : يامعشر كندة والله لا أسمع رجل يقولها إلا ضربته ثمانين . والأشعث هذا ممن ارتد بعد النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم عاد إلى الإسلام في خلافة الصديق رضي الله عنه حين أراد قتله فقال : استبقني لحروبك وزوجني أختك ، فزوجه أخته أم فروة ، فدخل سوق الإبل في المدينة واخترط سيفه فجعل لا يرى جملاً إلا عرقبه ، فصاح الناس كفر الأشعث فلما فرغ طرح سبعة ، وقال : والله ما كفرت إلا أن الرجل – يعنى أبا بكر رضي الله عنه – زوجني أخته ، ولو كنا ببلادنا كانت لي وليمة غير هذه ، ثم قال : ياأهل المدينة انحروا وكلوا وأعطى أصحاب الإبل أثمانها .

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ للأشعث : هل لك من ولد ؟ فقال : لي غلام ولد عند مخرجي إليك لوددت أن لي به سبعة ، قال: إنهم لمجبنة مبخلة محزنة ، وإنهم لقرة العين وثمرة الفؤاد.

وقد شهد الأشعث اليرموك بالشام ثم القادسية وحروب العراق ، وسكن الكوفة ،وشهد صفين مع علىّ كرم الله وجهه ، ومات بعد ذلك بأربعين ليلة ، وصلى عليه الحسن بن على رضي الله عنهما . وقيل : مات سنة اثنتين وأربعين رضي الله عنه .

١٢ – وفد أزد شنوءة

وفد على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جمع من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدى وكان أفضلهم ، فأمرة على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ،فخرج حتى نزل بجرش – وهى مدينة بها قبائل اليمن – فحاصرها المسلمون قريباً من شهر ثم رجعوا عنها حتى إذا كانوا بجبل يقال له: شكر ، فلما وصلوا ذلك المحل ظن أهل جرش أن المسلمين إنما رجعوا عنهم منهزمين ، فخرجوا في طلبهم حتى إذا أدركوهم ، عطف المسلمون عليهم فقتلوهم قتلاً شديداً،

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالمدينة يرتادان ، أي: ينظران الأخبار ،فبينما هما عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذ قال ﴿ﷺ وآله﴾ : بأي بلاد الله شكر ؟ فقام الرجلان فقالا: يارسول الله ببلادنا جبل يقال كشر ، فقال : إنه ليس بكشر ولكنه شكر ، قالا : فما شأنه يارسول الله ؟ قال : إن بدن الله لتنحر عنده الآن – يعنى قتل قومهم الذين هم كالبدن في عدم الإدراك حيث لم يؤمنوا وحاربوا المسلمين – ينحرون نحر البدن ، فجلس الرجلان إلى أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما فقالا لهما : ويحكما إن رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ لينعى لكما قومكما ،أي :يخبركما بموتهم ،فقوما إليه فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما ، فسألاه ذلك فقال : اللهم ارفع عنهم ، ثم خرجا من عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ راجعين إلى قومهما فوجدوا قومهما قد أصيبوا في اليوم والساعة التي قال فيها رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ ما قال ، وعند إ خبارهما لقومهما بذلك وفد وفد جرش على رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ فأسلموا، فقال رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ : مرحباً بكم أحسن الناس وجوهاً، وأصدقهم لقاء،وأطيبهم كلاما،وأعظمهم أمانة ،أنتم مني وأنا منكم ،وحمى لهم حمى حول بلدهم ﵁ وأرضاهم .

١٣ – وفد رسول الحارث بن كلال وأصحابه ملوك حمير وحامل كتابهم

وفد على رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ رسول ملوك حمير وحامل كتابهم إليه ﴿ﷺ وآله﴾ وذلك أ ن الحارث بن كُلال، والنعمان ،ومعافر،وهِمدان ـــ وهى قبيلة– كتبوا إلى النبي ﴿ﷺ وآله﴾بإسلامهم، فكتب إليهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الحارث بن كلال وإلى النعمان ومعافر وهمدان أما بعد ، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد ، فإنه وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ، أي : رجوعنا من غزوة تبوك ، فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم ،وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم

بهداه ، وأنكم أصلحتهم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي وما كتب على المؤمنين من الصدقة ،أما بعد ، فإن محمدا النبي أرسل إلي زرعة ذى يزن . وفى رواية :إلى ذرعة بن سيف بن ذى يزن ، أن إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً، معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة ،وعقبة بن نمر ، ومالك بن مرارة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفكم _ جمع مخلاف_ وأبلغوها رسلي، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً ، أما بعد ، فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن كعب بن مرارة قد حدثني أنك قد أسلمت من أوّل حمير ، وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ، ولا تخزنوا ولاتخاذ لوا فإن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هو مولى غنيكم وفقيركم ، إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل،وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

١٤ – وفادة رسول فروة بن عمرو الجذامى

وفد رسول فروة على رسول ﴿ﷺ وآله﴾ يخبره بإسلامه﵁ ،وأهدى فروة له ﴿ﷺ وآله﴾ بغلة بيضاء يقال له : فضة ،وحمار يقال له : يعفور ،وفرساً يقال لها : الظرب ، وثياباً وقباء مرصعاً بالذهب ، فقبل ﴿ﷺ وآله﴾ الهدية ،وأعطى الرسول اثنتا عشرة أوقية من فضة ،وكان فروة عاملاً للروم على ما يليهم من العرب ، وكان مترله معان وما حولها من أرض الشام ، ومعان اسم جبل ، فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه وحسبوه ، ثم ضربوا عنقه بعد أن قال له الملك: ارجع عن دين محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ونحن نعيدك إلى ملكك، قال : لا أفارق دين محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ،فإنك تعلم أن عيسى ﵇ بشر به ولكنك تضن بملكك .

١٥ – وفد الحارث بن كعب

بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خالد بن الوليد ﵁ إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، وقال له : إ ن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج خالد ﵁ حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا ، فأسلموا ، فقام فيهم خالد بن الوليد ﵁ يعلمهم شرائع الإسلام ، وكتب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك ، فكتب له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يقبل ويقبل معه وفدهم ، فأقبل ﵁ وأقبل معه وفدهم وفيهم قيس بن الحصين ذو الغصة – لأنه كان في حلقه غصة لا يكاد يبين الكلام منها – وحين اجتمعوا به ﴿ﷺ وآله﴾ قال لهم : بما كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا : كنا نجتمع و لا نتفرق ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال : صدقتم ، وأمّر عليهم ﴿ﷺ وآله﴾ زيد بن الحصين ، ولم يمكثوا بعد رجوعهم إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

١٦– وفد رفاعة بن زيد الخزاعى

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأسلم وأهدى لرسول الله غلاما ، وكتب له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كتابا إلى قومه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لرفاعة ابن زيد ، أنى بعثته إلى قومه عامة من دخل منهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فمن أقبل منهم ففي حزب الله ورسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين) . فلما قدم رفاعة على قومه أجابوا وأسلموا ﵁ .

١٧ – وفد همدان

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جمع من همدان فيهم مالك بن نمط – وكان شاعرا مجيدا – فلقوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مرجعه من تبوك وعليهم مقطعات الحبرات

بكسر الحاء – ثياب مخططه من برود اليمن – والعمائم العدنية – نسبة إلى عدن مدينة باليمن– ووفدوا عليه على الرواحل المهرية والأرحبية ، والمهرية– نسبة إلى قبيلة يقال لها : مهرة باليمن ، والأرحبية نسبة إلى أرحب – وقد أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ مالك بن نمط على من أسلم من قومه ، وتقدم أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بعث خالد بن الوليد إليهم ، ثم بعث علياً كرم الله وجهه وأمر خالد بالرجوع ، وإن من كان مع خالد إن شاء بقى مع عليّ وإن شاء رجع ، وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لما جاءه خبر إسلامهم خر ساجداً ثم رفع رأسه ثم قال : السلام على همدان . وجاء أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : نعم الحي هِمدان ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال وفيهم أوتاد الإسلام .

١٨– وفد تُحبب

وتحبب بضم المثناة فوق هي قبيلة من كندة. وفد على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ منهم ثلاثة عشر رجلاً وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم ، فسر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بهم وأكرم مثواهم ، وقالوا : يارسول الله إنا سقنا إليك حق الله في أموالنا،فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ردوها فاقسموها على فقرائكم ، قالوا : يارسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، فقال أبو بكر ﷺ : يارسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للدين ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ رغبة فيهم ، وأرادوا الرجوع إلى أهليهم فقيل لهم : ما يعجبكم ؟ قالوا : نرجع إلى ما وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وملاقاتنا وكلامنا إياه وما رد علينا ، ثم جاءوا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فودعوه ، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود ، ثم قال لهم ﴿ ﷺ وآله﴾ : هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً ، فقال : أرسلوه إلينا ، فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال : يارسول

الله أنا من الوفد الذين أتوك أنفاً فقضيت حوائجهم فأقضى حاجتي ، قال : وما حاجتك ؟ فقال : يارسول الله إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي وإن كانوا راغبين في الإسلام ، والله ما أخرجني إلا أن تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غناي في قلبي،فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه . وقد قال ﴿ﷺ وآله﴾ : من أراد الله به خيراً جعل غناه في نفسه ، وتقاه في قلبه ، وإذا أراد الله بعبد شراً جعل فقره بين عينيه . ثم أمر له ﴿ﷺ وآله﴾ بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ، ثم إنهم ﵃ بعد ذلك وافوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بمنى في الموسم إلا ذلك الغلام ،فقال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ما فعل الغلام الذي أتاني معكم ؟ قالوا : يارسول الله ما رأينا مثله قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعاً ، فقال رجل منهم : أو ليس يموت الرجل جميعاً يارسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : تشعب أهواؤه في أودية الدنيا ، فلعل الأجل يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالى عز وجل في أيها هلك . ولما توفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام ، قام ذلك الغلام في قومه فذكرهم الله والإسلام فلم يرجع منهم أحد

وجعل أبو بكر الصديق ﵁ يذكر ذلك الغلام ويسأل عنه ولما بلغه ما قام به ، كتب إلى زياد بن الوليد ،أي : وكان ﵁ والياً على حضرموت ، يوصيه به خيراً ﵁ .

١٩– وفد بنى ثعلبة

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مرجعه من الجعرانة أربعة نفر من بنى ثعلبة مقرين بالإسلام ، فإذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماءً ، قال بعضهم : فرمى ببصره إلينا فأسرعنا إليه وبلال يقيم الصلاة ، فسلمنا وقلنا : يارسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالإسلام وقد قيل لنا : إن رسول الله ﴿

ﷺ وآله﴾ يقول : لا إسلام لمن لا هجرة له ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم ، ثم صلى بنا الظهر ، ثم انصرف إلى بيته ، فلم يلبث أن خرج إلينا فدعا بنا فقال : كيف بلادكم ؟ فقلنا : مخصبون ، فقال : الحمد لله ، فأقمنا أياماً وضيافته تجرى علينا .

ثم لما جاءوا يودعونه قال لبلال : أجزهم ، فأعطى كل واحد منهم خمس أواقي فضة.

٢٠- وفد بنى سعد هذيم من قضاعة

عن النعمان ﵁ قال : قدمت على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وافداً في نفر من قومي ،وقد أوطأ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ البلاد ، أي : جعلها موطوءة قهراً وغلبة ، واستولى عليها ، والناس نصفان : إما داخل في الإسلام راغب فيه ، وإما خائف السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ،ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه ، فنجد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يصلى على جنازة في المسجد وهى لسهيل بن بيضاء﵁ ، فقمنا خلفه ولم ندخل مع الناس في صلاتهم وقلنا:حتى يصلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ونبايعه،ثم انصرف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فنظر إلينا فدعا بنا فقال :ممن أنتم ؟ فقلنا : من بنى سعد هذيم ، فقال :أمسلمون أنتم ؟ قلنا : نعم ، فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا : يارسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ،فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أينما أسلمتم فأنتم مسلمون ،قال :فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على الإسلام ،ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا ، فبعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في طلبنا ، فأتى بنا إليه ،فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام ، فقلنا : يارسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا ، فقال : أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه ، قال النعمان : فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ له ، ثم أمّره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فكان يؤمنا ، فلما أردنا الانصراف أمر بلالاً فأجازنا بأواق من فضة لكل رجل منا ، فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام .

٢١- وفد بني فزارة

وفد عليه ﴿ﷺ وآله﴾ بضعة عشر رجلاً من بنى فزارة فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة ابن حصن ، وابن أخية الجد بن قيس بن حصن – وهو أصغرهم – مقرين بالإسلام بعد أن ولت عليهم السنون والجدب على ركائب عجاف ، أي : هزال ،فسألهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن بلادهم ، فقال خارجة : يارسول الله أسنت بلادنا ،وهلكت مواشينا ،وأجدب جنابنا ، أي : ما حولنا ،وجاعت عيالنا ، فادع لنا ربك يغيثنا ، واشفع لنا إلى ربك ، فصعد ﴿ﷺ وآله﴾ المنبر ورفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ودعا ،وكان مما حفظ من دعائه :(اللهم اسق بلدك غيثاً مغثياً مريعاً طبقاً واسعاً ، عاجلاً غير آجل ، نافعاً غير ضار،اللهم سقياً رحمة لا سقياً عذاب ، ولا هدم ولا غرق ولا محق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء) فقام أبو لبابة ﵁ فقال : يارسول الله إن التمر في المربد ثلاث مرات، فقال﴿ﷺ وآله﴾ اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره ، قال : فلا والله ما في السماء من قزعة ولا سحاب وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار ، فطلعت من وراء سلع – اسم جبل – سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت وهم ينظرون ثم أمطرت السماء ، وقام أبو لبابة عريان يسد ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج التمر منه ، فوالله ما رأوا الشمس سبعاً ، ثم قام الرجل – يعنى الذي سأله أن يستسقى لهم – فقال : يارسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فصعد رسول الله ﵁ المنبر فدعا ورفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال : اللهم حوالينا لا علينا ، وعلى الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر فانجابت السحابة عن المدينة كانجياب الثوب .

وفى السيرة الحلبية : إن هذا المطر كان عاما للمدينة وما حولها إلى محل هؤلاء الوافدين.

الصحابة يفزعون إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ عند الشدائد

أحاديث الاستسقاء تعددت وتكررت ، فهذه القصة غير قصة الأعرابي الذي سأله السقيا وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ على المنبر ، وحديث الأعرابي رواه أنس بن مالك ﵁ قال : أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فبينما هو يخطب على المنبر يوم الجمعة إذ قام أعرابي فقال : يارسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا أن يسقينا ، فرفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يديه وما في السماء قزعة فدار السحاب أمثال الجبال ثم لم يترل عن المنبر حتى رأينا المطر يتحادر عن لحيته،قال فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى يوم الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يارسول الله هدم البناء وغرق المال،أدع الله لنا ، فرفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يديه فقال : اللهم حوالينا لا علينا ، قال : فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا انفرجت حتى صارت المدينة في مثل الجونة ، حتى سال الوادي شهرا فلم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود ، أي : المطر الكثير . وجاء في أحاديث أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج مرة أخرى إلى المصلى بعد أن وعد الناس يوما أن يخرج فيه ، ونصب له منبر ، واستسقى وأجيبت دعوته ونزل المطر . وجاء إليه مرة أعرابي فقال : يارسول الله أتيناك ومالنا بعير يئط ولا بعير يغط ، ثم أنشد أبياتا منها قوله :

وليس لنا إلا إليك فرارنا　　　وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام ﴿ ﷺ وآله﴾ يجر رداءه حتى صعد المنبر فدعا فسقوا ، ثم قال لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه ، من ينشد قوله ؟ فقام على فقال : يارسول الله كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه　　　ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ أجل وفى رواية لما جاءه المسلمون وقالوا : يارسول الله قحط المطر ، وييس الشجر ، وهلكت المواشي ، وأسنت الناس ، فاستسق لنا ربك ، فخرج ﴿ ﷺ وآله﴾ والناس معه يمشون بالسكينة والوقار حتى أتوا المصلى ، فتقدم ﴿ ﷺ

وآله﴾ فصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة – وكان يقرأ في العيدين والاستسقاء في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسبح اسم ربك الأعلى ، وفى الركعة الثانية بالفاتحة وهل أتاك حديث الغاشية –فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجه وقلب رداءه ، لكي ينقلب القحط إلى الخصب ، ثم جثا على ركبتيه ورفع يديه وكثر تكبيرة ثم قال : (اللهم اسقنا غيثاً واسعاً ، طبقاً ، مغدقاً ، عاماً ، هنيئاً ، مريئاً ، وابلاً ، شاملاً ، مجللاً ، نافعاً غير ضار ،عاجلاً غير آجل ، اللهم غيثاً تحيى به البلاد ،وتغيث به العباد ،وتجعله بلاغا للحاضر منا والباد ،اللهم أنزل في أرضنا زينتها،وأنزل علينا سكينتها ، اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهوراً تحيى به بلدك الميت ، وتسقيه مما خلقت أنعاماً وأناسيّ كثيراً) . فما برحوا حتى أقبل قزع من السماء فالتأم بعضه إلى بعض ، ثم أمطرت سبعة أيام بلياليهن لا يقلع عن المدينة ، فأتاه المسلمون وهو على المنبر فقالوا : قد غرقت الأرض ، وتهدمت البيوت ، وانقطعت السبل ، فادع الله يصرفه عنا ، فضحك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى بدت نواجذه – تعجباً لسرعة ملال ابن آدم – ثم رفع يديه وقال : (اللهم حوالينا لا علينا ، اللهم على رءوس الظراب ،ومنبت الشجر ، وبطون الأودية ، وظهور الأكام) . فتقشعت عن المدينة ، ثم قال : لله در أبي طالب لو كان حيا لقرت عيناه ، من الذي ينشدنا قوله ؟ فقام عليٌ ؓ فقال : يارسول الله كأنك أردت قوله : وأبيض يستسقى الغمام بوجه ثمال اليتامى عصمة للأرامل فقال : أجل .

فهذه الأحاديث كلها تدل على تعدد الاستسقاء وتكرره منه ﴿ﷺ وآله﴾ وفى كل مرة يسقون ، ففي ذلك معجزة له ﴿ﷺ وآله﴾ .

ثم أجاز ﴿ﷺ وآله﴾ بنى فزارة بما يجيز به الوفود ورجعوا إلى قومهم ؓ .

٢٢- وفد بنى أسد

وفد عليه ﴿ﷺ وآله﴾ جماعة من بنى أسد فيهم حضرمي بن عامر ، فدخلوا المدينة ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جالس في المسجد مع أصحابه ، فسلموا عليه وقال شخص منهم : يارسول الله صلى الله عليك وسلم أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله ، ثم أسلم الباقون وقالوا : جئناك يارسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن على َمن ورائنا . وفى رواية : إن حضرمي بن عامر قال : أتيناك بتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ،أي:ذات قحط ، ولم تبعث إلينا.وفى رواية : يارسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلتك العرب ، فأنزل الله على رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات : ١٧) . وسألوه عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من العيافة، وهى زجر الطير . والكهانة ، وهى الإخبار عن الكائنات في المستقبل ، فنهاهم عن ذلك ، فقالوا : يارسول الله خصلة بقيت ،قال : وما هي ؟ قالوا : الخط ،أي :خط الرمل ومعرفة ما يدل عليه ،فقال:علمه نبيّ فمن صادف مثل ما علمه ُعلّم . ففي رواية في مسلم : فمن وافق خطه فذاك ، أي : مباح له ، فلا يباح إلا بتبين الموافقة . وفى شرح مسلم أن محصل مجموع كلام العلماء الاتفاق على النهى عنه ، أي : لأنه لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة ، وكأنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال : لو علمتم موافقته لكن لا علم لكم بها .

وأقاموا أياماً يتعلمون الفرائض ، ثم جاءوا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فودعوه ، وأمر لهم بجوائز ثم انصرفوا إلى أهليهم ؓ .

٢٣ – وفد بنى عذرة

عذرة قبيلة باليمن . وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ اثني عشر رجلا من بنى عذرة وسلّموا سلام الجاهلية ، فقال لهم ﴿ﷺ وآله﴾ : من القوم ؟ فقال قائل منهم : نحن من بنى عذرة أخو قصي من أمه ، نحن الذين عضدوا قصياً وأزاحوا خزاعة وبنى بكر من بطن مكة ، فلنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : مرحباً بكم وأهلاً ما أعرفني بكم ، أي : لقيتم مكاناً رحباً وأتيتم أهلاً ، فاستأنسوا ولا تستوحشوا ثم قال : فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟ قالوا : يامحمد كنا على ما كان عليه أباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، ثم قالوا : إلى ما تدعو ؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تشهدوا أنى رسول الله إلى الناس كافة ، فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : الصلوات الخمس تحسن طهورهن وتصليهن لمواقيتهن فإنه أفضل العمل،ثم ذكر لهم باقي الفرائض من الصيام والزكاة والحج ، فأسلموا وبشرهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : بفتح الشام عليهم وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده .ونهاهم عن سؤال الكهانة – لأنهم قالوا : يارسول الله إن فينا امرأة كاهنة وقريش والعرب يتحاكمون إليها أفنسألها عن أمور ؟ – فقال: لا تسألوها عن شيء ، ونهاهم عن الذبائح التي كانوا يذبحونها لأصنامهم ، وقالوا : نحن أعوانك وأنصارك ، ثم انصرفوا وقد أجيزوا وكسى أحدهم برداً .

٢٤ – وفد بلي

على وزن على مكبراً ، وهم حيّ من قضاعة . وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جمع من بلى منهم – وهو شيخهم – أبو الضبيب تصغير الضب الدابة المعروفة ، فترلوا على رويقع بن ثابت البلوى ، فقدم بهم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له : هؤلاء قومي ، فقال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : مرحباً بك وبقومك ، فأسلموا وقال لهم رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ : الحمد لله الذي هداكم للإسلام ، فكل من مات منكم على غير الإسلام فهو في النار .

وفى رواية عن رويقع قال : قدم وفد قومي فأنزلتهم عليّ ثم خرجت بهم حتى انتهينا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو جالس في أصحابه فسلمنا ، فقال : رويقع ؟ فقلت : لبيك ، قال : من هؤلاء ؟ قلت : قومي قال : مرحباً بك وبقومك ، قلت : يارسول الله قدموا وافدين عليك مقرين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : من يرد الله به خيراً يهده للإسلام ، فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فجلس بين يدي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : يارسول الله إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أنك نبيّ حقاً ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : الحمد لله الذي هداكم للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار . وقال له أبو الضبيب : يارسول الله إن لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر ؟ قال نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة ، قال : يارسول الله ما وقت الضيافة ؟ قال : ثلاثة أيام ، قال : فما بعد ذلك ؟ قال : فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك ، أي : يضيق عليك ، وفى لفظ : فيؤثمك ، أي يعرضك للإثم ، بأن تتكلم بسيء القول ، قال : يارسول الله أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض ، قال : لك أو لأخيك أو للذئب ، قال : فالبعير ، قال :

مالك وله ، دعة حتى يجده صاحبه . قال رويقع : ثم قاموا فرجعوا إلى مترلى ، فإذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأتي مترلى بجمل تمرا ، فقال : استعن هذا التمر ، فكانوا يأكلون منه ومن غيره ، فأقاموا ثلاثة ثم ودعوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأجازهم ، ورجعوا إلى بلادهم رضي الله عنه .

٢٥ – وفد بني مرة

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاثة عشر رجلاً من بنى مرة ورأسهم الحارث بن عوف فقال : يارسول الله إنا قومك وعشيرتك ، نحن قوم من بنى لؤى بن غالب ، فتبسم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال له : أين تركت أهلك ؟ قال : بسلاح وما والاها ، قال : فكيف البلاد ؟ قال : والله إنا لمسنتون وما في المال صوت يردده فادع الله لنا ، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : اللهم اسقهم الغيث .

فأقاموا أياماً ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم فجاءوا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مودعين له ، فأمر بلالاً أن يجيزهم، فأجاز كل واحد بعشر أواق فضة، وفضل الحارث بن عوف فأعطاه اثنتى عشرة أوقية ، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البلاد مطيرة ، فسألوا قومهم متى مطرتم ؟ فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأخصبت بعد ذلك بلادهم ببركة دعائه ﴿ﷺ وآله﴾ .

٢٦– وفد خولان

وهى قبيلة من اليمن . وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عشرة من خولان فقالوا : يارسول الله نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، مصدقون برسوله ، قد ضربنا إليك آباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها – وحزون كفلوس جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض – والمنة لله ولرسوله علينا ، وقدمنا زائرين لك . فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أما ما ذكرتم من مسيركم إلىّ فإن لكم بكل

خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة ، وأما قولكم : زائرين لك ، فإن من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة .

ثم سألهم عن صنم الخولان اسمه عم أنس كانوا يعبدونه ، فقالوا : بدلنا الله ما جئت به ، وقد بقيت منا بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى ، فقد كنا منه في غرور وفتنة ، فقال لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟ قالوا : لقد أصابتنا سنة مسنتة حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لذلك الصنم قربانا في غداة واحدة وتركناها فأكلتها السباع – ونحن أحوج إليها من السباع – فجاءنا الغيث من ساعتنا ، ولقد رأينا العشب يوارى الرجال ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس .

وذكروا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما كانوا يقسمون لهذا الصنم من أموالهم وأنعامهم وحرثهم فقالوا : كنا نزرع فنجعل له وسطه فنسميه له ، ونسمى زرعا آخر حجرا ، أي : ناحية لله ، فإذا مالت الريح بالذي سميناه له ، أي : لله جعلناه لعم أنس – يعنون الصنم – ولم نجعله لله ، فذكر لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن الله أنزل عليه في ذلك : ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام : ١٣٦) . وقالوا : كنا نتحاكم إليه فيتكلم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : تلك الشياطين تكلمكم . وسألوه ﴿ﷺ وآله﴾ عن فرائض الدين ، فأخبرهم بها ، وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وحسن الجوار لمن جاوروا ، وأن لا يظلموا أحداً فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . ثم ودعوه بعد أيام وأجازهم ، أي : أعطى كل واحد اثنتى أوقية ونشا ، أي : نصفا ، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا صنمهم المسمى عم . أنس .

٢٧–وفد بني محارب

وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عشرة من بني محارب وفيهم خزيمة بن سواد ، وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أيام عرضه نفسه على القبائل في المواسم يدعوهم إلى الله تعالى ، فجلسوا عنده يوماً من الظهر إلى العصر وأدام ﴿ﷺ وآله﴾ النظر لرجل منهم وقال له : قد رأيتك – يعني قبل هذا اليوم – فقال له ذلك الرجل : إنك والله لقد رأيتني وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد بعكاظ ، وأنت تطوف على الناس ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : نعم ، قال : يارسول الله ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام مني ، فأحمد الله الذي جاء بي حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم ، فقال رسول الله : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل ، فقال : يارسول الله استغفر لي من مراجعتي إياك ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن الإسلام يجب ما قبله من الكفر ، ومسح رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ وجه خزيمة بن سواد فصارت له غرة بيضاء ، وأجازهم كما يجيزوا الوفود وانصرفوا إلى أهليهم ﷺ .

٢٨ – وفد صداء

وهم حيّ من عرب اليمن ، وفدوا عليه ﴿ﷺ وآله﴾ وكانوا خمسة عشر رجلاً ، وسبب ذلك أنه ﴿ﷺ وآله﴾ هيأ بعثاً – أربعمائة من المسلمين – واستعمل عليهم قيس بن سعد بن عبادة ﷺ ،ودفع له لواء أبيض وراية سوداء ، وأمره أن يطأ ناحية اليمن التي كان فيها صداء، فقدم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رجل منهم وعلم بالجيش ، فأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال : يارسول الله جئتك وافداً عمن ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فرد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قيس بن سعد ، وخرج

الصدائى إلى قومه ، ثم قدم على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأولئك القوم ، فقال سعد بن عبادة : يارسول الله دعهم يترلون عليّ فترلوا عليه فأعطاهم وأكرمهم وكساهم ، ثم ذهب بهم إلى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فبايعوه على الإسلام وقالوا : نحن لك على من وراءنا من قومنا ، فرجعوا إلى قومهم ففشا الإسلام فيهم ، فوافى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منهم مائة في حجة الوداع .

الصدقة صداع في الرأس وداء في البطن

ويسمى ذلك الرجل – الذي كان سببا في رد الجيش ومجيء الوفد – بزيادة بن الحارث الصدائى ، وقال له ﴿ﷺ وآله﴾ : ياأخا صداء إنك لمطاع في قومك ، قال : فقلت بل من من الله عز وجل ومن رسوله . وفى رواية : بل الله هداهم للإسلام ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أفلا أؤمّرك عليهم ؟ فقلت : بلى يارسول الله ، فكتب لي بذلك ، فقلت يارسول مر لي بشيء من صدقاتهم ، قال : نعم ، فكتب لي كتاباً آخر .

قال زياد : وكنت معه ﴿ﷺ وآله﴾ في بعض أسفاره ، وكنت رجلاً قوياً فلزمت ركابه وجعل أصحابه يتفرقون عنه ، فلما كان السحر قال : أذن ياأخا صداء ، فأذنت على راحلتي ثم سرنا حتى نزلنا فذهب لحاجته ثم رجع فقال : ياأخا صداءهل معك ماء ؟ قلت : معي شيء في أدواتي أي : وهى إناء من جلد صغير . وفى رواية : إلا شيء قليل لا يكفيك ، قال :هاته ، فجئته به، قال :صب فصببت ما في الأدواة في القعب وجعل أصحابه يتلاحقون ، ثم وضع كفه على الإناء فرأيت من بين كل أصبعين عيناً تفور ثم قال : ياأخا صداء لولا أنى استحى من ربى عز وجل لسقينا وأسقينا ، أي :من غير نهاية ، ثم توضأ وقال : أذن في أصحابي من كانت له حاجة بالوضوء – بفتح الواو – فليرد ، قال : فورد الناس من آخرهم ، ثم جاء بلال يقيم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن أخا صداء أذن فهو يقيم ، قال : فأقمت ، ثم تقدم رسول الله ﴿ﷺ

وآله﴾ فصلى بنا ، فلما سلم من صلاته قام رجل يشكو من عامله فقال : يارسول الله إنه آخذنا بكل شيء كان بيننا وبينه في الجاهلية ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لا خير في الإمارة لرجل مسلم ، ثم قام رجل آخر فقال :يا رسول الله اعطني من الصدقة ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل ، جزأها على ثمانية أجزاء فإن كنت جزأ منها أعطيتك ، وإن كنت غنياً عنها فإنما هو صداع في الرأس وداء في البطن فقلت : يارسول الله هذان كتاباك ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : وَلِمَ قلت إني سمعتك تقول لا خير في الإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم ؟ وسمعتك تقول من سأل الصدقة وهو عنها غني فإنما هي صداع في الرأس وداء في الطن ، وأنا غني ؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : أما إن الذي قلت كما قلت . ثم قال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : دلني على رجل من قومك استعمله ، فدللته على رجل منهم فاستعمله .

حصى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ تبارك في البئر

قلت : يارسول الله إن لنا بئراً إذا كان لنا الشتاء كفانا ماؤها ، وإن كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه ، والإسلام اليوم فينا قليل ونحن نخاف فادع الله عز وجل لنا في بئرنا ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ناولني سبع حصيات ، فناولته ، فعركهن بيده الشريفة ثم دفعهن إليّ وقال : إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة حصاه وسم الله ، قال : ففعلت فما أدركنا لها قعراً حتى الساعة .

٢٩ – وفد غسان

غسان اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ، ومنهم بنو حنيفة ، وقيل : غسان قبيلة . وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاثة نفر من غسان فأسلموا وقالوا : لا ندرى هل يتبعنا قومنا أم لا ؟ لأنهم يحبون بقاء ملكهم وقربهم من قيصر ، فأجازهم

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بجوائز وانصرفوا راجعين إلى قومهم ، فلما قدموا عليهم ولم يستجيبوا لهم كتموا إسلامهم .

٣٠ – وفد سلامان

وفد على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سبعة نفر من سلامان فيهم خبيب بن عمرو السلامانى فأسلموا ، قال خبيب ؓ : صادفنا رسول الله خارجاً من المسجد إلى جنازة دعى إليها ، فقلنا : السلام عليك يارسول الله ، فقال : وعليكم من أنتم ؟ قلنا : نحن من سلامان قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال : أنزل هؤلاء ، قال خبيب : قلت يارسول الله ما أفضل الأعمال ؟ قال :الصلاة في وقتها،وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر ثم شكوا له ﴿ ﷺ وآله﴾ جدب بلادهم ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيده : اللهم اسقهم الغيث في بلادهم ، فقلت : يارسول الله ارفع يديك فإنه أكثر وأطيب ، فتبسم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ورفع يديه حتى رأيت بياض أبطيه،ثم قام وقمنا معه ثلاثة أيام وضيافته تجرى علينا ، ثم ودعناه وأمر لنا بجوائز ، فأعطانا لكل واحد منا خمس أواق فضة ، واعتذر إلينا بلال ؓ وقال : ليس عندنا اليوم مال ، فقلنا : ما أكثر هذا وأطيبه ، ثم رحلنا إلى بلادنا فوجدناها قد مطرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

٣١ – وفد بنى عبس

وفد على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثلاثة من بنى عبس فقالوا : يارسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواشي هي معاشنا فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا عن آخرنا ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم ، أي ينقصكم ، من أعمالكم شيئاً .

وسألهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن خالد بن سنان هل له عقب ؟ فأخبروه بأنه لا عقب له ، كانت له ابنة فانقرضت ، وأنشأ رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يحدث أصحابه عن

خالد بن سنان وقال : إنه نبي ضيعه قومه ولكن ورد (ليس وبيني وبين عيسى نبي) ويمكن الجمع بأن معنى هذا ليس بيني وبينه نبي مرسل ، فلا ينافى أن خالداً نبي غير مرسل.

٣٢ – وفد مزينة

وهي قبيلة تنسب إلى مزينة امرأة عمرو بن أدين طابخه بن إلياس بن مضر ، روى البيهقى عن النعمان بن مقرون المزني ﷺ قال : قدمنا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أربعمائة رجل . وفى رواية غير النعمان : أن فيهم رجالاً من جهينة ، فلما أردنا أن ننصرف قال القوم : يارسول الله مالنا من طعام نتزوده ، فقال : ياعمر زود القوم ، قال : ما عندي ما أزودهم به إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من إلى القوم موقعاً ، قال : انطلق فزودهم، فانطلق بهم فأدخلهم مترله ثم صعدهم إلى علية ، قال عمر ﷺ : فلما دخلنا إذا فيها من التمر الجمل الأورق ، فأخذ . القوم منه حاجتهم .

قال النعمان : وكنت في آخر من خرج فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها ، ففي هذا معجزة له ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن التمر كان قليلا فزاد القليل حتى أخذوا منه كفايتهم واستمر على زيادته ، وفى رواية : وقد احتمل منه أربعمائة وكأنا لم نرزاه ، أي : ننقصه.

٣٣ – وفد الأشعريين

قوم أبي موسى الأشعري ﷺ وهم منسوبون إلى أشعر ابن أدد وفدوا عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ في سنة سبع عند فتح خيبر مع أبي موسى الأشعري ﷺ . وعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة ، وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والحكمة يمنية ، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في أهل الإبل .

عن عمران بن حصين قال : جاءت بنو تميم إلى رسول الله فقال : أبشروا يابنى تميم ، فقالو : أما إذا بشرتنا فأعطنا ، فتغير وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فجاء ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى إذ لم تقبلها بنو تميم ، فقالوا : قبلنا يارسول الله .

وهذا مما يدل على فضل وفد اليمن وليس فيه تعرض لوقت وفودهم ، لأن الأشعرين وفدوا قبل قدوم تميم فإنهم قدموا صحبة أبي موسى الأشعري في صحبة جعفر بن أبي طالب وأصحابه المهاجرين الذين كانوا بالحبشة .

٣٤ – وفد دوس

وهم قوم أبي هريرة ﷺ ينتهي نسبهم إلى الأزد وكان قدومهم بخيبر سنة سبع ، قال ابن إسحق : كان الطفيل بن عمرو الدوسى ﷺ يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بها قبل الهجرة ، فمشى إليه رجال من قريش – وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا كثير الضيافة – فقالوا له : إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا فرق جماعتنا، وشتت آراءنا ،وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا من الكلام فلا تكلمه ولا تسمع منه ، قال : فوالله مازالوا بي حتى عزمت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذني حين غدوت إليه كرسفا ، أي : قطنا ، فرقا من أن يبلغني شيء ، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريبا منه ، فأبى الله أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا فقلت : وأثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان ما يقول حسنا قبلت ، وإن كان قبيحا تركت ، قال : فمكثت حتى . أتى عليه الصلاة والسلام إلى بيته فتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يامحمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكر سف لأجل أن لا أسمع قولك ، ثم أبى الله

إلا أن يسمعنيه فسمعت قولا حسنا ، فرد الله كيدهم في نحورهم ، وقلب مكرهم عليهم ، فأعرض على أمرك ، فعرض على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الإسلام وتلا على القرآن ، قال : فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

اللهم اجعل له آية

وقلت : يارسول الله إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية فقال : اللهم اجعل له آية . وفى رواية : اللهم اجعل له نوراً ، قال الطفيل : فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عيني مثل الصباح فقلت : اللهم في غير وجهي إني أخشى أن يقولوا إنها مثله وقعت في وجهي لفراقي دينهم ، فوقع في رأس سوطي فكان يضيء كالقنديل في الليلة المظلمة فكان يسمى ذا النور ، فرأى قومه ذلك النور وهو مقبل عليهم ، قال : فلما أصبحت فيهم جاءني أبي وكان شيخاً كبيراً ،فقلت : إليك عنى ياأبت فلست منى ولست منك ،قال و لم يابنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال : يابنى فديني دينك ، قال : فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أ علمك ما علمت ، قال : فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتنى صاحبتي – يعنى زوجته – فقلت لها : إليك عنى فلست منى ولست منك ،قالت : ولم ؟ قلت : فرق الإسلام بيني وبينك ، أسلمت وتبعت محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ ،قالت : فديني دينك ،ثم أمرها فذهبت فاغتسلت وجاءت فعرض عليها الإسلام فأسلمت ،ثم دعا دوساً إلى الإسلام فأجابه أبو هريرة ؓ وأبطأ الباقون ، قال : فجئت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بمكة وقلت : يارسول الله قد غلبني على دوس الزنا ، أي : حبهم له ، وعلمهم بأنهم إن أسلموا منعوا منه ،فادع الله عليهم فقال ﴿ﷺ وآله﴾ اللهم اهد دوسا وائت بهم ثم قال : ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم ، فرجعت إليهم

فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله حتى هاجر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة، ثم قدمت على النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو بخيبر .

فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً وكانوا في العدد أربعمائة ، ثم لحقنا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بخيبر ، فلما رآهم النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : مرحبا بأحسن الناس وجوها ، وأطيبهم أفواها ، أي : كلاما، وأعظمهم أمانة .

روى البيهقى عن أبي هريرة ﷺ قال : قدمنا المدينة ونحن ثمانين بيتا من دوس فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفارى ، فقرأ في الركعة الأولى سورة مريم ، وفى الأخيرة بويل للمطففين ، فلما قرأ إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، قلت : تركت عمى له مكيالان إذا اكتال اكتال بالأوفى ، وإذا كال كال بالناقص .

فلما فرغنا من صلاتنا قال قائل : رسول الله بخيبر وهو قادم عليكم ، فقلت : لا أسمع به في مكان أبدا إلا جئته ، فزودنا سباع وجئنا خيبر فنجده قد فتح النطاة ، وهو محاصر الكتيبة فأقمنا حتى فتح الله علينا فأسهم لنا مع المسلمين . ويروى أن الطفيل بن عمرو ﷺ قال : لم أزل مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى إذا فتح الله عليه مكة قلت: يارسول الله ابعثني إلى صنم عمرو بن حمة – يعنى صنم دوس– حتى أحرقه ، فبعثه فهدمه ثم أوقد النار عليه وهو يقول : ياذا الكعبين لست من عبا دكا . . ميلادنا أقدم من ميلا دكا . . إني حشوت النار في فؤادكا . . ثم رجع فكان مع المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى قبض ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين حتى فرغوا من قتال أهل الردة من أهل اليمامة وغيرهم ، و كان وهو متوجه إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو رأى رؤيا فقال لأصحابه : إني رأيت رؤيا فاعبروها لي، إني رأيت أن رأسي قد حرق وأنه خرج من فمي طائر ولقيتني امرأة فأدخلني في فرجها ، وإن ابني يطلبني طلبا حثيثا ثم رأيته حبس عنى قالوا : خيرا ، قال : أما فقد أولتها ، قالوا : بماذا ؟ قال :أما حلق رأسي فوصفه ، وأما

الطائر الذي خرج من فمي فروحي ، وأما المرأة التى أدخلتني في فرجها فالأرض تحفر لي فأغيب فيها ، وأما طلب ابنى إياي ثم حبسه عنى فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني ، فاستشهد الطفيل باليمامة وجرح ابنه جراحة شديدة ثم شفى منها ، ثم استشهد عام اليرموك زمن عمر بن الخطاب ﵁ .

وقال بعض أهل المغازى : إن الطفيل استشهد باليرموك ، جزم بهذا ابن حبان ، وقال موسى بن عقبة : استشهد بأجنا دين .

وأخرج البغوى عن الطفيل بن عمرو الدوسى ﵁ قال : أقرأني أبى بن كعب القرآن فأهديت له فرسا .

٣٥ – وفد طارق بن عبد الله المحاربى ﵁

روى البيهقى عن جامع بن شداد المحاربي قال : حد ثنى رجل يقال له طارق ابن عبد الله المحا ربى قال : إني لقائم بسوق ذى المجاز – وكان على فرسخ من عرفة بناحية كبكب – إذ أقبل رجل فسمعته وهو يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه ، يقول : ياأيها الناس أنه رسول الله ، قلت من هذا الذي يفعل به هذا الأذى ؟ قالو : عمه عبد العزى أبو لهب .

قال :فلما أسلم الناس وهاجروا خرجنا من الربذة – وهى موضع معروف به قبر أبي ذر ﵁ نريد المدينة نمتا ر من تمرها ،فلما دنونا من حيطانها ونخلها قلنا : لو نزلنا فلبسنا ثيابا غير هذه فإذا رجل في طمرين له فسلم وقال : من أين أقبل القوم ؟ قلنا: من الربذة ، قال :وأين تريدون ؟ قلنا : نريد المدينة، قال : ما حاجتكم فيها ؟ قلنا :نمتار من تمرها ، قال طارق بن عبد الله :ومعنا ظعينة لنا ومعنا جمل أحمر مخطوم ، فقال : أتبيعوني جملكم هذا ؟ قلنا: نعم بكذا وكذا صاعا من تمر ، فأخذ بخطام الجمل فانطلق به فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها قلنا : ما صنعنا والله ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمنا فعرضناه للضياع ، قال طارق : فقالت المرأة التى معنا والله لقد رأيت

رجلا كأن وجهه قطعة القمر ليلة البدر أنا ضامنة لثمن جملكم. وفى رواية قالت الظعينة: فلا تلاوموا ، أي : لا يلم بعضكم بعضا ، لقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم ، ما رأيت شيئا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه ، فلما كان العشى أتانا رجل فقال : أنا رسولُ رسولِ الله ﴿ﷺ وآله﴾ إليكم هذا تمركم الذي بعتم به جملكم ، فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا ، أي : فلا تسامحوا في الكيل في مقابلة أكلكم ، قال : فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا واستوفينا حتى دخلنا المدينة ، فلما دخلنا المسجد إذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته وهو يقول : تصدقوا فإن الصدقة خير لكم ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول أمك فأباك ، وأختك وأخاك ، وأدناك فأدناك ، فقام رجل من الأنصار فقال : يارسول الله هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع قتلوا فلانا في الجاهلية فخذ لنا بثأرنا ، فرفع ﴿ﷺ وآله﴾ يده حتى رأيت بياض إبطيه فقال : لا تجنى أم على ولد مرتين ، وأسلم القوم على يديه ﴿ﷺ وآله﴾ ثم رجعوا إلى أهلهم رضي الله عنه .

٣٦- وفد بهراء

قبيلة من قضاعة ' روى الواقدى عن كريمة بنت المقدام قالت : سمعت أمي ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب تقول : قدم وفد بهراء من اليمن وكانوا ثلاثة عشر رجلا فأقبلوا يقودون رواحلهم ، فلما انتهوا إلى باب المقداد ونحن في منازل الأنصار خرج إليهم المقدام فرحب بهم وقدم لهم جفنة من حيس، وهو تمر يعجن بسمن وأقط،فأكلوا منها حتى نهلوا، وردت القصعة وفيها شيء فجمع في قصعة صغيرة فأرسل بها إلى رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ مع سدرة مولاة ضباعة ،وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها فأصاب منها هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، ثم قال :اذهبي بما بقى إلى ضيفكم فرجعت بها فأكل منها الضيف ما أقاموا، أي : مدة إقامتهم، يرددون ذلك عليهم وما تنقص،

فجعلوا يقولون للمقداد : ياأبا معبد إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين ، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأنه أكل منها وردها فإن هذه بركة أصابعه ﴿ﷺ وآله﴾ فجعل القوم يقولون : نشهد أنه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وازدادوا يقينا وذلك الذي أراد ﴿ﷺ وآله﴾ .

فأظهروا الإسلام ونطقوا بالشهادتين ، وتعلموا الفرائض ، وأقاموا أياما ، ثم ودعوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأمر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهليهم باليمن ﵁ .

٣٧ – وفد غامد قبيلة من الأزد باليمن

قدم عليه ﴿ﷺ وآله﴾ سنة عشر ،عشرة من غامد فنزلوا في بقيع الغر قد وفيه يومئذ أثل وطر فاء ثم انطلقوا إلى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وخلفوا أصغرهم في رحالهم فأقروا بالإسلام وسلموا على النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وكتب لهم كتابا فيه شرائع الإسلام ، وقال لهم النبي

﴿ﷺ وآله﴾ : من خلفتم في رحالكم ؟ قالوا : أحدثنا سنا ، قال : فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم ، فقال أحدهم : ما لأحد عيبة غيري ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : قد أخذت وردت إلى موضعها ، فخرجوا حتى أتوا رحلهم فسألوا الذي خلفوه فقال :فزعت من نومي ففقدت العيبة فقمت في طلبها ، فإذا رجل كان قاعدا فثار يعدو مني فانتهيت إلى حيث ينتهي ، فإذا أثر حفر وإذا هو قد غيب العيبة فاستخرجتها ، فقالوا : نشهد أنه رسول الله ، فإنه قد أخبرنا خبرها وأنها قد ردت ، فرجعوا وأخبروه ﴿ﷺ وآله﴾ وجاء الغلام الذي خلفوه فأسلم ، وأمر النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أبي ابن كعب أن يعلمهم قرآنا ، ثم أجازهم كما يجيز الوفود وانصرفوا إلى بلادهم ﵁ .

٣٨ – وفد الأزد

قدم عليه ﴿ﷺ وآله﴾ قوم من الأزد ينسبون إلى جدهم الأعلى وهو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

حكماء علماء والنبي ﴿ﷺ وآله﴾ زادهم

روى أبو نعيم عن سويد بن الحارث الأزدى ﵁ قال : وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا فقال : ما أنتم ، أي : ما صفتكم ؟ قلنا : مؤمنون ، فتبسم ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : إن لكل قول حقيقة ، قال : فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ قلنا : خمس عشرة خصلة ، خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلفنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره شيئا منها فنتركه . فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : وما الخمس التى أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بها ؟ قلنا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت .

قال : وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قلنا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله ، أي : مع محمد رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا .

قال وما الخمس الذي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق في موطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : حكماء علماء ، أي : هم حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء .

ثم قال : وأنا أزيد كم خمسا فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون ، أى متصفين بالخمس عشرة التى ذكرتم (فلا تجمعوا مالا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا

تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه زائلون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون) .

فانصرفوا وقد حفظوا وصيته ﴿ﷺ وآله﴾ وعملوا بها توفيقا من الله تعالى ببركته ﴿ﷺ وآله﴾ .

٣٩ – وفد بنى المنتفق

وهى قبيلة من عامر بن صعصعة، قدم عليه ﴿ﷺ وآله﴾ جماعة من بنى المنتفق وفيهم لقيط ابن عامر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق قال: فوافيناه حتى انصرف من صلاة الغداء ، أي : الصبح ، فقام في الناس خطيبا ، فلما فرغ قلت : يارسول الله علام نبايعك ؟ فبسط ﴿ﷺ وآله﴾ يده وقال : على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن لا تشركوا بالله شيئا ، قال : قلت يارسول الله وإن لنا ما بين المشرق والمغرب، فقال : تحل منها حيث شئت ولا يجنى عليك إلا نفسك ، فلما انصرفنا عنه قال : إنهم من أتقى الناس لله في الدنيا والآخرة ، فقال له بعض أصحابه : من هم يارسول الله ؟ قال : بنو المنتفق . . قالها ثلاثا.

٤٠ – وفد النخع

بفتح النون والخاء المعجمة قبيلة من اليمن ، وهم آخر وفود الإنس عليه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان وفودهم سنة إحدى عشرة في النصف من المحرم ، وفد على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مائتا رجل من النخع مقرين بالإسلام ، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل ﵁ فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو : يارسول الله إني رأيت في سفري هذا عجبا . وفى رواية : رأيت رؤيا هالتني ، قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت أتانا نركبها في الحي ولدت جديا ، أي : وهو ولد المعز ، أسفع أحوى ، والأسفع الذي سواده مشرب بحمرة ، والأحوى الذي ليس شديد السواد ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :هل تركت لك

أمة مصرة على حمل ؟ قال : نعم ، قال : فإنها قد ولدت غلاما وهو ابنك ، فقال : يارسول الله فما له أسفع أحوى ؟ قال : ادن مني ، فدنا منه فقال : هل بك برص تكتمه ؟ قال : فو الذي بعثك بالحق ما علم به أحد ولا اطلع عليه غيرك ، قال : هو ذاك ، قال : يارسول الله ورأيت النعمان بن المنذر ، أي : وهو ملك العرب ، وعليه قرطان – والقرط ما يكون في شحمة الأذن – ودملجان – بضم الدال وضم اللام وفتحها – ومسكتان – بفتح الميم والسين المهملة – قال : ذلك ملك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته ، قال : يارسول الله ورأيت عجوزا شمطاء ، أي : يخالط شعر رأسها الأبيض شعر أسود خرجت من الأرض ، قال : تلك بقية الدنيا ، قال : ورأيت نارا خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو ، وهي تقول : لظى لظى بصير وأعمى أطعموني آكلكم وأهلكم ومالكم ، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : تلك فتنة تكون في آخر الزمان ، قال : يارسول الله وما الفتنة ؟ قال : يقتل الناس إمامهم ويشجرون اشتجار أطباق الرأس ، أي : يشتبكون في الفتنة اشتباك أطباق الرأس ، وخالف رسول الله بين أصابعه ، يحسب المسيء فيها أنه محسن ، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أسهل . وفى رواية :أحلى من شرب الماء ،وإن مات ابنك أدركت الفتنة ، وإن مت أنت أدركها ابنك ، قال : يارسول الله أدع الله أنى لا أدركها ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اللهم لا تدركها إياه فمات وبقى ابنه عمرو ولم يجتمع به ﴿ ﷺ وآله﴾ فهو تابعي ، وكان ممن خلع سيدنا عثمان رضي الله عنه.

وفى رواية :أن النخع بعثوا رجلين أرطاة بن شرحبيل من بنى حارثة، والأرقم من بنى بكر إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بإسلامهم فلما قدما على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعرض عليهما الإسلام فقبلاه فبايعاه على قومهما ، وأعجب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ شأنهما وحسن هيئتهما وقال لهما : خلفتما وراء كما من قومكما مثلكما ، قالا : يارسول الله قد خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلا كلهم أفضل منا ، وكلهم يقطع

الأمر وينفذ من الأشياء ما يشاء ، فدعا لهما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولقومهما بخير ،وقال : اللهم بارك في النخع ، وعقد لأرطاة لواء على قومه فكان في يده يوم الفتح ، وشهد به القادسية وقتل يومئذ .

لكن قوله كان في يده يوم الفتح لا يناسب ما تقدم أن وفد النخع كان قدومه في المحرم سنة إحدى عشرة ، إلا أن يقال : إن هذين وفدا قبل وفود النخع .

٤١ – وفد الجن

ما بعث الله رسولا من الرسل قبل سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ إلا ليعلم الإنس شريعة الله ،ولم يكن ذلك ممكنا له بالنسبة للجن ، فكان الله يرسل رجلا من الجن يعلمهم الشريعة التى يعلمها الرسول إلى الإنس .. حتى بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين

﴿ﷺ وآله﴾ ، وخصه بخصوصية لم تكن لرسول من قبله ﴿ﷺ وآله﴾ وهى أن يعلم الإنس والجن كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن : ١ ، ٢) .

وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (أرسلت إلى الإنس والجن) ، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلو أرسل معه رجل يعلم الجن شريعة الإسلام لختمت النبوة والرسالة برسولين ، ولم يتحقق الختم لسيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وحده وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يتمثل بصورهم حين يلتقي بهم ، وهذا من عظيم معجزاته ﴿ﷺ وآله﴾ .

قال أبو نعيم : إسلام الجن ووفادهم على النبي ﴿ﷺ وآله﴾ كوفادة الإنس فوجا بعد فوج ، وقبيلة بعد قبيلة بمكة وبعد الهجرة .

وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال : إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه وتركت ، فأخذني رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى حجرة أم سلمة ثم انطلق بي حتى

أتينا بقيع الغر قد فخط بعصاه خطة ثم قال : اجلس فيها ولا تبرح حتى آتيك ، ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل حتى إذا كان من حيث أراه ثارت مثل العجاجة السوداء ففرقت فقلت : ألحق برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإني أظن هذه هوازن مكروا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليقتلوه ،فأسعى إلى البيوت فأستغيث بالناس ، فذكرت أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أوصاني أن لا أبرح مكاني الذي أنا فيه ، فسمعت رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يقرعهم بعصاة ويقول : اجلسوا فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح ، ثم ثاروا وذهبوا فأتاني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : أولئك وفد الجن سألوني المتاع والزاد فمنعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعر ، فلا يجدون عظما إلا وجدوا علية لحمه الذي كان عليع يوم أكل ،ولا روثة ٕإلا وجدوا فيها حبها الذي كان فيها يوم أكلت .

وأخرج أبو نعيم عن الزبير بن العوام قال : صلى بنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف قال : أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة ؟ فخرجت معة حتى خفيت عنا جبال المدينة كلها ، وأفضينا إلى أرض براز ، فإذا رجال طوال كأنهم الرماح مستذفرى ثيابهم من بين أرجلهم ، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة حتى ما تمسكني رجلاى من الفرق ،فلما دنونا منهم خط لي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خطا ، فقال لي : اقعد في وسطه ، فلما جلست ذهب عنى كل شئ كنت أجدة من ريبة ، ومضى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بيني وبينهم فتلا قرآنا وبقوا حتى طلع الفجر ،ثم أقبل فقال لي : الحق فمشيت معة فمضينا غير بعيد فقال لي : التفت وانظر هل ترى حيث كان أولئك من أحد ؟ فقلت : أرى سوادا كثيرا ، فخفض رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ رأسه إلى الأرض فنظم عظما بروثة ثم رمى بها إليهم وقال : إنهم سألوني الزاد فجعلت لهم كل عظم وروثة

وأخرج أبو نعيم عن أبي هريرة قال : خرجت مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : ابغني أحجارا استنفض بها ولا تأتي بعظم ولا بروثة ، فقلت :يا رسول الله ما بال العظم والروثة ؟ قال : إنه قد جاءني وفد جن نصيبين من الشام – ونعم الوفد – فسألوني الزاد فدعوت لهم أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليه طعاما .

وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدرى أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : إن بالمدينة نفرا من الجن قد أسلموا ، فمن رأى من هذه العوامر شيئا فليؤذنه ثلاثة أيام ، فإن بدا له بعد ثلاث فليقتله فإنه شيطان .

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ جاءته وفود الجن من الجزيرة فأقاموا عند النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ما بدا لهم ، ثم أرادوا الرجوع إلى بلادهم فسألوه أن يزودهم فقال : ما عندي ما أزودكم ولكن اذهبوا فكل عظم مررتم به فهو لكم لحما غريضاَ ، أي طرياَ : وكل روث مررتم به فهو لكم تمر ، فلذلك نهى أن يستنجى بالروث والرمة .

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس قال : خرج رجل من خيبر فتبعه رجلان وآخر يتلوهما يقول : ارجعا ، حتى أدركهما فردهما ، ثم لحق الرجل فقال له : إن هذين شيطانان ، وإني لم أزل بهما حتى رددتهما عنك فإذا أتيت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأقرئه السلام وأخبره أنا في جمع صدقاتنا ولو كانت تصلح له لبعثنا بها إليه ، فلما قدم الرجل المدينة أتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فاخبره ، فنهى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند ذلك عن الخلوة .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال بلال بن الحارث : نزلنا مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في بعض أسفارنا العرج فلما قاربته سمعت لغطا وخصومة رجال لم أر أحد من ألسنتهم قط فوقفت حتى جاء النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يضحك فقال : اختصم عندي الجن المسلمون والجن

المشركون فسألوني أن أسكنهم ، فأسكنت المسلمين الجلس ، وأسكنت المشركين الغور . وقال كثير : الجلس القرى والجبال ، والغور مابين الجبال والبحار ، قال كثير : وما رأيت أحدا أصيب بالجلس إلا سلم ، ولا أصيب بالغور إلا لم يكد يسلم .

وأخرج الخطيب في رواة مالك عن جابر بن عبد الله قال : رأيت من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثلاثة أشياء لو لم يأت بالقرآن لآمنت به ، تصحرنا في جبانة تنقطع الطرق دونها فأخذ النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ الوضوء ، ورأى نخلتين متفرقتين فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياجابر اذهب إليهما فقل لهما : اجتمعا ، فاجتمعا ، حتى كأنهما أصل واحد ، فتوضأ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فبادرته بالماء وقلت : لعل الله أن يطلعني على ما خرج من جوفه فآكله ،فرأيت الأرض بيضاء فقلت : يارسول الله أما كنت توضأت ؟ قال: بلى ، ولكنا معشر النبيين أمرت الأرض أن توارى ما يخرج منا ، ثم افترقت النخلتان . فبينما نسير إذ أقبلت حية سوداء – ثعبان ذكر – فوضعت رأسها في أذن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ووضع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فمه على أذنها فناجاها ، ثم لكأنما الأرض قد ابتلعتها فقلت : يارسول الله لقد أشفقنا عليك ، قال : هذا وفد الجن نسوا سورة فأرسلوه إلى ففتحت عليهم القرآن . ثم انتهينا إلى قرية فخرج إلينا فئام من الناس مع جارية كأنها فلقة القمر حين تمحى عنه السحاب حسناء مجنونة فقال أهلها : احتسب فيها يارسول الله ، فدعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال لجنيها : ويحك أنا محمد رسول الله خل عنها فتنقبت واستحيت ورجعت صحيحة .

حجة الوداع

لم يخرج ﴿ﷺ وآله﴾ من المدينة للحج إلا لهذه الحجة ، ولذا يقال عنها حجة الوداع أو البلاغ لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ ودع الناس فيها ، وذكر لهم ما يحل وما يحرم ،وقال لهم : هل بلغت ؟ .

وقد فرض الحج في سنة ستة من الهجرة ،وقيل : سنة عشرة من الهجرة ، خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يريد الحج وأخبر الناس بذلك ، وهو ﴿ﷺ وآله﴾ لم يحج منذ هاجر إلى الدينة إلا هذه الحجة وقيل : إنه ﴿ﷺ وآله﴾ حج بعد النبوة من مكة حجتين أو ثلاث حجج ، وفى كلام ابن الأثير أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر ، وقال ابن الجوزى : إنه ﴿ﷺ وآله﴾ حج قبل النبوة وبعدها حججاً كثيرة لا يعلم عددها سوى الله .

وعند خروجه ﴿ﷺ وآله﴾ للحج أصاب الناس بالمدينة وباء منع كثيراً من الحج معه ﴿ﷺ وآله﴾ ، ورغم ذلك كان معه في الحج أربعين ألفاً. وقيل : كان معه سبعين ألفاً . وقيل : تسعين ألفاً . وقيل : مائة وأربعة عشر ألفاً . أو وعشرين ألفاً . وقال ﴿ﷺ وآله﴾ عند خروجه أو عند عودته : عمرة في رمضان تعدل حجة معي .

وخرج المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة ، وقبل يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة ، سنة عشرة من الهجرة نهاراً بعد أن صلى الظهر بالمدينة وصلى عصر ذلك اليوم بذي الحليفة ركعتين ، وطاف تلك الليلة على نسائه لأنهن كن معه ﴿ﷺ وآله﴾ في الهوادج وكن تسعة ،ثم اغتسل ﴿ﷺ وآله﴾ وصلى الصبح والظهر ، ثم طيبته عائشة رضي الله عنها بذريرة – وهى نوع من الطيب مجموع من أخلاط الطيب – وبطيب فيه مسك ،ثم أحرم ﴿ﷺ وآله﴾– وكان ذلك بعد أن اغتسل للإحرام غير الغسيل الأول – في رداء وإزار ولم يغسل الطيب بل كان يرى وبيص المسك في مفرقه ولحيته الشريفة .

وصلى﴿ ﷺ وآله﴾ كما في الصحيحين عن ابن عمر رضىالله عنهما ركعتين قبل إحرامه، وأهل حيث انبعثت به راحلته، أي: وهى القصواء، وقد اختلفت الروايات في حجة ﴿ ﷺ وآله﴾ في حجة الوداع هل كان مفردا أو قارنا أومتمتعا،وكلها صحاح إلا من قال: إنه متمتع وأراد أنه أهل بعمرة.

وفى صحيح البخاري أنه﴿ ﷺ وآله﴾ أهل بالحج فلما كان بالعقيق أتاه آت من ربه فقال: صل بهذا الوادي المبارك وقل: لبيك بحجة وعمرة معا، فصار قارنا بعد أن كان مفردا ، وعن سيدنا أنس ﵁ سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : لبيك عمرة وحجا .

وعن ابن عمر ﵁ أهل فقال : لبيك بحج ولم يذكر العمرة .

وروى الشافعي ﵁ أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج هو وأصحابه ﵁ مهللين ، أي : محرمين إحراما مطلقا ينتظرون أمر الله ، أي : نزول الوحي ، لتعيين ما يعرفون إحرامهم المطلق إليه أى : بإفراد أو إقران أو تمتع ، فجاءه ﴿ ﷺ وآله﴾ الوحي أن يأمر من معه هدى أن يجعل إحرامه عمرة فيكون متمتعا ، ومن لا هدى معه أن يجعله حجا فيكون مفردا .

ولما نزلو بمحل يقال له العرج فقد البعير الذي عليه زاملته ﴿ ﷺ وآله﴾ وزاملة أبى بكر ، أي : زادهما ، وكان ذلك البعير مع غلام لأبى بكر ﵁ فقال للغلام : أين بعيرك ؟.

فقال : ضللته البارحة ، فقال أبو بكر – وقد اعترته حدة – : بعير واحد تضله وأخذ يضربه بالسوط ، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع ويبتسم لا يزيد على ذلك ، فلما بلغ الصحابة أن زاملة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقدت جاء أحدهم بحيس ووضعه بين يديه ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياأبا بكر هون عليك فإن الأمر ليس لك ولا إلينا ، وقد كان الغلام حريصا على أن لا

يضل بعيره ، وهذا غذاء طيب قد جاء الله به ، وهو خلف عما كان معه ، فأكل ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبو بكر ومن كان يأكل معهما حتى شبعوا ، فأقبل صفوان بن المعطل ﵁ وكان على ساقة القوم والبعير معه وعليه الزاملة حتى أناخه بباب منزله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولما بلغ سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما أن زاملته ﴿ ﷺ وآله﴾ قد ضلت ، جاءا بزاملة وقالا ، أي : كل واحد منهما : يارسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة وهذه زاملة مكانها ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : قد جاء الله بزاملتنا فارجعا بزاملتكم بارك الله لكما . ونزل رسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بذي طوى فبات بها الليلة وصلى الصبح بعد أن اغتسل بها ، ثم سار ﴿ ﷺ وآله﴾ ونزل بالمسلمين ظاهر مكة ودخل مكة نهارا وقت الضحى ، من الثنية العليا التى هى ثنية كداء ، ودخل المسجد الحرام من باب عبد مناف وهو باب بنى شيبة المعروف الآن بباب السلام ، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا رأى البيت قال : (اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا ، وزد فى شرفه وكرمه ، ومن حجه أو اعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما وبرا) .

وعند دخوله ﴿ ﷺ وآله﴾ المسجد طاف بالبيت سبعا ماشيا ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : دخلنا مكة عند ارتفاع الشمس فأتى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ باب المسجد فأناخ راحلته ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر الأسعد فاستلمه وفاضت عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا ، فلما فرغ ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه .

ثم بعد الطواف صلى ﴿ ﷺ وآله﴾ ركعتين عند مقام سيدنا إبراهيم ﵇ ، جعل المقام بينه وبين الكعبة ، ودخل زمزم فنزع له دلو فشرب منه ثم مج فيه ثم أفرغها فى زمزم ، ثم رجع إلى الحجر الأسعد فاستلمه .

ثم خرج إلى الصفا وقرأ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ ﴾ (البقرة : ١٥٨) .

فسعى بين الصفا والمروة سبعا راكبا على بعيره .

ثم أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ من معه الهدى بالإحلال ، وأمر ﴿ ﷺ وآله﴾ من لا هدى معه أن يبقى على إحرامه ، أي : بالحج قارنا أو مفردا . وكان من جملة من ساق الهدى أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وعلى كرم الله وجهه .

وفى يوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى منى ومعه الناس ، وأحرم بالحج كل من كان أحل ، فصلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنى وبات بها تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة ، وصلى بها الصبح ، ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة وأمر ﴿ ﷺ وآله﴾ أن تضرب له قبة من شعر بنمرة ، فأتى ﴿ ﷺ وآله﴾ عرفة ونزل في تلك القبة حتى زالت الشمس ، فأمر بناقته القصواء فرحلت ثم أتى بطن الوادي فخطب على راحلته .

خطبة الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ في حجة الوداع

وإليك القسطاس المستقيم ، والبيان الحكيم ، وهو خطبة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في حجة الوداع التى هى أم كتاب أسرار الإسلام ، وسور الأمن وحصن الأمان للمسلمين ، والشفاء الحقيقي لكل الأمراض ، وها هى بنصها وفصها :

(إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذي هو خير .

أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ، فإني لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا

عمى العباس بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ففيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ﴾ (التوبة :٣٧) . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا ، لكم عليهن أن لا يواطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر . من دعى لغير أبيه أو تولى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

من تدبر معانيها ، وأمعن النظر في مبانيها ، وتناول بروحه من طهور شرابها ، يظهر له الحق جليا ، والهدى بينا لا خفيا ، ويحكم حكما عدلا أن الإسلام هو الوطن الذي يجب أن يحمى حماه ، ويوالى من والاه ، ويعادى من عاداه ، ويبذل كل مسلم النفس والنفيس لإعلائه ، وتجديد سننه حتى يظهره الله على الدين كله ، ولو كره المشركون . به السعادة والعز والسلطان في الدنيا ، ونيل الخير الحقيقي والمجد الأبدي في الدار الآخرة ، ومن تساهل فيه أو تهاون ، فكأنما انحط من السماء ، فتهوى به الريح في مكان سحيق ، وتخطفه الشياطين . وإن ظن – لسوء فهمه وظلمة عقله – أنه ينال بسبب تفرقة الجماعة في الدين ، أو التقرب لأعداء وطنه العزيز الذي هو الإسلام فإنما ذلك عز يتخيله حيوان ، يؤكل لحمه ، يعتني مالكه بغذائه وشرابه ليسمن فيذبحه ، ولو علم الحيوان الأعجم سر عناية الإنسان بأكله وشربه ، والمحافظة عليه من السباع لألف السباع ، واستوحش من بنى الإنسان .

ولكن الإنسان قد تبلغ به الجهالة إلى حالة ينحط فيها عن الحيوان الأعجم ، فيفرح بزهرة عاجلة يعقبها الذل الأبدي ، والعذاب السرمدي ، وسخط رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وجاء أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أمر مناديا صار ينادى بكل ما قاله وهو ربيعة بن أمية بن خلف . .

النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يكمل المناسك

ولما تم ﴿ ﷺ وآله﴾ خطبته أمر بلا لا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا فصلاهما مجموعين في وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين . ثم ركب ﴿ ﷺ وآله﴾ راحلته إلى أن أتى الموقف فاستقبل القبلة ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب ، واستمر كذلك حتى غربت الشمس .

ونزلت : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة : ٣) . يوم . الجمعة بعد العصر والنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ واقف بعرفات على ناقته فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحي .

ولما نزلت بكى عمر رضي الله عنه فقال له النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : ما يبكيك ياعمر ؟ فقال رضي الله عنه : أبكاني أنا كنا في زيادة أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص ، فقال : صدقت ، فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه انتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى بثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، ولم يترل بعدها شيء من الأحكام . ثم أردف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أسامة بن زيد رضي الله عنه خلفه ودفع إلى مزدلفة وقد ضم زمام راحلته التي خطب عليها في نمرة حتى أن رأسها ليصيب طرف رجليه ، وهو يأمر الناس بالسكينة ، فلما كان الطريق عند الشعب الأبتر نزل وتوضأ ثم ركب حتى أتى لمزدلفة ، وصلى المغرب والعشاء مجموعين في وقت العشاء ثم اضطجع .

وأذن للنساء والضعفة أن يرموا ليلا ، أي : يذهبوا من مزدلفة إلى منى بعد منتصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة قبل الازدحام .

أخرج أبو يعلى والبيهقى بسند حسنه ابن حجر في (المطالب العالية) عن أسامة ابن زيد قال : خرجنا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الحجة التي حجها حتى إذا كنا ببطن الروحاء نظر إلى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت : يارسول الله هذا ابني ما أفاق من يوم ولدته إلى يومي هذا ، فأخذه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ منها ووضعه

فيما بين صدره وواسطة الرحل ثم تفل في فيه وقال: اخرج ياعدو الله فإني رسول الله ، ثم ناولها إياه وقال : خذيه فلا بأس عليه . قال أسامة : فلما قضى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حجته انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها ثم قال : ناولني ذراعا فناولته ، ثم قال : ناولني ذراعا فناولته ، ثم قال : ناولني ذراعا فقلت : يارسول الله إنما هما ذراعان وقد ناولتك ، فقال : والذي نفسي بيده لو سكتّ مازلت تناولنى ذراعا ما قلت لك ناولنى ذراعا . ثم قال : انظر هل ترى من نخل أو حجارة ، فقلت : قد رأيت نخلات متقاربات ورضماً من حجارة ، قال : انطلق إلى النخلات فقل لهن : إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأمركن أن تدانين لمخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقل للحجارة مثل ذلك ، فأتيتهن فقلت لهن ، فو الذى بعثه بالحق لقد جعلت أنظر إلى النخلات يخددن الأرض خدا حتى اجتمعن ، وأنظر إلى الحجارة يتناقزن حتى صرن رضماً خلف النخلات ، فلما قضى حاجته وانصرف قال : عد إلى النخلات والحجارة فقل لهن : إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأمركن أن ترجعن إلى مواضعكن .

فلما كان وقت الفجر قام ﴿ﷺ وآله﴾ بالناس الصبح مغلساً ، ثم أتى المشعر الحرام فوقف به ، أى : وهو راكب ناقته ، واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وهلل ووحد ، ولم يزل واقفا حتى أسفر ، ثم أنه ﴿ﷺ وآله﴾ دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس

وأردف خلفه الفضل بن العباس ، فلما وصل ﴿ﷺ وآله﴾ إلى محسر حرك ناقته قليلا وسلك طريقه إلى جمرة العقبة فرمى فى أسفلها سبع حصيات ، ثم انصرف ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المنحر بمنى ثلاثا وستين بدنه بعدد سنوات عمره ﴿ﷺ وآله﴾ وطبخ له اللحم من لحمها وأكل منه وأكل الناس ، وفى ذلك جواز الاحتفال بمولده ﴿ﷺ وآله﴾ وإطعام الطعام فيه ، ثم أمر عليا ﴿ﷺ وآله﴾ فنحر ما بقى وهو تمام المائة ، ثم

حلق رسول الله
﴿ ﷺ وآله﴾ رأسه الشريفة ، ثم دعا أبا طلحة الأنصارى فأعطاه شعره ، أى : بعد أن حلقه ، وقال : اقسمه بين الناس ، وفى هذا جواز التبرك بآثاره ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم تطيب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف الإفاضة .

ثم ركب ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى مكة فطاف فى يومه هذا طواف الإفاضة قبل الظهر ،وشرب من زمزم ، ثم رجع ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى منى فصلى بها الظهر ، كما اتفق عليه الشيخان . وقيل : صلاة بمكة ، ونهض ﴿ ﷺ وآله﴾ من منى فى اليوم الثالث بعد الزوال ، ثم إنه دخل مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ثم خرج من الثنية السفلى – ثنية كدى – متوجها إلى المدينة ، ولما وصل إلى ذى الحليفة بات بها لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يكره أن يدخل المدينة ليلا .

وأخرج البيهقى وابن عساكر عن معيقيب اليمانى قال : حججت حجة الوداع فدخلت دارا بمكة فرأيت فيها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ورأيت منه عجبا ، جاءه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ياغلام من أنا ؟ قال : أنت رسول الله ، قال : صدقت بارك الله فيك ، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب فكنا نسميه مبارك اليمامة .

وأخرج البيهقى من طريق الزهرى عن ابن كعب بن مالك قال: لما حج النبى﴿ ﷺ وآله﴾ بعث معاذا إلى اليمن فقدم على أبى بكر من اليمن وقد توفى رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ . وأخرج الخطيب والسيوطى فى خصائصه عن عائشة قالت: حج بنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حجة الوداع فمر بى على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم، ثم ذهب وعاد وهو فرح مبتسم فسألته فقال: ذهبت إلى قبر أمى فسألت الله أن يحييها فآمنت بى وردها الله .

وإيمان والدة المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ مزيد فضل وإكرام له﴿ ﷺ وآله﴾ لأن أبوى النبى عليها السلام كانا من أهل الفترة فلم تبلغهما الرسالة ولم يبعث فى عهدهما نبى، وقد ثبت أهما كانا حنفاء على إبراهيم عليه السلام سيدا إلى جدهم إسماعيل بن إبراهيم.
ويجب اعتقاد أن جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم مؤمنون وأهم فى الجنة مخلدون، وهذا هو الذى نعتقده ونلقى الله عليه،وهو ما أجمعت عليه الكثرة المؤمنة المؤدبة، وقد سئل إمام المالكية أبو بكر بن العربى عن رجل قال: إن أبويه﴿ ﷺ وآله﴾ فى النار، فأجاب بأنه ملعون لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾(الأحزاب: ٥٧) . قال: ولا أذى أعظم من أن يقال إن أباه وأمه فى النار.

معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾

كان العالم أجمع محتاجا إلى رسالته﴿ ﷺ وآله﴾ أكثر من احتياجه إلى رسالات سائر النبيين، لأنكل رسول كان يأتى بعده رسول يقرر ما أتى به الأول أو يتممه، أو يأتى بشرع جديد حتى بعث الله سيدنا محمدا﴿ ﷺ وآله﴾ فختم به نبوة الأنبياء ورسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فنسخ شرعه تلك الشرائع، فكان هو﴿ ﷺ وآله﴾ رسول الأنبياء والمرسلين، ورسول الخلائق أجمعين.

ولذلك كانت معجزاته أكثر وأعظم، وأظهر وأدوم من سائر معجزات النبيين.

والمعجزة هى الأمر العجيب الخارق للعادة، الذى يعجز البشر عن الإتيان بمثله، يظهره على يد أنبيائه المرسلين منه إلى الناس كافقة

هذا وأمر المعجزة فيه غرابة عن العقل، ولكن هذه الغرابة تزول إذا علم الإنسان أن ذلك شأن من شئون الله تعالى القادر على كل شيء، والذى لا يعجزه شيء أبدا، إذ أن قدرته لا تقاس على قدرة البشر. فقدرة الله تعالى ليس فيها عجب،ولا تقاس بأحكام العقل، لأنها فوق حكم العقل.

وليست للمعجزة أسباب أو مقدمات، لأنها تظهر بمحض القدرة عند التحدى، وكيف يتأتى للعقل أن يحكم على المعجزة وهو مخلوق لمن أوجب المعجزة وهو الخالق.

ومعجزاته وفضائله﴿ ﷺ وآله﴾ لا تحصى عدا، ولم ترد لأحد من الأنبياء والمرسلين السابقين معجزة إلا ورد له ﴿ ﷺ وآله﴾ ما هو أعظم منها أو مثلها. وقد انقضت معجزاتهم بانقضائهم وله﴿ ﷺ وآله﴾ المعجزات الباقية.

ومن ذلك كرامات أولياء أمته ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنها كلها معجزات له وهي مستمرة الوقوع، وقلما يخلو مسلم من مشاهدة شيء من هذه الكرامات، وكثيرا ما يشاهد بعض المنكرين كراماتهم ولا يؤمنون بولايتهم وشأنهم فى ذلك شأن الذين كانوا يشاهدون معجزات النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ولا يؤمنون به.

فكراماتهم ﵁ هى فروع معجزاته﴿ ﷺ وآله﴾ ، كما أنهم بمترلة فروعه أيضا، فلا بد أن يحصل لهم ولكراماتهم حظ ونصيب- كما حصل له ولمعجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ – من إنكار أهل الإنكار ومكابرة أهل العناد.

وقد تناقل معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ أئمة أمته فى جميع الأزمنة والأمكنة، ودونوها فى الكتب ونشروها فى جميع البلاد.

وهؤلاء يذكرون ما يذكرون بالأسانيد المعروفة، والطرق المتعددة، وكتبهم كبيرة يشتمل الواحد منها على مجلدات كثيرة. وهذه الكتب جميعها ندر وجودها وقل تداولها فى عصرنا هذا لطوها وكثرة الأسانيد وتعدد الروايات.

لذلك سوف نبين خلاصة معجزاته وفضائله ﴿ ﷺ وآله﴾ للراغبين فى الاطلاع على السيرة الشريفة ممن لا يتسع أمامهم الوقت لمطالعة المطولات من الكتب السابقة ، ولعل فى قراءتها ما يعد تلخيصا للمقاصد وجمعا للفوائد .

بعض معجزاته ﴿ﷺ وآله﴾

اعلم– وفقنى الله وإياك لمحابه ومراضيه ، وشرح صدورنا ، ونور قلوبنا – أن الله تعالى قد خص نبينا ﴿ﷺ وآله﴾ بأشياء لم يعطها لنبى قبله ، وما خص نبيا أو رسولا بشيء إلا وكان لسيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ مثله ، فإنه أوتى جوامع الكلم ، وكان نبيا وآدم بين الروح والجسد ، وغيره من الأنبياء لم يكن نبيا إلا فى حال نبوته ، وزمان رسالته ، ولما أعطى هذه المنزلة علمنا أنه ﴿ﷺ وآله﴾ الممد لكل إنسان كامل مبعوث ، وقد أحسن من قال فى ذلك :

وكل آى أتى الرسل الكرام بها		فإنما اتصلت من نوره بهم

فكل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فهو الشمس الممدة لكل منهم ، وهم الكواكب المضيئة بأنوار تلك الشمس ، التى لا تظهر فى الظلمات عند شروقها فى أفق هذه الكواكب ، فكذلك الأنبياء قبل وجوده ﴿ﷺ وآله﴾ كانوا يظهرون فضله ، فجميع ما ظهر على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض ، ومدده الواسع ، من غير أن ينقص منه شيء .

وأول ما ظهر ذلك فى آدم عليه السلام حيث جعله الله خليفة ، وأمده بالأسماء كلها فظهر آدم بعلم الأسماء على الملائكة القائلين : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ (البقرة : ٣٠) . ثم توالت الخلائف فى الأرض إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﴿ﷺ وآله﴾ الشريف ، لإظهار حكم منزلته ، فلما برز كان كالشمس اندرج فى نوره كل نور ، وانطوى تحت منشور آياته كل آيه لغيره من الأنبياء ، ودخلت الرسالة كلها فى صلب نبوته ، والنبوات كلها تحت لواء رسالته ، فلم يعط أحد منهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطى ﴿ﷺ وآله﴾ مثلها ، ولم تظهر

على يد نبى من الأنبياء أو رسول من الرسل معجزة إلا ولنبينا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ معجزة مثلها ، بل وتفوقها ، فإن معجزاته
﴿ﷺ وآله﴾ لا تنحصر عدا ، ولا تدرك قدرا .

القرآن الكريم

أعظم المعجزات

هو أعظمها لأنه أتى مشتملا على أخبار الأمم السالفة ، وسير الأنبياء التى عرفها أهل الكتاب ، وهو ﴿ﷺ وآله﴾ أمى ، ولم يعرف بمجالسة الكهان والأحبار ، لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ قد نشأ بين أظهرهم ، فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية والأمم السالفة التى اشتمل عليها، ومن كان من العرب يكتب ويقرأ أو يجالس الأحبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن ، خصوصا عن المغيبات المستقبلة الدالة على صدقه ، لوقوعها على ما أخبر به ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقد أعجز الفصحاء البلغاء لحسن تأليفه والتئام كلماته ، بهرت العقول بلاغته ، وظهرت على كل قول فصاحته ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، فحارت فيه عقولهم ، وتبدلت فيه أحلامهم ، وهم رجال النظم والنثر وفرسان السجع ، وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم النثر ، لأن نظمه لم يكن كنظم الرسائل والخطب ، ولا الأشعار وأسجاع الكهان .

وقد تحداهم ودعاهم إلى معارضته والإتيان بأقصر سورة منه ، وهو دليل قاطع على أنه ﴿ﷺ وآله﴾ لم يقل لهم ذلك إلا وهو واثق مستيقن أنهم لا يستطيعون ذلك ، لكونه من عند الله . إذ يستحيل أن يقول ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك وهو يعلم أنه الذى تولى نظمه ولم يتزل عليه من عند الله ، إذ لا يأمن أن يكون من قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وشعر وخطابة ، قد بلغوا الدرجة العليا فى البلاغة وهو من جنس كلامهم

فيصير كذابا ، ولو كان فى استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن التحدى بالمحاربة التى قتل فيها صناديدهم وسبى ذراريهم .

ومعجزة القرآن لا يمكن أن تضارعها معجزة ، لأن كل معجزة تأتى بها الرسل تكون حجة فقط إلا القرآن فقد امتاز على كل المعجزات بأنه حجة ودعوة فى آن واحد ، وهو معجزة باقية فى الأمة المحمدية ، مع أن كل معجزة رسول تنتهى بانتهاء الحادثة وفناء المشاهدين لها بخلاف القرآن ، فإنه حجة لكل فرد وارث من ورثته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى كل زمان ، وهو الكتاب الذى لا تنتهى عجائبه ، ولا يقف باحث على ما فيه من المعانى التى لا حد لها .

ليس بعد العيان بيان ، ومن لا يسمع صوت الرعد فهو أصم ، ومن لا يرى الشمس ضحوة فى النهار الصائف فهو أعمى ، ومن أنا حتى أخاطب الصم البكم العمى الذين لا يعقلون ، أو أبين لمن فى القبور ، لكنى أضرب مثلا يعقله العالمون : غابة فيها سبع وأنواع أخرى من أنواع الوحوش ، وجاء السبع إلى الأنواع الكثيرة من أنواع الوحوش فقال : أنا ملك تلك الغابة بما من الله به على من الجرأة وشدة الافتراس والقوة ، ومن لا يعترف بملكى على تلك الغابة فليبارزنى إما منفردا ، أو اجتمعوا جميعا وبارزونى ، وزأر فيها زأرة فك مفاصلها حتى اقشعرت جلودها ، وصرعت جميعا من زئيره ، وبايعته على أنه الملك عليها . وصار سكان الغابة من كل أنواع الوحوش والغزلان وأنواع الطيور المختلفة خاضعة لهذا السبع العظيم . وكان للسبع وأتباعه غابة أخرى يمضون فيها فصلا من فصول السنة ، فلما أن انتقل الملك ورعيته إلى الغابة الأخرى ونزلت الأمطارعلى الأرض ، تولدت الضفادع ، مفتخرة أن لها ملك الغابة ، وأن أحدا لا يقهرها ، حتى جاءت سلحفاة فقالت للضفادع : إن تلك الغابة يملكها السبع الذى زأر زأرة صرع بها كل أنواع الوحوش والطيور وأخضعها له ، فقامت الضفادع تحقر تلك الزأرة وتفتخر بصوتها ، وتنقص زئير الملك العظيم ، فقالت لها السلحفاة : جهل الحقيقة مؤد إلى الغرور ، وهل بعد أنى رأيت أنواع الوحوش المفترسة والطيور الجارحة والحيوانات الهائلة ، تصعق لزأرة السبع أغر بما تدعيه بجهلك وضعفك ؟ إليك عنى ، فإنما يغتر بك من هم أضعف منك صوتا ، وأخس منك فكرا . هذا المثال يطابق الحقيقة فى نفس الأمر ، وذلك لأن كل رسول أرسله الله تعالى يمده من المعجزات بما يكون معتنى به عند الأمة التى أرسله الله إليها . مثال ذلك : أرسل الله سيدنا موسى فى عصر كان السحر فيه معتنى به ، وكان الساحر سيد قومه ، فجعل المعجزة من هذا النوع ، وكل من قام بعد سحرة أهل هذا الزمان ، فقال : إنى يمكننى

أن أقهر عصا موسى ، فهو كاذب جاهل ، لأن أكابر السحرة خروا ساجدين ، إعظاما للآية وإجلالا لمن أنزلها. وأرسل الله سيدنا عيسى بن مريم فى زمان ساد فيه الطب ، وكان الطبيب عظيم قومه ، فجعل معجزته من هذا النوع . فكان الطبيب يهيىء المريض للعافية وقد يشفيه الله ، وكان عيسى بن مريم ﷺ لا يهيىء المريض للعافية ، ولكن يضع يده عليه ويقول : على قدر إيمانك فيشفيه الله تعالى من الأمراض المعضلة التى ليس للطبيب فيها يد .

ثم ما هو فوق ذلك ، كان يضع يده على الميت ويقول : أحياك الله ، فيجيبه الله . ومن جاء بعد المسيح وقال : إنى لا أعترف بعمله لأنى أعمل عملا أجل من عمله ، فذاك كاذب مغرور جاهل .

وكذلك بعث الله رسوله سيدنا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ فى زمان سجد أهله للفصاحة والبلاغة ، حتى بلغت العناية بالفصاحة والبلاغة مبلغا ، هو أن القبيلة الدنيئة النسب ، البعيدة عن الشرف ، اللئيمة الطبع ، إذا ظهر فيها شاعر أو خطيب ، عزت بعد الذل ، ورفعت بعد الضعة ، وشرفت بعد التعسة ، وانتسب إليها من ليس منها ليفتخر بها . وبلغ من تعظيم الفصاحة والبلاغة أن جعلت بعض القصائد تعلق على الكعبة فتعبد ويسجد له كالأصنام . فكانت القصيدة أو الخطبة فى مترلة الإله عندهم ، وقائلها سيد عظيم تسود به قبيلته على أهل عصره ، فجعل الله معجزته ﴿ﷺ وآله﴾ مما تسجد له العقول وتخشع له القلوب . وهو الكلام الذى كان زئير الأسد مثال له . فسجد له فحول الفصحاء وفطاحل البلغاء ومن أعجزوا بفصاحتهم الفصحاء وأخفى نور شمسه أقمار وأنجم البلغاء .

قال : اجتمعوا فأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وهم ألد أعدائه وأشر حساده ، يبحثون عن نقيصة يرمونه بها ، أو خسيسة ينسبونها إليه ، أو قبيح يصفونه به ، فقطعت كمالاته العلية أعناقهم ، وأخرست أنواره الجلية ألسنتهم ، فحاربوه بالسيف ولم يجدوا

فيما أنزله الله عليه مجالا للإنكار ، ولا منفذا للاتهام ، وهم معدن البلاغة والفصاحة وأصل الحكمة وأهل الجدل والبحث وفصل الخطاب .

بيان إعجاز القرآن لجميع بنى الإنسان

لو أنى أوردت عليك أقصر آية فى القرآن قام فصحاؤهم وبلغاؤهم وحكماؤهم ليأتوا بمثلها فنادتهم ضمائرهم : الشمس تخفى كل نجم وكوكب . تلك الآية هى قوله تعالى : ﴿ الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة : ١٧٩) . فقالوا : القتل أنفى للقتل . أنظر إلى حلاوة الآية لفظا ، وجمالها معنى فى قوله : (الْقِصَاصِ) ولم يقتل القتل : وهى تروح القلب بروح محاسنها . وانظر إلى قوله : (حَيَاة) وهى طهور للروح ونعيم للنفس إن سمعها الجانى فقه منها أن رضاه بالقتل حياة طيبة أبدية له ، فيقدم نفسه مسرورا فرحا ، وإذا سمعها من يهم بالجناية خشع قلبه لما تومى إليه من الرحمة والشفقة ، وما تشير إليه من العدل والمؤاخذة وأناب إلى ربه . أنظر إلى ما فى تلك الآية القصيرة من الحكم الاجتماعية والكمالات العمرانية ، وما تؤثر به على النفوس من سر التعاطف والتآلف ، وما تنتجه من الرحمة والشفقة . ثم لا تنظر نظر مقابلة بين كلام الخالق والمخلوق ، فإنه ليس بينهما نسبة . ولكن الأحماض ؟ يشحذ النفوس لتلقى الكمالات .

القتل أنفى للقتل ، أنظر إلى بشاعة اللفظة فى قولهم القتل ، فإنها تجعل القلب يحترق بنار الغيظ وحب الانتقام ، ويبث فى النفس حمية الجهل والحماقة والجرأة على أقبح القبائح . فكان الرجل يقتل بعبده سيد القبيلة ، ويقتل برجل قبيلة أخرى ، وربما محقت القبيلة لقتيل قتلته من الأخرى ، كل ذلك نتيجة : القتل أنفى للقتل . وهى كلمة أكابر حكمائهم ، وأعاظم فصائحهم ، وفحول بلغائهم . لفظ القتل لا تخصص المراد ، فإن القتل كلمة دالة على حدث وعلى من يقع الحدث ، لا قرينة تعين وقوعه على الجانى فقط ، بل يجوز أن يقع على كل من له اتصال ما بالجانى ، ولكن كلمة (الْقِصَاصِ) كلمة جامعة مانعة تعين المراد ، فإن القصاص لا يكون إلا من الجانى فقط ،

ثم انظر إن كلمة الله تعالى مع أنها كتر تضمنت من الحكم والأسرار والخيرات العمرانية والبركات الاجتماعية والكمالات الأخلاقية ، وتزكية النفوس وتطهيرها من لقسها ، ما لا يمكن أن تسعه بطون الدفاتر ولا تجمعه القلوب، فإن حروفها عشرة أحرف، وحروف الكلمة الأخرى خمسة عشر حرفا فسبحان القادر الحكيم. هذا هو كلام الله حقا الذى أعجز البلغاء وحير الفصحاء. وهل بعد أن سجد فحول العرب الذين كانت السيادة فيهم بالفصاحة والبلاغة،يأتى قوم أعجام ينكرون ،وإنما مثلهم وما هم فيه كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

عجز أهل البلاغة أمام القرآن يثبت عجز غيرهم عجباً ! أبعد أن يعاديه أهل الفصاحة والبلاغة عداوة أدت إلى سفك الدماء والاجتهاد فى إثبات نقيصة له ، فلم يتمكنوا من ذلك وعجزوا ، يقوم الأعجام يثبتون نقائصه ؟ إنما ذلك من فساد المزاج الذى يجعل الحلو مراً فى الذوق . والجاهل يرى العصا فى الماء كأنها معوجة ، ويرى الأرض تجرى أمامه وهو راكب على القطار ،فيتيقن أنه ساكن والأرض ماشية . وهكذا مريض القلب فاقد العقل المحروم من نور الحكمة يقول وهو جاهل : إنى يمكننى أن أعيب عصا موسى ،وأنقص يد عيسى بن مريم عليهما السلام ، وانتقد كلام الرسول العظيم الذى بشر به كل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ،وأعجز كلامه فحصاء العالم بأجمعه ،وبلغاء بنى الإنسان بأكملهم ، حتى بلغ من سجود العقل له أنه لا يزال منذ أنزل على قلبه﴿ ﷺ وآله﴾ ونطق به لسانه﴿ ﷺ وآله﴾ غضاً نضراً طرياً، تجدد أسرار وتشرق أنواره فى كل مكان وزمان ، تغترف العلماء من فيضه الهاطل ، ونوره المتلألىء أسراره حكم ، لم تكن تظهر من قبل ،وينكشف لهم دقائق علوم وغوامض فهوم وأنوار شموس ، لم تكن تلوح من قبل ، ولا يزال غيثاً هاطلاً وموردا عذباً لكل ذى قلب سليم .

لا تظهر خواص الكائنات فى أى زمان إلا وقد أشار إليها ، ولا تخترع مخترعات فى أى مكان إلا وقد نبه عنها . ولا يترقى الإنسان فى مراقى الحضارة والعمران إلا وكان به الرقى . ولا يسعد الإنسان بالإنسان إلا وكانت به السعادة .

مالى وللخوض فى هذا البحر المتلاطم بالأمواج ، إذا أنكر الضب فيضه ونفعه ، وقد اعترفت كل الأنواع الحية بفضله ونفعه ، بل ونطقت ألسنة الجمادات بخيره وبره .

اللهم إلا من اختل توازن أمزجتهم فزاد عنصر من العناصر المكونة للجسم ، فقهر بقية العناصر فصار ممروراً لا يعقل ، أو بهيما لا يتروى أو شيطانا خبيثا يقبح الحسن ويحسن القبيح ، لأنه مفطور على الخبث، وليست هذه الأنواع إلا أعداء للنوع الإنسانى ، وإن كانت على صورته ، كعداوة الأفعى له وعداوة الشيطان . وإنما يميل إليهم من هو منهم ويصغى لقولهم أشكالهم . يجهلون مغازى أساليب العرب ومدلول ألفاظهم ، وأنواع البديع فى تعبيرهم ، وما يدل عليه اللفظ بالمطابقة أو بالالتزام أو بالتضمين ، بل ويجهلون مراجع الضمائر ، بل ويجهلون استعمال الفصاحة والتفنن فى التعبير والتوسعة فى الإفادة والبيان والتجوز بأنواعه من الكناية والمجاز والتشبيه والاستعارة ، كل ذلك يجهلونه . فمن يجهل كل تلك المفاهيم والمعاليم وهو عجمى الأصل بعيد عن اللغة وأهلها ، كيف يدنس هذا الشرف العلى والمجد الرفيع بأن يدعى أنه يفهمه ، وأنه يمكنه أن ينتقد عليه أو ينكره . . لا حول ولا قوة إلا بالله . لا تعجب أيها الإنسان ! فإن شبيهك فى الجهالة ومشاكلك فى الضلالة ، دعته جهالته إلى أن يبنى سلما من الطين ويرقى به إلى السماء ليحارب رب السماء ، وهو إنسان مثلك ، وعمله أقل فى الشر من عملك ، لأن السماء ينظرها الإنسان قريبة ، والطين يمكن أن يجعل منه صرح مرتفع . وأما أنت أيها الإنسان المغرور فحفرت بئرا عميقة ، وأردت أن تقع فى جبها ، ومن هناك تنفخ فى الشمس بفمك لتطفىء نورها . من أنت وأنت عدو الحق ، وخصم الهداية وبغيض النور ؟

المسلم لا يعقد قلبه إلا على ما وضح دليله لعقله

لعلك تظن أن المسلم غمض عينيه وكف نور عقله ، وحكم على قلبه الذى يتقلب فى الشئون الكونية ، وقال لقلبه : اعتقد أن الإله العظيم الكبير الذى خلق تلك الآثار العظيمة ، دخل فى فرج امرآة وتجسم وصار إنسانا ، ثم نزل إلى الأرض ، فقال اليهود : لا يكون فى الأرض إلهان ، إما نحن ، وإما أنت ، فقهروه مسكينا وصلبوه – كما تزعمون – وهو ذليل مهان مخزى . لا، ومن خلق السموات وفطر البريات ودحا المدحوات .

المسلم لا يعقد قلبه إلا على ما وضح دليله لعقله ، ومحا برهانه كل شبهه من قلبه ، وأشرقت أنواره لعينيه ، ولاحت أسراره لضميره . ولو أن الرسول العظيم الكريم قال : إني ملك عبد تجسمت فصرت إنسانا ، لما قبلنا منه ولما سلمنا له . ولكنه قال ما أمره الله به : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف : ١١٠) . وقال بلسانه ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنما أنا رجل من قريش ابن امرأة كانت تأكل القديد " فدع عنك التكلم فيما لم تستطع أن تفهم ظاهره ، لأنك متنجس بقاذورات العقيدة الفاسدة ، ومتقذر بأوساخ الآراء المضلة ، والجعران يقتله الطيب ، والحوت يقتله النسيم العليل البليل ، والخفاش (الوطواط) تهلكه أنوار الشمس . لم أكتب لأناظرك ، فإنما يناظر النظير ، ويجادل المثيل . وإنما كتبت لأرشدك إلى الحق وأدعوك إلى الهدى ، عسى الله أن يهديك فتبصر النور المبين . ويدلك فتسمع الوعظ المفيد ، فتخلص نفسك من هاوية العذاب الأليم ، وحضيض السخط .

أيها الإنسان مالك وللقرآن المجيد ؟

أيها الإنسان وأنا إنسان أحب والله الخير لك ، وأشفق بقلبى عليك ، وأرجو لك النجاة كما أحب ذلك لنفسى ، مالك وللقرآن المجيد :

أبعد أن يمضى عليه أربعه عشر قرناً ، والقلوب خاشعة لهيبته ، والعقول ساجدة لعظمته ، والألسنة رطبة بتلاوته ، والعالم الحى بأجمعه راتعا فى رياض النعيم واللذة بأحكامه ، والقلوب السليمة مقتبسة من أنواره ، وهو إلى وقتنا هذا نور مضيء يلوح أسراره وتظهر أنواره ، ويفوح شذا عبيره ، تأتى أيها العجمى البعيد

عن أساليب لغة نزل بها ، العمى عن فهم مدلول ألفاظ ظهر بها ، فتنتقد بها على كماله الروحانى ، وجماله المعنوى ومحاسنه اللفظية ؟ لا يضر ضوء الشمس أنه لا يعترف به الخفاش ، ولا ينقص الشهد الخالص أنه مر فى فم المريض،ولا يحجب الحق البين على قلوب أهله أنه ثقيل على البهائم والشياطين .

تنبه أيها الإنسان العاقل ، فليست السعادة بالعناد ولا النجاة بالعصبية ، ولا الفوز بسجن العقول فى هوة الظلمات ، وقهر القلوب على اعتقاد الضلالات ؟ لا أبيح للقلم أن يناظرك إجلالا لكمال كلام الله ، ولا للسان أن يتكلم معك إعظاما لهذا المقام العلى وخوفا على نفسى أن أكرر قولا ينجس لسانى .

اللهم إنى أعوز بك من غضبك الذى تحجب به الأنوار عن قلوب من غضبت عليهم ، وأسألك ياذا الفضل نورا تجعله فى قلبى وقلب كل أخ من إخوتى المؤمنين،تبين لى به الحق والباطل،وتعيننى به ياإلهى على اتباع الحق والبعد عن الأباطيل ، وأسألك آية من آياتك الكبرى تؤيد بها الحق وأهله ، وتذل بها الباطل وأهله ، إنك على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أدلة القرآن صارت فى منزلة الآيات الكبرى جلى للعقول أن الكتب السماوية نزلت لتكميل الجسم والنفس ، ولا كمال للناس إنا بكمال الجسم . ولذلك كانت الوصايا الإلهية تارة تكون خاصة بالأجسام ، ومرة بالنفوس ، وأخرى عامة للأجسام والأرواح ، ولم يأت كتاب سماوى فصل تلك المعانى تفصيلا حتى قرب أصوله وفروعه للعقل قربا

يكاد يمس إلا القرآن المجيد. فالذى أنزل منه خاصا بالنفوس قسم العقيدة الذى قرره تقريرا

كادت حقائقه أن تطمئن بها القلوب طمأنينة أكثر من طمأنينة القلب بما تشهده الحواس ، فإن العقل قد يخطىء الحواس فى كثير من مشاهداتها مثال ذلك : أن العين ترى الشمس صغيرة ، ولكن العقل يحكم بخطأ العين ، وترى العود فى الماء منكسرا فيحكم العقل بخطئها فى تلك المشاهد ، ولكن أحكام العقول بما قرره القرآن فى العقيدة بلغت من اليقين مبلغا صار أقوى من المشهود بالحواس ، لما أقامه من الحجج والبراهين الجلية . ومن قرأ القرآن المجيد متدبرا تظهر له جلية الأمر .

أقام الله الحجة على وحدانيته – تتره وتعالى – بما جعل المسلم وهو فى آخر لحظة من مفارقة الدنيا تنكشف له الحقيقة ، فتنيبه آلام نزع الروح لما بداخله من السرور لطمأنينة قلبه بحقيقة ما اعتقد . وتراه عند الشدائد العظيمة يرجع إلى الواحد الأحد المتره عن الوالد والولد رجوع الطفل الصغير إلى أمه المشهودة له حسا ومعنى ، وتلك المواضع تنسى الإنسان مالا يطمئن به القلب . وأدلة القرآن صارت فى مترلة الآيات الكبرى ، التى أشهدها الله لرسله صلوات الله وسلامه عليهم ، فترى إيمان أصغر مسلم كإيمان المسيح عليه السلام لقوة البرهان . ولو أن الله هداك أيها الإنسان للإسلام ، وقرأت القرآن قراءة مسلم ، لأشرقت لك أنوار الدلائل . وإن شئت أن تفهم أنواع الدلائل التى أقامها القرآن المجيد على وحدانيته سبحانه وتعالى ، وعلى قدرته وحكمته جل وعز ، فراجع ذلك فى غير هذا المختصر .

تلك الآيات الشريفة القرآنية التى حجب العمى عن أنوارها المشرقة ، يمكن أن تلوح لك أسرارها ، وتظهر لك خفياها إذا جردت نفسك من أن تنظر إلى الشمس بعين رمداء وبقلب مظلم بفساد العقيدة ودخان العصبية . فإذا غسلت عينيك بمطهر، وقلبك بعزم على طلب الحق والاعتراف به من أى طريق وصل إليك ، لا نكشف

لعقلك ما به يقبل ولقلبك ما به يطمئن ولنفسك ما به تسكن إلى مبدعها سبحانه وتعالى . ولكنك أيها الإنسان إذا كنت مريضا وتعلم أن دواء الطبيب مر أو مؤلم ، وذكر لك الطبيب انزعجت نفسك وتصورته فى خيالك بأقبح صورة ، وانقبض صدرك وضاق قلبك به ، فإذا وقع نظرك عليه ومعه راحتك ، وبإقبالك عليه شفاؤك ، وبتسليمك له عافيتك لم تره بحقيقته ، ولكن يحجب بصرك عنه المثال الذى تخيلته ، فتراه وحشا ضاريا أو سبعا مفترسا ، وتفر منه ، وربما ألقيت بنفسك من شاهق لتموت ولا تراه . هكذا أنت أيها الإنسان الجاهل بكمالات نفسك ، الضال عن طريق ربك ، تتمثل كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بصورة حكم بها خيالك الفاسد ، وقلبك المظلم ونفسك الخبيثة ، فلا يقع نظرك إلا وحكمت عليه بما حكم به المريض الجاهل الأحمق على الطبيب الرحيم الشفيق ، وفيه شفاؤك من أمراض نفسك وعافيتك من آلام الدنيا والآخرة وسعادتك الأبدية .

مثال أعمال دعاة النصرانية

لا تظن أنى أرغبك فى القرآن لاحتياج القرآن إليك ! لا ومن أنزل القرآن نورا وهدى ، أو لأدفع ضررك عن المسلمين ! لا ومن بيده نفسى لأن المسلم كامل اليقين بما بينه له القرآن من البراهين والأدلة الناصعة ، يحتقر فى نفسه ويصغر أمام عقله ما لا يوافق القرآن من الأباطيل التى لا تقبلها العقول ، ويرى أعمال دعاة النصرانية أمامه كأعمال جماعة من البعوض دفعها الشبع وغرها طيب المرعى ، وكانت فى واد يحيط به جبلان ، وظنت لضعف إدراكها أن تقوم بزوال الجبلين ليتسع الوادى ، وغرها الجهل والحماقة فقالت : نبتدىء بكسر أعالى الجبلين ، فجهدت نفسها حتى بلغت قمة الجبل بعناء شديد وتعب ، فلما أن وصلت إلى قمة الجبل سقطت مغشيا عليها لطول المسافة وكان على قمة الجبل ثلوج ، فلما سقطت على الثلوج تقصفت أجنحتها وجمد جسمها وكان بعضها لم يصل ، فلما رأى ما حل بالقسم الذى التصق بقمة الجبل

أجهد نفسه فارتفع عن الثلج فلفحه السموم ، فألقاه خلف الجبل على أحجار محرقة مجدبة كان فيها طيور تتغذى بالبعوض فنادت الطيور بعضها وقالت : رزق ساقه الله إلينا ، فقال البعوض : لا والله ، قدر أوقعنا فيه جهلنا بقدر أنفسنا وغرورنا برغد العيش وإنكارنا على الحق وأهله . وهكذا دعاة النصرانية وصلوا إلى واد خصب مما نالوه من تساهل أهل الإسلام فجرهم الطمع الأشعبى والجهل بضلالهم وبقدر الإسلام ، فأرادوا أن يزيلوا هذين الجبلين الذين أصلهما ثابت وفرعهما فى السماء ، وأبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يتكلموا فى المقام المحمدى وفى الكلام القدسى . ويعلم الله أنهم بصعودهم هذا هاوون فى هوة الهلاك الأكبر . وسيهلكهم طمعهم وبمحقهم حمقهم . إما بانكشاف الحقيقة ورجوعهم إليها فيسعدون السعادتين ، وإما بنقمة سماوية تمحقهم بعضهم ببعض ، ﴿ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) . أو يترل عليهم صواعق من السماء كما أنزل على أبرهة صاحب الفيل النصرانى الذى قام بخيله ورجله ليهدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . وإن هدم الكعبة فى الزمان الصنمى ، ليس بأعظم ذنب عند الله تعالى من تكذيبهم الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومجاهرتهم بذلك . وعملهم هذا كعمل اليهود الذين كذبوا الله وكذبوا رسله عليهم الصلاة والسلام ، فسلط الله عليهم بختنصر ثم العمالقة ثم الرومان ، فانتقم الله منهم ، وسينتقم الله ممن ينكر كلامه سبحانه ، ويكذب رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

بَاقي المعجزات

منها شق صدره الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾ والتئامه من غير حصول أدنى ضرر ولا مشقة مع تكرر ذلك مرات .

ومنها انشقاق القمر عندما طلب منه كفار قريش، فأشار إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ بأصبعه فانفلق فرقتين .

ومنها أن الملأ من قريش لما تعاقدوا على قتله﴿ﷺ وآله﴾ فى دار الندوة ،وجاءوا إلى منزله وقعدوا إلى بابه ، فخرج عليهم وقبض قبضة من تراب وقال : شاهدت الوجوه وألقاها على رؤوسهم فسقطت ذقونهم على صدورهم ولم يشعروا به .

* ومنها أنه هزم القوم يوم حنين بقبضة من تراب رمى بها فى وجوههم ، كما فعل فى يوم بدر مثل ذلك .

ومنها نسج العنكبوت عليه ﴿ﷺ وآله﴾ فى الغار .

ومنها ما وقع لسراقة من غوص قوائم فرسه فى الأرض الصخرية . ومنها در لبن الشاة التى لم ينزل الفحل عليها .

ومنها رد عين قتادة بعد أن سالت على خده فكانت أحسن عينيه .

ومنها نطق الذراع المسموم له ﴿ﷺ وآله﴾ وإخباره بدس السم فيه .

ومنها دعاءه ﴿ﷺ وآله﴾ على عتيبة بن أبى لهب فأكله الأسد بالزرقاء من الشام .

ومنها تسليم الحجر والشجر عليه ﴿ﷺ وآله﴾ بلفظ : السلام عليك يارسول الله . *

زمنها حنين الجذع إليه ﴿ﷺ وآله﴾ وتسبيح الحصى فى كفه .

ومنها شكوى البعير إليه ﴿ﷺ وآله﴾ كثرة العمل وقلة العلف . * ومنها عند دخوله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة عام الفتح والأصنام حول الكعبة معلقة وبيده قضيب ، فجعل يشير إليها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل وهى تتساقط . * ومنها إيتاءه ﴿ﷺ وآله﴾ بقدح فيه ماء فوضع أصابعه فيه وقال : (هلموا) ، فتوضأوا منه أجمعون وهم السبعين إلى الثمانين .

ومنها وروده ﴿ﷺ وآله﴾ فى غزوة تبوك على ماء لا يروى واحدا والقوم عطاش فشكوا إليه فأخذ ﴿ﷺ وآله﴾ سهما من كنانة فغرسه ففار الماء وارتوى القوم وكانوا ثلاثين ألفا .

ومنها شكوى قوم إليه ﴿ﷺ وآله﴾ ملوحة فى مائهم ، فجاء فى نفر من أصحابه حتى وقف﴿ﷺ وآله﴾ على بئر فتفل فيها فتفجر الماء العذب المعين .

ومنها أنه أتته ﴿ﷺ وآله﴾ امرأة بصبى لها أقرع فمسح على رأسه فاستوى شعره وذهب داءه ، فسمع أهل اليمامة بذلك فأتت إمرأة إلى مسيلمة بصبى فمسح رأسه فتصلع وبقى الصلع فى نسله .

ومنها انكسار سيف عكاشة يوم بدر ، فأعطاه ﴿ﷺ وآله﴾ جذلاً من حطب فصار فى يده سيفاً ولم يزل بعد ذلك عنده .

●ومنها ما أطلعه الله عليه من الغيبيات :

– وإخباره ﴿ﷺ وآله﴾ عن مصارع المشركين يوم بدر فلم يعدو أحد منهم مصرعه،

– كإخباره ﴿ﷺ وآله﴾ أن طائفة من أمته يغزون البحر ، وأن أم حرام بنت ملحان منهم فكان ذلك .

ـ وإخباره ﴿ﷺ وآله﴾ لعثمان ﷺ أن سيصيبه بلوى شديدة فكانت وقتل شهيدا. .

ـوإخباره ﴿ﷺ وآله﴾ بقتل العنسى الكذاب وهو بصنعاء ليلة قتله ومن قتله . .

وإخباره ﴿ﷺ وآله﴾ لثابت بن قيس : تعيش حميدا وتقتل شهيدا ، فقتل يوم اليمامة .

. ـ وإخباره ﴿ﷺ وآله﴾ لمن ارتد والحق بالمشركين فبلغه ﴿ﷺ وآله﴾ أنه مات فقال : الأرض لا تقبله فكان كذلك.

ـ ومنها . . ومنها . . ومنها . . مما لا يحصى ولا يحصر .

فضائله ﴿ﷺ وآله﴾

وأما فضائله ﴿ﷺ وآله﴾ وخصوصياته فجلت أن تدانى ، أو يقوم بها وصف واصف ، أو توضح بألسنة أهل البيان مهما أوتوا من كشف وتبيين . وهنا أردت أن تستبين بعض مقاماته ﴿ﷺ وآله﴾ فقارن بينه وبين مقامات الرسل ، وما أعطاه وأعطاهم الله ،

وما خصه وخصهم به جل جلاله ، تشرق لك شمس فرديته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومطلوبيته ومحبوبيته لذات الحق تبارك وتعالى .

ونحن إن أردنا أن نبين فضائل هذا الحبيب الأعظم ﴿ ﷺ وآله﴾ فهذه الرسالة وعشرات الألوف من أمثالها لا تحصيها عدا ، ولا تفى بحاجة الوصف ، بل الوصف نفسه يقصر عن ما خصه الله به من المزايا وما شرفه على سائر خلقه . على أن ذلك القصور فى هذا الجانب الأعظم لا يمنعنا من أن نذكر رشفة من بحر فضله ، وبارقة من سواطع مقامه على قدر ما تسع العقول وتفهم الأرواح .

من فضائله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه أعطى الكوثر

قال الله تعالى مخاطبا حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر : ١) . بين الله تعالى فى خطابه هذا قدر حبيبه وما أكرمه به وفضله على سائر أنبيائه ورسله .

والكوثر بمعان كثيرة،والذى عليه جمهور السلف الصالح أنه نهر فى الجنة، روى أنس عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال :"رأيت نهراً فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدى إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر فقلت :ما هذا ؟ قيل : الكوثر الذى أعطاك الله " وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " الكوثر نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير " .

وقال بعض المفسرين : الكوثر آل بيته ﴿ ﷺ وآله﴾ . وقد نزلت الآية رداً على من عابه ﴿ ﷺ وآله﴾ من الكفار بأن لا أولاد له، فالمعنى أن الله تعالى أعطاه نسلاً عظيماً يحفظون سنته،ويجددون شريعته، وبارك سبحانه فيهم فلم يخل منهم زمان ولا مكان مع ما لاقوا من القتل والاضطهاد، وكان منهم العلماء والحكماء والخلفاء والفاتحون .

وقال آخرون : الكوثر علماء أمته فإنهم مصابيح الأمة وهداتها ، وهم الخير الكثير ، لأنهم كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ :" العلماء ورثة الأنبياء ".

وقالوا: الكوثر هو النبوة، وهو لاشك الخير الوفير لأنها المنزلة الثانية بعد الربوبية، ولذلك قرن سبحانه وتعالى اسم حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ باسمه فى كثير من آيات

الكتاب، وأردف طاعته ﴿ ﷺ وآله﴾ بطاعة الله تعالى، وعلق محبته سبحانه على اتباعه ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال تعالى: ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾(النساء:٨٠) . وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(الفتح :١٠) . وقال : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾(آل عمران :٣١) . وكفاه شرفاً ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه المبعوث آخر الأنبياء والمذكور قبلهم بل سيدهم ، وخيرة الله تعالى منهم الذى واثقهم بالإيمان به ونصرته منذ أن خلقهم ، فسمعوا وأطاعوا .وقالوا : الكوثر هو القرآن . وقالوا : الكوثر هو الإسلام وقال فريق : هو المقام المحمود وشفاعته﴿ ﷺ وآله﴾ فى أهل الكبائر من أمته . وقال آخرون : هو ما اختصه الله به من الفضائل والأخلاق والشمائل إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة

فضله على موسى عليه السلام

أفرد الله تعالى نبينا ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكانة المحبوب من بين رسله وأنبيائه عليهم السلام ، وشتان بين محب ومحبوب ، وطالب ومطلوب .

طلب موسى عليه السلام من ربه أن يشرح صدره فقال ملتمساً: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٥) . وأعطى الله ذلك لحبيبه﴿ ﷺ وآله﴾ دون سؤال فقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح :١) .

وسأل موسى عليه السلام ربه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون أخاه ، وقال سبحانه لحبيبه : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) . أى : قرنت اسمك باسمى فى الشهادة والآذان ، وكنت أنا وزيرك و ظهيرك ومعينك . وروى عن مجاهد فى هذا المعنى فى تفسير قوله :

﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء : ٧٩) . قال : يجلسه على العرش لأن العرش مكان الربوبية بمشيئته فى الدنيا ، وهو مستغن عنه بقدرته ، فوهبه لحبيبه فى الآخرة . وجعل عطاءه لموسى محدوداً فقال : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

يامُوسَى﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (طه : ٣٦ ،٣٧) . وقال لحبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد ما وهب له من علم لا نهاية له ومقام لا غاية له : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٤) . فلم يجعل له حداً .

وطلب موسى من ربه أن يراه فى مكانه عند نفسه فأبى عليه ورده ، وأسرى بالحبيب ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى وقال : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (النجم :١٧) . ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (النجم :٩).

كم بين من طلب أن يرى ربه على قدر نفسه عند نفسه فى مكان العبودية فلم يره ، وبين من طلبه هو فأراه نفسه عند ذاته على قدره تعالى فى مكانة الربوبية . كم بين من عجل إلى ربه شوقا منه لينال رضاه ، وبين من عجل ربه به شوقا إليه ليرضيه .

كم بين من رأى أنوار التجلى ففاضت عليه الأنوار فصعق لضيقه ، وبين من رأى المجلى فثبت وغاضت فيه الأنوار لسعته .

كم بين من صنعه سبحانه لنفسه وأدخل فى خطابه لام الملك فقال : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (طه : ٤١) . وبين من أقامه مقام نفسه بدلا من نفسه فى الملك فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح ١٠) . كم بين من فصل مدحه من وصفه فقال: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (طه:٣٩)٠وبين من وصل مدحه بوصفه وفرن ذكره بذكره فقال:﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ (الفتح:٩)٠ وقال:﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (التوبة: ٦٢)٠

وقد ورد فى تفسير قوله تعالى:﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ (الأعراف: ١٤٤)٠- أى من الكلام- وأشكر عليه فذلك ما اصطفيتك به على الناس، أما النظر فقد خصصت به حبيبى محمداَ ٠

وعن ابن عباس أنا الله قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فأعطى موسى عليه السلام الكلام، وخص محمدا﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ بالرؤية٠

فضل معجزاته ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ على معجزات سائرالأنبياء والرسل الكرام

جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ قال: أعطيت خمساَ لم يعطهن أحد قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداَ وطهوراَ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

وما جعل سبحانه وتعالى لنبى من أنبيائه ولا لرسول ميزة أو آية أكرمه بها ، إلا وجعل لحبيبه ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ أعظم وأفخر منها .

١ - فجعل سبحانه كتاب آدم وإبراهيم عليهما السلام كلمات ، وكتاب موسى صحفاَ ، كما قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ (البقرة : ٣٧) وقال :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ (البقرة : ١٢٤) ، وقال : ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى : ١٩) ، وقال : فى حق الكتاب الذى أنزل عليه﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة:٤٨)، فجعل الكتاب الذى خصه به﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ ظاهراً على جميع الكتب ناسخاَ لها٠

٢- وخص الله آدم بالأسماء المنثورة﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء﴾ (البقرة:٣١)، وخصه ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾ بالمنظوم فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء : ٨٨)٠

٣-وأكرم الله نوحاً عليه السلام بإمساك سفينته عى الماء، وأكرم سيدنا محمداَ ﴿ﷺ وآله﴾ بأعظم من هذا، فقد روى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان على شاطىء ماء ومعه عكرمة بن أبى جهل فقال له: لئن كنت صادقاَ فادع ذلك الحجر الذى هو فى الجانب الآخر فليأت سابحاَ ولا يغرق، فأشار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الحجر فانقلع من مكانه وأتى سابحاَ حتى وقف بين يديه وسلم وشهد له بالرسالة، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لعكرمة:أيكفيك هذا ؟" قال: حتى يعود إلى مكانه ، فأمره ﴿ﷺ وآله﴾ فعاد إلى مكانه، ٤- وأكرم الله إبراهيم عليه السلام فجعل النار عليه برداَ وسلاما، وأكرمه ﴿ﷺ وآله﴾ بما هو أعجب من هذا، فقد تفل على جلد محمد بن حاطب وقد احترق جلده وقال: "أذهب الباس رب الناس" فصار صحيحاَ، وكسر إبراهيم أصنام قومه غضباَ لله تعالى، وأشار ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أصنام قومه وهى ثلاث مائة وستون صنماَ فتساقطت، وتقدم حديثها فى باب فتح مكة،

٥- وأكرم سبحانه موسى عليه السلام ففلق له البحر فى الأرض، وأكرمه ﴿ﷺ وآله﴾ ففلق له القمر فى السماء .

٦- وفجر لموسى عليه السلام الماء من الحجر لحبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ الماء من بين أصابعه عيوناَ، وهو أعجب فإن نبعه من الحجر متعارف معهود، أما من بين اللحم والدم فلم يعهد،

٧- وأكرم موسى بأن ظللته الغمامة بعد رسالته، وأكرم حبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ بها قبل رسالته،

٨- وخص موسى باليد البيضاء، وأكرمه ﴿ﷺ وآله﴾ بالقرآن الشريف، الذى ملآ نوره االعالم من أقصاه،

٩- وأظهر على يد موسى معجزة قلب العصا إلى ثعبان، وأظهرها لنبيه ﴿ﷺ وآله﴾ مكبرة، حينما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر فرأى على كتفيه ثعبانين هائلين فولى مرعوباَ،

١٠- وسبحت الجبال مع دواد، وسبحت الأحجار فى يده ﴿ﷺ وآله﴾ وفى يد أصحابه .

١١- وكان داود إذا مسح على الحديد لان ، ومسح ﴿ﷺ وآله﴾ على الشاة الجدباء فدرت، وقد لينت الحجارة له ﴿ﷺ وآله﴾ وصم الصخور، واستتر من المشركين يوم أحد مال برأسه إلى الجبل ليخفى شخصه عنهم فلين الله له الجبل حتى أدخل فيه رأسه، وهذا أعجب لأن الحديد تلينه النار، ولم تر النار تلين الحجر . ١٢- وأكرم الله داود عليه السلام بالطير المحشورة، وأكرم سليمان بالريح، وأكرمه ﴿ﷺ وآله﴾ بالبراق .

١٣- وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى وإبراء الأبرص، وأكرمه ﴿ﷺ وآله﴾ بمثل ذلك، فقد نطقت له الشاة المسمومة، وأبرأ امرأة معاذ بن عفراء من البرص بأن مسح عليها بغصن فشفيت بإذن الله، ورد حدقة الصحابى يوم أحد إلى مكانها بعد أن سقطت، وجعل أبو نعيم نظير خلق الطين طيراً جعل العسيب سيفاً من حديد فى غزوة بدر .

١٤- وكان عيسى عليه السلام يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم، وأخبر ﴿ﷺ وآله﴾ عمه العباس بما أخفاه عند أم الفضل فسلم العباس .

١٥- ورد الله الشمس لسليمان مرة، وردها له ﴿ﷺ وآله﴾ يوم أن كان نائماً فى حجر على كرم الله وجهه، وردها لعلى أيضاً .

١٦ - وعلم سليمان منطق الطير ، وعلمه ﴿ﷺ وآله﴾ ذلك ، فقد روى أن طيرا جعل يرفرف على رأسه الشريفة ويكلمه فقال : " أيكم فجع هذه بولدها ؟ " فأجاب رجل : أنا ، فأمره برده إليها ، وكلمه الذئب والضب والغزالة والجمل . ١٧- وأكرم سليمان بمسيره غدوة شهرا، وأكرمه ﴿ﷺ وآله﴾ بالمسير إلى بيت المقدس فى ساعة من الليل .

١٨- وانقاد الجن لسليمان وكانت تعتاض عليه حتى يصفدها ويعذبها، وانقاد له ﴿ﷺ وآله﴾ وآمن به .

١٩- وذلت له الوحوش، فقد روى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أرسل معاذاً إلى بعض النواحى فاعترضه أسد فى إحدى الغابات ولم يستطع الرجوع، فصاح به : أنا رسول رسول الله . فذل الأسد له وتمسح به .

٢٠- وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل .

٢١- ورفع إدريس عليه السلام مكانا عليا ، ورفع ﴿ﷺ وآله﴾ إلى قاب قوسين أو أدنى .

٢٢ - وأوتى هود عليه السلام الريح ، وقد نصر بها ﴿ﷺ وآله﴾ فى غزوة الخندق .

٢٣- وأوتى إسماعيل عليه السلام الصبر على الذبح ، وأبلغ منه شق صدره ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه وقع حقيقة والذبح لم يقع ، وأوتى الفداء من الذبح وكذلك عبد الله أبو النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأوتى زمزم وكذلك عبد المطلب جد النبى (، وأوتى العربية وجاء أن عمر .

رضي الله عنه قال: يارسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: كانت لغة إسماعيل درست فجاء بها جبريل فحفظنيها .

٢٤- أعطى يوسف من الحسن ما فاق به الأنبياء والمرسلين بل والخلق أجمعين ، وأوتى (من الجمال المحلى بالهيبة ما لم يؤته أحد ، ولم يؤت يوسف إلا شطر الحسن وأوتى ﴿ﷺ وآله﴾ جميعه .

٢٥- وأوتى يوشع عليه السلام حبس الشمس حين الجبارين، وقد حبست له ﴿ﷺ وآله﴾ فى الإسراء، وأعجب منه رد الشمس حين فات عصر علىَ كرم الله وجهه. إلى غير ذلك من فضائله ﴿ﷺ وآله﴾ التى لا حد لها لا نهاية، فكل ذلك برهان ساطع على فضائله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وعلى ما خصه الله به وحباه.

والبدر شق له والضب خاطبه   والماء يجرى بكف المصطفى نهراَ
والجذع حن لـــه كيما يلامسه   والعين ردت وفضل الله قد أجرى
والرمل سبح ينبئـــنا بـــأن لـــه   قدراَ عظيماً بهذا العقل لا يـــدرى
نطق الذراع وتسليم النبات ضياَ   يهدى به الله من قد يسمع الذكـــرا
فى كل سفر من الأسفار آيتـــه   تتلى من الأنبيا ولنـــا لقـــد تقـــرا
قد أعجزت آيه الألباب كثرتهـــا   لم تحص عدا وتلك الآى تستقرى
لا تعجبوا فهو خير الرسل قاطبة   وهو الشفيع وفضل الله والبشرى

نسأل الله أن يمنحنا محبته، ويجملنا باتباع سنته والتمسك بشريعته، وأن يهب لنا من أنوار ذكرى مولده الشريف قسطًا وافرًا تستضىء به قلوبنا، وتنشرح . له صدورنا، ويجمل به ظاهرنا وباطننا، إنه مجيب الدعاء.

باب عن القريبين منه ﷺ

١ – أولاده ﴿ ﷺ وآله﴾

لا خلاف أن جميع أولاده ﴿ ﷺ وآله﴾ من السيدة خديجة بنت خويلد سوى إبراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية ٠

عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم عبد الله ويسمى الطيب ويقال له الطاهر أيضا، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة وكانت أصغرهم من خديجة، فتوفى القاسم – وهو أول متوفى من ولده بمكة– ثم توفى عبد الله فقال العاص بن وائل السهمى: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (سورة الكوثر) ٠ وشانئك، أى: مبغضك هو الأبتر من كل خير ٠ قال: وكانت خديجة إذا ولدت ولدا دفعته إلى من يرضعه، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها ٠ قال: ثم ولدت له مارية بالمدنيه إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة،فتوفى ابن ثمانية عشر شهرا٠ وقيل: ستة عشر شهرا٠ وقيل سبعة عشر شهرا٠

السيدة زينب عليها السلام

قال عبد الرزاق عن ابن جريج: كانت زينب أكبر بنات رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكانت فاطمة أصغرهن وأحبهن إلى رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ ، وتزوجت السيدة زنيب بابن خالتها هالة بنت خويلد أبي العاص بن الربيع فولدت منه عليا– توفى فى سن المراهقة – وأمامة، وهي التى كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يحملها فى الصلاة، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها، وقد تزوجها على ابن أبي طالب كرم الله وجهه بعد وفاة السيدة فاطمة تنفيذا لوصيتها . . ومن بعده تزوجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وليس لها عقب . وكانت وفاة السيدة زينب فى سنة ثمان، وقد تقدم أنها لما هاجرت دفعها رجل فوقعت على صخرة فأسقطت حملها، ثم لم تزل وجعة حتى توفيت، فكانوا يرونها شهيدة .

السيدة رقية والسيدة أم كلثوم عليها السلام

فالأولى تزوجها أولا ابن عمها عتبة بن أبي لهب، كما تزوج أختها أم كلثوم أخوه عتيبة بن أبي لهب، ثم طلقاهما قبل الدخول بهما بغضة فى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين أنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ۝ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾
(سورة المسد) .

فتزوج سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية، وهاجرت إلى أرض الحبشة، ويقال: إنه أول من هاجر إليها بأهله،ثم رجعا إلى مكة وهاجرا إلى المدنية وولدت له ابنه عبد الله فبلغ ست سنين، فتوفى وكان يكنى به أولاً، ثم اكتنى بابنه عمرو، وتوفيت عليها السلام وقد انتصر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ببدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . ولما أن جاء البشير بالنصر إلى المدينة– وهو زيد بن حارثة –وجدهم قد دفنوها . . وكان عثمان قد أقام عليها يمرضها بأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وضرب له بسهمه وأجره، ولما

رجع ﴿ﷺ وآله﴾ زوجه بأختها أم كلثوم أيضاَ فى شهر ربيع من العام الثالث للهجرة وهذا كان يقال له ذو النورين، وظلت معه ست سنوات حتى توفيت عنده فى شعبان سنة تسع ولم تلد له شيئا، وقد قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : لو كانت عندي ثالثه لزوجتها عثمان، وفى رواية: لو كن عشراَ لزوجتهن عثمان .

السيدة فاطمة عليها السلام

سيدة نساء العالمين، شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، مفطورة على يقين التدين، ريحانة رسول الله﴿ﷺ وآله﴾، آخر من بقى من أولاده على قيد الحياة، فشهدت انتقاله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى، وكانت أول من لحق به ﴿ﷺ وآله﴾.. وكان النبى ﴿ﷺ وآله﴾لا يصبر عن رؤيتها، ولا يبطئ عن زيارتها، ولا يطيق بعده عنها، فكثيرا ما يذهب إليها ويجلس عندها ويطيل الجلوس، ويشاركها شئونها، ويحمل عنها أولادها، ويسألها عن مكنون سرها ودخيلة أمرها.

تزوجها ابن عمها على بن أبي طالب سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: ومحسن، وولدت له أم كلثوم وزينب. وقد تزوج عمر بن الخطاب فى أيام ولايته بأم كلثوم بنت على كرم الله وجهه من فاطمة، وأكرمها وأصدقها أربعين ألف درهم لأجل نسبها من رسول الله﴿ﷺ وآله﴾، فولدت له زيد بن عمر ورقية. ولما توفى عمر تزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر فتوفى عنها، فخلف عليها أخوه محمد فتوفى عنها، فتزوجها أخوهما عبد الله بن حعفر فتوفيت عنده. وقد كان عبد الله بن جعفر تزوج بأختها زينب بنت على وقد أثمر زواجها المبارك من ابن عمها ثمرته اليانعة، فولدت أربعة بنين هم على وعون وعباس ومحمد، كما ولدت فتاتين هما أم كلثوم وأم عبدالله، فكان هؤلاء الأبناء نورا" ساطعا" بالعلم والحكمة، وجميعهم توفى

دون عقب إلا عليًا وأم كلثوم، فقد بارك الله فيهما، وجعل الخير فى نسلهما، والبر فى عقبهما، والفقه فى ذريتهما، وقد توفيت عنده أيضا ودفنت بالقاهرة رضى الله عنها. وانتقلت السيدة فاطمة بعد رسول الله ﷺ وآله بستة أشهر على أشهر الأقوال، وهذا الثابت عن عائشة فى الصحيح.

أسماؤها وألقابها وكنيتها

١- فهى فاطمة:قال رسول الله ﷺ وآله للسيدة فاطمة:(يافاطمة، أتدرين لم سميت فاطمة؟ قال الإمام على: يارسول الله لم سميت فاطمة؟ قال: إن الله عز وجل قد فطمها؟ وذريتها من النار يوم القيامة).

٢- لقبت بالزهراء: لأنها كانت نورانية اللون، وعن جعفر بن محمد بن على﵁ - عن أبيه- قال: سألت أبا عبد الله﵇، عن فاطمة لم سميت الزهراء؟ فقال: لأنها إذا قامت فى محرابها يزهو نورها لأهل السماء، كما يزهو نور الكواكب لأهل الأرض. وقيل: إنه حين وضعتها السيدة خديجة رضى الله عنها حدث فى السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك اليوم. وقيل: إنها سميت الزهراء لأنها كانت لا تحيض، وإذا ولدت طهرت من نفاسها بعد ساعة حتى لا تفوتها الصلاة.

يابنى الزهراء أنتم عترتى   أنتم ذخرى وكنزى ونجدتى
يابنى الزهراء من أمكم   راجيا يحظى بنيل النعمة
يابنى الزهراء حبى لكم   طمأن القلب بنور الحجة
يابنى الزهراء لى أمل ولى نسبة   صحت بنور حقيقة
يا بنى الزهراء المودة سادتى فى   القرابة نص محكم آية
ودّكم ياآل طه أرتجى   أسعدوا مضنى بمعنى النسبة
يابنى الزهراء كفاكم شرفا   آية القرآن فرحى بهجتى

٣- لقبت بالمحادثة: لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها، كما كانت تنادى مريم ابنة عمران عليهما السلام.

٤- لقبت بالصديقة والمباركة والطاهرة والزكية والراضية والمرضية: وهى آيات على ما اتسمت به عليها السلام من الصدق، والبركة، والطهارة، والعفة، والرضا، والطمأنينة.

٥- لقبت بالبتول:لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا" ودينا" وحسبا" – لأن البتل لغة هو القطع- وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى. وعن عمر بن على رضى الله عنهما: أن النبى سئل عن البتول وقد قيل له: سمعناك يارسول الله تقول مريم بتول، وفاطمة بتول، فما ذاك؟ فقال(البتول هى التى لم تر حمرة قط)، أى: لم تحض. وعن أسماء بنت عميس قالت: قال لى رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ وقد كنت شهدت فاطمة قد ولدت بعض ولدها، لم أر لها دما، وسألته فقال: (يا أسماء إن فاطمة خلقت حورية إنسية، أما علمت أن فاطمة طاهرة مطهرة؟).

وبالبتول إلى طه الحبيب لقد   توسل الفرع فى نيلى وإمدادى
إلى البتول بمولاى الحسين لقد   تشفع الفرد فى وردى وإسعادى

٦- كنيت بأم أبيها: قال بعض العلماء: وذلك لأنها كانت أصغر بنات الرسول﴿ ﷺ وآله﴾، ولأنها كانت فى البيت وحدها بعد وفاة السيدة خديجة، فتولت رعاية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ والسهر عليه.

وعندى: إنه من الطبيعى أن تكون الزهراء أما للرسول﴿ ﷺ وآله﴾ فى رسالته لا فى ولادته، ولعله لأمر قد قدر، فالنبى﴿ ﷺ وآله﴾ على علم من أنه لن يعقب إلا من الزهراء، فستكون هى التيار الذى يحمله نوره الفياض، عن طريق الورثة المحمدين فكان يعاملها معاملة الأم، فيقبل يدها ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة، فهو﴿ ﷺ وآله﴾ لا يهب الألقاب عبثا ولا يمنح الكنى تشهيا، وإنما هى الحكمة تضع الشئ

موضعه، وسيان فى هذا للعمود من النور المتطاول برأسه إلى عنان السماء أن تكون السيدة فاطمة بنتا لأبيها وأما له، وسيان فى دوحة الشرف أصل وفرع، ما دام الجميع يهب من إشعاعه وتدفقه ما يعجز الغير عن اللحوق به.

بلاغتها وفصاحتها وفلسفتها

أوتيت الزهراء عليها السلام حظا عظيما من الفصاحة والبلاغة، فكلامها متناسق متشاكل الأطراف، تملك القلوب بمعانيه، وتجتذب النفوس بمحكم أدائه ومبانيه، فهى فى البيان من أغزر القوم مادة، وأطولهم باعا، وأمضاهم سليقة، وأسرعهم خاطرا، وإنه يتبين ذلك خاصة فى هذه الخطبة:

فبعد أن حمدت الله وأثنت عليه وصلت على أبيها.. التفتت إلى أهل المجلس وقالت:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتة.

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان اتباعه، مؤد إلى النجاة استماعة، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمة المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيرا لكم من الشرك، والصلاة تتريها لكم من الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء فى الرزق، والصيام تثبيتا للإخلاص، والحج تشييدا للدين، والعدل تنسيقا للقلوب، وطاعتنا نظاما للملة، وإمامتنا أمانا من الفرقة، والجهاد عزا للإسلام، وذلا لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة فى العمر، والقصاص حقنا للدماء، والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة، وتوفية المكاييل

والموازيين تغيرا للبخس، والنهى عن شرب الخمر تتريها عن الرجس، واجتناب القذف حجابا عن اللعنة، وترك السرقة إيجابا للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصا له بالربوبية، ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢). واطيعوا الله فيما أمركم ونهاكم عنه﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨) .

فى هذا المقطع الوضاء من الخطبة ترسم السيدة الزهراء الحقيقة الكبرى التى امتاز بها الإسلام عن سواه من الشرائع فى كونه عقيدة ونظاما ومنهجا، طرق باب كل مشكلة من مشكلات الحياة الإنسانية، وتوفر على حلها بما يتناسب والمصلحة، وبما يتماشى والحكمة.

ويتضح لنا أن السيدة الزهراء عليها السلام قد تحدثت عن فلسفة الإسلام وأرادت أن ترسم العلل التى من أجلها حددت معالم الرسالة الإسلامية بهذه الصيغة لا بسواها.

خصائصها ومناقبها وفضائلها

١- سيدة نساء الأمة: روى الطبرانى قال﴿ ﷺ وآله﴾:(إن ملكا من السماء لم يكن زارنى فاستأذن الله فى زيارتى فبشرنى، أو قال: أخبرنى، أن فاطمة سيدة نساء أمتى) .

٢- أحب الأهل: روى أبو داود قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (أحب أهلى إلى فاطمة) .

٣- نجاتها هى وولدها: روى الطبرانى قال﴿ ﷺ وآله﴾:للسيدة فاطمة: (إن الله غير معذبك ولا ولدك بالنار) .

وعن الإمام على أنه كان عند رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فقال:(أى شئ خير للمرأة؟) فسكتوا، فلما رجع، قال للسيدة فاطمة: أى شئ خير للنساء؟ قالت: لا يراهن الرجال!!

فذكر ذلك للمصطفى﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: (إنما فاطمة بضعة منى) رواه البزار.

وفى قول المصطفى﴿ ﷺ وآله﴾ : (فاطمة بضعة منى) إشارة إلى أنها تحمل خصائص وصفات النبى﴿ ﷺ وآله﴾ التى أفرده ربه بها دون سائر الخلق، ولها من الفضل والعطايا
ما لأبيها ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن البضعة هى القطعة من اللحم.

٤- مكانتها: روى البخارى قال﴿ ﷺ وآله﴾:(فاطمة بضعة منى " أى جزء منى " فمن أغضبها أغضبنى) .

وروى الإمام أحمد:(فاطمة بضعة منى يقبضنى ما يقبضها، ويبسطنى ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى) .

وروى البخارى بمعناه وأبو داود قال﴿ ﷺ وآله﴾:(إن فاطمة وعليا والحسن والحسين فى حظيرة القدس فى قبة بيضاء سقفها عرش الرحمن) .

٥- رضا الله لرضاها وغضبه لغضبها: روى الطبرانى قال﴿ ﷺ وآله﴾:(يافاطمة إن الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك) .

٦- حسن لقاء الرسول﴿ ﷺ وآله﴾ لها: روى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: بينا رسول الله فى بيتى إذ قال الخادم: إن عليا وفاطمة بالباب، فقال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ : (قومى فتنحى عن أهل بيتى)، فدخل على وفاطمة ومعهما الحسن والحسين، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره، واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى، فقبل فاطمة وقبل عليا.

٧- مسئوليتها عن نفسها: قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ :(يافاطمة بنت رسول الله اعملى خيرا فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا يوم القيامة)، فتلك خصوصية تفردت بها السيدة فاطمة، لأن جميع الأمم يوم القيامة فى حاجة إلى شفاعة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾،لأن أعمالهم مهما كثرت لن تدخلهم فى رحمة الله، أما السيدة فاطمة فبعملها لا تحتاج إلى

شفاعة، ولما كانت هى بضعته وهو﴿ ﷺ وآله﴾ يشفع ولا يشفع فيه، فهى أيضا تشفع ولا يشفع فيها.

٨-إغضاء الجميع حياء عند مرورها يوم القيامة: روى أبو بكر الشافعى قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (إذا كان يوم القيامة ناد مناد من بطنان العرش: ياأهل الجمع نكسوا رءوسكم، وغضوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد على الصراط، فتمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمر البرق) .

٩- أول من يدخل الجنة: روى ابن سعد عن الإمام على قال: أخبرنى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن أول من يدخل الجنة أنا وفاطمة، أى: بعده﴿ ﷺ وآله﴾ .

١٠- أشد الناس شبها برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ : روى ابن حبان عن السيدة عائشة قالت:(ما رأيت أحدا أشبه كلاما ولا حديثا برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من فاطمة، كانت إذا دخلت قام إليها فقبلها، ورحب بها، وأخذ بيديها وأجلسها فى مجلسه. وكانت هى إذا دخل عليها قامت إليه فقبلته، وأخذت بيده، وأجلسته مكانها. فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه فأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت: كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فإذا هى امرأة منهن. بينما هى تبكى إذ تضحك. فلما توفى رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ سألتها عن ذلك فقالت:(أسر لى أنه قد حضر أجلى فبكيت،ثم أسر لى أنى أول أهله لحوقا به فضحكت) .

وروى الحاكم فى المستدرك عن أنس بن مالك قال: سألت أمى عن صفة فاطمة فقالت: { كانت أشد الناس شبها برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ، بيضاء مشربة بحمرة لها شعر أسود يتعفر لها.. كانت كأنها القمر ليلة البدر} .

١١- تخدمها الملائكة: قال الملا فى سيرته وابن حجر فى الصواعق المحرقة: أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أرسل أبا ذر ينادى عليا فرأى رحى تطحن فى بيته وليس معها أحد، فأخبر النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك فقال: (ياأبا ذر أما علمت أن لله ملائكة سياحين فى الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد) .

١٢- يحرم التزوج عليها والجمع بينها وبين ضرة: قال المحب الطبرى: دلت الأخبار على تحريم نكاح على على فاطمة حتى تأذن.

١٣- أنها لا تجوع: روى البيهقى فى الدلائل عن عمران بن حصين قال: كنت مع رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ إذ أقبلت فاطمة فوقفت بين يديه فنظر إليها وقد ذهب الدم من وجهها، وغلبت عليها الصفرة من الجوع، فرفع يده حتى وضعها على صدرها فى موضع القلادة، وفرج بين أصابعه ثم قال:(اللهم مشبع الجماعة، وقاضى الحاجة، ورافع الوضيعة، لا تجع فاطمة بنت محمد) .

فرأيت الصفرة قد ذهبت عن وجهها وظهر الدم. ثم سألتها بعد فقالت: (ما جعت بعد ذلك أبدا) رواه الطبرانى فى الأوسط.

١٤- لم تغسل بعد الموت: روى الإمام أحمد وابن سعد فى طبقاته عن سلمى قالت: اشتكت السيدة فاطمة شكوها الذى قبضت فيه! فكنت أمرضها، فأصبحت يوما، وخرج على لبعض حاجته، فقالت: ياأمة أسكبى لى غسلا ، فسكبت لها غسلا فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل ثم قالت: اعطينى ثيابى الجدد، فلبستها، ثم قالت: قربى فراشى وسط البيت، فاضطجعت واستقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها وقالت: إنى مقبوضة وقد تطهرت، فلا يكشفنى أحد ! فقبضت مكانها فجاء على فأخبرته فقال: لا والله لا يكشفها أحد، فدفنها بغسلها.

وكان ذلك ليلة الثلاثاء الثالث من رمضان سنة أحدى عشرة من الهجرة وهى بنت ثمان وعشرين سنة.

وصيتها عليها السلام

أوصت السيدة الزهراء الإمام عليا بثلاث وصايا:

١- أن يتزوج بأمامة بنت أختها زينب رضى الله عنها.

٢- أن يتخذ لها نعشا وصفته له، فكانت أول من غطى نعشها من النساء فى الإسلام.

٣- أن تدفن ليلا، ولم يحضر مع الإمام على سوى الصفوة المختارة من أصحابه.

وما أعظم مناجاتها لربها سبحانه وتعالى:

(اللهم قنعنى بما رزقتنى، واسترنى، وعافنى أبدا ما أبقيتني،واغفر لى وارحمنى إذا توفيتنى، اللهم لا تفتنى فى طلب ما لم تقدر لى، وما قدرته على فاجعله ميسرا سهلا، اللهم كافئ عنى ولدى، وكل من له نعمة على خير مكافأتك، اللهم فرغنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك،ولا تحرمنى وأنا أسألك،اللهم ذلل نفسى فى نفسى، وعظم شأنك فى نفسى، وألهمنى طاعتك، والعمل بما يرضيك، والتجنب لما يسخطك، ياأرحم الراحمين) .

سيدنا إبراهيم عليه السلام

أمه مارية القبطية كما قدمنا، وكان ميلاده فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة، وكانت قابلته سلمى مولاة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ امرأة أبى رافع، فبشر به أبو رافع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فوهب له عبدا.

ولما بلغ سابعه عق عنه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وحلق شعره وتصدق بزنته فضة على المساكين، وأخذوا شعره ودفنوه فى الأرض، وسماه. وقد روى عن ابن لهيعة وغيره قال: لما حمل إبراهيم أتى جبريل فقال: السلام عليك ياأبا إبراهيم، إن الله قد وهب لك غلاما من أم ولدك مارية، وأمرك أن تسميه إبراهيم، فبارك الله لك فيه وجعله قرة عين لك فى الدنيا والآخرة.

وعن أنس قال: توفى إبراهيم ابن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهو ابن ستة عشر شهرا. فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ادفنوه فى البقيع فإن له مرضعا يتم رضاعه فى الجنة.

وعن أنس قال: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . كان إبراهيم مسترضعا فى عوالى المدينة عند أم سيف امرأة قين- حداد- يقال له أبو سيف، وكان ينطلق ونحن معه فيدخل إلى البيت وإنه ليدخن، فيأخذه فيقبله ويشمه ثم يرجع.

وعن البراء قال: صلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على ابنه إبراهيم، وتوفى وهو ابن ستة عشر شهرا وقال: إن له فى الجنة من يتم رضاعه وهو صديق.

ودخل على كرم الله وجهه فى روضته حتى سوى عليه ودفنه، ثم خرج ورش عليها الماء، وأدخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يده فيها وبكى، وبكى المسلمون حوله حتى ارتفع الصوت، ثم قال ﴿ﷺ وآله﴾ : تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا عليك ياإبراهيم لمحزونون.

وقال الواقدى: توفى إبراهيم ابن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول سنة عشر، فى بنى مازن بن النجار فى دار أم برزة بنت المنذر، ودفن بالبقيع.

قال الحافظ ابن عساكر: إن الشمس كسفت يوم وفاته، فقال الناس: كسفت لوفاة إبراهيم. فخطب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال فى خطبته: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، لا ينكسفان أو ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

٢- أعمامه وعماته ﴿ﷺ وآله﴾

أولا: أعمامه ﴿ﷺ وآله﴾

كان للنبى عشرة من الأعمام هم:

الحارث، والزبير، وأبوطالب، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، وذو المقوم، وضرار، والعباس، وقثم، والمغيرة. قيل: وقد أسلم منهم اثنان هما حمزة ،والعباس رضى الله عنهما، وقد قدمنا فيما سبق أدلة إسلام عمه أبو طالب رضي الله عنه، ولم يثبت أن أحدا من أعمامه كفر بدعوته إلا أبو لهب.

١- البطل الضرغام

سيدنا حمزة بن عبد المطلب

هو: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أسد الله وأسد رسوله﴿ﷺ وآله﴾ وعمه وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثوبية مولاة أبي لهب، وكنيته أبو عمارة. وكان له من الولد: يعلى، وعامر، وبنت- هى التى اختصم فيها زيد وجعفر وعلى- واسمها أمامة. وانفرد الواقدى، فقال: عمارة.

وأمه: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وهى بنت عم السيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وهو شقيق صفية بنت عبد المطلب، أم الزبير بن العوام- رضى الله عنهم أجمعين-.

ولد سيدنا حمزة رضي الله عنه قبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بسنتين، وقيل: بأربع. وكان فارسا من فرسان قريش وسادها وأسخيائها المعدودين.

أسلم ﵁ فى السنة السادسة من مبعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد دخول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دار الأرقم، فعز به المسلمون، وثبت لهم بعض أمرهم وهابتهم قريش وعلموا أن حمزة سيمنعهم.

قال محمد بن كعب القرظى: قال أبوجهل فى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فبلغ ذلك حمزة فدخل المسجد مغضبا فضرب رأس أبي جهل بالقوس ضربة أوضحته. وأسلم حمزة فعز به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمسلمون.

لازم سيدنا حمزة ﵁ نصر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهاجر إلى المدينة، وآخى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بينه وبين زيد بن حارثة، وشهد بدرا، وبارز وأبلى فيها بلاء عظيما، وهو صاحب أول لواء عقده رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين قدم المدينة، وقاتل بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم أحد بسيفين، حتى قتل شهيدا، وهو سيد الشهداء ﵁ .

الأحاديث الواردة فى مناقبه:

روى جابر بن عبد الله ﵁ عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: " سيد الشهداء عند الله يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب" (أخرجه الحاكم والطبرانى)

وفى رواية عنه ﵁ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: " سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" (أخرجه الحاكم والخطيب البغدادى) .

وعن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: كان حمزة يقاتل فى يوم أحد بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بسيفين ويقول: " أنا أسد الله " (أخرجه البخارى ومسلم والحاكم) .

وعن قيس بن عباد قال: سمعت أبا ذر يقسم: لقد نزلت هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج:١٩). فى على، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، اختصموا يوم بدر.

بارز الثلاثة الأوائل وهم مسلمون الثلاثة الأواخر من المشركين يوم بدر، وقد قتل المشركين الثلاثة.

وفاته ﷺ :

استشهد سيدنا حمزةﷺ فى غزوة أحد، فقتل غدرا بعد أن أبلى بلاء حسنا، وقتل واحد وثلاثين رجلا من المشركين، وقصة استشهاده مشهورة أخرجها البخارى وغيره وقد ذكرناها كاملة عند الحديث عن غزوة أحد. وكان ذلك فى النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وهو فى الثامنة والخمسين من عمره.

وجاءت شقيقته صفية يوم أحد معها ثوبان لحمزة فلما رآها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كره أن ترى حمزة على حاله، وكان المشركين قد مثلوا به، فبعث إليها ابنها الزبير يحبسها.

قال الزبير: فخرجت أسعى إليها قبل أن تنتهى إلى القتلى، قال: فلدمت– ضربت ودفعت – فى صدرى وكانت امرأة جلدة، قالت: إليك – ابتعد عنى – لا أرض لك، فقلت: إن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ عزم عليك، قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخى حمزة، فقد .

بلغنى مقتله فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فعل به كما فعل بحمزة. قال: فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة فى ثوبين والأنصارى لا كفن له. فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصارى ثوب. فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما فى الثوب الذى صار له.

وحزن عليه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ حزنا شديدا، ووقف عليه حين قتل ومثل به، فجعل ينظر إليه وهو يتألم ويقول: " رحمك الله. . أى عم، لقد كنت وصولا للرحم، فعولا للخيرات، لن أصاب بمثلك بعد اليوم " .

وقد واسى الله عز وجل نبيه﴿ ﷺ وآله﴾ فى حمزة وإخوانه الشهداء ونهاه عن التمثيل بقتلى المشركين انتقاما لحمزة، وعزاه به وصبره فيه، فقال عز وجل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرين ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٦،١٢٧). وفى حمزة وشهداء أحد نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩) . . وذكر ابن الجوزى فى(صفة الصفوة) عن جابر بن عبد الله قال:لما أراد معاوية أن يجرى عينه التى بأحد كتبوا إليه إنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب انبشوهم. قال: فرأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة – المجرفة من الحديد – طرف رجل حمزة فانبعث دما رضى الله عنه وأرضاه.

٢- سيدنا العباس بن عبد المطلب

عم رسول اللّه﴿ ﷺ وآله﴾

هو: أبو الفضل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ولد قبله بثلاث سنوات.

عن أبي رزين قال:قيل للعباس، أنت أكبر أم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾؟ قال ؓ: هو أكبر وأنا ولدت قبله (أورده الهيثمى ورجاله رجال الصحيح) .

وأمه: نتيلة بنت جناب بن كليب، أول عربية كست الكعبة الحرير. قالوا: سببه أن العباس ضاع وهو صغير فنذرت إن وجدته أن تكسوها، فوجدته ففعلت.

وله من الولد: الفضل وهو أكبر ولده وبه يكنى، وعبد الله وهو الحبر، وعبيد الله وكان جوادا، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وحبيبة، وأمهم جميعا أم الفضل واسمها لبابة بنت الحارث بن حزن، وكثير وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد، الحارث وأمه حجيلة بنت جندب.

وكان سيدنا العباس ؓ من سادة قريش فى الجاهلية والإسلام، وكانت إليه السقاية وعمارة المسجد الحرام. حضر مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيعة العقبة– حين بايعة الأنصار– فبايعهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ والعباس آخذ بيده ويؤكد له البيعة.

خرج سيدنا العباس ؓ مع المشركين إلى بدر مكرها فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : من لقى العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكرها، وأسره أبو اليسر كعب بن عمرو وفدى نفسه– على الرغم من أنه كان مسلما سرا، وذلك تطييبا لنفوس الصحابة لأن أقاربهم من المشركين فعلوا ذلك– ورجع ؓ إلى مكة. وقيل : أنه أسلم قديما وكتم إسلامه وصار يكتب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأخبار قريش، وكان عونا للمسلمين المستضعفين بمكة، وأراد أن يهاجر إلى المدينة، فقال له الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾" مقامك بمكة خيرا"

ثم هاجر قبل فتح مكة بقليل فختم الله به الهجرة كما ختم برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ النبوة، وشهد الفتح، ويوم حنين ثبت مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حين انهزم الناس، وكان آخذا بلجام بغلة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، فأمره النبى ﴿ ﷺ وآله﴾أن ينادى فى الناس بالرجوع فنادى فيهم– وكان صيتا– فأقبلوا عليه، وحملوا على المشركين فهزموهم.

وكان رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يجله اجلال الوالد فيعظمه ويفخمه ويبره، وكانت الصحابة تقدمه وتشاوره فقد كان صاحب رأى سديد، جوادا وصولا لأرحام قريش محسنا إليهم.

قال الزبير بن بكار: كان العباس ثوب لعارى بنى هاشم، وجفنه لجائعهم، ومنظرة لجاهلهم .

وفى ذلك يقول ابراهيم بن هرمة:

وكانت لعباس ثلاث نعدها　　　إذا ما جناب الحى أصبح أشهبا
فسلسلة تنهى الظلوم وجفنة　　　تباح فيكسوها السنام المزغبا
وحلة عصب ما تزال معدة لعار　　　ضريك ثوبه قد تهيبا

وكان عمر بن الخطاب ،وعثمان بن عفان رضى الله عنهما يكرمانه ويبخلانه، فكان العباس ﷺ إذا مر بعمر، أو عثمان -فى أيام خلافتهما- وهما راكبان ترجلا حتى يتجاوزهما إجلالا لعم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وثبت فى صحيح البخارى وغيره أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ﷺ فيقول: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا" فيسقون(أخرجه البخارى).

قال الحافظ بن حجر"فتح البارى": وقد بين الزبير بن بكار فى "الأنساب" صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة، والقول الذى وقع فيه ذلك فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال:" اللهم إنه لم يترل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى فى نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث" فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس، وكان ذلك عام الرمادة سنة ثمان عشرة.

الأحاديث الواردة فى فضله

عن سعيد بن جبير قال: أخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: "العباس منى وأنا منه"(أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم).

وعن سعيد بن أبى وقاص قال: كنا فى بقيع النخل، فأقبل العباس فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾:" هذا العباس بن عبد المطلب،أجود قريش كفا وأوصلها" (أخرجه أحمد والبزار).

وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، أن العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مغضبا وأنا عنده، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: ما أغضبك؟ قال: يارسول الله ما لنا ولقريش، اذا تلاقوا بوجوه مبشرة، وإذا لقونا لقونا بغير، قال: فغضب رسول﴿ ﷺ وآله﴾حتى أحمر وجهه ثم قال: " والذى نفسى بيده لا يدخل

قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله لرسوله ".ثم قال: "يا أيها الناس من آذى عمى فقد آذانى فإنما عم الرجل صنو أبيه"(أخرجه الترمذى والنسائى). والصنو: المماثل والمشابه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للعباس: إذا كان غداة الاثنين فأتنى وولدك حتى أدعو لك بدعوة ينفعك الله بها وولدك. فغدا وغدونا معه. وألبسنا كساء ثم قال: "اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا، اللهم احفظه فى ولده "(أخرجه الترمذى).

وفاته ﵁:

توفى سيدنا العباس ﵁ بالمدينة يوم الجمعة لأربع عشر خلت من رجب سنة اثنتين وثلاثين وكان فى نحو الثامنة والثمانين من عمره، وصلى عليه عثمان بن عفان ﵁ ودفن بالبقيع ﵁ وأرضاه .

ثانيا: عماته(ﷺ وآله).

كان لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ست عمات هن: أم حكيم وهى البيضاء، وبرة، وعاتكة، وصفية، وأروى، وأميمة، أسلمت صفية، واختلف فى اسلام أروى وعاتكة. قال محمد بن سعيد: أسلمتا وهاجرتا إلى المدينة، وعاتكة هى التى رأت رؤيا غزوة بدر وقصتها مشهورة، ولم يثبت أن واحدة من عماتة ﴿ﷺ وآله﴾ كفرت بدعوته .

السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾

أما السيدة صفية فهى بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وشقيقة أسد الله حمزة، وأم الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، صحابية شجاعة شاعرة.

كان أول من تزوجها الحارث بن حرب بن أمية، أخو أبي سفيان بن حرب، ثم هلك عنها وتزوجها العوام بن خويلد،أخو سيدة النساء خديجة بنت خويلد، فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة .

والسائب : صحابى، شهد بدرا والخندق وغيرهما واستشهد باليمامة ولا عقب له كما فى الإصابة.

كانت رضى الله عنها من المهاجرات الأول، وقد أجمعوا على إسلامها بين عماته ﴿ ﷺ وآله﴾ ،قال الذهبى:" وما أعلم من أسلمت مع حمزة أخيها إلا أم الزبير وولدها ".

ويوم أحد استشهد أخوها حمزة– سيد الشهداء– فوجدت على مصرعه، وكانت من الصابرات المحتسبات.

ويوم الخندق: كانت فى حصن حسان بن ثابت فنزلت من الحصن وقتلت يهوديا بعمود.

عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما عن صفية الهاشمية قالت:"أنا أول امرأة قتلت رجلا: كنت فى فارع– حصن حسان بن ثابت– وكان حسان معنا فى النساء والصبيان حين خندق النبى ﴿ ﷺ وآله﴾.

قالت السيدة صفية: فمر رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن فقلت لحسان: إن هذا اليهودى بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عوراتنا، وقد شغل عنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه فقم إليه فاقتله".

قال: "يغفر الله لك يابنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا" قالت صفية:" فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت، أى : شدت وسطها، وأخذت عمودا من الحصن ثم نزلت إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ثم رجعت الى الحصن " فقلت: ياحسان انزل فاسلبه فإنه لم يمنعنى أن أسلبه الا أنه رجل" (أخرجه الحاكم والهيثمى والطبرانى).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤). قام النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال:" يافاطمة بنت محمد،يا صفية بنت عبد المطلب، يابنى عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا. سلونى من مالى ما شئتم" (أخرجه مسلم والترمذى والنسائى) .

وهى رضى الله عنها القائلة تندب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى: عين جودى بدمعة وسهود واندبى خير واصل مفقود

واندبى المصطفى بحزن شديد   خالط القلب فهو كالمعمود
كدت أقضى الحياة لما أتاه   قدر خط فى كتاب مجيد
فلقد كان بالعباد رءوفا   ولهم رحمة وخير رشيد
رضى الله عنه حيا وميتا   وجزاه الجنان يوم الخلود

توفيت السيدة صفية رضى الله عنها فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ؓ سنة عشرين، ولها بضع وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها وأرضاها.

٣–زوجاته﴿ ﷺ وآله﴾

مقدمة:

خلق الله الانسان ليكون خليفة عنه جل جلاله، وسخر له ما فى السموات و ما فى الأرض جميعا منه، خلق سبحانه ملكه بيد واحدة، وملكوته بيد واحدة، والإنسان

بيديه، ليظهر جل جلاله بعجائب قدرته وغرائب حكمته ظهورا تقوم به الحجة على أنه القادر الحكيم سبحانه، المتره عن الزوجة والولد والوالد، خلق سبحانه الإنسان على صورة الرحمن، فهو جل جلاله الواحد الأحد، المنفرد بالأحدية، المتره عن الكثرة والاحتياج، فهو سبحانه وتعالى المنفرد بالواحدية دون غيره، والانسان وإن كان خلقه الله على صورة الرحمن، إلا أنه جل جلاله فطره على الضرورة والمثونية، فالله هو الغنى الذى لا يفتقر الى شئ.

والإنسان يغنى ويفتقر، ويعز ويذل، ويقوى ويضعف، ويقدر ويعجز،ويحيا ويموت، ويعين ويعان، ويعلم ويجهل، ويضل ويهتدى، قهره الله تعالى على حقيقة العبودية- وإن نسيها- وجعله مضطرا فى كل نفس إلى عناية ومعونة- وإن غفل عن نشأته الأولى والآخرة- ومن دلائل احتياجه واضطراره وافتقاره أن خلق له بطنا يأكل ويتغوط، وجعله يقهر بالنوم فى كل يوم، وجعل جسمه أصغر الأجسام قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (غافر:٥٧). فهو فوق الملائكة قدرا إذا زكت نفسه، وأسفل من الشياطين إذا دساها .

بين له سبحانه وتعالى سبيل الخير والشر، وأمره بما فيه خيره فى الدنيا والآخرة، ومنحه الحرية والارادة قال تعالى: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

ومن دلائل اضطراره وحجج احتياجه أن خلق له من نفسه زوجة، هى هو فى الحقيقة ونفس الأمر، ولذلك جعل له أنسا بها وسكونا إليها، فهى كالأرض للانسان وهو كالبذر لها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (الأعراف:١٨٩) .

فالمرأة حجة على أن الرجل عبد الله والرجل حجة على أن المرأة أمة الله، لما لكل نوع من الحاجة إلى الآخر، الدالة على الذل والاحتياج، فهى محل أنسه وهو محل أنسها، وهى أرض الأشجار الانسانية، وبستان مشاهد عجائب القدرة والحكمة العلية.

حكمة تعدد الزوجات:

لا شك أن من لا يشهد الشمس ضحوة أشد عمى من كل أعمى، وكذلك من ينكر الفضائل الكاملة يكون أضل الخلق أجمعين. ينكرون على الاسلام تعدد الزوجات، وان التلميذ المبتدئ يعلم حق العلم أن الدين الذى يدين به جميع الناس يجب أن يكون جامعا لما لابد للعمران منه، وخصوصا ما يحفظ النوع الانسانى من الفناء.

أنت أيها المنتقد تجهل سر الحكمة فى إباحة تعدد الزوجات، كما تجهل أسرار الحكمة فى المجتمع الانسانى، وتجهل الوسائط التى بها بقاء هذا النوع وقوة التعاضد والتعاون مما لولاه لفسد العمران الانسانى.

الأساس الأول: من البديهى أن الانسان لا يمكنه أن يقوم لنفسه بكل حاجياته، وأن الإنسان معرض لأمراض كثيرة، وأكثر الأمراض تكون فى الرحم، وأن أمراض الأخلاق أضر من أمراض الأبدان، وأن الوالدين قد يقهران البنت أو الولد على من لا تميل اليه أو من لايميل إليها، وأن افتتاح العشرة لا تظهر فى مبدئها حقيقة الأخلاق.لأن الأخلاق السيئة كامنة فى النفس يخفيها الإنسان تكلفا عند الضعف، كما أن الأمراض يخفيها الإنسان تكلفا بالتجمل،ولو أن الحكم الالهى يوجب أن الإنسان إذا تزوج امرأة لا يفارقها الا بالموت ولا تفارقه هى الا بالموت، لكان ذلك سببا فى البؤس وتعاسه الحياة وتؤول بخراب العمران.

تلك الأساسات التى ذكرها لك تنتج أن الرجل اذا تزوج امرأة مريضة برحمها عاش معها معذبا مما يتحمله من مرضها محروما من الذرية. واذا تزوجت المرأة رجلا عقيما أو عنينا لا يمكنها أن تحفظ نفسها، أو تعيش تعيسة فى مرض وحزن وهم .

وبحقك أيها المنتقد لو أن كل أنسان تزوج واحدة وكثر النساء فى العالم ولم يجدن لهن يتزوجهن أيحفظن دينهن أو يحافظن على شرفهن؟.

لم يكن السر فى تعدد الزوجات إلا حفظ النسل أولا بأنه إذا تزوج الرجل امرأة وتحقق له طبا أنها لا تلد، فالدين لا يمنعه أن يتزوج أخرى وله أن يبقى الأولى معه وفاء أو يطلقها. وقد اشترط الدين لتعدد الزوجات شروطا: منها العدل فى مساواتهن، والوسعة التى بها يقوم بنفقتهن وتربية أولاده منهن، وحسن المعاشرة التى تطيب بها حياتها معه . قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾ (النساء:٣). وقال تعالى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (الطلاق:٢). وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (البقرة:٢٣٧) .

أمرنا الله أن لا نضيق على المرأة بالعضل بأن نضايقهن ليتركن حقوقهن بعد الطلاق. أمرنا الله تعالى أن ننفق عليهن بعد الطلاق، وأن نعطيهن مالهن عندنا من الصداق ، وأن تدوم النفقة حتى يتحقق عدم الحمل، فإن كانت حبلى وجبت عليه النفقة حتى يبلغ الولد سبع سنين والبنت تسع سنين.

الأساس الثانى: الإنسان فى حاجة للتعاون، وأكمل من يعينه أقاربه وأصحابه. فقد يتزوج الرجل من العائلة ليكون أولاده أهل شرف وعصبة، وقد يتزوج ليكون أولاده أصحاء أقوياء البنية، وقد يتزوج لتكون الزوجة معينة له على دينه ودنياه، وقد يتزوج لتكون الزوجة مدبرة لمنزله مربية لأولاده، والمعانى المعقولة التى ترجح تعدد الزوجات محسوسة راجحة. والحقيقة أن الانسان اذا تزوج امرأة أخرى هى كالأولى لا تتفاوت عنها لم ينصف. ولما كان الدين الاسلامى يوجب العمل والنشاط على كل مسلم ويجعل أول واجب التعليم، كان ولا شك كلما كثر النسل انتشرت الفضائل وعمت الخيرات.

لا تعجب فأكثر أهل أوربا تلاميذ دارون، وقد كادت تلك الحقيقة تكون مقررة فى أذهان نصارى الشرق، لأن تعاليم الدين المسيحى ترغب فى العيشة الحيوانية، وهم يعتقدون أنه ابن الله فلم يرغبهم فى العيشة الحيوانية إلا ليرجعهم الى أصولهم.

ولما كان الدين المسيحى أوجب على الناس ترك الدنيا وكرههم فى العمل لها فيها، وأخبر أن الغنى لا يدخل الملكوت، ولم يتزوج أمام تلاميذه ولم يأمر أحدا منهم بالزواج، و كان يتناول طعامه من أيدى الناس بلا عمل، كان ولابد أن يأمر بترك الزواج مرة واحدة أو يتزوج واحدة فقط، وإلا مات الناس جوعا، لأنه لم يأمر بتعليم الصناعة والحرف ولا بالزراعة و لا بالعمل مطلقا للدنيا فيها. فكأن دين المسيح دين كسل والبطالة والرهبانية، وسكنى الغابات والكهوف ولذلك ترى أن أهل أوربا لما أشرقت عليهم أنوار العلوم الاسلامية والعمل الدنيا، وقام أهل الأفكار منهم وطالعوا التعاليم المسيحية التى تحتم على بنى الانسان أن يترك الحضارة والمدنية والتمتع بنعم الله الائتلاف والتعاون، حكم أن أصل الانسان قرد، وأنه لابد وأن يؤمر بالرجوع الى ما كان عليه من العيشة فى الكهوف والغابات وترك استكشاف أسرار الكائنات وخواصها للانتفاع بها، والا ما الذى دعا دارون أن يقول: ان أصل الإنسان قرد، ويقوم مبرهنا بالبراهين التى تنبئ عن فساد قواه العقلية واختلال تركيب أمزجته وضعف المجموع العصبى.

أستغفرك اللهم من حكاية أقوال من لا يعقلون، وأعوذ بوجهك الكريم من أن أقصد الشر لأحد من بنى الإنسان. اللهم وأنت سبحانك تعلم لا غيرك أنى لا أريد الا الخير، فأنزل ياإلهى بيانى هذا من قلوب الذين ينتقدون علينا منزلته من قلبى من القبول، وأحفظنى

يا إلهى بحفظك من شرهم وكيدهم ومكرهم، إن قدرت سبحانك عدم هدايتهم . اذ تقرر هذا الأمر، أبين لك أيها المنكر ما يمكنك أن تفهمه من حكمة تعدد زوجات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

حكمة تعدد الزوجات لرسول الله(ﷺ وآله):

اعتقد معى أنه رسول لجميع الخلق،وأنه خاتم الأنبياء،وأنه أرسله الله على فترة من الرسل بين جاهلية عمياء،وأمم ظلمة،ومدن فاسقة،وملوك جبابرة.وهو الذى يضع الحرب كما بشر به المسيح الذى قال:ما جئت لأضع حربا ولكنى جئت لأضع سلاما، والذى يأتى من بعدى يحصدهم بالسيف، أو كقوله عليه السلام وكان الرسل قبل رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ يبعثون لأممهم فقط، وأرسله الله تعالى للناس كافة، فكان لابد أن يكون له﴿ ﷺ وآله﴾ حزب قوى متماسك متحد اتحادا بكل معنى الكلمة من أوجه الاتحاد كلها: من جهة الدين، ومن جهة الألفة، ومن جهة القرابة، ومن جهة النسب. فحقق الله تلك الرابطة القوية بالدين وباللغة، فكان يتكلم مع كل قبيلة بلغتها، ثم أكمل الله تلك الرابطة بما أباحه له﴿ ﷺ وآله﴾ من تعدد الزوجات بوسعة،فتزوج ابنة أبى بكر الصديق وابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وزينب بنت جحش للحكمة التى سبقت،وابنة أبى سفيان،وغيرهن ممن كن سببا فى تقوية الروابط الدينية بسبب النسب واتصاله. ومن نظر بعين المفكر العالم الحكيم يتحقق أن تعدد الزوجات للنبى﴿ ﷺ وآله﴾ من علامات النبوة، وأكمل دليل على أنه خاتم الرسل، وأنه المبعوث للناس كافة بشيرا ونذيرا، وكيف يخفى على إنسان يعقل البديهى حكم هذا الحكم؟.

وقد مكث ﴿ ﷺ وآله﴾ راضيا بزوجة واحدة مدة عشرين سنة تقريبا وهو فى ريعان الشباب وراحة البدن وصفاء الوقت، ولم يتزوج السيدة عائشة رضى الله عنها والسيدة حفصة وغيرهما، إلا بعد بضع وخمسين سنة من عمره الشريف، وهو فى أعظم أوقات العمل وأصعب آنات الصعوبة، وهو بين جهاد بالسيف أو باليد أو باللسان، وبين تقرير أصول الدين وبيان فروعه، وبين تنظيم الجيوش وتزكية النفوس، حيث ان أنفاسه ﴿ ﷺ وآله﴾ كانت أنفس من النفائس. ومن قرأ تاريخه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد

الهجرة يتحقق أنه

﴿ﷺ وآله﴾، لم يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين بعد الهجرة لشهوة أو رغبة فى لذة، ولم يتزوج قبل الهجرة على التحقيق الا السيدة خديجة عليها السلام قبل البعثة، ومكثت معه ﴿ﷺ وآله﴾ راضيا بها وراضية به ﴿ﷺ وآله﴾، منذ كان عمره الشريف سبعا وعشرين سنة الى بضع وأربعين. فهل القائم بعظائم الأمور الذى يدعو الخلق أجمعين الى نجاتهم بالرحمة والرأفة والحرص عليهم، المنصب بكليته على الحق، المجاهد بنفسه منفردا فى سبيل الله اظهارا لدين الله ومحوا للضلال والكفر يتلذذ بغير الحق أو يشغل نفسا بغيره؟ حاشا أن يخطر على قلب رسول من غيرأولى العزم هذا الخاطر،فكيف يخطرعلى قلب أفضل أولى العزم

إنما هى أعمال لحكمة عالية هى من أكمل الجهاد فى الله سبحانه وتعالى. والعاقل يكتفى بأقل إشارة فكيف لا يكتفى بالعبارة؟!

وأرى أن ألحق بهذه المقدمة الحديث عن زوجاته ﴿ﷺ وآله﴾ بحسب ترتيب الزواج منهن رضى الله عنهن.

أم المؤمنين السيدة خديجة الكاملة الطاهرة

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين الأولى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر.. ومن مفاخر أبيها أنه نازع تبعا ملك اليمن حين أراد أخذ الحجر الأسعد.

أمها– فاطمة بنت زائدة بن الأصم(واسمه جندب) بن رواحة الهرم بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر.

كانت تدعى فى الجاهلية(الطاهرة). وتسمى أيضا سيدة نساء قريش، واشتهرت رضى الله عنها بالعفة والكرم والنبل والطهارة.

تجتمع مع رسول الله فى النسب الشريف فى قصى من جهة أبيها، وفى لؤى من جهة أمها– فهى قريشية أباوأما– وهى من أقرب نسائه إليه﴿ ﷺ وآله﴾ فى النسب، كريمة الأصل، شريفة المنبت، نبيلة الفعال،طيبة المعشر ذات رأى سديد، وفعل حميد، وعمل مجيد رضى الله عنها وأرضاها.

ولدت له﴿ ﷺ وآله﴾ القاسم وزينب ورقية وعبد الله وأم كلثوم وفاطمة، ولم يتزوج عليها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مدة حياتها امرأة.

نشأت فى بيت سيادةومجد، وتزوجت مرتين قبله﴿ ﷺ وآله﴾، أحدهما مخزومى قرشى هو عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومى وولدت له بنتا، والآخر تميمى وهو أبو هالة هند بن زرارة بن نباش التميمى وولدت له ابنها هندا، وقيل : ابنتها هندا. .

تأيمت بعد زوجها الثانى و عاشت عقيلة قريش وأشرف نساء مكة تتطلع إليها نفوس السادة، وسادة القبائل، وتخطب ودها العظماء والكبراء الأمجاد، ولكنها رغبت عنهم، وأعرضت فى سماحة أبية، وفى إباء سمح، لا يغض من قدر الخاطبين، ولكنه يقطع آمال المؤملين، وتخلت عن اتخاذ الزوج إلى إدارة مالها الوافر، وتجارتها الواسعة ورعاية أسرتها، وقصرت صلتها برجال مكة على الذين يعملون فى مالها، ويرتحلون بغيرها وقوافلها.

وتمتلئ أندية مكة ودورها بحديث عطر عن سيد كريم أمين من بنى عبد المطلب هو ابن الذبيح عبد الله بن عبد المطلب– سمح سهل مشغول بنفسة عن الناس. له جاه وهيبة، وعليه وقار وحشمة، يحفه التواضع، وتظهر عليه سمات الرفعة والجاه على قلة ماله ورقة حاله، كان أمينا جوادا ، حسن الطلعة ، سمح المحيا، يألف الناس ويألفونه، ويحبهم

ويحبونه، ويلقى الناس دائما بوجه صبيح حسن، ويحدثهم بأعذب الحديث ، وأطيب الكلم.

كان على شبابه لا يخالط اللاهين ولا يشارك العابثين، ولا يرد حيث يعاتب أو يلام، يتكلم نزرا، وينطق فصلا، ولا يقول هجرا ولا لغوا، ترعاه العيون بهاء وعزة، وتحوطه القلوب إجلالا ومودة، وتتمنى كل أم أن يكون لها ابنا، أو يكون لها مثله، وتود كل كريمة من كرائم مكة أن يكون لها حليلا، وهوعن أصنامهم مشغول بفكر يتأمل،وعن أنصابهم وأزلامهم محجوب بقلب أبى، وعقل ذكى، وروح قوى، وقد عرفوا من صدقه وبره، ويمنه وفضله ما جعلهم يرجعون إليه فى مهم أمرهم إذا التبست الآراء، ويقبلون حكمه على حداثة سنه اذا اختلفوا فى أمر عظيم .

وهيأت تجارة خديجة لرحلة تقصد بصرى، وقد ذكر غير مجهول– محمد بن عبد الله الهاشمى– ليقوم فى تجارتها فأثنت ورحبت ووعدت وأضعفت، وأرسلت معه مولاها ميسرة خادما ومعينا، وأوصته أن يرصد لها حاله، ويعرف لها ما تحب أن تعرفه من شأنه فارتحلا بالقافلة.

وكل يوم يرى ميسرة عجبا، من صدقه وبره، وأمانته وكرامته، ويشهد الأعاجيب من بركة يده فى المطاعم والمشارب، ويمن نقيبته فى البيع والشراء، وتلك الغمامة التى تقفو أثره تظله إن انطلق، وتقف على رأسه إن جلس. وتلك الشجرة التى حنت عليه بجزعها، وانعطف اليه بظلها، ودهشة الراهب الذى رأى ذلك فسأل ميسرة عن هذا المستظل الكريم– وقوله: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى.

وتمضى أيام الرحلة يحسبها ميسرة خفافا ندية، لا يضنيه سعيها، ولا يوحشه ليلها، لما يجد من الأنس برفقة هذا السيد الكريم الذى سمته مكة الصادق الأمين، ورآه هو ورأى منه ما ملك عليه قلبه وحير عقله، فهو لا يحلف باللات والعزى كما يحلفون، بل ولا يحلف فى بيع ولا شراء حتى يروج تجارته، وكم رأى من التجار قبله من لجاجة وحلف،

وهو سمح فى بيعه وشرائه واقتضائه، بشوش فى نظرته ولقائه، محبب لدى كل من يجالسه أو يخالطه أو يبايعه.

يأخذ النفس منه جلال هادئ، ووقار وسماحة، وكأن قوله خرزات من الدر سلكت فى نظام– فلا تجد فيها هجرا ولا فحشا ولا تطاولا.

ويوم عادت القافلة سبق ميسرة إلى مولاته يبشرها، فأطلت مع نسائها من علية لها فرأته ﴿ﷺ وآله﴾ على ناقته فى قائم الظهيرة– ومن خلفه القافلة تتهادى والغمامة تظلله.

أتراها سعيدة بعودة هذا السيد الهاشمى النبيل سالما غانما، أم تراها محبورة بأنباء الربح المضاعف والمتجر الفاخر الذى عاد به؟

وميسرة يقول ما عنده، ويحدث بما رأى وما سمع، وعن الربح والمال، والرحلة وعجائبها، ولكن قلب السيدة خديجة الطاهرة وعينها الساهمة لا تجد فى وجدانها ولا لحاظها لا شخصه ﴿ﷺ وآله﴾ يسعى على مهل حتى يحط فى ساحة دارها ويلتفت محييا مغضيا.. وهى تلقاه فى بهجة تفيض بها روحها، وبشر يسبق تحيتها ومباركتها بسلامة العودة، ويمن القفول، ويوجز لها ﴿ﷺ وآله﴾ فى بشاشة أنباء سفرته وعائد تجارته، ويؤدى إليها ما استودعته من مالها وتجارتها. ثم يمضى مودعا، غير مستأن.

وخديجة من أسرة تهتم بالشرف، وفى رجالها من كان متحنفا مطلعا على ما فى التوراة والانجيل، يترقب ظهور نبى قد أظل زمانه، ويوشك أن تشرق أنواره، يبعثه الله من ولد اسماعيل.

ومن مآثر أبيها أنه تصدى لآخر ملوك تبع، ومنعه أن يأخذ الحجر الأسعد يوم حاول تبع أن يأخذه الى اليمن.

ورغبت رضى الله عنها فى نكاحها منه ﴿ﷺ وآله﴾ ولكنها كانت ذات تصون وحياء، وكانت تتحرج مما كانت عليه قريش وقبائل العرب من عبادة الأصنام

والأوثان، التى عرفت من ابن عمها ورقة بن نوفل أنها لاتضر ولا تنفع،و إنها تخالف ما فى الحقيقة الأولى التى كان عليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما تخالف ما ورد فى التوراة والإنجيل من التوحيد الخالص لله الواحد الأحد، فهى ترقب مع ابن عمها ورقة ظهور نبى آخر الزمان،الذى بشرت به التوراة والإنجيل .

وها هى ذى ترى أمامها هذا السيد الأمين ﴿ﷺ وآله﴾ الذى شغل أندية مكة بخلقه وصدقه وعظيم سجاياه، كما شغلها بما سمعته من أمره من أحاديث قريش وغلامها ميسرة!!

إنه لا يسجد لصنم ولا يقترب إلى وثن، ولا يعبد ما يعبدون من آلهة، ولا يحلف بما يحلفون ولا يشاركهم فى إثم، ولا يعاقر خمرا، ولا يقارف مجونا ولا عبثا.. وكانت تتساءل فى سرها: أيكون هو نبى آخر الزمان؟!!

فان المتحنثين جميعا يلهجون بعلامات مبعثه، ويتحدثون عن اقتراب ظهوره، فهل يكون هو؟!!

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة، وخديجة فى تساؤلاتها الملحة،وآمالها الباسمة، فلقد ساقت الأقدار اليها أعظم الرجال، ولقد أعدت وصيغت لتكون زوجا له ﴿ﷺ وآله﴾ ، ويكون نسله منها رضى الله عنها، ولكن كيف السبيل الى الظفر بهذا الزوج الكريم، وماذا تفعل، ماذا تقول، ولمن تبوح بسرها الذى تكتمه عن كل إنسان؟!!

وتلمح صديقتها نفيسة بنت منية شرودها ووجومها وحيرتها وما تخفيه من أمر نفسها فتسألها عما يدور فى أعماقها.

وتحرجت السيدة خديجة أول الأمر أن تفصح عن خواطرها ومشاعرها ، وراجعتها نفيسة فى إشفاق وإلحاح ودود... ودار الحديث حول محمد بن عبد الله فيم عزوفه عن الزواج؟ ولماذا لم يتقدم لخطبتها كما فعل كل أشراف مكة؟.

فتقول نفيسة: أو يرضيك أن يتقدم إليك محمد بن عبد الله خاطبا؟ فتسكت خديجة ولكنه صمت أبلغ من الكلام.. وتقول نفيسة: ياابنة العم سيكون لك ما تريدين .

وتنطلق نفيسة تطلب سيد الأولين والآخرين ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى وجدته ومعه عمار بن ياسر فحدثته متسائلة عن انصرافه عن الزواج- وهو زين شباب مكة وابن سادتها الأمجاد من آل هاشم.. ويجيبها ﴿ ﷺ وآله﴾: ما عندى ما أتزوج به. .فتقول له نفيسة: فإذا كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والشرف فيقول لها : ومن هذه ؟ فتقول له: خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش.

إنها خديجة الشريفة التى عمل فى تجارته اوعرف نبلهاو فضلها،وتطلع الكبراء من قريش إلى اتخاذها زوجة ، ورغبتها عنهم، وردها لهم، تعرض نفسها عليه.

ويحدث أعمامه فيسرعون فى تحقيق أمنيته ويلتقى حمزة والعباس وأبو طالب ويذهبون خاطبين إلى بيت خديجة ويقوم أبو طالب خطيبا.. فكان مما قال: " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم، وزرع اسماعيل، وضئضئ- أصل- معد، وعنصر مضر، وجعلنا حفظة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس.

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فان كان فى المال قل، فان المال ظل زائل، وأمر حائل، محمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالى، وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطب جليل".

لقد كان لهذه السيدة الجليلة أكبر الفضل وأعظم الأثر فى تهيئة الأجواء المناسبة لهذا النبى العظيم، والرسول الكريم،فلم تشغله بنفسها ولم تضايقه بمطالبها، حتى يكون مع ربه فى خلوته وتحنثه، وكلما عاد إليها شجعته وزودته بكل ما يحتاج اليه فى صبر، وصدق وثقة، ووقفت الى جانبه برقة مشاعرها وعواطفها الكريمة المتدفقة، حتى فى

لحظات تلقى أمر الله وكلماته، جاء موقفها العظيم وعونها الكبير، فقالت قولتها المشهورة:" أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم،وتصدق الحديث،وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضعيف، وتعين على نوائب الحق".

وكانت أول من أسلم به من الرجال والنساء على السواء.

انها كلمات عظيمة لسيدة عظيمة، وموقف شجاع لسيدة حكيمة عاقلة..

ولم تكتف بالتأييد للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على ما رآه وسمعه، بل انطلقت به إلى ابن عمها ورقة، حتى اذا قص عليه ما كان من أمر الملك حين جاءه فى غار حراء، وما سمع وما رأى فى اللقاء الأول بين السماء والأرض على حين فترة من الرسل، قال ورقة:

" أبشر ياابن أخى، هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى، ليتنى أكون حيا . إذ يخرجك قومك من مكة"وكانت إجابة الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فى تعجب واستغراب: " أو مخرجى هم؟" ، فرد ورقة بن نوفل:" نعم،لم يأت نبى قط بمثل ما جئت به الا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا".. ثم لم يلبث أن توفى ورقة. يقول ابن اسحاق:" كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يسمع شيئا يكرهه، من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك الا فرج عنه بخديجة رضى الله عنها اذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وهون عليه أمر الناس حتى توفيت رضى الله عنها". فقد كانت السيدة خديجة تروح عن قلبه الهموم، وتذهب عن صدره الأحزان بما لها من كياسة وفطنة، وبما وهبها الله من رفق ولين على أنها رضى الله عنها لم تسلم من أذى الكفار، ولم تنج من شرور المشركين، بل قد نالت من عنتهم حظها وأخذت من شرورهم نصيبها.

ودخلت مع المسلمين شعب أبى طالب، فقد أبى الكفار إلا أن يشعلوها حربا حامية لا رحمة فيها:" ان على قريش أن تقاطع بنى هاشم فلا يبيعون لهم ولا يشترون، ولا يتزوجون منهم ولا يزوجوهم، ولا يتقدمون إليهم أبدا بعون ولا مساعدة، ولا يعرضون عليهم طعاما ولا شرابا، حتى يموتوا جوعا ويهلكوا ظمأ، أو يسلموا محمدا

للقتل والهلاك"، ولم يتأخر أحد من عظماء مكة عن الموافقة على هذه الصحيفة، بل لقد رضى بكل ما فيها كبراؤهم ووقع عليها سادقم ورؤساؤهم ثم علقوها فى جوف الكعبة مبالغة فى الظلم وإسرافا فى الطغيان.

وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب وقاطعتهم قريش حتى أجهدهم الجوع، وأهلكهم الظمأ، ولم يفت السيدة خديجة أن تشارك الرسول فى محنته القاسية وأن تقاسمه فى بلائه العظيم، فوقفت الى جواره فى داخل الشعب تجوع كما يجوع المسلمون، وتقاسى ما يقاسونه، مع الها سليلة مجد وربيعة نعمة،ولا عهد لها هذا الشقاء ولا بتلك الخشونة، ولا يمكنها أن تصبر على هذا البلاء، أو تحمل هذا العناء، ولكنها أبت الا أن تنصر الرسول ﴿ﷺ وآله﴾، مهما كانت التضحية والفداء، ولقد دام هذا الحصار ثلاث سنين، وكانت أثنائها من أقوى الناس ايمانا، وأشدهم عزما، وأكملهم يقينا، وأقربهم إلى رضوان الله، وأقدرهم على التضحية، وأصبرهم على البلاء.

والذى لا شك فيه أبدا أن السيدة خديجة كانت من أجل نعم الله على رسوله فقد هيأها الله عز وجل لتخفف عنه أعباء المهمة الصعبة والحمل الثقيل فى دعوة العرب الى الاسلام فتواسيه وتنصره، وتشد عزيمته، وتبعث الأمل والرجاء فى صدره حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة.

واذا كان الأمر على هذا فكيف لا تكون السيدة خديجة أحب أزواجه إليه، يذكرها بالحب والرضى، ويخصها بالمترلة العالية، حتى غارت زوجاته منها بعد وفاقا، الها الزوجة التى عاصرت أشد الظروف قسوة على الرسول الكريم ﴿ﷺ وآله﴾، وأصعب المواقف والأزمات، فنصرت الله ورسوله بمالها ونفسها، وصبرت على الأذى الشديد فما وهنت عزيمتها، ولا لانت قناقا، وظلت تبعث الأمل فى قلب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حتى آخر حياقا، وكان من أشد ما صبرت عليه حصار الشعب، وتطليق ابنتيها

رقية وأم كلثوم حين أمر أبو لهب ابنيه بتطليقهما إمعانا منه فى الكيد للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ والأذى له .

وقد جاء جبريل بالبشرى لها ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب جزاء صبرها وجهادها، واخلاصها لدينها:

فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال : أتى جبريل عليه السلام إلى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ فقال له: يارسول الله هذه السيدة خديجة قد أتت ومعها إناء فيه أدم أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. فأخبر الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ السيدة خديجة بما قاله جبريل ، فقالت: الله هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام".

وقولها رضى الله عنها:(الله هو السلام) يدل على وفور عقلها وكمال معرفتها بربها، فلم تقل: السلام على الله، بل قالت:(الله هو السلام) لأن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين.. لأن السلام اسم من أسمائه، وهو أيضا دعاء بالسلامة، وكلاهما لا يصلح أن يرد به على الله، فجعلت مكان رد السلام عليه، الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره فقالت(وعلى جبريل السلام) . وكفى بذلك مترلة وتكريما.

وقيل: إنها ماتت شهيدة الإسلام وضحية الجهاد اذ إنها لم تخرج من الشعب إلا وهى معتلة الجسم منهوكة القوى، حتى لقيت ربها طاهرة وراضية مرضية، ففى رمضان من السنة العاشرة بعد البعث فاضت روحها إلى بارئها تحفها الرحمة و يتترل عليها الرضوان.

وكان النبى إلى جانبها ينظر اليها وهى تجود بنفسها وتودع بناتها، وكانت رقية يومئذ فى الحبشة مع زوجها عثمان، وألقى ﴿ ﷺ وآله﴾ على وجهها السمح نظرة أخيرة، ودع فيها الأم الحنون، والزوجة البارة، والشريك الحبيب، وهو الوفى ﴿ ﷺ وآله﴾،

وهو الرؤوف الرحيم فبكى فراقها كثيرا ثم قام فدفنها فى الحجون ونزل معها فى روضتها،ثم عاد الى البيت ليشارك بناها الثلاث حرارة الفراق.

لقد كانت سندا وعونا فى وجوه الطغاة الذين آذوه ﴿ﷺ وآله﴾ ، واستهزأوا به وسخروا منه، فكان كلما ضاق بهم عاد إلى مترله، يجد هذه السيدة العظيمة هاشة باشة تستقبله فى فرح،وتلقاه فى سرور، وتحتضنه فى حنان بالغ فتسرى عنه،وتملؤه بالأمل وتشحذ من همته فيعود إلى جهاده من جديد، وكلماها الحلوة وعباراها العذبة تتردد أصداؤها فى أذنيه، تشجعه وتسليه وتعزيه، وتقوى من عزمه، وتصبره على المكاره، وتعينه على الثبات على الحق فكيف لا يكون الفراق صعبا؟

بكاها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كما لم يبك أحدا أبدا، وكان عاما حزينا سمى عام الحزن.. وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فيما تقدم.

لقدصدقته يوم كذبه الناس،وأيدته يوم حاربه الناس،وأعطته يوم حرمه الناس، وزملته ودثرته وعضدته رضى الله عنها، ظل وفيا لها، حتى أثار حبه ﴿ﷺ وآله﴾ لها غيرة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت:" ما غرت على أحد من نساء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان يكثر من ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة، وربما قلت له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول:" إنها كانت .

وكانت ، وكان لى منها ولد". وفى رواية لمسلم :" وكان إذا ذبح الشاة يقول: " أرسلوا بها الى أصدقاء خديجة" قالت: فأغضبته يوما فقلت:"خديجة؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : انى قد رزقت حبها".

وعنها قالت: كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها واستغفار، فذكرها ذات يوم فاحتملتنى الغيرة،فقلت:لقد عوضك الله من كبيرة

السن.قال:فرأيت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ غضب غضبا شديدا، وسقطت من جلدى، فقلت:" اللهم إنك إذا أذهبت غضب رسولك عنى لم أعد لذكرها بسوء ما بقيت". قالت: فلما رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما لقيت،قال:"كيف قلت؟والله لقد آمنت بى إذ كذبنى الناس، وآوتنى اذ رفضنى الناس، ورزقت منها بالولد وحرمتموه منى"قالت رضى الله عنها: فغدا وراح بها شهرا"(أخرجه الطبرانى وأحمد والهيثمى) .

وجاءت أخت السيدة خديجة وكان أسمها هالة، ففرح بها النبى﴿ﷺ وآله﴾، فقد كان صوتها يشبه صوت السيدة خديجة رضى الله عنها وأحست أم المؤمنين عائشة بغيرة، فقالت:"وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر بدلك الله خيرا منها".

وهنا يتمثل الوفاء الصادق، والود الخالص، فعلى الرغم من محبته ﴿ﷺ وآله﴾ لأم المؤمنين عائشة، وهى زوجته البكر الصغيرة الحسيبة النسيبة، إلا أنه لم يقبل فى السيدة الكريمة خديجة أية كلمة ولو مزاحا، ولهذا فقد غضب ﴿ﷺ وآله﴾، وقال فى وفاء لتلك السيدة العظيمة، واعزاز:

"لا والله ما أبدلنى خيرا منها..
لقد آمنت بى حين كفر بى الناس..
وصدقتنى حين كذبنى الناس..
وواستنى حين حرمنى الناس..
ورزقنى الله منها ولدا، ولم يرزقنى من سواها".(أخرجه أحمد والطبرانى).

هنا بلوغى آمالى هنا البشرى   أنا لها فى مقام خديجة الكبرى
وفدت والقلب منجذب لروض هدى   حيث الكريمة فيه فضلها يترى
خديجة زوجة المختار شمس الهدى   بنورها حملت دنيا وفى الأخرى
خديجة من هى الكنز المفيض ندى   لخير رسل به مولاى قد أسرى

أتيت أغترف الجدوى وملتمسا   عواطفا أطلقت بعميمها الأسرى
أتيت مستجديا فضلا وعاطفة   من الكريمة تجذبنى بها الذكرى
ذكرت أيامها فى الله قائمة   مع الحبيب وآى الذكر قد تقرا
بلغت منزله الرسل الكرام علا   عليك سلم رب العرش بالبشرى
ونلت منزلة عند الحبيب بها   عليك ربى احساناته أجرى
أنست بالمصطفى الهادى فنلت رضا   خدمت طه فكنت الآية الكبرى

رضى الله عن السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى، وجمعنايوم الحشر واياهافى منازل الأبرار مع سائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

السيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها

لما توفيت السيدة خديجة رضى الله عنها، ورأت خولة بنت حكيم حال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وما نزل به، ودفعها إشفاقها عليه أن تفاتحه فى هذا الأمر الذى تعرف أنه ينكأ جرحه، ويجدد حزنه،وان لم يكن قد سلا، فقالت له:

" يارسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة"؟

فأجابها:" أجل ، كانت أم العيال، وربة البيت " .

فسألته لماذا لا تتزوج؟ وعجب متسائلا من تلك التى يتزوجها بعد السيدة خديجة، فأسرعت خولة تقول له: بكر وثيب، إما البكر فعائشة بنت أحب الناس اليك، فقال لها: لكنها صغيرة. فأجابته خولة: تخطبها ثم تنتظر بها حتى تنضج. وأما الثيب فهى سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس العامرية القرشية، وأمها من خئولة جده عبد المطلب فهى الشموس بنت قيس بن زيد بن عمر النجارية.

ووافق الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ على ما عرضته خولة، فقد ذكر لأبى بكر صدقه وبلاءه فأحب أن يقربه صهرا، وذكر لسودة سبقها إلى الإسلام، وهجرتها مع زوجها إلى الحبشة، وترملها بعد زوجها وابن عمها المهاجر المسلم(السكران بن عمرو ابن عبد

شمس بن عبد ود العامرى) وهو أخو سهيل بن عمرو. وسواء صحت رواية موته فى الحبشة أو رواية موته بمكة بعد العودة من الحبشة فيمن عاد، فالها أرملة مسنة صابرة، لا تنتظر أن يتزوجها أحد بعد ترملها وهى فى تلك السن، ومن لهذه الكسيرة الصابرة يأسو جرحها،و يؤنس وحدها إلا النبى الكريم، لا يتزوج كسائر الناس فحسب،وإنما لوصل الوشائج، وجبر الكسر، ورحمة الحزين.

وتمت الخطبة والزواج بالسيدة سودة فى يسر، التى أخذها الفرحة حتى نسيت رزانة الكهولة، وكيف لا تفرح وتخف وقد أوشكت أن تصير زوجة لأكرم الناس فى الدنيا والآخرة، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، إنها ستصبح زوجا للنبى الذى تصلى وتسلم عليه فى كل صلاة، للرسول الذى تتقطع الأعناق دون التطلع إلى مكانته وشرفه عند الله وعند الناس ﴿ ﷺ وآله﴾.

وقد رضيها﴿ ﷺ وآله﴾ زوجا وأكرمها واحترمها، وانتقلت إلى بيته فى مكة.

وكانت امرأة طيبة القلب ضخمة الجسم حتى أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يضاحكها إذا رآها تمشى على حالتها تلك.

ولقد أحست بعد أن جاءت عائشة وبقية الزوجات الكريمات- رضى الله عنهن جميعا- إلى بيت النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أهن أكثر شبابا وجمالا وخفة حركة، ورأت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مع ذلك يعدل فى القسط بينهن، إلا أنها بحس المرأة المجربة أشفقت أن يطلقها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وفى بعض الروايات أنه كاد أن يطلقها، فقالت له: " أمسكنى ووالله ما بى الى الأزواج من حرص ،ولكننى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك، وأهب ليلتى لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء، ووافقها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أول الأمر، وجعل ليلتها لعائشة حتى يشعرها أنه قبل هبتها، ثم قسم لها ليلتها مثل بقية أزواجه بعد حين ليشعرها بأنه لا يجوفها ولايهملها.

وقد حجت مع الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ حجة الوداع، وكانت مع أمثالها من الضعفاء سببا في التيسير على الأمة فى كثير من أعمال الحج كالتبكير بالنقرة من مزدلفة، والرمى قبل الفجر ، والإفاضة الى مكة رضى الله عنها.

وظلت عنده ﴿ ﷺ وآله﴾ زوجا بارة وأما للمؤمنين، حتى توفى عنها ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وامتدت بها الحياة بعده حتى توفيت رضى الله عنها فى أواخر خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه .

السيدة عائشة بنت الصديق رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

عرفنا أن التى خطبتها للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ (خولة بنت حكيم) بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها فقد دخلت على أم عائشة(أم رومان) فذكرت لها رغبة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى خطبة عائشة فاستمهلتها حتى جاء زوجها أبو بكر فذكرت له خولة ما كان، فظن أبو بكر أن الأخوة التى بينه وبين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تمنع من ذلك فقال لها:" وهل تصلح له؟ انما هى ابنة أخيه"، فرجعت خولة إلى الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبرته بمقالة أبي بكر،فأجابها النبى ﴿ ﷺ وآله﴾:" قولى له أنت أخى فى الإسلام، وأنا أخوك وابنتك تصلح لى"(أخرجه البخارى).

فذهبت إلى أبي بكر فأبلغته ذلك، فطلب منها أن تنتظره حتى يعود وخرج ولا تدرى فيم خرج،ولكن أم رومان زوجته قالت لخولة:" ان المطعم بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه جبير، ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف، وكان هذا سر خروجه فى تلك الساعة، فذهب إلى مطعم وعنده زوجته أم جبير، وكانا مشركين ليتحلل من وعده فسألهما عن بقاء رغبتهما فى تزويج ولدهما من عائشة فأسرعت المرأة قائلة:" ياابن أبي قحافة، لعلنا إن زوجنا ابننا أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت

عليه؟ فلم يجيبها أبو بكر، وإنما سأل زوجها المطعم بن عدى قائلا: "ما تقول هذه؟" فأجاب المطعم:" إنها تقول ذلك الذى سمعت" .

فأسرع أبو بكر فرحا بتحلله من وعده لهما، ولما وصل إلى بيته قال لخولة : (اذهبى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقولى له مرحبا وأهلا).

فعادت خولة مستبشرة إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فذهب إلى أبى بكر فعقد له عليها ولم يدخل بها ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا فى المدينة.

وأمها: أم رومان بنت عامر من بنى مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وقد روى عن الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال :" من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان". ويوم توفيت نزل الرسول﴿ ﷺ وآله﴾ فى قبرها واستغفر لها.

أما عائشة رضى الله عنها فهى تلك الصبية التى تفتحت مداركها على الاسلام فى بيتها فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أسرع الناس إلى الاسلام ، وكذلك زوجته أم رومان، فنشأت عائشة فى بيئة مسلمة منذ ولادها فقد ولدت بعد البعثة وكانت لبيبة فصيحة، راوية للشعر، وكانت كشأن نساء عشيرتها بنى تيم محببات الى الأزواج.قال﴿ ﷺ وآله﴾:" فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" متفق عليه.

وكانت أحداث الهجرة المباركة إلى المدينة، وبلغ الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وأبو بكر مأمنهما فى يثرب التى أصبحت بقدومه إليها منيرة، فسميت (المدينة المنورة) على منورها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وما أن استقر بالرسول﴿ ﷺ وآله﴾ المقام فى مهاجره حتى بعث مولاه زيد بن حارثه ومولاه الآخر أبا رافع ليحضرا بنات النبى﴿ ﷺ وآله﴾ وأرسل معهما أبو بكر إلى ولده .

عبد الله ليصطحب زوجته أم رومان وابنتيه أسماء وعائشة ويحضروا جميعا الى المدينة وكان الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ قد أسس مسجده وبنى بيوته حوله.

فلما وصل الركب بآل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وآل أبى بكر رضي الله عنه، لم تمض شهور حتى تم الزفاف فى يوم كانت عائشة فيه تلهو على أرجوحة مدت بين عذقين من النخل فجاءتها أمها وبعض نساء الأنصار وهن يقلن: " على الخير والبركة وعلى خير طائر" (أخرجه البخارى ومسلم).

وبدأت السيدة عائشة حياة جديدة فى كنف أكرم زوج وأحناه وأبره وأرحمه، ولما كانت هى البكر الوحيدة فى زوجاته ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد كان يلاطفها، ويلاعبها، ويأتيها ببنات من لداتها يلعبن معها وتصنع الدمى لتلعب بها ، وحين رآها مرة تلعب بدمية على هيئة حصان له أجنحة تساءل ضاحكا:" وخيلا مجنحة ياعائشة" فقالت فى براءة:" أوما سمعت عن خيل سليمان" (أخرجه البخارى ومسلم) .

وقد وعت السيدة عائشة وهى فى بيت الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ من علم الدين وأدب الدنيا كثيرا، وكانت فقيهة النساء فى عصر الصحابة، ورغم تدللها وغيرتها كانت تلميذة نجيبة ومعلمة واعية، حققت أمر الله لها ولزوجات النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ :

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٤) .

فكانت لبيبة أريبة سائلة ومسئولة، وقد حدث حادث الافك عقب عودتها من غزوة بنى المصطلق، وبرأها الله مما قالوا، فزادها ذلك شرفا ومجدا، وقد تقدم ذكر حادث الإفك. ولما ظهرت أعراض المرض على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ استأذن نساءه أن يقيم فى بيت السيدة عائشة فأذن له، فظل عندها حتى انتقل الى الرفيق الأعلى ودفن فى حجرتها.

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: توفى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى، وكانت احدانا تعوذه بدعاء اذا

مرض فذهبت أعوذه فرفع رأسه الى السماء وقال:" فى الرفيق الأعلى " ومر عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده جريدة رطبة، فنظر اليه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فظنت أن له بها حاجة، فأخذتها فمضغت رأسها ونفضتها فدفعتها إليه فاستن بها كأحسن ما كان مستنا ثم ناولنيها فسقطت يده- أو سقطت من يده- فجمع الله بين ريقى وريقه فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة"(أخرجه البخارى ومسلم). وعاشت هى بعد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ مرجعا فى السنة وفقيهة فى الإسلام

وقال الإمام الزهرى : لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لكان علم عائشة أفضل".

وظل يسألها علماء الصحابة وكبار التابعين، وأمد الله فى حياتها حتى توفيت عام سبعة وخمسين فى شهر رمضان ، وصلى عليها أبو هريرة اذ كان أمير المدينة ، ودفنت بالبقيع ليلا رضى الله عنها وأرضاها.

السيدة العابدةحفصة بنت عمر رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح ابن عبد الله بن عبد الله بن قرط بن رباح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح.

تزوجت قبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خنيس بن حذافة بن عدى السهمى ﵁. وقد استشهد متأثرا بجراحه فى أحد.

ولما انقضت عدة حفصة ذهب أبوها عمر يعرضها على أبى بكر ﵁ فسكت ولم يجب، فانصرف عمر وفى نفسه من صمت أبى بكر شئ.

فتوجه إلى عثمان بن عفان– وكانت زوجته رقية بنت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قد توفيت – فعرض عمر عليه ابنته حفصة ولكن عثمان اعتذر قائلا: " ما أريد أن أتزوج اليوم".

فوجد عمر فى نفسه، وانطلق إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يشكو ما لقى من صمت أبى بكر ورفض عثمان، ﵁أجمعين، فواساه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مبتسما وقال:" يتزوج حفصة من هو خيرمن عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة"(أخرجه البخارى).

وزوج النبى الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ عثمان ابنته الأخرى أم كلثوم ، وتزوج هو﴿ﷺ وآله﴾ حفصة، وحينما لقى عمر أبا بكر بعد ذلك اعتذر له أبو بكر قائلا: " لا تجد على ياعمر، فإن رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ ذكر حفصة، فلم أكن لأفشى سر رسول الله﴿ﷺ وآله﴾، ولو تركها لتزوجتها(أخرجه البخارى)

ونلحظ هنا الأدب من أبى بكر﵁ فى حفظ سر رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ الذى كان قد ذكرحفصة معرضا بخطبتهاوهى فى عدها،والتعريض فى خطبة النساء المتوفى عنهن

أزواجهن هو أن يلمح الراغب عن رغبته للمرأة أو لوليها، وأنه سيخطبها بعد انتهاء عدتها.

وكانت حفصة تحس انها ترب عائشة وكفء لها، فعن عائشة رضى الله عنها قالت:" هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى﴿ ﷺ وآله﴾" ، أى: قبل زواجه من السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها.

وفى ذكر بعض الرواة طلاق النبى لحفصة وأن عمر حين علم بكى وحثا على رأسه التراب وهو يقول:" ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها". وأن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ارتجعها بعد أن قال له جبريل:" أرجعها فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك فى الجنة، فراجعها النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ (أخرجه أبو داود وابن ماجة والنسائى).

وينفى بعض العلماء خبر طلاقها، ولكن الثابت الصحيح أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قد هجر نساءه شهرا.

وقد توفى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عن حفصة وبقية من ترك من نسائه ، فأقامت حفصة بالمدينة عابدة قانتة إلى أن توفيت فى عهد سيدنا على الأرجح عام سبعة وثلاثين، وقيل غير ذلك ، رضى الله عنها وأرضاها .

أم المساكين السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة. وأمها هند بنت عوف بن الحارث ابن حماطة الحميرية، فهى بهذا أخت أم المؤمنين السيدة ميمونة لأمها.

تزوجها قبل الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ ابنا عمه الحارث بن عبد المطلب،أولا:الطفيل بن الحارث ، ولما طلقها تزوجها أخوه عبيدة بن الحارث.

وقيل فى أقوال أخرى منها: أن عبد الله بن جحش كان زوجها قبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى استشهد فى أحد.

ومن المعروف أن عبيدة بن الحارث–زوجها على الرواية الأولى– كان أحد المبارزين فى بدر، وكان أول من أصيب يوم بدر، وأنهم حملوه جريحا إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فوضعوا رأسه على فخد النبى﴿ﷺ وآله﴾ ، ومات عند عودهم من بدر شهيدا، وقد تزوجها النبى الكريم﴿ﷺ وآله﴾ فى شهر رمضان عام ثلاثة للهجرة فمكثت عنده ثمانية أشهر وتوفيت فى ربيع الآخر عام أربعة، وعمرها حول الثلاثين.

كانت تسمى أم المساكين لكثرة إطعامها ورعايتها لهم،وكانت إقامتها فى بيت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ شهورا معدودة مما جعل الأخبار المدونة عنها قليلة رضى الله عنها وأرضاها.

عقيلة بنى مخزوم السيدة هند بنت أبى أمية(أم سلمة)

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة هند بنت أبي أمية(الملقب بزاد الراكب) ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة بن فراس الكنانية.

نشأت أم سلمة فى مجد وسؤدد وغنى ورفاهية، فأبوها حذيفة بن المغيرة من الأجواد المعدودين ولهذا لقب بزاد الراكب، فقد كان لا يحتاج المسافر معه إلى أن يستصحب معه زادا اكتفاء ببر حذيفة.

وقد انتقلت من هذا البيت إلى بيت زوجها ونظيره فى الغنى والمجد وابن عمها أبى سلمة عبد الله بن الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو أيضا ابن عمة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخوه فى الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب.

ومضى أبو سلمة مهاجرا وحده إلى المدينة، بعد أن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين هو وزوجتة أم سلمة، تقول أم سلمة:" وفرق بينى وبين زوجى وابنى فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبا منها، حتى مربى رجل من بنى عمى–أحد بنى المغيرة– فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟فرقتم بينها وبين زوجها وابنها وما زال بهم حتى قالوا:الحقى بزوجك".

تقول:فرحلت بعيرى، ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة فقال:" أين يابنت أمية"؟ فقلت:" أريد زوجى بالمدينة"، فقال:" هل معك أحد"؟ فقلت:" لا والله إلا الله وابنى هذا"، فقال:" والله ما لك من مترك" وساق بها فى أكرم صحبة رغم أنه كان لم يسلم بعد حتى أبلغها قباء، وكان يسكنها أبو سلمة.

وعاشت معه مجاهدة صابرة حتى رمى فى عضده يوم أحد، ورقا دم الجرح بعد علاج، وأرسل النبى﴿ ﷺ وآله﴾ أبا سلمة قائدا لسرية إلى(قطن) ليغير على بنى أسد فظفر بهم وعاد منصورا، لكن جرحه انتفض فمات، ودخل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على أبى سلمة بعد وفاته فأغمض عينيه، ودعا له، وصلى عليه، وكانت وفاته فى الثامن من جمادى الآخرة عام أربعة ﵁.

ونظر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فوجد عقيلة قومها أم سلمة وزوج ابن عمتة وأخيه من الرضاع أصبحت أرملة غريبة، ومهاجرة وحيدة فى بلد ليس لها فيها ولى حاضر ، ولا عاصب كافل ، ولها صغار أيتام ، يحتاجون إلى من يقوم بشأنهم ويسهر عليهم ، فترقب نهاية عدتها ، وأرسل إليها يخطبها ، ووجمت أم سلمة فهى ما كانت تظن أن تنال شرف الزواج من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وما أسعدها أن تصبح أما للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن حقه ﴿ﷺ وآله﴾ على المؤمنين والمؤمنات عظيم، وحقه على زوجاته أعظم، فهل تراها تطيق القيام بهذا الحق، وعندها مما تعرف من حالها ما يفسد على الزوج هناءه؟ فهل تنسيها الفرحة بشرف الزواج منه أن تكشف عن تلك المنغصات حتى تعذر إلى الله ورسوله أنها لم تأل جهدا فى الصدق والنصح ؟.

لهذا أجابت من جاء يبلغها خطبة رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ لها قائلة:" مرحبا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ " ثم قالت: إن في خلالا ثلاثا".

١- أنا امرأة شديدة الغيرة.

٢- وأنا امرأة مصبية،أى:ذات صبيان أرعاهم.

٣- وأنا امرأة ليس لى ها هنا أحد من أوليائى فيزوجنى.

وكان سيدنا عمر قد خطبها قبل ذلك فرفضته، ولكنه غضب لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، إذ ظنها أنها ترفض، وجاءها- وهى من بنات أخواله- فقال لها معنفا:" أنت التى تردين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بما تردينه، فقالت:" يابن الخطاب لى كذا وكذا وذكرت أعذارها" .

فجاءها رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ فقال: " أما ما ذكرت من غيرتك فإنى أدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله عز وجل سيكفيكهم، وأما ما ذكرت من أنه ليس من أوليائك أحد شاهد فليس من أوليائك أحد شاهد، ولا غائب يكرهنى" (أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان والحاكم).

ورعى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ أيتامها وأكرم مثواها، وأعز حالها، حتى أنها بكت حين رأته فى بيتها يضم إليه الزهراء وولديها الحسن والحسين ويقول :" رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، فقالت وهى تبكى خصصتهم وتركتنى، فقال لها: أنت على مكانك وأنت على خير .

وعاشت فى كنف الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ قريرة العين، وكان من شرفها نزول الوحى بالتوبة على أبى لبابة فى بيتها وقد تقدم ذكر قصتة.

وكان من يمن رأيها وإصابته أنها أشارت على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخرج يوم الحديبية دون أن يكلم أحدا حتى ينحر بدنه ويحلق شعره، وذلك حينما أمر الناس أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا، وتحقق ظنها حين فعل الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أشارت به، فقد سارعوا جميعا يحلق بعضهم لبعض حتى كاد يصيب بعضهم بعضا.

وقد صحبت النبى فى خيبر وفتح مكة وفى غزوة هوازن وفى حجة الوداع، ويوم قامت الفتنة فى أيام خلافة الإمام على قدمت أليه ولدها عمر ، وعاشت حتى عام اثنين وستين حين توفيت وعمرها أربع وثمانون سنة، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها وأرضاها.

الحسيبة الكريمة أطولهن يدا السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها

هى أم المؤمنين وأكرم نساء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وليا، فقد كانت تقول له عنهن: " ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها غيرى ، زوجنى الله من السماء"، تشير إلى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ (الأحزاب:٣٧) وهى السيدة زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صيرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، إحدى أمهات المؤمنين، وابنة عمة النبى ﴿ﷺ وآله﴾، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

تزوجها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد أن طلقها مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ليبطل بأمر الله قاعدة التبنى الجاهلية التى كانت تحرم زوجة الابن بالتبنى على أبيه الذى تبناه. ولزيد بن حارثة زوجها الأول قصة يحسن أن نشير إليها:" خرجت به أمه تزور أهلها من طئ ، فأخذه بعض المغيرين من بنى القين بن جسر فباعوه وهو صبى ، فاشتراه حكيم بن حزام وأخذته منه عمته خديجة، ثم وهبته لزوجها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان أبوه شاعرا ومن أشراف قومه بنى كلب، فخرج مع عمه يبحثان عنه حتى لقياه فى مكة، وعرفا أن سيده هو الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى ﴿ﷺ وآله﴾ فانطلقا إليه وقالا له : ياابن عبد المطلب ياابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العانى، وتطعمون الجائع، وقد جئناك فى ابننا فتحسن إلينا فى فدائه، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : " أو غير ذلك؟" فقالا: ما هو؟ فقال:أدعوه وأخيره، فإن اختار كما فذاك، وإن اختارنى فوالله ما أنا أختار على من اختارنى أحدا ، فوافقا على ذلك راضيين.

ودعى زيد فعرفهما وخيره الرسول الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ فاختار سيده ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال له أبوه: يازيد أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فانظر كيف أنساه بر مولاه الأمين، وحسن معاملته أهله وعشيرته وبلاده!! وفضل العبودية على الحرية، ذلك أنه كان يرى فى مولاه الأمين الأهل والعشيرة، والأب والأخ والقريب

وما هو أجل من ذلك وأعظم . . عند ذلك أشهد مولاه ﴿ﷺ وآله﴾ الناس أنه أعتقه وتبناه،وأنه منذ اليوم صار ابنه وارثا موروثا، فأصبح ينادى بين الناس زيد بن محمد، وجاء الإسلام فكان أول الموالى إسلاما (تاريخ الطبرانى) .

و آخى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بينه وبين عمه حمزةرضي الله عنه ، وزوجه السيدة زينب ابنة عمته تكريما، رغم رفضها وفى هذا نزلت الآية الكريمة : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب:٣٦) .

ومع إتمام الزواج كانت تضيق به وترى لنفسها ولنسبها من الفضل والسمو وعلو المنزلة ما جعلها تترفع عليه، فكان يشكو ذلك إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فكان يأمره بالصبر وحسن المعاشرة .

وقد زعم بعض القدامى والمحدثين أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رآها بعد ذلك فوقع حبها فى قلبه، وهى روايات لا تعدو أن تكون من دس القصاصين ونسج الإسرائيليين الذين ينسبون ما هو أشنع من ذلك لأنبيائهم، ومهما قيل فى ناقليها من صدق وضبط كالطبرى والزمخشرى، فإن القواعد المقررة التى تثبت العصمة للرسل تؤكد بعد هذه الأقاصيص عن الحقيقة، وما من شك أن عشق النبى لزوجة رجل آخر يتنافى مع العصمة التى تعنى طهارة ظاهرهم وباطنهم من الإثم بل ومن شبه الإثم، و لو قيل عن واحد منا- يتكرم فى نفسه-:إنه عشق امرأة صديقه لعامة الناس لتجنبوه فكيف لو كان نبيا ورسولا؟ . . وما معنى حفظ الله له إذا تركه يقع فى مثل هذه؟ وكيف وقد أمره الله بعكس ذلك: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ (الحجر:٨٨)؟ . وليست هذه أول فرية فى حق نبى تسردها الكتب قديما ويدافع عنها-دون إرادة السوء- كاتبون حديثا، وقد وضعها أعداء الرسل بقصد التطاول على مقام العصمة الواجب لهم .

ويقع بعض المخلصين فى إيمانهم من المعاصرين فى وهم تأكيد بشرية الرسول بإثبات أمثال هذه الأقاصيص، ونسوا أن الرسل مع أنهم بشر من البشر إلا أن لهم خصوصية ليست لسائر البشر، وهى العصمة التى تنافى كل ما يرذلون به ويعابون، فضلا عن منافاتها لما به يأثمون، وقصتهم هذه حول السيدة زينب تكاد تتفق مع ما زعموه وردده كثير من المفسرين حول نبى الله داود زاعمين أنه رأى زوجة أوريا فأعجبته، وكيف احتال ليتزوجها مع كثرة ما عنده من الزوجات، وكل موقف من أحداث هذه القصة المزعومة يخرق العصمة، ويهدم طهارة النبوة،وليس إثبات بشرية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فى حاجة إلى مثل هذه الأقاويل، وليست السيدة زينب بالتى لم يرها النبى مرات عديدة قبل زواجها حتى يفاجأ بعد زواجها بهذا الجمال الباهر، و لو كان الأمر كما يزعمون لتزوجها بكرا

وقد كانت زينب طامعة بهذا الزواج، حريصة عليه، وقد فندنا كل هذه الأباطيل فيما تقدم بما لا يدع مجالا لصاحب نفس مريضة أن يتطاول إلى النيل منه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فالله سبحانه وتعالى بتدبيره قد تولى الأمر كله، حتى عقد الزواج، وعاشت السيدة زينب فى بيت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عزيزة، مكرمة، برة، تقية، عابدة، زاهدة، صناعا– لها صنعة– تعمل بيدها لتتصدق، ولهذا تحقق فيها قول الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ لنسائه:" يتبعنى أطولكن يدا" وكان طول اليد هو سخاؤها بالصدقة. قالت السيدة عائشة: فكنا إذا اجتمعنا بعده نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ،فلم نزل نفعله حتى توفيت زينب، وكانت امرأة قصيرة ولم تكن– رحمها الله– أطولنا فعرفنا أنما أراد الصدقة، وكانت من صناع اليد فكانت تدبغ وتخرز وتصدق (أخرجه مسلم) .

روى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليها عطاءها وهو اثنا عشر ألف درهم– وقد قسم فى خلافته لكل سيدة من أزواج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ اثنا عشر ألفا، و أعطى جويرية وصفية ستة آلاف، بسبب أنهما سبيتا– فغطته بثوب ثم قالت لبرزة بنت

رافع:" أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة منه قبضة فاذهبى إلى آل فلان وآل فلان من أيتامها وذوى رحمها،فقسمته فبقيت منه بقية فقالت لها زينب: فلكم ما تحت الثوب، تقول برزة: فرفعنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهما، ثم رفعت زينب بيدها داعية فقالت: " اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا" (طبقات ابن سعد) .

واستجاب الله دعاءها فتوفيت فى عامها ذاك سنة عشرين رضى الله عنها، فكانت أول نسائه لحوقا به ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان أعجب رثاء لها قول السيدة عائشة:" لقد ذهبت حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل" رضى الله عنها.

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت :" كانت زينب بنت جحش تساميني فى المنزلة عند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب، وأتقى لله ، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل ، والذى تصدق به وتتقرب به إلى الله تعالى " رضى الله عنها وأرضاها .

السيدة جويرية بنت الحارث المصطفية

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن جذيمة وهو المصطلق بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو، الخزاعية المصطلقية.

كانت قبل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ زوجا لمسافع بن صفوان من بنى عمومتها.

حدثت غزوة المريسيع وسبى فيها بنو المصطلق، لأنهم كانوا وحدهم دون بطون خزاعة يظاهرون قريشا على رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد بلغ النبى﴿ ﷺ وآله﴾ أن زعيمهم الحارث بن أبي ضرار يستعد لغزو المدينة فعاجله النبى﴿ ﷺ وآله﴾ وأغار عليه عند ماء يقال له المريسيع، فلما هزموا فر من بقى منهم وسبى نساؤهم ومن بين السبايا كانت برة بنت الحارث.

يقول ابن هشام: إن أباها ساق إبلا لفدائها،وحين قرب من المدينة أعجبه من إبله بعيران فأخفاهما فى شعب من شعاب وادى العقيق ثم جاء ببقية الإبل إلى النبى﴿ ﷺ وآله﴾ ، فقال النبى﴿ ﷺ وآله﴾:" أين البعيران اللذان بالعقيق ؟"

فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فو الله ما اطلع على ذلك إلا الله .

عند ذلك خطب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ابنته برة وسماها جويرية (أخرجه مسلم) .

أما رواية أبي داود وغيره فتقول: إن جويرية لما قسم السبى وقعت فى سهم ثابت ابن قيس بن شمس، وكاتبته لتفدى نفسها على تسع أوراق، ثم جاءت إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ تستعينه فى الأداء فعرض عليها أن يؤدى عنها ويكون ذلك مهرها فيتزوجها ، فقبلت .

فلما سمع المسلمون خبر زواجها من النبى﴿ﷺ وآله﴾ وفى أيديهم من قومها قالوا: أصهار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأعتقوهم جميعا، وكانوا مائة بيت، ولهذا تقول السيدة عائشة: فما نعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، وأسلم قومها جميعا.

أخرج مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن جويرية: انطلق– أتى– على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غدوة وأنا أسبح. ثم انطلق لحاجته ثم رجع قريبا من نصف النهار فقال : أما زلت قاعدة؟ قلت: نعم.قال: ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن لعدلنهن ، ولو وزن بهن وزنهن، يعنى جميعغ ما سبحت: " سبحان الله عدد خلقه ثلاث مرات، سبحان الله زنة عرشه ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات".

وعاشت بعد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى توفيت سنة ست وخمسين رضى الله عنها وأرضاها.

السيدة صفية بنت حيى رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن أبي حبيب من بنى النضير من سبط هارون بن عمران. وأمها برة بنت سموأل أى : تعريب لأسم صاموئيل بالعبرية.

كانت زوجا لسلام بن مشكم الشاعر ، ثم تزوجت من بعده كنانة بن أبى الحقيق صاحب حصن القموص أمنع حصون خيبر، قتل يوم خيبر هو وأخوها .

و قد تزوجها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى سنة سبع بعد سبيها يوم خيبر، وكانت فى سهم دحية الكلبى، ويقال: إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عوضه عنها حين قيل: إنها سيدة قريظة والنضير وما تصلح إلا لك فأعتقها وتزوجها (أخرجه البخارى ومسلم).

و فى رواية ابن اسحاق أنها سيقت مع ابنة عم لها من سبايا حصن القموص يقودهما بلال فمر بهما على قتلى المعركة،فصرخت المرأة وصكت وجهها فأمر النبى ﴿ﷺ

وآله﴾ بإبعادها، ثم خرجت معه ﴿ﷺ وآله﴾ تمشى حتى ثنى لها ركبته على فخده. فأجلت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن تضع قدمها على فخذه فوضعت ركبتها على فخذة فركبت. ثم ركب، فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه، وقال لبلال: "أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما" .

و يحكى أن صفية رأت قبل ذلك أن القمر وقع فى حجرها فذكرت ذلك لزوجها ، فلطم وجهها وقال لها: إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب، فلم يزل أثر اللطمة خضرة فى عينيها حتى سباها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وأعرس بها الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ فى الطريق بمكان يقال له (الصهباء)، وبات أبو أيوب الأنصارى ليلته يحرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . وأنزلها فى المدينة فى بيت حارثة بن النعمان، وقد تسامع النسوة بجمالها فجئن ينظرن إليها حتى إن السيدة عائشة جاءت متنكرة متنقبة لتنظر إليها وعرفها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فسألها:" كيف رأيت ياشقيراء " ؟ فقالت: رأيت يهودية، فقال لها الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ :" لا تقولى ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها".

وقد تكلمت حفصة وعائشة مرة عن أصل صفية اليهودى فجاءت باكية إلى الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ فقال لها: " ألا قلت وكيف تكونان خيرا منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى " (أخرجه أحمد و الترمذى) .

وتوفى الرسول الكريم ﴿ﷺ وآله﴾ وهى فى نسائه عزيزة كريمة، وكانت تضع أيام فتنة سيدنا عثمان معبرا بين منزلها ومنزل سيدنا عثمان لتنقل إليه الطعام والماء، وتوفيت عام خمسين ودفنت بالبقيع.

رضى الله عنها وأرضاها فقد بوأها زواجها المبارك بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ منزلة عالية، ورفعها إسلامها إلى أن تكون إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات.

أم حبيبة

السيدة رملة بنت أبى سفيان

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، كنيتها (أم حبيبة). و أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

ولدت بمكة قبل البعثة بسبعة عشر عاما، وتزوجها حليف قومها عبيد الله بن جحش أخو السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين.

وهاجرت أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة وهناك ولدت حبيبة التى بها كنيت، وارتد زوجها عن الدين وتنصر هناك، أما هى فقد أصرت على الإسلام وانقطع ما بينهما ، وقتلت الخمر عبيد الله بن جحش هناك.

وأرسل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عمرو بن أمية الضمرى يخطبها ووكل النجاشى ليعقد عليها – وكان قد أسلم سرا– فأرسل إليها النجاشى من يبلغها ذلك، فوكلت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ليزوجها.

وحضر مهاجرو الحبشة مجلس العقد، وقدم النجاشى المهر أربعمائة دينار عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأقام لهم النجاشى وليمة، وأرسل نساؤه الطرف والهدايا من طيب وغيره إلى أم المؤمنين المهاجرة أم حبيبة.

ومرت الأيام حتى عادت السيدة أم حبيبة عام سبعة إلى المدينة مع بقية العائدين . من مهاجرى الحبشة، وفيهم ابن عم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وشبيهه سيدنا جعفر بن أبى طالب ﵁ الذى وصل والنبى ﴿ﷺ وآله﴾ عائد بالنصر من خيبر، فوثب إليه وعانقه وقال له: "أشبهت خلقى وخلقى ما أدرى بأيهما أسر أكثر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر". وتمر الأيام بعد ذلك، وتنقض قريش عهد الحديبية، ويأتى أبو سفيان إلى المدينة يحاول إصلاح ما فسد، فيبداء ببيت ابنته أم حبيبة لعلها تشفع له عند النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فيشد فى العهد، ويزيد فى المدة، ويزول شبح الحروب.

ولما دخل أبو سفيان بيت ابنته واتجه ليجلس على فراش النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أبت عليه ذلك ، وطوت عنه الفراش، فتعجب منها أبوها أشد العجب وسألها: أطويته رغبه بى عن الفراش أم رغبة بالفراش عنى؟ فتجيبه: هو فراش رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأنت رجل مشرك فلا ينبغى لك أن تجلس عليه!

فيجيبها فى حسرة: لقد أصابك بعدى شر.

وعاشت بعد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى عام أربعة وأربعين فى المدينة، حيث توفيت رضى الله عنها و أرضاها.

السيدة ميمونة الهلالية رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر.

و أمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة الحميرية، وقيل: هى كنانية، والسيدة ميمونة هى خالة ابن عباس وخالد بن الوليد و أبناء جعفر الطيار. وكان اسمها برة فسماها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ميمونة. وهى أيضا" أخت أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة لأمها.

ترملت السيدة ميمونة وهى شابة فى السادسة والعشرين، وكان زوجها أبا رهم ابن عبد العزى العامرى من بنى عمومتها.

وفى عمرة القضاء فى العام السابع من الهجرة خطبها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وبنى بها الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ عند منصرفه من عمرة القضاء بمكان قرب التنعيم اسمه (سرف)، وهى آخر من تزوج من النساء.

يروى الرواة أنه لما جاءها البشير بخطبة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ لها، كانت على بعير فألقت بنفسها فرحة وهى تقول:" البعير وما عليه لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ".

وعاشت السيدة ميمونة فى كنف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى انتقل إلى جوار ربه.

وتوفيت رضى الله عنها بسرف ودفنت بموضع قبتها التى زفت فيها إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ورضى الله عنها.

هؤلاء هن زوجات رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهن إحدى عشرة امرأة من أمهات المؤمنين، توفى منهن فى حياته اثنتان: السيدة خديجة وتوفيت فى مكة المكرمة، والسيدة زينب بنت خزيمة وتوفيت فى المدينة المنورة، وانتقل ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى عن تسع .

وقد تزوج ﴿ﷺ وآله﴾ بأزواج لم يدخل بهن:

١- أسماء بنت النعمان الكندية ولم يدخل بها وردها لأهلها،قيل: لأنها استعاذت منه وكانت حديثة عهد بكفر، وقيل غير ذلك:قالت: نحن قوم نؤتى ولا نأتى حينما دعاها .

٢- عمرة بنت يزيد الكلابية، ولم يدخل بها وردها إلى أهلها وأعطاها ما تتمتع به، واختلفوا فى سبب فراقه لها، وقيل : وجد بها بياضا. وقيل: غير ذلك.

٣- قال الزهرى: وتزوج العالية بنت ظبيان بن عمرو من بنى بكر بن كلاب ودخل بها وطلقها، وفى رواية غيره ولم يدخل بها فطلقها .

٤- وتزوج خولة بنت الهذيل بن هبيرة التغلبى وأمها خرنق بنت خليفة أخت دحية بن خليفة فحملت إليه من الشام فماتت فى الطريق، فتزوج خالتها شراف بنت فضلة بن خليفة فحملت إليه من الشام فماتت فى الطريق أيضا".

٥- قال البخارى: وتزوج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أميمة بنت النعمان بن شراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقتين .

٦- قال قتادة: وتزوج أسماء بنت الصلت من بنى حرام ثم من بنى سليم ولم يدخل بها.

٧- وممن تزوجها ولم يدخل بها أم شريك الأزدية. قال الواقدى: والمثبت أنها دوسية، وقيل: الأنصارية، ويقال: عامرية وأنها خولة بنت حكيم السلمى. وقال الواقدى: اسمها غزية بنت جابر بن حكيم. وقال محمد بن إسحاق: كان جميع ما تزوج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خمس عشرة امرأة، منهم أم شريك الأنصارية وهبت نفسها للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ . وقال قتادة: وتزوج أم شريكالأنصارية من بنى النجار، وقال: إنى أحب أن أتزوج من الأنصار ولكنى أكره غيرهن، ولم يدخل بها.

فيمن خطبها ﴿ﷺ وآله﴾ و لم يعقد عليها :

١. أم هانئ فاختة بنت أبي طالب خطبها ﴿ ﷺ وآله﴾ فذكرت أن لها صبية صغارا فتركها.

٢. ليلى بنت الحطيم.

٣. ضباعة بنت عامر بن قرط .

٤. صفية بنت بشامة بن نضلة العنبرى .

٥. جمزة بنت الحارث بن عون بن أبي حارثة المرى .

٦- قال قتادة: وخطب حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب فوجد أباها أخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب .

فهؤلاء نساؤه وهن ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: دخل بهن وتوفى عنهن، وهن التسع المبدأ بذكرهن، وهن حرام على الناس بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بالإجماع المحقق المعلوم من الدين ضرورة، وعدتهن بانقضاء أعمارهن.

الصنف الثانى: دخل بهن وطلقهن فى حياته، واختلف العلماء فى حكم زواجهن بعد انقضاء عدتهن منه ﴿ ﷺ وآله﴾، فقال فريق: لا يحل لهن الزواج لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣). وفريق آخر قال: نعم، بدليل آية التخيير وهى قوله تعالى: ﴿ ياأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٨،٢٩) .فلو لم تحل لغيره لما كان هناك فائدة من التخيير.

الصنف الثالث: وهى من تزوجها وطلقها قبل أن يدخل بها، فهذه تحل لغيرة أن يتزوجها، وأما من خطبها ولم يعقد عليها فأولى لها أن تتزوج.

واستسر ﴿ﷺ وآله﴾ مارية القبطية فولدت له إبراهيم، واستسر ريحانه من بنى قريظة ثم أعتقها فلحقت بأهلها.

خصوصية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾

لقد تزوج الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ نساءه قبل أن يتزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع،فلما نزل لم يؤمر بتطليق،بل نزل القرآن الكريم بالنص على حلهن بلا حرج: ﴿ ياأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٠) .

إن بقاء أزواجه التسع خصوصية من خصوصياته، وخصوصية لنسائه، كخصوصية وجوب قيام الليل عليه،وخصوصية تحريم الصدقة عليه وعلى آل بيته، وخصوصية نسائه فى مضاعفة العذاب على الفاحشة، ومضاعفة أعمالهن الصالحة بنص القرآن الكريم: ﴿ يانِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٠،٣١) .

ثم نزل القرآن بتحريم زواجه بغيرهن: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب: ٥٢).

وحكمة تحليل أزواجه له فى غاية الكمال والجمال والرحمة والإحسان،لأنه لو كلف بتطليق بعض نسائه لوقع هذا الطلاق على النسوة المهاجرات اللاتى ترملن وهن غير مشهورات بجمال،ويكون ذلك خلاف ما كان قد قصد إليه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حين

تزوجهن، كما يكون حطا لأقدارهن، وخدشا لكرامتهن بعد أن شرفهن الله بالانتساب إلى أشرف بيت عرفته البشرية، والاقتران بأشرف المرسلين، وخاتم النبين، ولو وقع منه تطليق لكان ذلك منافيا لخلقه العظيم، ورحمته ورأفته التى شملت العالمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وحاشا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكون من المطلقين!!

إلى جانب أن الله عز وجل قد أنشأصلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وجميع المؤمنين: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦). ثم حرم زوجاته من بعده على المؤمنين، وعد ذلك إيذاء للرسول ﴿ﷺ وآله﴾ ، واعتداء على شرف النبوة العظيم، وجعل ذلك أمرا عظيما: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٣) .

مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى بيته

ومما يجمل ذكره فى هذا السياق أسلوب حياته، ونمط عيشه فى بيته مع أهله ﴿ﷺ وآله﴾، فقد كان أزهد الناس بمتع الحياة ولذائذ العيش، لا يأخذ من ذلك إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه، وبمقدار ما تدعو إليه الضرورة، وهو أمر قد ذاعت شهرته، وعرف عنه لدرجة تدعو إلى العجب والتأمل!!

عن عروة عن عائشة أنها كانت تقول: " والله ياابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نار. قلت: ياخالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من ألبانها فيسقينا" (متفق عليه) .

وقول السيدة عائشة أمر بديهى، يقبله العقل السليم، إذ كيف يترك الصحابة الكرام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوقد فى بيته نار؟ فكانوا﵃ يجهزون الطعام فى بيوتهم ويقدمونه لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أدبا معه وطمعا فى رضا الله تعالى ورسوله عنهم.

ولعل ذلك كان أمرا خاصا ببيت السيدة عائشة رضى الله عنها دون سائر نسائه ﴿ﷺ وآله﴾ مصداقا لما أخرجه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى عن عروة قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة . قالت: فاجتمع صواحبى إلى بيت أم سلمة فقالوا: ياأم سلمة إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة، فمرى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان . قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ . قالت فأعرض عنى. فلما كان فى الثالثة ذكرت له ذلك فقال: ياأم سلمة لا تؤذينى فى عائشة فإنه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها.

ولم يكن تقشفه ﴿ ﷺ وآله﴾ عن فقر وقلة مال، فقد فتح له من الأرض، وجاءته الغنائم وكثرت لديه الأموال، وشبع أفقر الناس، وفاضت يداه بالعطاء السخى .

عن جابر رضى الله عنه:(ما سئل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ شيئا فقال لا) (متفق عليه).

وعن أنس ﵁ قال:(ما سئل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على الإسلام شيئا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال:يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل يسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرا" حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها) (أخرجه مسلم) .

لقد اختار﴿ ﷺ وآله﴾ لنفسه ولأهله هذا النمط الفريد من الحياة زهدا" فى الدنيا وزينتها، وإيمانا" بأن متاعها قليل، وأن الآخرة خير لمن اتقى، ورغبة فيما أعده الله لعباده المتقين، وليكون بيته ﴿ ﷺ وآله﴾ منارة يهتدى بها المسلمون إلى يوم القيامة، يجد فيها الفقراء عزاء لما يواجهون من ضيق وحرمان، ويجد فيها الأغنياء والمنعمون داعيا إلى التخفيف من المغريات والتقليل من الأنغماس فى الملذات، وعدم الاغترار بالشهوات، وليكون النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ الأسوة لأمته فى الغنى والفقر، وفى السراء والضراء، كما أراد له الله سبحانه أن يكون ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) .

وبلغ من زهده وتقشفه أن أزواجه رضى الله عنهن لم يطقن فى بداية الأمر ما تعرضن له من مشقة وضيق فأجمعن على مطالبته أن يوسع عليهن فى النفقة، فأبى، واعتزلهن شهرًا. وحين علم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بما كان من مطالبهن قام أبو بكر إلى عائشة ليضربها،وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبى﴿ ﷺ وآله﴾ ما ليس عنده؟! فنهاهما الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾،فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

ثم أنزل الله عز وجل الخيار: ﴿ يأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٨،٢٩) .

وبدأ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعائشة رضى الله عنها– وكانت أحب أزواجه إليه– فقال : إنى أذكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك. قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿ يأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ. . . ﴾قالت: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله ورسوله!

ثم عرض مثل ذلك على سائر نسائه فما اختارت منهن واحدة الدنيا وزينتها، بل أخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقام الأمر بعد ذلك على هذا، فما رغبن عن الآخرة، ولا أسفن على الدنيا حتى لحق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالرفيق الأعلى، رضى الله عنهن .

٤–خدمة ﴿ ﷺ وآله﴾ من الأحرار

١–منهم ﵁ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار، أبو حمزة الأنصارىالخزرجى،خادم رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾، وأحد المكثرين من الرواية عنه، صح عنه أنه قال: قدم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ المدينة وأنا ابن عشر سنين. وأن أمه أم سليم أتت به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ لما قدم فقالت له: هذا أنس غلام يخدمك فقبله،وأن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كناه: أبا حمزة ببقلة كان يجتنيها، ومازحه النبى
﴿ ﷺ وآله﴾ فقال له:(ياذا الأذنين)، وقال محمد بن عبد الله الأنصارى: خرج أنس مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى بدر وهو غلام يخدمه.

عن أبي خلدة قال: قلت لأبي العالية: أسمع أنس من النبى ﴿ ﷺ وآله﴾؟ قال: خدمه عشر سنين، فما عاتبه على شئ أبدا، ولا قال لشئ فعله لم فعلته، ولا لشئ لم يفعله ألا

فعلته. . ودعا له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان له بستان يحمل الفاكهة فى السنة مرتين، وكان فيه ريحان، ويجئ منه ريح المسك. وكانت إقامته بعد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بالمدينة، ثم شهد الفتوح، ثم قطن البصرة ومات بها، وهو آخر من مات من الصحابة بها.

عن إسحاق بن عثمان قال: سألت موسى بن أنس: كم غزا أنس مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ قال: ثمانى غزوات. قال ثابت البنانى: قال لى أنس بن مالك: (هذه شعرة من شعر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فضعها تحت لسانى، قال: فوضعتها تحت لسانه، فدفن وهى تحت لسانه) ومات سنة تسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة، وقيل غير ذلك.

عن أنس قال: قالت أم سليم: يارسول الله أدع الله لأنس، فقال: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك فيه) فقال أنس: إنى لمن أكثر الأنصار مالا وولدا، ويقال: إنه ولد أنس بن مالك ثمانون ولدا منهم ثمانية وسبعون ذكرا، وبنتان، إحداهما تسمى حفصة، والثانية تكنى أم عمرو.

وعنه رضى الله عنه: (جاءت بى أم سليم إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنا غلام فقالت: يارسول الله، أنس، أدع الله له، فقال النبى﴿ ﷺ وآله﴾ : (اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة) قال: قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة. وقال جعفر بن سلمان عن ثابت: كنت مع أنس فجاء قهرمانه فقال: أبا حمزة عطشت أرضنا، قال: فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا، فرأيت السحاب تلتئم، قال: ثم أمطرت حتى ملأت كل شئ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال: انظر أين بلغت السماء، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيرا وذلك فى الصيف. وقال أبو هريرة: (ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من ابن أم سليم) يعنى أنسا.

عن موسى بن أنس أن أبا بكر لما استخلف بعث إلى أنس ليوجهه إلى البحرين على السعاية، فدخل عليه عمر فاستشاره فقال: ابعثه، فإنه لبيب كاتب، قال: فبعثه.

٢- ومنهم ﷺ الأسلع بن شريك بن عوف الأعرجى. قال محمد بن سعد: كان اسمه ميمون بن سنباذ. قال الربيع بن بدر الأعرجى عن أبيه عن جده عن الأسلع قال: كنت أخدم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ و أرحل معه، فقال ذات ليلة:" ياأسلع قم فارحل" قال: أصابتنى جنابة يارسول الله، قال: فسكت ساعة و أتاه جبريل بآية الصعيد،{فقال: قم ياأسلع فتيمم} قال: فتيممت وصليت، فلما انتهيت إلى الماء قال:
" ياأسلع قم فاغتسل" قال: فأرانى التيمم فضرب رسول الله يديه إلى الأرض ثم نفضهما، ثم مسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه الأرض ثم نفضهما فمسح بهما ذراعيه. باليمنى على اليسرى، وباليسرى على اليمنى، ظاهرهما وباطنهما .

٣- ومنهم ﷺ أسماء بن حارثة بن سعد بن عبد الله بن عباد بن سعد بن عمرو ابن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أقصى الأسلمى . وكان من أهل الصفة، قاله محمد بن سعد. وهو أخو هند بن حارثة وكانا يخدمان النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

قال الإمام أحمد عن يحى بن هند بن حارثة وكان هند من أصحاب الحديبية، وكان أخوه الذى بعثه رسول الله يأمر قومه بالصيام يوم عاشوراء، وهو أسماء بن حارثة. فحدثنى يحى بن هند عن أسماء بن حارثه أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعثه فقال:" مر قومك بصيام هذا اليوم". قال: أرأيت إن وجدهم قد طعموا؟ قال: "فليتموا آخر يومهم". قال أبو هريرة: ما كنت أظن أن هندا و أسماء ابنى حارثة إلا مملوكين لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . قال الواقدى: كانا يخدمانه لا يبرحان بابه هما وأنس بن مالك. قال محمد بن سعد: وقد توفى أسماء بن حارثة فى سنة ست وستين بالبصرة عن ثمانين سنة.

٤- ومنهم رضي الله عنهم بكير بن الشداخ الليثى. ذكر ابن منده من طريق أبى بكر الهذلى عن عبد الملك بن يعلى الليثى أن بكير بن شداخ الليثى كان يخدم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

فاحتلم فاعلم بذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: إني كنت أدخل على أهلك وقد احتلمت الآن يارسول الله، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ "اللهم صدق قوله، ولقه الظفر".

فلما كان فى زمان عمر قتل رجل من اليهود، فقام عمر خطيبا فقال: أنشد الله رجلا عنده من ذلك علم؟ فقام بكير فقال: أنا قتلته ياأمير المؤمنين. فقال عمر بؤت بدمه فأين المخرج؟ فقال: ياأمير المؤمنين إن رجلا من الغزاة استخلفنى على أهله، فجئت فإذا هذا اليهودى عند امرأته.

قال: فصدق عمر قوله وأبطل دم اليهودى بدعاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لبكير بما تقدم.

٥- ومنهم رضي الله عنهم بلال بن رباح الحبشى. ولد بمكة وكان مولى لأمية بن خلف، فاشتراه أبو بكر منه بمال جزيل لأن أمية كان يعذبه عذابا شديدا ليرتد عن الإسلام فيأبى إلا الإسلام ﷺ. فلما اشتراه أبو بكر أعتقه ابتغاء وجه الله، فقال عمر ﷺ: كان أبو بكر سيدنا و أعتق بلالا سيدنا . وهاجر حين هاجر الناس، وشهد بدرا و أحدا وما بعدهما من المشاهد ﷺ . وكان يعرف ببلال بن حمامة وهى أمه، وكان من أفصح الناس لا كما يعتقده بعض الناس أن سينه كانت شينا ، وهو أحد المؤذنين الأربعة، وهو أول من أذن لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان خازنه على بيت ماله. وكان يلى أمر النفقة على العيال، ومعه حاصل ما يكون من المال. ولما توفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان فيمن خرج إلى الشام للغزو، ويقال: إنه أقام يؤذن لأبى بكر أيام خلافته، والأول أصح وأشهر.

قال الواقدى: توفى بدمشق سنة عشرين وله بضع وستون سنة. وقال الفلاس: قبره بدمشق، ويقال بداريا، وقيل: إنه توفى بحلب، والصحيح أن الذى مات بحلب أخوه خالد.

قال مكحول حدثني من رأى بلالا قال: كان شديد الأدمة نحيفا أجنا– واسع الجبين– له شعر كثير، وكان لا يغير شيبه ﷺ .

٦– ومنهم رضي الله عنهم حبة وسواء ابنا خالد رضى الله عنهما. قال الإمام أحمد عن حبة وسواء ابنا خالد قالا: دخلنا على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يصلح شيئا فأعناه،فقال:" لا ينسأ من الرزق ما هزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحيمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله عز وجل " .

٧– ومنهم ﷺ ذو مخمر، ويقال ذو مخبر، وهو ابن أخى النجاشى ملك الحبشة، ويقال ابن أخته. والصحيح الأول. كان بعثه ليخدم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ نيابة عنه. قال الإمام أحمد عن ذو مخمر: وكان رجلا من الحبشة يخدم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، قال: كنا معه فى سفر فأسرع السير حتى انصرف، وكان يفعل ذلك من قلة الزاد. فقال له قائل: يارسول الله قد انقطع الناس، قال: فجلس وحبس الناس معه حتى تكاملوا إليه، فقال لهم:" هل لديكم أن نهجع هجعة؟" {أو قال له قائل} : فترل ونزلوا، فقالوا: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت:أنا جعلنى الله فداك، فأعطانى خطام ناقته فقال:" هاك لا تكونن لكعا" قال: فأخذت ناقة رسول الله وخطام ناقتى فتنحيت غير بعيد فخليت سبيلهما ترعيان. فإنى كذلك أنظر إليهما إذا أخذنى النوم، فلم أشعر بشئ حتى وجدت حر الشمس على وجهى، فاستيقظت فنظرت يمينا وشمالا فإذا أنا بالراحلتين منى غير بعيد، فأخذت بخطام ناقة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبخطام ناقتى، فأتيت أدنى القوم فأيقظته فقلت: أصليت؟

قال: لا فأيقظ الناس بعضهم بعض حتى استيقظ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: "يا بلال هل فى الميضأة ماء"؟ يعنى الأزادة، فقال: نعم جعلنى الله فداك، فأتاه بوضوء لم يلت منه التراب، فأمر بلالا فأذن ثم قام النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فصلى الركعتين قبل

الصبح وهو غير عجل، ثم أمره فأقام الصلاة فصلى وهو غير عجل، فقال له قائل: يارسول الله أفرطنا. قال: " لا، قبض الله أرواحنا وردها إلينا، وقد صلينا".

٨- ومنهم ﵁ ربيعة بن كعب الأسلمى أبو فراس. قال الأوزاعى عن ربيعة بن كعب قال: كنت أبيت مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فآتيته بوضوئه وحاجته، فكان يقوم من الليل فيقول:" سبحان ربى وبحمده الهوى، سبحان رب العالمين الهوى" فقال: رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :"هل لك حاجة؟" قلت: يارسول الله مرافقتك فى الجنة، قال: " فأعنى على نفسك بكثرة السجود". وقال الإمام أحمد عن ربيعة بن كعب قال: كنت أخدم رسول الله نهارى أجمع، حتى يصلى عشاء الآخرة فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول لعلها أن تحدث لرسول الله حاجة، فما أزال أسمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول:" سبحان الله وبحمده" حتى أمل فأرجع، أو تغلبنى عيناى فأرقد، فقال لى يوما:- لما يرى من حقى له وخدمتى إياه-" ياربيعة بن كعب سلنى أعطك" قال:فقلت: أنظر فى أمرى يارسول الله ثم أعلمك ذلك، قال: ففكرت فى نفسى فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة وأن لى فيها رزقا سيكفينى ويأتينى، قال: فقلت أسأل رسول الله لآخرتى فإنه من الله بالمنزل الذى هو به، قال: فجئته، فقال"ما فعلت ياربيعة؟" قال : فقلت نعم يارسول الله أسألك أن تشفع لى إلى ربك فيعتقنى من النار، قال:فقال:"من أمرك بهذا ياربيعة؟" قال: فقلت لا والذى بعثك بالحق ما أمرنى به أحد، ولكنك لما قلت سلنى أعطك وكنت من الله بالمنزل الذى أنت به نظرت فى أمرى فعرفت أن الدنيامنقطعة وزائلة، وأن لى فيها رزقا سيأتينى، فقلت أسأل رسول الله لآخرتى . قال: فصمت رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ طويلا ثم قال لى:" إنى فاعل فأعنى على نفسك بكثرة السجود" .

مسئولية الأمة عن زواج غير القادرين

وقال الحافظ أبو يعلى عن ربيعة الأسلمى– وكان يخدم النبى﴿ﷺ وآله﴾–قال: فقال لى ذات يوم:" ياربيعة ألا تزوج؟" قال:قلت يارسول الله ما أحب أن يشغلنى عن خدمتك شئ وما عندى ما أعطى المرأة.قال: فقلت بعد ذلك رسول الله أعلم بما عندى منى يدعونى إلى التزويج، لئن دعانى هذه المرة لأجيبنه. قال: فقال لى:" ياربيعة ألا تزوج؟" فقلت: يارسول الله ومن يزوجنى؟ ما عندى ما أعطى المرأة. فقال لى: انطلق إلى بنى فلان فقل لهم: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأمركم أن تزوجونى فتاتكم فلانة، قال: فأتيتهم فقلت:إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أرسلنى إليكم لتزوجونى فتاتكم فلانة، قالوا: فلانة؟ قال: نعم، قالوا: مرحبا برسول الله ومرحبا برسوله، فزوجونى، فأتيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقلت: يارسول الله أتيتك من خير أهل بيت صدقونى وزوجونى، فمن أين لى ما أعطى صداقى؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لبريدة الأسلمى:" اجمعوا لربيعة فى صداقه فى وزن نواة من ذهب" فجمعوها فأعطونى فأتيتهم فقبلوها، فأتيت رسول الله
﴿ﷺ وآله﴾ فقلت: يارسول الله قد قبلوا، فمن أين لى ما أو لم؟ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لبريدة:" اجمعوا لربيعة فى ثمن كبش" قال: فجمعوا وقال لى:" انطلق إلى عائشة فقل لها فلتدفع إليك ما عندها من الشعير" قال: فأتيتها فدفعت إلى، فانطلقت بالكبش والشعير فأصبح والله عندنا خبز ولحم.

وهذه القصة تؤكد مسئولية المجتمع المسلم عن زواج غير القادرين.

ثم إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقطع أبا بكر أرضا له فاختلفنا فى عذق– النخلة بحملها– فقلت: هو فى أرضى. وقال أبو بكر: هو فى أرضى، فتنازعنا فقال لى أبو بكر كلمة كرهتها، فندم فأحضرنى فقال لى: قل لى كما قلت، قال: فقلت لا والله لا أقول لك كما قلت لى، قال: إذا أتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. قال: فأتى رسول الله ﴿ﷺ

وآله﴾ وتبعته فجاءنى قومى يتبعوننى فقالوا: هو الذى قال لك وهو يأتى رسول الله فيشكوا؟ قال: فالتفت إليهم فقلت: تدرون من هذا،هذا الصديق وذو شيبة المسلمين، ارجعوا لا يلتفت فيراكم فيظن أنكم إنما جئتم لتعينونى عليه فيغضب، فيأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيخبره فيهلك ربيعة. قال: فأتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: إنى قلت لربيعة كلمة كرهتها فقلت له: يقول مثل ما قلت له فأبى، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :" ياربيعة ومالك وللصديق؟" قال: فقلت يارسول الله والله لا أقول له كما قال لى، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :" لا تقل له كما قال لك، ولكن قل غفر الله لك يأبا بكر" .

٩- ومنهم رضي الله عنه سعد مولى أبى بكر رضي الله عنه، ويقال: مولى النبى ﴿ﷺ وآله﴾، قال أبو داود الطيالسى عن سعد مولى أبى بكر الصديق أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال لأبى بكر- وكان سعد مملوكا لأبى بكر، وكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعجبه خدمته-:" أعتق سعدا" فقال: يارسول الله ما لنا خادم ها هنا غيره، فقال: أعتق سعدا أتتك الرجال أتتك الرجال".

وقال أبو داود الطيالسى عن سعد قال: قربت بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تمرا، فجعلوا يقرنون- يجمعون بين تمرتين أو لقمتين- فنهى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن القران.

١٠- ومنهم رضي الله عنهم عبد الله بن رواحة يكنى أبا محمد، أحد النقباء الاثنى عشر، شهد العقبة مع السبعين، وبدرا، وأحدا، والخندق، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، دخل يوم عمرة القضاء مكة وهو يقود بناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله   ضربا يزيل الهام عن مقيله

ويشغل الخليل عن خليله

كما قدمنا ذلك بطوله. وقد قتل عبد الله بن رواحة شهيدا بعد هذا بأشهر فى يوم مؤتة كما تقدم أيضا.

حامل نعلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وعصاه ووسادته

١١- ومنهم رضي الله عنهم عبد الله بن مسعود من أئمة الصحابة ويكنى أبا عبد الرحمن، أمه أم عبد، أسلم قبل دخول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دار الأرقم، ويقال: كان سادسا فى الإسلام. هاجر الهجرتين وشهد بدرا وما بعدها، كان يلى حمل نعلى النبى

﴿ﷺ وآله﴾ ووسادته وسواكه، ويلى طهوره فى السفر، ويرحل دابته إذا أراد الركوب، وكانت له اليد الطولى فى تفسير كلام الله، وله العلم الجم والفضل والحلم. وفى الحديث أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال لأصحابه:- وقد جعلوا يعجبون من دقة ساقيه-فقال:" والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد". وقال عمر بن الخطاب فى ابن مسعود: هو كنيف ملئ علما. وذكروا أنه نحيف الخلق حسن الخلق، يقال: إنه كان إذا مشى يسامت الجلوس، وكان يشبه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى هديه ودله وسمته، يعنى أن يشبه بالنبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى حركاته وسكناته وكلامه ويتشبه بما استطاع من عبادته.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عبد الله يلبس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نعليه ثم يمشى أمامه بالعصا حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه، فأدخلهما فى ذراعيه وأعطاه العصا، فإذا أراد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يقوم ألبسه نعليه ثم مشى بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

توفىؓ فى أيام عثمان سنة اثنتين-أو ثلاث- وثلاثين بالمدينة عن ثلاث وستين سنة، وقيل: إنه توفى بالكوفة والأول أصح.

١٢- ومنهم ﵁ عقبة بن عامر الجهنى. قال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: بينما أقود برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى نقب من تلك النقاب. إذ قال لى:" ياعقبة ألا تركب؟" قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله وركبت هنيهة، ثم ركب ثم قال:" ياعقب ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟" قلت: بلى يارسول الله، فأقرأنى قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس. ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ فقرأ بهما. ثم مر بى فقال: " اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت" .

١٣- ومنهم ﵁ قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى. روى البخارى عن أنس قال: كان قيس بن سعد بن عبادة من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير، وقد كان قيس هذا ﵁ من أطول الرجال، وكان كوسجا، ويقال: إن سراويله كان يضعه على أنفه من يكون من أطول الرجال فتصل رجلاه الأرض، وقد بعث سراويله معاوية إلى ملك الروم يقول له: هل عندكم رجل يجئ هذه السراويل على طوله؟ فتعجب صاحب الروم من ذلك. وذكروا أنه كان كريما ذا رأى ودهاء، وقد تقدم ذكر قصته فى سرية الخبط مع أمير المجاهدين أبى عبيدة بن الجراح ﵁ . وكان مع سيدنا على بن أبى طالب أيام صفين. وقال مسعر عن معبد بن خالد: كان قيس بن سعد لا يزال رافعا أصبعه المسبحة يدعو ﵁ وأرضاه.

وقال الواقدى وخليفة بن خياط وغيرهما: توفى بالمدينة فى آخر أيام معاوية. وقال الحافظ أبو بكر البزاز عن أنس قال: كان عشرون شابا من الأنصار يلزمون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لحوائجه، فإذا أراد أمرا بعثهم فيه.

١٤-ومنهم ﵁ المغيرة بن شعبة الثقفى﵁ كان بمنزلة السلحدار بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، كما كان رافعا السيف فى يده وهو واقف على رأس النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى الخيمة يوم الحديبية: فجعل كلما أهوى عمه عروة بن مسعود الثقفى حين قدم فى

الرسيلة إلى لحية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ – على ما جرت به عادة العرب فى مخاطبتها– يقرع يده بقائمة السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل أن لا تصل إليك. الحديث كما قدمناه.

قال محمد بن سعد وغيره: شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وولاه مع أبى سفيان الإمرة حين ذهبا فخربا طاغوت أهل الطائف، وهى المدعوة بالربة، وهى اللات، وكان داهية من دهاة العرب. وقال الشعبى سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها.

وقد اختلف فى وفاته على أقوال أشهرها وأصحها وهو الذى حكى عليه الخطيب البغدادى الإجماع أنه توفى سنة خمسين.

١٥– ومنهم ﷺالمقداد بن عمرو أبو معبد الكندى حليف بنى زهرة، كان حالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى فى الجاهلية فتبناه. فكان يقال له: المقداد ابن الأسود، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٥) . قيل: المقداد بن عمرو. وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان طويلا آدم، ذا بطن، كثير شعر الرأس، واسع العين، مقرون الحاجبين.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: أول من عدا به فرسه فى سبيل الله المقداد بن الأسود. وقال الإمام على الكليلة: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد.

وقد تقدم قوله ﷺفى غزوة بدر الذى سر به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قال الإمام أحمد عن المقداد بن عمرو قال:قدمت المدينة أنا وصاحبان فتعرضنا للناس فلم يضفنا أحد، فأتينا إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فذكرنا له، فذهب بنا إلى مترله وعنده أربعة أعتر، فقال:" احلبهن يامقداد، وجزئهن أربعة أجزاء، وأعط كل إنسان جزءا" فكنت أفعل ذلك فرفعت للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ذات ليلة، فاحتبس واضجعت على

فراشى فقال لى نفسى: إن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قد أتى أهل بيت من الأنصار، فلو قمت فشربت هذه الشربة، فلم تزل حتى قمت فشربت جزأه، فلما دخل فى بطنى ومعائى أخذنى ما قدم وما حدث، فقلت: يجيء الآن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ جائعا ظمآنا فلا يرى فى القدح شيئا. فسجيت ثوبا على وجهى. وجاء النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فسلم تسليمة تسمع اليقظان ولا توقظ النائم، فكشف عنه فلم ير شيئا، فرفع رأسه إلى السماء فقال:" اللهم اسق من سقانى، وأطعم من أطعمنى" فاغتنمت دعوته وقمت فأخذت الشفرة فدنوت إلى الأعنز فجعلت أجسهن أيتهن أسمن لأذبحها، فوقعت يدى على ضرع إحداهن فإذا هى حافلا، ونظرت إلى الأخرى فإذا هى حافل، فنظرت فإذا كلهن حفل، فحلبت فى الإناء فأتيته به فقلت: اشرب فقال:" ما الخبر يامقداد؟" فقلت: اشرب ثم الخبر، فقال:" بعض سوآتك يامقداد" فشرب ثم قال:" اشرب" فقلت:اشرب يانبى الله، فشرب حتى تضلع ثم أخذته فشربته، ثم أخبرته، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾:" هيه" كان كذا وكذا، ثم قال النبى
﴿ ﷺ وآله﴾:" هذه بركة منزلة من السماء أفلا أخبرتنى حتى أسقى صاحبيك؟"
فقلت: إذا شربت البركة أنا وأنت فلا أبالى من أخطأت.

وفى رواية: فى الإناء الذى كانوا لا يطيقون أن يحلبوا فيه، فحلب حتى علته الرغوة، ولما جاء قال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾:" أما شربتم شرابكم الليلة يامقداد؟" فقلت: اشرب يارسول الله، ثم ناولنى فأخذت ما بقى ثم شربت،فلما عرفت أن رسول الله قد روى فأصابتنى دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾": إحدى سوآتك يامقداد" فقلت: يارسول الله كان من أمرى كذا، صنعت كذا. فقال:" ما كانت هذه إلا رحمة الله، ألا كنت أذنتنى توقظ صاحبيك هذين فيصيبان منهما؟" قال قلت: والذى بعثك بالحق ما أبالى إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس.

قال أهل السير: شرب المقداد دهن الخروع فمات، وذلك بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة، فحمل على رقاب الرجال حتى دفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين وهو ابن سبعين سنة أو نحوها.

١٦- ومنهم ؓمهاجر مولى أم سلمة. قال الطبرانى قال مهاجر: خدمت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سنين فلم يقل لى لشئ صنعته لم صنعته،ولا لشئ تركته لم تركته. وفى رواية: خدمته عشر سنين أو خمس عشرة سنة.

١٧- ومنهم ؓأبو السمح. قال أبو السمح: كنت أخدم رسول الله ، وكان إذا أراد أن يغتسل قال: ناولنى أدواتى، قال: فأناوله وأستتره، فأتى بحسن أو حسين فبال على صدره، فجئت لأغسله فقال:"يغسل من بول الجارية، ويرش من بول الغلام" وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة.

١٨- ومنهم ؓأبو بكر ؓ. تولى خدمته بنفسه فى سفرة الهجرة لا سيما فى الغار وبعد خروجه منه حتى وصلوا إلى المدينة كما تقدم ذلك، وسوف نتحدث عن ترجمته عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة.

فهؤلاء هم جملة خدامه من الأحرارؓ .

٥- مواليه ﴿ ﷺ وآله﴾الذين أعتقهم

١- فمنهم أسامة بن زيد بن حارثة أبو زيد الكلبى، ويقال: أبو زيد، ويقال: أبو محمد، مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وابن مولاه،وحبه وابن حبه، وأمه أم أيمن واسمها بركة كانت حاضنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى صغره، وممن آمن به قديما بعد بعثته، وقد أمره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى آخر أيام حياته، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة أو تسع عشرة أو عشرين، وتوفى وهو أمير على جيش كثيف منهم عمر بن الخطاب، لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ نصبه للإمامة، فلما توفى ﴿ ﷺ وآله﴾ وجيش أسامة مخيم بالجرف كما قدمناه، استطلق أبو بكر من أسامة عمر بن الخطاب فى الإقامة عنده

ليستضئ برأيه فأطلقه له، وأنفذ أبو بكر أسامة بعد مراجعة كثيرة من الصحابة له فى ذلك، وكل ذلك يأبى عليهم ويقول: والله لا أحل راية عقدها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فساروا حتى بلغوا تخوم البلقاء من أرض الشام حيث قتل أبوه زيد شهيدا وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ﵃. فأغار على تلك البلاد وغنم وسبى وكر راجعا سالما مؤيدا. فلهذا كان عمر بن الخطاب ﵁ لا يلقى أسامة إلا قال له: السلام عليك أيها الأمير.

ولما عقد له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾راية الإمرة طعن بعض الناس فى إمارته، فخطب رسول الله فقال فيها:" إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الخلق إلى بعده"

وثبت فى صحيح البخارى عن أسامة ﵁قال: كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يأخذنى والحسن فيقول:" اللهم إنى أحبهما فأحبهما" . وروى عن الشعبى عن عائشة .
سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾:" من أحب الله ورسوله فليحب أسامة بن زيد" ولهذا لما فرض عمر بن الخطاب للناس فى الديوان فرض لأسامة فى خمسة آلاف. وأعطى ابنه عبد الله بن عمر فى أربعة آلاف، فقبل له ذلك، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من أبيك. وقد روى عبد الرازق عن أسامة: أن رسول الله أردفه خلفه على حمار عليه قطيفة حين ذهب يعود سعد بن عبادة، قبل وقعة بدر.

و أردفه أيضا وراءه على ناقته حين دفع من عرفات إلى المزدلفة كما قدمنا فى حجة الوداع. وقد ذكر غير واحد أنه ﵁لم يشهد مع سيدنا على شيئا من مشاهده، واعتذر إليه بما قال له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾حين قتل ذلك الرجل وقد قال: لا إله إلا الله، فقال:" من لك إله إلا الله يوم القيامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة" الحديث.

وذكر فضائله كثيرة ﵁. وقد كان أسود كالليل، أفطس حلوا كبيرا فصيحا عالما ربانيا ﵁، وكان أبوه كذلك إلا أنه كان أبيض شديد البياض، ولهذا طعن من لا يعلم فى نسبه منه. ولما مر مجزز المدلجى عليهما وهما نائمان فى قطيفة وقد بدت أقدامها، أسامة بسواده وأبوه زيد ببياضه قال: سبحان الله إن بعض هذه الأقدام لمن بعض، أعجب بذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . ودخل على عائشة مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال:" ألم تر أن مجززا نظر آنفا إلى زيد بن حارثة و أسامة بن زيد فقال إن بعض الأقدام لمن بعض". ولهذا أخذ فقهاء الحديث كالشافعى وأحمد من هذا الحديث من حيث التقرير عليه والاستبشار به، العمل بقول القيافة فى اختلاط الأنساب واشتباهها كما هو مقرر فى موضعه.

والمقصود أنه ﵁توفى سنة أربع وخمسين مما صححه أبو عمر. وقال غيره: سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل: توفى بعد مقتل عثمان. وروى له الجماعة فى كتبهم الستة.

٢-ومنهم أسلم، وقيل: إبراهيم، وقيل: ثابت، وقيل:هرمز أبو رافع القبطى أسلم قبل بدر ولم يشهدها لأنه كان بمكة مع سادته آل العباس، وكان ينحت القداح، ثم هاجر وشهد أحدا وما بعدها، وكان كاتبا، وقد كتب بين يدى على بن أبي طالب بالكوفة، وشهد فتح مصر فى أيام عمر. وقد كان أولا للعباس بن عبد المطلب فوهبه للنبى ﴿ﷺ وآله﴾وعتقه وزوجه مولاته سلمى، فولدت له أولادا، وكان على ثقل النبى ﴿ﷺ وآله﴾.

وقال الإمام أحمد عن ابن أبى رافع أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾بعث رجلا من بنى مخزوم على الصدقة، فقال لأبى رافع: اصحبنى كيما تصيب منها، فقال:لا حتى آتى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأسأله، فأتى رسول الله فسأله فقال:" الصدقة لا تحل لنا، وإن مولى القوم منهم" وقد رواه الثورى عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن الحكم به، وروى أبو يعلى فى مسنده عنه أنه أصابهم برد شديد وهو بخيبر، فقال رسول الله ﴿ﷺ

وآله﴾:" من كان له لحاف فليلحف من لا لحاف له، قال أبو رافع: فلم أجد من يلحفنى معه، فأتيت رسول الله فألقى على لحافه، فنمنا حتى أصبحنا، فوجد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند رجليه حيه فقال:" ياأبا رافع اقتلها اقتلها" وروى له الجماعة فى كتبهم، ومات فى أيام سيدنا على كرم الله وجهه.

٣- ومنهم أنسة بن زيادة بن مشرح، ويقال: أبو مسرح، من مولدى السراة مهاجرى شهد بدرا فيما ذكره عروة والزهرى وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق والبخارى وغير واحد. قالوا: وكان ممن يأذن على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا جلس ، وذكر خليفة بن خياط فى كتابه عن ابن عباس قال: استشهد يوم بدر أنسة مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. قال الواقدى: وليس هذا يثبت عندنا، ورأيت أهل العلم يثبتون أنه شهد أحدا أيضا، وبقى زمانا وأنه توفى فى حياة أبي بكرﷺ أيام خلافته.

٤- ومنهم أيمن بن عبيد بن زيد الحبشى ونسبه ابن منده إلى عوف بن الخزرج وفيه نظر، وهو ابن أم أيمن بركة أخو أسامة لأمه. قال إسحاق: وكان على مطهرة- كل إناء يتطهر منه- النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وكان ممن ثبت يوم حنين، ويقول: إن فيه وفى أصحابه نزل قوله تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠). قال الشافعى: قتل أيمن مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم حنين.

الجنة بدون النبى ﴿ ﷺ وآله﴾عذاب

٥- ومنهم ثوبان بن بجدد، ويقال: ابن جحدر أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الكريم، ويقال: أبو عبد الرحمن. أصله من أهل السراة مكان بين مكة واليمن، وقيل: من حمير من أهل اليمن، وقيل: من الهان، وقيل من حكم بن سعد العشيرة من مذحج أصابه سبى فى الجاهلية. فاشتراه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأعتقه وخيره إن شاء أن يرجع إلى

قومه، وإن شاء يثبت فإنه منهم أهل البيت. فأقام على ولاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولم يفارقه حضرا ولا سفرا حتى توفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

روى الطبرانى وابن مردويه عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا { قال البغوى فى تفسيره: إنه ثوبان مولى رسول الله} أتى النبى ﴿ﷺ وآله﴾فقال: يارسول الله لأنت أحب إلى من أهلى ومالى، وإنى لأذكرك فما أصبر حتى أجئ فأنظر إليك، وإني ذكرت موتى وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، و إن دخلتها لا أراك فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩). فدعاه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقرأها عليه، فقرت عينه بذلك.

وشهد فتح مصر أيام عمر ونزل حمص بعد ذلك وابتنى بها دارا، وأقام بها إلى أن مات سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة أربع وأربعين– وهو خطأ– وقيل: إنه مات بمصر، والصحيح بحمص كما قدمنا، روى له البخارى فى كتاب الأدب، ومسلم فى صحيحه وأهل السنن الأربعة.

شارب ماء وضوء النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٦– ومنهم حنين مولى النبى ﴿ﷺ وآله﴾وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين، كان يخدم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ويوضئه، فإذا فرغ النبى ﴿ﷺ وآله﴾ خرج بفضلة الوضوء إلى أصحابه، فمنهم من يشرب منه، ومنهم من يتمسح به، فاحتبسه حنين فخبأه عنده فى جرة حتى شكوه إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له:" ما تصنع به؟" فقال: أدخره عندى أشربه يارسول الله فقال ﴿ﷺ وآله﴾:" هل رأيتم غلاما أحصى ما أحصى هذا؟" ثم إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهبه .لعمه العباس فاعتقه رضى الله عنهما .

٧- ومنهم رافع أو أبو رافع ، ويقال له : أبو البهى ، قال أبو بكر بن أبى خيثمة : كان لأبى أحيحة سعيد بن العاص الأكبر فورثه بنوه وأعتق ثلاثة منهم أنصباءهم وشهد معهم يوم بدر ، فقتلوا ثلاثتهم ، ثم اشترى أبو رافع بقية أنصباء بنى سعيد مولاه إلا نصيب خالد بن سعيد ، فوهب خالد نصيبه لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقبله وأعتقه ، فكان يقول : أنا مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكذلك كان بنوه يقولون من بعده .

٨- ومنهم رباح الأسود ، وكان يأذن على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو الذى أخذ الإذن لعمر بن الخطاب حتى دخل على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى تلك المشربة يوم آلى من نسائه واعتزلهن فى تلك المشربة وحده ﴿ ﷺ وآله﴾ ،هكذا جاء مصرحاً باسمه فى حديث عكرمة بن عمار عن سماك بن الوليد عن ابن عباس عن عمر .

وقال الإمام أحمد عن أياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : كان للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ غلام يسمى رباح .

٩- ومنهم رويفع مولاه ﴿ ﷺ وآله﴾ هكذا عدّه فى الموالى مصعب بن عبد الله الزبيرى وأبو بكر بن أبى خيثمة قالا : وفد ابنه على عمر بن عبد العزيز فى أيام خلافته ففرض له . قالا : ولا عقب له .

كان عمر بن عبد العزيز – رحمة الله – شديد الاعتناء بموالى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، يحب أن يعرفهم ويحسن إليهم ، وقد كتب فى أيام خلافته إلى أبى بكر بن حزم عالم أهل المدينة فى زمانه : أن يفحص له عن موالى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الرجال والنساء وخدامه . (رواه الواقدى) .

١٠- ومنهم زيد بن حارثة الكلبى . وقد قدمنا طرفاً من ذكره عند ذكر مقتله شهيداً بغزوة مؤتة ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وذلك فى جمادى من سنة ثمان قبل الفتح بأشهر ،وقد كان هو الأمير المقدم ،ثم بعدهما عبد الله بن رواحة .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :ما بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾زيد بن حارثة فى سرية إلا أمَّره عليهم ،ولو بقى بعده لا ستخلفه . (رواه أحمد) .

وهو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرىء القيس ، ويقال له: زيد الحب أو الخير . وأمه سعدى بنت ثعلبة بن عامر، وقد مرت قصة إغارة خيل بنى القين فى الجاهلية ، واختطاف سيدنا زيد وبيعه فى سوق عكاظ عند ذكر أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها.

قال أهل السير: وشهد زيد بدراً وأحداً والخندق والحديبية و خيبر، واستخلفه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾على المدينة حين خرج إلى المريسيع،وخرج أميراً فى سبع سرايا، ولم يسم أحد من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى القرآن باسمه غيره .

وكان له من الولد : زيد – مات صغيرا – ، ورقية: أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وأسامة : أمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

١١– ومنهم زيد أبو يسار ، قال أبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة : سكن المدينة ، روى حديثا واحد . ثنا أبو عمر بن مرة سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ سمعت أبي حدثنى عن جدى أنه سمع رسول الله يقول: " من قال استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، غفر له وإن كان فر من الزحف " و هكذا رواه أبو دواه عن أبي سلمة . وأخرجه الترمذى عن محمد بن إسماعيل عن لأبى سلمة موسى بن إسماعيل به . وقال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

أرسله النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فكلمه الأسد

١٢– ومنهم سفينة أبو عبد الرحمن ، ويقال أبو البخترى كان اسمه مهران ، وقيل : عبس ، وقيل : أحمر ، وقيل: رومان، فلقبه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لسبب سنذكره ، فغلب عليه . وكان مولى لأم سلمة فاعتقته واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾حتى يموت ، فقبل ذلك . وقال لو لم تشترطى على ما فارقته، وهذا الحديث فى

السنن . وهو من مولدى العرب وأصله من أبناء فارس وهو سفينة بن ما فنة. وقال الإمام أحمد : حدث سعيد بن جمهان قال سفينة : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : "الخلافة فى أمتى ثلاثون سنه ، ثم ملكا بعد ذلك " ثم قال لى سفينه : أمسك خلافة أبى بكر، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وأمسك خلافة على ، ثم قال فوجدناها ثلاثين سنه . ثم نظرت بعد ذلك فى الخلفاء فلم أجده يتفق لهم ثلاثون . قلت لسعيد أين لقيت سفية ؟ قال : ببطن نخلة فى زمن الحجاج ، فأقمت عنده ثلاث ليال أسأله عن أحاديث رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ . قلت له : ما اسمك ؟ قال : ما أنا بمخبرك، سمانى رسول الله سفينة. قلت :ولم سماك سفينة؟ ؟ قال: خرج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ومعه أصحابه ، فنقل عليهم متاعهم فقال لى : " ابسط كيال " فبسطته ، فجعلوا فيه متاعهم ثم حملوه على ، على فقال لى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ "احمل فإنما أنت سفينة" فلو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل علىَّ ، إلا أن يحفوا . وهذا الحديث عن أبى داود والترمذى والنسائى. ولفظه عدهم " خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً".

وقال الإمام أحمد : عن سفينة قال : كنا فى سفر فكان كلما أعيا رجل ألقى علىَّ ثيابه ، ترساً أو سيفا حتى حملت من ذلك شيئاً كثيراً ، فقال النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ :" أنت سفينة" هذا هو المشهور فى تسميته سفينة .

وقد قال أبو القاسم البغوى عن مولى لأم سلمة قال : كنا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فمررنا بواد – أو نهر – فكنت أعبر الناس . فقال لى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : " ما كنت منذ اليوم إلا سفينة " وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسود بن عامر عن شريك .

وقال أبو عبد الله بن منده عن سفينة قال : ركبت البحر فى سفينة فكسرت بنا ، فركبت لوحاً منها فطرحنى فى جزيرة فيها أسد، فلم يرعنى إلا به ، فقلت : ياأبا

الحارث أنا مولى رسول الله فجعل يغمزنى بمنكبه حتى أقامنى على الطريق ، ثم همهم فظننت أنه السلام .

وروى الإمام أحمد أنه كان يسكن بطن نخلة ، وأنه تأخر إلى أيام الحجاج .

١٣–ومنهم سلمان الفارسى : مولى رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ ويعرف بسلمان الخير ، أصله من فارس من رام هرمز ، وكان إذا قيل له :ابن من أنت ؟ قال : أنا سلمان بن الإسلام من بنى آدم ، وكان سلمان يطلب دين الله تعالى ، ويتبع من يرجو ذلك عنده ، فدان بالنصرانية وغيرها ، وقرأ الكتب، وصبر فى ذلك على مشقات نالته، وذلك كله مذكور فى خبر إسلامه ، وذكر سليمان التيمى عن أبي عثمان النهدى عن سلمان الفارسى أنه تداوله فى ذلك عشر ربا من رب إلى رب حتى أفضى إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ومن الله عليه بالإسلام .

قصة إسلامه

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى سلمان الفارسى قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان ، من أهل قرية منها يقال لها جى ، وكان أبي دهقان – رئيس الإقليم – قريته . وكنت أحب خلق الله إليه . فلم يزل به حبة إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية . واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن – خازن – النار الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة .

قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة . قال : فشغل فى بنيان له يوما . قال لى:يا بنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فطالعها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبي إياى فى بيته . فلما مررت بهم وسمعت أصواهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون . قال : فلما رأيتهم أعجبتنى صلاقم ورغبت فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الذى نحن عليه . فوالله ما تركتهم حتى

غربت الشمس وتركت ضيعة أبى ولم آتها ، فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ؟ .

قال : ثم رجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله . فلما جئته قال : أى بنى أين كنت ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قلت : ياأبة ، مررت بناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أى بنى ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . قلت : كلا والله إنه لخير من ديننا. قال: فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام تجاراً من النصارى فأخبرونى بهم . قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى. قال : فأخبرونى بقدوم تجار، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم. قال: فلما قدمتها أرادوا الرجعة إلى بلادهم ألقيت الحديد من رجلى ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قلت: من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا: الأسقف فى الكنيسة. قال: فجئته فقلت: إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك . قال: فادخل .فدخلت معه .

قال:فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها شيئاً اكتره لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال، أى : مفردها قلة وهى الجرة العظيمة ، من ذهب . قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع . قال: ثم مات . فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتترها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً . قالوا : وما علمك بذلك؟ قلت : أنا أدلكم على كتره . قالوا: فدُلنا عليه. قال: فأريتهم موضعه . قال:

فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً. قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. قال: فصلبوه ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، فما رأيت رجلاً يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ،ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببته حباً لم أحبه من قبله، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة. قلت له: يافلان إنى كنت معك فأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرتك الوفاة فإلى من توصى بى، وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه. لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه ، فالحق به.

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يافلان إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك وأخبرنى أنك على أمره. قال: فقال لى : أقم عندى . قال: فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يافلان إن فلاناً أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين – بلدة على حدود تركيا وسوريا – وهو فلان فالحق به .

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئت فأخبرته بما جرى وما أمرنى به صاحبى قال : فأقم عندى فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه. فأقمت مع خير رجل . فو الله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يافلان إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى ، وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه على مثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته فإنه على مثل أمرنا .

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى فقال: أقم عندى . فأقمت عند رجل على هدى أصحابه وأمرهم .قال: وكنت أكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة قال : ثم به نزل أمر الله عز وجل فلما حضر قلت له: يافلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، وأوصى بى فلان إلى فلان، وأوصى بى فلان إلى فلان ، وأصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك ، زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجر إلى أرض بين حرتين ، أى : أرض ذات حجارة سود ، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال: ثم مات وغيب ، فمكث بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بى نفر من كلب تجارا فقلت لهم : تحملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه؟ قالوا: نعم . فأعطيتهم إياها وحملونى حتى إذا قدموا بى وادى القرى ظلمونى فباعونى من رجل من يهود . فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن يكون البلد التى وصف لى صاحبى ولم يحق لى فى نفسى .

فبينا أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بنى قريظة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى فأقمت بها، وبعث الله رسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق. .

ثم هاجر إلى المدينة فو الله إنى لفى رأس عذق، أى : نخلة، لسيدى أعمل فيه بعض العمل وسيدى جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : فلان ، قاتل الله بنى قليه ، أى: الأوس والخزرج ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم زعم أنه نبى.

قال: فلما سمعتها أخذتنى العرواء ، أى : من الحمى ، حتى ظننت أنى ساقط على

سيدى . قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ماذا تقول؟ قال : فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة وقال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك . قال: قلت لا شيء إنما أردت أن استثبته عما قال .

وقد كان شيء عندى قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له :إنه قد بلغنى أنك رجل صالح معك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم .

قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه: كلوا وأمسك يده هوفلم يأكل . قال: فقلت فى نفسى: هذه واحدة.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا وتحول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة ثم جئته به فقلت: إنى رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت فى نفسى: هاتان اثنتان.

قال: ثم جئت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو ببقيع الغرقد – قد تبع جنازة من أصحابه عليه ثملتان– وهو جالس فى أصحابه فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟ فلما رآنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استدبرته عرف أنى أستثبت فى شيء وصف لى. قال فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فانكببت عليه أقبله وأبكى فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : تحول . فتحولت فقصصت عليه حديثى كما حدثك يابن عباس فأعجب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يسمع ذلك أصحابه.

عن عبد الله بن بعريزة عن أبيه أن سلمان الفارسى أتى إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بصدقه فقال: هذه صدقة عليك وعلى أصحابك فقال: " ياسلمان إنا أهل البيت لا تحل لنا الصدقة فرفعها. ثم جاءه من الغد بمثلها فقال: هذه هدية، فقال ﴿ﷺ وآله﴾ لأصحابه: كلوا "فاشتراه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من قوم من اليهود بكذا وكذا

درهما، وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخيل، يعمل فيها سلمان حتى تدرك فغرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ النخل كله إلا نخلة واحدة غرسها عمر ﴿ﷺ وآله﴾ ، فأطعم النخل كله إلا تلك النخلة، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ " من غرسها؟ فقالوا: عمر، فقلعها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وغرسها بيده فأطعمت من عامها".

وذكر معمر عن رجل من أصحابه ﴿ﷺ وآله﴾ قال:دخل قوم على سلمان– وهو أمير على المدائن وهو يعمل الخوص – فقيل له: تعمل هذا وأنت أمير يجرى عليك رزق؟ فقال: إنى أحب أن آكل من عمل يدى ، وذكر أنه تعلم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه.

أول مشاهده الخندق، وهو الذى أشار بحفره، فقال أبو سفيان وأصحابه إذا رأوه: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها. وقد قيل: إنه شهد بدرا وأحدا إلا أنه كان عبدا يومئذ، والأكثر أن أول مشاهده الخندق، ولم يفته بعد ذلك مشهد مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان خيرا فاضلا حبرا عالما زاهدا متقشفا.

ذكر هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها. وعن مالك قال: كان سلمان يعمل الخوص بيده فيعيش منه، ولا يقبل من أحد شيئا، قال: ولم يكن له بيت، وإنما كان يستظل بالجدر والشجر، وأن رجلا قال له: ألا أبنى لك بيتا فيه تسكن؟ فقال: مالى به حاجة، فما زال به الرجل حتى قال له: إنى أعرف البيت الذى يوافقك، قال:فصفه لى، قال: أبنى لك بيتا إذا أنت قمت فيه أصاب رأسك سقفه، وإن أنت مددت فيه رجليك أصابهم الجدار، قال: نعم، فبنى له بيتا كذلك.

وروى عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: " لو كان الدين عند الثريا لناله سلمان " . وفى رواية أخرى: " لناله رجال من فارس". وعن عائشة رضى الله عنها قالت " كان

لسلمان مجلس من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. وروى من حديث ابن بريدة عن أبيه عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال: " أمرنى ربى بحب أربعة، وأخبرنى أنه يحبهم، على، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان رضي الله عنهم " .

عن أبي هريرة قال: كان سلمان صاحب الكتابين قال: قتادة : يعنى الإنجيل والفرقان. وسئل سيدنا على عليه السلام عن سلمان فقال: علم العلم الأول والآخر بحر لا ينزف، وهو منا آل البيت وعن سيدنا على كرم الله وجهه أنه قال: سلمان الفارسى مثل لقمان الحكيم.

وعن عائد بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ وأتى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبره ، فقال : " يأبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك جل وعلا " فأتاهم أبو بكر فقال : يأخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا يأبا بكر و يغفر الله لك .

وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قد آخى بينه وبين أبى الدرداء ، فرأى أم الدرداء مبتذلة ، فقال : ما شأنك ؟ قالت : إن أخاك ليس له حاجة فى شيء من الدنيا ، قال : فلما جاء أبو الدرداء رحب بسلمان وقرب له طعاما ، فقال سلمان : أطعم ، قال : إنى صائم ، قال : أقسمت عليك إلا ما طعمت ، إنى لست بآكل حتى تطعم ، قال : وبات سلمان عند أبى الدرداء ، فلما كان الليل قام أبو الدرداء فحبسه سلمان وقال : يأبا الدرداء إن لربك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، وإن لجسدك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، قال : فلما كان وجه الصبح قال : قم الآن ، قال : فقاما فصليا ثم خرجا إلى الصلاة ، قال : فلما صلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قام إليه أبو

الدرداء وأخبره بما قال سلمان ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : مثل ما قال سلمان . وكانت وفاته سنة خمس وثلاثين فى آخر أيام عثمان ، وقيل غير ذلك .

١٤- ومنهم شقران الحبشى واسمه صالح بن عدى ، ورثه ﴿ﷺ وآله﴾ من أبيه . وقال مصعب الزبيرى ومحمد بن سعد : كان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبى ﴿ﷺ وآله﴾. وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن عيسى عن أبى معشر أنه ذكره فيمن شهد بدرا ، وهو مملوك ، فلهذا لم يسهم له بل استعمله على الأسرى ، فحذاه- أعطاه - كل رجل له أسير شيئا ، فحصل له أكثر من نصيب كامل. قال : وقد كان ببدر ثلاثة غلمان غيره ، غلام لعبد الرحمن بن عوف ، وغلام لحاطب بن أبى بلتعة ، وغلام لسعيد بن معاذ ، فرضخ لهم ولم يقسم .

قال أبو القاسم البغوى : وليس له ذكر فيمن شهد بدرا . وذكر الواقدى قال : استعمل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ شقران مولاه على جميع ما وجد فى رحال المريسيع من رثة المتاع والسلاح والنعم والشاء وجمع الذرية ناحية . وقال الإمام أحمد عن شقران مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : رأيته - يعنى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ - متوجها إلى خيبر على حمار يصلى عليه ، يومىء إيماء . وفى هذه الأحاديث شواهد أنه شهد هذه المشاهد .

وروى الترمذى عن ابن رافع قال سمعت شقران يقول : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى روضته . وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : الذى أتخذ روضة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أبو طلحة ، والذى ألقى القطيفة شقران . ثم قال الترمذى حسن غريب . وقد شهد غسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . ونزل فى روضته ، وأنه وضع تحته القطيفة التى كان يصلى عليها وقال : والله لا يلبسنها أحد بعدك وذكر الحافظ أبو حسن بن الأثير فى الغابة أنه انقرض نسله فكان آخرهم موتا بالمدينة فى أيام الرشيد .

١٥- ومنهم ضميرة بن أبي ضميرة الحميرى ، أصابه سبى فى الجاهلية فاشتراه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأعتقه ، ذكره مصعب الزبيرى قال : وكانت له دار بالبقيع ، وولد .
قال عبد الله بن وهب عن ابن أبي ذئب عن حسين بن عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن جده أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مر بأم ضميرة وهى تبكى فقال لها : " ما يبكيك ؟ أجائعة أنت ، أعارية أنت " قالت : يارسول الله فرق بينى وبين أبنى ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : " لا يفرق بين الوالدة وولدها " ثم أرسل على الذى عنده ضميرة فدعاه فابتاعه منه ببكر ، قال ابن أبي ذئب : ثم أقرأنى كتابا عنده : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته ، أن رسول الله أعتقهم ، وأنهم أهل بيت من العرب ، إن أحبوا أقاموا عند رسول الله ، وإن أحبوا رجعوا إلى قومهم ، فلا يعرض لهم إلا بحق ، ومن لقيهم من المسلمين فليستوصى بهم خيرا ، وكتبه أبي بن كعب) .

١٦- ومنهم طهمان . ويقال : ذكوان ، ويقال : مهران ويقال : ميمون ، وقيل : كيسان ، وقيل : باذام .
روى عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " إن الصدقة لا تحل لى ولا لأهل بيتى ، وإن مولى القوم من أنفسهم " رواه البغوى عن منجاب بن الحارث وغيره عن شريك عن عطاء ابن السائب عن إحدى بنات على بن أبي طالب وهى أم كلثوم بنت على قالت : حدثنى مولى للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقال له طهمان أو ذكوان . قال : قال رسول الله . فذكره .

١٧- ومنهم عبيد مولى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال أبو داود الطيالسى عن شعبة عن سليمان التيمى عن شيخ عن عبيد مولى للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : قلت هل كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يأمر بصلاة سوى المكتوبة ؟ قال : صلاة بين المغرب والعشاء . قال أبو القاسم البغوى : لا أعلم روى غيره . ثم ساق من طريق أبي يعلى الموصلى حدثنا عبد

الأعلى بن حماد ثنا حماد بن سلمة عن سليمان التيمى عن عبيد مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن امرأتين كانتا صائمتين وكانتا تغتابان الناس ، فدعا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقدح فقال لهما : " قيئا" فقاءتا قيحا ودما ولحما عبيطا – طريا – ثم قال : " إن هاتين صامتا عن الحلال وأفطرتا على الحرام " وقد رواه الإمام أحمد .

١٨– ومنهم فضالة مولى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ . قال محمد بن سعد أنبأنا الواقدى حدثنى عتبة بن خيرة الأشهلى قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم أن أفحص لى عن خدم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من الرجال والنساء ومواليه ، فكتب إليه قال : وكان فضالة مولى له يمانى نزل الشام بعد ، وكان أبو مويهبة مولدا من مولدى مزينة فأعتقه . قال بن عساكر : لم أحد لفضالة ذكرا فى الموالى إلا من هذا الوجه.

١٩– ومنهم قفيز أوله قاف وآخره زاى . قال أبو عبد الله بن منده : كان لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ غلاما يقال به قفيز ، تفرد به محمد بن سليمان .

٢٠– ومنهم كركرة ، كان على ثقل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى بعض غزواته وقد ذكره أبو بكر ابن حزم فيما كتب به إلى عمر بن عبد العزيز . قال الإمام أحمد : كان على ثقل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ رجل يقال له كركرة ، فمات فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ " هو فى النار " فنظروا فإذا عليه عباءة قد غلها ، أو كساء قد غله . رواه البخارى عن على بن المدينى عن سفيان .

٢١– ومنهم كيسان . قال البغوى : عن عطاء بن السائب قال : أتيت أم كلثوم بنت على فقالت حدثنى مولى للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يقال له كيسان قال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى شىء من أمر الصدقة " إنا أهل بيت نهينا أن نأكل الصدقة ، وإن مولانا من أنفسنا فلا تأكل الصدقة " .

٢٢– ومنهم مابور القبطى الخصى ، أهداه له صاحب الإسكندرية مع مارية وشيرين والبغلة ، وقد قدمنا من خبره فى كتابه ﴿ﷺ وآله﴾ للمقوقس ما فيه كفاية .

٢٣– ومنهم مدعم ، وكان أسود من مولدى حسمى ، أى : أرض ببادية الشام ، أهداه رفاعة بن زيد الخزامى ، قتل فى حياة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، وذلك مرجعهم من خيبر فلما وصلوا إلى وادى القرى فبينما مدعم يحط عن ناقة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رحالها ، إذ جاءه سهم عائر – لا يعرف من رماه – فقتله . فقال الناس : هنيئا له الشهادة فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ " كلا والذى نفسى بيده ، إن الشملة التى أخذها يوم خيبر _ ما تصبها المقاسم _ لتشتعل عليه نارا " فلما سمعوا ذلك جاء رجل بشراك _ أو شراكين _ فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : " شراك من نار ، أو شراكان من نار " .

٢٤– ومنهم نافع مولاه . قال الحافظ ابن عساكر : عن نافع مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : " لا يدخل الجنة شيخ زان ، ولا مسكين متكبر ، ولا منان بعمله على الله عز وجل " .

٢٥– ومنهم نفيع ، ويقال : مسروح ، ويقال : نافع بن مسروح . والصحيح نافع ابن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قيس ، وهو ثقيف أبو بكرة الثقفى . وأمه سمية أم زياد . تدلى هو وجماعة من العبيد من سور الطائف ، فأعتقهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكان نزوله فى بكرة فسماه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبا بكرة . قال أبو نعيم : وكان رجلا صالحا آخى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بينه وبين أبى برزة الأسلمى .

وهو الذى صلى عليه بوصيته إليه ، ولم يشهد أبو بكرة وقعة الجمل ، ولا أيام صفين ، وكانت وفاته فى سنة إحدى وخمسين ، وقيل سنة اثنين وخمسين .

٢٦- ومنهم واقد ، أو أبو واقد مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . قال الحافظ أبو نعيم : عن واقد مولى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ " من أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ، ومن عصى الله فلم يذكره وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن " .

٢٧- ومنهم هشام مولى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال محمد بن سعد : عن هشام مولى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : جاء رجل فقال : يارسول الله إن امرأتى لا تدفع يد لامس ، قال : " طلقها " قال : إنها تعجبنى ، قال : فتمتع بها " أى : هداها الله .

٢٨- ومنهم يسار . ويقال أنه الذى قتله العرنيون وقد مثلوا به . وقال ابن هشام : هم نفر من قيس كبة بن بجيلة وكان يرعى إبل الصدقة . وقد ذكر الواقدى بسنده عن يعقوب بن عتبة أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أخذه يوم قرقرة الكدر مع نعم بنى غطفان وسليم ، فوهبه الناس لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقبله منهم ، لأنه رآه يحسن الصلاة فأعتقه ، ثم قسم فى الناس النعم فأصاب كل الناس منهم سبعة أبعرة ، وكانوا مائتين .

٢٩- ومنهم أبو الحمراء مولى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وخادمه وهو الذى يقال : إن اسمه هلال ابن الحارث،وقيل: ابن مظفر ، وقيل : هلال بن الحارث بن ظفر السلمى ، أصابه سبى فى الجاهلية .عن أبي الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر كيوم ، فكان النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ يأتى باب على وفاطمة كل غداة فيقول:[الصلاة الصلاة] ، : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وعن أبي الحمراء قال : مر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ برجل عنده طعام فى وعاء فأدخله يده فقال : " غششته ! من غشنا فليس منا " وقد رواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي نعيم . قال عباس الدورى عن ابن معين : أبو الحمراء صاحب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ اسمه هلال بن الحارث ، كان يكون بحمص ، وقد رأيت بها غلاما من ولده،

وقال غيره : كان منزله خارج باب حمص . وقال أبو الوازع عن سمرة كان أبو الحمراء فى الموالى .

٣٠- ومنهم أبو سلمى راعى النبى ﴿ﷺ وآله﴾. ويقال : أبو سلام واسمه حريث . قال أبو سلمة راعى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : "من لقى الله يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله ، وآمن بالبعث والحساب ، دخل الجنة " . لم يورد له ابن عساكر سوى هذا الحديث . وقد روى له النسائى فى اليوم والليلة آخر ، وأخرج له ابن ماجة ثالثا .

المسبح بالحصى

٣١- ومنهم أبو صفية مولى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ . قال أبو القاسم البغوى : عن أبى صفية مولى النبى﴿ﷺ وآله﴾ أنه كان يوضع له نطع ويجاء بزبيل فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار ، ثم يرفع فإذا صلى الأولى سبح حتى يمسى .

٣٢- ومنهم أبو ضميرة مولى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ والد ضميرة المتقدم ، وزوج أم ضميرة . وقد تقدم فى ترجمة ابنه طرف من ذكرهم وخبرهم فى كتابهم .
قال إسماعيل بن أبى أويس : فهو مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو أحد حمير . وخرج قوم منهم فى سفر ومعهم هذا الكتاب فعرض لهم اللصوص ، فأخذوا ما معهم فأخرجوا هذا الكتاب إليهم فأعلموهم بما فيه ، فقرءوه فردوا عليهم ما أخذوا منهم ولم يعرضوا لهم . قال : ووفد حسين بن عبد الله بن أبى ضميرة إلى المهدى أمير المؤمنين وجاء معه بكتابهم هذا ، فأخذه المهدى فوضعه على بصره ، وأعطى حسينا ثلاثمائة دينار .

٣٣- ومنهم أبو عبيد مولاه ﴿ﷺ وآله﴾ . قال الإمام أحمد : عن أبى عبيد أنه طبخ لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قدرا فيها لحم . فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ " ناولنى ذراعها " فناولته ، فقال : " ناولنى ذراعها " فناولته ، فقال " ناولنى ذراعها " فقلت :

يانبى الله كم للشاة من ذراع ؟ قال : " والذى نفسى بيده لو سكت لأعطيتنى ذراعها ما دعوت به " ورواه الترمذى فى الشمائل .

٣٤- ومنهم أبو عشيب . ومنهم من يقول : أبو عسيب . والصحيح الأول ، ومن الناس من فرق بينهما ، وقد روى أنه شهد الصلاة على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وحضر دفنه ، قال أبو شعيب مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال : " أتانى جبريل بالحمى والطاعون ، فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام ، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم ورجس على الكافر " وكذا رواه الإمام أحمد .

وقال أبو عبد الله بن منده عن أبي عشيب مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليلا فمر بى فدعانى،ثم مر بأبى بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه ، ثم انطلق يمشى حتى دخل حائطا لبعض الأنصار ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لصاحب الحائط : " أطعمنا بسرا " ، أى : تمرا لم ينضج ، فجاء به فأكل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأكلوا جميعا ثم دعا بماء فشرب منه ، ثم قال : " إن هذا النعيم ، لتسألن يوم القيامة عن هذا " ، فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر ، ثم قال : يانبى الله إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : " نعم إلا من ثلاثة ، خرقة يستر بها الرجل عورته ، أو كسرة يسد بها جوعته ، أو حجر يدخل فيه – يعنى من الحر والقر – " .

وروى محمد بن سعد فى الطبقات : كان أبو شعب يواصل بين ثلاث فى الصيام ، وكان يصلى الضحى قائما بعجز ، وكان يصوم أيام البيض .

قالت ميمونة بنت أبي شعيب : وكان فى سريره جلجل ، أى : جرس ، فيعجز صوته حين يناديها به ، فإذا حركه جاءت .

٣٥- ومنهم أبو كبشة الأنمارى من أنمار مذحج على المشهور مولى النبى﴿ﷺ وآله﴾. فى اسمه أقوال أشهرها أن اسمه سليم،وقيل: عمرو بن سعد ، وقيل : عكسه . وأصله من مولدى أرض دوس ، وكان ممن شهد بدرا .

زاد الواقدى ، وشهد أحدا وما بعدها من المشاهد ، وتوفى يوم استخلف عمر بن الخطاب ، وذلك فى يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة . وقال خليفة بن خياط : وفى سنة ثلاث وعشرين توقى أبو كبشة مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقد روى عن أبى كبشة أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما مر فى ذهابه إلى تبوك بالحجر جعل الناس يدخلون بيوتهم ، فنودى أن الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ " ما يدخلكم على هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم ؟ فقال رجل : تعجب منهم يارسول الله ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : " ألا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم " الحديث .

وقال الإمام أحمد عن أبى كبشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : " مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر ، رجل أتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به فى ماله وينفقه فى حقه ، ورجل أتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لى مال مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل " قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : " فهما فى الآجر سواء . ورجل أتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول لو كان لى مثل مال هذا علمت فيه مثل الذى يعمل " ، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : " فهما فى الوزر سواء " .

وقد روى الترمذى عن أبى كبشة أنه قال : ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه ، ما نقص مال من صدقة ، وما ظلم عبد بمظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها

عزا ، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، الحديث . وقال حسن صحيح .

وروى أبو داود وابن ماجة عن ابن ثوبان عن أبيه عن أبي كبشة الأنمارى أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان يحتجم على هامته وبين كتفيه .

وروى الترمذى حدثنا حميد بن مسعدة ثنا محمد بن حمران عن أبي سعيد – وهو عبد الله بن بسر – قال : سمعت أبا كبشة الأنمارى يقول : كانت كمام – قلنسوة – أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بطحا ، أى : لازمة بالرأس .

٣٦– ومنهم أبو مويهبة مولاه ﴿ﷺ وآله﴾ ، كان من مولدى مزينة اشتراه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فاعتقه ولا يعرف اسمه ﴿ﷺ وآله﴾ . وقال أبو مصعب الزبيرى ، شهد أبو مويهبة المريسيع ، وهو الذي كان يقود لعائشة رضى الله عنها بعيرها . وقد روى الإمام أحمد وبسنده عنه فى ذهابه مع رسول الله ؟ ﴿ﷺ وآله﴾ فى الليل إلى البقيع ، فوقف ﴿ﷺ وآله﴾ فدعاها لهم واستغفر لهم ثم قال : " ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه بعض الناس ، أتت الفتن كقطع الفتن الليل المظلم يركب بعضها بعضا ، الآخرة أشد من الأولى، فليهنئكم ما أنتم فيه " . ثم رجع فقال " ياأبا مويهبة إنى خيرت مفاتيح ما يفتح على أمتى.

من بعدى والجنة لو لقاء ربى ، فاخترت لقاء ربى " قال : فما لبث بعد ذلك إلا سبعا – أو ثمانيا – حتى قبض ، فهؤلاء مواليه ﴿ﷺ وآله﴾ .

٦– إمـــاؤه ﴿ﷺ وآله﴾

١– فمنهن أمة الله بنت رزينة . الصحيح أن الصحبة لأمها رزينة كما سيأتى ، ولمن وقع فى رواية : أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سبا صفية يوم قريظة والنضير فأعتقها وأمهرها رزينة أم أمة الله . وهذا حديث غريب جدا .

٢- ومنهن أميمة . قال ابن الأثير : وهى مولاة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . روى حديثها أهل الشام . روى عنها جبير بن نفير أنها كانت توضىء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأتاه رجل يوما فقال له : أوصنى ، فقال " لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار ، ولا تدع صلاة متعمدا ، فمن تركها متعمدا ؟ قد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ، ولا تشربن مسكرا فإنه رأس كل خطيئة ، ولا تعصين والديك وإن أمراك أن تختلى من أهلك ودنياك " .

٣- ومنهن بركة أم أيمن وأم أسامة بن زيد بن حارثة ، وهى بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان الحبشية ، غلب عليها كنيتها أم أيمن وهو ابنها من زوجها الأول عبيد بن زيد الحبشى ، ثم تزوجها بعده زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد ، وتعرف بأم الظباء ، وقد هاجرت الهجرتين رضى الله عنها ، وهى حاضنة رسول الله مع أمه آمنة بنت وهب ، وقد كانت ممن ورثها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من أبيه ، قاله الواقدى .

وقال غيره : بل ورثها من أمه ، وقيل : بل كانت لأخت خديجة فوهبتها من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . وآمنت قديما وهاجرت ، وتأخرت بعد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ . وقد زار أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إياها بعد وفاة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأنها بكت فقالا لها : أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ فقالت : بلى ، ولكن أبكى لأن الوحى قد انقطع من السماء ، فجعلا يبكيان معها .

وقال البخارى فى التاريخ: كانت أم أيمن تحضن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حتى كبر ، فأعتقها ثم زوجها زيد بن حارثة ، وقيل : إنها بقيت بعد قتل عمر بن الخطاب . وقال محمد ابن سعد عن الواقدى : توفيت أم أيمن فى أول خلافة عثمان بن عفان .

قال الواقدى : كان رسول الله يقول لأم أيمن : " يأمه " وكان إذا نظر إليها قال : " هذه بقية أهل بيتى " . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول لأم أيمن : " أم أيمن أمي بعد أمى " .

وقال الواقدى عن أصحابه المدنيين قالوا:نظرت أم أيمن إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يشرب فقالت اسقنى، فقالت :عائشة أتقولين هذا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ فقالت:ما خدمته أطول ، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : " صدقت " فجاء بالماء فسقاها .

وقال المفضل بن غسان : حدثنا بن جرير ثنا أبى قال : سمعت عثمان بن القاسم قال : لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء وهى صائمة، فأصابها عطش شديد حتى جهدها . قال : فدلى عليها دلو السماء برشاء ، أى : جبل ، أبيض فيه ماء ، قالت : فشربت فما أصابنى عطش بعد ، وقد تعرضت العطش بالصوم فى الهواجر ، أى : الحر الشديد ، فما عطشت بعد .

٤- ومنهن بريرة فإنها كانت لآل أبى أحمد بن جحش فكاتبوها فاشترتها عائشة منهم فأعتقتها ، فثبت ولاؤها لها كما ورد الحديث بذلك فى الصحيحين ، ولم يذكرها ابن عساكر .

٥- ومنهن خضرة ذكرها ابن منده فقال : روى معاوية عن هشام عن سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ خادم يقال لها خضرة . وقال محمد ابن سعد عن الواقدى ثنا قائد مولى عبد الله عن عبد الله بن على بن أبى رافع عن جدته سلمى قالت : كان خادم رسول الله أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد ، أعتقهن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كلهن .

٦- ومنهن خليسة مولاة حفصة بنت عمر ، قال ابن الأثير فى الغابة : روت حديثها عليلة بنت الكميث عن جدها عن خليسة مولاة حفصة فى قصة حفصة وعائشة مع سودة بنت زمعة ومزحهما معها بأن الدجال قد خرج . فاختبأت فى بيت كانوا

يوقدون فيه واستضحكتا ، وجاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال:" ما شأنكم ؟ " فأخبرتاه بما كان من أمر سودة ، فذهب إليها فقالت : يارسول الله أخرج الدجال ؟ فقال : " لا ، وكأن قد خرج " فخرجت وجعلت تنفض عنها بيض العنكبوت . وذكر ابن الأثير خليسة مولاة سلمان الفارسى وقال : لها ذكر فى إسلام سلمان و إعتقاهما إياه ، وتعويضه ﴿ﷺ وآله﴾ لها بأن غرس لها ثلاثمائة فسيلة .

٧- ومنهن خولة خادم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، كذا قال ابن الأثير . وقد روى حديثها الحافظ أبو نعيم من طريق حفص بن سعيد القرشى عن أمه عن أمها خولة .

٨- ومهن رزينة ، قال ابن عساكر والصحيح أنها كانت لصفية بنت حيى . وكانت تخدم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقد تقدم فى ترجمة ابنتها أمة الله أنه ﴿ﷺ وآله﴾ أمهر صفية بنت حيى أمها رزينة ، فعلى هذا يكون أصلها له ﴿ﷺ وآله﴾ . وقال الحافظ أبو يعلى : ثنا أبو سعيد الجشمى حدثتنا عليلة بنت الكميت قالت : سمعت أمى أمينة قالت : حدثتنى أمة الله بنت رزينة مولاة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سبا صفية يوم قريظة والنضير حين فتح الله عليه ، فجاء يقودها سبية ، فلما رأت النساء قالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فأرسلها وكان ذراعها فى يده ، فأعتقها ثم خطبها وتزوجها وأمهرها رزينة . هكذا وقع فى هذا السياق ولكن الحق أنه ﴿ﷺ وآله﴾ اصطفى صفية من غنائم خيبر ، وأنه أعتقها وجعل عتقها صدقها وما وقع فى هذه الرواية يوم قريظة والنضير غير صحيح فإنهما يومان ، بينهما سنتان .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى فى الدلائل . حدثتنا عليلة بنت الكميت العتكية عن أمها أمينة قالت : قلت لأمة الله بنت رزينة مولاة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : يأمة الله أسمعت أمك تذكر أنها سمعت رسول الله يذكر صوم عاشوراء ؟ قالت : نعم ، كان

يعظمه ويدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة فيتفل فى أفواههم ويقول لأمهاتهم : " لا ترضعيهم إلى الليل " له شاهد فى الصحيح .

٩- ومنهن رضوى ، قال ابن الأثير : روى سعيد بن بشير عن قتادة عن رضوى بنت كعب أنها سألت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن الحائض تخضب ، فقال : " ما بذلك بأس " رواه أبو موسى المدينى .

١٠- ومنهن ريحانة بنت شمعون القرظية ، وقيل النضرية ، وقد تقدم ذكرها بعد أزواجه رضى الله عنهن .

١١- ومنهن سانية مولاة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . روت عنه حديثا فى اللقطة .

١٢- ومنهن سديسة الأنصارية ، وقيل:مولاة حفصة بنت عمر . روت عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : " إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه "

١٣- ومنهن سلامة حاضنة سيدنا إبراهيم ابن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، روت حديثا فى فضل الحمل والطلق والرضاع والسهر ، فيه غرابة ونكارة من وجهة إسناده ومتنه .

١٤- ومنهن سلمى وهى أم رافع امرأة أبى رافع كما رواه الواقدى عنها أنها قالت : كنت أخدم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد فأعتقها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كلنا .

قال الإمام أحمد عن فائد مولى ابن أبى رافع عن جدته سلمى خادم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قالت : ما سمعت قط أحد يشكو إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وجعا فى رأسه إلا قال : " احتجم " وفى رجلية إلا قال " اخضبهما بالحناء "

وقد روت عدة أحاديث عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يطول ذكرها واستقصائها . قال مصعب الزبيرى : وقد شهدت سلمى وقعة حنين .

وقد ورد أنها كانت تطبخ للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، أى : حساء مطبوخ من الدقيق والدسم والماء فتعجبه ، وقد تأخرت إلى بعد وفاته ﴿ﷺ وآله﴾ ، وشهدت وفاة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وقد كانت أولا لصفية بنت عبد المطلب عمته ﴿ﷺ وآله﴾ ثم صارت لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكانت قابلة أولاد السيدة فاطمة وهى التى قبلت سيدنا إبراهيم ﵇ ابن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وقد قال الإمام أحمد عن عبيد الله بن على بن أبى رافع عن أبية عن سلمى قالت : اشتكت فاطمة رضى الله عنها شكواها الذى قبضت فيه ، فكنت أمرضها ، فأصبحت يوما كمثل ما يأتيها فى شكواها ذلك ، قالت : وخرج على لبعض حاجته فقالت : يأمة اسكبى لى غسلا ، فسكبت لها غسلا فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل ، ثم قالت : يأمة أعطنى ثيابى الجدد فلبستها ، ثم قالت : يأمة قدمى لى فراشي وسط البيت ، ففعلت واضطجعت فاستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدها ، ثم قالت : يأمة إنى مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفنى أحد ، فقبضت مكانها . قالت : فجاء على فأخبرته .

١٥- ومنهن شيرين ، ويقال : سيرن أخت مارية القبطية خالة سيدنا إبراهيم ﵇ ابن رسول الله وقدمنا أن المقوقس صاحب الإسكندرية واسمه جريح بن مينا أهداهما مع غلام اسمه مابور وبغلة يقال لها الدلدل ، فوهبها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لحسان بن ثابت ، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان .

١٦- ومنهن عنقودة أم مليح الحبشية جارية عائشة ، كان اسمها عنبة فسماها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عنقودة رواه أبو نعيم . ويقال : اسمها غفيرة .

١٧- ومنهن فروة ظئر النبى﴿ﷺ وآله﴾-يعنى مرضعه- قالت : قال لى رسول الله : " إذا أويت إلى فراشك فاقرئى قل يأيها الكافرون فإنها براءة من الشرك " ذكرها أبو أحمد العسكرى ، وقاله ابن الأثير فى الغابة .

فأما فضة النوبية فقد ذكر ابن الأثير فى الغابة أنها كانت مولاة لفاطمة بنت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ثم أورد بإسناد عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان : ٨) . ثم ذكر ما مضمونه : أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله وعادهما عامة العرب ، فقالوا لعلى : لو نذرت ؟ فقال على : إن برئا مما بهما صمت لله ثلاثة أيام ، وقالت فاطمة كذلك ، وقالت فضة كذلك . فألبسهما الله العافية فصاموا . وذهب على فاستقرض ثلاثة آصع من شعير من رجل يهودى فهيئوا منه تلك الليلة صاعا فلما وضعوه بين أيديهم للعشاء وقف على الباب سائل فقال : أطعموا المسكين أطعمكم الله على موائد الجنة ، فأمرهم على فأعطوه ذلك الطعام وطووا ، فلما كانت الليلة الثانية صنعوا لهم الصاع الآخر فلما وضعوه بين أيديهم وقف سائل فقال : أطعموا اليتيم فأعطوه ذلك وطووا . فلما كانت الليلة الثالثة قال : أطعموا الأسير فأعطوه وطورا ثلاثة أيام وثلاث ليال .. فأنزل الله فى حقهم : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا ﴾ ومن الأئمة من يجعله موضوعا ويسند ذلك إلى ركة ألفاظه .

وقال عطاء : هذه الآيات نزلت فى على كرم الله وجهه ، وذلك أنه أجر نفسه ليلة ليسقى نخلا بشىء من شعير حتى أصبح وقبض الشعير ، وطحنوه وجعلوا منه شيئا ليأكلوه يقال له الحريرة ، فلما تم نضجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام ، ثم صنع الثلث الثاني فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه ، ثم صنع الثلث فلما تم نضجه أتى من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك فأنزل الله فيهم هذه الآيات .

١٨- ومنهن ليلى مولاة السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : يارسول الله إنك تخرج من الخلاء فأدخل فى أثرك فلم أر شيئا إلا أنى أجد ريح المسك ؟ فقال :

" إنا معشر الأنبياء تنبت أجسادنا على أرواح أهل الجنة ، فما خرج منا ابتلعته الأرض " رواه أبو نعيم .

١٩- ومنهن مارية القبطية رضى الله عنها، مولاة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأم ولده سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لم تكن من أزواجه ، وإنما من سراريه ، لكنها انفردت بأنها الوحيدة التى أنجبت لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد السيدة خديجة رضى الله عنها .

أهداها المقوقس عظيم القبط إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى سنة سبع ، وحملت العام التالى ، وهى الوحيدة من إمائه التى ضرب عليها الحجاب رضى الله عنها . وقد فرق ابن الأثير بينها وبين مارية أم الرباب،قال : وهى جارية النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أيضا . حديثها عند أهل البصرة رواه عبد الله بن حبيب عن أم سلمى عن أمها عن جدها مارية قالت : تطأطأت للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى صعد حائطا ليلة فر من المشركين . ثم قال : ومارية خادم النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ . روى أبو بكر عن أبن عباس عن المثنى بن صالح عن جدته مارية – وكانت خادم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ – أنها قالت : ما مسست بيدى شيئا قط ألين من كف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

٢٠- ومنهن ميمونة بنت سعد ، قال الإمام أحمد : إن ميمونة مولاة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قالت :يا رسول الله أفتنا فى بيت المقدس ؟ قال " أرض المنشر والمحشر ، إئتوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة " ، قالت : أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه ؟ قال : " فليهد إليه زيتا يسرج فيه ، فإنه من أهدى له كان كمن صلى فيه " وهكذا رواه ابن ماجة .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن ميمونة – وكانت تخدم ﴿ ﷺ وآله﴾ – قالت : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: " الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كالظلمة يوم القيامة لا نور لها " .

٢١– ومنهن ميمونة بنت أبى عسيبة أو عنبسة ، قاله أبو عمرو بن منده . قال أبو نعيم : وهو تصحيف والصواب ميمونة بنت أبى عسيب ، كذلك روى حديثها المشجع بن مصعب أبو عبد الله العبدى عن ميمونة بنت أبى عسيب ، وقيل : بنت أبى عنبسة مولاة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أن امرأة من حريش أتت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فنادت : ياعائشة أغيثينى بدعوة من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تسكنينى بها وتطمنينى بها وأنه قال لها: " ضعى يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه ، وقولى بسم الله اللهم داونى بدوائك ، واشفنى بشفائك ، واغننى بفضلك عمن سواك " قالت ربيعة : فدعوت به فوجدته جيدا .

٢٢– ومنهن أم ضميرة زوج أبى ضميرة ، وقد تقدم الكلام عليهم رضي الله عنهم .

٢٣– ومنهن أم عياش بعثها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع ابنته تخدمها حين زوجها بعثمان ابن عفان . قال أبو قاسم البغوى : حدث أبو صفوان عن أبيه عن جدته أم عياش – وكانت خادم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ – بعث بها مع ابنته إلى عثمان ، قالت : كنت أمغث ، أى : أمرث وأدلك ، لعثمان التمر غدوة فيشربه عشية ، وأنبذه عشية فيشربه غدوة ، فسألنى ذات يوم فقال : تخلطين فيه شيئا؟ فقلت : أجل ، قال : فلا تعودى .

فهؤلاء إماؤه رضى الله عنهن .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع ثنا القاسم بن الفضل حدثنى ثمامة بن حزن قال : سألت عائشة عن النبيذ ، فقالت : هذه خادم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فسلها ، لجارية حبشية ، فقالت : كنت أنبذ لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى سقاء عشاء فأوكيه ، فإذا أصبح شرب منه ورواه مسلم والنسائى من حديث القاسم بن الفضل به . هكذا ذكره أصحاب الأطراف فى مسند عائشة ، والأليق ذكره فى مسند جارية حبشية كانت تخدم النبى ، وهى إما أن تكون واحدة ممن قدمنا ذكرهن ، أو زائدة عليهن .

٧- كُتَّاب الوحى وغيره بين يديه ﴿ﷺ وآله﴾

١- فمنهم الخلفاء الأربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبي طالب ﭬ ، وسنلحق حديثهم بعد ذلك ، وسيأتى ترجمة كل واحد منهم عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة .

٢- ومنهم رضى الله عنهم أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى الأموى . أسلم بعد أخوته خالد وعمرو ، وكان إسلامه بعد الحديبية لأنه هو الذى أجاز عثمان حين بعثه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أهل مكة يوم الحديبية ، وقيل : خيبر ، لأن له ذكر فى الصحيح من حديث أبي هريرة فى قسمة غنائم خيبر ، وكان سبب إسلامه أنه اجتمع براهب وهو فى تجارة بالشام فذكر له أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال له الراهب : ما اسمه ؟ قال : محمد ، قال : فأنا أنعته لك ، فوصفه بصفته سواء وقال : إذا رجعت إلى أهلك فأقرئه السلام . فأسلم بعد مرجعه وهو أخو عمرو بن سعيد الأشدق الذى قتله عبد الملك بن مروان . قال أبو بكر بن أبي شيبة : كان أول من كتب الوحى بين يدى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبي بن كعب ، فإذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت ، وكتب له عثمان وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد . هكذا قال – يعنى بالمدينة – وإلا فالسور الملكية لم يكن أبي بن كعب حال نزولها ، وقد كتبها الصحابة بمكة ﭭ .

وقد اختلف فى وفاة أبان بن سعيد هذا ، فقال موسى بن عقبة ، ومصعب بن الزبير بن بكار ، وأكثر أهل النسب : قتل يوم أجنادين ، يعنى فى جمادى الأولى .

سنة أثنتى عشر . وقال آخرون : قتل يوم مرج الصفر سنة أربع عشرة . وقال محمد بن إسحاق : قتل هو وأخوه عمرو يوم اليرموك لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة . وقيل : إنه تأخر إلى أيام عثمان وكان يملى المصحف الإمام على زيد بن ثابت ثم توفى سنة تسع وعشرين .

٣- ومنهم ﷺ أبي بن كعب قيس بن عبيد الخزرجي الأنصارى . أبو المنذر ، ويقال : أبو الطفيل ، سيد القراء ، شهد العقبة الثانية وبدرا وما بعدها . وكان ربعة نحيفا أبيض الرأس واللحية لا يغير شيبه . قال أنس : جمع القرآن أربعة – يعنى الأنصار _ أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، ورجل من الأنصار يقال له : أبو يزيد أخرجاه . وفى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لأبى :" إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن " قال : وسمانى لك يارسول الله ؟ قال : " نعم " قال : فذرفت عيناه . ومعنى أن أقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع لا قراءة تعلم منه ، هذا لا يفهمه أحد من أهل العلم ، وإنما نبهنا على هذا لئلا يعتقد خلافه . وقد ذكر أن سبب القراءة عليه أنه قرأ عليه سورة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ (سورة البينة:١،٢) . وذلك أن أبي بن كعب كان قد أنكر على رجل قراءة سورة على خلاف ما كان يقرأ أبي، فرفعه إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال :" اقرأ ياأبى " فقرأ . فقال: " هكذا أنزلت" ثم قال لذلك الرجل:"اقرأ " فقرأ فقال:"هكذا أنزلت " قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية ، قال : فضرب رسول الله ﷺ وآله﴾ فى صدره فنضضت عرقا وكأنما أنظر إلى الله فرقا، فبعد ذلك تلا عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هذه السورة

كالتثبيت له والبيان له إن هذا القرآن حق وصدق. وانه أنزل على أحرف كثيرة رحمة ولطفا بالعباد.

وقد اختلف فى وفاته فقيل: فى سنة تسع عشرة، وقيل : سنة عشرين ، وقيل : ثلاث وعشرين ، وقيل : قبل مقتل عثمان بجمعة .

٤- ومنهم ﷺ أرقم بن أبي الأرقم، واسمه مناف بن أسد بن جندب بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم المخزومى، أسلم قديما وهو الذى كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

مستخفيا فى داره عند الصفا وتعرف تلك الدار بعد ذلك بالخيزران. وهاجر وشهد بدرا وما بعدها، وقد آخى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بينه وبين عبد الله بن أنيس، وهو الذى كتب أقطاع عظيم بن الحارث المحا ربى بأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بفخ وغيره، وذلك فيما رواهن الحافظ ابن عساكر.

وقد توفى فى سنة ثلاث، وقيل: خمس وخمسين وله خمس وثمانون سنة، وقد روى الإمام أحمد له حديثين، الأول: أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: " إن الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الغمام كالجار قصبه – المعى – فى النار ".

والثانى: عن عبد الله عثمان بن الأرقم عن جده الأرقم أنه جاء إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: " أين تريد ؟" قال: أردت يارسول الله ها هنا وأومأ بيده إلى حيز بيت المقدس، قال:" ما يخرجك إليه أتجارة ؟" قال: لا ولكن أردت الصلاة فيه، قال: " الصلاة ها هنا " وأومأ بيده إلى مكة " خير من ألف صلاة " وأومأ بيده إلى الشام.

تفرد بهما أحمد.

٥– ومنهم رضي الله عنهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن ، ويقال:أبو محمد المدنى خطيب الأنصار،ويقال له: خطيب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال محمد ابن سعد :أنبأنا على بن محمد المداينى بأسانيده عن شيوخه فى وفود العرب على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قالوا : قدم عبد الله بن عبس اليمانى ومسلمة بن هاران الحدابى على رسول الله فى رهط من قومهما بعد فتح مكة فأسلموا وبايعوا على قومهم ، وكتب لهم كتابا بما فرض عليهم من الصدقة فى أموالهم ، كتبة ثابت بن قيس بن شماس وشهد فيه سعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة ﷺ . وهذا الصحابى الجليل ممن ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بشره بالجنة .

وروى الترمذى فى جامعه بإسناد على شرط مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال :"نعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح،نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بت شماس ، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح ."

وقد قتل رضي الله عنه شهيدا يوم اليمامة سنة اثنتى عشرة فى أيام أبي بكر الصديق .

٦- ومنهم رضي الله عنه حنظلة بن الربيع بن صبيغى بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم التميمى الأسيدى الكاتب ، وأخوه رباح صحابي أيضا ، وعمه أكثم بن صيفى كان حكيم العرب . قال الواقدى : كتب للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ كتابا . وقال غيره بعثه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أهل الطوائف فى الصلح ، وشهد مع خالد حروبه بالعراق وغيرها وقد أدرك أيام على وتخلف عن القتال معه فى الجمل وغيره ، ثم انتقل عن الكوفة لما شتم بها عثمان ، ومات بعد أيام على . وقد ذكر ابن الأثير فى الغابة : أن امرأته لما مات جزعت عليه ، فلامها جاراتها فى ذلك ، فقالت :

تعجبتْ دعدُ لمحزونة   تبكى على ذى شيبة شاحب
إن تسألنى اليوم شفَّنى   أخبر قولا ليس بالكاذب
إن سواد العين أودى به   حزن على حنظلة الكاتب

قال أحمد : كان معتزلا لفتنة حتى توفى بعد على ، جاء عنه حديثان . والصواب ثلاثة ، قال الإمام أحمد عن حنظلة الكاتب قال : سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول :"من حافظ على الصلوات الخمس بركوعهن وسجودهن ووضوئهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة " أو قال :" وجبت له " تفرد به أحمد وهو منقطع بين قتادة وحنظلة .

والحديث الثانى رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة من حديث سعيد الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة :"لو تدومون كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فرشكم ، ولكن ساعة وساعة " .

والثالث رواه أحمد والنسائى وابن ماجة من حديث سفيان الثورى عن أبى الزناد عن المرقع بن صيفى بن حنظلة عن جده فى النهى عن قتل النساء فى الحرب .

٧- ومنهم ﷺ خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، أبو سعيد الأموى . اسلم قديما ، وذكروا أن سبب إسلامه أنه رأى فى النوم كأنه .

واقفا على شفير جهنم فذكر من سعتها ما الله به عليم . قال : وكأن أباه يدفعه فيها ، وكأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ آخذ بيده ليمنعه من الوقوع ، فقص هذه الرؤيا على أبى بكر الصديق فقال له : لقد أريد بك خير، هذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فاتبعه تنج مما خفته . فجاء رسول الله فأسلم ، فلما بلغ أباه إسلامه غضب عليه وضربه بعصاة فى يده حتى كسرها على رأسه وأخرجه من مترله ومنعه القوت ، ونهى بقيه أخوته أن يكلموه ، فلزم خالد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليلا نهارا ، ثم أسلم أخوه عمرو ، فلما هاجر الناس إلى أرض الحبشة هاجر معهم ، ثم كان هو الذى ولى العقد فى تزويج أم حبيبة من رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ كما قدمنا . ثم هاجرا من أرض الحبشة صحبة جعفر فقدما على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بخيبر وقد افتتحها ، فأسهم لهما عن مشورة المسلمين ، وجاء أخوهما أبان بن سعيد فشهد فتح خيبر كما قدمنا ، ثم كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوليهم الأعمال . فلما كانت خلافة الصديق خرجوا إلى الشام للغزو فقتل خالد بأجنادين ، ويقال : بمرج الصفر . قال عتيق بن يعقوب حدثنى عبد الملك بن أبى بكر عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم ، يعنى أن خالد بن سعيد كتب عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كتابا : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ راشد بن

عبد رب السلمى أعطاه علوتين وعلوة – ولعلها غلوة وهى مقدار ما يبلغه السهم – بحجر برهاط ، فمن خافه فلا حق له وحقه حق ، وكتب خالد بن سعيد .

وقال محمد بن سعد عن الواقدى : حدثنى جعفر بن محمد بن خالد عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان قال : أقام خالد بن سعيد بعد أن قدم من أرض الحبشة بالمدينة ، وكان يكتب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهو الذى كتب كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف وسعى فى الصلح بينهم وبين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

٨– ومنهم ﵁ خالد بن الوليد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم (أبو سلمان) المخزومى وهو أمير الجيوش المنصورة الإسلامية،والعساكر المحمدية، والمواقف المشهودة ، والأيام المحمودة . ذوى الرأى السديد ، أبو سليمان خالد بن الوليد . ويقال : إنه لم يكن فى جيش فكسر لا فى جاهلية ولا إسلام .

قال الزبير بن بكار : كانت إليه فى قريش القبة وأعنه الخيل ، أسلم هو وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى طلحة بعد الحديبية وقيل: خيبر ، والثانى هو الصحيح كما قدمنا . ولم يزل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يبعثه فيما يبعثه أميرا . ثم كان المقدم على العساكر كلها فى أيام الصديق ، فلما ولى عمر بن الخطاب عزله وولى أبو عبيدة أمين الأمة على أن لا يخرج عن رأى أبى سليمان . ثم توفى خالد فى أيام عمر وذلك فى سنة إحدى وعشرين ، وقيل : اثنين وعشرين – والأول الأصح – بقرية على ميل من حمص .

قال الواقدى : سألت عنها فقيل لى دثرت . وقال دحيم : توفى بالمدينة . والأول الأصح . وقد روى أحاديث كثيرة يطول ذكرها ، قال عتيق بن يعقوب حدثنى عبد الملك بن أبى بكر عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم أن هذه قطايع أقطعها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المؤمنين أن صيد وح وصيده لا يعضد صيده ولا يقتل ، فمن وجد يفعل من ذلك شيئا فإنه يجلد ويترع ثيابه ، وإن تعدى ذلك أحد فإنه يؤخذ فيبلغ به النبى ﴿ ﷺ وآله﴾

وأن هذا من محمد النبى ، وكتب خالد بن الوليد بأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد .

٩- ومنهم ﵁ الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، أبو عبد الله الأسدى أحد العشرة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذى توفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو عنهم راض (وحوارى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وزوج أسماء بنت أبي بكر ﵄)

روى عتيق بن يعقوب أن الزبير بن العوام هو الذى كتب لبنى معاوية بن جرول الكتاب الذى أمره به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكتبه لهم . وسوف يأتى الحديث عنه مفصلا عن ذكر العشرة ﵃ .

مترجم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

١٠- ومنهم ﵁ زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبيد ابن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصارى النجارى ، أبو سعيد ويقال : أبو خارجة ، ويقال : أبو عبد الرحمن المدنى ، قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة فلهذا لم يشهدبدرا لصغره ، قيل : ولا أحد وأول مشاهده الخندق ، ثم شهد ما بعدها . وكان حافظا لبيبا عالما عاقلا ، ثبت عنه فى صحيح البخارى أن رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إذا كتبوا إليه فتعلمه فى خمسة عشر يوما . وقال الإمام أحمد عن خارجة بن زيد أن أباه زيدا أخبره أنه لما قدم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المدينة قال زيد : ذهب بى إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأعجب بى،فقالوا: يارسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هذا غلام من بنى النجار معه مما أنزل الله عليك بضعة عشرة سورة ، فأعجب ذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : "

يازيد تعلم لى كتاب يهود فإنى والله ما آمن يهود على كتابى " . قال زيد : فتعلمت لهم كتابهم ، ما مرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته ، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب . وقد علقه البخارى فى الأحكام عن خارجة بن زيد بن ثابت بصيغة الجزم فقال : وقال خارجة بن زيد فذكره . وهذا ذكاء مفرط جدا . وقد كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من القراء كما ثبت فى الصحيحين عن أنس . وروى أحمد والنسائى من حديث أبى قلابة عن أنس عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال :"أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشهدها فى دين الله عمر ، وأصدقها حياء عثمان ، وأقضاهم على بن أبى طالب ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح " ومن الحفاظ من يجعله مرسلا إلا ما يتعلق بأبى عبيدة ففى صحيح البخارى من هذا الوجه .

وقد كتب الوحى بين يدى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غير ما موطن ، ومن أفضح ذلك ما ثبت فى الصحيح عنه أنه قال : لما نزل قول الله تعالى: ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾(النساء:٩٥) دعانى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : اكتب "لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله" فجاء ابن مكتوم فجعل يشكو ضرارته ، فنزل الوحى على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فثقلت فخذه على فخذى حتى كادت ترضها ، فنزل ﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ ﴾ فأمرنى فألحقتها ، فقال زيد : فإنى لأعرف موضع ملحقها عند صدع فى ذلك اللوح – يعنى من عظام – الحديث .

وقد شهد زيد اليمامة وأصابه سهم فلم يضره ، وهو الذى أمره الصديق بعد هذا .

بأن يتتبع القرآن ليجمعه ، وقال له : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، ففعل ما أمره به الصديق ، فكان فى ذلك خير كثير ولله الحمد والمنة .

وقد استنابه عمر مرتين فى حجتين على المدينة ، واستنابه لما خرج إلى الشام . وكذلك كان عثمان يستنيبه على المدينة أيضا ، وكان على يحبه ، وكان يعظم عليا ويعرف له قدره ، ولم يشهد معه شيئا من حروبه . وتأخر بعده حتى توفى سنة خمسة وأربعين . وقيل : سنة إحدى، وقيل : خمس وخمسين ، وهو ممن كان يكتب المصاحف الأئمة التى نفذ بها عثمان بن عفان إلى سائر الآفاق اللائى وقع على التلاوة طبق رسمهن الإجماع والاتفاق .

وارته الملائكة وأنزل عليين

١١- ومنهم عامر بن فهيرة ، ومولى أبى بكر الصديق ﵁ . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرازق عن عمر قال : قال الزهرى : أخبرنى عبد الملك بن مالك المدلجى – وهو ابن أخى سراقة بن مالك – أن أباه أخبره أنه سمع سراقة يقول : فذكر خبر هجرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وقال فيه : فقلت له إن قومك جعلوا فيك الدية .

وأخبرتهم من أخبار سفرهم وما يرد الناس بهم،وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزؤنى منه شيئا ولم يسألونى إلا أن أخف عنا ، فسألته أن يكتب لى كتاب موادعة آمن به ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أدم ، ثم مضى .

وقد تقدم الحديث بتمامة فى الهجرة . وقد روى أن أبا بكر هو الذى كتب لسراقة هذا الكتاب . وقد كان عامر بن فهيرة ويكنى أبا عمرو من مولدى الأزد أسود اللون ، وكان أولا مولى للطفيل بن الحارث أخى عائشة لأمها أم رومان ، فأسلم قديما قبل أن يدخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دار الأرقم بن أبى الأرقم التى عند الصفا مستخفيا ، فكان عامر يعذب مع جملة المستضعفين بمكة ليرجع عن دينه فيأبى ، فاشتراه أبو بكر

الصديق فأعتقه ، فكان يرعى له غنما بظاهر مكة . ولما هاجر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه أبو بكر كان معهما رديفا لأبي بكر ومعهم الدليل الدئلى فقط كما تقدم مبسوطا ، ولما وردوا المدينة نزل عامر بن فهيرة على سعد بن خيثمة ، وآخى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بينه وبين أوس بن معاذ وشهد بدرا وأحدا ، وقتل يوم بئر معونة وذلك سنة أربع من الهجرة ، وكان عمره إذا ذاك أربعين سنة . وقد ذكر عروة وابن إسحاق والواقدى وغير واحد ، أن عامر قتله يوم بئر معونة رجل يقال له جبار بن سلمى من بنى كلاب ، فلما طعنه بالرمح قال : فزت ورب الكعبة ، ورفع عامر حتى غاب عن الأنصار ، حتى قال عامر بن الطفيل : لقد رفع حتى رأيت السماء دونه ، وسئل عمرو بن أمية عنه فقال : كان من أفضلنا ومن أول أهل بيت نبينا ﴿ﷺ وآله﴾ ، قال جبار : فسألت الضحاك بن سفيان عما قال ما يعنى به؟فقال : يعنى الجنة . ودعانى الضحاك إلى الإسلام فأسلمت لما رأيت من قتل عامر بن فهيرة ، فكتب الضحاك إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يخبره بإسلامى وما كان من أمر عامر ، فقال :" وراته الملائكة وأنزل عليين " .

وفى الصحيحين عن أنس أنه قال : قرأنا فيهم قرآنا أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول : من رجل منكم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه ؟ قالوا : عامر بن فهيرة . وقال الواقدى رفع عامر بن فهيرة إلى السماء فلم توجد جثته ، يرون أن الملائكة وارته .

١٢- ومنهم ﷺ عبد الله بن أرقم بن أبى الأرقم المخزومى . أسلم عام الفتح وكتب للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ . قال الإمام مالك . وكان ينفذ ما يفعله ويشكره ويستجيده . عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ استكتب عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ، وكان يجيب عنه الملوك ، وبلغ من أمانته أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان يأمره أن

يكتب إلى بعض الملوك فيكتب ، ويختم على ما يقرأه لأمانته عنده . وكتب لأبى بكر وجعل إليه بيت المال ، وأقره عليهما عمر بن الخطاب ، فلما كان عثمان عزله عنهما وذلك بعد ما أستعفاه عبد الله بن الأرقم ، ويقال : إن عثمان عرض عليه ثلاثمائة ألف درهم عن أجرة عمالته فأبى أن يقبلها وقال : إنما عملت لله فأجرى على الله عز وجل .

قال ابن إسحاق : وكتب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ زيد بن ثابت ، فإذا لم يحضر ابن الأرقم وزيد بن ثابت كتب من حضر من الناس ، وقد كتب عمر ، وعلى ، وزيد ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية ، وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم ممن سمى من العرب. وقال الأعمش : قلت لشقيق بن سلمة من كان كاتب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ قال : عبد الله بن الأرقم ، وقد جاءنا كتاب عمر بالقادسية وفي أسفله ،وكتب عبد الله بن الأرقم .وقال البيهقى : عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر قال : أتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كتاب رجل ، فقال لعبد الله بن الأرقم :"أجب عنى " فكتب جوابه ثم قرأه عليه ، فقال : " أصبت وأحسنت ، اللهم وفقه " قال : فلما ولى عمر كان يشاوره . وقد روى عمر بن الخطاب أنه قال : ما رأيت أخشى لله منه – .
يعنى فى العمال – رضي الله عنه .

١٣– ومنهم رضي الله عنهم عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى الخزرجى ، صاحب الأذان ، أسلم قديما فشهد عقبة السبعين ، وحضر بدرا وما بعدها ، ومن أكبر مناقبه–فى بعض الروايات – رؤيته الأذان والإقامة فى النوم ، وعرضه ذلك على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وتقريره عليه ، وقوله له :"إنها لرؤيا حق فألقه على بلال ، فإنه أندى صوتا منك" . وقد روى الواقدى بأسانيده عن ابن عباس أنه كتب كتابا لمن أسلم من جرش فيه الأمر لهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإعطاء خمس المغنم . وقد توفى رضي الله عنه سنة اثنين وثلاثين عن أربع وستين سنة ، وصلى عليه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

١٤- ومنهم ﵁ عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، القرشى العامرى ، أخو عثمان لأمه من الرضاعة . أرضعته أم عثمان . وكتب الوحى ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة ، فلما فتحها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ – وكان قد أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء – فجاء إلى عثمان بن عفان فاستأمن له ، فأمنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما قدمنا فى غزوة الفتح ، ثم حسن إسلام عبد الله بن سعد جدا .

قال أبو داود عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يقتل ، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . رواه النسائى .

وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح عمرو مصر سنة عشرين فى الدولة العمرية فاستناب عمر بن الخطاب عمرا عليها ، فلما صارت الخلافة إلى عثمان .عزل عنها عمرو بن العاص وولى عليها عبد الله بن سعد سنة خمس وعشرين وأمره بغزو بلاد أفريقية فغزاها ففتحها ، وحصل للجيش منها مال عظيم كان قسم الغنيمة لكل فارس من الجيش ثلاثة آلاف مثقال من ذهب ، وللراجل ألف مثقال ، وكان معه فى جيشه هذا ثلاثة من العبادلة ، عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو ، ثم غزا عبد الله بن سعد بعد أفريقية الأساود من أرض النوبة فهادنهم ، وذلك سنة إحدى وثلاثين . ثم غزا غزوة الصوارى فى البحر إلى الروم وهى غزوة عظيمة فلما اختلف الناس على عثمان خرج من مصر واستناب عليها ليذهب إلى عثمان لينصره . فلما قتل عثمان أقام بعسقلان – وقيل بالرملة – ودعا الله ان يقبضه فى الصلاة ، فصلى يوما الفجر وقرأ فى الأولى منها بفاتحة الكتاب والعاديات ، وفى الثانية بفاتحة الكتاب وسورة ، ولما فرغ من التشهد سلم التسليمة الأولى ، ثم أراد أن يسلم الثانية فقبض بينهما ﵁ ، وذلك فى سنة ست وثلاثين وقيل : سنة سبع ، وقيل : إنه تأخر إلى سنة تسع وخمسين ، والصحيح الأول .

ولم يقع له رواية فى الكتب الستة ولا فى المسند للإمام أحمد.

١٥- ومنهم ﷺ عبد الله بن عثمان ، أبو بكر الصديق . وقد تقدم الوعد بأن ترجمته ستأتى عند ذكر العشرة إن شاء الله عز وجل وبه الثقة . والدليل على كتابه ما ذكره موسى بن عقبة عن الزهرى عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه عن سراقة بن مالك فى حديث حين أتبع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حين خرج هو وأبو بكر من الغار فمروا على أرضهم ، فلما غشيهم – وكان من أمر فرسه ما كان – سأل رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ أن يكتب له كتاب أمان ، فأمر أبا بكر فكتب له .

كتابا ثم ألقاه إليه . وقد روى الإمام أحمد من طريق الزهرى بهذا السند أن عامر بن فهيرة كتبه ، فيحتمل أن أبا بكر كتب بعضه ثم أمر مولاه عامرا فكتب باقيه .

١٦- ومنهم ﷺ عثمان بن عفان أمير المؤمنين ، وستأتى ترجمته عند ذكر العشرة وكتابته بين يديه ﴿ ﷺ وآله﴾ مشهورة . وقد روى الواقدى بأسانيده أن نهشل بن مالك الوائلى لما قدم على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان بن عفان فكتب له كتابا فيه شرائع الإسلام .

١٧- ومنهم ﷺ على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، وستأتى ترجمته عند ذكر العشرة ، وقد تقدم أنه كتب الصلح بين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبين قريش يوم الحديبية أن يأمن الناس ، وأنه لا إسلال – يعنى إغارة – ولا إغلال – يعنى خيانة – وعلى وضع الحرب عشرة سنين ، وقد كتب غير ذلك من الكتب بين يديه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

١٨- ومن الكتاب بين يديه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وستأتى ترجمته عند ذكر العشرة ، وقد تقدم بيان كتابته فى ترجمة عبد الله بن الأرقم .

١٩- ومنهم ﷺ العلاء بن الحضرمى واسم الحضرمى عباد ، ويقال : عبد الله بن عباد بن أكبر بن ربيعة بن عريقة بن مالك بن الخزرج بن أياد بن الصدق بن زيد بن مقنع

بن حضرموت بن قحطان ، وقيل : غير ذلك فى نسبه وهو من حلفاء بن أمية . وقد تقدم بيان كتابته فى ترجمة أبان بن سعيد بن العاص ، وكان له من الأخوة عشرة غيره فمهنهم ، عمرو بن الحضرمى أول قتيل من المشركين قتله المسلمون فى سرية عبد الله بن جحش، ومنهم عامر بن الحضرمى الذى أمره أبو جهل – لعنه الله – فكشف عن عورته وناداه واعمراه حين أصطف المسلمون والمشركون يوم بدر فهاجت الحرب وقامت على ساق وكان ما كان . ومنهم شريح بن الحضرمى ، وكان من خيار الصحابة . قال فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :" ذاك رجل لا يتوسد القرآن " يعنى لا ينام ويتركه ، بل يقوم به آناء الليل والنهار ، ولهم كلهم أخت واحدة وهى الصعبة بنت الحضرمى أم طلحة بن عبيد الله . وقد بعث النبى ﴿ﷺ وآله﴾ العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، ثم ولاه عليها أميرا حين افتتحها . وأقره عليها الصديق ، ثم عمر بن الخطاب،ولم يزل بها حتى عزله عنها عمر بن الخطاب وولاه البصرة . فلما كان فى أثناء الطريق توفى وذلك فى سنة إحدى وعشرين .

من كـرامـاتـه ؓ

وقد روى البيهقى عنه وغيره كرامات كثيرة منها أنه سار بجيشه على وجه البحر ما يصل إلى ركب خيولهم ، وقيل : إنه ما بل أسافر نعال خيولهم ، وأمرهم كلهم فجعلوا يقولون : ياحليم ياعظيم . وأنه كان فى جيشه فاحتاجوا إلى ماء فدعا الله فأمطرهم قدر كفايتهم ، وأنه لما دفن لما ير له أثر بالكلية ، وكان قد سأل الله ذلك .

وله عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثلاثة أحاديث ، الأول : قال الإمام أحمد عن العلاء بن الحضرمى أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : " يمكث المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثا " وقد أخرجه الجماعة من حديثه .

والثانى:قال الإمام أحمد : عن ابن العلاء بن الحضرمى أن أباه كتب إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فبدأ بنفسه ، وكذا رواه أبو داود عن الإمام أحمد بن حنبل .
والحديث الثالث : رواه أحمد وابن ماجة عن حبان الأعرج عنه أنه كتب إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من البحرين فى الحائط – يعنى البستان – يكون بين الأخوة فيسلم أحدهم ؟ فأمره أن يأخذ العشر ممن أسلم . والخراج – يعنى ممن لم يسلم – .

٢٠– ومنهم ﷺ العلاء بن عقبة ، قال الحافظ ابن عساكر : كان كاتبا للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولم أجد أحدا ذكره إلا فيما أخبرنا . ثم ذكر إسناده إلى عتيق بن يعقوب حدثنى عبد الملك بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم أن هذه قطائع أقطعها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هؤلاء القوم فذكرها ، وذكر فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى النبى محمد عباس بن مرادس السلمى أعطاه مدمورا ، فمن خافه فيها للأحق له ، وحقه حق ، وكتب العلاء بن عقبة وشهد .

ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى محمد رسول الله عوسجة بن حرملة الجهنى،من ذى المروة إلى ظبية إلى الجعلات إلى جبل القبلية لا يحاقه فيه أحد فمن حاقه فلا حق له ولا حقه حق ، وكتبه العلاء بن عقبة . وروى الواقدى بأسانيده أن رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ اقطع لبنى سيح من جهينة وكتب كتابهم بذلك العلاء بن عقبة ، وشهد . وقد ذكر ابن الأثير فى الغابة هذا الرجل مختصرا فقال : العلاء بن عقبة كتب للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ، وذكره فى حديث عمرو بن حزم ، ذكره جعفر أخرجه أبو موسى – يعنى المدينى – فى كتابه .

٢١– ومنهم ﷺ محمد بن مسلمة بن جريس بن خالد بن عدى بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الحارثى أبو عبد الله ، ويقال : أبو عبد الرحمن ،

ويقال : أبو سعيد المدنى حليف بنى عبد الأشهل . أسلم على يدى مصعب بن عمير ، وقيل : سعد بن معاذ وأسيد بن حصير ، وآخى رسول الله حين قدم المدينة بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح ، وشهد بدرا والمشاهد بعدها . واستخلفه رسول الله على المدينة عام تبوك . قال ابن عبد البر فى الاستيعاب : كان شديد السمرة طويلا أصلع ذا جشة وكان من فضلاء الصحابة ، وكان ممن اعتزل الفتنة واتخذ سيفا من خشب . وتوفى بالمدينة سنة ثلاث وأربعين على المشهور عند الجمهور ، وصلى عليه مروان بن الحكم . وقد روى حديثا كثيرا عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ . وذكر محمد بن سعد أن محمد بن مسلمة هو الذى كتب لوفد مرة كتابا عن أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

٢٢- ومنهم ﷺ معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموى . وقد ذكره مسلم بن الحجاج فى كتابه ﴿ﷺ وآله﴾ . وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث عكرمة بن عمار عن أبى زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يارسول الله ثلاث أعطنيهن ؟ قال : "نعم" ،قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : "نعم" ؟ قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : "نعم" ؟ الحديث.

قال : وذكر طلبه تزويج أم حبيبة من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ولكن فيه من المحفوظ تأمير أبى سفيان وتوليته معاوية منصب الكتابة بين يديه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهذا قدر متفق عليه ، لأن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ تزوج أم حبيبة قبل إسلام أبى سفيان .

٢٣- ومنهم ﷺ المغيرة بن شعبة الثقفى ، وقد قدمت ترجمته فيمن كان يخدمه ﴿ﷺ وآله﴾ من بين أصحابه من غير مواليه ، وانه كان سيافا على رأس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وقد روى بن عساكر بسنده عن عتيق بن يعقوب أن مغيرة بن شعبة هو الذى كتب إقطاع حصين بن نضلة الأسدى الذى أقطعه إياه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأمره ، وزاد بعضهم معيقيب بن أبى فاطمة ، والحصين بن نمير .

فهؤلاء كتابه الذين يكتبون بأمره بين يديه ﴿ﷺ وآله﴾ .

رؤى حول كُتَّابه ﴿ﷺ وآله﴾

بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى أمه أمية ، ليمحو سبحانه وتعالى أباطيل الضلال ، وخبث الجاهلين ، وظلمات الفساق ، ويظهر الحق على ألسنة وقلوب وأيدى رجال أميين ، لا دين لهم ولا علم لهم ولا ملك ، ليظهر صافيا من الشوب ، خالصا من عكر الأوضاع ، وظلمات الأطماع ، وهى الحكمة فى بعثته﴿ﷺ وآله﴾ فى الأميين ، ليعلم الخلف أن الله تعالى أغنانا بما بعث به حبيبه ومصطفاه﴿ﷺ وآله﴾ فى ديننا ودنيانا، وتربية نفوسنا وتنظيم مجتمعنا. وقد جاء فى القرآن الكريم:﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢) .

فأصلح ﴿ﷺ وآله﴾ ما فسد من عقائد البشر، وأخلاقهم ، وآدابهم ، وأعمالهم، وأحكامهم، وعمل بها فكان لها من التأثير ما لم يكن، ولن يكون لغيره ﴿ﷺ وآله﴾ .

فالأمية كانت متفشية فى بلاد العرب ، ولم يكن هناك من يكتب بالعربية حينما جاء الإسلام إلا سبعة عشر إنسانا ذكرهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد على سبيل الحصر ، وإن رفع غيره العدد إلى الضعف أو أكثر.

وكتاب النبى (ﷺ وآله) كانوا نوعين:

الأول : الكتاب المباشرون : وهم الذين يتلقون من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مباشرة فيكتبون له الوحى والرسائل منهم : على بن أبي طالب، وعثمان بن عفان ، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت ، وخالد بن سعيد .

الثانى: كتاب الدولة: وهم يسجلون ما يحتاج إلى تسجيل من غنائم الحروب وأنصبة الناس وحاجات قومهم وما شابه ذلك منهم معيقيب بن أبي فاطمة حليف بنى أسد

الذى كان يكتب مغانم الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ ، وعبد الله بن أبى سرح . والمغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير وكانا يكتبان ما بين الناس .

وعبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عقبة ، وكانا يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم ، وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء .

وكان حنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتاب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إذا غاب عن عمله .

وأقل من هؤلاء بكثير النساء اللاتى كن يكتبن منهن : الشفاء بنت عبد الله التى كانت كاتبة فى الجاهلية ، و حفصة بنت عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وأما أم سلمة – أم المؤمنين – فكانت تقرأ ولا تكتب .

أهمية تعلم لغة الأعداء

وهناك توجيه طيب من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نراه فى حديث زيد بن ثابت ﵁ قال : أمرنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن أتعلم له كتاب يهود ، أى : لغتهم قراءة وكتابة . قال : "إنى والله ما آمن يهود على كتاب" قال زيد : فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له ، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم . (رواه الترمذى) .

وبذلك فوت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على اليهود ما يحرصون عليه من التحريف والمغالطة إذ كانوا لا يكتبون إليه إلا بلغتهم التى لا يعرفها أحد من المسلمين .

مع أن كثيرين منهم كانوا يعرفون العربية جيدا ، ومنهم شعراء ينظمون بالعربية ، وبعد ذلك كان زيد بن ثابت يقوم بدور المترجم قراءة وكتابة ، وفى هذا الحديث توجيه للمسلمين على مدار العصور بأهمية تعلم اللغات الأجنبية وخصوصا لغة الأعداء .

٨- أمناؤه ﴿ﷺ وآله﴾

١- منهم رضي الله عنه الإمام على كرم الله وجهه وكان على رأس الأمناء حين استخلفه ﴿ﷺ وآله﴾ يوم هجرته ليؤدى عنه الأمانات لأهل مكة .

٢- وذكر ابن عساكر من أمنائه أبا عبيد بن عبد الله بن الجراح القرشى الفهرى ، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى .

روى البخارى أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : (لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح). وفى لفظ : أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال لوفد عبد القيس نجران : (لأبعثن فيكم أمينا حق أمين) فبعث معهم أبا عبيدة .

وأخرج أبو عمر عن الزبير بن بكار قال : كان عبد الرحمن بن عوف أمين النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على نسائه .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن بن عوف قال لأصحاب الشورى – بعد انتقال عمر بن الخطاب – : هل لكم أن أختار لكم وانتفى منها؟قال على : أنا أول من يرضى ، فإنى سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : أنت أمين فى أهل السماء وأنت أمين فى أهل الأرض .

وسوف يأتى ترجمة لهؤلاء الثلاثة عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم .

٣- ومنهم رضي الله عنه معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى مولى عبد شمس ، كان على خاتمه ﴿ﷺ وآله﴾ ويقال : كان خادمه (ذكره ابن عساكر) .

وقال غيره : أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة فى الناس ، ثم إلى المدينة وشهد بدرا

وما بعدها ، وكان على الخاتم ، واستعمله الشيخان على بيت المال ، قالوا : وكان قد أصابه الجذام فأمر عمر بن الخطاب ﵁ فدووى بالحنظل فتوقف المرض . وكان وفاته فى خلافة عثمان بن عفان . وقيل : سنة أربعين .

قال الإمام أحمد عن معيقيب أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال فى الرجل يسوى التراب حيث يسجد : (إن كنت لا بد فاعلا فواحدة) .

وقال الإمام أحمد عن معيقيب قال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (ويل للأعقاب من النار) . وقد روى أبو داود والنسائى عن أياس بن الحارث بن المعيقيب عن جده قال : كان خاتم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من حديد ملوى عليه فضة .

والصحيح أن خاتم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ كان من فضة فصه منه، ونقشه محمد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، فكان فى يده ﴿ﷺ وآله﴾ ثم كان فى يد أبي بكر من بعده ، ثم فى يد عمر ، ثم كان فى يد عثمان فلبث فى يده ست سنين ، ثم سقط منه فى بئر أريس ، فاجتهد فى تحصيله فلم يقدر عليه .

٩- أمراؤه ﴿ﷺ وآله﴾

أما أمراؤه ﴿ﷺ وآله﴾ فقد ذكرناهم ، عند بعث السرايا منصوصا على أسمائهم ﵃.

١٠- العشرة المبشرون باجنة

لقد استطاع الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ بناء الإنسان ليكون قدوة على مر الزمان فى السلم والحرب .. أخلاقا وسلوكا .. ومعاملة ومنهجا ، وكان ذلك على ثلاث دعائم هى : العقيدة الراسخة ، والقدوة الحسنة ، واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب .. فرأينا أبا بكر الصديق نموذج الرحمة فى أجلى صورها ومعانيها . وكان عمر أقواهم فى دين الله ، وكان عثمان أشدهم حياء ، وكان على أقضاهم ، وطلحة حوارى الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ وكذلك صاحبه الزبير ، وكان عبد الرحمن بن عوف من تجار الرحمن ،

وكان أبو عبيدة بن الجراح أمين الله ، وأمين رسوله .. وسوف تظل هذه النماذج مضيئة على مر الزمن تملأ حياة المؤمن خيرا وبركة ونماء وجودا .

عن عبد الرحمن بن عوف أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال:"أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد بن أبي وقاص فى الجنة ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة ". أخرجه أحمد والترمذى .

إن العشرة المبشرين بالجنة نماذج سباقة إلى الإيمان والعمل الصالح لمن أراد القدوة من الرجال والنساء ، والمؤمنات بعضهم أولياء بعض .

والمسلمون اليوم فى أمس الحاجة إلى كثير من ألوان القوة والاستعداد لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ، ومن بين هذه الألوان : القدوة الطيبة التى تجذب ببهائها ، وتهدى بسناها .

ويأتى فى المقدمة أولئك العشرة المبشرون بالجنة على رأس من يقتدى بهم ، ويهتدى بهديهم ، ويسار على دربهم .

الصديق الأكبر سيدنا أبو بكر ﵁

السابق إلى التصديق ، الملقب بالعتيق ، المؤيد من الله بالتوفيق .. صاحب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحضر والأسفار ، ورفيقه الشفيق فى جميع الأطوار،وضجيعه بعد الانتقال فى الروضة المحفوفة بالأنوار ، المخصوص فى الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار ،وعامة الأبرار، وبقى له شرفه على كرور الأعصار ، ولم يسم إلى ذروته همم أولى الأيد والأبصار ، حيث يقول عالم الأسرار ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات والآثار ، ومشهور النصوص الواردة فيه والأخبار التى غدت كالشمس فى الانتشار .. وفضل كل من فاضل وفاق كل من جادل وناضل ، ونزل فيه : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ (الحديد : ١٠) .. توحد الصديق ، فى الأحوال بالتحقيق ، واختار الاختيار من الله دعاه إلى الطريق .. فتجرد من الأموال والأعراض، وانتصب فى قيام التوحيد للتهدف والأغراض .. صار للمحن هدفاً ، وللبلاء غرضاً ، وزهد فيما عز له جوهراً كان أو عرضاً .. تفرد بالحق ، عن الالتفاف إلى الخلق .

هو عبد الله بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب " أبو بكر " إلى تيم قريش ، فيقال : التيمى ، ويلتقى فى النسب مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عند مرة بن كعب وبين كل منهما وبين "مرة " ستة آباء .

وكان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عبد الله، وسمى بالعتيق : .

لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال له : أنت عتيق من النار : أخرجه الترمذى "

وقيل : سمى بالعتيق لجمال وجهه " قاله الليث بن سعد وأحمد بن حنبل وابن معين وغيرهم" .

وأما الصديق فقيل : كان يلقب به فى الجاهلية، لما عرف منه الصدق ذكره ابن مسدى. وقيل: لمبادرته إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيما كان يخبره به . قال ابن إسحق عن الحسن البصرى وقتادة : وأول ما اشتهر به صبيحة الإسراء، وأخرج البيهقى وأبو نعيم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ هو الذى سماه صديقاً ، وكان سيدنا على بن أبى طالب يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء: " الصديق" (أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات) .

والده: أبو قحافة عثمان بن عمرو بن كعب ، أسلم يوم فتح مكة وأتى أبو بكر به إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : " ألا أقررتم الشيخ فى بيته حتى كنا نأتيه – تكرمه لأبى بكر– وأمرهم أن يغيروا شيبه، وبايعه، وأتى المدينة ، وبقى حتى توفى فى خلافة سيدنا عمر عن سبع وتسعين سنة .

وتوفى أبو بكر قبله، وورثه أبو قحافة السدس، فرده على ولد أبى بكر.

وولد أبو قحافة: أبا بكر ، وأم فروة، وقريبة .

فأما أم فروة فتزوجها رجل من الأزد فولدت له جارية. ثم تزوجها تميم الدارى. ثم تزوجها الأشعث بن قيس كما قدمناه عند ذكر الوفود.

وأما قريبة فكانت عند سعد بن قيس بن عبادة .

ووالدة أبى بكر : سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، وهى بنت عم أبى قحافة وتكنى : أم الخير، أسلمت قديما حيث كان المسلمون فى دار الأرقم .

أولاده :كان له ﵁ من الولد:عبد الله،وأسماء ذات النطاقين.. وأمهما قتيلة بنت عبد العزى ، وعبد الرحمن وعائشة ...وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، ومحمد .. وأمه

أسماء بنت عميس، وأم كلثوم .. وأمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكان الصديق أبو بكر لما هاجر إلى المدينة نزل على خارجة فتزوج ابنته .

فأما عبد الله : فإنه شهد الطائف .

وأما أسماء : فتزوجها الزبير بن العوام فولدت له عدة من الأولاد ثم طلقها ، فكانت مع ابنها عبد الله إلى أن قتل وعاشت مائة سنة .

وأما عبد الرحمن : فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم .

وأما محمد : فكان من نساك قريش ، وقد ولاه سيدنا على بن أبى طالب مصر فقتله صاحب معاوية .

وأما أم كلثوم : فتزوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . قال البغوى فى تفسيره : اجتمع لأبى بكر إسلام أولاده وأبويه جميعا .

مولده ومنشأه: كان مولد أبى بكر الصديق رضي الله عنه بعد مولد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بسنتين وأربعة أشهر وأيام ، وتوفى وله ثلاث وستون سنة .

وكان منشؤه بمكة لا يخرج منها إلا للتجارة ، وكان ذا مال جزيل فى قومه ، ومروءة تامة ، وإحسان ، وتفضل فيهم .

وكان من رؤساء قريش فى الجاهلية ، وأهل مشاورتهم ، ومحببا فيهم ، وأعلم لمعالمهم ، فلما جاء الإسلام أقره على ما سواه ، ودخل فيه أكمل دخول . وأخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن معروف ابن خربوذ قال : إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، أحد عشرة من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية الإسلامية فكان إليه أمر الديات والغرم فى قريش .

وكان أبو بكر رضي الله عنه أعف الناس فى الجاهلية ، أخرج ابن عساكر بسند صحيح عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : والله ما قال أبو بكر شعرا قط فى الجاهلية ولا

إسلام ولم يسجد لصنم قط ، ولقد ترك هو وعثمان بن عفان شرب الخمر فى الجاهلية .

إسلامه :أسلم الصديق ﷺ وهو ابن سبع وثلاثين وقيل : ثمان ، وعاش فى الإسلام ستا وعشرين سنة ، وهو أول من أسلم من الرجال ، وأسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ .

وأخرج الطبرانى فى الكبير ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن الشعبى قال : سألت ابن عباس : أى الناس كان أولا إسلاما ؟ قال : أبو بكر الصديق ، ألم تسمع قول حسان بن ثابت :

إذا تذكرت شجوا فى أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبى وأوفاها بما حملا
والثانى التالى المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

وأخرج ابن عساكر بسند جيد عن محمد بن سعد بن أبي وقاص أنه قال لأبيه سعد : أكان أبو بكر أولكم إسلاما ؟ قال : لا ، ولكن أسلم قبله أكثر من خمسة ، ولكنه كان خيرنا إسلاما .

ويقصد بذلك أن السيدة خديجة ، وزيد بن حارثة ، وزوجه أم أيمن ، وسيدنا على ابن أبي طالب ، وورقة بن نوفل أسلموا قبله .

وقد صحب أبو بكر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من حين أسلم إلى حين انتقل إلى الرفيق الأعلى ، لم يفارقه سفرا ولا حضرا ، إلا فيما أذن له ﴿ﷺ وآله﴾ فى الخروج من حج وغزو ، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه ، وترك عياله وأولاده رغبة فى الله ورسوله

﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهو رفيقه فى الغار ، قال تعالى : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) .

وقام بنصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غير موضع، وله الآثار الجميلة فى المشاهد ، وثبت يوم أحد ويوم حنين ، وقد فر الناس ، ودفع إليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ رايته العظمى يوم تبوك ، وأنفق ماله كله على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد أخرج أحمد وابن ماجة والترمذى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ :"ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر " فبكى أبو بكر وقال :(هل أنا ومالى إلا لك يارسول الله ؟) وكان يملك يوم أسلم أربعين ألف درهم ، فكان يعتق منها ويقوى المسلمين .

وكان ﵁ أعلم الناس بأنساب العرب ، ولا سيما قريش ، وكان كذلك غاية فى علم تعبير الرؤيا ، وقد كان يعبر الرؤيا فى زمن النبى﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد قال محمد بن سيرين – وهو المقدم فى ذلك العلم بالاتفاق – : كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ " أخرجه ابن سعد " .

وهو أول من جمع القرآن ، وأول من قاء تحرجا من الشبهات .

وروى مائة حديث واثنين وأربعين حديثا ، جاء منها فى الصحيحين ثمانية عشر حديثا ، اتفقا على ستة ، وانفرد البخارى بأحد عشر ، ومسلم بواحد ، وخرج له جماعة : روى عنه ابن عباس ، وأنس ، وقيس بن أبي حازم .

فضائله رضي الله عنه فى القرآن الكريم :

تتعدد فضائل الصديق فى القرآن الكريم ، والناظر عبر آياته وأسراره يرى المكانة العلية ، والمرتبة السنية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فى القرآن :

١- قال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (الليل : ١٧ : ٢١) قال ابن الجوزى : أجمعوا أنها نزلت فى أبي بكر ، ففيها التصريح بأنه أتقى من سائر الأمة ، و الْأَتْقَى هو الأكرم عند الله لقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(الحجرات : ١٣). وأخرج البزار عن الزبير بن العوام وابن جرير وابن المنذر والآجرى وابن أبي حاتم عن عروة ، والحاكم عن إسحق وقال صحيح على شرط مسلم،وقال الفخر الرازى : أجمع المفسرون على أن المراد بالأتقى أبو بكر ، وللسيوطى فى ذلك رسالة " الحبل الوثيق فى نصرة الصديق "

وأخرج بن أبي حاتم والطبرانى أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله فأنزل الله هذه الآيات .

٢- قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (الليل : ١-٤) . أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن أبا بكر اشترى بلالا من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه لله ، فأنزل الله هذه الآية ، أى سعى أبي بكر وأمية لمفترق فرقانا عظيما فشتان ما بينهما .

٣- قال تعالى ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة : ٤٠) .أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر ، ومن ثم من أنكر صحبته كفر إجماعا . وكانت مشاهدته فى الغار أعلى من مشاهدات سيدنا يونس فى بطن الحوت إكراما للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ .

إلى غيب مجلى الذات هاجرت تفريدا   فأشرق هذا الغيب للروح مشهودا
وفى آى " لا تحزن " شراب تديرها   على روح صديق فيفقه توحيدا
تهاجر يامولاى والقدس موئل   لتشهد فى حق العبودة معبودا
تجاوزت ترك الترك فى السير حاضرا   وصاحبك الممنوح نال وجودا
مع الله فى غار كيونس أشرقت   له حضرة الإطلاق كشفا وتحديدا
معية قرب فى غياهب ظلمة   بها الأنس يمحو غربة وجهودا
بأعينه قد كنت فى الغار سيدى   وصديقك الممنوح خاف صدودا
ويونس فى حوت الجواذب أشرقت   عليه المعانى آنسته سجودا
يرى صاحب المختار فى الغار ظاهرا   وشتان بين الحضرتين ورودا

٤– قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الزمر: ٣٣)أخرج البزار وابن عساكر أن سيدنا عليا كرم الله وجهه قال فى تفسيرها : الذى جاء بالصدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والذى صدق به أبو بكر ﵁ .

٥– قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾(الرحمن :٤٦) . أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب أها نزلت فى أبى بكر ﵁ .

٦– قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الأحزاب : ٤٣) أخرج عبد بن حميد عن مجاهد لما نزل ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٦) . قال أبو بكر يارسول الله ما أنزل عليك خيرا إلا شركنا فيه ، فترلت هذه الآية .

٧– قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (الحجر : ٤٧) . قال : سيدنا على زين العابدين ﵁ : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى.

٨– قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور : ٢٢) نزلت كما فى البخارى وغيره عن عائشة فى أبى بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح لكونه كان من جملة من رمى السيدة عائشة بالإفك الذى تولى سبحانه وتعالى براءها منه بالآيات التى أنزلها فى شأها . ولما نزلت قال أبو بكر : بلى والله ياربنا إنا لنحب أن تغفر لنا ، وعاد بما كان يصنع أن ينفقه عليه ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى حادثة الإفك .

فضائله ﵁ فى السنة الشريفة :

إذا كانت فضائل الصديق تتعدد فى القرآن الكريم فإن السنة النبوية الشريفة تلقى علينا بأهار جارية من فضائله ﵁ سوف نشير إلى نذر يسير منها :

١-أخرج أحمد والبخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال :" إنه ليس فى الناس أحدا من على فى نفسه وماله من ابن أبى قحافة ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا عنى كل خوخة فى المسجد غير خوخة أبى بكر "

٢- أورد ابن حجر فى الصواعق المحرقة عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ﴿ﷺ وآله﴾ قال لأبى بكر:"أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار".(أخرجه الترمذى)

٣- أخرج سعيد بن منصور فى سننه عن أبى وهب مولى أبى هريرة قال : لما رجع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليلة أسرى به فكان بذى طوى فقال :" ياجبريل إن قومى لا يصدقونى فقال : يصدقك أبو بكر وهو الصديق " ووصله الطبرانى فى الأوسط عن أبى وهب عن أبى هريرة .

٤- أخرج الحاكم عن النزال بن سبرة قلنا لعلى أمير المؤمنين أخبرنا عن أبى بكر فقال : ذلك امرؤ سماه الله الصديق على لسان محمد ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه خليفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا .

٥- أخرج الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال :"ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر ، ولو كنت متخذ خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا إلا وإن صاحبكم – أى: محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ – خليل الله " .

٦- أخرج ابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق وابن عساكر من طريق صدفة بن ميمونة القرشى عن سليمان بن يسار قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :" خصال الخير ثلاثمائة وستون خصلة إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه خصلة منها بها يدخل الجنة، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله أفى شىء منها ؟ قال: نعم جميعها من كل".

٧- أخرج ابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : " حب أبى بكر وشكره واجب على كل أمتى " وأخرج مثله من حديث سهل بن سعد .

٨- أخرج البغوى وابن عساكر عن ابن عمر قال: كنت عند النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خللها فى صدره بخلال فنزل عليه جبريل فقال : (يامحمد أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها فى صدره بخلال . فقال: ياجبريل أنفق ماله على قبل الفتح ، قال: فإن الله يقرأ عليه السلام ويقول : قل له أراض عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أسخط على ربى ؟ أنا عن ربى راض ، أنا عن ربى راض ، أنا عن ربى راض) .

١٠- أخرج أبو يعلى وأحمد والحاكم عن سيدنا علىّ قال: قال لى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم بدر ولأبى بكر : (مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل) .

أقوال الصحابة والسلف الصالح فى فضله :

١- أخرج البخارى أن سيدنا عمر قال: أبو بكر سيدنا – والبيهقى أنه قال : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم. وعبد الله بن أحمد أنه قال: إن أبا بكر كان سابقاً مبرزاً. ومسدد فى مسنده، قال– يعنى عمر–: لوددت أنى شعرة فى صدر أبى بكر . وابن أبى الدنيا وابن عساكر أنه قال : وددت أنى من أهل الجنة حيث أرى أبا بكر . وأبو نعيم أنه قال: لقد كان ريح أبى بكر أطيب من ريح المسك .

٢- أخرج ابن عساكر عن سيدنا علىّ أنه دخل على أبى بكر وهو مسجى فقال: ما أحد لقى الله بصحيفته أحب إلىّ من هذا المسجى ، أى: بعد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . والطبرانى عن علىّ قال: والذى نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر . والطبرانى عن علىّ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لحسان بن ثابت: (هل قلت شيئاً فى أبى بكر ؟ فقال: نعم، فقال: (قل وأنا استمع) فقال:

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد   طاف العدو به إذ صعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا		من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك النبي ﴿ﷺ وآله﴾ حتى بدت نواجزه ثم قال : (صدقت ياحسان هو كما قلت) .

٣- وأورد ابن سعد عن إبراهيم النخعى قال: كان أبو بكر يسمى الأواه لرأفته ورحمته .

٤- وأخرج الدينورى وابن عساكر عن أبي حصين قال: خص الله أبا بكر بأربع خصال لم يخص بها أحداً من الناس ، سماه الصديق ولم يسم أحداً الصديق غيره، وهو صاحب الغار مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، ورفيقه فى الهجرة ، وأمره ﴿ﷺ وآله﴾ بالصلاة والمسلمين شهود .

٥- أخرج الطبرانى عن سيدنا الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما قال: لما احتضر أبو بكر قال: ياعائشة انظرى اللقحة التى كنا نشرب من لبنها ، والجفنة التى كنا نصطبغ فيها ، والقطيفة التى كنا نلبسها فإنا كنا ننتفع بذلك حين نلى أمر المسلمين. فإذا مت فارددیه إلى عمر ، فلما توفى أبو بكر أرسلت به إلى عمر . فقال عمر : رحمك الله ياأبا بكر لقد اتعبت من جاء بعدك .

الصوفى الأزهر

الصوفية هم الذين صفت قلوبهم من شوائب الكون ، وتطهرت نفوسهم من رجس الشهوات ، وتعلقت هممهم بالله تعالى ففنوا عن كل ما سواه ، ووجهوا وجوههم شطره ، لم تحجبهم الكائنات عن شهود مبدعها ، ولم تشغلهم الآيات الجليلة عن فهم إشارتها وذوق معانيها ، هم عبيد الله السائرون على منهج نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وهم الذين تلقوا أسرار التوحيد وأنوار الحكمة بقلوب واعية ونفوس صافية عن العلماء العارفين بالله ، ورثة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وسيدنا أبو بكر الصديق هو الصوفى الأزهر فى أخلاقه وأقواله وأفعاله وأحواله .

فقد قيل فى تعريف التصوف ما أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء :

١–التصوف هو : الاعتصام بالحقائق عند اختلاف الطرائق

ويتحقق هذا المعنى فى الصديق ﷺ بعد انتقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أبا بكر خرج حين توفى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وعمر يكلم الناس فقال : اجلس ياعمر فأبى عمر أن يجلس ،فقال : اجلس ياعمر . فتشهد فقال : أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وإن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .قال والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله عز وجل أنزل هذه الآية حين تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما نسمع بشراً إلا يتلوها .

واعلم أن الصحابة ﷺ إذا اختلفوا فى أمر فكلاهما يكون على صواب فسيدنا عمر ﷺ وسيدنا أبو بكر ﷺ كلاهما كان على صواب فيما قال ، فسيدنا عمر نظر إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من جهة الرسالة التى لا تموت فقال : من قال إن رسول الله مات قطعت عنقه ، وهذا حق يؤيد قول الله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ (الحجرات : ٧) .

وسيدنا أبو بكر نظر إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من جهة الجسد الذى انتقل إلى الرفيق الأعلى فقال ما قال .

٢– التصوف هو : تفرد العبد بالصمد الفرد .

ويتحقق هذا المعنى فى الصديق ﷺ بعد أن رده ابن الدغنة وهو مهاجر إلى الحبشة وصار الصديق فى جواره ، فتقول السيدة عائشة : لما أنفذت قريش جوار ابن الدغنة

قالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره وليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء . ولا يؤذينا ولا يستعلن بالصلاة والقراءة فى غير داره . ففعل أبو بكر رضي الله عنه ثم بدا له فابتنى مسجدا بفناء داره . فكان يصلى فيه ويقرأ ، فتتقصف "تزدحم " عليه نساء المشركين

وأبناؤهم يتعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : ياأبا بكر قد علمت الذى عقدت لك عليه ، فإما أن تقصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى عقد رجل عقدت له .

فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله ، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ بمكة .

٣- التصوف هو تطليق الدنيا بتاتا ، والإعراض عن مناها ثباتا.

ويتحقق ذلك فى الصديق رضي الله عنه فى عزوفه عن العاجلة وأزوفه من الآجلة ، فعن زيد ابن أرقم قال : استسقى أبو بكر فأتى بإناء فيه ماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ، فسكت وما سكتوا ، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته ، ثم مسح وجهه وأفاق . قالوا : ما هاجك على هذا البكاء ؟ قال : كنت مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ،وجعل يدفع عنه شيئا ويقول : (إليك عنى ، إليك عنى) ولم أر معه أحدا ، فقلت يارسول الله : أراك تدفع عنك شيئا ولا أرى معك أحدا ؟ قال : (هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها، فقلت لها : إليك عنى .

فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى من بعدك) فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكانى .

٤- التصوف هو : الجد فى السلوك إلى ملك الملوك .

ويحقق ذلك أيضا فى الصديق ﷺ فى شدة ورعة وبعده عن الشبهات وهو أول من قاء من الشبهات ، فعن زيد بن الأرقم قال : كان لأبى بكر الصديق ﷺ مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ قال : حملنى على ذلك الجوع من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى . فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى ، قال : إن كدت أن تهلكنى ، فأدخل يده فى حلقة فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله كل هذا من أجل اللقمة ؟ قال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به) . فخشيت أن ينبت شيء من جسدى من هذه اللقمة .

٥- التصوف هو : السكون إلى اللهيب ، فى الحنين إلى الحبيب .

ويتحقق ذلك فى الصديق ﷺ فى أنه كان يقدم على المضار ، لما يؤمل فيه من المسار،فعن أسماء بنت أبى بكر قالت: أتى الصريخ آل أبى بكر ، فقيل له : أدرك صاحبك . فخرج من عندنا – وإن له غدائر – فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ فلهوا عن رسول الله وأقبلوا على أبى بكر ، فرجع إلينا أبو بكر لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام .

٦- التصوف هو : وقف الهمم على مولى النعم .

ويتحقق ذلك فى الصديق ﷺ فى أنه كان يقدم الحقير مفتاداً للخطير ، فعن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال : (أمرنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن نتصدق ووافق ذلك مال عندى ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوماً ، قال : فجئت بنصف مالى ، فقال لى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ " ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما

عنده . فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً) .

٧– التصوف هو : استنفاد الطوق ، فى معاناة الشوق ، وتزجية الأمور ، على تصفية الصدور ، ويتحقق ذلك فى الصديق ﵁ لأنه فى المصافات صافياً ، وفى المؤخاة وافيا ، فعن أنس بن مالك قال : لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يارسول الله دعنى فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شيء كان لى قبلك ، قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يتلمس بيديه فكلما رأى جحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال : فبقى حجر فوضع عقبه عليه ، ثم أدخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . قال : فلما أصبح قال له النبى : (فأين ثوبك يأابا بكر ؟) فأخبره بالذى صنع ، فرفع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يديه وقال : (اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة) فأوحى الله إليه : [إن الله قد استجاب لك] .

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : كان يد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى مال أبى بكر ويد أبى بكر واحدة حين حجا .

شجاعته وحروبه:

شهد الصديق ﴿ﷺ وآله﴾ جميع المشاهد مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وما تخلف عن مشهد واحد ، وكان دائما بجوار رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يدفع عنه ، وكان ﵁ من أشجع الصحابة وأثبتهم فى دين الله ففى(معالم التتريل) لما قبض رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وانتشر خبر وفاته ارتد العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين ، ومنع بعضهم الزكاة فهم أبو بكر بقتالهم ، فكره ذلك صحابة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وقال عمر ﵁ : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم " فقال له أبو بكر :

أليس قد قال : (إلا بحقها) ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو منعونى عقالا – وفى رواية عناقا – كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لقاتلتهم على منعه ، لو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى ، فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ، والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعا فى قتال أهل الردة وفى مدة خلافته اليسيرة " سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال " .

فتوحات كثيرة ....، فأول ما بدأ بعد خلافته أنه أنفذ أنه جيش أسامة بن زيد إلى الروم ، وأرسل أبو بكر خالدا إلى بنى أسد و غطفان فقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلى الإسلام بعد الردة ، ثم أرسله إلى اليمامة إلى قتال مسيلمة الكذاب فالتقى الجمعان ودام الحصار أياما ثم قتل الكذاب على يد وحشى قاتل سيدنا حمزة عم النبى

﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقاتل أبو بكر جموع أهل الردة حتى رجعوا إلى دين الله ، وفتح أطراف العراق وبعض الشام .

وفـاتـه :

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبى السفر قال : مرض أبو بكر ﵁ فعادوه ، فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب ؟ قال : قد رآنى . قالوا : فأى شيء قال لك ؟ قال : قال (إنى فعال لما أريد) .

ويقول عبد الله بن عمر : كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله ، كمد فما زال جسده يجرى (ينقص) حتى مات .

وقيل : كان بدء مرضه أنه اغتسل فى يوم بارد فحم خمسة عشر يوما ، وقيل : أنه مات مسموما .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : لما ثقل أبو بكر قال : أى يوم هذا ؟ قلنا : يوم الاثنين . قال : فإنى أرجو ما بينى وبين الليل ، قالت : وكان عليه ثوب عليه درع من مشق (نوع من الأصباغ) فقال : إذا أن مت فاغسلوا ثوبى هذا وضموا عليه ثوبين جديدين وكفنونى فى ثلاثة أثواب ، فقلنا : أفلا نجعلها جددا كلها ؟ قال : لا . (أخرجه البخارى) .

وطلبه رضي الله عنه أن ينتقل يوم الاثنين لأنه اليوم الذى انتقل فيه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى .

فتوفى يوم الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان ليالى بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين ، وأوصى أن تغسله أسماء زوجته فغسلته ، وأن يدفن إلى جنب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأن يخلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأن يصلى عليه عمر بين الروضة الشريفة والمنبر ، ونزل فى روضته ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين .

ثانى العشرة

الفاروق الأكبر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ذو المقام الثابت المأنوق ، أعلن الله تعالى به دعوة الصادق المصدوق .. وفرق به بين الفصل والهزل ، وأيد بما قواه به من لوامع الطول .. ومهد له من منائح الفضل شواهد التوحيد ، وبدد به مواد التنديد .. فظهرت الدعوة ، ورسخت الكلمة ، فجمع الله تعالى بما منحه من الصولة ، ما نشأت لهم من الدولة .. فعلت بالتوحيد أصواتهم بعد تخافت ، وتثبتوا فى أحوالهم بعد تهافت .. غلب كيد المشركين ، بما ألزم قبله من حق اليقين .. لا يلتفت إلى كثرتهم و تواطيهم ، ولا يكترث لممانعتهم وتعاطيهم ، اتكالاً على من هو منشئهم وكافيهم ، واستنصاراً بمن هو قاصمهم وشافيهم ..

محتملاً لما احتمل الرسول ، ومصطبراً على المكاره لما يؤمل من الوصول ..ومفارقاً لمن اختار التنعيم والترفيه، ومعانقاً لمن كلف من التشمر والتوجيه .. المخصوص من بين الصحابة بالمعارضة للمبطلين ، والموافقة فى الأحكام لرب العالمين .. السكينة تنطلق على لسانه ، والحق يجرى الحكمة عن بيانه .. كأن للحق موئلاً ، بالحق صائلاً ، وللأثقال حاملا ، ولم يخف دون الله طائلاً .. شيد من الدين أركانه ، وزحزح من الكفار بنيانه .. وأعلى من الحق مناره ، وأخمد من الكفر ناره .. فاستعز بالإسلام ، وأغيظ به عبده الأصنام .. المتسربل بداء الحياء والغيرة ، الذى ما سلك فجا إلا سلك الشيطان غيره ، الذى أزاح عن الحق دين الباطل ولفظه ، وحل حبله ونقضه ، وسل صارم عزمه على جيش الجاهلية فأنقضه ، ورمى الطاعون بسهام الإسلام فأرفضه .. وزوج نبيه بالطاهرة بنته حفصه ، ونعته النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بالفاروق وخصة .. القصير الأمل ، الكثير العمل ، الذى لا يتداخل فعله زيع ولا روع ولا زلل .. الناطق بالصواب، المنصور يوم الأحزاب ، الملهم فصل الخطاب ، السابق يوم القيامة بيمينه لأخذ الكتاب ، أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى ، يلتقى هو ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى كعب بن لؤى .

والدته : حنتمة بنت هشام بنت المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وهى شقيقة أبو جهل " عمرو بن هشام " .

مولده : ولد رضي الله عنه فى السنة الثالثة بعد مولده ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عمر ، وإليه كان السفارة فى الجاهلية فكانت قريش إذا وقد الحرب بينهم – أو بينهم و بين غيرهم – بعثوه سفيرا ، وإذا نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، بعثوه منافرا أو مفاخرا .

لقبه : لقبه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بالفاروق يوم أسلم فى دار الأرقم وبه تم المسلمون أربعون فخرجوا وأظهروا الإسلام ، ففرق الله بسيدنا عمر الحق من الباطل .

أوليات الفاروق : هو أول من دعى أمير المؤمنين ، وأول من أشار على سيدنا أبى بكر بجمع القرآن فى المصحف ، وجمع الناس فى قيام شهر رمضان ، وأول من حمل الدرة لتأديب الناس وتعزيرهم ، ووضع الخراج ، ومصر الأمصار ، واستقضى القضاة ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من عس بالليل أى : طاف بالليل ، وأول من ضرب في الخمر ثمانين جلده ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد . ،أخرج ابن عساكر عن إسماعيل بن زيد قال : مر على بن أبي طالب على المساجد فى رمضان وفيها القناديل فقال : نور الله على عمر قبره ما نور علينا فى مساجدنا.

وكان نقش خاتمه : كفى بالموت واعظا ياعمر

أولاده وزوجاته :

كان له الولد ﵁ : عبد الله ، وعبد الرحمن ، وحفصة .. أمهم زينب بنت مظعون ، وزيد الأكبر ، ورقية .. أمهما أم كلثوم بنت الإمام على ، وزيد الأصغر ، وعبيد الله .. أمهما أم كلثوم بنت جرول ، وعاصم .. أمه جميله بنت ثابت بن أبي الأقلح ، وعبد الرحمن الأوسط .. أمه لهية أم ولد ، وعبد الرحمن الأصغر .. أمه أم ولد ، وفاطمة .. أمها أم حكيم بنت الحارث ، وعياض .. أمه عاتكه بنت زيد ، وزينب .. أمها فكيهة أم ولد.

أما عبد الله: ويكنى أبا عبد الرحمن آمن بمكة فى صغره مع أبيه وهاجر معه وهو ابن عشر سنين وشهد المشاهد كلها بعد بدر وأحد ، وتوفى بمكة ودفن فى موضع قريب منها يسمى (فخ) وهو ابن أربع وثمانين سنة وله عقب ومروياته ألف وستمائة وثلاثون حديثا.

وأما عبد الرحمن الأكبر : فقد أدرك النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ولم يحفظ عنه وأما زيد الأكبر : وأمه أم كلثوم بنت الإمام على كرم الله وجهه بنت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، يقال : أنه رمى بحجر بين حيين فى حرب فتوفى ولا عقب له ، ويقال : إنه توفى هو وأمه فى ساعة واحدة فلم يرث أحدهما الآخر .

وصلى عليهما عبد الله بن عمر ، وقدم زيدا على أمه فصارت سنة وكان بسببهما حكمان .

وأما عاصم : فهو الذى زوج بابنة المرأة التى كانت تغش اللبن ، وكان من ذريتها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز .

وأما عبيد الله : فكان شديد البطش ، لما قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرد سيفه وقتل الهرمزان وجفينة وهو رجل نصرانى من أهل الحيرة ، وقتل بنتا صغيرة لأبى لؤلؤة قاتل الفاروق عمر ، ثم لحق بعد ذلك بجيش معاوية وقتل فى صفين معه وله عقب .

أما عبد الرحمن الأوسط : فهو الملقب بأبى شحمة وهو الذى جلده الفاروق عمر حتى مات ولا عقب له (ذكره الدار قطنى)

وأما عبد الرحمن الأصغر : فهو الملقب بالمجبر لأنه وقع وهو غلام فكسر فأتى به إلى عمته حفصة أم المؤمنين فقيل لها : انظرى إلى ابن أخيك انكسر فقالت : ليس بالمنكسر ولكنه الجبر ، وتوفى وله عقب فبادوا ولم يبق منهم أحد .

وأما حفصة : فهى زوج النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهى أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها.

وأما رقية : فقد تزوجها إبراهيم بن نعيم بن عبد الله فتوفيت عنه ولم تلد له .

وأما فاطمة : تزوجها ابن عمها عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فولدت له عبد الله (ذكره الدار قطنى)

وأما زينب : تزوجها عبد الله بن سراقة العدوى ، وروت عن أختها حفصة

(ذكره ابن قتيبة وغيره)

إسلامه :

أسلم الفاروق عمر فى السنة السادسة من النبوة ، وله ثلاث وثلاثون سنة ففرح به المسلمون وظهر الإسلام بمكة عقب إسلامه . وقصة إسلامه ذكرت كاملة فيما تقدم .

هجرته :

أخرج ابن عساكر عن الإمام على قال : ما علمت أحدا هاجر إلا مختفيا إلا عمر ابن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهما وأتى الكعبة وأشراف قريش فطاف سبعا ثم صلى ركعتين خلف المقام ، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه، ويؤتم ولده ، وترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ، فما تبعه منهم أحد .

موافقات الفاروق رضي الله عنه للقرآن :

القرآن هو كلام الله القديم ، وأى كلام بعده محدث ، والقرآن لا يؤيد أحدا ، وإنما خص الفاروق بموافقته للقرآن لأن الله أجرى الحق على قلبه ولسانه .

وللإمام السيوطى منظومة تسمى ب (قطف الثمر فى موافقات عمر). وذكر فى تاريخ الخلفاء أن أبا عبد الله الشيبانى ذكر فى كتابه (فضل الإمامين) لعمر أحدا وعشرين موضعا وافق فيها القرآن نذكر منها ما يلى :

الأولى والثانية والثالثة : أخرج الشيخان عن عمر قال : وافقت ربى فى ثلاث ، قلت : يارسول الله لو اتخذنا مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت : ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ .(البقرة : ١٢٥) . وقلت : يارسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر

فلو أمرهن يحتجبن ؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبى فى الغيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن، فنزلت كذلك .

الرابعة: أسارى بدر . أخرج سالم عن عمر قال: وافقت ربى في ثلاث : فى الحجاب ، وفى أسارى بدر ، وفى مقام إبراهيم .

الخامسة: تحريم الخمر. أخرج أصحاب السن والحاكم أن عمر قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فأنزل الله تحريمها .

السادسة: فتبارك الله أحسن الخالقين . أخرج بن أبى حاتم فى تفسيره عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربى فى أربع نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢). فلما نزلت قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت كما قلت .

السابعة : قصة عبدالله بن أبى بن سلول. وحديثها فى الصحيح عنه، أى: عمر، قال: لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ للصلاة عليه فقام إليه فقمت حتى وقفت فى صدره ، فقلت: يارسول الله أعلى عدو الله ابن أبى القائل يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فو الله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت : ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ (التوبة : ٨٤)

الثامنة: الاستشارة فى الخروج إلى بدر.وذلك أنه﴿ ﷺ وآله﴾ استشار أصحابه فى الخروج إلى بدر فأشار عمر بالخروج فنزل قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن. .بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (الأنفال : ٥) .

التاسعة : الاستشارة فى قصة الإفك وذلك أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لما استشار الصحابة فى قصة الإفك قال عمر : من زوجكها يارسول الله ؟ قال : الله ، قلت : أفتظن أن ربك دلس عليها فيها ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، فنزلت كذلك .

العاشرة:قصته فى الصيام لما جامع زوجته. أخرج أحمد فى مسنده لما جامع عمر زوجته بعد الانتباه ، وكان ذلك محرما فى أول الإسلام فنزل : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ ﴾ .(البقرة : ١٨٧) .

الحادية عشرة:قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا ﴾.(البقرة : ٩٨) . إلى آخره ،أخرج ابن جرير وغيره من طرق عديدة أقربها للموافقة ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا لقى عمر فقال : إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا ، فقال عمر : من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ، فنزلت الآيه .

الثانية عشرة: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.(النساء:٦٥) . أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى الأسود قال : اختصم رجلان إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقضى بينهما ، فقال الذى قضى عليه : ردنا إلى عمر بن الخطاب . فأتيا إليه فقال الرجل : قضى لى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على هذا ، فقال : ردنا على عمر ، فقال:كذالك ؟ قال : نعم . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما ، فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذى قال ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر ، فقال : يارسول الله قتل عمر والله صاحبى . فأنزل الله : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾.(النساء:٦٥) فأهدر دم الرجل وبرىء عمر من قتله الثالثة عشرة: الاستئذان فى الدخول . وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائما فقال : اللهم حرم الدخول ، فنزلت آية الاستئذان .

فضائله ﵁ فى السنة الشريفة :

إن فضائل وشمائل الفاروق عمر ﵁ فى السنة النبوية الشريفة تعدد وسوف نذكر منها بعضها والمؤمن يكفيه قليل الحكمة :

١-أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال : " بينا أنا نائم شربت–يعنى البن–حتى أنظر إلى الرى يجرى فى أظافرى،ثم ناولته عمر، قالوا : فما أولته يارسول الله ؟ قال : العلم .

٢- أخرج البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدى ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، وعرض على عمر وعليه قميص يجره ، قالوا : فما أولته يارسول الله ؟ قال : الدين .

٣- أخرج البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص وقال : قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : "يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك)

٤- أخرج أحمد والبخارى عن أبى هريرة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن . عائشة أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: " لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر " .

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : محدثون بفتح الدال جمع محدث واختلف فى تأويله فقيل: ملهم، قاله الأكثر، وقالوا: المحدث هو الرجل الصادق الظن وهو من ألقى فى روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذى حدثه غيره به ، وقيل : هو من يجرى الصواب على لسانه من غير قصد ، وقيل: تكلمه الملائكة بغير نبوة .. أه .

ويؤيد ذلك الحديث الذى أخرجه البيهقى وأبو نعيم فى الدلائل والخطيب فى رواية مالك عن نافع عن ابن عمر قال : وجه عمر جيشا ورأس رجلا يدعى سارية، فبينما عمر يخطب جعل ينادى: ياسارية الجبل ثلاثا ، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال: يأمير المؤمنين هزمنا ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتا ينادى : ياسارية الجبل ، ثلاثا. فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم الله، قال : قيل لعمر : إنك كنت تصيح بذلك

وذلك الجبل الذى كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم . (قال ابن الحجر فى الأعيان : والحديث إسناده حسن)

٥- أخرج أحمد والترمذى والحاكم والطبرانى قال ﴿ﷺ وآله﴾ " لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب " .

٦- أخرج الترمذى وابن ماجة والحاكم فى المستدرك وابن عدى وابن عساكر عن أنس عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال :" أشد أمتى فى أمر الله عمر " .

أقوال الصحابة والسلف الصالح فى فضله :

كان الرعيل الأول لهذه الأمة يعرفون حق الأخوة الإيمانية حق المعرفة، فكان كل واحد منهم يعرف قدر الآخر وينزله المنزلة اللائقة به ، وها هم يكشفون لنا مكانة الفاروق ﵁ و ﵃ أجمعين .

١- قال الصديق أبو بكر ﵁ ما على ظهر الأرض رجل أحب إلى من عمر . وقيل لأبى بكر فى مرضه:ماذا تقول لربك وقد وليت وعمر ؟ قال : أقول له وليت عليهم خيرهم.

٢-أخرج ابن منيع فى مسنده عن الإمام على قال : كنا أصحاب محمد لا نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر .. ولما دخل الإمام على الفاروق وهو مسجى قال : رحمة الله عليك ما من أحب إلى أن ألقى الله بما فى صحيفته بعد صحيفة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من هذا المسجى .

٣- قال ابن عمر : ما رأيت أحدا قط بعد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من حين قبض أحدّ ولا أجود من عمر .

٤- سئل ابن العباس عن عمر فقال : كان كالطير الحذر الذى يرى أنه له بكل طريق شركا يأخذه . وسئل عن على فقال : مليء عزما وحزما وعلما ونجدة .

٥– جاء عبد الله بن سلام وقد صلى على عمر فقال : والله لئن كنتم سبقتمونى بالصلاة عليه لا تسبقونى بالثناء عليه نعم أخو الإسلام كنت ياعمر ، جوادا بالحق ، بخيلا بالباطل ، ترضى حين الرضى ، وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ،طيب الظرف ، لم تكن مداحا ولا مغتابا .

٦ –قال طارق بن شهاب : كان رأى عمر كيقين رجل .

الصوفى الأنور

١– قيل التصوف هو : ركوب الصعب فى جلاء الكرب .

ويتحقق هذا المعنى فى الفاروق ﵁ يوم أحد عندما جاء أبو سفيان بن حرب فقال : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا تجيبوه ،ثم قال : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا تجيبوه ، ثم قال الثالثة : أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ثلاثا ؟ فلم يجيبوه ، ثم قال : أفيكم عمر بن الخطاب ثلاثا ؟ فام يجيبوه ، فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت ياعدو الله ، ها هو ذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأبو بكر ، وأنا ، أحياء ولك منا يوم سوء . فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وقال : أعل هبل . فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لعمر قل : الله أعلا وأجل . فقال أبو سفيان . لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ لعمر : قل الله مولانا ولا مولى لكم .

٢– التصوف هو : الوصول بما علن إلى ظهور ما بطن .

ويتحقق هذا المعنى فى الفاروق لما سأله ابن عباس ﵄ أجمعين لأى شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام ، ثم شرح الله صدرى للإسلام ، فقلت:الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما فى الأرض نسمة أحب إلى الله من نسمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قلت أين رسول الله؟ قالت أختى : هو فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند

الصفا ، فأتيت الدار وحمزة أصحابه جلوس فى الدار ، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى البيت فضربت الباب فاستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر ، قال : فخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخذ بمجامع ثيابه ثم نثره فما تمالك أن وقع على ركبته ، فقال :"ما أنت بمنته ياعمر ؟" قال : فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

قال : فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد . فقلت : يارسول الله ألسنا على حق إن متنا وإن حيينا ؟ قال :"بلى" ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن مت وإن حييتم " . فقلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه فى صفين حمزة في أحدهما وأنا فى الآخر ، له كديد – الغبار الذى يخرج من أثر السير – ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يومئذ الفاروق . وفرق الله به بين الحق والباطل . (أخرجه أبو نعيم فى الدلائل ، وابن عساكر ، وابن حجر الهيتمى فى الصواعق) .

والسادة الصوفية يستدلون على فعل المسيرات فى الموالد والاحتفالات بهذه المسيرة التى قام بها سيدنا عمر وسيدنا الحمزة فى شوارع مكة .

٣- التصوف هو : الموافقة للحق، والمفارقة للخلق .

ينطبق هذا المعنى على الفاروق عمر لأنه بعد أن أخلى همه فى مفارقة الخلق، وأنزل الله تعالى الوحى فى موافقته للحق ، وبشهادة الإمام على كرم الله وجهه حيث قال : كنا نتحدث أن ملكا ينطق على لسان عمر ﷺ .

وأخرج الطبرانى وأحمد والترمذى والحاكم وأبو يعلى عن أبي هريرة أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال :"إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه "

٤- التصوف هو : النبو عن رتب الدنيا ، والسمو إلى المرتبة العليا .

ويتحقق هذا فى الفاروق عمر لما قدم إلى الشام لاستلام مفاتيح بيت المقدس فعرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ونزع خفيه فأمسكها ، وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : لقد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض . فصك فى صدره وقال : أوه لو غيرك يقول هذا ياأبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس فأعزكم الله برسوله ، فمهما تطلبون العز بغيره يذلكم الله .

وثنا الأوازعى أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج فى سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوزة عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا يأتينى بما يصلحنى ، ويخرج عنى الأذى ، فقال طلحة : ثكلتك أمك ياطلحة أعثرات عمر تتبع!

٥- التصوف هو : حمل النفس على الشدائد ، الذى هو من أشرف الموارد .

ويتحقق ذلك فى الفاروق عمر لأنه كان عن فناء الملاذ منتهيا ، ولباقى المعاد مبتغيا ، يلازم المشقات ، ويفارق الشهوات ، ففى عام الرمادة حرم الفاروق عمر على نفسه السمن ، فكانت بطنه تقرقر فينقر بطنه بأصبعه ويقول : تقرقر ما تقرقر إنه ليس لك عندنا غير الزيت حتى يحيا الناس .

وكان الفاروق عمر يقول : الله لو شئت لكنت من ألينكم لباسا ، وأطيبكم طعاما ، وأرقكم عيشا ، إنى والله ما أجهل عن كراكر وأسنمة ، وعن صلاء وصناب وصلابق ، ولكنى سمعت الله عز وجل عير قوما بأمر فعلوه فقال : .

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾.(الأحقاف : ٢٠) .

ويذكر الشعرانى فى الطبقات : أنه أبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة فاعتذر للناس وقال : إنما حبسنى عنكم ثوبى هذا كان يغسل وليس عندى غيره .

وعن عبد الله بن عيسى قال : كان فى وجه عمر خطان أسودان من البكاء .

وقال هشام بن الحسن : كان عمر يمر بالآية فى ورده فتخنقه فيبكى حتى يسقط ، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضا .

وكان الفاروق عمر يقول : لو نادى مناد من السماء أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلا واحدا ، لخفت أن أكون هو ، ولو نادى مناد أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون هو .

خلافتــه وفتوحــاته :

إذا ثبت الإجماع ونصوص الكتاب والسنة على حقية خلافة أبى بكر ، فيلزم قيام الإجماع ونصوص الكتاب والسنة على حقية خلافة عمر ، لأن الفرع يثبت له من حيث كونه فرعا ما ثبت للأصل ، فحينئذ لا مطمع فى النزاع فى حقية خلافة عمر .

لقد توفى أبو بكر الصديق ﷺ مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة ، فاستقبل عمر بخلافته يوم الثلاثاء صبيحة وفاة أبى بكر واستمرت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال فقام بالأمر أتم قيام وكثرت الفتوحات فى أيامه ، فقد فتحت بلاد الشام (سوريا والأردن وفلسطين وبيت المقدس) والعراق ومصر وأذربيجان وليبيا و أصبهان وبلدان كثيرة فى إيران .

وفــاتــه :

كان سيدنا عمر لا يأذن لصبى قد احتلم من غير المسلمين فى دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر غلاما عنده يحسن أعمالا كثيرة فيها منافع للناس كالحدادة والنقش والنجارة ، ويصنع الأرحاء .. فأذن له فى دخول المدينة ، واسمه أبو لؤلؤة – وهو مجوسى – فجاء لعمر يشتكى من ثقل خراجه ، وهو أربعة دراهم كل يوم فقال له : ما خراجك بكثير . فانصرف مغضبا وقال : وسع الناس كلهم عدله غيرى ، ثم بعد يسير أرسل إليه عمر فقال له : ألم أخبر أنك تقول : لو

شاء لصنعت رحا تطحن بالريح ؟ فالتفت إلى عابسا وقال : لأصنعن لك رحا يتحدث الناس بها . فلما ولى قال عمر لأصحابه : أوعدنى العبد آنفا ، وكان كذلك فأضمر قتله وأعد خنجرا وشحذه وسمه ، ثم كمن له فى الغلس بزاوية من زوايا المسجد حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة ، وكان يأمر بتسوية الصفوف قبل تكبيرة الإحرام ، فجاء أبو لؤلؤة إلى أن دنا من عمر فضربه بذلك الخنجر ثلاثا فى كتفه وخاصرته ، فوقع عمر ، وطعن معه ثلاثة عشر رجلا فمات منهم ستة ، فألقى عليه رجل من العراق – وقيل عبد الرحمن بن عوف – ثوبا فلما اغتم فيه قتل نفسه ، وحمل عمر إلى أهله فقال : الحمد لله الذى لم يجعل قتلى إلا على يد رجل لم يسجد لله سجدة واحدة ، ياعبد الله اذهب إلى عائشة فاسألها هل تأذن لى أن أدفن مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأبى بكر ، فأذنت له .

وقال الفاروق: لقد جعلتها شورى فى ستة انتقل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهو راض عنهم: عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد ،وأمر صهيبا الرومى أن يصلى بالناس ، وأجل الستة ثلاثا ، وكانت إصابته يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ودفن يوم الأحد ، وصلى عليه صهيب الرومى ، وكان عمره ﵁ وأرضاه ثلاثا وستين سنة وهو نفس عمر الصديق أبو بكر ﵁ ، ومن قبلهما المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾

ثالث العشرة

ذو النورين الأوحد سيدنا عثمان بن عفان ﵁

القانت ذو النورين، والخائف ذو الهجرتين، والمصلى إلى القبلتين.. كان من الذين ﴿ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ (المائدة: ٩٣). فكان ممن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. غالب

أحواله الكرم والحياء، والحذر والرجاء.. حظه من النهار الجود والصيام ، ومن الليل السجود والقيام.. مبشر بالبلوى ، ومنعم بالنجوى.

زوجه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ اثنتين من بناته وخصه، فلم يحظ أحد بزواج ابنتى نبى غيره.. ثالث الخلفاء، ذى الصدق والوفا، والكرم والصفا، لم يقدر إلا عفا .. أعلى الله فى الفردوس أرائكه، واستحيت من جلالته الملائكة.. سمير الحق وأليفه، ومزهق الباطل ومزيقه.. مشيد أركان الإيمان، ومرتل القرآن ، أمير المؤمنين أبو عبدالله عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يلتقى هو ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى عبد مناف ، فبين سيدنا عثمان وعبد مناف أربعة آباء، وبين النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وعبد مناف ثلاثة آباء فهو أقرب الخلفاء الأربعة إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بعد سيدنا على كرم الله وجهه.

أمه: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمها أم حكيم بنت عبد المطلب ، وأسلمت رضى الله عنها قديما و هاجرت الهجرتين.

مولده ونشأته: ولد سيدنا عثمان ﵁ بالطائف فى السنة السادسة من عام الفيل، ونشأ فى نعمة عيش ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف العيش قط فى صباه أو طفولته .. وكان أبوه تاجرا واسع التجارة، وكان يحمل قوافله إلى الشام على دأب الأكثرين من تجار بني أمية وفى إحدى الرحلات التجارية توفى عن ثروة عظيمة وترك ابنه بين الصبا والشباب.

كنيته: كان سيدنا عثمان يكنى فى الجاهلية أبا عمرو ، فلما ولدت له فى الإسلام السيدة رقية ابنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غلاما سماه عبد الله واكتنى به .

وقيل : ولدت له السيدة رقية ولدا سماه عبد الله فاكتنى به فتوفى ، ثم ولد له عمرو فاكتنى به إلى أن لقى به .

لقبـــه : لقب ﵁ بذى النورين ، وسأل سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن سيدنا عثمان فقال : (فذاك امرؤ يدعى فى الملأ ذا النورين ، كان ختن – صهره ونسيبه – رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على ابنتيه)

وسئل المهلب بن أبى صفرة : لم قيل لعثمان ذو النورين ؟ قال : لأنه لم يعلم أحد تزوج ابنتى نبى غيره .

١) وقال الإمام أبو الحسن القزوينى فى تسميته بذى النورين ثلاثة أقوال :

٢) لم يعلم أحد تزوج ابنتى نبى غير عثمان .

٣) كان عثمان يختم القرآن فى الوتر ، فالقرآن نور وقيام الليل نور .

كان لعثمان ﵁ سخاءان : أحدهما قبل الإسلام والثانى بعده .

وكان نقش خاتمه : آمنت بالله مخلصا ، وقيل : آمنت بالذى خلق فسوى .. وكان فى يده خاتم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يطبع به إلى أن وقع فى بئر أريس كما تقدم .

أولاده وزوجاته :

أما أولاده ﵁ فستة عشر،تسعة من الذكور وسبع من الإناث ، وأما زوجاته فثمانية كما يلى :

كان له من الولد عبد الله بن السيدة رقية بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وعبد الله الأصغر .. لأمه فاختة بنت غزوان ، وعمرو وخالد وأبان وعمر ومريم الكبرى .. وأمهم أم عمرو بنت جندب من الأزد ، والوليد وسعيد وأم سعيد .. أمهم فاطمة بنت الوليد ، وعبد الملط .. أمه أم البنين بنت عينية بن حصن وقد حضرت جنازته ﵁ ،وعائشة وأم أبان وأم عمرو .. أمهن رملة بنت شيبة بن ربيعة ، ومريم الصغرى .. أمها نائلة بنت الفرافصة وهى التى حضرت مقتل وجنازة سيدنا عثمان ﵁ ، وأم البنين .. أمها أم ولد .

ويتعذر القطع أو الإثبات فى مشاركة زوجاته للسيدة رقية أو أختها السيدة أم كلثوم ابنتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وإن أمكن القول بأنه تزوج امرأة أو أكثر قبل السيدة رقية ، ثم تزوج غير واحدة بعد السيدة أم كلثوم .

أما عبد الله : ابن السيدة رقية توفى صغيرا ، وقيل : ست سنين .

أما عبد الله الأصغر : فكان أشرفهم عقبا وولدا وتوفى بمنى .

وأما أبان : ويكنى أبا سعيد وهو من رواة الحديث وشهد حرب الجمل مع السيدة عائشة، ولى المدينة فى أيام عبد الملك بن مروان ، وتوفى فى خلافة يزيد ابن عبد الله وعقبه كثير وكان له ولد فى الأندلس.

وأما خالد: فكان فى يده وأولاده المصحف الذى قطر عليه دم عثمان يوم قتل، وتوفى فى خلافة أبيه بركض دابة ، وله عقب وهو الذى يقال له الكسير.

وأما عمرو : فله عقب وأمه بنت جندب من الأزد.

وأما سعيد والوليد: أمهما بنت الوليد وكان سعيد يكنى أبا عثمان ، ولاه معاوية على خراسان وكان حاكما بها من قبل معاوية وقتل هناك .

وأما عبد الملك : توفى غلاما .

وأما عائشة : فقد تزوجها الحارث بن الحكم بن أبى العاص ثم خلف عليها بعده عبد الله بن الزبير .

وأما أم أبان : فقد تزوجها مروان أبن الحكيم بن أبى العاص .

وأما مريم الصغرى : فقد تزوجها عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط

إسلامـــــه:

كان سيدنا عثمانؓ أول الناس إسلاما بعد السادة أبى بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة .. وكان هو الرجل الأول من بنى أمية إسلاما .

وكان إسلامه عجيبا فيما ذكر الحافظ ابن عساكر ، وملخص ذلك : أنه لما بلغه أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ زوج ابنته السيدة رقية ، وكانت ذات جمال ، من ابن عمه عتبة ابن أبي لهب ، تأسف إذ لم يكن هو زوجها ، فدخل على أهله مهموما فوجد عندهم خالته سعدية بنت كريز، وكانت كاهنة، فبشرته بزواجه من السيدة رقية، قال عثمان: فعجبت من أمرها حتى تبشرني بالمرأة وقد تزوجت بغيري، أي: ولم يدخل بها، فقلت: أيا خالة ما تقولين؟! قالت: عثمان لك الجاه، ولك الشأن، هذا النبي معه البرهان، أرسله بحقه الديان، وجاءه التزيل والفرقان، فاتبعه لا تغتالك الأوثان .

قال عثمان: فانطلقت مفكراً فلقيني أبو بكر ﵁ فأخبرته، قال: ويحك ياعثمان إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأصنام التي يعبدها قومك، أليست من حجارة صمّ لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟! قلت: بلى والله لكذلك. فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله، قد بعثه الله إلى خلقه برسالته، هل لك أن تأتيه؟ فاجتمعنا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: "يا عثمان، أجب الله إلى حقه، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه". قال: فو الله ما تمالكت نفسي منذ سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فكان يقال:

أحسن زوج رآه إنسان   رقية وزوجها عثمان

وقد روى ﵁ مائة حديث وستة وأربعين حديثاً منها ثلاثاً في البخاري ومسلم، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بخمسة .

فضائله ﵁ في القرآن الكريم:

١–قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ (البقرة: ٢٦٢). قال أبو سعيد الخدري: رأيت النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ رافعاً يديه يدعو لعثمان يقول: "يارب عثمان إني رضيت عن عثمان فارض عنه" فما زال يدعو حتى طلع الفجر فنزلت: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ... ﴾ الخ الآية .

٢–قال تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ (الزمر:٩). أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ ... ﴾ قال: نزلت في عثمان بن عفان ..

٣–قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:٧٦). قال الإمام فخر الدين الرازي: المراد من هذا الأبكم هو عبد لعثمان بن عفان، كان ذلك العبد يكره الإسلام وما كان فيه خير، ومولاه عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم ..

وقال ابن عباس: نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما .

فضائله ﵁ في السنة الشريفة:

كان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سباقين دائماً إلى الخير وفعله.. فقد كان النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يترل كل واحد منهم المترلة التي تليق به وتبين فضله ليقتدي به كل من أراد السعادة في الدنيا والآخرة .

١–أخرج أبو يعلى والطبراني عن أنس قال: أول من هاجر إلى الحبشة بأهله عثمان فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط".

٢-أخرج ابن عساكر عن ابن عمر، وابن عدي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما زوج النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ابنته أم كلثوم بعثمان قال لها: "إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد" .

٣-أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال: " ألا أستحي من رجل تستحيى منه الملائكة " .

٤-أخرج أبو نعيم في الحيلة عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " أشد أمتي حياءً عثمان بن عفان " .

٥-أخرج الخطيب عن ابن عباس، وابن عساكر عن عائشة أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " إن الله تعالى أوحى إليّ أن أزوج كريمتي – يعني رقية وأم كلثوم- من عثمان " وهذه خصوصية انفرد بها سيدنا عثمان بن عفان ﷺ من لدن آدم ﷺ إلى قيام الساعة فلم يتزوج أحد ابنتي نبي غيره ﷺ .

٦-أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة عن عائشة أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لعثمان: " ياعثمان إن الله مقمصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حى تلقاني ". وهذا من الأحاديث الظاهرة في خلافته الدالة دلالة واضحة على حقيقتها لنسبة القميص في الحديث المكني به عن الخلافة إلى الله تعالى .

٧-أخرج الترمذي عن طلحة، وابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان " .

٨-أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " ليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفاً – كلهم قد استوجبوا النار – الجنة بغير حساب " .

٩-أخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم فقال: أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، ألستم تعلمون أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " من جهز جيش العسرة فله الجنة ". فجهزهم، ألستم

تعلمون أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: " من حفر بئر رومة فله الجنة ". فحفرها.. فصدقوه بما قال.

١٠-أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره فجعل رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ يقبلها ويقول: " ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم " .

١١-أخرج الترمذي عن أنس قال: لما أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ببيعة الرضوان كان عثمان رسول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى مكة فبايع الناس فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: " إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسول الله ". فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

١٢-أخرج ابن عساكر عن سيدنا عليّ كرم الله وجهه قال سمعت النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول لعثمان: " لو أن لي أربعين ابنة لزوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا تبقى منهن واحدة " .

١٣-أخرج الترمذي عن ابن عمر قال: ذكر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فتنة فقال: " يقتل فيها هذا مظلوماً لعثمان " .

١٤-روى البخاري بسنده عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القوم؟ قال: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: ياابن عمر .. إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر.. قال ابن عمر: تعالى أبين لك ..

– أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له .

– وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكانت مريضة، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: " إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه " .

– وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلا كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة. فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيده اليمنى: " هذه يد عثمان ". فضرب بها على يده.. فقال هذه لعثمان، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك .

أقوال السلف الصالح من فضله:

كان السلف الصالح رضي الله عنهم يذكرون دائماً فضائل سيدنا عثمان ﵁، وكانت له عندهم منزلة سامية، وهذه هي بعض أقوالهم فيه:

١–قد صح عن أبي بكر الصديق ﵁ أنه أملى على عثمان وصيته عند وفاته فلما بلغ ذكر الخليفة أغمى عليه .

فكتب عثمان: (عمر)، فلما أفاق قال: من كُتب؟ قال: "عمر" فقال: لو كتبت لكنت لها أهلاً .

٢–قد صح عن عمر أنه جعله في أهل الشورى، وشهد له أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ توفي وهو عنه راض .

٣–قال أبو هريرة: اشترى عثمان الجنة من النبي ﴿ﷺ وآله﴾ مرتين حين حفر بئر رومة، وحيث جهز جيش العسرة .

٤–أخرج ابن عساكر عن الحسن بن عليّ أنه ذكر عنده حياء عثمان فقال: إن كان ليكون في جوف البيت والباب عليه مغلق فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه .

٥–قال الشعراني في الطبقات: كان سيدنا عثمان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله، وكان يختم القرآن في كل ركعة كثيراً، وكان يخطب في الناس وعليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة، وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته يأكل الخل والزيت، وكان يردف غلامه خلفه في أيام خلافته ولا يستعيب ذلك، وكان إذا مر على مقبرة بكى حتى تبتل لحيته .. ﷺ .

الصوفي الأمجد

١–قيل التصوف هو: الإكباب على العمل، تطرقاً إلى بلوغ الأمل .

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا عثمان ﷺ فقد كان مبشراً بالمحن والبلوى، ومحفوظاً فيها من الجزع والشكوى، يتحرز من الجزع بالصبر، ويتبرر في المحن بالشكر .

قال محمد بن حاطب: ذكر عثمان بن عفان فقال الحسن بن عليّ: الآن يجيء أمير المؤمنين، قال: فجاء عليّ فقال: كان عثمان من الذين ﴿ اتَّقَواْ وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَواْ وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ٩٣) .

قال محمد بن سيرين: قالت امرأة عثمان بن عفان حتى أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن .

٢–التصوف هو: الصبر على مرارة البلوى، ليدرك به حلاوة النجوى .

ويتحقق ذلك في سيدنا عثمان ﷺ فيما أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري: كنت مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في حائط من تلك الحوائط، إذ جاء رجل فاستفتح الباب، فقال: " افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ". فإذا هو عثمان، فأخبرته فقال: الله المستعان. قال أبو قيس بن أبي حازم حدثني أبو سهلة: إن عثمان قال يوم الدار حين حصر: إن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ عهد إليّ عهداً فأنا صابر عليه. قال قيس:

فكانوا يرونه ذلك اليوم، يعني اليوم الذي قال ﴿ ﷺ وآله﴾: " وددت أن عندي بعض أصحابي فشكوت إليه، فقيل له: ألا ندعو لك أبا بكر؟

فقال: لا، قيل: عمر؟ قال: لا، قيل: فعلي؟ قال: لا، فدعى له عثمان فجعل يناجيه ويشكو إليه، ووجه عثمان يتلون " أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذي .

قال عبد الرحمن بن مهدي: كان لعثمان شيئان ليس لأبي بكر ولا عمر مثلهما.. صبره على نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف .

٣-التصوف هو: ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضيلة .

ويتحقق هذا أيضاً في سيدنا عثمان فيما ذكره مسروق عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان بن عفان يوم جيش العسرة جائياً وذاهباً. فقال: " اللهم اغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن، وما أسر وما أجهر " .

قال يونس بن عبيد: إن الحسن سئل عن القائلين في المسجد فقال: رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة، قال: ويقوم وأثر الحصى بجنبه. قال فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بلغني أن عثمان قال: لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتها يؤمر لي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتها أصير .

وقال الليث بن سعد أن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: إنهم كانوا مع عثمان ﷺ في الدار فقال: وأيم الله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام وما ازددت للإسلام إلا حياء .

قال عقبة بن صبهان: سمعت عثمان بن عفان يقول: ما أخذته بيميني منذ أسلمت – يعني ذكره .

خلافته وفتوحاته:

جعل الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة بعده شورى في ستة انتقل النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وهم عنهم راض وهم السادة: عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن

وسعد.. ولما فرغ الصحابة من دفنه رجعوا واجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير بن العوام: قد جعلت أمري إلى علي، وقال سعد بن أبي وقاص: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، وقال طلحة بن عبيد الله: قد جعلت أمري إلى عثمان فخلا هؤلاء الثلاثة.. فقال عبد الرحمن بن عوف: أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الأمر ونجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه وليحرص على صلاح الأمة، فسكت الشيخان على وعثمان، فقال عبد الرحمن: اجعلوه إلى والله على أن لا آلوكم عن أفضلكم. قالا: نعم، فخلا بعلي وقال: لك التقدم في الإسلام والقرابة من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما قد علمت، والله عليك لئن أمر تك لتعدلن ولئن أمرت عليك لتسمعن ولتطيعن.. قال: نعم، ثم خلا بعثمان فقال له كذلك.. فلما أخذ ميثاقهما بايع عبد الرحمن عثمان بن عفان وبايعه على ابن أبي طالب وبايعه المهاجرون والأنصار، وكانت مبايعته بعد وفاة عمر بثلاث ليال.

فثبت بذلك جميعه صحة بيعة سيدنا عثمان وإجماع الصحابة عليها وأنه لا مرية في ذلك ولا نزاع فيه، وأن سيدنا علياً كرم الله وجهه من جملة من بايعه وأثنى عليه، وقد غزا معه وأقام الحدود بين يديه.. ومبايعة الإمام علي له ليست كما يقول مدعو التشيع للتقية فإن ذلك شيء باطل لا يترك بما يعلم من الظاهر.

بويع سيدنا عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين، وعاش في الخلافة اثنتي عشرة سنة – قال أبو معشر – إلا اثنتي عشرة ليلة .

وسيدنا عثمان هو صاحب الفتوحات الإسلامية الخالدة ففي عهده فتحت الرى، وقبرص، وأرجان، وأفريقيا، والأندلس، وبلاد كثيرة من أرض خراسان، ونيسابور، وطوس، وسرخس، ومرو .. وغيرها، ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر المال على

سيدنا عثمان وأتاه من كل وجه حتى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف أوقية .

ظلموه فقالوا:

بعد كل هذه الأيادي البيضاء لسيدنا عثمان ﷺ لم يسلم من أحقاد الحاقدين فتمادى الظالمون فجمعوا له من نثار الأحداث التي يتعرض لها أي حاكم، ويخوله منصبه التصرف فيها في حدود القانون وصوروها تصويراً ذاتياً ظالماً.. وسلبوه سلطانه فيها.. وبالتالي بدا – عثمان المظلوم – وكأنه ظالم معتد منتقم لنفسه لا لحدود الله، وحاشا عثمان أن يكون كذلك .

أخرج ابن عساكر عن الزهري قال: قلت لابن المسيب: هل أنت مخبرى كيف كان قتل عثمان وما كان شأن الناس وشأنه؟ ولم خذله بعض أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾؟ فقال ابن المسيب: قتل عثمان مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً ، ومن خذله كان معذوراً .

وأخرج ابن عساكر عن أبي ثور الفهري قال: دخلت على عثمان وهو محصور فقال: لقد اختبأت عند ربي عشرا: (إني لرابع أربعة في الإسلام، وأنكحني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ابنته ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، وما تغنيت، ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وما مرت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن يكون عندي شيء فأعتقها بعد ذلك، أي: فجملة ما أعتقه ألفان وأربعمائة رقبة .

ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾) .

وأخرج عبد الرزاق أن عبد الله بن سلام كان يدخل على محاصري سيدنا عثمان فيقول: لا تقتلوه فو الله لا يقتله رجل منكم إلا لقى الله أجذم لا يد له، وإن سيف الله

لم يزل مغموداً وإنكم والله إن قتلتموه ليسلنه الله ثم لا يغمد عنكم أبداً، وما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفا، ولا قتل خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا قبل أن يجتمعوا .

وقد وفد على أبي ذر – وهو بالربذة – وفد من الكوفة، يسألونه رفع راية الثورة، فقال لهم: (والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو حبل لسمعت، وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت ذلك خيراً لي) .

كان خلاف الصحابة فيما بينهم خلافاً اجتهادياً يدور في فلك الشورى والنصيحة لولى أمر المسلمين، والحوار حول قضية مصلحة الأمة الإسلامية التي مثّل عهد سيدنا عثمان طفرة جديدة من طفرها الجغرافية والحضارية.. وصدق سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه، حين خاطب الناس على سمع من قتلة سيدنا عثمان، فتطرق لقتل عثمان وقتلته فقال: (ثم حدث هذا الحادث الذي جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاء الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها) .

هؤلاء هم قتلة سيدنا عثمان على حقيقتهم – كما وصفهم سيدنا عليّ – وكما دلت عليهم أحوالهم .

وفاته:

طال حصار الثوار لدار عثمان، وساءت معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاة في مسجد النبي وحالوا دون وصول الماء إليه، فأرسل عثمان إلى بعض أصحاب النبي وأمهات المؤمنين يطلب إليهم أن يمدوه بحاجته من الماء، فسارع سيدنا عليّ إلى تلبية رغبته، وأقبل على الثوار، وقال لهم: (إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي، وما تعرض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصره وقتله؟ قالوا: " لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ولا يشرب" .

قيل: إن الحصار استمر أربعين يوماً. وكان سيدنا عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين الفتنة ويذكرهم بآيات الله، فلا يحفلون به. وبينما هو على هذه الحال، إذ دعاه رجل من الصحابة يدعى نيار بن عياض الأسلمي أن يخلع نفسه من الخلافة، فرماه كثير بن الصلت الكندي – أحد الذين كانوا يدافعون عن عثمان – بسهم أصاب منه مقتلاً، فطلب الثوار من عثمان أن يسلمهم قاتل ابن عياض ليقتلوه به، فأبى عثمان تسليمه لهم، وقال: (لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي)، ولم يلبث الثوار أن أقدموا على مهاجمة دار عثمان وأشعلوا النار في بابها والسقيفة التي عليه، فخرج عليهم أصحاب عثمان يقاتلوهم ويصدوهم عن الدار.. ودار بين الفريقين قتال عنيف، أصيب فيه كثير من أنصار عثمان بجراح وقتل آخرون.. ولم يكتف الثوار بذلك، بل أخذوا يتسللون إلى دار عثمان عن طريق دار عمرو بن حزم الأنصاري، فوجدوا عثمان يقرأ في المصحف سورة البقرة. فرفع كنانة بن بشر – وهو من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي دعى التشيع – مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف بيده فقطعها، كما أكبت عليه زوجه نائلة بنت الفرافصة وتلقت السيف عنه بيدها، فقطع إصبعها، وما لبث كنانة هذا أن قتل بعد عامين في الحرب التي دارت بين محمد بن أبي بكر – نائب سيدنا علي على مصر – وبين عمرو بن العاص سنة ٣٨هـ. وضرب سودان بن حمران المرادي – وهو من أتباع عبد الله بن سبأ أيضاً – سيدنا عثمان في جنبه فخر صريعاً. وكان ذلك في يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ. وعمره اثنتان وثمانين سنة، ثم هجم العامة على الدار فنهبوا كما نهبوا بيت المال .

ولم يسمح الثوار في بادئ الأمر بدفن سيدنا عثمان، فظل ثلاثة أيام دون دفن، وطلب بعض القرشيين من سيدنا علي بن أبي طالب أن يتوسط لدى الثوار ليسمحوا بدفنه، فأذنوا .

ولم يشهد جنازته سوى مروان بن الحكم، وجبير بن مطعم "وهو الذي صلى عليه". وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، ونيار بن مكرم، وزوجتى عثمان نائلة بنت الفرافصة، وأم البنين بنت عيينة .

وحاول الدهماء قذف جنازة عثمان بالحجارة، فنهرهم على بن أبي طالب، وهرع القوم بالجثمان ليواروه متخذين من الظلام ستاراً يحجبهم عن عيون الظلام .

رحم الله سيدنا عثمان.. الشهيد.. المبشر بالجنة على بلوى تصيبه .

وأي بلوى أكثر من تسلط الغوغاء على الخاصة، والرعاع على السادة، والمرتزقة النفعيين على المخلصين ذوى الأفضال المشهود بها، والأيادي التي لا ينكرها أحد .

ثالث العشرة

الإمام الأكرم سيدنا علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه

سيد القوم: محب المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والجود.. ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات.. راية المهتدين، ونور المطيعين، وولي المتقين، وإمام العادلين.. أقدسهم إجابة وإيماناً، وأقومهم قضية وإيقاناً.. وأعظمهم حلماً، وأوفرهم علماً.. زينة العارفين، قدوة الواصلين.. المنبئ عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوامع علم التفريد.. صاحب القلب العقول، واللسان السؤول.. والأذن الواعي، والعهد الوافي.. فقأ عيون الفتن، ووقى من فنون المحن.. فدافع الناكثين، ووضع القاسطين، ودمغ المارقين.. الأخيشن في دين الله، الممسوس في ذات الله .

بطل الأبطال، من تمادى على أهل الزيغ واستطال.. سيف الله المسلول، وابن عم الرسول، وزوج الطاهرة البتول.. الطيب المناقب، فارس المشارق والمغارب، والنجم الثاقب، أمير المؤمنين أبي الحسنين علي بن أبي طالب .

قد يعرف التاريخ أبطالاً للمعارك يقاس مجدهم ويرتفع شأنهم بمقدار ما أحرزوا من نصر، وما أبرزوا فيه من معارك ولا شيء وراء ذلك .

وقد يعرف التاريخ زعماء تجمع حولهم الأتباع وتعصبت لهم الأهواء، ويذكرون في التاريخ تنويها بقدرهم عند أتباعهم، وذكرا لمكانتهم عند محبيهم ولا ذكر لهم إلا ذلك.. وقد يعرف التاريخ حكاماً، وملوكاً وأمراء ساسوا في الناس أو بعضهم فيذكر لهم عصرهم في الملك ودورهم في السلطة ولا حديث عنهم بعد حديث الملك والسلطان.. وقد يعرف التاريخ علماء وفقهاء وقضاة ومفكرين يذكر لكل منهم دوره فيما تفوق فيه مقارناً بسابق أو لاحق أو ند و نظير ثم لا يعرف له مكان في غير تخصصه وفنه .

ولكن فتى كالإمام علي كرم الله وجهه تجده في كل هؤلاء ولا تجده من بينهم، لأنه سبقهم فلم يدركوه، وفاقهم فلم يلحقوه، وتفرد عنهم بأنك تجده في كل ذلك رأسا لا تالياً، وتجد كل هذه العبقريات عنده، وهي تكاد تتناقص إلا في نفس هذا الإنسان الفذ العجيب .

فهو بطل حرب، ولكن حربه يحكمها الفقه، ويحركها العلم، ويصونها العفاف. وهو زعيم متبوع، ولكنها زعامة أساسها الورع، وعمادها الخضوع، ولا تعرف إلى التطاول سبيلاً. وهو خليفة رائد، وأمير حاكم، ولكن في تواضع الزهاد، وضبط العلماء، وعدل القضاة، ويقين العرفان بالله .

وهو عالم ذو فهم، وفقيه ذو رأي، وإمام العلماء الربانيين، وقائد ذو بصيرة لم يفسد علمه بالإمرة، ولا مال فقهه بالسلطة، ولا جار قضاؤه لرضى الأتباع، وهو الفتى الذي

لم يفارق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منذ أن نشأ في حجره ﴿ﷺ وآله﴾ إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى .

وهو يعرف هذا الشرف ويعتز به حيث يقول: (تعلمون موضعي من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالقرابة القريبة، والمترلة الخصيصة، وضعني في حجره ﴿ﷺ وآله﴾ وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني فراشه، ويمسني جسمه ويشمني عرفه، وما وجد لي من كذبة في قول، ولا خطلا في فعل، وكنت أتبعه أتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من صفاته علما، ويأمرني بهذا الاقتداء) .

الإمام علي تاريخ ومعالم:

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، يلتقي هو ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في عبد المطلب، وهو ابن عم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ولذلك فهو أقرب الخلفاء الأربعة إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وزوج ابنته وأحب عترته إليه، كما كان كاتب وحيه، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته، وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه .

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف تجتمع مع أبي طالب في هاشم جد النبي ﴿ﷺ وآله﴾، أسلمت بعد عشر من المسلمين، وهاجرت مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾، وتوفيت مسلمة، وكفنها النبي ﴿ﷺ وآله﴾ بقميصه لأنها كانت عنده بمترلة أمه، وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ أسامة بن زيد، وأبا أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وغلاماً أسود فحفروا روضتها بالبقيع، فلما بلغوا لحدها حفره رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيده الشريفة وأخرج ترابه، فلما فرغ اضطجع فيه وقال: "اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين". فقيل: يارسول الله رأيناك صنعت شيئاً لم تكن صنعته بأحد قبلها فقال ﴿ﷺ وآله﴾: "ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها ليخفف

عنها من ضغطة القبر لأنها كانت من أحسن خلق الله تعالى صنعاً إلى بعد أبي طالب" رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وابن حبان، والحاكم، والهيثمي في مجمع الزوائد .

مولده ونشأته: ولد كرم الله وجهه، بالبيت الحرام بمكة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب قبل البعثة بعشر سنين، ولم يذكر التاريخ أن أحدا ولد ببيت من بيوت الله قبله.. وتربى في كنف النبي ﴿ ﷺ وآله﴾.. وأسلم وهو بعد صبي، ولم يسجد لصنم قط، وآخى الرسول بينه وبين الإمام علي وقال له: "وأنت أخي في الدنيا والآخرة ".. ولما كانت ليلة الهجرة افتداه بنفسه ونام في سريره تمويها للمشركين الذين تربصوا به ليقتلوه. فكان أول من باع نفسه لله في الإسلام. وشهد مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المشاهد كلها إلا غزوة تبوك، إذ خلفه ﴿ ﷺ وآله﴾ في أهله، وقال له: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي؟!" .. وكان أول المبارزين يوم بدر، وممن ثبت يوم أحد وحنين، وعلى يديه فتحت خيبر بعد أن طال حصارها.. وكان آخر الناس عهداً برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في مرضه الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى، وهو الذي ولى غسله ونزل لحده فيمن نزل .

وكان نقش خاتمه: الله الملك .

أحاديثه: وروى عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ خمسمائة حديث، وروى عنه من التابعين خلائق مشهورين .

كنيته: كناه الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بأبي تراب، كناية عن كثرة عبادته وصلواته، لأن المسلمين في السابق كانوا يسجدون على التراب، وكان الإمام على معفر الجبين لكثرة ما يسجد، فقوله: قم أبا تراب على حد قوله، أي: قم ياكثير العبادة .

أبوه: : "أبو طالب" لقب بذي الكفلين: كفل النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد وفاة جده "عبد المطلب" ولرسول الله يومئذ ثمان سنين وشهران، وقد كان أبو طالب الحصن المنيع

الذي كف عن الرسول أذى المشركين في أول سنى البعثة، وقد توفى قبل الهجرة بثلاث سنين وأربعة عشر يوماً وقد قدمنا أدلة إسلامه ﵁ .

لما بلغ الإمام على السادسة أصاب أهل مكة جدب وقحط فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لعمه العباس ﵁: "يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى، فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله عنه، فتأخذ أنت رجلا وأنا آخذ رجلاً فنكفلهما عنه"، وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم فقال: "دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم" وكان أحب هؤلاء الأخوة إلى أبيه، فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ النبي ﴿ﷺ وآله﴾ علياً وكان أصغرهم، وصدق القائل:

أتت سنة شهباء أصبح عندها   أبو طالب قد حل ساحته الفقر
فقالوا دعونا نكفه بعض ولده   مساعدة فالحر يسنده الحر
خذوا من أردتم إن تركتم بجانبي   عقيلاً فلي في حبه منكم عذر
لأحمد أعطينا علياً وجعفراً   لحمزة والعباس طالب فليدروا

وكان الإمام علي يلازم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، بل إنه عندما اتخذه كان يلي أكثر تربيته، ويطهره وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويلاعبه في يقظته، ويحمله على صدره، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها كأنه يفعل ذلك ترويحا وصدق القائل:

وربيت في حجر النبي محمد   فطوبى لمن من أحمد ضمه حجر
وغذاك بالعلم الإلهي ناشئاً   فلا علم إلا منك قد حاطه خير
بآدابه أدبت طفلاً ويافعاً   وأكسبك الأخلاق أخلاقه الغر

إسلامه: أسلم الإمام علي وهو بعد صبي، وهكذا – كرم الله وجهه – لم يسجد لصنم قط، وصلى خلف النبي – صلاة خاصة بالنبي ﴿ﷺ وآله﴾ قبل فرض الصلاة – قبل الناس تسع سنين .

وقد اشتهر الإمام علي بالفروسية والقوة والإقدام وأبلى بلاء حسناً في مواقع الإسلام، وكان اللواء بيده في كثير منها، فكان أول المبارزين في يوم بدر، وممن ثبت يوم أحد وحنين، وعلى يديه فتحت خيبر بعد أن طال حصارها .

زواجه: زوجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ابنته في السنة الثانية من الهجرة ولم يتزوج عليها في حياتها، وقد ولدت له الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم ﵃ أجمعين، وتزوج بعدها تسع وأنجب منهن اثنين وعشرين ولداً وبنتاً، وقد تقدم ذكر زواجه كرم الله وجهه من السيدة فاطمة عليها السلام .

وفي هذا يتحدث الإمام علي عن نعمة الله عليه فيقول:

محمد النبي أخي وصهري   وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي   يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي   مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها   فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرا   صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً   فمن ذا يدعي يوما كيومي

مع الخلفاء: فقد الإمام علي كرم الله وجهه بفقد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أخاه وأباه وأهله أجمعين، فالمصاب أجل من أن يحتمله قلب الرجل، فلزم بيته حزناً على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وزهد في الدنيا زهداً على زهده، وعكف على جمع القرآن . فتهامس المتهامسون من منافقين وضعاف قلوب أن علياً قد تأخر عن بيعة أبي بكر ناقماً عليه

اغتصابه الخلافة منه، ولكنه كرم الله وجهه يدفع التهمة ويجلي الأمر قائلاً: "إني آليت بيمين حين قبض رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ألا أرتدي بردائي إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى أجمع القرآن، فإني خشيت أن ينفلت" ثم خرج فبايع الصديق. وكرس الإمام علي قلبه وعقله ولسانه وسيفه في خدمة الصديق دفاعاً عن الحق والإسلام سلماً وحرباً .

ولما توفى أبو بكر وبويع عمر خرج وبايعه وكان له العون في كل معضلة حتى إن سيدنا عمر ﷺ كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن، وحتى قال له: أعوذ بالله أن أكون في قوم لست فيهم، وقال: ليس المقام ببلد ليس فيه أبو الحسن .

ثم جاء عثمان ذو النورين ﷺ بعد عمر، فلم يستمع إلى مريدي الفتن والقلاقل الذين هيجوه عليه، وكان الإمام علي لسيدنا عثمان العضد والسند والأخ والناصح الأمين، يكف عنه الأذى ويشير عليه بالصواب جاهداً في القضاء على الفتن . ولكن قضى الله – ولا راد لقضائه – أن ينال سيدنا عثمان الشهادة على أيدي الثوار الآثمين وهو يقرأ في كتاب الله .

خلافته: وبويع الإمام عليّ بالخلافة – وهو لها كاره – بعد مقتل سيدنا عثمان، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، قضاها في كفاح شديد لجمع شمل المسلمين بعد أن فرّقتهم الفتنة وصيّرتهم شيعاً وفرقاً، وكان مقتل سيدنا عثمان أحد أسباب الفتنة إذ كان لمقتله وقعاً أليماً في نفوس المسلمين .

وطالب الحاقدون والموتورون بدم عثمان، واتهموا الإمام عليّ بالتخاذل عن نصرته والتستر على قتلته .

جهد الإمام علي في إعادة الفرق الثائرة إلى صوابها، ولكن دون جدوى. وخرجت السيدة عائشة وهي أم المؤمنين، لاستطلاع الأمر بعد أن استصرختها الفرق المتحاربة، فلا هي راضية عن مقتل عثمان ﷺ، ولا هي مصدقة ما يقال في الإمام عليّ من تخاذله

عن نصرته وسكوته عن قتلته، وهي تعرف الإمام عليّاً وتعرف أنه أحبّ الناس إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وكانت وقعة الجمل: التقى فيها فريقاً الإمام على والثوار، وخشى الإمام علي على السيدة عائشة أن تهان أو يمس طرفها وسط الجموع الغاضبة فأحاطها بنفر من النساء وأعادها معزّزة مكرّمة إلى دارها فعرفت له فضله ومدحته على صنيعه. وكانت بعد وقعة الجمل مواقع ومواقع، قتل فيها خيرة الصحابة وأفضلهم من الفريقين .

وقعة صفين: كانت وقعة صفين هي الوقعة الفاصلة حيث ظهر فيها الإمام عليّ على جيش معاوية، وكانت الحيلة المشهورة التي لجأ إليها المغلوبون برفع المصاحف على أسنّة الرماح وطلب التحكيم، وكان أصحاب الإمام عليّ بين قابل للتحكيم حقناً للدماء، وبين رافض يريد أن يخمد الفتنة ويحسم الأمر .

وقبل الإمام التحكيم على مضض، نزولاً على رأي الأغلبية فازدادت الصفوف انقساماً، وخرج عليه بعض أصحابه، وانتهى التحكيم بإعلان عزل الإمام عليّ وتولية معاوية، فازدادت الصفوف فرقة بين رافض وقابل .

لم يلن الإمام عليّ ولم يكل عن نصرة الحق ودحض الباطل، وجهد في القضاء على الفتنة والفئة الباغية حتى قتل شهيداً ؓ على يد ابن ملجم ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة.. وكان الإمام في هذه الليلة يكثر الخروج والنظر إلى السماء ويقول: (والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة الموعودة) فاهتز بقتله ركن من أركان الإسلام ودفن كرّم الله وجهه بالكوفة. والعجيب أن ابن ملجم جاء للإمام عليّ يستحمله فحمله وقال:

أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

ثم قال: هذا والله قاتلي، فقيل له: ألا تقتله؟ فقال: من يقتلني؟

وقام سيدنا الحسن بن علي ؓ خطيباً فقال:

"لقد قتلتم الليلة رجلاً في ليلة فيها نزل القرآن، وفيها رفع عيسى بن مريم ﷺ، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام، والله ما سبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحد يكون بعده، والله إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان يبعثه في السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أرصدها لخادمه!!"

.

وحين علمت السيدة عائشة رضي الله عنها بانتقال الإمام علي ذهبت إلى روضة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأخذت بعضادتي الباب وقالت:

"السلام عليك يارسول الله.. أنا ناعية إليك أحظى أحبابك، وذاكرة لك أكرم أو دائك عليك، قتل والله حبيبك المجتبى، وصفيك المرتضى، قتل والله من زوجته خير النساء، قتل والله من آمن ووفى، وإني لنادبة ثكلى، وعليه باكية حراء.. لتصنع العرب بعد ما شاءت فليس لها أحد ينهاها" .

كراماته كرم الله وجهه

من كراماته: أخرج ابن سعد عنه قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً .

ومن كراماته الباهرة: أن الشمس ردت عليه لما كان رأس النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في حجره والوحي يتزل عليه والإمام علي لم يصل العصر، فما سرى عنه ﴿ﷺ وآله﴾ إلا وقد غربت الشمس، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾: "اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس فطلعت بعد ما غربت" . وحديث ردها صححه الطحاوي والقاضي في الشفاء وحسنه شيخ الإسلام أبو زرعة، وللسيوطي جزء في تتبع طرق هذا الحديث سماه "كشف اللبس في حديث رد الشمس" وختمه بقوله: ومما يشهد لصحة ذلك قول الشافعي وغيره: ما أوتي نبي معجزة إلا أوتى نبينا ﴿ﷺ

وآله﴾ نظيرها أو أبلغ منها، وقد صح أن الشمس حبست ليوشع بن نون ليالي قاتل الجبارين فلا بد أن يكون لنبينا نظير ذلك .

ومن كراماته: أنه حدث بحديث فكذبه رجل فقال له: أدعو عليك أن كنت كاذباً قال: ادع، فدعا عليه فلم يبرح حتى ذهب بصره.

ومن كراماته: قال النسفي: إن الإمام علي قال: سلوني عن طرق السموات فإني أعلم بها من طرق الأرض، فجاءه جبريل في صورة رجل فقال: إن كنت صادقاً فأخبرني أين جبريل؟ فنظر إلى السماء يميناً وشمالاً وإلى الأرض كذلك. فقال: ما وجدته في السماء ولا في الأرض ولعله أنت .

ومن كراماته: أن الله أعطاه علم أحوال البرزخ فكان يكلم أهل القبور ويسمعهم .

مناقب الإمام علي كرم الله وجهه

كان الإمام علي سهماً صائباً من مرامى الله على عدوه، رباني هذه الأمة، أعطى القرآن عزائمه، فكان إمام الفقهاء وعلماء الشريعة، وأقدرهم على استنباط الأحكام الدينية وإليه رجع الخلفاء من قبله في مشكلات الحكم والقضاء.. وكانت له مناقب عديدة نذكر منها:

أول من صلى مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: فقد أخرج الإمام أحمد عن سيدنا علي قال: "اللهم لا أعرف لك عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك (ثلاث مرات) لقد صليت قبل أن يصلى الناس ".

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أربع خصال لعلي ليست لأحد غيره:

- هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .
- هو الذي صبر معه يوم فر عنه غيره .
- هو الذي كان لواؤه معه في كل زحف .
- هو الذي غسله وأدخله قبره .

لا يؤثر فيه حر ولا برد: أخرج النسائي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال للإمام علي: إن الناس قد أنكروا منك شيئاً: تخرج في البرد في الملاءتين، وتخرج في الحر في الخشن والثوب الغليظ، فقال: لم تكن معنا بخيبر؟ قال: بلى، قال: "بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أبا بكر وعقد له لواء فرجع، وبعث عمر وعقد له لواء فرجع، فقال رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، فأرسل إلي وأنا أرمد، فتفل في عيني وقال: اللهم اكفه أذى الحر والبرد، قال: ما وجدت حراً بعد ذلك ولا برداً .

٣- علي مني وأنا من علي: روى الترمذي وابن ماجة قال ﴿ ﷺ وآله﴾: "علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلا علي". ولما قتل سيدنا علي كرم الله وجهه أصحاب الألوية يوم أحد قال جبريل: يارسول الله إن هذه لهي المواساة، فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: "إنه مني وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما يارسول الله" رواه الإمام أحمد في المناقب، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما رواه الخطيب عن البراء بن عازب والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس: "علي مني بمترله رأسي من بدني" .

٤- الإمام علي مغفور له: ذكر النسائي في الخصائص قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "يا علي ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفر لك مع أنه مغفور لك، تقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم" .

٥- هدى الله قلبه وثبت لسانه: قال الإمام علي: بعثني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى اليمن وأنا شاب حديث السن، فقلت: يارسول الله تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث وأنا شاب حديث السن ؟

فقال: "إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك" قال: ما شككت في حديث أقضي بين اثنين. ذكره النسائي في الخصائص .

٦- سدوا الأبواب إلا باب علي: روى الإمام أحمد والضياء المقدسي عن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ أبواب شارعة في المسجد، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "سدوا الأبواب إلا باب علي" فتكلم بذلك الناس فقام رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، وقال فيه قائلكم، والله ما سددته ولا فتحته، ولكن أمرت فاتبعته.

وروى الترمذي قال ﴿ﷺ وآله﴾ لعلي: "يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك" أي: تكون له أبواب مفتوحة على المسجد غيرهما. وفي رواية: ثبت ذلك أيضاً لأبي بكر الصديق ؓ.

٧- الإمام علي أخو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: روى الطبراني أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "علي أخي في الدنيا والآخرة" . وأخرج الإمام أحمد في المناقب أنه ورد في الحديث الشريف أنه مكتوب على باب الجنة" محمد رسول الله، علي أخو رسول الله قبل أن تخلق السموات بألفي سنة" .

٨- الإمام علي كنفس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ذكر النسائي في الخصائص قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. "لينتهين بنو وليعة، أي: ملوك حضرموت، أو لأبعثن عليهم رجلاً كنفسي، ينفذ فيهم أمري، فيقتل المقاتلة ويسبي الذرية، فقال أبو بكر: أنا هو يارسول الله؟ قال: لا، ولكن ذلك الذي يخصف النعل"وقد أعطى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ علياً نعلاً يخصفها. (أخرجه أحمد في الفضائل) .

٩- الإمام علي مولى كل مؤمن ومؤمنة: أخرج ابن السمان عن البراء بن عازب وأخرج الإمام أحمد مثله في المسند عن زيد بن أرقم كنا عند النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في سفر فنزلنا بغدير خم فنودي: "الصلاة جامعة" وكسح لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تحت شجرة فصلى الظهر، وأخذ بيد علي وقال: "ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من

أنفسهم؟" قالوا: بلى فأخذ بيد علي، وقال: "اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه" قال: فلقيه عمر بعد ذلك، فقال له: هنيئاً لك يابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة . وزاد الإمام أحمد "وانصر من نصره، وأحب من أحبه".

١٠- من سب علياً فإنما سب الله ورسوله: روى الإمام أحمد والحاكم عن أم سلمة عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: "من سب علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله" .

١١- لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق: روى مسلم أن الإمام علي كرم الله وجهه قال: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﴿ ﷺ وآله﴾ إلي: لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق" .

١٢- المثل الذي ضربه النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ لسيدنا علي: ذكر النسائي في الخصائص قال ﴿ ﷺ وآله﴾: "يا علي فيك مثل من مثل عيسى، أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المترل الذي ليس به" أخرجه البزاز وأبو يعلي والحاكم، وهذا هو الواقع حيث اتهم الخوارج الإمام علياً بالكفر، وجاء آخرون وقالوا للإمام: أنت الله .

١٣- النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يسأل الله لنفسه وللإمام علي: ذكر النسائي في الخصائص قال الإمام علي: مرضت فعادني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فدخل على وأنا مضطجع فاتكأ إلى جنبي ثم سجاني – غطاني – بثوبه فلما رآني قد برئت قام إلى المسجد يصلي، فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب، وقال: قم ياعلي فقمت وقد برئت كأنما لم أشك شيئاً قبل ذلك، فقال: "ما سألت ربي شيئاً في صلاتي إلا أعطاني، وما سألت لنفسي شيئاً إلا سألت لك" .

١٤- خليفة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: خلفه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على الودائع في وقت الهجرة، وبقى بمكة ثلاث ليال بأيامها حتى رد ما كان عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من ودائع لأصحابها .

ثم خلفه الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ على العيال والنساء بالمدينة في وقت الخروج إلى غزوة تبوك حتى بكى كرم الله وجهه وقال: يارسول الله إن قريشاً تقول: إن رسول الله استثقله فتركه . فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾: "أما ترضى أن تكون مني بمترلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" متفق عليه .

وقد أشركه النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في هديه في حجة الوداع، فقده مائة بدنة، نحر منها بيديه ثلاثاً وستين، وأناب الإمام علي في نحر ما زاد من المائة .

١٥- باب مدينة العلم: أخرج البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والعقيلي، وابن عدي عن ابن عمر، والترمذي والحاكم عن الإمام علي قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "أنا مدينة العلم وعلي بابها" وفي رواية: فمن أراد العلم فليأت الباب. وفي أخرى عند الترمذي. أنا دار الحكمة وعلي بابها .

وقال ابن عباس: والله لقد أعطى علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم أو شاركهم في العشر العاشر .

١٦- النظر إليه عبادة: أخرج الحاكم والطبراني أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "النظر إلى علي عبادة " وذلك لأن رؤية الإمام علي تجعل الناس يذكرون الله فيشتغلون بالعبادة .

١٧- منقبة جامعة: قال ﴿ﷺ وآله﴾: "إن تنظروا إلى آدم في علمه، ونوح في همه، وإبراهيم في خلقه، وموسى في مناجاته، وعيسى في سنه، ومحمد في هديه وعلمه، فانظروا إلى علي بن أبي طالب" ذكره ابن الجوزي .

الإمام علي كرم الله وجهه والقرآن:

من رأى الإمام علياً كرم الله وجهه على الحقيقة يشهد عقلاً نورانياً، لا يشبه خلقاً جسدانياً، فصل عن الموكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة، وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلى.. لذلك تعددت فضائله في القرآن .

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ما أنزل الله: ﴿ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلى أميرها وشريفها، وأخرج ابن عساكر عنه. قال: ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي، وأخرج عنه أيضاً قال: نزل في علي ثلاثمائة آية .

وأخرج أحمد والحاكم أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: "يا علي إنك تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله" .

ولنضرب مثلاً لبعض الآيات التي تحدثت عن الإمام علي كرم الله وجهه:

١- روى ابن جرير في تفسيره: لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٢). قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "سألت الله عز وجل أن يجعلها أذنك ياعلي" قال علي: "فما نسيت شيئاً بعد ذلك وما كان لي أن أنسى" .

٢- روى البخاري في تفسير سورة الحج أن الإمام علي أول من يجثو بين يدي الرحمن يوم القيامة للخصومة، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج: ١٩). وهم الذين تبارزوا يوم بدر: علي، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة .

٣- عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (البقرة: ٢٧٤). قال: نزلت في علي بن أبي طالب.. كان يملك أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية..

فقال له النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: ما حملك على ذلك؟ فقال: أريد أن أكون أهلاً لما وعدني ربي، فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: لك ذلك، فأنزل الله هذه الآية .

٤- قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ (السجدة: ١٨). قال ابن عباس: نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عتبة.

٥- قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ (القصص: ٦١) . ذكر النيسابورى في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في عليّ وحمزة وأبي جهل .

٦- قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨) . قال عطاء عن ابن عباس: نزلت في علي وأهل بيته .

٧- نقل الواحدي في "أسباب النزول" أن الحسن والشعبي والقرطبي قالوا: إن علياً والعباس بن عبد المطلب وعثمان بن شيبة ﷺ افتخروا، فقال عثمان: أعطاني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ السدانة، يعني مفاتيح الكعبة. وقال العباس: أعطاني رسول الله السقاية، وهي زمزم. قال: ولم يعطك شيئاً ياعلي. فأنزل الله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة:١٩، ٢٠)

١٨- قال أبو إسحق الثعلبي في تفسيره: أن الحرث بن النعمان الفهري اعترض على قول النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال له النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: إن هذا أمر من الله .

فولى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأنزل علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فقتله. فأنزل الله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ* مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (المعارج: ١- ٣) .

أولاده وزوجاته:

لم يثبت أن الإمام علياً كرّم الله وجهه تزوج في حياة السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غيرها، ولكنه تزوج بعدها الكثير، منهن من عرفت أسماءهن وهن تسعة، ومنهن من لم يعرفن، وبلغ عدد أولاده على التحقيق أربعة عشر ذكراً، وتسع عشرة أنثى بخلاف أخرى ماتت صغيرة ولم تسم، وهم:

١- السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وأنجبت السادة: الحسن، الحسين، وزينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى، ويقال: ومحسناً.

٢- أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى، وأمها السيدة زينب بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقد أوصت السيدة الزهراء الإمام عليّاً أن يتزوجها بعد وفاتها، وأنجبت السيد محمد الأوسط وليس له عقب .

٣- خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة، وأنجبت محمد الأكبر وهو المعروف بابن الحنفية .

٤- ليلى بنت مسعود بن خالد، وأنجبت عبيد الله وقتله المختار، وأبو بكر واستشهد في كربلاء مع الإمام الحسين .

٥- أم البنين بنت حزام بن خالد الكلابية وأنجبت العباس الأكبر، وعثمان، وجعفر، وعبد الله.. وكلهم نالوا الشهادة مع الإمام الحسين في كربلاء .

٦- أم ولد، وأنجبت محمد الأصغر ونال الشهادة مع الإمام الحسين في كربلاء .

٧- أسماء بنت عميس، وأنجبت يحيى، وعون .

٨- الصهباء وهي أم حبيب بنت ربيعة، وكانت سبية أصابها خالد بن الوليد حين أغار على بني تغلب بناحية عين التمر، وأنجبت عمر الأكبر – الذي عمّر حتى بلغ خمساً وثمانين سنة – وأنجبت رقية .

٩- أم سعيد بنت عروة بن مسعود، وأنجبت أم الحسن، ورملة الكبرى .

١٠- محياة بنت امرئ القيس، وأنجبت بنتاً ماتت صغيرة ولم تسم .

١١- أما السيدات: أم هانئ، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم جعفر، وجُمانة، ونفيسة، وأم سلمة.. فهن لأمهات شتى.

وكان النسل من ولده لخمسة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعباس ابن الكلابية، وعمر بن التغلبية .

قال محمد بن سعد والواقدي: لم يصح لنا من ولد عليّ كرم الله وجهه غير هؤلاء .

أقوال السلف الصالح في فضله:

كان السلف الصالح ﷺ يعرفون فضل الإمام عليّ كرم الله وجهه، وكانوا يحبونه حباً جماً لعلمه وفقهه وقرابته من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾:

قال عمر بن الخطاب: عليّ أقضانا، وقال: أطال الله بقاءك، وأيدك الله ياأبا الحسن .

قال أبو سعيد الخدري: كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً .

قال ابن مسعود: أفرض أهل المدينة وأقضاها عليّ ابن أبي طالب (أخرجه الترمذي) .

وقال: لم يكن أحد من الصحابة يقول سلوني إلا علي .

٤- قال ابن عباس: إذا حدثنا ثقة عن علي بفتيا لا نعدوها.. وسئل ابن عباس أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . وقال: (كان علي والله علم الهدى، وكهف التقى، وطود النهى، ومحل الحجى، وعين الندا، ومنتهى العلم للورى، ونورا أسفر في ظلم الدجى، وداعياً إلى المحجة العظمى، مستمسكاً بالعروة الوثقى، أتقى من تقمص وارتدى، وأكرم من شهد النجوى، بعد محمد المصطفى، صاحب القبلتين، وأبا السبطين.. زوجته خير النساء، فما يفوقه أحد،

لم تر عيناي مثله، ولم أسمع بمثله.. في الحرب ختالا، وللأقران قتالاً، وللأبطال شغالا.. فعلى من يبغضه لعنة الله ولعنة العباد، إلى يوم التناد) .

٥- قال ابن المسيب: كان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس منها أبو الحسن .

٦- قالت السيدة عائشة: أما إنه أعلم من بقى بالسنة.. ولما بلغها وفاته قالت: فلتصنع العرب ما شاءت فليس لها أحد ينهاها .

٧- قال عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة: كان لعلي ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والعهد برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود في المال .

٨- قال الحسن البصري: كان والله سهماً صائباً من مرامي الإسلام.. وكان رباني هذه الأمة في ذروة فضلها وشرفها.. كان ذا قرابة قريبة من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأبا الحسن والحسين رضي الله عنهما، وزوج فاطمة الزهراء.. ولم يكن بالسروقة لمال الله، ولا بالنئومة في أمر الله، ولا بالملومة في حق الله.. أعطى القرآن عزائمه، وعلم ما له فيه وما عليه.. ﵁ وكرم الله وجهه .

٩- قال الإمام أحمد بن حنبل، وإسماعيل القاضي، والنسائي، وأبو علي النيسابوري: لم يرد في أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي .

وصفه في مجلس معاوية:

عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن حمزة: صف لي عليا. فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صفه. قال: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن،

ومن الطعام ما جشب (الغليظ الخشن)، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة، ولا نبتديه لعظمه. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوى في باطله، ولا ييئس الضعيف من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارب نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يادنيا يادنيا أبي تعرضت أم لي تشوقت؟ هيهات هيهات غرى غيري، قد بنتك (طلقتك) ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير . أه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق .

قال: فذرفت دموع معاوية حتى خرت على لحيته فما يملكها، وهو ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء، ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ عبرتها، ولا يسكن حزنها (ذكره ابن الجوزى في الصفوة) .

وصيته لكميل بن زياد:

قال كميل بن زياد النخعي: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى أجبان (المقبرة)، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال:

يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها. فأحفظ عني ما أقول:

الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

يا كميل: العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله .

يا كميل: العلم دين يدان به. به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل: هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. ها، إن ههنا لعلما جماً (وأشار إلى صدره) لو أصبت له حملة، بلى أصبت لقنا (من يفهم بسرعة، ولا يطبع العلم على أخلاقه الفضائل) غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحجحه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. ألا لاذا ولا ذاك، أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيء شبها بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم بلى، لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً (غمره الظلم حتى غطاه فهو لا يظهر) لئلا تبطل حجج الله وبيناته. وكم ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلون عددا والأعظمون قدراً. يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه. آه آه شوقاً إلى رؤيتهم انصرف إذا شئت .

– ومن حكمه: اتقوا صولة الكريم إذا جاع، والبخيل إذا شبع .

– وقال سيدنا علي كرم الله وجهه لقائل قال بحضرته أستغفر الله: ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى .

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة .

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها .

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول: أستغفر الله .

- وقيل له مرة: ألا نحرسك ياأمير المؤمنين؟ فقال: حارس كل امرئ أجله .

الصوفي الأعظم

سيدنا الإمام علي هو الصوفي الأعظم في أخلاقه وأقواله وأفعاله وأحواله، قال أبو نعيم في الحلية:

١- التصوف هو: مرافقة المودود، ومصارمة المحدود .

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا علي كرم الله وجهه في قول سيدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم خيبر: "لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله"، فبات الناس يدوكون (خوض واختلاط) ليلتهم أيهم يعطاها فقال: " أين علي بن أبي طالب؟" فقالوا: يارسول الله يشتكي عينيه. قال: "فأرسلوا إليه" فأتى به، فبصق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، وأعطاه الراية، فقال علي: يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم" أخرجه البخاري ومسلم .

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "يا أنس اسكب لي وضوءاً" ثم قام فصلى ركعتين. ثم قال: "يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير

المؤمنين، وسيد المسلمين، وقائد الغر المحجلين، وخاتم الوصيين" قال أنس: قلت اللهم أجعله رجلاً من الأنصار وكتمته. إذ جاء علي فقال: "من هذا ياأنس؟" فقلت: علي، فقام مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه، ويمسح عرق علي بوجهه، فقال علي: يارسول الله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت لي من قبل؟ قال: "وما يمنعني وأنت تؤدي عني، وتسمعهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي" .

* قال الإمام علي يارسول الله أوصني. قال: "قل ربي الله ثم استقم" فقال الإمام علي: الله ربي وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فقال: "ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شراباً، ونهلته نهلاً .

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لعلي – وضرب بين كتفيه–:

"يا عليّ لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أول المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقواهم بأمر الله، وأرأفهم بالرعية، وأقسمهم بالسوية، وأعلمهم بالقضية، وأعظمهم مزية يوم القيامة" .

* عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "إن الله تعالى عهد إليّ عهداً في علي فقلت: يارب بينه لي، فقال: اسمع، فقلت: سمعت. فقال: إن عليّاً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبه أحبني، ومن أبغضه أبغضني، فبشره بذلك. فجاء علي فبشرته، فقال: يارسول الله أنا عبد الله، وفي قبضته فإن يعذبني فبذنبي، وإن يتم لي الذي بشرتني به فالله أولى بي. قال: قلت: اللهم اجل قلبه، واجعل ربيعه الإيمان، فقال الله: قد فعلت به ذلك. ثم إنه رفع إليّ أنه سيخصه من البلاء بشيء لم يخص به أحداً من أصحابي. فقلت: يارب أخي وصاحبي، فقال: إن هذا شيء قد سبق إنه مبتلى ومبتلى به" .

* قال الإمام عليّ كرَّم الله وجهه: أنا فقأت عين الفتنة، ولو لم أكن فيكم ما قوتل فلان وفلان .

* عن أبي سعيد الخدري قال: شكى الناس عليّاً. فقام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خطيباً فقال: "يا أيها الناس لا تشكوا عليّاً، فو الله إنه لأخيشن في ذات الله عز وجل" .

* عن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "لا تسبوا عليّاً فإنه ممسوس في ذات الله تعالى" .

* عن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ عهد إلى عليّ سبعين عهداً، لم يعهد إلى غيره .

٢- التصوف هو: إسلام الغيوب، إلى مقلب القلوب.

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا عليّ فقد كان الاستسلام والانقياد شأنه. والتبرأ من الحول والقوة مكانه .

عن الزهري عن عليّ بن الحسين عن أبيه قال: سمعت عليّاً يقول: أتاني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنا نائم وفاطمة وذلك من السحر، حتى قام على باب البيت، فقال ألا تصلون؟ فقلت مجيباً له: يارسول الله إنما نفوسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، قال: فرجع رسول الله ولم يرجع إلى الكلام. قال: فسمعته حين ولى يقول - وضرب بيده على فخذه:- ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤). رواه البخاري ومسلم عن قتيبة بن سعيد .

٣- التصوف هو: الرغبة إلى المحبوب، في درك المطلوب .

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا عليّ كرم الله وجهه لأنه كان على الأوراد مواظباً، وللأزواد مناحباً .

يقول سيدنا عليّ كرّم الله وجهه: أتانا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى وضع رجليه بيني وبين فاطمة فعلمنا ما نقول إذ أخذنا مضاجعنا: ثلاثة وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين

تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة. يقول: فما تركتها بعد.. فقال له رجل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين .

* عن أبي أراكة قال: صلى عليّ الغداة ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبة، ثم قال: رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فما أرى أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم مثل رُكب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا (تمايلوا) كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

** ومن هنا استنبط السادة الصوفية التمايل عند ذكر الله تعالى.

٤- التصوف هو: الارتقاء في الأسباب، إلى المقدرات من الأبواب .

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا عليّ كرم الله وجهه لأنه كان إذا لزمه في العيش الضيق والجهد، أعرض عن الخلق فأقبل على الكسب والكد .

* قال مجاهد: خرج علينا علي يوماً متعجراً، فقال: جعت مرة بالمدينة جوعاً شديداً فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً تريد بله، فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب على تمرة، فمددت ستة عشر ذنوباً حتى مجلت يداي (ثخن جلدها) ثم أتيت الماء فأصبت منه ثم أتيتها فقلت: يكفي هذا بين يديها، فعدت لي ست عشرة، فأتيت النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فأخبرته فأكل معي منها .

٥- التصوف هو: البروز من الحجاب، إلى رفع الحجاب .

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا عليّ كرم الله وجهه لأنه كان بذات الله عليماً، وعرفان الله في صدره عظيماً .

* قال النعمان بن سعد: كنت بالكوفة في دارة الإمارة دار علي بن أبي طالب إذ دخل علينا نوف بن عبد الله فقال: ياأمير المؤمنين: بالباب أربعون رجلاً من اليهود، فقال

علي: علي بهم. فلما وقفوا بين يديه قالوا: ياعلي صف لنا ربك هذا الذي في السماء كيف هو؟ وكيف كان؟ ومتى كان؟ وعلى أي شيء هو؟ فاستوى علي جالساً وقال: معشر اليهود اسمعوا مني ولا تبالوا أن لا تسألوا أحداً غيري، إن ربي عز وجل هو الأول لم يبد مما، ولا ممازج معما، ولا حال وهما، ولا شبح يتقصى، ولا محجوب فيحوى، ولا كان بعد أن لم يكن فيقال حادث. بل جل أن يكيف المكيف للأشياء كيف كان. بل لم يزل ولا يزول لاختلاف الأزمان، ولا لتقلب شأن بعد شأن، وكيف يوصف بالأشباح، وكيف ينعت بالألسن الفصاح، من لم يكن في الأشياء فيقال بائن، ولم يبن عنها فيقال كائن، بل هو بلا كيفية. وهو أقرب من حبل الوريد، وأبعد في الشبه من كل بعيد، لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة، ولا كرور لفظة، ولا ازدلاف رقوة، ولا انبساط خطوة، في غسق ليل داج، ولا إدلاج، لا يتغشى عليه القمر المنير، ولا انبساط الشمس ذات النور بضوئها في الكرور، ولا إقبال ليل مقبل، ولا إدبار نهار مدبر، إلا وهو محيط بما يريد من تكوينه. فهو العالم بكل مكان، وكل حين وأوان، وكل نهاية ومدة. والأمد إلى الخلق مضروب، والحد إلى غيره منسوب. لم يخلق الأشياء من أصول أولية، ولا بأوائل كانت قبله بدية، بل خلق ما خلق فأقام خلقه، وصور ما صور فأحسن صورته. توحد في علوه فليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة شيء من خلقه انتفاع. إجابته للداعين سريعة، والملائكة في السموات والأرضين له مطيعة. علمه بالأموات البادئين، كعلمه بالأحياء المتقلبين. وعلمه بما في السموات العلا، كعلمه بما في الأرض السفلى، وعلمه بكل شيء. لا تحيره الأصوات، ولا تشغله اللغات . سميع للأصوات المختلفة، بلا جوارح له مؤتلفة. مدبر بصير، عالم بالأمور، حي قيوم. سبحانه كلم موسى تكليماً بلا جوارح ولا أدوات، ولا شفة ولا لهوات، سبحانه وتعالى عن تكييف الصفات. من يزعم أن إلهنا محدود، فقد جهل الخالق المعبود. ومن ذكر أن الأماكن به تحيط، لزمته الحيرة والتخليط. بل هو المحيط بكل

مكان، فإن كنت صادقاً أيها المتكلف لوصف الرحمن، بخلاف التنزيل والبرهان، فصف لي جبريل وميكائيل وإسرافيل.. هيهات؟

أتعجز عن صفة مخلوق مثلك، وتصف الخالق المعبود، وأنت تدرك صفة رب الهيئة والأدوات، فكيف من لم تأخذة سنة ولا نوم؟ له ما في الأرضين والسموات وما بينهما وهو رب العرش العظيم .

* ثنا أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا الفرج يقول: قال علي بن أبي طالب: ما يسرني لو مت طفلاً وأدخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربي عز وجل .

* ثنا إسحق بن بشر أخبرنا مقاتل عن قتادة عن خلاس بن عمرو قال: كنا جلوساً عند علي بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: ياأمير المؤمنين. هل سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ينعت الإسلام؟ قال: نعم سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: "بني الإسلام على أربع أركان على الصبر، واليقين، والجهاد، والعدل .

– وللصبر أربع شعب: الشوق، والشفقة، والزهادة، والترقب .

فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب للموت سارع في الخيرات.

– ولليقين أربع شعب: تبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، ومعبرة العبرة، واتباع السنة.

فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة اتبع السنة، ومن اتبع السنة فكأنما كان في الأولين .

– وللجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين .

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق، ومن صدق في المواطن قضى الذي عليه وأحرز دينه، ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله، ومن غضب لله يغضب الله له .

– وللعدل أربع شعب: غوص الفهم، وزهرة العلم، وشرائع الحكم، وروضة الحلم. فمن غاص الفهم فسر جمل العلم، ومن رعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم، ومن عرف شرائع الحكم ورد روضة الحلم، ومن ورد روضة الحلم لم يفرط في أمره، وعاش في الناس وهو في راحة" .

٦– التصوف هو: السلو عن الأعراض، بالسمو إلى الأغراض .

ويتحقق هذا المعنى في سيدنا عليّ كرم الله وجهه لأنه نقل عنه التقلل والتزهد، واشتهر بالترهيب والتعبد .

* ثنا محمد بن قيس عن ابن ربيعة الوالي عن سيدنا علي بن أبي طالب قال: جاء ابن النباح فقال: ياأمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، قال: الله أكبر! فقام متوكئا على ابن النباح حتى قام على بيت مال المسلمين. فقال:

هذا جناى وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح: علي بأشياع الكوفة، قال فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: ياصفراء ويا بيضاء غري غيري، ها، وها. حتى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين .

* ويقول عمرو بن قيس: قيل لعلي: ياأمير المؤمنين لم ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب، ويقتدي به المؤمن .

خلافته و الفتنة:

قال ابن سعد: لما قتل سيدنا عثمان ﷺ، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وبويع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالمدينة – الغد من يوم قتل عثمان – بالخلافة.. بايعه طلحة، والزبير، وسعد ابن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمار بن ياسر، وأبو أيوب الأنصاري، ومحمد بن مسلمة،

وزيد بن ثابت، وخزيمة بن ثابت، وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وغيرهم. ثم ذكر طلحة والزبير وأنهما بايعا كارهين غير طائعين ثم حدث ما حدث كما قدمنا من موقعة الجمل. ثم خرج معاوية ومن معه بالشام فبلغ الإمام علياً فسار فالتقوا بصفين في صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال أياماً كما قدمنا .

وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر .

هذا ملخص تلك الوقائع ولها بسط في كتب السابقين، على أن الاختصار في هذا المقام هو اللائق فقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا" .

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ حين سئل عن رأيه في أصحاب الجمل: (أناس طهر الله أيدينا من دمائهم فلنطهر ألسنتنا من ذكرهم) .

وفاته كرم الله وجهه:

ذكر ابن جرير: أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن عمرو، والمعروف بابن ملجم.. والبرك بن عبد الله التميمي.. وعمرو بن بكر التميمي .

اجتمع هؤلاء الثلاثة وقرروا أن يقتل ابن ملجم علياً، والبرك معاوية، وعمرو بن بكر يقتل ابن العاص. وتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه، حتى يقتله أو يموت دونه. فأخذوا أسيافهم فسموها وخرج كل منهم إلى حيث شاء، على أن تكون ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ هي الليلة الجامعة. وقصد ابن ملجم الكوفة.. وفي الليلة المتفق عليها، وبينما الإمام علي يوقظ الناس لصلاة الفجر.. إذ ضربه ابن ملجم بالسيف في قرنه، فسال دمه على لحيته. أما معاوية وابن العاص.. فقد شاء الله لهما أن ينجوا.

وأمسك الناس بابن ملجم.. وحمل الإمام علي إلى بيته وجئ بابن ملجم، فوقف مكتوفاً أمام سيدنا علي فسأله: أي عدو الله! ألم أحسن إليك؟ قال: بلى.. قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال سيدنا علي: لا

أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله. ثم قال: إن مت فاقتلوه، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به .

فقال جندب بن عبد الله: ياأمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن، فقال: لا آمركم ولا أنهاكم.. وأنتم أبصر .

وأقام الإمام علي الجمعة والسبت وتوفي في ليلة الأحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية يصب الماء، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلى عليه الحسن، وكبر عليه سبعاً، ودفن بدار الإمارة بالكوفة . وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره ثلاث وستون سنة وهو نفس عمر السادة أبي بكر الصديق والفاروق عمر ومن قبلهم سيدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وبوفاة الإمام علي تكون الأمة قد خسرت ركناً كبيراً من أركان الإسلام .

وعندي: أن الأمة لم تستفيد من الإمام علي.. فقد كان لديه الكثير من الخير .. ولكن ما سبق في علم الله حال دون ذلك .

وختاماً:

هذا هو الإمام علي عيش العلم وموت الجهل، يخبرنا حلمه عن علمه، وصمته عن حكم منطقه، لا يخالف الحق ولا يختلف فيه، هو دعامة الإسلام، ووليجة الاعتصام، به عاد الحق في نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقل الدين عقل وعاية لا عقل سماع ورواية..

آل خير الرسل أرجو نظرة ... كي أهنى سادتي في طيبة
في حمى المختار مبتهجا بما ... أرتجيه من وصالي وقربتي
بالإمام المرتجى شمس الهدى ... حجة الله لسان الحكمة
بالوصى على الفرد الذي ... قد محا ظلمات ظلم الفتنة

بالكرام ومن ببدر أيدوا منهج الحق بكل الهمة
والصلاة عليك ياخير الهدى نمنح الحسنى بها بالرحمة

خامس العشرة

الشهيد الحي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب، يجتمع مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في مرة بن كعب، ومع أبي بكر الصديق في تيم بن مرة. رجل عربي، أسمر لون الوجه، ليس بالطويل فارع الطول، ولا بالقصير الذي يتميز بقصره كسمة بارزة فيه، يبدو الذكاء الحاد على وجهه الحسن برغم سمرته، حاد البصر، ضخم القدمين، عريض المنكبين .

كنيته: أبو محمد

أمه: هي الصعبة بنت عبد الله بن عباد بن مالك بن ربيعة الحضرمي، وأمها عاتكة بنت وهب بن عبد قصي بن كلاب، وكان وهب بن عبد صاحب الرفادة "إطعام الفقراء في الحج" دون قريش كلها، وأخوها العلاء بن الحضرمي الذي حمل رسالة الإسلام إلى "أوال" – دولة البحرين الآن – أسلمت وهاجرت وعاشت بعد أبيها ؟ليلا .

وقد روى الطبراني من حديث ابن عباس قال: "أسلمت أم أبي بكر وأم عثمان وأم طلحة وأم عبد الرحمن بن عوف " .

أسماء لها دلالات: كان اسمه في الجاهلية والإسلام طلحة .

* وكان يلقب "بطلحة الخير" لقبه به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في غزوة أحد، وقيل في غزوة بدر حين غاب عنها في مهمة للمسلمين.. وكان ينفق كل يوم ألفا وتصدق يوماً بمائة ألف .

* ولقبه الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ في غزوة ذات العشيرة "بطلحة الفياض" وكان ذلك لسعة عطائه وكرمه، لأنه تصدق ببئر اشتراها ونحر جذوراً فأطعمهم وأسقاهم.. مر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في غزوة ذي قرد على ماء مالح يقال له: بيسان فغير الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ اسمه وقال: هو "نعمان" وهو طيب. فلما سمع طلحة ذلك من سيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ذهب على الفور واشتراه وتصدق به على المسلمين، فقال رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾: "ما أنت ياطلحة إلا فياض" .

فقد شبهه الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بالنهر الذي يفيض بالماء والخير فيملأ جنبات الوادي.. وهو تشبيه عظيم خرج من فم حبيب الله ومصطفاة ﴿ ﷺ وآله﴾ .

* ولقبه ﴿ ﷺ وآله﴾ في غزوة حنين "بطلحة الجود" ودعاه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: الصبيح، الفصيح، المليح، وقال: "أبشر ياطلحة فقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وقد ثبت اسمك في ديوان المقربين" .

* إنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين جعل سيدنا عمر فيهم الشورى، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وهم: أبو بكر، وعثمان، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وزيد بن حارثه، بعد عليّ وخديجة ﷺ .

أولاده وزوجاته: أما أولاده ﷺ فخمسة عشر، أحد عشر ذكراً، وأربع إناث، وأما زوجاته فتسعة وهم:

١- محمد بن طلحة السجاد وبه كان يكنى أباه، قتل يوم الجمل مع أبيه، وعمران ابن طلحة.. وأمهما حمنة بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم

بن دودان بن أسد بن خزيمة، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

٢- موسى بن طلحة.. وأمة خولة بنت القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ابن زيد من بني تميم، وكان يقال للقعقاع بن معبد تيار الفرات من سخائه .

٣- يعقوب بن طلحة وكان جواداً قتل يوم الحرة، وإسماعيل، وإسحق.. وأمهم أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

٤- زكريا، ويوسف، وعائشة.. وأمهم أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق .

٥- عيسى، ويحي.. وأمهما سُعدى بنت عوف بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المرى .

٦- أم إسحاق بنت طلحة تزوجها سيدنا الحسن بن عليَّ بن أبي طالب فولدت له طلحة ثم توفى عنها، فخلف عليها سيدنا الحسين بن عليّ فولدت له فاطمة.. وأمها الجرباء وهي أم الحارث بنت قسامة بن حنظلة بن وهب بن قيس بن طريف بن مالك بن جدعاء من طيء .

٧- الصعبة بنت طلحة.. وأمها أم ولد .

٨- مريم بنت طلحة.. وأمها أم ولد .

٩- صالح بن طلحة.. وأمه الفرعة بنت علي سبية .

إسلامه:

أخرج الحاكم في المستدرك عن إبراهيم بن محمد بن طلحة قال: قال لي طلحة ابن عبيد الله ﷺ: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة - ﷺ - قلت: نعم، أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال، قالت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج

فيه وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه. قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الأمين تنبأ وقد تبعه ابن أبي قحافة. قال: فخرجت حتى دخلت على أبي بكر رضي الله عنه فقلت: أتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق، فأخبره طلحة بما قال الراهب .

فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأسلم طلحة، وأخبر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما قال الراهب: فسر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك .

ولكن أمه الصعبة بنت عبد الله فعلت به الأفاعيل كما أخرج ذلك البخاري في التاريخ عن مسعود بن خراشي رضي الله عنه قال: بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقاً بيده في عنقه، قلت: ما شأنه؟ قالوا: هذا طلحة بن عبيد الله – رضي الله عنه – صبأ، وامرأة وراءه تدمدم (تتكلم بغضب) وتسبه. قلت: من هذه؟ قالوا: الصعبة بنت الحضرمي أمه .

وعلى الرغم من ثراء طلحة العريض، وجاهه في قومه، وتجارته الناجحة فقد حمل حظه من اضطهاد قريش، إذ وكل به وبأبي بكر نوفل بن خويلد بن العدوية، وكان يدعى (أسد قريش) فنادى أتباعه – وكان طاغية جباراً – وربطوا أبا بكر وطلحة في حبل واحد تعذيباً لهما على إسلامهما، ولهذا كان يقال لهما (القرينان) وهو تسمية خالدة تذكرنا بشرف احتمال العذاب في سبيل إعلاء كلمة الله .

بيد أن اضطهادهما لم يطل مداه، إذ سرعان ما خجلت قريش من نفسها، وخافت عاقبة عملها.. فلما نجاهما الله تعالى قال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: "يا طلحة هذا جبريل يقرئك السلام ويقول: أنا معك في أهوال يوم القيامة حتى أنجيك منها"، وفي رواية: "هذا جبريل يخبرني أنه لا يراك يوم القيامة في هول إلا أنقذك منه" .

هجرته وجهاده:

هاجر الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ ومعه الصديق أبو بكر.. وهاجرت السيدة رقية ابنته ﴿ﷺ وآله﴾ مع زوجها عثمان بن عفان، ولم تهاجر ابنته السيدة زينب حيث بقيت مع زوجها أبو العاص بن الربيع، أما السيدتان فاطمة وأم كلثوم فقد كانتا في انتظار من يرافقهما إلى المدينة لتصلا إليها في أمان الله .

ويذكر ابن سعد في طبقاته: لما ارتحل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من الخزار (اسم مكان) في هجرته إلى المدينة كفان الغد لقيه طلحة بن عبيد الله جائياً من الشام في عير، فكسا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأبا بكر من ثياب الشام، وخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن من بالمدينة من المسلمين قد استبطئوا رسول الله، فعجل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المسير، ومضى طلحة إلى مكة حتى فرغ من حاجته، ثم خرج بعد ذلك مع آل أبي بكر الصديق فهو الذي قدم بهم المدينة.

ويتاح لطلحة بن عبيد الله أن ينال شرف مرافقة أسره النبي ﴿ﷺ وآله﴾، مع حاديها وحارسها .

فلقد أسند ﴿ﷺ وآله﴾ إلى زيد بن حارثة، وأسامة بن زيد حراسة القافلة. وصادف موعد خروج طلحة وآل أبي بكر الصديق تحرك القافلة التي بها أسرة النبي ﴿ﷺ وآله﴾، والتي ضمت ابنتى النبي ﴿ﷺ وآله﴾: فاطمة وأم كلثوم ومعهما زوج الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ أم المؤمنين سودة بنت زمعة، وأم أيمن مرضعة الرسول رضي الله عنهم أجمعين .

ولما وصل المدينة نزل على أسعد بن زرارة، وآخى الرسول بينه وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المبشرين بالجنة .

يوم بدر:

في (الحوراء) بصحراء شبة الجزيرة العربية بين مكة ويثرب قبع طلحة بن عبيد الله، ومعه سعيد بن زيد وهما مكلفان من رسول الله ﷺ برصد حركة أكبر قوافل قريش التي تحمل تجارتهم، وتمر على قرب (يثرب) وكأن هذين البطلين – طلحة وسعيد – عينان نافذتان، أو كأنهما جنديان في سلاح الحدود الآن، أو سلاح الإشارة، أو قبسة من سلاح الإنذار المبكر. ولكنهما يسيران في ضوء نور الإيمان وهدى الحق. وباتت عيونهما تحرس في سبيل الله .

وكم عانى سيدنا طلحة، وإخوانه المهاجرون من ظلم قريش واضطهاد كفارها، وعندما رصد البطلان تحركات هذه القافلة عادا إلى المدينة بالخبر إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، إلا أنهما عرفا بأن الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ قد عسكر بالجيش عند موضع يقال له: (بدراً)، وكان اللقاء الأول بين كفار مكة والمسلمين الذين من الله عليهم بأول نصر مؤزر وهم أقل عدداً وعدة وعتاداً من عدوهم .

وبرغم فرحة سيدنا طلحة بن عبيد الله بنصر المؤمنين، إلا أنه أسف لعدم مشاركته في هذه الحرب، ولما أحس النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك الأسف طمأن طلحة وسعيداً بأن لهما أجر المجاهدين في بدر، كما لهما سهامهم.. بل وقسم لهما من غنائم المعركة مثل من شهدوها .

أحد وما أدراك ما أحد ؟

وتجئ غزوة (أحد) لتشهد كل جبروت قريش وكل بأسها حيث جاءت تثأر ليوم بدر، وتؤمن مصيرها بإنزال هزيمة كبيرة بالمسلمين، هزيمة حسبتها قريش أمراً ميسوراً مقدوراً ..!! .

ودارت حرب طاحنة سرعان ما غطت الأرض بحصادها الأليم.. ودارت الدائرة على المشركين. ثم لما رآهم المسلمون ينسحبون وضعوا أسلحتهم، ونزل الرماة عن مواقعهم ليحوزوا نصيبهم من الغنائم.. وفجأة عاد جيش قريش بقيادة خالد بن الوليد من الوراء على حين بغتة، فامتلك ناصية الحرب وزمام المعركة .

واستأنف القتال ضراوته وقسوته وطحنه، وكان للمفاجأة أثرها في تشتيت صفوف المسلمين .

وأبصر (سيدنا طلحة) جانب المعركة الذي يقف فيه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فألفاه قد صار هدفاً لقوى الوثنية والشرك، فسارع نحو الرسول .

وراح – ﷺ – يجتاز طريقاً ما أطوله على قصره ..! طريقاً تعترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة، وعشرات من الرماح المجنونة .

ورأى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من بعيد يسيل من وجنته الدم، ويتحامل على نفسه، فجن جنونه، وقطع طريق الهول في قفزة أو قفزتين، وأمام الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وجد ما يخشاه.. سيوف المشركين تلهث نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء .

ووقف طلحة كالجيش اللجب، يضرب بسيفه البتار يميناً وشمالاً.. ورأى دم الرسول الكريم ﴿ ﷺ وآله﴾ ينزف، فسانده وحمله بعيداً عن الحفرة – التي حفرها أبو عامر الفاسق – وزلت فيها قدمه الشريفة ﴿ ﷺ وآله﴾ .

كان يساند الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بيسراه وصدره، متأخراً به إلى مكان آمن، بينما يمينه – بارك الله يمينه – تضرب بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول ﴿ ﷺ وآله﴾، وملئوا دائرة القتال مثل الجراد ..!! .

ولندع الصديق أبو بكر ﷺ يصف لنا المشهد .

تقول عائشة: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد يقول: ذلك كان يوم طلحة، كنت أول من جاء إلى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، فقال لي الرسول ولأبي عبيدة بن الجراح: دونكم

أخاكم يريد طلحة.. ونظرنا، وإذا به بضع وسبعون طعنة وضربة رمح.. وإذا إصبعه مقطوعة.. فأصلحنا من شأنه .

ويذكر ابن جرير في تاريخه عن السدي قال: ما زال طلحة يدافع عن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى صدهم عنه. قال أبو بكر وكنت أنئذ وأبو عبيدة بن الجراح بعيدين عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.. فلما أقبلنا عليه نريد إسعافه قال: اتركاني وانصرفا إلى صاحبكما يريد طلحة.. فإذا طلحة تنزف دماؤه، وفيه بضع وسبعون ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية بسهم.. وإذا هو قد قطعت كفه، وقيل: إصبعه، وسقط في حفرة مغشياً عليه.. فكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول بعد ذلك: "من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى عنه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله" .

وفي رواية أخرجها ابن ماجة والبغوي عن جابر بن عبد الله: "من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة" .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك عن عبد الله بن الزبير قال: سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول يومئذ – يعني يوم أحد – "أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما صنع" يعني حين برك له طلحة، فصعد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على ظهره، وأوجب: يعني وجبت له الجنة .

وأخرج البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت طلحة يده شلاء وقى بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم أحد .

وأخرج الترمذي بسند حسن عن موسى بن طلحة بن أبيه طلحة بن عبيد الله قال: لما رجع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ (الأحزاب: ٢٣). فقام إليه رجل فقال: يارسول الله، من هؤلاء؟ فأقبلت وعلى ثوبان أخضران، فقال: أيها السائل هذا منهم .

وأخرج ابن سعد في الطبقات: (شهد طلحة أحداً مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وكان فيمن ثبت معه يومئذ حين ولى الناس، وبايعه على الموت، ورمى مالك بن زهير يوم أحد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فاتقى طلحة بيده عن وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فأصاب خنصره فشلت، فقال حين أصابته الرمية: حس (كلمة تقال عند الألم المفاجئ)، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: لو قال بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون. وكان طلحة قد أصابته يومئذ في رأسه المصلبة، ضربه رجل من المشركين ضربتين، ضربة وهو مقبل وضربة وهو معرض عنه، فكان قد نزف منها الدم، وكان ضرار بن الخطاب الفهري يقول: أنا والله ضربته يومئذ .

وأخرج ابن عساكر عن طلحة ﵁ قال: لما كان يوم أحد ارتجزت بهذا الشعر:

نحن حماة غالب ومالك　　　نذب عن رسولنا المبارك
نضرب عنه القوم في المعارك　　　ضرب صفاح الكوم في المبارك

الكوم: الناقة الضخمة السنام .

وما انصرف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم أحد حتى قال لحسان بن ثابت – ﵁– قل في طلحة – ﵁ – فقال:

وطلحة يوم الشعب آسى محمداً　　　على ساعة ضاقت عليه وشقت
يقيه بكفيه الرماح وأسلمت　　　أشاجعه تحت السيوف فشلت
وكان أمام الناس إلا محمداً　　　أقام رحى الإسلام حتى استقلت

وقال أبو بكر الصديق ﵁:

حمى نبي الهدى والخيل تتبعه　　　حتى إذا لقوا حامى عن الدين

صبراً على الطعن إذ ولت حماتهم   والناس من بين مهدى ومفتون
يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت   لك الجنان وزوجت المها العين

وقال عمر ﵁:

حمى نبي الهدى بالسيف منصلتاً   لما تولى جميع الناس وانكشفوا

قال: فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ صدقت يا عمر

جوده وكرمه:

أورد ابن سعد في طبقاته قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا موسى بن محمد ابن إبراهيم عن أبيه قال: كان طلحة بن عبيد الله يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراه عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبالأعراض له غلات، وكان لا يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤونه عياله وزوج أياماهم (أيم الرجل من زوجته فقدها، أو المرأة من زوجها فقدته)، وأخدم عائلهم، وقضى دين غارمهم، ولقد كان يرسل إلى عائشة إذا جاءت كل سنة بعشرة آلاف، ولقد قضى عن صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم .

ويذكر ابن سعد أيضاً قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني إسحاق بن يحي عن جدته سعدى بنت عوف المرية أم يحيي بن طلحة قالت: قتل طلحة بن عبيد الله – يرحمه الله – وفي يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم، وقومت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم .

وعلى هذا فقد كان سيدنا طلحة بن عبيد الله ﵁ من أكثر المسلمين ثراء، وأنماهم ثروة.. وكانت ثروته كلها في خدمة الدين الذي حمل مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ رايته. كان ينفق منها بغير حساب.. وكان الله ينميها له بغير حساب . وما أكثر ما كان يخرج من ثروته مرة واحدة، فإذا الله الكريم يردها إليه مضاعفة .

تحدثنا زوجته سعدى بنت عوف فتقول: دخلت على طلحة يوماً فرأيته مهموماً، فسألته: ما شأنك؟ فقال: المال الذي عندي.. قد كثر حتى أهمني وأكربني.. فقلت له: ما عليك.. اقسمه.. فقام ودعا الناس، وأخذ يقسمه عليهم حتى ما بقى منه درهم.

قال طلحة بن يحي: فسألت خازن طلحة: كم من المال؟ قال: أربعمائة ألف . (الخبر أخرجه الطبراني ورجاله ثقات) .

ومرة أخرى باع أرضا له بثمن مرتفع، ونظر إلى كومة المال ففاضت عيناه من الدمع ثم قال: (إن رجلاً تبيت هذه الأموال في بيته لا يدري ما يطرق من أمر، لمغرور بالله).. ثم دعا بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه، ومضى في شوارع المدينة وبيوتها يوزعها، حتى أسحر وما عنده منها درهم. (رواه أحمد) .

ويصف سيدنا جابر بن عبد الله سيدنا طلحة فيقول: (ما رأيت أحدا أعطى لجزيل مال من غير مسألة، من طلحة بن عبيد الله) .

ويقول السائب بن زيد: (صحبت طلحة بن عبيد الله في السفر والحضر فما وجدت أحدا أعم سخاء على الدرهم، والثوب، والطعام من طلحة) .

ويذكر أبو نعيم الأصفهاني في حيلة الأولياء أن سيدنا طلحة تصدق يوماً بمائة ألف درهم، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمع له بين طرفي ثوبه، (يعني لم يكن عنده ثوب يصلح أن يذهب به إلى المسجد) .

وقد وصفه أبو نعيم في حلية فقال: (ومن الأعلام الشاهرة، صاحب الأحوال الزاهرة.. الجواد بنفسه، الفياض بماله، طلحة بن عبيد الله، قضى نحبه، وأقرض ربه.. كان في الشدة والقلة لنفسه بذولاً، وفي الرخاء والسعة بماله موصولاً) .

مع الخلفاء الراشدين:

كان سيدنا طلحة ﷺ تلميذاً أحسن أستاذه ﴿ ﷺ وآله﴾ إعداده، وقد وهبه الله استعداداً طيباً طاهراً في الشجاعة والإقدام، والجود والكرم، والفصاحة والبلاغة، إنه عطاء ربك الكريم، يخص به من يشاء من عباده .

وكان أثناء حروب الردة قد اختاره الصديق أبو بكر لتأمين المدينة مع البطل الهاشمي سيدنا علي بن أبي طالب، ومعهما سيدنا الزبير بن العوام حتى إذا سولت لهؤلاء المرتدين نفوسهم باقتحام المدينة ألفوا في مقدمة المقاتلين المكلفين بالدفاع عنهم أبطالاً صناديد، ورجالاً يعرفون من هم في القتال والجهاد .

وقد كان ﷺ فصيحاً بليغاً إذا خطب.. ومما يثبته ابن مسعود ﷺ لسيدنا طلحة ابن عبيد الله وهو يرد على الفاروق عمر بن الخطاب عندما سأله عن قتال ملوك فارس قال طلحة: (مرنا نطع، وادعونا نجب، واحملنا نركب، وقدنا ننفذ، فإنك ولي هذه الأمور وقد بلوت واختبرت، فلم ينكشف لك عن شيء من عواقب قضاء الله عز وجل إلا عن خيار) ما أجملها من بلاغة، كلام مؤثر مؤسر، قليل لفظه، كثيرة معانيه .

ولقد كان لسيدنا طلحة مكانة ومنزلة عالية في قلب الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، وعندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي رشح ستة من كبار الصحابة وكان من هؤلاء الرجال سيدنا طلحة بن عبيد الله .

وتنشب الفتنة المعروفة في خلافة سيدنا عثمان بن عفان ﷺ.. ويؤيد طلحة حجة المعارضين لعثمان، ويزكى معظمهم فيما كانوا ينشدونه من تغيير وإصلاح. أكان بموقفه هذا، يدعو إلى قتل عثمان، أو يرضى به؟ كلا، ولو كان يعلم أن الفتنة ستتداعى حتى تنفجر آخر الأمر حقداً مخبولاً، ينفس عن نفسه في تلك الجناية البشعة التي ذهب ضحيتها (ذو النورين) عثمان بن عفان ﷺ ما وقف هذا الموقف .

على أن موقف طلحة هذا تحول إلى عقدة حياته بعد الطريقة البشعة التي حوصر بها عثمان وقتل، فلم يكد الإمام عليّ يتقبل بيعة المسلمين بالمدينة ومنهم طلحة والزبير، حتى استأذنه الاثنان في الخروج إلى مكة للعمرة .

ومن مكة توجها إلى البصرة حيث كانت قوات كثيرة تتجمع للأخذ بثأر عثمان.

وكانت وقعة الجمل حيث التقى المطالب بدم عثمان، والفريق الذي يناصر عليَّاً .

أي مأزق هذا؟ وأي ابتلاء عسير؟ .

وفي سبيل التماس مخرج من هذا المأزق، وصون دماء المسلمين لم يترك الإمام عليّ وسيلة إلا توسل بها، ولا رجاء إلا تعلق به .

ولكن العناصر التي كانت تعمل ضد الإسلام – وما أكثرها – كانت قد أحكمت نسج الفتنة، وراحت تغذيها وتتابع سيرها وتفاقمها.

وعندما أبصر الإمام علي وسط الجيش طلحة والزبير، حواريي رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومعهما السيدة عائشة رضي الله عنها: نادى طلحة والزبير ليخرجا إليه، فخرجا حتى اختلفت أعناق أفراسهم. فقال لطلحة: ياطلحة أجئت بعرس رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت ؟

ثم قال للزبير: نشدتك بالله، أتذكر يوم مر بك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ونحن بمكان كذا، فقال لك: يازبير، ألا تحب علياً، فقلت: لا أحب ابن خالي، وابن عمي، ومن هو على ديني؟ فقال لك: يازبير، أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم .

قال الزبير ﷺ: نعم أذكر الآن، وكنت قد نسيته، والله لا أقاتلك .

وأقلع الزبير وطلحة عن الاشتراك في هذه الحرب، وانسحبا من القتال، ودفعا ثمن ذلك الانسحاب حياتهما، ولكنهما لقيا الله قريرة أعينهما بما من عليهما من بصيرة وهدى .

وفاته:

كان مقتل سيدنا عثمان شهيداً قد تشكل في نفسية سيدنا طلحة حتى صار – كما قلنا – عقدة حياته، وحين أخذ مكانه يوم الجمل أمام سيدنا علي بن أبي طالب، كان يرجو أن يكون في موقفه هذه كفارة تريحه من وطأة ضميره. وكان قبل بدء المعركة يدعو ويضرع بصوت خافت تخنقه الدموع ويقول: (اللهم خذ مني لعثمان اليوم حتى ترضى). فلما واجهه سيدنا علي هو والزبير على النحو السابق، أضاءت كلمات الإمام علي ﷺ جوانب نفسيهما، فرأيا الصواب وتركا أرض المعركة. بيد أن الشهادة كانت مذخورة لهما.. أما الزبير فقد تعقبه رجل اسمه عمرو بن جرموز وقتله غيلة وغدراً وهو يصلي. وأما طلحة فقد رماه مروان بن الحكم بسهم أودى بحياته، فقال طلحة: بسم الله وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وكان ذلك يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة، وكان عمره ستين سنة، وقيل: اثنتين وستين سنة، وقيل: أربع وستين سنة. وحين كان سيدنا علي بن أبي طالب يستعرض شهداء المعركة راح يصلي عليهم جميعاً، الذين كانوا معه، والذين كانوا عليه.

ولما فرغ من دفن طلحة والزبير بالبصرة.. وقف يودعهما بكلمات جليلة، اختتمها قائلاً: (إني لأرجو أن أكون أنا، وطلحة، والزبير، وعثمان من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧). ثم ضم روضتهما بنظراته الحانية الصافية الآسية وقال: سمعت أذناي هاتان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: "طلحة والزبير، جاراي في الجنة" .

سادس العشرة

حوارى الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ الزبير بن العوام ﷺ

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، يجتمع مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في قصي بن كلاب، وينسب إلى أسد بن عبد العزى بن قصي، فيقال: القرشي الأسدي .

ليس بالطويل ولا بالقصير. وقيل: كان طويلاً يخط رجلاه في الأرض إذا ركب، خفيف اللحية أسمر اللون، أشعر.. وكان لا يغير شيبه .

أمه: السيدة الشريفة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، أسلمت وهاجرت.

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام الزبير، ويكنى أبا عبد الله، أخرج البغوى في معجمه: أن سيدنا الزبير ﷺ قال لابنه عبد الله: يابني.. كانت عندي أمك أسماء بنت أبي بكر ﷺ، وعند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خالتك عائشة رضي الله عنها.. وبيني وبينه من القرابة ما قد علمت، وعمة أبي أم حبيبة بنت أسد جدته ﴿ ﷺ وآله﴾، وأمي صفية عمته ﴿ ﷺ وآله﴾، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وأختها هالة بنت وهب بن عبد مناف جدتي، وخديجة بنت خويلد زوجته وعمتي .

أولاده وزوجاته: كان لسيدنا الزبير ﷺ عشرون ولداً، أحد عشر ذكراً وتسع إناث، وأما زوجاته فستة وهم:

١- عبد الله، وعروة، والمنذر، وعاصم، والمهاجر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة.. أمهم أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ "ذات النطاقين"

٢- خالد، وعمرو، وحبيبة، وسودة، وهند.. أمهم أم خالد وهي أمة الله بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية .

٣- مصعب، وحمزة، ورملة.. أمهم الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن كعب بن عليم بن حباب من كلب .

٤- عبيدة، وجعفر.. وأمهما زينب، وهي أم جعفر بنت مرثد بن عمر بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

٥- زينب.. أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط .

٦- خديجة الصغرى.. أمها الحلال بنت قيس بن نوفل بن جابر بن شجنة بن أسامة بن مالك بن نصر بن قعين من بني أسد .

ذكر ابن سعد في طبقاته قال: أخبرت عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمي يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أن لا نبي بعد محمد، وإنين أسمي بني بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا، فسمى عبد الله بعبد الله بن جحش، والمنذر بالمنذر بن عمرو، وعروة بعروة ابن مسعود، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب، وجعفراً بجعفر بن أبي طالب، ومصعباً بمصعب بن عمير، وعبيدة بعبيدة بن الحارث، وخالداً بخالد بن سعيد، وعمرا بعمرو بن سعيد بن العاص قتل شهيداً يوم اليرموك .

عبد الله بن الزبير: روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (أول مولود في الإسلام بعد الهجرة عبد الله بن الزبير، أتوا به النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، فأخذ النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ تمرة فلاكها ثم أدخلها في فيه فأول ما دخل بطنه ريق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾).

وقال أبو عمر: كناه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بكنية جده أبي بكر أبي أمه، وسماه باسمه، ودعا له وبارك عليه، وشهد الجمل مع أبيه وخالته، وكان فصيحاً ذا أنفة، أطلس لا لحية له، ولا شعر في وجهه، كان كثير الصوم والصلاة شديد البأس، كريم الجدات والأمهات والخالات، وبويع له بالخلافة سنة أربع وستين، وقتل سنة ثلاث وسبعين في أيام عبد الملك بن مروان على يد الحجاج وعمره ثلاث وسبعون سنة، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وحج بالناس ثمان حجج .

المنذر بن الزبير: كان يكنى أبا عثمان، وكان سيداً حليماً قتل مع أخيه عبد الله بمكة بعد أن حاصرها الحجاج وهدم الكعبة بالمنجنيق.. وتوفى المنذر وله عقب.

عروة بن الزبير: كان فقيهاً فاضلاً يكنى أبا عبد الله، وأصابته الأكلة في رجله بالشام، فقطعت رجله وعاش بعد ذلك ثمان سنين، توفى في ضيعة له بقرب المدينة وله عقب، وهو أحد الفقهاء السبعة المدنيين .

مصعب بن الزبير، كان يكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا عيسى، وكان أجود العرب وكان أسمح الناس كفا، وأحسنهم وجهاً كريماً شجاعاً جواداً ممدحاً، وجمع بين أربع عقائل لم يكن في زمانه أجمل منهن وهن: السيدة سكينة بنت الإمام الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وابنة زيان بن أنيف الكلبي سيد ضاحية العرب.. (ذكره الدارقطنى) .

قتل سنة اثنتين وسبعين، وعمره خمس وأربعون سنة على يد عبيد الله بن زياد ظبيان التميمي، وجاء برأسه إلى عبد الملك بن مروان فخر عبد الملك ساجداً .

حمزة بن الزبير: قتل مع أخيه عبد الله بمكة .

إسلامه:

أسلم سيدنا الزبير إسلاماً مبكراً.. إذ كان واحداً من العشرة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام، وأسهموا مع طليعته المباركة في دار الأرقم.. وكان عمره يومئذ ست عشرة سنة.. وهكذا رزق الهدى والنور والخير صبياً. ولقد كان فارساً ومقداما منذ صباه.. حتى إن المؤرخين ليذكرون أن أول سيف شهر في الإسلام كان سيف "الزبير".. ففي الأيام الأولى للإسلام، والمسلمون يومئذ قلة يستخفون في دار الأرقم.. سرت إشاعة ذات يوم أن الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ قتل.. فما كان من الزبير إلا أن استل سيفه وامتشقه وسار في شوارع مكة – على حداثة سنه – كالإعصار .. ! ذهب أولاً، يتبين

الخبر، معتزماً إن هو ألفاه صحيحاً أن يعمل سيفه في رقاب قريش كلها حتى يظفر بهم أو يظفروا به.. وفي أعلى مكة لقيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فسأله ماذا به؟ فأنهى إليه الزبير النبأ فدعا له الرسول بالخير، ولسيفه بالغلب .

ويروى صاحب الرياض النضرة: أن جبريل أنزل على النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وقال له: إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: (اقرأ مني على الزبير السلام، وبشره بأن الله أعطاه ثواب كل من سل سيفاً في سبيل الله عز وجل) .

وفي ذلك يقول الأسدي:

هذا أول سيف سل في غضب ... لله سيف الزبير المرتضى الأنفا
حمية سبقت من فضل نجدته ... قد يحبس النجدات المحبس الأرفا

وعلى الرغم من شرف الزبير في قومه فقد حمل حظه من اضطهاد قريش وعذابها، وكان الذي تولى تعذيبه عمه.. كان يلفه في حصير، ويدخن عليه بالنار كي تزهق أنفاسه، ويناديه وهو تحت وطأة العذاب: أكفر برب محمد، أدرأ عنك هذا العذاب . فيجيبه الزبير – الذي لم يكن يوم ذاك أكثر من فتى ناشيء، غض العظام – في تحد رهيب: (لا.. والله، لا أعود للكفر أبداً) .

وأسلم أخوه الشقيق السائب وجاهد مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾، واستعمله أبو بكر الصديق، وقتل يوم اليمامة شهيداً .

وأسلم أخوه لأبيه عبد الرحمن، واستشهد يوم اليرموك .

وكان سيدنا الزبير يتاجر في اللحوم وكان سيدنا أبو بكر تاجراً أيضاً، وقد حدث الصديق ﷺ عن الدعوة الجديدة، واستشعر الزبير على إثر حديث الصديق بأن شيئاً ما يسرى في كيانه، وبأن روحه ونفسه تضبح في جسده، فاتفق مع محدثه أبي بكر أن يلتقيا في جوف الليل إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ولم يطل اللقاء، فأعلن الزبير إسلامه

وسعد به المسلمون، كما حزن كفار قريش لأنهم يعرفون من هو الزبير بن العوام.. إنه ذلك الفتى الذي لم يسجد لصنم قط، ولم يأت فعلاً مشيناً من أفعال الجاهلية الأولى .

هجرته:

لما أشتد أذى كفار مكة على المسلمين أذن لهم النبي ﴿ﷺ وآله﴾، بالهجرة إلى الحبشة عند النجاشي العادل، الرحيم الذي لا يظلم عنده أحد .

وكان الزبير بن العوام واحداً من هؤلاء الذين نالوا شرف هذه الهجرة متحملاً ما شاء الله أن يتحمل من هجر الوطن، والأهل، والمال والحياة، حيث نشأ وتربى وعاش .

وبرغم أن الهجرة إلى أرض الحبشة عند النجاشي مرهقة مخيفة مرعبة، فهي تتم بالبحر الذي لم يعتاده المسلمون بعد، ولكن ليس أمام هؤلاء المظلومين غير ركوبه مهما كان صعبا، فهم مضطرون .

وبينما المسلمون في الحبشة علموا بأن الله هدى عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما إلى الإسلام، وهم يعرفون من عمر، ومن حمزة؟ فعاد بعض المسلمين إلى مكة، وكان من هؤلاء الزبير بن العوام الذي اشتاق إلى الرسول ﴿ﷺ وآله﴾..

وبقى الزبير في مكة يبيع اللحوم، ويرى قريشا ما زالت باقية على ضلالها وجبروتها، تبطش بالمسلمين وتضطهدهم .

ولم تخف حدة هذا الأذى أو تهدأ، فأمر النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أصحابه بالهجرة إلى يثرب، ونال الزبير بن العوام هذا الشرف أيضاً وتحمل في سبيل الدين ما تحمل، ونزل على مقربة من قباء في بقعة يقال لها العصبة.

ولما وصل إلى المدينة نزل على المنذر بن محمد بن عقبة، وآخى النبي ﴿ﷺ وآله﴾ بينه وبين كعب بن مالك ﷺ .

جهاده:

غزوة بدر الكبرى: لم يمض على هجرة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ إلى المدينة كثيراً، وكانت موقعة بدر الكبرى في العام الثاني من الهجرة، حيث التقى جيش الإيمان تحت قيادة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وجيش الكفر الذي كان عدده وعتاده ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، يتقدمهم عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مشهور بشدته وبطولته النادرة، وفروسيته الفذة، لهذا وضعته قريش في الصفوف الأولى، وراحت تتحدى به المسلمين! وينظر إليه الزبير بن العوام فيراه قد غطى جميع جسمه بالسلاح حتى لا تناله السيوف والرماح، فلا يرى منه إلا عيناه !

أخرج البخاري عن الزبير ﷺ قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وكان يكنى أبا ذات الكرش، فحملت عليه بالعترة – مثل نصف الرمح وفيها سنان مثل سنان الرمح – فطعنته في عينه فمات، قال هشام بن عروة: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطيت وكان الجهد أن نزعها وقد أنثنى طرفها. قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فأعطاه إياها فلما قبض رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فلما قبض أخذها، ثم سألها عمر فلما قبض عمر أخذها، ثم سألها عثمان فلما قتل وقعت إلى آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل .

ويروى ابن سعد في طبقاته: بأن الزبير قتل عمه نوفل بن خويلد يوم بدر، وقد أبدى في ذلك اليوم من الشجاعة والبطولة والجرأة والإيمان ما أبدى .

وكان يلبس عمامة صفراء، وقد نزلت الملائكة يومئذ بعمائم صفر. فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (لقد نزلت الملائكة على سيما الزبير) .

غزوة أحد: وهي الغزوة التي أشيع فيها أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد قتل !

كانت مجموعة من كبار الصحابة قد أحاطوا بالرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ في قوة وعزم يفتدونه بأرواحهم ومن هؤلاء الصحابة السادة: أبو بكر، وعمر، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام .

ذكر يونس عن ابن إسحاق أن طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين يوم أحد دعا إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس – أن نكصوا هيبة لأنه كان من الأبطال المشهورين فبرز إليه الزبير بن العوام – فوثب حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه فأثنى عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال: "لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيت من إحجام الناس عنه" .

ولقد كانت للزبير جولة في نهاية المعركة.. بعد أن انقلب جيش قريش راجعا إلى مكة، ندبه الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته حتى يروا أن المسلمين قوة فلا يفكروا في الرجوع إلى المدينة واستئناف القتال .

وقاد أبو بكر والزبير سبعين من المسلمين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتعقبون جيشاً يعتبر نفسه منتصراً فإن اللباقة الحربية التي استخدمها الصديق والزبير، جعلت قريشاً تظن أنها أساءت تقدير خسائر المسلمين، وجعلتها تحسب أن هذه الطليعة القوية التي أجاد الزبير مع الصديق إبراز قوتها، ما هي إلا مقدمة لجيش الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ الذي يبدو أنه قادم ليشن مطاردة رهيبة فأسرعت قريش خطاها إلى مكة .

غزوة الأحزاب: **عن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم الخندق ندب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الناس فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "لكل نبي حوارى وحواري الزبير" أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد والبزار .**

ولا عجب لقد كان الزبير بن العوام أمة وحده وركنا من أركان الإسلام كما وصفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . (أخرجه ابن السرى وذكره صاحب الرياض النضرة)

.

وحين طال حصار بني قريظة دون أن يستسلموا أرسله الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ مع الإمام علي بن أبي طالب، فوقف أمام الحصن المنيع يردد مع الإمام علي قوله: (والله لنذوقن ما ذاق حمزة بن عبد المطلب، أو لنفتحن عليهم حصنهم) . ثم ألقيا بنفسيهما وحيدين داخل الحصن.. وبقوة يقين أذهلت يهود بني قريظة أحكما إنزال الرعب في أفئدة المتحصنين داخله وفتحا للمسلمين أبوابه .

وأخرج البخاري ومسلم عن الترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن الزبير قال: لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر بن أبي مسلمة في الأطم "بناء مرتفع كالحصن" الذي فيه نساء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أطم حسان، وكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعني عرفت أبي الزبير حين يمر إلى بني قريظة، وكان يقاتل مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم الخندق، فقال:

من يأتي بني قريظة فيقاتلهم؟ قلت له حين رجع: ياأبت إن كنت لأعرفك حين تمر ذاهباً إلى بني قريظة. فقال: يابني أما والله إن كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليجمع لي أبويه جميعاً يتفدانى بهما ويقول: (فداك أبي وأمي يازبير) .

ذكر يونس عن بن إسحاق قال: خرج نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يوم الخندق، فسأل المبارزة فخرج إليه الزبير بن العوام ﵁ فضربه فشقه باثنتين حتى فل في سيفه فلا، وانصرف وهو يقول:

أنا امرؤ أحمي وأحتمي   عن النبي المصطفى الأمي

فتح مكة: أخرج ابن سعد في طبقاته: لما فتح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مكة كان الزبير بن العوام على المجنبة (الناحية) اليسرى، وكان المقداد بن الأسود على المنجبة اليمنى،

فلما دخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، مكة وهدأ الناس، جاء بفرسيهما فقام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، يمسح الغبار عن وجوههما بثوبه وقال "إني قد جعلت للفرس سهمين وللفارس سهماً فمن نقصهما نقصه الله " .

يوم حنين: أبصر الزبير بن العوام مالك بن عوف زعيم هوازن وقائد جيوش الشرك في تلك الغزوة، أبصره بعد هزيمتهم في حنين واقفاً وسط فيلق من أصحابه وبقايا جيشه المنهزم، فاقتحم حشدهم وحده، وشتت شملهم وحده، وأزاحهم عن المكمن الذي كانوا يتربصون فيه ببعض المسلمين العائدين من الغزوة .

فتح مصر: حينما طلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مدداً من الجيش لمعاونته على فتح مصر وهزيمة جيش الروم المعسكر بها أمده بأربعة آلاف جندي عليهم أربعة من القواد وكتب إليه: "قد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة الواحد منهم بألف رجل" .

أتدري من هؤلاء الأربعة ؟

أهم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد. وأمام حصن بابليون الذي بناه الروم، يضرب الزبير أروع الأمثلة في التضحية والفداء لإعلاء كلمة الدين وراية الحق. ويهب نفسه لله ويضع سلماً أمام الحصن بعدما استعصى عليهم فتحه زهاء مائتي يوم أو يزيد، ويصعد إلى أعلى الحصن ويقول: الله أكبر بأعلى صوته فيرد الجيش الإسلامي كلمة التوحيد مرات ومرات من خارج الحصن، فيظن أهل الحصن أن المسلمين قد اقتحموه ويولون الأدبار. وعندئذ يتجه الزبير إلى باب الحصن فيفتحه ويكون النصر.

يوم اليرموك: كان الزبير جيشاً وحده.. فحين رأى أكثر المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة، صاح هو الله أكبر.. واخترق تلك الجبال

الزاحفة وحده، ضارباً بسيفه.. ثم قفل راجعاً وسط الصفوف الرهيبة ذاتها، وسيفه يتوهج في يمينه لا يكبو، ولا يخبو.. !

لقد قتل الزبير عدد كبيرا من الروم حتى تحقق النصر للمسلمين في هذه المعركة .

ولقد قيل في تاريخه: "إن الزبير ما ولي إمارة قط ولا جباية، ولا خراجاً ولا شيئاً إلا الغزو في سبيل الله" .

فلو كان يشاركه في القتال مائة ألف، لرأيته يقاتل وكأنه وحده، وكأن مسئولية القتال والنصر تقع على كاهله وحده.. ولذلك لا عجب أن يقول عروة بن الزبير: أوصى الزبير إلى ابنه صبيحة الجمل، فقال: يابني ما من عضو إلا وقد جرح مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. (أخرجه الترمذي) .

فضائله:

١- أخرج الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال، وذكر صاحب الرياض النضرة عن سيدنا عمر بن الخطاب قال: رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد نام، فجلس الزبير يذب عن وجهه، حتى استيقظ فقال له: ياأبا عبد الله لم تزل؟ قال: لم أزل أنت بأبي وأمي، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "هذا جبريل يقرئك السلام، ويقول أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك شرر جهنم" .

٢- قال فيه حسان بن ثابت ﵁ .

أقام على عهد النبي وهديه　　حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه　　يوالي ولي الحق والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي　　يصول إذا ما كان يوم محجل
له من رسول الله قربى قريبة　　ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل
فكم كربة ذب الزبير بسيفه　　عن المصطفى والله يعطي ويجزل

إذا كشفت عن ساقها الحرب حشها بأبيض سباق إلى الموت يرقل
فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس يكون الدهر ما دام يذبل
ثناؤك خير من فعال معاشر وفعلك ياابن الهاشمية أفضل

٣- روى مسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان على جبل حراء فتحرك.. فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "أسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد" .

وعليه النبي ﴿ﷺ وآله﴾.. والسادة أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص ﵃ .

٤- كان للزبير بن العوام ﵁ ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ما يدخل بيته من خراجهم درهماً.. بل كان ينفقه في سبيل الله كل ليلة ثم يقوم إلى مترله ليس معه شيء.. وكان الله يعطيه بغير حساب، فقد استشهد ﵁ تاركاً ثروة عظيمة.. أتدري كم كانت ثروته؟

يقول ابن كثير في البداية والنهاية: (جميع ما تركه الزبير من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين ألف ألف وثماني مائة ألف). وقال البخاري: (إن جميع ما له خمسون ألف ألف ومائتا ألف) .

٥- أخرج مسلم عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قالت لي عائشة: ياعروة كان أبواك من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح (تعني أبو بكر والزبير) .

٦- اختصاصه بمرافقة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ إلى وفد الحج: جاء في الرياض النضرة للمحب الطبري عن الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الصبح في مسجد المدينة، فلما انصرف قال: أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟ فأسكت القوم فلم يتكلم منهم أحد، فقال ذلك ثلاثاً فلم يتكلم منهم أحد، فمر بي يمشي وأخذ بيدي

فجعلت أمشي معه، وما أجد من مس حتى خنس عنا نخل المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض بوار فإذا رجال طوال كأنهم رماح، مستثغري ثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة حتى ما تمسكني رجلاي من الفرق، فلما دنونا منهم خط لي رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ برجله في الأرض خطاً، وقال لي: اقعد في وسطها. فلما جلست فيها ذهب عني كل شيء كنت أجده، ومضى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وتلا عليهم القرآن حتى طلع الفجر، ثم أقبل حتى مر بي، فقال: الحق، فجعلت أمشي معه فمضينا غير بعيد، فقال لي: التفت فانظر هل ترى حيث كان من هؤلاء من أحد؟ فقلت: يارسول الله أرى سواداً كثيراً، فقال: فخفض رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيده الأرض وأخذ بروثة ثم رمى بها إليهم، وقال: رشد أولئك من وفد قوم .

وقد تقدم أن ذلك حدث أيضاً مع ابن مسعود في مكة .

وفاته:

لما كانت وقعة الجمل دنا الإمام علي وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج الإمام علي وهو على بغلة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فنادى: ادعوا لي الزبير بن العوام فأقبل الزبير حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال الإمام علي: يازبير أنشدك الله، أتذكر يوم مر بك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ونحن في مكان كذا وكذا، فقال: (يا زبير ألا تحب عليا)؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمتي ومن هو على ديني؟ فقال: (يا زبير.. أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له) . فقال الزبير: بلى! والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ثم ذكرته الآن والله لا أقاتلك..

فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير، فقال: مالك؟ قال: ذكرني عليّ حديثاً سمعته من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، سمعته يقول: (لتقاتلنه وأنت له ظالم) فقال: أو للقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفته ألا أقاتله .

وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عماراً مع الإمام عليّ، وقد سمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية. فخشى أن يقتل عماراً في هذا اليوم .

ورجع الزبير حتى نزل وادياً يقال له: وادي السباع بالبصرة، فاتبعه رجل يقال له عمرو بن جرموز فجاءه وهو يصلي فقتله غيلة، وأخذ رأسه وذهب به إلى الإمام عليّ – رأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده – فاستأذنه، فقال الإمام عليّ: لا تأذنوا له وبشروه بالنار، وفي رواية: إن الإمام عليّاً قال: سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: (بشر قاتل ابن صفيه بالنار) .

ودخل ابن جرموز ومعه سيف الزبير، فقال الإمام عليّ: إن هذا السيف طالما فرّج الكرب عن وجه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فلما سمع عمرو بن جرموز ذلك قتل نفسه .

وكان انتقال سيدنا الزبير ﷺ يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة – وعمره خمس وستون سنة – وصلى عليه الإمام علي كرم الله وجهه ودفنه بوادي السباع في البصرة، وقال: سمعت أذناي هاتان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: "طلحة والزبير جاراي في الجنة" .

سابع العشرة

أول رامٍ بسهم سعد بن أبي وقاص ﷺ

هو سعد بن مالك – وهو أبو وقاص – بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.. يجتمع مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في كلاب بن مرة.. وجده وهيب بن عبد مناف، عم السيدة آمنة أم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وينسب إلى زهرة بن كلاب فيقال: القرشي الزهري.. ويجتمع هو وعبد الرحمن بن عوف في زهرة .

وعن الضحاك وابن سعد والمحب الطبري: عن سعد بن أبي وقاص أنه قال للنبي ﴿ﷺ وآله﴾: من أنا يارسول الله ﴿ﷺ وآله﴾؟ قال: (أنت سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله) .

أمه: حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ماتت ولم تسلم.

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام سعداً، ويكنى أبا إسحق .

صفته: ذكر ابن قتيبة، وابن الجوزي في صفة الصفوة، والمحب الطبري في الرياض النضرة: أنه كان رجلاً قصيراً غليظاً، ذا هامة، غليظ الأصابع، آدم جعد الشعر، أشعر الجسد، يخضب بالسواد، ذهب بصره في آخر عمره، وقيل: إنه كان طويلاً .

أولاده وزوجاته: كان لسيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ من الولد أربعة وثلاثون ولداً، سبعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، أما زوجاته فإحدى عشر وهم:

ذكر الذكور:

١– إسحاق الأكبر: وبه يكنى أبوه.. أمه ابنة شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة.

٢– عمر: قتله المختار، ومحمد: قتله الحجاج يوم دير الجماجم.. أمهما ماوية بنت قيس بن معدى يكرب بن أبي الكسيم بن السمط ابن امرئ القيس بن عمرو من كندة .

٣– عامر: وكان يروى عنه الحديث، وإسحق الأصغر، وإسماعيل.. وأمهم أم عامر بنت عمرو بن كعب بن عمرو بن زرعة بن عبد الله من بهراء .

٤– إبراهيم، وموسى.. أمهما زبد بنت الحارث بن يعمر بن شراحبيل، أصيبت سباء.

٥– عبد الله.. أمه خولة بنت عمرو من بني تغلب بن وائل .

٦– عبد الله الأصغر، وبجير واسمه عبد الرحمن.. أمهما أم هلال بنت ربيع بن مرى .

٧– عمير الأكبر: وتوفى قبل أبيه.. أمه أم حكيم بنت قارظ من بنى كنانة حلفاء بنى زهرة .

٨– عمير الأصغر، وعمرو، وعمران.. أمهم سلمى بنت حفص .

٩– صالح: كان نزل الحيرة لشر وقع بينه وبين أخيه عمر بن سعد.. أمه طيبة بنت عامر بن عتبة بن شراحبيل .

١٠– عثمان.. أمه أم حجير .

ذكر الإناث:

١- أم الحكم الكبرى شقيقة إسحق الأكبر .

٢- حفصة وأم القسم، وكلثوم شقائق عمر، ومحمد .

٣- أم عمران شقيقة إسحق الأصغر .

٤- أم الحكم الصغرى، وأم عمر، وهند، وأم الزبير، وأم موسى شقائق إبراهيم وموسى .

٥- حمنة أخت بجير وعبد الله الأصغر .

٦- حمنة أخت عمير الأكبر .

٧- أم عمر، وأم أيوب، وأم إسحق شقائق عمير الأصغر، وعمرو، وعمران .

٨- رملة أخت عثمان .

٩- عمرة وهي العمياء، تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف وأمها امرأة من سبى العرب .

١٠- عائشة بنت سعد .

(ذكر ذلك كله ابن قتيبة، وابن سعد، وابن الجوزي، والمحب الطبري) .

إسلامه:

بينما يستغرق سيدنا سعد في نوم عميق، يرى في منامه ما تحكيه ابنته عائشة عنه قالت: إن أبي قال: رأيت في المنام قبل أن أسلم بثلاث كأني في ظلمة لا أبصر شيئاً، فإذا قمر يضيء جوانب الدنيا فأتبعته، فكأني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة، وإلى علي بن أبي طالب، وإلى أبي بكر الصديق، وكأني أسألهم: متى انتهيتم إلى هنا ؟ قالوا: الآن. أخرجه الفضائلي، والمحب الطبري .

ما هذا القمر المنير الذي يضيء جوانب الدنيا؟ وليس هناك شك بأنه لم يجر بذهنه بأنه نور الإسلام .

ولم يستمر سيدنا سعد في حيرته طويلاً، فها هو ذا أبو بكر الصديق يلتقي به وكلاهما يعرف الأخر من زمن طويل، ويتحدثان ثم يتطرق الصديق إلى الحديث عن الدين الجديد.. وينهي حديثه بدعوة سعد إلى هذا الدين ولقاء النبي ﴿ﷺ وآله﴾، حتى يسمع منه الخبر اليقين .

ويقبل سعد الدعوة، ويذهب مع أبي بكر للقاء النبي ﴿ﷺ وآله﴾ ويستمع إليه، ويعرف منه أن أبا بكر وعليّاً وزيد بن حارثة قد أسلموا كما أسلمت خديجة بنت خويلد، ويذهب فكر سعد فيما رأى من قبل في منامه، ويصغي إلى الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ فيعرف مبادئ الإسلام، ويعلن إسلامه، وكأنه قد انتشل من ظلام، ويرى أنه أصبح مع جمع قمر المنام.. وكان عمره سبع عشرة سنة. وعلمت أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بإسلام سعد فقالت له: هل تركت دينك، ودين آبائك وأجدادك؟ ثم قالت: لتتركن هذا الدين أو لامتنعن عن الطعام والشراب حتى أموت، فيعيرك الناس بموتي، وتلحق بك معرة الأبد!!

واستمرت الأم على ترك الطعام والشراب حتى هددها الجوع وأهزلها، وكاد العطش يهلكها وأصبحت في خطر شديد .

وطلب القوم من سعد أن يذهب إليها ليته يرق لها ويستجيب لطلبها – وسعد يحب أمه ويبرها ويرجو لها الخير – فذهب سعد ورأى أمه على أسوأ حالة، ورق لها قلبه، ولكنه قال لها: أعلمي يأمي أنه لو كان لكي ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني.. فارجعي إلى طعامك وشرابك.. وفي هذا علاجك مما ألم بك .

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ . (لقمان: ١٤ – ١٥) .

ما أعمق إيمان سيدنا سعد !! وما أروع مبادئ الإسلام !! فما أعدله بالوالدين وما أبرهم من دين.. وما أسعد سعداً وهو يترل فيه من عند الله قرآن كريم. وأسلم أخواه لأبويه عامر وعمير ابنا أبي وقاص، وأخواه لأبيه عتبة وخالدة . فأما عامر: فكان من مهاجرة الحبشة ثم هاجر إلى المدينة، وكان فاضلاً، روى سعد بن أبي وقاص أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال يوماً: (يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلع أخي عامر) .

وأما عمير: فشهد بدراً وهو ابن ست عشرة سنة فيما يقال، وأراد النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يرده فبكى فخرج به معه فاستشهد يومئذ وقتله عمرو بن ود .

وأما عتبة: فاختلف في إسلامه فقيل: إنه أصاب دماً في قريش فانتقل إلى المدينة قبل الهجرة، فاتخذ بها مترلاً ومالا، وتوفى في الإسلام، وقيل: لم يسلم، وكان في صفوف المشركين يوم أحد، وهو الذي ألقى حجراً على النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، فكسر رباعيته، فدعا عليه النبي قائلاً: "اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافراً ". فحدث ذلك .

وأما خالدة: فتزوجها سمرة بن جنادة السوائي الصحابي الجليل وولدت له. وقد روى سيدنا سعد مائتي حديث وسبعين حديثاً .

فضائله وخصائصه:

١– أول رام بسهم في سبيل الله: عن سعد بن مالك قال: إني أول العرب رمى في سبيل الله .

ويذكر ابن سعد في الطبقات عن سعد بن مالك قال:

ألا هل أتى رسول الله أني حميت صحابتي بصدور تبلى
أزود بها عدوهم زياداً بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رامٍ من معد بسهم مع رسول الله قبلي

قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: كان ذلك في سرية في شهر شوال على رأس ثمانية أشهر من هجرة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وكانت إلى بطن رابغ وكانت من ستين راكباً من المهاجرين .

٢– مستجاب الدعوة: عن سعد أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال: " اللهم استجب لسعد إذا دعاك" . أخرجه الترمذي .

وعن جبير بن مطعم بن المقداد أن سعداً قال: يارسول الله أدع الله أن يستجيب دعائي، قال: "يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يطيب مطعمه" . قال: يارسول الله: أدع الله أن يطيب مطعمي، فإني لا أقوى إلا بدعائك. قال: "اللهم أطب طعمة سعد". فإن كان سعد لا يرى السنبلة من القمح في حشيش دوابه، فيقول: ردوها من حيث حصدتموها .

٣– سداد سهمه: عن سعد أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "اللهم سدد سهمه وأجب دعوته" (أخرجه أبو نعيم) .

٤- جمع النبي أبويه له يوم أحد: عن الإمام علي كرم الله وجهه قال: ما جمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أبويه لأحد غير سعد بن مالك فإنه جعل يقول له يوم أحد: (ارم فداك أبي وأمي) (أخرجه مسلم والترمذي) .

وقد تقدم مثل ذلك لسيدنا الزبير بن العوام ﷺ في غزوة الخندق، ولعل سيدنا علي يقصد أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ لم يجمع أبويه قبل غزوة أحد إلا لسيدنا سعد ﷺ .

٥- تمنى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يحرسه: عن عائشة قالت: أرق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذات ليلة فقال: "ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة" . فقالت: فسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (من هذا؟) قال: سعد بن أبي وقاص يارسول الله، جئت أحرسك. قالت عائشة: فنام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ودعا له. (أخرجه مسلم والترمذي) .

٦- رؤيته لجبريل وميكائيل يوم أحد: عن سعد قال: رأيت عن يمين النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد قتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل. أخرجه أبو حاتم .

٧- خال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبل سعد، فقال النبي ﴿ﷺ وآله﴾: "هذا خالي فليرني أمرؤ خاله" . أخرجه الترمذي وابن عبد البر.

وكان سيدنا سعد من بني زهرة وأم النبي ﴿ﷺ وآله﴾ من بني زهرة . فلذلك قال: خالي .

٨- شهادة النبي ﴿ﷺ وآله﴾ له بالجنة: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة"، فدخل سعد بن أبي وقاص. (أخرجه أحمد) .

٩- أول من كوف الكوفة: جاء في النهاية لابن الأثير: لما أراد سعد بن أبي وقاص أن يبني الكوفة قال: تكوفوا في هذا الموضع، أي: اجتمعوا فيه، وبه سميت الكوفة، وقيل: كان اسمها قديماً كوفان .

١٠- ناصر الدين: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "يا سعد أنت ناصر الدين حيث كنت". أخرجه الملاء في سيرته .

١١- سعد بألف فارس: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: "سعد بن أبي وقاص بألف فارس". أخرجه الملاء .

١٢- صدقه: عن ابن عمر أن سعداً حدثه عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنه مسح على الخفين، وأن ابن عمر سأل عن ذلك عمر، فقال: نعم إذا حدث سعد عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فلا تسأل عنه غيره. (أخرجه البخاري) .

١٣- صبره مع رسول الله ﷺ: عن سعد قال: إني لأول العرب من رمى سهماً في سبيل الله، وقد كنا نغزو مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما لنا طعام إلا ورق الحبلة (تشبه اللوبيا) وهذا الثمر حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط. (أخرجه البخاري وأبو نعيم) .

والمعنى: أنهم كانوا يأكلون خبز الشعير وورق الشجر .

جهاده:

كان سيدنا سعد بن أبي وقاص بطلاً غير هياب، يملأه الإيمان قوة، والشباب حماسة وفتوة، وقد خاض مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كل الغزوات .

فقد شهد بدراً: أول معركة بين المسلمين والكفار وأبدى فيها من الشجاعة ما أبدى، ومن دقة التنظيم، وحسن التفكير والتخطيط، ما كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عنه راض، وبه سعيد .

ولم يستمر الزمن طويلاً، وأرادت قريش الثأر من المسلمين لما ألحقوه بها من هزيمة وعار في موقعة بدر فكانت موقعة أحد: والتي خدع المسلمون في الساعات الأولى منها، وترك الرماة موقعهم الذي أوصاهم الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ بالبقاء فيه، فانتهز خالد بن الوليد – لم يكن أسلم بعد – وجيش الكفر ذلك فعاودوا الهجوم على المسلمين، واحتدم القتال، وأحاط الكفار برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وفر بعض المجاهدين من المسلمين، وارتجفت قلوب آخرين، ولكن نفراً من المؤمنين – ومنهم سيدنا سعد – أحدقوا حول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأبدوا من البطولة والتضحية والفداء والجراءة ما أثار حفيظة الأعداء، وأسعد قلوب المؤمنين. وانبرى سيدنا سعد يرمي الكافرين بالسهام والنبال، ورأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما يصنع سعد فقال له: "أرم ياسعد فداك أبي وأمي" .

وفيما رواه الزهري: (أن سعداً بن أبي وقاص رمى يوم أحد ألف سهم) .

أي شرف هذا؟! وما أروع هذا النوط النبوي من الطبقة الأولى: (فداك أبي وأمي) .

مع سيدنا أبي بكر: يتولى الصديق الخلافة بعد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ويستمر عطاء سيدنا سعد بن أبي وقاص للإسلام، فيشارك في حروب المرتدين، ويبلى فيها بلاء حسناً، وبعد أن هدأت حروب الردة، فكر الصديق في تأمين حدود الدولة الإسلامية

مع الفرس والروم، وكان سيدنا سعد في هذا الوقت موفوداً من قبل الخليفة أبي بكر إلى هوازن يجمع العشور والزكاة. وينتقل الصديق إلى الرفيق الأعلى .

ويتولى سيدنا عمر خليفة للمسلمين ولا يجد بدا من الحرب مع الفرس فاستدعى الفاروق عمر سعداً من هوازن، لأنه يعلم مزلته في الحرب ودقته في قيادتها، وقد ابتكر الفرس محاربة المسلمين بالفيلة، وكان ما لحق بالمسلمين في موقعة الجسر التي ذهب ضحية لها في يوم واحد أربعة آلاف شهيد..فتألم الفاروق وفكر في أن يقود المعركة بنفسه، ولكنه والمسلمين وجدوا سعداً رجل الكفاءة والكفاية .

وتقلد سيدنا سعد قيادة الجيش في حرب القادسية.. واستمر صابراً محتملاً، وتمادى الفرس في تجاهله أكثر من مائة يوم لعله يترك القادسية ذلك الموقع الحصين يائساً..

واستمر ذلك وقتاً حتى حانت لحظة اللقاء والمعركة، وقد عبأ سيدنا سعد الجنود تعبئة معنوية هائلة، ودوى الكون، وأوب مع المكبرين، ومد ذراعه كالسهم النافذ مشيراً إلى العدو وصاح: هيا على بركة الله. والتقى مع الفرس، ولقنهم درساً لا ينسى، وفر قائدهم (رستم) هارباً وألقى بنفسه في النهر فتبعه أحد جنود العرب وقتله شر قتله..

وكان اليوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة، وتهاوت جنود الفرس.. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار.. وطارت فلولهم المهزومة.. وطاردهم الجيش المسلم حتى نهاوند ثم المدائن فدخلوا ليحملوا إيوان كسرى وتاجه، غنيمة وفيئاً .

وفي موقعة المدائن أبلى سيدنا سعد بلاء عظيماً، وكانت بعد القادسية بعامين تقريباً..

وتصف لنا إحدى الروايات التاريخية روعة المشهد وهم يعبرون دجلة فتقول: أمر سعد أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم اقتحم بفرسه دجله، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد فساروا في كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملئوا ما بين الجانبين، ولم يعد وجه الماء يرى من أفواج الفرسان والمشاة وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون

على وجه الماء، وكأنهم يتحدثون على وجه الأرض، وذلك بسبب ما شعروا من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ونصره ووعده، وتأييده !! .

ويمتد العمر بسيدنا سعد.. وتجيء الفتنة الكبرى بين الإمام علي ومعاوية فيعتزلها.. بل يأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئاً من أخبارها. وذات يوم تشرئب الأعناق نحوه، ويذهب إليه ابن أخيه: هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويقول: ياعم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر. فيجيبه سيدنا سعد: (أريد من مائة ألف سيف، سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً، وإذا ضربت به الكافر قطع). وحين انتهى الأمر لمعاوية، واستقرت بيده مقاليد الحكم سأل سعداً.. ما لك لم تقاتل معنا؟، فأجابه سعد قائلاً: (ما كنت لأقاتل رجلاً – يعني الإمام علي – قال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: أنت مني بمترلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) .

وفاته:

روى ابن حجر عن عامر بن سعد قال: كان سعد آخر المهاجرين موتاً – يقصد من الرجال فقط – وكان آخر العشرة موتاً .

وذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة وأبو عمر: أن سيدنا سعد بن أبي وقاص مات في قصره بالعقيق على بعد عشرة أميال من المدينة وحمل على أعناق الرجال إلى المدينة، ودفن بالبقيع، وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة، ثم صلى عليه أزواج النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في حجرهن .

وأخرج مسلم: عن موسى وعقبة عن عبد الواحد بن حمزة قال: لما توفى سعد أرسل أزواج النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أن مروا بجنازته في المسجد ففعلوا، فوقف بهم على حجرهن فصلين عليه فبلغهن أن الناس عابوا ذلك، وقالوا ما كانت الجنائز يدخل بها المسجد فقالت عائشة: ما أسرع الناس إلى أن يعيبوا ما لا علم لهم به، عابوا علينا أن يمر بجنازة

في المسجد، ما صلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على سهل بن بيضاء إلا في جوف المسجد .

وذكر ابن الجوزي والفضائلي: وكان سعد أوصى أن يكفن في جبة صوف له كان لقي المشركين فيها يوم بدر، فقال: اخبئوها لهذا، فتكفن فيها .

ويذكر بن سعد في طبقاته: أرسل سعد بن أبي وقاص إلى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم، وترك سعد يوم وفاته مائتي ألف وخمسين ألف درهم.. بالرغم من أن عمر بن الخطاب قاسمه ماله يوم عزله عن ولاية العراق .

كان عمر سعد يوم وفاته خمس وثمانين سنة.. وفوق أعناق الرجال حمل جثمان آخر المهاجرين وفاة.. ليأخذ مكانه في سلام إلى جوار ثلة طاهرة عظيمة من رفاقه الذين سبقوا إلى الله تعالى .

الجندي المجهول سعيد بن زيد ﵁

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي.. يجتمع مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في كعب بن لؤي.. ومع سيدنا عمر بن الخطاب في نفيل بن عبد العزى المتصل بكعب، وسيدنا عمر ﵁ ابن عم أبيه.. وينسب إلى عدي فيقال: القرشي العدوي .

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام سعيداً، ويكنى بأبي الأعور .

أمه: فاطمة بنت بعجة بن مليح الخزاعية.. كانت من السابقين إلى الإسلام .

صفته: كان أسمر اللون طويلاً أشعر.. (قاله الواقدي) .

والده الحنيف: كان والده زيد يطلب دين الحنيفية، دين سيدنا إبراهيم قبل أن يبعث النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة ولا الدم، وخرج يطلب الدين هو وورقة بن نوفل، فتنصر ورقة وأبى هو التنصر، فقال له الراهب: إنك تطلب دينا ما هو على الأرض اليوم، قال: وما هو؟ قال: دين إبراهيم، كان يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ويصلي إلى الكعبة، وكان زيد على ذلك حتى توفى .

أخرج البخاري عن أسماء قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداَ ظهره إلى الكعبة يقول: يامعشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤدة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها وأنا كفيتك مؤنتها.

فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها .

وعن ابن زيد عن أبيه قال:في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ (الزمر: ١٧). نزلت في ثلاث نفر كانوا في الجاهلية يوحدون الله عز وجل وهم: زيد

بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وأولئك الذين هداهم الله بغير كتاب ولا نبي (أخرجه الواحدي في أسباب الترول) .

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن عامر بن ربيعة قال: كان زيد بن عمرو بن نفيل يطلب الدين وكره النصرانية واليهودية وعبادة الأوثان والحجارة. وأظهر خلاف قومه واعتزل آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم ولا يأكل ذبائحهم، فقال لي: ياعامر إني خالفت قومي واتبعت مله إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده، وكانوا يصلون إلى هذه القبلة، فأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل يبعث ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، قال عامر: فلما تنبأ رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، أسلمت وأخبرته بقول زيد بن عمرو وأقرأته السلام فرد عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ورحم عليه وقال: قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً .

وأخرج ابن سعد أيضاً: أخبرنا أبو أسامة عن مجالد بن عامر قال: سئل النبي ﴿ﷺ وآله﴾ عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: (يبعث يوم القيامة أمة وحده) .

ويثبت لزيد بن عمرو بن نفيل بعض الشعر، وينسب إليه على أنه من قريضه،

ومنه قوله:

أربّاً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور

توفى رضي الله عنه وقريش تبنى الكعبة قبل أن يتزل الوحى على رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ بخمس سنين، ودفن بأصل حراء.

أولاده وزوجاته: قال أهل السير: كان لسيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه من الأولاد واحداً وثلاثين ولداً: أربعة عشر ذكراً،وسبع عشرة أنثى، أما زوجاته فإحدى عشر وهم:

١–عبد الله الأكبر لا عقب له.. وأمه رملة– ولقبها أم جميل واسمها فاطمة– بنت الخطاب بن نفيل شقيقة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٢–زيد لا عقب له، وعبد الله الأكبر لا عقب له، وعاتكة .. وأمهم جليسة بنت سويد بن صامت.

٣–عبد الرحمن الأصغر لا عقب له،وعمر الأصغر لا عقب له،وأم موسى وأم الحسن..وأمهم أمامة بنت الدجيج من غسان.

٤–محمد،وإبراهيم الأصغر، وعبد الله الأصغر، وأم حبيب الكبرى، وأم الحسن الصغرى، وأم زيد الكبرى، وأم سلمة، وأم حسيب الصغرى، وأم سعيد الكبرى توفيت قبل أبيها، وأم زيد .. وأمهم حزمة بنت قيس بن خالد ابن وهب.

٥–عمرو الأصغر، والأسود.. وأمهما أم الأسود امرأة من بنى تغلب.

٦–عمرو الأكبر،و طلحة توفى قبل أبيه، و زجلة وقيل رملة تزوجها الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .. وأمهم ضمخ بنت الأصبغ بن شعيب من كلب.

٧–إبراهيم الأكبر، و حفصة .. وأمهما ابنة قربة من بنى تغلب .

٨–خالد، وأم خالد توفيت قبل أبيها، وأم النعمان .. وأمهم أم خالد أم ولد.

٩–أم زيد الوسطى .. وأمها أم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى.

١٠–أم زيد الصغرى كانت تحت المختار بن أبى عبيد .. أمها من طئ.

١١–عائشة، و زينب ، وأم عبد الحولاء و أم صالح .. و أمهم أم ولد.

[ذكر ذلك ابن سعد فى الطبقات، وابن الجوزى فى صفة الصفوة].

إسلامه وهجرته:

كان والد سيدنا سعيد بن زيد .. تارك لقريش أصنامها، و خمرها، و لهوها ، وراح يعبد الله على دين إبراهيم .. عرف ربه وملأ الإيمان قلبه،فإذا شابه سيدنا سعيد أباه و هداه الله .. وامتدت إلى النبى يداه، وبشره النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بالجنة، فهل يكون ذلك عجيباً؟.

لقد كان سيدنا سعيد من أوائل من أسلموا يوم أن كان المسلمون يختفون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ..إن الكثيرين من الناس لا يعرفون أنه زوج أخت سيدنا عمر بن الخطاب.. وأن سيدنا عمر ابن عم أبيه ..عندما علم سيدنا سعيد بنبأ هذا الدين الجديد، الذى يدعو إليه سيدنا و مولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و يدعو فيه إلى عبادة الله الواحد الأحد،الخالق البارىء المصور، الفرد الصمد .. يومئذ أسرع سيدنا سعيد بن زيد إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ..واستمع إليه، ثم أعلن إسلامه، واستجاب لكوامن عقله ووجدانه و لم يمض وقت طويل، إلا وقد شرح الله صدر زوجته فاطمة بنت الخطاب إلى الإسلام .. و قد أسلم الزوجان الكريمان،ونعما بنعمة الإسلام، وذاقا حلاوة الإيمان فيما كانا يتعلمانه من الصحابى الجليل خباب بن الأرت.

وقد لقى الفتى القرشى سعيد بن زيد من أذى قومه ما كان خليقا أن يفتنه عن دينه،ولكن قريشا بدلا من أن تصرفه عن الإسلام استطاع هو وزوجته أن ينتزعا منها رجلا من أثقل رجالها وزنا وأجلهم خطرا، حيث كانا السبيل فى إسلام سيدنا عمر بن الخطاب .. حيث شاءت إرادة الله أن يكون خيط النور الذى سار سيدنا عمر على ضوئه أن ينبعث من بيتهما وسار سيدنا عمر مع هدى هذا النور حتى دخل فى دين الله وأعلن إسلامه على يد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

كان أول من وثب من قريش وضرب سيدنا سعيداً ضربا عنيفا بعد إسلامه هو ابن عم أبيه وأخو زوجته سيدنا عمر بن الخطاب، فجاءت أخته فاطمة، لتدفعه عن زوجها، فلطمها لطمة شج وجهها، أسال الدم عليه .. فثارت فاطمة ثورة خطابية عارمة وقالت: إنك مشرك، و الشرك نجس،و القرآن كتاب الله لا يمسه إلا المطهرون .فإذا أردت الصحيفة، فاذهب واغتسل .. .

فلما رأى عمر الدم فى وجه أخته رقّ لها ولان .. ثم ذهب فتطهر و قرأ قوله تعالى: ﴿ طه۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۞الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى۞ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه: ١-٦).

وكأن ترياق الهداية بلغ قلبه، ومسّ وجدانه، فأنار عقله فقال: (دلونى على المكان الذى فيه محمد) أين؟ فكان إسلام عمر .. فهانت اللطمة القاسية بجوار العطاء العظيم الذى انطلق من بيت سيدنا سعيد بن زيد ﷺ.

وأسلم عمر، وأعلن إسلامه، وبرغم ذلك لم يمنع من أذى قريش للمسلمين بمكة، ومازال بطشهم يتتابع فشرع سيدنا سعيد وزوجته فاطمة فى الهجرة إلى يثرب حيث ذلك المجتمع الإسلامى الجديد، و هاجرا متحملين ما شاء الله لهما أن يتحملا من مشاق

الطريق، وألم ترك الأهل .. ولكن كل ذلك يسير مهما بلغ، و هين مهما قسا، فإنه من أجل الدين والعقيدة.

وذكر ابن سعد فى الطبقات: لما هاجر سعيد بن زيد إلى المدينة نزل على رفاعة ابن عبد المنذر، وآخى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بين سعيد بن زيد ورافع بن مالك الأزرقى.

وقيل: إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ آخى بينه وبين سيدنا طلحة بن عبيد الله ﷺ .

وروى عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ثمانية وأربعين حديثاً.

الجندى المجهول:

قمع نفسه، وأخفى عن المنافسة فى الدنيا شخصه، وبلغة العصر نقول: هو جندى مجهول .. لم يفكر يوماً ما فى ولاية أو رئاسة .. كل همه أن يكون فى ميادين القتال .. ولعلك تعجب أنه عندما وقع عليه الاختيار ليتولى منصباً من مناصب الدولة طلب أن يحمل المسئولية غيره ليتفرغ للقتال فذلك ميدانه.

ومما يدل على ذلك قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم ..من سعيد بن زيد إلى أبى عبيدة بن الجراح .. سلام الله عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد .. فإنى كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد على نفسى وعلى ما يدنينى من مرضاة ربى .. فإذا أتاك كتابى هذا .. فابعث إلى عملك من هو أرغب إليه منى ..فإنى قادم عليك وشيكاً إن شاء الله تعالى .. والسلام عليكم).

وكان ذلك رداً على طلب أبي عبيدة الجراح من سعيد بن زيد أن يكون والياً لدمشق .. فولى أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ولاية دمشق.

وضع سيدنا سعيد بن زيد طاقاته الفتية الشابة كلها فى خدمة الإسلام، إذ أنه أسلم وسنه لم يتجاوز العشرين بعد، فشهد مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ المشاهد كلها إلا بدراً، فقد غاب عن ذلك اليوم لأنه كان فى مهمة كلفه إياها النبى ﴿ﷺ وآله﴾ هو

وسيدنا طلحة بن عبيد الله، لاستطلاع أمر عير قريش ورصد تحركاتها، فأقام سعيد و طلحة فى الحوراء لتأدية المهمة، حتى كان اللقاء الأول بين جيش الإيمان و جيش الكفر فى موقعة بدر الكبرى، و هزمت قريش فيها هزيمة ساحقة على يد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه بفضل الله تعالى.

ولكن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ رمى بسهم لسعيد و طلحة فكان لهما أجر مجاهد و سهم مقاتل، وما أجمل الجزاء!! وأكرم به من عطاء!!

وفى غزوة أحد كان للبطل سعيد بن زيد جهاد مشكور، فقد ثبت، وكاد المسلمون يهزمون، والتف مع قليل من الأبطال حول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فكان راضياً ﴿ ﷺ وآله﴾ عنه وبه سعيد.

ولم يكن جهاده فى غزوة الخندق، و خيبر، وفتح مكة، ويوم حنين إلا صفحات وضاءة مشرقة فى تاريخ الإسلام كله لا سيرة البطل سعيد بن زيد وحده.. وكيف لا يكون كذلك والجهاد حرفته.. والاستشهاد فى سبيل الله مطلبه؟.

ولما تولى سيدنا أبو بكر الخلافة .. لم يكن دور سيدنا سعيد فى جهاد المرتدين بأقل مما أداه فى الغزوات مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

وقد ولى الخلافة بعد أبى بكر الصديق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو ابن عم سعيد وأخو زوجته .. ومع هذا لم يتطلع إلى منصب، ولم يستغل صلته بالخليفة، فحسبه أن الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ رضى عنه وبشره بالجنة.

لقد سأل عنه الخليفة ذات يوم قائده أبا عبيدة حين غاب فى ميادين القتال فترة طويلة، فقال القائد: إنه كعهدك ياأمير المؤمنين إلا أن غربته زادته فى الدنيا زهدا، وفى الآخرة رغبة. لقد كانت فى عهد سيدنا عمر حروب الروم والفرس، وبهما ارتبط البطل سعيد بن زيد بقيادة سعد بن أبى وقاص، فكانت القادسية والمدائن واليرموك وكلها من المعارك الإسلامية الكبرى التى أبلى فيها سيدنا سعيد بن زيد بلاء حسنا.

فضائله و خصائصه:

لم ينقل له من الخصائص والفضائل ما نقل لغيره من العشرة، ولهذا لقبناه بالجندى المجهول .. ويكفيه شرفاً و فخراً و عزاً أنه من العشرة المبشرين بالجنة الذين انتقل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو عنهم راض .. ولكن هناك بعض الفضائل التى تميز بها سيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه نذكر منها:

١–ذو دعوة مستجابة: فى زمن بنى أمية وقعت لسيدنا سعيد بن زيد حادثة ظل أهل المدينة المنورة يتحدثون بها زمناً طويلاً.

ذلك أن أروى بنت أويس زعمت أن سيدنا سعيد بن زيد قد غصب شيئاً من أرضها وضمها إلى أرضه، وجعلت تلوك ذلك بين المسلمين وتتحدث به، ثم رفعت أمرها إلى مروان بن الحكم والى المدينة آنذاك، فأرسل إليه مروان أناساً يكلمونه فى ذلك فصعب الأمر على صاحب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال: يروننى أظلمها، كيف أظلمها؟ وقد سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: (من ظلم شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين).

اللهم إنها قد زعمت أنى ظلمتها،فإن كانت كاذبة فاعم بصرها وألقها فى بئرها الذى تنازعنى فيه، وأظهر من حقى نوراً يبين للمسلمين أنى لم أظلمها، فلم يمض على ذلك غير قليل حتى سال العقيق بسيل لم يسل مثله قط فكشف عن الحد الذى كانا يختلفان فيه، وظهر للمسلمين أن سعيداً كان صادقاً، ولم تلبث المرأة بعد ذلك إلا شهرا حتى عميت، وبينما هى تطوف فى أرضها تلك سقطت فى بئرها. (أخرجه مسلم).

قال عبد الله بن عمر: فكنا و نحن غلمان نسمع الإنسان يقول للإنسان: أعماك الله كما أعمى أروى.

٢-غيرته على الحق: أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء عن عبد الله بن ظالم المازنى قال: لما خرج معاوية من الكوفة استعمل المغيرة بن شعبة.. فأقام خطباء يقعون فى علىّ بن أبى طالب، وأنا إلى جنب سعيد بن زيد، فغضب فقام فأخذ بيدى فتبعته، فقال: ألا ترى إلى هذا الرجل الظالم لنفسه الذى يأمر بلعن رجل من أهل الجنة .

٣-احترام الولاة له،ووصية أم المؤمنين حين وفاها أن يصلى عليها: ذكر المحب الطبرى فى الرياض النضرة عن ابن سعيد بن زيد قال: كتب معاوية بن أبى سفيان إلى مروان بن الحكم يبايع الناس لابنه يزيد، فقال رجل من الشام : ما يحبسك؟ قال:حتى يجىء سعيد بن زيد فيبايع فإنه سيد أهل البلد، إذ بايع بايع الناس .قال: أفلا أذهب آتيك به؟ فجاء الشامى وأنا مع أبى فى الدار فقال: انطلق فبايع . فقال: انطلق فسأجىء فأبايع. فقال: تنطلق أو لأضربن عنقك. قال أتضرب عنقى، والله إنك لتدعونى إلى أقوام أنا قاتلتهم على الإسلام، قال: فرجع إلى مروان فأخبره، فقال له مروان: اسكت

.

قال فتوفيت أم المؤمنين— حفصة بنت عمر سنة ٤٥ هـ —فأوصت أن يصلى عليها سعيد بن زيد، فقال الشامى لمروان: ما يحسبك أن تصلى على أم المؤمنين؟ قال انتظر الرجل الذى أردت أن تضرب عنقه فإنها أوصت أن يصلى عليها . . فقال الشامى: استغفر الله . (أخرجه البغوى فى معجمه .

والفضائلى، و خرج ابن الضحاك منه قصة البيعة و قال: سأل أهل المدينة و لم يذكر قصة الصلاة على الجنازة).

٤-وصفه أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء فقال: وأما سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .. فكان بالحق قوالا، ولماله بذالا، ولهواه قامعا وقتالا .. ولم يكن ممن يخاف فى الله لومة لائم .. وكان مجاب الدعوة سبق الإسلام قبل عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.. شهد بدرا بسهمه وأجره، رغب عن الولاية،وتشمر فى الرعاية .. قمع نفسه، وأخفى

عن المنافسة فى الدنيا شخصه.. اعتزل الفتنة و الشرور، المؤدية إلى الضيعة والغرور، عازما على السبقة والعبور، المفضى إلى الرفعة والحبور .. كان للولايات قاليا، وفى مراتب الدنيا وانيا، وفى العبودية غانيا، وعن مساعدة نفسه فانيا.

وفــاتــه:

ظل سعيد الجندى المحارب حتى بلغ بضعة و سبعين عاما، وعند ذلك آثر القرب من مسجد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يصلى فيه جميع أوقاته، و يعيش ذكريات مضت فى صحبة النبى الكريم ﴿ﷺ وآله﴾.

كان أهل المدينة يرون فيه نبلا وسموا.. وقد كان نبيلا حقا يظفر من الجميع بمنزل حب واحترام.

حتى لقى ربه تعالى بالعقيق يوم جمعة سنة خمسين أو إحدى و خمسين ..فغسله سيدنا سعد بن أبي وقاص، ثم حمل على رقاب الرجال فدفن بالمدينة ، و نزل فى حفرته سيدنا سعد بن أبي وقاص و سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

تاسع العشرة

الصادق البار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى.. يجتمع مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى كلاب بن مرة .. ويجتمع مع سيدنا سعد بن أبي وقاص فى زهرة.. و ينسب إليه فيقال: القريشى الزهرى.

اسمه وكنيته: كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو ، و قيل: عبد الحرب، وقيل: عبد الكعبة، وقيل : عبد الحارث.. فسماه النبى ﷺ عبد الرحمن .. وكان يصفه بالصادق البار . وكنيته أبو محمد(ذكره الدارقطنى).

أمه: الشفاء بنت عوف بن الحارث الزهرية.. ابنة عم أبيه.. أسلمت وهاجرت، وأسلمت أختها الضيزنة بنت أبي قيس بن عبد مناف بن زهرة.

مولده: ولد فى العام العاشر بعد عام الفيل.

صفته: قال الواقدى: كان رجلا طويلا حسن الوجه رقيق البشرة، أبيض اللون، مشربا بحمرة، لا يغير لحيته ولا رأسه، ضخم الكفين، غليظ الأصابع، أقنى —— القنا احديداب فى الأنف—— جعدا، له جمة من أسفل أذنيه، أعنق—— طويل العنق—— ساقط الثنيتين، أعرج، أصيب يوم أحد فهتم وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصاب بعضها رجله فعرج —— وعاش كذلك حتى انتقل—— .

أولاده وزوجاته: كان لسيدنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ من الأولاد ثمانية وعشرون ولدا: عشرون ذكرا، وثمان إناث، وملك ثلاث إماء، أما زوجاته .

فخمسة عشر و هم:

١–سالم الأكبر توفى قبل الإسلام .. وأمه أم كلثوم بنت عتبة بن ربيعة.

٢–أم القاسم ولدت أيضاً فى الجاهلية .. وأمها بنت شيبة بن ربيعة.

٣–محمد وبه كان يكنى، وإبراهيم، وحميد، وإسماعيل، وحميدة، وأمة الرحمن .. وأمهم أم كلثون بنت عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس .

٤–معن، وعمر، و زيد، وأمة الرحمن الصغرى .. وأمهم سهلة بنت عاصم بن عدى بن الجد بن العجلان من بلى من قضاعة وهم من الأنصار.

٥–عروة الأكبر قتل يوم أفريقية .. وأمه بحرية بنت هانئ من بنى شيبان.

٦–سالم الأصغر قتل يوم أفريقية .. وأمه سهلة بنت سهيل بن عمرو.

٧–أبو بكر .. وأمه أم حكيم بنت قارظ بن خالد بن عبيد بن سويد.

٨–عبد الله قتل بأفريقية يوم فتحت .. وأمه ابنة أبي الحيس بن رافع من الأوس.

٩-أبو سلمة وهو عبد الله الأصغر.. وأمه تماضر بن الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة ابن حصن بن ضمضم بن عدى بن خباب من كلب .. وهى أول كلبية نكحها قرشي.

١٠-عبد الرحمن.. وأمه أسماء بنت سلامة بنت مخربة بن جندل.

١١-مصعب، وآمنة، ومريم .. وأمهم أم حريث من سبى بهراء.

١٢-سهيل وهو أبو الأبيض .. وأمه مجد بنت يزيد بن سلامة ذى فائش الحميرية.

١٣-عثمان .. وأمه غزال بنت كسرى، أم ولد (أمة) من سبى سعد بن أبي وقاص يوم المدائن.

١٤-عروة درج، ويحيى، وبلال .. لأمهات أولاد. (إماء) .

١٥-أم يحي .. وأمها زينب بنت الصباح بن ثعلبة بن عوف بن شبيب.

١٦-جويرية .. أمها بادية بنت غيلان بن سلمة بن معتب الثقفى.

[ذكر ذلك ابن سعد فى الطبقات، وابن الجوزى فى صفة الصفوة، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة].

إسلامه و هجرته:

لقد أسلم سيدنا عبد الرحمن بن عوف ؓ فى وقت مبكر من ظهور الإسلام .. بل أسلم فى الساعات الأولى للدعوة .. وقبل أن يدخل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ دار الأرقم بن أبي الأرقم و يتخذها مقرا لالتقائه بأصحابه المؤمنين، فهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ..عرض عليه أبو بكر ؓ الإسلام هو وعثمان بن عفان ؓ ، والزبير بن العوام ؓ، وطلحة بن عبيد الله ؓ، وسعد بن أبي وقاص ؓ. فما غم عليهم الأمر، ولا أبطأ بهم الشك، بل سارعوا مع الصديق إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يبايعونه ويحملون لواءه.

وانخرط عبد الرحمن بن عوف فى هذا الدين الحنيف، يغترف من تعاليم القرآن الكريم والرسول العظيم يعبها عباً، ويعطى هذا الدين الذى ملأ وجدانه، وأصبح كل كيانه، كل ما يستطيع من عطاء فى رضاء كامل، وسخاء جميل، ويتحمل فى سبيل الإسلام ما يتحمل بنفس راضية مطمئنة سعيدة هانئة . وأسلم معه أخوه لأبويه الأسود بن عوف وهاجر قبل الفتح، وأخوه لأبيه عبد الله بن عوف، وحمنن بن عوف ولم يهاجرا وأقاما فى مكة، وعاش حمنن فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين سنة، وعقب إسلام عبد الرحمن حمل حظه المناسب، من اضطهاد قريش و تحدياتها.

وحين أمر النبى ﴿ ﷺ وآله﴾أصحابه بالهجرة إلى الحبشة هاجر ابن عوف ثم عاد إلى مكة، ثم هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ثم هاجر إلى المدينة.وعندما بلغ عبد الرحمن بن عوف المدينة .. وآخى النبى بينه وبين سعد بن الربيع، عرض عليه سعد نصف ماله وثروته، فأثنى عليه عبد الرحمن بن عوف وشكره وقال له: لا أريد إلا أن تدلونى على سوقكم، أين سوقكم؟ قال ذلك فى إباء، وعزة، وفكر، وروية .. وهو تاجر يعرف كيف يشترى؟ يبيع؟ إن فن التجارة ومهارة التجار، وخبرة عبد الرحمن بن عوف فى هذا المجال خصبة غنية.

ثم بلغ السوق– سوق بنى قينقاع– فاشترى و باع ، كان تاجرا مطبوعا فيه الفطنة والأمانة والصدق .. يتحلى بالسماحة إذا باع، والتسامح إذا اشترى، أدى ذلك فى أدب وذكاء ولباقة فكسب كثيرا، وحقق مالا وفيرا ونال إعجاب التجار، وثقة الناس جميعا، فكان نعم التاجر المؤمن كما يرجوه الناس ، والإسلام. قال الذهبى: قال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال كنا نسير مع عثمان بن عفان، فرأى أبى فقال عثمان: ما يستطيع أحد أن يعتد على هذا الشيخ،فضلا فى الهجرتين جميعا.

ويذكر ابن سعد فى الطبقات: أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة من الأنصار على ثلاثين ألفا فقال له النبى ﴿ ﷺ وآله﴾: "أو لم ولو بشاة". وكان مبارك له فى التجارة

إلى حد أثار عجبه ودهشته فقال: "لقد رأيتنى لو رفعت حجرا، لوجدت تحته فضه وذهبا"..!!

ولم يمض وقت طويل، وقد أصبح عبد الرحمن بن عوف من أثرى أثرياء شبه الجزيرة العربية، وله قوافل تجارته الخاصة.. وهو يمارس نشاطه التجارى ولم ينس دنياه فيأخذ منها كل مباح مشروح حلال. كما يتذكر دائما الآخرة، فكان كريما جوادا.. ومما يذكر فى أسباب نزول قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٢٦٢).

أخرج الواحدى وأبو الفرج بأن ذلك قد نزل فى عبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان، وهو شرف عظيم لهذا الصحابى الجليل.

ومما جعل تجارته ناجحة مباركة، تحريه الحلال، ونأيه الشديد عن الحرام، بل عن الشبهات.. كذلك مما زادها نجاحا وبركة أنها لم تكن لعبد الرحمن وحده .. بل كان لله فيها نصيب أوفى، يصل به أهله وإخوانه و يجهز به جيوش المسلمين .. وإذا كانت التجارة والثروات، إنما تحصى بأعداد رصيدها وأرباحها فإن ثروة عبد الرحمن بن عوف إنما تعرف مقاديرها وأعدادها بما كان ينفق منها فى سبيل الله رب العالمين.

وقد روى عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ خمسة وستين حديثا.

سخاؤه و كرمه:

كان سيدنا عبد الرحمن بن عوف رائد من رواد مدرسة السخاء والكرم فى تاريخ الإسلام حيث قدم النموذج الإنسانى السامى فى هذه المدرسة .. حيث كان ابن عوف سيد ماله ولم يكن عبده.. وآية ذلك أنه لم يكن يشقى بجمعه ولا باكتنازه.. بل هو

يجمعه هونا، ومن حلال، ثم لا ينعم به وحده .. بل ينعم معه أهله ورحمه وإخوانه ومجتمعه كله، وإليك الدليل على ذلك:

١–بلغ من سعة عطائه و عونه أنه كان يقال: (أهل المدينة جميعا شركاء لابن عوف فى ماله: ثلث يقرضه .. وثلث يقضى عنهم ديونهم.. وثلث يصلهم ويعطيهم)"الرياض النضرة للمحب الطبرى".

٢–أخرج الترمذى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يقول: "إن أمركن لما يهمنى بعدى ولن يصبر عليكن إلا الصابرون" قال ثم تقول عائشة: سقى الله أباك من سلسبيل الجنة، تريد عبد الرحمن بن عوف، وقد كان وصل أزواج النبى﴿ ﷺ وآله﴾ بمال بيع بأربعين ألفا.

٣–عن الزهرى قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله عز وجل، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة فى سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة[صفوة الصفوة].

٤–عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله، فصح فتصدق بذلك بيد نفسه، ثم قال: ياأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كل من كان من أهل بدر له علىّ أربعمائة دينار، فقام عثمان بن عفان وذهب مع الناس، فقيل له: ياأبا عمر ألست غنياً؟ قال: هذه وصلة من عبد الرحمن، لا صدقة وهو من مال حلال، فوصلهم فى ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار. فلما جن عليه الليل جلس فى بيته، وكتب جريدة بتفريق جميع المال على المهاجرين والأنصار، حتى كتب أن قميصه الذى على بدنه لفلان، ولم يترك شيئاً من ماله إلا كتبه للفقراء.

فلما صلى الصبح خلف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هبط جبريل و قال: يامحمد إن الله يقول لك: أقرئ منى على عبد الرحمن السلام واقبل منه الجريدة، ثم ردها عليه وقل له: قد قبل الله صدقتك وهو وكيل الله ووكيل رسوله فليصنع فى ماله ما شاء، وليتصرف فيه كما كان يتصرف قبل ولا حساب عليه وبشره.

[أخرجه الملاء فى سيرته، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة].

٥-عن جعفر بن برقان قال: بلغنى أن عبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألفاً. [صفوة الصفوة].

وقال أبو عمر: وقد روى أنه أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً.

٦-عن أنس قال: بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتاً فى المدينة فقالت: ما هذا؟ قالوا: عِير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شئ. قال: وكانت سبعمائة بعير، قال: فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: "قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا" فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال: إن استطعت لأدخلنها قائماً. فجعلها بأقتابها وأحمالها فى سبيل الله عز وجل. [أخرجه الإمام أحمد].

٧-عن سعيد بن حسين قال: كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده. [صفة الصفوة].

جهاده:

قد شرع عبد الرحمن بن عوف يشارك فى الجهاد الإسلامى، فشهد بدراً أول معركة يخوضها المسلمون بعد الهجرة، وأبدى فيها صورة للمجاهد الصابر والمقاتل الشجاع. وكان يوم أحد من الذين التفوا حول النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وثبت فى المعركة ثباتاً انتزع للمسلمين النصر من بين أنياب هزيمة كادت تقع لولا هؤلاء المؤمنين الأشداء، الذين

أظهروا من البطولة والتضحية والفداء ما أذهل عدوهم، وألقى الرعب فى قلوبهم، ومن هؤلاء المجاهدين الأشداء ذلك البطل عبد الرحمن بن عوف، وقد أصيب فى هذه الغزوة بأكثر من عشرين جرحاً، كان أكثرها مؤلماً قاتلاً .. كما أصيب أيضاً فى إحدى رجليه إصابة جعلته يعرج بعد ذلك اليوم وإلى آخر حياته،فكان ذلك بمثابة طوق قد قلده الجهاد لذلك البطل مدى الحياة، أو هو ما نسميه اليوم بذلك النوط العسكرى، نوط الشجاعة و الشرف، أو وسام المجد .. وكأن هذا النوط كان دافعاً له ليعطى المزيد من البطولات، ويقدم الكثير من التضحيات كما شهدت له بذلك المشاهد والغزوات.

وكان النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يثق فى البطل عبد الرحمن بن عوف ثقة كبيرة، والدليل على ذلك حينما أرسله النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فى شهر شعبان من السادس للهجرة إلى دومة الجندل وكان على زهاء سبعمائة. ثم قال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "سر باسم الله". ونفض النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عمامته بيده ثم عممه بعمامة سوداء فأرخى بين كتفيه منها .. فقدم دومة الجندل فدعاهم إلى الإسلام.

وهدى الله على يديه خلق كثيرين منهم ذلك النصرانى (الأصبغ بن عمرو) وكان سيدا فى قومه، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته (تماضر) كما أمره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأنجب منها سيدنا عبد الرحمن بن عوف ابنه (أبا سلمة).

وفيما يروى—بالرياض النضرة—عن المغيرة بن شعبة بأن عبد الرحمن بن عوف كان له فى غزوة تبوك سمات مميزة، ودرجات عالية، فكانت شبه الجزيرة العربية فى العام التاسع للهجرة تمر بأزمة اقتصادية مما سمى هذا العام بـ(عام العسرة) للضيق وشدة الأزمة، وبرغم ذلك لا بد أن يرد المسلمون على الروم بما يكبح جماح تمردهم، ويكسر حدة تحديهم، ويؤمن الحدود الإسلامية المقابلة لهم– أى المجاورة– وقد نمى إلى علم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن الروم يجهزون أنفسهم فى جيش كبير لغزو المسلمين. فأعلن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عن هذه الغزوة على غير عادته فى كتمان سر الحرب، ودعا إلى

تجهيز هذا الجيش وحث أغنياء المسلمين على التبرع لهذه المعركة، فتبرع عثمان بن عفان بمال كثير، و كذلك العباس، وطلحة بن عبيد الله، وقدم أبو بكر كل ما يملك وقدم عمر نصف ماله، حتى نساء الصحابة تبرعن بحليهن، وأمن ﴿ ﷺ وآله﴾ المدينة، وأعد الجيش.

وفى هذه الغزوة نال عبد الرحمن بن عوف شرف كبير، فقد جاء بمال كثير وشارك فى المعركة،وقد صلى بالجنود إماما، وكان الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ يتوضىء فصلى الركعة الأخيرة وراء عبد الرحمن بن عوف ثم أتم صلاته، وقال – كما روى عن المغيرة بن شعبة –: (ما قبض نبى حتى يصلى خلف رجل صالح من أمته).

فأى عطاء هذا من عبد الرحمن بن عوف؟! وأى شرف يناله ذلك الصحابى الجليل فى هذه المناسبة، إنه لذو حظ عظيم.

خصائصه وفضائله:

١–اختصاصه بالأمانة على نساء النبى﴿ ﷺ وآله﴾:عن الزبير بن بكار قال: كان عبد الرحمن بن عوف أمين النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ على نسائه (أخرجه أبو عمر).

٢–أمانته فى السماء والأرض: عن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن بن عوف قال لأصحاب الشورى – بعد انتقال عمر بن الخطاب – هل لكم أن أختار لكم وأنتفى منها؟ قال علىّ: أنا أول من يرضى. فإنى سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: أنت أمين فى أهل السماء وأنت أمين فى أهل الأرض(أخرجه أبو عمر وابن سعد فى الطبقات).

٣–وكيل الله فى الأرض: عن علىّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: "عبد الرحمن بن عوف وكيل الله فى الأرض " (أخرجه الملاء فى سيرته).

٤-دعاء النبى ﴿ﷺ وآله﴾ له: عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول لعبد الرحمن بن عوف: "بارك الله لك فى مالك وخفف عليك حسابك يوم القيامة" (أخرجه الملاء).

وروى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "سقى الله بن عوف من سلسبيل الجنة"(أخرجه الدارقطنى).

٥-سبقت له السعادة: عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: أغمى على عبد الرحمن ثم أفاق فقال: إنه أتانى ملكان غليظان فقالا لى: انطلق نخاصمك إلى العزيز الأمين. قال فلقيهما ملك فقال: إلى أين تذهبان؟ فقالا نخاصمه إلى العزيز الأمين. قال: فخليا عنه فإنه ممن سبقت له السعادة وهو فى بطن أمه. [أخرجه الملاء فى سيرته وأخرجه الواحدى فى وسطه مسندا فى سورة هود عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ (هود:١٠٨)].

٦-وصية جبريل له: عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن أبيه أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال له: يابن عوف إنك من الأغنياء وإنك لن تدخل الجنة إلا زحفا، وفى رواية حبوا فأقرض الله عز وجل يطلق لك قدمك، قال ابن عوف: ما الذى أقرض الله؟ قال: مما أمسيت فيه. قال: من كله أجمع يارسول الله؟ قال: نعم. فخرج ابن عوف، وهو يهم بذلك، فأتى جبريل، فقال: مر ابن عوف فليضيف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، فإن فعل ذلك كان كفارة لما هو فيه (أخرجه الفضائلى، والطبرى فى الرياض النضرة).

٧-رخصة النبى له فى لبس الحرير: عن أنس بن مالك أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ رخص لعبد الرحمن بن عوف فى قميص من حرير فى سفر من حكة كان يجدها بجلده (ابن سعد فى الطبقات).

٨–رقة قلبه: قرأ رجل عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وكان لين الصوت – أو لين القراءة – فما بقى أحد من القوم إلا فاضت عينه غير عبد الرحمن بن عوف. فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :

"إن لم يكن عبد الرحمن بن عوف فاضت عينه فقد فاض قلبه" (حلية الأولياء).

٩– نهى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ عن سبه:تقاول سيدنا عبد الرحمن هو وسيدنا خالد بن الوليد فى بعض الغزوات فأغلظ له خالد فى المقال، فلما بلغ ذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" (البداية والنهاية لابن كثير وهو أيضا مذكور فى الصحيح). .

ويذكر الذهبى فى تاريخ الإسلام: أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال لخالد: (يا خالد لا تؤذ رجلا من أهل بدر، فلو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله).

وفاته:

ظل عبد الرحمن بن عوف يعطى الإسلام فى سخاء منذ أسلم حتى بلغ من العمر زهاء خمسة وسبعين عاما، تحمل فى سبيل الله ما تحمل، وأعطى من ماله ما أعطى، تحمل راضيا صابرا، وأعطى كريما سخيا، وأسلم الروح لله خالقها خائفا من عقاب يوازن بينه وبين مصعب بن عمير و حمزة رضى الله عنهما، فيبكى بكاء طويلا .. برغم ما أعطى وهو يعلم بأن الحسنات يذهبن السيئات.

فقد أخرج البخارى فى غزوة أحد عن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما فقال: (قتل مصعب بن عمير وهو خير فكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدت رأسه) . وأراه قال: (وقتل حمزة وهو خير منى، يعنى فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو

قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا. ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام).

توفى سيدنا عبد الرحمن بن عوف سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وهو ابن خمس وسبعين سنة، ودفن جثمانه الطاهر بـ (البقيع) وصلى عليه سيدنا عثمان بن عفان تنفيذا لوصيته التى أوصى بها.

ويذكر بن سعد فى الطبقات: أن سيدنا عليا بن أبى طالب قال يوم توفى سيدنا عبد الرحمن بن عوف: اذهب ابن عوف فقد أدركت صفوها و سبقت رنقها.

وتريد أم المؤمنين عائشة أن تخصه بشرف لم تختص به سواه فتعرض عليه وهو على فراش الموت أن يدفن فى حجرها إلى جوار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وصاحبيه ﷺ .. ولكنه مسلم أحسن الإسلام تأديبه، فيستحى أن يرفع نفسه إلى هذا الجوار !!

روى ابن النجار فى كتاب(أخبار المدينة) بسنده عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه قال:أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وإلى أخويك، فقال: "ما كنت مضيقا عليك بيتك، إنى كنت عاهدت ابن مظعون – أسلم أول الإسلام وهاجر الهجرتين وهو أول من دفن بالبقيع من أصحاب النبى المهاجرين سنة اثنتين من الهجرة – أينا مات دفن جنب صاحبه".

ويقول المحب الطبرى فى الرياض النضرة: (فيكون على هذا قبر عثمان بن مظعون وقبر عبد الرحمن بن عوف فى قبة سيدنا إبراهيم ابن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ .. فينبغى أن يزار هناك).

ويذكر الذهبى فى تاريخ الإسلام أن سيدنا عثمان بن عفان اشتكى رعافا – سيلان الدم من الأنف – فدعا حمران فقال: اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدى، فكتب له، فانطلق حمران إلى عبد الرحمن بن عوف فقال: لك البشرى، إن عثمان كتب لك العهد

من بعده، فقام بين الروضة النبوية و المنبر فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إياى هذا الأمر فأمتنى قبل عثمان، فلم يعش إلا ستة أشهر.

و يذكر محمد أن عبد الرحمن بن عوف خلف ذهبا قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدى الرجال منه، وترك أربع نسوة فأصاب كل امرأة ثمانون ألفا. (أخرجه ابن الجوزى فى صفة الصفوة).

ويذكر ابن كثير فى البداية و النهاية: وترك مالا جزيلا، ومن ذلك: ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت (قرحت) أيدى الرجال، وترك ألف بعير ومائة فرس، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع، وكان نساؤه أربعا، فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفا.

وبينما كانت روحه الطاهرة تتهيأ لرحلتها الجديدة كانت عيناه تفيضان من الدمع و لسانه يتمتم و يقول:

(إنى أخاف أن أحبس عن أصحابى لكثرة ما كان لى من مال).

ولكن سكينة الله سرعان ما تغشته، فكست وجهه غلالة رقيقة من الغبطة المشرقة المتهللة المطمئنة .. وأرهفت أذناه للسمع .. كما لو كان هناك صوت عذب يقترب منهما.

لعله آنئذ كان يسمع صدق قول الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ له منذ عهد بعيد: (عبد الرحمن بن عوف فى الجنة ورفيقه عيسى بن مريم).

آخر العشرة

أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ؓ

هو أبو عبيدة عامر بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ابن مالك بن النضير بن كنانة.

وهو قريشى يجتمع نسبه مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى فهر بن مالك الذى هو جماع قريش.. وينسب إلى فهر فيقال: القريشى الفهرى .. وهو أبعد العشرة نسبا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه فى الجاهلية و الإسلام عامرا، وكنيته أبو عبيدة وبها اشتهر، ولقبه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بأمين هذه الأمة.

أمه: أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامرة بن عميرة أسلمت، وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر .. فهو قريشى من جهة أمه وأبيه وهذا هو حال العشرة ما عدا أم طلحة بن عبيد الله فهى بنت الحضرمى، وأم سعيد بن زيد فهى خزاعية.

مولده: ولد فى العام الثالث عشر بعد عام الفيل.

صفته: كان ؓ رجلا طويلا نحيفا، أجنى – ميل فى ظهره – معروق الوجه، أثرم الثنيتين – أسنان أربع فى مقدم الفم – خفيف اللحية، وكان يخضب بالحناء والكتم وكان ناقش خاتمه: الخمس لله .

أولاده وزوجاته: يعتبر سيدنا أبو عبيدة بن الجراح ؓ هو أقل العشرة من حيث عدد الأولاد أو الزوجات أو الذرية، حيث تزوج واحدة هى هند بنت جابر بن وهب بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى وأنجب منها يزيد و عمر فدرج – توفى – ولد أبى عبيدة بن الجراح فليس له عقب.

إسلامه و هجرته:

كان أبو عبيدة من السابقين الأولين إلى الإسلام فقد أسلم على يدى سيدنا أبى بكر الصديق ﷺ قبل دخول النبى ﴿ﷺ وآله﴾ دار الأرقم بن أبى الأرقم، وأتى به سيدنا أبو بكر الصديق إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ هو وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون والأرقم بن أبى الأرقم فأعلنوا بين يديه كلمة الحق.. فكانوا القواعد الأولى التى أقيم عليها صرح الإسلام العظيم .. لقد رأى أبو عبيدة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يشع نورا من وجهه وبريقا يلفه، موقف يعيشه أبو عبيدة بين الحيرة المحيرة والدهشة المذهلة، والإعجاب الأخاذ، فكثيرا ما رأى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولكن على غير ما يراه الآن، ولم يدر كيف نطق بصوت عال مسموع؟! قائلا: أشهد أنك رسول الله، وأن لا إلا الله .. ثم عانق النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأجهش فى البكاء، ثم ضحك، ثم بكى. وأخذ يصغى فى انتباه إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وكأنه يريد أن يرتوى من كلامه الجميل الحلو شرابا، وبدأ يشعر بالراحة و الهدوء، مع الاطمئنان و الأمان حتى توقف الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ عن الكلام بينما يرجو أبو عبيدة المزيد، ثم عاد إلى داره، هادئ الأعصاب، قرير العين، ثابت القلب، راسخ اليقين، بأن هذا الدين الذى اعتنق هو الدين الحق، وأن الإله الواحد الأحد الذى عاهد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على عبادته هو المعبود الحق ولا إله غيره.

ثم بدأ أبو عبيدة يتحول خُلقاً جديداً و كأنه الآن صفحة بيضاء، نقية طاهرة، مهيأة أن تكتب فيها أمجاد و آيات تُخول صاحبها المآل الكريم، وتنزله منازل الشهداء والصديقين. ولم يسلم أبو عبيدة – كغيره من المسلمين الأوائل – من اضطهاد كفار مكة، وكان أبوه وأهله أشد هؤلاء القوم أذى له ومقاومة لما يعتقد، فقد عذبوه، وضربوه، وقاطعوه، وما زاده ذلك إلا تمسكاً بالإسلام وحباً لله ولرسوله ﴿ﷺ

وآله﴾، حتى إنه آثر البقاء بمكة مع الرسول ﴿ﷺ وآله﴾، ولم يهاجر أول هجرة إلى الحبشة، وناله من الأذى ما ناله فصبر راضياً، ثم استأذن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى الهجرة الثانية إلى الحبشة، وبقى وقتا غير طويل ثم قفل عائدا إلى مكة .. وتحمل أبو عبيدة اضطهاد كفار مكة و بطشهم وظلمهم، مع المسلمين صابرا محتسبا حتى هاجر إلى المدينة، واستقر مع أخيه محمد بن مسلمة ﷺ.

وفى المدينة حيث المجتمع الجديد الذى بناه الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ فى ضوء هدى الله وتوفيقه، انطلق أبو عبيدة يعطى الإسلام العمل و الجهاد.

جـهـاده:

لم يمض وقت طويل وقد دار القتال بين المسلمين وكفار قريش فى موقعة بدر الكبرى، وكان للبطل أبو عبيدة فى هذه المعركة موقف متميز عن سواه من المجاهدين الأبطال، هل تميز هذا الموقف فى الشجاعة والجرأة و الإقدام؟فكثير من أبطال المسلمين أبدى شجاعة فائقة، و كثير منهم أظهر جرأة نادرة، حيث قتل الإمام علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ستة و ثلاثين رجلاً من المشركين وحده، وهو عدد يزيد عن نصف قتلى المشركين جميعاً بواحد.

ولكن هذا الموقف الذى وقفه أبو عبيدة متميزاً به عن غيره بأنه وقف وجهاً لوجه يقاتل أباه، والبطل أبو عبيدة يبتعد عنه ويتحاشاه، والأب يندفع نحوه يريد قتله ، وكأنه عار يريد أن يزيله عن ظهر الأرض حتى لا يراه، أبو عبيدة ﷺ يكرر الابتعاد، وأبوه يسرف فى الحرص على قتله، موقف صعب .. ابن يقاتل أباه، الابن مؤمن بالله الواحد، والأب يكفر بهذا الإله و يؤمن باللات و العزى ومناة، فلما لم يجد الابن بداً لنجاة الأب غير أن يفارق هو الحياة. رأينا الأب يسقط على الأرض قتيلاً مضرجاً بدمائه بضربات الابن المؤمن بالله و رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ . هذا هو الإيمان .. وعين الله

تعالى مع المؤمنين فى يوم بدر،ورعايته تؤيدهم بالملائكة، وتكتب لهم ذلك النصر الحاسم الخالد.

ويتزل الله سبحانه وتعالى قرآناً كريماً فى موقف أبى عبيدة بن الجراح فيقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

أية متزلة عظيمة هذه! لذلك المجاهد فى سبيل الله تعالى من خالقه الذى قتل حرصاً على مرضاته: أباه، فأنزل فيه هذا القرآن الكريم.. إنه وسام بطولة و فداء يبقى على أبى عبيدة ما بقيت الحياة .. وما ينقطع بعدها أثر الجزاء .. فإذا كان الموقف متميزاً فالجزاء عظيماً.

لم تقبل قريش هزيمة بدر، ولم تنم عيون سادها عن الثأر طويلاً، فكانت معركة أُحد، وحقق المسلمون فى أولها بوادر النصر السريع، ولكن كرّة الكفار كادت تلحق بالمسلمين هزيمة ساحقة. وأحس أبو عبيدة من سير المعركة حرص المشركين، لا على إحراز النصر فى الحرب، بل قبل ذلك ودون ذلك، على اغتيال حياة الرسول العظيم﴿ ﷺ وآله﴾ ، فوطن مع نفسه على أن يظل مكانه فى المعركة قريباً من مكان رسول الله. وكلما تراءى لأبى عبيدة خطر يقترب من النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، انخلع من موقفه وقطع الأرض وثباً حيث يدحض أعداء الله ويردهم على أعقاهم قبل أن ينالوا من الرسول منالاً وفى إحدى جولاته تلك، وقد بلغ القتال ذروة ضراوته أحاط بأبى عبيدة طائفة من المقاتلين، وكانت عيناه كعادهما تحدقان فى موقع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكاد أبو عبيدة يفقد صوابه إذ رأى سهماً ينطلق من يد مشركة فيصيب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعمل سيفه فى الذين يحيطون به وكأنه مائة سيف، حتى فرّقهم عنه، وطار صوب

الرسول، فرأى دمه الزكى يسيل على وجهه، ورأى الرسول الأمين يمسح بيمينه وهو يقول: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم) ؟.

ورأى حلقتين من حلق المغفر الذى يضعه الرسول فوق رأسه قد دخلتا فى وجنتى – عظم الخد – النبى، فلم يطق صبراً .. واقترب يقبض بثناياه على حلقة منهما حتى نزعها من وجنة الرسول، فسقطت ثنية، ثم نزع الحلقة الأخرى، فسقطت ثنيته الثانية.. وأصبح من يومها أثرهم – أهتم – فكان هذا الوسام فى موقعة أحد أيضا وساما جديدا من أوسمة الشجاعة والشرف.

واستمرت معارك الكفار مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وتتابعت المشاهد، وقد كتب الله تعالى لسيدنا أبى عبيدة أن يشهدها كلها مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وفى كل منها يبدى أبو عبيده بطولات عظيمة، ويسطر فى التاريخ صفحات وضاءة مشرقة يراها الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾، وهو عنها وعن بطلها راض، وبه سعيد.

وعندما عقد أبو بكر الصديق العزم على فتح الشام وتأمين حدود الأمة الإسلامية مع الروم كان أبو عبيدة بن الجراح قائدا لواحد من هذه الجيوش، وبمثابة القائد العام للجيوش كلها إذا حاربت مجتمعة.

وفى معركة اليرموك يتكشف لنا أكثر من جانب فى شخصية ذلك البطل المجاهد فلم يعلن للجند وفاة الخليفة الأول الصديق، وكتم الأمر هذا عنهم حتى يتلافى ما قد يكون له من آثار سلبية عليهم.

ولم يعلم خالد بن الوليد بنبأ عزل الفاروق عمر له من قيادة الجيش الإسلامي، وتولية أبى عبيدة .. فترك له الأمر يحارب حتى أتم فتح دمشق، وعند توقيع وثيقة الصلح وقعها أبو عبيدة لأنه هو القائد العام من قبل أمير المؤمنين عمر.. وهكذا أصبح أبو عبيدة أمير الأمراء على أكبر جيوش الإسلام. وفى عدم إعلان عزل خالد حتى اللحظة المناسبة تظهر خبرة أبى عبيدة فى القيادة العسكرية، وقد أعلمه بلطف وكياسة وأدب إسلامى رفيع.

واستمر أبو عبيدة يقاتل فى بلاد الشام – سوريا وفلسطين والأردن ولبنان – حتى دانت للمسلمين بالطاعة والولاء.

خصائصه وفضائله:

١–أمين الأمـــة: عن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح" (أخرجه البخارى ومسلم).

وأخرجه الترمذى وأبو حاتم ولفظهما: (لكل أمة أمين وأمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح) وأخرجه ابن نجيد وزاد: (وطعن فى خاصرته، وقال: هذه خاصرة مؤمنة).

٢– فقيه أمين: كان أبو عبيدة بطلا مغوارا، ومجاهدا عظيما مقداما. وكان أيضا فقيها فى علوم الدين، يتناولها بذكاء خلاق، و منطق قويم، وفكر ممتد عميق. قد جاء إلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وفد من أبناء العرب. قدموا من نجران يعلنون إسلامهم ويطلبون منه مسلما يعلمهم مبادئ الدين، ويشرح لهم بعض أموره التى تعن لهم فى حياتهم.

وفيما يحكيه ابن سعد فى الطبقات بأن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد وضع يده الشريفة على كتف أبي عبيدة وهو يقول: (إنى سأبعث معكم بأمين صادق، إنه أبو عبيده أمين الأمة) (أخرجه البخارى وأحمد).

وهذا وسام شرف آخر من الأوسمة التى نالها أبو عبيدة بن الجراح يقلده له رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "إنه أمين الأمة". ما أرفع هذا الوسام! وما أجمله فى عنق أبي عبيده بن الجراح. وإنه كما ترى وساما فريدا لم يقلده رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأحد سواه.

وأخرج ابن إسحق عن محمد بن جعفر قال: طلب أهل نجران من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رجلا أمينا فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين، قال: فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حتى إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجرا، فلما صلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ نظر

عن يمينه ويساره، فجعلت أتطاول له ليرانى، فلم يزل يلتمس ببصره حى رأى أبا عبيدة ابن الجراح فدعاه فقال: (أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه) قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة.

٣- بيعة الصديق له خليفة لرسول الله: اجتمع الأنصار والمهاجرون لاختيار خليفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .. وقام الصديق ﷺ مبايعا لأبى عبيدة بن الجراح و قال: هو أمين الأمة.. وفى هذا الموقف تجلى جانب آخر من جوانب عظمة أبى عبيدة .. إنه الجانب السياسى الذكى بعيد النظر .. فهو يدرك مترلة الصديق فى الإسلام، ومكانته عند المسلمين، وحكمته وما فيه من لين .. إنه أسبق الرجال إسلاما، ورفيق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الغار و الهجرة، وقد كلفه الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن يؤم المسلمين فى الصلاة .. فمد يده وبايع الصديق بالخلافة.

٤- إمارته على أبى بكر وعمر: فى موقعة ذات السلاسل أرسل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جيشا لنصرة عمرو بن العاص وفى الجيش أبو بكر وعمر، وأمير الجيش أبو عبيدة بن الجراح، ولعل هذه الثقة من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هى التى جعلت عمر بن الخطاب ﷺ يقول وهو على فراش الموت: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته.. فإن سألنى ربى عنه، قلت: استخلفت أمين الأمة، وأمين رسوله!! .
(تاريخ الإسلام للذهبى).

٥- اختصاص أبى بكر إياه بالكون معه: روى أبو حذيفة إسحق بن بشر فى كتابه (فتوح الشام) أن طوائف من أحياء العرب كانت تأتى من عامة الآفاق إلى أبى بكر إمدادا للمسلمين فيستعمل عليهم الرجل منهم، ويخبرهم أن يمضوا إلى أى أمرائه أحبوا، فإذا قالوا: اختر لنا ياخليفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: عليكم بالهين اللين الذى إذا ظلم لم يظلم، وإذا أسئ إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، عليكم بأبى عبيدة بن الجراح.

٦-أحبية النبى ﴿ﷺ وآله﴾ له: عن عائشة رضى الله عنها وقد سئلت أى أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان أحب إليه؟ قالت: أبو بكر . قيل: ثم من؟ قالت عمر . قيل: ثم من؟ قالت أبو عبيدة بن الجراح (الرياض النضرة، وتاريخ الإسلام).

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: "نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح". وقال حديث حسن.

٧-اختصاصه بالإمرة فى بعض الأحيان: عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سرية وأمر عليها أبا عبيدة بن الجراح، نتلقى عيرا لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، وكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، فقيل له: فكيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبى، ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فكنا نضرب بعصينا الخبط – ورق الشجر– ثم نبله بالماء فنأكله .. ومن أجل هذا سميت هذه الغزوة بغزوة الخبط (وقد تقدم ذكرها مفصلا).

قال وانطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب – الرمل المجتمع – الضخم فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر.

قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وفى سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا. قال: فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا، ولو رأيتنا نغترف من وقب – غارتا – عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر – القطعة – كالثور أو كفدر الثور، وقد أخذ منا أبوعبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق – اللحم يغلى إغلاء ثم يقدد ويحمل فى الأسفار – فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فذكرنا ذلك له فقال: "هو رزق الله أخرجه لكم فهل معكم من لحمه شئ فتطعمونا؟" قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منه فأكله.

[أخرجه مسلم، وابن سعد فى الطبقات].

وفى رواية فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه فنصبه ونظر إلى أطول بعير فى الجيش وأطول رجل فحمله عليه فجاز تحته، وأخرجه بهذه الزيادة الخلعى.

٨–اهتمامه بأمر المسلمين: روى أن الناس قحطوا فى خلافة عمر فكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح وهو يومئذ بالشام: الغوث الغوث أدرك المسلمين، فكتب أبو عبيدة: ياأمير المؤمنين كتبت إلى الغوث وقد أتتك العير أولها عندك وآخرها بالشام.

أقوال الصحابة والسلف الصالح فيه:

١– ذكر ابن الجوزى فى صفة الصفوة عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه قال ، لأصحابه: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أن لى هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه فى سبيل الله عز وجل. ثم قال: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤا وزبرجدا أو جوهرا أنفقه فى سبيل الله عز وجل وأتصدق به. ثم قال: تمنوا. فقالوا: ما ندرى ياأمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو هذه الدار مملوءة رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح. أخرجه الفضائلى وزاد: فقال رجل: ما آلوت الإسلام – أى ما قصرت فيه – قال: ذلك الذى أدرت.

٢–أخرج الفضائلى والمحب الطبرى فى الرياض النضرة عن عمرو بن العاص قال: ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها،وأحسنها أخلاقا، وأشدها حياء، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذبوك: أبو بكر، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح.

٣–أخرج المحب الطبرى فى الرياض النضرة قال معاذ بن جبل: ما رأيت عبدا أبر صدرا ولا أبعد من الغائلة، ولا أشد حبا للعامة، ولا أنصح من أبى عبيدة بن الجراح.

٤–يقول أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء: ومنهم الأمين الرشيد، والعامل الزهيد، أمين الأمة أبو عبيدة. كان للأجانب من المؤمنين وديدا، وعلى الأقارب من المشركين

شديدا، فيه نزلت: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، صبر على الاقتصار على القليل، إلى أن حان منه النقلة والرحيل.

زهده ومواعظه:

أصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام .. وصار تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولا وعرضا .. عتادا وعددا .. فما كنت تحسبه حين تراه إلا واحدا من المقاتلين، وفردا عاديا من المسلمين.

وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه وانبهارهم بأمير الأمراء هذا.. جمعهم وقام فيهم خطيبا.

فقال للذين رآهم يفتنون بقوته، وعظمته، وأمانته:

[يا أيها الناس .. إنى مسلم من قريش .. وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى إهابه] وفى رواية صفة الصفوة لابن الجوزى: إلا أحببت أن أكون فى مسلاخه – يعنى جلده.

حياك الله ياأبا عبيدة .. وحيا الله دينا أنجبك ورسولا علمك .. مسلم من قريش لا أقل أو أكثر .. الدين: الإسلام، والقبيلة: قريش .. هذه لا غير هويته .. أما هو كأمير للأمراء، وقائد لأكبر الجيوش الإسلامية، وحاكم لبلاد الشام .. كل ذلك ومثله معه، لا ينال من انتباهه لفتة، وليس له فى تقديره حساب. ويروى الإمام أحمد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يزور الشام ويسأل مستقبليه: أين أخى؟ فيقولون من؟ فيجيبهم: أبو عبيدة بن الجراح. ويأتى أبو عبيدة، فيعانقه أمير المؤمنين عمر .. ثم يصحبه إلى داره، فلا يجد فيها من الأثاث شيئا، لا يجد إلا سيفه، وترسه، ورحله .. ويسأله عمر: ألا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس؟ فيجيبه أبو عبيدة: ياأمير المؤمنين، هذا يبلغنى المقيل.

كان أبو عبيدة يعتقد أن الدنيا ليست دار إقامة، وأنه لابد راحل غداً عنها، ومن هنا لم يتخذ لنفسه الدور والقصور والأثاث والرياش فالقليل منها يبلغه المقيل.

يروى أبو حذيفة إسحق بن بشر فى كتابه (فتوح الشام) أن سيدنا عمر بن الخطاب قال له: اذهب بنا إلى منزلك. قال: وما تصنع ما تريد؟ إلا أن تقصر عينيك علىّ. قال فدخل منزله فلم ير شيئاً. قال أين متاعك ياأبا عبيدة ما أرى إلا لبداً وصحفة وشناً وأنت أمير أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة فأخذ منها كسيرات .. فبكى عمر .. فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك ستقصر عينيك علىّ ياأمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك من المقيل، فقال عمر: غرتنا الدنيا كلنا غيرك ياأبا عبيدة.

ولا تعليق على قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ فالكل يعرف من هو فى زهده وتواضعه.

ويذكر أبو نعيم فى الحلية وابن الجوزى فى صفة الصفوة: أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير فى المعسكر ويقول: [ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن].

وفاتـــه:

دهم بلاد الشام طاعون سمى بطاعون عمواس ما عرف الناس مثله قط، فيجعل يحصد الناس حصداً، فما كان من سيدنا عمر بن الخطاب إلا أن وجه رسولا إلى أبي عبيدة برسالة يقول فيها: إنه قد عرضت حاجة عندنا ولا غنى فيها عنك، فإذا أتاك كتابى هذا فإنى أعزم عليك إن أتاك كتابى ليلاً أن لا تصبح حتى تركب، وإن أتاك نهاراً لا تمسى حتى تركب إلىّ، فلما قرأ الكتاب قال: قد عرفت حاجة أمير المؤمنين إنه يريد أن يستبقى من ليس بباق . ثم كتب: إنى قد عرفت حاجتك التى قد عرضت لك فخلنى

من عزمتك ياأمير المؤمنين، فإنى فى جند من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسى عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: توفى أبو عبيدة؟ قال: لا. وكان قد كتب إليه سيدنا عمر أن الأردن أرض غمقة – فاسد ريحها من كثرة الندا – وإن الجابية – قرية بدمشق – أرض نزهة – بعيدة عن الماء – فأظهر بالمسلمين إلى الجابية، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب، قال: هذا نسمع فيه أمير المؤمنين ونطيعه.

وعن عروة بن الزبير أن طاعون عمواس كان معافى منه أبو عبيدة بن الجراح وأهله فقال: اللهم نصيبه من آل عبيدة فخرجت بثرة – خراج صغير – فى خنصر أبى عبيدة فجعل ينظر إليها. فقيل له: إنها ليست بشىء. فقال:إنى لأرجو أن يبارك الله فيها. إنه إذا بارك الله فى القليل كان كثيراً.

وتوفى أبو عبيدة بن الجراح ﷺ فى طاعون عمواس بالأردن من الشام ودفن ببيسان عند قرية تسمى عماد، سنة ثمانى عشرة فى خلافة سيدنا عمر، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وصلى عليه سيدنا معاذ بن جبل، ونزل فى لحده معاذ وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس.

وذكر المدائنى عن العجلان عن سعيد بن عبد الله بن حسان قال: توفى فى طاعون عمواس خمسة وعشرون ألفا، وقيل: لما وقع الطاعون قال عمرو بن العاص: إنه رجز فتفرقوا عنه، فبلغ شرحبيل بن حسنة فقال: صحبت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعمرو أضل من بعير أهله، إنه – الطاعون – دعوة نبيكم، ورحمة من ربكم، وموت الصالحين قبلكم فاجتمعوا له ولا تتفرقوا عنه. فبلغ ذلك عمر فقال صدق.

وروى أن عمرو بن العاص قال: تفرقوا عن الرجز – العذاب – فى الشعاب والأودية ورؤس الجبال، قال معاذ بن جبل: بل هو شهادة ورحمة و دعوة نبيكم، اللهم اعط معاذا وأهله نصيبه من رحمتك فطعن فمات.

فلما توفى معاذ بن جبل ﵁ استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فيهم خطيبا فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار.. فتحصنوا منه فى الجبال . ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ورفعه الله عنهم.

وصيته ﵁ :

عن سعيد بن المسيب قال: لما طعن أبو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين وقال: إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير، أقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون، إن الله تعالى كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون، فأكيسهم أطوعهم لربه، وأعلمهم ليوم معاده .. والسلام عليكم ورحمة الله. يامعاذ بن جبل صل بالناس.

وتوفى﵁ فقام معاذ فى الناس فقال: أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم فأيكما عبد يلقى الله تعالى تائبا من ذنبه إلا كان على الله حقا أن يغفر له، من كان عليه دين فليقضه فإن العبد مرتهن بدينه، ومن أصبح منكم مهاجرا أخاه فليلقه فليصالحه، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام، أيها المسلمون قد فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا، ولا أبعد من الغائلة، ولا أشد حبا للعامة ولا أنصح منه، فترحموا عليه واحضروا الصلاة عليه.

ودفن أمين الأمة فى الأرض التى طهرها من وثنية الفرس واضطهاد الرومان ﵁. .

١١- سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام

إن لأهل البيت النبوى دور ومسئولية رسالية وحضارية فريدة فى تاريخ هذه الأمة، كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يجهز له، ويعد الأمة لتقبله بأمر من الله سبحانه.

لقد بدأ هذا الفضل المضىء من الإعداد النبوى بأمر الله سبحانه لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بتزويجه السيدة فاطمة للإمام على، وغرس هذه الشجرة المباركة لتمتد فروعها فى آفاق هذه الأمة عبر مسيرة تاريخها .. قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ للإمام على حين زوجه السيدة فاطمة: "إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال إن رضيت بذلك، فقال: قد رضيت يارسول الله". قال أنس بن مالك: فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: "جمع شملكما، وأسعد جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيرا طيبا". قال أنس: فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب.

إن هذه العناية الإلهية النبوية بتزويج السيدة فاطمة من الإمام على فلا يتم الزواج إلا بأمر من الله لتدل دلالة واضحة على مكانة أهل البيت الكرام، وما كان يستهدف الرسول الكريم من وراء علاقته بهم من خير لهذه الأمة.

ومعلوم أن الله تعالى لم يجمع خلال الكمال البشرى كلها إلا لحبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾، ومهما يكن من عظمة لغيره فإنها كنسبة الجزء إلى الكل . ولا شك أنه لم يحدث أن استطاع صديق ولا ولى ولا شهيد ولا تقى أن يحظى بخصال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جميعا، وإنما له بقدر كماله وقربه وتقواه وحبه نصيب يقل أو يكثر، والأمة على مواريث الهدى من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقبسها الأبرار من كل جيل موزعة فيهم، بعد أن كانت مجموعة فيه ﴿ﷺ وآله﴾، ليكون مثالا للعبد الكامل، والتقى، الأمثل.

وإذا كانت هذه المواريث، مواريث الاتباع والحب والاقتداء، أوضح وأقرب إلى الكمال، وأولى الناس بذلك من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أهل بيته، وأولى أهل بيته بذلك بنوه والأكرمون من ولد السيدة فاطمة البتول وابن عمه الإمام على عليهما السلام.

وعندما نعرض للسبطين الكريمين، الحسن والحسين سنجد مواريث النبوة تتألق بالسنا البهى فى حياتهما، نرى من أمرهما ما كان يدفع من يروهما ويعجبون لعظيم خلقهما، وروائع مواقفهما أن يقولوا: (الله أعلم حيث يجعل رسالته). فقد كانت مواريث النبوة فيهما أروع من أن تنكر، وأوضح من أن تخفى، والسر فى ذلك أن السيدة فاطمة الزهراء دخلت على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وقالت: يارسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا، فقال: (أما الحسن .. فإن له هيبتى وسؤددى، وأما الحسين .. فإن له جرأتى وجودى).

هذه المواريث لا يذهل عنها إلا من كان فى قلبه مرض، وفى بصيرته عمى!!

والإمامان الحسن والحسين من أهل بيت لا يقاس بهم أحد، نسبا، وخلقا، وعلما، وشرفا، دل على ذلك قول سيدنا عبد الله بن عباس:

(بينا نحن ذات يوم مع النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ إذ أقبلت فاطمة سلام الله عليها تبكى فقال لها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: فداك أبوك ما يبكيك؟ قالت إن الحسن والحسين خرجا ولا أدرى أين باتا، فقال لها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: لا تبكين فإن خالقهما ألطف بهما منى ومنك، ثم رفع يديه فقال: اللهم احفظهما وسلمهما، فهبط جبريل وقال: يامحمد لا تحزن فإنهما فى حظيرة بنى النجار نائمين وقد وكل الله بهما ملكا يحفظهما، فقام النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعه أصحابه حتى أتى الحظيرة فإذا بالحسن والحسين عليهما السلام معتنقين نائمين، وإذا الملك الموكل بهما قد جعل أحد جناحيه تحتهما والآخر فوقهما يظلهما، فأكب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ عليهما يقبلهما حتى انتبها من نومهما، ثم جعل الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقه الأيسر، فتلقاه أبو بكر وقال: يارسول الله ناولنى أحد الصبيين أحمله عنك، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: نعم المطى مطيهما ونعم الراكبان هما وأبوهما خير منهما .. حتى أتى المسجد، فقام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهما على عاتقيه ثم قال: معاشر المسلمين ألا أدلكم على خير الناس جدا وجدة؟ قالوا

بلى يارسول الله، قال الحسن والحسين جدهما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خاتم المرسلين وجدهما خديجة بنت خويلد سيدة نساء أهل الجنة، ألا أدلكم على خير الناس عما وعمة؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: الحسن والحسين عمهما جعفر بن أبي طالب وعمتهما أم هانئ بنت أبي طالب، أيها الناس ألا أدلكم على خير الناس خالا وخالة؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: الحسن والحسين خالهما القاسم ابن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وخالتهما زينب بنت رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾، ثم قال: اللهم إنك تعلم أن الحسن والحسين فى الجنة وعمهما فى الجنة، وعمتهما فى الجنة، ومن أحبهما فى الجنة ومن أبغضهما فى النار.

[أخرجه الملاء فى سيرته وغيره،والهيثمى فى مجمع الزوائد، والمحب الطبرى فى ذخائر العقبى].

الإمام المجتبى

سيدنا الحسن بن على ﵇

استقبل البيت النبوى أول حفيد وسبط للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ ليلة النصف من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث من الهجرة، فكان أول مولود ذكر فى أشرف بيت عربى عريق الأصل شريف النسب.

ولاحت أمارات البشر والسعادة فى وجه النبى حين أذيع نبأ قدوم الوليد والحفيد، بينما كانت زعامات قريش وصناديد مكة تعض الأنامل من الغيظ والحقد لفشل المؤامرة الإعلامية ضد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ التى تهذى بأن النبى محمدا يموت ولا نسل له.

وذهبت أسماء بنت عميس بالوليد المبارك إلى جده المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ الذى أخذه برفق، وضمه فى حنان بالغ وراح يلثمه بقبلات حانية، ثم بدأ يقطر فى أذنه الإسلام والإيمان، ويعصر فى روحه الإحسان والإيقان المتمثلين فى كلمات الآذان، فكانت بداية

التربية عبارات التكبير والتهليل والتوحيد الخالص، فكان أول صوت سمعه الوليد الجديد هو صوت جده ﴿ﷺ وآله﴾ .. آذان فى اليمنى وإقامة فى اليسرى، وتسمية للغلام لم يسبقها ولد من العرب على اختلاف قبائلها، لقد أسماه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ حسنا .. أعطاه لسانه فمصه حتى روى .. وكانت ريق النبى ﴿ﷺ وآله﴾ أو طعام يدخل بطنه، وأول لبان يطفئ ظمأه. (كتر العمال).

وقيل: فعل ذلك بأخيه الحسين عليه السلام.

وعق عنه ﴿ﷺ وآله﴾ بكبشين أملحين، وأعطى القابلة (الداية) فخذا ودينارا. وحين عق عنه بيده الشريفة قال: (بسم الله عقيقة عن الحسن، اللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللهم اجعله وفاء لمحمد وآله). ثم توجه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لابنته الزهراء وقال: يافاطمة، احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة، ثم أمر بختانه فتم له ما أراد يوم السابع من ولادته.

وفى أسد الغابة بسنده عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، أنها قالت: يارسول الله، رأيت كأن عضوا من أعضائك فى بيتى، قال: خيرا: تلد فاطمة غلاما فترضعيه بلبن قثم، فولدت الحسن فأرضعته بلبن قثم (ابنها) وبهذا يصبح قثم بن العباس بن العباس ابن عم الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ أخا سبطه الحسن من الرضاع.

ولد الإمام الحسن فى هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والإيمان. وفى هذا البيت الذى أسس على الفضيلة وخشية الله تعالى، فكأن عينيه قد تفتحتا على أكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة.

وما كاد الإمام الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يعلمه العلم بالله، وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد، يبث فى قلب الإمام الحسن الغض حب الحق والعدل والإيثار، وينفخ فى روع الصبى القناعة والرضى.

فقد روى عن الإمام الحسن أنه قال: أذكر من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنى أخذت تمرة من تمر الصدقة فتركتها فى فمى فنزعها بلعابها، وجعلها فى تمر الصدقة، فقيل: يارسول الله، ما كان عليك من هذه التمرة؟

قال: إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة.

واختار الرسول الرفيق الأعلى والإمام الحسن لم يتجاوز الثامنة من عمره، ولكنه رغم هذه السن الغضة، وعى الشيء الكثير وتأدب بآداب الرسول الكريم وتخلق بأخلاقه.

منزلة الإمام الحسن ﵇ عند جده (ﷺ وآله):

كان الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يخاطب الإمامان الحسن والحسين فيقول: "اللهم أذهب عنهما الرجس وطهرهما تطهيرا". ويقول: "أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم". ويبتهل قائلا: "اللهم أحب من أحبهم، وابغض من أبغضهم، ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، وأعن من أعانهم، واجعلهم مطهرين من كل دنس، معصومين من كل ذنب". ويحق للرسول ﴿ﷺ وآله﴾ أن ينطق بما يعرفه من الطوايا والنوايا نحو آله فيبكيهم أحياء، لأنه قد انكشف له الغطاء عن أمور صدقها الوحى، فأجاز لنفسه أن يبكى وقد أقبل عليه الإمام الحسن يقول: إلى إلى يابنى .. ثم يدنيه ويجلسه على فخذه ويعدد ما يترل الله بآله من البلاء فيذكرهم واحدا واحدا ويقول:

(أما الحسن فإنه ابنى وولدى ومنى، وقرة عينى، وضياء قلبى وثمرة فؤادى، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمرى، وقوله قولى، فمن تبعه فإنه منى، ومن عصاه فليس منى، وإنى لما نظرت إليه تذكرت ما يجرى عليه من الذل بعدى، وعند ذلك تبكى الملائكة والسبع الشداد لموته، ويبكيه كل شئ، حتى الطير فى كبد السماء والحيتان فى جوف الماء. ثم يرفعه على عاتقه ويقول كلمة تترد على الزمن: إن

فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، والحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا وهما سيدا أهل الجنة).

وقد شرف الإمام الحسن جده المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ كما شرف أخاه الإمام أبا عبد الله الحسين السبط بأن نسبهما إليه بالنبوة،وإن كانا من صلب الإمام علىّ كرم الله وجهه. روى الترمذى من حديث أسامة بن زيد قال: (طرقت النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى بعض حاجة، فقال: هذان ابناى وابنا ابنتىّ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما).

لذلك يقال لكل من السبطين الحسن والحسين: (يا ابن المصطفى).

وكانا رضوان الله عليهما يعتزان بأبوته ﴿ﷺ وآله﴾ ويهتفان به، فيقول كل منهما له ﴿ﷺ وآله﴾: (يا أبت) فإذا هتف الحسن بأبيه على قال: (يا أبا الحسين)، وإذا هتف الحسين بأبيه قال: (يا أبا الحسن)، فلما انتقل جدهما ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى كانا يقولان لأبيهما على: (يا أبت).

ووقف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يصلى بالمسلمين فجاء الإمام الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره. فرفعه النبى رفعا رقيقا، فلما فرغ من الصلاة وضعه فى حجره فكان يدخل أصابعه فى لحيته والرسول ﴿ﷺ وآله﴾ يضمه ويقبله فى حنان ويقول: اللهم إنى أحبه، ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق فقالوا: يارسول الله إنا رأيناك تصنع لهذا الصبى شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد؟ فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: (هذا ريحانتى، وابن ابنى هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين).

والمراد من الفئتين من المسلمين فى هذا الحديث – وقد أصلح الله تبارك وتعالى بينهما بالإمام الحسن عليه السلام – أهل الكوفة أصحاب الإمام الحسن وأصحاب أبيه، وأهل الشام أصحاب معاوية بن أبى سفيان.

ونهض النبى وحمل الحسن وسار، فقابله رجل فقال: نعم المركب ركبت ياغلام، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: "ونعم الراكب هو" (أخرجه الحاكم عن ابن عباس).

وقد شعر الصحابة الكرام بأن ذكر الحسن والحسين يدخل على نفس النبى الغبطة فسأله بعض الجلساء يوماً: أى أهلك أحب إليك؟ فأجابه: (الحسن والحسين .. من أحبنى وأحبهما وأباهما وأمهما كان معى فى الجنة) (رواه أحمد والترمذى).

وقال مرة لواحد من أصحابه: ادع ابنى، فأتى بالحسن وهو يشتد حتى وقع فى حجره فاحتضنه شغفاً.

وفى تاريخ بغداد بسنده عن حذيفة قال: رأينا فى وجه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تباشير السرور فقلنا: يارسول الله لقد رأينا اليوم فى وجهك تباشير السرور، فقال: (وما لى لا أسر وقد أتانى جبريل فبشرنى أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة وأباهما أفضل منهما) (رواه الحاكم والطبرانى وابن عساكر وابن ماجة).

وروى عبد الله بن عبد الرحمن بن الزبير قال: أشبه أهل النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وأحبهم إليه الحسن، رأيته يجئ وهو ساجد فيركب رقبته أو قال ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر.. (الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى).

وروى أنس بن مالك قال دخل الحسن على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأردت أن أميطه عنه فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: "ويحك ياأنس دع ابنى وثمرة فؤادى فإن من أذى هذا فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله).

وقد تحدث الرواة عن نبوغ الإمام الحسن المبكر، فقد ملك بمقتضى ميراثه من الفطنة وسمو الإدراك ما لا يملكه غيره، فكان لا يمر عليه شئ إلا حفظه، وكان يحضر مجلس جده ﴿ ﷺ وآله﴾ فيحفظ الوحى فينطلق إلى أمه الزهراء فيلقيه عليها فتحدث به الإمام عليّاً فيتعجب ويقول: من أين لك هذا؟ فتقول: من ولدك الحسن.

وقد أخرج أبو داود أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: (هذا منى – يعنى الحسن – وحسين من على).

وقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد قال ﴿ﷺ وآله﴾: (حسين منى وأنا منه).

وأخرج مسلم عن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ قال: (علىّ منى وأنا من عليّ).

ولا عجب أن يكون الإمام عليّاً والإمام الحسن والإمام الحسين من النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وهو القائل: (جعل الله ذرية كل نبى من صلبه وجعل ذريتى من علىّ).

ولقد كانت ملامح الإمام الحسن تحاكى ملامح جده المصطفى خُلقاً وخَلقاً وهيئة وهدياً وسؤدداً، فعن أبى مليكة عن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر الصديق ﷺ يحمل الحسن ويقول: (بأبى شبيه بالنبى.. ليس شبيهاً بعلىّ.. وعلىّ يضحك). **[فتح الباري لابن حجر الهيثمى]**.

علمــه عليه السلام :

– قال الأصمعى: سأل على بن أبى طالب ابنه الحسن عليهما السلام: (كم بين الإيمان واليقين؟ قال أربعة أصابع،و قال: وكيف ذلك؟ قال: الإيمان كل ما سمعته أذناك وصدقه قلبك، واليقين ما رأته عيناك فصدقه قلبك، وليس بين العين والأذنين إلا أربعة أصابع).

– وأرسل ملك الروم إلى معاوية بعض الأسئلة فأرسل بها إلى الإمام الحسن ليجيب عنها.

أما الأسئلة فهى: أين وسط السماء؟ وما أول قطرة دم وقعت على الأرض؟ وما هو المكان الذى طلعت عليه الشمس مرة؟ وما المكان الذى لا قبلة له؟ ومن الذى لا قرابة له؟

أجاب الإمام الحسن قائلا: وسط السماء الكعبة، وأول قطرة دم أريقت على الأرض دم حواء، والمكان الذى طلعت فيه الشمس مرة واحدة أرض البحر حين ضربه موسى بعصاه فانفلق، وما ليس له قبلة الكعبة لأنها قبلة، وما لا قرابة له فهو الله عز وجل، فلا قرابة ولا نسب ولا مصاهرة، تعالى الله عن ذلك.

– وسأل ملك الروم عن سبعة أشياء لم تستقر فى الرحم؟

أجاب قائلا: لم يستقر فى الرحم .. آدم، ولا حواء، ولا كبش إبراهيم، ولا ناقة صالح، ولا إبليس اللعين، ولا الحية، ولا الغراب الذى ذكره الله فى القرآن .

– نقل الحافظ أبو نعيم فى حليته، أن أمير المؤمنين عليا بن أبى طالب عليه السلام، سأل ابنه الحسن رضى الله عنهما فقال: (يا بنى: ما السداد؟ فقال: ياأبت، السداد دفع المنكر بالمعروف. قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة وحمل الجريرة. قال: فما السماحة؟ قال: البذل فى العسر واليسر. قال: فما اللؤم؟ قال: احتقار المرء نفسه

وبذله عرسه. قال: فما الجبن؟ قال: الجرأة على الصديق والنكول عن العدو. قال: فما الغنى؟ قال: رضا النفس بما قسم الله لها وإن قل. قال: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ وملك النفس. قال: فما المنفعة؟ قال: شدة البأس ومنازعة أعز الناس. قال: فما الذل؟ قال: الفزع عند الصدمة. قال: فما الكلفة؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك. قال: فما المجد؟ قال: أن تعطى فى العزم وتعفوا فى الجرم. قال فما السؤدد؟ قال: إتيان الجميل وترك القبيح. قال: فما السفه؟ قال: اتباع الدناءة وصحبة الغواة. قال: فما الغفلة؟ قال: ترك المسجد وطاعة المفسد).

- وقيل له: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة، فقال: (رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختارها الله له).

هيبته ووقاره:

الإمام حسن فى حداثته عظيم ، له هيبة ووقار منذ صغره، يلحق به أبو هريرة ويقول له: السلام عليك ياسيدى، رغم التفاوت بينهما فى السن، ويعجب البعض، فيقسم أبو هريرة دون أن يخاف معرة أنه سمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول: "إن الحسن سيد".

إن شخصية الإمام الحسن كانت تملأ العيون وتهيمن على النفوس لأنه التقت به عناصر الإمامة وتمثلت فيه هيبة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى لقد كان معاوية وهو السلطان يهابه ويخشاه، ولقد صار للحسن هيبة واحترام يضطران ابن العباس على جلاله وصحبته أن يأخذ له الركاب إذا ركب، ويرى ذلك فرصة طيبة ليتبرك بها.

وقد بلغ من عظيم هيبته أنه كان يفرش له على باب البيت فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، لأنه لا يمر أحد إلا جلس إجلالا وإكبارا له، فإذا علم ذلك قام ودخل البيت.

وصدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حين قال: "أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى".

وكل هذا يفسر لنا ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما حين انتقل الإمام الحسن: أول ذل دخل على العرب وفاة الحسن عليه السلام ... وأنت تدرك من كلمة ابن عباس هذه أية مكانة كانت للإمام الحسن فى المجتمع، وأى فراغ كان يملؤه فى الناس.

السياسة ومسئوليات الحاكم:

سئل الإمام الحسن عن رأيه فى السياسة؟ فقال: هى أن ترعى حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات.

- فأما حقوق الله: فأداء ما طلب و الاجتناب عما نهى.
- وأما حقوق الأحياء: فهى أن تقوم بواجبك نحو إخوانك،ولا تتأخر فى خدمة أمتك، وأن تخلص لولى الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتك فى وجهه إذا ما تنحى عن الطريق السوى.
- وأما حقوق الأموات:فهى أن تذكر خيراتهم، وتتغاضى عن مساوئهم،فإن لهم ربا يحاسبهم.

زواج الإمام الحسن عليه السلام :

على رغم ما اشتهر به الإمام الحسن من أنه مزواج مطلاق، إلا أن عدد زوجاته لم يتجاوز الخمس عشرة زوجة، وهو عدد لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة..

ويطنطن المستشرقون بكثرة زوجاته متهمين إياه بالشهوة، كما اتهموا جده المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ من قبل.

والحقيقة أن تعدد الزواج بين العرب كان أمرا مألوفا ومستحبا، لأن الزواج فى زمانهم كان يربط العصبيات، ويزيد فى قوة القبائل، وقد كان زواج الإمام الحسن لظروف شرعية محضة.. أنظر إليه وهو ينكح إحدى بنات القبائل ذوات الحسب والنسب، وقد فاتهن مركب الزواج فصرن عوانس، لا يقبل عليهن أحد .. فيتزوج الواحدة منهن ثم يطلقها فيسرع إليها سراة القوم بعد أن صارت ذات شهرة بزواجها من ابن الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.

كما أدرك عليه السلام بثاقب بصيرته ما قد تتعرض له ذريته من اضطهاد وتقتيل لا يحفظ منه سلالة الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ من الاندثار والانقراض، وكلنا يعلم أنه قد استشهد خمسة من أولاده مع عمهم الإمام الحسين فى كربلاء وهم: زيد، والحسن بن الحسن، والقاسم، وأبو بكر، وعبد الله.

وبقى منهم ستة هم: عمرو، وعبد الرحمن، والحسين، ومحمد، ويعقوب، وإسماعيل، ولم يعقب من أولاده سوى الحسن وزيد.

وكان الناس كثيرا ما يعرضون عليه المصاهرة رغبة منهم فى أن يتصل نسبهم بنسب الرسول ﴿ﷺ وآله﴾، حتى لقد صعد أبوه الإمام على إلى المنبر فى الكوفة يوما وقال: يأهل الكوفة لا تزوجوا الحسن، فقال رجل من همدان: والله لنزوجنه فمن رضى

أمسك ومن كره طلق. (تهذيب ابن عساكر، والبداية والنهاية لابن كثير، وسير أعلام النبلاء).

فلم يكن زواجه عن مزاج شهوانى، أو انغماس فى اللذائذ ومتاع الدنيا، وهو الإمام الذى حج بيت الله الحرام خمسا وعشرين حجة ماشيا والنجائب تقاد بين يديه وهو يقول: (إنى لأستحيي من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته)، وكان معروفا بصيام النهار وقيام الليل، وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله عز وجل ثلاث مرات. وصفه أخوه محمد بن الحنيفة وصفا دقيقا فقال: أنت عقبة الهدى، وخلف أهل التقوى، وخامس أصحاب الكساء، غذتك بالتقوى أكف الحق، وأرضعتك ثدى الإيمان، وربيت فى حجر الإسلام.

كريم أهل البيت:

قال ﴿ﷺ وآله﴾: "خلقان يحبهما الله وهما حسن الخلق والسخاء" . والسخاء ينم عن طيب قلب، ويكشف عن الفضائل النفسية، ويحكى عن رحمة الإنسان ورأفته، وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها فى الإمام الحسن حتى لقب بكريم أهل البيت.

وكان الإمام الحسن لا يعرف للمال قيمة ولا يرى له أهمية سوى ما يرد به جوع جائع، أو يكسو به عاريا، أو يغيث به ملهوفا، أو يفى به دين غارم.

وقد أثر عنه أنه ما قال لسائل (لا) قط، وقيل له: لأى شئ لا نراك ترد سائلا؟

فأجاب: إنى لله سائل وفيه راغب، وأنا أستحى أن أكون سائل وأرد سائلا، وإن الله عودنى أن يفيض نعمه على، وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعنى العادة، وأنشأ يقول:

إذا ما أتانى سائل قلت مرحبا بمن فضله فرض على معجل

ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الغنى حين يسأل

- وقد ذكرت نوادر كثيرة من كرمه وجوده منها:

١- جاءه أعرابى سائلا، فقال: أعطوه ما فى الخزانة، وكان فيها عشرة آلاف درهم.

٢- اجتاز يوما فى بعض أزقة المدينة فسمع رجلا يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانطلق إلى بيته وأرسلها إليه.

٣- أضافه هو والحسين وعبد الله بن جعفر عجوز فأعطاها ألف دينار وألف شاة، وأعطاها الحسين مثل ذلك، وأعطاها عبد الله بن جعفر مثلهما.

٤- اشترى بستانا من الأنصار بأربعمائة ألف، ثم بلغه بعد ذلك أنهم قد احتاجوا إلى ما فى أيدى الناس فرده إليهم، وبذلك أنقذهم من ذل السؤال .. وهذا أفضل أنواع السخاء.

٥- وقد جاءه فقير يشكو حاله ولم يكن عنده فى ذلك اليوم شئ، فعز عليه الأمر واستحى من رده فقال ﷺ له: إنى أدلك على شئ يحصل لك منه الخير، فقال الفقير: يابن رسول الله ما هو؟ فقال: اذهب إلى الخليفة فإن ابنته قد توفيت وانقطع عليها فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير، قل: الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها، ولم يهتكها بجلوسها على قبرك.

فجاء الفقير إلى الخليفة فعزاه بها، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة. وقال له: أكلامك هذا؟ قال: لا، وإنما كلام الإمام الحسن، فقال الخليفة: صدقت فإن معدن الكلام، الكلام الفصيح.. وأمر له بجائزة أخرى.

وهذا درس يعلمنا أن من يلوذ بأهل البيت، لا يرد خائبا بل ينال ما يريد، وفوق ما يريد، فإنهم منبع الكرم والجود والإحسان.

قف على بابنا ولذ بحمانا وتمسك بحبنا وهوانا

تبلغ القصد والمراد فإنا ... نمنح الخير والعطا من أتانا
وتشفع بنا لطه التهامى ... تعط ما ترتجيه من مولانا
نحن أنواره فبادر إلينا ... وتوسل بنا تفز برضانا
قد بسطنا أكفنا ياكراما ... فامنحونا العطا ووفوا قرانا
وقصدناكمو أيا آل طه ... وكفانا أنا وصلنا كفانا

خلافة الإمام الحسن:

هو خامس الخلفاء الراشدين بنص حديث جده ﴿ﷺ وآله﴾ الذى رواه البزار والبيهقى: "الخلافة بعدى ثلاثين عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك". ولىّ الإمام الحسن الخلافة بعد استشهاد أبيه بمبايعة أهل الكوفة فأقام بها ستة أشهر وأياماً خليفة حق وإمام عدل صدق، تحقيقاً لما أخبر به الصادق المصدوق ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله: "الخلافة بعدى ثلاثون عاماً" فكانت الستة أشهر المكملة لتلك الثلاثين، فكانت خلافته منصوصاً عليها، وبعد تلك الأشهر الستة سار إلى معاوية فى أربعين ألفاً، وسار إليه معاوية فلما تراءى الجمعان علم الإمام الحسن أنه لن يغلب أحد الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على أن تكون الخلافة له من بعده ، وعلى أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه، وعلى أن يقضى عنه ديونه، فأجابه معاوية إلى ما طلب إلا عشرة فلم يزل يخاطبه حتى بعث إليه برق أبيض، وقال: اكتب ما شئت فأنا ألتزمه.

ولما تصالحا كتب الإمام الحسن كتاباً إلى معاوية صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما صالح عليه الحسن بن علىّ رضى الله عنهما معاوية بن أبى سفيان، صالحه على أن يسلم إليه ولاية المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، وليس لمعاوية بن أبى سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده

عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أن الناس آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا، وعلى معاوية بن أبى سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وأن لا يبتغى للحسن بن على ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من بيت رسول الله غائلة، سراً أو جهرا، ولا يخيف أحداً منهم فى أفق من الآفاق .. أشهد عليه فلان بن فلان وكفى بالله شهيداً). (الصواعق المحرقة).

ولما أبرم الصلح التمس معاوية من الإمام الحسن أن يتكلم بجمع من الناس ويعلمهم أنه قد بايع معاوية وسلم إليه الأمر، فأجابه إلى ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال: (أيها الناس إن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، إلى أن قال: وقد علمتم أن الله جل ذكره وعز اسمه، هداكم بجدى وأنقذكم من الضلالة وخلصكم من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة، وكثركم به بعد القلة، إن معاوية نازعنى حقاً فنظرت إصلاح الأمة وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتمونى على أن تسالموا من سالمنى وتحاربوا من حاربنى، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بينى وبينه، وقد بايعته ورأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا إصلاحكم وبقاؤكم، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين).

ومما شرح الله به صدره فى هذا الصلح ظهور معجزة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فى قوله فى حق الإمام الحسن: "إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين" رواه البخارى.

وكان نزوله عن الخلافة سنة إحدى وأربعين فى شهر ربيع الثانى، ثم ارتحل من الكوفة إلى المدينة وأقام بها.

آل خير الرسل ياأهل العبا أنتمو الزخر لنا فى الشدة

أنتمو نعم الوسائل عندما أسأل الله أفوز ببغيتى
بالبتول إلى الحبيب المصطفى قد توسلت لطه حجتى

بالإمام المجتبى الحسن الذى   أصلح الله به بالرأفة
بابنها السبط الحسين وسيلتى   سيد الشفعاء نور الشرعة
جئت أرجو فضل ربى والندى   والعواطف من رسول الرحمة

وفاة الإمام الحسن:

توفى الإمام الحسن ﵁ سنة ٤٩هـ (٦٦٩م) بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين، ودفن بالبقيع وصلى عليه سعيد بن العاص وكان أميرا للمدينة، قدمه الإمام الحسين للصلاة عليه وقال: (لولا أنها سنة ما قدمتك).

وفى الاستيعاب لابن عبد البر: سم الحسن بن على، سمته امرأته. بنت الأشعث بن قيس الكندى، ويتابعه على ذلك مؤرخو الجماعة من أهل السنة. ويتحدث رجال التاريخ بأن الإمام الحسن قال لبعض عائديه فى مرضه الأخير: (لقد سقيت السم مرات، ولكن لم أسق قط سما أشد على من هذا الذى سقيته هذه المرة).

وكان الإمام الحسن سمحا جوادا بنفسه فى وفاته، كما كان جوادا بها فى حياته .. سأله الإمام الحسين: من سقاك ياأخى؟

فأجابه ما سؤالك من هذا.. أتريد أن تقاتلهم؟ كلهم إلى الله.

ودفن الإمام الحسن مع خيرة الأهل والأصحاب، فى البقيع بجوار جدته فاطمة بنت أسد بقبته المشهورة وعمره سبع وأربعون سنة، كان منها مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ سبع سنين، ثم مع أبيه ثلاثين سنة، ثم خليفة ستة أشهر، ثم تسع سنين ونصف بالمدينة.

وكانت وفاته ﵁ بالمدينة فى يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر صفر.

وقد قال سيد الشهداء الإمام الحسين ﵁ مرثيا الإمام الحسن:

رحمك الله يأبا محمد، إن كنت لتناصر الحق مظانة، وتؤثر الله عند التداحض فى مواطن التقية بحسن الروية، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة، وتفيض عليها يدا طاهرة الأطراف نقية الأسرة، وتردع بادرة عزت أعدائك بأيسر المؤونة عليك، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان وجنة نعيم، أعظم **الله لكم ولنا الأجر عليه، ووهب لنا ولكم حسن الأسى عنه.. ثم جلس وأنشد:**

أأدهن رأسى أم تطيب محاسنى … وخدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه … وقد ضمن الأحشاء منك لهيب
أو استمتع الدنيا لشيء أحبه … إلى كل ما أدنى إليك حبيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة … وما اخضر فى دوح الحجاز قضيب
فلا يفرح الباقى ببعد الذى مضى … فكل فتى للموت فيه نصيب
وليس حريبا من أصيب بماله … ولكن من وارى أخاه حريب
بكائى طويل والدموع غزيرة … وأنت بعيد والمزار قريب

سيد الشهداء

الإمام الحسين بن على عليه السلام

عاصر الإمام الحسين عليه السلام جده ﴿ﷺ وآله﴾ ستة أعوام وسبعة أشهر وسبعة أيام، تعهده بالتربية والتزكية والأنوار حتى صار إماما هاديا مهديا، ولد فى الخامس من شعبان فى العام الرابع من الهجرة فى المدينة المنورة، وحنكه النبى ﴿ﷺ وآله﴾ بريقه، وأذن فى أذنه اليمنى، وتفل فى فمه ودعا له.

وسئل ﴿ﷺ وآله﴾ أى أهل بيتك أحب إليك؟ قال: (الحسن والحسين).

وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يدلع لسانه للحسين ﵇ فيرى حمرة لسانه فيهش إليه، فقال عيينة ابن بدر: ألا أراه يصنع هذا بهذا؟ فوالله إنه ليكون لى الولد قد خرج وجهه، وما قبلته قط، فقال ﴿ﷺ وآله﴾: (من لا يرحم لا يرحم)أخرجه الإمام أحمد فى مسنده. .

وهذا الحسن والحسين يصطرعان أمام بيت النبى ذات يوم والسيدة فاطمة تشهد المصارعة بين ابنيها، فجعل الرسول يشجع الحسين ويقول: "هى حسين" فقالت أمهما: "لم تنصر حسينا وتقول هى؟" فقال النبى ﴿ﷺ وآله﴾: "إن جبريل قالها فقلتها".

وخرج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من حجرة السيدة عائشة ومر على بيت السيدة فاطمة فسمع حسينا يبكى فقال: "ارضه حتى يسكت ألم تعلمى أن بكاؤه يؤذينى؟". رواه الطبرانى.

وانظر إلى هذا الحب والتدليل حين يلقى المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾ الإمام الحسين فى الطريق يلعب مع الغلمان فيمد يده إليه ليأتيه والحسين يهرب من جده هنا وهنا والرسول يضاحكه،حتى أخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ثم قبله وقال: .

"حسين منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط"، أى هو كأمة من الأمم(رواه الترمذى وابن ماجة والبخارى فى الأدب المفرد).

سرٌّ(مِنِّى حسينٌ)غيبٌ مصونُ   سرُّ(مِنْهُ أنَا) بهِ مَضْنُونُ
تفقَهُ الروحُ من غوامضِ هذا   سرَّ بدءٍ بدا بهِ التكوينُ
من حسينٍ إن شئتَ تفهمُ معنَى   قولِ طهَ وقولُهُ مَضنون
ساطعٌ لاحَ مشرقاً فى مقامٍ   غامضٍ قد تراهُ فيهِ العُيون
لامعٌ من ظهورِ غيبِ التجلِّى   حيثُ كان الميثاقُ وَهْوَ الدِّينُ
مِنْ حسينٍ تمثيلُهُ فى مُثولٍ   بل حسينٌ منهُ بدا التَّمكينُ
مَثَّلَتْهُ الرسْلُ الكرامُ ابتداءً   شبَّهتهُ الأَنباءُ ربى مُعِينُ

اشْهَدِيه ياروحُ مرآةَ طهَ في حسينٍ وَهْوَ الوفِيُّ الأَمين
يا حُسَيْنُ المحبوبُ فيكَ تراءى نورُ خيرِ الوجودِ صَحَّ اليقينُ

ويقول البراء بن عازب رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حاملا الحسين بن على على عاتقه ويقول: (اللهم إنى أحبه فأحبه). وله من الولد: على الأكبر، وعلى الأصغر وله العقب، وجعفر، وفاطمة، وسكينة.

منزلة الإمام الحسين عند الصحابة:

١- كان عبد الله بن عمرو – الذى قال فبه النبي ﴿ﷺ وآله﴾: (إنه نعم الرجل الصالح)- يجلس ﷺ ذات يوم فى ظل الكعبة فدخل الإمام الحسين المسجد الحرام فقال ابن عمرو وهو يشير إلى الإمام: هذا أحب أهل الأرض اليوم إلى السماء.

جاء فى أسد الغابة فى ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص، روى بسنده عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه، قال: كنت فى مسجد الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ فى حلقة فيها أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن عمرو، فمر بنا الحسين بن على عليه السلام فسلم فرد القوم السلام، فسكت عبد الله حتى فرغوا رفع صوته وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلى، قال: هذا هو الماشى ما كلمنى كلمة منذ ليالى صفين، ولأن يرضى عنى أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم، فقال أبو سعيد: ألا تعتذر إليه، قال: بلى، قال: فتواعدا أن يغدوا إليه، قال: فغدوت معهما، فاستأذن أبو سعيد، فأذن له، فدخل ثم استأذن لعبد الله فلم يزل به حتى أذن له، فلما دخل قال أبو سعيد: ياابن رسول الله إنك لما مررت بنا أمس – فأخبره بالذى كان من قول عبد الله بن عمرو– فقال حسين عليه السلام: أعلمت ياعبد الله أنى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟، قال: إى ورب الكعبة، قال: فما حملك على أن قاتلتنى وأبى يوم صفين فوالله لأبى كان خيرا منى، قال: أجل، ولكن

عمرو شكانى إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فقال: يارسول الله إن عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار، فقال لى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: ياعبد الله صل ونم وصم وافطر، وأطع عمرا، قال: فلما كان يوم صفين أقسم على فخرجت، أما والله ما اخترطت سيفا، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم، قال: فكأنه قبل منه.

٢- عاد الإمام الحسين يوما من تشييع جنازة وجلس يستريح فى الطريق فقام أبو هريرة ﷺ ينفض التراب عن نعلى الإمام الحسين بثوبه، فقال الإمام: (وأنت يأأبا هريرة تفعل هذا بى) فقال أبو هريرة: دعنى ياحسين فلو علم الناس من قدرك ما أعلم لحملوك على الرقاب.

٣- روى الخطيب البغدادى فى تاريخه بسنده عن عبيد بن حنين، قال: حدثنى الحسين بن على عليه السلام قال: أتيت عمر بن الخطاب وهو على المنبر فصعدت إليه، إلى أن قال: وأخذنى وأجلسنى معه، فجعلت أقلب خنصر يدى فلما نزل انطلق بى إلى منزله فقال لى: من علمك، فقلت: والله ما علمنيه أحد، قال: يابنى لو جعلت تغشانا، قال: فأتيته يوما هو خال بمعاوية وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر ورجعت معه فلقينى بعد، فقال: لم أرك، فقلت: إنى جئت وأنت خال بمعاوية وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر ورجعت معه فقال: أنت أحق بالإذن من ابن عمر، وإنما أنبت ما ترى فى رؤوسنا الله ثم أنتم.

٤- كان الإمام على كرم الله وجهه يحرص على سلامة الإمام الحسن وأخيه الحسين ويقول: إنهما إن هلكا انقطع نسل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من هذه الأمة، وكان يرسل فى الحرب أخاهما محمد بن الحنيفة ويبقيهما، فلما سئل أخوهما محمد عن سبب إخراج أبيه إياه دون أخويه رد قائلا: (إن الحسن والحسين عينان لأبى وأنا يمينه فهو يدفع بيمينه عن عينيه).

٥- كان ابن عباس الصحابي الجليل يمسك له الركاب حتى يركب فرسه إجلالا له و إعظاما، وتقدم أنه كان يفعل ذلك أيضا بالإمام الحسن عليه السلام.

مكانة الإمام الحسين عند التابعين:

يقول إبراهيم النخعي رضي الله عنه: والله لو كنت ممن حضر مصرع الإمام الحسين ولم أقاتل معه ولم أدفع عنه ثم دخلت الجنة لاستحييت أن ألقى بوجهي رسول الله ﴿ صلى الله عليه وآله﴾.

أخلاق الإمام الحسين:

١- بذل الإمام: دخل على أسامة بن زيد رضى الله عنهما وكان مريضا فقال أسامة: واغماه؟ فسأله الإمام: (لم الغم يا أخي؟) قال: على دين ستون ألف درهم فقال الإمام: (اطمئن فهو على أقوم بأدائه) فقال أسامة: إنى أخشى أن أموت قبل السداد والنبى ﴿ صلى الله عليه وآله﴾ يقول: (روح المؤمن محبوسة عن الجنة حتى يقضى دينها). فقال الإمام: (لن تموت إن شاء الله حتى أقضيها عنك ثم قام مسرعا وأدى الدين).

وذكر الفخر الرازى فى ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١). قصد أعرابي الحسين بن على عليه السلام فسلم عليه وسأله حاجته وقال: سمعت جدك يقول: (إذا سألتم حاجة فاسألوها من أربعة: إما عربي شريف، أو مولى كريم، أو حامل القرآن ، أو صاحب وجه صبيح). فأما العرب فشرفت بجدك، وأما الكرم فدأبكم وسيرتكم، وأما القرآن ففى بيوتكم نزل، وأما الوجه الصبيح فإنى سمعت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وآله﴾ يقول: (إذا أردتم أن تنظروا إلى فانظروا إلى الحسن والحسين). فقال الحسين: ما حاجتك؟، فكتبها على الأرض، فقال الحسين: سمعت أبي عليا عليه السلام يقول: قيمة كل امرئ ما يحسنه، وسمعت جدى يقول: (المعروف بقدر المعرفة) فأسألك عن ثلاث مسائل إن أحسنت فى جواب واحدة فلك ثلث ما عندى، وإن أجبت عن اثنتين فلك ثلثا ما عندى، وإن أجبت الثلاث فلك كل ما عندى، وقد حمل إلى صرة مختومة

من العراق، فقال سل ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: أى الأعمال أفضل؟، قال الأعرابى: الإيمان بالله، قال: فما نجاة العبد من الهلكة؟، قال: الثقة بالله، قال: فما يزين المرء؟، قال: علم معه حلم، قال: فإن أخطأه ذلك؟، قال: فمالٌ معه كرم، قال: فإن أخطأه ذلك؟، قال: فقر معه صبر، قال: فإن أخطأه ذلك؟، قال: فصاعقة تنزل من السماء فتحرقه، فضحك الحسين عليه السلام ورمى بالصرة إليه.

٢- شجاعة الإمام: لا يخشى الإمام بأساً فلقد نشأ من صغره على الجهاد، فحضر فتح أفريقية مع القائد ابن أبي سرح، وشهد موقعة طبرستان مع سعيد بن العاص وذلك فى عهد سيدنا عمان . وحضر فتح القسطنطينية وجرجان فى عهد معاوية.

وحضر موقعتى الجمل وصفين وحرب الخوارج مع أبيه.. يقول عبد الله بن عمار – وهو ممن حاربوا الإمام فى كربلاء –: قد وجدوا ببدنه بعد استشهاده ثلاثاً وثلاثين طعنة، وأربعاً وثلاثين ضربة كلها فيما أقبل من وجهه وجسمه ليس منها فى ظهره شئ، لأنه كان مقبلاً غير مدبر رضي الله عنه، فوالله ما رأيت مكسورا قط مات ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، ولا أمضى جناناً، ولا أجرأ مقدماً من الإمام الحسين وهو يقول:

أنا ابن عليّ الحبر من آل هاشم   كفانى بهذا مفخراً حين أفخر
وجدى رسول الله أكرم من مشى   ونحن سراج الله فى الناس يزهر
وفاطمة أمي سلالة أحمد   وعمي يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقاً   وفينا الهدى والوحى والخير يذكر

٣- حلم الإمام: سلط بعض الحاقدين امرأة على الإمام أن تغضبه ولها لديهم من الإبل كذا وكذا مكافأة، فعمدت المرأة إلى وعاء به ماء قذر وصبته على رأسه وهو خارج إلى الصلاة – لعله يغضب – قال راوى الحادثة: فوالله ما التفت الإمام وراءه وما علم الذى قذفه بالدنس وكل ما فعله أن أوقف برهة ثم نظر إلى السماء وقال: اللهم لك

الحمد، كنت الآن أفكر فى النار وقد صب علىّ الماء، والماء وإن كان قذراً يطفئ النار. اللهم إنه فأل حسن استبشرت به خيراً فالشكر لك ..

وسمعت المرأة هذا القول فعراها من الخزى والخجل مثل الموت، وأسرع الإمام إلى مترله وبدل ثيابه وخرج إلى الصلاة . وجاءت المرأة إلى من حرضها وقالت: خيبكم الله، والله لقد غلبنى حلمه، ووالله ما درى من أمرى شيئاً ولا التفت وراءه بل عده بشرى طيبة.

ثم أسرعت إلى مترل الإمام معتذرة كاسفة البال وحكت له قصتها، فلما سمع منها أهم وعدوها بمكافأة طيبة إن أغضبته قال: (سبحان الله .. لو علمت بأمرك لأظهرت غضباً لعل الله يرزقك من هؤلاء، ولكن ما دمت لم تنالى مرادك فمكافأتك علىّ أنا.. ثم أمر لها بعطاء جزيل، فخرجت المرأة وهى تكاد تموت فرحاً وغبطة).

٤- الرضا بقضاء الله: مات ابن الإمام الحسين فلم يشهد الناس عليه أثراً للحزن فسألوه فقال: (سبحان الله إنا معشر أهل البيت نسأل الله فيعطينا، فإذا أراد سبحانه ما نكره فيما يحب هو رضينا).

٥- التواضع: وجد على ظهر الإمام يوم كربلاء أثر فسألوا سيدنا علىّ زين العابدين بن الحسين عن ذلك فقال: (هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين).

الأمر الذى يشير إلى تواضع منقطع النظير، واهتمام بشئون الأمة، ووعى للمسئولية، وشعور عميق بها لا ند له.

٦- الرحمة حتى بأعدائه: فيروى أن الإمام بكى فى كربلاء بكاءً شديداً فقالت السيدة زينب: (أتبكى خوفاً من الموت ياحسين؟) قال: (لا، ولكن أبكى على هؤلاء فسيدخلون النار بسببى).

بيـعة وخيانـة:

لما توفى معاوية سنة ٦٠هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فكتب يزيد بن معاوية إلى الوليد: "من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد.. فإن معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوّله ومكّن له فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محموداً ومات براً تقياً والسلام.. ثم أضاف:أما بعد.. فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا .. والسلام".

فلما قرأ الوليد للإمام الحسين الكتاب ونعى إليه معاوية، قال الإمام الحسين: (إنا لله وإنا إليه راجعون، ورحم الله معاوية، أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً .. قال: أجل . فقال الإمام الحسين: فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا فكان الأمر واحدا) وكان الإمام الحسين عليه السلام قد عول على ترك المدينة إلى مكة، كما تركها قبله بليلتين عبد الله بن الزبير، دون مبايعة يزيد، فخرج منها ومعه كل أهل بيته وإخوته وبنو أخيه.

فلما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وعلموا امتناع الإمام الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة اجتمعت الشيعة وكتبوا إليه كتبا جاء فيها: "إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق". ثم سيروا عدة رسل بالكتب إليه، وتلاقت الرسل كلها عند الإمام الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس.. ولبث فى مكة على هذه الحالة أربعة أشهر. ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب وأمره بالمسيرة إلى الكوفة فإن رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل إليه بذلك.

خرج مسلم بن عقيل حتى أتى الكوفة، ونزل على رجل يقال له "عوجسة" فلما علم أهل الكوفة بقدومه دنوا إليه، فبايعه منهم ثمانية عشر ألفا، ولما علم يزيد بن معاوية بذلك عزل النعمان بن بشير والى الكوفة وولى عبيد الله بن زياد مكانه.

وبعث مسلم بن عقيل برسالة إلى الإمام الحسين يدعوه للحلول بين أظهر أنصاره فى الكوفة قال فبها: (أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله، وإن جميع أهل الكوفة معك، وقد بايعنى منهم ثمانية عشر ألفا، فعجل الإقبال حين تقرأ كتابى هذا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)(الطبرى).

ويبلغ القلق بالحكم الأموى كل مبلغ، حين أدرك زعماؤه أن الإمام الحسين عليه السلام قد استقطب مكة أو كاد، وخوفا من ذلك أرسل يزيد جيشا من الشام باتجاه بيت الله الحرام، وكبر على الإمام الحسين أن تستباح حرمة بيت الله الحرام، ومن هنا قرر مغادرة مكة والاتجاه إلى العراق فى يوم التروية الثامن من شهر ذى الحجة ٦٠هـ ، على أنه كان مدركا النتيجة الحتمية التى سيؤول إليها، كما يتجلى ذلك من خطبته عند خروجه من مكة: (الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهنى إلى أسلافى اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لى مصرع أنا لاقيه كأنى بأوصالى تقطعها غسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن منى أكراشا جوفا، وأجربة شغبا، لا محيص من يوم خط بالقلم).

ولقد عز على الكثيرين أن يخرج الإمام الحسين إلى العراق خشية عليه من القتل مثل عبد الله بن عباس، وأبو ذر، وعبد الله بن الزبير، وأخوه محمد بن الحنفية، وعبد الرحمن بن الحارث وغيرهم.. فقال لهم الإمام الحسين عليه السلام: (إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد أمرت بأمر أنا ماض له، فلما سئل عن الرؤيا؟ قال: ما أنا بمحدث عنها حتى ألقى ربى).

وقال لابن عباس: (والله لا يدعونى حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرام المرأة). الفرام: خرقة تستعملها المرأة فى الحيض.

وقال لعبد الله بن الزبير: (وأيم الله لو كنت فى ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم وليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت).

سار ركب الإمام وهو واثق من قتله شهيدا ولكن النصر الحقيقى لرسالة الله سيكون باستشهاده حيث لم يكن هناك ناصر للرسالة سواه، وكان واثقا أن الأمة لا تستيقظ إلا بهزة كبرى ولتكن الهزة استشهاده ومن معه من ذرية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكان يعلم أحقية أهل البيت فى تسيير دفة الحياة الإسلامية، ولكن الخنوع وإرهاب بنو أمية جعل الكل يقول للإمام: (إن السيوف مع بنى أمية والقلوب معك) أدق وصف لغياب الشعور بالمسئولية أمام الله والرسالة لدى السواد الأعظم، والتى كانت مظهرا جليا من مظاهر النفاق الاجتماعى الذى اجتاح الناس كنتيجة طبيعية لسياسة تخريب الضمائر مما كان عاملا أساسيا فى نقض الناس لبيعة الإمام الحسين عليه السلام.

فى الطريق إلى العراق:

سار الإمام الحسين إلى الكوفة فى فئة قليلة، فلما اقترب منها، بلغة نبأ مصرع مسلم بن عقيل بعد أن خذله أهل الكوفة، فقال له بعض الصحابة: (ننشدك الله ألا رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر، بل نتخوف أن يكونوا عليك) فوثب بنو عقيل وقالوا: (والله حتى ندرك ثأرنا أو نتذوق ما ذاق مسلم. فقال الإمام الحسين: لا خير فى العيش بعد هؤلاء، فقال له أصحابه: إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع) سارع الإمام الحسين حتى وصل إلى كربلاء مهد الثورة الحسينية، ومصرع الأبطال، ومنار المجد الخالد، ورمز العز والإباء، وتتابع

إرسال الجيوش لقتاله، والتقى الإمام بجيش عبيد الله بقيادة الحر بن يزيد فى ألف فارس، وكانوا يلازمونه ويصدونه عن كل جهة إلا نحو الكوفة مقر أميرهم عبيد الله بن زياد فقال الإمام الحسين يعظهم: (أيها الناس: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: "من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول كان حقا على الله أن يدخله مدخله"، ألا وإن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالغى وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، نفسى مع أنفسكم، وأهلى من أهلكم فلكم فى أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى وخلفتم بيعتى، فلعمرى ما هى لكم بنكيرة والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ وسيغنى الله عنكم .. والسلام).

بهذه الكلمات وسواها يلقى الإمام الحسين أضواء كاشفة على حقيقة الحكم فى الإسلام، ويستحث العواطف ويشحذ الهمم لنفض غبار الجهل بالواقع عن كاهل الأمة، ورفض كل صيغ الاستسلام اللا مشروع.

عمرو بن سعد بن أبى وقاص:

فى اليوم التالى لنزول الإمام الحسين كربلاء جاء عمرو بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف مقاتل ومن عجب الأقدار أن ابن الصحابى الجليل سعد بن أبي وقاص هو قائد الجيش الذى قتل الإمام الحسين وأهل بيته، وأخذ النساء سبايا إلى ابن زياد.

ذلك الصحابى الذى قاد جيوش المسلمين فى معركة القادسية، يخرج الله من صلبه ولدا يكون أول رام بسهم لقتل الإمام الحسين.. لقد انضم هذا الابن إلى جيش يزيد طمعا

فى عرض زائل.. لقد مناه ابن زياد بملك الرى إن قتل الحسين.. والرى إحدى ولايات العراق..واستجاب عمرو لنداء الشيطان وسجل وثيقة اعترافه بذلك فقال:

دعانى عبيد الله من دون قومه ... إلى خصلة فيها خرجت لحينى
فو الله ما أدرى وإنى لواقف ... على خطر لا أرتضيه لدينى
أأخذ ملك الرى بغيتى ... وأرجع مطلوبا بدم حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها ... حجاب وملك الرى قرة عينى

وسأل عمرو بن سعد الإمام الحسين عما جاء به، قال ﷺ: (كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما إذا كرهتمونى فإنى أنصرف عنكم إلى مكة).

فكتب عمرو إلى ابن زياد بذلك، ثم التقى الإمام الحسين وعمرو مرارا، فكتب عمرو إلى عبيد الله بن زياد: (أما بعد.. فإن الله أطفأ الثائرة وجمع الكلمة، وقد أعطانى الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه، أو أن نسيره إلى أى ثغر من الثغور شئنا يقاتل فيه أعداء الله، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده، وفى هذا لكم رضا وللأمة صلاح).

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال: هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه. نعم قبلت، ولكن شمر بن ذى الجوشن.. ذلك الأبرص الكريه المنظر، القبيح الصورة، الشقى الجد.. رفض هذا الرأى، وقال له: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك، والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المترلة، ولكن يترل على حكمك هو وأصحابه،فإن عاقبت كنت ولى العقوبة، وإن عفوت كان ذلك لك.

أخذ ابن زياد برأى شمر فأرسله بكتاب إلى عمرو بن سعد جاء فيه: (انظر فإن نزل الحسين وأصحابه عن الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره

فإنه عاق شاق قاطع ظلوم، فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر.. والسلام).

كلام من رصاص فى أجساد من نحاس:

جمع الإمام الحسين أصحابه وقال: (أثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم أنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين.

أما بعد .. فإنى لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله جميعا خيرا، لقد بررتم وعاونتم، والقوم لا يريدون غيرى أحدا، وإنى لأظن أن هذا الليل قد غشيكم فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم.

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر (زوج السيدة زينب): معاذ الله وما نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ نقول: تركنا سيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب بالسيف، ولا ندرى ما صنعوا، لا والله لا نفعل، نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك،فقبح الله العيش بعدك..) وتكلم أصحابه بنحو هذا. وبات الإمام الحسين وأصحابه ليلتهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون وخيول عدوهم من ورائهم والإمام يقرأ:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ۞ مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: ١٧٨،١٧٩).

وصلى الإمام الصبح بأصحابه، ثم عدل إلى خيمة قد نصبت فاغتسل فيها ولبس عباءة جده ﴿ ﷺ وآله﴾ وتطيب بمسك كثير، ثم ركب على فرسه وأخذ مصحفا فوضعه بين يديه، ثم استقبل القوم رافعا يديه، يدعو: (اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى

كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة).

ونادى الإمام الحسين: أيها الناس،اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم، فأنصت الناس كلهم، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: (أيها الناس: إن قبلتم منى وأنصفتمونى كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم على سبيل، وإن لم تقبلوا منى ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ (يونس:٧١) ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ .(الأعراف:١٩٦) راجعوا أنفسكم وحاسبوها، هل يصلح لكم قتال مثلى، وأنا ابن ابنة نبيكم، وليس على وجه الأرض ابن ابنة نبى غيرى؟ وعلى أبى، وجعفر ذو الجناحين عمى، وحمزة سيد الشهداء عم أبى؟ وقال لى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولأخى: (هذان سيدا شباب أهل الجنة) فإن صدقتمونى بما أقول فهو الحق،فو الله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت الكذب وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن ذلك.. ويحكم! أما تتقون الله؟ أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى؟)

فقال شمر بن ذى الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدرى ما يقول.. ثم قال الإمام الحسين: (أيها الناس، ذرونى أرجع إلى مأمنى من الأرض، أخبرونى، أتقتلونى بقتيل لكم قتلته؟ أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاص من جارحة؟ فأخذوا لا يكلمونه..

فنادى: ياشيث بن ربعى، ياحجار بن أبجر، ياقيس بن الأشعث، يازيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلى أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب، فأقدم علينا فإنك تقدم على جند مجندة؟ فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله، والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس، إذ قد كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم، فقال له قيس بن الأشعث: ألا تنزل على حكم

بنى عمك فإنهم لن يؤذوك، ولا ترى منهم إلا ما تحب؟ فقال له الإمام الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن تطلب بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر له إقرار العبيد).

بهذه الكلمات وسواها كشف الإمام الحسين النقاب على النهج الذى يجب أن يلتزم به الحاكم الإسلامى، مما هو متوفر فى شخصيته ﵇، باعتباره غرس النبوة، ووليد الرسالة، وتلميذ الوحى المقدس، وهكذا كان إبراز المفهوم الإسلامى للإمامة فى الأغراض ؟الأساسية لنهضة الإمام الحسين يصحبه فضح الخلافة المفروضة على الناس. فأقبلوا يزحفون نحوه، وقد تحيز إلى جيش الإمام الحسين من أولئك طائفة قريب من ثلاثين فارسا منهم الحر بن يزيد، أمير مقدمة الجيش ابن زياد فاعتذر إلى الإمام الحسين فقبل منه. ثم حاطب عمرو بن سعد: ويحكم ألا تقبلون من ابن ابنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما يعرض عليكم من الخصال الثلاث واحدة منها؟ لو كان ذلك إلىّ لقبلت .. ياعمرو أصلحك الله، أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أى والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى.

فقال الحر: ياأهل الكوفة، لأمكم الهبل(الثكل وفقدان الولد) أدعوتم الحسين حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لا يمنع فيها الكلب والخنزير، ويحكم!! أمنعتم الحسين ونساءه وبناته الماء الفرات الذى يشرب منه اليهود والنصارى، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وقد صرعهم العطش؟ بئس ما خلفتم محمداً فى ذريته.

لاسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه.. فرموه بالنبال فقاتل أمام الإمام الحسين فقتل رجلين ونال الشهادة وآخر كلماته: (سلام الله عليك ياأبا عبد الله).

مآثم مخزية:

تعذر على الإمام الحسين وأصحابه أن يصلوا إلى الماء ولبثوا أياماً وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان إلا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا يناله، وفى ذلك المأزق الفاجع نضحت طباع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية.

فمن هذه المآثم المخزية أن الإمام الحسين برح به العطش فلم يباله، ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه، وقد بح صوته من البكاء فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم: (اتقوا الله فى الطفل إن لم تتقوا الله فينا) فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران: (خذ اسقه هذا) فنفذ السهم إلى أحشائه!

وكانوا يصيحون بالإمام الحسين متهاتفين:

(ألا ترى إلى الفرات كأنه بطون الحيات؟! والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشاً).

ولما اشتد عطش الإمام الحسين دنا من الفرات ليشرب، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع فى فمه.. فانتزعه الإمام الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم، فرمى به إلى السماء وقد شخص ببصره إليها وهو يقول: (إن تكن حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين). فلم يمكث الرامى إلا قليلاً حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لا يروى ويسقى الماء مبرداً تارة،وتارة يبرد له اللبن والماء معاً ويسقى فلا يروى حتى انقد بطنه انقداد البعير ومات.. وصاح الإمام الحسين بأعلى صوته: .

–هل من ذاب عن حرم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾؟.

–هل من موحد يخاف الله فينا؟

– هل من مغيث يرجو الله فى إغاثتنا؟.. ثم قال:

إذا استنصر المرء امرأ لائذا به   فناصره والخاذلون سواء
أنا ابن الذى قد تعلمون مكانه   وليس على الحق المبين جفاء
أليس رسول الله جدى ووالدى   أنا البدر إن غطى النجوم خفاء
ألم يتزل القرآن حول بيوتنا   صباحا ومن بعد الصباح مساء

وهكذا أوقف الإمام الحسين الأمة على عتبة تاريخ جديد من حياتها، وأصبحت أمام خيارين: إما تبنى سياسة الرفض القاطع الذى فرض عليها مهما كان الثمن.. أو القبول بسياسة الأمر الواقع، حيث عليها أن تتنازل عن رسالتها وسر عظمتها وعنوان عزتها فى الحياة .. فكيف كان الأمر..؟!!

المعركة الرهيبة:

دارت المعركة الرهيبة بين الآلاف والعشرات، وجعل أصحاب الإمام الحسين يتقدمون رجلا بعد رجل فقاتلوهم قتالا مرا، ولما استشهد أصحاب الإمام برز شباب بنى هاشم بدورهم، يدافعون عن والدهم، وعمهم وابن عمهم ونسيبهم، بقلوبهم وصدورهم، وكان على بن الحسين ﷺ، من أصبح الناس وجها، وأكلمهم أدبا، فتقدم للقتال قبل غيره، وهو **ما يزال فى التاسعة عشرة من عمره وهو يقول**:

أنا على بن الحسين بن على
نحن ورب البيت أولى بالنبى
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

فعل ذلك مرارا، يحمل فيرتد من أمامه من شدة حملته حتى صدمه مرة بن منقذ العبدى فطعنه فصرعه، فلما رآه الإمام الحسين قال: (قتل الله قوما قتلوك يابنى ما أجرأهم على

الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفاء) وتتابعت قتلى بنى هاشم فسقط عبد الله بن مسلم بن عقيل، وعون بن عبد الله ابن جعفر، ومحمد بن عبد الله بن جعفر، وعبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل.

ثم خرج القاسم بن الإمام الحسن وبيده السيف، وهو غلام كأن وجهه شقة القمر، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى فضرب رأسه بالسيف، فسقط القاسم على الأرض لوجهه وهو يقول: (يا عماه)! فانقض الإمام الحسين عليه ثم شد شدة ليث أغضب، وضرب عمرو بالسيف فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق، ثم قال الإمام الحسين للقاسم بن أخيه: (بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفعك) ثم فاضت روحه الطاهرة.

رجع الإمام الحسين إلى فسطاطه، فتقدم إليه شمر بن ذى الجوشن برجاله وهو يحرضهم عليه – وذو الجوشن صحابى جليل، قيل: اسمه شرحبيل. وقيل: عثمان بن نوفل – (ترجمة بن عساكر).

فنظر الإمام الحسين إلى شمر بن ذى الجوشن فقال: صدق الله ورسوله، قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾: "كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى" . وكان شمر – قبحه الله – أبرص . وأقبل إلى الإمام الحسين عبد الله بن الحسن بن على وهو غلام لم يراهق فقام إلى جنبه فقال الغلام: (يا ابن الخبيثة أتقتل عمى؟!) فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده، فقطعها إلى الجلد، فصرخ الغلام فاعتنقه الإمام الحسين وقال له: (يا ابن أخى أصبر على ما نزل بك واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين).

ورفع الإمام الحسين بصره إلى السماء يناجى ربه قائلا: (اللهم أمسك عليهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا، واجعلهم

قددا، ولا ترضى عنهم الولاة أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا كما عدت اليهود فى السبت فقتلونا).

وبقى الإمام الحسين وحده، وقد أثخن بالجراح فى رأسه وبدنه، وحمل الناس عليه عن يمينه وشماله،فحمل على الذين عن يمينه فتفرقوا،ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا، فما رئى رجل قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا، ولا أجرأ مقدما منه، وهو يقاتل قتال الفارس الشجاع، يتقى الرمية، ويشد على الخيل وهو يقول: (أعلى قتلى تجتمعون! أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى، وأيم الله لا أرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون، أما والله لإن قتلتمونى سيلقى الله بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثم لا يرض لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم).

ومكث طويلا من النهار والكل يتقى بعضهم ببعض هربا، وخوفا من مغبة وزره، فصاح فيهم شمر بن ذى الجوشن، فحملوا عليه من كل جانب، وضربه زرعة بن شريك التميمى على كفه اليسرى فقطعها، وضربه آخر على عاتقه فكب منها لوجهه، فانصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وجاءت اللحظة الرهيبة، فكأنما زلزلت الأرض زلزالها فاستشهد الإمام الأعظم بعد أن طعنه سنان بن أنس النخعى بالرمح، بعد استعصاء رهيب لأعدائه، وذلك فى العاشر من محرم – وهو من الأشهر الحرم – سنة ٦١هـ، عن ست وخمسين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام.

خسة ووحشية:

أقبل شمر بن ذى الجوشن واحتز رأس الإمام الحسين، وكان حقا لا مجازا أنها حرب بين أشرف ما فى الإنسان وأوضع ما فى الإنسان، فبينما كان الرجل فى معسكر الإمام الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير فى سبيل إيمانه، إذ بالآخرين

يقترفون أسوأ المآثم من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع، فهرعوا إلى النساء من بيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ينازعوهن الحلى والثياب التى على أجسادهن، وانقلبوا إلى جثمان الإمام الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخلله الطعون التى بلغت ثلاثا وثلاثين طعنة و أربعا وثلاثين ضربة حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية، ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جسده الشريف الخيل كما أمرهم ابن زياد، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره، وساقوا النساء سبايا إلى ابن زياد ومنه إلى يزيد بن معاوية.

لقد شهدت ثلاث سنوات من حكم يزيد جرائم لم يعرف لها المسلمون شبيها.. ففى الأولى قتل الإمام الحسين وأصحابه، وفى الثانية قام بمذبحة فى المدينة فى وقعة الحرة قتل فيها المئات من أبناء وأحفاد المهاجرين والأنصار، وفى الثالثة هدم الكعبة بالمنجنيق فى محاولته لإخراج عبد الله بن الزبير الذى تحصن فى البيت الحرام ودكه قائد يزيد الحصين بن نمير، ومات يزيد فى السنة الرابعة.

الانتقام الإلهى

وبعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام اندلعت ثورة فى الكوفة سميت بثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعى هزت العالم الإسلامى آنذاك حيث استشهد الصحابى الجليل ومئات من أصحابه.

وتلى ذلك ثورة المختار بن عبيدة الثقفى وستة آلاف من المعتقلين فى سجن بنى أمية، حيث استولى المختار الذى حمل شعار (يا لثارات الحسين) على الكوفة وانتقم لدم الحسين ممن شاركوا فى جريمة ذبحه أمثال عمرو بن سعد بن أبي وقاص، وشمر بن ذى الجوشن، وحرملة بن كاهل، وعبيد الله بن زياد وغيرهم. .

وتتابعت الثورات حتى مجيء الدولة العباسية التى طالبت بدم أهل البيت كغطاء لمحاربة الأمويين، وهكذا ظل دمه الطاهر يفور ويؤجج حركات ثورية هنا وهناك حتى قضت

على الدولة الأموية بعد بضع وستون سنة من استشهاد الإمام الحسين. لقد كانت مأساة كربلاء هزة كبيرة بحجم السبات العميق الذى خيم على ضمير الأمة الإسلامية. وأخذ الكل يتذكرون هذا المشهد عندما حمل النبى ﴿ﷺ وآله﴾ الإمام الحسين وهو طفل صغير على فخذه وهو يبكى، فيسأله الحاضرون: ما يبكيك يارسول الله؟ فيقول: إن ابنى هذا تقتله الفئة الباغية لا أنالهم الله شفاعتى.

ويروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى المنام نصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم، قلت: بأبى وأمى يارسول الله! ما هذا ؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم.

ويروى الترمذى عن سلمى قالت: دخلت على أم سلمة وهى تبكى فقلت: ما يبكيك؟ قالت: رأيت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلت: ما لك يارسول الله؟ قال: "شهدت قتل الحسين أنفا".

ويروى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: سمعت الجن ينحن على الحسين وهن يقلن:

أيها القاتلون جهلا حسينا　　أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعوا عليكم　　ونبى ومرسل وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود　　وموسى وصاحب الإنجيل

رأسه الشريفة:

وتنقلت رأسه الشريفة عليه السلام من دمشق إلى عسقلان إلى القاهرة، فبعد أن استولى الفرنجة على عسقلان تقدم الصالح طلائع ابن رزيك، وزير الفاطميين بمصر، فدفع ٣٠ألف درهم، ونقل الرأس الشريف إلى مصر.

وعلى أية حال، ففى أى مكان رأس الإمام الحسين – القاهرة – أو جسده – العراق – فهو ساكن فى القلوب والضمائر، قاطن فى الأسرار والخواطر، معنى يحضره المسلم

فى صدره – وهو قريب أو بعيد – نورا يستضئ به المسلمون فى كل مكان وزمان، ورمزا للمستضعفين يستلهمون منه روح الجهاد.

وصلت رأسه الشريفة إلى القاهرة يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ، وظل مدفونا فى قصر الزمرد، حتى جهز له المدفن الحالى عند الباب الأخضر ونقل إليه فى الثلاثاء الأخير من ربيع الثانى سنة ٥٤٩هـ، وهو يوم احتفال أهل مصر بالإمام الحسين عليه السلام.

نسبة الروح نسبة التعيين   ياحبيبى ونسبتى فى الطين
يا شهيد الجهاد فى الله نصرا   فى سبيل المعبود فى التمكين
يا إمام الأبدال مصر أضاءت   من ضياء المختار طه الأمين
قائد العارفين أفضل سبط   قدم الروح فى سبيل اليقين
يا إمام الأسباط جاهدت حتى   قلدتك الأفراد فى كل حين
أنت ياسيدى سراج منير   فى ربا مصر بين أهل الدين
أنت نور للمسلمين جميعا   فى افتتاح الوجود فى التعيين

انتقاله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى

عرف النبى ﴿ﷺ وآله﴾ من ربه اقتراب أجله بنزول سورة إذا جاء نصر الله والفتح، فإن المراد من هذه السورة إنك يامحمد إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس فى دين الله الذى دعوتهم إليه أفواجا، فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه تم مقصود ما أمرت به، من أداء الرسالة، والتبليغ، وما عندنا لك خير من الدنيا، فاستعد للانتقال إلينا.

وروى الطبرى عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة قال النبى ﴿ﷺ وآله﴾ لجبريل: نعيت إلى نفسى، فقال جبريل: وللآخرة خير لك من الأولى.

وروى البخارى ومسلم عن أبي سعيد الخدرى ﵁ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ جلس على المنبر فقال: إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر ﵁ وقال: يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به.

عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال فى جوف الليل: إنى أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى. قال: فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يأهل المقابر ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الأخيرة شر من الأولى، قال: ثم أقبل على وقال: يأأبا مويهبة هل علمت أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى فاخترت لقاء ربى والجنة؟. وفى رواية أنه ذهب بعد ذلك إلى شهداء أحد فصلى عليهم ورجع معصوب الرأس، أى: ابتداء مرضه.

ابتداء مرضه ﴿ﷺ وآله﴾

وكان مرضه فى أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوما، وقيل: غير ذلك. وكان ابتداء مرضه يوم السبت، وقيل الاثنين فى بيت ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها، وقيل: فى بيت زينب بنت جحش رضى الله عنها وكان ينتقل فى بيوت زوجاته رضى الله عنهن على حسب ما كان عليه فى صحته ثم استأذن أزواجه أن يمرض فى بي عائشة رضى الله عنها. فأذن له، فخرج يتهادى بين العباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما.

وجاء أن العباس ﷺ قال لعلى كرم الله وجهه: لا أرى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يصح من مرضه هذا، فإن أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الوفاة.

وفى رواية خرج على بن أبى طالب كرم الله وجهه من عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وهو فى مرضه الذى توفى فيه فقال الناس: ياأبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: أصبح بحمد الله بارئا، فأخذ بيده عمه العباس رضى الله عنهما وقال له: والله أنت بعد ثلاث عبد العصى، وإنى لا أرى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من وجعه هذا بعد ثلاث إلا ميتا فاذهب بنا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فنسأله فيمن هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا، فقال على كرم الله وجهه: والله لا أسألها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.وأمر ﴿ﷺ وآله﴾ فى مرضه أبا بكر أن يصلى بالناس.

وفى رواية أن الأنصار ﷺ طافوا بالمسجد وأشفقوا من وفاته ﴿ﷺ وآله﴾، فدخل عليه الفضل ﷺ فأخبره بذلك، فخرج النبى ﴿ﷺ وآله﴾ متوكئاً على علىّ والفضل والعباس أمامه، والنبى ﴿ﷺ وآله﴾ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس إليه، وخطب آخر خطبة له ﴿ﷺ وآله﴾ فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا وإنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير، فإن الله يقول:

﴿وَالْعَصْرِ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (السورة).

وإن الأمور تجرى بإذن الله ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم.

وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقون بى، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى، ياأيها الناس إن الذنوب تغير النعم، فإذا بر الناس برهم أئمتهم، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم.

ثم لا زال أبو بكر ﷺ يصلى بالناس سبع عشرة صلاة، وصلى النبى ﴿ﷺ وآله﴾ مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح، ثم قضى الركعة، أى: أتى بها منفرداً.

ولما كان يوم الاثنين خرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى الناس وهم يصلون الصبح فرفع الستر، وقام على باب عائشة رضى الله عنها فكاد المسلمون يقتتلون فى صلاتهم برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين رأوه فرحاً به، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم ثم رجع، وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قد أفاق فى وجعه، فرجع أبو بكر ﷺ إلى أهله بالسنح – بضواحى المدينة – عند زوجته حبيبة بنت خارجة ابن زيد الخزرجى رضى الله عنهما.

وتوفى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين اشتد الضحى من هذا اليوم.

وفى يوم الاثنين تمت مبايعة أبو بكر الصديق بالخلافة فى سقيفة بنى ساعده فى غيبة بنى هاشم الذين لاموا على الناس أنهم لم يشركوهم فى هذا الأمر، وليس اعتراضاً على أحقية أبى بكر الصديق ﷺ فى الخلافة.

الموت مفارقة وانتقال:

يجب أن نكون على بينة أن الموت معناها الانتقال من صورة إلى صورة وليس معناه العدم، فالانتقال هو خروج الحقيقة الروحانية من الهيكل المادى، ولا أقصد بالحقيقة

الروحانية عالم الروح ولكنها الحقيقة الروحانية لكل إنسان منا والتى يكون الإنسان بها إنساناً بمعناه .والحقيقة الروحانية مكونة من هيكل نورانى فيه: العقل، والفكر، والوهم، والخيال، والحافظة، والذاكرة، والقلب الروحانى المعنوى، والروح، والسر، والخفا، والأخفى، والنفخة القدسية.. كل هذا فى هيكل لطيف نورانى يعبر عن الحقيقة الروحانية، والحقيقة الروحانية لا يحس بها أحد عند الموت لأن شأنها السرية والخفاء، والهيكل هو الهيكل لم ينتقص منه شئ.

وعلى هذا.. فالموت حقيقة تعنى المفارقة من مكان للحضور فى مكان آخر. فعندما فارقت عالم الروح لتتحد حقيقتك الروحانية بالأمشاج فى عالم بطن الأم أعلن عن وفاتك هناك بانتقالك، ولما اكتمل وجودك فى عالم بطن أمك وهيأ الحق لحظة إخراجك وأتيت إلى دنياك أعلن فى عالم بطن أمك عن وفاتك، أى: انتقالك. وأنت هنا لا وجود لحقيقتك الروحانية ولا وجود لها أيضا فى عالم بطن الأم لكن وجودها الآن ثابت فى عالم الدنيا، وإذا أذن مولاك انتقلت حقيقتك من عالم الدنيا إلى العالم البرزخى الذى هو أول مترل من منازل الآخرة، وفيه تقوم قيامة العبد لقول النبى ﴿ﷺ وآله﴾: "من مات فقد قامت قيامته".

الاحتضار وألـم المـوت:

يظن كثير من الناس أن عزرائيل فقط هو الذى يترل لقبض الروح، ولكن عدد ملائكة لا يعد ولا يحصى، منهم ملائكة رحمة، ومنهم ملائكة نقمة وعذاب، وعلى رأسهم عزرائيل. بين لنا ربنا حالة الظالمين عند الاحتضار– أى عند معالجة الروح – فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣). أما المؤمنون الصادقون فقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قُلْ

يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة:١١) ، وقال: ﴿حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ۞ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (الأنعام: ٦١،٦٢).

ومن أجل هذا يستعد المؤمن الموقن للحظة المفارقة – ولا أقول يستعد للحظة اللقاء لأنه وهو هنا على مسرح الحياة الدنيا كان يحظى بأنوار اللقاء ويحظى بأنوار رسول الله – بل ينتظر لحظة المفارقة التى ينطلق فيها من قيد الهيكل الحاجب إلى إطلاق الروح فى عالمها البرزخى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

ولا ألم فى موت أهل الصدق لأنه كله بشائر بالنسبة للمؤمن، والمحتضر تتنزل عليه الملائكة الرحمة والنعمة فيرى ما لا يراه الناظرون: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).يرى ملائكة الرحمة تجئ بالبشائر تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠ –٣٢). فلا خوف ولا فزع لأن اللقاء كله رحمة وبشائر تتلوها بشائر، فمن أين يأتيه الألم؟. والمؤمن عند دخوله الجنة يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ۞ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر: ٣٤، ٣٥). إنه يفرح الفرح كله لما أعده الله من نعيم لأهل النعيم.. .

نسأل الله أن يمتعنا بنعيم الطاعة، وأن يباعد بيننا وبين المعاصى كما باعد بين المشرق والمغرب.

للقوم عند حلول الموت أحوال   تنوعت وهى أمثال وأشكال

فمنهمو من يرى الأسماء تطلبه   ومنهمو من يرى الأملاك والحال
ومنهمو من يرى الأرسال مقبلة   إليه تتحفه والرسل أعمال
ومنهمو من يرى التتريه يطلبه   وهو الذى عنده التشبيه إضلال
وكلهم سعدوا والعين واحدة   وعندهم فى جنان الخلد أشغال
هذا هو الحق لا تبغى به بدلا   وهو الصحيح.. ما فيه إشكال

قصة كاذبة

وقد سرت فى مجتمعنا قصة لا سند لها من كتاب الله ولا تؤيدها سنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، تشرح وفاة سيدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ومدى المعاناة والعذاب اللذان لقيهما عند الاحتضار، وقد نسبت هذه القصة كذبا وزورا وبهتانا إلى صحابى جليل – هو منها براء– وهو سيدنا معاذ بن جبل . وفى حقيقة الأمر أن واضع هذه القصة هم اليهود، والهدف إضافة إلى ما يريدوه من النيل من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن يكره المؤمن لقاء ربه، وأن لا يحب الجهاد فى سبيل كراهية للموت. وملخص القصة فى زعمهم أن عزرائيل نزل بأمر ربه وطرق باب بيت النبى واستأذن فأذن له. ولما دخل كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها مع النبى فى نفس الحجرة (هكذا تقول القصة) سلم على النبى ﴿ﷺ وآله﴾، فرد النبى ﴿ﷺ وآله﴾ السلام، فسأل النبى عزرائيل لأنه كان متجسدا وظاهرا: أجئت زائرا أم قابضا؟ فقال عزرائيل: إن شئت زائرا وإن شئت قابضا. وتقول القصة: إن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال له: أمهلنى إلى الغد!! وبعد خروجه سألت السيدة فاطمة أباها: من هذا يا أبتاه؟ فقال لها: هذا هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات. جاء عزرائيل فى اليوم التالى، وتمدد رسول الله استعدادا للموت!! وبدأ عزرائيل فى قبض روحه، واشتد الألم فحضر جبريل.

وواضع القصة يقول: إن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ سأله: يا أخى يا جبريل هل ستذوق أمتى

الموت هكذا من بعدى؟ فقال له: بل أشد منك بإحدى وسبعين سكرة وغمرة!! وكل سكرة وغمرة أشد من سبعين ضربة بالسيف!! ويذكر واضع هذا الإفك والزور والبهتان أن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: اللهم ثقله على وخففه على أمتى، ودعا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ربه ألا يأتى عزرائيل ظاهرا لأحد من الأمة بعد -ذلك!!

إن عزرائيل ليس له سلطان على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى قبض روحه، لأن الذى يقبض روحه هو الله وحده فهذا مقامه، حتى أن عباد الله الصالحين يكرمهم سبحانه أيضا بقبض أرواحهم بيمنى – جماله – وفى وجود عزرائيل والملائكة الموكلون بالموت – وهذا شرف للعبد.

(أسألك ياالله أن تعمنى عند وفاتى بهاطل فضلك وعميم جودك وواسع عفوك حتى أفارق الدنيا وأنا مجمل بأجمل الأخلاق وأحب الأعمال إليك، وأن تتول قبض روحى بيمينك، مع التفضل على بمشاهدة جمالك حتى يعلونى كمال الهيام والشوق.. فيحجب عنى سكرات الموت فأخرج من الدنيا والها هائما مشوقا لمشاهدة وجهك الكريم، مجملا بالقبول والإقبال .. ياالله). .

تجهيز رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾

وفى يوم الثلاثاء – بعد انتهاء بيعة الصديق ﷺ – قاموا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فغسلوه وعليه قميصه، وفى لفظ وعليه قميص ومجول مفتوح يصبون عليه الماء ويدلكونه والقميص دون أيديهم على كرم الله وجهه، والعباس وولدى العباس الفضل وقثم ﷺ، فكان العباس وولداه الفضل وقثم يقلبونه مع على، وفى لفظ غسله على والفضل محتضنه والعباس يصب الماء، وفى لفظ وصالح مولاه ﴿ ﷺ وآله﴾ يصبان الماء. ولف على كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميص يغسل بها جسده الشريف.

وتغسيل على كرم الله وجهه له ﴿ﷺ وآله﴾ كان بوصية منه ﴿ﷺ وآله﴾، فعن على كرم الله وجهه أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أوصى أن لا يغسله أحد غيرى، وقال: لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه غيرك، أى: على. وغسل ثلاث غسلات: واحدة بالماء القراح، وواحدة بالماء والسدر، وواحدة بالماء مع الكافور، وغسل من ماء بئر غرس وهى بئر بقباء لسعد بن خيثمة، وكفن ﴿ﷺ وآله﴾ بثلاثة أثواب بيض من القطن، ثم احتملوه حتى وضعوه على سرير وسجوه، ثم وضع على شفير حفرته، ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء لا يؤمهم أحد، وذكر أنه كانوا يصلون عليه فرادى، أى بدون إمام، دخل الرجال حتى إذا فرغوا، أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان ولم يؤم الناس على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أحد ثم دفن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى حجرة عائشة شرقى مسجده فى الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، فى وسط الليل ليلة الأربعاء، أى: بعد أن حفر روضته ﴿ﷺ وآله﴾ أبو طلحة ابن سهل الأنصارى ﵁.

وكان الذين نزلوا فى روضة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ على بن أبى طالب والفضل بن عباس، وقثم بن عباس وهو آخر الناس به ﴿ﷺ وآله﴾ عهدا، وشقران مولى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وقد قال أوس بن خولى لعلى ابن أبى طالب: ياعلى أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له: انزل، فنزل مع القوم. كان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى حفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة - كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يلبسها ويفترشها - فقذفها فى روضته ﴿ﷺ وآله﴾، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا، فدفنت مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

عن عائشة قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنه قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان.

قالت: وتوفى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرا، فاستكمل فى هجرته عشر سنين كوامل. .

ومبلغ سنه يوم انتقاله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثلاث وستون سنة.

الخاتمة

هذا ما يسره الله من سيرة الرسول الكريم ﴿ ﷺ وآله﴾، اللهم إنك أوجبت علينا فى محكم كتابك أن نصلى ونسلم على حبيبك المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن علمتنا سبحانك أنك صليت عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ وصلت الملائكة المقربون، فلبيك اللهم ربنا وسعديك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

أسألك اللهم أن تصلى وتسلم وتبارك على ذات حبيبك ومصطفاك، قبضة نورك ومجتباك، نورك الدال بقوله وعمله وحاله على حقيقة التوحيد، وكمال التتريه والتفريد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وورثته، صلاة تمن بها علينا بواسع إحسانك، وعميم إكرامك، وهاطل برك، وتجعل لنا بها نورا فى قلوبنا، وفى أبصارنا، وأسماعنا، وأعضائنا، صلاة تشرح بها صدورنا، وتوسع بها أرزاقنا وتعزنا بها ياعزيز، وامنحنا ياإلهى جمال إقبالك علينا، حتى نتحقق بكمال الرضا عنك.

الهم إنى أشكرك مستزيدا نعماك وإحسانك وفضلك وكرمك وجودك وبرك، ولك الحمد ياإلهى حمدا لذاتك الأحدية على ما أوليت من الفضل، وما مننت به من العناية والمعونة والجود، حمدا أستجدى به أن تمن على بالحب الخالص لذاتك، وحسن التوكل على جنابك، وحقيقة التفويض لحضرتك يارب العالمين، وحسن الثقة بجنابك العلى، وأسأل به ياإلهى أن تجعل لى نورا فى قلبى وفى سمعى وبصرى وشمى وذوقى، وفى ظاهرى وباطنى تستبين لى به سبل الوصول إلى حضرتك المقدسة، وتظهر لى به آياتك المنبئة بمكنون أسرارك الدالة على أحدية ذاتك وكمالاتها. وأسألك أن تشرح صدرى للإسلام شرحا

تمنحنى به النشاط والمسارعة فيما تحب، والشجاعة على القيام بما تحب وتجملنى بالسخاء الذى تحبه حتى أكون مجملا بما تحبه من الصفات، ومن على ياإلهى بالفضل العظيم الذى هو حبك لى، وحققنى بكمال الأدب لحضرتك، وصحة الإنابة إليك يارب العالمين، واجعلنى ياإلهى من التوابين المتطهرين،وأعنى ياإلهى بمعونتك الربانية وعنايتك الإلهية حتى أكون منشرح الصدر، ميسر الأمر، موسعا على فى رزقى، معظما فى عيون عبادك، وأكرم ياإلهى أهلى وأولادى وإخوانى بالتوفيق والهداية والخير والحفظ والسلامة والكرامة فى الدنيا والآخرة .. يارب العالمين.

رب أعذنى من الشياطين، وأعذنى ربى من أن يحضرون، وأدم عنايتك على وعلى أهلى وإخوانى وأصحابى فى كل أحوالنا سفرا وحضرا وحلا وترحالا، واجمعنا ياإلهى فى حصون سترك وتحت كفنك، بفضل وإحسان المنعم المتفضل الولى الكريم الحنان الشافى المعافى، ياذا الفضل والطول والحول والعزة والجلال والإكرام. رب أتوسل إليك باضطرارى وفاقتى واحتياجى وعيلتى، وبجاه حبيبك المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن تجعلنى وأهلى وأولادى وإخوانى بأعينك الجميلة ممن سبقت لهم الحسنى، وأعزنا بك ياعزيز، وحصنا باتباع سنة حبيبك ﴿ ﷺ وآله﴾ والعمل بكتابك سبحانك، وامنحنا المزيد فى كل نفس من الإيمان واليقين حتى نكون ياإلهى من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وممن أكرمتهم بفضلك العظيم ياذا الفضل العظيم ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..آمين.

تطلب مؤلفات الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

من مكتبة دار الكتاب الصوفى
تليفون **3901030 022 002**

١١٤ش مجلس الشعب

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.
٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.
٣- الشفاء من مرض التفرقة.
٤- الجفر.
٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.
٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.
٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾.
٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج
٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار
٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان
٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.
٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.
٤- السياسى والحكيم والغشيم.
٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.
٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.
٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.
٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.
٣- معارج المقربين.
٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.
٥- من جوامع الكلم.
٦- الطريق إلى الله تعالى.
٧- الفرقة الناجية.
٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.
٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.
١٠- مصطلحات الصوفية
١١- آداب أل العزائم
١٢- دروس تزكية النفوس
١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.